مفتاح السعادة ومصباح السيادة
في موضوعات العلوم

تأليف

أحمد بن مصطفى

الشهير

بطاش كبرى زاده

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

مفتاح السعادة ومصباح السيادة

في موضوعات العلوم

تأليف

أحمد بن مصطفى

الشهير

بطاش كبري زاده

المجلد الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

بديع بيان[1] لا يحتذى مثالُه، ومنيعُ تبيان لا يحتظى[2] مَنَالُه. توشيح حبير الكتاب بطراز المحامد وأعلامها، وترشيح صدور الخطاب برايات المدائح وأعلامها. فلله الحمد في الآخرة والأولى، وله المثل الأعلى في فاتحة كل كتاب، وله الشكر على جزيل ما أولى من نعم يتبدى منها العجب العجاب. وأوثق عصام ماله انفصام، الاعتصام بالصلاة والسلام على رسوله محمد، جامع علوم الأولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ما سئل في العلوم عن المسائل، ووُشِّحَ بالمحامد صدور الكتب والرسائل.

أما بعد:

فهذه بَثٌّ لما وقر في صدرى من العلوم الفاخرة، وعين بعد أثر في تحصيل سعادة الآخرة، أمليتها بقلم يبدى العجاب، إذا سأل أو أجاب، ويُنْسَى حسَّانُ وسَحبانُ، إذا أبان في البيان، فجاءت بحمد الله بديع المثال في كل باب من التبيان منيع الشأن رفيع الجناب عند العلماء والأعيان. مخضت فيها حقائق العلوم عن درَرِها، ومحضت نصحى في استخراج دُرَرِها. وشربت من النهر صبابتها بعد أن عرفت مجاريها، وتعلمت الرمى من القوس وقد كنت باريها.

---

(١) البيان: الفصاحة وما تبين به الشيء ومنه يقال للكلام مطلقاً بياناً والكلام الواضح الدلالة على المراد. هـ.أ.

(٢) الحظوة: حصول المرام من حظيت المرأة إذا أخذت مرادها من الزواج. هـ.أ.

فهاكم أخواني، وعلى التقوى أخداني، مدينة علم على الباب، منيع الجناب، رفيع الأسوار، سحيق الأقطار؛ وجنة أشجارها مورقة، وأنهارها مونقة، وأكلها دائم في الليل والنهار، وظلها قائم في الهجير والأسحار، ونعيمها مقيم، ومزاجها من تسنيم. ودونك خزانة من فض ختامها، أطلع على نبأ يقين، وحق مبين، وسر مخزون، ودر مكنون، وليس وراءها مزيد لرائد، ولا دونها مرام لجاحد. ومنحتك منيحة: ان رَوَّيتَ فيها ترويك درها. وآثرتك أحاديث تقول حين تسمعها: لله درها. وقدمت اليك سفينة تعبر بها بحاراً بعيدة الأغوار، وتتخلصْ في قاموسها وتيارها من البوار. وَرحَّلتك مطية تصل بها إلى رياض، وتشرب هنيئاً لك مما فيها من الحياض، وتجتنى أطايب أثمارها، وتقف على عجائب أسمارها.

واياك ثم اياك، أن تظن ـــ وبعض الظن اثم ـــ أنك حصلت من هذا العلم قدراً لا مزيد عليه، حتى تنتصب لأن يرجع الكل اليك، فتقعد متكئاً على أريكة العُجْب، وتستلقي على كتفي الفراغ، وتمد على بساط الكسل رجليك، وتعد نفسك من جهابذة الفضلاء، وتحسب نفسك من دهماء العلماء، وتظن أنك أحرزت الفضائل بشطريها، وملكت الكمالات بقطريها، وفزت من مارية بقرطيها، وتقول: ها أنا برزت على لداتي، وتفرغت عن تكميل ذاتي، فيهب في دماغك أعاصير حب الرياسة، وتهتاج لتربية أشياعك إلى تقلد السياسة. فهيهات هيهات ما خطر ببالك، وهجس في خيالك. ان هذا طيش يوجب الحرْمان، بل همهمة الحسبان ووسوسة الشيطان. يتراءى منها مخايل الزور، ويتدسس فيها حبائل الغرور.

أين أنت من قول سيد الأنبياء، وسند الأصفياء:

«لا بورك لي في صبيحة لا أزداد فيها علماً»، مع أن ربه أدبه فأحسن تأديبه.

وقوله صلوات الله عليه وسلامه:

«من استوى يوماه فهو مغبون».

وإن أردت المزيد عليه في هذا الباب، فتأمل قول رب الأرباب:

﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلماً﴾[1].

وقوله عز وجل:

﴿... وَفَوقَ كُلِ ذي علمٍ عَليمٌ﴾[2].

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في الكتاب الكريم.

وإلى الله المشتكى من قوم وقعت بين أظهرهم اليوم، إذ غلب عليهم الجهل وطمهم، وأعماهم حسن الظن بأنفسهم وأصمهم. كلما هديتهم إلى العلم كان أصم وأعمى لهم، ويحسبون أنهم يحسنون أعمالهم. وما غرز في غريزتهم إلا العصبية والجدال، وما طبع نخيرتهم إلا على تنقيص أهل الكمال. والعالم بينهم موجوم تتلاعب به الصبيان، والكامل عندهم مذموم داخل في كفة النقصان. وأيم الله هذا الزمان قد افترض فيه السكوت، وأن تصير حلسا من أحلاس البيوت. ولولا ما ورد في صحيح الأخبار: «من علم علماً فكتمه الجم بلجام من النار»، لسددت فم الدواة وكسرت سن الأقلام، وانقطعت في زاو ية الى وقت الحمام بأمر الله الملك العلام. إلا أن القلوب بين أصبعين من أضابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء وكل يوم هو في شأن.

ثم انك ان أخطرت بالبال، أيها الطالب للفضل والكمال، أن الفنون كثيرة، وتحصيل كلها بل جلِّها يسيرة، مع أن مدة العمر قصيرة، وتحصيل آلات التحصيل عسيرة، فكيف الطريق إلى الخلاص عن هذا المضيق، فتأمل فيما قدمت اليك من العلوم اسماً، ورسماً، وموضوعاً ونفعاً، وفيما اخترعت من التفصيل، في طريق التحصيل؛ ومن آداب بها غرس التمني يثمر، وليل الترجي يقمر؛ بعد عفاء طلل العلم ودروسه، وأفول أقماره وشموسه. بحيث يقول الراؤون أعجب بما أوتي هذا من الإصابة، والتبرير على الذين مضوا من

---

(١) سورة طه، آية: ١١٤.

(٢) سورة يوسف، آية: ٧٦.

العصابة. فإن سهل عليك تحصيل تلك العلوم كلها فحبذا وقل: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾(١) كما قال أفلاطون: ما من علم مستقبح إلا والجهل به قبح، وكما قال القائل:

احرص على كل علم تبلغ الأملا ... ولا تموتن بعلم واحد كسلا
النحل لما رعت من كل فاكهة ... أبدت لنا الجوهرين الشمع والعسلا
الشمع في الليل ضوء يستضاء به ... والشهد يبرى باذن الباريء العللا

وان أعجلك الوقت وخشيت أن يخترمك الشواغل بالغوث، فخذ ما قال القائل:

ما حوى العلم جميعاً أحد ... لا ولو مارسه ألف سنة
انما العلم منيع غوره ... فخذوا من كل علم أحسنه

وإن اختلج في صدرك وقلبك، ودار في خلدك ولبك، أن الأغراض مختلفة في أمر العلوم، وتتفاوت في الميل اليها الطباع والفهوم، وتتباين في استحسانها العادات والرسوم، حتى يعد طائفة من قبيل الجنون تحصيل ما عند الآخرين من الفنون، إذ كل حزب بما لديهم فرحون، فمن أين نعرف الأفضل على الإطلاق، الذي حصل في حسنه الاطباق من علماء الآفاق؟ فنقول: الذي يثلج صدرك ببرد اليقين، وتعرف مطلوبك على التعيين، قول من قال بطريق الاجمال:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... الا الحديث وإلا الفقه في الدين
والعلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سواه فوسواس الشياطين

وقد قيل:

جميع العلم في القرآن لكن ... تقاصر عنه افهام الرجال

وبالجملة: العلوم التي يتوسل بها الى السعادة الأبدية في دار السلام، في جوار القدس عند الملك العلام، ما سأل جبريل عن النبي عليهما الصلاة

---

(١) سورة الأعراف، آية ٤٣.

والسلام، وأشار بالسؤال عن الإيمان إلى أصول الدين، المسمى «بالكلام»، بشرط أن لا يتبع الباحث على الأهواء والأوهام، بل يبحث على قواعد عقائد الإسلام. وعن الإسلام، إلى علم الفقه، الباحث عن الحلال والحرام، وعن الإحسان إلى علم التصوف، الذي هو ثمرة الإيمان ونتيجة الإسلام وأما التفسير والحديث، فداخلان فيما ذكر، كما ستعرفه ان شاء الله الملك العلام. وإذا انتهى الكلام إلى هذا المقام، فلا علينا أن نوجه عنان الاقلام إلى صوب الشروع في المرام. وبالله التوفيق والاعلام.

وسميت الرسالة: بـ **(مفتاح السعادة ومصباح السيادة).** وقدمت أمام المقصود عدة مقدمات، هي مفتاح الميامن والبركات، ثم أتبعها في ضمن الطرفين بعدة دوحات، فيها ثمرات طيبات.

والمرجو من فضل الله تعالى، أن يجعل سعيي مشكوراً، وصنيعي مبروراً، ويجعلني غداً بأعمالي مسروراً، أنه الجواد الكريم والبر الرؤوف الرحيم.



المقدمة الأولى

في بيان فضيلة العلم والتعلم والتعليم

بالآيات، والأخبار، والآثار، ودلائل يرتضيها العقل السليم.

واكتفيت من كل منها بالقليل، إذ العبرة بقوة الأدلة لا بكثرتها.

فضيلة العلم:

أما الكتاب ــ فقوله تعالى: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ الهَ الا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وأولُو العِلمِ...﴾[1].

فانظر كيف بدأ بنفسه سبحانه، وثنّى بملائكته، وثلّث بأهل العلم. وقال تعالى:

﴿يَرفَعِ الله الذين آمنوا مِنكُم والذين أوتُوا العِلمَ دَرَجاتٍ.﴾[2]. قال ابن عباس: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين خمسمائة عام.

وقال تعالى: ﴿قُل هَل يَستَوِي الذين يَعْلَمُونَ وَالذين لاَ يَعْلَمُونَ...﴾[3] أو لم يكف بالعلم وأهليه الشرف الأصيل، والمجد الأثيل، أمثال هذه الآيات الواردة في التنزيل.

ومن كان حق له مادحا فحق على الناس أن يمدحوه

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١١.

(٣) سورة الزمر، آية: ٩.

أما الأخبار ــ فقوله، صلى الله عليه وآله وسلم: « العلماء ورثة الأنبياء »، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال صلى الله عليه وسلم: « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد؛ أما أهل العلم: فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد: فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل ». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء ». وقال، صلى الله عليه وآله وسلم: « يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء ». فأعظم برتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة. وقال، صلى الله عليه وآله وسلم: « يبعث الله تعالى العباد يوم القيامة، ثم يبعث العلماء، ثم يقول: يا معشر العلماء، اني لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم، ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم ». وقال صلى الله عليه وسلم: « من طلب العلم لغير الله، لم يخرج من الدنيا حتى يأبى عليه العلم فيكون لله؛ ومن طلب العلم لله، فهو كالصائم نهاره، والقائم ليله؛ وان باباً من العلم يتعلمه الرجل، خير له من أن يكون أبو قُبَيْس ذهبا له فأنفقه في سبيل الله ».

وأما الآثار ــ فقول علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه: العلم أفضل من المال بسبعة أوجه:

العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة.

العلم لا ينقص بالنفقة، والمال ينقص بها.

المال يحتاج إلى الحافظ، والعلم يحفظ صاحبه.

إذا مات الرجل خلف ماله، والعلم يدخل معه قبره.

المال يحصل للمؤمن والكافر، والعلم لا يحصل إلا للمؤمن.

جميع الناس محتاجون إلى العالم في أمر دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال.

العلم يقوي الرجل عند المرور على الصراط والمال يمنعه منه.

وقال حكيم: القلب ميت، وحياته بالعلم؛ والعلم ميت، وحياته الطلب؛ والطلب ضعيف، وقوته بالمدارسة، ومحتجب بعد المدارسة وإظهاره بالمناظرة، وإذا ظهر بالمناظرة، فهو عقيم، ونتاجه بالعمل. فإذا زوج العلم بالعمل، توالد وتناسل ملكاً أبدياً لا آخر له.

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم. الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

وقال ابن عباس: خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام، بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطى المال والملك معه.

وقال أيضاً: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليَّ من احيائها.

وكذا روي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، وأحمد بن حنبل.

قال الشافعي رحمه الله: من شرف العلم، أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن دفع عنه حزن.

قال الأحنف: كاد العلماء أن يكونوا أربابا، وكل عز لم يوجد بعلم فإلى ذل مصيره.

وقال علي، رضي الله عنه: العالم أفضل من الصائم القائم المساجد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثَلْمةً لا يسدها إلا خلف منه.

وقال بعض الحكماء: إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء. والطير في الهواء، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره.

فضيلة التعلم:

أما الكتاب ـ فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ من كل فِرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

وأما الأخبار ــ فقوله صلى الله عليه وسلم: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة».

وقال صلى الله عليه وسلم: ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع».

وقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

وقال: «أطلبوا العلم ولو بالصين».

وقال: «من جاءه ملك الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام، فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة».

وأما الآثار ــ فقد قال ابن عباس، رضي الله عنهما: ذللت طالبا مطلوباً.

وقال أبو الدرداء، رضى الله عنه: لأن أتعلم مسألة أحب إليّ من قيام ليلة، وقال أيضاً: العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير فيهم.

وقال أيضاً: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك.

قال الشافعي رحمه الله: طلب العلم أفضل من النافلة.

وقال ابن عبد الحكيم: كنت عند مالك، أقرأ عليه العلم، فدخل وقت الظهر، فجمعت الكتب لأصلي، فقال: يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية.

فضيلة التعليم:

أما الكتاب ــ فقوله تعالى: ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُم إِذَا رَجِعُوا إِلَيْهِم ﴾[1] والمراد هو التعليم.

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه﴾[1]. وهو ايجاب للتعليم.

وقال: ﴿أدْعُ إلى سَبِيلِ ربك بالحكمة﴾[2].

وأما الأخبار ــ فقد قال النبي، صلى الله عليه وسلم، لما بعث معاذاً إلى اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها».

وقال صلى الله عليه وسلم: «من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطي ثواب سبعين صِدّيقاً».

وقال عيسى عليه السلام: «من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضى بها و يعلمها».

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فرأى مجلسين: أحدهما يدعون الله عز وجل و يرغبون اليه، والثاني يعلمون الناس؛ فقال: أما هؤلاء فيسألون الله عز وجل، ان شاء أعطاهم وان شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس، وانما بعثت معلماً. ثم عدل إليهم وجلس معهم.

وأما الآثار ــ فقول عمر رضي الله عنه: من حدث بحديث فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل.

وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

وقد روى أن سفيان الثوري، قدم عسقلان فمكث أياماً لا يسأله انسان، فقال: اكتروا لي، هذا بلد يموت فيه العلم.

وقال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: ليس أحد يسألني عن شيء، وإنما قالا ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به.

وأعلم أن فضل العلم مما نطق به الكتب السابقة من كتب الله.

أما التوراة — فقال جل وعلا فيها لموسى عليه السلام: «عظم الحكمة فإني لا أجعل الحكمة في قلب عبد إلا وأردت أن أغفر له، فتعمها ثم أعمل بها، ثم أبذلها كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والأخرى».

وأما الزبور — فقال سبحانه: «قل لأحبار بني اسرائيل ورهبانهم حادثوا من الناس الأتقياء، فإن لم تجدوا فيهم تقياً فحادثوا العلماء، فإن لم تجدوا عالماً فحادثوا العقلاء، فإن التقى والعلم والعقل ثلاث مراتب ما جعلت واحدة منهن في واحد وأنا أريد هلاكه».

واعلم أن العقل كالبذر، والعلم كالشجر، والتقى كالثمر، ولذلك قدم الله سبحانه التقى على العلم، والعلم على العقل.

وأما الانجيل — فقد قال عز من قائل، في السورة السابعة عشرة منه:

«ويل لمن سمع العلم فلم يطلبه كيف يحشر مع الجهال إلى النار. اطلبوا العلم وتعلموه فإن العلم ان لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم لم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضركم. ولا تقولوا نخاف أن نعلم فلا نعمل، ولكن قولوا نرجو أن نعلم فنعمل، إذ العلم يشفع لصاحبه، وحق على الله أن لا يخزيه وأن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا معشر العلماء، ما ظنكم بربكم؟ فيقولون: ظننا أن ترحمنا وتغفر لنا؛ فيقول: اني قد استودعتكم حكمتي لا لشر أردته بكم، بل لخير أردته بكم، فادخلوا في صالحي عبادي إلى جنتي برحمتي».

ثم انك إذا عرفت من الأدلة النقلية قدراً يحصل به التنبيه على المرام، فلنورد من الأدلة العقلية، ما يحصل لك اليقين التام.

وأعلم أن شرف الشيء وفضيلته أما لذاته أو لغيره، والعلم جائز لكلا الشرفين، وجامع لكلتا الفضيلتين، لأنه لذيذ في نفسه فيطلب لذاته ولغيره،. فيطلب لأجله من وجوه:

أما (الأول): فلا يخفى على أحد من مزاوليه، لأنها لذة لا نهاية لها ولا لذة فوقها؛ وكان محمد بن الحسن، يقول عندما تنحل له مشكلات العلوم: أين أبناء الملوك من هذه اللذة، سيا إذا كانت الفكرة في ملكوت السموات والأرضين وفي أسرار رب العالمين.

وأيضاً: أن شرف العلم لا يقبل العزل، كعزل الولاة والأمراء وسائر أرباب المناصب الدنيوية، ومع دوامها لا مزاحمة فيها لأحد، لأن المعلومات متسعة لطلاب وان كثروا، بل تزيد بكثرة الشركاء، بخلاف حطام الدنيا وجاهها، ولهذا يكثر فيها البغضاء، ويعظم في تحصيلها الشحناء، ومع كونها أو في اللذات وأدومها وأشملها وأعمها، لا ترى أحداً من الولاة والأمراء وسائر أبناء الدنيا لا يتمنون أن يكون عزهم كعز العلماء، إلا أن الموانع الشهوانية تمنع عن نيلها. هذه هي اللذائذ الحاصلة في نفس العلم.

وأما اللذائذ الحاصلة له لغيره:

أما في الأخرى: فلكونه وسيلة تارة إلى أعظم اللذائذ الأخروية، وأخرى إلى أكمل السعادات الأبدية. أما الأول: فلذة الوصول إلى جوار رب العالمين، والبلوغ إلى مرضاته التي هي المقصد والسعادة الكبرى، ولذة النظر إلى وجهه الكريم التي هي غاية الغايات ومنتهى جميع السعادات.

وأما (الثاني): فلأن العلم لا أقل من أن يكون سبباً للوصول إلى الأفق المبين، ولحوق زمرة الملأ الأعلى في جوار رب العالمين. ولا يخفى أنه لا بلوغ إلى شيء منها إلا بالعمل المتوقف على العلم، فهو رأس السعادات ورئيسها.

وأما المنافع الدنيوية: فالعز والوقار، ونفوذ الحكم على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع، ولو أبتلي بداء الحسد والعناد؛ ألا ترى أن بعض الجهلة المعاندين قالوا، عند رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تنبيك عن خبر

وأيضاً، ترى أغبياء الترك، وأجلاف العرب، يصادفون طباع أنفسهم مجبولة على التوقير لشيوخهم، لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة، بل البهيمة تجدها توقر الإنسان بطبعها، لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها، حتى أنها تحتشمه وتنزجر بزجره، وإن كانت قوتها أضعاف قوة الإنسان، وما ذاك إلا لاختصاصه بالعلم.

المقدمة الثانية

في شرائط المتعلم ووظائفه

وهي كثيرة.

قال زيتون: سمعت أرسطو طاليس يقول: سمعت معلمي أفلاطون يقول: سمعت معلمي سقراط يقول: ينبغي لمن يتعلم الحكمة أن يكون شاباً فارغ القلب، غير ملتفت إلى الدنيا، صحيح المزاج، محباً للعلم، حيث لا يختار على العلم شيئاً من الأشياء؛ و يكون صدوقاً لا يتكلم بغير الصدق؛ و يكون محباً للإنصاف بالطبع لا لتكلف؛ و يكون متديناً أميناً عالماً بالوظائف الشرعية والأعمال الدينية، غير مخل بواجب فيها، ويحرم على نفسه ما يحرم في ملة نبيه، و يوافق الجمهور في الرسوم والعادات المستعملة عند أهل اليونان؛ ولا يكون قط سيء الخلق، و يرحم على من دونه في المرتبة؛ ولا يكون أكولاً ولا متهتكاً ولا خاشعاً من الموت، ولا جامعاً للمال إلا بقدر الحاجة، فإن الاشتغال بطلب أسباب المعيشة مانع عن التعلم.

وأعلم أنا نكتفي من الشرائط بعشرة. ونفصلها ههنا في ضمن عشر وظائف:

الوظيفة الأولى: تزكية النفس عن رذائل الأخلاق:

وهذه متقدمة على الكل، تقدم طهارة الجوارح على عبادة البدن: أعني الصلاة، إذ العلم عبادة القلب، وجوارحها أوصافها وأخلاقها. فلا بد من تطهيرها قبل الشروع في العلم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب». فكما أن الملائكة لا تدخل البيوت المحسوسة إذا وجد فيها الكلاب الصورية، كذلك لا تدخل البيوت المعنوية: أعني القلوب، إذا

وجد فيها الكلاب الباطنية: أعني خبائث الأخلاق وأنجاس الصفات. حكي عن بعض الأمم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم أولاً، فإن وجدوا فيه خلقاً ردياً منعوه التعليم أشد المنع، وكانوا يعتذرون عنه بأن العلم يصير آلة يستعين بها في الفساد؛ وان وجدوه مهذب الأخلاق قيدوه في «دار التعليم» وعلموه، ولا يطلقونه قبل الاستكمال خيفة من أن يقصر في العلم، فيفسد به دينه ودين غيره.

و يروى عن بعض الحكماء أنه قال: لا تعلموا أولاد السفلة، فإن هم نالوا الشرف حرصوا على مذلة الأحرار، والسبب فيه غلبة سوء الخلق في أولاد السفلة. وأما ما تراه عالماً سيء الأخلاق فذلك عالم باللسان دون القلب، وعالم باصطلاح هذا الزمان دون السلف، إذ لو ظهر نور العلم على قلبه لحسنت أخلاقه، فإن أقل درجات العالم، أن يعرف أن المعاصي ورذائل الأخلاق سموم مهلكة، وهل تطيب نفس عاقل يتناول السم؟ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «من ازداد علماً ولم يزدد من الله هدى لم يزدد من الله إلا بعداً»؛ وقال بعض المحققين: معنى قولهم، تعلمنا العلم لغير الله، فأبى العلم أن يكون إلا لله، أن العلم امتنع وأبى أن يحصل إلى أن يحصل النية لله تعالى، وما حصل قبلها كان حديثاً يفترى، وانما الصيد في جوف الفرا.

الوظيفة الثانية: تحصيل الاخلاص في مقاساة هذا الملك الوعر، وقطع الطمع عن قبول زيد وعمرو. ولكل امرىء ما نواه، لا ما جمعه في صدره وحواه، على وفق عجبه وهواه. أما قرع سمعك أن بعضاً من العلماء، لما سمع قول حبيب رب العالمين: «من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً، فجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، وفعل ذلك طمعاً في الحكمة فلم يحظ منها بطائل، رأى في المنام هاتفاً يقول: انك ما أخلصت لله بل للحكمة. والأعمال بالنيات وانما لكل أمرىء ما نوى. فينبغي أن ينوي في التعلم، أن يعمل بعلمه لله تعالى واليوم الآخر، وأن يعلم الجاهل، و يوقظ الغافل، و يرشد الغوي، و يؤيد من ليس بقوي، فإن التعلم لغير الله حرام باطل، وطلب العلم لا للعمل به ضائع، وفي الحديث: «علم لا ينتفع به ككنز لا ينفق منه».

ونفع العلم: حسن الإهتداء في العبادة. فمن لم يَزدد بالعلم ورعاً وزهداً لم يزدد من الله إلا مقتاً وبعداً. وقد كان صلى الله عليه وسلم، يتعوذ بالله تعالى من علم لا ينفع. وكان يقول: «العلم علمان: علم في القلب، فذلك العلم النافع؛ وعلم على اللسان، فذلك حجة الله تعالى على بني آدم». وقال «أشد الناس عذاباً من لم ينفعه الله بعلمه». ومن لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب. كما يزل القطر عن الصفا. قال بعض العلماء الصالحين: الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب. أقول: ولقد جربته كثيراً ووجدته كما قال. وقال صلى الله عليه وسلم: «من تعلم العلم لأربع دخل النار: ليباهي به العلماء، وليماري به السفهاء، ويقبل به وجوه الناس إليه، وليأخذ به الأموال».

ومن جملة التسويلات الشيطانية: أن يؤخر العمل إلى أن يتمهر ويتمهر في العلم، وهذا من جملة خداع النفس، إذ ربما يفاجئه الموت ويخترمه الأجل قبل القيام بحق العمل، فيصير إلى النار مع الفساق والفجار.نبهنا الله تعالى وإياكم هذه الغفلة.

الوظيفة الثالثة: تقليل العلائق الدنيوية حتى الأهل والأولاد والوطن فإن العلائق صارفة وشاغلة للقلوب. وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه. ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق وفهم الدقائق. وقد قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت على خطر من الوصول إلى بعضه؛ وأيضاً: الفكرة المتوزعة كجدول تفرق ماؤه فيختطف الهوى وينشف الأرض فلا يبقى منه ما يبلغ المزرعة.

الوظيفة الرابعة: ترك الكسل والتشمر لنيل المعالي. وإيثار السهر في الليالي. وقد قيل: ما اشتار العسل من اختار الكسل. فعليك بجزم العزم وتطلب الحزم. ومن جملة أسباب الكسل: الاعتماد على الاستقبال، فإن ذلك ربما يخترم الآمال، ويمنع الأشغال. ومن المقرر لدى العامة والخاصة، أن فوت الفرصة مما يورث الغصة.

قال الشاعر:

إذا هجع النوام اسبلت عبرتي	وأنشدت بيتاً فهو من أحسن الشعر
أليس من الخسران أن لياليا	تمر بلا شيء وتحسب من عمر
إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً	ندمت على التفريط في زمن البذر

ومن جملة أسباب الكسل في اكتساب العلم: تذكر الموت والخوف منه. فاعلم أن تذكره ينبغي أن يكون من جملة أسباب التحصيل، اذ لا عمل يحصل به الاستعداد للموت، أفضل من العلم والعمل به. وجعله سبب الكسل: أما من عدم الوقوف على فضل العلم، أو من جعله سبباً للأمور الدنيوية المنقطعة بالموت.

وأما الخوف من الموت، فلا ينبغي أن يتسلط على الإنسان، بحيث يشغله عن الاستعداد للأمور الأخروية. وقوله صلى الله عليه وسلم: «أكثروا ذكر هادم اللذات»، يدل على أنه ينبغي أن يكون ذكره سبباً للانقطاع عن اللذات الفانية دون الباقية. وطريق نفي الخوف عن الموت أنه: أما لأجل مفارقة الدنيا، وذلك حمق وخرق، وأما لما بعد الموت، وذلك غير مفيد إلا أن يتداركه، وتداركه الاستعداد له في الحال ولا نفع لمجرد الغم لذلك، بل اللائق أن يبقى ساكن القلب، منتظراً لقضاء الله وقدره، ويتحقق أن ما قدر فهو كائن، ويتذكر قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفسكم إلا في كتابٍ من قَبل أن نبرأها﴾[1] الآية.

ثم ان الغم لأجل الموت، أما لفوت شهوة بطنه وفرجه، وأما على ما يخلفه من ماله، وأما على جهله بحاله بعد الموت ومآله، وأما على ما قدمه من عصيانه. (أما الأول): فجهل، لأن لذة الطعام، دفع ألم الجوع، ولذة الجماع: دفع ألم دغدغة المني لأوعيته. وطلب هاتين اللذتين كارادة داء ليلتذ بدوائه. والإكثار من القعود في الحمام ليلتذ بشرب ماء بارد.

(وأما الثاني): فمن جهله بخساسة المال وحقارة الدنيا، بالإضافة إلى النعيم

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٢.

المقيم الموعود للمتقين. على أنك أن لم تترك المال فهو يتركك قطعاً، كما قيل:

تناضله الآفات من كل جانب　　فتخطئه طوراً وطوراً تصيبه

وعليك أن تعرف أن الدنيا جمة المصائب، وكدرة المشارب. تورث للبرية أنواع البلية مع كل لقمة غصة. فإن تأملت لماض فذلك لا يلم ما شعث، ولا يرم ما انتكث؛ وإن كان لحاضر فذلك بقضاء الله وقدره، ومع ذلك فنقض؛ وإن كان لمستقبل، فإن كان مما يحتمل وقوعه فذلك حمق، إذ الحزن الحاضر لأمر محتمل الوقوع خارج عن طور العقل، وإن كان محقق الوقوع كالموت فستعرف حاله. قال تعالى: ﴿لكيْلا تأسوْا على ما فاتكم ولا تَفرحوا بما آتاكم﴾[1]. قيل: هذه الآية جامعة لأصول الزهد بتمامها.

(وأما الثالث): فعليه أن يطلب علماً يكشف حاله بعد الموت، كما قال حارثة للنبي، صلى الله عليه وسلم: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً. وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعاوون فيها.

وهذا العلم انما يحصل بمعرفة حقيقة النفس، وكيفية علاقتها بالبدن، ووجه خاصيته التي خلق البدن لها، ووجه التذاذه بخاصيته وكماله، مع معرفة الرذائل المانعة له من كماله. وقد نبه الشرع عليه في مواضع كثيرة، وأمر بالتفكر في النفس، كما أمر بالتفكر في ملكوت السموات والأرض.

(وأما الرابع): فلا ينفع الغم فيه، بل المداواة المبادرة بالتوبة، وإصلاح ما فرط من أمره كمن انفجر عرقه وهو يغتم له ولا يعصبه. وأيضاً الفائت لا يتدارك فليشتغل بالمستقبل.

وأما حال الإنسان عند الموت، فثلاثة:

الأول ــ ذو بصيرة.

يعلم أن الحياة رق، والموت عتق، وأن الدنيا كخطفة برق، وإن طال مكثه فيها. فهذا لا يغتم لموته إلا لما يفوت من خدمة ربه، والازدياد من قربه،

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٣.

فإذا عجز عن خدمة ربه، ربما اشتاق إلى الموت. قيل لبعضهم عند موته: لم تجزع؟ قال: لأني أسلك طريقاً لم أعهده، وأقدم على رب لم أره، ولا أدري ما أقول ولا ما يقال لي.

والثاني ــ ردي البصيرة.

رضي بالحياة الدنيا، واطمأن بها، ويئس من دار الآخرة، كما يئس الكفار من أصحاب القبور. فإذا خرج إلى دار الخلود أضر به كما يضر رياح الورد بالجُعْل. فالدنيا سجن الأول وجنة الثاني، وشتان ما بينهما. والأول كعبد دعاه مولاه للإحسان، والثاني كعبد آبق رد إلى مولاه مأسوراً مقهوراً ناكس الرأس مخزياً من جنايته.

والثالث ــ رتبة بين الرتبتين.

رجل عرف غوايل الدنيا وكره صحبتها، ولكن أنس به وألفه فيكره الخروج منه، فإذا خرج ورأى ما أعد للصالحين، وقال: ﴿وقالوا الحَمدُ لله الذي أذهَبَ عنَّا الحَزَنَ ان ربَّنا لَغَفوٌ شكورٌ. الذي أحَلّنَا دار المقامة من فضله لا يَمسنا فيها نصبٌ ولا يمسنا فيها لغوبٌ﴾[1]. وذلك كالصبي يبكي للإنتقال عن رحم الأم ثم إذا أنس فضاء العالم لا يتمنى الإنتقال إليها. وقد ثبت عند المحققين أن الموت ولادة ثانية و وأن فضاء الدنيا بالنسبة إلى عالم الآخرة نسبة الرحم إلى الدنيا. كما قال بعضهم: ينبغي أن يكون شكرنا «لعزرائيل» كشكرنا «لجبرائيل» و «ميكائيل» عليهم السلام. كما ورد في الدعاء: اللهم صل على «محمد» و «جبرائيل» و «ميكائيل» وملك الموت. فإن جبرائيل وميكائيل سببان لسبيل الخلاص في الآخرة بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم، وعزرائيل سبب لإخراجنا إلى ذلك العالم فحقه عظيم وشكره لازم. وقد حكي عن طائفة من حكماء الأمم السالفة تعظيم «رجل» بالتقديس والتسبيح، لأنهم اعتقدوا أنه لا يعين على الحياة العرضية، بل هو سيف الهلاك الذي به الخلاص عن الدنيا الدنية.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٣٤، ٣٥.

الوظيفة الخامسة: أن توطن نفسك على التعلم إلى آخر العمر، لما قيل: الطلب من المهد إلى اللحد.

ومن كلام الامام الشافعي: صناعتنا هذه رق الأبد فمن قصد أن يتركها ساعة فليترك الساعة.

وقيل: من ظن أن للعلم غاية، فقد بخسه حقه. أما سمعت قوله تعالى «لحبيبه» وهو أعرف العارفين بالله وصفاته وأحكامه: ﴿وقل رب زدني علماً﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كل ذي علم عليم﴾[2].

وسئل عبد الله بن المبارك: إلى متى تتعلم؟

قال: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد.

روى أن حسن بن زياد أخذ في التفقه وهو ابن ثمانين سنة، ولم يبت على الفراش أربعين سنة، فأفتى بعد ذلك أربعين سنة.

والحيلة في صرف جميع الأوقات إلى التحصيل أنه إذا مل من علم، اشتغل بآخر، كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما، إذا مل من الكلام مع المتعلمين: هاتوا ديوان الشعراء.

وكان محمد بن الحسن لا ينام الليل، وكان يضع عنده دفاتر، وكان إذا مل من نوع ينظر في آخر، وكان يزيل نومه بالماء، وكان يقول: ان النوم من الحرارة. فعليك أن تغتنم من أزمان العمر أيام الحداثة وعنفوان الشباب، ومن الأوقات ما بين العشائين وأوقات السحر، وأصل الكل ملازمة السهر. وقد قال موسى صلوات الله عليه وسلامه: ﴿لقد لَقِينا من سَفَرِنا هذا نَصباً﴾[3] ليعلم أن سفر العلم لا يخلو عن النصب، ولا بد من اختياره، لأن طلب العلم أمر عظيم، بل هو أفضل من الجهاد عند الأكثرين، وأن موسى عليه السلام مع كونه نبياً اختار هذا النصب في طلب العلم. وينبغي أن لا يضيق صدرك ممن ينكر قدرك لما قال أفلاطون: لا يضرن جهل غيرك بك علمك بنفسك.

---

(١) سورة طه، آية: ١١٤.
(٢) سورة يوسف، آية: ٧٦.
(٣) سورة الكهف، آية: ٦٢.

الوظيفة السادسة: أن تختار من المعلم من هو ناصح، نقي الحسب مأمون الغيبة عدل في الدين، كريم العرق، كبير السن، لا يخالط السلطان ولا يلابس الدنيا بحيث يشغله عن دينه. و يسافر في طلب الأستاذ إلى أقصى البلاد الشاسعة كما طلب موسى خضر عليهما السلام «بمجمع البحرين» ولو مسح الأرض كلها بقدمه وضرب آباط الأبل في طلبه لكان أحق وأولى.

قال محمد بن سلمة: أول ما يذكر من المرء أستاذه، فإن كان جليلاً جل قدره، وإنما خفض ذكر محمد بن مقاتل عند أهل العراق، لأنه لم يعرف له أستاذ جليل القدر.

وإذا وجد مثل ما وصفناه فعليه: أن لا يتكبر على العلم، ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي إليه بزمام أمره في تفصيل طريق التعليم، و يذعن لنصحه اذعان المريض للطبيب. أما التكبر على العلم بأن يستنكف من استفادته ممن يعرفه، وهو عين الحمق، بل الحكمة ضالة كل حكيم، فحيث يجدها فهو أحق بها، فينبغي أن يغتنمها و يستفيدها و يتقلد بها المنة.

فالعلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

فلا بد من التواضع.

ولذلك قال تعالى: ﴿ انَّ في ذلك لَذِكرى لمن كان له قَلبٌ أو ألقى السَمْعَ وهو شهيدٌ ﴾(١)، أي يكون مشتغلاً بالعلم، وهو المراد بمن له قلب، أو كان فيه من العقل ما يحمد على القاء السمع وحسن الإصغاء والضراعة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً». قال الشاعر:

ان المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه واصبر لجهلك ان هجرت معلما

و ينبغي أن يكون المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً، فيلقاه بالقبول من غير دفع. وليكن المتعلم متبعاً لمعلمه، وان ظن أن الصواب في

---

(١) سورة ق، آية: ٣٧.

خلافه، فإن سالك الطرق قد يظن من يهديه أنه قد أخطأ ثم يظهر أن الصواب عنده، ألا يرى أن موسى عليه السلام لم يصبر وراجع الخضر عليه السلام حتى حرم عن صحبته: ﴿قال هذا فِراقٌ بيني وبَينِك﴾[1].

وأيضاً: فليحترز المتعلم عن أن يتكل على ذهنه فيقعد ملوماً محسوراً. لما قيل: العلم في الصدور لا في السطور. وعن علي، رضى الله عنه: العلم قفل ومفتاحه السؤال.

ومن الآداب: أن يتواضع لمن علمه حرفاً، ويتملق له ويخدمه وينصره ويدعو له سراً وجهراً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من علم عبداً آية من كتاب الله تعالى فهو مولاه». ولا ينبغي أن يخذله ولا يستأثر عليه أحداً، فإن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الإسلام.

قلت: ومن جملة أسباب انقراض العلم في زماننا: عدم تحرزهم عن مراعاة حق العلم، ولقد صار هذا سنة سيئة في زماننا هذا. أمات الله تعالى هذه السنة من بين أظهرنا وقاتل من وضعها وأحياها. قيل: من تأذى منه أستاذه يحرم بركة العلم ولا ينتفع به إلا قليلاً.

ومن احترام المعلم واجلاله: أن لا يقرع عليه باب داره بل ينتظر خروجه، كما قال تعالى: ﴿ولو أنهم صبَروا حتى تَخرُجَ إليهم لكان خيراً لهم﴾[2]؛ ولا يخالفه فيما يأمره من مباح الدين، ويتحرى مسرته في ذلك كله. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخول الصحابة في الموعظة كراهة السآمة عليهم. فإذا كان التخول في التعليم أحب، ففي التعلم أولى.

وينبغي أن يقدم حق المعلم على حق أبويه وسائر المسلمين. حكي أن الشيخ الإمام شمس الأئمة الحلواني قد كان خرج من «بخارى» وقد زارته تلامذته إلا الشيخ الإمام أبا بكر الزرنجري، فقال له: لم لم تزرني؟ قال: منعتني عنها خدمة الوالدة قال: ترزق العمر ولا ترزق رونق الدرس. وكان كذلك. فإنه كان يسكن في أكثر أوقاته في القرى. قال الشاعر:

---

(١) سورة الكهف، آية: ٧٨.
(٢) سورة الحجرات، آية: ٥.

شعر

آباء أجسامنا الذين مضوا   قد أوقعونا هم في موقع التلف
من علم القرآن كان خير أب   وذاك أب الروح لا أب النطف

وقال آخر:

شعر

رأيت أحق الحق حق المعلم   وأوجبه حفظاً على كل مسلم
لقد حق أن يهدى إليه كرامة   لتعليم حرف واحد ألف درهم

وأيضاً: لا يتبع زلة المعلم وهفونه، ويحمل ما سمع منه من الهفوات على أحسن المحامل والتأويلات. قال بعض المشايخ: من توقير المعلم أن لا تمشي أمامه، ولا تجلس مكانه، ولا تبتدىء الكلام عنده إلا باذنه، ولا تكثر الكلام عنده، ولا تسأل شيئاً عند ملالته، وتراعي الوقت، وتمتثل أمره في غير معصية الله إذ لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

ومن توقيره: توقير أولاده ومن يتعلق به. وللسلف في توقير المعلم أمور لا يكاد يخطر فعله ببال أحد في زماننا هذا:

يروى: أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي الفيروز ابادي، صاحب (المهذب) و (التنبيه) لما صار سفيراً للمقتدر بأمر الله في خطبة ابنة الملك جلال الدولة، فسافر إلى نيسابور، ناظر هناك امام الحرمين، وأراد الإنصراف من نيسابور فخرج أمام الحرمين إلى وداعه وأخذ بركابه حتى ركب أبو إسحاق بغلته. وظهر له في خراسان منزلة عظيمة. وكان الناس من المتعلمين ومن دونهم يأخذون التراب من أثر مواطىء بغلته فيتبركون به. وكان رحمه الله إماماً عالماً ورعاً زاهداً عابداً. وكانت (وفاته) سنة ست وسبعين وأربعمائة. وستجيء ترجمته في طبقات الفقهاء ان شاء الله تعالى.

ويروى أيضاً: أن إمام الحرمين لما توفي، غلقت الأسواق يوم موته، وكسر منبره بالجامع، وكانت تلامذته قريباً من أربعمائة نفر، فكسروا محابرهم وأقلامهم وأقاموا على ذلك عاماً كاملاً. وكانت (وفاته) سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ويروى أيضاً: أن الإمام أبا حنيفة، رحمه الله، كان له جار اسكافي كان

بالنهار في صناعته. وإذا كان بالليل وتعشى، جلس يستعمل الشراب. فإذا دب فيه الشراب يغني و يقول:

أضـاعـوني وأي فتى أضـاعـوا ... لـيـوم كـريـهـة وسـداد ثـغـر

ولا يزال يشرب، و يردد هذا البيت حتى يأخذه النوم، والإمام أبو حنيفة يسمعه كل ليلة. وكان الإمام أبو حنيفة يصلي الليل كله. ثم أنه فقد صوت جاره ليالي فسأل عنه، فقيل له: قبضه أصحاب العسس منذ ليال. فلما صلى الإمام أبو حنيفة رحمه الله صلاة الفجر من غده ركب بغلته وأتى دار الأمير، فاستأذن عليه فقال: ائذنوا له وأقبلوا به إليّ راكباً ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط. ففعل به ذلك، فتلقاه الأمير وأجلسه في مجلسه، وقال: هل من حاجة؟ فقال: نعم. جئت لأشفع في جاري، فقال الأمير: أطلقوه وأطلقوا كل من أخذ في تلك الليلة، فأطلقوهم. ثم ركب الإمام أبو حنيفة بغلته وخرج الإسكافي يمشي وراءه، فقال له الإمام أبو حنيفة رحمه الله: هل أضعناك؟ فقال: بل حفظت ورعيت، فجزاك الله خيراً عن حرمة الجوار. ثم تاب إلى الله تعالى ولم يعد إلى ما كان يفعل. قيل: أنه صار بعد ذلك من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله في الفقه.

وإذا عرفت هذه الكنايات والروايات، وكيف كان توقير العلماء في الزمان الأول، فأنصف من نفسك يا أخي. هل بقي من توقير العلم والعلماء شيء أصلاً؟

فإن اعترضت، وقلت: لم يبق مثل هؤلاء الأعلام في هذه الأيام، فلا يليق بهم التوقير، فنقول: أما قولك، لم يبق مثل هؤلاء العلماء، فسلم، وأما قولك لا يليق بهم التوقير، فما يحق عليه الكير، لأن التوقير لأجل العلم، فلا تقصر أنت في حقهم أن كنت تحب العلم، وعدم كونهم أمثال هؤلاء، ليس عليك، بل العهدة في ذلك عليهم. و بالجملة: حب العلم يوجب توقير كل من انتسب إليه، وإلا فلست من المحبين له.

ومن تعظيم العلم: تعظيم الكتاب، حتى لا يأخذه إلا بالطهارة، ولا يمد

الرجل إليه، ولا يضع عليه شيئاً، و يضع كتب التفسير فوق الكل. وتأمل ما قاله ابن سريج في (مختصر المزني) حيث قال:

لضُيق فؤادي منذ عشرين حجة وصيقل ذهني والمفرج عن غمي
عـزيـز على مثلي اعـارة مثـلـه لما فيه من علم لطيف ومن نظم
جموع لأصـنـاف العـلوم بأسرها فـأخـلـق بـه ان لا يفارقه كمي

وقيل:

لا يمـل الحـديـث منها معـاداً كـانـتـشـاق الهـواء لـيـس بمـاء

وقيل:

هـذا كـتـاب لـو يـبـاع بـوزنـه ذهـبـا لـكـان الـبـايـع المـغـبـونا
أو مـا مـن الخـسران أنـك آخـذ ذهـبـا وتـتـرك جـوهـراً مـكـنـونا

الوظيفة السابعة: أن لا يدع المتعلم فناً من فنون العلم، ونوعاً من أنواعه، إلا و ينظر فيه نظراً يطلع به على غايته ومقصده وطريقته، ثم أن ساعده العمر ووافته الأسباب طلب التبحر فيه، فإن العلوم كلها متعاونة مرتبطة بعضها ببعض. قيل:

أحـرص على جمع العـلوم مجاهـدا ولا تمـوتـن بـعـلـم واحـد كـسـلا
الـنحـل لما رعـت مـن كـل فـاكهة أبدت لنا الجوهرين: الشمع والعسلا
الـشـمـع في اللـيـل نـور يـسـتـضاء به والـشـهـد يـبرى باذن الباري العـللا

لكن عليك أن لا ترغب في الآخر قبل أن تستحكم الأول، لئلا تصير مذبذباً فتحرم من الكل. ولا تكن ممن يميل إلى البعض و يعادي الباقي لأن ذلك جهل عظيم، كما قيل: الناس أعداء ما جهلوا. قال تعالى: ﴿ وإذا لم يهتدوا به فَسيَقُولُونَ هذا افكٌ قديمٌ ﴾[1].

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١١.

قال الشاعر:

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

وقيل:

ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة   ان لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

حكى عن بعض فضلاء القضاة أنه رؤى بعدما طعن في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة، فقيل له في ذلك فقال: وجدته علما نافعاً فكرهت أن أكون لجهلي به معادياً.

وإياك ثم إياك أن تستهين بشيء من العلوم، تقليداً لما سمعته من جهلة أسلافك من الطعن فيه، بل يجب أن تجعل لكل واحد حظه الذي يستحقه، ومنزله الذي يستوجبه، وتشكر من هداك إلى فهمه، وصار سبباً لعلمه. فقد حكي عن بعض الفضلاء أنه قال: يجب أن نشكر آباء العلماء الذين ولدوا لنا الشكوك إذ كانوا أسباباً لمن حرك خواطرنا للنظر في العلم، فضلاً عن شكرنا من أفادنا طرفاً من العلم، ولولا مكان فكر من تقدمنا لأصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن معرفة مصالح دنياهم فضلاً عن مصالح آخرتهم. فمن تأمل حكمة الله في أقل شيء يستعملها الناس كالمقراض، حيث جمع بين سكينين، مركباً على وجه يتوانى حداهما على نمط واحد للقرض، أكثر تعظيم الله وشكره، و يقول: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[1].

فلا تكن من الذين يستهينون من العلوم ما جهلوا به، مثل استهانتهم المنطق الذي هو أصل كل علم وتقويم كل ذهن. وحكى أبو حيان في (البحر)، أن أهل المنطق بجزيرة الأندلس كانوا يعبرون عن المنطق بالفعل تحرزاً عن صولة الفقهاء، حتى أن بعض الوزراء أراد أن يشتري لأبنه كتاباً من المنطق فاشتراه خفية خوفاً منهم.

ومثل ذمهم العلوم الحكمية على الإطلاق، من غير معرفة القدر المذموم والممدوح منها.

---

(١) سورة الزخرف، آية ١٣.

ومثل ذم علم النجوم على الإطلاق، مع أن بعضاً منه فرض كفاية، والبعض منه مباح، وبعض آخر حرام.

ومثل ذمهم مقالات الصوفية الموحدين مطلقاً، لاشتباههم عندهم بكلمات الملحدين. وستعرف تفاصيل ذلك.

وبالجملة: لا تنكر قدر العلوم بمجرد تقليد الآباء والأجداد، بل أطلب التحقيق تصل إلى المراد. قال علي رضي الله عنه: لا تعرف الحق بالرجال، أعرف الحق تعرف أهله. على أن العلم وان كان مذموماً في نفسه فلا يخلو تحصيله عن فائدة أقلها رد القائلين بها.

ثم العلوم على تكثر درجاتها: أما موصلة للعبد إلى مولاه أو معينة على أسباب السلوك، ولها منازل مترتبة في القرب والبعد من المقصد، ولكل واحد منها رتبة ترتيباً ضرورياً يجب تنزيل كل منها في رتبته، فينبغي أن يراعى الترتيب في تحصيلها، فيبتدى بالأهم فالأهم إذ البعض طريق إلى البعض. ومن وفق لرعاية ذلك الترتيب والتدريج فقد فاز بمطلوبه فوزاً عظيماً. قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يَتْلُونَه حق تِلاوته﴾[1]. أي لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملاً.

وليكن قصدك من كل علم الترقي به إلى ما فوقه. وإياك أن تظن من كلامنا هذا ان تعتقد كل ما اطلق عليه اسم العلم حتى الحكمة المموهة التي اخترعها الفارابي و وابن سينا، ونقحه نصير الدين الطوسي، (ممدوحاً). هيهات هيهات، ان كل ما خالف الشرع فهو مذموم، سيا طائفة سموا أنفسهم حكماء الإسلام، عكفوا على دراسة ترهات أهل الضلال، وسموها الحكمة، وربما استجهلوا من عرى عنها، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله والمحرفون لكلم الشريعة عن مواضعه. ولا تكاد تلقى أحداً منهم يحفظ (قرآنا) ولا حديثاً، وانما يتجملون برسوم الشريعة حذراً من تسلط المسلمين عليهم، وإلا فهم لا يعتقدون

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢١.

شيئاً من أحكام الشرع، بل يريدون أن يهدموا قواعده و ينتقضوا عراه عروة عروة. قيل:

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا   لصون دمائهم أن لا تسالا
فيأتون المناكر في نشاط   و يأتون الصلاة وهم كسالى

فالحذر الحذر منهم. وإنما الاشتغال بحكمتهم حرام في شريعتنا، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى، لأنهم يتسترون بزي أهل الإسلام. نعم ان من رسخ قواعد الشريعة في قلبه، وامتلأ قلبه من عظمة هذا النبي الكريم وشريعته، وتأيد دينه بحفظ الكتاب والسنة، وقوى مذهبه في الفروع، يحل له النظر في علوم الفلسفة، لكن بشرطين:

(أحدهما): أن لا يتجاوز مسائلهم المخالفة للشريعة. وإن تجاوزها فإنما يطالعها للرد لا لغيره.

و (ثانيهما): أن لا يمزج كلامهم بكلام علماء الإسلام.

ولقد حصل ضرر عظيم على المسلمين من هذه الجهة لعدم قدرتهم على تميز الجيد من الردى، وربما يستدلون بإيرادها في كتب الكلام على صحتها، وما كان هذا المزج إلا منذ ظهر نصير الطوسي وأحزابه، لا حياهم الله. وإنما السلف مثل الإمام الغزالي والإمام الرازي مزجوا كتب الكلام بالحكمة، لكن للرد كما تراه في تصانيفهم، ولا بأس بذلك. بل ذلك اعانة للمسلمين وحفظ لعقائدهم. ثبتنا الله واياكم على الصراط المستقيم أنه جواد كريم.

و ينبغي لطالب العلم أن يفوض ترتيب العلوم في التحصيل إلى رأي الأستاذ الناصح، إذ الناشي أمهر من الدخيل، وهو أعرف بما يليق بطبعك منك، ولا يدخر نصحه عنك، لأن الأستاذ قد حصل له التجارب وكيفية الاهتداء إلى المطالب والمآرب.

يحكى: أن الشيخ الإمام الأجل برهان الدين كان يقول: كان طالب العلم في الزمان الأول يفوض أمره في التعلم إلى أستاذه، وكان يصل إلى مقصوده ومراده، والآن يختارون بأنفسهم فلا يبلغون مقاصدهم.

هذا الذي ذكرناه لمن ساعده الذهن، والسن، والوقت، وسامحه الدهر عما يفضيه إلى الحرمان والفوت، وإلا فعليه أن يقتصر على الأهم، لأن ما لا يدرك كنه لا يترك كنه، وذلك الأهم هو قدر ما يحتاج إليه في الحال، وهو ما يحتاج إليه في كمال النفس وفضيلتها، وما يقرب به إلى الله عز وجل في الآخرة، وما لا بد منه في إقامة دينه وإخلاص عمله لله ومعاشرة عباده على الشرع الشريف والورع والتقوى.

ومرجع الكل معرفة الله، بالآيات الواضحة، والشواهد الناطقة، ومعرفة ما وجب عليه في نفسه وماله وليله ونهاره. ويدخل فيه أحكام الشريعة: من الجواز والفساد، والحل والحرمة، والكراهة والاستحباب، ومعرفة سنن النبي عليه الصلاة والسلام، في إقامة ما فرض الله تعالى على أعدل السبل وأقوم المناهج، لا يعرف إلا ببيان من أدبه فأحسن تأديبه. ويدخل فيه أيضاً: علم أخلاق الأنبياء والمرسلين: من اليقين، والإخلاص، والزهد، والتواضع، والنصيحة؛ وعلم آداب النفس: من العفة، والرفق، والتؤدة، والحياء، والسماع، وحسن التدبر والنظر في الأمور، والأخذ بالحزم في الدين، ومداراة العدو، واحتمال أذى الخلق، وصلة الرحم المقطوعة، وبر الجافي، وإعطاء الحارم، والتجاوز عن الظالم، والإحسان إلى المسيىء، وحسن التورع عن أذى الخلائق باليد واللسان والجنان. وستعرف تفاصيل هذه العلوم. وبالجملة: أصل الأصول، ومنتهى السؤال معرفة الله تعالى، التي هي غاية الغايات، وسبب الفوز والنجاة، ورئيس جميع السعادات. وهذا العلم حر لا يخدم غيره أصلا بوجه من الوجوه، وما عداه خدم له والمطلوب الأهم مما عداه ما يتوسل به اليه. ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلِ الله ثم ذَرْهُم في خَوْضِهم يلعبون﴾[1]. ومن الظاهر المكشوف أن ليس المراد تحريك عضلات اللسان بكلمة الله، فإن حركة الأطراف لا تجدي إذا لم تؤثر في القلب بأثر هو: الإعتقاد، المسمى بالايمان، الذي أدناه التصديق، وله مراتب بحسب القوة حتى ينتهي إلى رتبة لو وزن بإيمان العالمين لرجح، وهو ايمان أبي بكر رضى الله عنه، كما قال النبي صلى الله عليه

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩١.

وسلم: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا بكثرة صلاة ولكن بسر وقر في صدره». ولو كان منتهى العلم ما اعتقده المقلد أو ما حصله المتكلم المتعلم، لم يعجز عنه آحاد الصحابة، فضلاً عن عمر وعثمان وعليٍّ رضى الله عنهم حتى كان فضلهم أبو بكر.

وبهذا تبين أن وراء العلم الثابت بالأدلة، يقيناً يخصه الصوفية أولوا الكرامات والمشاهدات. وناهيك بشرفهم وفضلهم، أمثال ما ذكر من الشواهد المقررة في الشرع، فلا يعاديهم إلا الجاهل الشقي أو المعاند الأشقى، وكيف لا.

شعر

لله تحت قباب العز طائفة أخفاهم في رداء الفقر اجلالا

هم السلاطين في اطمار مسكنة استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا

غبر ملابسهم شم معاطسهم جرو على الفلك الخضراء أذيالا

وقد روى: أنه رؤى صورتا حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد، وفي يد أحدهما رقعة فيها: أن أحسنت كل شيء، فلا تظن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى، وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء؛ وفي يد الآخر: كنت قبل أن عرفت الله أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رو يت بلا شرب.

وسمعت بعض العلماء نقل عن بعض المحققين: أن الأرواح لما تجلى لها الحق في الأزل، عشقته وتطلبه في الدنيا، وتارة تزعم أن ذاك الكمال في حسن الصورة والجمال، وتارة في المال، وتارة في الجاه، ثم تقف على نقصانها وترغب عنها في الآخر، لما تعلم أن الكمال الذي تطلبه لا يعتريه نقصان، ولا يسكن هذا الطلب عنها. الا عند مشاهدة ذاك المطلوب الحقيقي.

وإياك أن يكون شغلك من العلم أن تجعله صنعة تهوس بها، بل ينبغي لكل ذي دين، أن يتخذه سبيلاً إلى النجاة، ومرقاة إلى الزلفى، يتوصل بها إلى الملأ الأعلى، والقرب في جناب المولى.

ولا تكن من الذين غلبت صنعتهم على قلبهم ولبهم، حتى ختم بتكرار ذلك عند النزع، كما يحكى: أن أبا طاهر الزيادي، كان يكرر مسألة ضمان الدرك عند النزع. حكى أن امرأة جاءت إلى عروضى بقال، فقالت: أريد بذي

القطعة زيتاً، وبذي البيضة حنا، فشغله كلامها عن مبايعتها، وأخذ يقول: فاعلاتن فاعلاتن يقطع كلامها، فقالت المرأة: أمك الفاعلة، وسبته وانصرفت. وحكى عن ركن الدين بن القريع، أن رجلاً سأله وهو في الطريق، فقال: يفتح الله، فقال: يا شيخ قد فتح الله عليك، إذا جادت الدنيا عليك فجدبها، فقال الشيخ: لم قلت انها جادت عليّ؟ وإن سلم، فلم قلت أنه يجب عليّ الجود؟ وإن سلم، فلم قلت اني ما جدت وما انحصرت القسمة فيك. وكان الغالب عليه المناظرة فاستعملها مع رجل لا يعرفها. وأقبح من ذلك ما يحكى: أن دباغاً ختم النزع بتكرار ما يناسب صنعته. وبعض الأمراء كان آخر كلامه: هاتوا القباء الفلاني. إلى غير ذلك والعياذ بالله، لأن من أكثر من شيء ظهر على فلتات لسانه، وكل إناء بالذي فيه ينضح. فلا تعود لسانك إلا بما تنتفع بتكراره عند الموت، وكن مثل أبي زرعة، سئل عند النزع عن حديث: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، فساقه بإسناده إلى أن وصل إلى «لا إله إلا الله»، ومات قبل أن يقول: «دخل الجنة». أنظر كيف نفعه الله بعلم الحديث. فعليك أن تمتزج لحمك ودمك بما تنتفع به في الآخرة، وأن تحصل سائر العلوم، وتلتفت إليها من حيث كونها آلة، لا أن تملأ قلبك ولبك بحيث تختم بها عند النزع. وبالجملة: عليك أن تنزل كل علم منزلته من الإقبال عليه والتوجه به.

الوظيفة الثامنة: مذاكرة الأقران ومناظرتهم.

لما قيل: العلم غرس وماؤه درس، لكن طلباً للثواب واظهاراً للصواب، لا للمفاخرة والعصبية، أو لهيجان القوة الغضبية. وما أفلح من نبض فيه هذا العرق. وفي (الفتاوى): أن من ناظر لتخجيل الخصم يخشى عليه الكفر. فينبغي أن يكون المناظرة والمطارحة بالإنصاف والتأني والتأمل، ويتحرز عن الشغب والغضب، فإن المناظرة مشاورة، والمشاورة لاستخراج الصواب، وذلك إنما يحصل بالتأمل والإنصاف. وأما إرادة التمويه والحيلة، فلا يجوز أصلاً، إلا إذا كان الخصم متعنتاً لا طالباً للحق. وكان محمد بن يحيى إذا توجه عليه الاشكال، ولم يحضره الجواب، يقول: ما ألزمته لازم وأنا فيه ناظر ﴿وَفَوْقَ كُل

ذي علم عليمٌ﴾[1]. وفائدة المطارحة والمناظرة: إذا كان من الإنصاف أقوى من فائدة مجرد التكرار. وقيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر، ولكن مع منصف سليم الطبيعة. وإياك والمذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع، فإن الطبيعة متسرقة، والأخلاق متعدية، والمجاورة مؤثرة.

و ينبغي لطالب العلم، أن يكون متأملاً في جميع الأوقات في دقائق العلم، ويعتاد ذلك، فإنما يدرك الدقائق بالتأمل. ولذا قيل: تأمل تدرك، خصوصاً قبل الكلام، فإن الكلام كالسهم، فلا بد من تقويمه بالتأمل أولاً.

الوظيفة التاسعة: أن لا تؤخر شغل يومك إلى غدك، فإن كل يوم آت بمشاغله. وقيل: أن يوم الأعجزين غداً. وقيل: الجد والهمة كجناحين يطير بهما الإنسان إلى شواهق الكمالات. روي أن أبا حنيفة، رحمه الله، قال لأبي يوسف، رحمه الله تعالى: كنت بليداً أخرجتك المواظبة.

وإياك والكسل فإنه شؤم وآفة. وعليك أيضاً أن تكتب كل ما استنبطته من الزوائد، أو سمعته من الفوائد، فإن العلم صيد، والكتابة قيد. ولله در الإمام الجعبري فيما قال:

شعر

وفكرت حافظتي عقيب شبيبتي	وعدمت من افراطه الإحساسا
وظللت مهما عنَّ لي من حاجة	أودعتها من خوفي القرطاسا
فبقيت أنساها وأنسى أنني	أنسيتها فنسيت من قد ناسا

لكن عليك أن لا تكفي بثبته في القراطيس، ولا تتكل على ايداعه في بطون الكراريس، إذ العلم ما ثبت في صحائف الخواطر، لا ما أودع في صفايح الدفاتر، بل الغرض من إثباتها فيها، المراجعة عند عروض النسيان، لا الاعتماد على الأوراق. كما قال الشاعر:

أضحى الفقيه لجمع الكتب مغتبطاً	لا بارك الله في البيت الذي جمعه
وظل يحمل أسفاراً فقلت له	أنت الحمار الذي في سورة الجمعة

(١) سورة يوسف، آية: ٧٦.

وقال آخر:

إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع
أتحضر بالجهل في مجلس وعلمك في البيت مستودع

وقيل: لا بد أن يكون مع الطالب محبرة في كل وقت، حتى يكتب ما يسمع من الفوائد. قيل: ما حفظ فر وما كتب قر. وروى عن الأستاذ ركن الإسلام المعروف بالأديب المختار: أنه روى عن هلال بن يسار، قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول لأصحابه شيئاً من العلم والحكمة، فقلت: يا رسول الله، أعد لي ما قلت لهم، فقال لي: هل معك محبرة، فقلت: ما معي محبرة، فقال: يا هلال، لا تفارق المحبرة، فإن الخير فيها وفي أهلها إلى يوم القيامة. ووصى الصدر الشهيد حسام الدين، لابنه شمس الدين، رحمهما الله تعالى: أن يحفظ كل يوم شيئاً من العلم والحكمة، فإنه يسير، وعن قريب يكون كثيراً. واشترى عصام بن يوسف قلماً بدينار ليكتب ما سمع في الحال. فالعمر قصير والعلم كثير. فينبغي أن لا يضيع الأوقات والساعات ويغتنم الليالي والخلوات، وينبغي أن يغتنم الشيوخ ويستفيد منهم. وليس كل ما فات يدرك. قال الشاعر:

ولست بمدرك ما فات مني بلهف ولا بليت ولا لو أني

الوظيفة العاشرة: أن تعرف معنى شرف العلم ورتبته ووثاقته في البرهان.

أماالشرف: فإما بشرف ثمرته، أو بوثاقة دلائله. والأول: كعلم الدين، فإن ثمرته الحياة الأبدية التي لا آخر لها، فكان أشرف من الكل. والثاني: كعلم الطب، فإن ثمرته حياة البدن إلى غاية الموت. فعلم الدين أشرف من علم الطب أيضاً، وعلم الطب أشرف من علم الحساب باعتبار غايته وثمرته، فإن صحة البدن أشرف من معرفة كمية المقادير، وعلم الحساب أشرف منه بحسب وثاقة دلائله، لكونها ضرورية غير محتاج إلى تجربة بخلاف الطب.

ثم ان الشرف لما كان من جهة الثمرة تارة، ومن جهة قوة الدليل أخرى، فاعلم أن شرف الثمرة أولى من شرف قوة الدلالة. فأشرف العلوم ثمرة العلم

بالله وملائكته وكتبه ورسله وما يعين عليه، فإن ثمرته السعادة الأبدية.

ومما ينبغي أن يعلم أيضاً: أن لكل علم حداً بحسب البرهان لا يتعداه، مثلاً لا تقصد إقامة البراهين في النحو ولا تقصر عنه أيضاً، كأن تقنع بالجدل في الهيئة، وكذلك ملاك الأمر في المعاني هو الذوق، وإقامة البرهان عليه خارج عن الطوق، ومن طلب البرهان عليه أتعب نفسه، ولم يحصل من جده بطائل.

قال السكاكي: وقبل أن نمنح هذه الفنون حقها، فلننبهك على أصل، لتكون على ذكر منه، وهو أن ليس من الواجب في صناعة، وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل، أن يكون الدخيل فيها كالناشيء عليها، في استفادة الذوق منها، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكمات وضعية، واعتبارات ألفية، فلا بأس على الدخيل في صناعة علم المعاني، أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه، ان فاته الذوق هناك، إلى أن يتكامل له على مهل، موجبات ذلك الذوق.

المقدمة الثالثة

في وظائف المعلم

وهي أيضاً عشر:

الوظيفة الأولى: ينبغي أن يكون تعليمه لوجه الله تعالى. ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رسماً ولا عادة ولا زيادة جاه ولا حرمة، وإنما يريد ابتغاء مرضاة الله تعالى، والإمتثال لأوامره والإجتناب عن نواهيه. و يريد نشر العلم، وتكثير الفقهاء، وتقليل الجهلة وإرشاد عباد الله إلى الحق، ودلالتهم على ما يصلحهم في النشأتين، وإظهار دين الله، وإقامة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتشييد قواعد الإسلام، والتفريق بين الحلال والحرام. و يكون مخلصاً في ذلك، راغباً في الآخرة وميقناً بما وعد الله للعلماء العاملين، راجياً ثوابه وخائفاً عقابه.

وأعلم أن العلم كالمال، له حال ادخار، فيكون به غنياً عن السؤال، وحال انفاق على نفسه وعلى غيره، فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله. فلا بد للعلم أيضاً من حال كسب واستفادة، وحال تحصيل وضبط، وحال استبصار وانتفاع، وهو التفكر فيما حصله ان كان اعتقادياً، أو العمل به ان كان عملياً، وحال نفع وتعليم، وهو أشرف أحواله، فيصير كالشمس مضيئاً لنفسه ولغيره، والمسك الطيب المطيب لغيره. ومن أفاد غيره ولم ينتفع به، كان كالدفتر المفيد غيره وهو غير منتفع به، وكالمسن يشحذ غيره ولا يقطع، وكذبالة المصباح تضيء وتحترق. وليعلم يقيناً: لأن يهدى الله على يديه رجلاً خير له مما طلعت عليه الشمس والقمر، ولأن يرد عبداً آنفاً عن الله تعالى إلى طاعته، أحب إلى الله تعالى من عبادة الثقلين.

الوظيفة الثانية: أن يجري المتعلم منه مجرى بنيه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده». بل ينبغي أن يكون (الولد) الالهي أحب إليه من الولد الصلبي. ذكر حافظ الدين البزازي، عن المرغيناني، عن عصام بن أبي يوسف رحمه الله: لم يكن لأحد عليّ من الحق كما كان له، وكان مشفقاً على أصحابه، لو وقع الذباب على أحدهم، يرى مشقة ذلك عليه. وبلغ من شفقته عليهم أن رجلاً دخل عليه متغير اللون، وقال: إن فلاناً سقط من السطح، وكان الإمام يصلي، فسمع وصاح حتى سمع من في المسجد، فلما فرغ ذهب إلى الرجل وقال: ان قدرت أن أحمل على نفسي هذه العلة فعلت، وخرج من عنده باكياً. وكان يأتيه صباحاً ومساء حتى برأ الرجل.

وليعتقد المتعلم أن حق المعلم أكبر من حق الأب، فإنه سبب حياته الباقية، والأب سبب حياته الفانية. ولذلك قال الاسكندر لما قيل له: أمعلمك أكرم عليك أم أبوك؟ فقال: بل معلمي. فكما أن الأخوة يجب بينهم التوادد والتحاب فكذلك شركاء الدرس، بل ينبغي أن يكون فوقهم، فإن العلماء كلهم مسافرون وسالكون إلى طريق الله تعالى، والمعلم المرشد، والهادي، والشركاء الرفقاء، ولا ينتظم أمر المسافرة إلا بموافقتهم ومحبتهم وإنما ينشأ البغض والتحاسد، لجعلهم العلم وسيلة إلى المال والرياسة، فيخرجون به عن قوله: ﴿إنما المؤمنونَ اخْوة﴾[1]، و يدخلون تحت قوله تعالى: ﴿الأخِلاَء يُومئذ بَعْضهُمْ لبعض عدو إلا المتقينَ﴾[2].

ولا يخفى أن المال والرياسة يوجبان التحاسد والتباغض، كما وقع في زماننا هذا ـــ بسبب حب الرياسة والمال ـــ العداوة والبغضاء والتحاسد بين العلماء. وإلى الله المشتكى من زمان ملأ الله قلوب أهليه من الحسد، وغلب عليهم العناد، حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد. قوم غلب عليهم الجهل وطمعهم، وأعماهم حب الرياسة وأصمهم. فمن طائفة يطولون أكمام الإفتخار، ويجرون أذيال الاستكبار، يتربعون في صدور الإيوان، و يتنافسون باحتشاد الحواشي

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.
(٢) سورة الزخرف، آية: ٦٧.

والغلمان، يستبدلون الجواب بالأعراض، و يستقلون في مجالسهم هتك الأعراض. أسأل الله تعالى من فضله أن يتوب عليهم و يسامحهم ببركة العلم والإسلام، و يبوئهم أحسن مستقر ومقام.

الوظيفة الثالثة: أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه، ولا يطلب على إفاضة العلم أجر أو جزاء. قال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُم عليه أجْراً﴾(١). فيجب عليه قطع الطمع عن المتعلمين والرفق بهم في التعليم، والتواضع لهم والعطف عليهم. بل يجب عليه تقريب الفقير لفقره وانكساره، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجالس الفقراء ويحب المساكين.

واعلم: أن طلب المال وأعراض الدنيا بالعلم، كمن نظف أسفل مداسه بوجهه ومحاسنه، فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً. فعليك أن لا تركن إلى حطام الدنيا وإقبالها، وولاية المناصب وإجلالها، فإن ذلك حبالة الشيطان، يصطاد بها ضعفاء الأحلام من الأنام، كما قال عيسى ابن مريم صلوات الله عليه وعلى نبينا: «العلماء دواء الدين، والمال داء الدين، فمن جر الداء إلى نفسه فكيف يداوي غيره!» ألا أن العجب العجيب، أن الأمر قد انتهى بحكم تراجع الزمان، وخلو الأعصار عن علماء الدين، إلى عدم ابتهاج العلماء بانتهاج سبيل العلوم، بل بالرياسة والتجمل اللذين لا يتخدع بهما إلا العوام والجهلة.

شعر

فساد كبير عالم متهتك	وأكبر منه جاهل متنسك
هما فتنة للعالمين عظيمة	لمن بهما في دينه يتمسك

قال محمد بن الحسن: لو كان الناس كلهم عبيدي لأعتقتهم وتبرأت عن ولائهم، ومن وجد لذة العلم والعمل به قلما يرغب فيما عند الناس.

قال أبو حنيفة، رضي الله عنه:

من طلب العلم للمعاد	فاز بفضل من الرشاد
فيا لخسران طالبيه	لنيل فضل من العباد

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٣.

اللهم إلا إذا طلب الجاه، للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحق، واعزاز الدين لا لنفسه وهواه، فيجوز ذلك بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. و ينبغي أن يتفكر في ذلك، فإنه يتعلم العلم بجهد كثير، فلا يصرفه إلى الدنيا الحقيرة الفانية.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الدنيا، فوالذي نفس محمد بيده انها لأسحر من هاروت وماروت».

شعر

هي الدنيا أقل من القليل	وعاشقها أذل من الذليل
تصم بسحرها قوماً وتعمى	فهم متحيرون بلا دليل

الوظيفة الرابعة: أن لا يدخر نصحه عن المتعلم، وزجره عن الأخلاق الردية بالتعريض والتصريح، ومنعه أن يتشوف إلى رتبة فوق استحقاقه، وأن يتصدى للأشغال فوق طاقته، وأن ينبه على غاية العلوم، وأنها هي السعادة الأخروية دون أعراض الدنيا. و ينبغي أن لا يزجر عن التعلم، إذا رأى أنه يتعلمه لأجل الرياسة ومباهاة العلماء، إذ اشتغاله ربما أدى الى اكتساب العلم، وتنبه بالآخرة لحقائق الأمور، وعلم أن الطالب بالعلم لأعراض الدنيا مغبون، وهو المعنى من قولهم: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون الا لله. ولهذا ينبغي أن يرغب في نوع من العلم يستقاد به الرياسة، بالاطماع في الرياسة، حتى يستدرجهم بعد ذلك إلى الحق. ولهذا رخصوا في علم المناظرة في الفقهيات، لأنها بواعث على المواظبة لطلب المباهاة أولاً، ثم بالآخرة يتنبه لفساد قصده، و يعدل عنه إلى المنهج القويم، بل الله سبحانه وتعالى، جعل الرياسة وحسن الذكر، حفظاً للشرع والعلم، مثل الحب الملقى حوالي الشبكة، ومثل الشهوة الداعية إلى التناسل. ولهذا قيل: لولا الرياسة لبطل العلم. لكن ينبغي أن ينبه عليه: أن المتعلم إن كان طبعه على الشر والفساد، وحب المال والجاه، فلا يحسن له الرياسة، لاحتمال أن يرسخ في طبعه، ثم لا يزول أو يشق زواله.

الوظيفة الخامسة: أن يزجر عما يجب الزجر عنه، بالتعريض لا بالتصريح،

لأن التعريض يؤثر في الزجر، والتصريح ربما يغرى بالمنهى عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «لو نهى الناس عن فت البعر لفتوه، وقالوا: ما نهينا عنه إلا وفيه شيء». و ينبه على ذلك «قصة آدم وحواء» وما نهيا عنه. ولذا قيل: الإنسان حريص على ما منع. وقد قيل: رب تعريض أبلغ من التصريح، إذ التعريض لا يهتك حجاب الهيبة، والتصريح يرفعه بالكلية، فيستفيد المنهى جرأة على المخالفة إذا اضطر إلى المخالفة له مرة أخرى. ولقد شاهدنا هذا الأمر في المولى الوالد روح الله روحه، حيث ما قابلنا في أمر بتصريح، بل كان يعرض وكنا ننزجر عن ذلك الأمر فوق ما ينزجر الناس عن التصريح.

و ينبغي أن يكون ناصحاً لهم، ومتواضعاً لهم مع الوقار، صابراً على تعليمهم في أكثر النهار، ومحرضاً على كسب العلوم، ومشفقاً عليهم، ومتحملاً منهم ما يصدر عنهم من الهفوات، وناظراً في أحوالهم الدنيو ية والأخرو ية، يبر حقوقهم بقدر وسعه وطاقته.

الوظيفة السادسة: أن يبدأ في التعليم ما يهم المتعلم في الحال، أما في معاشه، أو في معاده، و يعين له ما يليق بطبعه من العلوم، إذ كل ميسر لما بلق له، و يراعى الترتيب الأحسن في ترتيب العلوم حسبما تقتضيه رتبتها. ولا ينبغي أن يرقيهم من الجلي إلى الدقيق ومن الخفي إلى الظاهر دفعة وفي أول رتبة، بل على قدر الإستعداد، اقتداء بمعلم البشر كافة ومرشدهم قاطبة، حيث قال: «إنا معشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس بقدر عقولهم». وقال علي رضى الله عنه وأومى إلى صدره: ان هاهنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة. وقال صلى الله عليه وسلم: «كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون. أتريدون أن يكذب الله ورسوله». وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيراً لأَسْمَعَهُمْ﴾[1]. وسئل بعض المحققين عن شيء فاعرض، فقال السائل: أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»، فقال أترك اللجام واذهب، فإن جاء من يفقه،

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٣.

فكتمته، فليلجمني به. وقد نبه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ولا تُؤْتُوا السفَهاءَ أموالكم﴾ (١).

على أن حفظ العلم وأمساكه عمن لا يكون أهلاً له أولى. وبقوله تعالى: ﴿فإن آنستُم منهم رُشْداً فادْفَعوا إليهم أموالَهُمْ﴾ (٢). على أن من بلغ رشده في العلم، ينبغي أن يبث إليه حقائق العلوم، ويرقى من الجلي الظاهر إلى الدقيق الخفي. وليس الظلم في منع المستحق، بأقل من الظلم في إعطاء غير المستحق. قال أبو بكر الشاشي رحمه الله: رأيت الشافعي، رضي الله عنه، في المنام، فأنشدني هذه الأبيات:

أأنثر دُرّاً بين راعية الغنم ... أأنظم منثوراً لسارحة النعم

فإن لطف الله الكريم بفضله ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم

بثثت مفيداً واستعدت ودادهم ... وإلا فمخزون لدي ومكتتم

فمن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فظهر منه أن بث المعارف إلى غير أهلها مذموم في العلوم كلها. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تطرحوا الدرر في أفواه الكلاب». وقال عيسى عليه السلام: لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير، فإن العلم خير من الجوهر ومنكره شر من الخنزير.

وقيل:

قد ضيع الله ما جمعت من أدب ... بين الحمير وبين الشاء والبقر

وأيضاً ادخار حقائق العلوم من المستأهلين لها فاحشة عظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَإذ أخَذَ الله مِيثاقَ الذين أوتوا الكتابَ لَتُبيِّنُنَّه للناس ولا تكتُمونَه﴾ (٣). قال بعض المحققين: وضع العلم في غير أهله اضاعة، ومنعه عن أهله ظلم وجور، وكلاهما حرام على العلماء.

الوظيفة السابعة: أن يحث الصغار على التعليم، سيما الحفظ، لأن ذلك كالنقش في الحجر، والتعليم في الكبر كالرقم على الماء. وأيضاً: ينبغي أن يذكر

---

(١) سورة النساء، آية: ٥.   (٢) سورة النساء، آية: ٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

لهم ما يحتمله فهمهم، ولا يذكر للمتعلمين أن وراء ما ذكر لهم تحقيقاً وتدقيقاً أدخره عنهم، فإن ذلك يفتر فهمهم في تلقف ما ألقى اليهم، بل يخيل إليهم أن ما ذكر لهم كل المقصود، ثم إذا استقل به رقي إلى غيره.

وعلى هذا القياس، ينبغي أن تجنب أسماع العوام المتشرعين عن كلمات الصوفية التي يعجزون عن تطبيقها بالشرع، فإن ذلك يؤدي إلى انحلال قيد الشرع عنهم، ولا يمكن لهم التطبيق بينه وبين الشرع، فينفتح عليهم باب الألحاد والزندقة، فينقلب شيطاناً مريداً. كما نشاهد ذلك في بعض عوام زماننا المتتبعين لكلمات (الفصوص) وغيره، الغير المستأهلين لتحقيقها واتقانها.

فينبغي للمعلم أن يرشد العوام إلى علم العبادات الظاهرة وأن يملأ نفسهم إلى الرغبة والرهبة، كما يفعله الوعاظ والمذكرون، وإن عرض لهم شبهة يعالج بكلام اقناعي وتقرير واضح عامي، ولا يفتح عليهم باب الحقائق، فإن ذلك فساد النظام، وإن وجد ذكياً ثابتاً على قواعد الشرع، ومستعداً لدرك الحقائق العقلية والأسرار الإلهية، جاز أن يفتح له باب المعارف الربانية، بعد امتحانات متوالية وتجارب متتالية، حتى لا يتزلزل عن جادة الشرع، ويجمع بينه وبين الحقائق، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وقد أسلفنا أن السلف كانوا يختبرون المتعلم في أخلاقه، فإن وجدوه مهذب الأخلاق، اشتغلوا بتعليمه، وإلا منعوه أشد المنع، خيفة من أن يقصر في الفهم، فيفسد به دينه ودين غيره. ولهذا قالوا: نعوذ بالله من نصف فقيه ونصف طبيب، فإن الأول يفسد الدين والثاني يفسد البدن.

وإذا انتهى الكلام إلى هذا المقام، فانا أوصيك وصية عمل من طب لمن حب، لعلك تنتفع بها وتدعو لي بخير، وهي: أن الواجب عليك أيها الطالب للحق، والراغب في الصدق، أن لا تنكر أولياء الله تعالى، فإنهم الوسيلة بينك وبين الله تعالى، والخليفة من حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإذا كنت في المدارج غرا ... ثم أبصرت حاذقاً لاتمار
لا تكن منكراً فثم أمور ... لطوال الرجال لا للقصار
فإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

وما لا تفهم من مقالاتهم الخفية وأحوالهم الغريبة فكله إلى أهله، إذ كل ميسر لما خلق له. وقال الله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾[١]. وقال بعض من الحكماء: كل ما قرع سمك من الغرائب فذره في بقعة الإمكان، ما لم يذدك عنه قائم البرهان. وقال بعض المحققين في حق أسرار التوحيد وأطوار المتصوفة:

شعر

وكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فإن قلت: كل ما يخالف الشرع فهو كفر، والتوقف فيه لا يصح من المسلم، قلت: نعم ان التوقف في الكلام الذي هو كفر صريح، من حيث أنه يجوز أن يكون صحيحاً، لا يجوز من مسلم، فضلاً عن عالم، لأن ذلك شك في الدين، وخرم لنظام الإسلام والشرع. لكنا والعياذ بالله لا نتوقف في ذلك أبداً. عصمنا الله وإياكم عن التساهل في الدين والإسلام. لكنا نتوقف في كون مرادهم ذلك المعني. والدليل القاطع دل على أن ظاهره غير مراد فلا بد فيه من أن يصرف عن ظاهره إلى وجه من وجوه التأويل لوجهين:

(أحدهما) — تصريحهم بأن المفهوم من ظاهر كلامنا كفر والحاد، إذ التعبير عن أصل المراد: الحلول أو الإتحاد وليس الأمر كذلك، بل ذلك لضيق العبارة وعسر الإشارة، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الإحتراز عنه. كذا ذكر الإمام الغزالي في كتاب: (المنقذ من الضلال).

(وثانيهما) — ما ذكره بعض الكاملين، أن المعارف الإلهية لم توضع بإزائها الألفاظ، بل اقتصر الوضع بإزاء الممكنات، وأيضاً: لا يمكن الإشارة إليها بطريق الكناية والإستعارة، إذ ليس كمثله شيء. فغاية حال من أراد التعبير عن الأسرار الإلهية، قصارى أمرهم التعبير عنها بما يماثلها من جهة من الجهات، وإن كان مخالفاً له حقيقة، ومن سائر الجهات. فالتعبير عن الأسرار الإلهية، وإن كان تقريباً إلى الأذهان من جهة، فهو تبعيد عنها من وجوه كثيرة. وإنما

---

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٨.

الغرض من التصنيف، للتذكرة لمن يعرف تلك الأسرار، لأنه يعرف العلاقة في إطلاق اللفظ عليها، وكذا التنبيه على من لا يعرفها، ان لنا علماً يجل عن الأذهان فهمه، حتى يرغب في تحصيله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا العلماء بالله وإذا نطقوا لا ينكره إلا أهل الغرة».

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاءين: أما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم.

وقيل:

شعر

اني لأكتم من علمي جواهره	كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن	إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به	لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتو به حسناً

لكن إياك وإياك، أن تظن أنهم أضمروا الكلمات المخالفة للشرع، وليس كذلك، فحاشاهم ثم حاشاهم عن ذلك، بل غرضهم عدم إمكان التعبير، وخوف مقايسة السامعين الأحوال الإلهية بأحوال الممكنات، فيضلوا ويضلوا، ويسيئوا الظن في قائلها، ويقابلوه بالإنكار. جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطلع على سرائر قدسه إلا واحد بعد واحد.

وقيل:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها	وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر	على ذقن أو قارعاً سن نادم

قال تاج الدين السبكي: ومن الفقهاء طائفة يستهزئون بالفقراء وأهل التصوف، ولا يعتقدون فيهم شيئاً، ويعيبون عليهم السماع وأموراً كثيرة، والسماع قد عرف اختلاف الناس فيه. وتلك الأمور قل أن يفهمها من يعيبها.

والواجب تسليم أحوال القوم إليهم فإنا لا نأخذ أحداً إلا بجرمة ظاهرة، ومتى أمكننا تأويل كلامهم، وحمله على محمل حسن، لا نعدل عن ذلك، لا سيما من عرفنا منهم الخير ولزوم الطريقة، ثم لو بدرت لفظة عن غلطة أو سقطة فإنها لا تهدم عندنا ما مضى. وقد جربنا فلم نجد فقيهاً ينكر على الصوفية، إلا ويهلكه الله، و يكون عاقبته وخيمة، كما أنه لم نجد جندياً يهزأ بالفقهاء، إلا ويهلكه الله، و يكون عاقبته شديدة. والصوفية هم أهل القلوب، فهم أهل الله تعالى وخاصته، نفعنا الله تعالى بهم، وأكثر من يقع فيهم لا يفلح. هذا حاصل ما ذكره السبكي رحمه الله تعالى.

الوظيفة الثامنة: ينبغي أن لا يخالف قوله فعله، بل يأمر بما هو أول عامل به، إذ لو أكذب مقاله بحاله ينفر الناس عنه وعن الإسترشاد به، لأن أكثر الناس مقلدون ينظرون إلى حال القائل. والمحقق الذي لا ينظر إلى القائل، بل يقصر النظر إلى ما قاله، فهو نادر، فليكن عنايته بتزكية أعماله، أكثر منه بتحسين علمه ونشره. وإذا زجر الطبيب عما يتناوله، يحمل على الهزء والسفه، أو يتهم على علمه وصدقة، أو يحمل على أنه يريد أن يستأثر به، فينقلب النهي إغراء وتحريضاً. كذلك العامي إذا رأى العالم الغير العامل، فهو بين أن يحمله على الكذب، أو أنه يعرف حيلة فعله، ويحضنا بالنهم عنه، أو يحمله على السمعة والرياء، نعوذ بالله من آفات التساهل في العمل. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس عذاباً عالم لم ينفعه الله بعلمه». وعنه صلى الله عليه وسلم: «أول ما يسعر يوم القيامة رجل عالم فينزلق لسانه، فيدور فيها كما يدور الحمار مع الرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا هذا، أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه». وفي الحديث أيضاً: أن أشد الناس حسرة يوم القيامة: رجلان. رجل علم علماً فيرى غيره يدخل الجنة بعلمه لعمله به، وهو يدخل به النار لتضييعه العمل به؛ ورجل جمع المال من غير وجهه وتركه لوارثه فعمل به الخير، فيرى غيره يدخل به الجنة وهو يدخل به النار. وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي يستعيذ بالله من هذا العلم حيث كان يقول: نعوذ بالله من علم يكون حجة علينا، و ينشد:

علمت ما حلل المولى وحرمه   فاعمل بعلمك إن العلم للعمل

ومثل الواعظ والمتعظ مثل النقش والطين والعمود والظل. وكيف ينقش الطين ما لا نقش فيه؟ وكيف يعتدل الظل والعمود أعوج؟ ولذلك قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام من الضنا   ومن الضنا مذ كنت أنت سقيم
ما زلت تلقح بالرشاد عقولنا   صفة وأنت من الرشاد عديم
أبدأ بنفسك فانهها عن غيها   فإذا انتهت عنه فأنت حليم
فهناك تقبل ان وعظت و يقتدي   بالقول منك و ينفع التعليم

وقيل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وقيل:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً   إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها

بل قال الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبر وتنسون أَنْفُسَكُمْ ﴾(١). ولذلك قيل:

وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل لأنه يقتدى به. كما قال عليه الصلاة والسلام: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها». فعلى العاصي الجاهل في كل معصية وزر الإتيان، وعلى العالم العاصي وزر الإتيان ووزر أن يقتدى به. ولذلك قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: جاهل متنسك؛ وعالم متهتك. فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «و يل للجاهل مرة وللعالم سبعين مرة».

ومن العالم من لا يترك الفرائض، ولكنه أحب المناظرة، ليقال: فلان اليوم فقيه البلد، حتى اختلط بلحمه وعظمه، فيترك النوافل و ينسى القرآن بعد

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٤.

حفظه، وإذا قام إلى الصلاة، أخذ يتفكر في باب الحيض ودقائق الجنابات، و يعتذر في ذلك و يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، وأن الخشوع ليس من شرائط صحة الصلاة. مع أنه روى عن الأستاذ أبي علي الدقاق أنه كان يقول: من استهان بأدب من آداب الإسلام، عوقب بحرمان السنة، ومن ترك سنة عوقب بحرمان الفريضة، ومن استهان بالفرائض قيض الله مبتدعاً يوقع عنده باطلاً فيوقع في قلبه شبهة. أنظر أيها الطالب إلى أين انتهى ترك الأدب والنوافل.

ولا بد للعالم من الورع ليكون علمه أنفع وفوائده أكثر. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «من لم يتورع في تعلمه ابتلاه الله بإحدى ثلاثة أشياء: أما أن يميته في شبابه، أو يوقعه في الرساتق، أو يبتليه بخدمة السلطان».

ومن الورع: أن يتحرز عن الشبع وكثرة النوم، وكثرة الكلام فيما لا يعنيه، وعن أكل طعام السوق، فإنه أقرب إلى النجاسة والخباثة والغفلة وأبعد عن ذكر الله، و يذهب بركته بوقوع أبصار المحاو يج والفقراء. و ينبغي أن يتحرز عن الغيبة ومجالسة المكثار، وقيل: من أكثر الكلام يسرق عمره و يضيع أوقاته؛ ويجتنب من أهل الفساد والمعاصي وأهل العطلة، إذ المجاورة مؤثرة. و ينبغي أن يختلط مع صاحب الطبع المستقيم والأذكياء، و يفر من الكسلان والمفسد والفتان.

شعر

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه — وكل قرين بالمقارن يقتدى

ومن العلماء من يستهين بصغائر الذنوب، كالغيبة، والإستهزاء بخلق الله تعالى، وغير ذلك، وكان له معصية ابتلاه الله بها فلم يستتر وقال: علمنا يغطي معصيتنا. وهذا جهل لا علم، إذ المعصية سترها واجب سيما من العالم لأنه يقتدى به. ولذلك كان بعض العارفين لا يظهر لتلميذه إلا على أشرف أحواله خوفاً أن يقتدى به. فينبغي للعالم الكف عن صغار المعاصي فضلاً عن كبارها، فإن هو لم يكف، فلا أقل من التستر صيانة لمنصب العلم الجليل. ومن جملة أحوالهم الشنيعة: أن يطعنوا في أمة قد سلفت، والإشتغال بعلماء قد مضوا، سيما

المخالفين في العقائد، حتى أن بعضاً من المتعصبين من الأشاعرة يكفرون الحنابلة، وبعض من الحنابلة يكفرون الأشاعرة. إلّا أن هذا منكر من القول وزور، إذ الأئمة المعتبرون من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة والأشاعرة، مذهبهم على أن لا يكفر أحد من أهل القبلة، فلم هذا التعصب؟ وما لنا لا نسكت عن أقوام مضوا إلى ربهم ولم ندر على ماذا ماتوا. هذا الذي فعلوه والله ما لا ينبغي.

الوظيفة التاسعة: في آداب الدرس والفتوى والقضاء والتذكير.

أما آداب الدرس: أن يكظم غيظه عند التعليم ولا يخلطه بهزل فيقسو قلبه. ولا يضحك فيه ولا يلعب فيموت قلبه. ويستعمل الحلم والوقار والتؤدة والرفق والمداراة فيما ينويه من الأمور. ولا يبالي إذا لم يقبل قوله. ويقول: إنما عليّ البلاغ والهداية والتوفيق من الله تعالى. ولا بأس بأن يمتحن فهم المتعلم ويبحث عن حرصه على العلم. فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجرب أصحابه بنحو من ذلك. كما قال: «ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم. فحدثوني: ما هي؟ فوقعوا في شجر البوادي ووقع في نفس ابن عمر رضي الله عنهما أنها النخلة فاستحى أن يسبق الأكابر بذكرها. وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الصغار لا تتقدم الكبار في الكلام المهم إلا أن يفهم الإذن العام.

وينبغي أن لا يحاول في العلم ولا يماري في الحق فإنه يفتح باب الضلال ويتذكر ما يحفظه في نفسه لينجح ويرسخ ويفيد ما يحتاج إليه دون ما يستغني عنه. وإن كان الطلاب مبتدئين لا يلقي عليهم المشكلات. بل يدربهم، ويأخذهم بالأهون فالأهون. وإن كانوا منتهين لا يلقي عليهم الواضحات بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر.

ومن أقبح المنكرات. أن ينظر المدرس كل يوم في عدة سطور ويفهمها ويلقنها المتعلم ولا يوجد في ذهنه المعلومات في جميع الأبواب أو في أكثرها. فإن هذا يطرق العوام إلى روم منصب التدريس إذ قلما يوجد عامي لا يقدر على فهم عدة سطور. وهذه البلية شاعت في زماننا ولهذا اجترأ الجهال على الدخول

في منصب التدريس. وبهذا اندرس رونق المدارس ورسوم العلم. ثم ان مثل هؤلاء هم السبب في اندراس العلم. ومع ذلك فهم يعاتبون الزمان. سيجزيهم الله تعالى بما فعلوه. والله الرقيب على الكل. قلت في هذا المعنى:

شعر
قوا أسفا رسم المدارس دارس فهل عند رسم دارس من معول

و ينبغي أن ينوي بتعليمه ارشاد عباد الله الى الحق ودلالتهم على ما يصلحهم. و يقطع الطمع عن المتعلم.

و ينبغي: أن يقرب الفقير و يتواضع له و يعطف على المتعلم و يبدأ بأقرب ما يفتقر وأهم ما يغنيه في معاشه ومعاده و يكلم كل صنف بما يبلغه عقله و يدركه فهمه. ولا يجيب متعنتاً في سؤاله ولا ما يلقى عليه من الأغلوطات.

ومن جملة آداب الدرس: أن ينظر في الطالب إن كان له زيادة فهم بحيث يقدر على حل المشكلات وكشف المعضلات يهتم لتعليمه أشد الإهتمام، وإلا فيعلمه قدر ما يعرف الفرائض والسنن، ثم يأمره باشتغال الإكتساب ونوافل الطاعات لكن يصبر في إمتحان ذهنه مقدار ثلاث سنين.

وأما آداب الفتوى: فاعلم أن السلف لم يجوزوا الإجتراء على تقلد الفتيا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أجرؤكم على النار أجرؤكم على الفتيا، وان ظهر المفتي جسر الناس إلى جهنم فيما يحل ويحرم من المال والدم والفرج». فالسنة أن لا يتقلد الفتوى عن طوع قلب وطيب نفس إلا أن يكره عليه بالوعيد الشديد ولا يستعمل الإمام أيضاً من يطلبه. فإن طلبه وكل إلى نفسه وان أكره عليه سدد فيه. وكان السلف يعدون السكوت والاستماع أفضل من الكلام والخمول أشرف من النباهة، فلم يكن أحد منهم إلا ودان أخاه كفاه الحديث والفتيا.

وكان عمر رضي الله عنه ربما يجمع أهل بدر كلهم في واقعة ولا يحكم فيها برأيه. لكن ان لم يكن له بد منها بأن لا يوجد أفضل منه أو أكره عليه إذ حينئذ يفترض عليه. فعليه أن لا يفتى إلا فيما يقع من المهمات الدينية دون الغوامض الغريبة.

وإن سئل عما يشك فيه، يقول: لا أدري، فإن لا أدري نصف العلم. وسئل الإمام مالك عن أربعين مسألة. فقال في ست وثلاثين لا أدري مع أنه

من الأئمة المجتهدين اتفاقاً. وتوقف أبي حنيفة رحمه الله في ست مسائل مشهور وكذا يحكي الجواب بلا أدري عن كثير من علماء السلف.

و ينبغي: أن لا يطلب بالفتيا سيادة ولا رياسة ولا إقبال الناس عليه ولا سبي قلوبهم لجلب النفع منهم وكسب الجاه منهم. بل كان نيته حسبة للثواب من الله عز وجل. وابتغاء لمرضاته وإعلاء لكلمته ونصرة لدينه وأداء للأمانة عندهم إلى من يعقبهم من أخوان الدين فإن ذلك فرض عليه.

وأما شرائط الفتوى: قال الإمام محمد رحمه الله: إذا كان صوابه أكثر من خطئه يحل له أن يفتي. يعني برأيه. رواه عنه أبو نصر العراقي. وقال أبو يوسف رحمه الله ـــوقد شدد الأمر فيهـــ: لا يحل له أن يفتي حتى يعرف أحكام الكتاب والسنة والناسخ والمنسوخ وأقاويل الصحابة والمتشابه ووجوه الكلام.

وعن أبي يوسف، وزفر، وعافية بن زيد رحمة الله عليهم أنهم قالوا: لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا؟ وإن كان حافظاً كتب أصحابنا لا بأس بالجواب على وجه الحكاية. وإن كان غير حافظ لا يسعه القياس إلا أن يعرف طرق المسائل ومذاهب القوم.

قال أبو بكر: وإن حفظ جميع كتب أصحابنا فلا بد أن يتلمذ للفتوى حتى يهتدى إليه. وقيل: ينبغي لكل مفتٍ أن ينظر إلى عادة أهل بلده فيما لا يخالف الشريعة.

و ينبغي أن لا يجيب متعنتاً في السؤال ولا من يلقى إليه من الأغلوطات والعويصات ويحرم على السائل إلقاء ذلك على العلماء فإن حاصله يؤول إلى استخفاف بالعلماء وتهاون بالدين.

و ينبغي أن يجتنب المفتي عن تتبع الرخص للأمراء وتخصيصهم بذلك من بين العوام مثل أن يقول: لعب الشطرنج حلال عند الشافعي، والمجاوزة عن الحدود في التعزيزات جائزة عند مالك، و بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته ولم يكن له ما يعمر به حلال عند أحمد بن حنبل. وتتبع الرخص وإن كان جائزاً على ضعف لكن ذلك ابتلاء الضعفة بسبب عدم الإستطاعة. وأما

تخصيص الأمراء بذلك وتخصيص المفتي من يشاؤه بذلك من غير اعتقاد بالصحة وإلا لأفتى على العموم من غير تخصيص بالبعض، فمن علامات الإستهانة بدين الله. نعوذ بالله من الخذلان. وما هذا المفتي إلا ضال خارق لحجاب الهيبة مسقط لأبهة الشرع مفسد لنظام الدين. قال بعض السفهاء من الشعراء وأهل المجون.

الشافعي من الأئمة قائل	اللعب بالشطرنج غير حرام
وأبو حنيفة قال وهو مصدق	في كل ما يروي من الأحكام
شرب المثلث والمربع جائز	فاشرب على أمن من الآثام
وأباح مالك السفاح تكرما	في ظهر جارية وظهر غلام
والحبر أحمد حل جلد عميرة	وبذاك يستغني عن الأرحام
فاشرب ولط وازن وقامر واحتجج	في كل مسألة بقول امام

والرأي الحق في مثل هذا الشاعر أن يضرب بالسياط ويطاف به في الأسواق فقبحه الله وأخزاه. كيف اجترأ على أئمة المسلمين وهداة المؤمنين. وقد افترى على مالك فيما عزاه إليه وعلى غيره في تسمية الشطرنج قماراً وإطلاق الشرب واللواط والزنا على ما سماه. ولعل الأصل في هذا قول أبي نواس:

أباح العراقي النبيذ وشربه	وقال حرامان المدامة والسكر
وقال الحجازي الشرابان واحد	فحلت لنا من بين قوليهما الخمر

أراد بالعراقي: أبا حنيفة رحمه الله تعالى. وبالحجازي: الشافعي. وادعى الشاعر أن أبا حنيفة رحمه الله قال بحل النبيذ وأن الشافعي قال النبيذ والخمر واحد فيلزم من قولهما حل الخمر وليس كذلك إذ الشافعي قال: أيهما واحد في الحرمة لا في الحل.

وهذا القول ان صدر عن اعتقاد فزندقة والعياذ بالله إلا أن الظاهر من حال أبي نواس أنه لم يقصد إلا نوعين من المجون الذي لا يخلو عنه الأدباء. ولكن المجون في هذا الباب قبيح جداً لأنه تلاعب بدين الله. وينبغي أن يكون المفتي بابه مفتوحاً ومستفتيه غير مردود.

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: يراد من العلماء عشرة أشياء: الخشية، والنصيحة، والشفقة، والإحتمال، والصبر، والحلم، والتواضع، والعفة عن أموال الناس، والدوام على النظر في الكتب، وقلة الحجاب وهو أن يكون بابه مفتوحاً للوضيع والشريف فانه بلغنا أن داود عليه السلام انما ابتلى من شدة الحجاب.

ومن آداب الفتيا: أن لا يصر على الخطأ ولا يستكبر عن قبول الحق وان كان ممن هو دونه وقد وقع من أبي حنيفة الرجوع إلى قول تلامذته خصوصاً أبو يوسف ومحمد رحمهم الله تعالى. وينبغي: أن لا ينازع أحداً ولا يخاصمه لأنه يضيع أوقاته. قيل: المحسن سيجزى بإحسانه والمسيء ستكفيه مساويه وعليه: أن يشتغل بمصالح نفسه لا بقهر عدوه. قيل: من أراد أن يرغم أنف عدوه فليحصل العلم. إياك والمعاداة فإنها تفضحك وتضيع أوقاتك. وعليك بالتحمل لا سيما من السفهاء. قال عيسى ابن مريم عليه السلام: احتملوا من السفيه واحداً كي تربحوا عشراً. وإياك وظن السوء فإنه منشأ العداوة ولا يحل ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «ظنوا بالمؤمنين خيراً». وإنما ينشأ ذلك من خبث النية وسوء السريرة كما قال أبو الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساء ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

ثم أن مما يجب على المفتي: أنه كما لا يرخص لأرباب الظلم في الأمور الشرعية كذلك لا يغلظ عليهم بحيث يؤدي إلى نفورهم عن الإنقياد للشرع.

وينبغي أن يراعي في الرخص والتشديد حال السائل. يروى أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل: هل للقاتل توبة؟ فقال: لا. وسأله آخر. فقال: له توبة. فسئل ابن عباس عن ذلك فقال: رأيت في عيني الأول ارادة القتل فمنعته، وأما الثاني فقد جاء مستكفاً قد قتل فلم أقنطه. ومن ثم قال الصيمري: من سأله سائل. ان قتلت عبدي فهل علي قصاص؟ يسعه أن يقول: ان قتلته قتلناك لأن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «من قتل عبده قتلناه». ولأن القتل له معان وهذا إذا لم يترتب على إطلاقه مفسدة.

وأيضاً ينبغي للمفتي أن يتجنب في ألفاظ جوابه عن الألغاز فيوقع الخلق في جهل عظيم و يقع هو في اثم كبير وربما أداه ذلك إلى إراقة الدماء لغرض مثل قول القائل: أنا أحمد النبي. و يريد «بأحمد» الفعل. ويجعل النبي منصوباً مفعولاً يعني أحمد نبينا صلى الله عليه وسلم. ومثل قول القائل: معي ما لم يخلقه الله. و يريد به القرآن. ونحو ذلك. وحكاية بعض العلماء مع الخليفة المأمون شهيرة. ولكن ان وقع مثل هذا عن أحد لا ينبغي للمفتي الإقدام على التفكير من غير تأمل وفحص وإن كان الإطلاق نفسه مستهجناً ومستقبحاً.

وأما آداب القضاء: فأعلم أن السلف حذروا العلماء عن تقلد القضاء والإجتراء لما روى عن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من جعل قاضياً فكأنما ذبح نفسه بغير سكين». وقال صلى الله عليه وسلم: «قاضيان، قاض في النار، وقاض في الجنة». ومما شاع بين الناس أن أبا حنيفة رحمه الله اختار الحبس والضرب ولم يتقلد القضاء. قيل: إنه دعي إلى القضاء ثلاث مرات فأبى حتى ضرب في كل مرة ثلاثين سوطاً. فلما كان في المرة الثالثة قال: حتى أستشير أصحابي. فاستشار أبا يوسف رحمه الله فقال أبو يوسف: لو تقلدت لنفعت الناس. فنظر إليه أبو حنيفة نظرة المغضب، وقال: أرأيت لو أمرت أن أعبر البحر سباحة أكنت أقدر عليه وكأني بك قاضياً. وروى عنه أنه لما تقلد نوح الجامع من أصحابه القضاء بمرو كتب إليه: يا نوح ورد كتابك ووقفت على ما فيه. تقلدت أمانة عظيمة يعجز عنها الكبار من الناس وأنت كالغريق وأطلب لنفسك مخرجاً. وعليك بالتقوى فإنه ملاك الأمر والخلاص في المعاد والنجاة من كل بلية وبه يدرك حسن العواقب قرن الله تعالى بخير العواقب أمورنا ووفقنا لمرضاته أنه سميع قريب.

قال الفقهاء: إذا كان للسلطان أو القاضي من العلم ما يجوز به قضاؤه لم يسعه أن يمتنع وإلا أي أن لم يكن له ذلك فهو في سعة من الإمتناع. وقال بعضهم: لا بأس بالدخول في القضاء لمن يثق بنفسه أن يؤدي فرضه و يكره الدخول فيه لمن يخاف العجز عنه ولا يأمن على نفسه الحيف فيه. وكره بعضهم الدخول في القضاء وفسر الكراهية هنا بعدم الجواز. والصحيح من بين الأقوال

أن الدخول فيه رخصة والترك عزيمة إلا إذا كان هو الأهل للقضاء دون غيره. فحينئذ يفترض عليه التقلد صيانة لحقوق العباد. وإخلاء للعالم عن الفساد. فإذا لم يكن له بد من القضاء فعليه أن يقضي بين الناس بالحق والإنصاف و يعين المظلوم ولا يأخذ الرشوة والهدية لا هو ولا من يتبعه من أعوانه. وقيل: يجوز قبول الهدية من ذي رحم محرم إذا لم يكن له خصومة لأنه صلة الرحم وإذا كان له خصومة لا يقبل هديته لأنه لأجل القضاء فيتحاباه. ويجوز قبولها ممن جرت عادته قبل القضاء بمهاداته لأنه ليس للقضاء بل جرى العادة. ولا يقبل الزيادة عن المعتاد لأنه يصير آكلاً بقضائه إلا أن الأحوط عدم القبول بالكلية لئلا تستدرجه النفس إلى الزيادة. ولا يخاف السلطان و يقول الحق بين يديه وإن كان مرأ ولا يتكلم بهواه في غير الحق و يقضي بينه و بين خصمه بالقسط و يكون السلطان والرعايا والأغنياء والفقراء عنده سواء في الحكم بينهم. ولا يميل إلى أحد منهم و يتفحص عن نوابه وأعوانه كيلا يظلمون الناس و يقعد ظاهراً كي يصل إليه الغريب والفقير والخامل والعاجز بلا كلفة ومشقة. و يكون مستمعاً لكلام الوضيع والشريف مجيباً لهم باللين والإنصاف غير مائل في الحكم إلى صنف دون صنف ولا يتواضع لأحد لغناه ولا لذي جاه لجاهه بل يكون تواضعه لأجل الله تعالى والأكرم عنده من هو الأكرم عند الله تعالى. و يكون محباً لأهل الخير ومحرضاً لهم على خيراتهم ومبغضاً لأرباب الشرور ناهياً لهم عن سوء فعالهم و يدلهم على الخيرات ويهديهم إلى سبيل الرشاد. و يكون صادقاً في كلامه معهم مستقيماً في معاملته معهم وعادلاً في أحكامه بينهم وناصحاً وداعياً لهم وإلى الطاعة يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر.

و ينبغي: أن يكون القاضي وكذا الأمير محكمي الرأي صحيحي العزم وكارهين لعملها وشديدين في غير عنف ولينين في غير ضعف جوادين عن غير سرف بخيلين من غير كف.

و ينبغي: أن يكون القاضي سائس الولاية بالعلم ومؤيدها بالحلم ومزينها بالورع. و يكون حسن السريرة ومرضي السيرة. و يبسط يديه لهم بالمعروف و يوفر عليهم أموالهم و ينصف الضعيف من القوي. و يعدل بينهم و يكون تقي

القلب كريم الخلق. فإن التقى والكرم ركنان بهما صلاح الرعية و يكون ناصحاً رحيماً بهم مشفقاً عليهم لا يحتجب عن ذوي الخلات والفاقات ليلاً ونهاراً. و يكون دائم الإهتمام بأمن العامة في النوم واليقظة، في السفر والحضر. و يعدل بين الخصمين في لحظة وإشارته ومقعده وفي كلامه و يستعمل معهم الحلم و يكثر عنهم العفو والتجاوز ولا يعجل في تعذيب الجاني و يطلب له عن الجناية مخرجاً و يدرأ الحد عن الجاني بشبهته و يطلب مدفعاً فإن خطأه في العفو خير من خطئه في العقوبة. ولا يقضي بين خصمين إلا وهو ريان وشبعان راض غير غضبان.

والأولى للقاضي أن يعين رزقه من بيت المال، لأنه مشتغل بحاجة المسلمين. وقيل: يأخذ قدر ما ينكح زوجة و يشتري به دابة وخادماً ومسكناً فإن أصاب أكثر من ذلك فهو غال وسارق. وجوزوا أن يأخذ الأجر على كتب السجلات بنفسه بقدر ما أخذ به غيره لأن ذلك ليس بواجب عليه.

وقيل: قاض يأخذ الأجر فإنه لا يكون عاملاً بأجر لكنه يعمل لله تعالى. وله أن يستوفي حظه من مال الله تعالى. وكذلك العلماء والفقهاء وأرباب الافتاء يعملون لله تعالى ولهم أن يأخذوا حظهم من بيت المال، وكذلك معلم القرآن للناس. و يقول حين يجلس للقضاء: اللهم أني أسألك أن أفتي بعلم وأقضي بحلم وأسألك العدل في الغضب والرضاء. ولا يقضي لأحد الخصمين حتى يسمع كلام الآخر و يفهمه على وجهه ليعرف وجه القضاء.

وأما آداب التذكير: فاعلم أن السلف كانوا لا ينتصبون للموعظة والتعليم وكانوا يعدون السكوت والإستماع أفضل من الكلام. والخمول أشرف من التباهة. وكانوا يودون أن صاحبه كفاه الحديث والجواب وان لم يكن له بد من ذلك فلا بد أن يدعو الناس من خمس إلى خمس؛ من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة.

و ينبغي: أن لا يخالف قوله فعله بل يأمر بما هو أول عامل به كما قيل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وينبغي: أن يزين حديث النبي صلى الله عليه وسلم بأحسنه، أي يردّه إلى أحسن التأويل ويحمله على أسدّ الوجوه. ولا يحدث عمن لا يقبل شهادته فإن من روى حديثاً يرتاب في صحته فهو أحد الكاذبين. ولا يحدث إلا ما يشهد على صحته أصول الدين ويصدقه وأيضاً يوافقه مشاهير الأخبار والآثار ومما يعرف به صحة الحديث أن يعرفه قلوب أهل البصائر ويوافق ذوقهم ولن يرزق هذا الذوق إلا لأهل الخصوص من الأصفياء الأتقياء. ويجتنب القصص: وهو حكايات الأولين من غير ثقة بثبوتها ولا اعتبار ولا اتعاظ بها. فذكر هذه القصص بدعة حدثت أيام الفتنة. ويفتح بالحمد والصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم، والتسمية والإستعاذة. ويجتنب اللحن والغلط والتصحيف. ويختار أفضل اللغات: وهي العربية التي هي كلام أهل الجنة. ويجتنب الرطانة ــ والفارسية إلا عند الضرورة فإنها لغة أهل النار. ويخفض صوته، فإن أنكر الأصوات أرفعها إلا بقدر الضرورة. ويتكلم بفصيح الكلام دون مبهمه. ويجتنب التفهيق والتشدق والتعمق فيه ويرتل الكلام ترتيلاً ويسرده سرداً، فقد كان كلام نبينا صلى الله عليه وسلم، فصلاً يفهمه كل من سمعه، ولو عده لاحصاه. ويفهم السامع. فإن النبي صلى الله عيه وسم كان إذا سلم: سلم ثلاثاً، وإذا تكلم: تكلم ثلاثاً. ويتجود في كلامه تجودا لا يتكلف النظم والسجع. فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى ذلك، وقال: «أنا وأتقياء أمتي براء من التكلف». وقال: «إياكم وسجع كسجع الكهان». ويكثر في كلامه الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الإستغفار، ومن كلمة التوحيد لا سيما إذا كان الحديث الذي يريده. فإنه يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم فربما يتذكر أو يكون ذلك عوضاً عن حديثه. فإذا أراد أن لا ينسى حديثاً فليقل: الحمد لله مذكر الخير.

وينبغي: أن يذكر من كتاب يعتمد عيه مثل: (أحياء العلوم)، للغزالي؛ و(رياض الصالحين) و(الأذكار) كلاهما للنووي؛ و(سلاح المؤمن في الأدعية) لأبن الإمام و(شفاء الاسقام في زيارة خير الأنام) للسبكي. وكتب ابن الجوزي في المواعظ لا بأس بها.

وينبغي: أن لا يأخذ على وعظه أجراً من الناس بل ان كان لا بد له من الرزق فليأخذ من بيت المال. وقد عرفت مقدار حقه من بيت المال.

الوظيفة العاشرة: آداب العلماء في المطعم والملبس.

ومن آدابهم: أن لا يترفه العالم في المطعم والملبس، ولا يتجمل في الأثاث والمسكن. بل يؤثر الإقتصاد في جميع ذلك. ويتشبه بالسلف الصالح. وكلما ازداد إلى جانب القلة ميله ازداد قربه من الله سبحانه وارتفع حزبه في علماء الآخرة. والتحقيق أن التزين بالمباح ليس بحرام ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه واستدامة الزينة قد تتوقف على أسباب محظورة من مراعاة الخلق والسلطان ومراءاتهم ومداهنتهم وأمثال ذلك. فالحزم اجتناب ذلك لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها البتة. وتفصيل حال المال: هو أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن حبها رأس كل خطيئة فكم من غني سعيد لا يحبها. وكم من فقير شقي يحبها. ففيها الخير النافع والسم الناقع. وتلك كالحية ترياق لمن عرفها وسم لمن جهلها. ففي تمييز النافع من الضار خمسة أحوال:

(الأول): معرفة رتبة المال.

وأعلم أن المقتنيات المرغوب فيها، أما مخدوم على الإطلاق: كالعلم الذي هو كمال النفس. أو مخدوم من جهة وخادم من جهة أخرى: كالأحوال البدنية من المطاعم والملابس والمناكح. فإنها تخدم العلم ويخدمها المال الذي هو حال البدن الخادم للنفس أو خادم على الإطلاق كالدراهم والدنانير. فمن أنزل كل واحد من هذه الأمور في مرتبته التي تليق به، صار داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿وَيُمدِدْكُم بأموال وبنينَ﴾[1]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح». ومن عكس الأمر وجعل الدراهم والدنانير مخدوماً وصار معتكفاً بكنه همته على تحصيله واقتنائه وألقى شراشره على حبه، دخل تحت قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما أموالُكم وأولادُكُم فتنة﴾[2]وقوله تعالى: ﴿لا

---

(١) سورة نوح، آية: ١٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٨.

تُلهِكُم أموالُكم ولا أولادكُم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾(١). وقال الخليل صلوات الله عليه وسلامه: ﴿ واجْنُبني وبَني أن نعبد الأصنامَ ﴾(٢). أي هذين الحجرين: الذهب والفضة. إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى فيها أن يعتقد الإلهية في شيء من الحجارة. وقال عليه الصلاة والسلام: «تعس عبد الدرهم. تعس عبد الدينار ولا انتعش وإذا شيك فلا انتعش». فعليك أن تطلب الدرهم والدينار لأجل تقوية البدن بالمطاعم والملابس وبقاء النسل بالمناكح. وتطلب تقوية البدن لأجل كسب العلوم والمعارف الذي هو المقصد الأقصى والمطلب الأعلى وإلا فتصير كمن سافر مع جماعة في سفينة متوجهين إلى أشرف بلد لينال أعلى رتبة فخرجوا منها لتجديد الطهارة إلى جزيرة ذات أسود وأساود وحذروه منها فرأوا حجراً مز برجاً وزهراً منوراً فاشتغلوا به عن رفقائهم حتى جن عليهم الليل فثارت عليهم الأسود تفترسهم وهجمت عليهم الأساود تنهشهم فيقول واحد منهم: يا ليتني كنت تراباً. والآخر ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه. والآخر يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله. ولهذا قال علي رضي الله عنه: يا حمراء عزي غيري و يا بيضاء عزي غيري.

و (الثاني): مراعاة جهة الدخل.

وهو اما بالإكتساب أو بالبخت، كالميراث أو وجود دفينة أو عطية غير مترقبة. وأمر البخت لكونه غير اختياري لا يحتاج إلى البيان. وأما الكسب: فينبغي أن يأخذه من الوجه المشروع. فإن وجد حلالاً طيباً فبها وإلا فإن كان حراماً محضاً فليجتنبه. كذا وإن كان مشتبهاً والحرام غالب وإن كان الحلال غالباً أو تساو يا فإن قدر على الحلال الطيب فليتركه فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وان لم يقدر يأخذ منه قدر الحاجة وان قدر على الحلال لكن بالتعب واستغراق الوقت فعلى العامل العامي أن يختار التعب لأن تعبه في طلب الحلال عبادة. وإن كان من أصحاب القلوب. فإن كان ما فاته من العلم

---

(١) سورة المنافقون، آية: ٩.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٣٥.

والحال أكثر من الثواب الحاصل في طلب الحلال فله أن يختار الحلال الغير الطيب كمن غص بلقمة يسيغه بالخمر وكآكل لحم الخنزير عند المخمصة لكن يخفيه من الجاهل مهما أمكن و يتلطف فيه كيلا يحرك سلاسل الشيطان لأن تناول العالم ما زجر عنه الجاهل يثور شغبهم ومن هذا القبيل: ما اعتاده المتصوفة من الذكر على وجه الدوران حيث يقولون أنه حرام لكنه قد يؤثر في تخيلة القلب عن الشواغل الدنيوية ما لا يمكن تحصيله بغيره من المجاهدات في أضعاف ذلك الزمان. وهذا الكلام إن صدق فيؤول إلى ما قاله صدر الشريعة في كتاب (تعديل العلوم في مقامات العارفين) في بيان أن العشق المجازي قنطرة الحقيقة لأن أكثر ما زاولوه من المجاهدات لتخيلة القلب عن الشواغل الدنيوية. ولا يخفى أن العشق يخلي القلب عما سوى محبوبه المجازي. ثم نقل محبته إلى المطلوب الحقيقي يكون أيسر لأن قطع العلائق الكثيرة أصعب من قطع علاقة واحدة. ثم قال ولا يبالي بحرمة هذا العشق لأن قاطع العوائق لا يبالي بحرمته. ثم أورد نظيراً له من الشرع حيث قال: الدم اليابس إذا لم يوجد ماء حار وعسر إزالة أثره من الثوب يغسل بالبول ثم إزالة البول بالماء البارد يكون أيسر. هذا كلام وقع في البين ولنرجع إلى ما كنا فيه.

واعلم: أن طلب الكفاف من الحلال الطيب تعففاً لا تكثراً فرض، وطلب ذلك بالكسب المشروع سنة. وإن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه. وكان الأنبياء عليهم السلام يحترفون و يكتسبون. و يباكر في طلب الرزق. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «باكروا في طلب الرزق فإن في الغدو بركة ونجاحاً». و ينوي بالإكتساب التعفف عن السؤال والإستغناء عن الخلق ولكن لا يقبل الكسب إقبالاً يشغله عن ذكر الله تعالى العلم والعمل للآخرة.

وأفضل المكاسب: الجهاد في سبيل الله. إعلاء لكلمته. ثم يليها في الفضل التجارة بشرط الأمانة والصدق والنصيحة. وليعتمد على الله تعالى متوقعاً منه الرزق والفضل وإذا رزق من شيء فليلزمه. فإن اتجر في شيء ثلاث مرات فلم يرزق منه فليتركه. هذا كله حال المتوسطين. وأما الكاملون من أهل التوكل فلهم في أمر الرزق أطوار وأحوال ذكرناها في (رسالة الشفاء).

(الثالث): في المقدار المأخوذ منه وقدر الحاجة.

وأنواع المال أربعة: المسكن، والمطعم، والملبس، والمنكح. وكل منها أما أدنى، أو أوسط، أو أعلى.

أما المسكن. فأدناه: ما يقلك من الأرض و يقيك من السباع وأمثالها وما يظلك من الفوق من المطر والحر رباطاً أو مسجداً وأمثالها. وأوسطه: ملك يخصك على حد الكفاية كما وكيفا وتخلو فيه إلى آخر عمرك. وأعلاه: دار واسعة مزينة كثيرة المرافق على ما هو عادة المترفهين من أهل الدنيا. والأول ما يقنع به المتوكلون والسالكون لطريق الآخرة. والأوسط حد الكفاية يخل بالتوكل ولا يخل بالشرع. والأعلى مخل بالورع ومباح في الشرع ان أدى على الإقبال بالدنيا والإبتهاج بزخارفها وإلا فباح في الورع أيضاً لكنه حرام عند المتورعين. إذ الدنيا وزخارفها حرام على أهل الآخرة.

وأما المطعم. فهو أصل عظيم إذ المعدة مفتاح للخيرات والشرور. وله ثلاث درجات أيضاً. أدناها: القوت. وهو ما يسد الرمق و يبقى معه البدن و يقوى على العبادة. وقدر القوت على قدر رياضة السالكين منهم من يأكل في عشرة أيام. ومنهم من يأكل في عشرين إلى أربعين. وقد انتهى بعضهم إلى قدر حمصة كل يوم. وهذه رتبة قلما يصل إليها أحد. وأوسطها: ثلث البطن. وهو الذي حد له الشرع. وما زاد عليه فبطنه مذمومة. وكما ينبغي أن يقتصر على الوسط من قدره فكذلك ينبغي أن يقتصر على الوسط من نوعه. وأعلاها كما: ادخار القوت. وكيفا التلذذ بالأطعمة الشهية. والإدخار مذموم مطلقاً. وأدناها الإدخار لغد وأوسطها الإدخار لسنة. وأعلاها الإدخار لما يجاوز السنة. وإن كان لا بد من الإدخار فليوم بل لساعة فقط. وأما الإدخار لسنة فجائز شرعاً لكنه يخل بالتوكل للمبتدئين. وأما الكاملون: فلا يتفاوت عندهم الحال فلا يمكن حصر أحوالهم. وأما الإدخار لما فوق السنة فصاحبه من المطرودين الذي «يحسب أن ماله أخلده».

وأما الملبس. فأدناها كماً: ما يستر العورة ليمكن له العبادة، وكيفاً أرذل الأنواع وأخشنها. وأوسطه: ما يليق بحاله من غير حرام ومن غير ترفه وتزين.

وأعلاه: جمع ثوب الشهرة كماً واختيار الأزين والألين كيفاً على ما عليه أبناء الدنيا والمقبلين على مزخرفاتها.

وأما المنكح: فاللائق بالسالكين إلى طريق الآخرة التجرد والصبر على مضض العزوبة لئلا يفضي إلى الحرمان عن المطلب الأعلى. قال أبو حنيفة رضي الله عنه في وصاياه لأبي يوسف رحمه الله: وأطلب العلم أولاً ثم أجمع المال من الحلال ثم تزوج فإنك إن طلبت المال في وقت التعلم عجزت عن طلب العلم. إنما دعاك المال إلى شراء الجواري والغلمان وتشتغل بالدنيا والنساء قبل تحصيل العلم فإنه يضيع وقتك. ويجمع عليك الولد و يكثر عيالك. فتحتاج إلى القيام بحوائجهم فتحرم العلم. فاشتغل بالعلم في عنفوان عمرك ووقت فراغ قلبك وخاطرك. ثم تجمع المال من الحلال. هذا كلامه.

ثم إن اللائق بالعوام العاملين و بأهل العرفان الكاملين التأهل و يفترض في العوام ان تاقت نفسه وإلا فيسن. وفي الكاملين مسنون لا غير. إذ ليس في أنفسهم التوقان إلى الأمور الدنيوية من حيث أنها شاغلة عن المطلب. وإنما يميلون إليها إقامة للسنة الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم: «حبب لي من دنياكم ثلاث. النساء. والطيب. وقرة عيني في الصلاة» وتكثيراً لسواد الإسلام وإبقاء لنسل الأنام و بالجملة: الصبر عن الدنيا ممدوح مهما أمكن. كما قال صلى الله عليه وسلم: «من صبح آمناً في سره معافى في بدنه، وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

(الرابع) أحوال الخرج والانفاق.

فالمحمود منه: الصدقة المفروضة. والإنفاق على العيال. ويحصل بهذين العدالة. ومنه ما يكسب به الحرية والفضيلة وهو إيثار الغير على النفس على الوجه المندوب إليه شرعاً. والمذموم: أما إفراط وهو الإخلال بالأهم وصرفه إلى ما دونه وتفريطه المنع عن الواجبات بالكلية أو النقص من قدر الواجب.

ثم إن الناس اختلفوا في أن أخذ المال الحلال وإنفاقه على الوجه المشروع أولى أم تركه رأساً ولا شك أن الإقبال على الدنيا بالكلية مذموم وإن أخذ من الحلال ووضعه في موضعه. فالتارك بالكلية المقبل على الدنيا أفضل منه بلا

شبهة وأما المقبلون على الآخرة والصارفون للدنيا في محله فهم الأفضلون لكونهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ومنهم عامة الأنبياء المبعوثين لإقامة مصالح العباد. في المعاش والمعاد. فإن قلت. قد قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾(١) فأعلم: أن مراعاة مصالح العباد من جملة العبادات بل من أفضلها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله». إلا أن من شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين. ومن شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين. ومن جمع بينهما فهو من المخاطرين.

ولا يخفى أن الفائز أحسن من الهالك. وأما النظر الجليل فيقتضي فضله على المخاطر إلا أن مقتضى النظر الدقيق عكسه إذ الخطر ليس إلا لصاحب المنازل الرفيعة والرياسة التامة إذ خطر الخلافة الإلهية في أمر عباده بيّن ولا يرشح لها إلا الأفراد. قال الله تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسِن كما أحسَنَ الله إليك ولا تَبْغِ الفسادَ في الأرضِ﴾(٢).

ثم إن الناس على مراتب: أما ضعيف الهمة، ينخدع بمزخرفات الدنيا وزينتها فعليه اختيار طريق الفائزين والتحرز عن ورطة الهالكين. وأما قوي الهمة، جسور لا يخدعه النفس والشيطان وله همة علية يريد معالي الأمور فعليه أن يجتهد رتبة المخاطرين و يتحرز عن أن ينخدع من حيث لا يدري.

(الخامس): أن يكون نيته صالحة في الأخذ والإنفاق.

أما الأخذ فان ينوي فيه أن يستعين به على العبادة و يأكل ليتقوى به على العبادة وكذا في الترك زهداً واستحقاراً لا عجزاً واضطراراً. قال صلى الله عليه وسلم: «من طلب رزقه على ما سن فهو جهاد». وقال صلى الله عليه وسلم لأ بن مسعود: «ان المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى اللقمة يضعها في في امرأته». وأراد بالمؤمن من يقصد في كل الأمور وجه الله تعالى والإستعانة بالدنيا على

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

سلوك طريقة الآخرة ومن هنا تبين أن: الزاهد من ليس مشغولاً بالمال وإن كان له أموال العالمين. كما قال علي رضي الله عنه: لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد. وإذا تأملت ملك سليمان ورتبة النبوة تحققت أن الزهد زهد النفس لا خلو اليد. فأعلم: أن الإنسان مسافر وله ثلاثة منازل: بطن أمه، وفضاء العالم، والبرزخ والدنيا رباط ينتهي إليه الإنسان في المنزل الأوسط والمال أواني وأقوات يأخذها بشكر و يأخذها بإنشراح. ومن ظن أنه وهب له وتفجع إذا فارقه واسترجع فهو من الحمقاء.

المقدمة الرابعة

في بيان النسبة بين طريق النظر وطريق التصفية

اعلم: أن الكل متفقون على أن السعادة الأ بدية والسيادة السرمدية لا تتم إلا بالعلم والعمل. وأنهما توأمان. وله توجيهان:

(أحدهما): الشائع المشهور وهو أنه لا يعتد بواحد منهما بدون الآخر إذ العلم بدون العمل وبال. والعمل بلا علم ضلال. وقال الله تعالى: ﴿إليه يَصْعَدُ الكلمُ الطيبُ والعَملُ الصالح يَرفعه﴾(١).

(وثانيهما): أن كلا منهما ثمرة للآخرة. مثلاً إذا تمهر الرجل في اكتساب العلم وحذق فيه لا مندوحة له عن العمل بموجبه. إذ لو قصر في العمل لم يكن في علمه كمال. وأيضاً إذا باشر الرجل العمل وجاهد فيه وارتاض حسبما بينوه من الشرائط ينصب على قلبه العلوم النظرية بكمالها. كما قال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾(٢).

وهاتان طريقتان. والأولى منهما طريقة الإستدلال. والثانية طريقة المشاهدة والأولى درجة العلماء الراسخين. والثانية درجة الصديقين. وقد تنتهي كل من الطريقتين إلى الأخرى فيكون صاحبه مجمعاً للبحرين أي يجري الإستدلال والمشاهدة أو العلم والعرفان أو الشهادة والغيب.

وإذا عرفت أن السالكين إلى الحق مع كثرة الطرق وخروجها عن حد الإحصاء نوعان:

---

(١) سورة فاطر، آية: ١٠.

(٢) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

(أحدهما) ما يبتدىءمن طريق العلم إلى العرفان ومن طريق الشهادة إلى الغيب.

(وثانيها) ما يتجلى الحق له بالجذبة الإلهية. فيبتدىء من الغيب ثم ينكشف له عالم الشهادة. قال بعض العارفين: يشبه أن يكون الأول طريقة الخليل. حيث ابتدأ من الإستدلال بأفول الشمس والقمر إلى وجود رب العالمين. والثاني طريقة الحبيب حيث ابتدأ بشرح الصدور وكشف له سبحات (وجه) ذي الجلال وأحرقته حتى انمحق جميع ما أدركه وتلاشى في ذاته ولم يبق له الخطة إلى نفسه لفنائه عن نفسه فتحقق رتبة كل شيء هالك إلا وجهه ذوقاً وحالاً لا علماً وقالا. هذا حال الجامعين بين المرتبتين. وأما السالكون إلى احدى الطريقتين فقد اختلفوا.

وقال أرباب النظر: الأفضل طريق النظر لأن طريق التصفية صعب الوصول لأن مسلكها وعر وافضاؤها الى المقصد بعيد. لأن محو العلائق إلى حد يؤدي إلى انكشاف المعارف متعذر بل قريب من الممتنع وان أفضى إلى المقصد فثباته أبعد منه إذ أدنى وسواس وخاطر يمحو ما حصل. و يقطع ما وصل. على أنه قد يفسد المزاج ويختلط العقل في أثناء تلك المجاهدات الصعبة. والرياضات الشاقة.

وقال أرباب التصفية: العلوم الحاصلة بالنظر لا تصفو في الأكثر عن شوب أحكام الوهم ولا تخلص عن مخالطة الخيال في الغالب. ولهذا كثيراً ما يقيسون الغائب على الشاهد فيضلون و يضلون كما تراه في أكثر مذاهب الإعتزال. وغير ذلك من اعتقادات الجهال من أصحاب الضلال. وأيضاً لا يتخلصون في مناظراتهم ومباحثاتهم عن اتباع الأهواء والعادات بخلاف التصوف. فإن ذلك تصفية للروح وجلاء للنفوس وتطهير للقلوب عن أحكام النفس وتخيلتها عن الأوهام والخيالات فلا يبقى إلا الإنتظار للفيض من العلوم الإلهية الحقة فينكشف عليهم علوم إلهية. ومعارف ربانية. و يرد عليهم وارد إلهام هو حديث عهد بربه. وأما وعورة المسلك و بعده فلا يقدح في قوة اليقين وصحة العلم مع أنه يسير على من يسره الله تعالى من السالكين سبل أنبيائه. والمتبعين لكل

أوليائه. وأما اختلال المزاج فإن وقع فيقبل العلاج لأنهم كما أنهم أطباء النفوس والأرواح. كذلك عارفون أحوال الأبدان والأشباح. فالرياضة على ما شرطوه من الآداب والأحوال. أمان من الفساد والاختلال. وخلاص من الأفزاع والأهوال.

يحكى: أن أهل الصين والروم في زمان قديم تباهوا في صناعة النقش والترسيم وطال بينهم النزاع والجدال ودار بينهم الكلام في النقص والكمال. حتى أدى الإفتخار في هذا الشأن، إلى الإختبار والإمتحان. فعين لكل من الطائفتين جدار بينهما حجاب ليتميز الكامل من الناقص في هذا الباب. فجمع أهل الصين من الأصباغ العجيبة والألوان الغريبة. وتكلفوا الصنايع النادرة والرسوم الباهرة حتى استفرغوا المجهود، في تحصيل المقصود. واشتغل أهل الروم عن الترسيم بالتصقيل وعرفوا أن ترك التحلية إلى التجلية هو التكميل. فلما كشف الغطاء وارتفع الحجاب لمعرفة الحال بين الأصحاب رأوا أن جانب أهل الروم تلألأ بجميع نقوش أهل الصين مع زيادة الصفاء، ولطافة الصقالة والجلاء. فهذا مثال العلوم النظرية والكشفية. والأول: يحصل من طريق الحواس بالكد والعفاء. والثاني: يحصل من اللوح المحفوظ والملأ الأعلى.

إذا عرفت هذا. فاعلم: أن المحاكمة بين هذين الفريقين وتعيين الأفضل من الطريقين. هي أن العلوم مع تكثر فنونها وتعدد شجونها منحصرة في أربعة أنواع. وذلك لأن للأشياء وجوداً في أربع مراتب: في الأعيان، وفي الأذهان، وفي العبارة، وفي الكتابة. فالعلوم المتعلقة في الأول من حيث حالها في نفس الأمر هي العلوم الحقيقية التي لا تتبدل بإختلاف الأزمان، وتجدد الملل والأديان. وهذه تسمى علوماً حكمية؛ ان جرى الباحث عن أحوالها فيها على مقتضى عقله، وعلوماً شرعية: ان بحث عنها فيها على قانون الإسلام. والعلوم المتعلقة بالثانية هي العلوم الآلية المعنوية: كالمنطق ونحوه. والعلوم المتعلقة بالأخيرين هي العلوم الآلية: اللفظية والخطية. وهذه هي العلوم العربية المعتبرة في ديننا، هذا لورود شريعتنا هذه على لسان العرب وعلى كتابته. ثم ان

الثلاثة الأخيرة من هذه الأنواع لا سبيل إلى تحصيلها إلا الكسب بالنظر. وأما النوع الأول منها فقد يتحصل بالنظر وقد يتحصل بالتصفية.

ثم أن أشخاص الإنسان أربعة أصناف:

(صنف منهم): **الشيوخ:** وهم الذين تجاوزت أسنانهم الستين. فاللائق بشأنهم طريق التصفية والرياضة والإنتظار لما منحه الله تعالى من العلوم والمعارف على قدر مساعدة استعداده الفطري. إذ الوقت لا يساعده في حقهم تقديم طريق النظر.

و (صنف منهم): **الشبان الأغنياء:** فحكمهم حكم الشيوخ. لكن بحكم الإضطرار الطبيعي لا الإضطرار الزماني.

و (صنف منهم): **الشبان الأذكياء:** القابلون للعلوم المستعدة لفهم الحقائق طباعهم، ولدرك الدقائق أنفسهم. فلا يخلو أما أن لا يساعدهم التقدير في وجود عالم ماهر في العلوم النظرية المرتفع عن رتبة التقليد في مصرهم أو عصرهم. فعليه ما على صنف الشيوخ بحكم الإضطرار الزماني. وأما أن يساعدهم التقدير في وجود عالم موصوف بما ذكر مع أنه أعز من الكبريت الأحمر. بل لا يكاد يوجد إلا في الأقل الأندر. فعليه تقديم طريقة النظر وأن يحصل من العلوم النظرية قدراً يساعده استعدادهم ووقتهم ثم الإقبال بإلقاء شراشر النفس والفؤاد. وصرف مجامع القوى مع الأحشاء والأكباد إلى قرع باب الملكوت والولوج إلى حظيرة الجبروت ليكون فائزاً بالطريقتين وجامعاً بين الرياستين. وحائزاً لغنيمة باردة لا تفنى أبداً. ونعمة باقية لا تحصى عدداً يسّر الله لنا ولكم الجمع بين العلم والعمل. فإن ذلك منتهى السؤال والأمل و يرزقنا حسن العفو والعاقبة. تالياً لنعمتي السلامة والعافية. وهو حسبي ونعم الوكيل. والهادي إلى سواء السبيل. أنه مجيب قريب عليه توكلت وإليه أنيب.

الطرف الأول من الرسالة

في الارشاد الى كيفية تحصيل طريق النظر

ولما انحصر كسب السعادة في طريقين. رتبت الرسالة على طرفين:

الطرف الأول من الرسالة

في الارشاد إلى كيفية تحصيل طريق النظر

واعلم: أن تحصيل العلوم لما لم يمكن إلا بتصورها اسماً ورسماً وموضوعاً ونفعاً. أحببنا أن نبين في هذه الرسالة الأمور المذكورة في كل علم، أصلاً وفرعاً، ونبين أسماء الكتب المؤلفة فيها وأسماء مؤلفيها ليكون عوناً في تحصيل العلوم وترغيباً في طلبها وإرشاداً الى طرق تحصيلها. أما ذكر المصنفات: فللتنبيه على مراتبها وجلالة قدرها. والتفاوت بين تلك الكتب. وفي ذلك إرشاد للطالب إلى تحصيلها وتعريف له بما يعتمده منها وتحذيره مما يخاف من الاغترار. وأما ذكر مؤلفيها:

فمنها: معرفة مناقبهم وأحوالهم، فتتأدب بآدابهم وتقتبس المحاسن من آثارهم.

ومنها: مراتبهم وأعصارهم، فينزلون منازلهم ولا يقصر بالعالي في الجلالة عن درجته ولا يرفع غيره عن مرتبته. وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِ ذي عِلْمٍ عليمٌ﴾[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم (ثلاثاً)». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمرنا صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم».

ومنها: أنهم أئمتنا وأسلافنا. كالوالدين لنا، وأجرى علينا في مصالح آخرتنا التي هي دار قرارنا وأنصح لنا فيما هو أعود علينا، فيقبح بنا أن نجهلهم وأن نهمل معرفتهم.

ومنها: أن يكون العمل بقول أعلمهم وأورعهم إذا تعارضت أقوالهم. وغير ذلك من الفوائد. إذا عرفت هذا. فاعلم: أنه لا بد أولاً من ذكر:

(١) سورة يوسف، آية: ٩٦.



مقدمة

في بيان حصر العلوم في الإجمال

ثم الشروع في تفصيل كل نوع منها أصولاً وفروعاً.

مقدمة

اعلم: أن للإشياء وجوداً في أربع مراتب: في الكتابة، والعبارة، والأذهان، والأعيان. وكل سابق منها وسيلة إلى اللاحق، لأن الخط دال على الألفاظ. وهذه على ما في الأذهان. وهذا على ما في الأعيان. ولا يخفي أن الوجود العيني هو الوجود الحقيقي الأصيل. وفي الوجود الذهني خلاف في أنه حقيق أو مجازي. وأما الأولان: فمجازيان قطعاً. ثم العلم المتعلق بالثلاث الأول آلي البتة. وأما العلم المتعلق بالأعيان: فأما عملي: لا يقصد به حصول نفسه بل غيره، أو نظري: يقصد به حصول نفسه فقط. ثم كل منهما أما أن يبحث فيه من حيث أنه مأخوذ من الشرع فهو العلم الشرعي أو من حيث مقتضى العقل فقط فهو العلم الحكمي. فهذه هي الأصول السبعة. ولكل منها أنواع. ولأنواعها فروع يبلغ الكل على ما اجتهدنا في الفحص والتنقير عنه بحسب موضوعاته (وأساميه) وتتبع ما وقع فيه من المصنفات إلى مائة وخمسين نوعاً. ولعلي سأزيد عليه بعد هذا إن شاء الله تعالى. قيل:

لقد جاد الاله على وجودي ... بما أخفاه عن خلق كثير
من العلم الذي ما فيه ريب ... ولا شك لذي الفطن الخبير

وقال بعض الفضلاء: علم التفسير، لا يتم إلا بأربعة وعشرين علماً على ما هو المختار عند المفسرين. وعد الإمام الشافعي رضي الله عنه، في مجلس الرشيد ثلاثة وستين نوعاً من علوم القرآن. وقال بعض العلماء: العلوم المستخرجة من

القرآن ثمانون علماً دوّن فيها كتاباً. وقيل: إن العلوم الحكمية تتضمن خمسة عشر فناً إلا أن فروعها أكثر من خمسين. كما ستقف عليه. ثم قال نقلاً عن بعض العلماء: أن العلوم المدونة ثلاثمائة وستة وستون علماً. ثم قال: والمختار عندي أن عدد العلوم أكثر من أن يضبطه القلم. ونقل الامام الغزالي عن بعضهم: إن القرآن يحوي سبعاً وسبعين ألف علم ومائتي علم نقله في (الأحياء) في كتاب آداب التلاوة في الباب الرابع منه. ونقل السيوطي عن القاضي أبي بكر بن العربي أنه ذكر في (قانون التأويل) أن علوم القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة إذ لكل علم ظهر وبطن وحد ومطلع. ونقل عن الغزالي أيضاً أن من العلم ما استأثر الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحد. ومنها: ما يعرفه الملائكة دون البشر. ومنها: ما يعرفه الأنبياء دون من عداهم. ومنها: ما تصورها أذهان العلماء ولم يدونونها في الكتب. ومنها: ما دونوها ثم ضاعت كتبها وانطمست آثارها وانقطعت أخبارها. والعلم عند الملك العلام.

وقيل:

عند الأله علوم ليس يعرفها	إلا لبيب له في الوزن رجحان
لله في ذاك سر ليس يعرفه	إلا فريد وذاك الفرد انسان

إذا عرفت هذا.

فاعلم: أنا نرتب الكلام في هذه الرسالة: على سبع دوحات. كل منها في بيان أصل من الأصول السبعة. ثم نذكر في كل دوحة شعباً لبيان الفروع.

ومن الله التوفيق لحسن الاختتام. انه ميسر كل مرام.

الدوحة الأولى

في بيان العلوم الخطية

وفيها:

مقدمة

وشعبتان



المقدمة

في فضيلة الخط وبيان الحاجة إليه وكيفية وضعه

أما فضيلته:

نقلاً ـ فقوله تعالى: ﴿اقْرأْ وربُّكَ الأكْرَمُ. الذي عَلَّم بالقلِم. علَّم الإنسانَ ما لم يعلمْ﴾[1]. فأضاف تعليم الخط إلى نفسه وامتن به على عباده. وناهيك بذلك شرفاً. وقال عز وجل: ﴿نَ والقلم وما يَسْطرُونَ﴾[2] فأقسم بما يسطرون. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: أو إثارة من علم. إنه الخط. ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام، فقال: ريح لا تبقى. قال: فما قيده؟ قال: الكتابة. وقال عبدالله بن عباس: الخط لسان اليد. وقال جعفر بن يحيى: الخط سمط الحكمة. وبه يفصل شذورها. وينتظم منثورها. وقال ابراهيم بن محمد الشيباني: الخط لسان اليد، وبهجة الضمير، وسفير العقول، ووصي الفكر، وسلاح المعرفة، وأنس الأخوان عند الفرقة، ومحادثتهم على بعد المسافة، ومستودع السر وديوان الأمور.

وأما عقلاً: فلو لم يكن من شرف الخط إلا أن الله تعالى أنزله على آدم أو هود عليهما السلام، وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورة، وأنزل الألواح على موسى عليه السلام مكتوبة، لكان فيه كفاية. وأيضاً: ليس يذكر ذاكر شيئاً مما يجري به الخطر أو يميل إليه العقل أو يلقنه الفهم أو يقع عليه الوهم أو يدركه الحواس إلا والكتاب موكل به ومدبر له ومعبر عنه فلم يكتف منه أمة بأمة ولم تستغن عنه ملة دون ملة وأيضاً: ظهرت به خاصة النوع الإنساني من

---

(١) سورة العلق، الآيات: ٣، ٤، ٥.

(٢) سورة القلم، آية: ١.

القوة إلى الفعل. وامتاز به عن سائر الحيوان في حفظ العلوم في الأدوار. واستمرارها على الأكوار. وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان وحمل سر من مكان إلى مكان. وأيضاً: فإن فيه من حفظ الحقوق ومنع تمرد ذوي العقول بما يسيطر عليهم من الشهادات التي تقع في السجلات والمكاتيات بين الناس لحوائجهم من المسافات البعيدة التي لا ينضبط مثل ذلك لحامل رسالة ولا يناله الحاضر بمشافهة وإن كثر حفظه وزادت بلاغته. ولذلك قيل: الخط أفضل من اللفظ لأن اللفظ يفهم الحاضر فقط والخط يفهم الحاضر والغائب. ولله در القائل في وصف القلم:

وأخرس ينطق بالمحكمات ... وجثمانه صامت أجوف

بمكة ينطق في خفية ... وبالشام منطقه يعرف

ومن فضل القلم: أنه أول المخلوقات. لما روى عن عبادة بن الصامت قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول ما خلق الله القلم. فقال له: أكتب. فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة». وهذا اختيار ابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وعامة العلماء. وقال ابن عباس: لما خلق الله القلم وقال له أجر بما هو كائن إلى يوم القيامة. جرى على اللوح المحفوظ بذلك. وفي رواية عن ابن عباس: فسبح الله تعالى ومجده ألف عام قبل أن يكتب المقدرات. قال: وهو من زمردة خضراء، طوله ألف عام، وهو مشقوق بالنور، ولما نظر الله إليه انشق بنصفين من هيبة الله تعالى. فإن قيل: فهذا القلم: مكلف أم لا؟. فالجواب: إنه مكلف بأشياء مخصوصة. وهي الكتابة والجريان بخلاف الإنسان فإنه مكلف مطلق. فإن قيل: فقد أقسم الله به، بقوله: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾[1]. فمن أين تسلط عليه القط؟. فالجواب: أن هذا القلم ما احتاج قط إلى قط وإنما احتيج إليه في هذا القلم ليذهب عنه الفضول والبؤس. ألا ترى أن حياة الشمعة في ضرب العنق. روى عن ابن المقنع أنه قال: الأقلام مطايا الفطن ورسل الكرام وبيان البنان. وقوام الأمور بشيئين: بالقلم والسيف. والقلم فوق السيف.

(1) سورة القلم، آية: ١.

وأنشد:

أن يخدم القلم السيف الذي خضعت ... له الرقاب وكلت دونه الأمم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت ... أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

ولأبي تمام الطائي:

ولضربة من كاتب ببنانه ... أمضى وأبلغ من دقيق حسام
قوم إذا عزموا عداوة حاسد ... سفكوا الدما بأسنة الأقلام

قيل: وقد ناقض أبو تمام قوله: السيف أصدق أنباء من الكتب.

قلت: لا تناقض لأنه أراد بالكتب، كتب النجوم، لا مطلقاً على ما شهدت به الواقعة.

ومن أحسن ما قيل في هذا الباب:

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ... ثم اعتمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن كثروا ... ما لا ينال بحد المشرقيات

وأما وجه الحاجة إلى الخط:

فاعلم: أن فائدة التخاطب والمحاورات في إفادة العلوم واستفادتها لما لم تتبين للطالبين إلا بالألفاظ وأحوالها. كان ضبط أحوالها مما اعتنى بها العلماء العاملون. والفضلاء الكاملون. فاستخرجوا من أحوالها علوماً انقسم أنواعها إلى إثنى عشر قسماً. وسموها بالعلوم الأدبية. لتوقف أدب النفس والدرس عليها. و بالعلوم العربية أيضاً لبحثهم عن الألفاظ العربية فقط لوقوع شريعتنا التي هي أفضل الشرائع وأعلاها وأحسنها وأولاها على أفضل اللغات وأكملها ذوقاً ووجداناً. بل يقيناً و برهاناً. وهي لغة العرب التي هي أوسط الأمم وأكرمهم وفصهم في الصياغة وأخصهم في البلاغة.

ثم أن أرباب الهمم من بين الأمم لما لم يكتفوا بالمحاورة في إشاعة هذه النعم. لاختصاصها بالحاضرين سمت همتهم السامية إلى اطلاع الغائبين. بل الذين سيولدون بعدهم على ما استنبطوه من المعارف والعلوم واتبعوا نفوسهم في

تحصيلها وتدو ينها لينتفع بها علماء الأقطار ولتزداد العلوم بتلاحق الأفكار. بحثوا عن أحوال الكتابة الثابتة نقوشها على وجه كل زمان وعن حركاتها وسكناتها. ونقطها وضوابطها من شداتها ومداتها، وعن تركيبها وتسطيرها، لينتقل منها الناظرون إلى الحروف والألفاظ. ومنها: إلى المعاني الحاصلة في الأذهان وإنما لم يضعوا الكتابة بإزاء ما في الأعيان بأن يضعوا للجوهر مثلاً نقشاً وللعرض نقشاً آخر لئلا يلزم عدم فهم الألفاظ من الكتابة إذ لا يلزم من الدلالة على المدلول الدلالة على دواله بخلاف ما إذا وضع بإزاء الألفاظ إذ يلزم من الدلالة على الدال الدلالة على مدلوله. وأيضاً: لم يضعوها بإزاء ما في الأذهان لاعتياد المفكرة بتخيل الألفاظ عند تصور المعاني حتى كان المفكر يناجي نفسه بألفاظ يتخيلها عند الفكر. ولعسر الإنتقال حينئذ إلى اللفظ إذ الإنتقال من المدلول إلى الدال أصعب من عكسه. ألا ترى أن إنشاء الألفاظ بإزاء ما في النفس من المعاني أشق عند النفس من فهم المعاني من الألفاظ.

وأما كيفية وضعه:

فقيل: أول من وضع الخط آدم عليه السلام. كتبه في طين وطبخه فأصاب بعد الطوفان كل قوم كتابهم وخطهم. وقيل: أخنوخ وهو إدريس عليه السلام. وقيل: هود عليه السلام. وقيل: أنزلت على آدم عليه السلام في إحدى وعشرين صحيفة. والأصح أنها توقيفية كلها أو بعضها ولا تباين بين هذه الأقوال لجواز نزول الخط على كل منها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما. أن أول من وضع الخط العربي ثلاثة رجال من بولان: وهي قبيلة من قبيلة طي نزلوا مدينة الأنبار فأولهم مرار وهو وضع الصور. وثانيهم أسلم: فهو وصل وفصل. وثالثهم عامر: فوضع الأعجام. ثم نقل هذا العلم إلى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه. ونقل الجوهري عن شرقي ابن القطامي: أن أول من وضعه رجال من طي منهم مرارة بن مرة. وقيل: أول من اخترعه ستة أشخاص من طسم كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد وكانت أسماؤهم ــ أبجد ــ وهوز ــ وحطى ــ وكلمن ــ وسعفص ــ وقرشت. فوضعوا الكتابة والخط على أسمائهم وما شذ من أسمائهم من الحروف ألحقوها وسموها الروادف وهي:

ثخذ. وضظع و يروى أنها أسماء ملوك مدين وأن «كلمن» كان في زمن شعيب عليه السلام. ثم انتقل الخط عنهم إلى الأنبار واتصل بأهل الحيرة وفشافي العرب ثم انتشر بعد المبعث. وقيل: إن نفيساً ونصراً وتيماً ودومة بني اسماعيل وضعوا كتاباً واحداً وجعلوه سطراً واحداً موصول الحروف كلها غير متفرق ثم فرقه نبت وهميسع وقيذار وجعلوا الأشباه والنظائر.

وعن هشام عن أبيه محمد قال: أخبرني قوم من علماء مصر: أن أول من كتب الخط العربي رجل من بني النضر بن كنانة.

وفي (السيرة) لابن هشام: أن أول من كتب بالخط العربي حمير بن سبأ علمه في المقام.

قال السهيلي في (التعريف والإعلام): والأصح ما رويناه من طريق أبي عمر بن عبد البر يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم. قال: أول من كتب بالعربية اسماعيل عليه السلام. وقيل لابن عباس: من أين تعلمتم الهجاء والكتاب والشكل؟ قال: علمناه حرب بن أمية. فقيل من أين علمه حرب ابن أمية؟ قال: طارىء طرأ عليه من اليمن. قيل: من أين علمه ذلك الطارىء؟ قال: كانت بالوحي لهود عليه السلام.

وذكر أبو عمرو بن الداني في كتاب: التنبيه على النقط والشكل ونحوه. وقيل: أول ما ظهرت باليمن من قبل أبي سفيان بن أمية عم أبي سفيان بن حرب. وأتته من قبل رجل من أهل الحيرة. قال أهل الحيرة: أخذناها من أهل الأنبار. وتعلم من أبي سفيان بن حرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من قريش. وتعلمه معاوية بن أبي سفيان من عمه سفيان. وأما الأوس والخزرج تعلموه من يهودي، فجاء الإسلام وفيهم بضعة عشر كسعد بن زرارة، والمنذر بن عمرو، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت وهم يكتبون الكتابين جميعاً العربية والعبرانية. ومنهم رافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومعن بن عدي، وأبو عبس بن كثير، وأوس بن خولي و بشير بن سعد رضي الله عنهم.

وأعلم: أن جميع كتابات الأمم من سكان الشرق والغرب إثنتا عشرة كتابة: العربية، والحميرية، واليونانية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، والقبطية، والبربرية، والأندلسية، والهندية، والصينية.

فخمس منها اضمحلت، وذهب من يعرفها وهي: الحميرية، واليونانية، والقبطية، والبربرية، والأندلسية.

وثلاث بقي استعمالها في بلادها وعدم من يعرفها في بلاد الإسلام وهي: الرومية، والهندية، والصينية.

وبقيت أربع هي مستعملات في بلدان الإسلام وهي: العربية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية.

قال صاحب (الأبحاث الجميلة في شرح العقيلة): والخط العربي هو المعروف الآن بالكوفي ومنه استنبطت الأقلام، التي هي الآن. ونقل من الكوفي في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة بني العباس. وأول من كتب الخط البديع المنسوب أبو علي محمد بن علي بن حسن بن مقلة، الوزير. ومات سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. ثم ظهر في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة صاحب الخط البديع المنسوب علي بن هلال بن البواب البغدادي. ثم ظهر الدر ياقوت ابن عبدالله الموصلي أمين الدين المكي. وتوفي سنة ثمان عشرة وستمائة، ثم ظهر أبو الدر ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي شهاب الدين. وتوفي سنة سبع وستين وستمائة ثم ظهر أبو الدر ياقوت بن عبدالله الرومي مهذب الدين. وتوفي سنة سبع وستين وستمائة. ثم ظهر أبو الدر الرومي المستعصمي وهو الذي طبق الأرض شرقاً وغرباً أسمه. وسار ذكره مسير الأمطار في الأمصار. وأذعَن لصنعته الكل، واعترفوا بالعجز عن مداناة رتبته فضلاً عن الوصول إليها. لأنه سحراً في الكتابة سحرا لو رآه السامري لقال: إن هذا سحر حلال. وتوفي هو سنة ثمان وتسعين وستمائة. وإنما ذكرت هذه النكتة لئلا يقع الالتباس، على كثير من الناس في أصحاب الخط البديع المنسوب من برعاء الكتّاب.

الشعبة الأولى

في العلوم المتعلقة بكيفية الصناعة الخطية

علم أدوات الخط

من القلم: وطريق استعلام جيدها من رديها، وطريق بريها، وأحوال الفتح والنحت والشق والقط. ومن الدوات: وكيفية الاقتها، وكيفية إصلاح المواد. ومن المواد: وكيفية صنعتها، وأنواعها، وكيفية اصلاحها. ومن الكاغد: من معرفة جيدها من رديها، ومعرفة أنواعها، وطريق اصلاحها. وغير ذلك من أدوات الكتابة. ومن بديع وصف القلم: ما حكاه العتابي عن نفسه. قال: سألني الأصمعي، قال: أي الأنابيب أصلح للكتابة وعليها أصبر؟

قلت: ما نشف بالهجير ماؤه، وسترعن تلويحه غشاؤه، من التبرئة القشور الذربة الظهور، الفضية الكسور.

قال: فأي نوع من البري أكتب وأصوب؟

قلت: البرية المستوية القط، عن يمين منها برية تأمن عليها الجة عند المط. الهواء في مشقها فتيق، والريح في جوفها حريق، والمداد في خرطومها رقيق.

قال: فبقي الأصمعي شاخصاً أي ضاحكاً لا يحير مسألة ولا جواباً.

ومن المصنفات فيه:

تصنيف: علي بن هلال بن البواب البغدادي، حيث صنف: (قصيدة رائية) بليغة غاية البلاغة. واستقصى فيها أدوات الكتابة. رأيت هذه القصيدة وطالعتها وانتفعت بها. سيا قوله:

وارغب لكفك أن تخط بنانها ... خيرا تخلفه بدار غرور

فجميع فعل المرء يلقاه غدا ... عند التقاء كتابه المنشور

ونظير هذا قول الشاعر الآخر:

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

فائدة:

اعلم: أن أبا الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي، المعروف بأبن البواب لم يوجد في المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه. وإن كان أبو علي بن مقلة، أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وأبرزها في هذه الصورة، وله بذلك فضيلة السبق، وخطه أيضاً في نهاية الحسن. لكن ابن البواب هذب طريقته ونقحها وكساها طلاوة وبهجة. وقيل: إن صاحب الخط المنسوب أخوه أبو عبدالله الحسن. لكن الأصح والأشهر ما ذكرناه أولاً. والكل معترفون لأبي الحسن بالتفرد والسبق وعدم المشاركة، ولا يدعون لحوق شأوه، مع أن في الخلق من يدعي ما ليس فيه. و يقال له: ابن الستري أيضاً، لأن أباه كان بواباً والبواب يلازم ستر الباب. وكان شيخه في الكتابة ابن أسد الكاتب. وهو أبو عبدالله محمد بن أسد بن علي بن سعيد القاري، الكاتب، البزاز البغدادي. (توفي) ابن البواب سنة ثلاث وعشرين أو عشر وأربعمائة ببغداد. ودفن جوار الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه. وقيل في مرثية ابن البواب:

استشعر الكتاب فقدك سالفاً ... وقضت بصحة ذلك الأيام
ولذاك سودت الدواة كآبة ... أسفاً عليك وشقت الأقلام

ومن المصنفات في العلم المذكور:

تأليف ياقوت المستعصمي، وهو (رسالة) لطيفة في هذا الفن نافع في الغاية.

فائدة:

أبو الدر، ياقوت بن عبدالله الرومي. كان من مماليك الخليفة المستعصم. كتب الخط المنسوب البديع، واشتغل بالعلوم العربية بأسرها، وفاق في النظم

والنثر. وأكب على تعليم العلم وتعليم الكتابة. وجودة خطه غنية عن البيان، يعرفها أهل كل زمان. وتوفي سنة ثمان وتسعين وستمائة.

وغير هذا عدة «يواقيت» بعضهم مشهور بحسن الخط أيضاً، لكنهم لم يبلغوا هذه الغاية. ويمتاز عنهم بالنسبة إلى الخليفة المستعصم وبالسن.

ومن المصنفات فيه:

الباب الواحد من كتاب (صبح الأعشى في كتابة الانشا): لأبي العباس أحمد القلقشندي ثم المصري. وهذا الكتاب سبعة أجزاء في صناعة الانشا. وكل مجلد منها مجلد ضخم، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بصناعة الانشاء إلا أورده. ولقد أكثر فيها من الاستطراد. وزعم أن المنشيء لا بد له من المعرفة بجميع ما يمكن معرفته من العلوم، والأحوال، والأخبار. فتعرض ما أمكن له التعرض له. وأورد في الباب المذكور ما يتعلق بعلم الخط، وأجاد فيه كل الإجادة. ونقل أكثره عن ياقوت المستعصمي. قال بعضهم: قوام الأمور بشيئين: بالقلم، والسيف. والقلم فوق السيف. وأنشد:

ان يخدم القلم السيف الذي خضعت ... له الرقاب وكانت دنه الأمم
كذا قضى الله للاقلام مذ بريت ... ان السيوف لها مذ أرهفت خدم

وقال أبو تمام الطائي:

ولضربة من كاتب ببنانه ... أمضى وأبلغ من دقيق حسام
قوم اذا عزموا عداوة حاسد ... سفكوا الدما بأسنة الأقلام

وأما قول أبي تمام:

«السيف أصدق أنباء من الكتب». لا يناقض قوله هذا. لأنه أراد هناك كتب النجوم كما يعرف من سياق القصيدة. ومن سبب انشائها.

وما أحسن في هذا الباب قول البحتري:

شعر

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن كثروا ... ما لا ينال بحد المشرقيات

علم قوانين الكتابة

وهو علم يعرف منه كيفية نقش صور الحروف البسائط، وكيف يوضع القلم، ومن أي جانب يبتدأ في الكتابة. وكيف يسهل تصوير تلك الحروف.

ومن المصنفات فيه:

الباب الواحد من كتاب: (صبح الأعشى).

علم تحسين الحروف

علم يعرف منه تحسين تلك النقوش، وما يتعلق به من أدوات الكتابة، وكيفية اتخاذها. وتمييز جيدها عن رديها، وأسباب الحسن في الحروف آلة واستعمالاً وترتيباً. ومشاهير الخطاطين قد ألفوا في هذا العلم كتباً كثيرة. ولياقوت المستعصمي: (رسالة) لطيفة في هذا الفن، بين فيها طريقته الخاصة. ومبنى هذا الفن الاستحسانات الناشئة من مقتضى الطباع السليمة. ويختلف بحسب الألف والعادة والمزاج بل بحسب كل شخص شخص وغير ذلك مما يؤثر في استحسان الصور واستقباحها. ولهذا يتنوع هذا العلم بحسب قوم قوم بل شخص شخص. ولهذا لا يكاد يوجد خطان متماثلان من كل الوجوه.

علم كيفية توليد الخطوط عن أصولها

هو علم يبحث فيه عن كيفية تولد فروع الخطوط المستنبطة عن أصولها بالاختصار والزيادة، وغير ذلك من أنواع التغيرات بحسب قوم قوم وغرض غرض معلوم في فنه. وحذاق الخطاطين صنفوا فيها رسائل كثيرة سيا كتاب: (صبح الأعشى) فليطلب التفاصيل منها.

علم ترتيب حروف التهجي

وهو علم يبحث فيه عن كيفية ترتيب حروف التهجي في الكتابة بهذا الترتيب المعمول فيما بيننا، واشتراك بعضها ببعض في صورة الخط، وإزالة التباسها بالنقط. واختلاف تلك النقط بكونها تحتانية في البعض، وفوقانية في الآخر أو مثناه أو مثلثة. وغير ذلك مما يتعلق بهذا الشأن، كترجيح صورة معينة من تلك الصور المشاهدة المعلومة لحرف حرف وموضوعه ومباديه وغرضه وغايته ومنفعته ظاهرة.

ولابن الجني، والخبزي: (رسالة) في هذا الباب. وكذا أورد القلقشندي ما فيه كفاية في كتاب: (صبح الأعشى).

واعلم: أنه قد تقدم أن أول من وضع النقط «مرار». والأعجام «عامر». ويفهم منه أنهما وضعا مع وضع الحرف.

وقد روى: أن أول من نقط المصاحف ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي من تلقين أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه و إلا أن الظاهر أن ما وضعه أبو الأسود الأعجام إذ يبعد أن الحروف مع تشابه صورها كانت عرية عن النقط إلى حين نقط المصحف.

وقد روى: أن الصحابة، رضي الله عنهم جردوا (المصحف) من كل شيء حتى من النقط والشكل. فإن كان المراد من التجريد منها عدم وجودهما في زمانه فلا يخالف ما روي سابقاً. وإن كان إخلاؤهم المصحف عنها، فيخالف.

ذكر ابن خلكان في ترجمة الحجاج، أنه حكى أبو أحمد العسكري في كتاب (التصحيف): أن الناس مكثوا يقرأون في (مصحف عثمان) رضي الله عنه نيفاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان. ثم كثر التصحيف، وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال: إن نصر بن عاصم، وقيل: يحيى بن يعمر، قام بذلك: فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها فعبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا

منقوطاً، فكان مع ذلك أيضاً يقع التصحيف. فأحدثوا الأعجام. فكانوا يتبعون النقط الأعجام. فإذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم توف حقوقها اعترى التصحيف. فالتمسواحيلة فلم يقدروا فيها إلا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين.

إذا تقرر ذلك، فاعلم: أن النقط والأعجام في زماننا واجبان في المصحف. وأما في غير المصحف فعند خوف اللبس واجب البتة لأنها ما وضعا إلا لإزالته. وأما مع أمن اللبس. فإنه لم يكن هناك مكتوب إليه أصلاً فالأولى تركه لئلا يظلم الكتاب الخط من غير فائدة.

وقد حكي: أنه عرض على عبدالله بن طاهر، خط بعض الكتاب فقال: ما أحسنه، لولا أنه أكثر شونيزة. وإن كان هناك مكتوب إليه فإن كان من أهل البراعة في الخط فعليه أن لا يرتكب اتيان النقط والأعجام البتة لأنهم يعرفون الرمزة وإن خفي مكانها، و يتفطنون النكت، وإن لطف شأنها، اللهم إلا في موضع يحتاط فيه جداً. وقد حكى المدائني عن بعض الأدباء أنه قال: كثرة النقط في الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه. وقد يقع بالنقط ضرر، كما حكى محمد بن عمر المدائني: أن جعفر المتوكل، كتب إلى بعض عماله، أنه أحص من قبلك من المذنبين وعرفنا بمبلغ عددهم. فوقع على «الحاء» نقطة، فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم، فماتوا غير رجلين أو واحد منهم. وإن لم يكن من أهل البراعة، بل كان من المتوسطين، فيجب في موضع الاحتياط، ويخير فيما عداه. وإن كان من المبتدئين فعليه النقط، النفس أم لا، إلا في حروف لا يحتمل غيرها، فإنه يخير في نقطها. كصورة «الياء» و «النون» المفردتين وكذا «القاف» و «الفاء» «المفردتين».

ومن هذا العلم أيضاً: معرفة كيفية الشدات والمدات والهمزات والصلات وأمثالها. و بيان وجه الحاجة إليها، واختلاف الناس في وصفها.

الشعبة الثانية

فيما يتعلق بإملاء الحروف المفردة

علم تركيب أشكال بسائط الحروف

وهو علم يبحث فيه عن التراكيب بين أشكال بسائط الحروف مطلقاً لا من حيث دلالتها على الألفاظ، بل من حيث حسنها في السطور. فكما أن للحروف حسناً حال بساطتها، فكذلك لها حسن مخصوص حال تركيبها: من تناسب الشكل، والنقط، والبياضات الواقعة من الحروف والكلمات والسطور.

وموضوع هذا العلم وأغراضه وغاياته ظاهرة. ومباديها: أمور استحسانية يرجع كلها أو جلها إلى رعاية النسبة الطبيعية في الأشكال. وله استمداد من الهندسيات.

واعلم: ان تشكيل الكتابة على ضربين:

الضرب الأول: حسن التشكيل في الحروف. وهي خمسة:

(التوفية): وهي أن يوفى كل حرف من الحروف حظه من النقوش والإنحناء والإنبطاح.

(والإتمام): وهي أن يعطى كل حرف قسمته من الأقدار التي يجب أن يكون عليها من طول أو قصر أو دقة أو غلظ.

و (الإكمال): وهو أن يؤتى كل خط حظه من الهيئات التي ينبغي أن يكون عليها من انتصاب وانكباب واستلقاء.

و (الإشباع): وهو أن يؤتى كل خط حظه من صدر القلم حتى يتساوى به. فلا يكون بعض أجزائه أدق، وبعضها أغلظ إلا فيما يكون وضع الخط عليه.

و (الإرسال): وهو أن يرسل يده بالقلم بسرعة من غير احتباس يضرسه ولا توقف يرعشه.

الضرب الثاني: حسن الوضع في الكلمات وهي ستة:

(الترصيف): وهو وصل كل حرف متصل إلى حرف.

و (التأليف): وهو جمع كل حرف غير متصل إلى غيره على أفضل ما ينبغي ويحسن.

و (التسطير): وهو إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى تصير منتظماً في السطر.

و (التنصيل): وهو واقع المدات المستحسنة من الحروف المتصلة، ومراعاة فواصل الكلام، بأن يفصل بين رسالتين في الترسل: ببياض خفيف، أو إشارة. وبين سجعين ببياض أخف منه، أو بعلامة خاصة له. لكن ينبغي أن لا يجعل البياض أو العلامة في أول السطر أصلاً، بل يجتهد حتى يجعله في آخر السطر.

و (حسن التدبير في قطع كلمة واحدة). إذ ينبغي أن يحترز عن كتب بعض كلمة في آخر سطر وبعضها في أول سطر يليه، كجعل «الباء» من «كتاب» في أول سطر يلي السطر الأول، بعد أن جعل الباقي في آخر السطر الأول.

و (فصل الكلمة التامة وصلتها). مثل أن يفصل «أيدك الله» بأن يكتب «أيدك» في آخر سطر و «اسم الله تعالى» في أول الذي يليه. وكالفصل بين المضاف والمضاف إليه. والصفة والموصوف. وكالفصل بين اسم رجل ووصفه بابن فلان، نحو زيد بن عمرو. اللهم إلا أن يثبت له البنوة كقولك لزيد: إنه ابن جار لي. وكالفصل بين كل اسمين جعلا اسماً واحداً نحو: بعلبك، وحضرموت، وتأبط شرا، وذي يزن، واحد عشر.

وباب الخط وحسن تدبيره متسع لا يسع استيفاؤه. وإن أردت التفصيل فعليك (بكتاب ابن جني) وكتاب (صبح الأعشى) سيما أحوال مد الحرف في الكلمة في السطر، فإنه يحسن في الثلاثيات، وقد يحسن فيما فوقها، وقد يقبح ولا يحسن في الثنائيات البتة.

علم إملاء الخط العربي

وهو علم يبحث فيه بحسب الأنية واللمية عن الأحوال العارضة لنقوش الحروف العربية لا من حيث حسنها في السطور، بل من حيث دلالتها على الألفاظ العربية، بحسب الآلات الصناعية؛ أعني القلم وأمثاله، بعد رعاية حال بسائط الحروف من حيث الدلالة على الحروف التي هي أجزاء الألفاظ. وهذا العلم من حيث حصول الحروف بالآلة من أنواع علم الخط ومن حيث دلالتها على الألفاظ من فروع علم العربية. وستعرف تفاصيلها إن شاء الله تعالى مع ذكر المصنفات الواقعة فيها.

علم خط المصحف

على ما اصطلح عليه الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، عند كتابة (المصحف) عند جمع القرآن الكريم على ما اختاره زيد بن ثابت، رضي الله عنه. ويسمى: الاصطلاح السلفي، أيضاً. وهذا العلم، وإن كان من فروع علم الخط ـــ من حيث كونه باحثاً عن نوع من الخط ـــ لكنا نبحث عنه في علوم تتعلق بالقرآن الكريم. ونفصله هناك إن شاء الله تعالى. وإنما تعرضنا له هاهنا تتميماً للأقسام.

علم خط العروض

وهو ما اصطلح عليه أهل العروض في تقطيع الشعر، واعتمادهم في ذلك على ما يقع في السمع دون المعنى. إذ المعتد به في صنعة العروض إنما هو اللفظ لأنهم يريدون به عدد الحروف التي يقوم بها الوزن متحركاً وساكناً. فيكتبون التنوين نوناً ساكنة. ولا يراعون حذفها في الوقف، ويكتبون الحرف المدغم بحرفين ويحذفون اللام مما يدغم فيه في الحرف الذي بعده، كالرحمن، والذاهب، والضارب. ويعتمدون في الحروف على أجزاء التفعيل، فقد تنقطع الكلمة بحسب ما يقع من تبيين الأجزاء. كما في قول الشاعر:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فيكتبونه على هذه الصورة:

ستبدي لكالايبا مما كن تجاهلن   ويأتي كبلا خبار منلم تزودي

قال في (الكشاف): وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء، ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان، لاستقامة اللفظ وبقاء الخط. وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف.

قال عبدالله بن درستويه في كتابه (المترجم بكتاب الكتاب المتمم): في الخط والهجاء خطان لا يقاسان، خط المصحف: لأنه سنة. وخط العروض: لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ. ويسقط عنه ما أسقطه.

وأعلم: أن خط العروض وإن كان من أنواع علم الخط، لكن لما كان من فروع علم العروض أيضاً. أخرنا تفصيله، وتفصيل ما فيه من المصنفات إلى هناك. والمسؤول من الله تعالى الوصول إلى هذا السؤال. إنه أكرم مسؤول ومعطي كل مأمول.

الدوحة الثانية

في علوم تتعلق بالألفاظ

وفيها:

مقدمة، وعدة شعب

المقدمة

اعلم: أن من المقدمات المقررة في الطباع، والمقبولات العامة في الأصقاع، والمسلمات المستحسنة في الطباع، والكلمات التي قرع بها جميع الأسماع: أن الإنسان لما كان مدنياً بالطبع احتاج في تعيشه أعلام ما في ضميره إلى غيره، وفهمه ما في ضمير الآخرين. فاقتضت الحكمة الآلهية والرحمة الأزلية، أحداث دوال يخفف عليه أيرادها ولا يتعبه إصدارها، بل لا يحتاج في تحصيلها إلى آلات غير الآلات الطبيعية لئلا يصرف أوقاته إلا فيما يهمه و يعنيه فقاده الإلهام الآلهي، إلى استعمال الصوت العارض للنفس، الضروري للحيوان، بالآلات الذاتية الطبيعية، وتقطيعه بتوسط تلك الآلات والكيفيات العارضة للأصوات بتوسط تلك الآلات على أنحاء مختلفة وطرق شتى إلى حروف يمتاز بعضها عن بعض باعتبار مخارجها الستة عشر، وصفاتها كالجهر، والهمس، والمعتدلة، والشديدة، والرخوة، والمعتلة، والقلقة، والمستعلية، والمتخفضة، والمطبقة، والمنفتحة، إلى غير ذلك حتى يحصل من الحروف، بحسب التركيبات المتنوعة كلمات دالة بحسب الأوضاع المختلفة على المعاني الحاصلة في ضمائر المتكمين الخفية عن الأغيار، حتى يتيسر لهم فائدة التخاطب والمحاورات من الوقوف على ما في نفوس الآخرين من المقاصد التي لا يتيسر معايشهم وضروريات أحوالهم إلا بها. ومن إفادة المعارف والعلوم التي لا يمكن الإطلاع عليها بدونها.

ثم أن تركيبات تلك الحروف. لما أمكنت على وجوه مختلفة، وأنحاء متنوعة. مع التغاير الحاصل في حروفها، من جهة المخارج والأوصاف، حصل لهم ألسنة مختلفة ولغات متباينة، بحيث لا تعد كثرة، إلا أن أفضلها وأعلاها اللغة التي خصت بها أوسط الأمم، وهم خير أمة أخرجت للناس. وخير الأمور

أوساطها. وقد نزلت عليها أشرف الكتب وأعلاها وأقومها وأدومها. أعني التنزيل، الذي شرفه الله تعالى بالبراءة من النسخ والتبديل. سيا وقد نطق بهذه اللغة أفضل الأنبياء وخاتمهم. وأشرفهم وفص خاتمهم. وهل اتصف لغة غير هذه بالبلاغة والاعجاز، وبسحر الكتابة والمجاز. وهل اختص غير هذه بفنون لوعد أشهرها لبلغت إلى أربعين، وهل تشرف ما عداها بالتحدي حتى فاق واحد على مئين. وقل لي هل ظهرت العلوم منقحة بلغة أخرى؟ أفليست هذه بالتعظيم والتبجيل أحرى! الحمدلله الذي جبلني على الحب لهذه اللغة الجليلة الشأن. والشغف بهذا اللسان الباهر البرهان.

وإذا تمهد هذا التصوير. فنقول: لما اختلفت الحروف، باعتبار اختلاف اللغات، مخارجاً وأوصافاً، احتيج في تميز اللغات العربية الى بيان كميات حروفها وكيفياتها. بحسب المخارج. ثم أحوال تركيباتها بحسب اشتقاق بعضها عن بعض. ثم أحوال وضع الكلم للمعاني العقلية. ثم تبديل الحروف الأصول أو الزائد بعضها إلى بعض لتحصيل الخفة. ثم كيفية اعراباتها. ثم تطبيقها لمقتضى الحال وإيرادها بعبارات جلية فيجب تتبع طرقها ليختار الأوضح. ثم رعاية المحسنات ورغبة الأسماع في الإنفتاح لها. ثم معرفة أحوال الخطوط الدالة عليها. فهذه جملة أصول الفنون العربية. المسماة بالفنون الأدبية. لتوقف أدب الدرس بلا واسطة وأدب النفس بوسائط عليها. فعلى هذا علم الأدب يحترز معه عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة. ولها فروع كثيرة ستعرف تفاصيلها إن شاء الله تعالى.

إذا عرفت هذا. فاعلم: أن علم الأدب أما أن يبحث عن المفردات أو عن المركبات أو عن فروعها ففيها ثلاث شعب.

الشعبة الأولى

فيما يتعلق بالمفردات

علم مخارج الحروف

وهو معرفة تصحيح مخارج الحروف كيفية وكمية. وصفاتها العارضة لها بحسب ما يقتضيه طباع العرب. وإنما قلنا طباع العرب لشرفها، وشدة اهتمامنا بضبط علومهم.

فموضوعه: بسائط الحروف العربية بحسب مخارجها وصفاتها. ومبادئه: بعضها بديهي، وبعضها استقرائي. ويستمد من العلم الطبيعي، وعلم التشريح.

وغرضه: تحصيل ملكة إيراد تلك الحروف في المخارج، على ما هي عليه في لسان العرب.

وغايته الأولية: الاحتراز عن الخطأ في تلفظ كلام العرب، بحسب مخارج حروفه.

وغايته الأخيرة: القدرة على قراءة القرآن كما أنزل، بحسب مخارج حروفها وصفاتها.

واعلم: أن الحروف تختلف باختلاف اللغات بحسب تعدد مخارجها. فحروف السريانيين والروم والفرس والصقلب والترك، من أربعة وعشرين حرفاً إلى ستة وعشرين حرفاً. وحروف العبرانيين واليونانيين والقبط الأول والهنود وغيرهم، من اثنين وثلاثين إلى ستة وثلاثين. فيوجد في غير العربية من الحروف ما لا يوجد في العربية. كما يوجد في العربية مالا يوجد في غيرها من أربعة وعشرين حرفاً إلى ستة وعشرين حرفاً. كما يوجد في العربية مالا يوجد

في غيرها من اللغات. و يكثر في الاستعمال فيها مالا يكثر في غيرها. «فالحاء المهملة» و «الظاء المعجمة» مما أفردت بها العرب في لغاتها. واختصت بها دون غيرها من أرباب اللغات. و «العين المهملة» قليلة في كلام بعض الأمم ومفقودة في كلام كثير منهم. وكذلك «الصاد» و «الضاد» منقوطة. وغيرها. و «الذال المعجمة» ليست في الفارسية. و «الثاء المثلثة» ليست في الرومية ولا في الفارسية. و «الفاء» في التركية. قال الشيخ أثير الدين أبو حيان، رحمه الله: ولذلك يقولون في فقيه، «بقيه» بالباء الموحدة المشربة القوية.

ومن الكتب المختصرة المصنفة علم في المخارج:

(الأرجوزة المسماة بالمقدمة): للشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد الجزري، رحمة الله عليه. وعليها (شرح): لولد المصنف، رحمه الله. وكتبت عليها (شرحاً) جامعاً للفوائد خالياً عن الزوائد في زمن الشباب. وانتفع بذلك جماعة من الأصحاب.

ومعظم المصنفات في هذا الفن مأخوذ من: (قصيدة الإمام الشاطبي). قدس الله روحه في علم القراءة. حيث أدرج في ذيلها علم المخارج على وجه الإتقان. وتفاصيلها في (شروحها) وسنذكر شروحها عند التعرض لعلم القراءة. إن شاء الله تعالى.

علم اللغة

وهو علم باحث عن مدلولات جواهر المفردات، وهيئاتها الجزئية التي وضعت تلك الجواهر معها لتلك المدلولات، بالوضع الشخصي وعما حصل من تركيب كل جوهر جوهر. وهيئاتها الجزئية على وجه جزئي. وعن معانيها الموضوع لها بالوضع الشخصي.

وموضوعه: جواهر المفردات وهيئاتها. من حيث الوضع للدلالة على المعاني الجزئية.

وغايته: الاحتراز عن الخطأ في فهم المعاني الوضعية. والوقوف على ما يفهم من كلام العرب.

ومنفعته: الإحاطة بهذه المعلومات. وطلاقة العبارة وجزالتها والتمكن من التفنن في الكلام. وإيضاح المعاني بالبيانات الفصيحة والأقوال البليغة.

واعلم: أن من أرباب اللغة من استغرق أفكاره التقعر في الألفاظ. وملأ خاطره ملازمة حوشي اللغة بحيث خاطب من لا يفهمه. ولا يخفى أن الفصاحة فن مطلوب. واستعمال غريب اللغة عزيز حسن، ولكن مع أهله ومع من يفهمه.

حكي: أن أبا عمرو بن العلاء قصده طالب ليقرأ عليه، فصادفه بكلاء البصرة. وهو مع العامة يتكلم بكلامهم. لا يفرق بينه وبينهم فنقص من عينه. ثم لما دخل الجامع أخذ يخاطب الفقهاء بغير ذلك اللسان، فعظم في عينه. وعلم أنه كلم كل طائفة بما يناسبها من الألفاظ. وهذا هو الصواب. ومن ادعى معرفة اللغة وتكلم مع كل أحد، بالعالي والغريب من اللغة، فهو ناقص العقل. إلا أن بعضاً من العلماء يصير بملازمة اللغة، بحيث يختلط بلحمهم ودمهم. ويسبق لسانهم إلى الغريب، وإن كانوا يخاطبون من لا يفهمه. كما يحكى: أن عيسى بن عمر النحوي سقط عن حماره، وغشي عليه. فلما أفاق وأخذ في الاستواء للجلوس، قال: مالكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا عني، معنى تكأكأتم: تجمعتم. افرنقعوا: تنحوا بلغة أهل اليمن.

وحكي: أن يوسف بن عمر لما ولي العراق، أخذ عيسى بن عمر النحوي يطالبه بوديعة أودعه ابن هبيرة الوزير إياها. فأمر بضربه. فقال والسياط تأخذه:

إنْ كانت إلا أثياباً في أسيفاط قبضها يمشاروك. وله من هذا النمط شيء كثير.

ويحكى: أن علي بن الهيثم مر به فارسي، قد ركب حماراً خلفه جحش، وبيده غدق قد ذهب بسره إلا قليلاً، يقود به بقرة يتبعها عجل لها. فناداه علي

ابن الهيثم: يا صاحب البيدانة القمراء يتلوها تولب بيده شملول، يطي بها خرزمة يقفوها عجول. أتقائض بعجولك جحجحازها. قال: فالتفت إليه الفارسي، وقال: يا بابا فارسي هم ندانم. البيدانة: الإتان. والقمراء: البيضاء الوجه. والتولب: ولد الحمار. والشملول: الغدق. و يطي: يدعو. والخرزمة: البقرة الوحشية. والجحجح: الكبش. والزهم: السمين. ولعله قصد بهذه المؤانسة لبعض الحاضرين، أو بدرت منه هذه الألفاظ بغير قصد، وإلا فهو سخيف العقل.

حكي: أن أبا علقمة الواسطي مرض. فأتاه أعين الطبيب فسأله عن سبب علته، فقال: أكلت من لحوم هذه الجوازل فطسئت طساة فأصابني وجع بين الوابلة إلى دابة العنق. فما زال يتماما و يتنمى حتى خالط الخلب وتألمت له الشراسيف. فقال له أعين: خذ شرفغاً وسرقاقر هزقه ودهدقه. فقال أبو علقمة: أعد لي فإني ما فهمت. فقال الطبيب: قبح الله أقلنا إفهاماً لصاحبه. «الجوازل»: فراخ الحمام، الواحدة جوزل. و «الطساة»: الهيضة. و «الوابلة» طرف الكتف وهو رأس العضد. ودابة العنق: فقارها. و يتماما: يتمدد. و «يتنمى»: تزايد. و «الخلب» بالكسر: حجاب القلب و يقال مضغة فوق الكبد. و «الشراسيف»: عضاريف متصلة بالاضلاع.

حكى ابن دريد عن الأصمعي: أن أعرابياً شهد لرجل مشجوج عند صاحب الشرطة فقال: بينا أنا على كودن يضهزرني إذ مررت بوصيد دار وإذا أنا بهذا الاحيشب يدع هذا دعا فنز بتزاشفا فعلاه بمنسأته فقهقر ثم بدره بمثلها فقطره ثم أدبر و برأسه جديع يسح نجيعاً على كتده. فقال صاحب الشرطة: شجني واعفني من سماع شهادة هذا الأعرابي «الكودن: البرذون. «يضهزرني»: يحركني «الوصيد»: الباب، الدع: الدفع. المنسأة: العصا. الاحيشب: تصغير الاحشب وهو الغليط. قهقر: رجع القهقرى. قطره: ألقاه على أحد قطريه وهما جانباه. السح: الصب. النجيع: الدم. الكتد: ما بين الكاهل إلى الظهر وهو بعيد مغرز العنق.

وذكر الزبير بن بكار أن بعض المتقعرين كتب إلى وكيل له بناحية

البصرة: أحمل إلينا من الخوزج والكنعد المهورين والأوز المهوج ولحم منها البيد. ما يصلح للتشزيز والقديد. فكتب إليه وكيله: إن لم تكف عن هذا الكلام بارت قريتك، فإن الفلاحين ينسبون من ينطق هذه الألفاظ إلى الجنون. الكنعد: ضرب من سمك البحر. والشيزازه: اليبس.

حكي أن لصاً قصد دار نحوي فاطلع وناداه: أيها الطارق. ما الذي أولعك بنا؟. إن أردت المال فعليك بابن الجصاص. وفلان وفلان أقواماً ذوي مال. وإن أردت الجاه فعليك بالقضاة. وإن أردت الكتابة فعليك بفلان وفلان أقواماً يكتبون. وإن أردت اللغة والنحو فعليك بي. وإن كنت تبغي القرا، فلج الدار وادخل المخدع واصب من الزاد ما يمسك حشاشة رقعك. فرفع اللص رأسه وقال: لو كانت الجنة دارك ما دخلتها.

حكي: أن طبيباً دخل على نحوي مريض فقال: ما كان أكلك أمس؟. قال: أكلت لحم عطعط، وساقة خرنق، وجوجو حنفطان اقتنصه بازي. فلما كان في الدجى أصبت منه معمعة في الحشا، وقرقرة في المعا. فقال الطبيب للحاضرين: هذه خفة ارتفعت إلى الدماغ فاصلحوا الغذاء له قبل أن يجن. العطعط: الجدي الخرنق: ولد الأرنب. الجوجو: الصدر؟ والحنفطان بالطاء المهملة: الدراج الذكر.

حكى أبو القاسم الراغب قال: ابتاع تلميذ ليعقوب بن اسحاق الكندي جارية فاغتاضت عليه: فشكا حالها إلى يعقوب. فقال له: جئني بها. قال، فلما حضرت عنده قال لها: يا لعوبة ما هذه الاختيارات الدالات على الجهالات. أما علمت أن فرط الاغتياضات من المواقعات على طالبي المودات موذنات بعدم المعقولات.

فقالت الجارية: حياك الله وبياك. أما علمت أن هذه العفونات المتيسرات على صدور ذوي الرقاعات محتاجات إلى المواسي الحالقات. فقال يعقوب لله درها لقد قسمت الكلام تقسيماً.

واعلم: أن الحكايات في هذا الباب تخرج عن حد الحصر وتقتضي الخروج

عن الجد إلى ضرب من الهزل. والحاصل: أن ما كان الحامل عليه غلبة هذه الصناعة مذموم، من جهة أن ذا الصناعة كان ينبغي أن يقوم قلبه ودينه، قبل أن يقوم ألفاظه. فاللحن في اللفظ ولا اللحن في الدين. وأيا ما كان الحامل عليه مجرد التقعر فهو رعونة. ومنهم من تكلف المسموع من الكلام حتى انتهى به الحال إلى أن وقع في الكنيف فجاءوه بكنافين. فكلمه أحدهم لينظر أهو حي. فقال: أطبا لي حبلاً دقيقاً، وشداني شداً وثيقاً، واجذباني جذباً رفيقاً. فقال أحدهم: أنا والله لا أنقذه فإنه في الكنيف إلى الحلق ولا يدع الفضول. حكاها صاحب (البصائر).

ثم اعلم أن مقصد علم اللغة مبني على أسلوبين:

لأن ــ (منهم): من يذهب من جانب اللفظ إلى المعنى، بأن يسمع لفظاً و يطلب معناه.

و (منهم): من يذهب من جانب المعنى إلى اللفظ. فبكل من الطريقين قد وضعوا كتباً، ليصل كل إلى مبتغاه، إذ لا ينفعه ما وضع في الباب الآخر. فمن وضع بالاعتبار الأول: فطريقة ترتيب حروف التهجي أما باعتبار أواخرها أبواباً، و باعتبار أوائلها فصولاً، تسهيلاً للظفر بالمقصود: كما اختاره الجوهري في (الصحاح) ومجد الدين الشيرازي في (القاموس). وأما بالعكس، أي باعتبار أوائلها أبواباً و باعتبار أواخرها فصولاً: كما اختاره ابن فارس في (المجمل)، والمطرزي في (المغرب). ومن وضع بالاعتبار الثاني: فالطريق إليه، أن يجمع الأجناس بحسب المعاني ويجعل لكل جنس باباً، كما اختاره الزمخشري في قسم الاسماء من كتاب (مقدمة الأدب) ثم ان اختلاف الهمم قد أوجب أحداث طرق شتى: فمن واحد أدى رأيه إلى أن يفرد لغات القرآن المجيد، ومن آخر إلى أن يفرد غريب الحديث، وآخر إلى أن يفرد لغات الفقه، كالمطرزي في كتاب (المغرب). وآخر إلى أن يفرد اللغات الواقعة في أشعار العرب وقصائدهم وما يجري مجراها كنظام الغريب. والمقصود هو الإرشاد عند مساس أنواع الحاجات.

واعلم: أن أول من دوَّن علم اللغة، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي رحمه الله:

فائدة:

هو: معمر بن المثنى، اللغوي، البصري، أبو عبيدة. مولى بني تيم تيم قريش رهط أبي بكر الصديق. أخذ عن يونس، وأبي عمرو. وهو أول من صنف غريب الحديث. أخذ عنه أبو عبيد، وأبو حاتم والمازني والأثرم وعمرو بن شبة. وكان أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيام. وكان أبو نواس يتعلم منه ويصفه ويذم الأصمعي. قيل: دأب الأصمعي الأنشاد والزخرفة قليل الفائدة وأبو عبيدة بضد ذلك. وقال يزيد بن مرة: ما كان أبو عبيدة يفتش عن علم من العلوم إلاَّ يظن أنه لا يحسن غيره. أقدمه الرشيد من البصرة إلى بغداد وقرأ عليه. وكان شعوبياً. قلت: الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم. وقيل: كان يرى رأي الخوارج الأباضية. قلت: هؤلاء متابعون لعبدالله بن أباض. يقولون: مخالفونا من أهل القبلة كفار غير مشركين، وان مرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن. ومرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة لا كفر ملة. وكفروا علياً رضي الله عنه وأكثر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. إلى غير ذلك من الجهالات.

قيل ــ قال الجاحظ في حق أبي عبيدة: لم يكن في الأرض خارجي أعلم بجميع العلوم منه.

وقال أبو قتيبة: كان الغريب أغلب عليه وأيام العرب وأخبارها. قال أبو حاتم: وكان مع علمه، إذا قرأ البيت لم يقم بإعرابه، وينشده مختلف العروض.

صنف:

١ ــ المجاز في غريب القرآن.
٢ ــ والأمثال في غريب الحديث.

٣ ــ والمثالب في أيام العرب.
٤ ــ ومعاني القرآن.
٥ ــ وطبقات الفرسان.
٦ ــ ونقائض جرير والفرزدق.
٧ ــ والخيل والإبل.
٨ ــ السيف.
٩ ــ اللغات.
١٠ ــ المصادر.
١١ ــ خلق الإنسان.
١٢ ــ فعل وافعل.
١٣ ــ ما يلحن فيه العامة.

وغير ذلك. وكان يقول شعراً ضعيفاً. وقال هو: إن أبي حدثني أن أباه كان يهودياً. ولد أبو عبيدة سنة إثنتي عشرة ومائة. ومات سنة ثمان أو تسع أو عشر أو احدى عشرة ومائتين.

ومن الكتب المختصرة في علم اللغة:

(كتاب العين): للخليل بن أحمد رحمه الله. هذا هو الصحيح. وقال أبو الطيب اللغوي: هو لليث بن نصر بن سيار. وقيل: عمل الخليل قطعة منه ــ أي كتاب العين ــ وكمله الليث. لأن أوله لا يناسب آخره. قال ابن المعتز: ان الخليل صنَّفه لليث وكان هو مكباً على حفظه وقراءته واتفق أن امرأة ليث غارته لأجل جارية. فأرادت أن تغيظه ــ وكانت تعرف أنه لا يبالي بالمال ــ فأحرقت الكتاب. فلما علم اشتد أسفه. ولم يكن عند غيره نسخة غير تلك النسخة التي احترقت، وكان الخليل مات. فأملى النصف من حفظه، وجمع علماء عصره وأمرهم أن يكملوه على نمطه. فعملوا هذا الذي بأيدي الناس اليوم ولم يماثلوه وإن اجتهدوا.

فائدة: الخليل هو: ابن أحمد بن عمرو بن تميم الأزدي الفراهيدي البصري، أبو عبد الرحمن. صاحب العربية والعروض. وهو أول من استخرج

العروض وحصر أشعار العرب بها. وكان دعا بمكة أن يرزقه الله علماً لم يسبق إليه. فرجع وفتح عليه بالعروض. وكانت له معرفة بالإيقاع والنغم، وهو الذي أحدث له علم العروض، فإنهما متقاربان في المأخذ. وهو أستاذ سيبويه. وعامة الحكاية في كتابه عنه. وكلما قال سيبويه: وسألته. أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل.

وكان الزهاد في الدنيا والمنقطعين إلى العلم. وطلبه سليمان بن علي من الأهواز لتأديب أولاده، فأخرج الخليل إلى رسوله خبزاً يابساً وقال: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان. وقال النضر بن شميل: أقام الخليل في خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكتسبون بعلمه الأموال. وكان الناس يقولون لم يكن في العرب بعد الصحابة أزكى منه. وكان يحج سنة ويغزو سنة. وأبوه أول من سمى أحمد بعد النبي صلى الله عليه وسلم. ويقال: إنه كان عند رجل دواء لظلمة العين ينتفع به الناس. فمات واحتاج الناس إليه، ولم يكن له نسخة. وكان له آنية يعمل فيها الدواء. فأخرج الخليل بشمها نوعاً نوعاً حتى أخرج خمسة عشر نوعاً. فعمله فانتفع به الناس. ثم وجد النسخة فوجدوا الأخلاط ستة عشر لم يفته منها إلا واحد.

والفراهيدي ويقال الفرهودي أيضاً وهو مفرد الفراهيد. نسبة إلى فراهيد ابن مالك بن مهم بن عبدالله بن مالك بن مضر بن الأزد.

وله تصانيف غير كتاب العين، كتب:

١ ـــ النغم.
٢ ـــ الجمل.
٣ ـــ العروض.
٤ ـــ الشواهد.
٥ ـــ النقط والشكل.
٦ ـــ فايت العين.
٧ ـــ الإيقاع.

توفي الخليل سنة خمس وسبعين ومائة أو سبعين أو ستين وله أربع وسبعون. وسبب موته أنه قال: أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يمكن أن يظلمها. فدخل المسجد وهو يعمل فكره فصدمته سيارة وهو غافل فانصدع ومات. ورؤي في النوم فقيل له: ما صنع الله بك. فقال: رأيت ما كنا فيه لم يكن شيئاً وما وجدت أفضل من: سبحان الله. والحمدلله. ولا إله إلا الله. والله أكبر.

ومن الكتب المختصرة في اللغة:

(المنتخب) و (المجرد): لعلي بن الحسن الهنائي المعروف بكراع النمل بضم الكاف، أبو الحسن النحوي اللغوي. قال ياقوت: هو من أهل مصر. أخذ عن البصريين. وكان نحوياً كوفياً.

صنَّف:

١ ــ المنضد في اللغة المجرد: مختصر ٢ ــ المهجد: مختصر ٣ ــ أمثلة غريب اللغة ٤ ــ المصحف المنظم رأيت خطه على المنضد وقد كتبه سنة سبع وثلاثمائة. انتهى.

ومن المتوشطات:

(المجمل): لابن فارس. وهو أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسنين. اللغوي القزويني. كان نحوياً على طريقة الكوفيين. سمع أباه، وعلي بن إبراهيم بن سلمة القطان. وقرأ عليه الأديب الهمذاني. وكان مقيماً بهمذان فحمل منها إلى الري ليقرأ عليه أبو طالب بن فخر الدولة، فسكنها. وكان شافعياً فتحول مالكياً وقال: أخذتني الحمية لهذا الامام أن يخلو مثل هذا البلد عن مذهبه. وكان الصاحب بن عباد تلمذ له و يقول: شيخنا ممن رزق حسن التصنيف وكان كريماً جواداً ربما سئل فيهب ثيابه وفرش بيته.

صنَّف:

١ ــ المجمل في اللغة.

٢ ــ فقه اللغات.

٣ ــ مقدمة في النحو.

٤ ــ ذم الخطأ في الشعر.

٥ ــ فتاوى فقيه العرب.

٦ ــ الاتباع والمزاوجة.

٧ ــ اختلاف النحويين.

٨ ــ الانتصار لثعلب النحوي.

٩ ــ الليل والنهار.

١٠ ــ خلق الإنسان.

١١ ــ تفسير أسماء النبي صلى الله عليه وسلم.

وغير ذلك.

قال الذهبي: مات سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. وهو أصح ما قيل في وفاته.

ومن شعره:

إذا كنت في حاجة مرسلا وأنت بها كلف مغرم
فارسل حكيماً ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم

ومنها:

(ديوان الأدب): للفارابي. وهو إسحاق بن إبراهيم الفارابي أبو ابراهيم، وخال أبي نصر الجوهري. وترامى به الاغتراب إلى أرض اليمن وسكن زبيد وبها صنف كتاب: (المجمل) ومات قبل أن يروى عنه قريباً من سنة خمسين وثلاثمائة وقيل: في حدود السبعين. وقال ياقوت: رأيت نسخة من هذا الكتاب بخط الجوهري وقد ذكر فيها أنه قرأه على أبي ابراهيم بفاراب. وقال الحاكم قرأت بعضه على يوسف بن محمد بن ابراهيم الفرغاني. قال: قرأته على

أبي علي الحسن بن علي بن سعيد الزاميني. قال: قرأته على مؤلفه أبي ابراهيم. فهذا يبطل القول المذكور، أعني أنه لم يرو عنه هذا الكتاب.

وله أيضاً..

١ ـــ شرح أدب الكاتب.

٢ ـــ بيان الاعراب.

ومن المبسوطات..

(العالم في اللغة): لأحمد بن ابان بن أسيد، اللغوي الأندلسي.

أخذ عن أبي علي التالي وغيره. وكان عالماً اماماً في اللغة والعربية، حاذقاً أديباً سريع الكتابة. روى عنه الاقليلي.

وصنَّف..

١ ـــ العالم ـــ بفتح اللام ـــ في اللغة. مائة مجلد. مرتب على الأجناس. بدأ فيه بالفلك. وختم بالذرة.

٢ ـــ وشرح كتاب الأخفش.

وغير ذلك.

مات سنة إثنتين وثلاثين وثلاثمائة. قلت: أسمع بهذا الكتاب ولم أره.

ومنها..

(التهذيب) و (الجامع): للأزهري.

وهو محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح الأزهري اللغوي الأديب الهروي الشافعي، أبو منصور. ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين. وأخذ عن الربيع بن سليمان ونفطويه وابن السراج وأدرك ابن دريد ولم يرو عنه. وورد بغداد وأسرته القرامطة. فبقي فيهم دهراً طويلاً. وكان رأساً في اللغة. أخذ عنه الهروي صاحب الغريبين.

وله من التصانيف:

١ ـ التهذيب: في اللغة.
٢ ـ تفسير ألفاظ مختصر المزني.
٣ ـ التقريب في التفسير.

وغير ذلك.

وكان عارفاً بالحديث. عالي الاسناد ثخين الورع. مات في ربيع الآخر سنة سبعين وثلا ثمائة.

ومنها:

(العباب الزاخر): للصغاني ويقال الصاغاني بالألف، وهو الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي العدوي العمري الإمام رضي الدين أبو الفضائل الصغاني بفتح الصاد المهملة وتخفيف الغين المعجمة ويقال الصاغاني بالألف، الحنفي، حامل لواء اللغة في زمانه. قال الذهبي: ولد بمدينة لوهور سنة سبع وسبعين وخمسمائة. ونشأ بغزنة ودخل بغداد سنة خمس عشرة وستمائة. وذهب منها بالرياسة الشريفة إلى صاحب الهند، فبقي مدة وحج، ودخل اليمن. ثم عاد إلى بغداد ثم إلى الهند ثم الى بغداد. وسمع من النظام المرغيناني، وكان إليه المنتهى في اللغة. كان يقول لأصحابه: احفظوا غريب أبي عبيد، فمن حفظه ملك ألف دينار، فإني حفظته فملكتها، وأشرت على بعض أصحابي بحفظه فحفظها وملكها. حدث عنه الشرف الدمياطي، كان شيخاً صالحاً صدوقاً صموتاً عن فضول الكلام إماماً في اللغة والحديث.

وله من التصانيف:

١ ـ مجمع البحرين: في اللغة. إثني عشر مجلداً.
٢ ـ التكملة على الصحاح..
٣ ـ العباب الزاخر: وصل فيه إلى باب بكم. وفيه قيل:

ان الصغاني الذي   حاز العلوم والكم

كـــان قـــصـــارى أمـــره ان انتهـــى إلى بـــكـــم

وصنَّف:

٤ ـ الشوارد: في اللغات.

٥ ـ وتوشيح الدريدية.

٦ ـ والتراكيب.

٧ ـ وفعال وفعلان.

٨ ـ والاضداد.

٩ ـ وكتاب أسماء السعادة.

١٠ ـ وكتاب الأثر.

١١ ـ وكتاب أسماء الدين.

١٢ ـ ومشارق الأنوار: في الحديث.

١٣ ـ وشرح البخاري. مجلد.

١٤ ـ ودر السحابة في وفيات الصحابة.

١٥ ـ والعروض.

١٦ ـ وشرح أبيات المفصل.

١٧ ـ ونقعة الصديان.

١٨ ـ وكتاب في التصريف.

١٩ ـ وكتاب مناسك الحج.

وغير ذلك.

قال الدمياطي: وكان معه طالع مولود، وقد حكم فيه بموته في وقته فكان يترقب ذلك اليوم. فحضر ذلك اليوم، وهو معافى. فعمل لأصحابه طعاماً شكران ذلك. وفارقناه، وعديت إلى الشط فلقيني شخص أخبرني بموته. فقلت له: الساعة فارقته. فقال: والساعة وقع الحمام يخبر بموته فجأة. وذلك سنة خمسين وستمائة.

ومنها:

(المحكم): لابن سيده.

وهو علي بن أحمد بن سيده، اللغوي النحوي الأندلسي، أبو الحسن الضرير. وقيل: اسم أبيه محمد. وقيل إسماعيل. كان حافظاً لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والاشعار وأيام العرب وما يتعلق بها. متوفراً على علوم الحكمة. روى عن أبيه وصاعد بن الحسن البغدادي. قال أبو عمر الطلمنكي: دخلت مرسية فتشبث بي أهلها ليسمعوا عليّ غريب المصنف. فقلت لهم: أنظروا من يقرأ لكم. فأتوا برجل أعمى يعرف بابن سيده. فقرأ علي من أوله إلى آخره من حفظه فعجبت منه.

صنَّف:

١ ــ المحكم والمحيط الأعظم: في اللغة.
٢ ــ شرح اصلاح المنطق.
٣ ــ شرح الحماسة.
٤ ــ شرح كتاب الأخفش.

وغير ذلك.

مات سنة ثمان وخمسين وأربعمائة عن نحو ستين سنة.

ومنها:

(الصحاح): للجوهري.

وهو المشهور عند الجمهور واسمه اسماعيل بن حماد الامام أبو نصر الفارابي. قال ياقوت: كان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وعلماً. وأصله من فاراب الترك. وكان إماماً في اللغة والأدب. وخطه يضرب به المثل لا يكاد يفرق بينه وبين خط ابن مقلة. وهو مع ذلك من فرسان الزمان في الكلام والأصول.

وكان يؤثر السفر على الحضر و يطوف الآفاق. ودخل العراق فقرأ العربية على أبي علي الفارسي والسيرافي. وسافر إلى الحجاز وشلفه باللغة العربية العاربة. وطوف بلاد ربيعة ومضر ثم عاد إلى خراسان ونزل الدامغان عند أبي الحسين بن علي أحد أعيان الكتاب والفضلاء. ثم أقام بنيسابور ملازماً للتدريس والتأليف وتعليم الخط وكتابة المصاحف والدفاتر حتى مضى لسبيله عن آثار جميلة:

وصنَّف:

١ ــ كتاباً في العروض؛

٢ ــ ومقدمة في النحو؛

٣ ــ والصحاح في اللغة: وهو الكتاب الذي بأيدي الناس اليوم عليه اعتمادهم، أحسن تصنيفه وجود تأليفه. وفيه يقول إسماعيل بن عبدوس النيسابوري:

هذا كتاب الصحاح سيد ما   صنف قبل الصحاح في الأدب
يشمل أبوابه ويجمع ما   فرق في غيره من الكتب

هذا مع تصحيف فيه في مواضع عدة تتبعها عليه المحققون. وقيل: إن سببه أنه لما صنف سمع عليه إلى باب الضاد المعجمة، وعرض له وسوسة. فانتقل إلى الجامع الكبير بنيسابور فصعد سطحه وقال: أيها الناس اني عملت في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه. فسأعمل للآخرة أمراً لم أسبق إليه؛ وضم إلى جنبيه مصراعي باب وتأبطها بحبل وصعد مكاناً عالياً، وزعم أنه يطير، فوقع ومات. وبقي سائر الكتاب مسودة غير منقح ولا مبيض. فبيضه تلميذه إبراهيم بن صالح الوراق فغلط فيه في مواضع. قال ياقوت: وقد بحثت عن مولده ووفاته بحثاً شافياً فلم أقف عليها. وقد رأيت نسخة من الصحاح عند الملك المعظم بخطه، وقد كتبها في سنة ست وتسعين وثلاثمائة. وقال ابن فضل الله في (المسالك): مات سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وقيل في حدود الأربعمائة.

ومن شعره:

لو كان لي بد من الناس   قطعت حبل الناس باليأس

الحفظ للعزلة لكنه لا بد للناس من الناس

هذا ما ذكره السيوطي. قلت: رأيت في ظهر بعض نسخ (الصحاح) أن الجوهري ابن أخت الفارابي، وهو أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي صاحب (ديوان الأدب) ذكره أبو سهل الهروي بخطه. ثم قال: توفي رحمه الله في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وقد تلقت الأمة كتابه بالقبول.

ولابن برزي عليه (حواش) مفيدة. وله (تكملة وحواش): للصغاني، ويجمع بينهما وبين (الصحاح) في (مجمع البحرين) إلا أنه قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط لا يقبل ما تفرد به، وأنكر عليه قوله سائر الناس جميعهم وقال: إنه تفرد به. ورد التبريزي والجواليقي وغيرهما نقلوا ذلك. قال نصر بن عيسى بن علي بن خروي: وصلت إلى الموصل في سنة خمس وثمانين وخمسمائة ووجدت ثمة صحاح اللغة بخط الشيخ أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، وعلى ظهرها مكتوب عارضته من أوله إلى آخره: وهو كتاب حسن الترتيب سهل المطلب لما يراد منه. وقد أتى بأشياء حسنة وتفاسير مشكلات من اللغة إلا أنه مع ذلك فيه تصحيف كثير لا يشك أنه من المصنف لا من الناسخ لأن الكتاب مبني على الحرف، فمن جملته المسألة المعروفة من كتاب سيبويه: ما أغفله عنك شيئاً أي دع الشك. ولفظ سيبويه بالغين المعجمة والفاء، فأثبته في فصل العين المهملة والقاف. وإنما فسره سيبويه بقوله: دع الشك. إشارة إلى أن شيئاً ليس مفعول أفعل لأنه استوفى مفعوله، ومعناه: أن إنساناً توهم أن إنساناً معين بأمره كافل له فقيل له ما أغفل هذا الذي تظنه معيناً بأمرك دع أمراً يشكك فيه. كذا بينه ابن جني. وقد بينت ما صحف فيه وأثبته في متن الكتاب بعلامة (ظ) قلت: أراد به الخطيب ولا يخلو الكتب الكبار من سهو فيها أو غلط. وهذا أبو عبيد كم رد عليه في (الغريب) غير أن القليل من الغلط في جنب الكثير الذي اجتهدوا فيه واتعبوا نفوسهم في تصحيحه وتنقيحه معفو عنه. أنشد الإمام رشيد الدين عمر بن محمد بن عمر بن نصر الفرغاني رحمه الله:

ليست صحاح الجوهري إلاّ صحاح الجوهر

مـــا فـــيـــه مـــن مـــكـسر   حـــاشـــاه مـــن مـــكـسر

ولبعض الأدباء في استعارة هذا الكتاب مخاطباً لبعض الرؤساء:

مـولاي ان وافـيـت بـابك طـالـبـاً   منـك الـصحـاح فـلـيـس ذا بمـنـكر
الـبـحـر أنـت وهـل يـلام فتى سعى   للـبـحـر كـي يـلق صـحـاح الجـوهـر

قيل: يقال كتاب (الصَحاح) بفتح الصاد. وهو اسم مفرد بمعنى الصحيح. يقال: صححه الله فهو صحيح وصحاح والجاري على ألسنة الأكثرين كسر الصاد على أنه جمع صحيح مثل ظريف وظراف، وبعضهم ينكسر الكسر بالنسبة الى تسمية هذا الكتاب ولا مستند له إلا أن يقال إنه ثبت روايته عن مصنفه والله أعلم.

قلت: وقد علق ابن بري نكتا مفيدة على (الصحاح). وهو عبدالله بن بري بن عبد الجبار أبو محمد المقدسي المصري النحوي اللغوي. شاع ذكره واشتهر ولم يكن في الديار المصرية مثله. قرأ (كتاب سيبويه) على محمد بن عبد الملك الشنتريني وتصدر للاقراء بجامع عمرو. وكان مع علمه وغزارة فهمه ذا غفلة. يحكى عنه حكايات عجيبة، منها: أنه جعل في كمه عنباً فجعل يعبث به، ويحدث شخصاً حتى نقط على رجليه، فقال لرفيقه: تحس المطر. فقال: لا وإنما هو من العتب. فخجل ومضى. وكان قيماً بالنحو واللغة والشواهد، ثقة. قرأ عليه الجزولي وأجاز لأهل عصره وكان له تصفح على ديوان الإنشاء.

وصنَّف:

١ ــ اللباب في الرد على ابن الخشاب:

في رده على (درة الخواص): للحريري.

٢ ــ وله: حواش على الصحاح:

قال الصفدي: لم يكملها بل وصل الى «وقش» وهو ربع الكتاب، فأكملها الشيخ عبدالله بن محمد البسطي.

مات ابن بري ليلة السابعة والعشرين من شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة. قلت: للصحاح (تكملة) (وحواش): للصغاني ويجمع بينهما وبين (الصحاح) في (مجمع البحرين).

ومن المبسوطات من كتب اللغة:

(اللامع المعلم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب): وقد بلغ تمامه ستين مجلدة ثم لخصه مؤلفه مجد الشيرازي من مجلدتين وسماه:

(القاموس المحيط، والقابوس الوسيط، الجامع لما ذهب من لغة العرب شماطيط) قلت: القاموس: معظم ماء البحر. والقابوس: الرجل الجميل الحسن الوجه الحسن اللون. ويقال: رجل وسيط فيهم: أي أوسطهم نسباً وأرفعهم محلاً. ويقال: قوم شماطيط: أي متفرقة إرسالاً.

واعلم: أن صاحب القاموس زاد على (الصحاح) مثل ما فيه. وميرز زياداته بالحمرة. وأخذ على الصحاح في كثير من المواضع وبين أغلاطه وأوهامه. وهو: محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن إدريس ابن فضل الله الشيرازي الفيروز آبادي العلامة مجد الدين أبو الطاهر. إمام عصره في اللغة. قال ابن حجر: كان يرفع نسبه إلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي صاحب (التنبيه) ويذكر بعد إبراهيم بن عمر بن أحمد بن محمود بن إدريس بن فضل الله بن الشيخ أبي إسحاق وكان الناس يطعنون في ذلك مستندين إلى أن الشيخ لم يعقب. وكان لا يبالي من ذلك. ثم ارتقى فادعى بعد أن ولي قضاء اليمن أنه من ذرية أبي بكر الصديق وكتب بخطه «الصديقي».

قال ابن حجر: ولم يكن مدفوعاً عن معرفة، إلا أن النفس تأبى قبول ذلك. ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائة بكازرون وتفقه ببلاده وسمع بها من محمد بن يوسف الزرندي المدني ونظر في اللغة، فهر فيها إلى أن بهروفاق. واشتهر اسمه — وهو شاب — في الآفاق. وطلب الحديث، وسمع من الشيوخ وقدم الشام بعد الخمسين، أما سنة خمس أو في السنة التي بعدها، فسمع بها من ابن الخباز وابن القيم والتقي السبكي وولده تاج الدين والعرضي وابن نباته والشيخ خليل

المالكي، وعن القاضي عز الدين بن جماعة وخلق كثير. ودخل القدس وسمع من الحافظ صلاح الدين العلائي. ثم دخل مصر وسمع بها وقدم مكة وسمع بها رجال في البلاد، ولقي جماعة من الفضلاء وأخذ عنهم وأخذوا عنه، وظهرت فضائله وكتب الناس تصانيفه. وذكره الصفدي في تذكرته، وكتب عنه في سنة سبع وخمسين بدمشق. وجال في البلاد الشمالية والشرقية. ودخل الهند، ثم زبيد فتلقاه ملكها الأشرف إسماعيل بالقبول وقرره في قضائها وبالغ في اكرامه، ووافق دخوله بها وفاة القاضي جمال الدين الريمي شارح التنبيه، فقرره الملك الأشرف إسماعيل في القضاء بالبلاد اليمنية. فلم يزل ذلك باسمه إلى أن مات. وكان الأشرف يكرمه كثيراً. وصنف له كتاباً وأهداه على أطباق فملأها له فضة. ولم يقدر انه دخل بلداً إلا وأكرمه متوليه.

وكان معظماً عند الملوك. أعطاه تيمورلنك خمسة آلاف دينار ودخل الروم فأكرمه ملكه ابن عثمان، وحصل له منه فيه دنيا طائلة. ومع ذلك إنه كان قليل المال لسعة نفقاته، وكان يدفعه إلى من يمحقه بالإسراف. ولا يسافر إلا وصحبته عدة أحمال من الكتب، ويخرج أكثرها في كل منزلة ينظر فيها ويعيدها إذا رحل. وكان إذا أملق باعها. وكان سريع الحفظ. يحكى عنه أنه كان يقول: ما كنت أنام حتى أحفظ مائتي سطر.

وأما معرفته باللغة واطلاعه على نوادرها، فأمره مستفيض.

ومصنفاته كثيرة: وقد عد منها بضعة وأربعون مصنفاً.

منها:

١ ــ اللامع المعلم العجاب: الجامع بين المحكم والعباب. لم يكمل؛

٢ ــ والقاموس المحيط: بالغ في اختصاره وتحريره وحذف الشواهد؛

٣ ــ وفتح الباري بالسيح الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري.

قال ابن حجر: ملأه بغرائب المنقولات، ونوادر اللغات. كمل منه ربع العبادات، في عشرين جزءاً. قال السيوطي: وقد أخذ ابن حجر منه اسمه وسمي به (شرح البخاري) تأليفه.

وصنَّف:

٤ ــ شوارق الأسرار في شرح مشارق الأنوار. أربعة مجلدات.

وصنَّف للأشراف كتاباً سماه:

٥ ــ الاصعاد إلى رتبة الاجتهاد. في أربعة أسفار.

وصنَّف لولده الناصر كتاباً سماه:

٦ ــ تسهيل الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول. أربعة مجلدات.

٧ ــ وبصائر ذو التميز في لطايف الكتاب العزيز، مجلدان.

٨ ــ وشرح عمدة الأحكام مجلدان.

٩ ــ وكتاب: المرقاة الأرفعية في طبقات الشافعية.

١٠ ــ وكتاب: المرقاة الوفية في الطبقات الحنفية.

١١ ــ والبلغة في تاريخ أئمة اللغة: كتاب لطيف في الغاية.

١٢ ــ وألف كتاباً على (المجمل): لابن فارس، أخذ عليه فيه ألف مكان ومع هذا كان يثني على صاحبه ابن فارس.

وصنَّف:

١٣ ــ تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين.

١٤ ــ الروض المسلوف فيما له اسمان إلى الألوف.

١٥ ــ وشرح الفاتحة.

١٦ ــ وكورة الخلاص في تفسير سورة الاخلاص.

١٧ ــ والمتفق وضعاً المختلف صنعاً.

١٨ ــ ومن تسمى باسماعيل.

١٩ ــ وأسماء النكاح.

٢٠ ــ وأسماء الليث.

٢١ ــ وأسماء الخندريس.

٢٢ ــ أسماء العادة.
٢٣ ــ مقصود ذوي الألباب في علم الاعراب.
٢٤ ــ شرح خطبة الكشاف.
٢٥ ــ شرح عمدة الأحكام.

وغير ذلك من المصنفات الكثيرة. ولما اشهرت مقاله ابن العربي اليمن، صار يدخل منها فيه، فشانه. ولم يكن متهماً بالمقالة المذكورة إلا أنه كان يحب المداوراة.

توفي بزبيد ليلة العشرين من شوال سنة ست أو سبع عشرة وثمانمائة وهو ممتع بحواسه. ودفن بتربة الشيخ اسماعيل الجبرتي. وهو آخر من مات من الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفن فاق فيه أقرانه على رأس القرن الثامن. وهم: الشيخ سراج الدين البلقيني، في الفقه على مذهب الشافعي، والشيخ زين الدين العراقي، في الحديث والشيخ سراج الدين بن الملقن، في كثرة التصانيف في فن الفقه والحديث. والشيخ شمس الدين الفناري، في الإطلاع على كل العلوم العقلية والنقلية والعربية. والشيخ أبو عبدالله بن عرفة، في فقه المالكية وفي سائر العلوم بالمغرب. والشيخ مجد الدين الشيرازي في اللغة.

قلت: روى لنا غير واحد وسئل بالروم عن قول علي كرم الله وجهه لكاتبه: الصق روانفك بالجبوب، وخذ المزبر بشناترك، واجعل جندورتيك إلى قيهلي حتى لا أنغى نغية ألا أودعتها حماطة جلجلانك. ما معناه؟ فقال: معناه الزق عضرطك بالصلة، وخذ المسطر باحاحسك، واجعل جحمتيك الى ثعباني حتى لا أنبس نبسة إلا وعيتها في عظة رياطك. فتعجب الحاضرون من سرعة الجواب مع هذا الإبداع والاغراب.

قلت: الروانف: المقعدة. والجبوب: الأرض. والمزبر: القلم. والشناتر: الأصابع. والجندورتان: الحدقتان. وقيهلي: أي وجهي. وانغي: أي أنطق. والحماطة: الحبة. والجلجلان: القلب. هذا ما ذكره السيوطي رحمه الله تعالى.

ومن الكتب الجامعة في اللغة:

كتاب: (لسان العرب): الذي جمع فيه بين (التهذيب) و(المحكم) و(الصحاح) وحواشيه و(الجمهرة) و(النهاية): للشيخ محمد بن مكرم بن علي وقيل رضوان بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري، جمال الدين أبو الفضل.

(ولد) في المحرم سنة ثلاثين وستمائة وسمع من ابن المقير وغيره وجمع وعمر حدث. واختصر كثيراً من كتب الأدب المطولة: (كالأغاني) و(العقد) و(الذخيرة) و(ومفردات ابن البيطار) ويقال: ان مختصراته خمسمائة مجلد. وخدم في ديوان الإنشاء مدة عمره وولي قضاء طرابلس وكان صدراً رئيساً فاضلاً في الأدب مليح الإنشاء. روى عنه السبكي والذهبي وقال: تفرد بالعوالي. وكان عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة. واختصر (تاريخ دمشق) في نحو ربعه. وعنده تشيع بلا رفض (مات) في شعبان سنة إحدى عشرة وسبعمائة. ومن نظمه:

شعر

بالله ان جزت بوادي الاراك — وقبلت عيدانه الخضر فاك
ابعث إلى عبدك من بعضها — فانني والله مالي سواك

ومن المختصرات في اللغة:

(السامي في الأسامي): للميداني.

وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري أبو الفضل الإمام الفاضل الأديب النحوي اللغوي. قال ياقوت: قرأ على الواحدي وغيره. وأتقن اللغة والعربية.

وصنّف:

١ ـــ الأمثال.
٢ ـــ والسامي في الأسامي.

٣ ـــ والانموذج في النحو.

٤ ـــ والمصادر.

٥ ـــ ونزهة الطرف في علم الصرف.

٦ ـــ وشرح المفضليات.

وغير ذلك.

ووقف الزمخشري على كتابه (الأمثال) فحسده عليه. فزاد في لفظة الميداني نوناً قبل الميم فصار النميداني ومعناه بالفارسية: الذي لا يعرف شيئاً. فعمد إلى بعض كتب الزمخشري فجعل الميم نوناً فصار الزنخشري ومعناه: بائع زوجته. قرأ عليه أئمة. و (مات) في رمضان سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

قلت: المعنى المذكور أعني بائع زوجته ليس يحصل بتبديل الميم نوناً فقط بل يجب مع ذلك تقديم الشين على الخاء و يقال «زنش خرى». وأما بدون هذا التقديم فمعناه أمر قبيح شنيع وهو تغوط على ذقنه. والميداني نسبة إلى ميدان زياد بن عبد الرحمن وهي محلة في نيسابور.

ومن المختصرات:

(الدستور).

و (مرقاة الأدب).

ومما يختص بلغة الفقهيات:

(المغرب): للمطرزي.

وهو ناصر بن عبد السيد بن علي بن المطرز أبو الفتح النحوي الأديب المشهور بالمطرزي من أهل خوارزم. قرأ على الزمخشري والموفق أخطب خوارزم. وبرع في النحو واللغة والفقه. وكان على مذهب الحنفية وكان لهم كالأزهري للشافعية. وكان يقال هو خليفة الزمخشري[1]، وكان معتزلياً.

---

(١) هامش: «قال في الصحيفة الآتية في ترجمة النسفي توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، قال: وفي هذه السنة توفي العلامة أبو القاسم الزمخشري وقال ها هنا في ترجمة أبي الفتح المطرزي: وتوفي في

صنَّف:

١ ــ شرح المقامات.

٢ ــ والمغرب في لغة الفقه.

٣ ــ والمعرب في شرح المغرب.

٤ ــ والاقناع في اللغة.

٥ ــ والمختصر الموسوم: بالمصباح: في النحو. وهو مشهور بأيدي الناس اليوم.

٦ ــ ومختصر (الاصلاح): لابن السكيت.

(ولد) في رجب سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. ومات بخوارزم في يوم الثلاثاء حادي عشر من جمادي الأولى سنة عشر وستمائة.

ومما يختص بلغة الفقهيات أيضاً:

كتاب: (طلبة الطلبة): للشيخ الإمام الأجل الزاهد نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن علي بن لقمان النسفي. وسمع الحديث.

له:

١ ــ كتاب: طلبة الطلبة.

قلت «الطلبة» بكسر اللام ما طلبته من شيء و «الطلبة» بفتح اللام جمع طالب. ذكر فيه ألفاظ الفقه الواقعة في كتب الحنفية.

٢ ــ ونظم الجامع الصغير.

وله كتاب:

٣ ــ المنظومة في الخلافيات.

رجب سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة فيكون سنة موت الزمخشري سنة ولادة المطرزي فلا يمكن أن يكون المطرزي تلميذ الزمخشري وكونه خليفة كما ذكره فلعله السهو في النسخة أو الرواية نفسها». هـ.أ.

وله كتاب:

٤ ـــ القند في علماء سمرقند.

وغير ذلك من التصانيف.

قال السمعاني: كان إماماً فاضلاً مبرزاً متقناً. سمع أبا محمد التنوخي وأبا الحسين محمد بن محمد بن الحسين البزدوي وغيرهما. وصنف في كل نوع من العلم في التفسير والحديث والشروط. صنف قريباً من مائة مصنف. وقد استقريت مصنفاته فرأيت فيها أوهاماً كثيرة. فعرفت أنه كان ممن أحب الحديث وطلبه ولم يرزق مهلة التجريد.

قال صاحب (تاج التراجم): ومن ذا سلم من ذا. قلت: ولقد أنصف في هذا القول فرضي الله عنه وعن سائر المصنفين. وولد بنسف في شهور سنة إحدى أو اثنتين وستين وأربعمائة. وتوفي ليلة الخميس ثاني عشر جمادي الأولى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. وفي هذه السنة توفي أيضاً العلامة أبو القاسم الزمخشري.

ومما يختص بغريب الحديث:

(الفائق): لمحمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو القاسم جار الله. وستسمع تفصيله في باب التفسير في ذكر كتاب (الكشاف) لأنه أشهر بذلك منه بغيره.

ومما يختص بغريب الحديث:

(النهاية في غريب الحديث والأثر): للجزري.

وهو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني العلامة مجد الدين أبو السعادات الجزري الأربلي المشهور بابن الأثير. من مشاهير العلماء وأكابر النبلاء وأوحد الفضلاء.

(ولد) سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالجزيرة وانتقل إلى الموصل. وأخذ

النحو عن ابن الدهان ويحيى بن سعدون القرطبي. وسمع الحديث متأخراً من ابن عبد الوهاب بن سكينة وغيره. وتنقل في الولايات. وكتب الإنشاء. ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه ومنعه الكتابة فانقطع في بيته يغشاه الأكابر والعلماء. فجاءه مغربي فالتزم أنه يداويه ولا يأخذ أجرة إلا بعد برئه وأخذ في معالجته بدهن صنعه ولانت رجلاه، وأشرف على البرء، فأرضى المغربي بشيء وصرفه فلامه أخوه عز الدين فقال: أنا كنت في راحة مما كنت فيه من صحبة هؤلاء القوم والتزم اخطارهم وقد سكنت روحي الى الانقطاع والدعة فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاؤني بأنفسهم ليأخذوا رأيي.

وله من التصانيف:

١ ــ النهاية في غريب الحديث: وهو كتاب غريب لم يعهد نظيره في بابه.

٢ ــ جامع الأصول في أحاديث الرسول: وهذا الكتاب أحد أركان الحديث وعون دين الإسلام.

٣ ــ البديع في النحو.

٤ ــ الباهر في الفروق في النحو.

٥ ــ تهذيب فصول ابن الدهان.

٦ ــ الانصاف بين الثعلبي وصاحب الكشاف.

٧ ــ شرح مسند الشافعي.

٨ ــ البنين والبنات، والآباء والأمهات، والأذواء والذوات. قال السيوطي: وقفت عليه ولخصت منه الكنى في كراسة.

(مات) يوم الخميس سلخ ذي الحجة سنة ست وستمائة.

علم الوضع

وهو: علم باحث عن تفسير الوضع، وتقسيمه إلى الشخصي، والنوعي، والعام والخاص، وبيان حال وضع الذوات، والهيئات، إلى غير ذلك من الأحوال. وموضوعه وغايته، ومنفعته، لا يخفى على المتدرب. وهذا علم نافع في الغاية إلا أنه لم يدون بعد. ولقد ذكر نبذاً منها مولانا عضد الدين في رسالته:

(الوضعية) لكنها قطرة من البحر ورشفة من ذلك النهر. والله أعلم. ولئن وقع في الأجل فسحة وساعدني التوفيق لاتنصب في إيفاد هذا الفن حقه و بالله التوفيق وهو ميسر كل عسير.

علم الاشتقاق

وهو العلم الباحث عن كيفية خروج الكلم بعضها عن بعض بسبب مناسبة بين المخرج والخارج بالأصالة والفرعية، و باعتبار جوهرها. وإنما ذكرنا هذا القيد إذ يبحث في الصرف أيضاً عن الأصالة والفرعية بين الكلم، لكن لا بحسب الجوهرية، بل بحسب الهيئة. مثلاً يبحث في الاشتقاق عن مناسبة نعق ونهق وهذا مختص بالجوهر فقط. و يبحث في الصرف عن المناسبة لا بحسب الجوهرية بل بحسب الهيئة، لأنه باحث عن الهيئات بالاتفاق. وبهذا يظهر امتياز العلمين. ومن توهم اندراج الاشتقاق في الصرف يلزم أن يؤخذ فيه ما ليس له مدخل في الهيئة لكنه ليس كذلك اتفاقاً. وبهذا عرفت ما في بعض شروح (المفتاح) حيث توهم درج الاشتقاق في الصرف، والتفصيل هناك في تعليقاتنا على (شرح المفتاح). وموضوعه: المفردات من الحيثية المذكورة. ومن جملة مبادئه: قواعد مخارج الحروف. ومسائله: القواعد التي يعرف منها أن الاصالة والفرعية بين المفردات بأي طريق يكون وبأي وجه يعلم. ودلائله: مستنبطة من قواعد علم المخارج وتتبع مفردات ألفاظ العرب واستعمالاتها. وغرضه: تحصيل ملكة يعرف بها الانتساب على وجه الصواب. وغايته: الاحتراز عن الخلل في الانتساب الذي يوجب الخلل في ألفاظ العرب.

واعلم: أن مدلول الجواهر بخصوصها يعرف من اللغة، وانتساب البعض إلى البعض على وجه كلي إن كان في الجوهر فالاشتقاق، وإن كان في الهيئة فالصرف. و يعلم من هذا الفرق بين هذه العلوم الثلاثة. وأن الاشتقاق كالبرزخ بين الباقيين. ولهذا استحسنوا تقديمه على الصرف وتأخيره عن اللغة. وهذا الفرق قد اشتبه على كثير من الفضلاء حتى شراح (المفتاح). فتدبر فيه فإنه من الفوائد المهمة.

واعلم: أن هذا العلم كثيراً ما يذكر في كتب التصريف وقلماً يدون مفرداً، أما لقلة قواعده أو لاتصالها في القواعد واشتراكها في المبادىء، حتى أن هذا من جملة البواعث على اتحادهما حيث لم يعرفوا أن الاتحاد في التدوين لا يستلزم الاتحاد في نفس الأمر إذ كثيراً ما يدون عدة فنون في كتاب واحد. ولهذا لم نذكر مصنفات علم الاشتقاق واكتفينا بذكر مصنفات علم الصرف.

علم الصرف

هو علم يعرف منه أنواع المفردات الموضوعة بالوضعي النوعي ومدلولاتها والهيئات الأصلية العامة للمفردات والهيئات التغيرية وكيفية تغيراتها عن هيئاتها الأصلية على الوجه الكلي بالمقاييس الكلية.

وموضوعه: الصيغ المخصوصة من الحيثية المذكورة.

وغرضه: تحصيل ملكة يعرف بها ما ذكر من الأحوال.

وغايته: الاعتراز عن الخطأ من تلك الجهات.

ومبادئه: مقدمات مستنبطة من تتبع استعمال كلام العرب.

فائدة:

يسأل في كل من الماضي، والمضارع، والأمر عن أربعة أسئلة:

حده، وحكمه، وأقسامه، وعلاماته.

حد الماضي: ما وقع وانقطع، والمضارع: ما لم يقع أو وقع وما انقطع، والأمر: ما دل على الطلب وقبل نون التأكيد.

وحكم الماضي: أن يبنى على الفتح، والمضارع: أن يعرب ما لم يتصل به نون توكيد أو أناث فيبنى، والأمر: أن يبنى على السكون.

وأقسام الماضي: صحيح، ومعتل. والمضارع: حاضر، ومستقبل. والأمر: ما كان على وزن أفعل وعلى وزن ليفعل.

وعلامات الماضي: دخول التاء عليه مضمومة كانت أو مكسورة أو مفتوحة أو ساكنة. والمضارع: دخول أحد حروف تأنيث عليه. والأمر: دخول نون التأكيد عليه.

واعلم: أن أول من دون علم الصرف أبو عثمان بكر بن حبيب المازني. وكان قبل ذلك مندرجاً في علم النحو. وهو بكر بن محمد بن بقيه، وقيل: ابن عدي بن حبيب، الإمام أبو عثمان المازني مازن بني شيبان بن ذهل. وقيل: هو مولى بني سدود. نزل في بني مازن فنسب إليهم وهو بصري. روى عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد. وعنه المبرد والفضل بن محمد اليزيدي وجماعة.

وكان إماماً في العربية متسعاً في الرواية يقول بالأرجاء وكان لا يناظره أحد إلا قطعة لقدرته على الكلام. وقد ناظر الأخفش في أشياء كثيرة فقطعه. وقال المبرد: لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان. وأخذ عن الأخفش وقيل بل عن الجرمي واختلف إليه إلى أن برع وكان يناظره. وحكى المبرد أن يهودياً بذل للمازني مائة دينار ليقرئه كتاب سيبويه فامتنع من ذلك فقيل له لم امتنعت مع حاجتك وعائلتك؟ فقال: ان في كتاب سيبويه كذا وكذا آية من القرآن فكرهت أن أقرىء له فلم يمض على ذلك إلا مدة قليلة حتى طلبه الواثق وأعطاه ثلاثين ألف درهم وأخلف الله عليه أضعاف ما تركه لله. وسبب طلبه أن جارية غنت بحضرة الواثق:

شعر

أظلوم ان مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

فرد التوزري عليها: نصب رجلاً ظاناً أنه خبر أن. فقالت: قد قرأته على أعلم الناس بالبصرة أبي عثمان المازني، فأحضر إلى سرّ من رأى. قال: فلما دخلت على الخليفة قال لي: ممن الرجل؟ قلت: من بني مازن. قال: مازن تميم أم شيبان؟ قلت: مازن شيبان. فقال: بسمك يريد ما اسمك؟ وهي لغة قومنا، يبدلون الميم باء وعكسه. فكرهت أن أقول مكر مواجهة له بالمكر فقلت: بكر بن محمد. فأعجبه ذلك. فقال: اجلس فاطبئن أي اطمئن. فجلست ثم

سألني عن البيت فقلت: مصابكم: مصدر مضاف إلى فاعله. ورجلاً: مفعوله. وخبر ان ظلم. فأخذ التوزري في معارضتي. فقلت: هو كقولك: ان ضربك زيداً ظلم. والدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن تقول «ظلم» فيتم. فقال التوزري: حسبي وفهم. واستحسنه الواثق. وسئل المازني عن أهل العلم فقال: أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف. وأهل الحديث: فيهم حشو ورقاعة. والشعراء: فيهم هوج. والنحاة: فيهم ثقل. وفي رواة الأخبار الظرف كله والعلم هو الفقه.

وله من التصانيف:

١ ــ كتاب في القرآن.
٢ ــ علل النحو.
٣ ــ تفاسير كتاب سيبويه.
٤ ــ ما يلحن فيه العامة.
٥ ــ الألف واللام.
٦ ــ التصريف.
٧ ــ العروض.
٨ ــ القوافي.
٩ ــ الديباج في جامع كتاب سيبويه.

وكلها لطاف. وكان يقول: من أراد أن يصنف كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي.

مات في سنة تسع أو ثمان وأربعين ومائتين. كذا قال الخطيب البغدادي وقال غيره سنة ثلاثين ومائتين.

ومن شعره:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما ... رأي النساء وأمرة الصبيان
أما النساء فإنهن عواهر ... وأخو الصبي يجري بغير عنان

وصنَّف في التصريف: أبو الفتح بن جني مختصراً سماه (التصريف الملوكي) وهو عثمان بن جني بسكون الياء معرب كني أبو الفتح الحوي. من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف. وعلمه بالتصريف أقوى وأكمل من علمه بالنحو. وسببه أنه كان يقرىء النحو بجامع الموصل، فمر به أبو علي الفارسي فسأله عن مسألة في التصريف، فقصر فيها. فقال له أبو علي: زبيت قبل أن تحصرم فلزمه من يومئذ مدة أربعين سنة واعتنى بالتصريف. ولما مات أبو علي تصدر ابن جني مكانه ببغداد. وأخذ عنه الثمانيني وعبد السلام البصري وأبو الحسن الشمسي.

قال في (دمية القصر): وليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ماله سيا في علم الاعراب. وكان يحضر عند المتنبي و يناظره في النحو من غير أن يقرأ عليه شيئاً من شعره أنفة واكباراً لنفسه. وكان المتنبي يقول فيه: هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس.

وصنَّف:

١ ــ الخصائص في النحو.

٢ ــ سر الصناعة.

٣ ــ شرح تصريف المازني.

٤ ــ شرح مستغلق الحماسة.

٥ ــ شرحان على ديوان المتنبي.

٦ ــ اللمع في النحو.

٧ ــ محاسن العربية.

٨ ــ المحتسب في اعراب الشواذ.

٩ ــ شرح الفصيح.

وغير ذلك.

مولده: قبل الثلاثين وثلاثمائة. مات: لليلتين بقيتا من صفر سنة ثنتين وتسعين وثلاثمائة.

ولابن مالك: (مختصر في ضروري التصريف) وشرحه ووسمه (بالتعريف) وهو محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك العلامة جمال الدين أبو عبدالله الطائي الجياني الشافعي النحوي. نزيل دمشق. إمام النحاة. وحافظ اللغة.

قال الذهبي: ولد سنة ستمائة أو إحدى وستمائة. وسمع بدمشق من السخاوي والحسن بن الصباح وجماعة. وأخذ العربية عن غير واحد. وجالس بحلب ابن عمرون وغيره. وتصدر بها لاقراء العربية وصرف همته إلى اتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وحاز قصب السبق وأربى على المتقدمين. وكان اماماً في القراءات وعللها. وأما اللغة: فكان إليه المنتهى في الاكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها. وأما النحو والتصريف: فكان فيه بحراً لا يجارى وحبراً لا يبارى. وأما اشعار العرب: التي يستشهد بها على اللغة والنحو، فكان الأئمة الاعلام يتحيرون فيه و يتعجبون من أين يأتي بها. وكان نظم الشعر سهلاً عليه رجزه وطويله و بسيطه وغير ذلك. هذا مع ما هو عليه من الدين المتين، وصدق اللهجة، وكثرة النوافل، وحسن السمت ورقة القلب، وكمال العقل، والوقار والتؤدة. أقام بدمشق مدة يصنف و يشغل وتصدر بالتربة العادلية والجامع المعمور. وتخرج به جماعة كثيرة. وصنف تصانيف مشهورة. روى عنه ابنه الإمام بدر الدين والشمس ابن أبي الفتح والبدر بن جماعة والعلاء بن العطار وخلق. انتهى كلام الذهبي.

قال أبو حيان: لم يكن لابن مالك شيخ مشهور يعتمد عليه إلا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال: قرأت على ثابت بن حيان. وجلست في حلقة أبي علي الشلوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً. ولم يكن ثابت بن حيان من أئمة النحو وإنما كان من الأئمة المعربين.

قال السيوطي: وله شيخ جليل وهو: ابن يعيش الحلبي.

وأما تصانيفه: فكثيرة جداً. نظمها بعضهم في أبيات ذكر فيها:

١ ــ الألفية في النحو تسمى الخلاصة.

٢ ــ والعمدة.

٣ ــ واكمال العمدة.

٤ ــ وشرحها.

٥ ــ والتسهيل.

٦ ــ وشرحه: ولم يتم.

٧ ــ وقصيدة في الأفعال.

٨ ــ وارجوزة في المثلث.

٩ ــ وقصيدة في المقصور والممدود.

١٠ ــ وشرحها.

١١ ــ واعراب بعض أحاديث صحيح البخاري.

١٢ ــ وقصيدة في الضاد والظاء.

١٣ ــ وأخرى في: ما هو مهموز وغير مهموز.

١٤ ــ والتعريف في الصرف.

١٥ ــ وشرحه.

١٦ ــ وكتاب: فيما جاء أفعل وفعل.

١٧ ــ ومختصر في الإبدال.

١٨ ــ والقصيدة المالكية في علم القراءات.

هذا ما ضمنته تلك الأبيات.

وله تصانيف غير هذه:

١٩ ــ كتاب: نظم الفوائد.

٢٠ ــ وفتاوى له في العربية.

٢١ ــ ومجموع يسمى: الفوائد في النحو.

٢٢ ــ وشرح الجزولية.

٢٣ ــ وسبك المنظوم وفك المختوم.

٢٤ ــ والمقدمة الأسدية: وضعها باسم ولده تقي الدين الأسد.

و يروى: أنه كان إذا صلى في العادلية وكان امامها، يشيعه قاضي القضاة

شمس الدين بن خلكان إلى بيته، تعظيماً له. وكان آية في الاطلاع على الحديث فإذا لم يجد شاهداً في القرآن عدل إلى الحديث ثم إلى أشعار العرب. وكان كثير العبادة والنوافل، حسن السمت، كامل العقل. وانفرد عن المغاربة بشيئين: الكرم، ومذهب الشافعية. وكان الشيخ ذكي الدين بن القريع يقول: ان ابن مالك ما خلى للنحو حرمة. توفي: ابن مالك ثاني عشر شعبان سنة. اثنتين وسبعين وستمائة.

ومن المتوسطات في علم التصريف:

كتاب ابن الحاجب المسمى بـ (الشافية).

وهو: عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس العلامة جمال الدين أبو عمرو ابن الحاجب الكردي الدويني الأصل الاسناني المولد المقري النحوي المالكي الأصولي الفقيه صاحب التصانيف المنقحة.

ولد: سنة سبعين أو إحدى وسبعين وخمسمائة باسنا من الصعيد.

قال الذهبي: وكان أبوه جندياً كردياً حاجباً للأمير عز الدين الصلاحي. اشتغل في صغره بالقاهرة. وحفظ القرآن وأخذ بعض القراءات عن الشاطبي وسمع منه (التيسير). وقرأ بالسبع على أبي الجود وسمع من البوصيري وجماعة. وتفقه على أبي منصور الأبياري وغيره. وتأدب على الشاطبي وابن البناء ولزم الاشتغال حتى برع في الأصول والعربية وكان من أذكياء العالم، ثم قدم دمشق ودرس بجامعها في زاوية المالكية وأكب الفضلاء على الأخذ عنه. وكان الأغلب عليه النحو.

وصنَّف:

أ ــ في الفقه:

١ ــ مختصراً.

ب ــ وفي الأصول:

٢ ــ مختصراً.

٣ ــ وآخر أكبر منه سماه: المنتهى.

جـ ــ وفي النحو:

٤ ــ الكافية.

٥ ــ وشرحها.

٦ ــ ونظمها: الوافية.

٧ ــ وشرحها.

د ــ وفي التصريف:

٨ ــ الشافية.

٩ ــ وشرحها.

هـ ــ وفي العروض:

١٠ ــ قصيدة.

١١ ــ وشرح المفصل سماه: الايضاح.

١٢ ــ **وله:** الأمالي. في النحو. مجلد ضخم في غاية التحقيق. بعضها آيات و بعضها على مواضع من المفصل ومواضع من كافيته وأشياء نثرية.

ومصنفاته: في غاية الحسن. ورزقت قبولاً تاماً لحسنها، وجزالتها. وقد خالف النحاة في مواضع وأورد عليهم إشكالات والزامات مفحمة يعسر الجواب عنها. وكان فقيهاً مناظراً مفتياً ميرزاً في عدة علوم متبحراً ثقة ديّناً ورعاً. متواضعاً مطرحاً للتكلف. ثم دخل مصر هو والشيخ عز الدين بن عبد السلام وتصدر هو بالفاضلية، ولازمه الطلبة. قال ابن خلكان: وكان من أحسن خلق الله ذهناً، وجاءني مراراً بسبب أداء شهادات. وسألته عن مواضع في العربية مشكلة، فأجاب أبلغ جواب بسكون كثير وتثبت تام.

انتقل الى الاسكندرية ليقيم بها فلم تطل مدته. ومات بها في ضاحي نهار الخميس سادس عشر من شوال سنة ست وأربعين وستمائة.

وامثل المبسوطات:

(الممتع): لابن عصفور.

وهو علي بن مؤمن بن محمد بن علي أبو الحسن بن عصفور النحوي الحضرمي الأشبيلي. كان حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس. قال ابن الزبير: أخذ عن الدباج والشلوبين ولازمه مدة، ثم كانت بينهما منافرة ومقاطعة. وتصدر للاشتغال مدة وأقبل عليه الطلبة وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل من ذلك ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو ولا تأهل لغير ذلك.

قال الصفدي: ولم يكن عنده ورع. وجلس في مجلس شراب فلم يزل يرجم بالناتج إلى أن (مات) في رابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاث أو تسع وستين وستمائة. (ومولده) سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

وصنَّف:

١ ــ الممتع في التصريف: كان أبو حيان لا يفارقه.
٢ ــ المقرب شرحه: لم يتم.
٣ ــ شرح الجزولية.
٤ ــ مختصر المحتسب.
٥ ــ ثلاثة شروح على الجمل.
٦ ــ شرح الأشعار الستة.

وغير ذلك.

ومن المبسوطات:

(شرح الشافية): للإمام الجار بردي.

وهو: أحمد بن الحسن الشيخ فخر الدين. قال السبكي في (طبقات الشافعية): نزيل تبريز. كان إماماً فاضلاً ديناً خيراً وقوراً مواظباً على العلم وإفادة الطلبة. أخذ عن القاضي ناصر الدين البيضاوي.

وصنَّف:

١ ــ شرح منهاجه.

٢ ــ شرح الحاوي في الفقه: لم يكمل.

٣ ــ شرح الشافية: لابن الحاجب.

٤ ــ شرح الكشاف.

(ومات) في رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة بتبريز.

و (شرح الشافية): لرضي الدين الاسترابادي.

وستعرف ترجمته في النحو.

و (شرح الشافية): لحسن بن محمد النيسابوري، المشهور بالنظام الأعرج. وشرحه ممزوج مشهور متداول. قال السيوطي: لم أقف له على ترجمة.

ومما اشتهر في ديارنا مختصر مسمى (بالمقصود): لم نقف على مصنفه. إلا أنه كتاب مبارك مشهور بأيدي الناس اليوم. وعليه شروح مفيدة مشهورة عند أبناء الزمان.

و (مختصر): لعز الدين الزنجاني.

وهو: عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب بن أبي المعالي الخزرجي الزنجاني صاحب (شرح الهادي) المشهور الذي أكثر الجار بردي من النقل عنه في (شرح الشافية).

قال السيوطي: وقفت عليه بخطه. وذكر في آخره أنه فرغ منه ببغداد في العشرين من ذي الحجة سنة أربع وخمسين وستمائة.

١ ــ ومتن الهادى: له أيضاً.

٢ ــ وله التصريف المشهور: بتصريف العزي.

وله مؤلفات في العروض والقوافي وخطه في غاية الجودة. وعلى مختصره في التصريف شروح مفيدة مشهورة عند أبناء الزمان. أفضلها وأحسنها: (شرحاً

الفاضل سعد الدين التفتازاني والفاضل السيد الشريف الجرجاني). وستقف على ترجمتها إن شاء الله تعالى.

ومن المختصرات:

مختصر: (مراح الأرواح): لأحمد بن علي بن مسعود.

قال السيوطي: لم أقف له على ترجمة. وعليه شروح مفيدة يعرفها المتأدبون من الصبيان.

وأكثر المصنفات في علم النحو مذيلة بعلم التصريف. وسنذكر نبذاً منها هناك. إن شاء الله تعالى.

و (مختصر النجاح): مفيد في الغاية لكنه غير مشهور. وهو لحسام الدين السغناقي شارح (الهداية). وستعرف ترجمته هناك.

و (مختصر نزهة الطرف في علم الصرف): للميداني. وقد عرفت ترجمته.

الشعبة الثانية
فيما يتعلق بالمركبات

علم النحو

علم: باحث عن أحوال المركبات الموضوعة وضعاً نوعياً لنوع نوع من المعاني التركيبية النسبية من حيث دلالتها عليها.

وغرضه: تحصيل ملكة يقتدر بها على ايراد تركيب وضع وضعاً نوعياً لما أراده المتكلم من المعنى وعلى فهم معنى أي مركب كان بحسب الوضع المذكور.

وغايته: الاحتراز عن الخطأ في تطبيق التراكيب العربية على المعاني الوضعية الأصلية.

ومبادئه: المقدمات الحاصلة من تتبع الألفاظ المركبة في موارد الاستعمالات.

وموضوعه: المركبات والمفردات. من حيث وقوعها في التراكيب والأدوات. لكونها روابط التراكيب. وإنما يبحث عنها في النحو على وجه المبدئية لأنها من مسائل اللغة حقيقة.

وأعلم: أن علم النحو من فروض الكفايات. إذ يحتاج إليه الاستدلال بالكتاب والسنة وإذ ليس فرضاً عيناً فكذا النحو. إلا أنه يجب أن يكون متواتراً إذ اشتراط تواتر الشرع يوجب اشتراطه في اللغة أيضاً. ومن جملة أقسامها النحو وهاهنا أشكال من وجهين: (أحدهما) أن هذا بدعة وكل بدعة حرام. و (ثانيهما) أن النحو يحتاج إلى الألفاظ المحتاجة إلى النحو فيدور. والجواب أن الصحابة كانوا يعرفون النحو وإنما المبتدع الاصطلاحات ولا مشاحة فيها، بل هذه بدعة حسنة، كما قيل: النحو علم مبتدع وقياس مخترع. وأيضاً بعض قواعد النحو معلوم بالضرورة، وبعضها مكتسب. والذي يتوقف عليه تعلم

النحو هو الأول والذي يكتسب به هو الثاني فلادور. ولله در الكسائي في النحو.

انما النحو قياس يتبع	وبه في كل علم ينتفع
واذا ما اتقن النحو الفتى	مر في المنطق مرا فاتسع
واتقاه كل من يعرفه	من جليس ناطق أو مستمع
وإذا لم يعرف النحو الفتى	هاب أن ينطق جبنا ما نقمع
فتراه ينصب الرفع وما	كان من نصب ومن خفض رفع
أهما فيه سواء عندكم	ليست السنة فينا كالبدع

واعلم: أن كثيراً من الناس بسبب جهلهم بعلم النحو وقعوا في مضاحك يضحك منها الصبيان. حكى أبو حيان التوحيدي أن رجلاً سئل عن قوم فقال: هم خروج، أرادهم خارجون. قيل: هذا غير صحيح قال: كما قال تعالى: ﴿إذ هم عليها قعود﴾[1]. أي قاعدون. فضحك به. قال أبو الفرج البغدادي لعارف اللغة لَغَوّي بفتح اللام. فقيل: هذا غير مسموع. قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿قال له موسى انك لغوي﴾ فضحك منه. وأعرب بعضهم قَيِّماً صفة لعوجا في قوله تعالى: «عوجاقيما» وهذه غفلة إذ المعوج لا يكون قَيِّماً وإنما قيماً حال من محذوف أي أنزله قيماً أو من الكتاب. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وثمودا فما أبقى﴾[2] أن ثمود: مفعول مقدم، وهذا خطأ فإن لما النافية الصدر فلا يعمل ما بعدها فيا قبلها. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ أن ما: بمعنى من ولو كان كذلك لرفع قليل على أنه خبر. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾[3]. أن قوله: أن نفعل: معطوف على أن نترك، وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون وإنما هو عطف على ما فهو

(١) سورة البروج، آية: ٦.
(٢) سورة النجم، آية: ٥١.
(٣) سورة هود، آية: ٨٧.

معمول للترك. والمعنى أن نترك أن نفعل. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾[1] أن من متعلقة بأغنياء، وهو فاسد لأنه متى ظنهم ظان أغنياء من التعفف على أنهم فقراء من المال، ولا يكون جاهلاً بحالهم وإنما هي متعلقة بيحسب وهي للتعليل.

وقال بعضهم في قول الشاعر:

أقول لعبدالله لما سقاؤنا ... ونحن بوادي عبد شمس وهاشم

هذا لحن. فأين فعلا لما؟ وعلام نصبت الله؟ ولأي شيء فتح الدال من عبد وجوابه: أن عبد ترخيم عبدة والله نصب على الأغراء ولما سقاؤنا مرفوع بفعل محذوف فسره بقوله وها أي ضعف والجواب محذوف فسره بقوله وها أي ضعف والجواب محذوف تقديره قلت بدليل قوله أقول لما سقط سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس قلت لعبدة احذر الله ثم البرق. وقريب من هذا البيت. قول الشاعر:

أقول لعبدالله لما لقيته ... ونحن على جنب الظبا والقناطر

القنا: الرماح. وطر: فعل أمر من الطيران ونظير هذين البيتين في الألغاز.

عافت الماء في الشتاء فقلنا ... برديه تصاد فيه سخينا

يقال: كيف تبرده ثم تصادفه سخيفاً. وهذه غفلة والأصل بل رديه ثم كتب جملة واحدة لأجل الألغاز. وقول الشاعر:

لما رأيت أبا يزيد مقاتلا ... ادع القتال واشهد الهيجاء

يقال: أين جواب لما وبم انتصب ادع وهذه غفلة فالأصل لن ما ادغمت النون في الميم ووصلا في الخط للالغاز وحقهما الفصل وانتصاب ادع بلن وما الظرفية وصلتها ظرف له فاصل بينه وبين لن للضرورة. فيسئل حينئذ كيف

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

يجتمع قوله: لن ادع القتال مع قوله: لن أشهد الهيجاء والهيجاء شجر الحرب. والجواب أن «أشهد» ليس معطوفاً على «ادع» بل نصبه بأن مضمرة وأن والفصل عطف على القتال أي لن ادع القتال واشهد الهيجاء على حد قول الشاعر.

(للبس عباءة وتقرعيني). وقول الشاعر:

ويح من لام عاشقاً في هواه　　　إن لوم المحب كاغراء

يقال: كيف ارتفع الاغرام بعد كان التشبيه؟ والجواب: ان الكان ضمير المخاطب مفصلة بالحب والألف واللام في المحب بمعنى الذي والاغرا خبر ان والمعنى: إن لوم المحب هو الأغراء وحق الكاف أن توصل في الخط بالمحب ولكن فصلت للغز. وقول الشاعر:

يا صاحب ملك الفؤاد عشية　　　زار الحبيب بها خليل نائي
لما بدا لم أدر بدر دجنة　　　أم وجه من أهواه طرفي رائي

فقال: كيف جر صاحب وهو منادي مفرد. وجوابه: ان يا صاح مرخم وبن فعل أمر من بان يبين إذا فارق وكتبت هكذا على نحو صاحب لأجل الألغاز. ويقال: على م نصب بدر في قوله: بدر دجية وما قيل الاستفهام لا يعمل فيه ما بعده وجوابه منصوب برائي. والمعنى: لم أدر طرفي رأي بدر دجنة أم وجه من أهواه.

وقول الشاعر:

لا تفطن وكن في الله محتسباً　　　فبينما أنت ذا ياس أتى الفرجا

الفرج: مفعول العامل فيه: اسم الفاعل وهو محتسب. والمعنى: فكن في الله محتسباً الفرج فبينما أنت ذا ياس أتى. وقال العباس بن مرداس:

ومن قبل آمنا وقد كان قومنا　　　يصلون للأوثان قبل محمدا

قال ابن السبكي: قال لي طالب نحوي مرة، كيف نصبت محمداً وهو مضاف إليه فقلت: ففكر فإن أحداً لم يصلِّ للنبي عليه الصلاة والسلام لا قبل

الأوثان ولا بعدها. والجواب: أن آمناً في البيت معناه صدقنا، ومحمداً مفعول آمناً أي ومن قبل صدقنا محمداً وقد كان قومنا يصلون للأوثان قبل، وقبل مقطوعة عن الإضافة بنيت على الفتح وهي لغة، واللغة العالية بناؤها على الضم وقيل أراد النكرة، أي قبلا ثم حذف التنوين مضطراً. وقال آخر:

فرعون لي وهامان الأولى زعموا أني بخلت بما يعطيه قارونا

«فر» فعل أمر من وفر له العطية ومنه عطاء موفور «وعونة» امرأة رخمها فقال عون. والمعنى: أعط عونة لي. وأما «وها» فدعاء، من وها يهى إذا ضعف و «مان» جمع مانة البطن: وهي أسفل السرة. يقول ضعف مان الذين زعموا أني بخلت، و «قارون» المفعول الثاني ليعطيه والأول الهاء العائدة إلى ما الموصولة، وفاعل يعطيه مضمر للعلم به كأنه يريد يعطيه الله قارون.

واعلم: أن هذا بحر لا ساحل له. ولو استقصينا هذا الباب لأدى الكتاب إلى الاسهاب. والله أعلم بالصواب.

فصل
في واضع علم النحو

يروى: أنه دخلت بنت خويلد الأسدي على معاوية فقالت: أن أبوي مات وترك لي مالأ، بإمالة «مال». فاستقبح منها معاوية ذلك. وبلغ الخبر علياً كرم الله وجهه، فرسم لأبي الأسود الدؤلي: «باب ان» و «باب الاضافة» و «باب الامالة». ثم سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ: أن الله بريء من المشركين ورسوله. بخفض «رسوله»، فصنف: «باب العطف» و «باب النعت». ثم أن ابنته قالت له يوماً: يا أبت ما أحسن السماء، على طريق الاستفهام. فقال: أي بنية نجومها فقالت: إنما أتعجب من حسنها. فقال: قولي ما أحسن السماء. وافتحي فمك.

وقالت يوماً آخر له: يا أبت: ما أشد الحر. على لفظ الاستفهام.

فقال لها: أي بنية وغرة القيظ ومعمعان الصيف. فقالت له: إنما أتعجب منه. فقال لها: قولي: ما أشد الحر. بالنصب. ثم صنف: «باب التعجب والاستفهام». فعلم من هذه الروايات: أن أول من وضع النحو أبو الأسود. أخذه عن علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه.

وأبو الأسود، اسمه: ظالم بن عمرو بن ظالم، وقيل: ابن سفيان بن عمرو ابن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدؤل بن بكر بن كنانة أبو الأسود الدؤلي الكوفي المولد البصري المنشأ. أول من أسس النحو. كان من سادات التابعين ومن أكمل الرجال رأيا وأسدهم عقلاً، شيعياً، شاعراً، سريعاً في الجواب، ثقة في حديثه. روى عن عمر وعلي وابن عباس وأبي ذر وغيرهم. وروى عنه ابنه يحيى بن يعمر وصحب علي بن أبي طالب، وشهد معه صفين. وقدم على معاوية فأكرمه وأعظم جائزته. وولي قضاء البصرة. وهو أول من نقط المصحف وقد أسن. و (مات) سنة تسع وستين للهجرة بطاعون الجارف.

وتخرج بأبي الأسود:

معاذ بن مسلم الهراء، أبو مسلم، وقيل أبو علي، مولى محمد بن كعب القرظي وعم محمد بن سارة الرواسي. وهو أول من وضع التصريف. وأدب عبد الملك بن مروان، وولد في أيامه. قال السيوطي: وقد وقع في (شرح القواعد): لشيخنا الكافيجي: «أول من وضع التصريف معاذ بن جبل» وهو خطأ بلا شك. وقد سألته عنه، فلم يجبني بشيء. وكان معاذ شيعياً. (مات) سنة سبع وثمانين ومائة. وقيل: سنة تسعين، ببغداد. وكان شد أسنانه بالذهب من طول عمره ومات أولاده وأولاد أولاده وهو باق. وروى عن جعفر الصادق. وله كتب في النحو. عاش مائة وخمسين سنة. وقال ابن النجار في (تاريخ بغداد): كان من أعيان النحاة. أخذ عنه أبو الحسن الكسائي وغيره. وروى الحديث عن جعفر الصادق وعطاء بن السائب. روى عنه: عبد الرحمن المحاربي والحسن بن الحسين الكوفي. وكان يبيع الثياب الهروية، فلذلك قيل له: الهراء.

ثم أن أبا الأسود خلف خمسة نفر قعدوا أدبوا الناس:

(أولهم) **عنبسة بن معدان الفيل:** ولم يكن فيمن أخذ عنه النحو أبرع منه. وروى الأشعار سيا جرير والفرزدق. وكان لزياد بن أبيه فيلة ينفق عليها كل يوم عشرة دراهم. فقال معدان: ادفعوها لي وأكفيكم المؤنة، وأعطيكم عشرة دراهم كل يوم. فدفعوها إليه. فأثرى، وبنى قصراً. فلذا قيل: معدان الفيل.

(وقيل: قتل معدان فيلا لعبدالله بن عامر بن كريز فسمى معدان الفيل).

و (ثانيهم) **ميمون الأقرن:** أخذ النحو عن عنبسة، وقيل عن أبي الأسود وأن عنبسة أخذ عنه.

و (ثالثهم) **يحيى بن يعمر العدواني التابعي:** قال الحاكم: فقيه، أديب، نحوي مبرز. سمع ابن عمر وجابرا وأبا هريرة. وأخذ النحو عن أبي الأسود. ولما بنى الحجاج واسط، سأل الناس: ما عيبها؟ قالوا: ما نعرف عيباً. وسند لك على من يعرف عيبها يحيى بن يعمر. فبعث إليه فسأله، فقال: بنيتها من غير مالك. ويسكنها غير ولدك. فغضب الحجاج وقال: ما حملك على ذلك؟ قال: ما أخذ الله تعالى على العلماء في علمهم أن لا يكتموا الناس حديثاً. فنفاه إلى خراسان فولاه قتيبة بن مسلم قضاءها، فقضى في أكثر بلادها: نيسابور، ومرو، وهراة وآثاره ظاهرة. وقيل: كان يحيى أديباً فقيها خدم العيادلة واستقضاه الخلفاء الأمويون.

و (رابعهم ــ وخامسهم) **ابناء أبي الأسود عطاء وأبو حرب:** ثم خلف هؤلاء رجالاً.

(أحدهم): **عبدالله بن أبي إسحاق زيد الحضرمي:** أحد الأئمة في القرآت والعربية. أخذ القرآت عن يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم. وروى عن أبيه زيد عن جده الحرث عن علي. وتناظر هو وأبو عمرو بن العلاء. قال السيرافي: وكان أشد تجويداً للقياس. وأبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها. قال: وسئل عن يونس، فقال: هو والنحو سواء. أي هو الغاية فيه.

قال: وكان يطعن على العرب ويعيب الفرزدق وينسبه إلى اللحن فهجاه الفرزدق بقوله:

ولو كان عبدالله مولى هجوته ... ولكن عبدالله مولى مواليا

فقال له: لحنت. ينبغي أن تقول: مولي موال. وكان مولى آل الحضرمي، وهم خلفاء لبني عبد شمس. (مات) سنة سبع وعشرين ومائة. عن ثمان وثمانين سنة.

و (ثانيهم) **عيسى بن عمر الثقفي أبو عمرو مولى خالد بن الوليد:** نزل في ثقيف فنسب إليهم. امام في النحو والصرف والقراءة، مشهور، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي إسحاق. وروى عن الحسن البصري، والعجاج بن رؤبة، وجماعة. وأخذ عنه الأصمعي وغيره.

وصنَّف في النحو:

١ ــ الاكمال.
٢ ــ الجامع.

قال السيرافي: ولم يقعا إلينا. ولا رأينا أحداً ذكر أنه رآهما. ويقال: إن له نيفاً وسبعين مصنفاً ذهبت كلها. وكان يتقعر في كلامه. حكى عنه الجوهري في (الصحاح) وغيره: أنه سقط عن حمار فاجتمع عليه الناس فقال: مالي أراكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤكم على ذي جنة. افرنقعوا عني. واتهمه عمرو بن هبيرة بوديعة فضربه نحو ألف سوط. فجعل يقول: والله إن كانت إلا اثياب في أسيفاط قبضها عشاروك. (مات) سنة تسع وأربعين أو خمسين ومائة.

و (ثالثهم) **أبو عمرو بن العلاء بن عبدالله المازني النحوي المقري:** أحد القراء السبعة المشهورين. اختلف في اسمه على أحد وعشرين قولاً والأصح أن اسمه ربان. وسبب الاختلاف أنه كان لجلالته لا يسئل عنه. كان امام أهل البصرة في القراءة والنحو واللغة. أخذ عن جماعة من التابعين وقرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد. وروى عن أنس بن مالك وأبي صالح السمان وعطاء وطائفة. قال أبو عبيدة: أبو عمرو أعلم الناس بالقراآت والعربية وأيام

العرب والشعر. وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف ثم تنسك فأحرقها. وكان من أشراف العرب ووجوهها. مدحه الفرزدق ووثقه يحيى بن معين وغيره. وقال الذهبي: قليل الرواية للحديث.

(وقال في حقه:

شعر

ما زلت أغلق أبواباً وأفتحها　　　حتى أتيت أبا عمرو بن عمار)

وهو صدوق، حجة في القراءة، وكان نقش خاتمه.

وان امرؤ دنياه أكبر همه　　　لمستمسك منها بحبل غرور

قرأ عليه اليزيدي، وعبدالله بن المبارك وخلق. وأخذ عنه الأدب وغيره أبو عبيدة والأصمعي وخلق.

وقال سفيان بن عيينة: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقلت: يا رسول الله، قد اختلفت عليَّ القراءات فبقراءة من تأمرني؟ فقال: بقراءة أبي عمرو بن العلاء. (مات) سنة أربع أو تسع وخمسين ومائة.

ثم خلفهم: **الخليل بن أحمد:** وقد سبق ترجمته. ويقال له: فيلسوف الوقت. فاق من قبله وما أدركه من بعده. ثم أخذ منه سيبويه، وجمع العلوم التي استفادها منه في كتابة. فجاء كتابه أحسن من كل صنف في النحو إلى الآن. ولله در القائل:

الأصلي المليك صلاة صدق　　　على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه　　　ذوو قلم ولا أبناء منبر

وسيبويه: هو عمرو بن عثمان بن قنبر امام البصريين أبو بشر، وقيل: أبو الحسن مولى بني الحرث بن كعب ثم تولى الربيع بن زياد الحارثي. وسيبويه لقب. ومعناه: رائحة التفاح. وقيل: كانت أمه ترقصه بذلك في صغره. وقيل: كان يشم منه رائحة الطيب بذلك سمي. وقيل: كان يعتاد شم التفاح. وقيل: سمي بذلك لنظافته لأن التفاح من لطيف الفواكه. كان أصله من

البيضاء. من أرض فارس ونشأ بالبصرة. وأخذ عن الخليل و يونس وأبي الخطاب الأخفش وعيسى بن عمر. وسبب طلبه النحو إنه كان يستملي على حماد بن سلمة الحديث فقال يوماً:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء» فقال سيبو يه: ليس أبو الدرداء. فقال حماد: لحنت يا سيبو يه. فقال: لا جرم. لأطلبن علماً لا تلحنني فيه أبداً ثم لزم الخليل. انتهى ما ذكره السيرافي. قال أبو عبيدة: قيل ليونس بعد موت سيبو يه: ان سيبو يه صنف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل فاستبعد هذا. فلما نظر في كتابه قال: يجيب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عني. ويحكى: أنه تخرق كتابه في كم المازني بضع عشرة مرة. وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه: هل ركبت البحر تعظيماً واستصعاباً. قال بعضهم: كنت عند الخليل فأقبل سيبو يه فقال: مرحباً بزائر لا يمل. قال: وما سمعت الخليل يقولها لغيره وكان شاباً نظيفاً جميلاً. وكان في لسانه حبسة. وقلمه أبلغ من لسانه. قال الجرمي: في كتابه ألف وخمسون بيتاً سألت عنها، فعرف ألف ولم يعرف خمسون.

حكى: أنه ورد بغداد على يحيى البرمكي، فتناظر هو والكسائي في قولهم: كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور. فإذا هو هي، أو هو إياها. فاختار سيبو يه الرفع ولم يجوز النصب. وقال الكسائي: أخطأت العرب ترفع ذلك وتنصبه، وجعل يورد أمثلته من ذلك: خرجت فإذا زيد زيد قائم وقائماً وسيبو يه يمنع النصب. فقال يحيى: قد اختلفتما وأنتما رئيساً بلديكما فمن يحكم بينكما فقال الكسائي: هذه العرب ببابك قد وفدوا عليك وهم فصحاء الناس. فقال يحيى: انصفت. فسئلوا فاتبعوا الكسائي فاستكان سيبو يه، وقال سيبو يه: أيها الوزير مرهم أن ينطلقوا بذلك فإن ألسنتهم لا تطاوع خلاف الصواب وكانوا إنما قالوا الصواب ما قاله هذا الشيخ.

يقال: إن هؤلاء الأعراب قد أرشوا على ترجيح جانب الكسائي. فقال

الكسائي ليحيى: أصلح الله الوزير أنه قد وفد عليك من بلده مؤملا، فإن رأيت أن لا ترده خائباً فأمر له بعشرة آلاف درهم. فخرج إلى فارس ولم تطل مدته بعد ذلك. و (مات) بالبيضاء، وقيل بشيراز سنة ثمانين ومائة. قال الخطيب: وعمره اثنتان وثلاثون سنة. وقيل: نيف على الأربعين. وقيل: مات بالبصرة سنة إحدى وستين. وقيل: سنة ثمان وثمانين. وقال ابن الجوزي: مات بساوة سنة أربع وتسعين. قيل: إذا رأيت سيبويه يقول: سألت يونس، فهو ابن حبيب وإذا رأيته يقول: حدثني الثقة، فهو أبو زيد أوس الأنصاري.

وأما الكسائي: فهو علي بن حمزة بن عبدالله بن عثمان الامام أبو الحسن الكسائي، من ولد بهمن بن فيروز مولى بني أسد، إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القراء السبعة المشهورين. وما ظنك برجل غلافه الفراء. وسمي الكسائي لأنه أحرم في كساء، وقيل غير ذلك. وهو من أهل الكوفة واستوطن بغداد. وقرأ على حمزة ثم اختار لنفسه قراءة، وسمع من سليمان بن أرقم وأبي بكر بن عياش. قال الخطيب: وتعلم النحو على كبر، فلزم معاذا الهراء حتى أنفد ما عنده. وخدم أبا عمرو بن العلاء نحواً من سبع عشرة سنة ثم خرج إلى البصرة فلقي الخليل وجلس في حلقته، فقال له رجل من الأعراب: تركت أسد الكوفة وتميماً وعندها الفصاحة، وجئت إلى البصرة. فقال للخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ، فقدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي موضعه يونس. فمرت بينهما مسائل أقر له فيها بالفضل يونس وصدره في موضعه. وقال ابن الأعرابي: كان الكسائي أعلم الناس ضابطاً عالماً بالعربية، قارئاً صدوقاً، إلا أنه كان يديم شرب النبيذ، ويأتي الغلمان، وأدب ولد الرشيد، وجرى بينه وبين أبي يوسف القاضي مجالس حكيناها في طبقات النحاة. وقال ابن درستويه: كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً فيقيس عليه واختلط بأعراب الأبلة فأفسد بذلك النحو.

وصنَّف:

١ ــ معاني القرآن.
٢ ــ ومختصراً في النحو.
٣ ــ القراءات.
٤ ــ النوادر الكبير.
٥ ــ الأوسط.
٦ ــ الأصغر.
٧ ــ العدد.
٨ ــ الهجاء.
٩ ــ المصادر.
١٠ ــ الحروف.
١١ ــ اشعار المعاياة.

وغير ذلك.

و (مات) هو ومحمد بن الحسن بالري في يوم واحد. وكانا خرجا مع الرشيد فقال: دفنت النحو والفقه في يوم واحد. وذلك سنة ثنتين أو ثلاث أو تسع وثمانين ومائة أو اثنتين وتسعين ومائة.

ثم صار الناس فريقين:

(كوفيا): وشيخهم الكسائي وتلميذه المبرد.

و **(بصريا):** وشيخهم سيبويه والأخفش تلميذه.

أما المبرود: فهو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري أبو العباس المبرد. إمام العربية ببغداد في زمانه. أخذ عن الكسائي والأزدي وأبي حاتم السجستاني. وروى عنه إسماعيل الصفار ونفطويه والصولي. وكان فصيحاً بليغاً مفوهاً ثقة إخبارياً علامة صاحب نوادر وظرافة. وكان جميلاً لا سيما في صباه. كان الناس بالبصرة يقولون: ما رأى المبرد مثل نفسه. ولما صنف المازني كتاب: (الألف واللام) سأل المبرد عن دقيقة وعويصة فأجابه

بأحسن جواب. فقال له: قم فأنت المبرد بكسر الراء، المثبت للحق فغيره الكوفيون، وفتحوا الراء.

وله من التصانيف:

١ ــ معاني القرآن.
٢ ــ الكامل.
٣ ــ المقتضب.
٤ ــ الرواضة.
٥ ــ المقصور والممدود.
٦ ــ الاشتقاق.
٧ ــ القوافي.
٨ ــ إعراب القرآن.
٩ ــ نسب عدنان وقحطان.
١٠ ــ الرد على سيبويه.
١١ ــ شرح شواهد الكتاب.
١٢ ــ ضرورة الشعر.
١٣ ــ العروض.
١٤ ــ ما اتفق لفظه واختلف معناه.
١٥ ــ طبقات النحاة البصريين.

وغير ذلك.

قال السيرافي: وكان بينه وبين ثعلب من المنافرة ما صار مثلاً حتى قال الشاعر:

فابدانـنـا في بلـدة والـتـقـاؤنـا عـسـير كـأنـا ثـعـلـب ومـبـرد

وأما الأخفش تلميذ سيبويه: فهو سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط وهو أحد الأخافش الثلاثة المشهورين، إلا أن الحق أن الأخافش أربعة وسنذكرهم. كان مولى بني مجاشع بن دارم من أهل بلخ. وكان أفلح لا

ينطبق شفتاه على أسنانه. سكن البصرة وقرأ النحو على سيبويه، وكان أسن منه. ولم يأخذ عن الخليل. وكان معتزلياً. حدث عن الكلبي والنخعي وهشام ابن عروة. وروى عنه أبو حاتم السجستاني. ودخل بغداد وأقام بها مدة. وروى وصنف بها. قال: ولما ناظر سيبويه الكسائي ورجع وجه إلى فعرفني خبره ومضى إلى الأهواز وودعني فوردت بغداد فرأيت مسجد الكسائي فصليت خلفه الغداة. فلما انفتل من صلاته وقعد وبين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان سلمت عليه وسألته عن مائة مسألة فأجاب بجوابات خطأته في جميعها. فأراد أصحابه الوثوب عليَّ فمنعهم عني ولم يقطعني ما رأيتهم عليه مما كنت فيه، ولما فرغت قال لي: بالله أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة. فقلت: نعم. فقام إلي وعانقني وأجلسني إلى جنبه ثم قال: لي أولاد أحب أن يتأدبوا بك ويتخرجوا عليك وتكون معي غير مفارق لي، فأجبته، إلى ذلك.

فلما اتصلت الأيام بالاجتماع سألني أن أؤلف له كتاباً في معاني القرآن، فألفت كتاباً في المعاني فجعله أمامه، وعمل عليه كتاباً في المعاني، وعمل الفراء كتاباً في ذلك عليهما وقرأ عليه الكسائي (كتاب سيبويه) سراً ووهب له سبعين ديناراً. وكان الأخفش أعلم الناس بالكلام وأحذقهم بالجدل.

صنف:

١ ـــ الأوساط في النحو.
٢ ـــ معاني القرآن.
٣ ـــ المقاييس في النحو.
٤ ـــ الاشتقاق.
٥ ـــ المسائل الكبير.
٦ ـــ الصغير.
٧ ـــ العروض.
٨ ـــ القوافي.

وغير ذلك.

(مات) سنة عشر أو إحدى وعشرين أو خمس عشرة ومائتين.

فائدة:

الأخافش ثلاثة:

(الأكبر): عبد الحميد بن عبد المجيد.

و (الأوسط): سعيد بن مسعدة.

و (الأصغر): علي بن سليمان.

وقيل: أربعة:

و (الرابع): أحمد بن عمران.

وقيل: أحد عشر:

و (الخامس): أحمد بن محمد الموصلي.

و (السادس): خلف بن عمر.

و (السابع): عبدالله بن محمد.

و (الثامن): عبد العزيز بن أحمد.

و (التاسع): علي بن محمد المغربي الشاعر.

و (العاشر): علي بن اسماعيل الفاطمي.

و (الحادي عشر): هارون بن موسى بن شريك.

ومن جملة تلامذة سيبويه:

قطرب: محمد بن المستنير أبو علي النحوي. لازم سيبويه، وكان يدلج إليه، فإذا خرج رآه على بابه فقال له: ما أنت إلا قطرب ليل. فلقب به. وأخذ عن عيسى بن عمر. وكان يرى المعتزلة النظامية، فأخذ عن النظام مذهبه. واتصل بأبي دلف العجلي، وأدب ولده. ولم يكن ثقة. قال ابن السكيت: كتبت عنه قمطراً ثم تبينت أنه يكذب في اللغة فلم أذكر عنه شيئاً.

وله من التصانيف:

١ ــ معاني القرآن، لم يسبق إليه، وعليه احتذى الفراء.

٢ ــ الاشتقاق.

٣ ــ القوافي.

٤ ــ المثلث.

٥ ــ النوادر.

٦ ــ الصفات.

٧ ــ الأصوات.

٨ ــ العلل في النحو.

٩ ــ الأضداد.

١٠ ــ الهمز.

١١ ــ خلق الإنسان.

١٢ ــ خلق الفرس.

١٣ ــ اعراب القرآن.

١٤ ــ المصنف.

١٥ ــ الغريب في اللغة.

١٦ ــ مجاز القرآن.

وغير ذلك. (مات) سنة ست ومائتين.

ثم جاء:

صالح بن إسحاق بن عمرو الجرمي البصري مولي جرم بن ريان من قبائل اليمن وكان يلقب «بالكلب» و بـ «النباح» لصياحه حال مناظرة أبي زيد. قال الخطيب: كان فقيهاً عالماً بالنحو واللغة، ديناً، ورعاً، حسن المذهب، صحيح الاعتقاد. قدم بغداد وأخذ عن الأخفش و يونس، واللغة عن الأصمعي وأبي عبيدة.

وحدث عنه المبرد وكان جليلاً في الحديث والأخبار. وناظر الفراء. وانتهى إليه علم النحو في زمانه. و (مات) سنة خمس وعشرين ومائتين.

وله من التصانيف:

١ ـــ التنبيه.

وغيره.

ومن شركائه:

صالح بن بكر بن عثمان المازني. وقد عرفت ترجمته.

ثم جاء بعدهما:

محمد بن يزيد الملقب بالمبرد. وقد عرفت ترجمته.

ثم جاء بعده:

أبو إسحاق الزجاج.

وأبو بكر السراج.

وابن درستويه.

وأبو بكر محمد بن مزيد.

وأبو بكر محمد بن ميرمان.

وابن كيسان: وهو أخذ عن المبرد، وثعلب، إلا أن أخذه عن المبرد أغلب.

وابن مجاهد: صاحب القراءات أخذ عنهما، إلا أن أخذه عن ثعلب أغلب.

وأعلم أن:

الزجاج: هو إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج.

قال الخطيب: كان من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، جميل المذهب. كان يخرط الزجاج. وقال للمبرد: كسبي كل يوم درهم ونصف، وأريد أن تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً إلى أن يفرق الموت بيننا. ثم صار معلماً لأولاد بعض بني مارقة. فنفذ إليه في كل شهر ثلاثين درهماً. ثم طلب من المبرد عبيدالله بن سليمان مؤدباً لابنه القاسم. فقال له: لا أعرف

لك إلا رجلاً زجاجاً عند بني فلان. فكتب إليهم عبيد الله فاستنزلهم عني فأحضرت وأسلم القاسم إليَّ، وكنت أعطى المبرد بعد ذلك ألف درهم كل يوم إلى أن مات ولا أخليه من النقد. ثم ان القاسم نذر لي عشرين ألف دينار إن ولى الوزارة مكان أبيه، فا مضت إلا قليل حتى ولى الوزارة وصرت ملازماً له ونديمه. وهبت من أذكاره بالوعد. فلما كان في اليوم الثالث من وزارته قال لي: يا أبا إسحاق لم أرك أذكرتني بالنذر. فقلت: عوّلت على رعاية الوزير أيده الله تعالى. وأنه لا يحتاج إلى اذكار بنذر عليه في أمر خادم واجب الحق. فقال: أخاف مقالة أهل النفاق في دفعه إليك دفعة، فخذ متفرقاً وجعلني على رقاع الناس في الحوائج الكبار، وآخذ منهم جعلا. وربما قال لي: حصل مال النذر، فكنت أقول: لا مع أنه قد حصل في أقل مدة إلى أن سألني يوماً فاستحيت من الكذب المتصل. فقلت: قد حصل ببركة الوزير. فقال: فرجت والله عني فقد كنت مشغول القلب.. ثم دفع لي بثلاثة آلاف دينار صلة. فلما كان من الغد لم أعرض عليه شيئاً، فقال: هات ما معك من الرقاع.

قلت: النذر وقع الوفاء به فقال: سبحان الله، أتراني أقطع كرماً صار عادة لي ولك، وعرفك الناس به، وصار لك به عندهم جاه، وربما يظنوا أن ذلك لضعف جاهك عندي. أعرض عليّ، وخذ بلا حساب. فقبلت يده ودمت على عملي إلى أن مات.

وله من التصانيف:

١ ــ معاني القرآن.
٢ ــ الاشتقاق.
٣ ــ خلق الإنسان.
٤ ــ فعلت وافعلت.
٥ ــ مختصر النحو.
٦ ــ خلق الفرس.
٧ ــ شرح أبيات سيبويه.
٨ ــ القوافي.

٩ ــ العروض.

١٠ ــ النوادر.

١١ ــ كتاب الأمالي.

١٢ ــ تفسير جامع النطق.

وغير ذلك. (مات) في جمادي الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة.

وسئل عن سنه عند الوفاة فعقد سبعين. وآخر ما سمع منه: اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل، رضي الله عنه.

واعلم أن:

أبا بكر بن السراج هو: محمد بن السري البغدادي النحوي. قال المرزباني: كان أحدث أصحاب المبرد مع ذكاء وفطنة. قرأ عليه (كتاب سيبويه) ثم اشتغل بالموسيقى، فسئل عن مسألة بحضرة الزجاج، فأخطأ في جوابها، فوبخه الزجاج، وقال: مثلك يخطىء في مثل هذه المسألة. والله لو كنت في منزلي ضربتك، ولكن المجلس لا يحتمل ذلك. فقال: قد ضربتني يا أبا إسحاق. وكان علم الموسيقى قد شغلني عن هذا الشأن. ثم رجع إلى الكتاب ونظر في دقائقه وعول على مسائل الأخفش والكوفيين، وخالف أصول البصريين في مسائل كثيرة. ويقال: ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج بأصوله. أخذ عنه أبو القاسم الزجاجي، والسيرافي، والفارسي، والرماني. ولم تطل مدته و (مات) شاباً في ذي الحجة سنة ست عشر وثلاثمائة.

وله من الكتب:

١ ــ الأصول الكبير.

٢ ــ جمل الأصول.

٣ ــ الموجز.

٤ ــ شرح سيبويه.

٥ ــ الاشتقاق: لم يتم.

٦ ــ احتجاج القراءة.

٧ ــ الشعر والشعراء.

٨ ــ الجمل.

٩ ــ الرياح والهواء والنار.

١٠ ــ الخط.

١١ ــ والهجاء.

١٢ ــ المواصلات والمذكرات: في الأخبار.

وأعلم أن:

ابن درستويه: هو عبدالله أبو محمد بن جعفر بن درستويه بضم الدال والراء المهملتين، ابن المرزبان النحوي أحد من اشتهر وعلا قدره وكثر علمه، جيد التصنيف. صحب المبرد ولقي ابن قتيبة. وأخذ عنه الدارقطني، وغيره. وكان شديد الانتصار للبصريين في النحو واللغة. وثقة ابن مندة وغيره، وضعفه هبة الله اللالكائي. ولد سنة ثمان وخمسين ومائتين. (ومات) سنة سبع وأربعين وثلاثمائة..

صنف:

١ ــ الإرشاد في النحو.

٢ ــ شرح الفصيح.

٣ ــ الرد على المفضل.

٤ ــ الرد على الخليل.

٥ ــ غريب الحديث.

٦ ــ المقصور والممدود.

٧ ــ معاني الشعر.

٨ ــ أخبار النحاة.

وغير ذلك.

واعلم أن:

محمد بن مزيد هو: محمد بن مزيد بن محمود بن منصور بن راشد، أبو بكر

الخزاعي، المعروف بابن أبي الأزهر النحوي، وسماه بعضهم محمد بن أحمد بن مزيد. قال الخطيب في (تاريخ بغداد): حدث عن المبرد وكان مستمليه، والزبير بن بكار وجماعة. وروى عنه أبو الفرج الأصبهاني، والمعافى بن زكريا، وأبو بكر بن شاذان، والدارقطني. وقال: كان ضعيفاً يروي المناكير. وقال غيره: كان كذاباً قبيح الكذب.

صنّف:

١ ــ الهرج والمرج في أخبار المستعين والمعتز.

٢ ــ وأخبار عقلاء المجانين.

و (مات) سنة خمس وعشرين وثلاثمائة عن نيف وتسعين.

واعلم أن محمد بن ميرامان هو: محمد بن علي بن اسماعيل، أبو بكر العسكري، المعروف بميرمان. (ولد) بطريق رامهرمز، وأخذ عن المبرد، وأكثر بعده عن الزجاج. وكان قيماً بالنحو، أخذ عنه الفارسي، والسيرافي. وكان ضنيناً لا يقرىء (كتاب سيبويه) إلا بمائة دينار، فوعده أبو هاشم الجبائي، أضعاف ما أراده، على شرط أن يمهل في أداء المال، فلما تم الكتاب، أرسل إليه زنفيجة حسنة مغشاة بالادم، محلاة، فملأها حجارة وقفلها وختمها، وحملها في منديل، فقال: فليكن عندك إلى أن يجيئني مال لي ببغداد، فلما رأى منظرها وثقلها لم يشك في أنها دراهم بل ذهب، ثم كتب إليه رقعة فيها: قد تعذر عليّ حضور المال، وأرهقني السفر، وقد أبحتك التصرف فيما عندك من المال. وخرج أبو هاشم لوقته إلى البصرة، ففتحها فإذا فيها حجارة، فقال: سخر منا أبو هاشم، لا حياه الله.

وكان ميرمان ــ مع علمه ــ ساقط المروءة، سخيفاً، إذا أراد أن يمضي إلى مكان بعيد، طرح نفسه في طبق حمال، وشده بحبل، وربما كان معه نبق أو غيره، فيأكل ويرمي الناس بالنوى يتعمد رؤوسهم. وربما بال على رأس الجمال، فإذا قيل له يعتذر.

وله:

١ ــ شرح كتاب سيبويه: لم يتم.
٢ ــ شرح شواهده.
٣ ــ شرح الأخفش.
٤ ــ النحو المجموع على العلل.
٥ ــ العيون.
٦ ــ التلقين المجازي.
٧ ــ صفة شكر المنعم.

قال الزبيدي: توفي ميرمان سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

واعلم ان ابن كيسان: هو محمد بن أحمد بن ابراهيم بن كيسان، أبو الحسن النحوي.

قال الزبيدي: وليس هذا بالقديم الذي له: (العروض) و(المعمى). قال الخطيب: كان يحفظ المذهبين: البصري والكوفي في النحو، لأنه أخذ عن المبرد وثعلب. وكان أبو بكر بن مجاهد يقول: انه أنحى منهما. قال ياقوت: لكنه إلى مذهب البصريين أميل. وكان الأنباري يقول: خلط المذهبين، فلم يضبط منهما شيئاً.

قال أبو حيان التوحيدي: ما رأيت مجلساً أكثر فائدة وأجمع لأصناف العلوم والتحف والنتف من مجلسه. وكان يجتمع على بابه، نحو من مائة رأس من الدواب، للرؤساء والأشراف الذين يقصدونه، وكان اقباله على صاحب الرقعة والخلق، كإقباله على صاحب الديباج والدابة والغلام.

ومن تصانيفه في النحو:

١ ــ المهذب.
٢ ــ غلط أدب الكاتب.
٣ ــ السلامات.
٤ ــ البرهان.

٥ ـــ غريب الحديث.
٦ ـــ معاني القرآن.
٧ ـــ علل النحو.
٨ ـــ مصابيح الكتاب.
٩ ـــ ما اختلف فيه البصريون والكوفيون.

وغير ذلك. (مات) لثمان خلون من ذي القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين. ولكن هذا سهو والأصح أنه مات سنة عشرين وثلاثمائة.

ثم جاء بعد هؤلاء:

أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي. ويقال له: الفسوي أيضاً لأنه ولد بمدينة فَسَا من أعمال فارس.

وأبو سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي.

وعلي بن عيسى الرماني.

ثم تلميذ لأبي علي وهو: أبو الفتح عثمان بن جني.

وابن أخته: محمد بن الحسين.

ثم تلميذ له: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني: وفاق أكثر من تقدمه في التحقيق والتدقيق. ولو لم يكن له سوى:

١ ـــ كتاب أسرار البلاغة.
٢ ـــ دلائل الاعجاز.

لكفاه شرفاً وفخراً.

واعلم أن الفارسي: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، الامام أبو علي الفارسي الفسري المشهور، أوحد زمانه في علم العربية. أخذ عن الزجاج، وابن السراج وطوف بلاد الشام. وكان يقول كثير من تلامذته: أنه أعلم من المبرد. وبرع من طلبته جماعة: كابن جني، وعلي بن عيسى الربعي. وكان متهماً بالاعتزال وتقدم عند عضد الدولة. وله صنف:

١ ــ الإيضاح في النحو.

٢ ــ والتكملة في التصريف.

ويقال: انه لما عمل الإيضاح استقصره، وقال له: ما زدت على ما أعرف شيئاً، وإنما يصلح هذا للصبيان، فمضى وصنف (التكملة)، وحملها إليه، فلما وقف عليها قال: غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو.

ومن تصانيفه:

٣ ــ الحجة.

٤ ــ التذكرة.

٥ ــ أبيات الاعراب.

٦ ــ تعليقة على كتاب سيبويه.

٧ ــ المسائل الحلبية.

٨ ــ البغدادية.

٩ ــ القعبرية.

١٠ ــ البصرية.

١١ ــ الشيرازية.

١٢ ــ العسكرية.

١٣ ــ الكرمانية.

١٤ ــ المقصور والممدود.

١٥ ــ الاغفال: وهو مسائل أصلحها على الزجاج.

وغير ذلك. (توفي) ببغداد سنة سبع وثلاثمائة.

وأما زيد بن علي بن عبدالله الفارسي: أبو القاسم الفسوي النحوي اللغوي. قال ابن عساكر في (تاريخ دمشق)، وابن العديم في (تاريخ حلب): كان فاضلاً بعلم اللغة والنحو، عارفاً بعلوم كثيرة.

شرح:

١ ــ الإيضاح.

٢ ــ وحماسة أبي تمام.

وأقرأ النحو بحلب، وروى بها الإيضاح، عن أبي الحسن ابن أخت الفارسي، عن خاله؛ والحديث عن أبي نعيم الهروي وغيره. قرأ عليه الشريف أبو البركات عمر بن إبراهيم الكوفي، وسمع منه أبو الحسن علي بن طاهر، النحو وغير.

وسكن دمشق وأقرأ بها. و (مات) بطرابلس في ذي الحجة أو ذي القعدة سنة سبع وستين وأربعمائة.

وأما حسن بن عبدالله السيرافي: هو حسن بن عبدالله بن المرزبان القاضي، أبو سعيد السيرافي النحوي. قال ياقوت: كان أبوه مجوسياً اسمه بهزاد، فسماه أبو سعيد عبدالله. وكان أبو سعيد يدرس ببغداد علوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض. قرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد، واللغة على ابن دريد، وقرآهما عليه النحو، وأخذ هو النحو عن ابن السراج، ومبرمان، وأخذ عنه القرآن والحساب. وولي القضاء ببغداد. وقال أبو حيان التوحيدي في تقريظ الجاحظ: أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ، وامام الأئمة. له معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة. أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة، رحمه الله تعالى، فما وجد له خطأ، ولا عثر له على زلة. وقضى ببغداد، هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرزانة. صام أربعين سنة أو أكثر الدهر كله. وقال في (محاضرات العلماء): شيخ الدهر، وقريع العصر، العديم المثل، المفقود الشكل، ما رأيت أحفظ منه لجوامع الزهد نظماً ونثراً. وكان ديناً ورعاً تقياً نقياً زاهداً عابداً خاشعاً. له دأب بالنهار من القراءة والخشوع، وورد بالليل من القيام، ما قرىء عليه شيء قط، فيه ذكر الموت والبعث ونحوه إلا بكى، وجزع ونغص عليه يومه وليلته، وامتنع من الأكل والشرب، وما رأيت أحداً من المشايخ كان أذكر لحال الشباب، وأكثر تأسفاً على ذهابه منه، وكان إذا رأى أحداً من أقرانه عاجلة الشيب تسلى به.

وقال في (الامتاع): هو أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج من كل طريق، والزم للجادة الوسطى في الخلق والدين،

وأروى للحديث، وأقضى في الأحكام، وأفقه في الفتوى، كتب إليه ملوك عدة كتباً مصورة بتعظيمه، تسأله فيها عن مسائل في الفقه والعربية واللغة، وكان حسن الخط. طلب أن يقرر في ديوان الافتاء، فامتنع وقال: هذا أمر يحتاج إلى دربة، وأنا عار منها، وسياسة وأنا غريب فيها. وقال الخطيب: كان زاهداً ورعاً لم يأخذ على الحكم أجراً، إنما كان يأكل من كسب يمينه، فكان لا يخرج إلى مجلسه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم تكون قدر مؤونته. وكان أبو علي وأصحابه يحسدونه كثيراً. (مولده) بسيراف قبل السبعين ومائتين، وفيها ابتدأ طلب العلم. وخرج إلى عمان وتفقه بها وأقام بالعسكر مدة، ثم ببغداد إلى أن (مات) بها في خلافة الطائع، يوم الإثنين ثاني رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة.

وله من التصانيف:

١ ــ شرح كتاب سيبويه؛ لم يسبق إلى مثله، وحسده عليه أبو علي الفارسي وغيره من معاصريه.

٢ ــ وشرح الدريدية.

٣ ــ ألفات القطع والوصل.

٤ ــ الاقناع في النحو؛ لم يتمه فأتمه ولده يوسف، وكان يقول: وضع والدي النحو في المزابل بالإقناع: يعني أنه سهله جداً فلا يحتاج إلى مفسر.

٥ ــ شواهد سيبويه.

٦ ــ المدخل إلى كتاب سيبويه.

٧ ــ الوقف والابتداء.

٨ ــ صنعة الشعر والبلاغة.

٩ ــ أخبار النحاة البصريين؛ وهو كراسة كبيرة.

وأما الرماني: فهو علي بن عيسى بن علي بن عبدالله، أبو الحسن الرماني. وكان يعرف أيضاً بالأخشيدي، وبالوراق، وهو بالرماني أشهر. كان إماماً في العربية، علامة في الأدب، في طبقة الفارسي والسيرافي، معتزلياً.

(ولد) سنة ست وسبعين ومائتين. وأخذ عن الزجاج، وابن السراج، وابن دريد. قال أبو حيان التوحيدي: لم ير مثله قط، علماً بالنحو، وغزارة بالكلام وبصيرا بالمقالات، واستخراجاً للعويص، وإيضاحاً للمشكل، مع تأله وتنزه، ودين وفصاحة، وعفاف ونظافة، وكان يمزج النحو بالمنطق، حتى قال الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرماني، فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما تقوله نحن، فليس معه شيء. قال السيوطي: النحو ما يقوله الفارسي، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما، ومن بعدهما بدهر، لم يعهد فيها شيء من ذلك.

صنَّف الرماني:

١ ــ التفسير.
٢ ــ الحدود الأكبر.
٣ ــ الأصغر.
٤ ــ شرح أصول ابن السراج.
٥ ــ شرح موجزة.
٦ ــ شرح سيبويه.
٧ ــ شرح مختصر الجرمي.
٨ ــ شرح الألف واللام للمازني.
٩ ــ شرح المقتضب.
١٠ ــ شرح الصفات.
١١ ــ معاني الحروف.

وغير ذلك. (مات) في حادي عشر جمادي الأولى، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

وأما أبو الفتح عثمان بن جني: فقد عرفت حاله.

وأما ابن أخت أبي علي الفارسي: فهو محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن عبد الوارث، أبو الحسين الفارسي النحوي. قال ياقوت: أخذ عن

خاله أبي علي الفارسي علم العربية، وطوف الآفاق، ورجع إلى الوطن. وكان خاله الفارسي علم العربية، وطوف الآفاق، ورجع إلى الوطن. وكان خاله أوفده على الصاحب بن عباد إلى الري، فارتضاه وأكرم مثواه؛ وورد خراسان ونزل نيسابور دفعات، وأملى بها من الأدب والنحو ما سارت به الركبان. وآل أمره إلى أن اختص بالأمير اسماعيل بن سبكتكين بغزنة ووزر له. ثم عاد إلى نيسابور، ثم جاور بمكة، ثم عاد إلى غزنة، ورجع إلى نيسابور ثم انتقل إلى اسْفَرايين، ثم استوطن جرجان إلى أن مات. وقرأ عليه أهلها؛ منهم: عبد القاهر الجرجاني وليس له أستاذ سواه.

وله تصانيف منها:

١ ــ كتاب في الهجاء.
٢ ــ كتاب مائية الشعر.

(مات) سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

وأما عبد القاهر الجرجاني: فهو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي، الإمام المشهور أبو بكر. أخذ النحو عن ابن أخت أبي علي الفارسي، ولم يأخذ عن غيره، لأنه لم يخرج عن بلده. وكان من كبار أئمة العربية والبيان، شافعياً أشعرياً.

صنَّف:

١ ــ المغني في شرح الإيضاح.
٢ ــ المقتصد في شرحه.
٣ ــ اعجاز القرآن الكبير.
٤ ــ الصغير.
٥ ــ الجمل.
٦ ــ العوامل المائة.
٧ ــ العمدة في التصريف.

ومن جملة مصنفاته:

٨ ــ دلائل الاعجاز.

٩ ــ وأسرار البلاغة، في علمَيْ المعاني والبيان، وهما الآية الكبرى، واليد البيضاء في العلمين المذكورين، وإليهما ينتهي علم من تأخر في ذينك العلمين. وغير ذلك من التصانيف.

(مات) سنة إحدى أو أربع وسبعين وأربعمائة.

ومن شعره:

كبر على العلم يا خليلي ... ومل إلى الجهل ميل هائم

وعش حماراً تعش سعيداً ... فالسعد في طالع البهائم

قلت: هؤلاء الإعلام الذين ذكرتهم كلهم من تلامذة سيبويه امام أهل البصرة.

وأما تلامذة الكسائي امام أهل الكوفة فأشهر هؤلاء:

الفراء.

وبعده: أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

وبعده: القاسم بن محمد الانباري.

أما الفراء: فهو يحيى بن زياد بن عبدالله بن مروان الديلمي، امام العربية، أبو زكريا المعروف بالفراء. كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي؛ أخذ عنه وعليه اعتمد، وأخذ عن يونس؛ وأهل الكوفة يدعون أنه استكثر عنه، وأهل البصرة يدفعون ذلك. وكان يحب الكلام ولا يميل إلى الاعتزال. وكان متديناً متورعاً على تيه وعجب وتعظم. وكان زائد العصبية على سيبويه، وكتابه تحت رأسه، وكان يتفلسف في تصانيفه، ويسلك ألفاظ الفلاسفة. وكان أكثر مقامه ببغداد، فإذا كان آخر السنة، أتى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً، يفرق في أهله ما جمعه. كان شديد المعاش، لا يأكل حتى لا يمسه الجوع، وجمع ما لا خلقه لابن له شاطر، صاحب سكاكين. وأبوه زياد: هو الأقطع، قطعت يده

في الحرب مع الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وكان مولى لأبي ثروان، وأبو ثروان مولى بني عبس.

صنّف الفراء:

١ ــ معاني القرآن.
٢ ــ البهي فيما يلحن فيه العامة.
٣ ــ اللغات.
٤ ــ المصادر في القرآن.
٥ ــ الجمع والتثنية في القرآن.
٦ ــ آلة الكتاب.
٧ ــ النوادر.
٨ ــ المقصور والممدود.
٩ ــ فعل وافعل.
١٠ ــ المذكر والمؤنث.
١١ ــ الحدود: يشتمل على ستة وأربعين حد في الإعراب.

وله غير ذلك. (مات) بطريق مكة سنة سبع ومائتين عن سبع وستين سنة.

وأما أبو العباس ثعلب: فهو أحمد بن يحيى يزيد بن سيار الشيباني، مولاهم البغدادي، الإمام أبو العباس ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة. (ولد) سنة مائتين، وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة سنة ست عشرة، وحفظ كتب الفراء، فلم يشذ منها حرف. وعنى بالنحو أكثر من غيره، فلما أتقنه أكب على الشعر والمعاني والغريب. ولازم ابن الأعرابي بضع عشرة سنة، وسمع من محمد بن سلام الجمحي، وعلي بن المغيرة الأثرم، وسلمة بن عاصم، وعبيدالله بن عمر القواريري الأصغر، ونفطويه، وأبي عمر الزاهد، وجمع.

قال بعضهم: إنما فضل أبو العباس أهل عصره بالحفظ للعلوم التي تضيق عنها الصدور.

قال أبو الطيب اللغوي: كان ثعلب يعتمد على ابن الأعرابي في اللغة، وعلى سلمة بن عاصم في النحو، ويروي عن ابن نجدة كتب أبي زيد، وعن الأثرم كتب أبي عبيدة، وعن أبي حفص كتب الأصمعي، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه. وكان ثقة، متفنناً، يستغني بشهرته عن لغته. وكان ضيق النفقة مقتراً على نفسه.

قال أبو بكر بن مجاهد: قال لي ثعلب: يا أبا بكر، اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا، وأصحاب الحديث بالحديث ففازوا، وأصحاب الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو، فليت شعري ماذا يكون حالي؛ فانصرفت من عنده، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة، فقال لي: اقرأ أبا العباس مني السلام، وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل. وقال أبو عمرو الزاهد: سئل ثعلب عن شيء فقال: لا أدري، فقيل له: أتقول لا أدري، وإليك تضرب أكباد الإبل من كل بلد، فقال: لو كان لامك بعدد لا أدري بعير لاستغنيت.

صنّف:

١ ــ المصون في النحو.

٢ ــ اختلاف النحويين.

٣ ــ معاني القرآن.

٤ ــ معاني الشعر.

٥ ــ القراءات.

٦ ــ التصغير.

٧ ــ الوقف والابتداء.

٨ ــ الهجاء.

٩ ــ الأمالي.

١٠ ــ غريب القرآن.

١١ ــ الفصيح؛ وقيل: هو للحسن بن داود الرقي، وقيل: ليعقوب بن السكيت. وله أشياء أخرى.

وثقل سمعه بآخره، ثم صم، فانصرف يوم الجمعة من الجامع بعد العصر، (وبيده كتاب ينظر فيه) وإذا بدواب من ورائه، فلم يسمع صوت حافرها، فصدمته، فسقط على رأسه في هوة من الطريق، فلم يقدر على القيام، فحمل إلى منزله، و (مات) منه يوم السبت لعشر خلون أو لثلاث عشرة بقيت من جمادي الأولى سنة إحدى وتسعين ومائتين. وخلف كتباً تساوي جملة ألفي دينار واحداً وعشرين ألف درهم؛ ودكاكين تساوي ثلاثة آلاف دينار، فرد ماله على ابنته.

وذكره الداني في (طبقات القراء)، فقال: روى القراءة عن سلمة بن عاصم، عن أبي الحارث، عن الكسائي، وعن الفراء، وله كتاب حسن فيها. روى القراءة عنه ابن مجاهد، وابن الأنباري، وغيرهما.

وأما ابن الأنباري: فهو قاسم بن محمد بن بشار، أبو محمد الأنباري النحوي. كان محدثاً إخبارياً، عارفاً بالأدب والغريب، ثقة، صاحب عربية. أخذ عن سلمة بن عاصم، وأبي عكرمة الضبي.

وصنَّف:

١ ــ خلق الإنسان.
٢ ــ خلق الفرس.
٣ ــ الأمثال.
٤ ــ المقصور والممدود.
٥ ــ المذكر والمؤنث.
٦ ــ غريب الحديث.
٧ ــ شرح السبع الطوال.

(مات) في غرة ذي القعدة سنة أربع، أو صفر سنة خمس وثلاثمائة.

قلت: هذه مشاهير علماء الأدب، ولم يخلف من بعدهم مثلهم إلا قليلاً، وستعرفهم إن شاء الله تعالى.

خاتمة

في ذكر الكتب المشهورة المعتنى بها في علم النحو وبيان أحوال مصنفيها

ومن الكتب المختصرة فيه:

(مقدمة ابن الحاجب المسماة بالكافية): وقد عرفت ترجمة ابن الحاجب في علم الصرف عند ذكر (كتاب الشافية). والناس قد اعتنوا بكتاب الكافية أشد الاعتناء، بحيث لا يمكن احصاء شروحها، وهي حقيق بذلك.

وأجل شروحها الذي سار ذكره في الأمصار والأقطار مسير الصبا والأمطار: (شرح نجم الأئمة رضي الدين الاسترابادي)، وهو شرح عظيم الشأن، جامع لكل بيان وبرهان، تضمن من المسائل أفضلها وأعلاها، ولم يغادر من الفوائد صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. قال السيوطي في (طبقات النحاة): الرضي الإمام المشهور، صاحب شرح الكافية لابن الحاجب. الذي لم يؤلف عليها ولا في غالب كتب النحو مثله، جمعاً وتحقيقاً وحسن تعليل. وقد أكب الناس عليه وتداولوه واعتمده شيوخ هذا العصر فمن قبلهم، في مصنفاتهم ودروسهم. وله فيه أبحاث كثيرة مع النحاة، واختيارات جمة، ومذاهب ينفرد بها. ولقبه نجم الأئمة، ولم أقف على اسمه، ولا على شيء من ترجمته، إلا أنه فرغ من تأليف هذا الشرح، سنة ثلاث وثمانين وستمائة. وأخبرني صاحبنا المؤرخ شمس الدين بن عزم، بمكة، أن (وفاته) سنة أربع وثمانين أو ست، الشك مني وله: (شرح على الشافية). انتهى ما ذكره السيوطي.

قلت: أما ما سمعته من شأن هذا الكتاب، أن السعد التفتازاني سأل

بعضاً من الطلبة، أن الشريف الجرجاني بأي شيء يشتغل؛ قال: بشرح الكافية للشيخ رضِي الدين، قال: لعله يريد أن يصنف شرحاً للمفتاح.

وللشريف الجرجاني (تعليقات) و (حواش) على هذا الشرح، رأيناها واستفدنا منها. ويروى أن نجم الأئمة رضي الدين، كان على مذهب الرفض. ويحكى عنه: أنه كان يقول: العدل في عمر ليس بتحقيقي موضع قوله، العدل في عمر تقديري. نعوذ بالله من الغلو في البدعة والعصبية في الباطل. يقال: إنه ليس في المتأخرين من اطلع على تدقيقات كتاب سيبويه مثله.

ومن شروح الكافية:

(شرح السيد ركن الدين) ثلاثة شروح: (كبير) و (متوسط) و (صغير).

وهذا (المتوسط) متداول بين الناس على أيدي المبتدئين. وصاحبه الحسن ابن محمد بن شرفشاه العلوي الاسترابادي، أبو الفضائل السيد ركن الدين. قال ابن رافع في (ذيل تاريخ بغداد): قدم مراغة، واشتغل على مولانا نصير الدين، وكان يتوقد ذكاء وفطنة. وكان المولى قطب الدين حينئذ في ممالك الروم، فقدمه النصير، وصار رئيس الأصحاب بمراغة. وكان يجيد درس الحكمة، وكتب الحواشي على (التجريد) وغيره، وكتب لولد النصير (شرحاً على قواعد العقائد).

ولما توجه النصير إلى بغداد، سنة اثنتين وسبعين وستمائة، لازمه، فلما مات النصير في هذه السنة، صعد إلى الموصل واستوطنها، ودرس بالمدرسة النورية بها، وفوض إليه النظر في أوقافها. و (شرح مقدمة ابن الحاجب) بثلاثة شروح أشهرها (المتوسط). وتكلم في أصول الفقه، وأخذ على السيف الآمدي، ثم فوض إليه تدريس الشافية بالسلطانية. و (مات) في رابع عشر صفر سنة خمس عشرة وسبعمائة. وذكره الأسنوي في: (طبقات الشافعية)، وقال: شرح الحاوي، ومات سنة ثمان عشرة. وقال الصفدي: كان شديد التواضع، يقوم لكل أحد حتى السقاء، شديد الحلم، وافر الجلالة عند التتار. شرح (مختصر ابن الحاجب)، وشرح (الشافية في التصريف). وعاش بضعاً وسبعين سنة.

ومن شروح الكافية:

(شرح مولانا الخبيصي المسمى بالوشاح)؛ وهو قد بلغ النهاية في حسن الإيجاز مع تكثير للفوائد، والاستقصاء في الشواهد. قال السيوطي: أبو بكر الخبيصي صاحب (شرح الحاجبية) المشهور، وهو ممزوج مختصر متداول بين الناس، سماه (الموشح)، ولا أعرف من ترجمته زيادة على هذا.

قلت: خبيص: قرية من قرى كرمان، ونسبته إليها لا إلى بائع الخبيصة كما توهمه بعض الناس. وعلى هذا الشرح (تعليقات) و(فوائد) مهمة للسيد الشريف الجرجاني.

ومن شروح الكافية:

(شرح الهندي للكافية): ولعله لسراج الدين الهندي. وستعرف ترجمته في فن أصول الفقه لأنه أشهر بذلك من النحو.

ومن شروحها:

(شرح الفاضل السامي مولانا عبد الرحمن الجامي): بلغ غاية لا يمكن الزيادة عليها، في لطف التحرير، وحسن الترتيب، وشهرة حاله في بلادنا أغنت عن التعرض لترجمته. قدس سره.

ومن شروحها:

(شرح الكافية): لجلال الدين الغجدواني. وهو أحمد بن علي بن محمود، جلال الدين الغجدواني. قال السيوطي: لم أقف له على ترجمة إلا أن هذا الشرح مشهور بأيدي الناس لطيف، ذكر فيه أنه قرأ على الحسام السغناقي.

ومن شروح الكافية:

(شرح النجم السعيدي): وهو سعيد العجمي المشهور بالنجم سعيد، شارح الحاجبية. قال السيوطي: لم أقف له على ترجمة. وشرحه هذا كبير، جعله شرحاً للمتن، ولشرح المصنف للمتن وفيه أبحاث حسنة.

ومن شروح الكافية:

(شرح تقي الدين النيلي): وهو إبراهيم بن الحسين بن عبدالله بن ابراهيم ابن ثابت الطائي.

ومن المختصرات في علم النحو:

(لب اللباب)، وعليه شروح، أحسنها وأفضلها:

(شرح السيد عبدالله بن محمد الحسيني العجمي السيد جمال الدين النُقْرة كار) بضم النون، وسكون القاف، وبالراء المهملة، معناه: صائغ الفضة، صاحب (شرح اللب) و (شرح اللباب) و (شرح الشافية) في التصريف، وهي تصانيف مشهورة ممزوجة متداولة بأيدي الناس. قال السيوطي: لم أقف له على ترجمة، إلا أنه ذكر في (شرح الشافية)، أنه ألفه للأمير الجامي، وهو قريب من الثمانمائة. ثم وقفت له على (شرح التخليص) ممزوج؛ ذكر فيه أنه ألفه للأمير منكلي يغلي. وله: (شرح على التنقيح في أصول الفقه) للفاضل صدر الشريعة. ورأيت في بعض نسخ هذا الشرح أنه أتم تصنيفه في يوم العيد من شوال ستة إحدى وسبعين وسبعمائة.

ومن المختصرات في علم النحو:

(لباب الأعراب): للامام الفاضل محمد بن محمد بن أحمد، تاج الدين الاسفرايني، صاحب (اللباب)، وصاحب (شرح المصباح المسمى بضوء المصباح) في النحو. قال السيوطي: لم أقف له على ترجمة.

وله شروح كثيرة منها:

(شرح السيد عبدالله) شارح اللب. وقد تقدم.

و (شرح قطب الدين الفالي) وهو محمد بن سعيد بن محمود بن أبي الفتح السيرافي المعروف بالفالي، صاحب (شرح اللباب). قال السيوطي لم أقف له على ترجمة.

و (شرح الامام الزوزني): وهو محمد بن عثمان بن محمد بن أبي علي العرض، بفتح الراء، الزوزني. وزُوْزَن بلد بين هراة ونيسابور.

و (شرح آخر موسوم بالعباب): ولم يتحقق اسم مؤلفه.

و (شرح مولانا شيخ علي الشهير بمصنفك)، كان رحمه الله من أولاد الإمام فخر الدين الرازي. وكان للإمام الرازي ولد اسمه محمد، وكان الإمام يحبه كثيراً، وأكثر مصنفاته صنفت لأجله، وقد ذكر اسمه في بعضها. ومات محمد في عنفوان شبابه. وولد له ولد بعد وفاته، وسموه أيضاً محمداً، وبلغ رتبة أبيه في العلم، ثم مات وخلف ولداً اسمه محمود، وبلغ هو أيضاً رتبة الكمال. ثم عزم سفر الحجاز، وخرج من هراة، ولما وصل بِسْطام، أكرمه أهلها، لمحبتهم في العلماء، سيما أولاد فخر الدين الرازي، فأقام هناك بحرمة وافرة. وخلف ولداً اسمه مسعود، وسعى في تحصيل العلم، لكنه لم يبلغ رتبة آبائه، وقنع برتبة الوعظ، لأنه لم يهاجر وطنه. وخلف ولداً اسمه محمد أيضاً، وحصل هو من العلوم ما يتقدي به أهل تلك البلاد. ثم خلف ولداً اسمه مجد الدين محمد وصار هو أيضاً مقتدى من الناس في العلم. وولد له ولد اسمه شيخ علي وهو الذي اشتهر بمولانا مصنفك لأنه صنف كتباً شريفة في حداثة سنه كما سنذكره. والكاف في لغة العجم للتصغير، فهو شيخ علي بن مجد الدين بن محمد بن مسعود بن محمود بن محمد بن محمد بن عمر، الشاهر وردي البسطامي الهروي الرازي العمري البكري. وكان الامام الرازي يصرح في مصنفاته، بأنه من أولاد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وعنهم. وذكر أهل التاريخ، أنه من أولاد أبي بكر الصديق، رضي الله تعالى عنه.

وولد المولى مصنفك في سنة ثلاث وثمانمائة. وسافر مع أخيه إلى هراة لتحصيل العلم في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة.

وصنَّف:

١ ــ شرح الإرشاد: في سنة ثلاث وعشرين.

٢ ــ وشرح المصباح في النحو: في سنة خمس وعشرين.

٣ ــ وشرح آداب البحث: في سنة ست وعشرين بإشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤ ــ وشرح اللباب: في سنة ثمان وعشرين.

٥ ــ وشرح المطول: في سنة اثنتين وثلاثين.

٦ ــ وشرح شرح المفتاح للتفتازاني: في سنة أربع وثلاثين.

وصنَّف:

٧ ــ حاشية التلويح: في سنة خمس وثلاثين.

٨ ــ وشرح البردة: في تلك السنة أيضاً.

٩ ــ وكذا: شرح القصيدة الروحية لابن سينا.

ثم ارتحل في سنة تسع وثلاثين إلى هراة:

١٠ ــ وشرح هناك: الوقاية.

١١ ــ وشرح الهداية: سنة تسع وثلاثين.

وصنَّف في هذه السنة أيضاً:

١٢ ــ حدائق الإيمان لأهل العرفان.

ثم ارتحل سنة ثمان وأربعين إلى ممالك الروم. وصنَّف هناك في سنة خمسين وثمانمائة.

١٣ ــ وشرح المصابيح للبغوي؛ بإشارة حضرة الرسالة صلى الله عليه وسلم.

وشرح في تلك السنة أيضاً:

١٤ ــ شرح المفتاح الشريفي.

وصنَّف في هذه السنة أيضاً:

١٥ ــ حاشية شرح المطالع.

وأيضاً: ١٦ ــ شرح بعضاً من أصول فخر الإسلام البزدوي.

وصنَّف في سنة ست وخمسين:

١٧ ــ شرح الكشاف للزمخشري.

وصنَّف من الكتب على اللسان الفارسي:

١٨ ــ أنوار الأحداق.

١٩ ــ وحدائق الإيمان.

٢٠ ــ وتحفة السلاطين.

وصنَّف في تاريخ إحدى وستين:

٢١ ــ كتاب التحفة المحمودية، صنَّفه لأجل الوزير محمود باشا، صنَّفه على اللسان الفارسي في نصيحة الوزراء، وذكر هذه التواريخ في هذا الكتاب. وذكر فيه: أنه عزم على أن لا يصنف شيئاً بعده، اعتذاراً عنه بكبر السن، سيما الكتب الفارسية، وكان سنه إذ ذاك، على ما ذكره في ذلك الكتاب، ثمان وخمسين إلا أن له تصانيف أخر غير ما ذكره، ولم ندر أنه نقض عزيمته وصنفها بعدَ ذلك التاريخ، أو صنف قبلها ولم يذكر عند ذكر مصنفاته، وذلك:

٢٢ ــ كالتفسير الفارسي: رأينا منه المجلدة الأولى وهي: في (تفسير الفاتحة) خاصة، والمجلدة الأخيرة وهي من (سورة النبأ إلى آخر القرآن). ولقد أجاد في ترتيبه، واعتذر هو عن تأليفه على ذلك اللسان، وقال: كتبته بأمر السلطان محمد خان، والمأمور معذور.

وله أيضاً.

٢٣ ــ شرح الشمسية، على اللسان الفارسي.

وله أيضاً:

٢٤ ــ حاشية على شرح الوقاية لصدر الشريعة.

وغير ذلك. ثم قال في (التحفة المحمودية) بعد ذكر نسبة: هؤلاء آباء الأبدان، وأما آباء الأرواح فكثيرة.

أما في العلوم العربية، فلي أستاذان:

(أولهما) مولانا جلال الدين يوسف الأوبهي، رحمه الله. كان من مقدمي علماء خراسان والعراق وما وراء النهر، وكان وحيد دهره في علم العربية سيما في حل (الكشاف)، و(المفتاح)، وكان يضرب به المثل في ذكاء الطبيعة وقوة القريحة. وكان من تلامذة مولانا سعد الدين التفتازاني، وقد أجازه التفتازاني من بين تلامذته بتغيير مصنفاته، وقال: أما بعد حمدالله والصلاة على رسول الله، فقد أجزت للمولى العالم الفاضل الكامل، جلال الدين يوسف ابن الإمام المرحوم ركن الدين مسيح، أن يروي عني مقروءاتي ومسموعاتي ومستجازاتي عموماً، ومصنفاتي خصوصاً؛ فقد قرأ الكثير وسمع الكثير مثل: (شرح الكشاف) و(المفتاح) وغيرهما، وأن يدر سهماً، ويصلح ما يتفق أنه من سهو البنان أو البيان، بعد التأمل والاحتياط، والمراجعة والمطالعة الوافرة؛ وهذا خط الفقير سعد التفتازاني، كتبه في آخر سفر حياته والاتصال بوفاته وهو: الأواخر من محرم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة بسمرقند.

(والأستاد الثاني) في هذ العلوم: الفاضل العلامة، قطب الملة والدين، أحمد بن محمد بن محمود الأمامي الهروي، بلغه الله إلى أقصى ما يتمناه في دينه ودنياه، وفي آخرته وعقباه. وهو في هذه العلوم، تلميذ الأمام المحقق، الفاضل المدقق، الذي كان مع كبر سنه يضيء بين العلماء كالبدر بين النجوم، مولانا جلال الملة والدين يوسف الأوبهي المذكور، نور الله روحه، وكثر في كل لحظة فتحه وفتوحه. وهو تلميذ الأمام، أمام الدنيا، الذي أشرقت الأرض بنور علومه وتصنيفاته وتأليفاته، سعد الحق والملة والشريعة والدين التفتازاني، أحله دار رضوانه، وألبسه لباس عفوه وغفرانه.

وأما أستاذي في الفقه:

أما في فقه الشافعي: فهو الفاضل الكامل، الذي كان يستضيء الآفاق في حياته بنور تقواه، ويستفيد العالمون بنور فتواه: الامام الهمام، عبد العزيز بن أحمد بن عبد العزيز الأبهري، فقد قرأت كتاب (الحاوي) عنده، وكتب لي

أجازني في الدرس والفتوى، وكتاب إجازته طويل، إلا أن من جملة ما كتب في شأني، أنه قال: بعد ما سابق اقران قرنه في هذه الحلبة، وفاق على أبناء عصره في التحلي بهذه الحلية، وصار ممن يعول عليه وغض شبابه نضير و يرجع إليه وماله في الآفاق نظير، فأجزت له أن يدرس جميع الكتب المتداولة من كتب الفروع والأصول، ونسخ المعقول والمنقول، وأن يروي التفسير والحديث والفقه عني، وكل ما وضح وصح عنده أنه من مقروءاتي ومسموعاتي ومجازاتي بشرط الرعاية، لما شرط أهل الصناعة في الرواية، وأن يكتب في الحوادث الدينية، والوقائع الشرعية جواب الفتوى، بشرط الاحتياط والرجوع إلى الكتب مرة بعد أخرى، واختيار ما هو الأصح والأقوى. والله يعصمه وإياي من الميل واتباع الهوى؛ ثم قال: ثم اني أخذت الفقه عن شيخي ووالدي قدوة المحققين، زبدة المدققين، سيف الحق والشريعة والدين أحمد ابن المولى الفاضل الكامل العامل نظام الدين عبد العزيز الأبهري؛ وهو: عن الشيخ الفقيه النبيه غياث الدين محمد سبط، صاحب (الحاوي)؛ وهو: عن خاله جلال الحق والدين؛ عن أبيه نجم الدين عبد الغفار القزويني؛ عن الامام المحقق والحبر المدقق؛ أبي القاسم عبد الكريم الرافعي؛ عن أبيه الامام نور الدين الرافعي؛ عن الامام أبي منصور؛ عن الامام الهمام حجه الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي؛ عن امام الحرمين؛ عن أبيه الامام أبي محمد الجويني؛ عن الامام أبي بكر القفال؛ عن الامام أبي زيد المروزي؛ عن الامام أبي إسحاق الاسفرايني؛ عن ابن سريج؛ عن أبي القاسم الانماطي؛ عن الامامين اسماعيل والربيع؛ عن الامام الأعلم والهمام المكرم محمد بن إدريس الشافعي، رضي الله عنه وأرضاه؛ عن مسلم؛ عن ابن جريج؛ عن عطاء؛ عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

وبروايته أيضاً: عن نافع، عن ابن عمر، وهما رضي الله عنهما عن حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما في فقه أبي حنيفة رضي الله عنه: فشيخي وسندي وأستاذي هو الامام قدوة علماء الانام، فصيح الحق والملة والشريعة والدين، محمد بن محمد علا، أنزله في دار اكرامه منازل العلى، فلقد كان آية باهرة في الفتوى، وحجة

قاهرة في التقوى. ومن جملة ما قال هذا الفاضل في إجازته لي: وان من جملة من خص الله شأنه بالعلم، الذي هو الفضل العظيم والطول الجسيم، المولى الأعظم، المتحلي بأكارم الأخلاق وأحاسن الشيم، محقق معضلات الأصول والفروع، موضح مشكلات المعقول والمسموع، صاحب النصاب الكامل من العلوم، الغالب بوفور فضله على القروم، الذي مجمل العلوم عنده مفصل، ولباب الفنون له محصل، ذهنه الفائق الرائق كنز مشحون بجواهر الدقائق، والأخ في الله، السالك في حجة الانتباه، أبو المحامد شرف الملة والدين، شيخ علي ابن الامام المرحوم المبرور، مولانا مجد الدين محمد الشاهرودي البساطي، متع الله المستفيدين بأنفاسه النفيسة مدة طويلة؛ إلى أن قال: وسمع مني وقرأ عليّ وحقق لديّ الدفتر الأول من (الهداية)، للشيخ الرباني، والحبر الهمام الصمداني، شيخ الإسلام برهان الشريعة والملة والدين المرغيناني، جعل الله سعيه مشكوراً ولقاه نضرة وسروراً؛ وجرى بيننا مباحثات كثيرة بثيرة، ومناظرات غزيرة، فوقفت بتفتيشه على دقائق، كانت مستورة في خيام الاستتار، واطلعت بتنقيره على حدائق ذات بهجة تروق عيون أولي الأبصار؛ ثم قال: فأجزت له أن يروى عني التفسير والحديث والكلام، والفقه وأصوله، والأدب وما ينخرط في ذلك النظام، وأن يجيب بالبنان والبيان، في الحوادث اليومية، والنوازل الشرعية، بعد الاتقان والإيقان، وتتبع مختارات الروايات بقدر الوسع والإمكان، على مذهب الامام الأعظم أبي حنيفة، عليه شآبيب الرحمة والرضوان.

ومن المختصرات في علم النحو:

(المصباح): للامام الطرزي. وقد سبق ترجمته في علم اللغة عند ذكر (المغرب) في لغة الفقهيات. وله شروح منها:

شرح مسمى (بضوء المصباح): للاسفرايني وقد تقدم هو. وله شرح آخر له سماه (بالمفتاح)، واختصر منه: (الضوء) وله شرح آخر، لمولانا مصنفك، وهو شرح لطيف نافع في الغاية.

ومن كتب النحو:

(العمدة): لابن مالك، وقد ذكرنا ترجمته؛ و (تسهيل الفوائد) له أيضاً، يكاد أن لا يخل بمسألة من النحو، لكن عباراته صعبة، لا ينتفع به المبتدي. وله أيضاً: (ألفية) أورد فيها مهمات (التسهيل). وعليها شروح مفيدة سيما (شرح بن قاسم). ومن جملة شروحها: (شرح ولد المصنف) رحمه الله؛ وهو: محمد بن محمد بن عبدالله بن مالك، الامام بدر الدين ابن الامام جمال الدين، الطائي الدمشقي الشافعي النحوي ابن النحوي. قال الصفدي: كان اماماً ذكياً فهماً حاد الخاطر، اماماً في النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض، جيد المشاركة في الفقه والأصول. أخذ عن والده ووقع بينه وبينه شيء فسكن بَعْلَبَكَّ فقرأ عليه جماعة: منهم بدر الدين بن زيده، فلما مات والده طلب إلى دمشق، وولي وظيفة والده، وتصدى للاشغال والتصنيف. وكان اللعب يغلب عليه، وعشرة من لا يصلح. وكان إماماً في مواد النظم من النحو والمعاني والبيان والعروض والبديع، ولم يقدر على نظم بين واحد بخلاف والده.

وله من التصانيف:

١ ــ شرح ألفية والده.

٢ ــ شرح الكافية.

٣ ــ شرح لاميته، لم يكمله.

٤ ــ شرح التسهيل، لم يتمه.

٥ ــ المصباح في اختصار المفتاح في المعاني.

٦ ــ روض الأزهار فيه.

٧ ــ شرح الملحة.

٨ ــ شرح الحاجبية.

٩ ــ مقدمة في العروض.

١٠ ــ مقدمة في المنطق.

وغير ذلك. (مات) بالقولنج بدمشق، يوم الأحد ثامن المحرم، سنة ست وثمانين وستمائة، وتأسف الناس عليه.

ومن جملة شروحها: (شرح ابن جابر).

وهو محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهواري المالكي أبو عبدالله الأعمي النحوي. ولد سنة ثمان وتسعين وستمائة. وقرأ القرآن والنحو على محمد ابن يعيش، والفقه على محمد بن سعيد الراوندي، والحديث على أبي عبدالله الزواوي. ثم رحل إلى الديار المصرية، صحبة أحمد بن يوسف الرعيني. وهذان هما المشهوران بالأعمى والبصير. فكان ابن جابر يؤلف وينظم والرعيني يكتب، ولم يزالا هكذا على طول عمرهما وسمعا بمصر من أبي حيان، ودخلا الشام، وسمعا الحديث من المزي والجزري وابن كاميار. ثم قطنا حلب وحدثا بها عن المزي بصحيح البخاري، وسمع منها البرهان الحلبي.

ومن تصانيف ابن جابر:

١ ــ شرح الألفية لابن مالك. وهو كتاب مفيد يعتني بالأعراب للأبيات، هو جليل جداً نافع للمبتدئين؛ وله:

٢ ــ نظم الفصيح.

٣ ــ ونظم كفاية المتحفظ.

٤ ــ والحلة السيراء في مدح خير الورى؛ وهي بديعية ونظمها عال، لكنه أخل فيها بذكر أنواع من البديع كثيرة جداً، وأخبرني بعض أدباء صفد قدم علينا من القاهرة أنه رأى له:

٥ ــ شرحاً على ألفية ابن معطى، في ثمانية مجلدات، ولم أقف عليه. كذا ذكر السيوطي. (مات) في سنة ثمان وسبعمائة، وأجاز لمن أدرك حياته.

ورفيقه هو: أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الأندلسي، غرناطي، أديب ماهر، (ولد) بعد السبعمائة. وكان من حاله ما سبق في ترجمة ابن جابر. وكان مقتدراً على النظم والنثر، عارفاً بالبديع وفنونه، ديناً، حسن الخلق حلو المحاضرة. شرح (بديعية) رفيقه. و(مات) قبله بسنة في رمضان سنة تسع وسبعين. وأجاز أيضاً لمن أدرك حياته.

وقبل هذا (ألفية لابن المعطى). وهو يحيى بن معطى بن عبد النور، أبو الحسين زين الدين الزواوي المغربي النحوي الحنفي. كان اماماً مبرزاً في العربية شاعراً محسناً قرأ على الجزولي، وسمع من ابن عساكر، واقرأ النحو بدمشق مدة، ثم بمصر، وتصدر بالجامع العتيق وحمل الناس عنه.

وصنّف:

١ ــ الألفية في النحو.

٢ ــ الفصول له.

(ولد) سنة أربع وستين وخمسمائة، و (مات) في سلخ ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وست مائة. و (ألفية) جلال الدين السيوطي أتى ما فيها وزيادة عليها مقدار الثلث.

ومن المنظومات:

(ملحة الأعراب) للحريري. وهو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الحريري. وستقف على ترجمته عند ذكر المقامات، لأنه بها أشهر من غيرها.

و (أرجوزة الشيخ ابن الحاجب): نظم فيه على أحسن وجه خالياً من تكلف النظم.

ومن المبسوطات في كتب النحو:

(المفصل) للزمخشري، صاحب (الكشاف). وستقف على ترجمته عند ذكر الكشاف لأنه أشهر مصنفاته.

و (المقرب) لابن عصفور. وهو علي بن مؤمن بن محمد بن علي، بن الحسن بن عصفور النحوي الحضرمي الأشبيلي، حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس. وقد عرفت ترجمته عند ذكر (الممتع) في التصريف.

ومن المبسوطات: شروح المفصل، منها:

(الإيضاح): لابن الحاجب. وقد مرت ترجمته.

و (شرح ابن يعيش). وهو يعيش بن علي بن يعيش بن محمد بن أبي السرايا محمد بن علي بن المفضل بن عبد الكريم بن محمد بن يحيى النحوي الحلبي، موفق الدين أبو البقاء، المشهور بابن يعيش، وكان يعرف بابن الصانع أيضاً. بصاد مهملة ونون.

ولد: في رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحلب.

وقرأ النحو على فتيان حلب وأبي العباس البيروري، وسمع الحديث على الرضي التكريتي وأبي الفضل الطوسي. ورحل إلى بغداد ليدرك أبا البركات الأنباري فبلغه خبر وفاته بالموصل. وكان من كبار أئمة العربية ماهراً في النحو والتصريف قدم دمشق وجالس الكندي، وتصدر بحلب للاقراء زماناً، وطال عمره، وشاع ذكره، وغالب فضلاء حلب تلامذته. وكان حسن الفهم، لطيف الكلام، طويل الروح على المبتدي والمنتهى ظريف الشمائل كثير المجون مع سكينة ووقار. حدث عنه جماعة آخرهم: أبو بكر الدشتي.

وصنَّف:

١ ـ شرح المفصل.

٢ ـ شرح تصريف ابن جني.

(مات) في الخامس والعشرين من جمادي الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ومن شروح المفصل:

(الأقليد) للجندي؛ وشرح آخر مسمى (بالموصل) ولم أقف على ترجمة مؤلفها.

ومن الكتب المبسوطة:

كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب): لابن هشام. وله مختصر سماه: (قواعد الاعراب). وعليها شروح نافعة. وهو عبدالله بن يوسف بن

أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري، الشيخ جمال الدين الحنبلي، النحوي الفاضل، العلامة المشهور، أبو محمد. قال في الدرر: ولد في ذي القعدة سنة ثمان وسبعمائة، ولزم الشهاب عبد اللطيف بن المرحل، وتلا على ابن السراج، وسمع على أبي حيان ديوان زهير بن أبي سلمى، ولم يلازمه ولا قرأ عليه. وحضر دروس التاج التبريزي، وقرأ على التاج الفكهاني (شرح الإشارة) له إلا الورقة الأخيرة، وتفقه للشافعي ثم تحنبل، فحفظ (مختصر الخرقي) في دون أربعة أشهر، وذلك قبل موته بخمس سنين. وأتقن العربية، ففاق الأقران بل الشيوخ، وحدث عن ابن جماعة بالشاطبية، وتخرج به جماعة من أهل مصر وغيرهم. تصدر لنفع الطالبين، وانفرد بالفوائد الغريبة، والمباحث الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط، والاقتدار على التصريف في الكلام، والملكة التي كان يتمكن من التعبير بها عن مقصوده بما يريد، مسهباً وموجزاً، مع التواضع والبر والشفقة، ودماثة الخلق ورقة القلب. قال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه. وكان كثير المخالفة لأبي حيان شديد الانحراف عنه.

صنّف:

١ ــ مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، اشتهر في حياته وأقبل الناس عليه، قال السيوطي: وقد كتبت عليه (حاشية) و (شرحاً لشواهده).

وصنّف:

٢ ــ التوضيح على الألفية، مجلد.
٣ ــ رفع الخصاصة عن قراء الخلاصة، أربعة مجلدات.
٤ ــ عمدة الطالبين في تحقيق تصريف ابن الحاجب، مجلدان.
٥ ــ التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل، عدة مجلدات.
٦ ــ شرح التسهيل، مسودة.
٧ ــ شرح الشواهد الكبرى.

٨ ـــ والصغرى.

٩ ـــ القواعد الكبرى.

١٠ ـــ والصغرى.

١١ ـــ شذور الذهب.

١٢ ـــ شرحه.

قال السيوطي: وقد كتبت عليه حاشية لما قرىء عليَّ.

١٣ ـــ قطر الندى.

١٤ ـــ شرحه.

١٥ ـــ الجامع الكبير.

١٦ ـــ الجامع الصغير.

١٧ ـــ شرح اللمحة لأبي حيان.

١٨ ـــ شرح بانت سعاد.

١٩ ـــ وشرح البردة.

٢٠ ـــ التذكرة، خمسة عشر مجلداً.

٢١ ـــ المسائل السفرية في النحو. وغير ذلك.

وله عدة حواش على الألفية والتسهيل.

(توفي) ليلة الجمعة خامس ذي القعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة.

وأصل هذه الكتب وأجمعها، وأحسنها وأنفعها، ومقبول أفاضل الآفاق، ومقتدى الأدباء على الأطباق، كتاب الشيخ الامام، والفاضل الهمام، الشيخ الأكبر عمرو بن عثمان بن قنبر، روح الله روحه، وجزاه الله عنا وعن كافة المسلمين خير الجزاء. وقد عرفت ترجمة سيبويه فلا نعيدها.

علم المعاني

وهو تتبع خواص تراكيب الكلام، ومعرفة تفاوت المقامات، حتى يتمكن من الاحتراز عن الخطأ في تطبيق الأول على الثاني، وذلك لأن للتراكيب خواص مناسبة لها يعرفها البلغاء أما بسليقتهم أو بممارسة علم البلاغة.

وتلك الخواص، بعضها ذوقية، وبعضها استحسانية، وبعضها توابع ولوازم، له معاني الأصلية، لكن لزوماً معتبراً في عرف البلغاء، وإلا لما اختص فهمها بصاحب الفطرة السليمة. وكذا مقامات الكلام متفاوتة، كمقام الشكر والشكاية والتهنئة والتعزية والجد والهزل، وغير ذلك من المقامات.

وكيفية تطبيق الخواص على المقامات، تستفاد من علم المعاني، ومداره على الاستحسانات العرفية.

وموضوعه: التراكيب الخبرية والطلبية، من حيث تطبيق خواصها على مقتضى الحال.

ومسائله: القواعد التي يتعرف منها أن أي مقام يقتضي أي خواص من الخواص.

ومبادئه: المسائل النحوية واللغوية. وبالجملة المسائل الأدبية كلها.

ودلائله: استقراء تراكيب البلغاء.

والغرض منه: تطبيق الكلام على مقتضى الحال.

وغايته: الاقتدار على التطبيق المذكور، وتمام تفصيل هذا المقام، لا يسعه نطاق الكلام.

وأما الكتب المصنفة في علم المعاني: فلما لم يفرز عن البيان والبديع، رأينا أن نذكرها بعد ذكر الجميع إن شاء الله تعالى. ولابن الهيثم البحريني كتاب في علم المعاني فقط.

علم البيان

وهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة.

وموضوعه: اللفظ العربي من حيث وضوح الدلالة على المعنى المراد.

وغرضه: تحصيل ملكة الإفادة بالدلالة العقلية، وفهم مدلولاتها، ليختار الأوضح منها مع فصاحة المفردات.

وغايته: الاحتراز عن الخطأ في تعيين المعنى المراد بالدلالات الواضحة.

ومبادئه: بعضها عقلية، كأقسام الدلالات والتشبيهات والعلاقات المجازية، ومراتب الكنايات؛ وبعضها وجدانية ذوقية، كوجوه التشبيهات وأقسام الاستعارات، وكيفية حسنها ولطفها.

وإنما اختاروا في علم البيان وضوح الدلالة، لأن بحثهم لما اقتصر على الدلالة العقلية أعني التضمنية والالتزامية ــ وكانت تلك الدلالات خفية، سيما إذا كان اللزوم بحسب العادات والطبائع، وبحسب الألف، فوجب التعبير عنها بلفظ أوضح؛ مثلاً إذا كان المرئي دقيقاً في الغاية، تحتاج الحاسة في إبصارها إلى شعاع قوي، بخلاف المرئي الجلي، وكذا الحال في الرؤية العقلية، أعني الفهم والإدراك.

والحاصل: أن المعتبر في علم البيان دقة المعاني، المعتبرة فيها من الاستعارات والكفايات، مع وضوح الألفاظ الدالة عليها.

ومن الكتب المفردة فيه: (الجامع الكبير) لابن الأثير الجزري. وقد عرفت ترجمته في علم التفسير، لأن أجل مصنفاته (التفسير الكبير).

علم البديع

وهو علم باحث عن التراكيب العربية، من حيث وجوه تحسين الكلام بالحسن العرضي، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ووضوح الدلالة على المرام.

وموضوعه: اللفظ العربي من حيث التحسين والتزيين العرضيين، بعد تكميله دائرتي الفصاحة والبلاغة.

وغرضه: تحصيل ملكة تحلية الكلام بالمحسنات العرضية.

وغايته: الاحتراز عن خلو الكلام عن التحلية المذكورة.

ومنفعته: التطرية لنشاط السامع وزيادة القبول في العقول.

ومبادئه: تتبع الخطب والرسائل والأشعار المتحلية بالصنائع البديعية.

وإنما دونوا هذا العلم، واعتبروا هذه الصنائع، لأن الأصل وإن كان الحسن الذاتي، وكان ذلك مما يكفي في تحصيله المعاني والبيان، لكنهم اعتنوا بشأن الحسن العرضي أيضاً، لأن الحسناء إذا عريت عن المزينات، ربما يذهل بعض القاصرين عن تتبع محاسنها الشريفة، فيفوته التمتع بها، وأما إذا طابقت الصورة والمعنى والذات والأوصاف، يستوفي منها الحظ كل الناظرين والمطالعين جمالها الحقيقي والمجازي. ولهذا اشترطوا فيها الحسن الذاتي أولاً وبالذات، لئلا يكون كالثياب الحسنة المزخرفة، على الشوهاء القبيحة الخرقة، أو كغمد من ذهب، على نثل من خشب، والحسن العرضي ثانياً وبالتبع، ليكون مقبولاً في البدء والختم.

ومن الكتب المختصة بعلم البديع:

(زهر الربيع) للمطرزي وقد عرفته.

و (كتاب البديع) للتفاشي.

و (تحرير التحبير) لابن أبي الأصبع.

و (شرح البديعيات) لابن حجة.

ومن الكتب المشتملة على الفنون الثلاثة:

(روض الأذهان)، وكذا: (المصباح) لابن مالك، وقد عرفته، و (كتاب مفتاح العلوم) للسكاكي اشتمل هذه الثلاثة، وقدم عليها الاشتقاق والصرف والنحو، وأورد عقيب الثلاثة المذكورة ــ بطريق التكملة ــ علم الاستدلال، وعلم العروض والقوافي، ودفع مطاعن القرآن.

قلت: السكاكي. هو أبو يعقوب يوسف السكاكي العلامة. كان علامة بارعاً في علوم شتى، خصوصاً المعاني والبيان. وله كتاب (مفتاح العلوم) في إثني عشر علماً من علوم العربية. ونقل عنه أبو حيان في (الإرتشاف) في مواضع، وقال فيه: إن السكاكي من أهل خوارزم. وذكر الشيخ سراج الدين البلقيني فقال: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، أبو يعقوب السكاكي، سراج الدين الخوارزمي، إمام في النحو والتصريف والمعاني والبيان والاستدلال

والعروض والشعر، وله النصيب الوافر من علم الكلام وسائر العلوم، من رأى مصنفه علم تبحره ونبله وفضله. (مات) بخوارزم في أوائل شهر الله الأصم رجب، سنة ست وعشرين وستمائة. (وكانت ولادته) ليلة الثلاثاء من شهر جمادي الأولى، سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

شرح (المفتاح) المولى المؤذني؛ وشرح (القسم الثالث من المفتاح)، وذكر فيه العلوم الثلاثة المختصة بعلم البلاغة جماعة كثيرة، منهم: ناصر الدين الترمذي، والخلخالي، وعماد الدين الكاشي، ولم أقف على ترجمتهم. إلا أن الخلخالي: هو محمد بن مظفر الخطيبي الخلخالي شمس الدين. كان إماماً في العلوم العقلية والنقلية.

وله من التصانيف المشهورة:

١ ــ شرح المصابيح.
٢ ــ وشرح المختصر.
٣ ــ وشرح المفتاح.
٤ ــ وشرح التلخيص.

(مات) سنة خمس وأربعين وسبعمائة. وأفضل الشروح وأعلاها ثلاثة:

١ ــ شرح العلامة قطب الدين الشيرازي.
٢ ــ وشرح سعد الدين التفتازاني.
٣ ــ وشرح السيد الشريف الجرجاني.

أما العلامة قطب الدين الشيرازي: فهو محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي، قطب الدين الشيرازي الشافعي العلامة. (ولد) بشيراز سنة أربع وثلاثين وستمائة. وكان أبوه طبيباً، فقرأ عليه وعلى عمه، والزكي الركشاوي، والشمس الكبي. ثم سافر إلى النصير الطوسي فقرأ عليه وبرع. ثم دخل الروم فأكرمه صاحبها. وولى قضاء سيواس ومَلْطيَة، وقدم الشام، ثم سكن تبريز، واقرأ بها العلوم العقلية. وحدث (بجامع الأصول) عن الصدر القونوي، عن يعقوب الهذباني، عن المصنف. وكان ينظر في (شرح السنة)

للبغوي. وكان يخالط الملوك، متحرزاً ظريفاً مزاحاً لا يحمل هما، ولا يغير زي الصوفية. وكان يجيد لعب الشطرنج ويديمه، ويتقن الشعبذة، ويضرب بالرباب. وكان من بحور العلم، ومن أذكياء العالم، يخضع للفقهاء، ويلازم الصلاة في الجماعة. وإذا صنف كتاباً صام ولازم السهرة، ومسودته مبيضته. وكان يصاحبه الملوك، ثم انقطع عن أبواب الأمراء إلى أن مات.

وله:

١ ــ شرح المختصر لابن الحاجب.
٢ ــ شرح المفتاح.
٣ ــ شرح كليات القانون لابن سينا.
٤ ــ وله شرح حكمة الاشراق.
٥ ــ وصنف كتاب درة التاج، على لسان الفارسية، أدرج فيه جميع أقسام الحكمة النظرية والعملية.

وصنَّف في الهيئة:

٦ ــ التحفة؛
٧ ــ ونهاية الإدراك.

وغير ذلك. ومصنفاته كثيرة كلها في غاية الحسن والإتقان.

(مات) في رابع رمضان سنة ست عشرة وسبعمائة.

وأما سعد الدين التفتازاني: فهو مسعود بن القاضي فخر الدين عمر، ابن المولى الأعظم برهان الدين عبد الله، ابن الإمام الرباني شمس الحق والدين، القاري الشيخ سعد الدين التفتازاني، الإمام العلامة. عالم بالنحو والتصريف والمعاني والبيان والأصلين والمنطق وغيرها، شافعي. قال ابن حجر: (ولد) سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وأخذ عن القطب والعضد، وتقدم في الفنون، واشتهر ذكره وطار صيته، وانتفع الناس بتصانيفه.

وله: ١ ــ شرح العضد؛

٢ ـــ وشرح التلخيص مطول؛
٣ ـــ وآخر مختصر؛
٤ ـــ وشرح القسم الثالث من المفتاح؛
٥ ـــ والتلويح في شرح التوضيح في الأصول؛
٦ ـــ وشرح العقائد النسفية؛
٧ ـــ والمقاصد؛
٨ ـــ وشرحه في الكلام؛
٩ ـــ وشرح الشمسية في المنطق؛
١٠ ـــ وشرح تصريف الزنجاني؛
١١ ـــ والارشاد في النحو؛
١٢ ـــ وتهذيب المنطق والكلام؛
١٣ ـــ وحاشية الكشاف، لم يتم؛
١٤ ـــ وحاشية شرح العضد على مختصر ابن الحاجب.

وغير ذلك. وتصانيفه كثيرة. وكان في لسانه لكنة. وانتهت إليه معرفة العلوم بالمشرق (مات) بسمرقند سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

قلت: ذكر مولانا فتح الله الشرواني في أوائل (شرحه للإرشاد)، للفاضل سعد الدين التفتازاني ـــ روح الله روحه ـــ وقال: لا بأس بذكر تاريخ تأليف الارشاد بل سائر مؤلفات المصنف، رحمه الله. لقد زرت مرقده المقدس بسرخس، فوجدت مكتوباً على صندوق مرقده من جانب القدم: ولد عليه الرحمة والرضوان، في صفر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة. وفرغ من تأليف:
١ ـــ (شرح التصريف) الزنجاني، حين بلغ ست عشرة سنة، في الليلة الخامسة عشرة من شعبان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة؛

٢ ـــ ومن (شرح تلخيص المفتاح)، في يوم الأربعاء الحادي عشر من صفر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بهراة. قلت: وكان الإفتتاح في يوم الإثنين الثاني من رمضان، الواقع في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة بجرجانية خوارزم؛
٣ ـــ ومن (اختصاره)، في سنة ست وخمسين وسبعمائة بغُجْد وان؛

٤ ــ ومن (شرح الرسالة الشمسية)، في جمادي الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة بمزارجام؛

٥ ــ ومن (شرح التنقيح)، في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، بكلستان تُرْكستان؛

٦ ــ ومن (شرح العقائد)، في شعبان سنة ثمان وستين وسبعمائة؛

٧ ــ ومن (شرح المختصر) في الأصول، في ذي الحجة حجة سبعين وسبعمائة؛

٨ ــ ومن الرسالة الكريمة: (الارشاد)، سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، كلها بخوارزم؛

٩، ١٠ ــ ومن (مقاصد الكلام) و (شرحه)، في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وسبعمائة بسمرقند؛

١١ ــ ومن (تهذيب الكلام) في رجب؛

١٢ ــ ومن (شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم) في شوال، كليهما في سنة تسع وثمانين وسبعمائة بظاهر سمرقند.

١٣ ــ وشرع في تأليف (الفتوى الحنفية)، يوم الأحد التاسع من ذي القعدة سنة تسع وخمسين وسبعمائة بهراة؛

١٤ ــ وفي تأليف (مفتاح الفقه) سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة؛

١٥ ــ وفي شرح (تلخيص الجامع) سنة خمس وثمانين وسبعمائة، كليهما في السرخس؛

١٦ ــ وفي (شرح الكشاف)، في الثامن عشر من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وسبعمائة، بظاهر سمرقند؛

(وتوفي) يوم الإثنين الثاني والعشرين من المحرم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة بسمرقند، ونقل إلى سرخس، ودفن بها يوم الأربعاء التاسع من جمادي الأولى بهذه السنة، روح الله روحه، وزاد في غرف الجنان فتوحه.

وأما السيد الشريف الجرجاني: فهو علي بن محمد بن علي الحنفي الشريف الجرجاني. قال العيني في (تاريخه): عالم بلاد الشرق، كان علامة دهره،

وكانت بينه و بين الشيخ سعد الدين مباحثات ومحاورات في مجلس تيمور لنك.

وله تصانيف مفيدة منها:

١ ــ شرح المواقف للعضد؛

٢ ــ وحواشي شرح الأصفهاني للتجريد للنصير الطوسي؛

و يقال: ان مصنفاته زادت على خمسين مصنفاً. (مات) سنة أربع عشرة وثمانمائة. هذا ما ذكره العيني. قال السيوطي:

ومن مصنفاته:

٣ ــ شرح القسم الثالث من المفتاح؛

٤ ــ وحاشية المطول؛

٥ ــ وحاشية المختصر؛

٦ ــ وحاشية الكشاف، لم يتم؛

٧ ــ وله رسالة في تحقيق معنى الحرف.

وأفادني سيدنا المؤرخ شمس الدين بن عزم، أن (مولد) الشريف الجرجاني بجرجان من ولاية أشتر آباذ، سنة أربعين وسبعمائة، وأنه (توفي) بشيراز، في سادس ربيع الثاني سنة ست عشرة وثمانمائة.

قلت: فمدة عمره ــ تغمده الله بغفرانه ــ ست وسبعون سنة.

نقل السيوطي عن شيخه محمد الكافيجي أنه قال: السيد الشريف وقطب الدين الرازي التحتاني لم يذوقا علم العربية، بل كانا حكيمين.

قلت: هذا الكلام خروج عن الانصاف، ولا يلزم من عدم انفرادهما بعلم العربية، ومشاركتهما لسائر العلوم، عدم معرفتها، فانظر بالانصاف، في تصانيفهما مباحث تتعلق بالعربية، قد عجز عنها القدماء من أرباب العلوم العربية.

وعين البغض تبرز كل عيب   وعين الحب لا تجد العيونا

ومن الكتب النافعة في العلوم المذكورة: (تلخيص المفتاح) و (الإيضاح)، وهو يجري مجرى الشرح للتلخيص. كلاهما للشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر ابن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسن بن علي بن ابراهيم بن علي بن أحمد ابن دلف العجلي، أبو المعالي قاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي العلامة. قال ابن حجر: (ولد) سنة ستين وستمائة، واشتغل وتفقه، حتى ولى قضاء ناحية بالروم، وله دون العشرين، ثم قدم دمشق، واشتغل بالفنون، واتقن الأصول والعربية والمعاني والبيان، وأخذ عن الأيكي وغيره، وسمع الحديث من العز الفاروقي وغيره، وخرج له البرزالي جزءاً حدث به. وكان فهماً ذكياً فصيحاً مفوهاً، حسن الإيراد، جميل الذات والهيئة والمكارم، جميل المحاضرة، حسن الملتقى، جواداً، حلو العبارة، حاد الذهن، منصفاً في البحث، مع الذكاء والذوق في الأدب وحسن الخط. وناب عن ابن صصري، ثم عزله. ثم ولى خطابة جامع دمشق، ثم طلبه الناصر، وقضى ديناً كان عليه، وولاه قاضياً بالشام، ثم طلبه إلى مصر وولاه قضاءها بعد صرف ابن جماعة، فصرف أموال الأوقاف على الفقراء والمحتاجين، وعظم أمره جداً، وكان للفقراء ذخراً وملجأ. ثم أعيد إلى قضاء دمشق بسبب أولاده، وخصوصاً ابنه عبد الله، فإنه أسرف في اللهو والرشوة، ففرح به أهل الشام، فأقام قليلاً وتعلل وأصابه فالج، فمات منه، وأسفوا عليه كثيراً. وكان مليح الصورة، فصيح العبارة، كبير الذقن، موطأ الأكتاف، جم الفضيلة، محب الأدب يحاضر به ويستحضر نكتة، قوى الخط. ويقال إنه لم توجد لأحد من القضاة منزلة عند سلطان تركي نظير منزلته، وله في ذلك وقائع. قلت: ولا أعلمه نظم شيئاً، مع قوة باعه في الأدب.

وله من التصانيف:

١ ـــ تلخيص المفتاح، في المعاني والبيان. وهو من أجل المختصرات فيه وأنفعها للناس. قال السيوطي: وملكته بخطه الحسن المليح ونظمته في أرجوزة؛

وله: ٢ ـــ إيضاح التلخيص، وذلك يجري مجرى الشرح له؛

٣ ـــ والسوار المرجاني من شعر الأرجاني؛

(مات) في منتصف جمادي الأولى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة.

ثم أن (التلخيص) عليه شروح مفيدة، منها:

١ ــ شرح الخلخالي، وقد عرفته؛

٢ ــ وشرح الزوزني؛

٣ ــ وشرح التفتازاني المطول؛

٤ ــ والمختصر.

وقد عرفت ترجمتها.

وأما (الايضاح) فلم نعرف له شرحاً غير:

١ ــ شرح مولانا جمال الدين محمد بن محمد الأقسرائي؛ ولم نعرف ترجمته؛

٢ ــ وغير شرح مولانا حيدر الشيرازي ثم الرومي برهان الدين. كان علامة بالمعاني والبيان والعربية، أخذ عن التفتازاني. و(شرح الايضاح) للقزويني شرحاً ممزوجاً، وقدم الروم، وأقرأ وأفتى على مذهب أبي حنيفة، رضي الله عنه. و(مات) بعد العشرين وثمانمائة. قال السيوطي: أخذ عنه شيخنا محيى الدين الكافيجي، وذكره لنا هو وغيره.

ومن جملة من اختصر المفتاح: مولانا عضد الدين سماه (بالفوائد الغياثية). وهو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، القاضي عضد الدين الأيجي، العلامة الشافعي، المشهور بالعضد. قال في (الدرر): كان اماما في المعقول، قائماً بالأصول والمعاني والعربية، مشاركاً في الفنون، كريم النفس، كثير المال جداً، كثير الأنعام على الطلبة. (ولد) بعد السبعمائة، وأخذ عن مشايخ عصره، ولازم الشيخ زين الدين الهبكي تلميذ البيضاوي وغيره. وولى قضاء الممالك. وكان أنجب تلامذة عظاماً اشتهروا في الآفاق منهم:

الشيخ شمس الدين الكرماني، وسيف الدين الأبهري، والتفتازاني، والضياء القرمي.

وصنَّف:

١ ــ شرح مختصر ابن الحاجب؛

٢ ــ والمواقف؛
٣ ــ والفوائد الغياثية، في المعاني والبيان؛
٤ ــ ورسالته في الوضع.

وجرت له محنة مع صاحب كرمان، فحبسه بالقلعة. و(مات) مسجوناً سنة ست وخمسين وسبعمائة.

وأورد ابن السبكي في (طبقات الشافعية)، ما كتبه عضد الدين، يستفتي به أهل عصره، فيما وقع في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾[1] حيث قال: «من مثله» متعلق «بسورة» صفة لها، أي بسورة كائنة من مثله، والضمير، «لما نزلنا» أو «لعبده»، ويجوز أن يتعلق بقوله: فأتوا، والضمير للعبد، حيث جوز في الوجه الأول كون الضمير لما نزلنا تصريحاً، وحظره في الوجه الثاني تلويحاً. فليت شعري ما الفرق بين فأتوا بسورة كائنة من مثل ما نزلنا، وفأتوا من مثل ما نزلنا بسورة. وكتب الجواب كثير من الفضلاء، سيما فخر الدين الجاربردى، إذ تعرض عضد الدين جواب الجار بردى، ثم رد جواب عضد الدين، ابراهيم ولد فخر الدين الجار بردى وأطالوا الكلام فيه، تركنا ذكرها لطولها ولعدم تعلق غرضنا بها.

وعلى (الفوائد الغياثية) شروح كثيرة، منها:

(شرح شمس الدين الكرماني). من تلامذته، وهو محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني، ثم البغدادي، شمس الدين، صاحب (شرح البخاري)، الإمام العلامة في الفقه والحديث والتفسير والأصلين والمعاني والعربية. قال ابنه في (ذيل المسالك): (ولد) يوم الخميس سادس عشر جمادي الآخرة، سنة سبع عشرة وسبعمائة. وقرأ على والده بهاء الدين، ثم انتقل إلى كرمان، وأخذ عن العضد وغيره، وبهر وفاق أقرانه، وفضل غالب أهل زمانه. ثم دخل دمشق ومصر، وقرأ بها البخاري على ناصر الدين الفارقي، وسمع من جماعة، وحج ورجع إلى بغداد واستوطنها. وكان تام الخلق، فيه

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣.

بشاشة وتواضع للفقراء والعلماء، غير مكترث بأهل الدنيا ولا ملتفت إليهم، يأتي إليه السلاطين في بيته، و يسألونه الدعاء والنصيحة.

وله من التصانيف:

١ ــ شرح البخاري، أربعة مجلدات؛

٢ ــ وشرح المواقف؛

٣ ــ وشرح مختصر ابن الحاجب، سماه: السبعة السيارة؛

٤ ــ وشرح الفوائد الغياثية في المعاني والبيان؛

٥ ــ وشرح الجواهر؛

٦ ــ وأنموذج الكشاف؛

٧ ــ وحاشية على تفسير البيضاوي، وصل فيها إلى سورة يوسف؛

٨ ــ ورسالة في مسألة الكحل في الكافية.

(مات) بكرة يوم الخميس، سادس عشر المحرم، سنة ست وثمانين وسبعمائة، بطريق الحج، فنقل إلى بغداد، ودفن بقبر أعده لنفسه، بقرب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، رحمهما الله تعالى.

ومن شروح الفوائد الغياثية:

(شرح ابن السيد الشريف الجرجاني). وهو محمد بن علي الجرجاني ابن السيد الشريف المشهور صاحب التصانيف. قرأ على والده وبرع.

١ ــ وكمل حاشية أبيه على المتوسط؛

٢ ــ وشرح الارشاد في النحو للتفتازاني؛

٣ ــ وشرح الفوائد الغياثية، وهو شرح ممزوج لطيف في الغاية رأيناه واستفدنا منه؛

٤ ــ وشرح هداية الحكمة، وهو ممزوج أيضاً؛

وله:

٥ ــ رسالة مختصرة في المنطق: أورد ما يحتاج إليه، كتبها على أسلوب رسالة والده في المنطق، مع زيادات شريفة، لكن كتبها والده بالفارسية.

ومن شروح الفوائد:

(شرح سعد الدين الحلال)، بالمهملة، ولم أقف على ترجمته.

و (شرح آخر) ممزوج لطيف في الغاية، لكن لم أعرف اسم مصنفه. والله أعلم.

ومن الكتب المعتبرة في هذه الفنون:

(كتاب الوشاح) للمولى صدر الشريعة. وسنذكره في علم الفقه أو الأصول لأنه بها أشهر. ومن أراد الوقوف في علم البلاغة على العجب العجاب والتبحر في هذا الباب، فعليه بكتابي: (دلائل الاعجاز)و (أسرار البلاغة)، كلاهما من مؤلفات الشيخ عبد القاهر الجرجاني، لا زال من أن يتداركه اللطف السبحاني. وقيل: إن كتابيه في هذه الفنون بحران ينشعب منها العيون. والله ولي التوفيق.

علم العروض

وهو علم يبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتبرة للشعر، العارضة للألفاظ والتراكيب العربية.

وموضوعه: الألفاظ العربية، من حيث أنها معروض للإيقاعات المعتبرة في البحور الستة عشر عند العرب، على ما وضعه واضع هذا الفن الخليل بن أحمد. فعلى الأول يكون علم العروض من فروع الموسيقى؛ وعلى الثاني من فروع علم الشعر على مذهب المتأخرين؛ وان اعتبرت في الأشعار العربية يكون من فروع العلوم الأدبية، والمختار عندنا هذا؛

وغايته: الإحتراز عن الخطأ في إيراد الكلام على الإيقاعات المعتبرة؛

ومبادئه: مقدمات حاصلة من تتبع أشعار العرب.

وإنما جعلوا هذا العلم جزءاً من علم البلاغة، لأن الإيقاع بمنزلة الحسن العرضي، لتنشيط السامعين وتطريبهم زيادة طرب، فيتمكن الكلام المعتبر هو

فيه النفس أشد تمكن، وتتأثر منه النفس، فتقبلها أشد قبول. سيما إذا تضمن تخييلاً، سيما إذا كان ذلك التخييل والوزن، مناسباً لطبع السامع وحاله، كما يعرف تلك المناسبة المتدربون في ذلك العلم.

وقد يقال: لما توقف علم المعاني على تتبع التراكيب العربية، وكانت التراكيب قسمين: منظوم ومنثور؛ وتوقف معرفة المنظوم على علم العروض، جعلوه من العلوم العربية، لكن يكون حينئذ من مبادي علم المعاني، كالمحاضرات والتواريخ، لا قسماً برأسه من علم المعاني، كما ذكرناه أولاً، لكن الصحيح أنه قسم برأسه منه، لأنه المحسنات العرضية للكلام كما ذكرناه.

وأعلم: أن العروض يستغنى عنه السليم الطبع، المستكثر لأنواع الشعر، ولا ينتفع به البليد، ويحتاج إليه من عداهما وهم الأكثرون. وإن اجتمع الطبع والكسب فذلك غاية الحذق والمهارة.

وأعلم: أن الشعر عند الحكماء كلام مخيل موزون أو غير موزون، وجعلوا مدار الشعر على المخيلات التي تتأثر منها النفس قبضاً وبسطاً، حتى قيل: النفس في باب الأقدام والأحجام، طوع على التخييل من التصديق؛ وعند المتأخرين: كلام موزون مقفى، فاعتبروا القافية والوزن وتركوا التخييل؛ وعند بعضهم: كلام موزون عمداً، فهم تركوا التقفية والتخييل، إلا أنهم اعتبروا العمد، ليخرج ما وقع في التنزيل من الآيات الموزونة عن حد الشعر، إذ لا عمد فيها، بدليل قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾[1]. لكن الحق وهو المختار عندي، اعتبار القيود المذكورة جميعاً من التخييل، وإلا يصير الكلام كتزين الشوهاء والوزن، وإلا ينقص لذة الطبع والتقفية، وإلا ينقص لذة السمع والعمد، وإلا يلزم وجود الشعر في القرآن «وما هو بقول شاعر». فالشعر: كلام مخيل، موزون، مقفى بطريق العمد. والتخييل: تأثير الكلام في النفس، بالقبض أو البسط، أو غيرهما، بحسب المعنى المراد منه. والوزن: عبارة عن هيئة تتبع نظام ترتيب المتحركات والساكنات، وتناسبها في العدد والمقدار، بحيث تجد النفس عند سماعها لذة مخصوصة ذوقية.

---

(١) سورة يس، آية: ٦٩.

واعلم: أو واضع هذا الفن خليل بن أحمد؛ تتبع أشعار العرب، وحصرها في خمسة عشر وزناً، وسمى كلاً منها بحراً، واعتبر في هذه البحور أربعاً وثلاثين عروضاً وثلاثة وستين ضرباً، وذكر من علل الزخارف ثلاثاً وعشرين علة. قيل: إنما وضعه خليل بن أحمد، وهذبه الجوهري، وزاد الأخفش بحراً آخر سماه المتدارك. قيل: استمسك خليل بن أحمد أستار الكعبة، وسأل الله تعالى أن يرزقه علماً لم يسبق إليه أحد؛ فأجاب الله سبحانه وتعالى دعوته، فأعطاه هذا العلم، حتى أنه سماه باسم العروض تبركاً وتيمناً، لأن العروض من أسماء الكعبة. روى أن ابن المعتز قال: كان سبب استخراج الخليل هذا العلم، أنه مر بالبصرة في سكة القصارين، فسمع دق الكذنيق بأصوات مختلفة، فسمع من دار دق، ومن أخرى دق دق، ومن أخرى دقق دقق، فأعجبه ذلك، وقال: والله لأضعن على هذا المعنى علماً غامضاً، فوضع العروض على حدود الشعر.

قلت: الكُذينق، بضم الكاف، وكسر المعجمة، وسكون المثناه التحتانية، وفتح النون: شيء من جلود يدق به كالهاون.

ومن الكتب المختصرة في علم العروض:

(كتاب لأ بن مالك)، وقد عرفت ترجمته؛ و (عروض الورقة) للجوهري؛ و (لامية ابن الحاجب)، وقد عرفتها؛ وللأيمكي (مختصر) بديع؛

و (عروض ابن القطان)، وهو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز، المعروف بابن القطان، الشاعر البغدادي. سمع الحديث من جماعة، وسُمع عليه، وكان غاية في الخلاعة والمجون، كثير المزاح والمداعبة والهجاء، ولم يسلم منه أحد لا الخليفة ولا غيره. وله في ذلك نوادر ووقائع وحكايات ظريفة. وله (ديوان شعر) أكثره جيد. (ولد) ضاحى نهار يوم الجمعة، سابع ذي الحجة، سنة ثمان أو سبع وسبعين وأربعمائة. و (توفي) يوم السبت، الثامن والعشرين من شهر رمضان، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ببغداد.

و (لامية صدر الدين الساوي)؛ و (شرحها) للإمام القزويني؛

و (شرح لامية ابن الحاجب) لجمال الدين بن واصل.

و (شفاء العليل في علم الخليل) لأمين الدين المحلى. وقد مدحه سراج الدين الوراق في قطعة له يمدح بها المحلى وهي هذه:

جزاك الله عن علم الخليل	مجازاة الجليل عن الخليل
وكنا قد أيسنا منه حتى	شفيت غليلنا بشفا العليل

والمحلى: هو محمد بن علي بن موسى بن عبد الرحمن، أبو بكر الأنصاري، الشيخ أمين الدين المحلى. قال الذهبي: أحد أئمة النحو بالقاهرة، تصدر لاقرائه، وانتفع به الناس، وله شعر حسن وتصانيف حسنة، منها: (أرجوزة في العروض) (مات) في ذي القعدة، سنة ثلاث وسبعين وستمائة، عن ثلاث وسبعين.

ومن الكتب النافعة:

(عروض الخطيب التبريزي): وهو يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن بسطام الشيباني، أبو زكريا بن الخطيب التبريزي. قال ياقوت: وربما يقال له الخطيب وهو وهم. وكان أحد الأئمة في النحو واللغة والأدب، حجة صدوقاً ثبتاً، هاجر إلى أبي العلاء المعري، وأخذ عنه وعن عبيد الله الرقي والحسن بن رجاء بن الدهان، وابن برهان، والمفضل القصباني، وعبد القاهر الجرجاني، وغيرهم. وسمع الحديث وكتب الأدب على خلق، منهم: القاضي أبو الطيب الطبري، وأبو القاسم التنوخي، والخطيب البغدادي. وأخذ عنه العلم موهوب الجواليقي وغيره، وروى عنه السلفي، وأبو الفضل بن ناصر. وولي تدريس الأدب بالنظامية، وخزانة الكتب بها. وانتهت إليه الرياسة في فنه، وشاع ذكره في الأقطار. وكان يدمن شرب الخمر ويلبس الحرير والعمائم المذهبة، وكان الناس يقرأون عليه تصانيفه وهو سكران. وكان أكولاً نهماً.

صنّف:

١ ــ شرح القصائد العشر؛

٢ ــ تفسير القرآن؛

٣ ــ الأعراب؛

٤ ــ شرح اللمع؛

٥ ــ الكافي في العروض والقوافي؛

٦ ــ ثلاثة شروح على الحماسة؛

٧ ــ شرح شعر المتنبي؛

٨ ــ وشعر أبي تمام؛

٩ ــ وشرح الدريدية؛

١٠ ــ وشرح سقط الزند؛

١١ ــ وشرح المفضليات؛

١٢ ــ وتهذيب الاصلاح: لا بن السكيت.

وغير ذلك. (ولد) سنة احدى وعشرين وأربعمائة. (مات) فجأة في جمادي الأولى سنة اثنتين وخمسمائة.

ومن الكتب النافعة المفيدة:

(عروض أبي الجيش) الأنصاري الأندلسي، وهو أبو عبد الله محمد؛ و (شرحه داود القيصري) المدرس بمدرسة أزنيق من بلاد الروم؛ وشرحه أيضاً الياس بن ابراهيم الرومي سماه: (فتح النقوض في شرح العروض).

ومن الكتب النافعة في الغاية:

(القصيدة الخزرجية)، و (شرحها ابن داود الغربي).

وفيما أورده السكاكي في تكملة (مفتاح العلوم) كفاية في هذا العلم. والله أعلم.

علم القوافي

علم يبحث فيه عن تناسب اعجاز البيت وعيوبها.

وغرضه: تحصيل ملكة إيراد الأبيات، على اعجاز متناسبة خالية عن العيوب التي يتنفر عنها الطبع السليم، على الوجه الذي اعتبره العرب؛

وغايته: الإحتراز عن الخطأ فيه؛

ومبادئه: مقدمات حاصلة من تتبع اعجاز أشعار العرب.

ومن الكتب المختصرة فيه: (كتاب الأ يكي)؛

ومن المتوسطة:

(كتاب لأ بن القطاع). وهو علي بن جعفر بن علي السعدي، المعروف بابن القطاع الصقلي. قال ياقوت: كان إمام وقته بمصر في علم العربية وفنون الأدب. قرأ على أبي بكر الصقلي، وروى عنه (الصحاح) للجوهري. وكان نقاد المصريين ينسبونه إلى التساهل في الرواية، وذلك أنه لما قدم مصر، سألوه عن (الصحاح)، فذكر أنه لم يصل إليهم، ثم لما رأى اشتغالهم به، ركب لهم اسناداً وأخذه الناس عنه مقلدين له.

صنَّف:

١ ــ أبنية الأفعال؛

٢ ــ أبنية الأسماء؛

٣ ــ حواشي الصحاح؛

٤ ــ تاريخ صقلية؛

٥ ــ الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة؛

وغير ذلك.

(ولد) سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. و (مات) سنة خمس أو أربع عشرة وخمسمائة، و (دفن) بقرب ضريح الإمام الشافعي، رحمه الله عليه.

ومن المبسوطة: (كتاب لأ بن سيدة)؛ و (كتاب الكافي في علمي العروض والقوافي في شرح القصيدة الغراء والخريدة الحسناء) لصدر الدين الساوي؛ ولإبن عصفور (كتاب) جم الفوائد.

وما أورده السكاكي في كتاب (المفتاح) كاف فيه. وأكثر كتب العروض مذيلة بقلم القوافي.

علم قرض الشعر

علم باحث عن أحوال الكلمات الشعرية، لا من حيث الوزن والقافية، بل من حيث حسنها وقبحها من حيث أنها شعر؛ وحاصله: تتبع أحوال خاصة بالشعر، من حيث الحسن والقبح والجواز الإمتناع وأمثالها؛

وغرضه: تحصيل ملكة ايراد الشعر على تلك الأحوال الخاصة؛

وغايته: الإحتراز عن الخطأ في ذلك الإيراد؛

ومبادئه: مقدمات حاصلة من تتبع أشعار العرب؛ واستحسانات تقبلها الطباع السليمة. ورأيت كتاباً منظوماً في هذا العلم، وأنا في عنفوان الشباب، زمن اشتغالي بالعلوم الأدبية، لكن لم أتذكر أسمه وأسم مصنفه في هذا الآن، والله المستعان.

علم مبادي الشعر

علم باحث عن مقدمات تخييلية، يحصل منها الترغيب أو الترهيب، وتختلف تلك بحسب قوم قوم؛ وموضوعه: الشعر من حيث مقدماته المناسبة من تتبع الأمور التخييلية؛ ومباديه: تحصيل من تتبع أشعار الناس بحسب قوم قوم؛ والغرض منه: تحصيل ملكة إيراد الكلام الشعري على مواد متناسبة.

وغايته: الإحتراز عن الخطأ فيها. وكتاب الشعر من مواد الأقيسة المذكورة في الكتب الحكمية نافعة في هذا الباب.

علم الإنشاء

علم يبحث فيه عن المنثور، من حيث أنه بليغ وفصيح، ومشتمل على الآداب المعتبرة عندهم في العبارات المستحسنة واللائقة بالمقام.

وموضوعه، وغرضه، وغايته:. ظاهرة مما ذكر. ومبادئه: مأخوذة من تتبع الخطب والرسائل، بل له استمداد من جميع العلوم، سيا الحكمة العملية والعلوم الشرعية، وسير الكمل، وحكايات الأمم، ووصايا العقلاء، وغير ذلك من أمور لا تتناهى.

ومن الكتب المصنفة في هذا الباب:

(كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لأبي الفتح ابن الأثير الجزري. وهو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب ضياء الدين. كان (مولده) بجزيرة ابن عمر ونشأ بها، وانتقل مع والده إلى الموصل، وبها اشتغل وحصل العلوم، وحفظ كتاب الله الكريم، وكثيراً من الأحاديث، وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان، وشيئاً كثيراً من الأشعار. ثم قصد الملك الناصر صلاح الدين وأقام عنده مدة. ثم طلبه ولده الملك الأفضل نور الدين من والده، فاستوزره وحسنت حاله عنده. وله أحوال اخر فيها طول.

وله من التصانيف:

(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر): وهو في مجلدين. جمع فيه فأوعب، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا أورده. (ولد) في يوم الخميس، العشرين من شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر. و (توفي) في إحدى الجمادين أو في التاسع والعشرين من ربيع الآخر ــ وهو الأصح ــ سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد.

وكان له اخوان:

(أحدهما) مجد الدين أبو السعادات المبارك، صاحب كتاب (نهاية الحديث والأثر)، وقد تقدم ذكره في علم اللغة؛

(والآخر) أبو الحسن علي الملقب عز الدين، وسنذكره عند ذكر التواريخ لأنه صنف كتاب (الكامل)، وهو أجل التواريخ وأحسنها، وأنفعها.

وكان الأخوة الثلاثة كلهم فضلاء نجباء رؤوساء، أرباب التصانيف المقبولة، وقلما يتفق أخوة مثل هؤلاء.

ومن كتب الإنشاء:

(كتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء) لموفق الدين. (ولد): هو في

آخر الجمادين، أو أول الربيعين، سنة تسعين وخمسائة بالمدائن.

وله:

١ ــ كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم؛

٢ ــ ومجموع. أختار فيه شعر أبي تمام، والبحتري، والمتنبي، وديك الجن؛ مجلد كبير.

٣ ــ وله ديوان الترسل، في عدة مجلدات.

ومن العجب العجاب في علم الإنشاء:

(المقامات) للحريري. وقد عمل على أسلوبها كثير من الناس رأيت منها ثلاثة؛ و (تواريخ العبتي)؛ وهذان يمكن عدهما من المحاضرات أيضاً. و (قهوة الإنشاء) لأبي بكر ابن حجة أيضاً.

واعلم أن الحريري: القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري، الإمام أبو محمد الحريري. (ولد) في حدود سنة ست وأربعين وأربعمائة. وكان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة. وتصانيفه تشهد بفضله وتقر بنبله، وكفى بفضله شاهداً، المقامات التي فاق بها الأوائل، وأعجز الأواخر. قال البندهي: كان سبب وضعها أن أبا زيد السروجي ورد البصرة، وكان شيخاً شحاذاً بليغاً فصيحاً، فوقف في مسجد بني حرام، فسلم ثم سأل الناس، والمسجد غاص بالفضلاء، فأعجبهم فصاحته وحسن صياغة كلامه، وذكر أسر الروم ولده، كما ذكر في المقامة الحرامية قال الحريري: فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم فضلاء، فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل، فحكى كل واحد منهم، أنه سمع من هذا السائل في مسجده، في معنى آخر، فصلاً أحسن مما سمعت، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله، ويظهر في فنون الحيلة فضله، فتعجبوا منه، فأنشأت (المقامة الحرامية)، ثم بنيت عليها سائر المقامات، وكانت أول شيء صنعته. وذكر ابن الجوزي بعد هذا الكلام: أنه عرض الحرامية على الوزير ابن الجوزي بعد هذا الكلام: أنه عرض الحرامية على الوزير أنو شروان فاستحسنها، وأمره أن يضيف إليها ما شاكلها، فأتمها خمسين.

وقال ياقوت: بلغني أنه لما صنع (الحرامية)، أصعد إلى بغداد، فدخل إلى السلطان ومجلسه غاص بالفضلاء، فطلبوا منه شيئاً يدل على فضله في الكتابة، فأخذ بيده قلماً وقال: كل ما يتعلق بهذا، وأشار إلى القلم، فأجاب كل من سأله شيئاً بما استحسنه، حتى بهرهم. فبلغ الخبر الوزير أنو شروان، فطلبه، فانتهى حديثهما إلى (المقامة الحرامية)، فأراها إياه فاستحسنها جداً، وقال: ينبغي لك أن تزيد على هذه، فقال: أصنع بالبصرة إذ يجتمع خاطري، فعمل أربعين مقامة فعرضها على الوزير. وقال بعض حساده: انها لرجل استضاف به، ومات عنده، فامتحنوه بمقامة أخرى يضعها عندهم، فجلس في منزله ببغداد أربعين ليلة فلم يتهيأ له ترتيب كلمتين، مع أنه سود كثيراً من الكاغد، فعاد إلى البصرة، وعمل عشر مقامات وأضافها إليها، وأصعد إلى بغداد، فحينئذ بان فضله وعلموا أنه من عمله. وكان (مولده) ببلد قريب من البصرة يقال لها المشان. وكان الحريري دميماً مبتلى بنتف لحيته فقيل فيه:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان وقد ألجمه في العراق بالخرس

قيل: إنه كتب سبعمائة نسخة من المقامات بخطه وقرئت عليه.

وله أيضاً:

١ ــ درة الغواص في أوهام الخواص؛
٢ ــ الملحة؛
٣ ــ وشرحاً؛
٤ ــ ورسائله؛
٥ ــ وديوان شعره.

(مات) بالبصرة في سادس رجب سنة ست عشرة وخمسمائة.

وأما (تواريخ العتبي): فهو لأبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي.

ذكر فيه أحوال محمود بن سبكتكين، وحروبه مع الأعداء. وهذا الكتاب علم في الفصاحة والبلاغة واللطافة.

وأما ابن حجة: فهو تقي الدين أبو بكر بن حجة، صاحب (شرح البديعيات)، وغير ذلك من التصانيف.

علم مبادىء الإنشاء وأدواته

وهو علم باحث عما يحتاج إليه المنشىء من الخط، والعربية، والعلوم الشرعية، والتواريخ، وما يناسب ذلك. وموضوعه، وغايته، وغرضه ظاهر للمتدبر.

ومن المصنفات في هذا العلم، بحيث لا يغادر قليلاً ولا كثيراً إلا أحصاها. ولا يدع شيئاً من المهمات إلا كشف عنها واستقصاها:

(كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء)، لشيخ الإمام العلامة جامع أشتات الفنون، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي الشافعي. وهو كتاب نافع في بابه في الغاية. ولقد طالعت بعضاً منه وانتفعت به، لكن لم أقف على ترجمة مصنفه إلا أنه مصري الدار وكاتب الإنشاء بالديار المصرية.

(مات) في جمادي الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة عن خمس وستين. كذا في (تاريخ السخاوي).

ومن الكتب النافعة المختصرة في صناعة الإنشاء:

(كتاب مناظر الإنشاء) لمحمود الشهير بخواجة جهان، إلا أنه وقع باللسان الفارسي، وصاحبه من مشاهير الدنيا، وكان ذا ثروة ومال عظيم، وكان يصل احسانه من الهند إلى علماء الروم وفضلاء العجم. ويقال: إنه كان وزيراً في بلاد الهند.

علم المحاضرة

وهو علم يحصل منه ملكة إيراد كلام للغير، مناسب للمقام من جهة معانيها الوضعية، أو من جهة تركيبه الخاص؛ وغرضه: تحصيل تلك الملكة، وفائدته: الإحتراز عن الخطأ في تطبيق كلام منقول عن الغير، على ما يقتضيه مقام

التخاطب، من جهة معانيها الأصلية، ومن جهة خصوص ذات التركيب نفسه. والفرق بينه وبين علم المعاني: أن المعاني تطبيق المتكلم كلامه على مقتضى الحال، وكلام الغير على خواص لائقة بحاله؛ والمحاضرات: استعمال كلام البلغاء أثناء الكلام في محل مناسب له على طريق الحكاية. وموضوعه، وغايته، وغرضه، ومباديه ظاهرة للمتدبر.

ومن الكتب المصنفة فيه:

(ربيع الأبرار) لجار الله العلامة الزمخشري، رحمه الله. وستقف على ترجمته عند ذكر (الكشاف) في التفاسير.

و (فنون المحاضرة) للراغب الأصفهاني، وهو المفضل بن محمد الأصبهاني، أبو القاسم الراغب، صاحب المصنفات. كان في أوائل المائة الخامسة.

وله:

١ ــ مفردات القرآن؛
٢ ــ وأفانين البلاغة؛
٣ ــ والمحاضرات؛
٤ ــ وله تفسير سمعناه من بعض الثقات؛
٥ ــ وله تفصيل النشأتين؛
٦ ــ وله كتاب الذريعة في أحكام الشريعة.

والناس يظنون أنه معتزلي، لكن قال السيوطي: رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي، على ظهر نسخة من (القواعد الصغرى) لابن عبد السلام، ما نصه: ذكر الإمام فخر الدين الرازي في (تأسيس التقديس) في الأصول، أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة، وقرنه بالغزالي. وهذه فائدة حسنة فلا عبرة بظنون الناس «وإن بعض الظن اثم».

ومن كتب المحاضرات:

(التذكرة الحمدونية): وهي لأبي المعالي محمد بن أبي سعد بن الحسن بن

محمد بن علي بن حمدون، الكاتب الملقب كافي الكفاة، بهاء الدين البغدادي. كان فاضلاً ذا معرفة تامة بالأدب والكتابة، من بيت مشهور بالرياسة والفضل، هو وأبوه وأخواه أبو نصر وأبو المظفر. وسمع أبو المعالي من أبي القاسم اسماعيل بن الفضل الجرجاني وغيره. صنف: كتاب (التذكرة)، وهو من أحسن المجاميع، يشتمل على التاريخ، والأدب، والنوادر، والأشعار، لم يجمع أحد من المتأخرين مثله، وهو من الكتب الممتعة، مشهور، كثير الوجود بأيدي الناس.

(ولد) في رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة. و(توفي) يوم الثلاثاء حادي عشر ذي القعدة، سنة اثنتين وستين وخمسمائة، ودفن يوم الأربعاء بمقابر قريش ببغداد. وكان موته في الحبس، رحمه الله تعالى.

ومن كتب المحاضرات:

(ريحانة الأدب) لابن سعد، ولم أقف على ترجمته.

و(العقد الفريد) لابن عبد ربه. وهو أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه، مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم الأموي. كان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس.

وصنف كتابه (العقد)، وهو من الكتب الممتعة حوى من كلّ شيء.

وله: (ديوان شعر) جديد، يشتمل أشعاره كل معنى مليح، وكل لفظ فصيح.

وكانت (ولادته) في عاشر شهر رمضان، سنة ست وأربعين ومائتين.

و(توفي) يوم الأحد، ثامن عشر جمادي الأولى، سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. وكان قد أصابه الفالج قبل ذلك بأعوام.

ومن كتب المحاضرات: (فصل الخطاب) للتيفاشي؛ و(نثر الدرر) للآبي؛ و(الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني. وهو علي بن الحسين بن محمد بن

أحمد القرشي الأموي الكاتب الأصبهاني، صاحب كتاب (الأغاني).

(ولد) بأصبهان ونشأ ببغداد. كان من أعيان أدبائها، وعالماً بأيام الناس والأنساب والسير. وكان من المتشيعين. وكان يحفظ اللغة والنحو والصرف والسير والمغازي والشعر والأغاني. وكان يعرف من آلة المنادمة شيئاً كثيراً، مثل علم الجوارح والبيطرة والطب والنجوم. وشعره يجمع اتقان العلماء وإحسان الظرفاء.

وله المصنفات المستملحة منها:

١ ــ كتاب الأغاني، الذي وقع الإتفاق على أنه لم يعمل في بابه مثله. يقال: جمعه في خمسين سنة وحمله إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه وحكى عن الصاحب بن عباد، أنه كان في أسفاره وتنقلاته، يستصحب حمل ثلاثين جملاً من الكتب، فلما وصل إليه كتاب (الأغاني) استغنى به عنها.

ومن مصنفاته:

٢ ــ كتاب جمهرة النسب؛

٣ ــ وكتاب الغلمان المغنين؛

٤ ــ وكتاب الأماء الشواعر.

وغير ذلك. وأشعاره كثيرة، ومآثره شهيرة.

(ولد) سنة أربع وثمانين ومائتين. وفي هذه السنة مات البحتري الشاعر و (توفي) في يوم الأربعاء، رابع عشر ذي الحجة، سنة ست وخمسين وثلاثمائة ببغداد، وقيل: سنة سبع وخمسين، والأول أصح.

ومن كتب المحاضرات:

(السكردان) لأبن أبي حجلة. وهو أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد التلمساني، المعروف بابن أبي حجلة، نزيل دمشق ثم القاهرة، شهاب

الدين أبو العباس. (ولد) بزاوية جده بتلمسان سنة خمس وعشرين وسبعمائة، واشتغل ثم قدم إلى الحج فلم يرجع. ومهر في الأدب، ونظم الكثير ونثر فأجاد، وترسل ففاق، وعمل المقامات وغيرها. وكان حنفي المذهب، حنبلي المعتقد. وكان كثير الحط على الإتحادية. وصنف كتاباً عارض به قصائد ابن الفارض، كلها نبوية. وكان يحط عليه لكونه لم يمدح النبي صلى الله عليه وسلم، ويحط على نحلته، ويرميه ومن يقول بمقالته بالعظائم. وقد امتحن بسبب ذلك على يد السراج الهندي. وكان يقول الشعر مع أنه لا يحسن العروض. وكان كثير العشرة للظلمة ومدمني الخمر. وكان جده من الصالحين. وسمي بأبي حجلة لأن حجلة أتت إليه وباضت على كمه. وكان كثير النوادر والنكت ومكارم الأخلاق.

وجمع مجاميع حسنة منها:

١ ــ ديوان الصبابة.

٢ ــ ومنطق الطير.

٣ ــ والسجع الجليل فيما جرى من النيل.

٤ ــ والسكردان.

٥ ــ والأدب الغض.

٦ ــ وأطيب الطيب.

٧ ــ ومواصيل المقاطيع.

٨ ــ والنعمة الشاملة في العشرة الكاملة.

٩ ــ وحاطب ليل، عمله كالتذكرة في مجلدات كثيرة.

١٠ ــ وبحر أعداء البحر.

١١ ــ وعنوان السعادة.

١٢ ــ ودليل الموت على الشهادة.

١٣ ــ وقصيرات الحجال.

(مات) في مستهل ذي الحجة، سنة ست وسبعين وسبعمائة، وله إحدى وخمسون سنة.

ومن كتب المحاضرات:

(حياة الحيوان) لكمال الدين الدميري، ولها (كبرى) و(صغرى) وهو كمال الدين محمد بن موسى الدميري الشافعي المصري، صاحب التصانيف المفيدة في علوم عديدة. كان كثير العبادة، ملازماً للصوم، عديم النظير في وقته. وكان يكتسب أولاً بالخياطة ثم تركه. ولم يتقلد القضاء أصلاً، ولا لبس ثياباً فاخرة تواضعاً، وما رؤى راكباً قط. أخذ عن الأسنوي والعراقي وأعيان العلماء. ومن تأمل كتابه المذكور وما أودعه فيه من الغرائب والفوائد والعلوم المفيدة عرف فضله.

(ولد) سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة. و(توفي) بالقاهرة سنة ثمان وثمانمائة.

قلت: الدميري، منهم من يقول بكسر المهملة وكسر الميم، ومنهم من يقول بضم الأول وفتح الثاني على زنة التصغير، ومنهم من يقول بفتح الدال وكسر الميم. ولعل الصواب هو الأخير، لأني وجدته مضبوطاً كذلك بخط بعض الثقات. قلت: وبعد مدة رأيت في كتاب (الجواهر المضية في طبقات الحنفية)، في كتاب الأنساب الذي أورده ذيلاً للكتاب، ما صورته (الدَمِيْري) بفتح الدال وكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفي آخرها راء، قرية بمصر. هذا ما ذكره، والله أعلم.

ومن كتب المحاضرات:

(مؤنس الوحيد) للثعالبي، صاحب كتاب (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر)، وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها. والثعالبي هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري، والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب.

وله:

١ ــ كتاب فقه اللغة.
٢ ــ وسحر البلاغة.

٣ ــ ونشر البلاغة.
٤ ــ ومن غاب عنه المطرب.

قال ابن بسام صاحب (الذخيرة) في حقه: كان في وقته راعي تَلَعَاتِ العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه. وامام المصنفين بحكم قرانه، سار ذكره مسير المثل، وضربت إليه آباط الأبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب، طلوع النجم في الغياهب. (ولد) سنة خمسين وثلاثمائة.. و (توفي) سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

ومن لطائف كتب المحاضرات:

(محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار) للشيخ الإمام، العالم الرباني، والبحر الصمداني، مرشد السالكين، ومنقذ الهالكين، الشيخ أبي عبد الله محيى الدين محمد بن علي بن محمد بن العربي، الحاتمي الطائي الأندلسي، قدس الله سره العزيز. كان جليل الشأن، نسيج وحده في العرفان. وله المصنفات الوافرة، والمؤلفات الزاخرة. وتصانيفه لا تحصى، ومنها:

١ ــ الفتوحات المكية: التي ضمن فيها غريب المعارف الكشفية والذوقية.
٢ ــ وكذلك الفصوص.

(توفي) سنة ثمان وثلاثين وستمائة. و (مولده) في رمضان سنة ستين وخمسمائة بمرسية. وعنه أخذ الشيخ شرف الدين بن الفارض، وستعرفه، والشيخ صدر الدين القونوي، وسنذكره إن شاء الله تعالى. قال الجزري: قرأ القراءات بالأندلس، روى عن المشايخ، وروى عنه المشايخ. توفي بدمشق ودفن بالصالحية بتربة بني الذكي، وقبره بها ظاهر يزار.

ومن كتب المحاضرات:

(سلوان المطاع في عدوان الاتباع) لأبن ظفر. وهو أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي، المنعوت بحجة الدين، أحد الأدباء الفضلاء، صاحب التصانيف المتعة، منها:

١ ــ سلوان المطاع في عدوان الاتباع، صنفه لبعض الأمراء بصقلية.
٢ ــ خبر البشر بخير البشر.
٣ ــ وتفسير كبير اسمه الينبوع.
٤ ــ وتجباء الأبناء.
٥ ــ وحاشية درة الغواص للحريري.
٦ ــ وشرح المقامات للحريري، وهو اثنان: (صغير) و (كبير)، وغير ذلك.

وكان قصير القامة، دميم الخلقة، غير صبيح الوجه. وله شعر. وكانت نشأته بمكة. و (مولده) بصقلية، وتنقل في البلاد، وسكن آخر الوقت بمدينة حماة، و (توفي) بها سنة خمس وستين وخمسمائة. ولم يزل يكابد الفقر إلى أن مات. قيل: زوج ابنته في حماة بغير يكفو من الحاجة والضرورة، وأن الزوج رحل بها من حماة، وباعها في بعض البلاد.

ومن كتب المحاضرات: (كتاب المحاضرات والمناظرات)! (كتاب الإمتاع والمؤانسة). كلاهما لأبي حيان التوحيدي وهو علي بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدي، نسبة إلى نوع من التمريسي التوحيد. قال ابن حجر: يحتمل أن ينسب إلى التوحيد الذي هو الدين، فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد. شيرازي الأصل، وقيل: نيسابوري. كان متفنناً في جميع العلوم، من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام، معتزلياً يسلك مسلك الجاحظ، شيخ الصوفية، فيلسوف الأدباء، أديب الفلاسفة، امام البلغاء، لكن كان سخيف اللسان، قليل الرضى عند الإساءة إليه والإحسان، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة، واسع الرواية والدراية، يتشكى من زمانه، و يبكي في تصانيفه على حرمانه. أقام ببغداد مدة، ومضى إلى الري وصحب أبا الفضل بن العميد والصاحب بن عباد، فلم يحمدهما، وصنف في مثالبهما كتاباً.

وصنَّف:

١ ـ الرد على ابن جني في شرح شعر المتنبي.
٢ ـ المحاضرات والمناظرات.
٣ ـ الإمتاع والمؤانسة.
٤ ـ الحنين إلى الأوطان.
٥ ـ تعريض الجاحظ البصائر.

وغير ذلك. وأحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها، وضنا بها على من لا يعرف مقدارها، وما وجد من تصانيفه كتبت عنه في حياته. قال ياقوت: وكان يتأله والناس على ثقة من دينه. وقال ابن النجار: كان صحيح العقيدة. وقال الذهبي: كان سيء العقيدة، كذاباً، قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان، والقدح في الشريعة. وقال ابن الجوزي: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، والتوحيدي، وأبو العلاء المعري، وشرهم على الإسلام التوحيدي، لأنهما صرحاً وهو مجمع ولم يصرح. (مات) في حدود الثمانين والثلاثمائة.

وكتب المحاضرات كثيرة مثل:

(نزهة الأصحاب في معاشرة الأحباب).
و (رونق المجالس).
و (أنيس المحاضرة).
و (الروض الخصيب ومؤنس الحبيب).
و (نظم السلوك في مسامرة الملوك).
و (نشوان المحاضرات).
و (عجائب الغرائب).
و (ترويح الأرواح).

وغير ذلك مما يطول تعدادها.

علم الدواوين

واعلم: أن الكلام أما منثور، أو منظوم. ولما كانت المحاضرة تقع بالمنظوم كما تقع بالمنثور دونوا الدواوين المشتملة بالقصائد والمقاطيع والأراجيز والجاميع؛ وموضوعه، وغايته، وغرضه، ومنفعته ظاهرة مما تقدم. ولا يخفى أن أفضل الشعراء شرفاً وفضلاً، وأولادهم بالتقديم، هو حسان بن ثابت، لفضيلته بشرف صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وشرفه بمدحه صلى الله عليه وسلم. وهو حسان بن ثابت المنذر بن حرام الخزرجي، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، المنافح عنه والمناضل المؤيد بروح القدس، يكنى أبا عبد الرحمن أو أبا الوليد، وبأبي الحسام أيضاً، لمناضلته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الغازي به أعراض المشركين. عاش مائة وعشرين سنة؛ ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام، وكذا أبوه وجده وأبو جده، لا يعرف في العرب أربعة من صلب واحد واتفقت مدة عمرهم غيرهم. كان شجاع اللسان جبان الجنان، لم يكن ممن يشهد الوغاء، ولا يهتز إلى اللقاء، وكان يرفع إلى الآجام مع النساء والصبيان. قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه قائماً، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس، ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن ديوان العرب:

(نهاية الأرب في أشعار العرب) يشتمل على ألف قصيدة مختارة. ومنها: (الحماسة) اختيار أبي تمام الطائي. وهو حبيب بن أوس، الشاعر المشهور. كان واحد عصره في ديباجة لفظه، وفصاحة شعره، وحسن أسلوبه.

وله:

١ ــ كتاب الحماسة، التي دلت على غزارة فضله واتقان معرفته.

٢ ــ وله مجموع آخر سماه: فحول الشعراء: جمع فيه بين طائفة كثيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين.

٣ ــ وكتاب الإختيارات من شعر الشعراء. وكان له من المحفوظات ما لا يلحقه فيه غيره. قيل: إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب، غير القصائد والمقاطيع. ومدح الخلفاء، وأخذ جوائزهم، وجاب البلاد، وقصد البصرة. قالت العلماء: خرجت من قبيلة طيء ثلاثة، كل واحد منهم مجيد في بابه: حاتم في جوده، وداود في زهده، وأبو تمام الطائي في شعره. (ولد) سنة تسعين، أو اثنتين وتسعين، أو اثنتين وسبعين، أو ثمان وثمانين ومائة. و (توفي) بالموصل سنة إحدى وثلاثين ومائتين. وقيل: توفي في ذي القعدة، أو جمادي الأولى سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائتين. وقيل: في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. ووضع بإزائها (الحماسة البصرية).

ومن الدواوين:

(الذخيرة) لأ بن بسام. وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن منصور بن بسام، المعروف بالبسامي الشاعر المشهور. كانت أمه امامة ابنة حمدون النديم. كان من أعيان الشعراء، ومحاسن الظرفاء، لسنا مطبوعاً في الهجاء، لم يسلم منه أمير ولا وزير، ولا صغير ولا كبير، وهجا أباه وأخوته وسائر أهل بيته (توفي) في صفر سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثمائة، عن نيف وسبعين سنة.

ومن الدواوين:

(ديوان أبي العلاء المعري). وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن داود التنوخي، أبو العلاء المعري، من معرة النعمان من الشام. كان غزير الفضل، شائع الذكر وافر العلم، غاية في الفهم، عالماً باللغة، حاذقاً بالنحو، جيد الشعر، جزل الكلام، شهرته تغني عن صفته. (ولد) يوم الجمعة عند الغروب، لثلاث بقين من ربيع الأول، سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وجدر من السنة الثالثة من عمره فعمى منه. وكان يقول: لا أعرف من الألوان إلا الأحمر، لأني ألبست في الجدري ثوباً مصبوغاً بالعصفر. وقال الشعر وهو ابن احدى أو اثنتي عشرة سنة، وأخذ النحو واللغة عن أبيه، ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب. وحدث عن أبيه وجده. وهو من بيت علم ورياسة.

وكان متهماً في دينه، يرى رأي البراهمة، لا يرى أكل اللحم، ولا يؤمن بالبعث والنشور وبعث الرسل. وشعره المتضمن للألحاد كثير. قال ابن العديم في كتابه (دفع التجري على أبي العلاء المعري): كان يرميه أهل الحسد بالتعطيل، ويعملون على لسانه الأشعار، ويضمنونها أقاويل الملاحدة قصد الهلاكة. وقد نقل عنه أشعاراً تتضمن صحة عقيدته، وكذب ما ينسب إليه. وقال الذهبي: انه ملحد، وحكم بزندقته. وقال السلفي: أظنه تاب وأناب.

وله من التصانيف:

١ ــ شرح شعر المتنبي.
٢ ــ شرح شعر البحتري.
٣ ــ شرح شعر أبي تمام.
٤ ــ سقط الزند، من نظمه.
٥ ــ لزوم ما لا يلزم.

وغير ذلك. (مات) ليلة الجمعة، ثالث أو ثاني أو ثالث عشر ربيع الأول، سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

ومن الدواوين:

(ديوان أبي الطيب المتنبي). وهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد، الجعفي الكندي الكوفي، المعروف بالمتنبي، الشاعر المشهور. وقيل: أحمد ابن الحسين بن مرة بن عبد الجبار. هو من أهل الكوفة، قدم الشام في صباه، وجال في أقطاره، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها. وكان من المكثرين من نقل اللغة، والمطلعين على غريبها ووحشيها. وكان شعره في الغاية والنهاية من الفصاحة والبلاغة والحكمة وسائر المحاسن، بحيث لا حاجة إلى مدحه. والناس في شعره على اختلاف: منهم من يرجحه على أبي تمام ومن بعده؛ ومنهم من يرجح أبا تمام عليه. واعتنى العلماء بشرح ديوانه، حتى قال بعضهم: وقفت له على أكثر من أربعين شرحاً ما بين مطول ومختصر. وكان رجلاً مسعوداً ورزق السعادة في شعره.

وإنما قيل له المتنبي، لأنه ادعى النبوة حتى حبس، ثم تاب وأطلق؛ وقيل: لقوله أنا أول من تنبي بالشعر؛ وقيل: لقوله:

أنــا في أمــة تــداركــهــا الله غــريــب كــصــالــح في ثــمــود

ولما رجع من بغداد إلى الكوفة، عرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في جماعة من أصحابه، وكان مع المتنبي أيضاً جماعة من أصحابه، فقاتلوهم، فقتل المتنبي وابنه «محسد» وغلامه «مفلح»، في موضع يقال له الصافية. وقيل: إنه لما رأى الغلبة فر، قال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار، وأنت القائل:

الخـيـل والليـل والبـيـداء تـعـرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم

فكر راجعاً حتى قتل. وكان سبب قتله هذا البيت، وذلك يوم الأربعاء، لست أو لثلاث بقين، أو لليلتين بقيتاً من رمضان، سنة أربع وخمسين وثلاثمائة؛ وقيل: يوم الإثنين، لثمان بقين من رمضان، أو يوم الإثنين، لخمس بقين من رمضان، أو يوم الأربعاء، لليلتين بقيتاً منه. و (مولده) في سنة ثلاث وثلاثمائة بمحلة كندة في الكوفة. والله أعلم.

ومن الدواوين:

(ديوان البحتري). وهو أبو عبادة وليد بن عبيد بن يحيى الطائي البحتري؛ الشاعر المشهور. مدح كثيراً من الخلفاء، أولهم المتوكل على الله، وكثيراً من الأكابر والرؤساء. وأقام ببغداد زماناً، ثم عاد إلى الشام. وتشبب في أشعاره بعلوة بنت زريقة، وزريقة أمها. وكان يقول: كان الشعراء يعرضون أشعارهم على أبي تمام، فلما عرضت عليه شعري، أقبل علي وترك سائر الناس، فلما تفرقوا قال لي: أنت أشعر من أنشدني فكيف حالك، فشكوت خلة، فكتب إلى أهل معرة النعمان، وشهد لي بالحذق، فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته. وكان يقال لشعر البحتري: سلاسل الذهب، وهو في الطبقة العليا. وقيل له: أنت أشعر أم أبو تمام، قال: جيده خير من جيدي، ورديي خير من رديه. وقيل للمعري: أي الثلاثة أشعر أبو تمام أم

البحتري أم المتنبي؟ فقال: هما حكيمان والشاعر البحتري. وشعر البحتري سائر وديوانه موجود فلا حاجة إلى الإكثار في مدح شعره. وجمع شعره على الحروف أبو بكر الصولي، وعلى الأنواع علي بن حمزة.

وللبحتري:

١ ــ كتاب الحماسة على مثال حماسة أبي تمام.
٢ ــ وله معاني الشعر.

(ولد) سنة ست، أو سبع، أو خمس، أو اثنتين، أو إحدى ومائتين، أو مائتين. و (توفي) سنة أربع، أو خمس، أو ثلاث وثمانين ومائتين، والأول أصح.. وكان موته بمَنْبِج أو بحلب، والأول أصح.

ومن الدواوين:

(ديوان جرير). وهو أبو حرزة بالحاء المهملة والراء المهملة ثم المنقوطة: جرير بن عطية الخطفي، واسمه حذيفة التميمي، الشاعر المشهور. كان من فحول شعراء الإسلام. وكان بينه وبين الفرزدق مهاجاة ونقائض، وهو أشعر من الفرزدق عند أكثر أهل العلم بهذا الشأن. وأجمعت العلماء على أنه ليس في شعراء الإسلام مثل ثلاثة: جرير والفرزدق والأخطل. ويقال: إن بيوت الشعر أربعة: فخر ومديح ونسيب وهجاء؛ وفي الأربعة فاق جرير على غيره. حكى أبو عبيدة، أن أم جرير رأت في نومها، وهي حامل به، كأنها ولدت حبلاً من شعر أسود، فجعل ينزو، فيقع في عنق هذا وهذا، حتى فعل ذلك برجال كثيرة، فأولوا الرؤيا بأنها تلد غلاماً شاعراً ذا شر وشدة شكيمة وبلاء على الناس. فلما ولدته سمته جريراً باسم الحبل. والجرير: الحبل. ويلقب جرير بابن المراغة، وهذا لقب لأمه، هجاه به الأخطل، ونسبها إلى أن الرجال يتمرغون عليها. ولما مات الفرزدق وبلغ خبره جريراً بكى وقال: أما والله أني لا أعلم أني قليل البقاء بعده، ولقد كان نجمنا واحداً، وقلما مات ضد أو صديق إلا تبعته صاحبه. وكذلك كان. (توفي) في سنة عشر ومائة، وفيها مات الفرزدق، وعمر نيفا وثمانين سنة

ومن الدواوين:

(ديوان الفرزدق). وهو أبو فراس همام أو هميم بن غالب، وكنيته أبو الأخطل، التميمي، الشاعر المشهور بالفرزدق، صاحب جرير. كان أبوه من جلة قومه وسرواتهم، وأمه ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس. وللفرزدق في مفاخر أبيه أشياء كثيرة.

وقد اختلف العلماء بالشعر، في المفاضلة بين جرير والفرزدق. والأكثرون على أن جريراً أشعر منه. وكان بينهما من المهاجاة والمعاداة ما هو المشهور، وفي كتب المحاضرات مذكور، فلا نضيع بذكرها السطور. وشهد الفرزدق عند بعض القضاة شهادة، فقال: قد أجزناك، فلما انفصل عن المجلس قال القاضي: زيدونا في الشهود، فأخبر الفرزدق بذلك، فقال: وما يمنعه من ذلك، وقد قذفت ألف محصنة. وأخبار الفرزدق كثيرة مذكورة في كتب المحاضرات والتواريخ فالإختصار أولى.

(توفي) بالبصرة، سنة عشر ومائة، قبل جرير بأربعين أو بثمانين يوماً. وقيل: انهما توفيا سنة احدى عشرة ومائة. قيل: لقي الفرزدق علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وتوفي سنة اثنتي أو أربع عشرة أو عشر ومائة، مات وقد قارب المائة. ولقب الفرزدق: قطع العجين، وإنما لقب به لغلظه وقصره؛ وقيل: لقب به لأنه كان جهم الوجه، وقد أصابه جدري في وجهه، وهذا القول أصح. وخبره مع زوجته النوار -وهي ابنة عمه- تزوجا وطلاقا، وندامته على الطلاق، شهيرة في كتب المحاضرات.

ومن الدواوين:

(ديوان أبي نواس). وهو أبو علي الحسن بن هانىء بن عبد الأول، المعروف بأبي نواس، الشاعر المشهور. كان جده مولى الجراح بن عبد الله الحكمي والي خراسان. وسأل الخصيب -صاحب ديوان الخراج بمصر- أبا نواس عن نسبه، فقال: أغناني أدبي عن نسبي، فأمسك عنه.

(ولد) بالبصرة ونشأ بها؛ وقيل: ولد بالأهواز، ثم خرج إلى الكوفة، ثم

صار إلى بغداد، فأسلمته أمه وهو طفل إلى بعض العطارين، فرآه أبو أسامة والبة بن الحباب، فاستجلاه، فقال له: أني أرى فيك مخائل، وستقول الشعر. فصار معه، وقدم به بغداد حتى صار من الطبقة الأولى من المولدين. وشعره عشرة أنواع، وهو مجيد في العشرة. وقد اعتنى بجمع شعره طائفة ولهذا يوجد ديوانه مختلفاً. منهم: أبو بكر الصولي، وعلي بن حمزة، وإبراهيم بن أحمد بن محمد الطبري المعروف بتوزون. وأخباره كثيرة وأشعاره شهيرة، وإصاباته في الأمور في الألسنة مذكورة، ولا حاجة إلى التطويل. وذكر الإمام اليافعي في (تاريخه) أموراً غريبة، يكاد يستحيلها العقل، لولا صحة النقل. (ولد) في سنة خمس وأربعين، أو ستة وثلاثين ومائة. و (توفي) سنة خمس أو ست أو ثمان وتسعين ومائة ببغداد. وإنما قيل له أبو نواس، لذؤابتين كانتا له تنوسان على عاتقيه. قال الخلكاني: وما أحسن ظنه بربه عز وجل حيث يقول:

تكثر ما استطعت من الخطايا ... فإنك بالغ رباً غفوراً
ستبصران وردت عليه عفواً ... وتلقى سيداً ملكاً كبيراً
تعض ندامة كفيك مما ... تركت مخافة النار السرورا

قيل: وكان المأمون يقول: لو وصفت الدنيا نفسها، لما وصفت بمثل قول أبي نواس.

شعر

إلا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

ومن الدواوين:

(ديوان مؤيد الدين الطغرائي). وهو عميد الملك فخر الكتاب، أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، الملقب مؤيد الدين الأصبهاني المنشى، المعروف بالطغرائي. كان غزير الفضل لطيف الطبع، فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر. وله ديوان شعر جيد.

ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة «بلامية العجم». وكان عملها ببغداد

سنة خمس وخمسمائة، يصف حاله و يشكو زمانه. وشرحها صلاح الدين الصفدي في مجلدين، وسماه: (الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم)، وقد ملأ شرحه بالفوائد الأدبية، والغرائب الجدية والهزلية، و بالجملة: أنه من أحسن المجاميع وأنفعها. وولي الطغرائي الوزارة مدة بمدينة اربل للسلطان مسعود ابن محمد السلجوقي، وكان ينعت بالأستاذ. ولما جرى بين السلطان مسعود وأخيه محمود المصاف بالقرب من همدان، وكانت النصرة لمحمود، فنسبوا الأستاذ إلى الألحاد، وكانوا خافوا منه لفضله، فقتل سنة ثلاث، أو أربع، أو ثماني عشرة وخمسمائة، وقد جاوز ستين سنة. والطغرائي نسبة إلى من يكتب الطغراء، وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنه، وهي لفظة أعجمية.

قال ابن الأثير في (الكامل): كان الأستاذ يميل إلى صنعة الكيمياء وله فيها تصانيف قد ضيعت من الناس أموالاً لا تحصى. قيل: وتلك التصانيف معتبرة عند أهلها.

منها: ١ ــ كتاب مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة.

٢ ــ ومنها جامع الأسرار.

٣ ــ وكتاب تراكيب الأنوار.

٤ ــ ورسالة ذات الفوائد.

٥ ــ وكتاب حقائق الإستشهادات، يبين فيه إثبات صناعة الكيمياء، والرد على ابن سينا في إبطالها بمقدمات من كتاب (الشفا) به.

و يقال: إن الأستاذ ألقى المثقال من الأكسير أولاً على ستين ألفاً ذهباً، وآخراً على ثلاثمائة ألف. وإنما سميت قصيدته «بلامية العجم»، تشبيهاً لها «بلامية العرب»، ومطلع لامية العرب هذه:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل

ومطلع لامية العجم هذه:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل

روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: علموا أولادكم «لامية العرب»، فأنها ترفع هممهم وتصنح كلمهم. ورأيت لها (شرحاً) حسناً تام المقاصد، كثير الفوائد، وهو مجلد جيد. وحسبك تسمية هذه القصيدة «بلامية العجم»، وعدها نظيرة «للأمية العرب»، وإضافة الشيء إلى شيء مشهور أو عظيم، يدل على شرف المضاف.

ومن الدواوين:

(ديوان ابن نباتة) بالضم. وهو ابو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة. كان شاعراً مجيداً، جمع بين حسن السبك، وجودة المعنى. طاف البلاد ومدح الملوك والوزراء والرؤساء. وله في سيف الدولة بن حمدان غر القصائد ونخب المدائح. ومعظم شعره جيد. وله (ديوان كبير).

(ولد) في سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. و(توفي) يوم الأحد، ثالث شوال سنة خمس وأربعمائة ببغداد. روى عنه أنه قال: كنت يوماً قائماً في دهليزي، فدق على الباب، فقلت: من؟ فقال: رجل من أهل الشرق، فقلت: ما حاجتك؟ فقال: أنت القائل:

ومن لم يمت بالسيف مات بعلة   تنوعت الأسباب والداء واحد

فقلت: نعم، فقال أرويه عنك؟ فقلت: نعم. فلما كان آخر النهار دق على الباب، فقلت: من؟ فقال: رجل من أهل تاهرت من الغرب، فقلت: ما حاجتك؟ فقال: أنت القائل:

ومن لم يمت بالسيف مات بعلة   تنوعت الأسباب والداء واحد

فقلت: نعم، فقال: أرويه عنك؟ فقلت: نعم، وعجبت كيف وصل شعري إلى الشرق والغرب.

قلت: ونظير هذه الحكاية في الإتفاق، أن أبا الفرج المعافى بن زكريا النهرواني، كان بمنى أيام التشريق، فسمع منادياً ينادي: يا أبا الفرج، فقلت: لعله ينادي غيري، فلم أجبه، ثم نادى: يا أبا الفرج المعافي، فقلت: يجوز أن يتفق آخر في الاسم والكنية، فلم أجبه، فرجع فنادى: يا أبا

الفرج المعافى بن زكريا النهراوي، فقلت: لم يبق شك. فقلت ها أناذا فما تريد؟ قال: لعلك من نهروان الشرق؟ فقلت: نعم، فقال: نحن نريد نهروان الغرب، فعجبت من إتفاق الأسم والكنية واسم الأب وما انتسب إليه، وعلمت أن نهروانا آخر بالغرب غير ما بالعراق.

ومن الدواوين:

(ديوان ابن المعتز). وهو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد. أخذ الأدب عن المبرد وثعلب وغيرهما. كان أديباً بليغاً، شاعراً مطبوعاً، مقتدراً على الشعر، قريب المأخذ، سهل اللفظ، جيد القريحة، حسن الإبداع للمعاني، مخالطاً للعلماء والأدباء، معدوداً من جملتهم. وكان شديد السمرة، مسنون الوجه يخضب بالسواد. وكان رخي البال في عيش رغيد، إلى أن خلع المقتدر، وبويع عبد الله بن المعتز، ولقبوه المرتضى بالله، أو المنصف بالله، أو الغالب بالله، أو الراضي بالله. وأقام يوماً وليلة، ثم أعيد المقتدر، واختفى ابن المعتز، ثم أخذه المقتدر وقتله، يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر، سنة ست وتسعين ومائتين.

ولأبن المعتز من التصانيف:

١ ــ كتاب الزهر والرياض.
٢ ــ وكتاب البديع.
٣ ــ وكتاب مكاتبات الأخوان بالشعر.
٤ ــ وكتاب الجوارح والصيد.
٥ ــ وكتاب السرقات.
٦ ــ وكتاب أشعار الملوك.
٧ ــ وكتاب الآداب.
٨ ــ وكتاب طبقات الشعراء.

وغير ذلك.

وله أشعار رائقة وتشبيهات بديعة. وله البيت المشهور وهو:

وكان ما كان مما لست أذكره　　فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وقيل: الرواية عنه: فظن شراً، قاله في مليح جاءه ليلاً، واصطبح معه في غرة الفجر، والأبيات طويلة، أوردها ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان).

ومن الدواوين:

(ديوان ابن الفارض). وهو أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي، الحموي الأصل، مصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، المنعوت بالشرف.

له: ١ ــ ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه رائق ظريف، ينحو منحى طريقة الفقراء.

٢ ــ له دوبيت.

٣ ــ ومواليا.

٤ ــ وألغاز.

قال الخلكاني: سمعت أنه كان رجلاً صالحاً، كثير الخير على قدم التجرد. جاور بمكة ــزادها الله شرفاً وتعظيماًــ زماناً. وكان حسن الصحبة محمود العشرة.

أخبرني بعض أصحابه أنه ترنم يوماً وهو في خلوة، ببيت الحريري صاحب المقامات وهو:

من ذا الذي ما ساء قط　　ومن له الحسنى فقط

قال: فسمع قائلاً ولم ير شخصه وقد أنشد:

محمد الهادي الذي　　عليه جبريل هبط

(ولد) في الرابع من ذي القعدة، سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة.

و (توفي) بها يوم الثلاثاء، الثاني من جمادي الأولى، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.

الفارض: الذي يكتب الفروض للنساء على الرجال.

ومن الدواوين:

(ديوان بهاء الدين زهير). وهو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي الكاتب، من فضلاء عصره، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً، وأكبرهم مروءة. واتصل بخدمة السلطان الصالح نجم الدين أبي الفتح أيوب، وتوجه في خدمته إلى البلاد الشرقية، ثم عاد معه إلى القاهرة. قال الخلكاني: وكنت يومئذ بالقاهرة، ورأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق، وكثرة الرياضة، ودماثة السجايا. وكان كبير القدر عند صاحبه ومطلعاً على سرائره. ونفع خلقاً كثيراً بحسن وساطته وجميل سفارته. وكان (مولده) في خامس ذي الحجة، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بمكة، حرسها الله تعالى. و (توفي) بمصر يوم الأحد، رابع ذي القعدة، سنة ست وخمسين وستمائة.

ومن الدواوين:

(ديوان أبي علي) دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور. أصله من الكوفة وأقام ببغداد. وقيل: دعبل لقب، واسمه الحسن أو عبد الرحمن أو محمد، وكنيته أبو جعفر. وكان أطروشاً، وفي قفاه سلعة. كان شاعراً مجيداً، إلا أنه كان بذيء اللسان، مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس. وهجا الخلفاء ــ منهم المأمون ــ ومن دونهم. وطال عمره؛ وكان يقول: لي خمسون سنة، أحمل خشبتي على كتفي، أدور على من يصلبني عليها، فما أجد من يفعل ذلك. وكان بينه وبين مسلم بن الوليد الأنصاري اتحاد كثير، وعليه تخرج دعبل في الشعر. وكان يقول: من فضل الشعر، أنه كلما زاد كذب الشاعر زاد المدح له، ثم لا يقنع له بذلك حتى يقال له: أحسنت والله، فلا يشهد له شهادة زور، إلا ومعها يمين الله تعالى. (ولد) دعبل في سنة ثمان وأربعين ومائة. و (توفي)

سنة ست وأربعين ومائتين. و «دِعبل» بكسر الدال اسم الناقة الشارف.
ومدح دعبل علي بن موسى الرضا بقصيدة أولها:

مدارس آيات خلت عن تلاوة ومهبط وحي مقفر العرصات

وأمر له علي بن موسى الرضا بجائزة سنية، فقال: ما قلنا إلا لوجه الله تعالى، وسأل منه قميصاً تباشر جسده، ليجعله في كفنه، لعل الله يبرد به مضجعه، فأعطاه ذلك. ولما سمعه فضل بن سهل، حمل إلى دعبل ثلاثين ألف درهم، وحمل إليه المأمون مالاً جزيلاً، فانصرف بأربح صفقة وأثرى حال لشاعر. ولهذا البيت حكاية طويلة تركناها للإختصار.

ومن الدواوين:

(ديوان القاضي التنوخي). وهو القاضي أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي ابن محمد التنوخي.

وله:
١ ــ كتاب الفرج بعد الشدة.
٢ ــ وله ديوان شعر أكبر من ديوان أبيه.
٣ ــ وكتاب نشوان المحاضرة.
٤ ــ وله كتاب المستجاد من فعلات الأجواد.

ونزل بغداد وأقام بها، وحدث إلى حين وفاته. وكان سماعة، صحيحاً. وكان أديباً شاعراً اخبارياً. تقلد القضاء والأعمال من قبل الإمام المطيع لله. (ولد) ليلة الأحد، لأربع بقين من ربيع الأول، سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، بالبصرة. و (توفي) ليلة الإثنين، لخمس بقين من المحرم، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ببغداد.

وأما ولده أبو القاسم علي بن المحسن، كان أديباً فاضلاً له شعر، وكان يصحب أبا العلاء المعري، وأخذ عنه، وهم أهل بيت، كلهم فضلاء أدباء ظرفاء. (ولد) في منتصف شعبان، سنة خمس وستين وثلاثمائة، بالبصرة، و (توفي) يوم الأحد، مستهل المحرم، سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

وإذا انتهيت إلى هذا المقام، فلعلك تسأم من هذا النوع من الكلام، مع أن احصاء شعراء الإسلام أمر تنبو عنه الأوهام.

ومما لم نتعرض له:

(ديوان شمس الدين بن عفيف التلمساني).
و (ديوان سناء الملك).
و (ديوان القاضي الفاضل).
و (ديوان ابن الوكيل).
و (ديوان التهامي).
و (ديوان ابن النبيه المصري).

هؤلاء كلهم شعراء الإسلام.

وأما الشعراء والقدماء: فأشعرهم عشرة، نذكر أسماءهم هاهنا:

ومنهم: أمرىء القيس بن حجر الكندي. هو الذي فتح لهم أفانين الشعر، وبكى في الدمن، فاتبعوه، واقتدوا به في الجزالة والفصاحة.

ومنهم: النابغة الذبياني، واسمه زياد بن عمرو. وقد قدمه بعض الرواة على امرىء القيس لرقة شعره.

ومنهم: زهير بن أبي سلمى ـ بضم السين ـ المزني. وهو أشدهم أمراً، وأمدحهم وأجرأهم على الكلام. وابنه «كعب» بلغ الإسلام، فأسلم ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعدما هجاه، وتاب بعدما عصاه، وأنشد عنده قصيدته المشهورة (بانت سعاد)، فعفاه النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن هدر دمه، وأجازه ببردة له صلى الله عليه وسلم، وأسلم فحسن إسلامه.

ومنهم: الأعشى، واسمه ميمون بن قيس بن ثعلبة. كان لا يمدح أحداً إلا رفع منه، ولا يهجو أحداً إلا وضع منه.

ومنهم: طرفة بن العبد بن سفيان. فضله بعض الشعراء على غيره. وزعم لبيد أنه أشعر الناس.

ومنهم: أوس بن حجير، من بني الأسد بن عمرو بن تميم. كان شاعر تميم أدرك زهيراً والنابغة.

ومنهم: لبيد بن ربيعة، من بني عامر بن صعصعة. لم يدرك أحد منهم الإسلام غيره، لطول عمره. كان أتقاهم كَلماً وأقلهم سقطاً.

ومنهم: عدي بن زيد، من بني أمرىء القيس بن مناة بن زيد بن تميم. كان الفضل بن محمد يقدمه عليهم لحسن استعارته وحلاوة عباراته.

ومنهم: عبيد بن الأ برص، هو أقدمهم سناً. وقد جعله «الحطيئة» بعد «أمرىء القيس».

ومنهم: بشر الأسدي، وهو عاشرهم. وأهل الحجاز يقدمونه عليهم و يرون أنه أشعرهم وأسدهم سياقاً للحديث.

علم التواريخ

وهو معرفة أحوال الطوائف، و بلدانهم، ورسومهم، وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم وأنسابهم، ووفياتهم، إلى غير ذلك. وموضوعه: أحوال الأشخاص الماضية؛ من الأنبياء والأ ولياء، والعلماء والحكماء والشعراء، والملوك والسلاطين، وغيرهم. والغرض منه: الوقوف على الأحوال الماضية، وفائدته: العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب، بالوقوف على تقلبات الزمن، ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار، و يستجلب نظائرها من المنافع. وهذا العلم كما قيل عمر آخر للناظرين، والإنتفاع في مصره بمنافع تحصل للمسافرين.

ومن الكتب المصنفة فيه:

(تاريخ لأ بن كثير): وهو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي البصري الدمشقي، الفقيه الشافعي، الحافظ عماد الدين بن الخطيب شهاب الدين.

(ولد) سنة سبعمائة. وقدم دمشق، وله نحو سبع سنين، سنة ست وسبعمائة، مع أخيه بعد موت أبيه. وحفظ (التنبيه) وعرضه سنة ثمان عشرة،

وحفظ (مختصر ابن الحاجب)، وتفقه بالبرهان الفراري، والكمال ابن قاضي شهبة. ثم صاهر المزي، وصحب ابن تيمية، وقرأ في الأصول على الأصبهاني. وكان كثير الإستحضار قليل النسيان، جيد الفهم. وكان يشارك في العربية، و ينظم نظماً وسطاً. قال ابن حجر: ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه، وقد لازمته ست سنين. وقد ذكره الذهبي في معجمه المختص فقال: الإمام المحدث المفتي البارع. ووصفه بحفظ المتون وكثرة الإستحضار جماعة، منهم: الحسين وشيخنا العراقي وغيرهما. وسمع من الحجار، والقاسم بن عساكر وغيرهما. ولازم الحافظ المزي، وتزوج بابنته وسمع عليه أكثر تصانيفهما. وأخذ عن الشيخ تقي الدين بن تيمية فأكثر عنه. وصنف التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام. وقال ابن حبيب فيه: امام ذوى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل. سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بأقواله، وشنف وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاواه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. (مات) بدمشق في خامس عشر شعبان. وقد أجاز لمن أدرك حياته. وهو القائل:

تمر بنا الأيام تترى وإنما ... تساق إلى الآجال والعين تنظر
فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى ... ولا زائل هذا المشيب المكدر

قال ابن حجر: ولو قال: «فلا عائد صفو الشباب» إلى آخره، لكان أصنع.

ومن التواريخ:

(تاريخ الطبري): وهو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، وقيل: يزيد بن كثير بن غالب، صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير كان اماماً في فنون كثيرة منها: التفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، وغير ذلك. وله مصنفات مليحة في فنون عديدة، تدل على سعة علمه وغزارة فضله. وكان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً. وكان أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني على مذهبه. كان ثقة في نقله، وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها. وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في (طبقات الفقهاء) في جملة المجتهدين. (ولد) سنة أربع

وعشرين ومائتين بآمل طبرستان. و (توفي) في السادس والعشرين من شوال سنة عشر وثلاثمائة ببغداد.

ومن التواريخ:

(تاريخ ابن الأثير الجزري سماه «الكامل»): وهو كتاب لطيف. وصاحبه عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري، وهو أحد الأخوة الثلاثة المشهورين بابن الأثير. وقد تقدم اثنان منهم، وهذا عز الدين. (ولد) بالجزيرة المشهورة بجزيرة ابن عمر، رضي الله تعالى عنهما، ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل مع أخويه مجد الدين أبي السعادات المبارك، وضياء الدين أبي الفتح نصر الله، ووالده محمد. وسكن الموصل، وسمع بها. وقدم بغداد وسمع من فضلائها. ثم رحل إلى الشام والقدس، وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل، ولزم بيته منقطعاً إلى التوفر على النظر في العلم. وكان بيته مجمع فضلاء الموصل والواردين عليها. وكان اماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدمة، وخبيراً بأنساب العرب ووقائعهم وأخبارهم وأيامهم.

صنف في التاريخ كتاباً كبيراً سماه (الكامل): ابتدأ فيه من أول الزمان إلى أواخر سنة ثمان وعشرين وستمائة، وهو من خيار التواريخ؛ واختصر كتاب (الأنساب) لأبي سعد عبد الكريم بن السمعاني، وزاد عليه أشياء، واستدرك عليه فيه في مواضع؛ وله كتاب (أخبار الصحابة) في ستة مجلدات.

(ولد) في رابع جمادي الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة. و (توفي) في شعبان سنة ثلاثين وستمائة.

ومن التواريخ:

(تاريخ ابن الجوزي) مجلدات. وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن، علي بن محمد، القرشي التيمي الصديقي البغدادي، الفقيه الحنبلي الواعظ، الملقب جمال الدين الحافظ. كان علامة عصره وأمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ.

صنَّف في فنون عديدة منها:

١ ـ زاد المسير في علم التفسير: أربعة أجزاء أتى فيها بأشياء غريبة.
٢ ـ وله في الحديث تصانيف كثيرة.
٣ ـ وله: المنتظم في تواريخ الأمم، وهو كبير.
٤ ـ وله: الموضوعات؛ أورد فيها كل حديث موضوع.

وكتبه أكثر من أن تعد. يقال: إنه جمعت الكراريس التي كتبها، وقسمت الكراريس على مدة عمره فخص كل يوم تسع كراريس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل. ويقال: إنه جمعت برادة أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحصل شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل، فكفت وفضل منها. وله أشعار كثيرة وأجوبة نادرة، منها: أنه وقع النزاع ببغداد بين أهل السنة والشيعة، فرضي الكل بجواب الشيخ وهو على الكرسي في مجلس وعظه، فسأله أحد من أفضل البشر بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟ فقال: من كانت ابنته تحته، ونزل في الحال حتى لا يراجع في ذلك، فرضي الكل، لأن ابنة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند علي رضي الله عنه، والكلام يحتملها. وهذا الجواب لو حصل بعد الفكر التام لكان في غاية الحسن فضلاً عن البديهة. ويحكى: أنه سأله انسان، فقال: مالنا نرى الكوز الجديد إذا صب فيه الماء ينن ويخرج منه صوت؟ فقال: يشكو ما لاقاه من حر النار. وسئل: ان الكوز إذا ملأناه لا يبرد، فإذا نقص برد؟ فقال: حتى تعلموا أن الهوى لا يدخل إلا على ناقص. وسئل: كيف نسب قتل الحسين إلى يزيد وهو بدمشق؟ فأنشد:

سهم أصاب وراميه بذي سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك

وله من هذا النوع أجوبة لطيفة. (ولد) سنة ثمان أو عشر وخمسمائة. و (توفي) ثاني عشر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

ومن التواريخ:

(مرآن الزمان) لسبط ابن الجوزي. وهو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي، الواعظ المشهور. حنفي المذهب، وله صيت وسمعة في مجالس وعظه، وقبول عند الملوك وغيرهم. روى عن جده ببغداد، وسمع أبا الفرج بن كليب وابن طبرزد، وسمع بالموصل ودمشق، وحدث بها وبمصر.

وله: ١ ــ كتاب إيثار الانصاف.

٢ ــ ومنتهى السول في سيرة الرسول.

٣ ــ واللوامع في أحاديث المختصر والجامع.

٤ ــ وتفسير القرآن العزيز.

٥ ــ وصنف تاريخاً كبيراً، قال ابن خلكان: رأيته بخطه في أربعين مجلداً سماه: مرآة الزمان.

قلت: أنا رأيته في ثمانية مجلدات لكن مجلدات ضخام، وبخط دقيق. دقيق.

و (توفي) في الحادي والعشرين من ذي الحجة، سنة أربع وخمسين وستمائة بدمشق.

و (مولده) في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد. وكان يقول: أخبرتني أمي أن مولدي سنة اثنتين وثمانين. رحمه الله تعالى.

ومن الدواوين:

(تاريخ) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الشافعي. كان ذا فضل في كل فن، وكان موصوفاً بكرم الأخلاق والديانة، وكان ثقة في نقله. وصنف تاريخاً سماه: (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل والسمع أو أثبته العيان) ورأيته في خمسة مجلدات بخطه. وكان قاضياً بالقاهرة. مدة ما ذكره في تاريخه. (ولد) في يوم الخميس بعد صلاة العصر، حادي عشر ربيع الآخر، سنة ثمان وستمائة، بمدينة اربل بالمدرسة المظفرية، ذكر تاريخ ولادته نفسه في ترجمة زينب بنت

الشعري، في آخر الأسامي المذكورة في حرف «الزاي». و (توفي) في يوم السبت السادس والعشرين من رجب، سنة إحدى وثمانين وستمائة بدمشق المحروسة.

تفقه على أبيه بمدينة أربل، ثم انتقل بعد أبيه إلى الموصل، وحضر دروس الإمام كمال الدين بن يونس. ثم انتقل إلى حلب وقرأ النحو على أبي البقاء يعيش بن علي النحوي، والفقه على أبي المحاسن الشيخ بهاء الدين يوسف بن شداد. ثم قدم دمشق واشتغل على ابن الصلاح. ثم انتقل إلى القاهرة، وناب في الحكم عن قاضي القضاة بدر الدين السنجاري. ثم وَليّ قضاء المحلة، ثم وَلِيَ قضاء القضاة بالشام، ثم عزل، ثم وليها ثانياً ثم عزل. ومن مصنفاته: التاريخ المشهور. وله في الأدب اليد الطولى، وشعره أرق وأحسن وأعذب.

ومن التواريخ:

١ ــ (تاريخ ابن حجر): مجلدتان.
٢ ــ وتاريخ آخر له: (أنباء العمر في أبناء العمر) مجلدتان.
٣ ــ وله أيضاً: (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة).

وهو الإمام العلامة، حافظ العصر، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، أبو الفضل أحمد بن الشيخ الإمام علاء الدين علي بن حجر العسقلاني.

(توفي) بعد العشاء ليلة السبت، المسفر صباحها عن ثامن عشر ذي الحجة، سنة ثمان وخمسين وثمانمائة. وكان عمره إذ ذاك تسعاً وسبعين سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام. وصلى عليه خلق كثير من جلتهم: أبو العباس الخضر عليه السلام. رآه عصابة من الأولياء. وكان (مولده) سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة.

ومن التواريخ:

(تاريخ صلاح الدين الصفدي): وهو بخطه أكثر من خمسين مجلداً. وهو خليل بن أيبك الشيخ صلاح الدين الصفدي الشافعي، الامام الأديب الناظم

الناثر، أديب العصر. (ولد) سنة تسع وستين وستمائة. وقرأ يسيراً من الفقه والأصلين، وبرع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً، وعني بالحديث، وسمع بالآخرة من جماعة. وقرأ على الشيخ تقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي السبكي، ولازم الحافظ فتح الدين ابن سيد الناس، وبه تمهر في الأدب. وصنف الكثير في التاريخ والأدب، وقال: كتبت أزيد من ستمائة مجلد تصنيفاً. (مات) بالطاعون ليلة عاشر شوال، سنة أربع وتسعين وسبعمائة.

ومن التواريخ:

(تاريخ جلال الدين السيوطي) رحمه الله تعالى، ثلاثة مجلدات.

و (طبقات النحاة) له أيضاً. مجلدان. إلى غير ذلك.

ومن جملة التواريخ:

(تاريخ الخطيب البغدادي) عشرة مجلدات. وهو الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب، صاحب تاريخ بغداد، وغيره من المصنفات. كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين، ولو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه، فإنه يدل على إطلاع عظيم. وصنف قريباً من مائة مصنف. وكان فقيهاً، فغلب عليه الحديث والتاريخ. (ولد) في جمادي الآخرة، سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. و (توفي) يوم الإثنين سابع ذي الحجة؛ وقيل: في شوال سنة ثلاث وستين وأربعمائة. وحمل نعشه أبو إسحاق الشيرازي، رحمهما الله تعالى.

ومن التواريخ:

(ذيل تاريخ بغداد) للحافظ محب الدين ابن النجار فجاء في ثلاثين مجلداً. وهو محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله، الحافظ الكبير الثقة، محب الدين أبو عبد الله بن النجار البغدادي. وتاريخه دال على سعة حفظه وعلو شأنه. وله: (مصنف حافل في مناقب الشافعي) رحمه الله. وله تصانيف أخر في السنن والأحكام. (ولد) في ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة. وله الرحلة الواسعة إلى الشام، ومصر، والحجاز، ومرو، وأصبهان، وهراة، ونيسابور.

وكانت رحلته سبعاً وعشرين سنة. واشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ.
(توفي) ببغداد خامس شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ومن التواريخ:

(تاريخ أبي سعد السمعاني): وهو تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن المظفر المنصور السمعاني، المروزي الفقيه الشافعي، رحمه الله. رحل في طلب العلم والحديث إلى أقطار الأرض، وسافر إلى ما وراء النهر وخراسان، وغير ذلك من البلاد. وكان شيوخه تزيد على أربعة ألفِ شيخ.

وصنف التصانيف الحسنة، منها:

١ ــ ذيل تاريخ بغداد لأبي بكر بن الخطيب، نحو خمسة عشر مجلداً.
٢ ــ وتاريخ مرو، يزيد على عشرين مجلداً.
٣ ــ وكذلك الأنساب، نحو ثمانية مجلدات؛ واختصره عز الدين في ثلاثة مجلدات واستدرك عليه.

(ولد) أبو سعد يوم الإثنين، الحادي والعشرين من شعبان، سنة ست وخمسمائة و (توفي) بمرو في ليلة غرة سنة اثنتين وستين وخمسمائة. وكان أبوه وجده أيضاً من الفضلاء العلماء.

ومن التواريخ:

(ذيل تاريخ السمعاني) للدبيثي: بالدال المهملة والموحدة والمثناة من تحت والمثلثة من فوق، قرية بنواحي واسط. وهو أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي، الفقيه الشافعي، المؤرخ الواسطي. سمع الحديث كثيراً، وبرع في أسماء الرجال وتاريخ الحفاظ.

وصنَّف:

١ ــ ذيل الذيل المذكور، في ثلاثة مجلدات.
٢ ــ وصنف تاريخاً لواسط.

(ولد) في السادس والعشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

بواسط. و (توفي) لثمان خلون من ربيع الآخر، سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد.

ومن أجل التواريخ:

تاريخ الذهبي: ثلاثة كتب، صنف:

١ ـ (التاريخ الكبير).
٢ ـ ثم (الأوسط المسمى بالعبر).
٣ ـ و (الصغير المسمى دول الإسلام).

والذهبي *: هو محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، محدث العصر، امام الوجود حفظاً، وذهبي العصر معنى ولفظاً، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل.

(ولد) سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، وطلب الحديث وهو ابن ثماني عشرة سنة. وسمع بدمشق، وبمصر، وببعلبك، وبالإسكندرية، وسمع منه الجمع الكثير. وما زال يخدم الحديث حتى رسخت فيه قدمه، وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلمه، إلا أنه كان شديد الميل إلى آراء الحنابلة، كثير الإزراء بأهل السنة، فلذلك لا ينصفهم في التراجم. وكان كثير الوقيعة في الصوفية. وله التصانيف الجزيلة في الحديث، وأسماء الرجال، والتواريخ. وقرأ القرآن وأقرأه بالروايات: (توفي) ليلة الإثنين، ثالث ذي القعدة، سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

ومن التواريخ:

(كتاب البارع) لأبي عبد الله هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم، البغدادي الأديب الفاضل. كان حافظاً، راوية للأشعار، حسن المنادمة، لطيف المجالسة.

صنَّف:

١ ـ كتاب البارع في أخبار الشعراء المولدين، وجمع مائة وأحد وستين شاعراً، وافتتحه بذكر بشار بن برد، وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح.

وهو من الكتب النفيسة، فانه يغني عن دواوين الجماعة الذين مر ذكرهم، فانه فحص أشعارهم، وأثبت منها زبدتها، وترك زبدها. وهذا الكتاب أصل نسجوا على منواله. وسنذكر عدة ذيل له.

٢ ــ وله: كتاب النساء وما جاء فيهن من الخبر وما قيل فيهن من الشعر.

(توفي) سنة ثمان وثمانين ومائتين وهو حدث السن. والله أعلم.

ومن التواريخ:

(يتيمة الدهر) للثعالبي. وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري. قال ابن بسام في (الذخيرة): كان رأس المؤلفين في زمانه وامام المصنفين بحكم قرانه.

وله من التصانيف:

١ ــ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها، وهذا الكتاب ذيل للكتاب البارع المقدم ذكره.

وله أيضاً:

٢ ــ كتاب فقه اللغة.

٣ ــ وسحر البلاغة.

٤ ــ ونشر البراعة.

٥ ــ ومن غاب عنه المطرب.

٦ ــ ومؤنس الوحيد.

وشيء كثير. جمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم، وفيها دلالة على اطلاعه. وله أشعار كثيرة.

(ولد) سنة خمسين وثلاثمائة. و (توفي) في سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

ومن التواريخ:

(دمية القصر) للباخرزي. وهو أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن أبي

الطيب الباخرزي، الشاعر المشهور. تفقه أولاً على والد امام الحرمين، الشيخ أبي محمد الجويني، على مذهب الشافعي رحمه الله. ثم شرع في فن الكتابة، وغلب أدبه على فقهه. واختلف إلى ديوان الرسائل، وارتفعت به الأحوال وانخفضت، ورأى من الدهر العجائب، سفراً وحضراً. وعمل الشعر، وسمع الحديث.

وصنف كتاب (دمية القصر وعصرة أهل العصر)، وهو ذيل (يتيمة الدهر) للثعالبي؛ وجمع فيها خلقاً كثيراً. وقد وضع على هذا الكتاب، أبو الحسن علي بن زيد البيهقي كتاباً سماه: (وشاح الدمية) وهو كالذيل له. (قتل) الباخرزي في مجلس الأنس ببَاخَرْز، وهي من نواحي نيسابور، في ذي القعدة سنة سبع وستين وأربعمائة. وذهب دمه هدراً.

ومن التواريخ:

(زينة الدهر) للحظيري. وهو أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي، الوراق الحظيري، المعروف «بدلال الكتب». كانت لديه معارف، وله نظم جيد. وألف مجاميع ما قصر فيها.

منها:

١ ــ كتاب زينة الدهر وعصرة أهل العصر.

٢ ــ وذكر الطاف شعراء العصر، الذي ذيله على (دمية القصر) للباخرزي، جمع فيه جماعة كثيرة من أهل عصره ومن تقدمهم، وأورد لكل واحد طرفاً من أحواله وشيئاً من شعره.

وقد ذكره العماد الكاتب في (الخريدة)، وكان مطلعاً على أشعار الناس وأحوالهم.

٣ ــ وله كتاب: لمح الملح، يدل على كثرة اطلاعه.

(توفي) يوم الإثنين، الخامس والعشرين أو الخامس عشر من صفر، سنة ثمان وستين وخمسمائة ببغداد.

ومن التواريخ:

(تاريخ خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصبهاني. وهو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين أبو الرجاء حامد، الملقب عماد الدين الكاتب الأصبهاني. كان فقيهاً شافعي المذهب. تفقه بالمدرسة النظامية، وأتقن الخلاف وفنون الأدب. وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه. وكان قد نشأ بأصبهان، وقدم بغداد في حداثته وتفقه بها، وسمع الحديث. وكان سيء الحال أولاً، ثم بلغ الرفعة عند السلطان صلاح الدين ونور الدين محمود بن أتابك زنكي، وتقلبت به الأحوال إلى أن عظم أمره وصار رخي البال.

وصنَّف التصانيف النافعة، منها:

١ ـــ كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، وجعله ذيلاً على (زينة الدهر) للحظيري، وجعله في عشرة مجلدات، ولم يترك إلا النادر الخامل.

٢ ـــ وصنف كتاب: البرق الشامي، في سبعة مجلدات، وهو تاريخ.

٣ ـــ وله كتاب: الفيح القسي في الفتح القدسي، في مجلدين.

٤ ـــ وصنف: السيل على الذيل، جعله ذيلاً على خريدة القصر.

٥ ـــ وله ديوان رسائل.

٦ ـــ وديوان شعر.

وكانت بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات؛ منها ما يحكى أنه لقيه يوماً وهو راكب على فرس، فقال له: سر فلاكبابك الفرس، فقال له الفاضل: دام علاء العماد، وكل منها يقرؤ مقلوباً مستوياً. ولم يزل العماد على مكانة ورفعة منزلة، إلى أن توفي السلطان صلاح الدين، فاختلت أحواله، وتقطعت أوصاله. ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً، فلزم بيته وأقبل على الإشتغال بالتصانيف.

(ولد) يوم الإثنين، ثاني جمادي الآخرة، أو في شعبان، سنة عشر وخمسمائة بأصبهان و(توفي) يوم الإثنين، مستهل رمضان، سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق.

ومن التواريخ:

(تاريخ قاضي القضاة العيني) وهو على ما حكى فيه ستين مجلدة. وهو محمود بن أحمد بن موسى، العينتابي الحنفي العلامة، قاضي القضاة بدر الدين العيني.

(ولد) في رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمائة بعين تاب، ونشأ بها، وتفقه واشتغل بالفنون، وبرع ومهر، ووَليَ قضاء الحنفية بالقاهرة. وكان اماما عالماً علامة، عارفاً بالعربية والتصريف، وغيرهما، حافظاً للغة، كثير الإستعمال لحواشيها، سريع الكتابة. عمر مدرسة بقرب الجامع الأزهر ووقف كتبه بها.

وأما نظمه فنحط إلى الغاية، وربما يأتي به بلا وزن.

وله: ١ ــ شرح البخاري.

٢ ــ وشرح الشواهد الكبير.

٣ ــ والصغير.

٤ ــ وشرح معاني الآثار.

٥ ــ وشرح الكنز.

٦ ــ وشرح المجمع.

٧ ــ وشرح عروض الساوي.

٨ ــ وطبقات الحنفية.

٩ ــ وطبقات الشعراء.

١٠ ــ ومختصر تاريخ ابن عساكر.

١١ ــ وشرح الهداية في الفقه.

١٢ ــ وشرح درر البحار.

١٣ ــ وتاريخه الكبير المذكور.

وكان بينه وبين شيخ الإسلام ابن حجر منافسة، ولما وقعت منارة المؤيدية، وكان العيني شيخ الحديث بها، قال ابن حجر:

لجامع مولانا المؤيد رونق ... منارته بالحسن تزهو وبالزين

يـقـول وقـد مـالـت عليهم تمـهـلـوا فـلـيـس على هـدمـي أضر من العين

(مات) في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وثمانمائة.

ومن التواريخ:

(تاريخ الحافظ ابن عساكر) سبعة وخمسون مجلداً. وهو الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر الدمشقي، الملقب ثقة الدين. كان محدث الشام، ومن أعيان الفقهاء الشافعية. غلب عليه الحديث، فاشتهر به وبالغ في طلبه، إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره. ورحل وطوف، وجاب البلاد، ولقي المشايخ. وكان رفيق الحافظ أبي سعد السمعاني في الرحلة. وكان حافظاً ديناً، جمع بين معرفة المتون والأسانيد. سمع ببغداد، ثم رحل إلى دمشق، ثم إلى خراسان ونيسابور وهراة وأصبهان. وصنف التصانيف المفيدة. صنف (التاريخ الكبير لدمشق) في ثمانين مجلدة بخطه، أتى فيه بالعجائب، حتى قيل: إنه لعله جمع هذا منذ غفل نفسه، وإلا فالعمر لا يتسع لوضعه بعد الإشتغال والتنبه. وله تواليف حسنة غير هذا. وله شعر لا بأس به. (ولد) في أول المحرم، سنة تسع وتسعين وأربعمائة. و(توفي) في الحادي عشر من رجب، سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بدمشق.

ومن التواريخ:

(تاريخ مصر) لأبي سعيد عبد الرحمن بن أبي الحسن أحمد، المحدث المؤرخ المصري. كان خبيراً بأحوال الناس، ومطلعاً على تواريخهم، عارفاً بما يقوله. جمع لمصر تاريخين: أحدهما كبير لأهله؛ والآخر صغير للغرباء. وقد ذيلهما أبو القاسم يحيى بن علي الحضرمي.

(ولد) عبد الرحمن سنة إحدى وثمانين ومائتين. (توفي) سنة سبع وأربعين وثلاثمائة.

ومن أصح التواريخ: وأحسنها وألطفها لوروده بعبارات عذبة وأنفعها للناس لإشتماله على المهمات:

(تاريخ اليافعي) مجلدتان كبيرتان. وهو عبد الله بن أسعد بن علي اليماني الشافعي، الرجل الصالح ومحب الصلحاء، وخادم أولياء الله، المناضل عنهم، والمنافح عن شأنهم، صاحب المصنفات الكثيرة الشهيرة. وكل تصانيفه نافع في بابه.

وله: ١ ــ النظم الكبير، سيما مدح سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

٢ ــ ومن لطيف مصنفاته: مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام.

٣ ــ وكتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين.

وكل تصانيفه حسن.

وبالجملة هو رجل مبارك عزيز الوجود، فرد زمانه، ونادرة أوانه، أشعري العقيدة، والسالك طريقة الصوفية السادة، والمعاشر مع أهل الخير والزهد والصلاح. قال ابن السبكي في (طبقاته الكبرى): اجتمعت به في منى سنة سبعمائة. و(توفي) بمكة في جمادي الأولى سنة سبع وستين وسبعمائة روح الله روحه وزاد في الجنة فتوحه.

وكتب التاريخ أكثر من أن تحصى، لكن ان فزت بما ذكر فزت المرام وأن أردت التوغل فيه فعليك بكتاب:

(مروج الذهب) للمسعودي.

و (أخبار الزمان) له أيضاً.

و (بستان التواريخ).

و (نوادر الأخبار).

و (معادن الذهب).

و (عيون التواريخ) ستة مجلدات.

و (زبدة الفكرة).

و (تاريخ المعارف) لأبن قتيبة.

و (نصاب الأعيان).

و (الجواهر المضية في طبقات الحنفية).

و (الطبقات الكبرى الشافعية) لأبن السبكي.

و (تاريخ النحاة) للسيوطي.

و (تاريخ الحكماء) لصاعد.

و (تاريخ صوان الحكمة).

وغير ذلك.

ومنها: (تاريخ حلب) للكمال ابن العديم، عشرة مجلدات سماه: (بغية الطلب في تاريخ حلب).

و (تاريخ نيسابور) للحافظ أبي عبد الله الحاكم: ستة مجلدات.

والذيل عليه المسمى: بـ (السياق) لعبد الغافر الفارسي، مجلد.

و (تاريخ أصبهان) للحافظ أبي نعيم، مجلد.

و (تاريخ بلخ) مجلد.

و (تاريخ اربل) لأبي البركات ابن المستوفي، أربعة مجلدات.

و (تاريخ قزوين) للرافعي.

و (تاريخ علماء الأندلس) لأبي الوليد بن الفرضي، مجلد.

و (الصلة) عليه لقاسم بن بشكوال، مجلد.

و (صلة الصلة) لأبي جعفر بن الزبير، مجلدات.

و (الذيل).

و (التكملة على الموصل).

و (الصلة) لأبن عبد الملك، تسعة مجلدات.

و (تاريخ الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن نصر الحميدي، مجلد.

و (ريحانة الأنفس في علماء الأندلس) لأبن عات. مجلد.

و (المغرب في حلي المغرب) لعلي بن سعيد الأندلسي، ستة مجلدات.

و (الإحاطة في تاريخ غرناطة) لسان الدين بن الخطيب، ثلاثة مجلدات.

و (تاريخ اليمن) للجندي، مجلد؛ و «للخزرجي» مجلدات.

و (تاريخ مكة) للحافظ تقي الدين الفاسي، ثلاثة مجلدات.

و (الطالع السعيد في تاريخ الصعيد) للكمال الأدفوي، مجلد.

وأما التواريخ في لسان الفرس فأكثر من أن تحصى، لكننا تركنا ذكرها للإستغناء بما ذكرناه عنها.

الشعبة الثالثة

من الدوحة الثانية
في فروع العلوم العربية

علم الأمثال

وهذا من فروع علم اللغة. وهو معرفة الألفاظ الصادرة عن البليغ، المشتهرة بين الأقوام، بخصوص ألفاظها، وهيئاتها، ومواردها، وسبب ورودها، وقائلها، وزمانها، ومكانها، لئلا يقع الغلط عند استعمالها في مضاربها، وهي المواضع والمقامات المشبهة بمواردها. ولا بد لمعاني تلك الألفاظ من غرابة، ولألفاظها من فصاحة و بلاغة.

وموضوعه: الألفاظ المذكورة، من حيث ورودها في مواردها. وتعيين مضاربها بالنوع.

ومبادئه: مقدمات حاصلة بالتواتر من ألفاظ الثقات.

وأما غرضه ومنفعته فغنيان عن البيان، فإن الأمثال أشد ما يحتاج إليه المنشيء والشاعر، لأنها تكسو حلة التزيين، وترقيه أعلى درجات التحسين.

ومن الكتب النافعة فيه:

(كتاب لأ بن الأنباري): وقد عرفته.

ومنها: (المستقصى في الأمثال) للعلامة الزمخشري، وستعرف ترجمته.

ومنها: (مجمع الأمثال) للاسفرايني، وهو كتاب عظيم جامع جداً. وقد عرفت الاسفرايني.

علم وقائع الأمم ورسومهم

وهذا من فروع المحاضرات والتواريخ. وهو علم يبحث فيه عن أماكن أقوام مخصوصين، ومواضع طوائف معينين، ورسوم مألوفة، وعادات معروفة لكل قوم

قوم، الموردة في أشعارهم وخطبهم ورسائلهم.

وموضوعه: أشعار العرب من الحيثية المذكورة.

ومبادئه: مأخوذة من الاستقراء أو التواتر من الثقات.

وغرضه: تحصيل ملكة ضبط تلك الأمور المذكورة.

وغايته: الاحتراز عن الخطأ فيها.

والكتب المؤلفة في هذا الفن كثيرة. صنف فيه أبو عبيدة والأصمعي كتباً كثيرة، وأكثر تقربها عند الخليفة هارون الرشيد بسبب هذا.

علم استعمالات الألفاظ

وهو من فروع علم البيان. وهو علم يبحث فيه استعمالات الألفاظ في المعاني التشبيهية والكنائية، وبطريق الاستعارة والمجاز. وهذا الفن في علم البيان بطريق الكلية، وفي هذا الفن بطريق الجزئية. ومبادئه استقرائية. وموضوعه، وغرضه، وغايته لا يخفى على الفطن المتأمل.

وللأصمعي وأبي عبيدة في هذا الفن أيضاً كتب كثيرة.

علم الترسل

وهو من فروع علم الإنشاء، لأن هذا بطريق جزئي، وذاك بطريق كلي. وهو علم يذكر فيه أحوال الكاتب، والمكتوب، والمكتوب إليه؛ من حيث الآداب والأحوال والإصطلاحات الخاصة الملائمة لكل طائفة طائفة؛ ومن حيث العبارات التي يجب الاحتراز عن الدعاء للمخدرات بقولهم: أدام الله حراستها لمكان لفظ الجر والاست؛ وعن ذكر لفظ القيام كقولهم: إلى قيام الساعة، وأمثال ذلك.

وموضوعه وغايته وغرضه ظاهر للمتأمل.

ومبادئه: أكثرها بديهية، وبعضها أمور استحسانية تأديبية، وله استمداد أيضاً من الحكمة العملية.

ومن الكتب المصنفة فيه:

(مصطلح الكتاب).

و (بلغاء الدواوين والحساب).

والكتب المؤلفة فيه أكثر من أن تحصى، فلا حاجة إلى التعرض لها.

علم الشروط والسجلات

وهذا باعتبار اللفظ من فروع علم الإنشاء، وباعتبار مدلوله من فروع علم الفقه، وهو علم يبحث فيه عن إنشاء الكلمات المتعلقة بالأحكام الشرعية. وموضوعه، ومنفعته ظاهران. ومبادئه: علم الإنشاء وعلم الفقه، وله استمداد من العرف. والكتب في هذا العلم كثيرة يجدها من يطلبها.

علم الأحاجي والأغلوطات

وهذا من فروع اللغة والصرف والنحو. وهو علم يبحث فيه عن الألفاظ المخالفة لقواعد العربية بحسب الظاهر، وتطبيقها عليها، إذ لا يتيسر إدراجها فيها بمجرد القواعد المشهورة.

وموضوعه: الألفاظ المذكورة من الحيثية المذكورة.

ومبادئه مأخوذة من العلوم السابقة.

وغرضه: تحصيل ملكة تطبيق الألفاظ، التي تتراءى بحسب الظاهر مخالفة لقواعد العرب.

وغايته: حفظ القواعد العربية عن تطريق الاختلال.

ولصاحب (الكشاف) في هذا العلم كتاب سماه: (المحاجات). وغير ذلك من الكتب.

علم الألغاز

وهذا من فروع علم البيان، وتفصيله يتوقف على تقديم تعريفه؛ وذلك أن

الألغاز دلالة الألفاظ على المراد، دلالة خفية في الغاية، لكن لا بحيث تنبو عنها الأذهان السليمة، بل يكون بحيث تستحسنها وتنشرح إليها بشرط أن يكون المراد من الذوات الموجودة في الخارج، وأما إن كان المراد اسم شيء، سواء كان من الإنسان أو غيره يسمى معمى. وسيجيء هذا بعد. وكلاهما لكونهما خلاف البيان ـ إذ المعتبر هناك وضوح الدلالة ـ اعتبرا من فروعه. وإنما اعتبر في البيان وضوح الدلالة، كما ينبئك عنه اسم البيان، لكون الغرض هناك التفهيم. وأما المعمى واللغز، بالغرض فيهما الاخفاء فلا يتراءى ناراهما.

واعلم: أن المعتبر في علم البيان هو الدلالة العقلية؛ أعني التضمنية والالتزامية. ولما كانت تلك الدلالة خفية، سيما إذا كان اللزوم بحسب العادات والطبائع، وبحسب الألف المتحالفة هذه، بحسب قوم قوم وطائفة طائفة، فوجب التعبير عنها بلفظ أوضح؛ مثلاً إذا كان المرئي دقيقاً في الغاية، يحتاج الحاسة في أبصارها إلى شعاع قوي، بخلاف المرئي إذا كان جليلاً، وكذا الحال في الرؤية القلبية؛ أعني الفهم والإدراك، فيحتاج إلى ألفاظ واضحة الدلالة، ليفهم تلك اللوازم الخفية. هذا حال علم البيان الذي اعتبر فيها إظهار المراد.

وأما إذا اعتبر ستر المراد، كما في المعمى واللغز، يكون الأمر بالعكس. ولما كان إرادة الإخفاء على وجه الندرة عند امتحان الأذهان، لم يلتفت إليهما البلغاء، ولم يعد وهماً أيضاً من الصنائع البديعية التي يبحث فيها عن الحسن العرضي، لكن بشرط كونه على وجه لا تنبو عنها الأذهان المستقيمة، ولا تمجها الأذواق السليمة. كما أشرنا إليه سابقاً.

ثم هذا المدلول الخفي، إن كان ألفاظاً وحروفاً بلا قصد دلالتها على معان أخر، أو لم يكن ألفاظاً أصلاً، بل ذوات موجودة، يسمى باللغز، وإن كان ألفاظاً وحروفاً دالة على معانٍ مقصودة، يسمى معمى.

وبهذا يعلم أن الكلام الواحد يمكن أن يكون معمى ولغزاً باعتبارين؛ لأن المدلول إذا كان ألفاظاً وحروفاً، فإن قصد بها معان أخر يكون معمى، وإن قصد ذوات الحرف، على أنها من الأشياء والذوات يكون لغزاً. وأكثر مبادىء هذين العلمين، مأخوذ من تتبع كلام الملغزين وأرباب المعمى، وبعضها أمور

تخييلية تعتبره الأذواق وتستحليها، وجميع مسائلها راجعة إلى المناسبات الذوقية والوجدانية، بين الدوال ومدلولاتها الخفية، على وجه يقبلها الذهن السليم والطبع المستقيم.

وأما موضوع هذين العلمين وتعريفهما وغرضهما وغايتهما: فقد علم من هذا التقرير.

وأما منفعتهما: فتقويم الأذهان ورياضتها واعتيادها فهم الدقائق. وكنت اشتغلت بعلم المعمى في عنفوان الشباب، ونحن نقرأ وقتئذ (حواشي شرح المطالع) للشريف الجرجاني، فوجدت في ذهني زيادة فاحشة، وفي مطالعتي تفاوتا بيناً، حتى شاهده مني الأصحاب. والله الموفق للصواب.

وأنا أورد لك أمثلة [illegible] «القلم»:

وما غلام راكع ساجد [illegible]   أخو نحول دمعه جاري
ملازم لخمس في وقتها   معتكف في خدمة الباري

وقال ابن الزملاق في «اليراع»، وضمن فيه مصراعاً من الحماسة:

وناطقة خرساء باد شحوبها   تكنفها عشر وعنهن تخبر
يلذ إلى الاسماع رجع حديثها   إذا سد منها منخرجاش منخر

فأجابه بعضهم، وضمن مصراعاً آخر من تلك القصيدة:

نهاني النهي والشيب عن وصل مثلها   وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

وقال الآخر في «القلم»:

وبيت بعلياء العناء بنيته   باسمر مشقوق الخيشم يرعف

وفي «الميزان»:

وقاضي قضاة يفصل الحكم ساكتاً   وبالحق يقضي لا يبوح فينطق
قضى بلسان لا يميل وان يمل   على أحد الخصمين فهو مصدق

وآخر في «وصف الميزان»:

وما حاكم أعمى وفصل قضاؤه ... ولو كان ذا عين لما قام بالفصل

وفي وصف الشمعة لابن الخلال:

وصبيحة بيضاء تطلع في الدجى ... صبحا وتشفي الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها ... واسود مفرقها أوان فنائها
كالعين في طبقاتها ودموعها ... وسوادها وبياضها وضيائها

وقال ابن دريد في الزند:

ومنتج أم أبيه أمه ... لم يتخون جسمه من الضوى
أفرشته بنت أخيه فانثنت ... عن ولد يورى به ويشتوى

علم المعمى

وقد عرفت تفصيله في علم اللغز، ولا وجه لاعادته. لكنا نذكر هنا بعضاً من الأمثلة «المعمى على اسم محمد»، يروي أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، لكن هذه الرواية غير صحيحة، لكن الغرض ها هنا المثال، فلا حاجة إلى صحة روايته.

ألا خذ وعد موسى مرتين ... وضع أصل الطبائع تحت ذين
وسكن خان شطرنج فخذها ... وأدرج بين ذين المدرجين
فهذا اسم لمن يهواه قلبي ... وقلب جميع من في الخافقين

ومثال آخر في اسم «أحمد»:

أحاجيك في اسم الحبيب الذي ... هويت وأنت أمام البلد
حروف الهجاء له أربع ... إذا زال حرف فيبقى واحد

وقال زهير في حق مدينة «يافا»:

وحقك خبرني عن اسم مدينة ... يكون رباعياً إذا ما كتبته
على أنه حرفان حين تقوله ... ولكنه حرف إذا ما قلبته

ومثال آخر في اسم «سعيد»:

اسم من كان أفضل القوم　　أول السوم آخر الصوم

ومما جاء في المسائل الفقهية:

ولي خالة وأنا خالها　　ولي عمة وأنا عمها
فأما التي أنا عم لها　　فإن أبي أمه أمها
أبوها أخي وأخوها أبي　　ولي خالة هكذا حكمها

صورتها: رجل له امرأتان، أولد واحدة بنتاً وأخرى ابناً، ثم زوج بنته من أبي امرأته التي ولدت إبناً، فجاءت ببنت، وهي خالة ابن وهو خالها. ثم أن صورة العمة: رجل له ابن ولأ بنه أخ من أمه، فزوج أخاه أم أبيه، فجاء ببنت وهي عمته وهو عمها.

وأعلم: أن أكثر من يعتني باللغز العرب، لكن لم يدونوه في الكتب؛ وأكثر من يعتني بالمعمى أهل فارس، ولهذا وقع جل التصانيف في المعمى على لسان الفرس. وقد رتبوا له قواعد عجيبة وتقسيمات غريبة وتنويعات لطيفة. وأما ما يوجد في لسان العرب فشيء نزر جداً. ولقد وجدت في لسان العرب خمسة معميات فقط، مع شدة تنقيري وكثرة تتبعي عنه، على أنه لم يقع في مرتبة لطافة أهل فارس، الذين لو كان العلم عند الثريا لناله رجال منهم. وإن أردت صدق هذا المقال فأرجع إلى كتاب مولانا عبد الرحمن الجامي، قدس سره، خصوصاً كتاب مولانا حسين المعمائي، فإنك إن طالعته وجدته السحر الحلال، وترى فيه العجب العجاب.

علم التصحيف

وهذا من أنواع البديع حقيقة. لكن بعض الناس توغلوا فيه وأفردوه في التصنيف وجعلوه من فروعه.

وموضوعه: الكلمات المصحفة التي وردت عن البلغاء. ويمكن جعله فرعاً للمحاضرات لوروده عن البلغاء.

وفائدته: وغرضه، ومنفعته غير خفي على أهل البصائر.

وصنف فيه: أبو أحمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري، أحد الأئمة في الآداب، والحفظ، وهو صاحب نوادر وأخبار، وله رواية متسعة. وله التصانيف المفيدة منها: (كتاب التصحيف) الذي جمع فيه فأوعب، وغير ذلك. وكان الصاحب بن عباد يود الاجتماع به، ولا يجد إليه سبيلاً. وكان (ولادة) أبي أحمد يوم الخميس، لست عشرة ليلة خلت من شوال، سنة ثلاث وتسعين ومائتين. و (توفي) يوم الجمعة، لسبع خلون من ذي الحجة، سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة. وأخذ عن أبي بكر بن دريد.

وله من التصانيف:

١ ــ كتاب المختلف والمؤتلف.

٢ ــ وكتاب علم المنطق.

٣ ــ وكتاب الحكم والأمثال.

٤ ــ وكتاب الزواجر.

وغير ذلك.

قال عبد الرحمن البسطامي: أول من تكلم في التصحيف الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ومن كلامه في ذلك: خراب البصرة بالريح، بالراء والحاء المهملتين، وبينهما ياء آخر الحروف.

قال الحافظ الذهبي: ما علم تصحيف هذه الكلم إلا بعد المائتين من الهجرة، يعني خراب البصرة بالزنج، بالزاء المعجمة والنون والجيم.

ومن بديع التصحيف: ما نقشه نجم السائس على خاتم لابن أستاذه، واسمه يحيى وكان يهواه، وهو هذا: نجم عسق يجني. يريد: نجم عشق يحيى.

ومن بديع كلام الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كل عنب الكرم يعطيه؛ يعني: كل عيب الكرم يغطيه. وللإمام في هذا العلم صنائع بديعة.

ومن أمثلة التصحيف قولهم في المستنصرية جنة؛ والمستنصرية اسم موضع وأراد به المسيء يضربه حية. وكقولهم: متى يعود إشارة إلى رجل اسمه مسعود، وقيل لفاضل. استنصح ثقة ايش تصحيفه، فقال: أتيت بتصحيفه. ويحكى: أن ملكاً بنى قصراً، وتولى عمله بنّاء اسمه الذكر به، بضم الذال المعجمة، وسكون الكاف، ثم الراء المهملة المضمومة، ثم الباء الموحدة المشددة المفتوحة، ثم الهاء.. ولعل هذا من الأسماء الرومية ــ فقال الملك لبعض خواصه ــ وكان من الفضلاء ــ: بنيت هذا بألف دينار، فقال ذلك الفاضل: الذكر به شرف، فأمر الملك بحبس البنّاء في الحال، فسألوه عن سببه، فقال: أما سمعتم قول هذا، وأراد الفاضل المذكور، قالوا: ما تكلم هو إلا خيراً، قال: أراد هو بهذا الكلام: الذكر به سرق.

علم المقلوب

وهذا أيضاً من فروع علم البديع أو المحاضرات، كما عرفت في التصحيف. وهو أن يكون الكلام، بحيث إذا قلبته، وابتدأت من حرفه الأخير إلى الحرف الأول، كان الحاصل بعينه هو هذا الكلام. وهذا مغاير لتجنيس القلب المذكور في علم البديع، فإن المقلوب هاهنا، يجب أن يكون عين اللفظ الذي ذكر بخلافه ثمة، ويجب ثمة ذكر اللفظين تجميعاً بخلافه هاهنا. والقلب قد يكون في النظم، وقد يكون في النثر: أما في النظم: فقد يكون بحيث يكون كل من المصراعين قلباً للآخر كقوله:

«أرانا الأله هلالاً انارا» وقد لا يكون كذلك، بل يكون مجموع البيت قلباً لمجموعه كقول القاضي الأرجاني:

شعر

مودته تُدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

وكقول الحريري:

آس أرملا إذا عرا وارع إذا المرء أسا

إلا أن في قول الحريري نوع تكلف، وهو زيادة همزة «مرء» وحذفها في القلب. وأما في النثر: فأما في مفرد نحو: «سلس». أو مركب: كما في قوله تعالى: «وربك فكبر»، وقوله تعالى: «كل في فلك».

والحرف المشدد في هذا الباب في حكم المخفف، لأن المعتبر هو الحروف المكتوبة. ومنه: «سر فلا كبابك الفرس»، وهو قول عماد الكاتب؛ وقول القاضي الفاضل في جوابه: «دام علاء العماد»، وقد مر تفصيله.

ومنه: «كمالك تحت كلامك».

ومنه: «عقرب تحت برقع».

ومنه: «كبر رجاء أجر ربك».

ومنه: «لا بقاء للإقبال».

وله نظائر كثيرة وأمثال غير قليلة.

علم الجناس

وهو وإن كان من أنواع البديع، لكن لما كان البحث هناك على وجه كلي في مطلق الكلام، وهاهنا على وجه جزئي في كلام منقول عن الفضلاء والبلغاء، أفردوه في التدوين، وجعلوه فرعاً على البديع أو على المحاضرات. وهو علم باحث عن اللفظين اللذين بينهما تشابه في اللفظ فقط، أو فيه وفي الخط، مع تغايرهما في المعنى، وإلا فلا تجنيس أصلاً. ووجوه التشابه وأقسامه مذكورة في موضعها، وليس هذا المقام موضع الاستقصاء فيه، والحرف المشدد في هذا الباب في حكم المخفف. قيل: التجنيس على نوعين: جناس شكلي، وجناس شكلي.

قال أبو الفتح البستي صاحب (التجنيس الأنيس البديع التأسيس): من أصلح فاسده أرغم حاسده، ومن أطاع غضبه أضاع أدبه، عادات السادات سادات العادات. وهو أبو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب الشاعر المشهور، صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس؛ فمن ألفاظه البديعة: من سعادة جدك وقوفك عند حدك، الرشوة رشاء الحاجات، أجهل

الناس من كان للأخوان مذلاً وعلى السلطان مدلاً، الفهم شعاع العقل، المنية تضحك من الأمنية، حد العفاف الرضاء بالكفاف، ما يخرق الرقيع ترقيع.

وشعره كثير في التجنيس وغيره. (توفي) سنة أربعمائة أو إحدى وأربعمائة ببخارى.

ومن بديع ما قيل:

إذا زل عالم زل عالم.

ومن ذلك قول رشيد الدين الوطواط:

رَبِّ رُبَّ غَنِيٍّ غَبِيٍّ، سَرَّته شُرته، فجاءه فُجاءةً بعد عشرته عسرته، تفسير هذا الكلام:

« رَبِّ »: نداء للرب حذف حرف النداء.
و « رُبَّ »: من حروف الجر.
و « الغني »: من الغنى ضد الفقر.
و « الغبي »: من الغباوة ضد الذكاء.
« سرته »: فعل ماض من السرور.
و « شرته »: مصدر بمعنى الشر ضد الخير وهو فاعل سرته.
« فجاءه »: فعل ماض من المجيىء.
و « الفجاءة »: بضم الفاء مصدر بمعنى البغتة.
و « بَعد » بالفتح ظرف ضد قبل.
و « بُعد » بالضم نقيض القرب.
و « عشرته » مصدر بمعنى المعاشرة.
و « عسرته » مصدر بمعنى العسر ضد اليسر وهي فاعل جاءه.

والمعنى: يا رب كم من غني متصف بالغباوة، سرته اضراره بالناس، حتى جاءه بغتة بعد طول معاشرته ونعته العسر والفقر.

ومن الجناس: إن لم يكن لنا حظ في دَرْك دُرِّك، فخلصنا من شَرْك شَرِّك
« الدَّرْك »: بفتح الدال وسكون الراء مصدر بمعنى الإدراك.

و «دُرِّك»: بفتح الدال وكسر الراء المشددة بمعنى الخير، كما يقولون: لله دره أي خيره.

و «الشَرْك»: بفتح الشين والراء حبالة الصائد.

و «شرك»: من الشر ضد الخير.

والمعنى: إن لم يكن لنا نصيب في الوصول إلى خيرك، فخلصنا من حبالة شرك.

ومن الجناس: ان أحيلتنا من مَبَارِك مُبارِّك، فارحنا من مَعَارِك مَعَارِّك.

و «المبارك»: جمع مبرك الفاقة.

و «المبار»: بتشديد الراء، جمع البر.

و «المعارك»: جمع المعركة.

و «المعار»: بمعنى المعرة، وهي العيب.

والمعنى: ان أخليتنا من مواضع برك، فخلصنا من مواضع العار.

ومن غرائب التجنيس: قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أرسله إلى معاوية رضي الله عنه: «غرك عزك، فصار قصارى ذَلِكِ ذُلُك، فاخش فاحش فعلك، فعلك تهذى بهذا». فأجابه معاوية رضي الله عنه: «على قدرى غلى قدري».

قال الخلكاني: «غرك عزك»... إلى آخره، لأبي شجاع عضد الدولة، كتبها جواباً لأبي منصور الفتكين. ولعله لا منافاة بين الروايتين، إذ من الجائز أن يكتب عضد الدولة، كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، حينما رآه موافقاً لحاله. على أن حسن الكلام، شاهد بأن ذلك لا يكون إلا لأمير المؤمنين، إذ لا يتيسر مثله لأفاضل البلغاء والكتاب قطعاً.

والمعنى:

«غَرِّك: أي جعلك مغروراً.

«عِزِّك»: أي عزتك وشرفك، فصار قصارى ذلك العزو الشرف ونهايتها،

ذلك: أي ذلتك وسوء حالك، فاخش أنت أيها المغرور فاحش فعلك: أي قبيح أفعالك، فَعَلَّك: أي لعلك، تهدى: أي تجد الهداية بهذا النصح والتنبيه.

واعلم: أن «عل» لغة في لعل كما قال الشاعر:

لا تهين الفقير علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

أي لعلك تركع: أي تسقط يوماً وتحتاج، والفقير قد يرفعه الدهر فيكون محتاجاً إليه.

علم مسامرة الملوك

وهذا من فروع المحاضرات. وهو علم باحث عن أحوال يرغب فيها الملوك من القصص، والأخبار، والمواعظ، والعبر، والأمثال، وغرائب الأقاليم، وعجائب البلدان، وغير ذلك من الأحوال التي يرغب فيها الملوك.

ومن الكتب المصنفة فيه:

١ ــ سلوان المطاع في عدوان الاتباع لابن ظفر، وقد عرفته.
٢ ــ وكتاب مفاكهة الخلفاء.
٣ ــ وكتاب نظم السلوك في مسامرة الملوك.

وأكثر كتب المحاضرات وافية بهذا المطلب سيا:

١ ــ كتاب حياة الحيوان.
٢ ــ ومحاضرات الراغب.

وقد عرفتها في المحاضرات.

وموضوعه، وغايته، وغرضه، ومنفعته ظاهرة للعاقل الذكي.

علم حكايات الصالحين

وهو من فروع علم التواريخ والمحاضرة. وقد اعتنى بأحوال الصلحاء والأبرار طائفة وأفردوها بالتدوين. وموضوعه، وغايته، وغرضه ظاهرة جداً. ومنفعته أجل المنافع وأعظمها كما لا يخفى.

ولقد صنف في ذلك ابن الجوزي كتاب: (صفوة الصفوة).

واليافعي كتاب: (روض الرياحين في حكايات الأبرار والصالحين) وغير ذلك من الكتب.

علم أخبار الأنبياء

وهذا من فروع التواريخ. وقد اعتنى بها العلماء، وهو حقيق بالاعتناء، وأفردوها في التدوين. منها: (قصص الأنبياء) لابن الجوزي، وغيره.

علم المغازي والسير

وهذا أيضاً من فروع علم التاريخ. وقد صنف فيها العلماء كتباً كثيرة منها:

(سيرة ابن هشام).

و (سيرة محمد بن إسحاق).

و (سيرة مغلطاي).

وغير ذلك.

وموضوع هذين العلمين ومنفعتها، والغاية والغرض فيهما، لا يخفى على أحد.

علم تاريخ الخلفاء

وهذا أيضاً من فروع التاريخ. وقد أفرد بعض العلماء من التواريخ:

تاريخ الخلفاء الأربعة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم وهم أحقاء بالاعتناء. وبعضهم ضم معهم تاريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين، لاشتمال أحوالهم على مزيد الاعتبار. وفي هذا الفن تصانيف كبار لا تخفى على ذوي الإحاطة، منها: (تحفة الظرفاء في تواريخ الخلفاء).

علم طبقات القراء

وهو علم يذكر فيه القراء السبعة، بل العشرة، بل الثلاثة عشر، بل الخمسة عشر، ورواة هؤلاء، وغير ذلك من الشيوخ والمصنفين في هذا العلم، ويذكر فيه أيضاً قراء الصحابة، والتابعين، وتبع تابعيهم إلى هذا الآن.

و (طبقات الذهبي) تصنيف مفيد في هذا العلم. ولا أجمع ولا أنفع من: (طبقات الشيخ الجزري).

علم طبقات المفسرين

وهو من فروع التواريخ أيضاً. وصنف فيها المجلدات الكبار.

علم طبقات المحدثين

من فروع التواريخ، وفيها المصنفات العظام.

علم سير الصحابة والتابعين

من فروع المحاضرات وفيها: (كتاب سير الصحابة والتابعين)، وهو كتاب عظيم لم يمهد بمثله.

علم طبقات الشافعية

وصنف فيها ابن السبكي: (الكبرى) و (الصغرى)، وأطنب فيها، وجمع وأوعب كل من انتسب إلى مذهب الشافعي. وقد اشتمل على فوائد لا تكاد توجد في كتاب.

علم طبقات الحنفية

وصنف فيها العلماء مثل: (الجواهر المضية في طبقات الحنفية).

ومثل مختصر قاسم بن قطلوبغا سماه: (تاج التراجم). وهذا كاف في الباب، مع اشتمالها على المهمات.

علم طبقات المالكية

وموضوعه ورسمه معلوم من العلوم السابقة.

علم طبقات الحنابلة

ويعرف أحواله أيضاً مما مر. ولكن لم نعرف أنه صنف طبقات المالكية والحنابلة، ولعله لم يهمل ذلك فضلاء ذلك المذهب.

علم طبقات النحاة

وصنف فيها كثيرون، مثل: ياقوت الحموي، ومجد الدين الشيرازي، وصلاح الدين الصفدي، وجلال الدين السيوطي، وغير ذلك من الكتب.

علم طبقات الحكماء

وقد اعتنى بذلك كثيرون، منها: الصاعد الذي هو من مشاهير الحكماء، وصنف فيها كتاب: (صوان الحكمة). ورأيته في عنفوان الشباب، وهو كتاب لطيف لكني نسيت اسم مصنفه.

علم طبقات الأطباء

وقد صنف في ذلك العلماء، ورأيت في هذا العلم كتاباً موسوماً بـ (عيون الأنباء في طبقات الأطباء).

اعلم: أن طبقات هؤلاء المذكورين من فروع علم التاريخ. وموضوع كل منها، وغايتها، وغرضها، ومنافعها ظاهرة على من تتبع تلك العلوم. والله الموفق.

الدوحة الثالثة

في علوم باحثة عما في الأذهان من المعقولات الثانية

وفيها:

مقدمة، وشعبتان



المقدمة

اعلم: أن العلوم الباحثة عن أحوال الأذهان، (هي) العلوم الآلية المعنوية؛ وأجلها «علم المنطق»، حتى أن بعضاً من الحكماء أجراه مجرى الرئيس للعلوم العقلية، حتى أن بعضاً من العلماء جعلوه من فروض العين، لكونه موقوفاً عليه معرفة الواجب (لله) تعالى، وهي واجبة. فكذا ما يتوقف عليه الواجب المطلق، وكان مقدوراً للمكلف، حتى حكم بعض من الحكماء الاشراقية، أن رياضة المتصوفة وسلوكهم تدور أيضاً على قواعد المنطق.

وبالجملة: المنطق علم باهر البرهان، وكالشمس لا تخفى بكل مكان. ولا يجحد فضله إلا من يعشو عن إدراك الحقائق، و يعمى عن فهم الدقائق. ولله در من قال:

عاب المنطق قوم لا عقول لهم ... وليس له إذا عابوه من ضرر
ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة ... أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

وقيل في مدح النحو والمنطق:

ان رمت ادراك العلوم بسرعة ... فعليك بالنحو القويم ومنطق
هذا لميزان العقول مرجح ... والنحو اصلاح اللسان بمنطق

ولا عبرة بما قيل في ذم المنطق:

دع منطقا فيه الفلاسفة الأول ... ضلت عقولهم ببحر مغرق
واجنح إلى نحو البلاغة واعتبر ... أن البلاء موكل بالمنطق

وقد صح بشهادة أهل التواريخ والقدماء، أن أول من دون علم المنطق «أرسطو»، وقد بذلك له ملك زمانه في مقابلة ذلك خمسمائة ألف دينار، وأدر عليه في كل سنة مائة وعشرين ألف دينار. قيل: انه تنبه لوضعه وترتيبه من

نظم (كتاب اقليدس في الهندسة). قال يحيى بن عدي الفيلسوف: رأيت (شرح الاسكندر الحكيم للمع الطبيعة) و (لكتاب البرهان في المنطق) في تركة واحد من الحكماء، وأن الشرحين عرضاً عليَّ بمائة وعشرين ديناراً، فمضيت لتحصيل الدنانير، وعدت ما صبت القوم قد باعوا الشرحين ــ في جملة كتب أخر ــ على رجل خراساني على ثلاثة آلاف دنانير. وقال غير يحيى إن هذه الكتب التي أشار إليها كانت تحمل في الكم. قال مؤرخ (أخبار الحكماء): أنظر إلى همتهم والله لو حضرت هذه الكتب في زماننا وعرضت على مدعى علمها ما أدوا فيها عشر معشار ما ذكره: قلت: وإلى الله المشتكى من زمان كسدت فيه بضائع العلوم، وفسدت فيه صنائع الرسوم، وأقول ــ والله الرقيب: لو عرضت تلك الكتب على محصلي زماننا بلا شيء، بل بطريق هبة، لا امتنان فيها ولا غرض، لرغبوا عنها ولم يلتفتوا إليها، فضلاً عن الابتياع. نعم يرغبون في كتب الشعر والهزل و يغالونها في الأثمان بل يكتبونها ويحصلونها، ولا يفارقونها لا في الليل ولا في النهار.

وأعلم: أن هذا الكلام من قبيل نفثة المصدور، فليعذرني من رآه من الأصحاب، ولا يعاملني باللوم والعتاب. وأستغفر الله لنا ولكم عن الخطأ والخطل، في القول والعقد والعمل، إنه عفو غفور.

ثم اعلم: أن من أمثالهم: الشيء بالشيء يذكر. لما وضع بيديا الفيلسوف الهندي كتاب (كليلة ودمنة)، لدبشليم ملك الهند ــ وهو الذي ملك مائة وعشرين سنة ــ وضع التاج على رأسه، وجعله وزيره، وجعل كتابه على ألسنة البهايم والطيور تنزيها للحكمة وفنونها عن العوام، وضنة بها على الجهلاء شركاء الطعام.

حكي: أن كسرى أنو شروان لما سمع بكتاب كليلة ودمنة، أرسل برزو يه الحكيم إلى بلاد الهند، لاستخراج الكتاب، وأعطاه خمسين جراباً، في كل جراب عشرة آلاف دينار، فاضلاً عن أدوات الأسفار. ثم ان «برزو يه» الحكيم، استخرج من بلاد الهند كتاب (كليلة ودمنة)، ونقله من الهندية إلى الفارسية، واستخرج معه الشطرنج التام الذي هو عشرة في عشرة، وأما

الشطرنج الذي هو ثمانية في ثمانية فقد وضعه «صصه (بن داهر) الهندي» للملك شهرام، وما اشتهر بين العوام من أن واضعه اللجلاج، فليس كذلك، لأنه كان ممن يحسن اللعب به. وممن يحسن اللعب به أبو بكر الصولي في المشهور عند أهل التاريخ. ووضع «أردشير بن بابك» الهندي الحكيم، أول ملوك الفرس المؤرخة به، النرد في مقابلة الشطرنج؛ ولذلك قيل له: النردشير، نسبوه إلى واضعه، جعله مثالاً للدنيا وأهلها، فجعل الرقعة إثني عشر بيتاً بعدد شهور السنة، وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر، وجعل الفصوص مثل القضاء والقدر وتقلبه في الدنيا. فافتخرت الفرس بوضع النرد. وقيل: انما جعلوا نصف القطع الثلاثين سوداً ونصفها بيضاً كالأيام والليالي؛ وأيضاً جعلوا الفصوص مسدسة، إشارة إلى أن الجهات ست لا سابع لها؛ وأيضاً أن ما فوق الفصوص من الاعداد، مع ما تحتها من الأعداد، يكون سبعة أبداً كيف ما وقعت الفصوص، وهذا إشارة إلى عدد الأفلاك والأرض والكواكب السيارة.

ومن العجائب أن واضع الشطرنج اقترح من الملك في أول بيت من بيوته درهماً ثم يضعف إلى آخر البيوت، قال الملك: لقد اعتقدت نبل رأيك عند وضعك الشطرنج، والآن لقد سجلت على فساد عقلك؛ قال الوزير: مهلاً أيها الملك، فإن خزائنك وخزائن ملوك الأرض تنفذ عند ذلك. فأنكره الملك أشد الإنكار ففهموه طريق حسابه، وقال: هذا أعجب من وضعك الشطرنج. وقيل: لو وضع في أول بيته حبة حنطة، ثم ضوعف على النهج المذكور، لا يفي بذلك ملء المدن الموجودة في الأرض حنطة. وقد اعتنى بعض من الحساب بذلك، فمن تأمل ذلك يصدقه. وهذا كلام وقع في البين.

ثم رجعنا إلى المقصود فنقول: ثم نقل عبدالله بن هلال الأهوازي، كتاب (كليلة ودمنة) من الفارسية إلى العربية، ليحيى بن خالد البرمكي، في خلافة المهدي. وقد نظم سهل بن نوبخت الحكيم كتاب (كليلة ودمنة) ليحيى بن خالد البرمكي، وزير المهدي والرشيد، وأجازه يحيى على ذلك ألف دينار. وكان الملك الناصر صاحب الأندلس بالمغرب متطلباً للعلوم الألهية والأسرار الحكمية، فسمع به ملك الهند «ملو»، فسير له كتاب (كليلة ودمنة) مصوراً

في الحكم والأمثال، وكتاب (سفر آدم عليه السلام) في علم الحروف، وكتاب (الحروف المنزلة على آدم عليه السلام)، في إحدى وعشرين ورقة من زيتون الجنة وآسها، بأسمائها وصفاتها واعدادها، وما يتولد عنها من علم الأسماء والصفات، والحكم والآيات البينات، وسير له مع هذه هدايا وتحفاً غريبة، من جملتها فرش من جلد حية مدنر، كأنه لون ريش الطاووس، وفرش آخر من جلد حيوان، إذا جلس عليه من به علة البواسير أبرأه. وكان ملك القسطنطينية الحكيم أرمانوس، طالباً لكتاب (علم الحروف)، فكاتب الملك الناصر في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، وهاداه هدايا جليلة وأسراراً غريبة، من جملتها كتاب (ديسقور يدوس) الحكيم، مصور الحشايش بالتصوير الرومي البديع، وكان مكتوباً بالقلم الأغريقي الذي هو اليوناني القديم، وبعث معه كتاب (هروشيش) صاحب القصص، وهو تاريخ ملوك الروم، وقصص المبعوث إليهم من الأنبياء، وكان باللسان اللطيني وهو الفرنجي.

وفي سنة أربعين وثلاثمائة، بعث أرمانوس إلى الملك الناصر، براهب يسمى نقولا، لاستخراج ما جهل من أسماء عقاقير (كتاب ديسقوريدوس) إلى اللسان العربي، وهو أول من عمل بقرطبة ترياق الفاروق على التجارب التي فيه. وفي أيام الخليفة جعفر المتوكل، ترجم اصطفن بن بسيل الترجمان (كتاب ديسقوريدوس) بدار السلام بغداد، من اليوناني إلى العربي. وتوفي الملك الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد الأموي في سنة خمسين وثلاثمائة. وإنما خرجنا عن المقصود لفائدة الترغيب، ولتعلم أن العلوم التي سهلها لك الأوائل كيف تعاونوا في تحصيلها، وكيف جمعوها بضروب من الحيل وأنواع من المشاق، حتى تعرف بذلك قدر العلوم والمعارف.

ومن جملة اهتمامهم في هذا الباب، جمعهم خزائن الكتب، ليمكن النيل إليها كلما أرادوا، و يأمنوا من ضياعها بالنهب والسرقة وأمثالها. قال القلقشندي في (صبح الأعشى): قد كان للخلفاء في القديم مزيد إهتمام بالكتب، حتى حصلوا منها على العدد الجم، وحصلوا على الخزائن الجليلة. والخزائن في الإسلام ثلاث:

(إحداها) خزانة العباسيين ببغداد:

وكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتار بغداد، فذهبت الكتب فيما ذهب، وذهبت معالمها وجهل آثارها.

(والثانية) خزانة الفاطميين بمصر:

وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعاً للكتب النفيسة من جميع العلوم. ولم تزل على ذلك، إلى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، واستيلاء السلطان صلاح الدين على المملكة بعدهم، فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسة الفاضلية بدرب ملوخياً بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الأيدي فلم يبق منها إلا القليل.

(والثالثة) خزانة خلفاء بني أمية بالأندلس:

وكانت من أجل خزائن الكتب أيضاً، ولم تزل على ذلك إلى انقراض دولتهم، باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس، فذهبت كتبها كل مذهب.

أما الآن: فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب، اكتفاء بخزائن كتب المدارس التي ابتنوها، من حيث أنها بذلك أمس. إلا أن لسلطاننا الأعظم ــ الذي تشرف زماننا هذا بوجوده وظله ــ خزانة كتب، يحكى أنه ليس كتاب شرعي وغير شرعي، وعربي وفارسي، إلا و يوجد فيها، إلا أنها مصونة عن أيدي الطالبين. أدام الله دولة هذا السلطان، وأبقى عمره إلى آخر الزمان.

يحكى: أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية، وجد فيها خزانة كتب، فاستشار فيها عمر رضي الله عنه، فكتب إليه عمر، رضي الله عنه: أما الكتب التي ذكرتها، إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففيه غنى عنها، وإن كان غير ذلك فلا حاجة فيها، فتقدم بإعدامها». فأخذ عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها، فنفذ في مدة ستة أشهر. وذكر في (فتوحات الشام): أن الإسكندرية حين فتحت، كان فيها ألف حمام،

وإثنا عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر. فانظر أيها الطالب للعلوم والمعارف إلى اهتمام الأوائل بالعلوم وكتبها حتى تتفطن منه إلى معنى ما قيل:

شعر

لو كانت العلوم تحصل بالمنى   لم يبق أصلا في البرية جاهل

وبعد هذا: نرجع إلى ما كنا فيه، وهو أن أرسطو بعد ما دون المنطق، صارت كتبه مخزونة في أتنه من ولاية مورة من بلاد الروم، عند ملك من ملوك اليونان.

ولما رغب الخليفة المأمون في علوم الأوائل، أرسل المأمون إلى الملك المذكور وطلب الكتب، ولم يرسل، فغضب المأمون وجمع العساكر، وبلغ الخبر إلى الملك، فجمع البطاريق والرهابين وشاورهم في الأمر، فقالوا: إن أردت الكسر في دين المسلمين، وتزلزل عقائدهم، فلا تمنعهم عن الكتب، فاستحسن الملك وأرسلها إلى المأمون، فجمع المأمون مترجمي مملكته: كحنين بن إسحاق، وثابت ابن قرة، وغيرهما، وترجموها بتراجم متخالفة، لا توافق ترجمة أحدهم ترجمة الآخر، فبقيت التراجم غير محررة، إلى أن التمس منصور بن نوح الساماني، من أبي نصر الفارابي، أن يحررها ويلخصها، ففعل كما أراد ولهذا لقب «بالمعلم الثاني». وكان كتبه في خزانة الكتب المبينة بأصبهان المسماة بصنوان الحكمة إلى زمان السلطان محمود، لكن كانت غير مبيضة، لأن الفارابي كان غير ملتفت إلى جمع التصانيف ونشرها بل غلب عليه السياحة، ثم أن الشيخ أبا علي، تقرب عند السلطان مسعود بسبب الطب حتى استوزره، واستولى على تلك الخزانة، وأخذ ما في تلك الكتب ولخص منها كتاب (الشفاء). وغير ذلك من تصانيفه. وقد اتفق أن احترقت تلك الكتب، فاتهم من يتعصب على أبي علي بأنه أحرقها، لينقطع انتساب تلك العلوم عن أربابها، ويختص بنفسه، لكن هذا كلام الحساد الذين ليس لهم هاد.

ثم **اعلم**: أن أفلاطون الحكيم، كان يعلم بعضاً من تلامذته بطريق التصفية، وأعمال الفكر الدائم في جناب القدس، وسموا بالأشراقيين؛ وبعضاً

منهم بطريق البحث والنظر، فسموا المشائين، لترددهم إلى مجلس، أو لأخذهم الحكمة وقت مشيه إلى تعليم أولاد السلطان، أو لتعليمهم وقت مشيه في بشتان كان له، وأما في غير هذا الوقت كان منقطعاً عن الناس. ورئيس الطائفة المشائين هو أرسطو، وهو الذي دون الحكمة البحثية، لأن الحكماء قبل هذا كانوا لا يدونون الحكمة، صوناً لها عن غير أهلها، والذي وقع فإنما وقع شبه الألغاز والتعمية. وكانوا يكتمونها كالكيمياء وغيرها من العلوم الخفية، ولا يعلمونها غير أبناء الحكماء والسلاطين، و يتوارثونها كابرا عن كابر. ولما عرض أرسطو تدو ينه على أفلاطون غضب عليه وقال: أتريد أن تفشي سر الحكمة الذي كتمه الحكماء. فقال: لكني أودعت فيها مهاوي لا يطلع عليها إلا أهلها، فأجازه على ذلك، فجمع جميع أنواع الحكمة، ولهذا لقب «بالمعلم الأول». ثم استخرج المنطق بقوة قريحته وجودة طبعه، ليكون آلة لتحصيل العلوم الحكمية، وقدمه على سائر أقسام الحكمة بكونه آلة لها، والله أعلم بحقيقة الحال.

الشعبة الأولى
في علوم آلية تعصم عن الخطأ في الكسب

علم المنطق
و يسمى علم الميزان أيضاً

هو علم يتعرف منه كيفية اكتساب المجهولات التصورية أو التصديقية من معلوماتها؛ وموضوعه: المعقولات الثانية من حيث الإيصال إلى المجهول والنفع فيه؛ والغرض منه ومنفعته ظاهرة مما ذكرنا.

ومن الكتب المبسوطة في المنطق:

البحر الخضم (منطق الشفاء) لأبي علي بن سيناء، وهو أبو علي الحسين ابن عبدالله بن سينا الحكيم المشهور. كان أبوه من بلخ، وانتقل منها إلى بخارى، وكان من العمال الكفاة. وتولى العمل بقرية من ضياع بخارى، يقال لها خَرْمَيْشَن، من أمهات قراها، وولد هو وأخوه بها. واسم أمه ستاره، من قرية أفْشَنَة بالقرب من خرْمَيْشَن، ثم انتقلوا إلى بخارى. وانتقل الرئيس بعد ذلك في البلاد، واشتغل بالعلوم، وحصل الفنون. ولما بلغ عشر سنين من عمره، أتقن علم القرآن العزيز والأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة. ثم قرأ (كتاب ايساغوجي) على أبي عبدالله النابلي، وأحكم عليه ظواهر المنطق لأنه لم يكن يعرف دقائقها، ثم حل هو نفسه دقائق غفل عنها الأوائل، وأحكم عليه اقليدس والمجسطي، وفاقه إضعافاً كثيرة. وكان مع ذلك يختلف في الفقه إلى اسماعيل الزاهد، يقرأ و يبحث و يناظر. ثم اشتغل بتحصيل الطبيعي والألهي وغير ذلك، وفتح الله عليه أبواب العلوم. ثم فاق في علم الطب الأوائل والأواخر في أقل مدة، وأصبح عديم

القرين فقيد المثل. وقرأ عليه فضلاء هذا الفن أنواعه، والمعالجات المقتبسة من التجربة وسنه إذ ذاك نحو ستة عشر. وفي مدة اشتغاله، لم ينم ليلة واحدة بكمالها، ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة. وكان إذا اشكلت عليه مسألة، توضأ وقصد المسجد الجامع، وصلى ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه، ويفتح مغلقها له. ثم اتصل بخدمة نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان بسبب الطب، ودخل إلى خزانة كتبه، واطلع على كتب لم يقرع آذان الأزمان بمثلها، وحصل نخب فوائدها ولم يستكمل ثمانِ عشرة سنة.

ويحكى عنه: أنه لم يطلع على مسألة إلى آخر عمره، إلا وكان يعرفها في ثمانِ عشرة سنة من سنه، حتى حكى عنه أنه قال: كل ما علمته في ذلك الوقت، فهو كما علمته الآن، لم أزدد فيه إلى اليوم. وهذا أمر عظيم لا يكاد يقبله العقل، لولا عرف حدة ذكائه. ثم تقلبت به الأحوال، بأمور يطول شرحها، حتى استوزر، ثم عزل وحبس، وبعد هذه الأحوال كلها مرض، ثم صلح، ثم مرض إلى أن ضعف جداً، ثم اغتسل وتاب، وتصدق بما معه على الفقراء، ورد المظالم على من عرفه، وأعتق مماليكه، وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة. (مات) يوم الجمعة من رمضان، سنة ثمان وعشرين وأربعمائة بهمدان. وكانت (ولادته) سنة سبعين وثلاثمائة في شهر صفر.

وقيل: توفي باصبهان. وفضائله كثيرة شهيرة. وكان نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه. وعدة تصانيفه ثمانية وستون على الأشهر، وقيل: يقارب مائة مصنف ما بين مطول ورسالة. وله رسائل بديعة منها:

١ ــ رسالة حي بن يقظان.

٢ ــ ورسالة سلامان وابسال.

٣ ــ ورسالة الطير.

٤ ــ وقصيدة الورقاء؛ يرمز بها عن النفس الناطقة.

ومن كتبه المبسوطة:

١ ــ الشفاء، كتبه بلا مطالعة كتاب، وكان يكتب كل يوم خمسين ورقة

من حفظه، وهذا كما مر أمر يستحيله العقل، لكن لو نسب إلى غير أبي علي.

٢ ــ وكتاب النجاة.

٣ ــ والقانون.

٤ ــ والإشارات.

وغير ذلك. ومناقبه لا تعد. ولنكتف هاهنا بهذا الحد.

ومن الكتب المبسوطة في المنطق والحكمة:

١ ــ كتاب بيان الحق.

٢ ــ ومطالع الأنوار.

٣ ــ والمناهج.

كلها للأرموي. وهو محمود بن أبي بكر أحمد الأرموي، الشيخ سراج الدين أبو الثناء، صاحب:

١ ــ التحصيل مختصر المحصول: في أصول الفقه.

٢ ــ ومختصر الأربعين في أصول الدين.

٣ ــ والبيان.

٤ ــ والمطالع: في المنطق والحكمة، وغير ذلك.

٥ ــ وقيل أنه شرح الوجيز للرافعي في الفقه.

وكان شافعياً. قرأ بالموصل على كمال الدين بن يونس. (مولده) سنة أربع وتسعين وخمسمائة. و (توفي) سنة اثنتين وثمانين وستمائة بمدينة قونية.

ومن كتب المنطق:

(كشف الأسرار) للخونجي. وهو محمد بن بامادر بن عبد الملك القاضي، أفضل الدين الخونجي. (ولد) في جمادي الأولى سنة تسعين وخمسمائة. وله اليد الطولى في المعقولات. وهو صاحب (الموجز) في المنطق، وغيره. ولي قضاء القضاة بالقاهرة. وكان كثير الأفكار، بحيث يستغرق وقتاً صالحاً في ذلك. ودرس بالمدرسة الصلاحية بالقاهرة، وغيرها. و (توفي) في الخامس من شهر

رمضان، سنة تسع وأربعين وستمائة، ودفن بسفح المقطم.

ومن الكتب المختصرة اللطيفة النافعة في هذا العلم:

(المطالع) للأرموي، وقد عرفته.

وله شروح منها:

(شرح شمس الدين الأصفهاني) رحمه الله، وستعرفه في علم الكلام.

ومنها:

(شرح قطب الدين الرازي التحتاني). وهو محمد بن محمد الرازي، الشيخ العلامة قطب الدين، المعروف بالتحتاني، وهذه النسبة لتميزه عن قطب آخر فوقاني. وكانا يسكنان في مدرسة واحدة، أحدهما في الطبقة الفوقانية، والآخر في الطبقة التحتانية. وهو امام مبرز في المعقولات، اشتهر اسمه وبعد صيته، ورد إلى دمشق في سنة ثلاث وستين وسبعمائة. قال ابن السبكي: بحثنا معه في دمشق، فوجدناه إماماً في المنطق والحكمة، عارفاً بالتفسير والمعاني والبيان، مشاركاً في النحو، يتوقد ذكاء. وله على الكشاف (حواش) مشهورة، وله (شرح على مطالع الأرموي) في المنطق ــ وهذا شرح عظيم الشأن ــ وله (شرح على الرسالة الشمسية) للكاتبي في المنطق.

(توفي) في سادس ذي القعدة. سنة ست وستين وسبعمائة بظاهر دمشق، عن نحو أربع وسبعين سنة. يروى أنه كان له عبد رباه من صغره وعلمه، حتى كان مدرساً وفاضلاً في كل العلوم، وكان يدعى بمبارك شاه المنطقي. وهو الذي أخذ عنه الشريف الجرجاني (شرح المطالع) لمولاه قطب الدين الرازي. وكان طلب قراءاته أولاً من الشارح ولم يلتزم ذلك، وتعلل: بأنني شيخ وأنت شاب، ثم أرسله الشارح من شيراز إلى غلامه مبارك شاه، وهو بمصر وقتئذ، فقبل الشريف ذلك، وسار إليه مع كتاب من الشارح إليه، وأوصى في الكتاب أن يغنمه كما سمع منه. فلما أوصل الشريف الكتاب قبله، لكن بشرط أن يسمع فقط، ولا يقرأ ولا يتكلم أصلاً. ثم ليلة من الليالي كان يطوف المدرس في المدرسة، إذ سمع مباحثة في بعض الحجرات، فإذا هو الشريف المذكور، وسمع

منه تحقيقات عجيبة، وتدقيقات غريبة، حتى لحقه البهجة والسرور، بحيث رقص في فناء المدرسة، على أن مثل هذا الفاضل يقرأ عنده، فلما أصبح أذن له في القراءة والتكلم. يروي أن الشريف كتب (حواشي شرح المطالع) عند قراءته عليه.

ومن الكتب اللطيفة في المنطق:

(التلويحات) و (المطارحات) للسهروردي.

وهو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، الملقب شهاب الدين السهروردي، الحكيم المقتول؛ وقيل: اسمه عمر. كان من علماء عصره، قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي، أستاذ فخر الدين الرازي، بمدينة المراغة من أعمال أذْرَبِيجان، إلى أن برع فيها. وكان السهروردي أوحد أهل زمانه في العلوم الحكمية والفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، فصيح العبارة. ويقال: إنه كان يعرف علم السيمياء، ويحكي عنه فيه أشياء غريبة، منها ما حكى بعض فقهاء العجم، أنه كان في صحبته وقد خرجوا من دمشق؛ قال: فلما وصلنا إلى القابون ــ القرية التي على باب دمشق في طريق من يتوجه إلى حلب ــ لقينا قطيع غنم مع تركمان، فاشتهينا غنماً نأكله، وأعطانا عشرة دراهم كانت معه، فاشترينا بها غنماً من رجل تركماني، فلم نمش إلا قليلاً ولحقنا رفيق له وقال: ردوا الرأس وخذوا أصغر من هذا الغنم، ورفيقي لم يعرف قيمته، وتقاولنا نحن وإياه، فلما عرف الشيخ ذلك، قال: امشوا وأنا أرضيه، فتقدمنا نحن، وبقي الشيخ يتحدث معه ويطيب قلبه، فلما أبعدنا قليلاً، تبعنا وتركه فغاظ التركماني، وجذب اليد اليسرى للشيخ، وإذا بيد الشيخ قد انخلعت، ورمي التركماني يده، وخاف منه وفر، وأخذ الشيخ تلك اليد بيده اليمنى، ولحقنا إلى أن غاب عن التركماني، فرأينا في يد الشيخ منديلاً له لا غير. ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة.

وله تصانيف منها:

١ ــ التنقيحات: في أصول الفقه.

٢ ــ والتلويحات.

٣ ــ والمطارحات: في المنطق والحكمة.

٤ ــ والهياكل.

٥ ــ وحكمة الإشراق: في الحكمة.

٦ ــ وله الرسالة المعروفة بالعزبة الغربية، على مثال (رسالة الطير)، ورسالة (حي بن يقظان) لأبي على بن سينا. وفيها بلاغة تامة للسهر وردي، أشار فيها إلى حديث النفس وما يتعلق بها. وله في النظم والنثر أشياء لطيفة لا حاجة إلى الإطالة فيها. وكان شافعي المذهب. وكان يلقب بالمؤيد بالملكوت وكان يتهم بانحلال العقيدة والتعطيل، و يعتمد مذهب الحكماء المتقدمين. وأفتى علماء حلب باباحة دمه، وكان أشدهم عليه زين الدين، ومجد الدين ابني جَهبِّل.

وقال الشيخ سيف الدين الآمدي ــوسيجيء ذكرهــ: اجتمعت بالسهروردي في حلب، فقال لي: لا بد أن أملك الأرض، فقلت له: من أين لك هذا، قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعل هذا يكون اشتهار العلم وما يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه، ورأيته كثير العلم، قليل العقل.

وبالجملة: حبسه السلطان وخنقه، في خامس رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب، وعمره ثمان وثلاثون سنة.

وكان الناس مختلفين في حقه، منهم من ينسبه إلى الزندقة والالحاد، ومنهم من يشهد له بحسن الاعتقاد. قال القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد، قاضي حلب: ان السهروردي كان كثير التعظيم لشعائر الدين القويم، وأطال الكلام في ذلك. وذكر نفسه في أواخر التلويحات في وصايا ذكرها هناك: واتق شر من أحسنت إليه من اللئام، ولقد أصابني منهم شدائد. قال شارحها: أراد به بعضاً من تلامذته، الذين يصاحبونه في السفر والحضر، و ينقلون عنه أشياء مخالفة للشرع. ولعل قتله كان بسبب هؤلاء. نسأل الله العفو والعافية في الدين

والدنيا والآخرة، وأن يجعلنا من أهل الحق والرشاد، وأن يعصمنا من شر أهل الزيغ والفساد. إنه ولي الحق والإرشاد.

ومن لطائف كتب المنطق:

(الملخص) و(شرح الإشارات)، وغير ذلك للإمام الرازي. وستعرف ترجمته إن شاء الله تعالى.

ومن الكتب النافعة في المنطق:

(المعتبر) لأبي البركات البغدادي. وهو هبة الله بن ملكا، أبو البركات البغدادي، اليهودي أولاً في أكثر عمره، والمهتدى إلى الإسلام في آخر أمره، الملقب أوحد الزمان. طبيب فاضل، عالم بعلوم الأوائل. كان حسن العبارة، لطيف الإشارة. صنف كتاب (المعتبر)، أتى فيه بأقسام الحكمة غير الرياضي. وهو أحسن كتاب صنف في هذا الشأن في هذا الزمان. وكان ذا ثروة وتجمل تام.

وهجاه ابن أفلح وقال:

لنا طبيب يهودي حماقته ... إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة ... كأنه بعد لم يخرج من التيه

ولما سمع ذلك علم أنه لا يبجل بالنعمة بلا إسلام، فقوى عزمه على الإسلام، فأسلم وجلس للتعليم والمعالجة، وعاش عيشة هنيئة، إلى أن خانه الدهر وهو خؤون، وعصاه الزمان وهو ذو فنون، حتى استولت عليه والعياذ بالله آفات، لو وضع واحد منها على رضوى، لتخلخلت أصوله الرواسخ، وتدكدكت رؤوسه الشوامخ؛ وذلك أنه عمى وطرش و برص وتجذم، فنعوذ بالله من نقمة لا تطيقها الأ بدان، ومن زوال العافية وتقلب الإحسان. ولما أحس بالموت أوصى من يتولاه أن يكتب على قبره ما مثاله: هذا قبر أوحد الزمان أبي البركات ذي العبر صاحب (المعتبر). فسبحان من لا يغلبه غالب، ولا ينجو من قضائه متحيل ولا هارب. نسأل الله تعالى في حياتنا العافية، وفي مماتنا حسن العاقبة.

رب قد أحسنت فيما مضى، فلك أن تحسن إلينا فيما بقي. ولم يتحقق تاريخ وفاته إلا أنه كان في أواسط المائة السادسة، والله أعلم.

ومن كتب المنطق:

(جامع الدقائق) للكاتبي.
و (شرح الكشف) له أيضاً.
و (الكشف).
و (تنزيل الأفكار).
و (حواشي ملخص الرازي)؛ كلها للكاتبي.

وإن أردت بلوغ الغاية في المنطق فعليك بـ (تعديل الميزان)؛ وهو أحد أقسام (تعديل العلوم) للإمام الهمام، والحبر القمقام، فخر العلماء الأعلام، ونتيجة أسلافه الكرام، وسلالة أجداده العظام، الإمام صدر الشريعة، أكرمه الله في الدرجات الرفيعة. وهو رحمه الله كشف في هذا الكتاب عن غوامض طالما تحير فيها عقول الأقدمين، وأبرز قواعد لم يهتد إليها أحد من الأوحدين، ومع هذا فهو للعلوم الشرعية أبو عذرها وابن نجدتها، وستعرف ترجمته إن شاء الله تعالى الكريم.

وكتب المنطق أكثر من أن تحصى، وأجل من أن تستقصى، لكن من لم ينتفع بما ذكر لا ينتفع بخزائن من الكتب. والله الموفق للرشاد والمعطي للسداد.

الشعبة الثانية

في علوم تعصم عن الخطأ في المناظرة والدرس

علم آداب الدرس

وهو العلم المتعلق بآداب تتعلق بالتلميذ مع الأساتذة وعكسه.

ومنفعته، وغايته، وغرضه ظاهرة جداً. وقد ذكرنا في مقدمات هذه الرسالة ما فيه غنية عن الأكثار فيه. وقد استوفى هذا الباب في كتاب (تعليم المتعلم).

علم النظر

وهو علم يبحث فيه عن كيفية إيراد الكلام بين المناظرين.

وموضوعه: الأدلة من حيث أنها يثبت بها المدعي على الغير.

ومبادئه: أمور بينة بنفسها.

والغرض منه تحصيل ملكة طرق المناظرة، لئلا يقع الخبط في البحث فيتضح الصواب.

ومن الكتب المختصرة فيه غاية الاختصار:

(رسالة لمولانا عضد الدين) وستعرفه. وقد بين قواعدها كلها في مقدار عشرة أسطر. وشرحها بعض الفضلاء المعاصرين لنا شرحاً حسناً، وهو مولانا محمد بن محمد البردعي، وكان ذكياً في الغاية (مات) في سنة سبع وعشرين وتسعمائة.

ومن الكتب المختصرة النافعة فيه:

(رسالة مولانا شمس الدين) السمرقندي، صاحب (قسطاس الميزان).

وهذه الرسالة أشهر كتب هذا الفن. وعليها شروح منها:

١ ــ شرح علاء الدين البهشتي.

٢ ــ وشرح قطب الدين الكيلاني.
٣ ــ وشرح مسعود الرومي.

وغير وذلك.

ومن الكتب المختصرة فيه:

(كتاب مولانا سنان الدين الكنجي).

وكنجة: قرية من قرى برذعة، ولم يتفق له شرح إلى الآن.

علم الجدل

وهو علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على ابرام أي وضع أريد، وعلى هدم أي وضع كان. وهذا من فروع علم النظر. ومبني العلم الخلاف، وهذا مأخوذ من الجدل، الذي هو أحد أجزاء مباحث المنطق، لكنه خص بالعلوم الدينية.

ومبادئه: بعضها مبنية في علم النظر، وبعضها خطابية، وبعضها أمور عادية، وله استمداد من علم المناظرة.

وموضوعه: تلك الطرق.

والغرض منه: تحصيل ملكة الهدم والإبرام.

وفائدته كثيرة في الأحكام العلمية والعملية من جهة الالزام على المخالفين ودفع شكوكهم. وللناس فيه طرق أحسنها طريق ركن الدين العميدي.

ومن الكتب المختصرة فيه:

(المغني) للأبهري.
و (الفصول) للنسفي.
و (الخلاصة) للمراغي.
و (مقدمة النسفي) وعليها شروح أحسنها (شرح السمرقندي).

ومن المتوسطة:

(النفائس) للعميدي.

و (الرسائل) للأرموي.

و (تهذيب النكت) للأبهري.

وفي هذا العلم مصنفات كثيرة لكنه لم يشتهر في بلادنا غير ما ذكرناه.

واعلم: أن أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء: أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي الشافعي، أمام عصره بلا مدافعة. كان فقيهاً، محدثاً، أصولياً لغوياً، شاعراً، لم يكن بما وراء النهر للشافعيين مثله في وقته. رحل إلى خراسان والعراق والحجاز والشام والثغور. وسار ذكره في البلاد. وأخذ الفقه عن ابن سريج. وله مصنفات كثيرة في الجدل وأصول الفقه. وعنه انتشر مذهب الشافعي في بلاده: روى عن محمد بن جرير الطبري وأقرانه. وروى عنه الحاكم، وأبو عبدالله بن منده، وأبو عبد الرحمن السلمي وجماعة كثيرة.

(توفي) سنة ست وثلاثين وثلاثمائة؛ وقيل: توفي بالشاش في ذي الحجة سنة خمس وستين وثلاثمائة.

وكانت (ولادته) سنة إحدى وتسعين ومائتين؛ وقيل: سنة ست وستين وثلاثمائة. وشاش مدينة ما وراء نهر سيحون في أرض الترك. قال بعض العلماء: إياك أن تشتغل بهذا الجدل، الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء، فإنه يبعد عن الفقه، و يضيع العمر، و يورث الوحشة والعداوة، وهو من اشراط الساعة، وارتفاع العلم والفقه. كذا ورد في الحديث حسبما ذكر في (تعليم المتعلم) ولله در القائل:

شعر

أرى فقهاء هذا العصر طرا ... أضاعوا العلم واشتغلوا بلم لم

إذا ناظرتهم لم تلق منهم ... سوى حرفين لم لم لا تسلم

قلت: والأنصاف أن الجدل لإظهار الصواب على مقتضى قوله تعالى: ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1]، لابأس به، وربما ينتفع به في تشحيذ الأذهان وتصقيل الخواطر. والذي منع عنه العلماء هو الجدل الذي يضيع الأوقات، ولا يحصل منه طائل، وكثيراً ما لا يخلو عن التحاسد والتنافس المذمومين في الشرع. فعليك الاحتياط لئلا تقع في المهالك من حيث لا تشعر.

علم الخلاف

وهو علم باحث عن وجوه الاستنباطات المختلفة، من الأدلة الإجمالية والتفصيلية، الذاهب إلى كل منها طائفة من العلماء، أفضلهم وأمثلهم: أبو حنيفة نعمان بن ثابت الكوفي، رضي الله عنه؛ ومن أصحابه: أبو يوسف، ومحمد، وزفر، والإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، رضي الله تعالى عنهم؛ ثم البحث عنها بحسب الإبرام والنقض لأي وضع أريد في تلك الوجوه.

ومبادئه: مستنبطة من علم الجدل، فالجدل بمنزلة المادة، والخلاف بمنزلة الصورة، وله استمداد من العلوم العربية والشرعية.

وغرضه: تحصيل ملكة الإبرام والنقض.

وفائدته: دفع الشكوك عن المذهب وإيقاعها في المذهب المخالف.

وقد أورد علم الخلاف والجدل، الإمام فخر الدين الرازي في كتاب (المعالم). وقد جمع بعض العلماء في علم الخلاف المسائل العشرين، وبعضهم الأربعين، وغير ذلك من الرسائل والتعليقات، لكن قد ضاعت كتبه، وانطمست آثاره، وبطلت معالمه في زماننا هذا، حتى أن طلبة زماننا، لا يتفطنون الفرق بين الخلاف والجدل والمناظرة، فضلاً عن معرفة شيء من كتبها، فضلاً عن اطلاع بعض مسائلها. وإلى الله المشتكى من زمان صار الكلام فيه كلاماً بلا أثر، والخلاف خلافاً بلا ثمر، والأصول فضولاً، والمعقول معقولاً.

(١) سورة النحل آية ١٢٥

واعلم: أن أول من أخرج علم الخلاف في الدنيا أبو زيد الدبوسي، بتخفيف الباء الموحدة، الحنفي، وهو عبيدالله بن عمر بن عيسى.

له:

١ ــ كتاب الأسرار.

٢ ــ وكتاب تقويم الأدلة.

كلاهما من أصول الفقه. قال الذهبي: كان ممن يضرب به المثل في النظر واستخراج الحجج.

٣ ــ وله كتاب الأمد الأقصى أيضاً.

ودبوسة قرية بين بخارى وسمرقند.

(توفي) ببخارى سنة ثلاثين وأربعمائة، وقيل: يوم الخميس منتصف جمادي الآخرة، سنة اثنتين وثلاثين، وهو ابن ثلاث وستين.

ناظر مرة رجلاً، فجعل الرجل يتبسم ويضحك، فأنشد أبو زيد لنفسه:

مالي إذا ألزمته حجة   قابلني بالضحك والقهقهة
إن كان ضحك المرء من فقهه   فالضب في الصحراء ما أفقهه

قلت:

ويروي بالضحك والتبسمة   فالضب في الصحراء ما أفهمه

واعلم: أنه يمكن جعل علم الجدل والخلاف من فروع علم أصول الفقه، وستعرفه إن شاء الله تعالى الكريم، وهو حسبي ونعم الوكيل، والهادي إلى سواء السبيل.

الدوحة الرابعة

في العلم المتعلق بالأعيان

وهذا قسمان:

مايبحث فيه بمجرد الرأي ومقتضى العقل فقط: وهو العلوم الحكمية الباحثة عن أحوال الموجودات الخارجية، بحسب الطاقة البشرية.

وما يبحث فيه على قواعد الشرع، وعلى تسليم المدعي وأخذه من الشرع:

وهو علم أصول الدين. وعلى هذا التقسيم حال الحكمة العملية. ولما تقدم علم الحكمة على علم الكلام بحسب التدوين، وكان علم الكلام مناسباً للطرف الثاني من الرسالة، قدمنا العلوم الحكمية على ذلك.

ففيها: مقدمة، وعدة شعب.

المقدمة

اعلم: أن العلوم الحكمية النظرية، أما أن يبحث فيه عن موجود منزه عن المادة، في الخارج وعند البحث؛ أو يبحث عن موجود مقارن للمادة، خارجاً دون البحث؛ أو يبحث عن موجود مقارن لها، خارجاً وبحثاً أيضاً.

و **(القسم الأول)** يسمى «بالعلم الالهي» لبحثه عن الالهيات، و «بالعلم الأعلى» لعلو موضوعه بسبب تجرده عن المادة؛ و يسمى «بعلم ما بعد الطبيعة» أيضاً لقراءتهم اياها بعدِ العلم الطبيعي.

و **(القسم الثاني)** يسمى «بالرياضي» لرياضة النفوس بها أولاً، إذ الأوائل كانوا يبتدئون في التعليم بها لكون دلائلها يقينية، ولتعتاد النفوس باليقينيات بادىء بدء، حتى كانوا يقدمونها على المنطق أيضاً؛ و يسمى «بالعلم الوسط» أيضاً لعدم تجرده عن المادة بالكلية، ولعدم مقارنته إياها بالكلية.

و **(القسم الثالث)** يسمى «بالعمم الطبيعي» لبحثه عن طبائع الأجسام، و «بالعلم الأدنى» لمقارنته بالمادة بالكلية.

فهذه هي الأصول الثلاثة للعلوم الحكمية. ولنذكر كلا منها في شعبة ولكلٍ منها فروعاً لا تحصى. ولنذكر فروع كل منها عقيبة في شعبة أخرى، فتصير الشعب ستاً، ولنقدم العلم الالهي على الباقين لشرفه. ثم لنذكر الأوسط ثم الأدنى.

الشعبة الأولى

في العلم الإلهي

العلم الالهي

وهو علم يبحث فيه عن الموجودات من حيث هي موجودات.

وموضوعه: الموجود من حيث هو؛

وغايته: تحصيل الاعتقادات الحقة، والتصورات المطابقة لتحصيل السعادة الأ بدية، والسيادة السرمدية. وهذا العلم هو المقصد الأقصى، والمطلب الأعلى، لكن لمن وقف على حقائقه، واستقام في الاطلاع على دقائقه، لأن من حظي بها فقد فاز فوزاً عظيماً، ونال ملكاً كريماً، ومن زلّت فيه قدمه أو طغى به قلمه، فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً، إذ الباطل يشاكل الحق في مأخذه، والوهم يعارض العقل في دلائله، جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، و يطلع على سرائر قدسه إلا واحد بعد واحد. وقلما يوجد انسان يصفو عقله من كدر الأوهام، ويخلص فهمه عن مهاوي الايهام. وقد سلف في مقدمة الكتاب ما يتعلق بهذا الباب.

وقد عرفت فيما سبق من المقدمات أن طريق الكسب: أما طريق النظر، أو طريق التصفية، وقد نبهناك على أنا نذكر طريق التصفية في الطرف الثاني من الرسالة. ولنذكر هاهنا طريق النظر فقط، إلا أن من النظر رتبة تتاخم طريق التصفية، و يقرب حدها من حدها، وهو «طريق الذوق» و يسمونه «بالحكمة الذوقية».

وممن وصل الى هذه الرتبة في السلف: السهروردي، وكتاب (حكمة الاشراق) له، صادر عن هذا المقام، برمز أخفى من سر صدر كاتم.

وفي المتأخرين: العالم العامل، والفاضل الكامل، مولانا شمس الدين الفناري، في بلاد الروم؛ ومولانا جلال الدين الدواني، في بلاد العجم. وهما فائزان لكلتا الرياستين، وحائزان لتينك الدولتين. ورئيس هؤلاء الشيخ صدر الدين القونوي، قدس الله سره العزيز. والعلامة قطب الدين الشيرازي، رحمه الله.

واعلم: أن منبع العلوم الحكمية والنظرية، وأستاذ الكل فيها: ادريس النبي، عليه السلام، آتاه الله النبوة والحكمة، وعلم النجوم. وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأفهمه عدد السنين والحساب، وعلمه الله تعالى الألسنة، حتى تكلم الناس في زمنه اثنين وسبعين لساناً. (ولد) بمصر وسموه «بهرمس الهرامسة» وباليونانية «أرميس»: يعني عطارد، وعرب «بهرمس»؛ واسمه الأصل: هنوخ، وعرب أخنوخ. وسماه الله تعالى في كتابه العربي المبين «ادريس» لكثرة دراسته كتاب الله تعالى، وقيل: ان معلمه غوثاذيمون أو اغثاذيمون المصري، وتفسيره: السعيد الجد، قيل: وهو شيت عليه السلام. ثم ان ادريس عليه السلام عرف الناس صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بأنه يكون بريئاً من المذمات والآفات كلها، كاملاً في الفضائل الممدوحات، لا يقصر عما يسأل عنه، مما في الأرض والسماء، ومما فيه داوء وشفاء، وأنه يكون مستجاب الدعوة في كل ما يطلبه، ويكون مذهبه ودينه ما يصلح به العالم. وكانت قبلة ادريس عليه السلام جهة الجنوب على خط نصف النهار.

وكان رجلاً تام الخلقة، حسن الوجه، أجلح، كث اللحية، مليح الشمائل والتخاطيط، تام الباع عريض المنكبين، ضخم العظام، قليل اللحم براق العين أكحلها، متأنياً في كلامه، كثير الصمت، ساكن الأعضاء، كثير الفكر، به عبسة، أكثر نظره الى الأرض، واذا اغتاظ احتد، يحرك سبابته إذا تكلم. وكانت مدة مقامه في الأرض اثنتين وثمانين سنة، ثم رفعه الله مكاناً علياً. وهو أول من خاط الثياب وحكم بالنجوم، وأنذر بالطوفان، وأول من بنى

الهياكل ومجد الله فيها، وأول من نظر في الطب، وأول من ألف القصائد والأشعار، وهو باني أهرام مصر، وصور فيها جميع العلوم والصناعات وآلاتها، خشية أن يذهب رسمها بالطوفان.

واعلم أيضاً: أن من أساتذة الحكمة أفلاطون، أحد الأساطين الخمسة للحكمة من يونان، كبير القدر، مقبول القول، بليغ في مقاصده.

أخذ عن فيثاغورس، وشارك مع سقراط في الأخذ عنه. وكان أفلاطون شريف النسب بينهم، كان من بيت علم. وصنف في الحكمة كتباً كثيرة، لكن اختار فيها الرمز والاغلاق. وكان يعلم تلاميذه وهو ماش، ولهذا سموا المشائين. وفوض الدرس في آخر عمره الى أرشد أصحابه، وانقطع هو الى العبادة. وعاش ثمانين سنة. و (ولد) في مدينة اثينس، ولازم سقراط خمس سنين، وكان عمره اذ ذاك عشرين سنة. ثم عاد الى بلده أثينس، ولازم مدرسته، وارتزق من بقل البساتين، وتزوج امرأتين. وكانت نفسه في التعليم مباركة تخرج بها علماء اشتهروا بعده. وله تصانيف كثيرة في أقسام الحكمة.

ومن جملة اساتذة الحكمة: أرسطوطاليس، تلميذ أفلاطون، ولازم خدمته مدة عشرين سنة. وكان أفلاطون يؤثره على غيره و يسميه «العقل». وهو خاتمة حكمائهم وسيد علمائهم، وأول من استخرج المنطق. وله كتب شريفة في الفلسفة. وكان معلم الاسكندر بن فيلقس، و بآدابه وسياسته عمل هو، فظهر الخير وفاض العدل، و به انقمع الشرك في بلاد اليونانيين. وأرسطوطاليس معناه: محب الحكمة أو الفاضل الكامل. عاش سبعاً وستين سنة. ومصنفاته تنيف على ثمانين.

وكان أبيض، أجلح، حسن القامة، عظيم العظام، صغير العينين والفم، عريض الصدر، كث اللحية، أشهل العينين، أقنى الأنف، يسرع في مشيه إذا خلا، و يبطيء إذا كان مع أصحابه، ناظراً في الكتب دائماً، و يقف عند كل كلمة، و يطيل الاطراق عند السؤال، قليل الجواب، ينتقل في أوقات النهار،

في الفيافي ونحو الأنهار، محباً لاستماع الألحان، والاجتماع بأهل الرياضات وأصحاب الجدل، منصفاً من نفسه إذا خصم، و يعترف بموضع الاصابة والخطأ، معتدلاً في الملابس والمآكل والمشارب والمناكح، بيده آلة النجوم والساعات. و (مات) وله ثمان وستون سنة.

ثم أنه تخلى عن خدمة الملوك و بنى موضع التعليم، وأقبل على العناية بمصالح الناس، ورفد الفضلاء، وتزو يج الأ يامى، وارشاد الملتمسين للعلم والأذب. وكان جليل القدر في الناس. وكانت له من الملوك كرامات عظيمة ومنزلة رفيعة. وكان كثير التلاميذ من الملوك وأبنائهم وغيرهم. وكان أهل مدينة أسطا إذا أشكل عليهم أمر يجتمعون الى قبره حتى يفتح لهم، و يزعمون أن قبره يصحح فكرهم و يزكي عقولهم. واستيفاء أخباره لا يمكن إلا في مجلد.

ومن جملة أساتذة الحكمة: الفارابي:

وهو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي التركي الحكيم المشهور، صاحب التصانيف في المنطق والحكمة وغيرها من العلوم. وهو أكبر فلاسفة الإسلاميين، لم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه. وتخرج ابن سينا بكتبه، و بعلومه انتفع في تصانيفه. وكان رجلاً تركياً، تنقلت به الأسفار الى أن وصل بغداد. وهو يعرف كثيراً من اللغات غير العربي، ثم تعلمه وأتقنه. ثم اشتغل بالحكمة، فقرأ على أبي بشر متى بن يونس الحكيم، من (شرح كتاب أرسطو في المنطق) سبعين سفراً. وكان هو شيخاً كبيراً له صيت عظيم يجتمعون في حلقته كل يوم المئون من المنطقيين. ثم أخذ طرفاً من المنطق من أبي حنا بن خيلان الحكيم النصراني بمدينة حران ثم قفل الى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة وتمهر في كتب أرسطو جميعها. يقال: وجد كتاب (النفس) لأرسطو، وعليه مكتوب بخط الفارابي: إنى قرأت هذا الكتاب مائتي مرة. و يقال: قرأ (السماع الطبيعي) لأرسطو أربعين مرة، ومع ذلك يقول: إني محتاج الى معاودته. وكان يقول: لو أدركت أرسطو لكنت أكبر تلامذته. ثم سافر الى دمشق، ثم الى مصر، ثم عاد الى دمشق، فأحسن اليه سلطانها سيف الدولة بن حمدان، وأجرى

عليه كل يوم أربعة دراهم. وكان أكثر تصانيفه في الرقاع، ولم يصنف في الكراريس إلا قليلاً، فلذلك كانت أكثر تصانيفه فصولاً وتعليقات وبعضها مبتوراً ناقصاً.

ويحكى: أنه دخل على مجلس سيف الدولة وهو بزي الأتراك، وكان ذلك زيه دائماً، فتخطى رقاب الناس، وكان المجلس مجتمع الفضلاء، حتى انتهى الى مسند سيف الدولة وزاحمه، حتى أخرجه عنه، فقال سيف الدولة لمماليكه بلسان خاص يسارهم: هذا الشيخ قد أساء الأدب، وأني مسائله عن أشياء، إن لم يوف بها فاخرجوا به، فقال أبو نصر بذلك اللسان: أيها الأمير، اصبر فان الأمور بعواقبها، فقال سيف الدولة: أتحسن بهذا اللسان، قال: نعم: بل أكثر من سبعين لساناً. فعظم عنده، ثم أخذ يتكلم في كل فن حتى بذ جميع الحاضرين، فخلا به سيف الدولة، فقال له: هل تشرب؟ فقال: لا، فقال: تسمع؟، قال: نعم؛ فأحضر الآلات فما حرك أحد منها شيئاً إلا وعابه أبو نصر، ثم أخرج من وسطه خريطة، وأخرج منها عيداناً، فركبها، فلعب بها، فضحك كل من حضر؛ ثم فكها وركبها تركيباً آخر، وضرب بها، فبكى كلهم، ثم فكها وغير تركيبها، وحركها، فنام كلهم حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج.

ويحكى: أن الآلة المسماة بالقانون من تركيبه. (توفي) سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة بدمشق، وقد ناهز ثمانين سنة.

وعدد مصنفاته من الكتب والرسائل سبعون، كلها نافعة، سيما كتابان في العلم الالهي والمدني لا نظير لهما:

أحدهما المعروف (بالسياسة المدنية) والآخر (بالسيرة الفاضلة).

وصنف كتاباً شريفاً في (احصاء العلوم) والتعريف بأغراضها، لم يسبق اليه أحد، ولا ذهب أحد مذهبه، ولا يستغني عنه أحد من طلاب العلم. وكذا كتابه في (أغراض أفلاطون وأرسطو) اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً علماً، وبيّن كيف التدرج من بعضها الى بعض شيئاً فشيئاً، ثم بدأ بفلسفة

أفلاطون يعرف بغرضه منها، ثم اتبع ذلك بفلسفة أرسطو، ووصف أغراضه في تواليفه المنطقية والطبيعية، فلا أعلم كتاباً أجدى على طلب الفلسفة منه. وفاراب احدى مدن الترك فيما وراء النهر.

ومن جملة أساطين الحكمة:

أبو علي بن سينا، وقد عرفته.

والامام فخر الدين الرازي، وستعرفه.

وممن نحا نحوهما:

نصير الدين الطوسي. وهو محمد بن محمد، سلطان الحكماء المدققين وقدوتهم في زمانه، جامع علوم المتقدمين والمتأخرين. (ولد) يوم السبت حادي عشر جمادى الأولى، سنة سبع وتسعين وخمسمائة. و (توفي) آخر نهار الاثنين ثامن عشر ذي الحجة، وقت مغيب الشمس، سنة اثنتي وسبعين وست مائة. ودفن بالمشهد الكاظمي، على ساكنه أفضل السلام.

وكان آية في التدقيق والتحقيق، وحل المواضع المشكلة، سيما لطف التحرير الذي لم يلتفت اليه المتقدمون، بل التفتوا جانب المعنى فقط. وهو اخترع في التحرير أسلوباً يسهل أخذ المعنى منه، مع التحرز عن ألفاظ زائدة وكلمات مغلقة، وان لم تصدقني في ذلك، فعليك بتتبع تصانيف القدماء الى زمانه، بحيث تجد بينها فرقاً أي فرق. ثم أن الفاضل الشريف قلده في أمر التحرير والتقرير، كما يظهر لك بالنظر في تصانيفهما، إلا أنه ــ تجاوز الله عنه ــ كان غالياً في التشيع، كما يفصح عنه المقصد السادس في التجريد، وكان يحكى عنه مع ذلك أمور لا تناسب رتبته في العلم، حيث كان في معنى الوزير للكافر المسمى «بهلاكو» ملك الترك الطغاة. وهو الذي أغار على بلاد المسلمين وخربها وانقطعت بسببه سلسلة الخلافة العباسية في بغداد، وجرى ما جرى مما اشتهر أمره و يطول شرحه.

وكان ما كان مما لست أذكره   فظن شراً ولا تسأل عن الخبر

إلا أن الشيخ أكمل الدين قال في آخر (شرحه للتجريد): سمعت شيخي العلامة وهو مولانا قطب الدين الشيرازي، رحمه الله، أنه قال: كان الناس مختلفين في أن هذا الكتاب، يعني (التجريد)، لخواجه نصير الدين أولا، فسألت عن ذلك ابنه خواجه أصيل الدين، فقال: كان والدي وضعه الى باب الإمامة، وتوفي، فكمله ابن المطهر الحلي، وكان من الشيعة، وهو زائغ زيغاً عظيماً، فعلى هذه الرواية يكون هو بريئاً عن نقيصة التشيع. إلا أن المشهور عند الجمهور خلافه. والله حسيبه وهو أعلم بحقيقة الحال وكيفية المآل.

ومن يلي هؤلاء في معرفة الحكمة:

الشيخ شهاب الدين السهروردي، بل فاق كثيراً منهم في الحكمة الذوقية، وقد عرفته.

وممن انخرط في سلكهم:

العلامة مولانا قطب الدين الشيرازي؛

والعلامة مولانا قطب الدين الرازي؛ وقد عرفتهما؛

ومولانا سعد الدين التفتازاني؛

والسيد الشريف الجرجاني؛

ثم مولانا جلال الدين الدواني؛

ومن فضلاء بلادنا:

مولانا مصلح الدين مصطفى الشهير «بخواجه زاده»؛

ومصلح الدين مصطفى الشهير «بالقسطلاني»؛

لكن هؤلاء السبعة قد فاقوا على أكثر المتقدمين في الحديث والتفسير والأصولين والفروع. إلا أن الإمام فخر الدين الرازي، فانه تمهر فيها، مع مشاركته لهؤلاء في العلوم الحكمية بأقسامها، إلا أن اتقانهم أقوى من اتقانه.

واعلم: أن الكتب المصنفة في العلم الالهي، لما لم تخل عن الرياضي والطبيعي أيضاً، أحببنا أن نذكرها بعد الفراغ عن الكل، اللهم إلا نادراً

(كالمباحث المشرقية) للإمام فخر الدين الرازي وأمثاله. ولا تظنن أن العلوم الحكمية مخالفة للعلوم الشرعية البتة، وليس كذلك، بل الخلاف في مسائل يسيرة، وبعضها مخالف ظاهراً، لكن ان حقق، يصافح أحدهما الآخر ويعانقه.

الشعبة الثانية

في فروع العلم الإلهي

علم معرفة النفوس الانسانية

بدءاً وعوداً، وأنها قديمة أو حادثة أو محشورة أو غير محشورة. وموضوعه وغرضه لا يخفى على الفطن.

علم معرفة الملائكة

هو العلم الباحث عن المجردات التي لا تتصرف في البدن، وأحوالها وكيفية صدورها عن مبدئها. وموضوعه، وغايته وغرضه ظاهر لمن تمهر في العلم الإلهي.

علم معرفة المعاد

وهو علم باحث عن أحوال النفس بعد المفارقة عن البدن، حيث تتعلق بالبدن أخرى، أم لا، هل يمكن لها السعادة أو الشقاوة؟ وهل تتبدل احداهما بالأخرى وما سبب كل منهما؟ وموضوعه، وغرضه، ونفعه لا يحتاج الى البيان.

علم امارات النبوة

من الارهاصات والمعجزات القولية والفعلية، وأمثال ذلك، وكيفية دلالة هذه على النبوة، والفرق بينها وبين السحر وتمييز الصادق من الكاذب.

وموضوعه، وغايته، وغرضه ظاهرة جداً، ومنفعته أعظم المنافع.

وفي هذا العلم مصنفات كثيرة، لكنه لا أنفع ولا أحسن من كتاب (أعلام النبوة) للشيخ الامام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي. وهو كان من كبار الفقهاء الشافعية. أخذ الفقه عن أبي حامد الاسفرايني ببغداد، وأبي القاسم الصيمري. وكان حافظاً للمذهب. وله فيه:

١ ــ كتاب الحاوي؛
٢ ــ وله تفسير القرآن الكريم؛
٣ ــ والنكت؛
٤ ــ والعيون؛
٥ ــ وأدب الدين والدنيا؛
٦ ــ والأحكام السلطانية؛
٧ ــ وقانون الوزارة؛
٨ ــ وسياسة الملك؛
٩ ــ والاقناع في المذهب؛

وغير ذلك. وفوض اليه القضاء ببلدان كثيرة. واستوطن بغداد. و (توفي) يوم الثلاثاء، سلخ ربيع الأول، سنة خمسين وأربعمائة، وعمره ست وثمانون سنة.

علم مقالات الفرق

وهو علم باحث عن ضبط المذاهب الباطلة المتعلقة بالاعتقادات الالهية. وهي على ما أخبر به نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، عن هذه الأمة، اثنتان وسبعون فرقة.

وموضوعه، وغايته، وغرضه، ومنفعته ظاهرة جداً. وقد تكفل بتفصيل مجملاتها القاضي مولانا عضد الدين، في آخر كتابه (المواقف) من علم الكلام.

ومن أورد فرق المذاهب في العالم كلها:

محمد الشهرستاني في كتاب (الملل والنحل). وهو أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، المتكلم على مذهب الأشعري. كان إماماً مبرزاً فقيهاً متكلماً. تفقه على أحمد الحوافي المقدم ذكره، وعلى أبي نصر القشيري، وغيرهما. و برع في الفقه، وقرأ الكلام على أبي القاسم الأنصاري، وتفرد فيه.

وصنّف:

١ ــ كتاب نهاية الاقدام في علم الكلام.

٢ ــ وكتاب الملل والنحل.

٣ ــ والمناهج.

٤ ــ والبينات.

٥ ــ وكتاب المضارعة.

٦ ــ وتلخيص الأقسام لمذاهب الآنام.

وكان كثير المحفوظ، حسن المحاورة، يعظ الناس. ودخل بغداد سنة عشر وخمسمائة، وأقام بها ثلاث سنين، وظهر له قبول كثير عند العوام. وسمع الحديث من علي بن أحمد المديني بنيسابور، ومن غيره. وكتب عنه الحافظ أبو سعد عبد الكريم السمعاني. وكانت (ولادته) سنة سبع وستين، أو تسع وسبعين وأربعمائة بشهرستان. و (توفي) بها في أواخر شعبان، سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة.

وشهرستان: مدينة في خراسان. وذكر في أول (نهاية الأقدام) المذكور بيتين، ولم يذكر أن هذين البيتين لمن:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

قلت: وجدت في بعض المجاميع أن البيتين اللذين ذكرهما الشهرستاني في (نهاية الأقدام) لأبي علي بن سينا، والله أعلم. وفقنا الله تعالى للقول الصدق

والمذهب الحق، وألا تزل أقدامنا عن الصراط السوي، والمنهج الواضح القوي، ويسر لنا الاهتداء بدين نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبطريقة من اتبع سنته واختار شريعته، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

علم تقاسيم العلوم

وهو علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات الى أخصها، ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعم. ولما كان أعم العلوم موضوعاً العلم الالهي جعل تقسيم العلوم من فروعه، ويمكن التدرج فيه من الأخص الى الأعم على عكس ما ذكر، لكن الأول أسهل وأيسر. وموضوع هذا العلم، والغاية، والغرض منه ومنفعته كلها لا يخفى على أحد. وصنف ابن سينا في هذا العلم (رسالة لطيفة) وهذه الرسالة التي نحن بصدد تنقيحها وتهذيبها عظيمة النفع في هذا الباب والله أعلم بالصواب.

الشعبة الثالثة

في العلم الطبيعي

وهو علم باحث فيه عن أحوال الأجسام الطبيعية بأنواعها. وموضوعه: الجسم من حيث كونه متغيراً. ومنفعته: معرفة أحوال الأجسام البسيطة: من الأفلاك والعناصر والمركبة؛ كالمواليد الثلاثة، وكائنات الجو، وغير ذلك من الحوادث العجيبة وغرائب المزاجات، من الأحجار والنباتات والحيوانات.

ومن الكتب النافعة فيه:

(كتاب أرسطوطاليس): أورد فيه ثمانية أجزاء هي الأصول، وجردها الشيخ أبو علي بن سينا في مختصر ترجمة بـ(المقتضيات). وسنذكر كتباً تشتمل على: المنطق، والطبيعي، والإلهي.

وللعلم الطبيعي سبعة فروع، وعند البعض عشرة، وهي:

علم الطب.

وعلم البيطرة والبيزرة.

وعلم الفراسة.

وعلم تعبير الرؤيا.

وعلم أحكام النجوم.

وعلم السحر.

وعلم الطلسمات.

وعلم السيمياء.

وعلم الكيمياء.

وعلم الفلاحة.

وذلك لأن نظره أما يتفرع على الجسم البسيط أو المركب أو ما يعمهما. والأجسام البسيطة: أما الفلكية، فأحكام النجوم، وأما العنصرية، فالطلسمات.

والأجسام المركبة: أما ما لا يلزمه مزاج، وهو علم السيمياء؛ أو يلزمه مزاج، فأما بغير ذي نفس فالكيمياء، أو بذى نفس: فأما غير مدركة كالفلاحة، أو مدركة، فأما مع كمال أن يعقل أولا. الثاني البيطرة والبيزرة وما يجري مجراهما. والذي لذى النفس العاقلة هو الانسان، وذلك أما في حفظ صحته واسترجاعها، وهو الطب، أو أحواله الظاهرة، الدالة على الأحوال الباطنة فالفراسة؛ أو أحوال نفسه حال غيبته عن حسه وهو تعبير الرؤيا. والعام للبسيط والمركب السحر. فلنذكر هذه العلوم على هذا النهج في شعبة، ثم لنذكر فروع الفروع في شعبة أخرى.

الشعبة الرابعة

في فروع العلم الطبيعي

علم الطب

وهو علم يبحث فيه عن بدن الانسان، من جهة ما يصح ويمرض، لحفظ الصحة وازالة المرض. قال جالينوس: الطب حفظ الصحة وازالة العلة.

وموضوعه: بدن الانسان من حيث الصحة والمرض.

ومنفعته بينة لا تخفى. وكفى بهذا العلم شرفاً وفخراً، قول الامام الشافعي رضي الله عنه: العلم علمان: علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان.

ويروى عن الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه: العلوم خمسة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والهندسة للبنيان، والنحو للسان، والنجوم للزمان.

واعلم: أن أول من دوّن علم الطب: بقراط الحكيم.

وهو حكيم مشهور، معني ببعض علوم الفلسفة، سيد الطبيعيين في عصره. كان قبل الاسكندر بنحو مائة سنة. وله في الطب تصانيف شريفة. وكان فاضلاً متألهاً، ناسكاً، يعالج المرضى احتساباً، طوافاً في البلاد جوالاً عليها.

وكان في زمن أردشير من ملوك الفرس. وكان يسكن حمص من مدن الشام. وكان يتوجه الى دمشق ويقيم في غياضها، للرياضة والتعلم والتعليم؛

وفي بساتينها موضع يعرف بصفة بقراط. وكان طبيباً فيلسوفاً، فاضلاً كاملاً، معلماً لسائر الأشياء، قوى صناعة القياس والتجربة قوة عجيبة، لا يتهيأ لطاعن أن يتكلم فيها.

ولما خاف أن يغني الطب من العالم، علّم الغرباء الطب، وجعلهم بمنزلة أولاده.

وظهر بقراط سنة ست وتسعين لتاريخ «بخت نصر»، وهي سنة أربع عشرة لملك بهمن. وعاش خمساً وتسعين سنة أو تسعين سنة. وله كتب نافعة مفسرة بالعربية.

ثم ظهر من بعده: جالينوس الحكيم، الفيلسوف اليوناني، من مدينة فرغاموس من أرض اليونانيين. أمام الأطباء في عصره، ورئيس الطبيعيين في وقته. مؤلف الكتب الجليلة في الطب، وغيرها من علم الطبيعة وعلم البرهان، ومؤلفاته تنيف على ستين تأليفاً. وكان بعد المسيح، عليه السلام، بنحو مائتي سنة، وبعد الاسكندر بنحو خمسمائة سنة ونيف. ولا أعلم بعد أرسطوطاليس أعلم بالطبيعي من هذين: بقراط وجالينوس. قيل: هو من بلاد ايشيا شرقي قسطنطينية في دولة بنزه قيصر، وهو السادس من قياصرة رومية. وجاب البلاد، وبرع في الطب والفلسفة والرياضة، وهو ابن سبع عشرة سنة. وأوفى وهو ابن أربع وعشرين سنة، وفاق أهل زمانه وجدد علم بقراط، وفاق في علم التشريح. وكان أبوه أعلم بالمساحة في زمانه وكانت ديانة النصرانية قد ظهرت في زمانه، فقيل له أن رجلاً ببيت المقدس يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، فقصده ليلقى من بقي من أصحابه، ومات في الطريق في مدينة سلطانية، وقبره بها. وعاش ثمانياً وثمانين سنة. وكان يأخذ نفسه في كل يوم بقراءة جزء من الحكمة. ولم يأخذ من الملوك شيئاً، ولا واكلهم ولا داخلهم، ولولا هو ما بقي العلم ولدرس، ودثر من العالم جملة، ولكنه أقام أوده، وشرح غامضه، وبسط مستصعبه. وكان في زمانه فلاسفة مات ذكرهم عند ذكره. وظهر جالينوس بعد ستمائة وخمس وستين سنة من وفاة بقراط، اليه انتهت الرياسة

في عصره، وبينه وبين المسيح عليه السلام سبع وخمسون سنة، المسيح عليه السلام أقدم منه.

واعلم: أن منذ وفاة جالينوس الى هذا التاريخ وهذا ثمان وأربعون وتسعمائة سنة من هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ألف وأربعمائة وست وسبعون تقريباً.

ومن مشاهير العلماء في الطب:

محمد بن زكريا أبو بكر الرازي: طبيب المسلمين من غير مدافع، ومهر في المنطق والهندسة، وغيرها من علوم الفلسفة. وكان يضرب بالعود أولاً، ثم أقبل على تعلم الفلسفة فقال منها كثيراً. وألف كتباً كثيرة، أكثرها في الطب. وتوغل في الالهي، ولم يفهم غرضه الأقصى، فتقلد آراء سخيفة، وانتحل مذاهب ضعيفة، ودبر مارستان الري ومارستان بغداد. ثم عمى في آخر عمره.

و (توفي) قريباً من سنة عشرين وثلاثمائة. قيل له: لو قدحت عينك، قال: لا، قد أبصرت من الدنيا حتى مللت. وأحسن صناعة الكيمياء، وذكر أنها أقرب الى الممكن منها الى الممتنع، وألف فيها اثني عشر كتاباً. وكان كريماً متفضلاً، باراً بالناس، حسن الرأفة بالفقراء. ولم يكن يفارق النسخ؛ أما يسود أو يبيض. وتصانيفه تبلغ مائة وستة عشر من الكتب والرسائل، في الطب والفلسفة كلها نافع في بابه. والله أعلم.

ومن الكتب المختصرة النافعة غاية النفع المباركة للطلاب:

(كتاب الموجز) لابن النفيس. وهو علي بن أبي الحزم علاء الدين بن النفيس، الطبيب المصري، صاحب التصانيف الفائقة في الطب، منها:

١ ــ الموجز.

٢ ــ وشرح كليات القانون.

وغيرهما. وكان فقيهاً على مذهب الشافعي. صنّف:

٣ ــ شرحاً على التنبيه.

وصنَّف في الطب غير ما ذكرناه كتاباً سماه:

٤ ــ الشامل.

قيل: لو تم لكان ثلاثمائة مجلدة، تم منه ثمانون مجلدة.

وكان فيما يذكر يملي تصانيفه من ذهنه. وصنَّف في أصول الفقه، والمنطق.

وبالجملة: كان مشاركاً في فنون. وأما الطب، فلم يكن على وجه الأرض مثله في زمانه. قيل: ولا جاء بعد ابن سينا مثله. قالوا: وكان في العلاج أعظم من ابن سينا. وكان شيخه في الطب مهذب الدين الدخوار. (توفي) في حادي عشر من ذي القعدة، سنة سبع وثمانين وستمائة، عن نحو ثمانين سنة. وخلف أموالاً جزيلة، ووقف كتبه وأملاكه على المارستان المنصوري.

ومن الكتب النافعة غاية النفع:

(كتاب القانون) لابن سينا. وقد عرفته.

وعلى القانون (شرح) لابن نفيس المذكور، وللعلامة الشيرازي. وقد ذكرتهما.

وأما شروح الموجز فكثيرة منها:

(شرح جمال الدين الاقسرائي).

و (شرح السديدي).

و (النفيسي).

ومن الكتب المبسوطة:

(المختار) لابن هبل.

و (المائة) للمسيحي.

و (كامل الصناعة) للملكي.

و (التذكرة السويدية).

و (الشفا) لحاجي باشا.

وغير ذلك.

علم البيطرة

وهذا علم يبحث عن أحوال الحيوان المخصوص، وهو الخيل، من جهة ما يصح ويمرض، أو يحفظ صحته و يزال مرضه. وهذا في الخيل بمنزلة الطب في الانسان.

وموضوعه، وغايته، وغرضه ظاهرة للمتبصر.

وأما منفعته: فمن أعظم المنافع جداً، لأنه عمود الاسلام، و به يقوى أحد مباني الاسلام، أعني الجهاد في سبيل الله، بل الحج أيضاً. وأيضاً قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قدر على ثمن دابة فليشترها فانها يأتيه رزقها وتعينه على رزقه». وقال صلى الله عليه وسلم: «عليكم باناث الخيول فان ظهورها حرز و بطونها كنز» الى غير ذلك من أوصاف الخيل.

وأيضاً: الخيل ما زال ممدوحاً بكل الألسنة في كل زمان و (كتاب حنين ابن اسحاق) كاف في هذا الباب.

علم البيزرة

وهو علم يبحث فيه عن أحوال الجوارح، من حيث حفظ صحته، وازالة مرضه، ومعرفة علاماته الدالة على قوته في الصيد وضعفه فيه. وموضوعه، وغايته، وغرضه، ومنفعته ظاهرة لا تخفى على أحد. وكتاب (القانون الواضح) كاف في هذا العلم.

علم النبات

وهو علم يبحث فيه عن خواص نوع النبات وعجائبها وأشكالها ومنافعها ومضارها.

وموضوعه: نوع النبات. وفائدته ومنفعته: التداوي بها. ولابن البيطار فيه (تصنيف فائق). ولا أجمع ولا أنفع من كتاب (ما لا يسع الطبيب جهله). و يوجد نبذ من خواصها في ضمن الكتب الطبية.

علم الحيوان

وهو علم باحث عن خواص أنواع الحيوانات وعجائبها ومنافعها ومضارها. وموضوعه: جنس الحيوان البري والبحري والماشي والزاحف والطائر وغير ذلك. والغرض منه: التداوي والانتفاع بالحيوانات، والاحتماء عن مضارها، والوقوف على عجائب أحوالها وغرائب أفعالها؛ مثلا في غرب الأندلس حيوان، إذا أكل الانسان أعلاه، أعطى بالخاصية علم النجوم، وإذا أكل وسطه أعطى علم النبات، وإذا أكل عجزه ــ وهو ما يلي ذنبه ــ أعطى علم المياه المغيبة في الأرض، فيعرف إذا أتى أرضاً لا ماء فيها، على كم ذراع يكون الماء فيها. وقد صنف فيه كمال الدين الدميري تصنيفاً حسناً (مطولا) و(مختصرا). وقد عرفته. ورأيت مختصراً مسمى (بخواص الحيوان) وهو كاف في هذا الباب، إلا أني لم أعرف مصنفه.

علم الفلاحة

علم يتعرف منه كيفية تدبير النبات من أول نشوه الى منتهى كماله، باصلاح الأرض؛ أما بالماء، أو بما يخلخلها ويحميها من المعفنات: كالسماد ونحوه، أو يحميها في أوقات البرد مع مراعاة الأهوية، فيختلف باختلاف الأماكن، ولذلك تختلف قوانين الفلاحة باختلاف الأقاليم. ومنفعته: زكاة الحبوب والثمار ونحوهما. وهو ضروري للانسان في معاشه. ولذلك اشتق اسمه من الفلاح وهو البقاء.

ومن لطائفه ايجاد بعض نتائجه في غير أوانه، واستخراج بعض مبادئه من غير أصله، وتركيب الأشجار بعضها ببعض الى غير ذلك.

ذكر أبو بكر بن وحشية في كتابه المسمى (بالفلاحة عن النبط): أن من دار حول شجرة الخطمى، وتطلع بالنظر الى وردها وأدام ذلك فانها تحدث فرحاً في النفس، وتزيل عنه الهم والحزن.

علم المعادن

وهي سبعمائة معدن. وهو علم يتعرف منه أحوال الفلزات: من طبائعها، وألوانها وكيفية تولدها في المعادن، وكيفية استخراجها واستخلاصها عن الأجزاء الأرضية، وتفاوت طبائعها وأوزانها. وغايته، ومنفعته لا تخفى على أحد حتى العوام. والتصانيف فيه كثيرة. ولا أنفع ولا أجمع من (تأليف الطوسي).

علم الجواهر

وهو علم باحث عن كيفية الجواهر المعدنية البرية: كالالماس واللعل والياقوت والفيروزج؛ والبحرية: كالدر والمرجان، وغير ذلك، ومعرفة جيدها من رديها بعلامات تختص بكل نوع منها، ومعرفة خواص كل منها. وغايته، وغرضه لا يخفى على انسان. والتصانيف فيها كثيرة شهيرة.

علم الكون والفساد

وهو علم باحث عن كيفية الأمطار والثلوج والرعد والبرق وأمثالها، ووجودها في بعض البلاد دون بعض، وفي بعض الأزمان دون آخر، وسبب نفع بعضها وضرر الآخر، الى غير ذلك من الأحوال.

علم قوس قزح

وهو علم باحث عن كيفية حدوثه، وسبب حدوثه، وسبب استدارته، واختلاف ألوانه، وحصوله عقيب الأمطار وطرفي النهار، وحصوله في النهار كثيراً، وفي ضوء القمر في الليل أحيانا، وأحكام حدوثه في عالم الكون والفساد، الى غير ذلك من الأحوال.

علم الفراسة

وهو علم يتعرف فيه أخلاق الانسان من أحواله الظاهرة من الألوان والأشكال والأعضاء.

وبالجملة: الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن. وموضوعه، وغايته، ومنفعته ظاهران.

ومن الكتب المؤلفة فيه:

(كتاب الامام الرازي) في هذا العلم خلاصة (كتاب أرسطوطاليس) مع زيادات مهمة. ولاقليمون (كتاب في الفراسة) يختص بالنسوان. و (كتاب السياسة) لمحمد الصوفي. مختصر ومفيد في هذا العلم.

وكفى بهذا العلم شرفاً قوله تعالى: ﴿ ان في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾[٢]. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله» وقوله صلى الله عليه وسلم: «كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون وأنه لو كان في أمتي لكان عمر».

قلت: المحدث: المصيب في ظنه وفراسته كأنه حديث الأمر.

واعلم: أن علم الفراسة قسمان:

(أحدهما) ما يحصل بالتجربة، إذ التجربة دلت على أن بعضاً من الأمور الظاهرة، يدل على الأخلاق الباطنة. وهذا الذي وجده الحكماء وما يكون من فروع الحكمة الطبيعية.

و (ثانيهما) الفراسة الشرعية، الحاصلة بنور اليقين، بواسطة تزكية النفس عن الأخلاق الردية، وتصفية القلب عن الصفات الذميمة، حتى ينظر بنور الله، حتى يكون الله سبحانه وتعالى بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به. «ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه: «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله». وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون»

---

(١) سورة الحجر، آية: ٧٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

اشارة الى الفراسة الطبيعية، وهي التي خلق الله سبحانه وتعالى النفوس مفطورة عليها.

وبالجملة: الفراسة الشرعية معاينة المغيبات بالأنوار الربانية، وذلك نور قلب المؤمن الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم في حقه: «المؤمن ينظر بنور الله».

وعن ثوبان، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «احذروا دعوة المسلم وفراسته، فانه ينظر بنور الله وتوفيق الله». وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن، فانه ينظر بنور الله» كما ذكرناه. وقيل في قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾[1] أي ميت الدين فأحياه الله بنور الفراسة.

إذا عرفت هذا، فاعلم: أن من كان مراقباً أحواله وأنفاسه، مجتنباً عن المعاصي صغائرها وكبائرها، متخلقاً بالأخلاق النبوية، متحلياً بالآداب المصطفوية، ولا يرى الخير والشر والنفع والضر إلا من الله تعالى، ولا يلتفت الى مخلوق لعرض حاجته، ولا يعتمد عليه طرفة عين، تكون فراسته كالشمس ساطعة أنوارها، لامعة أضواؤها، ينطق بالصدق ويقول الحق. «وعند جهينة الخبر اليقين». قلت: جهينة اسم رجل وهذا مثل يضرب في صحة الخبر، ومورده مشهور. وهذا العلم نافع للملوك والصعاليك، في اختيار الزوجة والصديق والمماليك، الى غير ذلك. ولا بد للانسان من ذلك العلم لأنه مدني بالطبع محتاج الى معرفة النافع من الضار.

علم تعبير الرؤيا

وهو علم يتعرف منه المناسبة بين التخيلات النفسانية والأمور الغيبية، لينتقل من الأولى الى الثانية، ليستدل بذلك على الأحوال النفسانية في

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٢.

الخارج، أو على الأحوال الجارية في الآفاق. ومنفعته: البشرى أو الانذار بما يرد.

واعلم: أن الرؤيا هي فعل للنفس الناطقة ولو لم تكن لها حقيقة، لم تكن لايجاد هذه القوى في الانسان فائدة. والحكيم تعالى منزه عن الباطل. وهي ضربان:

(ضرب) وهو الأكثر، أضغاث أحلام، وأحاديث النفس من الخواطر الردية، لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج الذي لا يقبل صورة.

و (ضرب) هو الأقل، صحيح. وذلك قسمان: قسم لا يحتاج الى تأويل، وقسم يحتاج اليه. ولهذا يحتاج المعبر الى مهارة الفرق بين الأضغاث والأحلام، وبين غيرها، ليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية، ويفرق بين طبقات الناس، إذ كان فيهم من لا يصح له رؤيا، ومن تصح رؤياه، ثم من صح له ذلك، منهم من يرشح أن تلقى اليه في المنام الأشياء العظيمة الخطر، ومنهم من لا يرشح لذلك. ولهذا قال اليونانيون: يجب للمعبر أن يشتغل بعبارة رؤياه الحكماء والملوك دون الطغام، وذلك لأن رؤياه جزء من النبوة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

ومن الكتب المختصرة فيه:

(فوائد الفرائد) لابن الدقاق.

ومن المبسوطة:

(شرح البدر المنير) للحنبلي.

ومن المبسوطة:

(تأليف أبي سهل) المسيحي.

و (تأليف مولانا محمد بن قطب الدين الازنيقي). وهو من مشاهير بلادنا علماً وفضلاً وزهداً وورعاً وكشفاً. وبالجملة: هو جامع بين رياستي النظر والكشف.

والذي تمهر في علم التعبير من السلف هو محمد بن سيرين. ومن عجائب تعبيراته: أنه رأى رجل أنه يختم على أفواه الرجال والنساء وفروج هؤلاء. فعبرها ابن سيرين: بأنك مؤذن أذنت في رمضان قبل طلوع الفجر. وكان كذلك.

ويحكى: أن رجلاً سأله، أنه رأى أنه يدخل الزيت في الزيتون، فقال ابن سيرين أن صدقت فالتي تحتك أمك، فاضطرب الرجل، وتفحص عنها فكانت أمه، لأنها سبيت بعد أبيه فاشتراها ابنها.

ويحكى: أن أبا حنيفة، رحمه الله تعالى، رأى كأنه ينبش قبر النبي، صلى الله عليه وسلم، ويجمع عظامه الى صدره، فهالته الرؤيا، فقال ابن سيرين: هذه رؤيا أبي حنيفة. فقال: أنا أبو حنيفة، فقال ابن سيرين: اكشف عن ظهرك، فكشف، فرأى خالا بين كتفيه، فقال: أنت الذي قال عليه الصلاة والسلام: «يخرج في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة، بين كتفيه خال، يحيى الله تعالى ديني على يديه». ثم قال ابن سيرين: لا تخف إنه صلى الله عليه وسلم مدينة العلم وأنت تصل اليها. فكان كما قال. وله أمثال هذه حكايات كثيرة مسطورة في كتب السير والتواريخ فارجع اليها.

علم أحكام النجوم

وهو علم يتعرف منه الاستدلال بالتشكلات الفلكية من أوضاعها، وهي أوضاع الأفلاك والكواكب: من المقابلة والمقارنة والتثليث والتسديس والتربيع، على الحوادث الواقعة في عالم الكون والفساد، من أحوال الجو والمعادن والنبات والحيوان.

ومن المختصرات:

(مجمل الأصول) لكوسيار؛

و (الجامع الصغير) لمحيي الدين المغربي.

ومن المتوسطات:
(كتاب البارع)؛
و (المغني).

ومن المبسوطة:
(مجموع ابن شرع)؛
و (الأدوار) لأبي معشر؛
و (الارشاد) لأبي ريحان البيروني؛
و (المواليد) للخصيبي؛
و (التحاويل) للسجزي؛
و (القرانات) للبازيار؛
و (المسائل) للقصراني؛
و (الاختيارات العلائية)؛
و (درج الفلك) لتنكلوشا؛
و (التفهيم) للبيروني.

واعلم: أن كثيراً من العلماء على تحريم النجوم مطلقاً، وبعضهم على تحريم اعتقاد أن الكواكب مؤثرة بالذات. وقد ذكر عن الشافعي، رحمه الله، أنه قال: ان كان المنجم يعتقد أن لا مؤثر الا الله، لكن أجرى الله تعالى عادته بأنه يقع كذا عند كذا، والمؤثر هو الله، فهذا عندي لا بأس به، وحيث جاء بالذم، ينبغي أن يحمل على من يعتقد تأثير النجوم. ذكره ابن السبكي في (طبقاته الكبرى). وفي هذا الباب أطنب صاحب (مفتاح دار السعادة)، إلا أنه أفرط في الطعن.

علم السحر

اعلم: أن السحر ما خفي على أكثر العقول سببه، وصعب استنباطه. وحقيقته: كل ما سحر العقول، وانقادت اليه النفوس، بالتعجب والاستحسان والاصغاء من الأقوال والأفعال.

فهو علم باحث عن معرفة الأحوال الفلكية، وأوضاع الكواكب، وارتباطها مع الأمور الأرضية، من المواليد الثلاثة على الوجه الخاص، ليظهر من هذا الامتزاج أفعال غريبة، وأسرار عجيبة، خفية الأسباب والعلل. ومنفعته: أن يعلم، ليحذر منه، ليعمل به، لأن عمله محرم في الشرع، اللهم لدفع ساحر يدعي النبوة. وأما علمه فأباحه الأكثرون، وجعله بعضهم فرض كفاية، لجواز ظهور ساحر يدعي النبوة و يظهر الخوارق بالسحر، فيفترض وجود من يدفعه في الأمة.

واختلفت الطرق فيه:

فطريق الهند: تصفية النفس، وعليه كتاب (مرآة المعاني في ادراك العالم الانساني).

وطريق النبط: عمل عزائم في أوقات مناسبة. وفيه كتاب (سحر النبط) لابن وحشية.

وطريق اليونان: تسخير روحانية الأفلاك والكواكب، وفيه:
(كتاب الوقوفات للكواكب)؛

وفيه (كتاب طيماوس) لأرسطوطاليس و (رسائله) الى الاسكندر؛ و (غاية الحكيم) للمجريطي.

وطريق العبرانيين والقبط والعرب: ذكر أسماء مجهولة المعاني، كأنها أقسام وعزائم، كأنهم يزعمون أنهم يسخرون بها ملائكة قاهرة الجن. وفيه:

(كتاب الجمهرة) للخوارزمي؛
و (الايضاح) للاندلسي؛
و (كتاب العمى) لخلف بن يوسف الدسماساني؛
و (كتاب البساتين لاستخدام الانس لأرواح الجن والشياطين)؛
و (بغية الناشد)؛
و (مطلب القاصد).

علم الطلسمات

ومعنى الطلسم: عقد لا ينحل. وقيل: هو مقلوب اسمه، أعني: مسلط، لأنه من جواهر القهر والتسلط.

وهو علم باحث عن كيفية تمزيج القوى السماوية الفعالة، بالقوى الأرضية المنفعلة، في أزمنة مناسبة، لما أريد منها من الفعل والتأثير، مع بخورات مناسبة مقوية، جالبة لروحانية ذلك الطلسم، ليحدث عن هذه الأمور أفعال غريبة في عالم الكون والفساد. وعلمه أقرب مأخذاً من علم السحر، لأن مبادئه وأسبابه معلومة، و (كتاب طبقانا نقل ابن وحشية) عن النبط، و (كتاب غاية الحكيم) للمجريطي أودعه قواعد هذا العلم. لكن ضن بالتعليم كل الضن وللسكاكي كتاب جليل القدر. ومنفعة هذا العلم ظاهرة عظيمة الغناء. لكن طرقه شديدة العناء.

علم السيمياء

وقد يطلق على غير الحقيقي من السحر كما هو المشهور. وحاصله أحداث مثالات خيالية في الجو لا وجود لها في الحس. وقد يطلق على إيجاد تلك المثالات بصورها في الحس، ويكون صوراً في جوهر الهواء، ولهذا يسرع زوالها لسرعة تغير جوهر الهواء، وعدم حفظه ما يقبله زماناً طويلاً، لكنه سريع القبول وسريع الزوال لرطوبته. وأما كيفية إحداث هذه الصور وعللها فأمر خفي لا يطلع عليها إلا أهلها. وليس غرضنا ها هنا كشف الالتباس عن أمثال هذه. وإجمال الحال، أن يركب الساحر شيئاً من خواص أو أدهان أو مائعات خاصة أو كلمات خاصة، توجب تخيلات خاصة، وادراك الحواس مأكولاً أو مشروباً أو نحو ذلك، ولا حقيقة له. ومن هذا القبيل ما وقع عن الشيخ شهاب الدين السهروردي كما ذكرناه فيما سبق. ومن جملته ما حكى الأوزاعي، رحمه الله، عن يهودي لحقه في السفر، وأنه أخذ ضفدعاً فسحرها بطريقة علم السيمياء، حتى صارت خنزيراً، فباعه من قوم من النصارى، فلما صاروا الى بيوتهم عاد ضفدعاً، فلحقوا اليهودي وهو مع الأوزاعي، فلما قربوا منه، رأوا رأسه قد

سقط، ففزعوا وولّوا هاربين، وبقي الرأس يقول للأوزاعي: يا أبا عمرو: هل غابوا، الى أن بعدوا عنه فصار الرأس في الجسد. هذا ما حكاه ابن السبكي في رسالته (معيد النعم ومبيد النقم).

ومنفعة هذا العلم، وغرضه ظاهران جداً. ولفظ سيمياء عبراني معرب، أصله سيم يه: ومعناه اسم الله.

وأما (المقالات السبع عشرة) للحلاج، فإنما هي على سبيل الرمز. وللشيخ أبي علي بن سينا أمور غريبة تنقل عنه في هذا العلم. وكذا للشيخ شهاب الدين السهروردي المقتول. وقد ذكرنا نبذاً منها فيما سبق.

علم الكيمياء

وهو علم يراد به سلب الجواهر المعدنية خواصها، وافادتها خواصاً لم تكن لها، ولفظ الكيمياء عبراني معرب، أصله «كيم يه»، ومعنى ذلك: آية من الله. وقد اختلف الناس فيها اختلافاً شديداً، وكثير منهم قائلون بامتناعها، إلا أنهم لم يأتوا في إثبات امتناعها إلا ما يفيد الإستعباد، والأول غير الثاني. وأما القائلون بإمكانها فمنهم الإمام فخر الدين الرازي: استدل على امكانها في كتابيه (المباحث المشرقية) و (الملخص)؛ وحاصل دليله، أن الفلزات كلها مشتركة في النوعية، والأخلاق الظاهرة منها إنما هي أمور عرضية يجوز انتقالها، لأن الإستحالة في الطبيعة غير منكرة.

وممن ادعى امتناعها الشيخ ابن تيمية، والجوهري، وابن الصائغ، إلا أنهما لم يأتيا بشيء يفيد ظن الإمتناع، فضلاً عن اليقين، وكذلك ليعقوب الكندي (رسالة) في امتناعها، فيا ليته لو أتى بشيء يفيد الظن.

واعلم: أن هذا العلم كان معجزة لموسى عليه السلام، علمها لقارون فوقع ما وقع. ثم ظهر في جبابرة قوم هود وتعاطوا ذلك، وبنوا مدينة من ذهب وفضة لم يخلق مثلها في البلاد. وممن اشتهر بالوصول إليها مؤيد الدين الطغرائي.

يقال: إنه وصل إلى الأكسير، وهو الدواء الذي يدبره الحكماء، ويلقونه

على الجسد حال انفعاله بالذوبان، فيحيله كإحالة السم الجسد الوارد عليه، لكن إلى الصلاح دون الفساد. ويعبرون عن مادة هذا الدواء بالحجر المكرم، وربما يقولون: حجر موسى، لأنه الذي علمه موسى عليه السلام لقارون. ويختلف حال هذا الدواء بقدر قوة التدبير وضعفه، حتى أن الطغرائي ألقى المثقال من الأكسير أولاً على ستين ألفاً من معدن آخر فصار ذهباً، ثم أنه ألقى آخر المثقال على ثلاثمائة ألف.

وحكى: أن مريانس الراهب، معلم خالد بن يزيد، ألقى المثقال على ألف ألف ومائتي ألف مثقال؛ وأن مارية القبطية كانت تقول: والله لولا خشية الله، لقلت أن المثقال يملأ ما بين الخافقين.

وكان يقول الطغرائي:

ولولا ولاة الجور أصبحت والحصى يكفي أني شئت در وياقوت

ومن قوله أيضاً:

فذان هما اليدان فاعن بعلمنا تنل بهما ما يصبغ الألف دانقة

أقول: ولقد حق فيه وفي أمثاله قول القائل:

ويا دارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

وقول أبي إسحاق المغربي:

كجوهر الكيمياء ليس يرى من ناله والأنام في طلبه

وقول القائل:

أعيا الفلاسفة الماضين في الحقب أن يصنعوا ذهباً إلا من الذهب
أو يصنعوا فضة بيضاء خالصة إلا من الفضة المعروفة النسب

روى: أن بعض من جرب وتعب. فأقلقه الوجد، وظن أن وجدها لعب، كتب على بعض مصنفات جابر بن حيان، تلميذ جعفر الصادق، رضي الله عنه:

هـذا الـذي بـمقـالـه غـر الأوائـل والأواخـر
مـا أنـت إلا كـاسر كـذب الـذي سماك جـابر

وبعض الناس ينكر وجود جابر هذا، إلا أنه بعيد، لأن له تصانيف كثيرة تدل على وجوده ومهارته في صنعها. قال أبو الفرج الأصبهاني، صاحب (الأغاني)، في ترجمة خالد بن يزيد بن معاوية: وكان من رجالات قريش سخاء وعارضة وفصاحة، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء، فأفنى بذلك عمره، وأسقط نفسه. وحدثني من أثق به ممن كان يطلع على أحوال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، رحمه الله، أنه كان مغرى بالكيمياء، وأنفق فيها مالاً وعمراً. وقيل: ان امام الحرمين رحمه الله، مات وهو يفك وصلاً من أوصالها، فخرج إليه منه لسان نار فقتله. وكان شمس الدين شيخ الربوة، المعروف «بابن أبي طالب»، يقول: زعم بعضهم أن (المقامات) للحريري، وكتاب (كليلة ودمنة) رموز في الكيمياء؛ سمعته يقول ذلك غيرة مرة. وكل ذلك من شغفهم وكلفهم بحبها. نسأل الله العفو والعافية. والعجب من أحوالهم أنهم يطلبون الدنيا بالكيمياء، ولا يزيدهم ذلك إلا فقراً ومتربة.

يحكى: أن واحداً سأل من أحد مشايخ هذه الصنعة أن يعلمه هذه، وخدمه على ذلك سنين كثيرة، فقال: ان من شروط تعليم هذه الصنعة، تعليمها لأفقر من في البلد، فاطلب رجلاً لا يكون أفقر منه في البلد، حتى نعلمه وأنت تبصرها. فطلب مدة رجلاً مثل ما ذكره، فوجد رجلاً يغسل قيصاً له في غاية الرداءة والدرن، وهو يغسله بالرمل ولم يقدر على قطعة صابون، فقال في نفسه: لم أر فقيراً يغسل ثوبه إلا ويجد صابوناً، فأخبر الرجل بأني وجدت رجلاً وصفه كيت وكيت، وحاله كذا وكذا، ولم أر أفقر منه، فقال ذلك الرجل: والله ان الذي وصفته هو شيخنا جابر بن حيان، الذي تعلمت منه الصنعة، وبكى وقال: ان من خاصية هذه الصنعة، أن الواصلين إليها يكونون مفلسين في غاية الافلاس. كما نقل عن الشافعي، رحمه الله: أن من طلب المال بالأكسير فقد أفلس. ولقد صدق فيه إلا أنهم يقولون: ان حب الدنيا يرتفع عن قلب من عرفها، فلا يؤثر التعب في تحصيلها، الراحة في تركها، حتى قالوا: إن

معرفة هذه الصنعة نصف السلوك، لأن نصف السلوك لرفع محبة الدنيا عن القلوب، وذلك يحصل بمعرفتها أي حصول.

إذا عرفت هذا فاعلم: أن أصل هذه الصنعة، أن الفلزات، وهي الجواهر التي لا تحرقها النار بل تذيبها، فإذا فارقتها النار عادت إلى الحالة الأولى، وهي هذه المنطرقات السبع، وهي: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والقصدير والرصاص، والخارصيني، واحدة في ذواتها؛ والإختلاف الذي فيها، ليس في ماهياتها، وإنما هو في أعراضها، وتلك الأعراض أما مفارق سهل الإنتقال، و يشبه أن يكون حال الذهب والفضة، ونسبة أحدهما إلى الآخر منها، وأما لازم عسر الإنتقال، وعلى كل تقدير داخلة تحت الإمكان، إلا أنها من الممكن الذي يعسر وجوده بالفعل وكيف لا يعسر، والصنعة لا تقوم مقام فعل الطبيعة، مع أن في الطبيعة أيضاً شرائط كثيرة بحيث يندر اتفاقها. ولهذا يندر الذهب والفضة في المعادن، فضلاً عن وجودها في الصنعة، وذلك أن الزيبق الذي هو أصل الذهب والفضة، ينبغي أن يكون في المعدن صافياً غاية الصفاء، و يكمل نضجه، ثم يختلط به الكبريت النقي، بأن يكون أجزاؤهما على النسبة الأصلية. و ينبغي أن تكون حرارة المعدن في غاية الإعتدال، لم يعرض لها عارض من البرد واليبس، ولا شيء من الملوحات والمرارات والحموضات، فحينئذ ينعقد من ذلك على طول الزمان ــ بإذن الفاطر الحكيم والقادر العليم ــ الذهب الأبريز. وعلى هذا القياس سائر الجواهر فتبارك الله الفعال لما يريد. فأنظر أنت وتأمل بالإنصاف، أن الإنسان، وإن بلغ في العلم والحكمة غاية لا يمكن للبشر أن يبلغ فوقها، هل يقدر أن يراعي تلك الشرائط، على وفق ما يوجد في المعدن، وهل هذا إلا ضرب في حديد بارد، سيما مراعاة النار على القدر الذي ينبغي له، قريب من درجة الإمتناع. قال بعضهم وعمل الزجاج والفراريج بالديار المصرية، مما يطمع العقول في عمل الذهب.

واعلم: أن المعتنين بشأن هذا الأمر طوائف:

(منهم) من جمع بين الزئبق والكبريت الطاهر، ودبره بالنار أشد من حرارة المعدن، طلباً لقرب المدة، ليحصل في مدة قريبة، ما لا يحصل في المعدن في

العرف من السنين، وهذا هو الطريق الصحيح العسر الشاق الصعب في العمل.

و (منهم) من عرف نسب الفلزات حجماً ووزناً، وألف المعادن على هذا النسق، وهم يسمون الموازيني.

و (منهم) من يطلب النتيجة مع جهله بالقياس، و يقصدون كشف المرام مع تماديهم في الإلتباس، و يستعينون في هذه المطالب، بالتصرف في الفلزات بالحل والعقد والتكليس، وأمثالها من الأمور الصعاب. واستعانوا في ذلك تارة بالنباتات، وأخرى بالحيوانات، كالشعر والبيض والمرار ونحوها. ولم يثبتوا على طريقة واحدة، حيرة منهم في تحقيق الحق وإيضاح الصدق. جعلنا الله وإياكم من الواقفين على اكسير معرفته، والإطلاع على دقائق توحيده، وقطع عناحب الدنيا، والميل إلى حطامها ومزخرفاتها، بحرمة حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن الحكماء، وإن أشاروا إلى كيفية صنعة الأكسير والحجر، لكنهم رمزوها أبعد من الأحاجي والألغاز، لما في صيانة ذلك من المصلحة العامة. ومن قصد الوصول إلى ذلك بكتبهم وتعبيراتهم وإشاراتهم، فقد صار منخرطاً في الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. بل الوقوف على ذلك ــ ان كان ــ فبموهبة عظيمة من الملك المنان، أو بواسطة الكشف أو الإلهام، من الله ذي الجلال والإكرام، أو بأنعام من جناب الواصلين إلى هذا الأمر المكتوم، اشفاقاً وإحساناً، ولا تتمن الوصول إلى ذلك بالجد والإهتمام. إلا أنا نذكر ها هنا بعضاً من كتبه اكمالاً للمرام، لا اطماعاً في الوصول إلى ذلك المنوال، منها:

(كتاب جابر بن حيان).
و (التذكرة) لأبن كمونة.
و (رتبة الحكيم) للحكيم المجريطي.
و (شرح الفصول) لعيون ابن المنذر.

وتصانيف مؤيد الدين الطغرائي كثيرة في هذا العلم ومعتبرة عند أربابها منها:

١ ــ كتاب مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة.

٢ ــ وكتاب جامع الأسرار.

٣ ــ وكتاب تراكيب الأنوار.

٤ ــ ورسالة وسمها: بذات الفوائد.

٥ ــ وكتاب حقائق الإستشهادات، يبين فيه إثبات صناعة الكيمياء، والرد على أبي علي بن سينا في إبطالها بمقدمات من كتاب (الشفا).

والكتب والرسائل في هذا الباب كثيرة، لكن لا خير في الإستقصاء فيها، وإنما التعرض بهذا القدر أن لا يخلو كتابنا عنها بالمرة. نسأل الله تعالى خيرَيْ الدنيا والآخرة.

الشعبة الخامسة

في فروع العلم الطبيعي

وفيها عدة عناقيد:

العنقود الأول منها

في فروع علم الطب

علم التشريح

وهو علم باحث عن كيفية أجزاء البدن وتركيبها: من العروق والأعصاب والغضاريف والعظام واللحم، وغير ذلك من أحوال كل عضو منه. وموضوعه: أعضاء بدن الإنسان. والغرض، والفائدة، والمنفعة ظاهرة.

وكتب التشريح أكثر من أن تحصى، ولا أنفع من تصنيف ابن سينا، والإمام الرازي، ورسالة لأبن همام مختصر نافع في الباب. والله أعلم بالصواب.

علم الكحالة

وهو علم باحث عن كيفية حفظ صحة العين وإزالة أمراضها. وموضوعه: عين الإنسان. والغرض والنفع فيه لا يخفى. و (كتاب التذكرة) للمحلى أنفع كتب هذا الفن ونافع في الغاية.

علم الأطعمة والمزورات

وهو علم باحث عن كيفية تركيب الأطعمة اللذيذة والنافعة بحسب الأمزجة المخالفة، وموضوعه، وغرضه، وفائدته لا تخفى على المتأمل. ورأيت فيه تصنيفاً حسناً لا يحضرني أسمه الآن.

علم الصيدلة

وهو علم باحث عن التمييز بين النباتات المشتبهة في الشكل، ومعرفة منابتها: بأنها صينية أو هندية أو رومية، ومعرفة زمانها: بأنها صيفية أو خريفية، ومعرفة جيدها من رديها، ومعرفة خواصها، إلى غير ذلك. وغرضه وفائدته ظاهر لمن تأمل.

والفرق بين الصيدلة وعلم النبات أن:

(الأول) باحث عن تميز أحوالها أصالة.

و (الثاني) باحث عن خواصها أصالة.

والأول بالعمل أشبه، والثاني بالعلم أشبه، وكل منهما مشترك في الآخر.

علم طبخ الأشربة والمعاجين

وهو علم يتعرف منه كيفية تركيب المركبات الدوائية وزناً ووقتاً، ومعرفة ما يسحق منه وما يذاب، وما يقدم منه في المزج وما يؤخر، وكيفية ضبطه في الظروف، ومعرفة مقدار نفعه وبطلان فائدته، إلى غير ذلك من الأحوال التي يعرفها من يزاولها.

علم قلع الآثار من الثياب

وتعريفه ظاهر من اسمه، لكنه علم شريف يقدر به الإنسان على إزالة الأدهان والصموغ والألوان، التي يعسر إزالتها عن الثياب، بأدنى شيء وأدنى حيلة، ويقدر على إزالة الأدهان عن أوراق الكتب، بل يقدر على إزالة الخط

عن الأوراق من غير كشط، ولا بقاء أثر فيها. وهذا من أعظم الحيل، ولا بد من كتمانها، إذ يؤول إلى إبطال الصكوك والسجلات وأمثالها.

فائدة:

دبغ التوت الشامي يزول بورقها، وكذا دبغ التوت الحلو يزول بورق التوت الحلو، ودبغ العنب الأبيض يزول بالعنب الأسود وبالعكس. والآثار المجهولة في الثياب، تزول بالنقع في خرء الحمام طول الليل، ثم تغسل بكرة بالصابون فإنها تنقلع.

علم تركيب أنواع المداد

من السواد والحمرة والصفرة، وألوان مثل الذهب واللازورد والياقوت والزمرد والسواد البراق، ويسمونها المداد الطاووسي، إلى غير ذلك من الألوان العجيبة اللطيفة.

علم الجراحة

وهو علم باحث عن أحوال الجراحات العارضة لبدن الإنسان، وكيفية برئها وعلاجها، ومعرفة أنواعها، وكيفية القطع ان احتيج إليها، ومعرفة كيفية المراهم والضمادات وأنواعها، ومعرفة أحوال الأدوات اللازمة لها. وهذا العلم جزء من علم الطب، وقد يفرد عنها بالتدوين. ومنفعته عظيمة جداً. وهذا العلم بالعمل أشبه منه بالعلم. وفي كتاب (منهاج البيان) ما فيه كفاية في هذا الباب.

علم الفصد

وهو علم باحث عن كيفية آلات الفصد، ومعرفة أنواع العروق، ومعرفة ما يخص كل مرض من فصد عرق مخصوص، إلى غير ذلك من الأحوال التي يعرفها مزاولوها. وغايته، وغرضه، ومنفعته لا تخفى.

علم الحجامة

وهو علم يتعرف به أحوال الحجامة، وكيفية شرطها ومصها بالمحجمة، وأنها في أي موضع من البدن نافعة، وفي أي موضع مضرة، إلى غير ذلك من الأحوال.

علم المقادير والأوزان

المستعملة في علم الطب

من الدرهم والأوقية والرطل وغير ذلك من الأوزان. ولقد صنف له كتب مطولة ومختصرة يعرفها مزاولوها.

علم الباه

وهو علم باحث عن كيفية المعالجة المتعلقة بقوة المباشرة: من الأغذية المصلحة لتلك القوة، والأدوية المقوية أو المزيدة للقوة، أو الملذذة للجماع، أو المعظمة للذكر، أو المضيقة للقبل، اللذين لهما مدخل عظيم في اللذة، وغير ذلك من الأعمال والأفعال المتعلقة بها. منها: ذكر أشكال الجماع وآدابه، اللذين لهما مدخل في اللذة وحصول أمر الأحبال، إلا أنهم يذكرون لأجل اكثار الصناعة أشكالاً يعسر فعلها بل يمتنع.

ومنها: أنهم يذيلون ذلك الأشكال بحكايات مشهية، تحصل بسماعها الشهوة، وتتحرك قوة المجامعة، وإنما وضعوها لمن ضعفت قوة مباشرتها، أو بطلت تلك فيها.

روى: أن ملكاً بطلت عنه قوة المباشرة بالكلية، وعجز الأطباء عن معالجتها بالأدوية، فاخترعوا حكايات عن لسان امرأة مسماة «بالألفية» لأنها جامعها ألف رجل، فحكت من كل منها أشكالاً مختلفة وأوضاعاً مشهية، فعادت باستماعها قوة الملك.

ويحكى أيضاً: أن ملكاً آخر بطلت عنه القوة، فزوج عبداً من مماليكه

جارية حسناء، وهيأ لها مكاناً بحيث يراهما الملك ولا يريانه، فعادت قوة الملك بمشاهدة أفعالها، حتى خرج من أحليله شبه الجبن الرطب، فقدر بعد ذلك قدرة زائدة.

ومن الكتب الجامعة في هذا الباب:

(كتاب رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه).
و (كتاب رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب).
و (كتاب الفخ المنصوب إلى صيد المحبوب).
و (كتاب تحفة العروس وجلاء النفوس).
و (كتاب نصير الدين الطوسي) نافع في الباب.

العنقود الثاني
في فروع علم الفراسة

علم الشامات والخيلان

وهو علم باحث عن أحوال العلامات المذكورة، بحسب دلالتها على الأحوال الباطنة، والأخلاق الموجودة في الإنسان بحسب الفطرة. وقد صنف فيه بعض الحكماء رسائل، لكنها قليلة الوجود جداً.

علم الأسارير

وهو علم باحث عن الإستدلال بالخطوط الموجودة في الأكف والأقدام والجباه، بحسب التقاطع والتباين والطول والعرض والقصر، بحسب ما بينها من الفرج المتسعة أو المتضائقة، من حيث دلالتها على أحوال الإنسان: من طول الأعمار وقصرها، والسعادة والشقاوة، والغنى والفقر. وأكثر من تمهر في هذا العلم الأعراب والهنود.

قال الأعشى:

فــانــظــر إلى كفي وأســرارهــا ... هـل أنـت ان أوعـدتني ضـائري

و يوجد في هذا العلم مصنفات. وكثيراً ما يوجد ذيلاً لكتب علم الفراسة.

علم الأكتاف

وهو علم باحث عن الخطوط والأشكال، التي ترى في أكتاف الضأن والمعز، إذا قوبلت بشعاع الشمس، من حيث دلالتها على أحوال العالم الأكبر: من الحروب الواقعة بين الملوك، وأحوال الخصب والجدب. وهؤلاء الذين يعتنون بهذا العلم، قلما يستدلون على الأحوال الجزئية لإنسان معين. وأهل هذا العلم يأخذون لوح الكتف قبل طبخ لحمه، و يلقونه على الأرض أولاً، ثم يأخذونه و ينظرون فيه، و يستدلون بأحواله من الصفاء والكدر، والحمرة والخضرة، إلى الأحوال الجارية في العالم: من الغلاء والرخاء، والحروب الواقعة بين الأفراد ولمن الغلبة فيها، و ينسبون كلاً من أطرافه الأربعة إلى جهة من جهات العالم، ويحكمون بذلك على كل صقع منها بأحوال متعلقة بها على ما يظهر في اللوح. و ينسب علم الكتف إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ورأيت مقالة في هذا العلم مختصرة غاية الإختصار يجدها من يطلبها، لكن بين فيها الأنية دون اللمية.

علم قيافة الأثر
ويسمى
علم القيافة

وهو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر، في الطرق القابلة للأثر، وهي التي تكون تربة حرة تتشكل بشكل القدم. ونفع هذا العلم بين، إذ القائف يجد بهذا العلم الهراب من الناس، والضوال من الحيوان، بتتبع آثارها وقوامها بقوة الباصرة وقوة الخيال والحافظة، حتى سمعت بعض من اعتنى

بهذا العلم، أنهم يفرقون بين أثر قدم الرجل وأثر قدم المرأة، وبين أثر قدم الشيخ والشاب. والله أعلم بالصواب.

علم قيافة البشر

وهو علم باحث عن كيفية الإستدلال بهيئات الأعضاء في الإنسان، على الإشتراك بينهما في النسب والولاء، وفي سائر الأخلاق والأحوال. ويختص هذا الإستدلال بقوم من العرب يقال لهم «بنو مدلج»، وآخرين يقال لهم «بنو لهب»، وذلك بمناسبة طبعية حاصلة فيهم لا يمكن تعلمه. قال بعض الحكماء: خص الله تعالى بذلك العرب، ليكون سبباً لإرتداع نسائهم عما يورث شوب نسبهم، وخبث حسبهم، وفساد بدورهم وزرعهم، صيانة للنسبة النبوية، وليكون ذلك شرفاً لنبيه، صلى الله عليه وسلم.

وهذا العلم والذي قبله حاصلان بالحدس والتخمين لا بالإستدلال واليقين.

حكي: أن الإمام محمد بن الحسن، والإمام الشافعي، رضي الله عنهما، رأيا رجلاً، فقال محمد: إنه نجار، والشافعي أنه حداد، فسألا عن صنعته، فقال: كنت حداداً والآن نجار.

وإنما سميت بقيافة البشر، لكون صاحبه يتتبع بشرات الإنسان وجلوده، وما يتبع ذلك من هيئات سائر الأعضاء، خصوصاً الأقدام. ومبنى هذا العلم، ما ثبت في المباحث الطبية من وجود المناسبة والمشابهة بين الولد ووالديه. وقد تكون تلك المناسبة في الأمور الظاهرة بحيث يدركها كل أحد، وقد تكون في أمور خفية لا يدركها إلا أرباب الكمال. وتدرك هذه المشابهة بمعونة القوة الباصرة والقوة الحافظة، ولهذا اختلفت أحوال الناس في هذا العلم، كمالاً وضعفاً، إلى حيث لا يشتبه عليه شيء أصلاً، بسبب كماله في القوتين. وهذا العلم موجود في قبائل العرب، ويندر في غيرهم، إذ لا يمكن تحصيل هذا العلم وكسبه وتعليمه، بل هو متوارث في اعراق مخصوصة من العرب لا يشاركهم فيه غيرهم ولهذا لم يقع في هذا العلم تصنيف قل أو جل.

ويروى أن بعضاً من أكابر الفقهاء، رأوا التعويل على أصحاب هذا العلم في تصحيح الانساب، كالشافعي رضي الله عنه، مستشهداً بما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه سر بقول القائف في أسامة بن زيد ـــ وكانا نائمين في قطيفة وقد بدت أقدامهما ـــ أن هذه الأقدام بعضها من بعض، وأنما سر بذلك لما أن المشركين طعنوا في نسبه.

وقال الشافعي، رحمه الله: لو لم يكن حجة، لم يسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول القائف. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: سروره لأجل الزام المشركين بما هو حجة عندهم لا أنه حجة قطعية في نفس الأمر.

علم الإهتداء بالبراري والأقفار

وهو علم يتعرف به أحوال الأمكنة، من غير دلالة عليه بالإمارات المحسوسة، بل يستدل بالقوة الشامة فقط. وقيل: قد يستعين صاحب هذا العلم بالأمور السماوية تارة والأرضية أخرى.

أما الأول: فبمسامتات الكواكب الثابتة ومنازل القمر، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾[1].

وأما الثاني: فبمعرفة الخيال، مثل شم التراب، إذ لكل بقعة رائحة مخصوصة فيهتدون بها. ونفع هذا العلم عظيم، وإلا لهلكت القوافل، وضلت الجيوش، وضاعت في البراري والأقفار. وقيل: قد يكون بعض ممن هو بليد في سائر العلوم ماهراً في هذا العلم، كما يمكن عكسه. وقد يحصل هذا النوع من التمييز في الأبل والفرس.

حكى بعض من المضيفين: أني كنت في قافلة في مفازة خوارزم، وضللنا الطريق، وعجز الكل عن الإهتداء، فقدموا جملاً هرماً وألقوا حبله على غاربه، فأخذ ينتقل من جانب إلى جانب، ومن تل إلى تل، وتذبذب يميناً وشمالاً،

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٧.

وصعوداً ونزولاً، واستمر على هذا الحال مقدار فرسخين، وخفنا على أنفسنا، حتى وصل إلى الجادة المستقيمة والنهج القويم، وتعجبنا منه كل العجب.

علم الريافة

(أي استنباط المياه)

وهو معرفة الماء من الأرض، بواسطة الإمارات الدالة على وجود الماء، ويعرف بها أنه قريب أم بعيد: أما بشم رائحة تراب منها، أو رؤية نبات بها، أو حيوان مخصوص بحركة مخصوصة، ولا بد لصاحبه من حس كامل وتخيل قوي. ونفع هذا العلم بيّن، إذ قلما يوجد في جميع الأراضي، الأنهار الجارية المنصبة من شواهق الجبال والأماكن المرتفعة إلى بطون الأودية. وأصل هذه الصناعة، معرفة خواص الأرضين وأحوال تربتها، بألوانها وخواصها السهلي والجبلي والرملي والصخري.

وهذا العلم — من حيث معرفة وجود الماء، من فروع علم الفراسة؛ ومن حيث حفرها وإخراجها إلى وجه الأرض، من فروع الهندسة، فلا تغفل.

علم استنباط المعادن

إذ الذهب والفضة وغيرهما لا بد لها من علامات تعرف بها عروقها في الجبال. ومبادئه وآلاته قريبة من العلم السابق.

علم نزول الغيث

وهو علم يتعرف به كيفية الإستدلال على المطر، بأحوال البروق والسحب والرياح. وأخص الناس بهذا العلم العرب، لاشتداد جانبهم إلى الغيوث، التي بها حصول معائشهم من السقي والرعي. وقد حصل لهم هذا العلم بكثرة التجارب. ودليله: الدوران بين أحوال السحب والأمطار. وأحوال السحب: أما بحسب مواضعها، أو رقتها وكثافتها، أو ألوانها، وكيفية أحوال الرياح والبروق. ويعرفون أن أي هذه الأمور ماطر للجود، وأيها ماطر للرذاذ أو أن أي البروق خلب، وأيها ذات صيب. وجاء في غريب أبي عبد الله: أن النبي صلى

الله عليه وسلم سأل عن سحابة مرت، فقال: كيف ترون قواعدها وبواسقها؟ أجون أم غير ذلك؟ ثم سأل عن البرق: أخفوا أم وميضاً، أم يشق شقاً؟ فقالوا: بل يشق شقاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: جاءكم الحيا ومن الداهية الدهياء، والفتنة الشنعاء، ان بعض الأتراك، قد يدعون وقوع الأمطار أو اندفاعها، بسبب هذا العلم، عند من لم يجرب هذا العلم من أهل الأمصار، فيريهم أنه يدفع الأمطار أو ينزلها، أما لأجل الرقية أو لأجل الشفاعة عند الله تعالى، فيصير ذلك خديعة ومكيدة أكيدة، وفتنة قوية عند الحشوية والعوام. والتوفيق من الملك العلام. ومن هذا القبيل أن عند الأتراك في الجبال حجراً جالباً للمطر، وهم يعرفونها ويلقونها في الماء، ويعملون بعضاً من الأعمال شبيه أعمال السحر، ويتكلمون بكلمات متضمنة للكفر. هكذا سمعت من رأى هذا العمل من الأتراك، قال: فينزل المطر في الحال، حتى أن رأس الفرس تحت الثلج والمطر، ونصفه الآخر تحت الشمس، قال: ورأينا مراراً والبهاليل غافلون عن حالها، فيتعجبون منها، فربما يحملونها على ولايتهم أو كرامتهم، إذا ادعوا من فعلوها ذلك، ولا يميزون بين الخواص والكرامة. وتعسا لقوم بلغت عقولهم هذه المرتبة من السخافة والحمق.

علم العرافة

وهو الإستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية، بمناسبة بينهما، أو مشابهة خفية، أو ارتباط بينهما، أما لكونهما معلولي أمر واحد، أو لكون ما في الحال علة لما في الإستقبال، بشرط أن يكون الإرتباط بينهما خفياً لا يطلع عليه إلا الأفراد، أما بتجارب شاهدوها في أمثالها، أو بحالة مودعة في نفوسهم عند الفطرة، بحيث يغلب على طالعهم سهم الغيب، الذي عبَّر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالمحدث، وهو المصيب في ظنه وفراسته، كما ذكرناه في علم الفراسة.

حكي: أن الاسكندر لما أراد المحاربة مع ملك الفرس، قال ذلك الملك: لا حاجة إلى مقاتلة العساكر، هلم نقاتلك، فأما ان تقتلني، وأما أن أقتلك. ففرح

الاسكندر بهذا الكلام، حيث قدم ذلك الملك نفسه في ذكر القتل، فكان كما قال.

ويحكى عنه أيضاً: أنه لما دخل بلاد الغرب، مر على امرأة في مدينة وهي تنسج ثوباً، فقالت له: أيها الملك، أعطيت ملكاً ذا طول وعرض. ثم مر عليها الملك الأول فقالت له: سيقطع الاسكندر ملكك، فغضب الملك، فقالت: لا تغضب، ان النفوس قد تشاهد أموراً قبل وقوعها بعلامات يحكم النفس بصدقها. ولما مر على الاسكندر، كنت أدبر طول الثوب عرضه، ولما مررت أنت فرغت عنه وأردت قطعه، وكان الأمر كما قالت:

ويحكى: أنه بعث جماعة من أصحاب ابن الرومي الشاعر إليه في بعض الأيام غلاماً منيحاً، حسن الوجه، حسن الأسم، طيب الرائحة، فلما طرق الباب، خرج إليه ابن الرومي، فسأله الحضور إلى عند أصحابه، فسمع كلامه وشم طيبه، ورأى وجهه المليح فقال: حسن في حسن مع طيب، وأجابه إلى سؤاله. فلما خرج معه رأى دكان خياط على رأس الدرب، وهو يفصل ثوباً، فرجع بيته وأغلق الباب.

ويحكى عنه أيضاً: أنه توجه يوماً إلى مقصد، فرأى دكاناً وقد صلب صاحبه درابتي الباب وهو يأكل تمراً، فقال ابن الرومي: ان الدرابتين شكل لا والتمر تمر، فالفال يقول: لا تمر، وقال: والله لا مررت أبداً. وله في هذا الباب حكايات عجاب.

ويحكى: أنه كان في زمن هارون الرشيد رجل أعمى من أهل العرافة، وكان يستدل على المسؤول عنه، بكلام صدر عن الحاضرين عقيب السؤال، فسرق يوماً من خزانة هارون بعض من الأشياء، فطلب الرجل، وأمر أن لا يتكلم أحد بعد السؤال أصلاً، ففعلوا كما أمر هارون، والأعمى ألقى سمعه ولم يسمع شيئاً، فأمر يده على البساط، فوجد فيه نوى تمر، فقال: إن المسؤول عنه در و ياقوت وزمرد في سفط، فقال الرشيد: في أين هو، قال: في بئر، فوجدوه كما ذكر الأعمى، فتحير الرشيد فيه، فسأل عن سبب معرفته، فقال: وجدت

نوى تمر، وطلع النخلة أبيض، وهو كالدرة ثم يكون بسرا وهو أخضر، وهو لون الزمرد، ثم يكون رطباً وهو أحمر، وهو لون الياقوت، ثم لما سألتم عن مكان المسروق سمعت صوت دلو، فعرفت أنه في بئر، فاستحسن الرشيد فراسته، فأعطاه مالاً جزيلاً.

ومن هذا القبيل، ما حكى عن أبي معشر، أنه وقف هو وصاحب له على واحد من هؤلاء، وكانا مارين في خلاص مسجون، فسألاه، فقال: أنتما في طلب خلاص مسجون، فعجباً من ذلك، فقال له أبو معشر: هل يخلص أم لا؟ فقال: تذهبان تلقيانه قد خلص، فوجدا الأمر كما قال، فاستدعاه أبو معشر وأكرمه، وتلطف له في السؤال عن كيفية علم ذلك، فقال: نحن قوم نأخذ الفال بالعين والنظر، فينظر وأحدنا إلى الأرض، ثم يرفع رأسه، فأول شيء يقع عليه نظره، يكون الحكم به، فلما سألتماني، كان أول ما رأيت ماءاً في قربة، فقلت: هذا محبوس، ثم لما سألتماني الثانية، نظرت فإذا هو قد أفرغ من القربة، فقلت: يخلص.

وبعض من هذه الطائفة، يستدلون بالمكان الذي يضع السائل يده عليه من جسده وقت السؤال، فإن وضع يده على رأسه: فهو رئيسه وكبيره، والرجلين: قوامه، والأنف: بناء مرتفع أو تل أو نحوه، والفم: بئر عذبة واللحية أشجار وزروع.

حكى عن المهدي: أنه رأى رؤيا وأنسيها، فأصبح مغتماً بها، فدل على رجل كان يعرف الزجر والفال، وكان حاذقاً به، اسمه خويلد، فلما دخل عليه، أخبره بالذي أراده له، قال له: يا أمير المؤمنين، صاحب الزجر والفال ينظر الى الحركة، وأخطار الناس، فغضب المهدي وقال: سبحان الله العظيم، أحدكم يذكر بعلم ولا يدري ما هو، ومسح بيده على رأسه ووجهه وضرب بها على فخذه، فقال له: أخبرك برؤياك يا أمير المؤمنين، قال: هات، قال: رأيت كأنك صعدت جبلاً، فقال المهدي: لله أبوك يا سحار، صدقت، قال: ما أنا بسحار يا أمير المؤمنين، غير أنك مسحت بيدك على رأسك، فزجرت لك،

وعلمت أن الرأس ليس فوقه شيء الا السماء، فأولته بالجبل، ثم نزلت بيدك الى جبهتك، فزجرت لك نزولك الى أرض ملساء فيها عينان مالحتان، ثم انحدرت الى سفح الجبل، فلقيت رجلاً من فخذك قريش، لأن أمير المؤمنين مسح بعد ذلك على فخذه، فعلمت أن الرجل الذي لقيته من قرابتك، قال: صدقت، وأمر له بمال، وأمر أن يحجب عنه. وأمثال هذه الحكايات كثيرة تعرفها من تتبع المحاضرات.

علم الاختلاج

وهو علم باحث عن كيفية دلالة اختلاج أعضاء الانسان، من الرأس الى القدم، على الأحوال التي ستقع عليه. وأحواله، ونفعه، والغرض منه ظاهرة. لكنه علم لا يعتمد عليه لضعف دلالته وغموض استدلاله. ورأيت في هذا العلم رسائل مختصرة، لكنها لا تشفي العليل ولا تسقي الغليل.

العنقود الثالث

في فروع أحكام النجوم

واعلم: أن أحكام النجوم غير علم النجوم، لأن الثاني يعرف بالحساب فيكون من فروع الرياضي؛ والأول يعرف بدلالة الطبيعة على الآثار فيكون من فروع الطبيعي.

علم الاختيارات

وهو علم باحث عن أحكام كل وقت وزمان: من الخير والشر، وأوقات يجب الاحتراز فيها عن ابتداء الأمور، وأوقات يستحب فيها مباشرة الأمور، وأوقات يكون مباشرة الأمور فيها بين بين. ثم كل وقت له نسبة خاصة ببعض الأمور بالخيرية وببعضها بالشرية، وذلك بحسب كون الشمس في البروج، والقمر في المنازل، والأوضاع الواقعة بينهما: من المقابلة والتربيع والتسديس

وغير ذلك، حتى يمكن ــ بسبب ضبط هذه الأحوال ــ اختيار وقت لكل أمر من الأمور التي تقصدها: كالسفر والبناء وقطع الثوب، الى غير ذلك من الأمور. ونفع هذا العلم بيّن لا يخفى على أحد.

علم الرمل

وهو الاستدلال بأشكاله الاثني عشر على أحوال المسألة حين السؤال، وأكثر مسائله أمور تخمينية مبنية على تجارب غير كافية، وذلك لأنهم يقولون إن البروج الأثني عشر، يقتضي كل منها حرفاً معيناً وشكلاً معيناً من الأشكال المذكورة. فحين السؤال عن المطلوب يقتضي أوضاع البروج وقوى الشكل المعين من الرمال. فتلك الأشكال ــ بسبب مدلولاتها من البروج ــ تدل على أحكام مخصوصة تناسب أوضاع البروج، إلا أنها أمور تقريبية لا يقينية. والى هذا يشير قول نبينا عليه الصلاة والسلام: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»، والمراد بذلك النبي ادريس عليه السلام، وهذا العلم كان معجزة له. والمفهوم من ظاهر الحديث، امكان الاطلاع بالرمل على بعض الأمور، لكنه ليس كذلك، اذ المعجزة لو أمكنت للبشر لم يبق فرق بين المعجزة والصنعة، ولم يتميز النبي عن غيره.

نعم يمكن للمولى ظهور خوارق للعادات، لكن الكلام ها هنا في غير الولي بطريق الصنعة، بل المراد في الحديث بقوله: فمن وافق خطه، هو التعليق بالمحال، يعني: فمن وافق خطه، فذاك هو خط ذلك النبي، لكنه لا يوافق لأنه معجزة لذلك النبي عليه السلام.

ومن التصانيف فيه:

(كتاب تجارب العرب)؛

و (مثلثات ابن محفوف)؛

و (كتاب الزناتي) أصح طرق هذا الفن.

وكتب هذا الفن أكثر من أن تحصى يعرفها أهلها

علم الفال

وهو علم يتعلم بذلك ما يحدث من الحوادث الآتية، بطريق اتفاق حدوث أمر من جنس الكلام، أما تسمعه من غيرك، أو تفتح مصحفاً، أو كلام من تعتقد فيه من الأنبياء أو الأولياء. وموضوع هذا العلم ظاهر من تعريفه. ومنفعته وفائدته كعلم الرمل، لكن الأصح الذي شهد الشرع بجوازه، والتجربة بصدقه، التفاؤل بالقرآن العظيم. ونقل هذا التفاؤل عن الصحابة وعن السلف الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين. وطريق فتح الفال من المصحف كثير مشهور عند الناس، لكن الأحسن الاعتبار بالمعاني دون الألفاظ والحروف. كان النبي صلى عليه يتفاءل، و يعجبه الفال الحسن، ولا يتطير. ولما هاجر الى المدينة وقاربها، سمع منادياً ينادي: يا سالم، فقال لأصحابه: سلمنا؛ فلما دخل المدينة سمع آخر يقول: يا غانم فقال صلى الله عليه وسلم: غنمنا؛ فلما نزل، أتى برطب، فقال: حلالنا البلد، وأمثال ذلك كثيرة.

وأما التطير: فقد نهى عنه صلى الله عليه وسلم وقال: «لا طيرة ولا هامة ولا صفر».

واعلم: أن الامام العلامة القاضي أبا بكر بن العربي، صرح في (الأحكام) في سورة المائدة، بتحريم أخذ الفال من المصحف. ونقله القرافي عن الإمام الطرطوشي، وأقره وأباحه ابن بطة من الحنابلة. قال الدميري: ومقتضى مذهبنا كراهته.

وحكى الماوردي في كتاب (أدب الدين والدنيا)، أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله تعالى: ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾[1]، فزق المصحف وأنشأ يقول:

---

(١) سورة ابراهيم، آية: ١٥.

شعر

أتوعد كل جبار عنيد — فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر — فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور بلده.

علم القرعة

وهو علم يستعلم بذلك ما سيحدث في الاستقبال، بطريق وقوع شكل من الأشكال التي تكتب عليها حروف، و يستدل بذلك على المطلوب، وذلك مثل علم الرمل بعينه، فاعتبر أحواله منه، إلا أنه أضعف دلالة من الرمل، مع ضعف دلالة الرمل كما ذكرناه.

علم الطيرة والزجر

وهذا عكس الفال، إذ المطلوب في الفال طلب الاقدام على الأمر؛ وفي الزجر طلب الهرب عن الأمر، وهو تشاؤم الانسان بشيء يرد المناظر والمسامع، مما تنفر منه النفس، مما ليس بطبيعي، فأما نفارها مما هو طبيعي في الانسان؛ كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار، فلا يعد من هذا. واشتقاق التطير من الطير. وأصله في زجر الطير، وما سواه ملحق به، ثم كثر في غيره. وهذا التطير في العرب كثير، حتى أن بعضاً من الناس انفتحت له أبواب الوساوس من المناسبات البعيدة في اللفظ والمعنى، حتى يفسد دينه، و ينكد عيشه، مثلاً يتشاءم بالسفرجل إذا سمعه أو أهدى اليه و يقول سفر وجلا، وإذا رأى ياسمينا أو سمع اسمه يقول، ياس ومين، وإذا رأى سوسنة أو سمعها يقول: سوء يبقى سنة. وكذا إذا خرج من داره، فاستقبل صاحب آفة: من أعور أو أشل أو أعمى، تطير به وتشاءم بيومه. مثلا إذا أراد العرب سفراً، يطيّرون طيراً، فاذا طار عن اليمين يتوجهون الى المقصد، وان طار عن اليسار يرجعون عن السفر. والأول يسمى السانح والثاني البارح. وللعرب أمثال هذا كثيرة، لكن النبي

صلى الله عليه وسلم نهى عن الطيرة، وهي الزجر، وأمر بالفال. قال في كتاب (مفتاح دار السعادة): اعلم أن التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به ولم يعانه فلا يضره البتة، لا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو مر بسماعه: اللهم لا طير الا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك. وأما من كان معتنياً بها فهي اليه أسرع من السيل الى منحدره، وقد فتحت أبواب الوساوس فيما يسمعه و يراه، و يفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة، وما يفسد عليه دينه و ينكد عليه معيشته. انتهى.

قال ابن عبد الحكم: خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة، والقمر في الدبران، فكرهت أن أصرح به، فقلت: ما أحسن استواء القمر في هذه الليلة، فنظر فقال: كأنك أردت أن تخبرني أن القمر في الدبران، أنا قوم لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار.

ومن غريب ما وقع في هذا الباب، أن جعفر البرمكي، اختار وقتاً لينتقل الى داره التي بناها، فاختاروا الليلة، فخرج في ذلك الوقت والطرق خالية، إذ سمع منشداً يقول:

يدبر بالنجوم وليس يدري ... ورب النجم يفعل ما يريد

فتطير ودعا بالرجل وقال له: ما أردت بهذا؟ قال: ما أردت به معنى من المعاني، لكنه شيء عرض لي وجاء على لساني، فأمر له بدينار، ومضى لوجهه، وقد تنغص سروره وتكدر عيشه، فلم يمضِ الا قليلا حتى أوقع به الرشيد ما هو المشهور.

العنقود الرابع

في فروع السحر

اعلم: أن استحداث الحوادث، ان كان بمجرد التأثير النفساني، فهو السحر؛ وان كان على سبيل الاستعانة بالفلكيات، فهو دعوة الكواكب؛ وان كان على سبيل تمزيج القوى السماوية بالأرضية، فهو الطلسمات؛ وان كان على سبيل الاستعانة بالخواص الطبيعية، فأما القراءة فهو علم الخواص، أو الكتابة فهو النيرنجات، أو الأفعال غيرهما فهو الرقي؛ وان كان على سبيل الاستعانة بالأرواح الساذجة، فهو العزائم؛ وان كان باحضار تلك الأرواح في قوالب الأشباح، فهو علم الاستحضار، ويسمى تسخير الجن. وأما الأخبار عن الحوادث الغير الحاضرة: فأما عن الماضي أو الحال أو الاستقبال، فهو علم الكهانة. ثم إن الانسان كما يقدر على استحضار المجردات، كذلك يقدر على تغييب الحاضر عن الحس، ويسمى علم الاخفاء، وكذلك على اخفاء الأمور الحاضرة عن الحاضرين، ويسمى بالحيل. وأمثال ذلك كثيرة، فلنذكر هذه العلوم على هذا النهج.

علم الكهانة

وهو مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة: من الجن والشياطين، واستعلامها منها الأحوال الجزئية الجارية في عالم الكون والفساد، لكنها مخصوصة بالأمور المستقبلة، وكان ذلك في العرب كثيرا. وآخر من وجد وروى عنه الأخبار العجيبة «شق» و«سطيح»، وهما كانا كاهنين مشهورين في العرب في زمان الجاهلية. وقيل: كان وجود ذلك في العرب، أحد أسباب معجزات النبي، صلى الله عليه وسلم، لما كان يخبر به ويحث على اتباعه. كما يحكى منهم، أخبارهم بمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل ولادته وكونه نبي آخر الزمان وخاتم الأنبياء. وفي هذا الباب حكايات غريبة عنهم لا يليق

ايرادها بهذا المختصر، فمن أراد الاطلاع عليها، فعليه بكتب السير والتواريخ، سيما كتاب (أعلام النبوة) للماوردي، إلا أنهم حجبوا بعد بعث نبينا صلى الله عليه وسلم عن الاطلاع على المغيبات، حتى روى: لا كهانة بعد النبوة. فلا يجوز تصديقهم، بل المصدق يكون كافراً كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» عليه الصلاة والسلام. إلا أن المفهوم من كلام الإمام الرازي في كتابه المسمى (بالسر المكتوم) أن الكهانة على قسمين:

قسم يكون من خواص بعض النفوس، وهذا ليس بمكتسب؛

وقسم يحصل بالاشتغال على العزائم ودعوة الكواكب، وله طرق مذكورة في كتاب (السر المكتوم). ثم ان المفهوم من ذلك الكتاب، أن سلوك هذا الطريق محرم في شريعتنا هذا، فيجب التحرز عن اكتسابه وتحصيله.

واعلم: أن القسم الأول الذي ليس بمكتسب داخل في علم العرافة وقد نبهناك عليه هناك فلا تغفل.

علم النيرنجات

وهو معرب نيرنك؛ وهو التمويه والتخييل. وهو اظهار غرائب الامتزاجات بين القوى الفاعلة والمنفعلة، وبالجملة مؤلفة بين العالم الأكبر والأصغر لصدور آثار مطلوبة من الحب والبغض، والاقبال والأعراض، وأمثال ذلك، بكتابات مخصوصة مؤلفة من الروحانيات المبثوثة في العالم، وان كانت بكتابات مجهولة الدلالات، فكأنها أرقام وحروف للأوائل، وخواصها مجهولة اللمية معروفة الانية. وفيه كتاب (غاية الحكيم) للمجريطي، وكتاب (أسرار الشمس والقمر) لابن وحشية.

علم الخواص

وهو علم باحث عن الخواص المترتبة على قراءة أسماء الله تعالى أو كتابه: من الزبور، والانجيل، والقرآن. ويترتب على كل من تلك الأسماء والدعوات خواص مناسبة لها.

وأعلم: أن النفس ــ بسبب اشتغالها بأسماء الله تعالى والدعوات الواردة في كتبه المنزلة ــ تتوجه الى جناب القدس، وتتخلى عن الأمور الشاغلة لها عنه، فبواسطة ذلك التوجه والتخلي، تفيض عليها آثار وأنوار، تناسب استعدادها الحاصل لها بسبب اشتغال الأمور المذكورة. ومن هذا القبيل الاستعانة بخواص الأدوية، بحيث يعتقد الرائي أن ذلك لفعل السحر. كما يحكى أن كنيسة ببلاد الروم، عمل في جدرانها الأربعة وسقوفها وأرضها، ستة حجارة من المغناطيس متساوية في القدر، وجعل في هوائها صليب من حديد، بمقدار ما يتساوى فيه جذب تلك الحجارة الستة، بحيث أنه لا يغلب حجر منها بقيتها في الجذب، فلزم من ذلك وقوف الصليب في الهواء دائماً من غير آلة تمسكه ظاهراً، فافتتن به قوم من النصارى.

علم الرقى

وهو علم باحث عن مباشرة أفعال مخصوصة، تترتب عليها بالخاصية آثار مخصوصة، كعقود الخيط والشعر وأمثالها. والرقية كثيراً ما تقع في الأمراض: كوجع العين ووجع السن، وكذا في اصابة العين وأمثالها. والرقبة بالفارسية: «افسون أي اب سون» لأنهم يقرأونه في الأكثر على الماء، فيشربه المصاب أو يصب عليه. وإنما سميت رقية: لأنها كلمات رقيت من صدر الراقي، بعضها فهلوية، وبعضها قبطية، وبعضها كالهذيانات، زعموا أنها كشفت من الجن أو سمعت في المنام، واليه يشير قوله تعالى: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾[1]. والشرع أذن للرقية، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى ابنة في وجهها صفرة: «استرقوا فان بها النظرة».

علم العزائم

وهو علم يتعرف منه كيفية تسخير الأرواح، واستخدامها في مقاصده، كتسخير الملك والجن. ومن هذا القبيل ما يفعله أصحاب الأوهام والنفوس

(١) سورة الفلق، الآية ٤.

القوية، التي إذا تجردت وتوجهت نحو شيء أثرت فيه. وأقرب شاهد له في الشريعة الاصابة بالعين، وقد أثبته النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إنه حق. وثبت عن جماعة أنهم يقتلون النفس بالهمة. وجل هذا قد يسمى تجرد النفس أيضاً: أما لخير أو لشر.

حكى: أن السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين، لما غزا الهند، انتهى الى قلعة منيعة عصت عليه مدة، فخرج اليه بعض أهلها، وقال: إذا كان وقت طلوع الشمس، مر الجيش يضرب الطبول، ففعلوا، فانفتحت، فسألوا عنها، فقال: إن أهل هذه القلعة أصحاب همم، وصرفوا همتهم الى دفعك عنها، ولا يشوش عليهم شيء كالطبول المزعجة. وغلبت العساكر القلعة. وطريق هذا التسخير أمر صعب لم نباشره، لكن سمعت كثيراً ممن أثق به، أنه باشرها، وحصل مرامه وأنجح مقاصده.

علم الإستحضار

وهو استنزال الأرواح في قوالب الاشباح.

واعلم: أن تسخير الجن أو الملك، من غير تجسدها وحضورها عندك، يسمى: «علم العزائم»، بشرط تحصيل مقاصدك بواسطتها.

وأما حضور الجن عندك وتجسدها في حسك يسمى: «علم الاستحضار»، ولا يشترط تحصيل مقاصدك بها. وأما استحضار الملك، فإن كان سماوياً فتجسده لا يمكن إلا في الأنبياء، وان كان أرضياً ففيه الخلاف.

علم دعوة الكواكب

واعلم: أنك قد عرفت ان استحضار الجن وبعض الملك ممكن، فكذلك يمكن تسخير روحانية الكواكب، سيما السبعة السيارة، فيتوصل بذلك إلى المقاصد المهمة: من قتل الأعداء، واحضار المال والغائب، وأمثال ذلك من الأمور، فيستحضرها متى شاء بلا تكلف ومشقة. ويسمى هذا دعوة

الكواكب. وهذا سحر الصابئة الذين بعث الله تعالى إليهم ابراهيم عليه السلام، مبطلاً لمقالتهم ورداً عليهم.

كما يحكى: أن ملكاً اشتغل بدعوة «زحل»، وعرض له عدو ملك عظيم، لا يقدر هو على محاربته، وتحير خدامه في أمره، وهو اشتغل عن أسباب الحروب إلى الدعوة، فبينا هو جالس مع خواصه وندمائه، اذ نزل من السماء شيء، فخاف أهل المجلس منه، وتفرقوا والملك ثابت في مكانه. فما نزل واستقر أمام الملك، دعا أصحابه فرأوا ظرفاً من نحاس مثلث الشكل، وفيه رأس الملك الذي خاصمه مقطوعاً، ففرحوا بذلك وهرب العسكر، ونصر الملك بروحانية «زحل»، وقال: انتم سفهتموني باشتغالي بالدعوة، وهذا نفعه الأدنى، فاعتقدوا الدعوة كلهم، وأمسكوا عن طعن الملك في اشتغاله بها.

وأما كون الظرف من نحاس وكونه مثلثاً، فلإقتضاء طبيعة «زحل» ذلك المعدن وذلك الشكل. والله أعلم بحقيقة الحال.

علم الفلقطيرات

وهي خطوط طويلة، عقدت عليها حروف وأشكال ــ أي حلق ودوائر ــ زعموا أن لها تأثيرات بالخاصية، وبعضها مقروء. وقد رأينا كثيراً منها على الأوراق المتفرقة، لكن لم نر فيها تصنيفاً مفرداً، ولم نقف أيضاً على كيفية وضعها، وما جربنا أن لها تأثيراً أم لا، فبقيت عندنا مجهولة الحال.

علم الاخفاء

وهو علم يتعرف منه كيفية اخفاء الشحص نفسه عن الحاضرين، بحيث يراهم وهم لا يرونه. ولها دعوات وعزائم، إلا أن الغالب على ظني، أن ذلك لا يمكن إلا بالولاية بطريق خرق العادة، لا بمباشرة أسباب يترتب عليها ذلك عادة. وكثيراً ما نسمع هذا، لكن لم نر من فعله أو رأي من فعله، إلا أن خوارق العادات لا ينكر، سيما من أولياء هذه الأمة. قدس الله تعالى أسرارهم.

علم الحيل الساسانية

وهو علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع وتحصيل الأموال. والذي باشرها يتزيى في كل بلدة بزي يناسب تلك البلدة، بأن يعتقد أهلها في أصحاب ذلك الزي، فتارة يختارون زي الفقهاء، وتارة يختارون زي الوعاظ، وتارة يختارون زي الصوفية، وتارة يختارون زي الأشراف، الى غير ذلك. ثم هم يحتالون في خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها. منها: ما حكى واحد، أنه رأى في جامع البصرة قرداً على مركب، مثل ما يركبه أبناء الملوك، وعليه ألبسة نفيسة نحو ملبوساتهم، وهو يبكي و ينوح، وحوله خدم يتبعونه، و يبكون و يقولون: يا أهل العافية، اعتبروا بسيدنا هذا، فانه كان من أبناء الملوك، عشق امرأة ساحرة، و بلغ حاله بسحرها الى أن مسخ الى صورة القرد، وطلبت منه مالاً عظيماً لتخليصه من هذه الحالة، والقرد في هذا الحال يبكي بأنين وحنين، والعامة يرقون عليه و يبكون، وجمعوا لأجله شيئاً كثيراً من الأموال ثم فرشوا له في الجامع سجادة، فصلى عليها ركعتين، ثم صلى الجمعة مع الناس، ثم ذهبوا بعد الفراغ من الجمعة بتلك الأموال العظيمة. وأمثال هذه الحيل كثيرة منهم. وكتاب (المختار في كشف الأستار) بالغ في كشف هذه الأسرار.

علم كشف الدك وايضاح الشك

وهو علم يتعرف منه الحيل المتعلقة بالصنائع الجزئية: من التجارات، وصنعة السمين، واللازورد، واللعل، والياقوت، وتغرير الناس في ذلك. ولما كان مبناه محرماً أضربنا عن تفصيله. وان أردت الوقوف عليه، فارجع الى كتاب (المختار) المذكور الآن.

علم الشعبذة والتخيلات

والأخذ بالعيون المحيلة لسرعة فعل صانعها برؤية الشيء على خلاف ما هو عليه، والشعبذة ــ وقد يقال: الشعوذة بالواو مكان الباء ــ معرب شعابذة، وهي اسم رجل ينسب اليه هذا العلم.

وهو علم مبني على خفة اليد، بأن يرى الناس الأمر المكرر واحداً لسرعة تحريكها، والواحد مكرراً، و يرى الجماد حياً، ويخفي المحسوس عن أعين الناس بلا أخذ من عندهم باليد، الى غير ذلك من الأحوال التي يتعارفها الناس بالآنية دون اللمية.

وهذا ليس من السحر في شيء، لكنه لشبهه به في رأي العين جعلناه من فروعه. وأما الآلات الموضوعة على ضرورة عدم الخلاء، كقدحي العدل والجور ودوران الساعات وجر الأثقال. وله أسباب يقينية، من اطلع عليها قدر على مثلها. وهذا العلم من فروع الهندسة حقيقة، فلذلك أخرناه الى هناك وان كان لعده من السحر نوع سبيل.

علم تعلق القلب

وهذا علم ربما يظهره بعض المتنبلين لمن في عقله خفة، حتى يظنون أنه يعرف الاسم الأعظم، أو أن الجن تطيعه. وربما أداه انفعاله الى مرض ونحوه، أو مطاوعة ذلك المتنبل فيما قصده.

علم الاستعانة بخواص الأدوية والمفردات

كاجتذاب المغناطيس للحديد ونحو ذلك. وهذا وان كان من فروع خواص الأدوية، لكن لعدم معرفة العوام سببه ربما يعد من السحر.

حكي: أن كنيسة ببلاد الروم أو الهند، عمل في جدرانها وسقفها وأرضها ستة حجارة مغناطيس متساوية في القدر، وجعل في هوائها صليب من حديد، بمقدار ما يتساوى فيه جذب تلك الحجارة الستة، فلزم من ذلك وقوف الصليب في الهواء دائماً من غير آلة تمسكه ظاهراً، فافتتن به قوم من النصارى.

الشعبة السادسة

في العلوم الرياضية

وهي العلوم الباحثة عن أمور يصح تجردها عن المادة في الذهن فقط. وتنحصر هذه في أربعة أقسام، لأن نظرها أما عن الكم المتصل أو عن الكم المنفصل. وكل منها أما قاراً لذات أولاً.

فالأول: الهندسة.

والثاني: الهيئة.

والثالث: العدد.

والرابع: الموسيقى.

علم الهندسة

وهو علم يعرف منه أحوال المقادير ولواحقها، وأوضاع بعضها عند بعض، ونسبتها، وخواص أشكالها. وموضوعه: المقادير المطلقة، أعني الخط والسطح والجسم التعليمي، ولواحق هذه من الزاوية والنقطة والشكل. ومنفعته: الاطلاع على الأحوال المذكورة من الموجودات، وأن يكسب الذهن حدة ونفاذاً، و يروض بها الفكر رياضة قوية، لما اتفقوا على أن أقوى العلوم برهاناً هي العلوم الهندسية. ومن جملة منافعها: العلاج بها على الجهل المركب، لما أنها علوم يقينية لا مدخل فيها للوهم، فيعتاد الذهن على تسخير الوهم، والجهل المركب ليس الا من غلبة الوهم على العقل.

والمصنفات في هذا العلم كثيرة:

أشهرها وأوضحها: (تحرير خواجه نصير الدين الطوسي لكتاب اقليدس)؛

وأخصرها وأحسنها: (أشكال التأسيس) للأبهري؛

و (شرحه) لقاضي زادة الرومي.

وقد ذكر ابن سينا في كتاب (الشفا) جملة كافية منها. وكذا ذكر العلامة في كتبه من حقائق هذا الفن ما فيه كفاية. ثم ان للهندسة عدة فروع سنقف على تفاصيلها ان شاء الله تعالى.

علم الهيئة

وهو علم يعرف منه أحوال الأجرام البسيطة، العلوية والسفلية، وأشكالها وأوضاعها ومقاديرها وأبعادها.

وموضوعه: الأجرام المذكورة من الحيثية المذكورة. وقد يذكر هذا العلم تارة مع براهينه الهندسية كما هو الأصل، وهو المذكور في (المجسطي) لبطليموس، ولخصه الأبهري وعربه.

ومن الكتب المختصرة فيه: (هيئة ابن أفلح).

ومن المبسوطة: (القانون المسعودي) لأبي ريحان البيروني؛

و (شرح المجسطي) للتبريزي.

وقد يجرد عن البراهين، ويقتصر على التصور والتخيل دون اليقين ويسمى: «هيئة بسيطة».

فمن المختصر فيه: (التذكرة) لخواجة نصير الدين الطوسي.

ومن المتوسطة: (هيئة العرضي).

ومن المبسوطة: (التحفة) و (نهاية الادراك).

كلاهما للعلامة قطب الدين الشيرازي.

ومن المختصر المشهور:

(الملخص) لمحمود الجغميني. وعليه شروح كثيرة:

١ ــ كشرح مولانا فضل الله العبيدي؛

٢ ــ وشرح كمال الدين التركماني؛

٣ ــ وشرح السيد الشريف؛

٤ ــ وشرح قاضي زاده الرومي.

ومن الكتب المختصرة النافعة فيه غاية النفع:

(كتاب الفتحية) لمولانا علي بن محمد القوشجي. وعليه: شرح لمولانا سنان، لكنه ما كان ماهراً في هذا العلم. وشرحه أستاذي مولانا محمود الشهير بميرم جلبي. وهو ابن بنت المصنف رحمه الله، مولانا علي وقد كتبه عند قراءتي عليه كتاب (الفتحية).

وكان القدماء قد اقتصروا في هيئة الأفلاك على الدوائر المجردة، و يسمى: «هيئة مسطحة». وفيه (كتاب لأبي علي بن الهيثم).

ومنفعة هذا العلم ــ أعني علم الهيئة ــ وشرف موضوعه، ووثاقة أدلته، وثبات معلوماته ظاهرة. وكفى بهذا العلم شرفاً قوله عز وعلا: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم و يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾[1]. وسنذكر فروع هذا العلم فيما بعد، ان شاء الله تعالى.

علم العدد

و يسمى الأرثماطيقي.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

وهو علم تتعرف منه أنواع العدد، وأحوالها، وكيفية تولد بعضها من بعض؛ وموضوعه: الأعداد من جهة خواصها ولوازمها.

ومن الكتب المختصرة فيه: (سقط الزند في علم العدد).

ومن المبسوطة: (كتاب الارثماطيقي) من أبواب الشفا.

ومن المتوسطة: (كتاب نيقوماخس) والد أرسطو.

ومنفعة هذا العلم: ارتياض النفس بالنظر في المجردات عن المادة ولواحقها. ولذلك كانت القدماء يقدمونه في التعليم على سائر العلوم حتى المنطق، ولأنه مثال العالم، في صدوره عن واجب مجرد خارج عنه، كما أن الاعداد تنشأ عن الواحد وليس هو بعدد. وفروع هذا الفن كثيرة سنوردها ان شاء الله تعالى.

علم الموسيقى

وهو علم يعرف منه أحوال النغم والايقاعات، وكيفية تأليف اللحون وايجاد الآلات الموسيقاوية. وانما وضعوا هذه الآلات لضرورة تخلل الفترات بالصوت الانساني فتخل باللذة، ولأنه قد يوجد في بعض الآلات ما ليس في الطبيعة، فلم يرتضوا الاخلال به.

وموضوعه: الصوت من جهة تأثيره في النفس، باعتبار نظامه في طبقته وزمانا؛ ومنفعته: بسط الأرواح وتعديلها وتقويتها وقبضها أيضاً، لأنها يحركها اما عن مبدأيها، فيحدث السرور واللذة والكرم والشجاعة وما يناسبها؛ وأما الى مبدأيها، فتحدث الفكر في العواقب والاهتمام ونحوهما. ولذلك يستعملون النغم تارة في الأفراح والحروب وعلاج المرضى، وتارة في المآتم و بيوت العبادات.

وأما ما يقال عن سبب انفعال النفس عن الالحان، تذكرها عالمها الأول للمناسبات التي بين هذه الألحان، وألحان تسمع من حركات الأفلاك فليس على ظاهره، اذ ليس لحركات الافلاك قرع، ولا هناك هواء، حتى يحدث منها الصوت لما تقرر في الحكمة، بل معناه أن حركات الأفلاك حركة شوقية الى مؤثراتها من العقول، وأن حركاتها لعشقها على الأمر اللطيف الذي هو العقل

المؤثر، وكما أن نفوس الأفلاك عاشقة على الأمر اللطيف، فكذلك نفوس الانسان عاشقة على الأمور اللطيفة الموزونة، فاذا رأت النفس صورة حسنة، أو سمعت صوتاً حسناً، تتذكر عالم العقول، فتنبسط لها، وتنشرح لأجلها، وترتاح لاستماعها، كارتياح الأفلاك للأمر اللطيف.

و (كتاب الفارابي) أشهر كتب الفن؛

وكذا (كتاب الموسيقى) من أبواب (الشفا) لابن سينا؛

ولصفي الدين عبد المؤمن (مختصر لطيف)؛

ولثابت بن قرة (تصنيف نافع)؛

ولأبي الوفاء الجوزجاني (مختصر في فن الايقاع).

والكتب في هذا الفن كثيرة إلا أن الكل يفيد العلم. والعمل موقوف على سماع من الأستاذ الحاذق ثم التمرن فيما سمعه. ولهذا الفن أيضاً فروع لا تحصى ستسمعها ان شاء الله تعالى.

الشعبة السابعة

في فروع علم الهندسة

علم عقود الأبنية

وهو علم تتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية. وكيفية أحكامها، وطريق حسنها كبناء الحصون المحكمة. وتنضيد المنازل البهية: والقناطر المشيدة، وأمثالها: وأحوال كيفية شق الأنهار. وتنقية القناء. وانباط المياه، ونقلها من الأغوار الى النجود، وغير ذلك. ومنفعته عظيمة في عمارة المدن والمنازل والقلاع. وفيه كتاب لابن الهيثم، وكتاب آخر لكرجي.

علم المناظر

وهو علم يتعرف منه أحوال المبصرات — في كميتها وكيفيتها — باعتبار قربها و بعدها عن الناظر، واختلاف أشكالها وأوضاعها، وما يتوسط بين الناظر والمبصرات، وغلظته ورقته، وعلل تلك الأمور. ومنفعته: معرفة أحوال الأبصار، وتفاوت المبصرات، والوقوف على سبب الأغاليط الحسية الواقعة فيها. و يستعان بهذا العلم على مساحة الأجرام البعيدة والمرايا المحرقة أيضاً.

ومن الكتب المختصرة فيه: (كتاب أقليدس)؛
ومن المتوسطة: (كتاب علي بن عيسى الوزير)؛
ومن المبسوطة: (كتاب لابن الهيثم).

علم المرايا المحرقة

وهو علم يتعرف منه أحوال الخطوط الشعاعية، المنعطفة والمنعكسة والمنكسرة، ومواقعها وزواياها ومراجعها، وكيفية عمل المرايا المحرقة، بانعكاس أشعة الشمس عنها، ونصبها ومحاذاتها. ومنفعته بليغة في محاصرات المدن والقلاع وقد كان القدماء يعملون المرايا من أسطحة مستوية، وبعضهم من مقعر كرة، الى أن ظهر «دنوفلس»، وبرهن على أنها اذا كانت أسطحتها مقعرة بحسب القطع المكافي، فانها تكون في نهاية القوة والاحراق. وكتاب أبي علي بن الهيثم في المرايا المحرقة على هذا الرأي.

علم مراكز الأثقال

وهو علم يتعرف منه كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحمول. والمراد بمركز الثقل حد في الجسم عنده يتعادل بالنسبة الى الحامل. ومنفعته: معرفة كيفية معادلة الأجسام العظيمة بما دونها لتوسط المسافة، كما في القرسطون. وفيه كتاب لأبي سهل الكوهي تساهل في مقدمات براهينية. ولابن الهيثم فيه كتاب مفيد.

علم جر الأثقال

وهو علم يتبين منه كيفية اتخاذ الآلات النقلية بالقوة اليسيرة؛ ومنفعته ظاهرة حتى للعوام. وقد برهن «ايرن» في (كتابه في هذا العلم) على نقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة رطل، وهذا أمر تستبعده العقول القاصرة.

علم المساحة

وهو علم يتعرف منه مقادير الخطوط والسطوح والأجسام، بما يقدرها من الخط والمربع والمكعب. ومنفعته جليلة في أمر الخراج وقسمة الأرضين وتقدير المساكن وغيرها.

ومن الكتب المختصرة فيه: (كتاب لابن محلي الموصلي)؛

ومن المبسوطة: (كتاب لابن المختار)؛ و (كتاب أرشميدس).

علم أنباط المياه

وهو علم يتعرف منه كيفية استخراج المياه الكامنة في الأرض وإظهارها ومنفعته: احياء الأرضين وافلاحها. ونقل عن بعض العلماء أنه قال: لو علم عباد الله تعالى رضاء الله تعالى في إحياء أرضه، لم يبق في وجه الأرض موضع خراب.

وللكرخي فيه (كتاب مختصر). وفي خلال كتاب (الفلاحة النبطية) مهمات هذا العلم.

علم الآلات الحربية

وهو علم يتعرف منه كيفية ايجاد الآلات الحربية كالمنجنيق وغيرها. ومنفعته ظاهرة، لأنها شديدة الغناء في دفع الأعداء وحماية المدن. وهذا العلم أحد أركان الدين، لتوقف أمر الجهاد عليه، الذي هو من أركان الدين. ولبني موسى بن شاكر كتاب مفيد في هذا العلم.

علم الرمي

مثل رمي القوس والبنادق. وهو علم يتعرف منه رمي الأمور المذكورة بالمزاولة، ليكون عملها على وجه الاصابة. ومنفعتها عظيمة في كل الأمور.

علم التعديل

وهو علم يعرف به كيفية تفاوت الليل والنهار، وتداخل الساعات في الليل والنهار عند تفاوتها في الصيف والشتاء. ونفع هذا العلم عظيم.

علم البنكامات

علم يتبين فيه كيفية ايجاد الآلات المقدرة للزمان. ومنفعته: معرفة أوقات العبادات، واستخراج الطوالع من الكواكب وأجزاء فلك البروج، فهذا العلم عظيم النفع في الدين. و(كتاب أرشميدس) هو العمدة في هذا الفن وللمتأخرين في هذا العلم تصانيف مفيدة حسنة جداً.

علم الملاحة

وهو علم يتعرف به آلات السفينة، وكيفية اجرائها في البحر، وأن مقدار هذا الثقل بهذا المقدار من الريح كم فرسخاً يتحرك في مقدار هذه الساعات. ويتوقف على معرفة سموات البحار والبلدان والأقاليم، ومعرفة ساعات الأيام والليالي، ومعرفة مهاب الرياح وعواصفها، ورخائها وممطرها وغير ممطرها. ومن مبادئه: علم الميقات، وعلم الهندسة. ويتوقف على معرفة عجائب البحر وطبائعها وخواصها وصور الأقاليم، وغير ذلك مما يعرفه أهله. وهذا العلم يعرف بالتمرن عند المتمهرين فيه، ولذلك قلما يصنفون فيه. وهذا العلم عظيم النفع، لأن الله تعالى أمتن على عباده بالسفن. فهذا العلم مما يتم به أعظم منن الله تعالى على عباده. وفي هذا الفن كتب موجودة عند أهله. وأكثر مبادئه مستندة الى التجربة.

علم السباحة

(وهذا أيضاً من فروع علم الملاحة، إذ لا يقدر أحد على الملاحة أو لا تتم فيه الملاحة إلا بتحسين أمر السباحة) لكنها تحصل بالمزاولة والادمان.

علم الأوزان والموازين

وهذا العلم لضبط أثقال الأحجار في البناء، وضبط أثقال الأحمال، ومعرفة مقاديرها، ومعرفة الآلات التي توزن بها الأشياء: من الميزان والقسطاس والصاع والكيل، وأمثال ذلك. وضبط هذه الأمور لا يتيسر إلا لمن له حظ في علم الهندسة كما لا يخفى.

علم الآلات المبنية على ضرورة عدم الخلاء

كقدح العدل، وقدح الجور.

أما قدح العدل: فهو اناء إذا امتلأ منها قدر معين يستقر فيها الشراب، وان زيد عليها — ولو شيء يسير — ينصب الماء ويتفرغ الاناء عنه، بحيث لا

يبق قطرة لأنه اذا ابتدىء الماء بالانصباب، يستتبع البواقي لعدم امكان الخلاء.

أما قدح الجور: فهو قدح له مقدار معين، ان صب فيه بذلك القدر القليل يثبت، وان ملىء يثبت أيضاً، وان كان بين المقدارين يتفرغ الاناء، كل ذلك لعدم امكان الخلاء. وأمثال هذه الظروف من فروع الهندسة، من حيث تعين قدر الاناء، والا فهو بالحقيقة من فروع علم الطبيعي. ومن هذا القبيل دوران الساعات، كما مر فيما سبق، ويسمى أيضاً: «علم الآلات الروحانية» لارتياح النفس بغرائب هذه الآلات. وأشهر كتب هذا الفن: (كتاب حيل بني موسى بن شاكر)؛ وفيه (كتاب مختصر) لفيلن، و (كتاب مبسوط) للبديع الجيري.

الشعبة الثامنة

في فروع علم الهيئة

علم الزيجات والتقاويم

وهو علم يتعرف منه مقادير حركات الكواكب، سيما السبعة السيارة، وتقويم حركاتها، واخراج الطوالع، وغير ذلك، منتزعاً من الأصول الكلية.

ومنفعته: معرفة موضع كل واحد من الكواكب، سيما السبعة، بالنسبة الى فلكها، والى فلك البروج وانتقالاتها، ورجوعها واستقامتها، وتشريقها وتغريبها، وظهورها وخفائها في كل زمان ومكان، ليتعرف بمعرفة هذه الأمور الاتصالات بين الكواكب: من المقارنة والمقابلة والتربيع والتثليث والتسديس، ويعرف كسوف الشمس وخسوف القمر، وما يجري هذا المجرى.

والغرض الأخير من معرفة هذه الأمور معرفة أمرين:

أما معرفة الساعات والأوقات، وفصول السنة، وسمت القبلة وأوقات الصلاة.

وأما معرفة الأحكام الجارية في عالم العناصر بسبب تلك الأوضاع.

إلا أن الغرض الأصلي لا بد أن يكون الأمر الأول، إذ هو المهم في الطبع والعادة والشرع. وأما معرفة الأحكام: فمع كونها مدخولة الصحة في الشرع، لا يكاد يستقيم شيء منها، وان وقع فانما يقع بطريق الاتفاق وعدم الصحة: أما لكون مبنى علم الأحكام على الدلائل الواهية، والبراهين الضعيفة، التي لا تفيد

شبهة، فضلاً عن ظن، فضلاً عن يقين؛ وأما لعسر تعيين الأوضاع العارضة للكواكب، لعسر الطرق، وعدم الاطلاع على الخطأ، لبعد مقادير الحركات عن الحس، حتى يصلحه المحاسب بعد ذلك. وأنفع الزيجات: «الزيج الايلخاني» التي تولاها خواجه نصير الدين الطوسي. والمشهور عند أهل مصر: «الزيج المصطلح». وبدمشق: «زيج ابن شاطر». وفي ديار العجم: «زيج الغ بيك» ابن شاهرخ بن أمير تيمور، وهو ــ والعلم عند الله ــ أقرب الزيجات من الصحة، وأقصى ما يمكن للبشر معرفته في هذا الشأن، وعليه التعويل في زماننا في معظم الأقاويل. وتولى هذا الزيج أولاً غياث الدين بن جمشد بسمرقند، وتوفاه الله تعالى في مبادي أحواله، ثم تولاه قاضي زاده الرومي، وتوفاه الله تعالى أيضاً قبل اتمامه، وإنما أتمه وأكمله مولانا علي بن محمد القوشجي رحمه الله.

علم كتابة التقاويم

وهو ترتيب خاص، يثبتون ما خرج من الزيج من الأعمال، على الترتيب الخاص، في أوراق اثني عشر، مجدولة بجداول على وجه خاص. ويرقونها بأرقام مخصوصة، ويكتبون فيها الشهور الاثني عشر وما يوجد فيها من المواسم والاختيارات والأحكام، الى غير ذلك مما يعرفه أهله. وبين نصير الدين الطوسي جميع أحوال التقويم ومصطلحاته في (رسالة له) هي ثلاثون باباً.

علم حساب النجوم

وهو حساب يبحث فيه عن كيفية حساب الأرقام الواقعة في الزيجات. وهذا وان كان من فروع علم العدد، إلا أنه ــ من جهة توقف التقويم عليه ــ صار من فروعه أيضاً، سيما وقد امتاز عن سائر أعمال الحساب بقواعد خاصة به، يعرفها من اهتم بها.

علم كيفية الأرصاد

وهو علم يتعرف منه تحصيل مقادير الحركات الفلكية، والقوانين المتعلقة

بتحصيلها، وكيفية التوصل اليها بالآلات الرصدية. ومنفعته: تكميل علم الهيئة، وتحصيل الزيجات، والاقتدار على تدوينها. وكتاب (الارصاد) لابن الهيثم يشتمل على نظري هذا الفن.

علم الآلات الرصدية

وهو علم يتعرف منه كيفية تحصيل الآلات الرصدية قبل الشروع في الرصد، فان الرصد لا يتم إلا بآلات كثيرة رتبوها، وتحصيل تلك الآلات يتوقف على معرفة أحوالها. وكتاب (الآلات العجيبة) للخازني يشتمل على ذلك.

علم المواقيت

وهو علم يتعرف منه أزمنة الأيام والليالي، وأحوالها، وكيفية التوصل اليها. ومنفعته: معرفة أوقات العبادات، ونواحي جهتها، والطوالع والمطالع من اجراء البروج، والكواكب الثابتة التي منها منازل القمر، ومقادير الاظلال والارتفاعات، وانحراف البلدان وسموتها.

ومن المصنفات فيه:

(نفائس اليواقيت في أحوال المواقيت)؛

و (جامع المبادي والغايات) لأبي علي المراكشي.

علم الآلات الظلية

وهو علم يتعرف منه مقادير ظلال المقايس وأحوالها الآخر، والخطوط التي ترسم في أطرافها، ومعرفة أحوال الظلال المستوية والمنكوسة. ومنفعته معرفة ساعات النهار بهذه الآلات: كالبسائط والقائمات والمائلات من الرخامات ونحوها. ولابراهيم بن سنان الحراني فيه (كتاب مبرهن).

علم الاكر

وهو علم باحث عن أحوال المقادير المتعلقة بالأكر خاصة دون المسطحات، وتتوقف براهين علم الهيئة على ذلك أشد توقف. ومنفعته بينة لا تخفى.

علم الأكر المتحركة

وهو علم باحث عن أحوال المقادير المتعلقة بالأكر من حيث أنها متحركة، وتوقف علم الهيئة عليها أشد. ولهذا جل نفع هذا العلم.

ومن الكتب النافعة فيه:

(أكر مالاناوس)؛

و (أكر ساو ذو سيوس).

علم تسطيح الكرة

وهو علم يتعرف منه كيفية نقل الكرة الى السطح، مع حفظ الخطوط والدوائر المرسومة على الكرة، وكيفية نقل تلك الدوائر الى الخط. وتصور هذا العلم عسير جداً، يكاد يقرب من خرق العادة، لكن عملها باليد كثيراً ما يتولاه الناس ولا عسر فيه مثل عسر التصور.

ومن الكتب القديمة فيه:

(كتاب تسطيح الكرة) لبطليموس؛

و (المحدث الكامل) للفرغاني؛

و (الاستيعاب) للبيروني؛

و (آلات التقويم) للمراكشي.

علم صور الكواكب

واعلم: أن المنجمين تصوروا في فلك الثوابت ثمانياً وأربعين صورة. منها: ما على المنطقة يتوهم اثنتي عشرة صورة لتعيين البروج، وثمان وعشرين صورة أخرى لتعيين منازل القمر. و يندرج بعض هذه الصور في بعض. وبهذه الصور

ضبطوا من الكواكب الثوابت ألفاً واثنين وعشرين كوكباً، وعرفوا مواضعها في الطول والعرض، وجعلوا كل جملة منها متساو ية المقدار تقريباً، ورتبوها في ست مراتب أولاها أعظمها، وعلى هذا القياس. ولعبد الرحمن الصوفي (رسالة صور الكواكب) نافعة في هذا الباب ولمحيى الدين المغربي أيضاً (رسالة) في هذا الباب.

علم مقادير العلويات

وهو علم باحث عن قدر الكواكب والأفلاك بالأميال والفراسخ، وقدر الشمس والقمر والأرض، و بعد كل من هذه الأجرام بعضها عن بعض. وهذا علم بعيد المتناول، إلا أن القدماء اجتهدوا فيه، و بينوا تلك المسائل ببراهين قطعية، لا يشك من يتولاها في صحتها.

علم منازل القمر

وهو علم يتعرف منه صور المنازل الثماني والعشرين، وأسماؤها، وخواص كل واحد منها، وأحكام نزول القمر في كل منها، الى غير ذلك.

علم جغرافيا

ومعناه: صورة الأرض.

وهو علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان الواقعة فيه، وأطوالها. وكذا عدد مدنها وجبالها، و براريها وبحارها وأنهارها، الى غير ذلك من أحوال الربع المعمور. ولبطليموس تأليفات كثيرة في هذا العلم نافعة جداً.

علم مسالك البلدان والأمصار

وهو علم باحث عن أحوال الطرق الواقعة بين البلاد، وأنها برية أو بحرية، عامرة أو غامرة، سهلية أو جبلية، مستقيمة أو منحرفة، والعلامات المنصوبة لتلك الطرق من الجبال والتلال وأمثالها، ومعرفة ما في تلك المسالك من

المخاوف الحيوانية أو النباتية أو السبعية وأمثال ذلك. ومنفعة هذا العلم لا تخفى على أحد.

علم معرفة البرد ومسافاتها

وهو علم يتعرف منه كمية مسالك الأمصار فراسخ وأميالا، وأنها مسافة شهرية أو أقل أو أكثر. ونفع هذا العلم كالعلم المتقدم.

علم خواص الأقاليم

وهو علم يتعرف منه ما في كل أقليم أو بلد من المنافع والمضار والعجائب والغرائب. وهذا علم جليل ترتاح اليه النفوس. مثل: ما روى أن ببلاد الهند ورداً مكتوباً في الورقة منها: «محمد رسول الله»، رواه الذهبي في (الميزان). ونظيره ما ذكره ابن العديم في (تاريخه)، في ترجمة الحسن بن أحمد بن الحسن، الوراق الخواص المصيصي، أنه روى مسنداً الى علي بن عبدالله الهاشمي، أنه رأى في بعض بلاد الهند وردة كبيرة طيبة الرائحة سوداء، عليها مكتوب بخط أبيض «لا اله إلا الله محمد رسول الله. أبو بكر الصديق عمر الفاروق».

فظننت أنه معمول، ففتحت وردة لم تفتح بعد فكان فيها مثل ذلك، وفي البلد منه شيء كثير، وأهل تلك القرية يعبدون الحجارة، ولا يعرفون الله عز وجل.

وحكى الشيخ اليافعي في كتابه المسمى (بروض الرياحين)، عن بعض الشيوخ، أنه رأى ببلاد الهند، شجرة تحمل ثمرة تشبه اللوز لها قشر، ان كسر خرج منه ورقة خضراء مطوية، مكتوب عليها بالحمرة: «لا اله إلا الله. محمد رسول الله» كتابة جلية، وهم يتبركون بها، ويستسقون بها إذا منعوا من الغيث. فحدثت بها أبا يعقوب الصياد، فقال لي: ما استعظم هذا. كنت اصطاد على نهر الابلة، فاصطدت سمكة مكتوب على جنبها الأيمن أو أذنها اليمنى: «لا اله إلا الله»، وعلى جنبها الأيسر أو أذنها اليسرى: «محمد رسول الله»، فقذفتها في الماء احتراماً لما عليها.

قلت: سمعت من أثق به، أنه يروي عمن يثق به، أنه رأى جرادة في أحد جناحيها: «لا إله إلا الله» وفي الآخر: «محمد رسول الله».

وأمثال هذه الغرائب والعجائب في الآفاق. خارج عن احاطة الأوراق.

سبحان مبدعها ومخترعها، جل جلاله وعم نواله. وكتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني أتى بالعجب العجائب. وكتاب آخر في هذا الباب أحسن من كتاب القزويني، لكن لم أتذكر اسمه، ثم سألت عنه واحداً من أصحابي، فقال: إنه (خريدة العجائب) لابن الوردي.

وفيها كتاب آخر، (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الصقلي، و (تقويم البلدان) لياقوت الحموي، وغير ذلك.

علم الأدوار والأكوار

اعلم أن الدور يطلق في اصطلاحهم على ثلاثمائة وستين سنة شمسية؛ والكور على مائة وعشرين سنة قمرية. ويبحث في العلم المذكور عن تبدل الأحوال الجارية في كل دور وكور. وهذا من فروع أحكام النجوم كما هو ظاهر عند أهله.

علم القرانات

اعلم أن القران: هو اجتماع كوكبين أو أكثر من الكواكب السبعة السيارة في درجة واحدة من برج واحد. ويبحث في هذا العلم، عن الأحكام الجارية في هذا العالم، بسبب قران السبعة كلها أو بعضها في درجة واحدة من برج معين.

واعلم: أن أرباب النجوم، زعموا أن الكواكب السبعة كانت مقترنة في أول الميزان في مبدأ العالم، ثم تفرقت، فمتى اجتمعوا في برج واحد، يكون سبباً لحادث عظيم ــ باذن الفاطر الحكيم القادر العليم ــ في عالم الكون والفساد، كحدوث طوفان عظيم، منها طوفان نوح عليه السلام؛ أو تبدل ملة: كبعثة

الأنبياء؛ أو دولة كغلبة اسكندر وجنكيزخان وتيمور وأمثالهم، حسب تفاوت القرانات في البروج، وفي قران الكل أو البعض.

ولنصير الدين الطوسي (تأليف في هذا الباب)، وكذا لجاماسب الحكيم.

واعلم: أن من القرانات ما يكون في كل عشرين سنة، ومنها ما يكون في كل مائتين وأربعين سنة، ومنها ما يكون في كل تسعمائة وستين سنة، ومنها ما يكون في كل ثلاثة آلاف سنة وثماني وأربعين سنة مرة، ومنها ما يكون في كل سبعة آلاف سنة مرة.

والله أعلم بحقيقة الحال.

علم الملاحم

وهي جمع ملحمة، وهي الوقعة العظيمة في الفتنة. ويعرف في هذا العلم ـ بسبب ضبط أحوال أحكام النجوم ـ كل وقعة وفتنة عظيمة، مثل: وقعة «بخت نصر»، ووقعة جنكيز، وهولاكو وتيمور، ما وقع منها وما سيقع؛ وتعيين زمان وقوعها في الآتي.

وهذا علم يعتني الناس به، ويستخرجون أحكامه، إلا أنك قد عرفت أن علم الأحكام لا يخلو عن شبهة وتخمين. ويكفيك في معرفة الملاحم ما وقع في الأحاديث النبوية، لأنه صلى الله عليه وسلم لم تفته حادثة يرجى وقوعها، لأن هذا الاطلاع في منصب النبوة، أدنى من نسبة القطرة الى البحر المحيط. وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى معظم ما سيقع منها بل الى كلها. فعليك بتتبع الأحاديث إن أردت معرفة هذا الشأن، إذ ليس قرية وراء عبادان وقد قال تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾[1].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

علم مواسم السنة

واعلم: أن لكل أمة من الأمم، ولكل طائفة من الأقوام مواسم وأعياد، يراعونها ويحفظونها، ويجعلون لها وقتاً معلوماً في كل سنة لا يخطىء عنها أصلاً.

فالعلم المذكور يعرف منه أعياد كل قوم، وأنها من السنة في أي يوم، ويعرف شغل أهلها في ذلك اليوم؛ مثل يوم النيروز والمهرجان عند أهل فارس. وكان أهل القبط بمصر، يأتي ملكهم في يوم النيروز شخص ويرصد من الليل، ويكون مليح الوجه، حسن الثياب، طيب الرائحة، فيقف على الباب حتى يصبح، وإذا أصبح دخل على الملك بغير اذن، ويقف بحيث ان الملك يراه، فيقول له: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ وأين تريد؟ وما اسمك؟ ولأي شيء وردت؟ وما معك؟ فيقول: أنا المنصور، واسمي المبارك، ومن قبل الله أقبلت، والملك السعيد أردت، وبالهناء والسلامة وردت ومعي السنة الجديدة. ثم يجلس، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة، وفيه حنطة وشعير وجلبان وذرة وحمص وسمسم وأرز، من كلٍ سبع سنابل وسبع حبات، وقطعة سكر ودينار ودرهم جدد، فيضع الطبق بين يدي الملك، ثم يدخل عليه الهدايا يبتدىء من الوزير، ثم الناس على قدر مراتبهم، ثم يقدم الملك رغيفاً كبيراً مصنوعاً من تلك الحبوب، فيأكل منه ويطعم من حضره، ثم يقول: هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن يجدد فيه ما أخلق الزمان، وأحق الناس بالفضل والاحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء، ثم يخلع على وجوه دولته ويصلهم ويفرق عليهم ما حمل اليه من الهدايا.

وكان من عادة الفرس في عيدهم، أن يدهن الملك بدهن البان تبركاً، ويلبس القصب والوشي، ويضع على رأسه تاجاً فيه صورة الشمس، ويكون أول من دخل عليه الموبذان، يطبق عليه أترجة وقطعة سكر ونبق وسفرجل وتفاح وعناب وعنقود عنب أبيض، وسبع باقات آس. ثم تدخل الناس مثل الأول على طبقاتهم.

ومن عادتهم في يوم النيروز، أنهم يجمعون بين سبعة أشياء ــ أول أسمائهم سينات ــ يأكلونها، وهي: السكر، والسمسم، والسميد، والسفرجل، والسماق، والسذاب، والسقنقور.

وعادات الناس في الأعياد خارجة عن حد التعداد. وليكتف بهذا القدر، إذ الغرض المثال لا الاستيفاء في الأمثال.

علم مواقيت الصلاة

وهو علم يتعرف منه أوقات الصلاة الخمس على الوجه الوارد في الشرع. وهذا العلم فرض علمه تقريباً، لأن ما يتم الواجب المطلق إلا به. وهو مقدور للمكلف، فهو واجب. وأما علمه التحقيقي، ففرض في البلد من يعرفه، فيكون من فروض الكفايات.

علم وضع الاسطرلاب

وهو علم باحث عن كيفية وضع الاسطرلاب، ومعرفة صنعة خطوطه على الصفائح، ومعرفة كيفية الوضع في كل عرض من الأقاليم. وقد يعمل اسطرلاب شامل لجميع البلاد، وهذا عظيم النفع جداً.

علم عمل الاسطرلاب

وهو علم يتعرف منه كيفية استخراج الأعمال الفلكية من الاسطرلاب بطرق خاصة مبينة في كتبها. وهذا أيضاً علم نافع يستخرج منه كثير من الأعمال: من معرفة ارتفاع الشمس، ومعرفة المطالع والطوالع، ومعرفة أوقات الصلاة وسمت القبلة، ومعرفة طول الأشياء بالذراع وعرضها، إلى غير ذلك.

علم وضع ربع الدائرة المجيب والمقنطرات

وتعريفه وموضوعه: يعرف بالقياس الى وضع الاسطرلاب

علم ربع الدائرة

والكلام فيه كالكلام في الاسطرلاب، لكن طرق صنعتها وعملها غير طرق الاسطرلاب، كما لا يخفى على أولي الألباب. وكذا الحال في سائر الآلات مثل العصا، والزرقاله. والشكازية وأمثالها.

علم آلات الساعة

من الصناديق، والضوارب وأمثال ذلك. وتفاصيلها لا يحتملها هذا المختصر. ورأيت فيها مجلدات عظيمة. والغرض ها هنا التنبيه على اجمالها. ونفع هذا العلم بيِّن لكل أحد حتى العوام. والله ولي التوفيق والاعلام، ومنه الهداية والالهام.

الشعبة التاسعة

في فروع علم العدد

وقد تسمى بعلم الحساب.

وهو علم يتعرف منه كيفية مزاولة الأعداد، لاستخراج المجهولات الحسابية: من الجمع والتفريق والتناسب والضرب والقسمة. ومنفعته: ضبط المعاملات، وحفظ الأموال، وقضاء الديون، وقسمة التركات بين الشركاء وغيرها. ويحتاج اليه في العلوم الفلكية وفي المساحة والطب. وقيل: يحتاج اليه في جميع العلوم.

وبالجملة: لا يستغني عنه ملك ولا عالم ولا سوقة. وزاد شرفاً بقوله تعالى: ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾(١). وقوله تعالى: و﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ فاسأل العادين ﴾(٣).

ولعلم الحساب فروع كثيرة نذكرها ها هنا.

علم حساب التحت والميل

وهو علم يتعرف منه كيفية مزاولة الأعمال الحسابية برقوم تدل على الآحاد، وتغني عما عداها بالمراتب. وتنسب هذه الأرقام الى الهند.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

(٢) سورة يونس، آية: ٥.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ١١٣.

ومنفعته: تسهيل الأعمال الحسابية وسرعتها، خصوصاً الفلكية.

ومن الكتب الشاملة فيه: (كتاب خواجه نصير الدين الطوسي).

ولأهل المغرب طرق ينفردون بها في الأعمال الجزئية:

(فمنها) قريبة المأخذ: كطرق ابن ياسمين.

و (منها) بعيدة: كطرق الحضار.

ولابن الهيثم كتاب يبرهن فيه على أصول أعماله ببراهين عددية.

ومن الكتب النافعة في هذا العلم:

(كتاب المحمدية) لمولانا علي بن محمد القوشجي؛

و (كتاب المختصر) للصلاحي؛

و (شرحه)؛

وغير ذلك، مما لا يعد ولا يحصى.

علم الجبر والمقابلة

وهو علم يتعرف منه كيفية استخراج المجهولات العددية بمعادلتها لمعلومات تخصها. ومعنى الجبر: زيادة قدر ما نقص في الجملة المعادلة، بالاستثناء في الجملة الأخرى لتتعادلا. ومعنى القابلة: اسقاط الزائد من احدى الجملتين للتعادل. ومنفعته: استعلام المجهولات العددية إذا كانت معلومة العوارض، ورياضة الذهن.

ومن الكتب المختصرة فيه:

(نصاب الجبر) لابن فلوس الماريديني؛

و (المفيد) لابن محلي الموصلي.

ومن المتوسطة: (كتاب الظفر) للطوسي.

ومن المبسوطة:

(جامع الأصول) لابن المحلي؛

و (الكامل) لأبي شجاع بن أسلم.

وبرهن السموءل على مسائله بالبراهين العددية. وبرهن عليه الخَيَّام بالبراهين الهندسية.

و (أرجوزة) ابن الياسمين، و (شرحه) مختصر نافع أورد فيها ما لا بد منه.

ومن الرسائل الوافية بالمقصود: (رسالة شرف الدين محمد بن مسعود بن محمد المسعودي).

علم حساب الخطأين

وهو علم يتعرف منه استخراج المجهولات العددية إذا أمكن صيرورتها في أربعة أعداد متناسبة. ومنفعته: نحو منفعة الجبر والمقابلة، إلا أنه أقل عموماً منه وأسهل عملا. وانما سمى حساب الخطأين لأنه يفرض المطلوب فيه شيئاً ويختبر، فان وافق، فذاك، والا حفظ الخطأ وفرض المطلوب شيئاً آخر، ويختبر، فان وافق، فذاك، والا حفظ الخطأ الثاني، و يستخرج المطلوب منهما ومن المقدارين المفروضين. وعلى هذا إذا اتفق وقوع المسألة أولاً في أربعة أعداد متناسبة، أمكن استخراجها بخطأ واحد.

ومن الكتب الكافية فيه:

(كتاب لزين الدين المغربي) وبرهن ابن الهيثم على طرقه.

علم حساب الدور والوصايا

وهو علم يتعرف منه مقدار ما يوصى به إذا تعلق بدور في بادي النظر. مثاله: رجل وهب لمعتقه في مرض موته مائة درهم، لا مال له غيرها، فقبضها ومات قبل سيده، وخلف بنتاً والسيد المذكور. ثم مات السيد. فظاهر المسألة أن الهبة تمضي من المائة في ثلثها. فاذا مات المعتق، رجع الى السيد نصف الجائز بالهبة فيزداد ماله، فيزداد مال المعتق فيزاد مال السيد من ارثه، وهلم جراً.

وبهذا العلم يتعين مقدار الجائز بالهبة. وظاهر أن منفعة هذا العلم جليلة وان كانت الحاجة اليه قليلة.

ومن كتبه: كتاب لابن فضل الدين الخونجي.

علم حساب الدرهم والدينار

وهو علم يتعرف منه استخراج المجهولات العددية التي تزيد عدتها على المعادلات الجبرية؛ ولهذه الزيادة لقبوا تلك المجهولات بالدرهم والدينار والفلس، وغير ذلك.

ومنفعته: كمنفعة الجبر والمقابلة، فيما يتكثر فيه أجناس المعادلة.

ومن الكتب فيه:

(كتاب لابن فلوس المارديني)؛

و (الرسالة) للمغربي؛

و (الرسالة الشاملة) للخرقي؛

و (الكافي) للسموءل المغربي.

علم حساب الفرائض

وهو علم يتعرف منه قوانين تتعلق بحساب الفرائض المتعلقة بقسمة التركة. وهذا وان كان من فروع العلوم الشرعية لتعلقه بالفرائض، لكنه ــ من حيث كونه قواعد حسابية ــ يكون من فروع علم العدد. وتفاصيل هذا العلم مستوفاة في كتب الفرائض. وسنذكرها في علم الفرائض ان شاء الله تعالى.

علم حساب الهواء

وهو علم يتعرف منه كيفية حساب الأموال العظيمة من الخيال بلا كتابة. ولها طرق خاصة وقوانين عجيبة. وهذا النفع للتجار في الأسفار، وفي مواضع لا تتيسر فيها الكتابة. وأعظم منافعها لأهل السوق من العوام الذين لا يعرفون

الكتابة أصلاً، وللخواص إذا عجزوا عن احضار آلات الكتابة. وفي هذا العلم رسائل شريفة يعرفها أهلها.

ومن الكتب المختصرة فيه:

(كتاب لابن علي الموصلي)؛

و (مختصر لابن فلوس المارديني)؛

و (مختصر السموءل بن يحيى المغربي).

ومن المبسوطة:

(الكافي)؛

و (الكامل) لأبي القاسم بن السمح؛

و (شرح شمسية الحساب)؛

و (شرح مختصر الصلاحي)؛

و (أساس القواعد في شرح أصول الفوائد البهائية) لكمال الدين حسن الفارسي؛ وغير ذلك مما لا يدخل تحت الضبط.

علم حساب العقود

والمراد بالعقود: عقود الأصابع. وقد وضعوا كلا منها بازاء أعداد مخصوصة، ثم رتبوا لأوضاع الأصابع، آحاد وعشرات ومئات وألوف، حتى وضعوا قواعد يتعرف بها حساب يمكن معرفة عشرة آلاف بيد واحدة. وهذا عظيم النفع للتجار، سيما عند استعجام كل من المتبايعين لسان الآخر، وعند عدم حضور آلات الكتابة. والعصمة عن الخطأ في هذا العلم أكثر من حساب الهواء. وكان هذا العلم يستعمله الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. كما وقع في الحديث، في كيفية وضع اليد على الفخذين في التشهد، أنه عقد خمساً وخمسين، يعني: أن النبي صلى الله عليه وسلم، عقد أصابع اليد غير السبابة والابهام، وحلق الابهام معها. وهذا الشكل في علم العقود دال على العدد المذكور. فراوي الحديث، ذكر مدلول ذلك الوضع في الأصابع، وأراد داله، أعني الهيئة الموضوعة للعدد المذكور، وهذا دليل على شيوع علم العقود عندهم. وكذا

السلف، لما ذكروا أقسام الدلالات من أنها طبيعية أو وضعية؛ وكل منهما أما لفظية أو غير لفظية. مثلوا للطبيعية اللفظية كلمة «أح» ــ بضم الهمزة وسكون المهملة ــ الدالة على السعال: وهو وجع الصدر؛ و بضم الهمزة وسكون المعجمة دالة على اللذة، و بفتح الهمزة وسكون المعجمة أيضاً دالة على الوجع. ومثلوا بالطبيعية الغير اللفظية بحركة النبض. ومثلوا بالوضعية اللفظية بالألفاظ المستعملة. ومثلوا للوضعية الغير اللفظية بالخطوط والعقود والاشارات والنصب. وأرادوا بالخطوط: نقوش الكتابة، فانها ليست بلفظ، وموضوعة بازاء الألفاظ. وأرادوا بالاشارات: الاشارة باليد والشفة والحاجبين وأمثالها. و بالنصب: الأحجار المنصوبة للدلالة على موضع العبور في الأنهار العظام. وعلى موضع تميز الأراضي بعضها عن بعض. وأرادوا بالعقود: عقود الأصابع الموضوع كل منها بازاء عدد مخصوص.

وفي هذا العلم (أرجوزة لابن الحرب) أورد فيها مقدار الحاجة. وفيها (رسالة لشرف الدين اليزدي) أورد فيها الكفاية. وسمعت في هذا العلم كتاباً مطولاً لكن ما رأيته.

علم أعداد الوفق

والوفق: جداول مربعة لها بيوت مربعة، يوضع في تلك البيوت أرقام عددية، أو حروف بدل الأرقام، بشرط أن يكون أضلاع تلك الجداول وأقطارها متساوية في العدد وأن لا يوجد عدد مكرر في تلك البيوت.

وذكروا أن لاعتدال الاعداد خواص فائضة، من روحانية تلك الأعداد أو الحروف. و يترتب عليها آثار عجيبة، وتصرفات غريبة، بشرط اختيار أوقات مناسبة وساعات شريفة. وفي هذا العلم كتب كثيرة نافعة في الغاية معروفة عند أهل هذا الشأن وهذا العلم من فروع علم العدد من حيث حساب الأعداد، ومن فروع علم الخواص من حيث آثاره ومنافعه. وستسمع «علم الوفق»، وكذا «علم الحروف والتكسير» ــ ان شاء الله تعالى ــ عند ذكر «علم الخواص» عند ذكر مقطعات السور.

وأحسن كتب هذا الفن:

(كتاب شمس الآفاق في علم الحروف والأوفاق)؛

و (كيفية الاتفاق في تركيب الأوفاق)؛

و (بحر الوقوف في علم الأوفاق والحروف).

والكتب في هذا الفن كثيرة، تفوق مائة مصنف، على ما رأيته وسمعته، بل هذا العلم بحر لا ساحل له، إذ ينتهي الى علم المكاشفة الذي غرق في بحاره عقول العلماء والحكماء.

علم خواص الاعداد المتحابة والمتباغضة

واعلم: أن كنكة الملك ـ من حكماء الهند ـ استنبط الأعداد المتحابة. وذكر أنها اذا وضعت في طعام أو شراب أو غير ذلك مما يستعمله شخصان، تألف بينهما محبة عجيبة، وان رسمتها على ثوبك لم يفارقك. والعدد الأصغر منها «كر»، والعدد الأكبر منها «دفر»، وترسمها برسم قلم الغبار، وتعطى الأصغر من شئت وتأكل أنت الأكبر، فان الأصغر يطيع الأكبر بخاصية ظريفة. و يستعمل في الزبيب، والحب، والرمان وأشباهها من الفاكهة عدداً لا رسماً.

ثم أن أفلاطون الالهي، بيّن خواص الأعداد المتحابة والمتباغضة، وذكر أنه: لو كتب الأعداد المتحابة في كوز لم يمسه الماء، وشرب منه شخصان، فانه يتولد بينهما محبة أكيدة لم يعهد ذلك قبل؛ وأنه: لو روعي في الأعداد المتباغضة مثل ذلك، فانه يظهر بينهما عداوة راسخة باذن الله تعالى.

وأما طريق استخراج الأعداد المتحابة فقد بُيّن مستوْفى ببراهين عددية في كتاب (تذكرة الأحباب في بيان التحاب)؛ وهذا كتاب نفيس، يدل على فضل مؤلفه، وعلو كعبه في العلوم الرياضية، يشهد بذلك كتابه المذكور.

علم التعابي العددية في الحروب

وهو علم يتعرف منه كيفية ترتيب العساكر في الحروب، وكيفية تسوية صفوفها أزواجاً وأفراداً، أو تعيين أعداد الصفوف وأعداد الرجال في كل صف

منها، وهيئة الصفوف: أما على التدوير أو التثليث أو التربيع، الى غير ذلك، حسب ما تقتضيه الأحوال؛ وبينوا أن في رعاية الترتيب المذكور، ظفراً بالمرام، ونصرة على الأعداء، ولا يكون مغلوباً أبداً باذن الله القادر العليم. إلا أن العلماء أخفوا هذا العلم وضنوا به عن الأغيار. وللشيخ عبد الرحمن، من السادة الحرفية (تصنيف) مليح في هذا العلم، لكن ضن بها بعض الضن، إلا أن من وقف على أسرار الخواص الحرفية والعددية، لا تخفى عليه خافية. لكن لا بد من خدمة السادة الصوفية، وأن تستاهل للمكاشفات القرآنية، والأسرار الفرقانية، وإلا فأنت عن مثل هذا العلم بمعزل، وعن الوصول الى المقصد بألف منزل.

ومن يخطب الحسناء من غير أهلها   بعيد عليه أن يفوز بوصلها

ولله در الامام الشافعي، رضي الله عنه حيث قال:

كيف الوصول الى سعاد ودونها   قلل الجبال ودونهن حتوف
الرجل حافية ومالى مركب   والكف صفر والطريق مخوف

رزقنا الله واياكم الوصول الى المقصد، بحرمة نبيه محمد، صلى الله عليه وآله وأصحابه وذرياته وأحبابه وسلم.

الشعبة العاشرة

في فروع علم الموسيق

علم الآلات العجيبة

كالعود والمزامير والقانون، سيا الأرغون.

ولقد أبدع واضعها فيها الصنائع العجيبة والأمور الغريبة. ولقد شاهدت أرغنون، واستمعت بها مرات عديدة، ولم يزد المشاهدة والنظر الا دهشة وحيرة. ولا نطول الكلام بذكر أنواع الآلات، لأنها وان كانت من فروع العلوم الرياضية، لكنها محرمة في شريعتنا، فالاشتغال بتعدادها يضيع الأوقات، وعمر طالب على الآخرة، أشرف من أن يضيعها في أمثال هذه، وانما تعرضت لما تعرضت تتميماً للكلام. والتوفيق من الملك العلام.

علم الرقص

وهو علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص، بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهدها. وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والأغنياء والأمراء، وما يجري مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي، ويعلمونها الغلمان الحسان، والجواري الفائقات، ليلتذ السمع والبصر معاً، بمشاهدة حسنهم وحسنهن، واستماع نغماتهن وغنجهن، حتى تكمل اللذة والحبور والفرحة والسرور. وأهل الهند ماهرون في أنواع الرقص، ولهم فيها يد طولى، إلا أن هذا العلم محرم في شريعتنا. وقد قيل: التلذذ بالغناء وضرب الملاهي كفر.

علم الغنج

وهو علم باحث عن كيفية صدور الأفعال التي تصدر عن العذارى والنسوان الفائقات الجمال، والمتصفات بالظرف والكمال. واذا اقترن الحسن الذاتي بالغنج الطبيعي، كان كاملاً في الغاية، وان كان الغنج متكلفاً أو عرضياً، يكون دون الأول، لكن كل شيء من المليح مليح. ولقد قال الشاعر:

ما أنت مادحها يا من يشبهها ... بالشمس والبدر لا بل أنت هاجيها
من أين للشمس خال فوق وجنتها ... ومضحك في نظام الدر في فيها
من أين للبدر أجفان مكحلة ... بالسحر والغنج يجري في حواشيها

وهذا الغنج ان وقع في أثناء المباشرة والمخالطة والتقبيل وغير ذلك مما هو من هذا القبيل، كان محركاً لقوة الوقاع، وينتفع به العاجزون عن القربان كل الانتفاع. والغنج في هذا الحال مرخص في الشرع، وهو يحمد في النساء في تلك الحال، بل قد تؤجر هي عليها في الجماع الحلال. ونساء العرب مشهورات بين الرجال بحسن الغنج ولطف الدلال. عصمنا الله واياكم عما لا يرضاه: في القول والعقد والعمل. إنه كريم منان.

الدوحة الخامسة

في الحكمة العملية



الدوحة الخامسة

في الحكمة العملية

وأعلم: أن الانسان لما كان مدنياً بالطبع، وكان أشخاصه ــ الا شرذمة من عصمهم الله، وقليل ما هم ــ مجبولين على جلب المنافع، ودفع المضار، بحيث يريدون أخذ ما في أيدي الآخرين بقوته الشهوية، ودفع ما يزاحمه في ذلك بقوته الغضبية، وكان ذلك مؤدياً الى التقاتل والتناحر، ولا أقل من العداوة والشحناء، المنافية هذه الأمور الى قضية التمدن والاجتماع، وعمارة المدن في الأصقاع، اقتضت الحكمة الالهية وضع قوانين متعلقة بجميع الأشخاص على العموم، بحيث لا يختص بشخص شخص، ولا بطائفة طائفة، بل كل الطوائف والأمم سواسية في هذه السياسة، والقانون الجاري بطريق التعادل.

ثم ان هذه القوانين، لا بد وأن يؤخذ من انسان يعلمه الله تعالى بواسطة الملك، و يؤيده من عنده بالمعجزات الناقضات للعادات، ليصدقه الكل، إذ من له قوة قدسية حكمة تامة، لا يحتاج الى المعجزات الحسية في تصديقه، بل يقول:

لـو لم يـكـن فـيـه آيات مـبيـنـة   كـانـت بـديهته تـنـبيـك عن خبره

وبالجملة: لا يحتاج الى المعجزات الحسية، بل يكتفي بمعجزاته الباطنية. وأما من هو نازل عن هذه الدرجة ــ بمرتبة أو بمراتب ــ يحتاج الى معجزة حسية، أما مرة أو مرات، بحسب قوة جهله أو ضعفه.

ومنهم: من يلتحق بمنزلة الحيوان بل الجماد، أو يغلب على طبعه العناد لا

ينتفع بشيء منها: كأبي جهل وأحزابه، عليهم لعائن الله تترى واحدة بعد أخرى.

وبالجملة: لا بد وأن يكون لذلك الانسان المؤيد بالمعجزات جهتان: يستفيض بجهة قوته القدسية ولحوقه بالملأ الأعلى، بل الى قاب قوسين أو أدنى من جنابه سبحانه وتعالى؛ ويفيض بجهة بشريته ومبعوثيته لتكميل نوع البشر على بني نوعه من أفراد البشر. لقد جاءت رسل ربنا بالحق، وذلك المعلم في زماننا هذا، ليس إلا أفضل المخلوقات من لدن بدء العالم، وسيد ولد آدم، ومقدم الجماعة، وفاتح باب الشفاعة، وفص خاتم النبيين، وخاتمهم وأفضلهم وأكملهم، سيد الأنبياء، وسند الأصفياء، حبيب رب العالمين، أبو القاسم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وعلى سائر الأنبياء وسلم، مع شرف شرعه على سائر الشرائع بأمور: أظهرها البراءة عن النسخ والتبديل الى قيام الساعة، وساعة القيام، وأن تكون سمحة سهلة بيضاء نقية، مع اشتمالها على محاسن سائر الشرائع وأواسطها، والاجتناب عن طرفي الاقتصاد تفريطها وافراطها.

إذا عرفت ذلك.

فاعلم: أن سنة الله تعالى: جرت على أنه إذا خلى العالم عن مثل هذه الأنوار، ومعادن العلم والأسرار، لم يترك العالم سدى، بل جعل عقول البشر مهتدية الى قدر ما يبقى به النظام بين النوع، وأرشدهم الى ما تكمل به مصالح دنياهم أكثرياً، وبعض من مصالح آخرتهم.

فالذي جاءت به الرسل عن الله تعالى هي العدل حقيقة، وأما الذي استحسنته عقول العقلاء والحكماء فهو ما يشبه العدل، وهو السياسة الاصطلاحية، التي هرم عليها الكبير، ونشأ عليها الصغير، وبعيد أن يبقى سلطان، أو تستقيم رعية في حال ايمان أو كفر، بلا عدل قائم، أو ترتيب للأمور الذي يشبه العدل.

فالسياسة مما يبقى به نظام العالم، وإن لم تصلح بها أمور الآخرة. لكن

العمل بها الى أن جاء الشرع الشريف، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

وأما الذين يقولون: لا بد للشرع من انضمام السياسة، فهذا خطأ الجهلة والعوام، إذ الشرع لا يحتاج إلى غيره، ومضمون قولهم هذا: أن الشرع لم يرد بما يكفي في السياسة، فاحتجنا إلى تتمة من آرائنا؛ فيقتلون من لا يجوز قتله شرعاً، و يفعلون ما لا يحل فعله، و يسمون ذلك سياسة، وهذا اتعاط على الشريعة بما يشبه المراغمة به. أولئك الذين ينتصف الله منهم في الدنيا والآخرة. قاتلهم الله وخذلهم. وكيف يحتاج الشرع إلى السياسة، والأنبياء تكمل بهم أمور الدارين، وما يصلح به البشر كلياً. علمياً وعملياً وذوقياً وكشفياً وشهوداً، سيما ولا أكمل ولا أفضل مما نطق به خير البشر، وأشار إليه سيد الأنبياء، حتى لو اجتمع عقول العقلاء، وفهوم الحكماء والأصفياء، لم يقدروا المزيد عليها ولو بجزء من ألف ألف جزء من ذرة صغيرة.

الحمدلله الذي هدانا لهذه النعمة الجليلة. ونسأله: أن يرزقنا الحظوة الكاملة الجزيلة، من هذا المشرع الصافي، والمنبع الوافي، في الأول والآخر، والباطن والظاهر.

ثم ان الحكماء ذكروا علومهم العملية، وبحثوا فيها عن الأعمال الصادرة عن البشر. وتلك الأعمال:

أما أن تتعلق بالشخص وحده وهي: «علم الأخلاق»؛

أو يتعلق بأهل المنزل، لدوام الانس والائتلاف، وهي: «علم تدبير المنزل»؛

أو تتعلق بأحوال أهل البلد، لنظام أحوال الملك والسلطنة، وهي: «علم السياسة» وهذه علوم ثلاثة، ولنذكر كلا منها في شعبة، ثم نردفها بشعبة رابعة لبيان فروعها.

الشعبة الأولى

في علم الأخلاق

وهو علم يعرف منه أنواع الفضائل، وهي اعتدال ثلاث قوى هي: القوة النظرية، والغضبية، والشهوية، كل منها أوساط بين رذيلتين.

«الحكمة»: وهي كمال القوة النظرية. وهي التوسط بين رذيلتين البلادة والجربزة، الأولى تفريطها والثانية إفراطها.

و «الشجاعة»: وهي كمال القوة الغضبية. وهي التوسط بين رذيلتي الجبن والتهور. الأول تفريطها والثاني افراطها.

و «العفة»: وهي كمال القوة الشهوية. وهي التوسط بين رذيلتي الخمود والفجور، الأول تفريطها والثاني افراطها.

وهذه الثلاث ــ أعني: الحكمة، والعفة، والشجاعة ــ لكل منها فروع، كل منها توسط بين رذيلتين. وخير الأمور أوساطها. فيذكر في علم الأخلاق تعريفات هذه الأمور. ثم طريق العلاج: بأن يفتر عن طرفي التوسط، و يعتدل في الوسط.

فموضوع هذا العلم: الملكات النفسانية، من حيث تعديلها بين الافراط والتفريط. قال الحكماء للاسكندر: أيها الملك، عليك بالاعتدال في كل

الأمور، فان الزيادة عيب والنقصان عجز. ومنفعته: أن يكون الانسان كاملاً في أفعاله بحسب الامكان، ليكون في أولاه سعيداً وأخراه حميداً.

ومن الكتب المختصرة فيه:

(كتاب البر والاثم) لأبي علي بن سينا؛

(كتاب الفوز) لأبي علي مسكويه.

ومن المبسوطة:

(كتاب الامام فخر الدين بن الخطيب الرازي) رحمه الله.

الشعبة الثانية

في علم تدبير المنزل

وهو علم يعرف منه اعتدال الأحوال المشتركة بين الانسان وزوجته وأولاده وخدامه، وطريق علاج الأمور الخارجة عن الاعتدال، ووجه الصواب فيها؛ وموضوعه: أحوال الأهل والأولاد والقرائب والخدم وأمثالها، من حيث الانتظام . ومنفعة هذا العلم، عظيمة لا تخفى على أحد حتى العوام، لأن حاصله انتظام أحوال الانسان في منزله، ليتمكن بذلك من رعاية الحقوق الواجبة بينه وبين الأشخاص المذكورة. ويتفرغ باعتدالها وانتظامها على كسب السعادة العاجلة والآجلة. وأشهر كتب هذا العلم: (كتاب بروش). وفي هذا العلم كتب كثيرة غير هذا. وستعرف الكتب الجامعة الثلاثة.

الشعبة الثالثة

في علم السياسة

وهو علم يعرف منه أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات المدنية وأحوالها: من أحوال السلاطين والملوك والأمراء، وأهل الاحتساب والقضاة والعلماء، وزعماء الأموال ووكلاء بيت المال، ومن يجري مجراهم.

وموضوعه: المراتب المدنية وأحكامها.

ومنفعته: معرفة الاجتماعات المدنية الفاضلة. والمراد به وجه استبقاء كل واحد منها، ودفع علل زوالها، وجهات انتقالها. من أعظم أسباب انتقال الدولة، الاخلال بركن من أركان الشريعة. وقال حكيم: لا يزال السلطان ممهلاً، حتى يتخطى الى أركان العمارة ومباني الشريعة، فحينئذ يريح الله منه.

ومن جملة مسائل علم السياسة: معرفة ما ينبغي عليه الملك والسلطنة في نفسه، وحال أعوانه، وأمر رعاياه، وعمارة المدن.

وهذا العلم يحتاج اليه الملوك والسلاطين أولاً، ثم سائر الناس، لما أن الانسان مدني بالطبع، ويجب عليه اختيار المدينة الفاضلة مسكناً، والهجرة عن الردية، وأن يعلم كيف ينفع أهل مدينته و ينتفع بهم، و (كتاب السياسة) الذي أرسله أرسطوطاليس الى الاسكندر، يشتمل على مهمات هذا العلم. و (كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة) لأبي نصر الفارابي، جامع لقوانينه.

ومن الكتب الجامعة لهذه العلوم الثلاثة:

(كتاب الأخلاق الناصرية): وهو لخواجه نصير الدين الطوسي. وهو كتاب لطيف نافع في الغاية، إلا أنه وقع باللسان الفارسي.

و (كتاب الأخلاق الجلالية): وهو لجلال الدين محمد الدواني. وقد لخصه هذا الفاضل وأجاد فيه، وأورد غرائب الحكايات، إلا أنه وقع باللسان الفارسي.

ومن الكتب المختصرة الجامعة لأصول هذه الفنون الثلاثة:

(رسالة مولانا عضد الدين).

وعليها: (شرح) لتلميذه شمس الدين الكرماني.

وشرحتها شرحاً جامعاً نافعاً في زمن الشباب. والله أعلم بالصواب.

الشعبة الرابعة

في فروع الحكمة العملية

علم آداب الملوك

وهي أحوال عرفها الأمراء والملوك بالتجارب، والحدس، والرأي الصائب، مما ينبغي أن يفعله، ومما ينبغي أن يجتنبه. قال معاوية، رضي الله عنه: لا ينبغي للملك أن يكون كذاباً لأنه إن وعد لم يرج، وان أوعد لم يخف؛ ولا غاشاً لأنه لا ينصح ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة؛ ولا حديداً لأنه إذا احتد هلكت رعيته؛ ولا حسوداً لأنه لا يشرف أحد فيه حسد، ولا يصلح الناس إلا بأشرافهم؛ ولا جباناً لأنه يجترىء عليه عدوه وتضيع ثغوره. وقال بعضهم: أكره المكاره في السيد: الغباوة وأحب أن يكون عاقلاً متغافلاً، كما قال أبو تمام:

شعر

ليس الغبي بسيد في قومه . لكن سيد قومه المتغابي

وقال ذو القرنين لأرسطوطاليس، لما أراد الخروج: عظني بما أستعين به في سفري، فقال: أجعل تأنيك زمام عجلتك، وحيلتك رسول شدتك، وعفوك ملك قدرتك. فأنا ضامن لك قلوب الرعية، إن لم تجرحهم بالشدة عليهم، أو تبطرهم بفضل الاحسان اليهم.

قال قيس بن عاصم لبنيه: إذا مت، فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيحقر الناس كباركم فتهونوا.

قلت: تعيين الكبار، إنما يقبل، إذا كان ــ مع كبره ــ عاقلاً، وعالماً بالمصالح، ومجرباً للأمور، وإلاّ فتقديم الكبار ــ لمجرد كبرهم في السن ــ غير مقبول؛ أما ولي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عتاب بن أسيد بمكة، وكان سنة نيفاً وعشرين سنة، وأمر سعد بن أبي وقاص وسنه دون العشرين، وولي المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة، واستصغره الناس، فسألوه تعبيراً بذلك، فقالوا: كم سن القاضي؟ قال: سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة. فجعل جوابه احتجاجه. وولي الحجاج محمد بن القاسم، قتال الأكراد بفارس، فأبادهم، ثم ولاه السند والهند وسنه سبعة عشر، حتى قال فيه الشاعر:

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة — ولداته إذ ذاك في أشغال
قعدت بهم لذاتهم وسمت به — همم الملوك وسورة الأبطال

وقال شاعر آخر:

لا تعجبوا من علو همته — وسنه في أوان منشاها
ان النجوم التي تضيء لنا — أصغرها في العيون أعلاها

ولهذا قيل: ليس من المروءة سؤال الرجل عن سنه، لأنه ان كان شاباً استصغروه، وان كان كبيراً استهرموه. وأظن أن قائله الامام مالك رضي الله عنه. والله أعلم.

واعلم: ان على السلطان وظائف كثيرة، مستوفاة في كتب وضعت في هذا الشأن، إلا أنا نذكرها هنا بعضاً من الوظائف التي لا مندوحة عنها أصلاً.

منها: تجنيد الجنود، واقامة فرض الجهاد، لاعلاء كلمة الله تعالى. فان الله تعالى لم يُوَلِّه على المسلمين ليكون رئيساً آكلاً شارباً مستريحاً، بل لينصر الدين ويعلي الكلمة. فمن تقاعد عن هذا، وأخذ في أخذ أموال المسلمين ظلماً، فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين، واستحق المقت والخذلان من الله الكريم المنان.

ومنها: أن ينظر في الاقطاعات، ووضعها موضعها، ويستخدم من ينفع المسلمين، ويحمي حوزة الدين، ويكف أيدي المعتدين، وإلاّ فان فرقها في مماليك اصطفاها، وزينها بأنواع الملابس المحرمة، وترك الذين ينفعون الاسلام جياعاً في بيوتهم، ثم سلبه الله النعمة، فلا يلومن الا نفسه.

ومنها: الفكرة في العلماء والفقراء والمستحقين، ويرتب كفايتهم من بيت المال، الذي هو في يده أمانة ليس هو فيه الا كواحد منهم، وولوه نسبة ولاء المسلمين، فان تركهم فقراء وعيالهم جياعاً، منهم من يطوي ليلته بل أكثر، وهو يمن بسماطه وزينته ولباس حواشيه، فذلك أحمق سيجد ما عمله محضراً.

ومنها: وظائف بيت مال المسلمين. وقد قدر الشارع المصاريف فيه، وجعل لكل مال أقواماً، وقد رأوهم يصرفونه الى شهواتهم ولذاتهم، ويهبون الألوف للشعراء ولمماليكهم وللمغنين وأرباب البدع بل الكفرة. فالله تعالى ينصف منهم يوم الجزاء، فلا يلومن الا نفسه.

ومنها: أن يصلحوا أحوال نوابهم: من تفقدهم حال الرعايا، صغيرهم وكبيرهم جليلهم وحقيرهم، غنيهم وفقيرهم؛ والنظر في القرى والغلات، وايصال الحقوق الى مستحقيها، ولا يعتذروا بعدم الامكان في هذا الزمان، لأنهم مطالبون بذلك في الآخرة. فعليكم الجد والله يعين.

ومنها: اقامة فقيه في كل قرية لا فقيه فيها، يعلم أهلها أمر دينها، والقاء مقاليد الأحكام اليهم، لأنه لا حاكم إلا الله تعالى، ولن يفعل بالعقول شيئاً، ﴿ومن يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[1] الكافرون الظالمون.

ومنها: رفع المبتدعة والملاحدة، وتقرير مذهب الأشعري الذي اتفق على صحته، ولله الحمد على المذاهب الأربعة الجارية في زماننا هذا.

ومنها: استكثارهم أرزاق العلماء، وان قلت، واستقلالهم أرزاق أنفسهم وإن كثرت. وان بعضاً منهم، ربما يعيب على بعض الفقهاء ركوب الخيل

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤٧.

ولبس الثياب الفاخرة، مع أنها نفسه يتبختر في أنعم الله تعالى، مع الجهل والمعصية. ولو اعتبر وجد رزق أكبر فقيه دون رزق أقل مملوك عنده. أما يستحي هذا الأمير من الله تعالى، وإذا سلبه الله نعمته فلم يتعجب و يبكي.

ومنها: لباسهم الألبسة المحرمة، ومع ذلك يطلبون النصر من الله، ومنا أن ندعو لهم، ولو أنهم اتقوا الله حق تقاته لما افتقروا الى دعائنا.

والكلام في هذا الباب طويل الذيول والأذناب. ولنقتصر بهذا القدر عذراً عن الأطناب.

ومن الكتب المصنفة في آداب الملوك: (سراج الملوك) للإمام الطرطوشي.

د

وهو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي، نسبة الى «طرطوشة» بضم المهملتين، مدينة بالأندلس في آخر بلاد المسلمين، الفقيه المالكي الزاهد المعروف بابن أبي زندقة. وزندقة لفظة فرنجية معناها: رد تعال. صحب أبا الوليد الباجي بسرقسطة، وأخذ عنه الخلاف، وسمع منه وأجازه، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه، وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم بأشبيلية. ورحل الى الشرق، وحج، ودخل البصرة و بغداد، وتفقه على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي الشافعي، المعروف بالمستظهري، وعلى أبي أحمد الجرجاني. ودرس بالشام مدة. وكان إماماً عالماً عاملاً، زاهداً ورعاً ديناً، متواضعاً متقشفاً، متقللاً من الدنيا، راضياً منها باليسير. وكان يقول: إذا عرض لك أمران: أمر دنيا، وأمر أخرى، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى. وكان كثيراً ما ينشد:

إن لله عـبـاداً فـطـنـاً — طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فـكـروا فيها فلما علموا — أنها ليست لحي وطناً
جعلوها لجة واتخذوا — صالح الأعمال فيها سفنا

ولما دخل على الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، بسط مئزراً كان معه

وجلس عليه، وكان الى جانب الأفضل رجل نصراني، فوعظ الأفضل حتى بكى وأنشده:

يا ذا الذي طاعته قربة　　وحقه مفترض واجب
ان الذي شرفت من أجله　　يزعم هذا أنه كاذب

وأشار الى النصراني، فأقامه الأفضل من مجلسه. وكان الأفضل قد أنزل الشيخ في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد، وكان يكرهه، فلما طال مقامه به ضجر، وقال لخادمه: الى متى نصبر، أجمع لي المباح، فجمع له، فأكله ثلاثة أيام، فلما كان عند صلاة المغرب، قال لخادمه: رميته الساعة، فركب الأفضل من الغد فقتل. وولى بعده المأمون بن البطائحي، فأكرم الشيخ إكراماً كثيراً، وصنف له:

(كتاب سراج الملوك): وهو حسن نافع في بابه. وله في غير ذلك تصانيف كثيرة. وله طريقة في الخلاف. وله أشعار كثيرة. ومن لطيف شعره:

إذا كنت في حاجة مرسلا　　وأنت بانجازها مغرم
فأرسل باكمه خلابة　　به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى　　رسول يقال له الدرهم

ونظير هذه الأبيات ما قيل:

شعر

إذا كنت في حاجة مرسلا　　وأنت بها كلف مغرم
فأرسل حكيماً ولا توصه　　وذاك الحكيم هو الدرهم

وكانت (ولادة) الطرطوشي سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريباً.

و (توفي) في ثلث الليل الأخير، من ليلة السبت، لأربع بقين من جمادى الأولى، سنة عشرين وخمسمائة بثغر الاسكندرية.

ومن الكتب المصنفة في آداب الملوك:

(سلوان المطاع في عدوان الطباع) لابن ظفر. وقد عرفته في المحاضرات.

علم آداب الوزارة

وأعلم: أن الوزارة من أركان السلطنة، كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري﴾[1]. فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء، لكان أحق الناس بذلك كليم الله تعالى موسى بن عمران.

ثم ذكر حكمة الوزراء فقال: «أشدد به أزري وأشركه في أمري». دلت الآية على أن موضع الوزارة، أن يشد قواعد المملكة، وأن يفضي اليه السلطان لعجزه، ويجري إذا استكملت فيه الخلال المحمودة. ثم قال تعالى: ﴿ كي نسبحك كثيراً. ونذكرك كثيراً ﴾[2]. دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين، وأهل الخبرة والمعرفة، تنتظم أمور الدنيا والآخرة. وكما أن أشجع الناس يحتاج الى السلاح، وأن أفره الخيل يحتاج الى السوط، وأن أحد الشفار يحتاج الى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم الى الوزير.

وكتاب (الاشارة في آداب الوزارة) نافع في هذا الباب. و يورد ما يحتاج اليه الوزارة في كتاب (سراج الملوك) للطرطوشي، و (نصيحة الملوك) للغزالي. وأمثال ذلك يعرفها من يطلبها.

علم الاحتساب

وهو النظر في أمور أهل المدينة، باجراء ما رسم في الرياسة الاصطلاحية، ونهى ما يخالفها؛ أو بتنفيذ ما تقرر في الشرع، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و يواظب على هذه الأمور ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، إذ السلطان بمنزلة الرأس من البدن، الذي هو منبع الرأي والتدبير، والوزير بمنزلة اللسان الذي هو المعبر والسفير، والمحتسب بمنزلة الأيدي والأقدام، أو المماليك والخدام. وكل من

(١) سورة طه، آية: ٣٠.
(٢) سورة طه، آية: ٣٣.

هؤلاء في مصلحة لا يتم النظام بدونها. وعلم السياسة المدنية مشتمل على بعض لوازم هذا المنصب الجليل. ولم نر كتاباً صنف في هذا العلم خاصة.

علم قود العساكر والجيوش

وهو علم باحث عن ترتيب العساكر ونصب الرؤساء. وذكر في (الأحكام السلطانية) للماوردي، ما يكفي في هذا الباب: لضبط أحوالهم، وتهيؤ أرزاقهم، وتمييز الشجاع عن الجبان، والقوي عن الضعيف، ويحسن الى الأقوياء والشجعان، فوق احسان الضعفاء من الأقران، ثم يستميل قلوب الشجعان بأنواع اللطف والاحسان، ويهيء لهم ألبسة الحروب وما يليق بهم من السلاح، ثم يأمر كلا منهم بالزهد والصلاح، ليفوزوا بالخير والفلاح، ويأمرهم أن لا يظلموا أحداً، ولا ينقضوا عهداً، ولا يهملوا ركناً من أركان الشريعة، فانه الى استيصال الدولة ذريعة. ولقد سمعت من مشائخي العظام، وشاهدت مراراً في سوالف الأيام، أن من تعرض لحرم الشريعة وأركان الاسلام، لن يفلح أبد الآباد، ولا يمهله رب العباد.

يحكى: أن الخشوار ملك الهياطلة، لما أسر عنده فيروز بن يزدجرد ملك فارس، أخذ عليه عهداً أن لا يقصده بمكروه، فأطلقه، ووضع تخوم أرض الهياطلة صخرة وعهد أن لا يتجاوزها. ولما رجع فيروز الى دار ملكه، داخلته الحمية والأنفة، فقصد الخشوار بسوء، فحذره وزراؤه فلم يسمع، وقال مربذ موبذ — حافظ حفظة الدين وهو عندهم كالنبي: لا تفعل أيها الملك، فان رب العالم يمهل الملوك على الجور، ما لم يأخذوا في هدم أركان الشريعة، وأن العهود والمواثيق من أركانها، فقال فيروز: إني حلفت أن لا أتجاوز الصخرة، وأنا آمر بحملها على فيل، ولا يتجاوزه أحد من جنودي. فغلب على فيروز سلطان الهوى فآل أمره الى ما آل، على ما بين في كتب التواريخ كيفية الحال. اللهم اعصمنا مما لا ترضاه من سوء الأفعال وخطأ الأقوال. أنك الكريم المتعال.

تم بحمد الله **الجزء الأول**

ويليه **الجزء الثاني** وأوله الدوحة السادسة

فهرس موضوعات الجزء الأول

ويتضمن :

الموضوع	الصفحة

الطرف الأول من الرسالة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
علم الشامات والخيلان	٣٢٧
علم الأسارير	٣٢٧
علم الأكتاف	٣٢٨
علم قيافة الأثر ويسمى علم العيافة	٣٢٨
علم قيافة البشر	٣٢٩
علم الاهتداء بالبراري والأقفار	٣٣٠
علم الريافة	٣٣١
علم استنباط المعادن	٣٣١
علم نزول الغيث	٣٣١
علم العرافة	٣٣٢
علم الاختلاج	٣٣٥
العنقود الثالث، في فروع أحكام	
النجوم	٣٣٥
علم الاختيارات	٣٣٥
علم الرمل	٣٣٦
علم الفال	٣٣٧
علم القرعة	٣٣٨
علم الطيرة والزجر	٣٣٨
العنقود الرابع: في فروع السحر	٣٤٠
علم الكهانة	٣٤٠
علم النيرنجات	٣٤١
علم الخواص	٣٤١
علم الرقى	٣٤٢
علم العزائم	٣٤٢
علم الاستحضار	٣٤٣
علم دعوة الكواكب	٣٤٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مفتاح السعادة ومصباح السيادة
في موضوعات العلوم

تأليف

أحمد بن مصطفى

الشهير

بطاش كبري زاده

المجلد الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le

الدوحة السادسة

في العلوم الشرعية

وإنما سمي «علم الشرائع» لأخذ الناس منها حظوظهم، اذ الشريعة لغة: مورد الشاربة، كما تسمى الشريعة ديناً لإطاعة الناس إياها، وملة لاجتماعهم عليها. و يسمى أيضاً «علم النواميس» أخذا من الناموس: وهو الملك النازل بالوحي. والناموس لغة: البعوضة، وهي تصوت في أذن الإنسان، فشبه بها صاحب السر، لتكلمه السر في أذن صاحبه، فيستعار له لفظ الناموس. ثم نقل الى الملك النازل بالوحي.

وفي هذه الدوحة: مقدمة وشعب

المقدمة

واعلم: أن العلوم الاعتقادية: أما متعلقة بالنقل، أو فهم المنقول، أو تقريره وتشييده بالأدلة، أو استخراج الأحكام المستنبطة.

فالنقل: إن كان بما أتى به الرسول بواسطة الوحي فهو: «علم القراءات»؛ أو بما صدر عن نفسه المؤيدة بالعصمة: «فعلم رواية الحديث».

وفهم المنقول: إن كان من كلام الله تعالى «فعلم تفسير القرآن»؛ وإن كان من كلام الرسول: «فعلم دراية الحديث».

والتقرير: أما الآراء: «فعلم أصول الدين»؛ أو الأفعال: «فعلم أصول الفقه».

واستخراج الأحكام من أدلتها: «فعلم الفقه».

ومنافع هذه العلوم جمة:

أما في الدنيا: فحفظ المهج والأموال، وانتظام سائر الأحوال.

وأما في الأخرى: فالنجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم.

فهذه العلوم هي جملة أصول الشريعة. ولكل منها فروع كثيرة، فلنذكر كلا من هذه السبعة في شعبة، وفروع هذه في شعبة أخرى، بقدر ما تفي به قوة التقرير والتصوير، ويحيط به نطاق الحرير والتسطير.

الشعبة الاولى

من العلوم المتعلقة بالشريعة

علم القراءة

وهو علم يبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى، من حيث وجوه الاختلافات المتواترة. ومبادئه: مقدمات تواترية، وله أيضا استمداد من العلوم العربية. والغرض منه: تحصيل ملكة ضبط الاختلافات المتواترة. وفائدته: صون كلام الله تعالى عن تطريق التحريف والتغيير. وقد يبحث فيه أيضا عن صور نظم الكلام، من حيث الاختلافات الغير متواترة، الواصلة الى حد الشهرة. ومبادئه: مقدمات مشهورة أو مروية عن الآحاد الموثوق بهم.

ولنذكرها هنا أئمة القراء من الصحابة، ثم من التابعين، ثم من الأئمة السبعة المشهورين، ثم الثلاثة الذين يكملون العشرة بهم، ثم أرباب التصانيف المشهورة.

أما الصحابة

(فأولهم): عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، **الامام أبو بكر الصديق.** صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخليفته، وخير الخلق بعده. ذكره الداني وقال: وردت الرواية عنه في حروف القرآن.

قلت: هو أول من جمع القرآن في مصحف وأشار بجمعه، وذلك مشهور.

ذكره أبو الفداء اسماعيل بن كثير. ونص الامام أبو الحسن الأشعري على حفظه القرآن، واستدل على ذلك بدليل لا يرد، وهو: أنه صح عنه صلى الله عيه وسلم بلا نظر أنه قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى وأكثرهم قرآنا». وتواتر عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قدمه للامامة، ولم يكن صلى الله عيه وسلم ليأمر بأمر ثم يخالفه بلا سبب. واذا كان أقرؤهم يكون أعىمهم، اذ كان عندهم «الأقرأ هو الأعلم»، كما قال الشافعي رضي الله عنه: أن الأفضلية في القراءة، تستلزم الأفضلية في العلم. وكيف يسوغ لأحد نفي حفظ القرآن عن أبي بكر، رضي الله عنه ـــ كما زعمه بعض بغير دليل ولا حجة بل بمجرد الظن. وما روي عن أنس: لم يحفظ القرآن الا أربعة كلهم من الأنصار، فالمراد حفظاً وكتابة، أو حفظاً لا كتابة، أو لم يحفظه من الأنصار غير الأربعة بدليل قوله: كلهم من الأنصار، إذ قد اتفقوا على أن عبدالله بن عمرو بن العاص، وعبدالله بن عمر، وعثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود، حفظوا القرآن ولم يذكر فيهم، والدلائل الواهية، والأجوبة عنها، مذكورة في كتاب (الانتصار) للقاضي أبي بكر، وكتاب (المرشد) للشيخ أبي شامة، وغيرهما. وكيف يرضى مسلم أن ينفي فضيلة حفظ القرآن ـــ الذي هو أشرف الفضائل ـــ من رجل قال فيه سيد البشر: «ما طلعت شمس ولا غربت على أحد ـــ بعد النبيين والمرسلين ـــ أفضل من أبي بكر». رواه ابن جريج عن عطاء.

ثم أن أبا بكر: أمه أم الخير، سلمى بنت صخر، من تيم؛ وسمي عتيقاً: أما لجماله، أو لقوله صلى الله عيه وسلم: «أنت عتيق من النار»؛ وسمي صديقاً: لأنه لما أسرى به صلى الله عليه وسلم، كذبته قريش وصدقه أبو بكر.

قيل: هو أول من أسلم. والاتفاق على أنه أول من أسلم من الرجال، وعليٌّ أول من أسلم من الصبيان، وفي الأولية بينهما خلاف. استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم أياما في الصلاة في مرض موته، ثم بايعه الصحابة بعد موته صلى الله عليه وسلم، وهو يوم الاثنين.

و(ولد) رضي الله عنه، بعد عام الفيل بسنتين وثلاثة أشهر وأيام قلائل.

و(توفي) يوم الاثنين، أو ليلة الثلاثاء، أو يوم الجمعة، والأول أصح، لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة. ومدة خلافته: سنتان وأربعة أشهر الا عشر ليال. ودفن في البيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل رأسه بين كتفي النبي صلى الله عليه وسلم. وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس. ومناقبه كثيرة لا تفي بذكرها المجلدات.

و(ثانيهم): **عمر بن خطاب**، بن نفيل بن عبد العزى بن رياح (آخر الحروف) بن قرط بن رزاح، بتقديم الراء على الزاي، بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي العدوي، أمير المؤمنين، أبو حفص.

وردت الرواية عنه في حروف القرآن. وقال أبو العالية الرياحي بسند صحيح: قرأت القرآن على عمر أربع مرات، وأكلت معه اللحم.

وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة أخت أبي جهل لعنه الله. وكان يلقب بالفاروق لفرقه بين الحق والباطل. وهو أول من سمي أمير المؤمنين، لأن الناس قالوا له خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هذا أمر يطول سيما بعدي فقال: أنتم المؤمنون وأنا أميركم. وكان يدور في الأسواق والدرة على عاتقه، و يأخذ للضعيف من القوي، وللعبد من الحر، حتساباً وطلباً للثواب من الله الوهاب، لا يخاف في الله لومة لائم. وكان يسعى مع اليتيم والارملة والمساكين، و يقف على الصبيان والمشيخة، وكان آدم شديد الأدمة، أصلع، في عارضيه خفة، سلبته كثيرة الشعر، شديد حمرة العينين أعسر، يسير مشرفاً على الناس، كأنه على دابة والناس يمشون. بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر. و(واستشهد) يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين. وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وعشرة أيام.

و(ثالثهم): **عثمان بن عفان** بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، أبو عبدالله، وأبو عمرو، القرشي الاموي، أمير المؤمنين ذو النورين، أحد السابقين الأولين، وأحد من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعرض عليه القرآن المغيرة بن ابي شهاب المخزومي، وأبو

عبد الرحمن السلمي، وزر بن حبيش، وأبو الأسود الدؤلي، و يقال عبدالله بن عامر ذكره الوليد بن مسلم، عن يحيى بن الحارث. تزوج بابنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم: رقية،فولدت له عبدالله، وبه كان يكنى، ثم كني بابنه عمرو. فلما توفيت رقية ليالي بدر، زوجه النبي صلى الله عليه وسلم بأختها أم كلثوم. وكان معتدل الطول، كث اللحية، حسن الوجه، أسمر، بعيد ما بين المنكبين، يخضب بالصفرة. قال السائب: رأيته فما رأيت شيئا أجمل منه. وكان أصغر من النبي صلى الله عليه سلم بست سنين. (قتل شهيداً) مظلوماً في داره، يوم الاربعاء، وقيل يوم الجمعة بعد العصر، وكان صائماً ثامن عشر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وله اثنان وثمانون سنة على الصحيح. ودفن ليلة السبت بالبقيع، وصلى عيه جبير بن مطعم. أسلم رضي الله عنه قديما في السنة الأولى من النبوة، وهاجر هجرتين. (ولد) في السنة السادسة من عام الفيل. وكانت أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس؛ أمها أم حكيم بنت عبد المطلب، وهي البيضاء توأمة أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و(رابعهم): **علي بن أبي طالب** بن عبد المطلب بن هاشم، الامام أبو الحسن الهاشمي، أمير المؤمنين، وأحد السابقين الاولين، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسم. كان يسمى «الصديق الأكبر»، و«يعسوب الموحدين»، وأبا الريحانتين، وأبا التراب والكراع. بو يع له بالخلافة يوم قتل عثمان، رضي الله عنه، وقتل بعده بخمس سنين. ومناقبه أكثر من أن تحصى، ولا يخفى فضله على أحد من المسلمين. روينا عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: ما رأيت أقرأ من علي. عرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من الذين حفظوا القرآن أجمع بلا شك عندنا، وقد أبعد الشعبي في قوله: انه لم يحفظه. قال يحيى بن آدم: قت لأبي بكر بن عياش: يقولون أن عليا رضي الله عنه لم يقرأ القرآن، فقال: أبطل من قال هذا، عرض عليه أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو الأسود الدؤلي، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. وأجمع المسلمون على أنه قتل شهيداً يوم قتل، وما على وجه الأرض أفضل منه، ضربه عبد الرحمن بن ملجم، صبيحة سابع عشر شهر رمضان، سنة أربعين من الهجرة بالكوفة، وهو

ابن ثمان وخمسين سنة، فيما قاله ابنه الحسين رضي الله عنه، فعلى هذا يكون أسلم وهو ابن ثمان سنين وقال محمد بن الحنفية: قتل أبي وله ثلاث وستون سنة. وكذا قال الشعبي وابن عباس وجماعة؛ وقيل: ابن سبع وخمسين سنة، رضي الله عنه.

و(خامسهم): **ابي بن كعب** بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، أبوالمنذر الأنصاري المدني، سيد القراء بالاستحقاق، وأقرأ هذه الأمة على الاطلاق. قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم، وقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم بعض القرآن للارشاد والتعليم. روى أبو قلابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقرؤهم أبي بن كعب». قرأ عليه القرآن من الصحابة: ابن عباس، وأبو هريرة، وعبدالله بن السائب؛ ومن التابعين: عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وعبدالله بن حبيب أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو العالية الرياحي. اختلف في موته اختلافا كثيراً، فقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وقيل: سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: قبل مقتل عثمان بجمعة أو بشهر.

و(سادسهم): **زيد بن ثابت** بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار، أو خارجة، وأبو سعيد الأنصاري الخزرجي المقري الفرضي، كاتب النبي صلى الله عليه وسلم وأمينه على الوحي، وأحد الذين جمعوا القرآن على عهده صلى الله عليه وسلم من الأنصار. وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر الصديق، ثم لعثمان حين جهزها الى الأمصار. وكان أسن من انس بسنة. عرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم. وقرأه عليه من الصحابة: أبو هريرة، وابن عباس؛ ومن التابعين: أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو العالية الرياحي، قيل: وأبو جعفر. (توفي) سنة خمس وأربعين؛ وقيل: سنة ثمان وأربعين، وأبعد من قال: سنة خمس وخمسين، أو سنة ست وخمسين، بل مات عن ست وخمسين سنة. والله أعلم.

و(سابعهم): **عبدالله بن مسعود** بن الحارث بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي. أحد السابقين والبدريين والعلماء الكبار من الصحابة، أسلم قبل عمر، عرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، عرض عليه الأسود، وتميم بن حذلم، والحارث بن قيس، وزر بن حبيش، وعبيد بن قيس، وعبيد بن نضلة، وعلقمة، وعبيدة السلماني، وعمرو بن شرحبيل، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو عمرو الشيباني، وزيد بن وهب، ومسروق، وهو أول من افشى القرآن من فيِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: حفظت من فيِّ رسول الله صلى الله عيه وسلم بضعاً وسبعين سورة، وكان آدم خفيف اللحم، لطيف القد، أحمش الساقين، حسن البزة، طيب الرائحة، موصوفاً بالذكاء والفطنة. وكان يخدم النبي صلى الله عليه وسم، ويلزمه، ويحمل نعله، ويتولى فراشه ووساده وسواكه وطهوره، وكان صى الله عيه وسلم يطلعه على أسراره ونجواه، وكانوا لا يفضلون عليه أحداً في العلم. وفضائله أكثر من أن تحصى. وكان مع ذلك هو الإمام في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله، مع حسن الصوت، حتى قال صلى الله عليه وسم: «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبده وقال: «والذي لا اله غيره لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغينه الابل لرحلت اليه». قلت: واليه تنتهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف والاعمش. وفد من الكوفة الى المدينة (فمات) بها، آخر سنة اثنتين وثلاثين، و(دفن) بالبقيع،وله بضع وستون سنة. ولما جاء نعيه الى أبي الدرداء قال: ما ترك بعده مثله.

و(ثامنهم): **أبو الدرداء عويمر بن زيد**، ويقال ابن عبدالله، ويقال ابن ثعلبة، ويقال ابن عامر بن غنم الأنصاري الخزرجي. حكيم هذه الأمة، وأحد الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف، ولي قضاء دمشق، وهو اول قاضي وليها، وكان من العلماء الحكماء الذين يشفون من الداء. عرض عليه عبدالله بن عامر اليحصبي، وزوجه أم الدرداء الصغرى التي

عرض عليها عطية بن قيس الكلابي، وعرض عليه أيضاً خليد بن سعد، وراشد بن سعد، وخالد بن معدان، قال سويد بن عبد العزيز: كان أبو الدرداء اذا صلى الغداة في جامع دمشق، اجتمع الناس عليه للقراءة، فكان يجمعهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً، و يقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع الى عريفهم، فإذا غلط عريفهم رجع الى أبي الدرداء، فسأله عن ذلك. وكان ابن عامر عريفاً على عشرة، فلما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر. وعن مسلم بن مشكم: عددت من قرأ على أبي الدرداء بأمره ألفاً وستمائة ونيفاً، وكان لكل عشرة منهم مقرىء، وكان أبو الدرداء يكون قائماً، واذا أحكم الرجل منهم تحول الى أبي الدرداء. (توفي) رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين، ولم يخلف بعده بالشام مثله.

و(تاسعهم): **أبو موسى الاشعري،** عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار، الاشعري اليماني. هاجر الى النبي صلى الله عليه وسلم فقدم عليه عند فتح خيبر. وحفظ القرآن وعرضه على النبي صلى الله عليه وسلم. وعرض عليه القرآن: حطان بن عبدالله الرقاشي، وأبو رجاء العطاردي وأبو منيح الهنائي. قال أبو عبدالله الحافظ: وان قصرت مدة صحبته، فلقد كان من نجباء الصحابة، وكان من أطيب الناس صوتاً بالقرآن. سمع النبي صلى الله عليه وسلم قراءته، فقال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود». وقد استغفر له النبي صلى الله عليه وسلم، واستعمله على زبيد وعدن. ثم ولي أمرة الكوفة والبصرة لعمر، وحكمه عليٌّ على نفسه في شأن الخلافة، لجلالته وفضله. وكان قصيراً، خفيف اللحم، أثط. وكان عمر اذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده. وافتتح أصبهان زمن عمر. وفضائله كثيرة. (توفي) في ذي الحجة، سنة أربع وأربعين على الصحيح، وقيل سنة ثلاث وخمسين.

هذا من أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأما الذين اخذوا من الصحابة مثلهم فكثير:

(منهم) **عبدالله بن عباس،** بن عبد المطلب بن هاشم، أبو العباس الهاشمي. بحر التفسير، وحبر الامة، الذي لم يكن على وجه الأرض في زمانه

أعلم منه، حفظ المحكم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عرض القرآن كله على أبي بن كعب وزيد بن ثابت، وقيل: على علي بن ابي طالب. عرض عليه القرآن مولاه درباسي، وسعيد بن جبير، وسليمان بن قتة، وعكرمة بن خالد، وأبو جعفر يزيد بن قعقاع. (ولد) قبل الهجرة بثلاث سنين، وناهز الاحتلام في حجة الوداع، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين». ومناقبه أكثر من أن تحصر. وكان طويلا مشرباً صفرة، جسيماً وسيماً مليح الوجه، يخضب بالحناء، مديد القامة. قال عطاء: ما رأيت البدر الا ذكرت وجه ابن عباس. وروى الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت، الا ثمانية عشر حرفاً أخذها من قراءة ابن مسعود. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً قط، أجمع لكل خير، من مجلس ابن عباس للحلال و الحرام وتفسير القرآن والعربية والشعر والطعام، وقال عكرمة: قال ابن عباس: اذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب. (توفي) بالطائف ــ وقد كف بصره ــ سنة ثمان وستين، وصلى عليه محمد بن الحنفية وقال: اليوم مات رباني الامة، رضي الله عنه.

و(منهم): **أبو هريرة**، عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الصحابي الكبير رضي الله عنه. اختلف في اسمه، والاقوى والاشهر عبد الرحمن، وكان اسمه في الجاهلية عبد شمس. أسلم هو وأمه سنة سبع، وأخذ القرآن عرضاً عن ابي ابن كعب. قال سبط الخياط: حكى جماعة عن شيوخنا البغداديين، أن الاعرج قرأ على أبي هريرة، وأن أبا هريرة قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم، قلت: المشهور أنه قرأ على أبي بن كعب. عرض عليه: عبد الرحمن بن هرمز الاعرج، وأبو جعفر، قيل: وشيبة بن نصاح، قال الذهبي: انه لم يدرك أبا هريرة. ومناقبه وفضائله وتواضعه وعمله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. كان يجزىء الليل ثلاثة أجزاء: جزء للقرآن، وجزء للنوم، وجزء يتذكر فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: تنتهي اليه قراءة أبي جعفر ونافع. (توفي) سنة سبع، وقيل: سنة ثمان وخمسين، والقولان مشهوران، وقيل سنة تسع

وخمسين، وله ثمان وسبعون سنة.

و(منهم): عبدالله بن السائب، بن أبي السائب بن صيفي بن عابد بن عمر بن مخزوم، أبو السائب، وقيل أبو عبد الرحمن، المخزومي، قارىء أهل مكة. له صحبة، روى القراءة عرضاً عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب، عرض عليه القرآن مجاهد بن جبر، وعبدالله بن كثير، فيما قطع به الداني وغيره. وروينا من طريق الشافعي، قال مجاهد: كنا نفخر على الناس بقارئنا عبدالله ابن السائب، وبفقيهنا ابن عباس، وبمؤذننا أبي محذورة، وبقاضينا ابن عمير. (توفي) في حدود سنة سبعين في امرة ابن الزبير، قال ابن أبي مليكة: رأيت عبدالله بن عباس ــ لما فرغ من دفن عبدالله بن السائب ــ وقف على قبره، فدعا له ثم انصرف.

هذا من اشتهر بالقراءة والاقراء من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم اجمعين، واما المشتهرون بالقراءة والاقراء من التابعين، رضي الله عنهم، فخمس فرق:

(الفرقة الاولى): من كانوا بالمدينة شرفها الله.

(منهم) سعيد بن المسيب، بن حزن بن أبي وهب المخزومي، أبو محمد عالم التابعين. وردت الرواية عنه في حروف القرآن. قرأ على ابن عباس وأبي هريرة، وروى عن عمر وعثمان وسعيد بن زيد، قرأ عليه عرضاً محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري، (توفي) سنة أربع وتسعين عن تسع وسبعين سنة.

و(منهم): عروة بن الزبير بن العوام، أبو عبدالله المدني. وردت الرواية عنه في حروف القرآن. روى عن أبويه وعائشة؛ وروى عنه أولاده والزهري وجماعة. قال ابن شوذب: كان يقرأ كل يوم ربع القرآن في المصحف نظراً، ويقوم به بالليل، فما تركه الا ليلة قطعت رجله للاكلة، ثم عاود حزبه في الليلة المقبلة. (مات) سنة ثلاث أو أربع أوخمس وتسعين وهو صائم، فإنه كان يصوم الدهر.

و (منهم): سالم بن عتبة بن ربيعة، مولى أبي حذيفة، أبو عبدالله الصحابي الكبير، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «خذوا القرآن من أربعة: عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة». استشهد يوم اليمامة في ربيع الاول سنة اثنتي عشرة رضي الله عنه.

وهذا وان لم يكن من التابعين، لكن لاختصاصه بالمدينة الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، ذكرناه فيهم.

و(منهم): عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أبو حفص الاموي، أمير المؤمنين. وردت الرواية عنه في حروف القرآن، ومناقبه كثيرة شهيرة. كان حسن الصوت بالقرآن، فخرج ليلة، فقرأ وجهر بصوته، فاستمع له الناس، فقال سعيد بن المسيب: فتنت الناس، فدخل. (توفي) بدير سمعان – من أرض الشام – في رجب سنة احدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر.

و(منهم): سليمان بن يسار، أبو أيوب الهلالي المدني، مولى ميمونة أم المؤمنين. وهو أخو عطاء وعبد الملك وعبدالله، تابعي جليل. وردت عنه الرواية في حروف القرآن. (مات) سنة سبع ومائة، وقيل سنة ست أو أربع أو ثلاث أو تسع.

و(منهم): عطاء بن يسار، أبو محمد الهلالي المدني القاص، مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم. وردت عنه الرواية في حروف القرآن، أدرك زمن عثمان وهو صغير، وروى عن مولاته، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت؛ روى عنه زيد بن أسلم وشريك، و(مات) سنة ثلاث أو اثنتين ومائة.

و(منهم): معاذ بن الحارث أبو الحارث، و يقال أبو حليمة، الانصاري، المدني، المعروف بالقارىء. روى عنه نافع وابن سيرين؛ وحدث عنه نافع مولى ابن عمر، (توفي) بالحرة سنة ثلاث وستين وهو ابن تسع وستين سنة.

و(منهم): **عبد الرحمن بن هرمز الاعرج**، أبو داود المدني، تابعي جليل. أخذ القراءة عرضاً عن أبي هريرة، وابن عباس، وعبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، ومعظم روايته عن أبي هريرة؛ روى القراءة عنه عرضا نافع بن أبي نعيم؛ وروى عنه الحروف أسيد بن أسيد. نزل الى الاسكندرية (مات) بها سنة سبع عشرة ومائة، وقيل: سنة تسع عشرة.

و(منهم): **محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب، أبو بكر الزهري**، المدني، أحد الأئمة الكبار، وعالم الحجاز والأمصار، تابعي. وردت عنه الرواية في حروف القرآن. قرأ على أنس بن مالك. (ولد) سنة خمسين أو احدى وخمسين؛ روى عن عبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد، والسائب بن يزيد، وأبي الطفيل، ومحمود بن الربيع ومحمود بن لبيد. وروى عنه الحروف عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي؛ وعرض عليه نافع بن أبي نعيم، وروى عنه مالك بن أنس، ومعمر، والأوزاعي، وعقيل بن خالد، وابراهيم بن أبي عبلة، وأمم. وكان يكره التفاح وسور الفار ويقول انه ينسي، ويشرب العسل ويقول انه يذكر، (مات) سنة أربع أو ثلاث أو خمس وعشرين (ومائة)، بشعب آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين.

و(منهم): **مسلم بن جندب**، أبو عبدالله الهذلي، مولاهم المدني القاص، تابعي مشهور.

عرض على عبدالله بن عياش؛ عرض عليه نافع، وروى عن أبي هريرة، وحكيم بن حزام، وابن عمر، وابن الزبير، كما ذكره الداني؛ وقال الذهبي: أحسب روايته عن أبي هريرة وحكيم الا منقطعة. وهو الذي أدب عمر بن عبد العزيز. وكان من فصحاء أهل زمانه، وكان يقص بالمدينة. وقال عمر بن عبد العزيز: من سره أن يقرأ القرآن غضاً فليقرأه على قراءة مسلم بن جندب. (مات) بعد سنة عشر ومائة تقريباً. وقال الأهوازي وأقام ابن جندب بالمدينة، الى أن مات سنة ثلاثين ومائة في أيام مروان بن محمد.

و(منهم) **زيد بن أسلم**،أبو أسامة المدني، مولى عمر بن الخطاب، وردت

عنه الرواية في حروف القرآن. أخذ عنه القراءة شيبة بن نصاح. (مات) سنة ست وثلاثين ومائة.

(الفرقة الثانية): من التابعين من كان منهم بمكة شرفها الله.

و(منهم) عبيد بن عمير بن قتادة، أبو عاصم الليثي المكي القاص. ذكر ثابت البناني أنه قص على عهد عمر رضي الله عنه. وردت عنه الرواية في حروف القرآن روى عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب. روى عنه مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار. قال مسلم: ولد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. قال مجاهد: كنا نفخر على الناس بأربعة: بفقيهنا ابن عباس، وقارئنا عبدالله ابن السائب، وقاضينا عبيد بن عمير، ومؤذننا أبي محذورة. (مات) سنة أربع وسبعين.

و(منهم): عطاء بن أبي رباح بن اسلم، أبو محمد القرشي، مولاهم المكي، أحد الاعلام. وردت عنه الرواية في حروف القرآن. روى القراءة عن أبي هريرة. عرض عليه أبو عمرو. قال ابن معين: حج سبعين حجة وعاش مائة سنة. وقال غيره: مات سنة خمس أو أربع عشرة ومائة، وله ثمان وثمانون سنة.

و(منهم): طاوس بن كيسان، أبو عبد الرحمن اليماني، التابعي الكبير المشهور. وردت عنه الرواية في حروف القرآن. أخذ القرآن عن ابن عباس وعظم روايته عنه. (مات) بمكة قبل التروية بيوم، سنة ست ومائة.

و(منهم): مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، أحد الاعلام من التابعين والأئمة المفسرين. قرأ على عبدالله بن السائب، وعلى عبدالله بن عباس بضعاً وعشرين ختمة، ويقال ثلاثين عرضة، ومن جملتها ثلاث سأله عن كل آية فيم كانت، أخذ عنه القراءة عرضا عبدالله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وغيرهما. وقرأ عليه الاعمش. (مات) سنة ثلاث ومائة أو أربع أو اثنتين، وقد نيف على الثمانين. يقال: مات وهو ساجد، رحمه الله تعالى.

و(منهم): عكرمة مولى ابن عباس، أبو عبدالله المفسر وردت الرواية عنه

في حروف القرآن. روى عن مولاه، وأبي هريرة، وعبدالله بن عمرو. وقد تكلم فيه لرأيه لا لروايته، فانه اتهم كان يرى رأي الخوارج. عرض عليه علباء بن أحمد، وأبو عمرو بن العلاء، وروى عنه أيوب وخالد الحذاء، وخلق. واعتمده البخاري، وأخرج له مسلم م قرونا، وكذبه مجاهد وابن سيرين. (مات) سنة خمس أو ست أو سبع ومائة.

و(منهم): **عبدالله بن عبيدالله بن أبي ملكية**، أبو بكر، وأبو محمد، التيمي، التابعي المشهور. ذكره الداني وقال: وردت الرواية عنه في حروف القرآن. وروى عن اسماعيل بن عبد الملك، قال: رأيت ابن أبي مليكة يعد الآي في الصلاة، فلما انصرف قلت له، قال: انه أحفظ لي. (توفي) سنة سبع عشرة ومائة.

(الفرقة الثالثة) من التابعين: من كانوا بالكوفة.

(منهم): **علقمة بن قيس**، بن عبدالله بن مالك، أبو شبل النخعي، الفقيه الكبير، عم الاسود بن يزيد، وخال ابراهيم النخعي. (ولد) في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. وأخذ القرآن عرضا عن ابن مسعود، وسمع من علي وعمر وأبي الدرداء وعائشة، رضي الله عنهم. عرض عليه القرآن ابراهيم بن يزيد النخعي، ويقال ابراهيم بن يزيد التيمي أيضاً، وأبو اسحاق السبيعي، وعبيد بن نضلة، ويحيى بن وثاب. وكان أشبه الناس بابن مسعود سمتاً وهدايا وعلماً. وكان أعرج. وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان اذا سمعه ابن مسعود يقول: لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسر بك (مات) سنة اثنتين وستين.

و(منهم): **الاسود بن يزيد بن قيس بن يزيد، أبو عمرو النخعي الكوفي، الامام الجليل.**

قرأ على عبدالله بن مسعود، وروى عن الخلفاء الاربعة. وكان يختم القرآن كل ست ليال، وفي رمضان كل ليلتين. قرأ عليه ابراهيم النخعي، وأبو اسحاق السبيعي، ويحيى بن وثاب. (توفي) سنة خمس وسبعين.

و (منهم): **عبيدة بن عمرو، ــبالفتحــ ويقال: ابن قيس السلماني، أبو مسلم**، وقيل: أبو عمرو الكوفي، التابعي الكبير. أسلم في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ولم يره، فهو من المخضرمين. أخذ القراءة عرضاً عن عبدالله بن مسعود، وروى عنه، وعن علي. أخذ القراءة عنه عرضاً ابراهيم النخعي وأبو اسحاق. وروى عنه ابن سيرين وهما وغيرهم. (توفي) سنة اثنتين وسبعين.

و (منهم): **عمرو بن شرحبيل، أبو ميسرة**، الهمذاني الكوفي، تابعي جليل صالح عابد. عرض على عبدالله بن مسعود، وروى عن عمر وعلي. روى عنه أبو وائل وأبو اسحاق السبيعي. (توفي) في ايام عبيدالله بن زياد، وصلى عليه القاضي شريح.

و(منهم): **الحارث بن قيس الجعفي الكوفي**. روى القراءة عن عبدالله بن مسعود.

و(منهم): **ربيع بن خيثم، أبو يزيد**، الكوفي الثوري، تابعي جيل، راوي حروف القرآن. أخذ القراءة عن عبدالله بن مسعود. عرض عليه أبو زرعة بن عمرو. قال له ابن مسعود: لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لأحبك، وما رأيتك الا ذكرت المخبتين وقال ابن سعد: مات في ولاية عبيدالله بن زياد، يعني قبل سنة تسعين من الهجرة.

و(منهم): **عمرو بن ميمون بن حماد بن طلحة**، أبو عثمان، الكوفي القناد السكري، ووهم فيه الاهوازي فسماه عمر. أخذ القراءة عن حمزة. عرض عليه أحمد بن جبير ورويم بن يزيد. ولم يعلم تاريخ وفاته.

و(منهم): **أبو عبد الرحمن السلمي**، عبدالله بن حبيب بن ربيعة، أبو عبد الرحمن السلمي الضرير، مقرىء الكوفة. (ولد) في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولأبيه صحبة. اليه انتهت القراءة تجويداً وضبطاً. أخذ القراءة عرضا عن عثمان بن عفان، وعلي بن ابي طالب، وعبدالله بن مسعود، وزيد ابن ثابت، وأبي بن كعب. أخذ القراءة عنه عرضا عاصم، وعطاء، والحسن،

والحسين رضي الله عنهما، وغيرهم. وكان ثقة كبير القدر، وحديثه مخرج في الكتب الستة (توفي) سنة أربع أو ثلاث وسبعين.

و(منهم): زر بن حبيش، بن حباشة، أبو مريم، ويقال: أبو مطرف، الأسدي الكوفي، أحد الأعلام. عرض على عبدالله بن مسعود، وعثمان بن عفان، وعلي بن ابي طالب. وعرض عليه عاصم، وسليمان الأعمش، وأبو اسحق السبيعي، ويحيى بن وثاب. (مات) في الجماجم سنة اثنتين وثمانين.

و(منهم): عبيد بن نضلة، أبو معاوية، الخزاعي الكوفي، تابعي ثقة. أخذ القراءة عرضا عن ابن مسعود وعلقمة. وروى عنه القراءة يحيى بن وثاب، وحمران بن أعين. وكان مقرىء أهل الكوفة. (توفي) زمن بشر بن مروان.

و(منهم): سعيد بن جبير، بن هشام، الأسدي الوالبي، مولاهم أبو محمد، أو أبو عبدالله، الكوفي، التابعي الجليل والامام الكبير. عرض على ابن عباس. وعرض عليه أبو عمرو بن العلاء، والمنهال بن عمرو. (قتله) الحجاج بواسطة شهيداً، سنة خمس أو أربع وتسعين، عن تسع وخمسين سنة.

و(منهم): النخعي، ابراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران النخعي، الكوفي، الامام المشهور، الصالح الزاهد العالم. قرأ على الأسود بن يزيد وعلقمة. قرأ عليه الاعمش، وطلحة بن مصرف. (توفي) سنة ست أو خمس وتسعين.

و(منهم): الشعبي، عامر بن شراحيل بن عبد، أبو عمرو، الشعبي، الكوفي، الامام الكبير المشهور. عرض على أبي عبد الرحمن السلمي وعلقمة. وروى القراءة عنه عرضا محمد بن أبي ليلى. ومناقبه وعلمه وحفظه أشهر من أن يذكر. (مات) سنة خمس ومائة وله سبع وسبعون سنة.

(الفرقة الرابعة) من التابعين: من كانوا بالبصرة.

(منهم): أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، من كبار التابعين. أسلم بعد النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين، ودخل على أبي بكر الصديق رضي الله

عنه، وصلى خلف عمر رضى الله عنه. أخذ القرآن عرضا على أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وصح أنه عرض على عمر ثلاث مرات، وفي رواية أربع مرات. قرأ عليه الاعمش وأبو عمرو. (مات) سنة تسعين أو ست وتسعين.

و(منهم): **عمران بن تيم**، أو ابن ملحان، أبو رجاء العطاردي البصري، التابعي الكبير. (ولد) قبل الهجرة باحدى عشرة سنة وكان مخضرميا. أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يره. وعرض القرآن على ابن عباس، وتلقنه من أبي موسى، ولقي أبا بكر الصديق، وحدث عن عمر وغيره من الصحابة. روى القراءة عنه عرضا أبو شهاب العطاردي. (مات) سنة خمس ومائة وله مائة وسبع وعشرون سنة، وقيل مائة وثلاثون.

و(منهم): **نصر بن عاصم الليثي**، ويقال: الدؤلي، البصري النحوي، تابعي. عرض القرآن على أبي الاسود. وروى عنه الحروف مالك بن دينار وعون العقيلي. ويقال انه أول من نقط المصاحف وخمسها وعشرها، وقيل: هو أول من وضع العربية. قال أبو داود وكان من الخوارج، وقال النسائي وغيره: ثقة. قال الذهبي: (توفي) قديما قبل سنة مائة. وممن روى عنه الزهري، وعمرو ابن دينار، وحميد بن هلال.اوقال خليفة. مات قبل سنة تسعين.

و(منهم): **يحيى بن يعمر**، أبو سليمان، العدواني البصري، تابعي جليل. عرض على ابن عمر وابن عباس وأبي الاسود الدؤلي. عرض عليه أبو عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي اسحاق. قال البخاري في تاريخه: أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر. توفي قبل سنة تسعين.

و(منهم): **الحسن البصري**، بن أبي الحسن يسار، السيد الامام أبو سعيد البصري. إمام زمانه علما وعملا. قرأ على حطان بن عبدالله الرقاشي، عن أبي موسى الأشعري؛ وعلى أبي العالية، عن أبي زيد وعمر. وروى عنه أبو عمرو ابن العلاء، وسلام بن سليمان الطويل، وغيرهما. قال الشافعي: لو أشاء أقول أن القرآن نزل بلغة الحسن، لقلت لفصاحته. ومناقبه جليلة وأخباره طويلة.

(ولد) لسنتين بقيتا من خلافة عمر وذلك سنة احدى وعشرين. و(توفي) سنة عشر ومائة.

و(منهم): **ابن سيرين، محمد بن سيرين أبو بكر بن أبي عمرة البصري،** مولى انس بن مالك. إمام البصرة مع الحسن. وردت عنه الرواية في حروف القرآن. (ولد) لسنتين بقيتا من خلافة عثمان. روى عن مولاه، وعن زيد بن ثابت، وعمران بن حصين، وعائشة، وأبي هريرة، وغيرهم. وروى عنه الشعبي ــ مع جلالته وتقدمه ــ وثابت، وقتادة، وأيوب، ومالك بن دينار، وخلائق. (مات) في تاسع شوال سنة عشر ومائة.

و(منهم): **قتادة بن دعامة، أبو الخطاب، السدوسى البصري الأعمى،** روى القراءة عن أبي العالية وأنس بن مالك. وسمع من أنس بن مالك وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وغيرهم. وروى عنه أبو أيوب وشعبة وأبو عوانة وغيرهم. وروى عنه الحروف أبان بن يزيد العطار. وكان يضرب بحفظه المثل. (توفي) سنة سبع عشرة ومائة.

(الفرقة الخامسة) من التابعين: من كانوا بالشام.

(منهم): المغيرة بن أبي شهاب عبدالله بن عمرو بن المغيرة بن ربيعة ابن عمرو بن مخزوم، أبو هاشم المخزومي الشامي. أخذ القراءة عرضا عن عثمان بن عفان. أخذ القراءة عنه عرضا عبدالله بن عامر. قال الذهبي: وأحسبه كان يقرأ بدمشق في دولة معاوية. ولا يكاد يعرف الا من قراءة ابن عامر عليه. (مات) سنة احدى وتسعين وله تسعون سنة.

و(منهم): **خليفة بن سعد، صاحب ابي الدرداء.**

اذا عرفت هذا. فاعلم: أنه تجرد قوم، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا أئمة يقتدى بهم و يرحل اليهم.

فكان بالمدينة:

أبو جعفر يزيد بن القعقاع؛

ثم شيبة بن نصاح؛

ثم نافع بن أبي نعيم.

وبمكة:

عبدالله بن كثير؛

وحميد بن قيس الاعرج؛

ومحمد بن محيصين.

وبالكوفة:

يحيى بن وثاب؛

وعاصم بن أبي النجود؛

وسليمان الاعمش؛

ثم حمزة؛

ثم الكسائي.

وبالبصرة:

عبدالله بن اسحاق؛

وعيسى بن عمر؛

وأبو عمرو بن العلاء؛

وعاصم الجحدرى؛

ثم يعقوب الحضرمي.

وبالشام:

عبدالله بن عامر؛

وعطيةبن قيس الكلابي؛

واسماعيل بن عبدالله بن المهاجر؛

ثم يحيى بن الحارث الذمارى؛

ثم سريج بن يزيد الحضرمي.

ثم اشتهر من هؤلاء في الآفاق، البدور السبعة. فلنذكر كلا منهم على الترتيب.

(فأولهم): نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أبو رويم، أو أبو نعيم، أو أبو الحسن، أو عبدالله أو أبو عبد الرحمن الليثي، مولاهم، وهو مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب، المدني أحد القراء السبعة والاعلام، ثقة صالح. أصله من أصبهان. كان إمام أهل المدينة، وهم صاروا إلى قراءته، ورجعوا إلى اختياره، وقرأ عليه مالك.

ولما اختار أهل المغرب مذهب مالك ـ لأمر مسطور في التواريخ ـ اختاروا قراءة نافع، لاختيار مالك قراءته، وسمعت من بعض فضلاء المغاربة، أنهم اختاروا ذلك، ليكون فقههم فقه عالم المدينة، وقراءتهم قراءة قارىء المدينة. وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين. وكان عالماً بوجوه القراءات، متبعا لآثار الائمة الماضيين. وقرأ القرآن على سبعين رجلا من التابعين منهم: أبو جعفر يزيد بن قعقاع، والزهري، وعبد الرحمن بن هرمز الاعرج، وأمثال هؤلاء. وروى القراءة عنه ـ عرضا وسماعا ـ عشرون رجلا من أهل المدينة. منهم: قالون وهو مختار هؤلاء. وخمسة عشر من أهل مصر ومختار هؤلاء ورش وكثيرون من أهل دمشق. وكان أسود اللون حالكاً، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة، وكان إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك. قال رجل من أصحابه: يا أبا عبدالله ـ أو يا أبا رويم، تتطيب كلما قعدت تقرىء الناس، قال: ما أمس طيباً ولا أقرب طيباً، ولكني رأيت ـ فيما يرى النائم ـ النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقرأ في فيَّ، فمن ذلك الوقت، يشم من فيَّ هذه الرائحة. وقال المسيبي: قيل لنافع: ما أصبح وجهك وأحسن خلقك قال: كيف لا أكون كذلك، وقد صافحني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه قرأت القرآن يعني في النوم. قال قالون: كان نافع من أطهر الناس خلقاً، ومن أحسن الناس قراءة. وكان زاهداً جواداً، صلى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سنة. قال محمد بن اسحاق: لما حضرت نافعاً الوفاة، قال له أبناؤه: أوصنا قال: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ [1]. (مات) سنة تسع وستين ومائة، أو

---

(١) سورة لأنفال، آية ١.

سبعين، أو سبع وستين، أو خمسين، أو سبع وخمسين ومائة.

اما راوية: ورش.

فهو: عثمان بن سعيد، قيل: سعيد بن عبدالله بن عمرو بن سليمان بن ابراهيم، وقيل: سعيد بن عدى بن غزوان بن داود بن سابق، أبو سعيد، أو أبو القاسم، أو أبو عمرو القرشي، مولاهم القبطي المصري، الملقب «بورش»، شيخ القراء المحققين، وامام أهل الاداء المرتلين، انتهت اليه رئاسة الاقراء بالديار المصرية في زمانه. (ولد) سنة عشر ومائة بمصر، ورحل الى نافع بن أبي نعيم، فعرض عيه القرآن عدة ختمات، وكان أشقر أزرق أبيض اللون، قصيراً ذا كدنة، هو الى السمن أقرب منه الى النحافة، لقبه نافع بالورشان، لأنه كان على قصره يلبس ثياباً قصاراً، وكان إذا مشى بدت رجلاه مع اختلاف ألوانه، وقيل سمي به لقلة أكله وخفة لحمه، فكان نافع يقول: هات يا ورشان، واقرأ يا ورشان، وأين الورشان، ثم خفف وقيل ورش. والورشان طائر معروف. وقيل: ان الورش شيء يصنع من اللبن، قيل: هو الجبن أو كالجبن، لقب به لبياضه، ولزمه ذلك اللقب، حتى صار لا يعرف إلا به، وكان هذا اللقب أحب إليه من اسمه، وكان يقول: أستاذي سماني به، وكان أول أمره رءآسا، ولذلك يقال له الروّاس، ثم اشتغل بالقرآن والعربية فمهر فيهما. (توفي) بمصر سنة سبع وتسعين ومائة، عن سبع وثمانين سنة.

وأما راوية: قالون

فهو: أبو موسى عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصمد بن عمر ابن عبدالله الزرقي، و يقال المري، مولى بني زهرة، الملقب قالون، قارىء المدينة ونحويها، يقال إنه ربيب نافع، وقد اختص به كثيراً. وهو الذي سماه قالون لجودة قراءته، فان قالون بلغة الروم: جيد. قال الجزري: سألت الروم عن ذلك فقالوا: نعم، غير أنهم نطقوا الي بالقاف كافاً على عادتهم. ويحكى عنه أنه قال: كان نافع إذا قرأت عليه يعقد لي ثلاثين، و يقول لي: قالون قالون، يعني جيد جيد. قلت: وعقد الثلاثين هو ضم الأصابع الاربعة ونصب الابهام قائماً. ومن

عادتهم أنهم عند استحسان شخص يعقدون هكذا، و يشيرون بالابهام الى ذلك الشخص، وهذه عادتهم عند غاية الاستحسان. قال عبدالله بن علي: وانما يكلمه نافع بالرومية لأن قالون أصله من الروم، كان جد جد جده عبدالله من سبي الروم في أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقدم به من أسره الى عمر الى المدينة، و باعه، فاشتراه بعض الانصار، فهو مولى محمد بن فيروز. قال أبو محمد البغدادي: كان قالون أصم لا يسمع البوق، وكان إذا قرأ عليه قارىء فانه يسمعه. قال ابن أبي حاتم: كان يفهم خطأهم ولحنهم بالشفة. قال الاهوازي: (ولد) سنة عشرين ومائة، وقرأ على نافع سنة خمسين. قال الداني: (توفي) قبل سنة عشرين ومائتين. قال الاهوازي وغيره: سنة خمس ومائتين. قال الذهبي. هذا غلط. وأثبت وفاته سنة عشرين قال الجزري: وهو الاصح.

و (**ثانيهم**): **عبدالله** بن كثير بن المطلب، كذا رفع الداني نسبه، لكن الاصح ماذكره الاهوازي، وهو عبدالله بن كثير بن عمرو بن عبدالله بن زاذان ابن فيروزان بن هرمز، الامام أبو معبد المالكي الداري، إمام أهل مكة في القراءة، اختلف في كنيته والصحيح ما قدمناه. وقيل له: الداري لأنه كان عطاراً، والعرب تسميه دارياً، نسبة الى دارين، موضع بالبحرين يجلب منه الطيب وقيل: لانه كان من بني الدار بن هانىء بن حبيب بن نمارة، من لخم، وهم رهط تميم الداري. والداري الذي لايبرح في داره، ولا يطلب معاشاً. قاله الاصمعي. قال الجزري: والصحيح الاول، لأنه كان من أبناء فارس، الذين بعثهم كسرى بالسفن الى صنعاء، فطردوا الحبش عنها. (ولد) بمكة سنة خمس وأربعين، ولقي بها عبدالله بن الزبير، وأبا أيوب الانصاري، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبر، ودباس مولى ابن عباس، وروى عنهم. وأخذ القراءة عرضا عن عبدالله بن السائب على الأكثر، وان أنكره البعض. (مات) ابن كثير سنة عشرين ومائة. واختلف فيه بأن ابن ادريس الأودي قرأ عليه، وولد هو في خمس عشرة، لكن الصحيح أن ابن ادريس لم يقرأ عليه، وأن ابن كثير مات في عشرين، وكان ابن كثير فصيحاً بليغاً مفوهاً، أبيض اللحية، طويلا جسيماً، أسمر، أشهل العينين، يخضب بالحناء، عليه السكينة والوقار. قال أبو عمر:

وكان ابن كثير أعلم بالعربية من مجاهد، وأنا قرأت عليها. قال ابن مجاهد: لم يزل عبدالله بن كثير هو الامام المجتمع عليه في القراءة بمكة، حتى مات سنة عشرين ومائة.

أما راوية: قنبل،

فهو: محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن سعيد بن جرجة، أبو عمر المخزومي، مولاهم المكي، الملقب بقنبل، شيخ القراء بالحجاز. (ولد) سنة خمس وتسعين ومائة. وأخذ القراءة عرضا عن أحمد بن محمد بن عون النبال، وهو الذي خلفه بالقيام بها بمكة، وقرأ عن كثير من المشايخ، وقرأ عليه كثيرون. وروى القراءة عن ابن كثير بواسطة سند، لأنه يروي عن القواس، عن القسط، عن ابن كثير، واختلف في سبب تلقيبه قنبلا؛ فقيل: اسمه، وقيل: لأنه من بيت بمكة يقال لأهله القنابلة؛ وقيل: لاستعماله دواء يقال له قنبيل، معروف عند الصيادلة، لداء كان به، فلما أكثر منه عرف به، وحذفت الياء تخفيفاً. وقد انتهت اليه رئاسة الاقراء بالحجاز، ورحل الناس اليه من الاقطار. قال أبو عبدالله القصاع. وكان على الشرطة بمكة، لأنه كان لا يليها الا رجل من أهل الفضل والخير والصلاح، ليكون ما يأتيه من الحدود والاحكام على صواب، فولوها قنبلا لعلمه وفضله عندهم. قال الذهبي انه كان في وسط عمره فحمدت سيرته، ثم انه طعن في السن وشاخ، وقطع الاقراء قبل موته بسبع سنين، أو بعشر سنين. (مات) سنة احدى وتسعين ومائتين، عن ست وتسعين سنة.

وأما راوية: البزي،

فهو: أحمد بن محمد عبدالله بن القاسم بن نافع بن ابي بزة، ويقال ان نافعاً هو أبو بزة، الامام أبو الحسن البزي المكي، مقرىء مكة، ومؤذن المسجد الحرام. (ولد) سنة سبعين ومائة. أستاذ محقق ضابط متقن. قرأ على أبيه، وعبدالله بن زياد، وعكرمة بن سليمان، ووهيب بن واضح. وقرأ عليه كثيرون، وروى القراءة عن ابن كثير بواسطة سند، لأنه يروى عن عكرمة، عن قسط، عن ابن كثير. قال الاهوازي: أبو بزة ـــ الذي ينسب اليه

البزي ــ اسمه بشار، فارسي من أهل همدان. أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي. والبزة: الشدة، ومعنى أبو بزة: أبو شدة. قال الجزري: المعروف لغة، أن البزة من قولهم: بزة بزة، اذ سلبه منه. (توفي) البزي سنة خمسين ومائتين عن ثمانين سنة. وقيل: البزي منسوب الى بائع البز لكن الاول أصح.

و(ثالثهم) : **أبو عمرو بن العلاء**، واسمه زبان بن العلاء بن عمار بن العريان بن العريان بن عبدالله بن الحسين بن الحارث بن جلهمة بن حجر بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس ابن مضر بن معد بن عدنان، الامام السيد أبو عمرو، التيمي المازني البصري، أحد القراء السبعة. قال الحافظ أبو العلاء الهمذاني: هذا الصحيح، الذي عليه الحذاق من النساب. وقد قيل انه من بني العنبر، أو من بني حنيفة، وحكى القاضي أسد اليزيدي أنه قيل انه من فارس، من موضع يقال له كازون، وهي بلدة معروفة من فارس. وقد اختلف في اسمه على اكثر من عشرين قولا قال السيوطي في طبقات النحاة: اختلف في اسمه أحد وعشرين قولا (١) اسمه كنيته (٢) زبان وهو الاصح (٣) جبر (٤) جنيد (٥) جز (٦) حماد (٧) حميد (٨) خير (٩) ربان براءة مهملة (١٠) عتيبة (١١) عثمان (١٢) عريان (١٣) عقبة (١٤) عمارة (١٥) عيار (١٦) عيينة (١٧) قايد (١٨) قبيصة (١٩) محبوب (٢٠) محمد (٢١) يحيى. وسبب الاختلاف في اسمه أنه كان لجلالته لا يسأل عنه. قال الجزري في (طبقات القراء): وقد اختلف في اسمه على أكثر من عشرين قولا، ولا ريب أن بعضها تصحيف من بعض، وأكثر الناس من الحفاظ وغيرهم على أنه زبان كما ذكرنا. وقال الذهبي والذي لا أشك فيه أن اسمه زبان بالزاي. وقد أغرب ابن الباذش في حكايته ربان بالراء والموحدة، وأغرب من ذلك ما حكاه أبو العلاء عن بعضهم رياء بالراء ــ وآخر الحروف ــ قال: وهو تصحيف (ولد) أبو عمرو سنة ثمان أو خمس وستين، وقيل سنة خمس وخمسين وقيل: سنة خمس وستين. قرأ بمكة والمدينة والكوفة والبصرة على شيوخ كثيرة، فليس في القراء السبعة أكثر شيوخاً منه.

منهم أنس بن مالك، والحسن بن أبي الحسن البصري، وسعيد بن جبير، وعكرمة ومجاهد، وأمثالهم. وروى عنه القراءة عرضاً وسماعاً جماعة كثيرون، منهم عبدالله بن المبارك، والاصمعي، ومعاذ بن مسلم النحوي، وأمثالهم. وروى عنه الحروف سيبويه. وكان أعلم الناس بالقرآن والعربية، مع الصدق والثقة والزهد. قال عبد الوارث: حججت مع أبي عمرو، فنزلنا في منزل قفر لا ماء فيه، فغاب عني واحتبس عليّ ساعة، فقمت اقفيه الاثر، فاذا هو عند عين يتهيأ للصلاة، والمكان مكان لا ماء فيه أصلا، فنظر الي وقال: ي عبد الوارث، اكتم علي هذا، فوالله ما حدثت به احداً حتى مات. روينا عن سفيان بن عيينة، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، فقلت: يا رسول الله قد اختلفت على القراءات، فبقراءة من تأمرني أن أقرأ، فقال: بقراءة أبي عمرو بن العلاء. (ولد) بمكة سنة ثمان أو خمس وستين، أو ست وسبعين، ونشأ بالبصرة، و (مات) بالكوفة سنة اربع، أو خمس، أو سبع وخمسين ومائة. وقيل: سنة ثمان وأربعين ومائة.

وأما راوية: حفص،

فهو: حفص بن عمر بن عبد العزيز بن صهبان بنّ عدى بن صهبان، ويقال: صهيب، أبو عمر، الدوري الأزدي البغدادي النحوي الضرير، نزيل سامرا، أمام القراءة، وشيخ الناس في زمانه، ثقة ثبت كبير ضابط، أول من جمع القراءات ونسبته الى الدور. موضع ببغداد، ومحلة بالجانب الشرقي.

قال الاهوازي: رحل الدوري في طلب القراءات وقرأ بسائر الحروف السبعة وبالشواذ، وسمع من ذلك شيئاً كثيراً. قرأ على جماعة كثيرة: قرأ على ابي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي، وقرأ هو على أبي عمرو، قال أبو داود: رأيت أحمد بن حنبل يكتب عن أبي عمر الدوري، وقال أحمد بن فرح: سألت الدوري: ما تقول في القرآن، قال: كلام الله غير مخلوق. (توفي) في شوال سنة ست وأربعين ومائتين، وغلط من قال سنة ثمان وأربعين.

وأما راوية: السوسي،

فهو: صالح بن زياد بن عبدالله بن اسماعيل بن ابراهيم، أبي الجارود،

ابن مسرح الرسبتي، أبو شعيب السوسي الرقي، مقرىء ضابط محرر ثقة. أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن أبي محمد اليزيدي، وهو من أجل أصحابه، وقرأ هو على أبي عمرو. روى القراءة عنه جماعة. (مات) أول سنة احدى وستين ومائتين، وقد قارب السبعين.

و(رابعهم): **عبدالله بن عامر**، بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر بن عبدالله بن عمران اليحصبي ــ بضم الصاد وكسرها ــ نسبة الى يحصب بن دهمان بن عامر بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر، وهو هود عليه السلام، وقيل: يحصب بن مالك بن أصبح بن أبرهة بن الصباح، وفي يحصب الكسر والضم، فاذا ثبت الكسر فيه جاز الفتح في النسبة، فعلى هذا يجوز في اليحصبي الحركات الثلاث. وقد اختلف في كنيته كثيراً، والاشهر أنه أبو عمران. إمام أهل الشام في القراءة، والذي انتهت اليه مشيخة الاقراء بها، أخذ القراءة عرضاً عن أبي الدرداء، وعن المغيرة بن أبي شهاب صاحب عثمان ابن عفان، وقيل: عرض على عثمان نفسه؛ قال الجزري: ورد في استاده أقوال: (أصحها) أنه قرأ على المغيرة؛ (الثاني) أنه قرأ على أبي الدرداء وهو غير بعيد؛ (الثالث) أنه قرأ على فضالة بن عبيد وهو جيد؛ (الرابع) أنه سمع قراءة عثمان وهو محتمل؛ (الخامس) أنه قرأ عليه بعض القرآن ويمكن؛ (السادس) أنه قرأ على واثلة بن الاسقع ولا يمتنع؛ (السابع) أنه قرأ على عثمان جميع القرآن وهو بعيد ولا يثبت؛ (الثامن) أنه قرأ على معاوية ولا يصح؛ (التاسع) أنه قرأ على معاذ وهو واه. وأما قوله من قال: لا يدري على من قرأ، فساقط جدا، وأقل من أن ينتدب للرد عليه. وأما قراءته على أبي الدرداء، فقد أثبته الحافظ أبو عمرو الداني، واستبعده أبو عبدالله الحافظ، وناهيك باثبات الداني. وأما طعن ابن جرير في ابن عامر، فقد عد من سقطات ابن جرير، حتى نقل السخاوي عن الشاطبي، أنه قال: واياك وطعن الطبري على ابن عامر؛ وأيضا لا يلتفت الى طعن ابن مجاهد وأبي طاهر بن أبي هاشم في ذلك، وكيف يسوغ أن يجمع الناس من الصدر الاول الى آخر وقت انتشار العلماء في الاقطار ــ سيما علماء الشام ــ على قراءة لا أصل لها، مع شدة مؤاخذتهم في اليسير، وعلى

عدم تسامحهم في النقير والقطمير، بحيث يتبعونها في صلاتهم التي هي أهم أركان الدين، وغير ذلك من التفاسير واستخراج الأحكام. قال أبو علي الأهوازي: كان ابن عامر إماماً عالماً ثقة فيما أتاه، حافظاً لما رواه، متقناً لما وعاه عارفا فهما في كل بابه، قيما فيما جاء به، صادقا فيما نقله من أفاضل المسلمين، وخيار التابعين، وأجلة الراوين، لا يتهم في دينه، ولا يشك في يقينه، ولا يرتاب في أمانته، ولا يطعن عليه في رواية، صحيح نقله، فصيح قوله، عاليا في قدره، مصيبا في أمره، مشهورا في علمه، مرجوعا الى فهمه، لم يتعد فيما ذهب اليه الاثر، ولم يقل قولا يخالف فيه الخبر. ولي القضاء بدمشق بعد بلال بن أبي الدرداء، والاصح أنه ولي بعد ادريس الخولاني، وكان إمام الجامع بدمشق، وهو الذي كان ناظرا على عمارته حتى فرغ. قال يحيى بن الحارث: وكان رئيس الجامع، لا يرى فيه بدعة إلا غيرها. (ولد) سنة احدى وعشرين. قال خالد بن يزيد: سمعت ابن عامر يقول: ولدت سنة ثمان من الهجرة في البلقاء، بضيعة يقال لها رحاب، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولي سنتان، وكان له حينئذ تسع سنين. قال الجزري: وهذا أصح لثبوته عن نفسه، وقد ثبت سماعه من الصحابة، منهم: معاوية بن أبي سفيان، والنعمان ابن بشير، وواثلة بن الاسقع، وفضالة بن عبيد. (توفي) بدمشق يوم عاشوراء، سنة ثمان عشرة ومائة.

أما راوية: هشام.

فهو: هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة بن أبي الوليد، السلمي أو الظفري، الدمشقي، إمام أهل دمشق وخطيبهم ومحدثهم ومقريهم ومفتيهم. (ولد) سنة ثلاث وخمسين ومائة. أخذ القراءة عن أيوب ـــ بن تميم التيمي، وهو عن يحيى بن الحارث الزهادي، وهو عن ابن عامر، قال أبو علي أحمد بن محمد بن الاصبهاني المقري ـــ لما توفي أيوب بن تميم: رجعت الامامة في القراء الى رجلين: هشام وابن ذكوان؛ قال: وكان هشام مشهوراً بالنقل والفصاحة، والعلم والرواية، والفهم والدراية، رزق كبر السن وصحة العقل والرأي، وارتحل الناس اليه في القراءات والحديث. (مات) سنة خمس أو أربع وأربعين ومائتين.

وأما راوية: ابن ذكوان.

فهو: عبدالله بن أحمد بن بشر، ويقال: بشير بن ذكوان بن عمرو بن حسان بن داود بن حسنون بن سعد بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، أبو عمرو، وأبو محمد، القرشي الفهري الدمشقي، الامام الاستاذ الشهير، الراوي الثقة، شيخ الاقراء بالشام، وامام جامع دمشق. أخذ القراءة عرضاً عن أيوب ابن تميم، وهو الذي خلفه في القيام بالقراءة في دمشق. وأخذ أيوب عن يحيى ابن الحارث الزهادي، وهو عن ابن عامر، وقرأ على الكسائي حين قدم على الشام، وروى الحروف سماعا عن اسحاق بن المسيبي، عن نافع. روى القراءة عنه ابنه أحمد وكثيرون. قال أبو زرعة: لم يكن بالعراق، ولا بالحجاز، ولا بالشام، ولا بمصر، ولا بخراسان، أقرأ من ابن ذكوان في ذلك الزمان (ولد) يوم عاشوراء سنة ثلاث وسبعين ومائة. و(توفي) يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شوال، وقيل: لسبع خلون منه، سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وهو الاصح.

و(خامسهم): عاصم بن بهدلة أبي النجود. ــ بفتح النون وضم الجيم ــ وضم النون غلط، أبو بكر الاسدي، مولاهم الكوفي الحناط ــ بالمهملة والنون ــ شيخ الاقراء بالكوفة، وأحد القراء السبعة، ويقال: أبو النجود اسم أبيه، لا يعرف له اسم غير ذلك؛ وبهدلة اسم أمه؛ وقيل: اسم أبي النجود عبدالله، وهو الامام الذي انتهت اليه رئاسة القراءة بالكوفة، بعد أبي عبد الرحمن السلمي في موضعه. جمع بين الفصاحة والاتقان، والتحرير والتجويد، وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن. قال أبو بكر بن عياش: لا أحصي ما سمعت أبا اسحاق السبيعي يقول... ما رأيت أحداً قط كان أفصح من عاصم، اذا تكلم كاد يدخله خيلاء، وكان من التابعين. روى عن أبي رمية رفاعة بن يثربي التميمي، والحارث بن حسان البكري، وكانت لهما صحبة، أخذ القراءة عرضاً عن أبي عبد الرحمن السلمي، وعن زر بن حبيش. قال حفص: قال لي عاصم: انني أقرأتك بها فهي التي قرأت بها على أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي؛ والتي أقرأتها على أبي بكر بن عياش، فهي التي كنت أعرضها على زر بن حبيش، عن ابن مسعود. قال عبدالله بن احمد بن حنبل:

سألت أبي عن عاصم فقال: رجل صالح خير ثقة، فسألته: أي القراءة أحب اليك، قال: قراءة أهل المدينة، فان لم يكن فقراءة عاصم. قال الجزري: وثقه أبو زرعة وجماعة. وقال أبو حاتم محله الصدق، وحديثه مخرجا في الكتب الستة. وقال أبو بكر بن عياش: كان الاعمش وعاصم وأبو حصين سواء كلهم لايبصرون، وجاء يقود عاصماً، فوقع وقعة شديدة، فما كرهه ولا قال له شيئاً. قال الجزري: (توفي) آخر سنة سبع وعشرين ومائة، وقيل: سنة ثمان وعشرين — فلعله في أولها — بالكوفة، وقال الاهوازي: بالسماوة — وهو يريد الشام — ودفن بها، واختلف في موته. قيل سنة عشرين ومائة، وهو قول أحمد بن حنبل، وقيل: سنة تسع أو ثمان أو سبع وعشرين، أو قريباً من ثلاثين، والذي عليه أكثر الشيوخ، انه توفي سنة تسع وعشرين. قال الجزري، بل الصحيح ما قدمت، ولعله تصحيف (على الاهوازي) سبع بتسع، والله تعالى أعلم.

أما راوية: حفص.

فهو: حفص بن سليمان بن المغيرة أبو عمر بن أبي داود، الاسدي الكوفي الغاضري البزاز. بائع البز، و يعرف بحفيص. أخذ القراءة عرضاً وتلقينا عن عاصم، وكان ربيبه ابن زوجته، (ولد) سنة تسعين، وهو الذي أخذ قراءة عاصم على الناس تلاوة، ونزل بغداد فأقرأ بها، وجاور بمكة فأقرأ بها ايضاً. وقال يحيى بن معين: الرواية الصحيحة من قراءة عاصم رواية حفص. وكان أعلمهم بقراءة عاصم، وكان مرجحاً على شعبة بضبط القراءة. قال الذهبي: أما في القراءة فثقة ثبت ضابط لها، بخلاف حاله في الحديث، وكانت القراءة التي أخذها عن عاصم ترتفع الى علي رضي الله عنه، والتي أخذها أبو بكر قراءة زر بن حبيش، عن عبدالله بن مسعود. (توفي) سنة ثمانين ومائة على الصحيح، وقيل: بين الثمانين والتسعين.

وما راوية: شعبة.

فهو: شعبة بن عياش بن سالم، أبو بكر الحناط — بالنون — الاسدي الهشلي الكوفي، الامام العالم، راوي عاصم. اختلف في اسمه على ثلاثة عشر

قولا: أصحها شعبة، وقيل: أحمد وعبدالله وعنترة وسالم وقاسم ومحمد وغير ذلك. (ولد) سنة خمس وتسعين. وعرض القرآن على عاصم ثلاث مرات، وعلى عطاء بن السائب، وأسلم المنقري، وغير ذلك، وعمر دهرا، الا انه قطع الاقراء قبل موته بسبع سنين أو أكثر. وكان اماماً كبيرا عالما عاملا حجة، وكان يقول: أنا نصف الاسلام. وكان من أئمة السنة. ولم يفرش له فراش خمسين سنة. (توفي) في جمادي الاولى سنة ثلاث أو أربع وتسعين ومائة.

و(**سادسهم**): **حمزة بن حبيب بن عمار بن اسماعيل**، أزهد القراء الامام الحبر، أبو عمارة الكوفي التيمي، مولاهم، وقيل: من صميمهم، الزيات، أحد القراء السبعة. (ولد) سنة ثمانين، وأدرك الصحابة بالسن، فيحتمل أن يكون رأى بعضهم. أخذ القراءة عرضاً عن الاعمش، وجعفر بن محمد الصادق، وأبي اسحاق بن أبي ليلى وغيرهم. روى القراءة عنه ابراهيم بن أدهم وسفيان الثوري، وشريك بن عبدالله، وعلي بن حمزة الكسائي، وغيرهم. وإليه صارت الامامة في القراءة بعد عاصم والأعمش، وكان إماماً حجة ثقة ثبتا رضي، قيما بكتاب الله، بصيرا بالفرائض، عارفاً بالعربية، حافظاً للحديث، عابداً زاهداً خاشعاً ورعاً قانتاً لله، عديم النظير، وكان يجلب الزيت من العراق الى حلوان، ويجلب الجوز والجبن الى الكوفة. قال له أبو حنيفة ــ رحمه الله: شيئان غلبتنا عليهما لسنا ننازعك فيهما: القرآن والفرائض. وقال سفيان الثوري: غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض، وكان شيخه إذا رآه قد أقبل يقول: هذا حبر القرآن، وأما ما ذكر عن عبدالله بن ادريس وأحمد بن حنبل من كراهة قراءة حمزة، محمول على قراءة من سمعا منه ناقلاً عن حمزة ــ وما آفة الأخبار إلا رواتها. ويدل على ذلك، أن رجلاً ممن قرأ على سليم، حضر مجلس ابن ادريس، فقرأ، فأفرط في المد والهمزة وأمثالها من التكلف. فكره ذلك ابن ادريس، وطعن فيه. وذلك لأن حمزة أيضا كان يكره ذلك وينهي عنه. قال الجزري: أما كراهته الافراط من ذلك. فقد روينا عنه، من طرق أنه كان يقول لمن يفرط في المد والهمزة: لا تفعل. أما علمت أن ما فوق البياض فهو برص، وما فوق الجعودة فهو قطط. وما فوق القراءة فهو ليس

بقراءة. (توفي) حمزة سنة أربع أو ست أو ثمان وخمسين ومائة. قال الذهبي: الاخير وهم. وقبره بحلوان مشهور.

وأما راوية: خلاد.

فهو: خلاد بن خالد، أبو عيسى، أو أبو عبدالله الشيباني، مولاهم الصيرفي الكوفي، امام في القراءة، ثقة عارف محقق أستاذ، أخذ القراءة عرضا عن سليم، وهو من أضبط أصحابه وأجلهم، وروى القراءة عن حسين بن علي الجعفي عن أبي بكر، وعن أبي بكر نفسه، عن عاصم. وروى القراءة عرضا عنه جماعة (توفي) سنة عشرين ومائتين.

وأما راوية: خلف.

فهو: خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب بن هشيم بن ثعلب بن داود بن مقسم بن غالب، أبو محمد الاسدي، ويقال خلف بن هشام بن طالب ابن غراب، الامام العالم، أبو محمد البزار بالراء، البغدادي، أصله من فم الصلح بكسر الصاد، أحد القراء العشرة، وأحد الرواة عن سليم عن حمزة. (ولد) سنة خمسين ومائة، وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وابتدأ في الطلب وهو ابن ثلاث عشرة، وكان ثقة كبيراً زاهداً عابداً عالماً، وكان يكره أن يقال له البزار، ويقول: ادعوني المقري. أخذ القرآن عرضاً عن سليم بن عيسى، وعبد الرحمن بن أبي حماد، وعن حمزة، وغيرهم. (مات) في جمادي الآخرة، سنة تسع وعشرين ومائتين، ببغداد، وهو مختف عن الجهمية.

و (**سابعهم**): **الكسائي**، علي بن حمزة بن عبدالله بن بهمن بن فيروز، الاسدي، مولاهم، وهو من أولاد الفرس من سواد العراق، أبو الحسن الكسائي، الامام الذي انتهت اليه رئاسة الاقراء بالكوفة بعد حمزة الزيات. أخذ القراءة عن حمزة عرضاً أربع مرات، وعليه اعتماده. روى عنه من الائمة كثيرون منهم: الامام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وقال: ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي؛ وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في النحو

فهو عيال على الكسائي؛ وقال ابن مجاهد: اختار الكسائي من قراءة حمزة وقراءة غيره قراءة متوسطة، غير خارجة من آثار من تقدمه من الائمة، وكان إمام الناس في القراءة في عصره. قال أبو بكر الأنباري اجتمعت في الكسائي أمور: كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم في الغريب، وأوحدهم في القرآن. قيل لأبي عمر الدوري: لم صحبتم الكسائي على الدعابة التي كانت فيه، قال: لصدق لسانه.

واختلف في تسميته بالكسائي: فالذي رويناه عنه، أنه سئل عن ذلك، فقال: لأني أحرمت في كساء، وقيل: لأنه كان يتشح بكساء، ويجلس في حلقة حمزة، ويقول حمزة: أعرضوا على صاحب الكساء، وقيل انه من قرية باكسايا، والاول أصحها، والآخر أضعفها. وقد ألف كتبا كثيرة في النحو والقراءات. واختلف في تاريخ موته، والصحيح الذي أرخه غير واحد من العلماء والحفاظ: سنة تسع وثمانين ومائة، صحبه هارون الرشيد، بقرية رنبوية من عمل الري، متوجهين الى خراسان. و (مات) معه بالمكان المذكور محمد ابن الحسن القاضي، صاحب أبي حنيفة رحمه الله، فقال الرشيد: دفنا الفقه والنحو بالري؛ وقيل سنة احدى أواثنتين أو ثلاث أو خمس وثمانين، وقيل سنة ثلاث وتسعين، وعاش الكسائي سبعين سنة.

أما راوية: حفص.

فهو حفص بن عمر بن عبد العزيز بن صهبان الدوري، وهو راوي أبي عمرو المذكور أيضاً. وقد تقدم ذكره هناك فلا نعيده.

وأما راوية: الليث.

فهو ليث بن خالد، أبو الحارث البغدادي، ثقة معروف حاذق ضابط. عرض على الكسائي، وهو من جملة أصحابه، وروى الحروف عنه حمزة بن القاسم الاحول، وعن اليزيدي روى القراءة عنه ــ عرضاً وسماعاً ــ سلمة بن عاصم صاحب الفراء، ومحمد بن يحيى الكسائي الصغير، والفضل بن شاذان، ويعقوب بن أحمد الشرواني. (مات) سنة أربعين، ومائتين، والله أعلم.

هذه ترجمة الاصول السبعة مع رواتهم. ثم ان القوم اختاروا بعد هؤلاء شيوخاً ثلاثة، وجوزوا الصلاة مع قراءتهم كالسبعة، دون من عدا هؤلاء العشرة من الشواذ، اللهم الا بشروط ثلاثة: التواتر، والثبوت في المصحف العثماني، واستقامة وجهها في العربية. وان لم يوجد واحد من هذه الشروط، فلا تجوز الصلاة به، وان كان مشهوراً اتفاقاً والخلاف في الافساد، حتى قال الاصفهاني: مالم يتواتر من الشواذ حكمها حكم كلام البشر في حق الصلاة. قال الامام قاضي خان: لو قرأ ما ليس في المصحف الامام ــ ان لم يكن ذكر أولا تهليلا ــ يفسد صلاته، لأنه من كلام الناس، فان كان معناه ما في الامام، تجوز صلاته في قياس قول أبي حنيفة ومحمد ــ رحمها الله تعالى ــ لأن الامام يجوز قراءة القرآن بأي لفظ كان، ومحمدا يجوز باللفظ العربي فقط، خلافاً لأبي يوسف رحمه الله.

اذا عرفت هذا التفصيل، فلا بد لك من معرفة هؤلاء الثلاثة وأحوالهم، سيما يعقوب الحضرمي، لأن عامة البصريين اختاروا قراءته بعد أبي عمرو، وكان امام البصرة سنين.

أما (أولهم) وأولا هم: أبو محمد يعقوب بن اسحاق بن زيد بن عبدالله بن أبي اسحاق، الحضرمي، مولاهم البصري، أحد القراء العشرة، وامام أهل البصرة ومقريها. أخذ القراءة عرضاً عن جماعة، وسمع الحروف من الكسائي، ومحمد بن زريق الكوفي، عن عاصم، وسمع من حمزة حروفاً، وروى ابن المنادي أنه قرأ على أبي عمرو. قال الجزري: وقراءته على أبي الاشهب عن أبي رجاء عن أبي موسى في غاية العلو. وأما اسناده في القراءة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانه قرأ على سلام المذكور، وقرأ هو على عاصم، وقرأ هو على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ هو على علي بن أبي طالب، وقرأ عليٌّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وروى القراءة عنه عرضاً جماعة كثيرة. قال أبو حاتم السجستاني: هو أعلم من رأيت بالحروف، والاختلاف في القرآن وعلله ومذاهبه، ومذاهب النحو، وأروى الناس لحروف القرآن ولحديث الفقهاء. وقال الداني: وائتم بيعقوب في اختياره عامة البصريين بعد

أبي عمرو، أو أكثرهم عل مذهبه؛ قال: وقد سمعت طاهر بن غلبون يقول: امام الجامع بالبصرة لا يقرأ الا بقراءة يعقوب. قال ابن أبي حاتم: سئل أحمد ابن حنبل عنه، فقال: صدوق؛ وسئل عنه أبي، فقال: صدوق. قال الجزري: وكان يعقوب من أعلم أهل زمانه بالقرآن والنحو وغيره، وأبوه اسحاق وحده زيد. قال محمد بن محمد بن عبدالله الاصبهاني تفرق أهل البصرة أيام الزنج، وأهل المسجد يجردون ليعقوب، وأهل القبائل لأيوب، وعلى قراءة يعقوب الى هذا الوقت أئمة المسجد الجامع بها، وكذلك أدركناهم. قال الجزري: ومن أعجب العجب — بل من أكبر الخطأ — جعل قراءة يعقوب، من الشواذ الذي لا تجوز القراءة بها ولا الصلاة، وهذا شيء لا نعرفه قبل، الا في هذا الزمان، ممن لا يعول على قوله، ولا يلتفت الى اختياره، وللأئمة المتقدمين في ذلك، ما يبين الحق ويهدي السبيل، كما ذكرت ذلك في كتاب (المنجد)، فليعلم أنه لا فرق بين قراءة يعقوب وقراءة غيره من السبعة عند أئمة الدين المحققين، وهو الحق الذي لا محيد عنه. قلت: والى هذا يشير قول القاضي البيضاوي في أول تفسيره، و يعرب عن وجوه القراءات المعزية الى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين، حيث ذكر يعقوب مع السبعة، وأخرجه من الشواذ. قال أبو القاسم الهذلي: لم ير في زمن يعقوب مثله، كان عالما بالعربية ووجوهها، والقرآن واختلافه، فاضلا تقياً ورعاً زاهداً؛ بلغ من زهده، أنه سرق رداؤه عن كتفه وهو في الصلاة ولم يشعر، ورد اليه ولم يشعر، لشغله بالصلاة؛ بلغ من جاهه بالبصرة، أنه كان يحبس و يطلق. قال أبو حاتم: يعقوب بن اسحاق من أهل بيت العلم بالقرآن، والعربية، وكلام العرب، والرواية الكثيرة، والحروف، والفقه، وكان أقرأ القراء، وكان أعلم من أدركنا ورأينا بالحروف والاختلاف في القرآن وتعليله، ومذاهب أهل النحو في القرآن، وأروى الناس لحروف القرآن وحديث الفقهاء. ذكر ابن خلكان، أن أول من وضع العربية أبو الاسود الدؤلي، أخذها عن علي بن أبي طالب رضي‌الله عنه، وأخذ عن أبي الاسود عنبسة الفيل بن معدان المهرمي، وأخذ عنه ميمون الاقرن، وأخذ عنه عبدالله الحضرمي جد يعقوب الحضرمي، وأخذ عنه عيسى ابن عمر الثقفي، وأخذ عنه خليل بن أحمد، وأخذ عنه سيبويه، وأخذ عنه

الاخفش. قال البخاري وغيره: (مات) يعقوب في ذي الحجة سنة خمس ومائتين، وله ثمان وثمانون سنة، وكذلك أبوه وجده وجد أبيه، كلهم ماتوا عن ثمان وثمانين سنة. ولبعضهم فيه شعر:

أبـوه مـن الـقـراء كـان وجـده و يعقوب في القراء كالكوكب الدري
تـفـرده محـض الصـواب ووجـهـه فـمـن مـثـلـه في وقـتـه والى الحشر

و(ثانيهم): **أبو جعفر يزيد بن القعقاع**، الامام أبو جعفر، القارىء المخزومي ولاء، المدني، وهو مولى عبدالله بن عياش المخزومي، أحد القراء العشرة، تابعي مشهور كبير القدر؛ و يقال: اسمه جندب بن فيروز؛ وقيل: فيروز. عرض القرآن على مولاه عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وعبدالله بن عباس، وأبي هريرة، وروى عنهم؛ و يقال: قرأ على زيد بن ثابت، قال الذهبي: ولم يصح؛ وسمع عبدالله بن عمر بن الخطاب، ومروان بن الحكم، رضي الله عنهم. قال الجزري: رو ينا عنه، أتي به الى أم سلمة وهو صغير، فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة، وصلى بابن عمر، وأقرأ الناس بالمدينة قبل وقعة الحرة، وهي سنة ثلاث وستين. قال ابن خلكان: قال محمد بن القاسم المالكي: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، مولى أم سلمة رضي الله عنها، زوج رسول‌الله صلى الله عليه وسلم. روى القراءة عنه نافع بن أبي نعيم، وسليمان بن مسلم، وعيسى بن وردان، وأبو عمرو، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واسماعيل و يعقوب ابناه، وميمونة. قال مالك بن أنس: كان أبو جعفر القارىء رجلا صالحا يقرىء الناس بالمدينة. قال يعقوب بن جعفر بن أبي كثير الانصاري: كان امام الناس بالمدينة أبو جعفر. وقال ابن مجاهد: حدثوني عن الأصمعي، عن أبي الزناد، قال: لم يكن أحد أقرأ للسنة من أبي جعفر، وكان يقدم في زمانه على عبد الرحمن بن هرمز الاعرج. قال الذهبي: قرأ أبو جعفر على أحمد بن يزيد الحلواني، عن قالون، عن عيسى بن وردان، عن أبي جعفر؛ وأقرأها الزبير بن محمد الحميري، عن قراءته على قالون باسناده؛ واقرأها سليمان بن داود الهاشمي، عن سليمان بن مسلم بن جماز، عن أبي جعفر؛ وأقرأ بها الدوري، عن اسماعيل بن جعفر، عن أبي جعفر، أو عن رجل

عن أبي جعفر. قال الجزري: وقد أسند الاسناد أبو عبدالله القصاع، قراءة أبي جعفر من رواية نافع عنه، وكذلك أقرأ بها أبو عبد الرحمن قتيبة بن مهران، وقرأ بها على اسماعيل بن جعفر، وصحت عندنا من طريقه؛ ثم قال الجزري: والعجب ممن يطعن في هذه القراءة، أو يجعلها من الشواذ، وهي لم يكن بينها و بين غيرها السبع فرق، كما بيناه في كتابنا (المنجد). روى أنه كان يصوم صوم داود، وكان يقول: أروض به نفسي لعبادة الله تعالى؛ وأنه كان يصلي في جوف الليل أربع تسيمات في كل ركعة بالفاتحة، وسورة من طوال المفصل، و يدعو عقيبها لنفسه وللمسلمين، ولكل من قرأ عليه بقراءته بعده وقبله. روى عن نافع أنه قال: لما غسل أبو جعفر بعد وفاته، نظروا ما بين نحره الى فؤاده مثل ورقة المصحف، قال فما شك أحد ممن حضر أنه نور القرآن. روي عن سليمان بن أبي سليمان العمري أنه قال: رأيت أبا جعفر على الكعبة ــ يعني في المنام ــ فقلت: أبا جعفر، فقال: نعم، أقرىء أخواني السلام، وأخبرهم أن الله تعالى جعلني من الشهداء الأحياء المرزوقين، وأقرىء أبا حازم السلام، وقل له: يقول لك أبو جعفر: الكيس الكيس فإن الله وملائكته يتراءون مجلسك بالعشيات. وجد بخط أبي عبدالله محمد بن إسرائيل القصاع أنه ــ يعني أبا جعفر ــ رؤي في المنام بعد وفاته على صورة حسنة، فقال للذي رآه: بشر أصحابي وكل من قرأ قراءتي، أن الله تعالى قد غفر لهم وأجاب فيهم دعوتي، ومرهم أن يصلوا هذه الركعات في جوف الليل كيف استطاعوا. (مات) أبو جعفر بالمدينة، سنة ثلاثين ومائة، وقيل: سنة اثنتين وثلاثين، وقيل سنة تسع أو ثمان أو سبع وعشرين. وأبعد الهذلي في كامله حيث قال سنة عشر.

و (ثالثهم): **أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب**، الامام العالم، أبو محمد البزار البغدادي، أحد القراء العشرة، وأحد الرواة عن سليم عن حمزة وقد ذكرنا تفصيله هناك فلا وجه للاعادة.

وإذا انتهيت الى هذا الإمام، فعلك باخع نفسك على معرفة سائر الشيوخ من أرباب التصانيف، وقد عيل صبرك عنه، سيما صاحب (التيسير)، والشاطبي، والسخاوي، والإمام الجعبري، والجزري. فنقول:

أما صاحب (التيسير): فهو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد عمر، أبو عمرو الداني الأموي، مولاهم القرطبي، المعروف في زمانه بابن الصيرفي، الإمام العلامة الحافظ، أستاذ الأستاذين، وشيخ مشايخ المقرئين. (ولد) سنة احدى وسبعين وثلاثمائة. قال: وابتدأت بطلب العلم في سنة ست وثمانين، ورحلت الى المشرق سنة سبع وتسعين، ودخلت مصر في شوال منها، فمكثت بها سنة، وحججت، ودخلت الأندلس في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وخرجت الى الثغر سنة ثلاث وأربعمائة، فسكنت سرقسطة سبعة أعوام، ثم رجعت الى قرطبة. قال: وقدمت دانية سنة سبع عشرة. واستوطنها حتى مات. أخذ القراءات عرضاً عن جماعة. وروى عنه جماعة. وكان أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه واعرابه، وله معرفة بالحديث وطرقه وأسماء رجاله ونقلته. وكان حسن الخط جيد الضبط، من أهل الحفظ والذكاء والتفنن، ديناً فاضلاً ورعاً سنياً، وكان مجاب الدعوة، مالكي المذهب، لم يكن في عصره ــ ولا بعد عصره بمدد ــ أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه. وكان يقول: ما رأيت شيئاً الا كتبته، ولا كتبته الا حفظته، ولا حفظته فنسيته. وكان يسأل عن المسألة، مما يتعلق بالآثار وكلام السلف، فيوردها بجميع ما فيها، مسندة من شيوخه الى قائلها. قال الجزري: ومن نظر كتبه، علم مقدار الرجل، وما وهبه الله تعالى فيه، فسبحان الفتاح العليم.

١ ــ أشهرها: كتاب التيسير؛

٢ ــ وأحسنها: جامع البيان في القراءات السبع؛

٣ ــ وأرجوزته؛

٤ ــ والاقتصاد؛

٥ ــ والمقنع في رسم المصحف؛

٦ ــ والمحكم في النقط؛

٧ ــ والمحتوى في القراءات الشواذ؛

٨ ــ وطبقات القراء، في أربعة أسفار؛

٩ ــ والفتن والملاحم؛

١٠ ــ وشرح قصيدة الخاقاني في التجويد؛

وغير ذلك من الكتب. وكان بينه وبين أبي محمد بن حزم منافرة عظيمة أفضت الى المهاجاة بينهما، والله تعالى يغفر لهما. (توفي) الحافظ أبو عمرو بدانية، يوم الاثنين منتصف شوال، سنة أربع وأربعين وأربعمائة ومشى صاحب دانية أمام نعشه، وشيعه خلق عظيم. رحمه الله تعالى.

وأما الشيخ الامام الشاطبي.

فهو القاسم بن فيره، بكسر الفاء، بعده آخر الحروف ساكنة، ثم راء مشددة مضمومة، بعدها هاء، ومعناه بلغة عجم الأندلس: الحديد، ابن خلف ابن أحمد، أبو القاسم، وأبو محمد الشاطبي الرعيني الضرير، ولي الله، الإمام العلامة، أحد الأعلام الكبار، والمشتهرين في الأقطار.

(ولد) في آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بشاطبة ــ قرية بجزيرة الأندلس. قرأ ببلده القراءات وأتقنها على أبي عبدالله محمد بن أبي العاص المنقري، ثم رحل الى بلنسية بالقرب من بلده، فعرض بها التيسير ــ من حفظه ــ والقراءات على ابن هذيل، وسمع منه الحديث، وروى عنه، وعن أبي عبدالله محمد بن حميد؛ أخذ عنه (كتاب سيبويه)، و (الكامل) لمبرد، و (أدب الكاتب) لابن قتيبة، وعن غيرهم من الفضلاء. ثم رحل للحج، فسمع من أبي طاهر السلفي بالاسكندرية وغيره، ولما دخل مصر، أكرمه القاضي الفاضل، وعرف مقداره، وأنزله بمدرسته بالقاهرة، وجعله شيخها، وعظمه تعظيماً كثيراً، ونظم (قصيدته اللامية) و (الرائية) بها، وجلس للاقراء، فقصده الخلائق من الأقطار.

ثم إنه لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بيت المقدس، توجه فزاره سنة تسع وثمانية وخمسمائة. ثم رجع، فأقام بالمدرسة الفاضلية يقرىء حتى توفي. وكان رحمه الله إماماً في علوم القرآن، ناصحاً لكتاب الله تعالى، متقناً لأصول العربية، إماماً في اللغة، رأساً في الأدب، رحلة في الحديث وحافظاً له، يضبط نسخ الصحيحين من لفظه، أعجوبة في الذكاء، حاذقاً في تعبير الرؤيا، كثير الفنون، مجيداً في النظم، آية من آيات الله تعالى، غاية في القراءات، مع

الزهد والولاية والعبادة والانقطاع والكشف متواضعاً لله تعالى، قدوة للصلاح، ذا بصيرة صافية، تلوح منه الكرامات، كان يعذل أصحابه على أشياء ما اطلع عليها، وسمع الآذان بجامع مصر من غير المؤذنين مراراً، وكان محفوظ اللسان، يمنع جلساءه من فضول الكلام، لا يجلس للاقراء الا متطهراً خاشعاً، مواظباً على السنة. كان شافعي المذهب. بلغنا أنه ولد أعمى.

ولقد حكى عنه أصحابه ومن كان يجتمع به عجائب، وعظموه تعظيماً بالغاً، حتى أنشد الحافظ العلامة أبو شامة المقدسي من نظمه في ذلك:

رأيت جماعة فضلاء فازوا ... برؤية شيخ مصر الشاطبي
وكلهم يعظمه ويثني ... كتعظيم الصحابة للنبي

قال الجزري: أخبرني بعض شيوخنا الثقات، عن شيوخهم، أن الشاطبي كان يصلي الصبح بالفاضلية بغلس، ثم يجلس للاقراء، فكان الناس يتسابقون السرى اليه ليلاً، وكان إذا قعد لا يزيد على قوله: من جاء أولاً فليقرأ، ثم يأخذ على الأسبق فالأسبق، فاتفق أن قال يوماً: من جاء ثانياً فليقرأ، وبقي الأول ــ وكان من أصحابه ــ لا يدري ما الذنب الذي أوجب حرمانه، ففطن أنه أجنب تلك الليلة، ولشدة حرصه على النوبة نسي ذلك، فبادر الى حمام جوار المدرسة، فاغتسل ورجع قبل فراغ الثاني، والشيخ قاعد أعمى، فلما فرغ الثاني قال الشيخ من جاء أولا فليقرأ. وهذا من أحسن ما وقع لشيوخ هذه الطائفة، بل لا أعلم مثله وقع في الدنيا.

ومن تصانيفه رائقة في الرسم فائقة نظرائها. وأما (قصيدته اللامية) في القراءات، واسطة عقد تصانيفه، وغرة وجه تآليفه، وهي القصيدة التي سارت في الأمصار، وطارت في الأقطار، وصار الى قبولها علماء الأعصار. قال الجزري: من وقف على قصيدته، علم مقدار ما آتاه الله تعالى في ذلك، خصوصاً اللامية التي عجز البلغاء من بعده عن معارضتها، فانه لا يعرف مقدارها، الا من نظم على منوالها أو قابل بينها وبين ما نظم على طريقها. ولقد رزق هذا الكتاب من الشهرة والقبول، ما لا أعلمه لكتاب غيره في هذا الفن، بل أكاد أن أقول: ولا في غير هذا الفن، فانني لا أحسب أن بلداً من بلاد

الاسلام يخلو منه، بل لا أظن أن بيت طالب علم يخلو من نسخة منه. ولقد تنافس الناس فيها، ورغبوا في اقتناء النسخ الصحاح منها الى غاية، حتى أنه كانت عندي نسخة باللامية والرائية بخط الجحيج ـ صاحب السخاوي ـ مجلدة، فاعطيت بها وزنها فضة فلم أقبل، ولقد بالغ الناس في التغالي فيها، وأخذ أقوالها مسلمة، واعتبار ألفاظها منطوقاً ومفهوماً، حتى خرجوا بذلك عن حد أن يكون لغير معصوم، وتجاوز بعض الحد، فزعم أن ما فيها هو القراءات السبع، وأن ما عدا ذلك شاذ لا يجوز القراءة به. ومن أعجب ما اتفق للشاطبية في عصرنا هذا، أن به من بينه وبين الشاطبي باتصال التلاوة والقراءة رجبين ـ مع أن للشاطبي يوم تبيض هذه الترجمة مائتي سنة ـ وهذا لا أعلم أنه اتفق في عصر من الأعصار للقراءات السبع، وان كان اتفق في بعض القراءات وقتاً ما، وما ذلك الا لشدة اعتناء الناس بها. ومن الجائز أن تبقى الشاطبية باتصال السماع بهذا السند الى رأس الثمانمائة، كذا قاله الجزري. عرض عليه القراءات جماعة، وأجل أصحابه أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي وأمثاله. وسمع عليه القصيدة، الامام أبو عمر وعثمان بن عمر بن الحاجب وغيره، وبارك الله له في تصنيفه وأصحابه، ولا تعلم أحداً أخذ عنه الا قد أنجب. (توفي) رحمه الله في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، سنة تسعين وخمسمائة بالقاهرة. و (دفن) بالقرافة بين مصر والقاهرة، وقبره مشهور معروف يزار. قال الجزري: وقد زرت قبره مرات، وعرض علي بعض أصحابي الشاطبية عند قبره، ورأيت بركة الدعاء عند قبره بالاجابة رحمه الله ورضي عنه.

وأما الشيخ السخاوي:

فهو علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب بن عطاء، الإمام العلامة، علم الدين أبو الحسن الهمذاني، السخاوي، المقرىء المفسر النحوي اللغوي الشافعي، شيخ مشايخ الاقراء بدمشق. (ولد) سنة ثمان أو تسع وخمسين وخمسمائة بسخاً من عمل مصر. وسمع باسكندرية من السلفي وأبي الطاهر بن عوف، وبمصر من عساكر بن علي والبوصيري وابن ياسين وغيرهم.

قرأ القراءات بالديار المصرية، على ولي الله أبي القاسم الشاطبي وبه انتفع، وعلى أبي الجود، وأبي الفضل محمد بن يوسف الغزنوي، وعساكر بن علي. ثم رحل الى دمشق فقرأ القراءات الكثيرة على أبي اليمن الكندي، وأخذ عنه النحو واللغة والأدب، وسمع من كثير من العلماء وغيرهم. وكان إماماً علامة محققاً، مقرئاً مجوداً بصيراً بالقراءات وعللها، إماماً في النحو واللغة والتفسير والأدب، أتقن هذه العلوم اتقاناً بليغاً، وليس في عصره من يلحقه فيها، وكان عالماً بكثير من العلم غير ذلك، مفتياً أصولياً مناظراً، وكان مع ذلك ديناً خيراً متواضعاً، مطرح التكلف، حلو المحاضرة، حسن النادرة، حاد القريحة، من أذكياء بني آدم وافر الحرمة، كبير القدر، محبباً إلى الناس، ليس له شغل إلا العلم والإفادة. اقرأ الناس نيفاً وأربعين سنة بجامع دمشق، عند رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، ثم بتربة أم الصالح، ولأجله بنيت، وبسببه جعل شرطها على الشيخ أن يكون أعلم أهل البلد بالقراءات، فقصده الطلبة من الآفاق، وازدحموا عليه وتنافسوا في الأخذ عنه. قال الحافظ أبو عبدالله في (تاريخ الاسلام): قرأ عليه خلق كثير الى الغاية، ولا أعلم أحداً من القراء في الدنيا أكثر أصحاباً منه. وعد الجزري من أصحابه ما ينيف على عشرين. **وألف من الكتب:**

١ ــ شرح الشاطبية وسماه: «فتح الوصيد».

وهو أول من شرحها بل هو والله أعلم سبب شهرتها في الآفاق، واليه أشار الشاطبي بقوله: يقيض الله لها فتى يشرحها؛

٢ ــ وشرح الرائية للشاطبي وسماه: «الوسيلة الى شرح العقيلة»؛

٣ ــ وله كتاب: المفضل في شرح المفصل، في النحو، وهو كتاب نفيس في أربعة أسفار؛

٤ ــ وله شرح آخر على المفصل في النحو وسماه: «سفر السعادة وسفير الافادة»؛

٥ ــ وشرح الأحاجي النحوية للزمخشري، وهو من أجل الكتب في موضوعه، والتزم أن يعقب كل أحجيتين للزمخشري بلغزين من نظمه.

٦ ــ وكتاب: التفسير، وصل فيه الى الكهف في أربعة أسفار، ومن وقف

عليه علم مقدار هذا الرجل ففيه من النكت واللطائف والدقائق ما لم يكن في غيره؛

٧ ـــ وكتاب: القصائد السبع، في مدح سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وشرحه الشيخ أبو شامة؛

٨ ـــ وكتاب: المفاخرة بين دمشق والقاهرة.

وغير ذلك من الكتب.

قال ابن خلكان: رأيته راكباً الى الجبل، وحوله اثنان أو ثلاثة يقرأون عليه في أماكن مختلفة دفعة واحدة، وهو يرد على الجميع. قال الذهبي: وفي نفسي شيء من صحة الرواية على هذا النعت، لأنه لا يتصور أن يسمع مجموع الكلمات. قال الجزري: بل في لنفس مما قاله الذهبي شيء، ألم يسمع وهو يرد على الجميع، مع أن السخاوي لا نشك في ولايته، وقد أخبرني جماعة من الشيوخ الذين أدركتهم، عن شيوخهم، أن بعض الجن كان يقرأ عليه. هذا ما ذكره الجزري. قال أبو شامة: وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة (توفي) شيخنا علم الدين، علامة زمانه، وشيخ أوانه الشيخ السخاوي. وكانت (ولادته) سنة ثمان أو تسع وخمسين وخمسمائة.

وأما الشيخ الجعبري:

فهو: أبو اسحاق ابراهيم بن عمر بن ابراهيم بن خليل بن أبي العباس، العلامة الأستاذ أبو محمد الربعي الجعبري السلفي ـــ بفتحتين ـــ نسبة الى طريقة السلف، محقق حاذق ثقة. شرح الشاطبية والرائية. وألف التصانيف في أنواع العلوم. (ولد) سنة أربعين وستمائة أو قبلها تقريباً، بربض قلعة جعبر، وقرأ السبعة والعشرة على مشايخ كثيرة، واستوطن بلد الخليل عليه أفضل السلام. وكان فقيهاً مقرئاً متفنناً. له التصانيف المفيدة في القراءة والمعرفة بالحديث وأسماء الرجال، وشرح الشاطبية وسماه: (كتاب كنز المعاني)، وشرح الرائية أيضاً، وأحسن في هذين الكتابين، سيا (شرح الشاطبية) فانه أحسن فيه كل الاحسان، ولا يقدر على حل رموزه إلا من برع في علوم القرآن، بل العلوم العربية والشرعية أيضاً، ولا يعرف عسر ذلك الكتاب وقدر اتقانه،

إلا من خدمه حق الخدمة. (توفي) في ثالث عشر شهر رمضان، سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

وأما الشيخ منتجب الدين بن أبي العز بن رشيد أبو يوسف الهمداني، إمام كامل علامة، كان رأساً في القراءات والعربية، صالحاً متواضعاً صوفيا. قرأ على أبي النجود بمصر وسمع بدمشق أبا اليمن الكندي، وقرأ عليه، وشرح الشاطبية شرحاً لا بأس به، وأعرب القرآن لعظيم اعراباً متوسطاً، وشرح المفصل للزمخشري وأجاد، وذكره الذهبي في (تاريخ الاسلام) وقال: كان سوقه كاسداً مع وجود السخاوي؛ وذكره أبو شامة في الذيل وقال: كان مقرئاً مجوداً، وانتفع بشيخنا السخاوي في معرفة قصيدة الشاطبي، ثم تعاطى شرح القصيدة فخاض بحراً عجز عن سباحته، وجحد حق تعليم شيخنا له وأفادته. قال الجزري: وفي شرحه القصيدة مواضع بعيدة عن التحقيق، لأنه لم يقرأ بها على الناظم ولا من قرأ عليه. (توفي) في شهر ربيع الأول، سنة ثلاث وأربعين وستمائة بدمشق.

وأما الشيخ الجزري:

فهو: محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري، يكنى أبا الخير. (ولد) ــ فيما حققه من لفظ والده ــ في ليلة السبت الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة احدى وخمسين وسبعمائة بدمشق، وحفظ القرآن سنة أربع وستين، وصلى به سنة خمس، وسمع الحديث من جماعة، وأفرد القراءات على بعض الشيوخ، وجمع السبع في سنة ثمان وستين، وحج في هذه السنة، ثم رحل الى الديار المصرية في سنة تسع، وجمع القراءات العشر، والاثنتي عشرة، ثم الثلاث عشرة، ثم رحل الى دمشق، وسمع الحديث من أصحاب الدمياطي والابرقوهي، وأخذ الفقه عن الأسنوي وغيره، ثم رحل الى الديار المصرية، وقرأ بها الأصول والمعاني والبيان، ورحل الى الاسكندرية، وسمع من أصحاب ابن عبد السلام وغيرهم. وأذن له بالافتاء، شيخ الاسلام أبو الفداء اسماعيل بن كثير، سنة أربع وسبعين، وكذلك الشيخ ضياء الدين سنة ثمان وسبعين، وكذلك شيخ الاسلام البلقيني سنة خمس وثمانين. ثم جلس للاقراء وقرأ عليه

القراءات جماعة كثيرون. وولي قضاء الشام سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. ثم دخل الروم لما ناله من الظلم: من أخذ أمواله وغيره بالديار المصرية، في سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، فنزل بمدينة برصه دار الملك العادل المجاهد بايزيد بن عثمان، فأكمل عليه القراءات العشر بها جماعة كثيرون من أهل تلك الديار وغيرهم.

ولما كانت الفتنة العظيمة المشهورة من قبل تيمور خان، في أول سنة خمس وثمانمائة، فأخذه الأمير تيمور معه الى ما وراء النهر، وأنزله بمدينة كش، ثم الى سمرقند، وقرأ عليه في كل منهما جماعة كثيرون. ولما توفي الأمير تيمور في شعبان سنة سبع وثمانمائة، خرج من بلاد ما وراء النهر، فوصل الى خراسان، ودخل الى هراة، ثم الى مدينة يزد، ثم الى أصبهان، ثم الى شيراز، فقرأ عليه في كل منها جماعة، بعضهم السبعة وبعضهم العشر، وألزمه صاحب شيراز بير محمد قضاء شيراز ونواحيها، فبقي فيها كرهاً، حتى فتح الله تعالى عليه، فخرج منها الى البصرة، ثم فتح الله تعالى له المجاورة بمكة والمدينة سنة ثلاث وعشرين. وحين إقامته بالمدينة قرأ عليه شيخ الحرم.

وألف في القراءات:

كتاب: النشر في القراءات العشر، في مجلدين؛ ومختصره «التقريب»؛

٢ ــ وتحبير التيسير في القراءات العشر؛

٣ ــ وطبقات القراء وتاريخهم: «كبرى» و «صغرى»، التي تقل هذه الترجمة من صغراها؛

ولما أخذه الأمير تيمور الى ما وراء النهر ألف هناك:

٤ ــ شرح المصابيح، في ثلاثة أسفار؛

وألف في التفسير والحديث والفقه. ونظم قديماً:

٥ ــ غاية المهرة في الزيادة على العشرة؛

٦ ــ ونظم: طيبة النشر في القراءات العشر؛

٧ ــ والجوهرة في النحو؛

٨ ــ والمقدمة فيما على قارىء القرآن أن يعلمه.

وغير ذلك في فنون شتى.

هذا ما حكاه الجزري عن نفسه في (طبقاته الصغرى)، نقلته عن خطه. وقال بعض تلامذته بخطه: قال الفقير المعترف من بحاره، (توفي) شيخنا رحمه الله ضحوة الجمعة، لخمس خلون من أول الربيعين، سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة بمدينة شيراز، ودفن بدار القرآن التي أنشأها، وكانت جنازته مشهودة، تبادر الاشراف والخواص والعوام الى حملها وتقبيلها ومسها تبركاً بها، ومن لم يمكنه الوصول الى ذلك كان يتبرك بمن تبرك بها.

وقد اندرس بموته كثير من مهام الاسلام، رضي الله عنه وعن أسلافه وأخلافه. وكان للشيخ المذكور ابنان فاضلان:

(أحدهما) وهو الأكبر: محمد بن محمد بن محمد بن محمد الجزري، أبو الفتح الشافعي.

قال الشيخ رحمه الله: (ولد) هو في يوم الأربعاء، ثاني شهر ربيع الأول، سنة سبع وسبعين وسبعمائة بدمشق. حفظ القرآن وله ثمان سنين، واستظهر (الشاطبية) و (الرائية) ومنظومتي (الهداية)، وشرع في الجمع بالعشر عليَّ، ثم رحلت به الى الديار المصرية، وقرأ القراءات من شيوخها، ثم اشتغل بالفقه وغيره، فحفظ عدة كتب في علوم مختلفة:

كالتنبيه: للامام أبي اسحاق؛

وألفية ابن مالك؛

ومنهاج البيضاوي؛

وتلخيص المفتاح؛

والمنهج في أصول الدين: لشيخه شيخ الاسلام البلقيني؛

وألفية شيخه العراقي في علوم الحديث؛ وغير ذلك.

وقرأ محفوظاته مرات على شيوخ عصره وأجازوه، وأذن له بالافتاء والتدريس شيخه الامام برهان الدين الانباشي. قال الشيخ: لما دخلت الروم،

باشر وظائفه بدمشق، ودرس وأقرأ حتى اخترمته يد المنون، فانا لله وانـا اليه راجعون و (مات) بمرض الطاعون، سنة أربع عشرة وثمانمائة، وانا لله وانا اليه راجعون، وأنا بشيراز، ولا حول ولا قوة الا بالله.

و (ثانيها) وهو الأصغر: محمد بن محمد بن محمد بن محمد الجزري، أبو الخير.

قال الشيخ: (ولد) هو في جمادي الأولى سنة تسع وثمانين وسبعمائة، بعد عودنا من مصر، واتمام أخيه القراءات. وأجازه مشايخ العصر، وحضر على أكثرهم. ثم رحلت به وباخوته الى مصر، فسمع (الشاطبية) وسائر كتب القراءات من مشايخ مصر، بقراءة أخيه أبي بكر أحمد. ولما عدنا الى دمشق سمع البخاري. ولما دخلت الروم، حضر اليَّ في سنة احدى وثمانمائة فصلى بالقرآن، وحفظ (المقدمة) و (الجوهرة)، وأكمل عليَّ جميع القراءات العشر في ذي القعدة سنة ثلاث، ثم أعادها في ختمة أخرى، فختمها يوم الاثنين ــ وهو يوم الوقفة ــ تاسع ذي الحجة، سنة أربع وثمانمائة، ثم لحقني الى مدينة كش ــ في أيام الأمير تيمور ــ في أوائل سنة سبع وثمانمائة، ثم كان في صحبتي الى شيراز، وأكمل بها أيضاً القراءات العشر من شهور سنة تسع وثمانمائة.

وللشيخ ولد آخر اسمه: أحمد بن محمد بن محمد بن محمد الجزري، أبو بكر.

قال الشيخ: (ولد) هو ليلة الجمعة، سابع عشر شهر رمضان، سنة ثمانين وسبعمائة بدمشق. أجازه مشايخ عصره بدمشق، ختم القرآن سنة تسعين، وصلى به سنة إحدى، وحفظ (الشاطبية) و (الرائية) و (قصيدتي) في العشرة ثم قرأ بالقراءات الاثني عشر بقراءة أخيه أبي الفتح، ثم قرأ ثانياً القراءات العشر، وأجازه المشايخ وقرأ عليَّ كتابي:

(النشر) و (الطيبة)، وسمعها غير مرة. وحفظ كتباً، وكتب عن الشيخ الحافظ العراقي وغيره، وسمع البخاري. ولما دخلتُ الروم لحقني بكثير من كتبي، فأقام عندي يفيد ويستفيد، وانتفع به أولاد الملك العادل بايزيد بن

عثمان، والكامل محمد، والسعيد مصطفى، والأشرف موسى، وصار متولي الجامع الأكبر البايزيدي بمدينة برصة. ونشأ مع دين وعفاف أسعده الله و بارك فيه.

ثم لما وقعت الفتنة التيمورية، فأرسله تيمورلنك رسولاً الى السلطان الناصر فرج بن برقوق، ففارقني نحو عشرين سنة، هو بالروم وأنا بالعجم مع الأمير تيمور، ولما يسر الله تعالى لي الحج في سنة سبع وعشرين وثمانمائة، كتبت اليه، فحضر عندي، واجتمعنا بمصر نحو ستة عشر يوماً، وتوجهت الى الحج وجاورت، وأقام هو بمصر من شوال الى شوال سنة، فحج معي سنة ثمان، ورجعنا جميعاً الى الديار المصرية، وتوجه الى الروم ليحضر أهله، ففارقته بدمشق في جمادى الآخرة سنة تسع، ولما كان بمصر في غيبتي وأنا مجاور بمكة، شرح (طيبة النشر)، فأحسن فيه ما شاء، مع أنه لم يكن عنده نسخة بالحواشي التي كتبت عليها؛ ومن قبل ذلك شرح (مقدمة التجويد) و (مقدمة علم الحديث) من نظمي، في غاية الحسن وولاه السلطان الأشرف برسباي وظائف أخيه أبي الفتح ــ رحمه الله تعالى ــ من المشيخة والاقراء والتدريس، وتوجه لاحضار أهله من الروم، وتوجهت أنا لذلك الى العجم، والله تعالى يجمع شملنا في خير، وذلك سنة تسع وعشرين وثمانمائة.

وللشيخ غير هؤلاء ابنان:

أبو البقاء اسماعيل؛

وأبو الفضل اسحاق؛

وبنات:

فاطمة؛

وعائشة؛

وسلمى.

جميع هؤلاء من القراء المجودين والمرتنين، ومن الحفاظ المحدثين، طاب أصل هؤلاء فروعه، وطوبى لفروع هذا أصلهم، و يا حبذا بيت هؤلاء أهله. وفخراً لساكن مثل هذا البيت محله، رضي الله عنهم وأرضاهم، وأسكننا في فردوس الجنان وإياهم، إنه قريب مجيب، عليه توكلت واليه أنيب.

الشعبة الثانية

من العلوم الشرعية

علم رواية الحديث

وهو علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول عليه الصلاة والسلام، من حيث أحوال رواته ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعاً، وغير ذلك من الأحوال التي يعرفها نقاد الأحاديث.

وموضوعه: ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام، من حيث صحة صدورها عنه صلى الله عليه وسلم وضعفه، الى غير ذلك. وفي هذا الفن منفعة بينة وغاية عظيمة، بل هو أحد أركان الدين.

والكتب المصنفة في هذا الفن أكثر من أن تحصى:

(منها): كتاب الشيخ الامام الحافظ المتقن المحقق، أبي عمرو عثمان ابن عبد الرحمن، المعروف بابن الصلاح، رضي الله عنه، الملقب تقي الدين، الفقيه الشافعي.

كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث وأسماء الرجال والفقه ونقل اللغة، وكانت له مشاركة في فنون عديدة، وكانت فتاواه مسددة، فقرأ الفقه أولاً على والده الصلاح، ثم نقله والده الى الموصل، واشتغل بها مدة، ثم سافر الى خراسان، وحصل علم الحديث هناك، ثم رجع الى الشام، وتولى التدريس بالمدرسة الناصرية بالقدس، واشتغل الناس عليه وانتفعوا به، ثم تولى تدريس

الملك الأشرف بدمشق، وتدريس المدرسة الرواحية، وتدريس مدرسة ست الشام، فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث، من غير اخلال بشيء منها الا لعذر ضروري، وكان من العلم والدين على قدم حسن. وصنف في علوم الحديث كتاباً نافعاً، ولم يزل أمره جارياً على صلاح وسداد، الى أن (توفي) في الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة ثلاث وأربعين وستمائة بدمشق؛ وكانت (ولادته) سنة سبع وسبعين وخمسمائة بشرخان، وهي قرية من أعمال اربل، قريبة من شهر زور.

وصنف أيضاً في علوم الحديث: الامام النووي كتاب (الارشاد)، ثم لخصه تلخيصاً حسناً. وهو أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النواوي الشافعي، إمام أهل زمانه، كان عالماً فاضلاً متورعاً فقيهاً محدثاً ثبتاً حجة.

له مصنفات كثيرة مشهورة، وتأليفات عجيبة مفيدة:

١ ــ في الفقه مثل: «الروضة»؛

٢ ــ وفي الحديث مثل: «الرياض» و «الأذكار»؛

٣ ــ وفي شرحه مثل: «شرح مسلم»؛

وغير ذلك من معرفة الحديث واللغة.

سمع من المشائخ الكبار، وسمع منه خلق كثير، وأجاز رواية شرح مسلم لجميع المسلمين. وكان من أهل نوى ــ قرية من أعمال دمشق. ونشأ بها، وحفظ الختمة، وقدم دمشق في خمسين وستمائة، وله تسع وعشرون سنة، وتفقه وبرع. وكان خشن العيش، قانعاً بالقوت، تاركاً للشهوات، صاحب عبادة وخوف؛ وكان قوالاً بالحق، صغير العمامة، كبير الشأن؛ وكان كثير السهر مكباً على العلم والعمل. (مات) في رجب سنة ست وسبعين وستمائة، وقبره يزار بنوى. عاش خمساً وأربعين سنة.

والتصانيف في علم الحديث أكثر من أن تحصى، لكن فيما ذكرناه كفاية، والله ولي الهداية.

ومن التصانيف في هذا العلم (كتاب لابن حجر) وقد عرفته فيما سبق.

الشعبة الثالثة

من العلوم الشرعية

علم تفسير القرآن

وهو علم باحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية. ومبادئه: العلوم العربية وأصول الكلام وأصول الفقه والجدل وغير ذلك من العلوم الجمة. والغرض منه: معرفة معاني النظم. وفائدته: حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة. وموضوعه ومنفعته ظاهران من تعريفه.

واعلم: أنك قد عرفت فيما سبق طبقات القراء، فلعلك تترصد ايراد طبقات المفسرين في هذا المقام، لكن كثيراً ممن تقدم في طبقات القراء، داخلون في طبقات المفسرين من الصحابة والتابعين، فلا وجه لاعادته ها هنا، وانما الملائم الاشارة الاجمالية الى ما ذكر هناك ثم تفصيل البواقي.

أما الصحابة

فالذين اشتهروا بالتفسير منهم:

الخلفاء الأربعة المذكورون سابقاً؛

وابن مسعود؛

وأبي بن كعب؛

وزيد بن ثابت؛

وأبو موسى الأشعري. وهؤلاء مذكورون فيما تقدم.

والذي لم يذكر هو:

عبدالله بن الزبير بن العوام، يكنى أبا بكر الأسدي القرشي، كناه النبي صلى الله عليه وسلم، بكنية جده لأمه أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ وسماه باسمه. وهو أول مولود ولد في الاسلام للمهاجرين بالمدينة أول سنة، وأذن أبو بكر في أذنه، ولدته أمه أسماء بقباء، وأتت به الى النبي صلى الله عليه وسلم، فوضعه في حجره، فدعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه وحنكه، وكان أول شيء دخل في جوفه، ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعا له وبرك عليه. وكان أطلس، لا شعر له في وجهه ولا لحيته. كان كثير الصيام والصلاة، شهماً ذا أنفة، شديد البأس، قائلاً بالحق، وصولاً للرحم، اجتمع له ما لم يجتمع لغيره: أبوه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه أسماء بنت الصديق، وجده الصديق، وجدته صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخالته عائشة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان سنين. قتله الحجاج بن يوسف بمكة وصلبه، يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادى الآخرة، سنة ثلاث وسبعين. وكان بويع له بالخلافة سنة أربع وستين، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان وغير ذلك ما عدا الشام، وحج بالناس ثماني حجج. روى عنه خلق كثير.

ثم أعلم: أن الخلفاء الأربعة، أكثر من روى عنه علي بن أبي طالب، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً؛ وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم، كما أن ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر للحديث، مع قدم صحبته، وحرصه على تعلم العلم والدين وأحكام الاسلام، وقوة حفظه وملازمته مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، من أول البعث الى زمان وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم.

وأما علي كرم الله وجهه، فروى عنه الكثير. وروي عنه أنه قال وهو يخطب: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء الا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية، إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أو بنهار، أم في سهل أم في جبل. وروي عنه أيضاً أنه قال: والله ما نزلت آية، إلا وقد علمت فيم

أنزلت، وأين أنزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً. وروى عن ابن مسعود أنه قال: أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن.

وأما ابن مسعود رضي الله عنه، فروي عنه أكثر مما روي عن علي رضي الله عنه. روي عنه أنه قال: والذي لا اله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله تعالى، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين أنزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته.

وأما ابن عباس رضي الله عنهما: فهو ترجمان القرآن، وحبر الأمة، ورئيس المفسرين. دعا له النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. وقال أيضاً: اللهم آته الحكمة، أو علمه الحكمة. وعن ابن عباس قال: انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل، فقال له جبريل: إنه كائن حبر هذه الأمة واستوصى به خيراً. وعنه أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم ترجمان القرآن عبدالله بن عباس». والأحاديث والآثار في حق ابن عباس كثيرة خارجة من حد الاحصاء.

وقد ورد عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة، لكن عنه في ذلك روايات وطرق مختلفة؛ أحسنها وأولاها: طريقة علي بن أبي طلحة الهاشمي. قال أحمد ابن حنبل: بمصر صحيفة في التفسير، رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها الى مصر قاصداً ما كان كثيراً. واعتمد على هذه النسخة: البخاري في صحيحه، فيما نقله عن ابن عباس، وبينه وبين ابن عباس واسطة، وهي مجاهد أو سعيد بن جبير. قال ابن حجر: بعد أن عرفت الواسطة ــ وهي ثقة ــ فلا ضير في ذلك.

ومن جيد الطرق عن ابن عباس: طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه. وقيس: هو قيس بن مسلم الجدلي الكوفي، روى عن سعيد بن جبير وغيره؛ وعنه الثوري وشعبة. (مات) سنة عشرين ومائة.

ومن جيد الطرق: طريق ابن اسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى آل

زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عنه، هكذا بالترديد، وهي طريق حسن واسناده جيد. وابن اسحاق: هو محمد بن اسحاق، مولى قيس بن مخرمة، تابعي، رأى أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وسمع جماعة من التابعين، وحدث عنه الثوري والنخعي وابن عيينة ويحيى بن سعيد وغيرهم. كان عالماً بالسير والمغازي وأيام الناس وقصص الأنبياء والحديث والقرآن والفقه. حدث ببغداد، و (مات) بها سنة خمسين ومائة.

وأوهى طرقه: طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

والكلبي: هو أبو النضر، محمد بن السائب بن بشر الكلبي، نسبة الى كلب ابن و برة، قبيلة من قضاعة، الكوفي، صاحب التفسير والأنساب؛ كان إماماً في هذين العلمين. وكان من أصحاب عبدالله بن سبأ، الذي يقول أن علي بن أبي طالب لم يمت، وأنه راجع لى الدنيا. روى عنه سفيان الثوري ومحمد بن اسحاق، وكانا يقولان: حدثنا أبو النضر حتى لا يعرف. وشهد الكلبي دير الجماجم مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي؛ وشهد جده بشر، و بنوه السائب وعبيد وعبد الرحمن، وقعة الجمل وصفين مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وكان جميلاً شريفاً (توفي) سنة ست وأربعين ومائة بالكوفة. وقد عرفت أن طريق الكلبي أوهى طرق ابن عباس. فان انضم الى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير، فهي سلسلة الكذب. وكثيراً ما يخرج منها: الواحدي، والثعلبي، ومحمد بن مروان السدي ــ صاحب التفسير ــ كوفي يكنى أبا عبد الرحمن. وسمع التفسير من الكلبي.

والواحدي:

علي بن أحمد بن محمد بن علي، الإمام أبو الحسن الواحدي، إمام مصنف مفسر نحوي، أستاذ عصره وواحد دهره. أنفق شبابه في التحصيل، فأتقن الأصول على الأئمة، وطاف على أعلام الأمة، وسافر في طلب الفوائد، ولازم مجالس الثعلبي في تحصيل التفسير، وقعد للتدريس والافادة سنين وتخرج به طائفة من الأئمة، وكان نظام الملك يكرمه، و يعظمه، وكان حقيقاً بالاحترام

والاعظام، لولا ما كان فيه من الازراء بالأئمة المتقدمين، وبسط اللسان فيهم بما يليق.

وصنف:

١ ــ البسيط؛

٢ ــ والوسيط؛

٣ ــ والوجيز: في التفسير؛

وصنف:

٤ ــ أسباب النزول؛

٥ ــ وشرح ديوان المتنبي؛

٦ ــ والاعراب في علم الاعراب؛

وغير ذلك. وقيل فيه:

قد جمع العالم في واحد عالمنا المعروف بالواحدي

(مات) سنة ثمان وستين وأربعمائة.

وأما الثعلبي:

فهو أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري الثعلبي، صاحب (التفسير) و(العرائس في قصص الأنبياء). كان إماماً كبيراً، حافظاً للغة، بارعاً في العربية. روى عن أبي طاهر بن خزيمة وأبي محمد المخلدي. أخذ عنه الواحدي. (ومات) سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

وكذلك طريق مقاتل بن سليمان عن ابن عباس، إلا أن الكلبي يفضل عليه، لما في مقاتل من المذاهب الردية. وهو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير، الأزدي بالولاء، الخراساني المروزي. أصله من بلخ، وانتقل الى البصرة، ودخل بغداد، وحدث بها، وكان مشهوراً بالتفسير، وله التفسير المشهور. أخذ الحديث عن مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح، وأبي اسحاق السبيعي، والضحاك بن مزاحم، ومحمد بن مسلم الزهري، وغيرهم؛ وروى عنه جماعة. وكان من العلماء الأجلاء. حكى عن الشافعي أنه قال: الناس كلهم عيال

على ثلاثة: على مقاتل بن سليمان في التفسير؛ وعلى زهير بن أبي سلمى في الشعر، وعلى أبي حنيفة ــ رحمه الله ــ في الكلام. واختلف العلماء في أمره، فمنهم من وثقه في الرواية، ومنهم من نسبه الى الكذب.

قال أحمد بن سيار: مقاتل منهم متروك الحديث، وكان يتكلم في الصفات بما لا يحل الرواية عنه. قال ابراهيم بن يعقوب الجوزجاني: مقاتل كان دجالاً جسوراً. قال أبو عبد الرحمن النسائي: الكذابون المعروفون بوضع الحديث أربعة: ابن أبي يحيى بالمدينة، والواقدي ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمد ابن سعيد ــ المعروف بمصلوب ــ بالشام. وذكره وكيع يوماً وقال: كان كذاباً؛ وكذا عمرو بن علي الفلاش. وقال البخاري: سكتوا عنه؛ وقال في موضع آخر: لا شيء البتة. قال أحمد بن حنبل: ما يعجبني أن أروي عنه شيئاً. وقال أبو حاتم البستي: مقاتل كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم؛ إلا ان بقية بن الوليد قال: كنت أسمع شعبة بن الحجاج لا يذكر مقاتلاً الا بخير. وسئل عنه عبدالله بن المبارك فقال: لقد ذكر لنا عنه عبادة؛ وروي عنه أيضاً أنه ترك حديثه. وقال ابراهيم الحربي: (مات) مقاتل قبل الضحاك بز مزاحم بأربع سنين، ولم يسمع منه ولم يلقه، وكذا لم يلق مجاهداً ولم يسمع منه. (توفي) مقاتل سنة خمسين ومائة بالبصرة.

وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة، فان الضحاك لم يلقه، وان انضم الى ذلك رواية بشر بن عمارة، عن أبي روق، عنه، فضعيفة ضعف بشر. وقد أخرج عنه ابن جرير وابن أبي حاتم، وان كان من رواية جويبر، عن الضحاك، فأشد ضعفاً، لأن جويبرا شديد الضعف متروك، وانما أخرج عنه ابن مردويه، وأبو الشيخ بن حيان، دون ابن جرير وابن أبي حاتم،

واعلم: أن الضحاك ــ وهو ابن مزاحم الكوفي صاحب ابن عباس - كثير الرواية من الصالحين، فلما أخذ الحجاج العلماء هرب من الكوفة الى خراسان، وكان يعلم الصبيان بلا أجر. قال بزيع. كنا في كتاب الضحاك ثلاثة آلاف غلام وسبعمائة جارية. وحملته امه سنتين، وولد وله أسنان

تضحك، ولذلك سمي الضحاك. حكي أنه مات مقيداً في السجن، سنة اثنتين أو خمس ومائة بمرو أو ببلخ.

وطريق العوفي عن ابن عباس، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً؛ والعوفي ضعيف ليس بواه، وربما حسن له الترمذي.

وأما أبي بن كعب: فعنه نسخة كبيرة، يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عنه، وهذا اسناد صحيح. وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيرا، وكذا الحاكم في مستدركه، وأحمد في مسنده. وأبي بن كعب الأكبر أنصاري خزرجي، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم الوحي. كان ربعة من الرجال، أبيض الرأس واللحية، كناه النبي صلى الله عليه وسلم أبا المنذر، وسأله صلى الله عليه وسلم عن أعظم آية في القرآن، فقال: آية الكرسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ليهنك العلم يا أبا المنذر؛ وكناه عمر رضي الله عنه أبا الطفيل؛ وسماه النبي صلى الله عليه وسلم سيد الأنصار؛ وسماه عمر رضي الله عنه سيد المرسلين.

وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد الأنصاري. وهو أحد الفقهاء الذين كانوا يفتون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم ستة، عمر، وعلي، وعبدالله، وأبي، وزيد، وأبو موسى. وكان أقرأ الصحابة لكتاب الله عز وجل. (مات) بالمدينة سنة تسع عشرة، وقيل: عشرين أو أثنتين وعشرين أو ثلاثين، في عهد عثمان رضي الله عنه. روى عنه خلق كثير، وشهد بدراً والعقبة.

واعلم: أن من الصحابة من ورد عنه اليسير من التفسير غير هؤلاء المذكورين.

منهم: أنس.

وهو أنس بن مالك بن النضر، كنيته أبو حمزة الخزرجي، خادم النبي صلى الله عليه وسلم، أمه: أم سليم بنت ملحان، واسمها مليكة. ولقبها الرميصاء.

قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهو ابن عشر سنين، أو تسع أو ثمان، فخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشراً أو ثمانياً أو سبعاً. كان يسمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم و يتسمى و يفتخر به. ولما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، أهدى اليه هدايا، وكان أنس يتيماً، فجاءت به أمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: هذا هديتي لك يا رسول الله، فليخدمك، فقبله صلى الله عليه وسلم. كان يخضب بالحناء أو بالورش والصفرة، وكان يخلق ذراعيه بخلوق للمعة كانت به. وكانت له ذؤابة، وكان يشد أسنانه بالذهب، وكان رامياً، وكان غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني غزوات.

وانتقل الى البصرة في خلافة عمر ــ رضي الله عنه ــ ليفقه الناس بها، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة، سنة احدى وتسعين، وقيل: سنة تسعين، أو اثنتين وتسعين، وله من العمر مائة وثلاث سنين، أو مائة وسنتان، أو تسع وتسعون، قال ابن عبد البر ــ وهو أصح: يقال أنه ولد له مائة ولد، وقيل: ثمانون، منهم ثمانية وسبعون ذكراً، واثنتان أنثى، إحداهما حفصة، والأخرى أم عمرو؛ وقيل: ولد له بضعة وعشرون ومائة. يقال: ركب في حياته من صلبه مائة فارس. روى عنه خلق كثير.

ومنهم: أبو هريرة رضي الله عنه.

واختلف في اسمه واسم أبيه ــ في الجاهلية والاسلام ــ على تسعة عشر اقوال: عبدالله بن عائذ، أو عبدالله بن غنم، أو عبد شمس، أو عبد نهم، أو عمرو بن عبد غنم، أو عامر بن عبد شمس، أو عبد يا ليل، أو عبد العزى، أو عامر بن عمير، أو عمير بن عامر، أو سعد بن الحارث، أو سكين بن رزقة، أو سكين بن مل، أو سكن بن صخر، أو سكين بن هانىء، أو عبدالله بن عمرو، أو عبد الرحمن بن صخر، أو عبد الرحمن بن غنم، أو أبو الأسود، كنيته واسمه معاً في الجاهلية، إلا أن أشهر ما قيل فيه، أنه كان في الجاهلية عبد شمس، أو عبد عمرو؛ وفي الاسلام عبدالله، أو عبد الرحمن وهو دوس. قال

الحاكم أبو أحمد: أصح شيء عندنا في اسم أبي هريرة: عبد الرحمن بن صخر، وغلبت عليه كنيته، فهو كمن لا اسم له، وإنما سمي أبا هريرة، لأنه كانت له هرة صغيرة يحملها معه.

كان رجلاً أبيض ليناً كان يخضب بالحناء، و يلبس الكتان الممشق، كان من أهل الصفة. أسلم عام خيبر، وشهدها مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم لزمه ثلاث سنين، وواظب عليه راغباً في العلم، راضياً بشبع بطنه. وكان يدور معه حيثما دار، ويحضر ما لا يحضره أحد منهم، لملازمته النبي صلى الله عليه وسلم. روى البخاري عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، أسمع منك أشياء فلا أحفظها، قال: ابسط رداءك، فبسطه، فبسط حديثاً كثيراً، فما نسيت شيئاً حدثني به. ذكر الإمام أبو بكر السمعاني، عن اسحاق بن راهويه، قال: الأحاديث الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحكام ثلاثة آلاف: خمسمائة منها مدارها على أبي هريرة. قال البخاري: روى عنه أكثر من ثمانمائة رجل من بين صحابي وتابعي؛ فمنهم: ابن عباس، وابن عمر، وجابر، وأنس. (توفي) بالمدينة أو بالعقيق، في أيام معاوية، سنة تسع أو ثمان أو سبع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة. حدث بالشام والعراق والبحرين.

ومنهم: ابن عمر

وهو عبدالله بن عمر بن الخطاب، القرشي العدوي. أسلم مع أبيه بمكة وهو صغير، ولم يشهد بدراً، واختلفوا في شهوده أُحُداً؛ والصحيح أن أول مشاهده الخندق، وشهد ما بعده من المشاهد. وأمه وأم أخته حفصة: زوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت مظعون. هاجر مع أبيه، وكان من أهل الصفة. كان آدم طوالاً، له جمة مفروقة تضرب قريباً من منكبيه، يقص شاربه حتى يحفيه، و يشمر ازاره حتى يكون من نصف الساق، و يصفر لحيته، وكان من أهل الورع والعلم والزهد، شديد التحري والاحتياط. وقال جابر بن عبدالله: ما منا أحد إلا مالت به الدنيا ومال بها، ما خلا عمر وابنه عبدالله. وقال ميمون بن مهران: ما رأيت أورع من ابن عمر، ولا أعلم من ابن عباس،

وكان أعطى القوة في العبادة والبضاع، حتى روى محمد بن سيرين أن ابن عمر ربما أفطر على الجماع، وكان إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه. وقال نافع: ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف انسان، وكان يمكث الشهر لا يذوق فيه فرعة لحم الا مسافراً أو رمضان، وكان نقش خاتمه «عبدالله». (ولد) قبل الوحي بسنة. و(مات) سنة ثلاث وسبعين بمكة، بعد أن قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر أو ستة أشهر، وسنه يوم توفي أربع أو ست وثمانون سنة، وروى سبعمائة حديث، وغزا مع النبي صلى الله عليه وسلم تسع غزوات، وبعده أربعاً، وروى عنه خلق كثير.

ومنهم: جابر بن عبدالله بن عمر بن حرام، من بني سلمة، الأنصاري. من مشاهير الصحابة والمكثرين من الرواية، شهد هو وأبوه وخالاه بيعة العقبة. شهد بدراً وما بعدها مع النبي صلى الله عليه وسلم ثماني عشرة غزوة. يكنى أبا عبدالله أو أبا عبد الرحمن. رحل الى مصر والشام، وجاور بمكة أشهراً في أخواله بني سهم، وكف بصره في آخر عمره، واستشهد أبوه بأحد، وترك عليه ديوناً وتسع بنات، فكان يعولهن. وهو الذي أضاف يوم الخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذبح داجنة. وله مناقب كثيرة شهيرة. (توفي) بالمدينة وهو ابن أربع وتسعين سنة، سنة أربع أو سبع وسبعين أو ثمان أو تسع وتسعين، وصلى عليه أبان بن عثمان وهو والي المدينة. وجابر آخر من مات بالمدينة من الصحابة من أهل العقبة رضي الله عنهم.

ومنهم: أبو موسى الأشعري، وقد عرفته في القراء.

ومنهم: عبدالله بن عمرو بن العاص.

ورد عنه أشياء تتعلق بالتفسير، مما يتعلق بالقصص والأخبار. هو عبدالله ابن عمرو بن العاص السهمي القرشي. أسلم قبل أبيه، وكان أبوه أكبر منه بثلاث عشرة سنة، أو اثنتي عشرة سنة، أو عشرين. وكان عابداً عالماً حافظاً، قرأ الكتب، واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في أن يكتب حديثه فأذن له. يكنى أبا محمد، أو أبا بصير، أو أبا عبد الرحمن. وأمه ريطة بنت منبه بن

الحجاج. (توفي) ليالي الحرة سنة ثلاث أو خمس أو سبع أو ثمان وستين، أو ثلاث وسبعين، أو خمس وخمسين؛ قيل: بمكة؛ وقيل بمصر؛ وقيل بالطائف، وكان حفظ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألف مثل، وكان قرأ الكتب، وكان يصوم النهار و يقوم الليل، وكان يطفىء السراج ثم يبكي حتى رسعت عيناه. قلت: الرسع فساد في الأجفان قال يعلى بن عطاء عن أمه: أنها كانت تصنع الكحل لعبدالله بن عمرو.

وهو من العبادلة الأربعة الذين استقر عليهم أمر العلم في آخر عهد الصحابة؛ هم: «عبدالله بن عباس»؛ و «عبدالله بن عمر» و «عبدالله بن الزبير». وأما عبدالله بن مسعود، فلم يعد منهم لتقدم موته، ولكونه من شيوخ الصحابة.

وكان تحت عبدالله بن عمرو عمرة بنت عبدالله بن عباس، فولدت له محمداً، فولد محمد شعيباً، فولد شعيب عمراً، وهو الذي عليه مدار صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه أي محمد، عن جده أي عبدالله.

واعلم: أن العبادلة عند المحدثين هم ما ذكرناه آنفاً. وأما عند الفقهاء هم: «عبدالله بن مسعود»؛ و «عبدالله بن عمر»؛ و «عبدالله بن عباس»؛ وعبدالله بن الزبير ليس منهم عندهم. والحاصل أن عبدالله بن عباس وعبدالله ابن عمر من العبادلة اتفاقاً بين الفريقين. وأما المحدثون: فيعدون عبدالله بن الزبير معهما؛ والفقهاء: يعدون معهما عبدالله بن مسعود دون عبدالله بن الزبير. فاحفظ هذه الفائدة، فان فيها نفعاً بيناً لك في مواضع شتى.

إذا عرفت طبقات المفسرين من الصحابة فلنذكر:

طبقات التابعين

منهم: أصحاب ابن عباس، وهم علماء مكة.

فمن المبرزين منهم: مجاهد.

وهو الذي قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة. قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم. وقد عرفت ترجمة مجاهد في القراء.

ومنهم: سعيد بن جبير.

وقد عرفت ترجمته أيضاً. قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك. قال قتادة: أعلم التابعين أربعة: أعلمهم بالمناسك: عطاء بن أبي رباح، وأعلمهم بالتفسير: سعيد بن جبير؛ وأعلمهم بالسير: عكرمة؛ وأعلمهم بالحلال والحرام: الحسن البصري.

ومنهم: عكرمة.

وقد عرفته أيضاً. هو مولى ابن عباس. قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. وقال عكرمة: كل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس. وقال: كان ابن عباس يجعل في رجلي الكيل ويعلمني القرآن والسنن.

ومنهم: طاوس بن كيسان، وعطاء بن أبي رباح من أصحاب ابن عباس. وغير هؤلاء من التابعين:

أصحاب ابن مسعود: وهم علماء الكوفة. وقد مر تفصيلهم في القراء.

ومن التابعين أصحاب زيد بن أسلم: كعبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس. وقد ذكرنا زيد بن أسلم، وستعرف مالك بن أنس في طبقات الفقهاء.

ومنهم التابعين:

الحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وعطاء بن أبي ميسرة سلمة

الخراساني، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية، والضحاك بن مزاحم، وعطية العوفي، وقتادة، وزيد بن أسلم، ومرة الهمذاني، وأبو مالك، والربيع ابن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والسدي في آخرين. وقد عرفت بعضاً من هؤلاء المذكورين. وأما الذين لم نذكرهم فهم:

عطاء بن ميسرة الخراساني، أبو عثمان.

أصله من بلخ. وكان يحيى الليل كله. وكان يقول: أوثق عملي في نفسي نشري العلم.

وأما محمد بن كعب القرظي، أبو حمزة، أو أبو عبدالله:

فهو تابعي. (ولد) في حياة النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقيل: رآه. نزل سنة أربعين الكوفة، ثم رجع الى المدينة. روى عن فضالة بن عبيد وعائشة وأبي هريرة وغيرهم. روى عنه أبا المنكدر و يزيد بن الهاد والوليد بـن كثير وخلق. قال عون بن عبدالله: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي، كان يقص في المسجد، فسقط عليه وعلى أصحابه سقف، فماتوا سنة ثمان ومائة، أو سنة سبع عشرة أو عشرين ومائة. رحمهم الله.

وأما أبو العالية:

فهو رفيع بن مهران، أبو العالية الرياحي، مولاهم البصري، من كبار التابعين. أسلم بعد النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين، ودخل على أبي بكر، وصلى خلف عمر. روى عن عمر، وأبي، وابن عباس، وزيد بن ثابت؛ وعنه عاصم الأحول وغيره. قالت حفصة بنت سيرين: سمعته يقول: قرأت القرآن على عمر ثلاث مرات. أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم. (توفي) سنة تسعين. قال أبو بكر بن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن منه، وبعده سعيد بن جبير، وبعده السدي، وبعده الثوري. وكان أبو العالية مزاحاً، وسئل عن قتل الذر، فجمع منهن شيئاً كثيراً، وقال: مساكين ما أكيسهن، ثم قتلهن وضحك.

وأما عطية العوفي:

فهو عطية بن سعيد بن جنادة العوفي، أبو الحسن الجدلي الكوفي. روى عن

أبي هريرة وابن عباس وغيرهما. قال مطين: (توفي) سنة احدى عشرة ومائة.

وأما قتادة:

فهو ابن دعامة، يكنى أبا الخطاب السدوسي، الأعمى الحافظ. قال بكر ابن عبدالله المزني: من أراد أن ينظر الى أحفظ أهل زمانه، فلينظر الى قتادة، ما أدركنا الذي هو أحفظ منه.

وقال قتادة: ما سمعت أذناي شيئاً قط الا دعاه قلبي؛ وقال: لا يقبل قول بلا عمل فمن أحسن العمل قبل الله قوله. روى عن عبدالله بن سرجس وأنس وخلق سواهما؛ وعنه أيوب وشعبة وأبو عوانة وغيرهم. (مات) سنة سبع عشرة ومائة.

وأما مرة الهمذاني

وأما أبو مالك

وأما الربيع بن أنس:

كان من أهل البصرة من بني بكر بن وائل. لقي ابن عمر وجابراً أو أنس ابن مالك. وهرب من الحجاج، فأتى مرو، فسكن قرية منها، ثم طلب بخراسان ـــ حين ظهرت دولة بني العباس. فتغيب، فخلص اليه عبدالله بن المبارك ـــ وهو مستخف يسمع منه أربعين حديثاً. وكان عبدالله يقول: ما يسرني بها كذا وكذا الشيء سماه. (مات) في خلافة أبي جعفر، واستخلف هو سنة ست وثلاثين ومائة. ومدة خلافته اثنتان وعشرون سنة.

وأما عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني:

فروى عن أبيه وابن المنكدر؛ وعنه قتيبة وهشام وغيرهما. والنقاد ضعفوه. (مات) سنة اثنتين وثمانين ومائة.

وأما السدي:

ثم بعد هذه الطبقة، ألفت كتب التفاسير التي تجمع أقوال الصحابة والتابعين: كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج،

ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق، وآدم بن أبي اياس، واسحاق بن راهويه، وروح بن عبادة، وعبد بن حميد، وأبي بكر بن أبي شيبة، وآخرين.

أما سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون، **الهلالي**، مولاهم أبو محمد الكوفي، ثم المكي، الأعور، الامام المشهور. (ولد) بالكوفة للنصف من شعبان سنة سبع ومائة. كان إماماً عالماً ثبتا حجة زاهدا ورعاً، مجمعاً على صحة حديثه وروايته. سمع الزهري وخلقاً. وروى عنه الأعمش والثوري وشعبة والشافعي وأحمد وخلق كثير. قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. (مات) بمكة أول يوم رجب سنة ثمان وتسعين ومائة. ودفن بالحجون. وكان حج سبعين حجة وقيل: ثمانين حجة.

وأما وكيع بن الجراح الكوفي.

فهو من قيس عيلان؛ وقيل: أصله من قرية من قرى نيسابور. سمع هشام ابن عروة والأوزاعي والثوري وغيرهم. وروى عنه عبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وخلق كثير سواهم. قدم بغداد وحدث بها. وهو من مشايخ الحديث الثقات، المعمول بحديثهم، المرجوع الى قولهم. كان يفتي بقول أبي حنيفة، وكان قد سمع منه شيئاً كثيراً. (ولد) سنة تسع وعشرين ومائة و (مات) سنة سبع وتسعين ومائة يوم عاشوراء.

وأما شعبة بن الحجاج بن ورد، يكنى أبا بسطام، مولى الأشاقر عتاقة وكان أسن من الثوري بعشر سنين، و (توفي) بالبصرة سنة ستين ومائة، وهو ابن خمس وسبعين سنة. وكان يقول: والله لأنا في الشعر أسلم مني في الحديث، ولو أردت الله ما خرجت اليكم، ولو أردتم الله ما جئتموني، ولكنا نحب المدح ونكره الذم.

وأما يزيد بن هارون السلمي، مولاهم الواسطي. روى عن جماعة وعنه أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وغيرهما. قدم بغداد وحدث بها، ثم عاد الى واسط ومات بها. (ولد) سنة ثماني عشرة ومائة. قال ابن المديني: لم أر أحداً

أحفظ من ابن هارون، وكان عالماً بالحديث حافظاً ثقة زاهداً عابداً. (مات) سنة سبع عشرة ومائتين.

وأما عبد الرزاق بن همام، يكنى أبا بكر، أحد الأعلام. روى عن ابن جريج ومعمر وغيرهما؛ وعنه أحمد واسحاق والزهري. وصنف الكتب (مات) سنة احدى عشرة ومائتين، وله خمس وثمانون سنة.

وأما آدم بن أبي اياس: فهو آدم العسقلاني، من أهل مرو الروذ. طلب الحديث ببغداد، وسمع شعبة سماعاً كثيراً، ثم انتقل فنزل عسقلان، و(مات) بها سنة عشرين ومائتين. وكان وراقاً، وكان قصيراً.

وأما اسحاق بن راهويه: فهو أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم النخعي، المعروف بابن راهويه. أحد أركان المسلمين، وعلم من أعلام الدين، وممن جمع بين الحديث والفقه والاتقان والحفظ والصدق والورع. طاف خراسان والعراق والحجاز واليمن والشام في طلب العلم. ثم استوطن نيسابور الى أن مات بها في سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وهو ابن أربع وسبعين سنة. وفضائله أكثر من أن تحصى. سمع سفيان بن عيينة ووكيعاً وخلقاً كثيراً من الأئمة. روى عنه البخاري ومسلم والترمذي، وجماعة من الأئمة الأعلام.

وأما روح بن عبادة.

وأما عبد بن حميد.

وأما أبو بكر بن أبي شيبة.

ثم بعد هؤلاء الطبقة طبقة أخرى، منهم:

عبد الرزاق، والمفضل، وعلي بن أبي طلحة وغيرهم.

ثم ابن جرير الطبري، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها؛ ثم ابن أبي حاتم، وابن ماجه والحاكم، وابن مردويه، وأبو الشيخ بن حبان، وابن المنذر في آخرين.

أما عبد الرزاق بن همام، يكنى أبا بكر أحد الاعلام. روى عن ابن

جريج ومعمر وغيرهما. وعنه أحمد واسحاق والزهري. وصنف الكتب. (مات) سنة إحدى عشرة ومائتين، وله خمس وثمانون.

وأما المفضل: فهو المفضل بن محمد الأصبهاني، أبو القاسم الراغب، صاحب المصنفات. كان في أوائل المائة الخامسة. له:

١ ــ مفردات القرآن؛

٢ ــ وأفانين البلاغة؛

٣ ــ والمحاضرات؛

قال السيوطي: وقفت على هذه الثلاثة؛ قلت: وقفت له أيضاً على:

٤ ــ كتاب تفصيل النشأتين: وهو كتاب لطيف لا يمكن أحسن منه في بابه، وجامع للفوائد الشريفة.

٥ ــ وكتاب الذريعة في محاسن الشريعة؛

٦ ــ وكتاب الأخلاق.

والكل بالغ نهاية الحسن، بحيث لا يمكن لمادحها قضاء حقها. قال السيوطي: وقد كان في ظني أن الراغب معتزلي، حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي، على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام ما نصه: ذكر الامام فخر الدين الرازي في (تأسيس التقديس) في الأصول: أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة، وقرنه بالغزالي، قال: وهي فائدة حسنة، فان كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلي. قلت: سيما والمزكى الامام فخر الدين الرازي.

وأما علي بن طلحة

وأما ابن جرير:

فهو محمد بن جرير بن يزيد، الامام أبو جعفر الطبري الآملي البغدادي، أحد الأعلام، وصاحب التفسير والتاريخ والتصانيف. (ولد) بآمل طبرستان سنة أربع وعشرين ومائتين، ورحل لطلب العلم وله عشرون سنة. قرأ على كثيرين، وتفقه عليه خلق كثير. قال الخطيب: كان أحد أئمة العلم، يحكم

بقوله، ويرجع الى رأيه، لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم. وله كتاب (تهذيب الآثار) لم أر مثله في معناه، لكن لم يتمه. وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة. واختار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه. وقال أبو محمد عبدالله بن أحمد الفرغاني ــ صاحب ابن جرير، أن قوماً من تلامذة ابن جرير، حسبوا له منذ بلغ الحلم الى أن مات، ثم قسموا على تلك المدة أوراق مصنفاته، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة. وقال أبو حامد الاسفرايني أمام الشافعية: لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل تفسير ابن جرير لم يكن كثيراً. (توفي) سنة عشر وثلاث مائة.

والباقون معروفون.

ثم انتصبت طبقة بعدهم، الى تصنيف تفاسير مشحونة بالفوائد، محذوفة الأسانيد، وبرزوا فيه وبرعوا، مثل أبي اسحاق الزجاج وأبي علي الفارسي. وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما، وعلى سننهما مكي بن أبي طالب وأبو العباس المهدي، وكل متقن ماجور، جزاهم الله تعالى عنا خير الجزاء.

وأما ابراهيم بن السرى بن سهل: فهو أبو اسحاق الزجاج. قال الخطيب: كان من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، جميل المذهب. كان يخرط الزجاج، ثم خدم العلم، وصار من الفضلاء. وقد مر تفصيله.

وأما أبو علي الفارسي: فقد عرفته مستوفى.

وأما أبو بكر النقاش: فهو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون، أبو بكر الموصلي النقاش، نزيل بغداد، الامام المعلم، مؤلف كتاب (شفاء الصدور) في التفسير، مقرىء مفسر. (ولد) سنة ست أو خمس وستين ومائتين

طاف الأمصار، وتجول في البلدان، وكتب الحديث وقيد السنن، وصنف المصنفات في القراءات والتفسير وغير ذلك. من ذلك:

١ ــ الاشارة في غريب القرآن؛
٢ ــ والموضح في القرآن ومعانيه؛
٣ ــ ودلائل النبوة؛
٤ ــ والمعجم في أسماء القراء: «الأكبر» و «الأوسط» و «الأصغر»؛
٥ ــ كتاب السبعة بعللها: «الأكبر» و «الأوسط» و «الأصغر».

وطالت أيامه، فانفرد بالامامة في صناعته، مع ظهور نسكه وورعه، وصدق لهجته، وبراعة فهمه، وحسن اضطلاعه، واتساع معرفته. قال الخطيب: كان عالماً بالحروف، حافظاً للتفسير سافر الكثير شرقاً وغرباً، وكتب بمصر والشام والجزيرة والجبال وخراسان وما وراء النهر. وفي حديثه مناكير بأسانيد مشهورة. روي عمن سمع الشيخ البرقاني ذكر تفسير النقاش، فقال: ليس فيه حديث صحيح، فسألوه، فقال: كل حديثه منكر؛ وقد ذكر الدارقطني ما يقتضي تضعيفه؛ وبالغ الذهبي فقال: وهو مع علمه وجلالته ليس بثقة. وخيار من أثنى عليه الداني فقبله وزكاه. قال الجزري: وناهيك بالداني فانه قال: النقاش جائز القول مقبول الشهادة. سمعت عبد العزيز بن جعفر يقول: كان النقاش يقصد في قراءة ابن كثير وابن عامر لعلو اسناده فيها. وكان له ملء بيت كتب، وكان أبو الحسن الدارقطني يستملي له، وينتقي للناس من حديثه، وقد حدث عنه مجاهد في حياته. وأما ما وقع في التجريد من أنه قرأ على الحلواني عن الأخفش فوهم. وأما قول أبي أحمد السامري: سمعت ابن شنبوذ يقول: خرجت من دمشق وقد فرغت من الأخفش، فاذا بقافلة مقبلة فيها أبو بكر النقاش بيده رغيف فقال لي: ما فعل الأخفش؟ قلت: توفي، قال: فانصرف النقاش، ثم قال: قرأت على الأخفش ــ فان السامري ضعيف. وقال أبو الحسن بن الفضل القطان: حضرت النقاش وهو يجود بنفسه، في ثالث شوال سنة احدى وخمسين، أو اثنتين وخمسين، أو خمسين وثلاثمائة، فجعل يحرك

شفتيه، ثم نادى بعلو صوته: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾[1]، يرددها ثلاثاً، ثم خرجت نفسه رحمه الله تعالى.

وأما أبو جعفر النحاس:

فهو أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي النحاس، النحوي المصري. كان من الفضلاء.

وله تصانيف مفيدة منها:

١ ــ تفسير القرآن الكريم؛
٢ ــ وكتاب اعراب القرآن؛
٣ ــ وكتاب الناسخ والمنسوخ؛
٤ ــ وكتاب التفاحة؛
٥ ــ والكافي، كلاهما في النحو؛
٦ ــ وتفسير أبيات سيبويه، ولم يسبق الى مثله؛
٧ ــ وكتاب أدب الكتاب؛
٨ ــ وكتاب المعاني؛
٩ ــ وشرح المعلقات التسع بتأخير السين؛
١٠ ــ وطبقات الشعراء؛

وغير ذلك.

روى عن أبي عبد الرحمن النسائي، وأخذ النحو عن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش، وأبي اسحاق الزجاج، وابن الأنباري، ونفطويه، وأعيان أدباء العراق. وقد كان رحل اليهم من مصر. وكانت فيه خساسة ويقتر على نفسه، وإذا وهب عمامة قطعها ثلاث عمائم بخلاً وشحاً، وكان يلي شراء حوائجه بنفسه، ويتحامل فيها على أهل معرفته. ومع هذا فكان للناس رغبة

---

(١) سورة الصافات، آية: ٦١.

كثيرة في الأخذ عنه، فنفع وأفاد، وأخذ عنه خلق كثير. و (توفي) بمصر يوم السبت، لخمس خلون من ذي الحجة، سنة ثمان أو سبع وثلاثين وثلاثمائة. وسبب وفاته أنه جلس على درج المقياس على شاطيء النيل وهو في أيام زيادته، وهو يقطع بالعروض شيئاً من الشعر، فقال بعض العوام: هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار، فدفعه برجله في النيل، فلم يوقف له على خبر. والنحاس: نسبة الى من يعمل الأواني الصفرية.

وأما مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار، أبو محمد القيسي النحوي المقرىء، صاحب (الاعراب). (ولد) في شعبان سنة خمس وخمسين وثلاثمائة. وأصله من القيروان، وسكن قرطبة. وسمع بمكة ومصر من أبي الطيب عبد المنعم بن غلبون، وقرأ عليه القرآن. وكان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التأليف، مجوداً للقرآن. أقرأ بجامع قرطبة وخطب به، وانتفع به جمع، وعظم اسمه، واشتهر بالصلاح واجابة الدعوة. وكان رجل يتسلط عليه اذا خطب يحصي سقطاته، وكان مكي يتوقف كثيراً في الخطبة فقال: اللهم اكفنيه اللهم اكفنيه، فاقعد الرجل وما دخل الجامع بعد.

صنف:

١ ـــ أعراب القرآن؛

٢ ـــ والموجز في القراءات؛

٣ ـــ والتبصرة فيها؛

٤ ـــ والهداية في الوقف؛

٥ ـــ والتفسير.

وأشياء كثيرة في القراءات. (مات) في المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

وأما أبو العباس المهدوي فهو أحمد بن عمار بن أبي العباس، الامام أبو العباس المهدوي، نسبة الى المهدية بالمغرب، أستاذ مشهور. رحل وقرأ على محمد ابن سليمان، وعلى جده لأمه مهدي بن ابراهيم، وأبي الحسن أحمد بن محمد

القنطري بمكة. وذكر الحافظ أبو عبدالله الذهبي، أنه قرأ على أبي بكر أحمد بن محمد البراني. وألف التآليف منها:

١ ـ التفسير المشهور؛

٢ ـ والهداية في القراءات السبع.

وهو الذي ذكره الشاطبي في باب الاستعاذة، وقرأ عليه جماعة. قال الذهبي: (توفي) بعد الثلاثين وأربعمائة.

هذا الذي ذكرته، طريقة السلف في إيراد التفسير على النقل، كابراً عن كابر، مع الأسانيد الصحيحة والطرق المتقنة.

ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال بتراء، فدخل من ها هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل. ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن خطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك خلف عن سلف، ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت الى تحرير ما ورد عن السلف الصالح، ومن هم القدوة في هذا الباب. قال السيوطي: رأيت في تفسير قوله تعالى ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ نحو عشرة أقوال، مع أن الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم، ليس غير اليهود والنصارى، حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في ذلك اختلافاً من المفسرين.

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم، وملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن، واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء.

«فالنحوي»: تراه ليس له هم الا الاعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه وان كانت بعيدة، و ينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته: كالزجاج والواحدي في (البسيط)، وأبو حيان في (البحر والنهر) وقد عرفت ترجمة هؤلاء.

و**«الأخباري»:** ليس له شغل الا القصص واستيفاؤها، والأخبار عمن سلف، سواء كانت صحيحة أو باطلة، ومنهم: الثعلبي، وقد مر.

و «**الفقيه**»: يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً، وربما استطرد الى اقامة أدلة الفروع الفقهية، التي لا تعلق لها بالآية أصلاً، والجواب عن أدلة المخالفين، **كالقرطبي**:

وهو محمد بن عمر بن يوسف: أبو عبدالله الأنصاري، القرطبي، المالكي، إمام عالم فقيه مفسر نحوي مقرىء زاهد. (ولد) بعد الخمسين وخمسمائة. قرأ القصيدتين اللامية والرائية على الامام الشاطبي، وقرأ على جماعة من الفضلاء، وجلس للاقراء بالفاضلية بعد موت الشاطبي. وقرأ عليه الخاص والعام، وفيه مروءة وافرة، وقضاء لحقوق الأخوان. (توفي) بالمدينة في مستهل صفر سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

و «**صاحب العلوم العقلية**» ـــ خصوصاً الامام فخر الدين ـــ قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء الى شيء، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية. قال أبو حيان في (البحر): جمع الامام فخر الدين الرازي في تفسيره، أشياء كثيرة طويلة، لا حاجة لها في علم التفسير. ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء الا التفسير.

و «**المبتدع**»: ليس له قصد الا تحريف الآيات، وتسويتها على مذهبه الفاسد، بحيث أنه متى لاح شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع اليه؛ كما نقل عن البلقيني أنه قال: استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش منها: أنه قال في قوله تعالى: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾[1] وأي فوز أعظم من دخول الجنة أشار به الى عدم الرؤية.

و «**الملحد**»: فلا تسأل عن كفره والحاده في آيات الله، وافترائه على الله ما لم يقله، كقول بعضهم في: «إن هي الا فتنتك» ما على العباد أضر من ربهم، و ينسب هذا القول الى أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

الواعظ، صاحب كتاب (قوت القلوب)؛ إلا أن شأن هذا الرجل أعظم من أن يتكلم بأمثال هذا الكلام، ولعل في النقل خللا، أو صدر أثناء غلبة السكر، وأمثال هذا عند السكر معفو عنه. وقول الغير في شجرة موسى ما قال. وقول الرافضة في: «يأمركم أن تذبحوا بقرة» ما قالوا؛ وأمثال هؤلاء هم المراد من قوله صلى الله عليه وسلم: «أن في أمتي قوماً يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل يتأولونه على غير تأويل». ومن ذلك القبيل الذين يتكلمون في القرآن بلا سند يعتمد عليه، ولا نقل عن السلف، ولا رعاية الأصول الشرعية والقواعد الدينية؛ كالتفسير الذي ألفه محمود بن حمزة الكرماني في مجلدين، سماه: (العجائب والغرائب)، ضمنه أقوالاً هي عجائب عند العوام وغرائب عما عهد عن السلف، بل هي أقوال منكرة، لا يحل الاعتماد عليها ولا ذكرها الا للتحذير منها. من ذلك قول منْ قال في «حم عسق» أن الحاء: حرب عليٍّ معاوية؛ والميم: ولاية المروانية؛ والعين: ولاية العباسية؛ والسين: ولاية السفيانية؛ والقاف: قدرة مهدي. حكاه أبو مسلم قال أردت بذلك أن تعلم أن فيمن يدعي العلم حمق. ومن ذلك قول الروافض في تأويل قوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ أنهما علي وفاطمة؛ قوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ يعني الحسن والحسين. ومن ذلك قول من قال في «آلم» معنى ألف: ألف الله محمداً فبعثه نبياً؛ ومعنى لام: لامه الجاحدون وأنكروه؛ ومعنى ميم: ميم الجاحدون المنكرون من الموم وهو البرسام.

ومن ذلك قول من قال في: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾[1] فانه قصص القرآن. واستدل بقراءة أبي الجوزاء﴿ ولكم في القصص ﴾وهو بعيد مخالف للقراءة المشهورة. ومن ذلك ما ذكره ابن فورك في تفسيره في قوله تعالى: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾[2] ان ابراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه؛ أي: يسكن هذا الصديق الى هذه المشاهدة إذا رآها عياناً. قال الكرماني: وهذا بعيد جداً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

ومن ذلك قول من قال في: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾[1].انه الحب والعشق؛ وقد حكاه الكواشي في تفسيره. ومن ذلك قول من قال في: قوله تعالى: ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ إنه الذكر إذا قام. ومن ذلك قول معاذ النحوي في قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾[2] يعني: ابراهيم ناراً؛ أي: نوراً، وهو محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾ أي تقتبسون الدين. ومن ذلك قول من قال في قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده﴾[3] معناه: من ذل من الذل، وذي: اشارة إلى النفس؛ و يشف: من الشفاء جواب من، وع: أمر من الوعي. وسئل شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، عن رجل فسر بهذا قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع﴾ فأفتى بأنه ملحد. وقد قال تعالى: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾[4] قال ابن عباس: وهو أن يوضع الكلام على غير موضعه.

وأما كلام «الصوفية» في القرآن فليس بتفسير. قال ابن الصلاح في فتاويه: وجدت عن الامام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي (حقائق التفسير) فان كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم، إذا قال شيئاً من ذلك، أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة، فانه لو كان كذلك، كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وانما ذلك منهم لتنظير ما ورد به القرآن، فان النظير يدرك بالنظير، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك، لما فيه من الايهام والألباس. وقال النسفي في (عقائده) النصوص على ظواهرها، والعدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطن الحاد. وقول التفتازاني في (شرح العقائد النسفية): سميت الملاحدة باطنية، لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية؛ وقال: وأما ما يذهب اليه بعض المحققين، من أن النصوص على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

ظواهرها، ومع ذلك فيها اشارات خفية الى دقائق، تنكشف على أرباب السلوك، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال العرفان محض الايمان. قال الامام الغزالي في بعض رسائله: أن للقرآن ظهراً وبطناً، ولكل حد ومطلع، فمن اقتصر منه على ظواهره فهؤلاء حشوية؛ ومن اقتصر منه على الباطن فهؤلاء باطنية، وكل من الطائفتين نظر العالم بالعين العوراء، ولم يعرفوا أن لكل ظاهر باطناً، ولكل عالم جسماني عالماً مثالياً، والانسان مركب منهما، فانه ببدنه الكثيف من العالم الجسماني، وبروحه اللطيف من العالم الروحاني. ولما نزل القرآن لتكميل الانسان في النشأتين، لم يخل شيئاً منهما عن البيان، فالاقتصار على أحدهما نقصان؛ وإنما الكمال حمل الكلام عليهما معاً مهما أمكن، والا فلا ينبغي أن يختل أحد الجانبين لتصحيح الطرف الآخر. هذا حاصل كلام الغزالي مع توضيح له من قبلنا، ثم ضرب لذلك مثالاً وهو قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فاخلع نعليك﴾ فان المراد بالنعلين في عالم الأجسام ما هو المعروف؛ وفي عالم الأرواح الدنيا والآخرة، وبين العالمين موازنة ومناسبة. لا يطلع عليها إلا الأنبياء وخواص الأولياء. فحينئذ كما أراد الله تعالى خلع النعلين من موسى عليه السلام بحسب الظاهر، كذلك أراد منه ترك الدنيا والآخرة في الباطن، من غير إخلال إرادة أحدهما بالآخر. قال ابن سبع في (شفاء الصدور): ورد عن أبي الدرداء أنه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً. وقال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليُثَوِّر القرآن. قال: وهذا الذي قالاه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر. وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم. فهذا يدل على أن في فهم معاني القرآن، مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، لأن المنقول من التفسير الظاهر ينتهي الادراك فيه بالنقل والسماع، ولا بد من النقل والسماع فيه، ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. ولا يجوز التهاون في حفظ التفسير الظاهر، بل لا بد منه أولاً؛ إذ لا يطمع في الوصول الى الباطن قبل أحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن، ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن ادعى البلوغ في صدر البيت قبل أن يجاوز الباب. وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في

كتاب (لطائف المنن): أعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم، منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان، وثم افهام باطنه تفهم عند الآية والحديث، ممن فتح الله قلبه. وقد جاء في الحديث لكل آية ظهر وبطن. فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم، أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا احالة لكلام الله وكلام رسوله، فليس ذلك باحالة وانما يكون احالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، و يفهمون عن الله ما أفهمهم. قال القاضي البيضاوي في تفسير في قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء﴾ الآية: ولعله سبحانه وتعالى أراد من الآية الأخيرة، يعني: الآية المذكورة ــ مع ما دل عليه الظاهر وسياق الكلام لأجله ــ الاشارة الى تفصيل خلق الانسان، وما أفاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل؛ فمثل البدن بالأرض، والنفس بالسماء؛ وما أفاض عليه من الفضائل العلمية والنظرية؛ المحصلة بواسطة استعمال العقل والحواس، وازدواج القوى النفسانية والبدنية، بالثمرات المتولدة من ازدواج القوى السماوية الفاعلة والأرضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار، فان لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حد مطلع. انتهى كلامه.

أقول وبالله التوفيق: الايمان بالقرآن، هو التصديق بأنه كلام الله تعالى، قد أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام، وأنه دال على صفة أزلية له تعالى، وأن ما دل هو عليه بطريق القواعد العربية ــ مما هو مراد الله تعالى ــ حق لا ريب فيه؛ ثم تلك الدلالة على مراده تعالى ــ بواسطة القوانين الأدبية الموافقة للقواعد الشرعية والأحاديث النبوية ــ مراد البتة. ومن جملة ما علم من الشرائع النبوية، أن مراد الله تعالى من القرآن لا ينحصر في هذا القدر، لما قد ثبت في الأحاديث أن لكل آية ظهراً وبطناً، وذلك المراد الآخر لما لم يطلع عليه كل أحد، بل من أعطى فهماً وعلماً من لدنه تعالى، يكون الضابط في صحته أن لا يرفع ظاهر المعاني المتفهمة عن الألفاظ بالقوانين العربية، وأن لا يخالف القواعد الشرعية، ولا يباين اعجاز

القرآن، ولا يناقض النصوص الواقعة فيه، فان وجد فيه هذه الشرائط فلا يطعن فيه، وإلا فهو بمعزل عن القبول.

قال الزمخشري: من حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز، أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح. وأما الذين تأيدت فطرتهم النقية بالمشاهدات الكشفية، فهم القدوة في هذه المسالك، ولا يمنعون أصلاً عن التوغل في ذلك. جعلنا الله واياكم من أهل المشاهدة والعرفان، وشرفنا واياكم بكرامة الاخلاص والايقان، إنه الكريم المنان، وهو الموفق والمستعان.

قال العلماء: يجب على المفسر أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسر، وأن يتحرز في ذلك: من نقص عما يحتاج اليه في ايضاح المعنى، أو زيادة لا تليق بالغرض، ومن كون المفسر فيه زيغ عن المعنى وعدول عن طريقه. وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي، ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام، وأن يواخي بين المفردات. ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية: فيتكلم عليها أولاً من جهة المفردات؛ فيحقق اللغات أولاً، ثم التصريف، ثم الاشتقاق؛ ثم يتكلم عليها بحسب التركيب، فيبدأ بالاعراب، ثم بما يتعلق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع، ثم تبيين المعنى المراد، ثم ايراد القصص والأخبار، قدر ما يعلم به سبب النزول، و يعتمد في ذلك على الأحاديث والآثار، دون قصص القصاص والأخبار؛ ثم يتكلم عليها من جهة المعنى، فيبدأ أولاً باستنباط الأحكام الشرعية، ثم بيان الحقائق، ثم بيان الاشارات.

و ينبغي أن يتحرز المفسر عن اطلاق لفظ الحكاية على الله تعالى، بأن يقول: حكى الله، وأمثاله، لأن الحكاية: الا تيان بمثل الشيء، وليس لكلامه تعالى مثل، اللهم إلا أن يريد معنى الأخبار.

و ينبغي أيضاً أن يتحرز عن اطلاق الزائد على بعض الحروف، بناء على أن الزائد لا معنى له، وكتاب الله منزه عن ذلك، ولذلك يبدلون لفظ الزايد بالتأكيد والصلة والمقحم. وجوزه الأكثرون، نظراً الى أنه نزل بلسان قوم،

ومتعارفهم اطلاق الزائد. قلت:-والحق أن اطلاق الزائد بمعنى ما لا معنى له غير جائز أصلاً، وأما بالمعنى الآخر ـ وان جاز ـ لكن لايهامه المعنى المذكور، يكون اطلاقه سوء أدب يجب التحرز عنه في تفسير كلامه تعالى، فالأحوط تركه الى ما يصح اطلاقه.

وينبغي أن يتحرز أيضاً عن اطلاق لفظ التكرار في مثل قوله تعالى: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾، وقوله تعالى: ﴿صلوات من ربهم ورحمة﴾، وأشباه ذلك، إذ التكرار بحسب اللفظ ـ وإن وقع لكن التكرار بحسب المعنى غير واقع، لأن في مجموع المترادفين معنى لا يحصل عند الانفراد، ففي اطلاق التكرار ايهام ادعاء التكرار المعنوي، فالأحوط تركه أيضاً. وعليه أن يتتبع مجاري الاستعمالات في الألفاظ التي يظن بها الترادف ما أمكن، لثبوت المجاز، ووجود معنى للتركيب غير معنى الأفراد.

ثم أعلم: أن العلماء كما بينوا في التفسير شرائط، بينوا في المفسر أيضاً شرائط، لا يحل التعاطي لمن عرى عنها أو هو فيها راجل؛ وهي: أن يعرف خمسة عشر علماً على وجه الاتقان والكمال:

(أحدها) اللغة: إذ بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها الوضعية. قال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يتكلم في كتاب الله تعالى إذا لم يكن عالماً بلغات القرآن. ونقل أيضاً ذلك عن الإمام مالك. ولا يكتفي بمعرفة اليسير منها، إذ لا يأمن أن يكون اللفظ مشتركاً، وهو ذاهل عن أحد المعنيين ـ أو المعاني ـ والمراد المعنى الآخر.

(الثاني) النحو: إذ تختلف المعاني وتتبدل باختلاف الاعراب، كما روي عن الحسن أنه قال: تعلم العربية، فان الرجل يقرأ الآية فيعتني بوجهها فيهلك فيها.

(الثالث) التصريف: إذ به معرفة الأبنية والصيغ، كما نقل عن ابن فارس أنه قال: كم من كلمة يجهل معناها فيتضح بمصادرها. وقال الزمخشري: من بدع التفاسير قول من قال: إن الامام في قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس

بامامهم ﴾ جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم. قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فان أمالاً يجمع على امام.

(الرابع) الاشتقاق: لأن الكلمة يختلف معناها باشتقاقها من مادتين مختلفتين، كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح.

(الخامس) و(السادس) و(السابع) المعاني والبيان والبديع: إذ بالأول يعرف خواص التراكيب من جهة افادتها المعنى؛ وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب الزيادة في الوضوح والنقصان فيه؛ وبالثالث وجوه تحسين الكلام. وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة.

الأولان ذاتياً، والثالث عرضياً. وهي من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم، إلا أن ملاك الأمر فيه أما السليقة: كالاعراب الخاص ومن يحذو حذوهم؛ أو الذوق الذي هو آلة في اكتساب البلاغة، ولا يمكن تحصيلها بدونه. قال السكاكي في حق المعاني والبيان: فالويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل.

(الثامن) علم القراءات: إذ به يعرف كيفية النطق بالقرآن، ويرجع بعض الوجوه المحتملة على بعض.

(التاسع) أصول الدين: لأن في القرآن آيات لا يجوز ظاهرها في حق الله تعالى، فالأصولي: يؤول ذلك ويحمله على ما يجوز في حقه تعالى، فمعرفة ما يستحيل في حقه تعالى، وما يجب، وما يجوز، لا يمكن الا به.

(العاشر) أصول الفقه: إذ به يعرف وجوه الاستدلال على الأحكام والاستنباط.

(الحادي عشر) أسباب النزول والقصص: إذ سبب النزول يعرف به معنى الآية بحسب ما أنزلت فيه.

(الثاني عشر) الناسخ والمنسوخ: ليعلم المحكم من غيره.

(الثالث عشر) الفقه.

(الرابع عشر) الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

(الخامس عشر) علم الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالى لم عمل بما علم، واليه الاشارة بحديث: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

واعلم: أن هذه العلوم التي لا مندوحة للمفسر عنها، وإلا فعلم التفسير لا بد له من التبحر في كل العلوم. وأما العلوم المستنبطة من القرآن فبحر لا ساحل له، وستعرف نبذاً منها ان شاء الله تعالى. وان أخطرت بالبال، أن العلوم الوهبية ليست في قدرة البشر، بل ذلك أمر حاصل بفضله سبحانه من غير كسب من العباد، فنقول: معنى العلوم الوهبية: أن يحصل في الانسان حالة كشفية، تنكشف معها العلوم والمعارف بلا تعمل واكتساب، بل بمحض لطف الملك الوهاب. لكن تحصيل تلك الحالة داخلة تحت القدرة، وحاصلة بالمباشرة، وستعرف في الطرف الثاني من هذه الرسالة الأسباب الموصلة اليها.

واجماها: أن يكون في القلب بدعة وكبر وهوى وحب الدنيا والاصرار على الذنب، وأن لا يتحقق بالايمان أو يتحقق به على ضعف، وأن لا يعتمد في باب التفسير على قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع الى عقله القاصر، وهذه الأمور كلها حجب عن حصول الكشف وموانع عنه، بعضها آكد من بعض.

ثم اعلم: ان التفسير الذي هو علوم القرآن ثلاثة أقسام:

الأول: علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه: من معرفة كنه ذاته، ومعرفة حقائق أسمائه وصفاته، وتفاصيل علوم غيوبه التي لا يعلمها إلا هو. وهذا لا يجوز لأحد الكلام فيه بوجه من الوجوه اجماعاً.

الثاني: ما اطلع الله عليه نبيه من أسرار الكتاب واختصه به. وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له صلى الله عليه وسلم، أو لمن أذن له من وارثي علمه وحاله. قيل: وأوائل السور من هذا القسم؛ وقيل: من القسم الأول.

الثالث: علوم علمها الله نبيه، مما أودع كتابه من المعاني الجليلة والخفية، أمره بتعليمها. وهذا ينقسم الى قسمين:

(منه) ما لا يجوز الكلام فيه الا بطريق السمع: كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات واللغات، وقصص الأمم الماضية، وأخبار ما هو كائن من الحوادث وأمور الحشر والمعاد.

و **(منه)** ما يؤخذ بطريق النظر والاستدلال والاستنباط والاستخراج من الألفاظ وهو قسمان:

قسم: اختلفوا في جوازه، وهو تأويل الآيات المتشابهات في الصفات؛

وقسم: اتفقوا عليه، وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية والاعرابية، لأن مبناها على الأقيسة، وكذلك فنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم والاشارات، لا يمنع استنباطها منه، واستخراجها لمن له أهلية ذلك.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن ما عدا هذه الأمور هو، التفسير بالرأي، الذي نهى عنه، وفيه خمسة أنواع:

(أحدها): التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير.

(الثاني): تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

(الثالث): التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً له، فيرد اليه بأي طريق أمكن وان كان ضعيفاً.

(الرابع): التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

(الخامس): التفسير بالاستحسان والهوى.

إذا عرفت هذه الفوائد التي يرتاح اليها كل رائد؛ فاعلم: أن الكتب المصنفة في التفسير ثلاثة أنواع: «وجيز» و «وسيط» و «بسيط».

فمن الكتب الوجيزة فيه:

(زاد المسير) **لابن الجوزي**. وقد عرفت ترجمته عند ذكر التواريخ؛

و (**الوجيز**) **للواحدي**. وقد عرفته أيضاً عن قريب؛

و (**تفسير الواضح**) **للامام الرازي**: وستعرفه عن قريب؛

و (**تفسير الجلالين**). إذ عمل نصفه الثاني جلال الدين المحلي وكمله جلال الدين السيوطي.

و (**النهر**) **لأبي حيان**. وقد عرفته.

ومن الكتب المتوسطة فيه:

(الوسيط) للواحدي؛

وتفسير الماتريدي. وهو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي إمام الهدى.

له:

١ ــ كتاب التوحيد؛

٢ ــ وكتاب المقالات؛

٣ ــ وكتاب رد أوائل الأدلة: للكعبي؛

٤ ــ وكتاب بيان وهم المعتزلة؛

٥ ــ وكتاب تأويلات القرآن؛

(مات) بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وتخرج بأبي نصر العياضي.

وله:

٦ ــ كتاب رد تهذيب الجدل: للكعبي؛

٧ ــ ورد كتاب وعيد العشاق: للكعبي؛

٨ ــ ورد الأصول الخمسة: لأبي محمد الباهلي؛

٩ ــ وكتاب رد الأمانة: لبعض الروافض؛

١٠ ــ وكتاب الرد على الرد على القرامطة؛

١١ ــ وكتاب الرد على فروع القرامطة؛

١٢ ــ وكتاب مأخذ الشرائع في أصول الفقه؛

١٣ ــ وكتاب الجدل في أصول الفقه. وغير ذلك.

ومن التفاسير المتوسطة:

(تفسير التيسير) لنجم الدين أبي حفص عمر النسفي. وقد عرفته في علم اللغة؛

و (تفسير الكشاف) للزمخشري.

وهو أبو القاسم جارالله محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري، الخوارزمي، الامام العلامة، المشهور بفخر خوارزم، إمام الدنيا في علم الاعراب واللغة والمعاني والبيان والزهد وحسن السيرة في السر والاعلان كان واسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، متفنناً في كل علم، معتزلياً قوياً في مذهبه مفتخراً به؛ وكان يقول للخادم إذا أتى باب أحد للزيارة: قل أبو القاسم المعتزلي بالباب. وكان حنفياً. (ولد) في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر، وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم، وورد بغداد غير مرة. وأخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري، وأبي نصر الأصبهاني. وسمع من أبي سعد الشفتاني، وشيخ الاسلام أبي منصور الجواليقي الحارثي، وجماعة. وجاور بمكة، وتلقب بجار الله وفخر خوارزم أيضاً. وكتب الحافظ السلفي ليستجيزه.

وله من التصانيف:

الكشاف عن حقائق التنزيل الناطق عن دقائق التأويل، في التفسير ولم يصنف قبله مثله؛

٢ ــ والفائق في غريب الحديث؛

٣ ــ وأساس البلاغة، في اللغة؛

٤ ــ وربيع الأبرار، في المحاضرات؛

٥ ــ والمفصل في النحو؛

٦ ــ والمقامات؛

٧ ــ والمستقصى في الأمثال؛

٨ ــ وأطواق الذهب؛

٩ ــ وصميم العربية؛

١٠ ــ وشرح أبيات الكتاب؛

١١ ــ والأنموذج، في النحو؛

١٢ ــ والرايض، في الفرائض؛

١٣ ــ وشرح بعض مشكلات المفصل؛

١٤ ــ والكلم النوابغ؛

١٥ ــ والقسطاس في العروض؛

١٦ ــ والأحاجي النحوية؛

١٧ ــ ومقدمة الأدب؛

١٨ ــ ومتشابه الأسماء، في علم الحديث؛

١٩ ــ وكتاب فصوص الأخبار؛

٢٠ ــ والزيادات على الفصوص؛

٢١ ــ والمختصر من موافقة الصحابة؛

٢٢ ــ وكتاب أسماء الأودية والجبال؛

٢٣ ــ وكتاب المفرد والمؤلف، في النحو؛

ورسائله كثيرة منها:

٢٤ ــ النصائح الصغار؛

٢٥ ــ والنصائح الكبار؛

٢٦ ــ وتسلية الضرير.

وغير ذلك. وكان أعرج، والتحقيق أن إحدى رجليه كانت مقطوعة، وفي سبب قطعها اختلافات:

منها: أنه سقط من السطح حين كان صغيراً فانكسرت رجله وانثنت فقطعوها؛

ومنها: أنه سافر ببلاد خوارزم، وقد أصابه ثلج كثير وبرد شديد، فسقطت منه رجله، وكان يمشي في جاون خشب؛

ومنها: أنه أصابه ضماج في رجله فقطعها، وصنع عوضها رجلاً من خشب؛

ومنها: أنه سقط من دابة فانكسر رجله، وأفضى الى أمر أوجب قطعها.

وحكى أنه قال: أمسكت عصفوراً في صباي، وربطته بخيط في رجله، وأفلت من يدي فدخل في خرق جدار، فجذبته فانقطعت رجله فقالت والدتي: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فأدركني دعاء الوالدة. وكان إذا مشى ألقى عليها ثيابه الطوال، فيظن من يراه أنه أعرج. يقال: إنه اتخذ محضراً فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على ذلك، خوفاً من أن يظن أنها قطعت لريبة فيه. قيل: كان أبوه إماماً بقرية زمخشر، وقال: أعلمه الخياطة لأنه صار زمناً مبتلى، فقال لأبيه: احملني الى البلد واتركني بها، فحمله الى البلد، ورزقه الله حظاً حسناً، فكفاه الله رزقه، ودخل على الشيخ أبي علي الضرير الأديب، فأخذ منه علمه، ثم جاء الشيخ أبو مضر الخوارزمي النحوي فأخذ عنه علم الإعراب، وهو الذي قال له الزمخشري مرثيه عند وفاته منها هذا البيتان:

وقـائـلـة ما هـذه الـدرر التي	تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت هي الدر التي قد حشا بها	أبـو مضر أذني تـساقط من عيني

ثم ترقت به همته العالية في العلوم العربية، الى أن بلغ درجة ما رأى مثل نفسه. ثم وفقه الله تعالى، أن صار الإمام ركن الدين محمود الأصولي، والإمام أبو منصور من تلامذته في علم التفسير، فكانا يقرآن عليه، وهو يأخذ منهما علم الأصول، و يأخذ علم الفقه من الشيخ السديد الخياطي ختن عين الأئمة، فجمع الله له مناقب العلوم كلها. وكان في الحادي والأربعين من عمره ينادم الوزراء والملوك ويمدحهم، و يتنعم في الدنيا، الى أن أراه الله تعالى رؤياه، فكانت سبب انقطاعه منهم، واقباله على أمر دينه، وأورد هذه الرؤيا في أول كتابه الموسوم (بالنصائح الكبار)، وهي خمسون مقامة، أنشأها في معاتبة النفس، لما رأى تلك الرؤيا في مرضه ناهكة مرضها، في مستهل شهر الله الأصم رجب، من سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وهي الحادية والأربعون من عمره، وكانت سبب انابته وتوبته، وسماها «العام المنذرة». وكان من الورع وقيام الليل وتدريس العلم في الرتبة العليا. ووقف بعرفات سبع مرات، وحط رحله في البلد الحرام

خمس سنين. وتصانيفه بين زمزم والمقام. وله نظم ونثر. و (توفي) بقصبة جرجانية خوارزم، ليلة عرفة من سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، بعد رجوعه من مكة شرفها الله تعالى. وله في مدح الكشاف:

ان التفاسير في الدنيا بلا عدد   وليس فيها لعمري مثل كشافي
ان كنت تبغي الهدى فالزم قراءته   فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ومن لطائف التفاسير:

(تفسير الطيبي)؛

و (حاشية الكشاف) للطيبي.

وهو أيضاً الحسن بن محمد بن عبدالله، الطيبي الأصل، بكسر الطاء، الامام المشهور، العلامة في المعقول والعربية والمعاني والبيان. قال ابن حجر: كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن، مقبلاً على نشر العلم، متواضعاً، حسن المعتقد، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة، مظهراً فضائحهم، مع استيلائهم حينئذ، شديد الحب لله ورسوله، كثير الحياء ملازماً لأشغال الطلبة في العلوم الاسلامية بغير طمع، بل يجدلهم ويعينهم، ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم، من يعرف ومن لا يعرف، محباً لمن عرف منه تعظيم الشريعة. وكان ذا ثروة من الإرث والتجارة، فلم يزل ينفقه في وجوه الخيرات حتى صار في آخر عمره فقيراً.

صنف:

١ ــ شرح الكشاف؛

٢ ــ والتفسير؛

٣ ــ والتبيان في المعاني والبيان؛

٤ ــ وشرحه؛

٥ ــ وشرح المشكاة.

وكان يشتغل في التفسير من بكرة النهار الى الظهر، ومن ثم الى العصر في الحديث، الى يوم مات، فانه فرغ من وظيفة التفسير، وتوجه الى مجلس

الحديث، فصلى النافلة وجلس ينتظر الاقامة للفريضة، فقضى نحبه متوجهاً الى القبلة، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان، سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.
قال السيوطي: ذكر في شرحه على الكشاف، أنه أخذ عن أبي حفص السهروردي، وأنه قبيل الشروع في هذا الشرح، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، وقد ناوله قدحاً من اللبن، فشرب منه رضي الله عنه.

ومن التفاسير المتوسطة:

(تفسير البغوي). وهو أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، الفقيه الشافعي، صاحب:

١ ــ كتاب المصابيح؛
٢ ــ وشرح السنة؛
٣ ــ وكتاب التهذيب، في الفقه؛
٤ ــ ومعالم التنزيل في التفسير.

وغير ذلك من التصانيف الحسان. كان إماماً في الفقه والحديث. وكان متورعاً ثبتاً حجة صحيح العقيدة في الدين. (مات) بعد المائة الخامسة في سنة ست عشرة وخمسمائة. ورأيت في بعض المجاميع أنه لقب «بمحيي السنة». وسبب ذلك، أنه لما صنف (شرح السنة)، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: «أحييت سنتي بشرح أحاديثي» فلقب من ذاك اليوم بمحيي السنة. و «البَغَوي» ــ بفتح الباء وفتح الغين المعجمة ــ نسبة الى مدينة بغشور من مدن خراسان، نسبوا اليها على غير قياس، وفي ذلك تغيير وابدال على خلاف القياس؛ وقيل: «بغشور» اسم الولاية واسم المدينة «بغ».

ومن التفاسير:

(تفسير الكواشي). وهو أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع، الامام موفق الدين الكواشي الموصلي، المفسر الفقيه الشافعي. قال الذهبي: برع في العربية والقراءات والتفسير.

وقرأ على والده والسخاوي، وكان عديم النظير زهداً وصلاحاً وتبتلاً

وصدقاً، يزوره السلطان فمن دونه فلا يعبأ بهم، ولا يقوم لهم، ولا يقبل لهم شيئاً، وله كشف وكرامات، وأضر قبل موته بعشر سنين. وكانت (ولادته) سنة تسعين وخمسمائة. وله: (التفسير الكبير) و(الصغير) جود فيه الاعراب، وحرر أنواع الوقوف. وأرسل منه نسخة الى مكة والمدينة والقدس.

قال السيوطي: وعليه اعتمد الشيخ جلال الدين المحلي في تفسيره، واعتمدت عليه أيضاً في تكملته مع الوجيز وتفسير البيضاوي وابن كثير. (مات) الكواشي بالموصل في جمادى الآخرة سنة ثمانين وستمائة.

ومن كتب التفاسير:

(تفسير القاضي البيضاوي). هو الامام القاضي ناصر الدين أبو الخير، عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي. من قرية يقال لها: البيضاء من عمل شيراز.

قال الأسنوي في (طبقات الشافعية): كان عالماً بعلوم كثيرة، صالحاً خيراً. صنف التصانيف المشهورة في أنواع العلوم منها:

١ ـ مختصر الكشاف؛

٢ ـ ومختصر الوسيط في الفقه المسمى «بالغاية»؛

٣ ـ والمنهاج في أصول الفقه؛

٤ ـ والطوالع، في علم الكلام.

وتولى قضاء القضاة باقليمه. و (توفي) سنة احدى وأربعين وستمائة. وقال الصلاح الصفدي مات بتبريز سنة خمس وثمانين. وقال القاضي تاج الدين السبكي في (الطبقات الكبرى): كان إماماً مبرزاً نظاراً صالحاً متعبداً زاهداً، صنف «الطوالع»؛

٥ ـ والمصباح في أصول الدين؛

٦ ـ وشرح المصابيح في الحديث.

وولي قضاء القضاة بشيراز، ودخل تبريز، وناظر بها. وصادف دخوله اليها

مجلس درس، قد عقد بها عند الوزير لبعض الفضلاء، فجلس في أخريات القوم، بحيث لم يعلم به أحد، فذكر المدرس نكتة، زعم أن أحداً من الحاضرين لا يقدر على جوابها، وطلب من القوم حلها والجواب عنها، فان لم يقدروا فالحل فقط، فان لم يقدروا فاعادتها. فلما انتهى من ذكرها، شرح البيضاوي في الجواب، فقال لا أسمع حتى أعلم أنك فهمتها، فخيره بين اعادتها بلفظها أو معناها، فبهت المدرس فقال: أعدها بلفظها، فأعادها، ثم حلها وبين أن ترتيبه إياها خللا؛ ثم أجاب عنها وقابلها في الحال بمثلها، ودعا المدرس الى حلها، فتعذر عليه ذلك، فأقامه الوزير من مجلسه، وأدناه الى جانبه، وسأله: من أنت؟ فأخبره أنه البيضاوي، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز، فأكرمه وخلع عليه في يومه، ورده وقضى حاجته. وقال الصلاح الصفدي في تاريخه: قال لي الحافظ نجم الدين سعيد الدهلي: (توفي) القاضي ناصر الدين البيضاوي سنة خمس وثمانين وستمائة بتبريز ودفن بها.

وهو صاحب التصانيف المشهورة البديعة، منها:

١ ــ المنهاج: في الأصول؛
٢ ــ وشرحه أيضاً؛
٣ ــ وشرح مختصر ابن الحاجب: في الأصول؛
٤ ــ وشرح الكافية: في النحو لابن الحاجب؛
٥ ــ وشرح المنتخب في الأصول: للامام فخر الدين؛
٦ ــ وشرح المطالع في المنطق.

ومن التفاسير:

(تفسير أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عمر بن فرج الأنصاري الخزرجي القرطبي).

ومن التفاسير:

(تفسير سراج الدين الهندي). وستعرفه في أصول الفقه.

ومن التفاسير:

(تفسير مدارك التنزيل). لحافظ الدين أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي.

صاحب:

١ ــ كتاب الكنز في الفقه؛

٢ ــ والمنار في الأصول. وستعرفه في الأصول.

ومن التفاسير المبسوطة:

(البسيط) للواحدي. وقد مر؛

و **(تفسير الراغب الأصبهاني)** وقد عرفته.

و **(تفسير أبي حيان المسمى بالبحر).** وقد عرفته.

ومن التفاسير:

(اعراب القرآن) للسفاقسي. وهو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن أبي القاسم، القيسي، المالكي، العلامة، برهان الدين أبو اسحاق السفاقسي النحوي، صاحب (اعراب القرآن) (ولد) في حدود سنة سبع وتسعين وستمائة. وسمع ببجاية من شيخها ناصر الدين، ثم حج وأخذ عن أبي حيان بالقاهرة، وقدم دمشق، فسمع من المزي، وزينب بنت الكمال، وخلق، ومهر في الفضائل. (مات) في ثامن من ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

و **(تفسير ابن عطية).** وهو عبدالله بن عطية بن عبدالله بن حبيب أبو محمد الدمشقي، مقرىء مفسر، إمام ثقة. قال الداني: وكان ثقة ضابطاً خيراً فاضلاً. وقال عبد العزيز الكتاني: كان يحفظ ــ فيما يقال ــ خمسين ألف بيت للاستشهاد على معاني القرآن. قال الذهبي: كان إمام مسجد باب الجابية. قال الجزري: هو المسجد الذي داخل الباب، ويعرف اليوم بمسجد عطية. (توفي) في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة رحمه الله.

ومن التفاسير:

(تفسير الخرقي). وهو أبو القاسم عمر بن أبي علي الحسين بن عبدالله بن

أحمد الخرقي، الفقيه الحنبلي. كان من أعيان الفقهاء الحنابلة، وصنف في مذهبهم كتباً كثيرة، منها: (المختصر) المشهور في أيدي المبتدئين من أصحابهم. و (توفي) بدمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. وكان والده أيضاً من الأعيان. روى عن جماعة. وروى عنه جماعة. والخرقي: نسبة الى بائع الخرق والثياب. قلت: لم أر تفسيراً للخرقي أصلاً، ولا سمعته من أحد، ولكني وجدت في كتاب (الاتقان) للسيوطي: تفسير الخرقي، ولهذا ذكرته، إلا أن الغالب على ظني أنه تصحيف من الحوفي، ولهذا ذكرته عقيبه، وهذا التصحيف بعيد من المصنف، والغالب أنه من الناسخ.

ومن التفاسير:

(تفسير الحوفي) وهو علي بن ابراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفي. كان نحوياً قارئاً.

صنف:

١ ــ البرهان في تفسير القرآن؛

٢ ــ وعلوم القرآن؛

٣ ــ والموضح: في النحو؛

و (مات) مستهل ذى الحجة سنة ثلاثين وأربعمائة.

ومن التفاسير:

(تفسير القشيري). وهو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة بن محمد القشيري، الفقيه الشافعي. كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف. جمع بين الشريعة والحقيقة. أصله من ناحية أُسْتُوَا من العرب الذين قدموا خراسان توفي أبوه وهو صغير. وقرأ الأدب في صباه، وذهب الى نيسابور ليتعلم طرفاً من الحساب، ليحمي قرية كانت له من الخراج، وحضر بنيسابور مجلس الشيخ أبي علي الحسين بن علي النيسابوري، المعروف بالدقاق، كان إمام وقته؛ فلما سمع كلامه أعجبه ووقع في قلبه، فرجع عن ذلك العزم، وسلك طريق الارادة

وتفرس الدقاق فيه النجابة، فجذبه بهمته، وأشار اليه بالاشتغال بالعلم، فخرج الى درس أبي بكر محمد بن أبي بكر الطوسي، وشرع في الفقه حتى فرغ من تعليقه، ثم اختلف الى الأستاذ أبي بكر بن محمد فورك، فقرأ عليه حتى أتقن علم الأصول، ثم تردد الى الأستاذ أبي اسحاق الاسفرايني، فقال الأستاذ: لا بد في هذا العلم من الكتابة، فأعاد عليه جميع ما سمعه منه في تلك الأيام، فعجب منه، وعرف محله فأكرمه. ثم نظر في كتب القاضي أبي بكر الباقلاني، وهو مع ذلك يحضر مجلس أبي علي الدقاق، وزوجه ابنته. وبعد وفاة أبي علي، سلك مسلك المجاهدة والتجويد، وصنف التفسير الكبير وسماه (التيسير في علم التفسير) وهو من أجود التفاسير. وصنف (الرسالة في رجال الطريقة) وخرج الى الحج في رفقة فيها الشيخ أبو محمد الجويني ـــ والد إمام الحرمين ـــ وأحمد بن الحسين البيهقي، وجماعة من المشاهير، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز. وكان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء. وأما مجالس الوعظ فهو كما قيل: لو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب، ولو ربط ابليس في مجلسه لتاب. وكان حسن الموعظة مليح الاشارة. وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي. (ولد) في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثمائة. و (توفي) سادس عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة، بمدينة نيسابور. وتوفي شيخه أبو علي الدقاق سنة اثنتي عشرة وأربعمائة. والقشيري نسبة الى قبيلة قشير بن كعب.

ومن التفاسير:

(تفسير ابن عقيل). وهو عبدالله بن عبد الرحمن بن عبدالله بن أبي الفتح ابن محمد بن عقيل، العقيلي الطالبي الهاشمي الأصل، المصري المولد، الشافعي الامام، العلامة بهاء الدين، شيخ الشافعية بالديار المصرية. قرأ القراءات السبع على الصائغ، وأتقن العلوم، وانفرد بالرئاسة، وبرع في العربية والفقه والأصولين والتفسير. وله من المصنفات:

١ ـــ كتاب الجامع النفيس على مذهب الامام محمد بن ادريس: كتب منه ستة مجلدات الى آخر الاستطابة ثم لخصه في املاء سماه:

٢ ـ تيسير الاستعداد الى رتبة الاجتهاد؛

٣ ـ وكتاب الذخيرة في تفسير القرآن، كتب منه مجلدين على نحو حزب ونصف ثم لخصه وسماه:

٤ ـ الاملاء الوجيز على الكتاب العزيز؛

٥ ـ وله: كتاب مطول على مسألة رفع اليدين ثم لخصه في كراس واحد؛

٦ ـ وله: كتاب المساعد على تسهيل الفوائد؛

٧ ـ وله: املاء على شرح ألفية ابن مالك؛

٨ ـ وله: رسالة على قول: أنا مؤمن ان شاء الله تعالى.

وولي القضاء مدة مديدة. قال الجزري: ولما حججنا سنة ثمان وستين وسبعمائة، اجتمعنا بمكة ثم بالمدينة. و(توفي) مرجعه من الحج سنة تسع وستين وسبعمائة.

ومن التفاسير:

(تفسير ابن رزين)

ومن التفاسير:

(تفسير الماوردي) وقد عرفته.

ومن التفاسير:

(تفسير مسلم الرازي).

ومن التفاسير:

(تفسير إمام الحرمين). وهو أبو المعالي عبد الملك بن الشيخ أبي محمد عبدالله الجويني، الفقيه الشافعي، الملقب ضياء الدين، المعروف بامام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي على الاطلاق، المجمع على إمامته وتفننه في العلوم: من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك. ورزق من التوسع في العبادة ما لم يعهد من غيره. وكان يذكر دروساً يقع كل واحد منها في عدة أوراق، ولا يتلعثم في كلمة منها. وتفقه على والده، وكان يعجب لطبعه وتحصيله وجودة قريحته، وما يظهر عليه من مخائل الاقبال. وزاد على مصنفات

والده في التدقيق والتحقيق، وقعد مكان والده للتدريس، ثم سافر الى بغداد، ولقي جماعة من العلماء، ثم جاور بمكة أربع سنين ــ وبالمدينة ــ يدرس ويفتي، ويجمع طرق المذهب، ولهذا قيل له: امام الحرمين. ثم بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية بنيسابور وتولى الخطابة بها، وكان يجلس للوعظ والمناظرة، وسلم له المحراب والمنبر والتدريس والتذكير يوم الجمعة. وظهرت تصانيفه، وصارت كلها مفيدة ومقبولة، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة، وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة. وكان إذا شرع في علوم الصوفية وشرح الأحوال أبكى الحاضرين. ولم يزل على طريقة حميدة وسيرة مرضية من أول عمره الى آخره. حكى، أن والده رباه وأمه بكسب يده، ولم يزل يوصي أمه أنْ لا يرضع ولده غيرها، فاتفق أن أرضعته امرأة من جيرانهم وأمه غير واقفة فلما رآه أبوه، مسح بطنه وأدخل أصبعه في فيه، حتى قاء جميع ما شربه، وهو يقول: يسهل علي أن يموت ولا يفسد طبعه.

ويحكى: أنه إذا لحقه فترة عن المناظرة كان يقول: هذا من بقايا تلك الرضعة. (ولد) في ثامن عشر المحرم سنة تسع عشرة وأربعمائة. و(توفي) ليلة الأربعاء وقت العشاء الآخرة، الخامس والعشرين من ربيع الآخر، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة. وكانت تلامذته يومئذ قريباً من أربعمائة، فكسروا محابرهم وأقلامهم، وأقاموا على ذلك عاماً كاملاً. قيل: أغلقت الأسواق يوم موته، وكسر منبره في الجامع، وقعد الناس لعزائه.

ومن التفاسير:

(تفسير ابن برجان). وهو عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن، اللخمي الاشبيلي، المعروف بابن برجان، وهو مخفف من ابن أبي الرجال. ذكره في (البغة) فقال: إمام في اللغة والنحو؛ وقال غيره: أخذ اللغة والعربية عن ابن ملكون ولازمه كثيراً. وكان من أحفظ أهل زمانه للغة، مسلماً له ذلك، صدوقاً ثقة. وله: (رد على ابن سيدة).. (مات) سنة سبع وعشرين وسبعمائة. قال الخلكاني في ترجمة أبي المعالي محمد بن الحسن بن علي بن محمد القرشي، الملقب محيي الدين،

المعروف بابن زكي الدين الدمشقي، الفقيه الشافعي: أن أبا المعالي المذكور أنشد (قصيدة بائية) عند فتح السلطان صلاح الدين مدينة حلب سنة تسع وسبعين وخمسمائة، من جملتها هذا البيت:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال، فان القدس فتحت لثلاث بقين من رجب، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

قيل له: من أين لك هذا، قال: أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى: ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾[1] وله حساب طويل. قال الخلكاني: ولم أزل أتطلب تفسير ابن برجان، حتى وجدته، فرأيت في هامش الكتاب حساباً طويلاً. وله ولأمثاله طريق مخصوص لاستخراج الأحكام ليس هذا موضع ذكره.

ومن التفاسير:

(تفسير ابن بزيزة).

ومن التفاسير:

(تفسير ابن المنير). هو أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم بن مختار ابن أبي بكر، الجذامي الاسكندري المالكي، القاضي ناصر الدين أبو العباس ابن المنير. كان إماماً في النحو والأدب والأصول والتفسير، وله يد طولى في علم البيان والانشاء. سمع من أبيه وابن رواج؛ ومنه أبو حيان وغيره. وخطب بالاسكندرية، ودرس بالجامع الجيوشي وغيره، وناب في الحكم بها. ثم اشتغل بالقضاء، ثم صرف وصودر، ثم أعيد اليه. وسئل عنه ابن دقيق العيد، فقال: ما يقف في البحث على حد وفيه يقول العلامة ابن الحاجب من أبيات:

لقد سئمت حياتي البحث لولا مباحث ساكن الاسكندرية

---

(١) سورة الروم، آية: ٢.

صنف:

١ ــ التفسير؛

٢ ــ الانتصاف من صاحب الكشاف؛

٣ ــ ومناسبات تراجم البخاري.

وغير ذلك.

وأراد أن يصنف في الرد على الأموات، فخاصمته أمه، وقالت له: فرغت من مضاربة الأحياء، وشرعت في مضاربة الأموات، فتركه. (مولده) ثالث ذي القعدة سنة عشرين وستمائة. و (مات) ــ قيل مسموماً ــ يوم الخميس، مستهل ربيع الأول، سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

ومن التفاسير:

(مقدمة التفسير) لابن النقيب. وهو محمد بن أبي بكر بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن نجدة حمدان، قاضي القضاة، شمس الدين بن النقيب، الحاكم بحمص، ثم طرابلس، ثم حلب، ثم مدرس الشامية البرانية، وصاحب النووي ــ وأعظم بتلك الصحبة رتبة علية. وله الديانة والعفة، والورع الذي طرد به الشيطان وأرغم أنفه، وكان من أساطين المذهب، وجمرة نار ذكاء إلا أنها لا تتلهب. قال ابن السبكي: سمعته يقول: قال لي النووي: يا قاضي شمس الدين، لا بد أن تلي تدريس الشامية. تولى القضاء ثم الشامية سمع من أحمد بن أبي بكر بن الحموي، وأبي الحسن بن البخاري وأبي حامد بن الصابوني، وأحمد بن شيبان، وزينب بنت مكي، وغيرهم (مولده) تقريباً في سنة اثنتين وستمائة. وكان يقول: إنه ما يموت إلا ليلة الجمعة، فتوفي ليلة الجمعة، ووافق ثاني عشر ذي القعدة سنة خمس وأربعين وسبعمائة بالمدرسة الشامية.

ومن التفاسير:

(أمالي الرافعي على الفاتحة). وهو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم ابن الفضل بن الحسن القزويني، الإمام الجليل، أبو القاسم الرافعي. صاحب:

١ ـــ الشرح الكبير المسمى بالعزيز؛
٢ ـــ وله: الفتح العزيز في شرح الوجيز؛
٣ـــ والشرح الصغير؛
٤ ـــ والمحرر؛
٥ ـــ وشرح مسند الشافعي؛
٦ ـــ والأمالي الشارحة على مفردات الفاتحة. وهو ثلاثون مجلساً أملاها أحاديث بأسانيده عن أشياخه على سورة الفاتحة وتكلم عليها؛

٧ ـــ وله كتاب: الايجاز في أخطار الحجاز؛ ذكر فيه مباحث وفوائد خطرت له في سفره الى الحج. والصواب «خطرات أو خواطر الحجاز» ولعل الخطأ من الناقل.

وغير ذلك. وكفاه بالفتح العزيز شرفاً، فلقد علا به عنان السماء مقداراً وما اكتفى. كان متضلعاً من علوم الشَريعة: تفسيراً وحديثاً وأصولاً، مترفعاً على أبناء جنسه في زمانه: نقلاً وبحثاً وتحصيلاً. وأما الفقه فهو فيه عمدة المحققين، وأستاذ المصنفين. وكان ورعاً زاهداً، تقياً نقياً، طاهر الذيل، مراقباً لله، له السيرة المرضية، والطريقة الزكية، والكرامات الباهرة. وسمع الحديث من جماعة منهم أبوه. وروى عنه الحافظ عبد العظيم المنذري وغيره.

قال ابن الصلاح: أظن أني لم أر في بلاد العجم مثله. قال النووي: الرافعي من الصالحين المتمكنين، كانت له كرامات كثيرة. قال أبو عبدالله محمد بن محمد الأسفرايني: هو شيخنا إمام الدين وناصر السنة، كان أوحد عصره في العلوم الدينية أصولاً وفروعاً، مجتهد زمانه في المذهب، فريد وقته في التفسير، كان له مجلس بقزوين للتفسير ولتسميع الحديث. (توفي) في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وستمائة. يروى أن جلال الدين خوارزم شاه غزا في هذه السنة حتى جمد الدم على يده، فلما مر بقزوين، خرج اليه الرافعي، فأحب الرافعي أن يقبل يد السلطان لما ذكر من صنيعه، فقبل السلطان يده، ثم سا الرافعي قليلاً، فعثرت به الدابة فوقع، فتأذت يده التي قبلها السلطان، فقال

الشيخ: سبحان الله، حصل في نفسي شيء من العظمة بما فعل السلطان، فعوقبت بهذه العقوبة. يروى أنه طالع في بعض الليالي فأضاءت له شجرة في بيته.

ومن التفاسير:

(الغرائب والعجائب) للكرماني. وستعرفه في علم الحديث.

ومن التفاسير:

(قواعد لابن تيمية). وهو أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله، المعروف بابن تيمية الحراني، الملقب فخر الدين بن الخطيب، الواعظ الفقيه الحنبلي. كان فاضلاً، تفقه ببلده على جماعة، وسمع الحديث، وصنف في مذهبه مختصراً. وله خطب مشهورة في غاية الجودة، وله نظم حسن. وله (تفسير القرآن الكريم). ولم يزل أمره جارياً على صلاح وسداد. (مولده) في حران سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة و (توفي) بها سنة احدى وعشرين وستمائة.

ومن التفاسير:

(التفسير الكبير) للامام فخر الدين الرازي. وهو محمد بن عمر ابن الحسن بن الحسين، التيمي البكري، الامام فخر الدين الرازي بن خطيب الري. إمام المتكلمين ذو الباع الواسع في تعليق العلوم، والاجتماع بالشاسع من حقائق المنطوق والمفهوم، بحر ليس للبحر ما عنده من الجواهر، وحبر سما على السماء وأين للسماء مثل ماله من الزواهر، وروضة علم تستقل الرياض نفسها أن تحاكي ما لديه من الأزاهر. انتظمت بقدره العظيم عقود الملة الاسلامية، وابتسمت بدره النظيم ثغور المحمدية، وخاض من العلوم في بحار عميقة، وراض النفس في دفع أهل البدع وسلوك الطريقة. وله أشعار أوى الأشعري من سننه الى ركن شديد، واعتزل المعتزلي علماً أنه ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد. وأما الشرعيات ــ تفسيراً وفقها وأصولاً وغيرها ــ فكان بحراً لا يجارى، وبدراً إلا أن هداه يشرق نهاراً. (ولد) الإمام سنة ثلاث أو أربع وأربعين

وخمسمائة، واشتغل على والده الشيخ ضياء الدين عمر، وكان من تلامذة محيي السنة أبي محمد البغوي. وقرأ الحكمة على المجد الجيلي بمراغة، وتفقه على الكمال السمناني. ويقال أنه حفظ (الشامل) في علم الكلام لإمام الحرمين، وذكر الإمام في رسالة (تحصيل الحق في تفصيل الفرق) أن أستاذه في أصول الدين، والده الإمام السعيد ضياء الدين عمر بن الحسين الرازي؛ وهو تلميذ إمام الأئمة أبي القاسم سيمان بن ناصر الأنصاري؛ وهو تلميذ صدر الأئمة أبي المعالي عبد الملك بن عبدالله؛ وهو تلميذ الإمام أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الاسفرايني؛ وهو تلميذ أبي الحسن الباهلي؛ وهو تلميذ شيخ السنة أبي الحسن علي بن اسحاق بن سالم بن عبدالله بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري؛ وهو كان أولاً تلميذ أبي علي الجبائي المعتزلي، ثم هداه الله تعالى، فرجع عن مذهبه الى مذهب أهل السنة من الصحابة والتابعين، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وكان أول أمره فقيراً، ثم فتحت عليه الأرزاق، وانتشر اسمه وبعد صيته في الآفاق، وقصد من أقطار الأرض. وكانت له يد طولى في الوعظ باللسان العربي والفارسي، ويلحقه فيه حال. وكان من أهل الدين والتصوف، وله يد فيه، وتفسيره ينبيء عن ذلك. وعبر الى خوارزم فجرى بينه وبين المعتزلة مناظرات أدت الى خروجه منها. ثم جرى بما وراء النهر نحو ما جرى بخوارزم، فعاد الى الري، واتصل بالسلطان شهاب الدين الغوري وحظي عنده، ثم بالسلطان الكبير علاء الدين خوارزم شاه محمد تكش، ونال عنده أسنى المراتب، وكان السلطان يأتي اليه. وكان إذا ركب يمشي حوله نحو ثلاثمائة من الفقهاء وغيرهم. وكان شديد الحرص في العلوم. وأصحابه أكثر الخلق تعظيماً له وتأدباً معه، له عندهم المهابة الوافرة. وأقبل الناس على الاشتغال بها. واشتهرت تصانيفه في الآفاق، ورفضوا كتب المتقدمين. وكان يلقب بهراة بشيخ الاسلام. وكان كثير الازراء بالكرامية، فوضعوا عليه من سقاه سما فمات منه.

ومن تصانيفه:

١ ــ التفسير الكبير: في اثني عشر مجلداً، وجعل تفسير سورة الفاتحة في مجلد؛

٢ ـ والمطالب العالية؛

٣ ـ ونهاية العقول؛

٤ ـ والأربعين؛

٥ ـ والمحصل؛

٦ ـ والتبيان في المعاني؛

٧ ـ والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان؛

٨ ـ والمباحث العمادية؛

٩ ـ والمحصول؛

١٠ ـ وعيون المسائل؛

١١ ـ وارشاد النظار؛

١٢ ـ وأجوبة المسائل البخارية؛

١٣ ـ والمعالم؛

١٤ ـ وتحصيل الحق؛

١٥ ـ والزبدة؛

١٦ ـ وشرح الاشارات؛

١٧ ـ وشرح عيون الحكمة؛

١٨ ـ وشرح الأسماء الحسنى؛

١٩ ـ وشرح مفصل الزمخشري في النحو، ولم يتمه؛

٢٠ ـ وشرح وجيز الغزالي في الفقه؛

٢١ ـ وشرح سقط الزند للمعري.

وله طريقة في الخلاف، ومصنف في مناقب الشافعي، وغير ذلك.

وأما كتاب (السر المكتوم في مخاطبة النجوم) فلم يصح أنه له، وقيل أنه مختلق عليه.

وكتب رحمه الله تعالى على القسم الأول من كتاب (المطالب العالية): وتم ذلك في يوم الجمعة من ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة هجرية.

وكتب على آخر الكتاب الثاني منها: وقد تم هذا الكتاب بجرجانية خوارزم، في النصف الآخر من شهر ربيع الأول، سنة خمس وستمائة هجرية.

وكتب على آخر الثالث منها: وقد تم هذا الباب من هذا الكتاب، ليلة الاثنين السادس من ربيع الأول، سنة خمس وستمائة هجرية، في جرجانية خوارزم، في الدار المملوكة في سكة ماخويات. وأسأل الله الكريم الرحيم أن يختم عاقبتي بالرحمة والراحة والريحان، أنه الملك المنان، الرحيم الديان.

وكتب على آخر الكتاب الرابع: وقد تم ليلة الأربعاء من جمادى الأولى، سنة خمس وستمائة هجرية.

وكتب على آخر الخامس منها: تم هذا الكتاب ليلة السبت، السابع عشر من جمادى الأولى، سنة خمس وستمائة هجرية.

وكتب على آخر السادس منها: تم هذا الكتاب يوم الاثنين، الثاني عشر من جمادى الأخرى، سنة خمس وستمائة، والحمدلله كما هو له أهل ومستحق، والصلاة على خير خلقه من الأنبياء والمرسلين، وخصوصاً على محمد وآله وأصحابه أجمعين.

حكى الأديب شرف الدين محمد بن عيين، أنه حضر درسه مرة وهو شاب، وقد وقع ثلج كثير، فسقطت بالقرب منه حمامة وقد طردها بعض الجوارح، فلما وقعت رجع عنها الجارح، فلم تقدر الحمامة على الطيران من الخوف والبرد، فلما قام الامام من الدرس، وقف عليها ورق لها وأخذها.

قلت: وجدت في بعض الرسائل، تصنيف بعض المشايخ الثقات، والرسالة بخطه أيضاً، أن الحمامة هربت ورمت بنفسها الى مجلس الامام ودخلت في كمه.

قال ابن عيين: فقلت في الحال:

جاءت سليمان الزمان بشكوها والموت يلمع من جناحي خاطف
من نبأ الورقاء أن محلكم حرم وأنك ملجأ للخائف

فطرب لها الشيخ فخر الدين، وأمر له بالجلوس قريباً منه، وأمر له بجائزة سنية وبقي محسناً اليه. قيل: ان ابن عين قال: وصل إلي من جهة الإمام فخر الدين نحو عشرة آلاف دنانير. قال ابن السبكي في طبقاته الكبرى: اعلم أن شيخنا الذهبي ذكر الإمام في كتاب (الميزان) في الضعفاء، وهذا أمر لا معنى له من وجوه: (أعلاها): أنه ثقة حبر من أحبار الأمة. و (أدناها): أنه لا رواية له، وذكره في الرواية مجرد فضول وتعصب، وتحامل تقشعر منه الجلود.

وقال الذهبي في (الميزان): له (كتاب أسرار النجوم) سحر صريح قال ابن السبكي: وقد عرفناك أن هذا الكتاب مختلق عليه، وعلى تقدير صحة نسبته اليه، ليس هو بسحر، فليتأمل من يحسن السحر. ويكفيك شاهداً على تعصب شيخنا عليه، ذكره إياه بالفخر الرازي في حرف الفاء، ولا يخفى أن شهرته بابن الخطيب والإمام، واسمه محمد، فاذا نظرت أيها الطارح رداء العصبية عن كتفيه، الجانح الى جعل الحق بمرأى عينيه، الى رجل عمد الى إمام من أئمة المسلمين، وأدخله في جماعة ليس هو منهم، أعني رواة الحديث، فان الإمام لا رواية له، ودعاه باسم لا يعرف به، ولو تأملها المسكين حق التأمل، وأوتي رشده، لأوجبت له حباً عظيماً في هذا الامام، ولكنها الحامل له على هذه العظيمة، والمردية له في هذه المصيبة العميمة. نسأل الله الستر والسلامة.

ذكر: أن الإمام وعظ يوماً بحضرة السلطان شهاب الدين الغوري، وحصلت له حال، فاستغاث: يا سلطان العالم، لا سلطانك يبقى، ولا تلبيس الرازي يبقى، وان مردنا الى الله. قال المولى الشهير بمصنفك في كتابه (التحفة المحمودية): أن المولى فخر الدين الرازي، أرسل رقعة الى السلطان محمد خوارزم شاه، في حاجة عرضها عليه في شأن بعض الصلحاء، وكتب فيها: رفعت قصتي الى الله، فان أعطيتها فالله هو المعطي وأنت المشكور، وان منعتها فهو المانع وأنت المعذور، والسلام. قال أبو عبدالله الحسن الواسطي: سمعت الإمام بهراة ينشد على المنبر عقيب عتابه أهل البلدة.

شعر

المرء ما دام حياً يستهان به ويعظم الرزء فيه حين يفتقد

قال ابن السبكي: قال الامام في تفسيره ـ وأظنه في سورة يوسف عليه السلام: والذي جربته من طول عمري، أن الانسان كلما عول على أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سبباً للبلاء والمحنة، والشدة والرزية؛ وإذا عول على الله، ولم يرجع الى أحد من الخلق، حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي، من أول عمري الى هذا الوقت الذي بلغت فيه الى السابع والخمسين، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للانسان في التعويل على شيء سوى فضل الله وإحسانه. انتهى. قال ابن السبكي: وما ذكره الإمام حق، ومن حاسب نفسه وجد الأمر كذلك. وإن فرض أحد عول في أمره على غير الله وحصل له ذلك؛ فاعلم: أنه لا يخلو عن أحد رجلين: أما رجل ممكور به والعياذ بالله؛ وأما رجل يطلب شراً وهو يحسب أنه خير لنفسه، ويظهر له ذلك بعاقبة ذلك الأمر، فما أسرع انقلابه في الدنيا قبل الآخرة الى أسوأ الأحوال، ومن شاء اعتبار ذلك فليحاسب نفسه.

واعلم: أن هذه الجملة من كلام الإمام، دالة على مراقبته طول وقته، ومحاسبته لنفسه، فرضي الله عنه، وقبح من يسبه أو يذكره بسوء حسداً وبغياً من عند نفسه. الى هنا كلام ابن السبكي.

واعلم: أن الامام كان من زمرة الفقهاء، ثم التحق بالصوفية فصار من أهل المشاهدة، وصنف التفسير بعد ذلك، ومن تأمل في مباحثه وتصفح لطائفه، يجد في أثنائه كلمات أهل التصوف من الأمور الذوقية.

قلت: وسمعت رجلاً ثقة صالحاً عالماً عابداً زاهداً عارفاً صادقاً، أنه حكى: أن الإمام لما دخل هراة، أتاه من بها من العلماء والصلحاء والسلاطين والأمراء، وسأل يوماً: هل بقي أحد تخلف عن زيارتنا، قال أصحابه: نعم، بقي رجل صالح منقطع في زاوية، قال الامام: أنا رجل واجب التعظيم، وأنا إمام المسلمين فلم لم يزرني. فقالوا لذلك الرجل كلام الإمام، فما تكلم بشيء أصلاً،

ووقع بينهما الخلاف، فصنع أهل البلدة طعاماً فدعوهما، فأجابا الدعوة، واجتمعا في حديقة، فسأله الإمام عن سبب تخلفه عن اتيانه اليه، فقال: أنا رجل فقير لا شرف في زيارتي ولا نقص في تخلفي عنها؛ قال الامام: هذا جواب أهل الأدب ـ يعني: الصوفية ـ فقل لي حقيقة الحال؛ فقال ذلك الرجل: لأي شيء وجبت زيارتك؛ قال: أنا إمام المسلمين وواجب التعظيم؛ قال: إن افتخارك بالعلم، ورأس العلوم معرفة الله تعالى، فكيف عرفته تعالى؛ قال: بمائة برهان. قال الرجل: البرهان لأزالة الشك، والله تعالى جعل في قلبي نوراً لا يدخل معه الشك، فضلاً عن الحاجة الى البرهان. فأثر هذا الكلام في قلب الإمام، فتاب في ذلك المجلس على يده، ودخل الخلوة، وفتح له ما فتح، وبعدما خرج عنها، صنف (التفسير الكبير). وقال الناقل لهذه الحكاية: وكان ذلك الشيخ أبو الجناب الشيخ نجم الدين الكبري- قدس الله سره. (توفي) الإمام ـ رحمه الله ورضي عنه ـ بهراة في يوم الاثنين يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة.

ومن التفاسير الواقعة على لسان أهل الذوق من الصوفية:

(تفسير بشير) لنجم الداية؛

و **(الحقائق) لأبي عبد الرحمن السلمي** ـ هو بضم السين وفتح اللام ـ واسمه محمد بن الحسين بن موسى، أبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري، شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم. (مولده) سنة ثلاثين وثلاثمائة. (توفي) في شعبان سنة اثنتي عشرة وأربعمائة. له ترجمة في (الميزان)، قال الذهبي فيها: قال الخطيب: قال لي محمد بن يوسف القطان كان يضع الأحاديث للصوفية. انتهى. كذا في شرح شفاء قاضي عياض للشيخ برهان الدين الحلبي المسمى: (بالمعتق في ضبط ألفاظ الشفا)، وللقشيري.

ومن التفاسير على لسان أهل العرفان:

(تفسير الفاتحة) لصدر الدين القونوي. وهو محمد بن اسحاق، الشيخ الزاهد، صدر الدين القونوي، صاحب التصانيف في التصوف ـ وتزوج أمه الشيخ محيي الدين بن العربي، ورباه واهتم به، وجمع بين العلوم الشرعية وعلوم

التصوف، فصار مجمعاً للبحرين، وملتقى للبدرين ــ وقصده الأفاضل من الأفاق، حتى أن العلامة قطب الدين الشيرازي أتاه وهو بقونية، وقرأ عنده وصاحبه في العلوم الظاهرة والباطنة. ذكره العلامة في كتابه (درة التاج) في القسم العملي منه.

ولصدر الدين القونوي مكاتبات ومراسلات مع خواجة نصير الدين الطوسي في بعض المسائل الحكمية. ودار الكلام بينهما مراراً، حتى اعترف النصير الطوسي بالعجز والقصور.

ولصدر الدين المذكور ــ قدس سره ــ مصنفات كثيرة في علم التصوف وله: (تفسير الفاتحة)؛ و (شرح الأحاديث الاربعينية) لكن لم يتمه، وغير ذلك. (توفي) سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

ومن التفاسير:

(تفسير سورة الفاتحة) لمولانا شمس الدين الفناري. مزج فيه بين العلوم الشرعية وعلوم التصوف، وهو من أحسن المصنفات، وأولاها بالاهتمام والاعتناء بشأنه. والفناري: هو محمد بن حمزة بن محمد الرومي، العلامة شمس الدين بن الفناري ــ بفتح الفاء والنون و بالراء المهملة؛ قال السيوطي: نسبة الى صنعة الفنار؛ قال: سمعته من شيخنا العلامة محيي الدين الكافيجي، لكنه غير صحيح، بل هو نسبة الى قرية تسمى فنار. قال ابن حجر: كان عارفاً بالعربية والمعاني والقراءات، كثير المشاركة في الفنون. (ولد) في صفر سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. وأخذ عن العلامة علاء الدين الأسود، شارح (المغني) في الأصول، وشارح (الوقاية في الفقه)؛ وأخذ ببلاده عن الجمال محمد بن محمد بن محمد الاقصرائي؛ ولازم الاشتغال، ورحل الى مصر، وأخذ عن الشيخ أكمل الدين وغيره. ثم رجع الى الروم فولي قضاء برصه، وارتفع قدره عند ابن عثمان جداً، وحل عنده المحل الأعلى، وصار في معنى الوزير، واشتهر ذكره وشاع فضله. وكان حسن السمت، كثير الفضل والأفضال غير أنه يعاب بنحله ابن العربي و باقراء الفصوص.

ولما دخل القاهرة لم يتظاهر بشيء من ذلك، أو كان بعض من اعتنى به أوصاه أن لا يتكلم في شيء من ذلك، واجتمع به فضلاء العصر. وذاكروه وباحثوه، وشهدوا له بالفضيلة، ثم رجع. وكان قد أثرى الى الغاية، حتى يقال: أن عنده من النقد خاصة مائة وخمسين ألف دينار. وحج سنة اثنتين وعشرين، فلما رجع طلبه المؤيد، فدخل القاهرة واجتمع بفضلائها، ثم رجع الى القدس فزاره، ثم رجع الى بلاده، ثم حج سنة ثلاث وثلاثين على طريق انطاكية، ورجع (فمات) ببلاده في شهر رجب. وكان قد أصابه رمد وأشرف على العمى، بل يقال أنه عمي ثم رد الله عليه بصره، فحج في هذه الحجة الأخيرة شكراً لله على ذلك. وله:

١ ــ مصنف في أصول الفقه سماه: (فصول البدائع في أصول الشرائع) وجمع فيه المنار والبزدوي ومحصول الإمام الرازي ومختصر ابن الحاجب وغير ذلك، وأقام في عمله ثلاثين سنة؛

٢ ــ وله: تفسير الفاتحة؛

٣ ــ ورسالة أتى فيها مسائل من مائة فن، وسماها (أنموذج العلوم). قيل: أن هذه الرسالة لابنه محمد شاه، والله أعلم؛

٤ ــ ورسالة أخرى منظومة، أتى فيها عشرين قطعة كل منها في علم واحد، وبدل أسماء العلوم، وامتحن بها علماء عصره، فعجزوا عن حلها، فضلاً عن الجواب عنها، وأجاب عنها ابنه محمد شاه. وشرح الرسالة أيضاً؛

٥ ــ وصنف شرح الرسالة الأثيرية في (الميزان). وصنفها في يوم واحد من أقصم الأيام، افتتحه بعد صلاة الفجر وختمه مع أذان مغربه.

وله الرسائل والحواشي كثيرة لكن بقيت في المسودة، ومنع الدرس والفتوى والقضاء عن تدوينها. يقال أنه أقرأ (شرح العضد) نحو عشرين مرة. قال ابن حجر: كتب لي بخطه بالإجازة لما قدم القاهرة. (مات) في رجب سنة أربع وثلاثين وثمانمائة. قال السيوطي: لازمه شيخنا العلامة محيي الدين الكافيجي،

وكان يبالغ في الثناء عليه جداً. وكان للفناري ولدان:

(أحدهما) اسمه يوسف بالي؛ ويحكى: أنه كان من الفضلاء لكن لم نر تصنيفه.

و **(الآخر) محمد شاه؛** قال ابن حجر: محمد شاه بن الشيخ شمس الدين الفناري الحنفي الرومي، كان ذكياً، وحج في بضع وثلاثين وثمانمائة، ودخل القاهرة، ثم رجع الى بلاد ابن قرمان فمات بها.

أما محي الدين الكافيجي: فهو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي البرغمي. قال السيوطي: شيخنا العلامة، أستاذ الأستاذين، محيي الدين أبو عبدالله الكافيجي الحنفي. (ولد) سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، واشتغل بالعلم أول ما بلغ، ورحل الى بلاد العجم والتتر، ولقي العلماء الأجلاء؛ فأخذ عن الشمس الفناري، والبرهان حيدره والشيخ واجد، وأبا فرشته (شارح المجمع)، وحافظ الدين البزازي وغيرهم. ودخل القاهرة، وأخذ عنه الفضلاء والأعيان، وولي مشيخة الشيخونية لما رغب عنها ابن الهمام. وكان إماماً كبيراً في المعقولات كلها: الكلام وأصول الفقه والنحو والتصريف والاعراب والمعاني والبيان والجدل والمنطق والفلسفة والهيئة، بحيث لا يشق أحد غباره في شيء من هذه العلوم، وله اليد الحسنة في الفقه والتفسير، والنظر في علوم الحديث وألف فيه وأما تصانيفه في العلوم العقلية فلا تحصى، بحيث أني سألته أن يسمي لي جميعها لأكتبها في ترجمته فقال: لا أقدر على ذلك. قال: ولي مؤلفات كثرة أنسيتها، فلا أعرف الآن أسماءها، وأكثرها مختصرات، وأجلها على الاطلاق.

١ ــ شرح قواعد الاعراب؛

٢ ــ وشرح كلمتي الشهادة؛

٣ ــ وله مختصر في علوم الحديث؛

٤ ــ ومختصر في علوم التفسير مسمى: بالتيسير، قدر ثلاث كراريس وكان يقول أنه اخترع هذا العلم ولم يسبق اليه. وذلك لأن الشيخ لم يقف على

(البرهان) للزركشي، ولا على (مواقع العلوم) للجلال البلقيني.

وكان صحيح العقيدة في الديانات، حسن الاعتقاد في الصوفية، محباً لأهل الحديث، كارهاً لأهل البدع، كثير التعبد على كبر سنه، كثير الصدقة والبذل لا يبقي على شيء، سليم الفطرة صافي القلب، كثير الاحتمال لأعدائه صبوراً على الأذى، واسع العلم جداً. لازمته أربع عشرة سنة، فما جئت مرة، إلا وسمعت منه من التحقيقات والعجائب ما لم أسمعه قبل ذلك.

قال لي يوماً: ما اعراب «زيد قائم»؛ فقلت: قد صرنا في مقام الصغار نسأل عن هذا؛ فقال لي: في زيد قائم مائة وثلاثة عشر بحثاً؛

فقلت: لا أقوم من هذا المجلس حتى استفيدها، فأخرج لي تذكرتها فكتبتها منه. (توفي) الشيخ شهيداً بالأشهاد، ليلة الجمعة رابع جمادى الأولى، سنة تسع وسبعين وثمانمائة، رحمه الله تعالى.

الشعبة الرابعة

من العلوم الشرعية

علم دراية الحديث

وهو علم يبحث فيه عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، وعن المعنى المراد منها، مبتنياً على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقاً لأحوال النبي صلى الله عليه وسلم.

وموضوعه: أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث دلالتها على المعنى المفهوم والمراد.

وغايته: التحلي بالآداب النبوية، والتخلي عما يكرهه و ينهي عنه.

ومنفعته: أعظم المنافع، كما لا يخفى على المتأمل.

ومبادئه: العلوم العربية كلها، ومعرفة القصص والأخبار المتعلقة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعرفة الأصلين والفقه، وغير ذلك.

واعلم أن قصارى نظر أبناء هذا الزمان في علم الحديث، النظر في: (مشارق الأنوار) للصاغاني، فان ترفعت الى (مصابيح) البغوي، ظننت أنها تصل الى درجة المحدثين، وما ذلك الا لجهلهم بالحديث، بل لو حفظهما عن ظهر قلب، وضم اليهما من المتون مثليهما، لم يكن محدثاً حتى يلج الجمل في سم الخياط.

وانما الذي يعده أهل هذا الزمان بالغاً الى النهاية، و ينادونه محدث المحدثين، و بخاري العصر، من اشتغل (بجامع الأصول) لابن الأثير، مع حفظ علوم الحديث، (كمختصر) ابن الصلاح، أو (التقريب)، و (التيسير) للنووي، ونحو ذلك، إلا أنه ليس في شيء من رتبة المحدثين، وإنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون، وسمع الكتب الستة، و (مسند) الإمام أحمد بن حنبل، و (سنن البيهقي)، و (معجم الطبراني)، وضم الى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية. هذا أقل درجاته. فاذا سمع ما ذكرناه، وكتب الطبقات، وزاد على الشيوخ، وتكلم في العلل والوفيات والأسانيد، كان في أول درجات المحدثين. ثم يزيد الله سبحانه وتعالى من يشاء ما يشاء. هذا ما ذكره تاج الدين السبكي رحمه الله.

والكتب المصنفة في علم الحديث، أكثر من أن تحصى، وأوفر من أن تستقصى، إلا أن السلف والخلف، قد أطبقوا قاطبة على أن أصح الكتب، بعد كتاب الله تعالى، كتاب:

١ ــ صحيح البخاري؛

٢ ــ ثم صحيح مسلم؛

٣ ــ ثم الموطأ؛

ثم بقية الكتب الستة، وهي:

٤ ــ سنن أبي داود؛

٥ ــ وسنن الترمذي؛

٦ ــ وسنن النسائي؛

٧ ــ وسنن ابن ماجة؛

٨ ــ وسنن الدارقطني؛

والمسندات المشهورة؛

٩ ــ كمسند أحمد؛

١٠ ــ وابن أبي شيبة؛

١١ ــ والبزار، ونحوها.

ولنذكر ها هنا أصحاب الكتب الستة، ومن يحذو حذوهم، على وجه الاختصار، لنتشرف بذكرهم، و يفيض علينا من بركاتهم، قدوة الدين، وشيوخ الاسلام، وحفاظ السنة، وخزنة الأحاديث، يتبرك بأسمائهم، و يظن استجابة الدعاء عند ذكر أوصافهم، إذ عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ذكر الإمام العالم صدر الشريعة في كتابه (تعديل العلوم)، في قسم تعديل الكلام، أن المشايخ أئمة الحديث، مشهورون بطول الأعمار، وأن الفلاسفة المستهزئين بالشريعة، مشهورون بقصر الأعمار. ولا شكل أن طول العمر في الاسلام، والعلم والعمل، مظنة الخيرات والبركات، وأن الشيبة في الاسلام، مئنة السعادات.

ذكر ابن السبكي في (طبقاته الكبرى)، أن أبا سهل قال: سمعت ابن الصلاح يقول: سمعت شيوخنا رحمهم الله يقولون: دليل طول عمر الرجل، اشتغاله بأحاديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، و يصدقه التجربة، فان أهل الحديث، إذا تتبعت أعمارهم، تجدها في غاية الطول.

واعلم أن رئيس هؤلاء الطائفة وقدوتهم، بعد الامام مالك رضي الله عنه، الامام أبو عبدالله، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري. وانما قيل له الجعفي، لأن المغيرة أبا جده، كان مجوسياً، فأسلم على يد يمان البخاري، وهو الجعفي والي بخارى، فنسب اليه، حيث أسلم على يده. وجعفي ــ أبو قبيلة من اليمن ــ هو جعفي بن سعد، والنسبة اليه كذلك.

(ولد) يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، سنة أربع وتسعين ومائة، و (توفي) ليلة الفطر، سنة ست وخمسين ومائتين، و (دفن) بخرتنك على فرسخين من سمرقند، وعمره اثنتان وستون سنة إلا ثلاثة عشر يوماً، ولم يعقب ولداً ذكراً.

وكان شيخاً نحيف الجسم، ليس بالطويل ولا بالقصير. والبخاري الإمام في علم الحديث، رحل في طلب العلم الى جميع محدثي الأمصار. وكتب بخراسان، والجبال، والعراق، والحجاز، والشام، ومصر. وأخذ الحديث عن المشايخ الحفاظ، منهم: مكي بن ابراهيم البلخي، وعبدالله بن موسى العبسي، وأبو عاصم الشيباني، وعلي بن المديني، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعبدالله بن الزبير الحميدي، وغير هؤلاء من الأئمة.

وأخذ عنه الحديث كثير في كل بلدة حدث بها. قال الضريري ــ قلت: هو بفتح الفاء وكسرها، وفتح الراء الأول، واسكان الموحدة بين الرائين، منسوبة ــ الى قرية من قرى بخارى ــ: سمع كتاب البخاري عليه، تسعون ألف رجل، فما بقي أحد يروي عنه غيري. قال: وسمعته منه بفربر.

ورد البخاري على المشايخ وله احدى عشرة سنة، وطلب العلم وله عشر سنين. قال البخاري: خرجت كتاب (الصحيح) من زهاء ستمائة ألف حديث، وما وضعت فيه حديثاً، إلا بعدما استخرت الله تعالى واغتسلت وصليت ركعتين. وقال: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح، وصنفته في ست عشرة سنة، وما أدخلت فيه حديثاً إلا بعدما تيقنت بصحته، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى.

وجملة ما في كتابه الصحيح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثاً، بالأحاديث المكررة، وقيل إنها باسقاط المكررة، أربعة آلاف حديث. وصحيح مسلم أيضاً أربعة آلاف حديث بعد حذف المكررة.

قال البخاري: أصح الأسانيد على الاطلاق: مالك عن نافع عن ابن عمر، وأصح أسانيد أبي هريرة: أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، رضي الله عنهم.

وكان البخاري من عباد الله الصالحين، ملازماً للورع والزهادة. رأى أبوه مالك بن أنس، وعبدالله بن المبارك، وحماد بن زيد. وقدم البخاري بغداد،

فسمع به أصحاب الحديث، واجتمعوا، وعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر، واسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها الى عشرة أنفس، لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوها على البخاري، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث، فلما اطمأن المجلس بأهله، انتدب اليه رجل من العشرة، فسأله من حديث من تلك الأحاديث، فقال: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، ثم وثم، الى أن فرغ من العشرة، ثم انتدب رجل آخر، فجرى معه مثل ما جرى مع الأول الى أن تمت العشرة الرجال، كل ذلك يقول: لا أعرفه. فأما العلماء فعرفوا بانكاره أنه عارف، وأما غيرهم فلم يدركوا ذلك منه. ثم التفت البخاري الى الأول منهم، فقال: أما حديثك الأول فهو كذا، والثاني كذا، على النسق، الى آخر العشرة، فرد كل متن الى اسناده، وكل اسناد الى متنه، ثم فعل بالباقين مثل ذلك، فأقر له الناس بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل.

قال أبو مصعب، أحمد بن أبي بكر المديني: محمد بن اسماعيل أفقه عندنا وأبصر من ابن حنبل، فقال رجل من جلسائه: جاوزت الحد، فقال مصعب: لو أدركت مالكاً، ونظرت الى وجهه ووجه محمد بن اسماعيل، لقلت: كلاهما واحد في الفقه والحديث.

وقال أحمد بن حنبل: ما أخرجت بخارى مثل محمد بن اسماعيل البخاري. وقال: انتهى الحفظ الى أربعة من أهل خراسان، وذكر منهم البخاري.

وقال رجاء بن مرجى: فضل محمد بن اسماعيل البخاري على العلماء كفضل الرجال على النساء، فقال له رجل: يا أبا محمد، كل ذلك؛ قال: هو آية من آيات الله تعالى تمشي على ظهر الأرض.

وقال محمد بن إسحاق: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد ابن اسماعيل البخاري.

وسبب مفارقته بخارى، على ما رواه أبو سعيد بن منير، قال: بعث الأمير

خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى، الى البخاري، أن أحمل إلي (كتاب الجامع) و (التاريخ)، لأسمع منك، فقال لرسوله: أنا لا أذل العلم، ولا أحمله الى أبواب الناس، فان كانت لك الى شيء حاجة، فاحضرني في مسجدي أو في داري، وان لم يعجبك هذا مني، فأنت سلطان، فامنعني من المجلس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، فاني لا أكتم العلم، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار».

وقال غيره: أن خالداً سأله أن يحضر منزله، فيقرأ (الجامع) و (التاريخ) على أولاده، فامتنع عن ذلك، فراسله أن يعقد مجلساً يخص أولاده، فامتنع عن ذلك أيضاً، وقال: لا يسعني أن أخص بالسماع قوماً دون قوم، فاستعان خالد بعلماء بخارى عليه حتى تكلموا في مذهبه، ونفاه عن البلد، فدعا عليهم البخاري، فاستجيب، ووقعوا بعد زمان يسير في البلايا.

قال عبد القدوس السمرقندي: جاء البخاري الى أقربائه بخرتنك، فسمعته ليله من الليالي، وقد فرغ عن صلاة الليل، يدعو و يقول: اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت، فاقبضني اليك، فما تم الشهر حتى قبضه الله. وقبره بخرتنك ظاهر يزار، رحمه الله. وكانت اسم تلك القرية غير هذا الاسم،وسميت خرتنك يوم مات البخاري، فان أهل سمرقند أطبقوا على أن يشهدوا الصلاة عليه، وعزت الحمر في الكراء، فلهذا أسميت به، لأن خر هو الحمار بلغة الفرس، وتنك معناه الغالي.

روي أن الإمام أبا محمد المزني، أمر بكتاب الله عز وجل، وبصحيح البخاري، فكتبوا له بماء الذهب من الأول الى الآخر. قيل: إن الأصل الذي سمعته بهمدان: كان في تسعة مجلدات، فلقد عظم كتاب الله تعالى وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم.

قال أبو حفص النسفي: فلما قضى البخاري نحبه، سال منه من العرق شيء لا يوصف، الى أن أدرجناه في ثيابه، وقد سطع من قبره ريح طيبة، تعجب

أهل البلد من ذلك، وظهرت عليه الأنوار، وكانوا يأخذون التراب، حتى خفنا على القبر، فنصبنا على القبر خشباً مسنداً.

وقال محمد بن أحمد المروزي: كنت نائماً بين الركن والمقام، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال لي: يا أبا زيد، الى متى تدرس كتاب الشافعي، ولا تدرس كتابي، فقلت: وما كتابك يا رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم)، قال: جامع محمد بن اسماعيل البخاري.

وقال النجم بن الفضل: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، ومحمد ابن اسماعيل خلفه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطا خطوة يخطو محمد، و يضع قدمه على خطوة النبي صلى الله عليه وسلم، و يتبع أثره.

وقال عبد الواحد بن آدم الطواو يسي: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، ومعه جماعة من أصحابه، وهو واقف في موضع ذكره، فسلمت عليه، فرد السلام؛

فقلت: ما وقوفك يا رسول الله، فقال أنتظر محمد بن اسماعيل البخاري، فلما كان بعد أيام، بلغنا موته، فنظرنا، فاذا هو مات في تلك الساعة التي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فيها. ومناقب البخاري لا تحصى.

وأما مناقب كتابه، فهو أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، وهذه منقبة عظيمة لهذا الكتاب؛ وأن من ختمه على أي نية كانت، حصل ما نواه على أحسن وجه؛ وأنه إذا قرىء في بيت في أيام الطاعون، حفظ الله تعالى أهاليه عن الطاعون؛ وأيضاً سمعت من مشايخ الحديث، أن الدعاء يستجاب عند ذكر أسامي أصحاب بدر رضي الله عنهم.

ويليه في الرتبة (كتاب مسلم). وهو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاد القشيري النيسابوري، أحد الأئمة الحفاظ، وأعلام المحدثين، صاحب الصحيح، إمام خراسان في الحديث بعد البخاري. وإذا ذكر الصحيحان مطلقاً، فهو (صحيح البخاري) و (صحيح مسلم).

كان تام القامة أبيض الرأس واللحية، (ولد) سنة أربع ومائتين، وقيل: سنة اثنتين ومائتين. والصحيح أنه (ولد) في سنة ست ومائتين بنيسابور. رحل الى العراق والحجاز والشام ومصر، وأخذ الحديث عن يحيى بن يحيى النيسابوري، وقتيبة بن سعيد، واسحق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، وعبدالله ابن مسلمة القعنبي، وغير هؤلاء من أئمة الحديث وعلمائه، وقدم بغداد وحدث بها.

روى عنه خلق كثير، منهم: ابراهيم بن محمد بن سفيان، والترمذي، وابن خزيمة. وكان آخر قدومه بغداد سنة سبع وخمسين ومائتين.

وقال مسلم: صنفت المسند الصحيح، من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة. وقيل: من يقول: ما تحت أديم الأرض، أصح من كتاب مسلم في علم الحديث. وقال الخطيب أبو بكر البغدادي: إنما قفا مسلم طريق البخاري ونظر في علمه، وحذا حذوه، ولما ورد البخاري نيسابور في آخر مرة، لازمه مسلم، وأدام الاختلاف اليه. وكان مسلم يختلف أيضاً الى محمد بن يحيى أحد الحفاظ المشهورين، ولما وقعت وحشة بين محمد بن يحيى وبين البخاري في مسألة خلق اللفظ، تغير محمد على البخاري، وعلى من صاحبه، فترك مسلم صحبة محمد ولم يتخلف عن زيارة البخاري.

ويليها أبو داود، سليمان بن الأشعث بن اسحق الأزدي السجستاني.

رحل وطوف وجمع، وسمع الخلق بخراسان والعراق والشام وغيرها. سكن البصرة وقدم بغداد غير مرة. وصنف وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزيريين.

(ولد) سنة اثنتين ومائتين، و (توفي) بالبصرة لأربع عشرة بقيت من شوال، سنة خمس وسبعين ومائتين. وقدم بغداد مراراً، ثم أخرج منها آخر مرة سنة إحدى وسبعين.

وأخذ الحديث عن مسلم بن ابراهيم، وسليمان بن حرب، وعبدالله بن

مسلمة القعنبي، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وغير هؤلاء من أئمة الحديث ممن لا يحصى كثرة.

وأخذ الحديث عنه ابنه عبدالله، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأحمد بن محمد الخلال، وغيرهم.

وسكن البصرة، وقدم بغداد، وروى كتابه المصنف في السنن بها، ونقله أهلها عنه، وعرضه على أحمد بن حنبل، فاستجاده واستحسنه.

قال أبو داود: كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب، جمعت فيه أربعة آلاف حديث، وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح منها وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الانسان لدينه منه أربعة أحاديث:

أحدها: قوله «إنما الأعمال بالنيات».

والثاني: قوله «من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

والثالث: قوله «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه».

والرابع: قوله «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات».

قال أبو بكر الخلال: أبو داود الامام المقدم في زمانه، رجل لم يسبقه الى معرفته بتخريج العلوم، وبصيرة لمواضعه، أحد في زمانه، رجل ورع مقدم.

وقال أحمد بن محمد الهروي: كان أبو داود أحد حفاظ الاسلام لحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، علمه وعلله وسنده، في أعلى درجة من النسك والعفاف والصلاح والورع، من فرسان الحديث.

وكان لأبي داود كم واسع وكم ضيق، فقيل له: ما هذا يرحمك الله، قال: الواسع للكتب، والآخر لا يحتاج اليه.

وقال الخطابي: (كتاب السنن) لأبي داود، كتاب شريف، لم يصنف في

علم الدين كتاب مثله. وقال أبو داود: ما ذكرت في كتابي حديثاً اجتمع الناس على تركه.

وقال ابراهيم الحربي: لما صنف أبو داود هذا الكتاب، ألين لأبي داود الحديث، كما ألين لداود عليه السلام الحديد. وقال ابن الاعرابي: كتاب أبي داود، لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم، إلا المصحف الذي فيه كتاب الله عز وجل، ثم هذا الكتاب، لم يحتج معهما الى شيء من العلم بتة.

وكان ولده أبو بكر عبدالله، من أكابر الحفاظ ببغداد، عالماً متفقاً عليه، إمام ابن إمام. وشارك أباه في شيوخه بمصر والشام، وسمع ببغداد وخراسان وأصبهان وشيراز وسجستان. و (توفي) سنة ست عشرة وثلاثمائة، (رحمه الله تعالى).

ويليهم أبو عيسى، محمد بن عيسى الترمذي.

(توفي) بها ليلة الاثنين الثالث عشر من رجب، سنة تسع وسبعين ومائتين. وهو أحد العلماء الحفاظ الأعلام، وله في الفقه يد صالحة. أخذ الحديث عن جماعة من أئمة الحديث، ولقي الصدر الأول من المشايخ، مثل: قتيبة بن سعيد، ومحمود بن غيلان، ومحمد ين بشار، وأحمد بن منيع، ومحمد بن المثنى، وسفيان ابن وكيع، ومحمد بن اسماعيل البخاري، وغير هؤلاء. وأخذ الحديث عن خلق كثير لا يحصون كثرة، وأخذ عنه خلق كثير، منهم محمد بن أحمد المحبوبي المروزي.

له تصانيف كثيرة في علم الحديث، وهذا (كتابه الصحيح) أحسن الكتب وأكثرها فائدة وأحسنها ترتيباً وأقلها تكراراً، وفيه ما ليس في غيره، من ذكر المذاهب، ووجوه الاستدلال، وتبيين أنواع الحديث، من الصحيح والحسن والغريب، وفيه جرح وتعديل. وفي آخره كتاب العلل، وقد جمع فيه فوائد حسنة، لا يخفى قدرها على من وقف عليها.

قال الترمذي: صنفت هذا الكتاب، فعرضته على علماء الحجاز فرضوا به،

وعرضته على علماء العراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به. ومن كان في بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم.

والترمذي نسبة الى ترمذ بكسر التاء، وبالذال المعجمة، وهي مدينة مشهورة من قرى جيحون، على شاطئه الشرقي.

ويليهم أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب النسائي. (مات) بمكة سنة ثلاث وثلاثمائة، ودفن بها. وهو أحد الأئمة الحفاظ العلماء الفقهاء. لقي المشايخ الكبار. وأخذ الحديث عن قتيبة بن سعيد، ومحمد بن بشار، ومحمود بن غيلان، وأبي داود سليمان بن الأشعث، وغير هؤلاء من المشايخ الحفاظ.

وأخذ عنه الحديث خلق كثير، منهم أبو القاسم الطبراني، وأبو جعفر الطحاوي، وأبو بكر أحمد بن اسحق السني الحافظ.

وله كتب كثيرة في الحديث والعلل، وغير ذلك. قال مأمون المصري الحافظ: خرجنا مع أبي عبد الرحمن الى طرسوس، فاجتمع جماعة من مشايخ الاسلام، والاسلام، واجتمع من الحفاظ عبدالله بن أحمد بن حنبل، ومحمد بن ابراهيم وغيرهما، فتشاوروا من ينتقى لهم على الشيوخ، فأجمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي، وكتبوا كلهم بانتخابه.

وقال الحكيم النيسابوري: أما كلام أبي عبد الرحمن على فقه الحديث، فأكثر من أن يذكر، ومن نظر الى كتاب السنن له، تحير في حسن كلامه. وقال: سمعت علياً بن عمر الحافظ غير مرة، يقول: أبو عبد الرحمن مقدم على كل من يذكر بهذا العلم في زمانه، كان شافعي المذهب، وكان ورعاً متحرياً. النسائي بفتح النون، وتخفيف السين المهملة، وبالمد والميم، منسوب الى مدينة نساء من خراسان، رحمه الله تعالى.

واعلم أن الامام النووي، رحمه الله، عد الكتب الأصول خمسة، وهي هذه الخمسة التي ذكرتها، إلا أن الجمهور جعلها ستاً، وقد عد منها (موطأ الإمام مالك) رضي الله عنه، وجعلوه بعد الترمذي، وقبل النسائي والحق أنه بعد مسلم في الرتبة. وسنذكر الإمام مالك رضي الله عنه في المجتهدين، لأنه بذلك أشهر.

وعد بعضهم بدل (الموطأ)، كتاب ابن ماجة وهو محمد بن يزيد بن ماجة، أبو عبدالله القزويني الحافظ، صاحب السنن. سمع أصحاب مالك والليث، وعنه أبو الحسن القطان، وخلق سواه. (ولد) سنة تسع ومائتين، و (مات) سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وله من العمر أربع وستون سنة.

واعلم أنه قد يقع في السنة أهل الحديث، الأئمة السبعة، فيزاد على هؤلاء: **رزين، وهو أبو الحسن رزين بن معاوية العبدري الحافظ** صاحب (كتاب التجريد) في الجمع بين الصحاح. (مات) بعد العشرين وخمسمائة، وانما ألحقوا جامعه بالكتب الستة، لأن جامعه جامع للستة.

وقد يقع في السنتهم الأئمة الثمانية، فيزاد عليهم الحميدي؛ وهو أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأندلسي الحميدي، صاحب (كتاب الجمع بين صحيحي البخاري ومسلم). وهو إمام كبير عالم مشهور، سمع ببلده، وسمع بمصر أصحاب المهندس، وسمع بمكة أصحاب ابن خواص وغيرهم، وسمع بالشام أصحاب ابن جميع وغيرهم، ورد بغداد فسمع أصحاب الدارقطني وغيرهم. وصنف تاريخاً لأهل الأندلس.

قال الأمير ابن ماكولا: لم أر مثله في نزاهته وعفته وورعه. (مات) ببغداد في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وكان مولده قبل العشرين وأربعمائة.

وربما يقال: الأئمة التسعة، فيزاد أحد هذين الامامين: أحدهما الإمام أبو بكر أحمد بن محمد البرقاني؛ والآخر الإمام أبو مسعود ابراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي، فان كلا من هذين الإمامين قد جمع بين صحيحي البخاري ومسلم، فيقال لأحدهما (جامع البرقاني)، وللآخر (جامع الدمشقي).

وربما يقال: الأئمة العشرة، فيزاد عليهم كلاهما، وتلك عشرة كاملة.

واعلم أن البرقاني هو أبو بكر أحمد بن محمد الخوارزمي المعروف بالبرقاني. سمع ببلده من أبي العباس بن حمدان النيسابوري وغيره، ثم خرج الى جرجان،

فسمع أبا بكر الاسماعيلي، ثم الى بغداد فاستوطنها وحدث بها. وكان ثقة ورعاً فهماً متثبتاً. قال الخطيب أبو بكر البغدادي: لم أر في شيوخنا أثبت منه. كان حافظاً للقرآن عارفاً بالفقه، له حفظ من علم العربية.

وله تصانيف في علم الحديث. (ولد) سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، و (مات) في رجب سنة خمس وعشرين وأربعمائة، وله من العمر تسع وثمانون سنة. ودفن في مقبرة جامع المنصور. البرقاني بكسر الباء الموحدة وفتحها وبالقاف والنون.

وأما الدمشقي فهو:

إذا عرفت هذا، فاعلم أن أصحاب الحديث اختاروا سبعة أخرى من الحفاظ، وجعلوهم في ساقة الستة المشهورة، وأطبقوا على أنهم أحسنوا التصنيف، وأن مصنفاتهم وقعت عظيمة النفع.

منهم: **أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني** الحافظ، الإمام العلامة المشهور. كان فريد عصره، وقريع دهره، وإمام وقته. انتهى اليه علم الحديث والمعرفة بعلله، وأسماء الرجال، ومعرفة الرواة، مع الصدق والأمانة والعدالة، وصحة الاعتقاد، وسلامة المذهب، والقيام بعلوم أخرى سوى الحديث؛ منها: علم القرآن ومعرفة مذاهب الفقهاء. درس فقه الشافعي على أبي سعيد الاصطخري، وكتب عنه الحديث أيضاً؛ ومنها معرفة الأدب والشعر.

قال أبو الطيب: كان الدارقطني أمير المؤمنين في الحديث. سمع خلقاً كثيراً، وروى عنه الحافظ أبو نعيم، وأبو بكر البرقاني، والجوهري، والقاضي، وأبو الطيب الطبري، وغيرهم.

(ولد) سنة خمس أو ست وثلاثمائة، و (مات) ببغداد يوم الأربعاء لثمان خلون من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. ودارقطن محلة كانت ببغداد قديماً.

ومنهم: **الحاكم** أبو عبدالله النيسابوري. (مات) بها في صفر سنة خمس

وأربعمائة، وولد، بها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

ومنهم: **أبو محمد عبد الغني بن سعيد الأزدي**، حافظ مصر. (ولد) في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، و (مات) بمصر في صفر سنة تسع وأربعمائة.

ومنهم: **أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني**، صاحب (الحلية). هو من مشايخ الحديث الثقات المعمول بحديثهم، المرجوع الى قولهم، كبير القدر. (ولد) سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، و (مات) في صفر سنة ثلاثين وأربعمائة بأصبهان، وله من العمر ست وتسعون سنة.

ومنهم **أبو عمرو بن عبد البر النحوي**، حافظ المغرب. كان ثقة في الحديث، مرجوعاً الى روايته، كثير الحفظ والضبط. (ولد) في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلاثمائة، و (وتوفي) بشاطبة سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

ومنهم: **أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي**، كان أوحد دهره في الحديث والتصانيف ومعرفة الفقه، وهو من كبار أصحاب الحاكم أبي عبدالله. (ولد) البيهقي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، و (مات) بنيسابور في جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وله من العمر أربع وسبعون سنة.

ومنهم: **أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي.** (ولد) في جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، و (مات) ببغداد في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

ثم اعلم أن الصحيح إذا أطلق يراد به (الجامع الصحيح) للبخاري، وإذا أطلق الصحيحان، يراد بهما صحيح البخاري ومسلم، وإذا أطلق الصحاح، يراد بها الصحاح الستة، ويقيد ما دون هذا، (كصحيح) ابن خزيمة، و (صحيح) ابن حبان، و (صحيح) أبي عوانة، و (صحيح) مستدرك الحاكم.

أما ابن خزيمة، فهو أبو بكر محمد بن اسحق بن خزيمة النيسابوري الفقيه

الحافظ، شيخ خراسان، إمام الأئمة. (توفي) في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة على نحو من تسعين سنة.

وأما ابن حبان، فهو أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي الحافظ. صاحب التصانيف. (توفي) سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

وأما أبو عوانة، فهو الحافظ عثمان بن أبي شيبة العبسي، وكان أكبر من أخيه. صنف:

١ ــ المسند؛

٢ ــ والتفسير.

(مات) سنة تسع وثلاثين ومائتين.

وأما الحاكم فقد مر آنفاً.

وإذا أطلق السنن، يراد بها سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والقزويني، وقد عرفت هؤلاء.

وأما السنن لغير هؤلاء يذكر مقيداً. (كالسنن للدارقطني)، و (السنن الكبير للبيهقي)، وقد عرفتها.

وإذا أطلق المسانيد، يراد بها (مسند) الإمام أحمد بن حنبل، وستعرفه في الفقهاء، و (مسند) أبي يعلى الموصلي، و (مسند) الدارمي، و (مسند) البزار.

وإذا أطلق المعاجم، يراد بها (المعجم الكبير) للطبراني، و (المعجم الأوسط) له، و (المعجم الصغير) له أيضاً.

أما أبو يعلى، فهو محدث الموصل أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الحافظ، صاحب السنن. (توفي) سنة سبع وثلاثمائة، وله سبع وتسعون سنة.

وأما الدارمي، فهو الإمام أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي الحافظ، عالم سمرقند، صاحب المسند. (توفي) سنة خمس وخمسين ومائتين.

وأما البزار، فهو أبو بكر أحمد بن عمرو البصري البزار، حافظ الوقت، صاحب (المسند الكبير). (مات) بالرملة سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

وأما الطبراني، فهو أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني الحافظ، مسند الدنيا بأصفهان. توفي سنة ستين وثلاثمائة، وله مائة سنة وشهران.

إذا عرفت هؤلاء الشيوخ المحدثين المتقدمين،فلنرجع الى المحدثين منهم وليس الري عن التشاف.

منهم أبو سليمان، أحمد بن محمد الخطابي البستي، الإمام المشار اليه في عصره، والعلامة فريد دهره في الفقه والحديث والأدب ومعرفة العرب. له التصانيف المشهورة والتأليفات العجيبة مثل:

١ ــ معالم السنن؛

٢ ــ وأعلام السنن؛

٣ ــ وغريب الحديث، وغير ذلك.

ومنهم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي، الواعظ ببغداد، صاحب التصانيف المشهورة. (ولد) سنة عشر وخمسمائة، و (مات) سنة سبع وسبعين وخمسمائة. وقد مر نبذ من مناقبه (في ذكر التواريخ).

ومنهم: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، أمام أهل زمانه. كان عالماً فاضلاً متورعاً فقيهاً محدثاً ثبتاً حجة. له مصنفات كثيرة مشهورة، وتأليفات عجيبة مفيدة في الفقه، مثل (الروضة)، وفي الحديث مثل (رياض الصالحين)، و (الأذكار في دعوات الليل والنهار)، وفي شرحه مثل (شرح مسلم)، وغير ذلك من معرفة الحديث واللغة.

سمع من المشايخ الكبار، ومنه خلق كثير، وأجاز رواية شرح مسلم والأذكار لجميع المسلمين. وكان من أهل نوى، قرية من أعمال دمشق، ونشأ بها، وحفظ الختمة، وقدم دمشق في خمسين وستمائة، وله تسع عشرة سنة، فتفقه وبرع. وكان خشن العيش، قانعاً بالقوت، تاركاً للشهوات، صاحب عبادة وخوف. وكان قوالاً بالحق، صغير العمامة، كبير الشأن. وكان كثير السهر مكباً على العلم والعمل. (مات) في رجب سنة ست وسبعين وستمائة، وقبره يزار بنوى. عاش خمساً وأربعين سنة.

ومنهم: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المشهور بابن الأثير، صاحب كتاب:

١ ــ جامع الأصول؛
٢ ــ ومناقب الأخيار،
٣ ــ والنهاية.

كان عالماً محدثاً لغوياً، روى عن خلق من الأئمة الكبار. كان بالجزيرة، وانتقل الى الموصل سنة خمس وستين وخمسمائة، ولم يزل بها الى أن قدم بغداد حاجاً. وعاد الى الموصل، ومات بها يوم الخمس سلخ ذى الحجة، سنة ست وستمائة. وقد مر نبذ من مناقبه ومناقب أخويه.

ومنهم: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، الفقيه الشافعي، صاحب كتاب:

١ ــ المصابيح؛
٢ ــ وشرح السنة؛
٣ ــ وكتاب التهذيب. في الفقه؛
٤ ــ ومعالم التنزيل في التفسير.

له من التصانيف الحسان. كان إماماً في الفقه والحديث، وكان متورعاً ثبتاً حجة، صحيح العقيدة في الدين. (مات) بعد المائة الخامسة في سنة ست عشرة وخمسمائة. وقد مر نبذ من مناقبه.

ومنهم: تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن موسى بن أبي نصر الكردري الشهرزوري، الشيخ العلامة ابن الصلاح. (ولد) سنة سبع وسبعين وخمسمائة. وهو أحد أئمة المسلمين علماً وديناً. سمع الحديث ببلاد كثيرة من المحدثين. وتفقه عليه خلائق، وكان إماماً كبيراً فقيهاً محدثاً زاهداً ورعاً مفيداً. استوطن دمشق، وتولى عدة مدارس بها. كان ماهراً في الحديث والتفسير والفقه ومشاركاً في فنون عديدة.

وذكر أن ابن الصلاح قال: ما فعلت صغيرة في عمري قط. وهذا فضل

من الله عظيم. (توفي) سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وازدحم الخلق على صلاته، فصلى أولاً بالجامع، وصلى أيضاً ثانياً، فدفنوه بقرب مقابر الصوفية. وقبره على الطريق في طرفها الغربي ظاهر يزار و يتبرك به. قيل: والدعاء عنده مستجاب.

ومنهم: **الصاغاني**، صاحب المشارق، وقد مر ذكره في علم اللغة.

ومنهم: **شمس الدين الكرماني**، شارح البخاري، وكذا العيني شارحه، (وكذا ابن حجر شارحه) الى غير ذلك. وقد مر هؤلاء.

أما الكرماني، فهو محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني، ثم البغدادي، شمس الدين، صاحب (شرح البخاري)، الإمام العلامة في الفقه والحديث والتفسير والأصلين والمعاني العربية. (ولد) يوم الخميس سادس عشر جمادي الآخرة، سنة سبع عشرة وسبعمائة، و (توفي) بكرة يوم الخميس سادس عشر المحرم، سنة ست وثمانين وسبعمائة. وقد مر نبذ من مناقبه في علم المعاني.

ومنهم: **الشيخ أكمل الدين**، شارح (المشارق)، وستعرفه؛ والشيخ ابن الملك، شارح (المشارق)، الى غير ذلك.

ومنهم: **النوربشتي**، شارح (المصابيح). هو رجل محدث فقيه من أهل شيراز، شرح مصابيح البغوي شرحاً حسناً، وروى صحيح البخاري عن عبد الوهاب بن صالح بن محمد بن المعزم، إمام الجامع العتيق، عن الحافظ أبي جعفر محمد بن علي، أنا أبو الخير محمد بن موسى الصفار أنا أبو الهيثم الكشميهني، أنا الفربري. قال ابن السبكي: وأظن هذا الشيخ (مات) في حدود الستين وستمائة، وواقعة التتار، أوجبت عدم المعرفة بكماله.

ومنهم **القاضي عياض**، صنف (كتاب الشفا في تعريف حقوق المصطفى) (صلى الله عليه وسلم)، وهو كتاب نفيس لم يؤلف مثله في بابه. هو أحد أركان الاسلام، وهو عالم المغرب، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن

عياض السبتي اليحصبي. كان ثقة ورعاً زاهداً عابداً متصلباً في الدين، قوي العقيدة، بعيداً عن البدع. (مات) سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وله ثمان وستون سنة. وسمعت من المشايخ أن الاشتغال بكتابه (الشفاء) في أيام الوباء نافع مفيد، رضي الله عنه.

واعلم أن هذا الذي ذكرناه، تبصرة لك، لتعرف لا أقل من هذا العلم، أسامي الأئمة والكتب، فان علماء عصرنا، ومحدثي زماننا، لا يعرفون من هذا العلم الا الاسم، ولا يعرفون من أصحابه الا الرسم، وكان عصر مشايخ الحديث خلاصة الأعصار، ودهرهم سلالة الدهور، وزينة الأزمان والأدوار، ثم انتقص هذا العلم قليلاً قليلاً، وصار رجاله في المعرفة عليلاً. ولا تزال العلوم تنمو وتزيد الى أن تصل الى منتهاها، وتبلغ الى مراتب هي أقصاها، ثم تعود كما بدأت. وستبصر صدق هذا المقال غداً. واليه أشار الحديث النبوي، على قائله أفضل الصلاة والسلام: «بدأ الاسلام غريباً وسيعود كما بدأ». ألا ترى أن غاية علم الحديث، أنتهت الى البخاري ومسلم ومن كان تلوهما، ثم تنزل وتقاصر الى زماننا هذا، وسيزداد تقاصراً، والهمم فتوراً، إن دام اشتغال الناس قصوراً. والله يقبض و يبسط ما يشاء، و يفعل ما قضاه، ويحكم ما يريد، وهو الحكيم المجيد.

الشعبة الخامسة

من العلوم الشرعية

علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام

وهو علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية، بإيراد الحجج عليها، ودفع الشبه عنها.

وموضوعه: ذات الله سبحانه وتعالى، وصفاته عند المتقدمين. وقيل: موضوعه الموجود من حيث هو موجود. وإنما يمتاز عن العلم الالهي الباحث عن أحوال الموجود المطلق، باعتبار الغاية، لأن الباحث في الكلام على قواعد الشرع، وفي الالهي على مقتضى العقول.

وعند المتأخرين، موضوع الكلام: المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً. وأرادوا بالدينية المنسوبة الى دين نبينا محمد صلوات الله عليه وسلامه، وذلك بأن يسلم المدعي منه، ثم يقام عليه البرهان العقلي، وهذا التسليم، هو معنى التدين اللائق بحال المكلفين، حتى لو لم يؤخذ منه، لا يعد كلاماً ولا علماً دينياً، وإن وافقه في الحقيقة، لفوات أمر التدين، بل يعد من العلوم الحكمية. وبالجملة يشترط في الكلام، أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل، وأن تكون العقيدة مما وردت في الكتاب والسنة، ولو فات أحد هذين الشرطين لا يسمى كلاماً أصلاً.

ولما لم يلزم من قصد موافقة الشرع، الموافقة في نفس الأمر، عد بعضهم كلام أهل الاعتزال من الكلام، وإن لم يوافق الكتاب والسنة. فظهر من هذا

التفصيل، أن الكلام من العلوم الشرعية، لكن إن كانت على طريقة الكتاب والسنة، وأن هناك كلاماً مموهاً يشبه الكلام، وليس بذاك، ككلام أهل الاعتزال وأمثاله، فذلك علم شرعي باعتبار مسائله، وعلم غير شرعي باعتبار دلائله.

ومنفعة علم الكلام: الفوز بالسعادة الأبدية، والسيادة السرمدية.

ومبادئه، العلوم الشرعية بأسرها، وكذا الصناعات المنطقية. وجعل بعضهم المنطق داخلاً فيه، لئلا يحتاج أعلى العلوم الشرعية الى علم غير شرعي، ولا حجر فيه، لأن أمر التدوين استحساني، ولكل أحد أن يعمل بما استحسنه طبعه، ومن قال: المنطق علم غير شرعي، إن أراد بذلك ما يخالف الشرع، فهذا من عدم الوقوف على المسائل المنطقية، وإن أراد أنه غير مأخوذ من الشرع صورة، فليس كذلك، إذ كم من أقيسة برهانية واردة في الشرع، وإن أراد أنه مما وضعته الفلاسفة مادة، فليس في ذلك نقص بعد، إن لم يخالف الشرع؛ مثلا علم الحساب الذي وضعته الفلاسفة، له مدخل عظيم في كثير من الأمور الشرعية، ولم يقدح فيه أحد من علماء الشريعة.

ثم ان المعتبر في علم الكلام اثبات ما ورد في العقل بالشرع فقط، إذا توقف الشرع على تلك المسألة، أو بالعقل والشرع معاً، إذا لم يكن كذلك. وأما إثبات ما لم يرد في الشرع أصلاً، فأما أن يخالف الشرع، فايراده في كتب الكلام ليس إلا لرده، وأما أن لا يخالفه، فايراده في كتب الكلام، إن وقع، فاستطرادي أورد لتتميم الصناعة إن وقع من مبادئه، وإلا فلا يورد فيه أصلاً.

ثم أعلم أن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان، أحدهما حنفي، والآخر شافعي.

أما الحنفي، فهو أبو منصور محمد بن محمود الماتريدي، إمام الهدى، له:

١ ــ كتاب التوحيد؛

٢ ــ وكتاب المقالات؛

٣ ــ وكتاب تأويلات القرآن.

وله كتب في الرد على المعتزلة والقرامطة والروافض، وله:

٤ ـــ كتاب مأخذ الشرائع، في أصول الفقه؛

٥ ـــ وكتاب الجدل في أصول الفقه.

(مات) بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وتخرج بأبي نصر العياضي.

وأما الآخر الشافعي، فهو شيخ السنة، ورئيس الجماعة، إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، والذاب عن الدين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين، **أبو الحسن الأشعري البصري،** إمام حبر، وتقي بر، منقي الصدور من الشبه، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، والمرتقي بأنوار اليقين من الوقوع في ورطات ما التبس، حامي جناب الشرع الشريف من الحديث المفتري، الذي قام في نصرة ملة الاسلام، فنصرها نصراً مؤزراً.

(ولد) سنة ستين ومائتين، وتبع أولاً مذهب الجبائي، واستمر على الاعتزال أربعين سنة، حتى صار للمعتزلة إماماً. فلما أراد الله نصر دينه، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ثلاث مرات، وكل ذلك يقول: أنصر المذاهب المروية عني فانها الحق، واعتذر في الثالثة بأني كيف أدع مذهباً تصورت مسائله، وعرفت دلائله منذ ثلاثين سنة، فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. لولا أني أعلم أن الله يمدك بمدد من عنده لما أمرتك به. ثم استيقظ وقال: فماذا بعد الحق إلا الضلال.

وأخذ في نصرة الأحاديث في الرؤية والشفاعة وغير ذلك، فأمده الله تعالى بمدد من عنده، وكان يفتح عليه من المباحث والبراهين، ما لم يسمعه من شيخ قط، ولا اعترف به خصم، ولا رآه في كتاب. فغاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، ثم خرج الى الجامع، وصعد المنبر، وقال: معاشر الناس، إنما تغيبت عنكم هذه المدة، لأني نظرت، فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء على شيء، فاستهديت الله تعالى، فهداني الى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب

كان عليه ورمى به. ودفع الكتب التي ألفها على مذاهب أهل السنة الى الناس.

وكانت المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رؤوسهم، فجرهم الأشعري، حتى دخلوا في أقماع السمسم. والصحيح أن وفاة الشيخ الأشعري، بين العشرين والثلاثين، والأقرب أنها سنة أربع وعشرين، ويقال سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة.

واعلم أن السلف من الفقهاء والمجتهدين، قد ينقل عنهم التكير في حق علم الكلام، حتى أن كثيراً من فقهاء عصرنا، أنكروا على المشتغلين بعلم الكلام أشد الانكار، متمسكاً بما ورد في ذلك عن العلماء الأخيار، حتى انزعج منه المحصلون، وشوشوا اعتقادهم في حق علم الكلام، فوجب علينا الكلام في الكلام، ليتميز كلام أهل السنة عن كلام العوام، وبيان ما وقع من الفتاوى من الأحكام، ودفع ما سبقت اليه الافهام من الأوهام، وبالله التوفيق والاعلام **فلننقل أولاً ما ورد عن المجتهدين من النقول، ثم نورد ما قيل ونقول.**

قال قاضي خان في (فتاواه)، في كتاب الحظر الاباحة: تعلم الكلام والنظر فيه. والناظرة به وراء قدر الحاجة منهي عنه، لما ورد عن حماد بن أبي حنيفة رحمه الله، أنه كان يتكلم في الكلام، فنهاه أبوه عن ذلك، فقال له حماد: رأيتك وأنت تتكلم، فما بالك تنهاني، فقال: يا بني كنا نتكلم وكل واحد منا كأن الطير على رأسه مخافة أن يزل صاحبه، وأنتم اليوم تتكلمون، كل واحد يريد أن يزل صاحبه، ومن أراد أن يزل صاحبه، فكأنه أراد أن يكفر، ومن أراد أن يكفر صاحبه، فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه.

روى يحيى بن شيبان عن أبي حنيفة (رحمه الله)، أنه قال. كنتَ رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام، فمضى وهو فيه أتردد، وبه أخاصم، وعنه أناضل، وكان أكثر أصحاب الخصومات بالبصرة، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة، أقيم سنة وأقل وأكثر، وكنت قد نازعت طبقات الخوارج من الأباضية وغيرهم،

وطبقات المعتزلة، وسائر طبقات أهل الأهواء، وكنت بحمد الله أغلبهم وأقهرهم. ولم يكن في طبقات أهل الأهواء (أحد) أجدل من المعتزلة، لأن ظاهر كلامهم مموه تقبله القلوب، وكنت أزيل تمويهم بمبدأ الكلام. وأما الروافض وأهل الارجاء الذين يخالفون الحق، فكانوا بالكوفة، أكثر، وكنت قهرتهم بحمد الله أيضاً. وكنت أعد الكلام أفضل العلوم وأرفعها، فراجعت نفسي بعدما مضى فيه عمر، وتدبرت، فقلت أن المتقدمين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والتابعين وأتباعهم، لم يكن يفوتهم شيء مما ندركه نحن، وكانوا عليه أقدر، وبه أعرف، وأعلم بحقائق الأمور، ثم لم يتهيأوا فيه متنازعين ولا مجادلين، ولم يخوضوا فيه، بل أمسكوا عن ذلك، ونهوا أشد النهي، ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه وكلامهم فيها، وعليها تجالسوا، واليها دعوا، وكانوا يطلبون الكلام والمنازعة فيها، و يتناظرون عليها، وعلى ذلك مضى الصدر الأول من التابعين وتبعهم، فلما ظهر لنا من أمورهم ذلك، تركنا المنازعة والخوض في الكلام، ورجعنا الى ما كان عليه السلف، وشرعنا فيما شرعوا، وجالسنا أهل المعرفة بذلك، مع أني رأيت ممن تنحل الكلام وتجادل فيه، قوماً ليس سيماهم سيماء المتقدمين، ولا منهاجهم منهاج الصالحين، رأيتهم قاسية قلوبهم، غليظة أفئدتهم، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة والسلف الصالح، فهجرتهم ولله الحمد. كذا ذكر الإمام ظهير الدين المرغيناني في مناقب الإمام الأعظم، ذكره في (كشف البزدوي).

وأما إنكار الإمام أبي يوسف، فقد ذكر في (فتاوى قاضي خان)، في فصل الاقتداء. وعن أبي يوسف رحمه الله: لا ينبغي للقوم أن يؤمهم صاحب خصومة في الدين، وإن صلى رجل خلفه جاز. قال الفقيه أبو جعفر: يجوز أن يكون مراد أبي يوسف، الذين يتاظرون في دقائق علم الكلام. وعن أبي يوسف رحمه الله: من طلب الدين بالخصومات فقد تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء فقد أفلس، ومن طلب غريب الحديث فقد كذب. ذكر في (الخلاصة) و (مجمع الفتاوى)، أنه أراد به كلام الفلاسفة، وكلام الخصومة.

فأما المناظرة على وجه الاظهار للحق، على ما قال عز وجل: ﴿ وجادلهم

بالتي هي أحسن﴾[1]، فلا كراهة فيها، بل هي المأمور بها. و يؤيده ما ورد في (التترخانية) في كراهية جماعة، الاشتغال بعلم الكلام. قال: وتأو يله عندنا أنه كره المناظرة والمجادلة، لأنها تؤدي الى اثارة الفتن والبدع وتشو يش العقائد، أو يكون الناظر فيه قليل الفهم، أو طالباً للغلبة لا للحق.

وأما معرفة الله تعالى، وتوحيده، ومعرفة النبوة، والذي ينظر فيه من العقائد؛ فلا يمنع عنها، وكان من فروض الكفاية. وقال في (فتاوى قاضي خان) عن أبي يوسف رحمه الله أيضاً، أنه دخل على هارون وعنده اثنان يتناظران في الكلام، فقال هارون لأبي يوسف: احكم بينهما، فقال أبو يوسف: إني لا أخوض فيما لا يعني، فقال الخليفة: أحسنت، وأمر له بمائة ألف درهم، وأمر أن يكتب في الديوان اسمه، أن أبا يوسف أخذ مائة ألف درهم بتركه ما لا يعني، ذكره في (خلاصة النوازل).

وقال في (غياث المفتي): رأيت بخط شمس الأئمة الحلواني، عن أبي يوسف رحمه الله أنه لا تجوز الصلاة خلف المتكلم، وإن تكلم بحق، فهو مبتدع، ولا تجوز الصلاة خلف المبتدع. فعرضت هذه الرواية على أستاذي، قال: تأو يله أن لا يكون غرضه اظهار الحق. قال رحمه الله: ما قاله أستاذنا، ما رأيت في تلخيص الإمام الزاهد ابراهيم بن اسماعيل الصفار: كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يكره الجدال على سبيل البحث، لا على سبيل الحق، حتى روى عن أبي يوسف رحمه الله، قال: كنا جلوساً عند أبي حنيفة، إذ دخل جماعة في أيديهم رجلان، فقالوا: إن أحد هذين يقول: القرآن مخلوق، وهذا ينازعه و يقول: إنه غير مخلوق، فقال أبو حنيفة: لا تصلوا خلفهما، فقلت: أما الأول فنعم، فانه لا يقول بقدم القرآن، وأما الآخر فما باله لا نصلي خلفه، قال أبو حنيفة: إنهما تنازعا في الدين، والمنازعة في الدين بدعة.

وأما الإمام مالك، فقد قال: لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء، قال بعض أصحابه: أراد بأهل الأهواء أهل الكلام، على أي مذهب كانوا.

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٥.

وأما الإمام الشافعي، فقد روي عنه أنه قال: لو يعلم الناس ما في علم الكلام من الأهواء، لفروا منه فرارهم من الأسد.

قال ابن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يوم ناظر حفصا القرد، وكان من متكلمي المعتزلة، يقول: لأن يلقى الله تعالى عبد بكل ذنب، ما خلا الشرك، خير له من أن يلقاه بشيء من الكلام. وقال أيضاً مغضباً لما سئل عن شيء من الكلام: سل عن هذا حفصاً القرد وأصحابه أخزاهم الله. قيل: لما مرض الشافعي رحمه الله، دخل عليه حفص القرد، فقال له: من أنا، قال: أنت حفص القرد، لا حفظك الله ولا رعاك، حتى تتوب مما أنت فيه. وقال أيضاً: حكمي في أهل الكلام، أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك السنة، وأخذ في الكلام. وقال أيضاً: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غيره، فاشهد أنه من أهل الكلام، ولا دين له. وقال أيضاً: قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط، ولأن يلقى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك، خير له من أن ينظر في الكلام.

وأما الإمام أحمد رحمه الله، فقد قال: لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا ترى أحداً ينظر في الكلام إلا وفي قلبه مرض. وبالغ في ذمه، حتى هجر الحارث المحاسبي، مع زهده وورعه، لتصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة، وقال له: ويحك، ألست تحكي بدعتهم أولاً وترد عليهم، ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالب كلام أهل البدعة والتفكر فيه، فيدعوهم ذلك الى الرأي والبحث، وقال أحمد أيضاً: علماء الكلام زنادقة.

إذا عرفت هذه النقول المروية عن العلماء المجتهدين، رضوان الله عليهم أجمعين، فاعلم أن الحق في هذا المقام، يتوقف على تعيين مباحث علم الكلام، ومعرفة ما يدور عليها من الأحكام. وقد عرفت أن علم الكلام باحث عن ذات الله تعالى وصفاته والنبوة والمعاد على قانون الاسلام، ولا يخفى أن هذه المسائل أصل العلوم الشرعية وأسها، ومبنى العلوم الدينية

وأساسها، بل هي تفصيل الايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر على وجه الايقان والاتقان، بل هذه هي المرادة بالايمان في حديث جبريل عليه السلام، حين سأل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم عن الايمان والاسلام والاحسان، على ما بيناه في صدر الرسالة.

ولا يخفى أن معرفة هذه المباحث على وجه الاجمال، فرض عين على كل مسلم، وعلى وجه التفصيل من فروض الكفاية، أو فرض عين، على الاختلاف في ذلك بين الحنفية والشافعية، فانه فرض كفاية عند الحنفية، وفرض عين عند الشافعية، فلا يجترىء أحد من المسلمين على منعه وتحريمه فضلاً عن العلماء المجتهدين، والفضلاء المتورعين، وإنما يتداخله الحرمة والكراهة، لأحد أمور ثلاثة: إما من جهة ادخال مسائل لا توافق الكتاب والسنة، كخلط مباحث الفلسفة المخالفة للكتاب والسنة؛ وأما من جهة إثبات مسائله، لا على وجه يوافق الكتاب والسنة، بل يجري على وفق العصبية والهوى، ككلام المعتزلة والمرجئة والروافض وأمثالهم؛ وأما من جهة أن علم الكلام له قوة قاهرة، وقدرة باهرة في دفع الخصوم، وقمع الأعداء، فلعله يداخل صاحبه العجب والهوى، من حيث لا يشعر، ولهذا يشترط أن لا يعلم العالم علم الكلام، الا بعد تزكية أخلاق المتعلم، واخلائه عن الهوى والبدعة، واشراب قلبه عقائد واردة في الكتاب والسنة تقليداً ثم يثبتها ببراهين واردة في علم الكلام.

فهذه آفات ثلاث، الأوليان منها خاصتان بعلم الكلام، والثالثة عامة له ولغيره، نجانا الله تعالى عن الآفات القادحة في الاعتقاد والقول والعمل، وتجاوز عنا وعنكم الخطأ والخطل، إنه الكريم المنان، والرحيم المستعان.

ولا يخفى أن الكلام المؤوف بالآفة الأولى، لا يكون كلاماً أصلاً، لما عرفت في تعريف علم الكلام أن العقائد لا بد وأن تؤخذ من الكتاب والسنة، فتسميته كلاماً نزاع لفظي، فلا مغمز في كلامنا بتحريمه والمنع عنه.

وأما الكلام المؤوف بالآفة الثانية، وإن كان داخلاً في الكلام، لكنه كلام مموه مذموم كما عرفت فيما سبق، فالطعن فيه والانكار، لا يضر كلامنا قطعاً.

وأما الكلام المؤوف بالآفة الثالثة، وإن كان مذموماً، لكن لا يختص بالكلام، فذمه بها من بين غيره من العلوم، لا يعرى عن العدول عن الانصاف وأيضاً هذا الذم ان كان، فانما يكون في الباحث عنه لا في العلم نفسه، إذ كم من عالم بالكلام، عار عن الهوى والعصبية، وكم من عالم بغيره من العلوم، متصف بهما، فأخذ الكلام بذلك، أخذ الجار بذنب الجار، وكأن لسان حال الكلام يقول في مقابلة هذا الملام:

غيرجنى وأنا المعاقب فيكم فكأنني سبابة المتندم

هذا ولعل ما وقع من الانكار من العلماء الأبرار، كان على الآفتين الأولين، لا على علم الكلام نفسه، وكيف لا، وعلماء الكلام قد شرطوا في الكلام الخلو عنهما.

وأما الآفة الثالثة، فلا اختصاص لها بالكلام أصلاً، فقد اتضح لديك أن نهى أبي حنيفة رحمه الله ابنه عن الكلام، كان لأجل الآفة الثانية، لأنه جعل سبب الحرمة الجدال واتباع الهوى، وكذا ما حكاه عن نفسه من المنازعة، فانما وقعت له مع الاعتزال والارجاء وأمثالهما، فالمذموم كلام أهل العصبية والهوى. وأما كفه نفسه آخراً عن الجدال معهم، مع أن الجدال بالتي هي أحسن مأمور به في الشرع فلافضائه الى الاشتغال به وراء قدر الحاجة، وذلك منهي عنه، لأن قدر الحاجة منه تأييد الكتاب والسنة بالأدلة العقلية، وليس وراءه الا المباحث الفلسفية، لأن علم الكلام يتاخم علم الحكمة ويجاوره، فربما يتجاوز الطالب بالافراط فيه الى المباحث الحكمية وهذه منهي عنها، لكن إن بحث عنها على وجه التسليم والقبول، (وأما البحث عنها لكونها مبادىء علم الكلام، أو لأجل ردها، فذلك منهي عنه، كما عرفت فيما سبق).

وأما قول أبي حنيفة: مع أني رأيت من تنحل بالكلام، وتجادل فيه، ليس سيماؤهم سيماء المتقدمين، ولا مناهجهم مناهج الصالحين، رأيتهم قاسية قلوبهم، غليظة أفئدتهم، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة؛ يدل دلالة صريحة على أنه أراد بالكلام المذموم كلام أهل الاعتزال الشائع في زمانه، وأما الكلام الذي

ظهر في العصر الأخير، بالمساعي الجميلة من جهة أبي الحسن الأشعري فكل الغرض فيه موافقة الكتاب والسنة واقتداء أهل السنة والجماعة، فكيف يسوغ القول بحرمته أو كراهته والحالة هذه.

على أن أبا حنيفة رحمه الله نفسه، تكلم في علم الكلام، مثل: (كتاب الفقه الأكبر)، و (كتاب العالم والمتعلم)، إذ صرح فيهما بأكثر مباحث علم الكلام، وما قيل أنهما ليسا له، بل لأبي حنيفة البخاري، فمن اختراعات المعتزلة، زعماً منهم أن أبا حنيفة على مذهبهم. وقد ذكر العلامة حافظ الدين البزازي في كتابه في مناقب أبي حنيفة: أني رأيت بخط العلامة مولانا شمس الدين الكروري البراتقيني العمادي هذين الكتابين، وكتب فيهما أنهما لأبي حنيفة. وقد تواطأ أيضاً على ذلك جماعة كثيرة من المشايخ، مثل فخر الاسلام البردوي، ذكرهما في أصوله؛ ومثل الشيخ عبد العزيز البخاري، ذكرهما في (شرح أصول فخر الاسلام). ثم قال حافظ الدين البزازي: والحاصل أن الامام بين العلماء كابراهيم بين الأنبياء عليهم السلام، لأن كل ملة تدعي أن الخليل كان على ذلك الدين. قال الله تعالى: ﴿ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾[1]، كذلك ما كان الامام معتزلياً ولا قدرياً، وانما كان سنياً حنيفياً، ومتبعوه كانوا حنيفيين. هذا كلامه.

وأما ما روي عن أبي يوسف: من طلب الدين بالخصومات فقد تزندق، فقد أراد به الآفة الأولى، كما فسره بذلك في (الخلاصة) و (مجمع الفتاوى)، حيث قال: أراد به كلام الفلاسفة. وأيضاً ما صدر عنه في مجلس هارون، أما كلام الفلاسفة أو كلام أهل الاعتزال، لا كلام أهل السنة والجماعة، لما ستعرفه من أن أهل عصره، كانوا على مذهب الاعتزال. وأما ما ذكر في (غياث المفتي)، من أن المتكلم بحق فهو مبتدع، فقد أولوه بأن لا يكون غرضه اظهار الحق.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٧.

وحاصله أن الكلام وان سلم عن الآفتين الأوليين، لكنه إذا لم يسلم عن الآفة الثالثة، يكون مبتدعاً أيضاً. وكذا ما روى أبو يوسف عن أبي حنيفة رحمه الله، أن المنازعة في الدين بدعة وان تكلم بحق، فقد أراد الحكم بالبدعة لمن له الآفة الثالثة.

وكذا حال ما روي عن الامام مالك. وأما الإمام الشافعي، فقد أراد أيضاً كلام أهل الأهواء، كما أشار اليه في ضمن كلامه، و يؤيده ذكر انكاره حفصاً القرد وهو من أئمة المعتزلة. وأما قوله: لأن يلقى الله عبد بأكبر الكبائر، خير له من أن يلقاه بعلم الكلام، فالظاهر أنه أراد الآفة الأولى، لأن أكبر الكبائر إذا كان خيراً منه، يكون الكلام شركاً، وكلام أهل السنة ليس فيه شرك، بل هو لدفع الشرك وقمعه، فلا يكون مراده الا كلاماً لا يوافق الكتاب والسنة، لا كلام أهل السنة والجماعة. وكذا الحال فيما روي عن الإمام أحمد.

وبالجملة فالكلام موضوع لاثبات الواجب لله تعالى وصفاته والنبوة والمعاد على قانون الاسلام، وغير ذلك من المباحث العقلية، والقوانين المنطقية، التي هي مبادىء لذلك.

ولا يخفى أن المباحث المذكورة، لتقوية الكتاب والسنة، لا لمخالفتهما، فلا حرمة أو كراهة فيهما، بل هي فرض، لأن بعض المباحث المذكورة فرض عين، كالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبعض آخر منها فرض على الكفاية كالمباحث الأخر، وأيضاً فيه حراسة العقيدة على العوام، وحفظها عن تشويشات المبتدعة، وهذه من فروض الكفايات، كالقيام بحراسة الأموال، وسائر الحقوق؛ كالقضاء والولاية وغيرهما، وليس في مجرد الطباع كفاية تحل شبه البدعة، ما لم تتعلم، فينبغي أن يكون التدريس فيه من فروض الكفايات، لكن ليس من الصواب تدريسه على العوام كتدريس الفقه والتفسير، فان الكلام مثل الدواء، والفقه والتفسير مثل الغذاء، وضرر الغذاء لا يحذر، وضرر الدواء محذور.

وإذا عرفت حال علم الكلام، فلا بد أن يكون المذموم عند الأئمة غيره؛

وذلك إما الفلسفة التي اشتبهت بالكلام؛ أو كلام أهل الاعتزال؛ أو كلام يداخل صاحبه العجب والهوى.

والأول حرام إن خالف الكتاب والسنة، وبدعة إن لم يخالفهما ولم يوافقهما أيضاً، اللهم إلا أن يجعل مبادىء لعلم الكلام.

والثاني بدعة وحرام لمخالفة الكتاب والسنة.

والثالث، أعني الكلام المقارن بالجدال، الباعث على العصبية والهوى، حرام أيضاً، إلا الجدال بالتي هي أحسن، كما عرفت.

ولا يخفى أن إنكار السلف، لا ينبغي أن يكون على كلام الأشاعرة والماتريدية، بل على كلام الفلاسفة وأهل الاعتزال، وعلى كلام أهل الجدال بالباطل، إذ الكلام الشائع في زمان الأئمة المجتهدين، هو كلام أهل الاعتزال والارجاء وأمثالها. وأما كلام أهل السنة والجماعة، فقد حدث بعد انقراضهم بزمان كثير.

وتفصيل ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، على عقيدة واحدة، لأنهم أدركوا زمان الوحي، وشرف صحبة صاحبه، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام، وهكذا الى زمن انقراض الصحابة رضي الله عنهم.

ولما مضى العلماء الذين يرجعون اليهم في المضايق، ترأس الناس كلهم لائقاً وغير لائق، وأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

ولما صار حدود المائة من الهجرة، وانقضى الصدر الأول من الصحابة ظهر بين الناس الجدال والمراء والعصبية والهوى، وظهر تشويش عقائد المسلمين، وخرم نظام الدين، وتشعب مسالك الاسلام، واشتبه الصحة بالسقام، حتى أن رجلاً قال لابن عمر، رضي الله عنهما: ظهر في زماننا رجال يزنون، و يسرقون، و يشربون الخمر، و يقتلون النفس التي حرم الله، ثم يحتجون علينا، و يقولون: كان ذلك في علم الله، فغضب ابن عمر، وقال: سبحان الله كان ذلك في علم الله، ولم يكن علمه يحملهم على المعاصي.

وأيضاً، وأتى عطاء بن يسار ومعبد الجهني، الحسن البصري، وقالا يا أبا سعيد، هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين، و يأخذون أموالهم، و يقولون: إنما تجرى أعمالنا على قدر الله تعالى. وقالت جماعة أخرى: وظهر أيضاً طائفة يكفرون مرتكب الكبيرة، وطائفة أخرى يقولون: لا يضر مع الإيمان كبيرة، وسأل رجل منهم الحسن عن حال هاتين الطائفتين، فقبل أن تكلم الحسن، قال واصل بن عطاء: أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، وأثبت منزلة بين المنزلتين، وأصر على ذلك، حتى طرده الحسن عن مجلسه، فاعتزل عنه، وجلس اليه عمرو بن عبيد، فسموا المعتزلة.

يقال أن الذي سماهم بهذا قتادة بن دعامة السدوسي. وهو أبو الخطاب، قتادة بن دعامة السدوسي البصري الأكمه، كان تابعياً وعالماً كبيراً. وكان يدور البصرة أعلاها وأسفلها بغير قائد، فدخل مسجد البصرة، فاذا بعمرو بن عبيد ونفر معه، فأمهم وهو يظن أنها حلقة الحسن البصري، فلما عرف أنها ليست هي، فقال: إنما هؤلاء المعتزلة، ثم قام عنهم. فمذ يومئذ سموا المعتزلة. (ولد) سنة ستين، وتوفي سنة سبع عشرة ومائة، وقيل سنة ثمان عشرة ومائة.

وهكذا كان الخلاف يتدرج و يقوى شيئاً فشيئاً الى آخر أيام الصحابة، حتى ظهر معبد الجهني. وغيلان الدمشقي، و واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، و يونس الأسواري، وخالفوا في القدر، واسناد جميع الأمور الى تقدير الله تعالى، وهلم جرا، الى أن ظهرت قواعد الاعتزال، ونشأت مذاهب الضلال، حتى تفرق أهل الاسلام الى ثلاث وسبعين فرقة.

وهكذا تشعبت المذاهب وظهرت الأهواء لا سيما مذهب الاعتزال، لأنه مذهب مبني على الظواهر والأوهام، فتميل اليه طباع العوام. وما بقي من سلم من هذه المذاهب الباطلة الا شرذمة قليلة من خواص العلماء والسلف الصالحين، ممن عصمهم الله عن الزيغ والطغيان، وأولئك من حزب طائفة لا يزالون ظاهرين على الحق الى يوم القيامة.

وأول ما ظهر مذهب الاعتزال وشاع، إنما ظهر من واصل بن عطاء.

أخذ الاعتزال عن الإمام أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب. قيل: كان أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه، كان الإمام أبو هاشم المذكور، وأخوه الإمام الحسن بن محمد بن الحنفية، قال برهان الدين الحلبي: في (شرح شفاء قاضي عياض): أن هذا الرجل، وهو الحسن بن محمد ابن الحنفية، كان أول المرجئة، وله فيه تصنيف.

لكن ظهر واشتهر من واصل بن عطاء، أبي حذيفة المعتزلي، المعروف بالغزال، مولى بني ضبة أو بني مخزوم. ولم يكن غزالاً، بل كان يلزم الغزالين ليعرف المتعففات من النساء، فيجعل صدقته لهن. وكان ألثغ بالراء قبيح اللثغة، وكان يجعلها غيناً. إلا أنه كان يسقط الراء عن كلامه، مع طول خطبه وكثرتها، حتى لم يشعر بها كثير من الناس، وذلك من غاية فصاحته وقدرته على الكلام، حتى قيل فيه:

نعم تجنب لا يوم العطاء كما   تجنب ابن عطاء لفظة الراء

وأكثر من هذا المعنى الشعراء في أشعارهم.

ثم إن واصلاً جالس الحسن البصري، بعد الإمام أبي هاشم المذكور، يأخذ منه الفقه. ثم ترك مجلس الحسن البصري، وجلس اليه عمرو بن عبيد، وانتحلوا بنحلة أخرى، فسموا المعتزلة كما مر.

ولد واصل سنة ثمانين، وتوفي سنة احدى وثلاثين ومائة، وهو ومعبد الجهني كانا مبدأ مذهب الاعتزال.

وأما الحسن البصري، فهو من سادات التابعين وكبرائهم. وهو الحسن بن أبي الحسن يسار. وأبوه يسار، كان مولى زيد بن ثابت الأنصاري. واسم أمه خيرة، وهي مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم.

قيل: ولد الحسن على الرق، وكانت أمه خيرة ربما غابت، فيبكي الحسن، فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به الى أن تجيء أمه، فدر عليه ثديها، فشربه، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك اللبن، ومن دخول ثدي مبارك

مس بشرة النبي صلى الله عليه وسلم فمه. وكان يتشبه برؤبة ابن العجاج في عربية وفصاحة وهجة.

قيل: وكان تكلم في شيء من القدر فرجع عنه. ثم أنكر عليه أشد الانكار. جمع العلم الى الزهد والورع والعبادة. وكان من أجمل أهل البصرة حين سقط عن دابته، فحدث بأنفه ما حدث. وقيل: ما رأيت أعرض زنداً من الحسن، كان عرضه شبراً.

(ولد) لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، و (توفي) بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومائة. ومات محمد بن سيرين بعده بمائة يوم. ولم يشهد ابن سيرين جنازته لشيء كان بينهما. وكان واصل بن عطاء من تلامذته، وقد تقدم سبب اعتزاله عن مجلسه. ومن جملة تلامذته معبد الجهني. وصار هو رئيس أهل الاعتزال بعد الحسن، وصار إمام المعتزلة بعد واصل.

ومنهم أبو عثمان عمرو بن عبيد المتكلم المعتزلي الزاهد المشهور، وكان آدم مربوعاً، بين عينيه أثر السجود. أخذ علم الأصول أولاً عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، ثم آخراً عن واصل. وأخذ الفقه والحديث عن الحسن. وكان عمرو من أعلم الناس بأمر الدين، إلا أن الناس لا يرضون باجتهاده لاعتزاله. وكان إماماً مجتهداً، صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين عاماً، وحج أربعين سنة ماشياً، وكان يحيى ليله في ركعة واحدة.

(ولد) سنة ثمانين، وتوفي سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو ثمان وأربعين ومائة. وله:

١ ــ كتاب التفسير، عن الحسن البصري؛
٢ ــ وكتاب الرد على القدرية؛
٣ ــ وكتاب في العدل والتوحيد.

ومن أئمة المعتزلة، أبو مروان غيلان بن مسلم الدمشقي، من أصحاب الحسن البصري في الفقه، وله أتباع يقال لهم: الغيلانية. كان قبطياً قدرياً، لم

يتكلم أحد في القدر قبله، ودعا اليه، الا معبد الجهني. قال الأوزاعي: أول من تكلم في القدر معبد الجهني ثم غيلان بعده. وأخذ غيلان هشام بن عبد الملك فصلبه بباب دمشق. يقال أن ذلك بدعوة عمر بن عبد العزيز. وهؤلاء من مشاهير أئمة المعتزلة.

وهكذا أخذ مذهب الاعتزال خلف عن سلف، الى أن حدث أبو علي الجبائي. وهو محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان. وحمران مولى عثمان بن عفان. وأبو علي الجبائي أحد أئمة المعتزلة، أخذ علم الكلام عن أبي يوسف، يعقوب بن عبدالله الشحام البصري، رئيس لمعتزلة في عصره بالبصرة. (ولد) الجبائي سنة خمس وثلاثين ومائتين، و (توفي) سنة ثلاث وثلاثمائة.

وأخذ علم الكلام عن الجبائي، شيخ السنة، أبو الحسن الأشعري البصري، مقتدي طريقة أهل السنة والجماعة، إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين والذاب عن الدين المتين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين. وقد مر نبذ من مناقبه فيما سبق. ودام هذا الإمام على مذهب الاعتزال مدة أربعين سنة، ولما أراد الله نصر دينه، ألهمه طريق الحق في رؤياه ثلاث مرات، كما عرفت تفصيله، فقام بنصرة طريقة أهل السنة والجماعة في حدود الثلاثمائة من الهجرة، حتى أنه تناظر مع الجبائي يوماً، وسأله عن ثلاثة أخوة ماتوا، الأكبر منهم مؤمن برتقي: والأوسط كافر فاسق شقي؛ والأصغر مات على الصغر ولم يبلغ الحلم، فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات؛ وأما الكافر ففي الدركات، بناء على أن ثواب المطيع وعقاب العاصي. واجبان على الله تعالى عندهم؛ وأما الصغير فمن أهل السلامة لا يثاب ولا يعاقب: فقال الأشعري: أن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر في الجنة، قال الجبائي: يقول الله تعالى: الدرجات ثمرة الطاعات؛ قال الأشعري: فان قال الصغير: ليس مني النقص والتقصير، فانك ان أبقيتني الى أن أكبر، لأطعتك ودخلت الجنة، قال الجبائي: يقول الباري تعالى: قد كنت أعلم منك، أنك لو بقيت، لعصيت ودخلت العذاب الأليم في دركات الجحيم، فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً: فقال

الأشعري: أن قال العاصي المقيم في العذاب الأليم، منادياً من بين دركات النار وأطباق الجحيم: يا إله العالمين، ويا أرحم الراحمين، لم راعيت مصلحة أخي دوني، وأنت تعلم أن الأصلح لي أن أموت صغيرا، ولا أصير في السعير أسيرا، فماذا يقول الرب. فبهت الجبائي في الحال، وانقطع عن الجدال.

إذا عرفت هذا التفصيل، فاعلم أن مبدأ شيوع الكلام، كان بأيدي المعتزلة والقدرية، في حدود المائة من الهجرة. وقد ثبت في التواريخ الصحاح، أن إحياء طريقة السنة والجماعة، كان في حدود الثلاثمائة من الهجرة، لأن ظهور الاعتزال، كان من جهة واصل بن عطاء وكان (وفاته) في إحدى وثلاثين ومائة، وولادته في سنة ثمانين، فيصير زمان طلبه العلم، وقدرته على الاجتهاد، في حدود المائة تقريباً. وظهر أيضاً مذهب أهل السنة والجماعة، بالسعي الجميل، والاقدام المشكور، من جهة أبي الحسن الأشعري، في حدود الثلاثمائة، إذ كانت ولادته سنة ستين ومائتين، ودام على الاعتزال أربعين سنة. فيكون علم الكلام بأيدي المعتزلة مائتي سنة، ما بين المائة والثلاثمائة.

وقد صح في كتب التواريخ المعتمد عليها، أن ولادة أبي حنيفة سنة ثمانين، ووفاته سنة خمسين ومائة، فيكون مدة عمره في زمن شيوع الاعتزال. وكذا مدة عمر أبي يوسف ومحمد رحمهما الله، لأن أبا يوسف رحمه الله، ولد سنة ثلاث عشرة ومائة، وتوفي سنة اثنتين وثمانين ومائة؛ ومحمداً ولد سنة إحدى وثلاثين ومائة، وتوفي وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

وكذا مولد الإمام مالك سنة أربع أو ثلاث وتسعين، أو سنة تسعين، وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة، وله أربع وثمانون، أو تسعون سنة.

وكذا مولد الامام الشافعي سنة خمسين ومائة، وقيل: ولد في اليوم الذي توفي فيه أبو حنيفة رحمه الله، وتوفي أخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين.

وكذا الإمام أحمد بن حنبل، ولد سنة أربع وستين ومائة، وتوفي سنة إحدى وأربعين ومائتين.

فظهر من هذا التفصيل، أن واحداً منهم لم يبلغ زمن ظهور الكلام بأيدي أهل السنة والجماعة، بل مضت مدتهم زمن ظهور الاعتزال. ولعل الله سبحانه وتعالى قدر وجودهم في زمن أرباب الأهواء، لتندفع بنورهم ظلم البدع عن الدين، وتمتاز بحسن شعائرهم أركان الشرع وأساس اليقين، سيما وقد وقع بشر ابن غياث المريسي: وهو الذي جدد القول بخلق القرآن، وكان يقول بالارجاء، من تلامذة أبي يوسف.

وكان مسلم بن خالد، الذي كان من مشايخ الشافعي بمكة، كان من تلامذة غيلان بن مسلم الذي هو رئيس أهل الاعتزال، كما مر. وأيضاً كان حفص الفرد، الذي هو من ضلال أهل الاعتزال، مناظراً له، كما ذكرناه. ولا سيما قد جرى على أحمد بن حنبل واقعة عظيمة، في سنة الداهية الدهياء والمصيبة العمياء، من جهة الأمة النكراء. وكان ذلك بسبب القاء أحمد بن دؤد لمأمون القول بخلق القرآن، وحسنه عنده، وأراه إياه حقاً، حتى تبعه المأمون، وأقاموا فتنة عظيمة سنة ثمان عشرة ومائتين، فأجابه طائفة خوفاً من السيف، منهم يحيى بن معين، وامتنع آخرون، منهم أحمد بن نصر الخزاعي حتى قتلوه، والإمام أحمد بن حنبل حتى ضربوه بالسياط. وستعرف تفاصيل هذه الواقعة إن شاء الله تعالى.

ولو رأت هذه الأئمة أبا الحسن الأشعري، أو سمعوا مقالته، لأنزلوه منزلة أحب أبنائهم، وجعلوا أتباع طريقته أساس إيمانهم، فضلاً عن الانكار، والعدول عن فضيلة الاقرار.

ومما يدل على حقية مذهبه، ارتضاء من يخلف بعده من العلماء والفضلاء أساطين الحكمة، ورؤساء الكلام، بل المشايخ العارفون من أهل التصفية والذوق. ولم ينقل عن واحد من هؤلاء، من مبدأ ظهور الأشعري، الى زماننا هذا، وهو ثمان وأربعون وتسعمائة من الهجرة، إنكار شيء من مذهبه ولو في شيء قليل.

ولا شك أن اتفاق الأمة، والمدة هذه، (على الضلال، من قبيل المتنع

والمحال). وإنما العجب من بعض الفقهاء، حيث رأى الانكار عن السلف الابرار، وجعل الانكار لازماً لعلم الكلام، ولم يعرف تفاوت الأحكام، بتفاوت الأحوال والأعوام، حتى أن بعضاً منهم حكموا بأن العلماء إذا أطلقوا، لم يدخل فيهم علماء الكلام؛ وهذا القائل، إن أراد أن المتبادر من الاطلاق في العرف، هو الفقهاء لا غير، فذاك، وإلا فان أراد بأنهم ليسوا بعلماء على التحقيق، فقد عدل عن سواء الطريق. وكيف لا يعد الباحث عن الله وصفاته وأحوال النبوة والمعاد على قانون الاسلام من العلماء، وهم يعدون الباحث عن أحوال المكلفين منهم، مع أن التفاوت بينهما، من أين الى أين، سيا وقد نقل ابن السبكي عن والده، من أن الصواب دخول المتكلمين في العلماء، إذا كانوا متكلمين على قوانين الشرع، وأيضاً حكم بدخول الصوفي في العلماء، إذا كان كذلك. وقال: وهذا هو الرأي السديد عندنا. فان قلت: السبكي شافعي، قلت: هذه المسألة ليست مما يتعلق بالخلافيات.

وإذا انتهى الكلام الى هذا المقام، فلا علينا أن نذكر مما جرى من المحنة بسبب مسألة خلق القرآن، لأن ذلك مصيبة عظيمة في الدين، يكون ذكرها عظة عظيمة للمعتبرين، وموجباً لازدياد صبر المحن من العلماء، وباعثا لشكرهم على ما هم عليه من الابتلاء.

كان القاضي أحمد بن أبي دؤاد، ممن نشأ في العلم وتضلع بعلم الكلام، وصحب فيه هياج بن العلاء السلمي، صاحب واصل بن عطاء، أحد رؤساء المعتزلة. وكان ابن أبي دؤاد رجلاً فصيحاً. قال أبو العيناء: ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق منه. كان كريماً ممدحاً. وكان معظماً عند أمير المؤمنين المأمون، يقبل شفاعاته، ويصغي الى كلامه وأخباره، فدس ابن أبي دؤاد للمأمون القول بخلق القرآن، وحسنه عنده، وصيره يعتقده حقاً مبيناً، الى أن أجمع رأيه في سنة ثمان عشرة ومائتين على الدعاء اليه، وقد كان ابتداء بالكلام فيها في سنة اثنتي عشرة، ولكن لم يصمم. فكتب الى نائبه على بغداد اسحاق ابن ابراهيم الخزاعي، ابن عم طاهر بن الحسين، في امتحان العلماء، كتاباً يقول فيه: وقد عرف أمير المؤمنين، أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو

الرعية وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، أهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه، وقصدوا أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، وذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه، وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ولم يخترعه، وقد قال تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾[1]، فكل ما جعله الله فقد خلقه، كما قال: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾[2]: وقال: ﴿نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾[3] فأخبر أنهُ قصص لأمور أحدثها؛ وقال: ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾[4]، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه. ثم انتسبوا الى السنة وأنهم أهل الحق والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر، فاستطالوا بذلك، وأغروا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله، الى موافقتهم، فنزعوا الحق الى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة الى ضلالهم... الى أن قال: فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة المنقوصون حظاً، أوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان ابليس الناطق في أوليائه على أعدائه من أهل دين الله. وأحق أن يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا يوثق به، من عمى عن رشده، وحظه من الايمان والتوحيد، وكان عما سوى ذلك أعمى وأضل سبيلاً. ولعمر أمير المؤمنين، أن أكذب الناس، من كذب على الله ووحيه، وتخرص الباطل، ولم يعرف الله حقيقة معرفته. فأجمع من بحضرتك من القضاة، فاقرأ عليهم كتابنا، وامتحنهم فيما يقولون، واكشفهم عما يعتقدون في خلق الله وأحداثه، وأعلمهم أني غير مستعين في عمل ولا واثق بمن لا يوثق بدينه. فاذا أقروا بذلك ووافقوا، فاكتب الينا ذلك. وكتب المأمون اليه أيضاً في أشخاص سبعة أنفس، وهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة، وأبو مسلم مستملي يزيد ابن هارون، واسماعيل بن داود، واسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن ابراهيم الدورقي، فأشخصوا اليه، وامتحنهم بخلق القرآن، فأجابوه، فردهم من الرقة الى

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣.
(٢) سورة الأنعام، آية ١.
(٣) سورة طه، آية: ٩٩.
(٤) سورة هود، آية: ١.

بغداد، وسبب طلبهم أنهم توقفوا أولاً، ثم أجابوه تقية، وكتب الى اسحاق بن ابراهيم أن يحضر الفقهاء ومشايخ الحديث، ويخبرهم بما أجاب هؤلاء السبعة، ففعل ذلك، فأجابه طائفة، وامتنع آخرون، فكان يحيى بن معين وغيره يقولون: أجبنا خوفاً من السيف. ثم كتب المأمون أخرى، وأمر بإحضار من امتنع، فأحضر جماعة، منهم: أحمد بن حنبل، وبشر بن الوليد الكندي، وأبو حسان الزنادي، وعلي بن أبي مقاتل، والفضل بن غانم، وعبيدالله بن عمر القواريري، وعلي بن الجعد، وسجادة، وقتيبة بن سعيد، ومحمد بن نوح العجلي، ويحيى بن عبد الرحمن العمري، وأبو نصر التمار، ومحمد بن حاتم بن ميمون، وغيرهم، فعرض عليهم كتاب المأمون ولم يجيبوا ولم ينكروا، ولما ألحوا عليهم قالوا: كلام الله ولا نزيد على هذا، وقال بعضهم: القرآن مجعول ومحدث، وقال أسحاق: والمجعول مخلوق، قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق، قال: لا أقول مخلوق.

ثم وجه بجواباتهم الى المأمون، فورد عليه كتاب المأمون، بلغنا أجوبة متصنعة أهل القبلة، وملتمسو الرئاسة، فيما ليسوا له بأهل، فمن لم يجب أنه مخلوق، فامنعه من الفتوى والرواية والقول في الكتاب، وأما بشر وابن المهدي أن أجابا وتابا، فأشهر أمرهما، والا فاضرب عنقهما، ومن لم يرجع عن شركه ممن عداهما، فاحملهم موثقين الى عسكر أمير المؤمنين ليسألهم، فان لم يرجعوا، أحملهم على السيف.

قال: فأجابوا كلهم عند ذلك، إلا أحمد بن حنبل وسجادة ومحمد بن نوح والقواريري، فقيدوا، ثم سألهم اسحاق من الغد، فأجاب سجادة، ثم عاودهم ثالثاً فأجاب القواريري، ووجه بأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الى طرسوس، فبلغهم وفاة المأمون.

ومات محمد بن نوح في الطريق، وسلم أحمد بن حنبل، إلا أن المأمون قد كتب وصية ضمنها تحريض الخليفة بعده على حمل الخلق على القول بخلق القرآن، ثم توفي في رجب، ودفن بطرسوس.

واستقل المعتصم بالخلافة، فكان من سعادة المأمون موته قبل أن يحضر أحمد ابن حنبل الى بين يديه، فلم يكن ضربه على يديه. قال أحمد بن حنبل: تبينت الاجابة في دعوتين: دعوتي أن لا يجمع الله بيني وبين المأمون، وكان كذلك، ودعوتي أن لا أرى المتوكل، فكان كذلك. ولما أحضر أحمد دار الخلافة ليحدث ولد المتوكل، قعد المتوكل في خوخة حتى نظر الى أحمد، ولم يره أحمد.

قيل: أول من امتحن بخلق القرآن عثمان بن مسلم الحافظ، ولما امتنع قيل له: قد قطعنا عطاءك، وكان ألف درهم في كل شهر، فقال: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾، وكان عنده عائلة كبيرة، فدق عليه الباب داق في ذلك اليوم لا يعرف، وقال: خذ هذه الألف، ولك عندي ألف كل شهر يا أبا عثمان، ثبتك الله كما ثبت الدين.

قال أحمد: فلما كان رمضان سنة تسع عشرة، حبسني اسحاق بن ابراهيم في داره، ثم نقلني بعد ذلك الى حبس العامة، فمكثت فيه نحواً من ثلاثين شهراً، ثم حملت الى دار اسحاق، فقال: يا أحمد، والله لا يقتلنك أمير المؤمنين بالسيف، ولكن آلى ان لم تجبه، أن يضربك ضرباً بعد ضرب، وأن يقتلك في موضع لا ترى فيه شمس ولا قمر. قال: فسكت، ثم صرنا الى الموضع المعروف بباب البستان، حملت على دابة، فكدت أخر على وجهي غير مرة، لثقل القيود علي، فأدخلت حجرة، وأدخلت الى بيت، وأقفل الباب علي، وذلك في جوف الليل، وليس في البيت سراج، فأردت أن أتمسح للصلاة، فمددت يدي، فإذا بأناء فيه ماء وطست موضوع، فتوضأت وصليت. فلما كان من الغد، خرجت تكتي من سراويلي، وشددت بها الأقياد أحملها، وعطفت سراويلي، فجاء رسول المعتصم، فأخذ بيدي وأدخلني عليه، والتكة في يدي، فاذا هو جالس وابن أبي دؤاد حاضر معه خلق كثير من أصحابه.

قال لي ــ يعني المعتصم ــ: ادنه ادنه، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه، ثم قال لي: اجلس، فجلست، ثم دعاني الى البدعة، وطال الكلام بيننا. وبالجملة دعا المعتصم أحمد مرتين في مجلسين، وهو يدعوه الى البدعة، وأحمد رضي الله عنه يأبى عليه أشد الاباء، والكلام فيه يطول.

قال أحمد: ولما كانت الليلة الثالثة، طلبت من بعض الموكلين بي خيطاً، فشددت به الأقياد، ورددت التكة الى سراويلي، قلت: خليق أن يحدث غداً من أمري شيء، فأتوا، فأدخلت في الغد داراً غاصاً بالناس، ثم الى أخرى، ثم الى أخرى. فاذا هناك قوم معهم السيوف، وقوم معهم السياط، وغير ذلك، فجعلوا يناظروني، وجعل يتكلم هذا وأرد عليه، ثم وثم، وجعل صوتي يعلو أصواتهم. ثم أمر المعتصم فسحبت ثم خلعت، فوجدوا في كمي شيئاً فيه شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرتهم به، فأراد القوم حرق قميصي، فمنع المعتصم، فنزعوه لذلك الشعر، ثم جيء بالعقابين والسياط.

قيل: فلما رأى المعتصم ثبوته وصلابته في أمره، لان في أمره، حتى أغراه ابن أبي دؤاد، وقال: إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، فهاجه ذلك على ضربه، فضربه السياط سوطين، ثم يتنحى و يتقدم الآخر و يضربه سوطين، كل ذلك يقول أحمد: شد قطع الله يدك، وهكذا، حتى ضربوا تسعة عشر سوطاً، فقام المعتصم، فقال: يا أحمد، علام تقتل نفسك، أني والله عليك لشفيق، وجعل بعض الناس يقول: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم، و يقول بعضهم: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع، وقال بعضهم: أقتله يا أمير المؤمنين، دمه في عنقي، كل ذلك يقول أحمد: أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فرجع المعتصم وجلس، وقال للجلاد: تقدم وأوجع قطع الله يدك، ثم قام الثانية، فجعل يقول: ويحك يا أحمد أجبني، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله، فرجع وقال للجلادين: تقدموا، فجعل الجلاد يتقدم و يضربه سوطين و يتنحى، وفي خلال ذلك يقول المعتصم: شد قطع الله يدك.

قال ابنه صالح: قال أبي: فذهب عقلي، فأفقت بعد ذلك، فاذا الأقياد قد أطلقت عني، وأتوني بسويق، فقيل لي: اشرب وتقيأ، فقلت: لا أفطر، ثم جيء بي الى دار اسحاق بن ابراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم ابن سماعة وصلى، فلما انفتل من الصلاة، قال: صليت والدم يسيل في ثوبك، فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً.

قال ابنه صالح: ثم خلى عن أبي، فصار الى منزله، وكان مكثه في السجن وضربه الى أن خلى عنه ثمانية وعشرين شهراً.

وروي أنه لما ضرب سوطاً قال: بسم الله، فلما ضرب الثاني قال: لا حول ولا قوة الا بالله، فلما ضرب الثالثة قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضرب الرابعة قال: قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا، فضربه تسعة وعشرين سوطاً، وكانت تكة أحمد حاشية ثوب فانقطعت، فرمى بطرفه الى السماء، وحرك شفتيه، فما كان بأسرع من ثبوت السراويل على حالته لم يتزحزح.

قال الراوي: فدخلت عليه بعد سبعة أيام، فسألته: ما الذي قلت حين حركت شفتيك، قال: قلت: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش، إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي ستراً؛ وفي رواية قال: قلت: الهي وسيدي، وقفتني هذا الموقف، فلا تهتكني على رؤوس الخلائق.

وروي أنه كان كلما ضرب سوطاً أبرأ ذمة المعتصم، فسئل فقال: كرهت أن آتي يوم القيامة فيقال: هذا غريم ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم أو رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. فهذا مختصر من حال الإمام أحمد في المحنة.

وأما الأستاذ أحمد بن نصر الخزاعي ذو الجنان واللسان، والثبات عند اضطراب المهند والسنان، كان شيخاً جليلاً قوالاً بالحق، أماراً بالمعروف، نهاء عن المنكر، وكان من أولاد الأمراء، وكانت محنته على يد الواثق. قال له: ما تقول في القرآن، قال: كلام الله، وأصر على ذلك غير متلعثم، فقال بعض الحاضرين: هو حلال الدم، فقال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين، شيخ مختل، لعل به عاهة وتغير عقل، يؤخر أمره و يستتاب، فقال الواثق: ما أراه إلا مؤذناً لكفره، قائماً بما يعتقده منه، ثم دعا بالصمصامة، وقال: إذا قمت اليه فلا يقومن أحد معي، فإني أحتسب خطئي الى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها. ثم أمر بالنطع وأجلس عليه وهو مقيد، وأمر بشد رأسه بحبل، وأمرهم أن يمدوه، ومشى اليه فضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه

الى بغداد فنصب بالجانب الشرقي أياماً، وفي الجانب الغربي أياماً، وتتبع رؤوس أصحابه فسجنوا.

قال الحسن بن محمد الحربي: سمعت جعفر بن محمد الصائغ يقول: رأيت رأس أحمد بن نصر بعد ضرب عنقه يقول: لا اله إلا الله. روي عن أبي العباس بن سعيد يقول: لم يصبر في المحنة الا أربعة كلهم من أهل مرو: أحمد ابن حنبل، وأحمد بن نصر الخزاعي المضروب عنقه، ومحمد بن نوح بن ميمون المضروب، ونعيم بن حماد قد مات في السجن مقيداً.

وهذه نسخة الرقعة المعلقة في أذن أحمد بن نصر بن مالك: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبدالله الامام هارون، وهو الواثق بالله أمير المؤمنين، الى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى الا المعاندة، فجعله الله الى ناره، وكتب محمد بن عبد الملك.

ومات محمد بن نوح في فتنة المأمون، والمعتصم ضرب أحمد بن حنبل، والواثق قتل أحمد بن نصر بن مالك، وكذلك نعيم بن حماد.

ولما جلس المتوكل، دخل عليه عبد العزيز بن يحيى المكي، فقال: يا أمير المؤمنين، ما رؤي أعجب من أمر الواثق، قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن الى أن دفن، قال: فوجد المتوكل من ذلك، وساءه ما سمعه في أخيه، إذ دخل عليه محمد بن عبد الملك الزيات، فقال له: يا بن عبد الملك، في قلبي من قتل أحمد بن نصر، فقال: يا أمير المؤمنين، أحرقني الله بالنار ان قتله أمير المؤمنين الواثق الا كافراً، وقال هرثمة: قطعني الله إرباً إرباً ان قتله أمير المؤمنين الواثق الا كافراً، وقال أحمد بن أبي دؤاد: ضربني الله بالفالج إن قتله أمير المؤمنين الواثق الا كافراً.

قال المتوكل: أما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فاجتاز بقبيلة خزاعة، فعرفه رجل فقال: يا معشر خزاعة، هذا الذي قتل أحمد بن نصر، فقطعوه إرباً إرباً، وأما أحمد بن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده.

وقد طال أمر هذه الفتنة، وطار شررها، واستمر من سنة ثمان عشرة الى

سنة أربع وثلاثين ومائتين، فرفعها المتوكل، ونهى عن القول بخلق القرآن، وكتب بذلك الى الآفاق، وتوفر دعاء الخلق له، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في احياء السنة.

ومن جملة أسباب رفع الفتنة، أن الواثق أتى بشيخ مقيد، فقال له ابن أبي دؤاد: يا شيخ، ما تقول في خلق القرآن، قال: هذا الذي تقول، شيء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أو جهلوه، فقال: بل علموه، فقال: فهل دعوا اليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا، قال: بل سكتوا، قال: فهل (لا) وسعك ما وسعهم من السكوت، فسكن ابن أبي دؤاد، وأعجب الواثق كلامه، وأمر باطلاق سبيله. وقام الواثق من مجلسه وهو يقول: فهل (لا) وسعك ما وسعهم، يكرر هذه الكلمة. ولكن كان رفع الفتنة بالكلية في يد المتوكل كما أن ابتداءها في يد المأمون.

يقال أن المأمون، وهو عبدالله بن هارون الرشيد، كان معتنياً بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها، فجره ذلك الى القول بخلق القرآن، وإلا فهو بارع في الفقه والعربية وأيام الناس، وكان ذا حزم وعزم وعلم وحلم ودهاء وذكاء وهيبة وفطنة وفصاحة ودين وشرع متين. قيل: ختم في رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة، وحدث يوماً في المنبر نحو ثلاثين حديثاً بسنده، ثم قال ليحيى بن أكثم: يا يحيى، إنما المجالس لأصحاب الخلقان والمحابر. وكان كثير العفو والصفح. وكان يقول: لو عرف الناس حبي للعفو، لتقربوا الي بالجرائم، وأخاف أن لا أؤجر فيه؛ يعني أن العفو كان طبعاً له.

ولسنا نستوعب ترجمة المأمون في هذه الأوراق، مع أن كتابنا غير موضوع له، إلا أنه كان دخيلاً في علم الأوائل، فجره نقصه فيه الى القول بخلق القرآن، وجره قلة معرفة الفقه الى اباحة متعة النساء، الا أنه لم يرجع عن الأول، ورجع عن الثاني، بارشاد يحيى بن أكثم رحمه الله، الى حديث يرويه

عن الزهري، عن ابني ابن الحنفية، عن أبيهما محمد، عن علي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر، فلما صحح له الحديث رجع الى الحق. ومات المأمون غازياً الى أرض الروم في سنة ثمان عشرة ومائتين.

واستقل بالخلافة بعده أخوه المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد، وكان ملكاً شجاعاً بطلاً مهيباً، وهو الذي فتح عمورية، وقد كان المنجمون قضوا بأنه لا يفتح وانتصر نصراً مؤزراً، وأنشد فيه أبو تمام قصيدة أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والنصر في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... جلودها قبل نضج التين والعنب

وكان المعتصم شجاعاً مهيباً ذا أموال وخيول وكثرة العساكر، حتى ضاق عنها بغداد، فبنى سر من رأى، وانتقل اليها بالعساكر، وكان عدد غلمانه الأتراك فقط يبلغ سبعة عشر ألفاً. (مات) في سنة سبع وعشرين ومائتين.

وولي بعد ابنه الواثق بالله، أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد، وكان مليح الشعر، وشدد في القول بخلق القرآن، وكيف لا يشدد المسكين، إذ رأى قاضياً كأحمد بن أبي دؤاد يصر على ذلك، حتى بدل فيه دينه واسلامه. فنعوذ بالله من علماء السوء، وإنما يتلف السلاطين فسقة الفقهاء، فان الفقهاء ما بين صالح وطالح، فالصالح غالباً لا يتردد الى أبواب الملوك، والطالح يتردد اليهم، ويجري معهم على أهوائهم، ويهون عليهم العظائم، وهو على الناس شر من ألف شيطان، كما أن صالح الفقهاء أشد على الشيطان من ألف عابد. ولكن هؤلاء المساكين باعوا الدين بالدنيا، وبدلوا الاسلام بالهوى، ومثل هؤلاء كثير في كل زمان، والله المستعان وعليه التكلان. فنعوذ بالله من أمثالهم. وإلى الله تعالى أتبرأ من أحوالهم وأفعالهم.

واعلم أنك إذا عرفت تعريف علم الكلام والفرق بينه وبين علم الحكمة،

وأنه من فروض الكفايات، والقائلون بحرمته أو كراهته، أرادوا غير هذا الفن الذي قد اشتهر بالكلام في زمانهم، وعرفت ما وقع في خلق القرآن وقدمه من الفتن والمحن، **فلا علينا أن نذكر هاهنا نبذاً من الكتب المصنفة في هذا الفن.**

منها: (قواعد العقائد) و(التجريد)، كلاهما لخواجة نصير الدين الطوسي، وقد عرفته. وعلى التجريد شروح: (شرح شمس الدين الأصفهاني)، وستعرف ترجمته، وعليه حواش لابن المطهر الحلي، ثم للفاضل الشريف الجرجاني. ومن شروحه: (شرح أكمل الدين)، وقد مر ذكرهم. ومن شروحه: (شرح مولانا علي بن محمد القوشيجي السمرقندي)، وعليه حواش لمولانا جلال الدين الدواني، وللسيد صدر الدين الشيرازي، ثم دار الكلام بينهما مراراً، ورتبوا حواشي أطواراً يعرفها أهلها.

ومنها (الطوالع) للبيضاوي، وقد مر ذكره. وعليه شروح أفضلها وأحسنها: (شرح شمس الدين الأصفهاني)، وهو محمود بن أبي القاسم بن محمد الأصبهاني، الشيخ شهاب الدين أبو الثنا. (ولد) بأصبهان سنة أربع وسبعين وستمائة. وبرع في فنون العقليات، وقدم دمشق، ودرس بالرواجية، ثم قدم مصر، ودرس بالمعزية، وأقام بها الى حين وفاته.

وله التصانيف الكثيرة:

١ ــ شرح مختصر ابن الحاجب؛
٢ ــ وشرح الطوالع؛
٣ ــ وشرح المطالع؛
٤ ــ وناظرة العين، وغيرها؛
٥ ــ وشرع في تفسير كبير لم يتمه، قال ابن السبكي في (طبقاته الكبرى): أوقفني على بعضه؛
٦ ــ وله: شرح البديع للساعاتي في أصول الفقه.

(توفي) في ذي القعدة سنة أربع وأربعين وسبعمائة بطاعون مصر.

ومنها: (المحصل) و(الأربعين)، كلاهما للإمام الرازي وقد مر ذكره.
ومنها: (لباب الأربعين): للأرموي وقد مر ذكره.
ومنها: (نهاية العقول)، للإمام الرازي أيضاً.
ومنها: (الصحائف) للسمرقندي، ولم أقف على ترجمته.

ومنها: (أبكار الأفكار) للآمدي. وهو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، الإمام أبو الحسن لسيف الآمدي المشهور، صاحب (أبكار الأفكار) في علم الكلام، وصاحب (أحكام الأحكام)، في أصول الفقه. (ولد) بآمد بعد سنة خمسين وخمسمائة، قرأ على مشايخ بلده الفقه على مذهب الشافعي، وقرأ بها القراءات، وحفظ كتاباً في مذهب أحمد بن حنبل، ورحل الى العراق، وأقام في الطلب ببغداد مدة، وصحب ابن بنت الجنى المكفوف، وأخذ عنه علم الجدل والمناظرة، وأخذ علم الأوائل من جماعة من نصارى الكرخ ويهودها، وتظاهر بذلك، فجفاه الفقهاء وتحاموه ووقعو في عقيدته، وفر من العراق.

ودخل مصر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ونظر بمصر وحاضر وأظهر بها تصانيفه في علوم الأوائل، فقرىء عليه تلك التصانيف، وتصنيفه في أصول الدين وأصول الفقه. ثم وقع التعصب عليه، فخرج من القاهرة مستخفياً، وقدم الى حماه، ثم استوطن دمشق وتولى بها التدريس. ثم اتهم بأن راسل مع صاحب آمد على أن يتولى قضاء آمد، فرفعت يده عن المدرسة وتعطل، وأقام بمنزله شهوراً قليلة.

و(مات) في سنة إحدى وثلاثين وستمائة. يقال إنه حفظ الوسيط، وحمل عنه الأذكياء العلم، أصولاً وكلاماً وخلافاً، وتصانيفه مرغوب فيها.

فمن ذلك:

١ ــ كتاب الباهر في علم الأوائل والأواخر، خمسة مجلدات كبار؛
٢ ــ وكتاب أبكار الأفكار، في أصول الدين، أربعة مجلدات؛
٣ ــ وكتاب الحقائق في علوم الأوائل، ثلاثة مجلدات؛
٤ ــ وكتاب المآخذ على الإمام الرازي في شرح الاشارات، مجلد؛

٥ ــ وله المنتهى؛
٦ ــ ومنائح القرائح؛
٧ ــ وشرح جدل الشريف.

وله طريقة في الخلاف، وتعليقة حسنة، وكان يعرف في الخلاف طريقة الشريف وطريقة أسعد الميهني. وكان تفنن في علم النظر. وتصانيفه فوق العشرين كلها حسنة منقحة.

ويحكى أن شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام قال: ما سمعت أحداً يلقي الدرس أحسن من الآمدي، كأنه يخطب؛ وقال: ما علمنا قواعد البحث الا من سيف الدين الآمدي؛ وقال: لو ورد على الاسلام متزندق يشكك، أما تعين لمناظرته غير الآمدي، لاجتماع أهلية ذلك فيه.

ويحكى أن الآمدي رأى في منامه حجة الإسلام الغزالي في تابوت، وكشف عن وجهه وقبله، فلما انتبه، أراد أن يحفظ شيئاً من كلامه، فحفظ (المستصفى) في أيام يسيرة.

ومنها: (المواقف)، و(جواهر الكلام)، و(العقائد العضدية)، جميعها لمولانا عضد الملة والدين، وقد مر ذكره. وللمواقف شروح: (شرح الأبهري)، و(شرح الكرماني)، وأحسن شروحه وأنفعها (شرح الشريف الجرجاني) قدس سره، وقد مر ذكرهم. وللجواهر أيضاً شرح لم أدر من صنفه. وكذا على العقائد العضدية شرح لمولانا جلال الدين الدواني قدس سره.

ومنها: (المقاصد) و(شرحه)، كلاهما لمولانا سعد الدين التفتازاني رحمه الله، وله كتاب (تهذيب المنطق والكلام)، وهو مع وجازته مشتمل على مهمات هذا الفن.

ومنها: كتاب (تهافت الفلاسفة) للإمام الهمام، وقدوة علماء الاسلام، النور اللامع بين الأنام، حجة الاسلام، محمد بن محمد الغزالي الطوسي. وستعرف مناقبه الشريفة في المحل اللائق به، رضي الله عنه وأرضاه. رد الامام المذكور في كتاب التهافت مطالب الحكماء وجهلهم وبدعهم في سبع

عشرة مسألة، وأكفرهم في ثلاث مسائل: إحداها أن الله تعالى لا يعلم الجزئيات؛ وثانيتها انكار حشر الأجساد؛ وثالثتها قدم العالم.

ثم إن السلطان الأعظم والخاقان الأكرم، شرف آل عثمان من سلاطين الروم، السلطان محمد بن مراد خان، روح الله روحه وروح أسلافه، وأدام عمر أعقابه وأخلافه، ولا زال كافة الأنام يأوي الى ظلالهم الى يوم القيامة، أمر المولى علي الطوسي ومولانا مصلح الدين مصطفى، الشهير بخواجة زادة، أن يكتبا محاكمة بين الإمام الغزالي والحكماء، فكتبا كتابين، وكتب مولانا مصلح الدين في أربعة أشهر، والطوسي في ستة أشهر، ومع ذلك رجح علماء ذلك الزمان كتاب مولانا مصلح الدين على الآخر، فأعطى السلطان المذكور لكل منها عشرة آلاف درهم، وخص مولانا مصلح الدين ببغلة نفيسة عالية غالية، يقال إن هذه البغلة كانت من جملة أسباب ترك علي الطوسي في بلاد الروم. يحكى أن مولانا جلال الدين الدواني عندما رأى كتاب مولانا مصلح الدين، دعا له بالخير، وكان في خاطره أن يكتب في هذا الباب كتاباً، قال: ولو كتبت قبله، لكنت ضحكة للناظرين.

ومنها: (تعديل الكلام)، للمولى العالم الرباني والحبر الصمداني، ولي صدر الشريعة، أكرمه الله في الدرجات الرفيعة. وهو رحمه الله، كتب كتاباً سماه: (تعديل العلوم)، بدأ فيه بالمنطق، ثم بالكلام، ثم أقسام الحكمة على التمام. ولعمري لقد أتى فيه مباحث، عجز عن حلها الأوائل والأواخر، تحقيقاً لما قيل: كم ترك الأول للآخر. وقد كان رحمه الله بحراً زاخراً لا يدرك له قرار، وطوداً شامخاً لا يرتقي الى قنته ولا يصار، ولقد كان آية كبرى في الفضل والتدقيق، وعروة وثقى في الاتقان والتحقيق. روح الله روحه، وزاد في غرف الجنان فتوحه. وستعرف ترجمته في علم الفقه ان شاء الله تعالى.

وأما الشروح والحواشي في هذا العلم سوى ما ذكر، فخارجة عن العد والاحصاء، لكن فيما ذكر كفاية لذي لب، وبلاغ لكل طالب، والله الموفق والمرشد.

الشعبة السادسة

من العلوم الشرعية

علم أصول الفقه

وهو علم يتعرف منه استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها الاجمالية اليقينية.

وموضوعه: الأدلة الشرعية الكلية من حيث أنها كيف يستنبط عنها الأحكام الشرعية.

ومبادئه: مأخوذة من العربية وبعض من العلوم الشرعية والعقلية.

والغرض منه: تحصيل ملكة استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها الأربعة التفصيلية، أعني الكتاب والسنة والاجماع والقياس.

وفائدته: استنباط تلك الأحكام على وجه الصحة.

ومن الكتب القديمة المصنفة في هذا العلم: كتاب للإمام الجصاص؛ وهو أحمد بن علي، أبو بكر الرازي، المعروف بالجصاص. (ولد) سنة خمس وثلاثمائة، وسكن بغداد، وانتهت اليه رئاسة الحنفية، وسئل بالقضاء فامتنع. وتفقه على أبي الحسن الكرخي وتخرج به، وكان على طريقة من الزهد والورع، وخرج الى نيسابور، ثم عاد وتفقه عليه جماعة، وروى عن عبد الباقي بن قانع.

وله:

١ ـ كتاب الهام القرآن؛

٢ ــ وشرح مختصر الكرخي؛

٣ ــ وشرح مختصر الطحاوي؛

٤ ــ وشرح الجامع لمحمد بن الحسن؛

٥ ــ وشرح الأسماء الحسنى؛

٦ ــ وصنف كتاباً في أصول الفقه؛

٧ ــ وكتاب جوابات المسائل.

(توفي) يوم الأحد، سابع ذي الحجة، سنة سبعين وثلاثمائة ببغداد وقد وهم من جعل الجصاص غير أبي بكر الرازي، بل هما واحد.

ومنها: (كتاب الأسرار)، و(كتاب تقويم الأدلة)، و(كتاب الأمد الأقصى)، كلها لأبي زيد الدبوس، وهو عبيدالله بن عمر بن عيسى، أبو زيد الدبوسي. ودبوسة بفتح المهملة وضم الموحدة، قرية بين بخارى وسمرقند. وهو أول من وضع علم الخلاف، وصنف الكتب المذكورة، وكان ممن يضرب به المثل في النظر واستخراج الحجج. وهو من كبار الفقهاء الحنفية، وناظره مرة رجل فجعل الرجل يضحك و يبتسم، فأنشد أبو زيد لنفسه:

شعر

مالي إذا ألزمته حجة	قابلني بالضحك والقهقهة
إن كان ضحك المرء من فقهه	فالدب في الصحراء ما أفقهه
و يروي: بالضحك والتبسمة	فالدب في الصحراء ما أفهمه

(توفي) ببخارى سنة ثلاثين وأربعمائة.

ومنها: (أصول فخر الاسلام البزدوي) وهو علي بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن مجاهد، أبو الحسن، فخر الاسلام البزدوي، الفقيه بما وراء النهر؛ صاحب الطريقة على مذهب أبي حنيفة رحمه الله. و(توفي) يوم الخميس خامس رجب سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، ودفن بسمرقند.

له:

١ ــ كتاب المبسوط، أحد عشر مجلداً؛

٢ ــ وشرح الجامع الكبير والجامع الصغير؛

٣ ــ وكتابه في أصول الفقه مشهور.

قال قاسم بن قطلو بغا في (طبقات الحنفية): قد خرجت أحاديثه، ولم أسبق اليه. قال الذهبي: وكان مولده في حدود الاربعمائة. روى عنه أبو المعالي محمد بن نصر الخطيب.

وعلى (أصول فخر الاسلام) شروح كثيرة، أحسنها وأشهرها شرح عبد العزيز البخاري المسمى (بالكشف)، وهو عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخاري.

له:

١ ــ شرح البزدوي؛

٢ ــ وشرح الاخسيكثي المسمى (بالتحقيق)؛

٣ ــ وشرح الهداية الى النكاح.

وعلى أصول فخر الاسلام شرح آخر، المسمى (بالتقرير) للشيخ أكمل الدين وستعرفه.

وللإمام فخر الاسلام البزدوي أخ مشهور بأبي اليسر، ليسر تصانيفه، كما أن فخر الإسلام مشهور بأبي العسر، لعسر تصانيفه، وهو محمد بن محمد الحسين ابن عبد الكريم، أبو اليسر البزدوي. قال عمر بن محمد النسفي في (كتاب القند) (في أحوال سمرقند) كان أبو اليسر شيخ أصحابنا بما وراء النهر، وكان إمام الأئمة على الاطلاق، والوفود اليه من الآفاق. ملأ الشرق والغرب بتصانيفه في الأصول والفروع. (توفي) ببخارى في رجب سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة. قال السمعاني: ولد سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

ومنها: (أصول شمس الأئمة السرخسي) وهو محمد بن أحمد بن أبي سهل، أبو بكر السرخسي، شمس الأئمة، صاحب (المبسوط). تخرج بعبد

العزيز الحلوائي والحصيري وغيره. (مات) في حدود الخمسمائة.

كان عالماً أصولياً مناظراً، وقد شاع أنه أملى المبسوط من غير مراجعة الى شيء من الكتب، يدل عليه ما ذكره فيه، وهو قوله: انتهى ربع البيوع، من المبتهل الى الله تعالى بالخضوع، واسبال الدموع، المنقطع عن الأهل والكتاب المجموع. الى غير ذلك من أماكن يترجع بنحو هذا من السجع، وعدته عشرة أجزاء ضخمة.

وله (كتاب في أصول الفقه) جزءاً ضخماً، و (شرح السير الكبير) في جزءين ضخمين، أملاهما وهو في الجب محبوس، بسبب كلمة نصح بها الأمراء. وكان تلامذته على أعلى الجب يكتبون، فلما وصل الى باب الشروط، حصل الفرج، فأطلق فخرج الى فرغانة، فأكرمه الأمير حسن، فوصل اليه الطلبة، فأكمله. وشرح (مختصر الطحاوي)، وكتب محمد بن الحسن. وقيل له يوماً: حفظ الشافعي ثلاثمائة كراس، فقال: حفظ زكاة ما أحفظ، فحسب ما حفظه، فكان اثني عشر ألف كراس.

ومنها: (أحكام الأحكام) للآمدي، وقد مر ذكره. وهذا مجلد ضخم أكثر فيه من القواعد الأصولية، وما يبتنى عليها من المباحث العقلية.

ومنها: (منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل)، ومختصر هذا، كلاهما لابن الحاجب وقد مر ذكره. وعلى هذا المختصر شروح فوق عشرة،

مثل: ١ ــ شرح العلامة الشيرازي،
٢ ــ وشرح السيد ركن الدين الموصلي؛
٣ ــ وشرح الشيخ جمال الدين الحلي؛
٤ ــ وشرح المولى زين الدين الخنجي؛
٥ ــ وشرح المولى العلامة شمس الدين الأصبهاني؛
٦ ــ وشرح الفاضل بدر الدين التستري؛
٧ ــ وشرح المولى شمس الدين الخطيبي؛

٨ ـــ وشرح مولانا عضد الملة والدين.

وقد ذكرنا أسماء هؤلاء على ترتيب وجود شروحهم. وقد اعتنى العلماء من بينها بشرح مولانا عضد الملة والدين لحسن اختصاره، مع اشتماله على تدقيقات وتحقيقات لا توجد في غيرها، ولهذا كتبوا على ذلك حواشي شريفة، مثل. (حاشية سيف الدين الأبهري)، و(حاشية شمس الدين الكرماني)، وهما من تلامذة هذا الشارح، كتبا على مصنفاته الشروح والحواشي، ومثل: (حاشية المولى سعد الدين التفتازاني)، و(حاشية الفاضل مولانا السيد الشريف الجرجاني)، وقد مر ذكر هؤلاء.

ومنها: (القواعد)، و(البدائع)، كلاهما لابن الساعاتي. وهو أحمد بن علي بن ثعلب بن الضياء مظفر الدين بن الساعاتي، البغدادي الأصل، البعلبكي. سكن ببغداد ونشأ بها. وأبوه هو الذي عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد. وكان مظفر الدين أحمد اماما فاضلا صاحب تصانيف مفيدة، وبرع في الفقه وكتب الخط المنسوب.

وصنف (كتاب مجمع البحرين) في الفقه، جمع فيه بين مختصر القدوري ومنظومة النسفي، مع زوائد لطيفة، وأحسن وأبدع في ترتيبه واختصاره، ثم شرحه في مجلدين. وله كتاب (البديع) في أصول الفقه، جمع فيه بين أصول فخر الاسلام على البزدوي و(أحكام الأحكام) للآمدي؛ أخذ من الأول الشواهد الجزئية، ومن الثاني القواعد الكلية.

وذكر في تاريخ البدري أنه (توفي) سنة ثلاث وثمانين وستمائة في أيام الملك المنصور، وقيل: توفي بعد اثنتين وثمانين وستمائة، رحمه الله تعالى.

ومنها: (المنار)، لحافظ الدين النسفي، وهو عبد الله بن أحمد بن محمد، حافظ الدين النسفي.

له: ١ ـــ كتاب المستصفى في شرح المنظومة؛
٢ ـــ وكتاب المنافع في شرح النافع؛
٣ ـــ وكتاب الكافي في شرح الوافي، كلاهما؛

٤ ــ وكتاب كنز الدقائق، وهذه كلها في الفقه؛
٥ ــ وكتاب المنار، في أصول الفقه؛
٦ ــ وكتاب العمدة، في أصول الدين؛
٧ ــ وكتاب شرح الهداية.

كان ببغداد سنة عشر وسبعمائة، تفقه على شمس الأئمة الكردي، وروى الزيادات عن العتابي، وسمع منه السغناقي. وشرح (المنار)، وسماه (الكشف)، وشرح (العمدة)، وسماه (الاعتماد). قال بعضهم: ولا يعرف له شرح على (الهداية).

ومن شروح (المنار) (جامع الأسرار). وهو شرح نفيس في الغاية، إلا أنا لم نعرف مصنفه، غير أني رأيت في ذيل بعض نسخ هذا الشرح، أن أسمه محمد ابن محمد الجبلي، وأنه من تلامذة عبد العزيز البخاري صاحب (الكشف في شرح أصول فخر الاسلام)، ومن تلامذة حافظ الدين النسفي، وقد مر ذكرهما.

ومن شروح (المنار)، (افاضة الأنوار في اضاءة أصول المنار) لسعد الدين محمود الدهلوي، ومن شروحه، (شرح أكمل الدين)، و (شرح ابن الملك)، وغير ذلك.

ومنها: (المغني) للخبازي وهو عمر بن محمد بن عمر، الشيخ جلال الدين الخبازي. له حواش على الهداية، و (كتاب المغني) في أصول الفقه. كان فقيها عالما. (مات) لخمس بقين من ذي الحجة سنة احدى وتسعين وستمائة في عشر السبعين.

ومن شروح (المغني)، (شرح منصور القاآني)، وهو أبو محمد منصور بن أحمد بن يزيد الخوارزمي القاآني. شرح (المغني) للخبازي شرحا مفيدا في الغاية في بابه. قيل انه نظم أرجوزة في مناسك الحج. قال الذهبي: هو من الأعلام. (توفي) يوم السبت سنة خمس وسبعين وأربعمائة. قلت: هكذا وقع في النسخة التي عندي، لكنه غلط ظاهر، لأن تاريخ وفاة الخبازي قبل تمام الستمائة، فكيف يتقدم عليه شارح كتابه.

ومن شروحه، (شرح سراج الهندي)، وهو أبو حفص عمر بن اسحق بن أحمد الغزنوي، سراج الدين الهندي قاضي الحنفية بالقاهرة. يقال: اسم أبيه اسماعيل، والصحيح اسحق. تفقه ببلاده على الوجيه الرازي، والسراج الثقفي، والركن البدواني، وغيرهم من علماء الهند.

وحج، فسمع من الشيخ خضر، شيخ رباط السدرة (عوارف المعارف)، وحدث به عند القطب العسقلاني عن مؤلفه. وقدم القاهرة قديما سنة أربعين، وسمع من أحمد بن منصور الجوهري وغيره. وظهرت فضائله، ثم ولي قضاء العسكر، بعد أن ناب عن الجمال التركماني، ثم عزل. كان عالما فاضلا، له وجاهة في دولة.

وله: ١ ــ شرح المغني؛

٢ ــ وشرح الهداية، على طريقة الجدل، وسماه بالتوشيح؛

٣ ــ وشرح بديع ابن الساعاتي؛

٤ ــ وشرح تائية ابن الفارض؛

وصنف:

٥ ــ الشامل في الفقه؛

٦ ــ وشرح المغني للخبازي؛

٧ ــ وله كتاب: العزة المنيفة في شرح مذهب أبي حنيفة، رحمه الله؛

٨ ــ وكتاب: فقه الخلاف؛

٩ ــ وشرح الزيادات؛

١٠ ــ والجامعين، ولم يكملها؛

١١ ــ وله كتاب في التصوف، وغير ذلك.

وكان واسع العلم، كثير الأقدام والمهابة. وكان يتعصب للصوفية الموحدة، وعزر ابن أبي حجلة لكلامه في ابن الفارض. (مات) في الليلة التي مات فيها البهاء السبكي، وهي ليلة السابع من شهر رجب، سنة ثلاث وسبعين

وسبعمائة. وكانت ولايته نحو أربع سنين، وكان يكتب بخطه: مولدي سنة أربع وسبعمائة.

ومنها: (كتاب المنتخب) للاخسيكثي، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عمر، حسام الدين الاخسيكثي. واخسيكث، صح بالسين المهملة بعد الخاء المعجمة، وآخرها الثاء المثلثة، قرية فيما وراء النهر. صاحب (المختصر) في أصول الفقه. مات سنة أربع وأربعين وستمائة.

وعليه شروح، منها: (شرح عبد العزيز البخاري المسمى بالتحقيق)، وهو صاحب (الكشف) في شرح أصول فخر الاسلام، وقد مر ذكره. و (للمنتخب) شرح آخر للاتقاني، المسمى (بالتبيين)، وستعرفه عند ذكر (شرح الهداية).

ومنها: (التحصيل) للأرموي وقد مر ذكره.

ومنها: (المحصول) للأمام فخر الدين الرازي، وقد مر ذكره في المفسرين.

ومنها: (التنقيح) وشرحه (التوضيح) للمولى الفاضل صدر الشريعة، وهو عبيد الله بن مسعود بن محمود بن عبيد الله بن محمود، صدر الدين المحبوبي، عالم محقق، وحبر مدقق، له تصانيف مفيدة.

منها: ١ ــ التنقيح؛

٢ ــ وشرحه التوضيح، في أصول الفقه؛

٣ ــ وشرح الوقاية؛

٤ ــ ومختصر الوقاية، في الفقه؛

٥ ــ والوشاح في المعاني؛

٦ ــ وتعديل العلوم؛ في أقسام العلوم العقلية كلها.

ثم شرح هذا الكتاب بجميع أقسامه، ولقد أبدع فيها، بحيث أورد تحقيقات عجز عنها الأوائل، سيما المنطق والكلام، و يشهد بما ذكرناه من طالع ذلك الكتاب.

يحكى أن العلامة قطب الدين الرازي، أراد أن يجتمع مع صدر الشريعة، و يتباحث معه، فأرسل اليه اولا من تلامذته مولانا مبارك شاه ــ وكان مبارك شاه من غلمان الرازي، ورباه صغيرا وعلمه كبيرا، وتبناه، فصار مشهورا في الآفاق ــ ليتعرف كيفية الحال، فحضر مبارك شاه درس صدر الشريعة وهو يومئذ بهراة، والعلامة بالري، فوجده يدرس (كتاب الاشارات) لابن سينا، ولا يتابع فيه المصنف ولا واحدا من شارحيه: الامام والطوسي، فكتب مبارك شاه الى مولاه العلامة، أن الرجل نار وقادة، والاقدام ربما يورث الملام، فعمل العلامة برأيه، وقبل نصحه ولم يتجاسر على ما قصده.

ومنها: (التلويح في شرح التنقيح) لمولانا سعد الدين التفتازاني، وقد مر ذكره.

ومنها: (فصول البدائع في أصول الشرائع) للمولى العالم العامل، والفاضل الكامل، مولانا شمس الدين الفناري قدس ذكره، وقد مر ذكره.

ومنها: (منهاج الوصول الى علم الأصول) للقاضي البيضاوي، وهذا كتاب نفيس على مذهب الشافعي، لكن ينتفع به الحنفية أيضا، وعليه شروح أحسنها (شرح السيد العبري).

ومنها: (مرقاة الوصول الى علم الأصول) وشرحه المسمى (بالمرآة)، كلاهما لمولانا محمد بن فرامرز بن خواجة علي، الشهير بمولانا خسرو، وقد كان قاضيا لعسكر السلطان محمد بن مراد خان، ثم تقلد منصب الفتوى ستين كثيرة، وداوم على ذلك، الى أن (مات) في سنة خمس وثمانين وثمانمائة، قبيل وفاة السلطان محمد خان بسنة. وفي تلك السنة توفي الشيخ قطب الدين الأزنيقي، ومولانا مسعود خليفة المتوفي بأدرنة، وكان كلاهما من العلماء السادات، ومشايخ الصوفية أرباب السعادات، أولي الخوارق والكرامات. وكان مولانا خسرو رحمه الله عالما عاملا محقا محققا، وكان له ثروة ومماليك كثيرة، ومع ذلك كان لا يخدم في بيت مطالعته الا نفسه الشريفة، وقد كان

عهد كذلك مع الله تعالى. وكان له خط مليح في الغاية، وقد التزم أن يكتب كل يوم ورقتين من تصانيفه وغيرها. ورأيت بخطه الشريف كتبا كثيرة.

وله: ١ — المرقاة؛

٢ — وشرحه المرآة، في الأصول؛

٣ — والدرر؛

٤ — وشرحه الغرر، في الفقه؛

٥ — وحواشي تفسير البيضاوي؛

٦ — وحواشي التلويح شرح التنقيح؛

٧ — وحواشي شرح مولانا عضد الدين لمختصر ابن الحاجب؛

٨ — وحواشي الشرح المطول لتلخيص المعاني لمولانا سعد الملة والدين التفتازاني، وغير ذلك من الحواشي والرسائل؛

٩ — ومن رسائله رسالة الولاء.

ووقع له مع بعض من معاصريه المناظرات الكثيرة في مسألة الولاء.

واعلم ان الكتب في علم الأصول كثيرة، لكن من ظفر بما ذكرناه، فاز بالمرام، ولا تطول بذكرها الكلام، والله ولي التوفيق والاعلام.

الشعبة السابعة
من العلوم الشرعية
علم الفقه

وهو علم باحث عن الأحكام الشرعية الفرعية العملية، من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية، ومبادئه: مسائل أصول الفقه، وله استمداد من سائر العلوم الشرعية والعربية، وفائدته حصول العمل به على الوجه المشروع، والغرض منه: تحصيل ملكة الاقتدار على الأعمال الشرعيّة. ولما كانت الغاية والغرض في العلوم العملية تحصيل الظن دون اليقين، بناء على أن أقوى الأدلة الكتاب والسنة، وأنه وإن كان قطعي الثبوت، لكن أكثره ظن الدلالة، فصار محلا للاجتهاد، جاز الأخذ فيها أولا بمذهب أي مجتهد أراد.

والمذاهب المشهورة التي تلقتها العقول بالصحة هي المذاهب الأربعة للأئمة الأربعة ــ أبي حنيفة. ومالك. والشافعي، وأحمد بن حنبل، رضي الله عنهم، ثم الأحق والأولى من بينها مذهب أبي حنيفة، نعمان بن ثابت، رضي الله عنه لأنه المتميز من بينهم بالاتقان والاحكام، وجودة القريحة، وقوة الرأي في علم الأحكام وكثرة المعرفة بالكتاب والسنة، وصحة الرأي والرواية وزيادة المنة، الى غير ذلك.

لكن ينبغي لمن يقلد مذهبا معينا في الفروع، أن يحكم بأن مذهبه صواب ويحتمل الخطأ، ومذهب المخالف خطأ يحتمل الصواب، وذلك من لوازم الظنية بخلاف الاعتقاديات التي يطلب فيها اليقين، لكون دلائلها عقلية يقينية،

حيث يحكم فيها بأن مذهبه حق جزما، ومذهب المخالف خطأ قطعا، لأنه من لوازم القطعية.

واعلم أن نذكرها هنا أحوال أصحاب المذاهب الأربعة الأئمة المشهورين في كل من المذاهب، ثم نشير الى جهة رجحان مذهب أبي حنيفة رحمه الله على المذاهب الأخرى.

وأعلم أن أول الأئمة وأولاهم وأفضلهم وأعلاهم، أمام المسلمين؛ وسيد التابعين، وسراج الأمة، وفخر الأئمة:

أبو حنيفة نعمان بن ثابت، رضي الله عنه

والكلام في مناقبه مما لا يمكن الاستقصاء فيها، سيما في هذه الوريقات اذ قد كسر عليها الأئمة عدة مجلدات، ومع ذلك لم يؤدوا عشر أعشار مناقبه، وان أطنبوا في فصوله وأبوابه، وها نحن نذكرها هنا عشرة مطالب متضمنة لمهمات تلك المطالب.

المطلب الأول

تقدمه على غيره

قال بعض المصنفين: وانما قدمنا ذكر الامام مالك، لأنه المقدم زمانا وقدرا ومعرفة وعلما. ونحن نقول أن المقدم زمانا، هو الامام أبو حنيفة على التحقيق، و يؤيده ما روي أن الامام سئل عن علماء المدينة، قال: ان أفلح منهم واحد، فالأزرق الأشقر، عني به الامام مالكا رضي الله عنه. وأما في المعرفة، فهو ذو الاتقان والتدقيق، كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى، ولهذا قدمنا ذكره.

أما تقدمه سنا فلأن الامام أبا حنيفة (ولد) سنة ثمانين، كذا ذكره الواقدي والسمعاني عن أبي يوسف. وذكر السمعاني أيضا، عن مزاحم بن زياد، أنه ولد عام احدى وستين، والأول أكثر وأثبت، وأن الامام مالكا (ولد) سنة خمس وتسعين، و (مات) سنة تسع وسبعين ومائة.

وأما الامام الشافعي، فالمشهور أنه (ولد) يوم مات أبو حنيفة.

وأما تقدمه في الشرف فلما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي يوم القيامة». وزيد في رواية (أن) أسمه النعمان. وفي رواية أخرى: «سيكون رجل يقال له النعمان بن ثابت، ويكنى بأبي حنيفة، يحيى دين الله وسنتي». وروي عن أبي لهيعة قال: قال رسول الله صلى الله عيه وسلم: «في كل قرن من أمتي سابقون وأبو حنيفة سابق زمانه». وفي الروايات اختلافات، إلا أنه اتفقت الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم، وصف الامام قبل وجوده بثلاثة أوصاف: بسراج الأمة، ومحيى الشرع، والسابق، وكل من هذه كاف في ترجيحه على غيره من الأئمة.

ومن جهات شرفه، أنه ليس بين الأئمة تابعي غيره، وقد ذكر ابن الصلاح أن الامام مالكا من تبع التابعين، وأما أبو حنيفة فقد اتفق المحدثون على أن أربعة من الصحابة، كانوا على عهد الامام في الحياة، وان تنازعوا في الرواية عنهم.

منهم: انس بن مالك، وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة، توفي سنة احدى أو ثلاث وتسعين وله ثلاث أو تسع وتسعون، فيكون الامام يوم وفاته، ابن ثلاث أو إحدى عشرة، وقد دخل البصرة أكثر من عشرين مرة، ومكث في كل دخلة سنة أو سنتين لمناظرة المعتزلة وأهل الأهواء. وذكر الامام شهر دار ابن شيرويه، وبرهان الإسلام الغزنوي، بأسانيدهم الصحيحة، أن الإمام روى عن أنس.

ومنهم: أبو ابراهيم أو أبو محمد أو أبو معاوية، عبد الله بن أوفى بن علقمة بن قيس بن خالد، وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة، مات بها سنة ست أو سبع وثمانين، فيكون سن الامام على الأكثر يوم مات هذا سبعا أو ستا على قول الأقل أربعا وعشرين أو خمسا وعشرين، فعلى كلا القولين يتحقق سن السماع. أما على قول الأقل فظاهر، وأما على قول الأكثر، فلأن سن

السماع اذا فرق الصبي بين البغل والحمار.

وعند المحدثين سن محمود بن الربيع قال: عقلت منه صلى الله عليه وسلم مجة مجها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو. فاذن لا ينكر سماع الامام من ابن أبي أوفى، سيما وقد ذكر شهردار الديلمي أنه روى عنه.

ومن غرائب هذا الباب ما روي عن ابراهيم بن سعيد الجوهري، قال: رأيت صبيا ابن أربع سنين، حمل الى المأمون، وقد قرأ القرآن، ونظر في الرأي، غير أنه اذا جاع بكى. وعن القاضي أبي محمد عبد الله بن محمد الأصبهاني، قال: حفظت القرآن ولي خمس سنين، وحملت الى ابي بكر المقري ولي أربع سنين، فقال بعض الحاضرين: لا تسمعوا له فيما قرأ فانه صغير، فقال لي ابن المقري: اقرأ سورة الكافرين، فقرأتها، فقال: اقرأ سورة التكوير، فقرأتها، فقال لي غيره: اقرأ المرسلات، فقرأتها، فقال ابن المقري: اسمعوا له والعهدة علي:

قال مولانا أحمد الكوراني في شرحه الموسوم (بكتاب الكوثر الجاري إلى رياض البخاري)، بعد ما نقل حديث محمود بن الربيع: قال ابن الصلاح: استدل الجمهور بهذا الحديث على أن أقل زمان يجوز فيه تحمل الحديث خمس، ثم قال: والحق أنه ليس في الحديث ما ينفي الأقل منه، والمناط قدرة الصغير على الضبط، وهي تتفاوت بحسب الفطرة، ثم حكى الصبي الذي قرأ القرآن في مجلس المأمون.

ونظير هذه الحكاية، ما روى مولانا حسين اليزدي في كتاب (الفواتح) في شرح أبيات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن جمع كثير مقبولي الرواية، أنهم رأوا بمدينة يزد، من بلاد العجم، طفلا وهو في المهد يقرأ القرآن والأشعار وأنواع الكلمات، ويخبر عن الأمور الخفية، وكان رأسه أكبر مثل رؤوس الكبار، ومات في السنة الثانية من ولادته. قال مولانا حسين: ومن جملة من رأوه والدي رحمه الله.

ومن غرائب الاتفاقيات، أني عقيب ما طالعت في شرح البخاري لمولانا الكوراني، نظرت كتاب (الفواتح) المذكور، وصادفت ما فيه من الحكاية المذكورة، وتعجبت من اتفاق وقوفي على هاتين الحكايتين في وقت واحد.

رجعنا الى المقصود، وهو ذكر من رآه أبو حنيفة من الصحابة أو روى عنه.

ومنهم: سهل بن سعد الساعدي، كان اسمه حزنا، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلا. مات بالمدينة، وقدم المدينة وهو ابن خمس عشرة سنة، و (مات) بها وهو ابن احدى وتسعين أو ثمان وثمانين، وهو آخر من مات من الصحابة بها. والامام أدرك زمانه وان لم يره.

ومنهم: أبو الطفيل عامر بن واثلة. (مات) بمكة سنة اثنتين ومائة وهو آخر من مات من الصحابة في جميع الأرض، والامام أدرك زمانه لا محالة. وقال بعض المحدثين أنه لم يره، وأصحاب المناقب ذكروا بأسانيدهم أنه رآه. وقد ثبت أن الامكان ثابت، والناقل عدل، والمثبت أولى من النافي. هذا الذي ذكرناه من غلب على الظن أن الامام لقيه وتحقق أنه أدرك زمانه.

وها هنا رجال أخر شك القوم في ان الامام أدرك زمانهم.

منهم: معقل بن يسار لأن معقلا (مات) بالبصرة سنة سبع وستين أو سبعين، وولادة الامام سنة ثمانين، اللهم الا على قول من قال ان الامام ولد سنة احدى وستين، ومعقلا مات سنة سبع وستين.

ومنهم: جابر بن عبد الله ، فانه مات بالمدينة ستة سبع أو ثمان وسبعين، وولد الامام سنة ثمانين، اللهم الا على قول من قال: ولد الامام سنة احدى وستين والأكثر على خلافه.

ومنهم: عبد الله بن أنيس. قيل: لقيه وروى عنه، الا أن فيه أشكالا، اذ قد أجمع أهل التاريخ على أنه مات بالمدينة سنة أربع وخمسين قبل ولادة الامام بسبع سنين.

ومنهم: عائشة بنت عجرد، لقيها وروى عنها.

والحاصل ان جماعة من المحدثين أنكروا ملاقاته مع الصحابة، وأصحابه أثبتوا بالأسانيد الحسان، وهم بأحواله أعرف منهم، والمثبت العدل العالم أولى

من النافي، حتى جمع أصحابه مسنداته فبلغت خمسين، وهذا سبب صالح لتقديم مذهبه على سائر المذاهب.

وقد ثبت بما ذكرناه من التفصيل أن الامام من التابعين، وقد ثبت في الأحاديث السالفة أنه سيد زمانه، فينتج من ذلك أنه سيد التابعين، وإلى ذلك أشار الامام بقوله: ما جاءنا عن الصحابة، فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن التابعين، فهم رجال ونحن رجال. ومن جهات شرفه، ثناء الأئمة عليه؛ وستعرف تفصيله.

ومن فضائله ما روى الامام أبو حفص الكبير، أنه عد مشايخ الشافعي فبلغ ثمانين، وعد مشايخ الامام فبلغ أربعة آلاف شيخ. قال في (الانتصار) هذا من أدنى فضائله، ولا يختلج في صدرك أن مشايخ البخاري ربما تبلغ عشرة آلاف، فيلزم أن يكون أفضل منه، لأن مشايخ الحديث ليسوا كمشايخ الفقه، فإن الأولين لا بد أن يكونوا عالمين دون الآخرين، ولهذا قل الفقهاء وكثر رواة الحديث.

وإذا عرفت أن مذهبه أشرف المذاهب، فأعلم أن ما ذكره الشافعية من أن قوله صلى الله عليه وسلم: «الأئمة من قريش»، وقوله: «قدموا قريشا ولا تتقدموا عليها»، دليل على تقدم مذهب الشافعي على غيره، لأنا لم نجد من قريش اماما سواه، ولأنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ولأنه كان أعلم بلغة العرب لأنه نشأ بمكة، وتخرج بالمدينة على إمام دار الهجرة مالك، فدفوع. أما أولا: فلأنه إن أراد بالإمامة إمامة الصلاة، فذلك لا يختص بقريش، لأن غير قريش تقدم في الصلاة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وفي عهد الخلفاء الراشدين أيضا، مع وجود علماء قريش، وكذلك أجمعوا على أن الأعلم مقدم في الصلاة، وإن لم يكن قرشيا.

وأما أن يراد إمامة العلم، فلا يشترط فيه النسب، لما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذا إلى اليمن معلماً، وقد كان أكثر من يؤخذ عنه العلم في الأمصار، من الموالي، كأبي موسى وحذيفة بالعراق، وزيد بن ثابت والزهري

بالحجاز، ومعاذ وأبي إمامة بالشام. ولا يخفى حال أسامة بن زيد وقربه منه صلى الله عليه وسلم، وحال صهيب وسلمان. وكذلك من بعد الصحابة، كشريح كيف استقضاه الخلفاء الثلاثة، ولم ينعقد الإجماع بدون رأيه، إلى غير ذلك. ولو أردت ذكر الموالي من الفقهاء في كل عصر، مع وجود علماء قريش، لما حصر.

روي عن عطاء أنه قال: سألني هشام بن عبد الملك عن علماء الأمصار، قلت: للمدينة نافع مولى ابن عمر، ولمكة عطاء بن أبي رباح المولى، ولليمن طاووس بن كيسان المولى، وللشام مكحول المولى، وللجزيرة ميمون بن مهران المولى، وللبصرة الحسن وابن سيرين المولى، وللكوفة ابراهيم النخعي العربي. قال هشام: لولا قولك عربي، لكادت نفسي تخرج. ولأجل هذا يقال للعلماء: الموالي، ومولانا. وأيضاً لما احتج الصديق في أمر الخلافة بقوله صلى الله عليه وسلم: «الأئمة من قريش»، تعين أن المراد الخلافة الكبرى لا امامة العلم والصلاة.

وقولهم: ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك شرف النسب، وذا لا يستلزم شرف المذهب، وقولهم: كان عالماً باللسان مسلم، لكن الاختصاص به ممنوع، فإن مالكا نشأ بالمدينة، والإمام جاور بالحرمين مدة كثيرة حين فر من بني أمية.

وقد ذكر الرازي أن شعر الإمام كان ألطف وأفصح من شعر الشافعي، وجودة الشعر لا تكون إلا بكمال البلاغة. ثم ان الاعتبار للتقوى لا للنسب، قال الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ فأنظر إلى لقمان الحكيم، كان عبداً غليظ المشافر، وآتاه الله الحكمة (أي الفقه)، أو جنس الحكمة، وفقراء الصحابة وزهادهم، كانوا مقدمين على أكثر الإشراف.

قولهم: الباهلي ليس بكفؤ لغيره من العرب، والعربي ليس بكفؤ لقريش، وقريش بعضهم أكفاء بعض، فلا يضرنا، لأن الكفاءة معتبرة لترتيب المقاصد المتعلقة بالنكاح، ولا مدخل لها في شرف المذهب، وإنما الكلام في رد استلزام شرف النسب شرف المذهب، وأيضاً ما اخترناه ليس مذهب الشعوبية، لأنهم

قوم يعادون العرب، و يصغرون شأنهم، ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم، وأما نحن فلا نبغضهم ولا ننكر فضلهم على سائر الطوائف، بل نقول ان شرف النسب لا يفضل شرف التقوى والمذهب، كما عرفت.

المطلب الثاني

في

نسبه وحرفته

قال الجزري في (جامع الأصول) أنه نعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه من أهل كابل أو أهل بابل، وذكر صاحب (الكافي) أنه نعمان بن ثابت بن طاوس بن هرمز ملك بني شيبان، وعلى هذا يحتمل أن يكون عربياً، فإن بغداد تسمى ببابل في القديم، وإليه أشار في عراقيات الابيوردي. وذكر أبو مطيع البلخي أنه من الأنصار، وهو نعمان بن ثابت بن زوطيا بن يحيى بن راشد الأنصاري. وقيل من أبناء أفريدون من نسل ملوك العجم، وذكر الغزنوي عن صالح بن أحمد العجلي بإسناده، أنه كوفي تيمي، من رهط حمزة الزيات المقري، وكان بزازاً يبيع الخز.

قيل: كان ثابت من قرية نساء خراسان، وقيل من مدينة الرجال ترمذ، وقيل من أنبار، وقيل من كابل. ولد ثابت على الإسلام، وكان زوطاً مملوكاً، باعه مولاه من تيم الله بن ثعلبة. وعن ابنه حماد، أن جده ثابت بن نعمان بن مرزبان، من أبناء فارس من الأحرار، ما وقع علينا رق قط. ذهب ثابت إلى علي بن أبي طالب، فدعا بالبركة له ولذريته من بعده، قال حماد: فنحن نرجو من تلك البركة. ونعمان بن المرزبان هو الذي أهدى الى علي رضي الله عنه الفالوذج يوم النيروز والمهرجان، فقال علي رضي الله عنه: نورزونا أو مهرجونا كل يوم.

قيل: والتوفيق بين نسبة الإمام إلى بلاد متعددة، يمكن أن يولد بواحدة و يتوطن بأخرى، و يكون نشأته وتأهله بأخرى، وكل واحد من هذه يصدق

عليه أنه وطن؛ قيل: من أقام ببلدة أربع سنين ينتسب إليها، وقيل: من تأهل ببلدة فهو منهم. وسمعت من أثق به يروي عن بعض الكتب، أن ثابتاً توفي، وتزوج أم الامام أبي حنيفة رحمه الله الامام جعفر الصادق، وكان أبو حنيفة رحمه الله صغيراً وتربى في حجر جعفر الصادق، وأخذ علومه منه، وهذه ان ثبت فنقبة عظيمة لأبي حنيفة.

المطلب الثالث

في

ثناء الأئمة عليه وغير ذلك

روى هارون بن سعيد عن الشافعي رحمه الله تعالى: ما رأيت أحداً أفقه منه، من أراد أن يتفقه فعليه به وبأصحابه، وأن الناس عيال على أبي حنيفة ــ رحمه الله ــ في الفقه. ومعنى قوله: ما رأيت، ما علمت، لأنه ولد في السنة بل في اليوم الذي مات فيه الإمام. وفي رواية الصيمري: عيال على أبي حنيفة في القياس والإستحسان. قال الواقدي: كان مالك كثيراً ما يقول قوله وإن لا يظهره، وعن إسحق بن محمد: كان مالك ربما اعتبر بقوله في المسائل، وعن إسماعيل بن أبي فديك قال: رأيت مالكاً قابضاً على يد الإمام وهما يمشيان، فلما بلغا المسجد قدم الإمام، فسمعته يقول: لما دخل المسجد قال بسم الله هذا موضع الأمان، فآمني من عذابك ونجني من النار. وعن الشافعي رحمه الله: من أراد أن يتبحر في المغازي، فهو عيال على محمد بن إسحق؛ وفي الفقه عيال أبي حنيفة ــ رحمه الله ــ؛ وفي النحو عيال الكسائي؛ وفي التفسير عيال محمد بن مقاتل؛ وفي الشعر عيال زهير. وعنه: من لم ينظر في كتبه لم يتبحر في الفقه. وعنه: قوله أعظم من أن يدفع بالهوينا. وعن مالك بن أنس: وضع أبو حنيفة ــ رحمه الله ــ ستين ألف مسألة في الإسلام وعن الإمام أبو بكر بن عتيق، أنه وضع خمسمائة ألف مسألة. وذكر الخطيب الخوارزمي أنه وضع ثلاثمائة ألف مسألة، ثمانية وثلاثين ألفا في العبادة، والباقي في المعاملة، لولا هذا لبقي الناس في الضلالة.

المطلب الرابع

في

مذهبه في أصول الدين

قال عمرو بن حماد بن أبي حنيفة ــ رحمه الله ــ: أقمت عند مالك مدة، فلما أردت الرجوع، قلت: لعل بعض الحساد ذكروا جدي عندك على خلاف ما كان عليه، فأذكر لك مذهبه، فإن رضيت فذاك، وإلا فعظني، قلت: كان لا يخرج أحداً من الإيمان بذنب، قال: أصاب؛ قلت: وإن أصاب الفواحش، قال: أصاب؛ قلت وكان لا يكفر قاتل النفس، قال: أصاب، فمن قال غير هذا فقد أخطأ؛ قال: بلغني أنه كان يقول: إيماني مثل إيمان جبريل، قلت: بلغك الباطل، كان يقول: إن الله تعالى بعث جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما بعثه إلى من قبله، فأمره أن يدعو الناس إلى الإيمان، إيمان واحد لا ايمانان أو ثلاثة، ولا إيمان هذا وإقرار هذا، غير إيمان هذا وإقرار ذا، فتبسم كالراضي ولم يقل شيئاً؛ قلت: وكان ينكر الشك في الإيمان، قال: وما الشك فيه، قلت: عندنا أقوام لا يقولون أنا مؤمن حتى يستثنون إيمانه، أو يقول أحدهم: لا أدري أنا مؤمن أم لا، فأنكره وقال: من يقول هذا.

وروي عن الإمام أبي مقاتل أن (كتاب العالم والمتعلم)، كان لأبي حنيفة ــ رحمه الله ــ وأنه كان على مذهب أهل السنة والجماعة، اذ قد صرح الإمام في ذلك الكتاب بأكثر قواعد أهل السنة، و يلزم منه أن يكون بريئاً عن مذهب الإعتزال. وصرح صدر الأئمة أخطب الخطباء الخوارزمي المعتزلي في مناقبه، أن ذلك الكتاب له. وزعم المعتزلة أنه كان على رأيهم، وليس هذا بأول مكابرتهم. ولما سئل الإمام عن أهل السنة والجماعة، قال: أن تفضل الشيخين، وتحب الختنين، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى، وتمسح على الخفين، وتحل نبيذ التمر للتقوى على الطاعة لا للسكر، وألا تكفر أحداً بذنب، وألا تكلم في الله ــ يعني في صفاته ــ بشيء. وهذا أيضاً دليل على أنه على مذهب أهل السنة، فإن صفات الله تعالى عندهم توقيفية.

وكان لا يقول في الصحابة إلا خيراً، حتى أن بعضهم أمسكوا عن تفضيل بعضهم على البعض الآخر، إلا أن الجمهور على خلافه، فذهب الأكثر: الصديق أفضل، والخطابية: الفاروق أفضل والراوندية: العباس أفضل، والرافضة: علي أفضل، وأهل السنة اتفقوا على تقدم الشيخين، ثم عثمان، ثم علي عند الأكثر، وهو الأصح من مذهب الإمام، وعند الأقل علي ثم عثمان، وهو رواية عن الإمام.

واتفق أهل السنة على أن بعد الخلفاء الأربعة تمام العشرة المبشرة بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان، ومن له مزية أهل العقبتين من الأنصار، وكذا السابقون الأولون الذين صلوا إلى القبلتين، ثم اختلفوا أن هذا التفضيل ظني أو قطعي، قال الأشعري بالأول، والباقلاني بالثاني؛ وفي أنه بحسب الظاهر فقط، أو بحسب الظاهر والباطن معاً.

روي أن الإمام جالس عطاء بن أبي رباح امام أهل مكة، فقال: ممن قال من أهل العراق، ومن الذين لا يكذبون القدر، ولا يكفرون بالذنب، ولا يتناولون السلف، فعقد عطاء بيده ثلاثين، وقال: هكذا أدركنا السلف. وقد مر مناظرة الإمام مع أهل الأهواء بالبصرة، ووصيته لابنه حماد في ذلك.

المطلب الخامس

في

أجوبته اللطيفة

عن محمد بن مقاتل، قال: قال رجل للإمام: ما تقول فيمن لا يرجو الجنة، ولا يخاف النار ولا يخاف الله، ويأكل الميتة، ويصلي بلا ركوع ولا سجود، ويشهد بما لم يره، ويبغض الحق، ويحب الفتنة؛ قال أصحابه: أمر هذا الرجل مشكل؛ قال الإمام: هذا رجل يرجو الله تعالى لا الجنة، ويخاف الله تعالى لا النار، ولا يخاف الظلم من الله تعالى في عدله، ويأكل السمك والجراد، ويصلي الجنازة، ويشهد بالتوحيد، ويبغض الموت وهو حق، ويحب

المال والولد وهما فتنة، فقام السائل وقبل رأسه، وقال: أشهد أنك للعلم وعاء.

وقال العلامة حسام الدين السنغاقي أن رجلاً جاء إليه وقال: بواوأم بواو ين، قال الإمام: بواو ين، قال الرجل: بارك الله تعالى فيك كما بورك في لاولا، فلم يعلم الحاضرون ما قالا، قال الإمام: سألني عن التشهد بواو ين أم بواو، فقلت: بهما، فقال: بارك الله فيك كما بورك في لا شرقية ولا غربية. قلت: ورأيت في بعض المواضع أن السائل هو الخضر عليه السلام.

ذكر المرغيناني أن الإمام اجتمع مع شيطان الطاق في الحمام، فقال للإمام: أستاذكم مات فاسترحنا منه، وكان قريب العهد بموته، قال الإمام: أستاذنا يموت، وأستاذكم من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، فتحير الرافضي وكشف عورته، فأغمض الإمام بصره، فقال الشيطان: منذ كم أعمى الله بصرك يا نعمان، قال: منذ هتك الله سترك، فبادر الإمام إلى الخروج من الحمام، وأنشأ الإمام:

أقول وفي قولي بلاغ وحكمة	وما قلت قولاً جئت فيه بمنكر
ألا يا عباد الله خافوا إلهكم	ولا تدخلوا الحمام إلا بميزر

عن عبد الواحد الخطيب صدر الأئمة الخوارزمي العسكري: قال الإمام: كنا لا ننصرف من عند حماد إلا بفائدة، فقال لنا يوماً: إذا وردت عليك مسألة معضلة، فاجعلها سؤالاً على صاحبها، فوعيته، فقال لي يوماً ربيع الحاجب في دار المنصور ــ وكان يعاديني ــ أن أمير المؤمنين يأمرنا بقتل الرجل، فهل يحل لنا ذلك ولا ندري ما سببه، قلت: يا أبا العباس، أن أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل، قال: بالحق، قلت: أنفذ الحق حيث كان، وكان أراد الربيع أن يوثقني فربطته.

عن أبي يوسف بن خالد أن الإمام كان مع ابن أبي ليلى في الطريق، فرا على نسوان يغنين، فلما سكتن قال الإمام: أحسنتن، قال ابن أبي ليلى: أسقطت من بعد عن الشهادة، قال الإمام: لم؟ قال: قلت لمن يغني أحسنت، قال: متى قلت، قال: حين سكتن، قال: أراد بذلك أحسنتن بالسكوت.

وكان ابن أبي ليلى إذا وقع عويصة دس إلى الإمام من يسأله، وكان الإمام يعلم به و ينشد:

وإذا تكون كريهة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

حكي أن واحداً من أشراف البصرة، خطب إبنتي صديقه لأ بنيه، الكبرى للأكبر، والصغرى للأصغر، ووقع الغلط ليلة الزفاف، فزفت إلى كل منهما منكوحة الآخر، فلما تبين الأمر، تحير أبوهما واتخذ ضيافة، فجمع العلماء وفيهم الإمام والكسائي، فلما اجتمع الناس، عرض الأ بنان القصة، فاجترأ الكسائي، وفي رواية سفيان، وقال: حكم علي كرم الله وجهه في مثه على كل واحد من الرجلين العقد والصبر إلى أن يظهر براءة رحم موطوءته، فاشمأزا من هذا الجواب، لما فيه من الإنتظار، وأن يطأ كل منهما موطوءة أخيه، فقال أبو حنيفة: غير هذا أرفق بالفريقين، وهو أن يطلق كل منهما منكوحته و يتزوج بموطوءته، فرضيا به وفرحا عليه، ودعا الحاضرون لأبي حنيفة ــ رحمه الله ــ في علمه، ثم اشتغلوا بالطعام، قال الإمام: هذه أطعمة الوليمة الأولى، فأين أطعمة الوليمة الثانية، فضحك واستحسنوا كلامه وعلمه.

روي أن الأعمش وامرأته تخاصماً ليلة، فحلف الأعمش بالطلاق ان لم تكلميني الليبة، والمرأة سكتت ورضيت بالطلاق، وندم الأعمش، فذهب ليلاً إلى الإمام وكلمه بالحاجة، فقال الإمام: الفرج قريب، فأمر مؤذن الأعمش أن يؤذن قبل طلوع الفجر، فلما سمعت المرأة الأذان، قالت: الحمد لله الذي أراحني منك، فقال الأعمش: رحم الله أبا حنيفة حيث وقانا من الحيفة.

قيل: كان محمد بن اسحق صاحب المغازي يعادي للامام، فقال ابن اسحق عند الخليفة منصور، أن هذا يخالف جدك ابن عباس، ولا يجوز الاستثناء المنفصل، قال الخليفة: أهكذا، قال الامام: نعم، لكن هؤلاء بايعوك تقية، و يريدون لأنفسهم الاستثناء متى شاءوا، فغضب الخليفة، وأمر بحبس محمد بن اسحق.

روي أن دهرياً من الروم، ناظر مع علماء الإسلام، فأفحمهم إلا حماداً، ولم يأت أحد بما فيه مقنع، والإمام إذ ذاك لا يزال صبياً، فخاف حماد لأجل أنه لو ألزمه أيضاً، يهون أمر الإسلام. فرأى تلك الليلة في المنام، أن خنزيراً أكل شعب شجرة وفروعها، ولم يبق إلا أصلها، فخرج من الشجرة شبل أسد فقتل الخنزير. ولما ذهب الإمام إلى حماد وقت الصبح، وجده مغتماً في الغاية لأجل الدهري اللعين، ولأمر هذه الرؤيا، فسأله الإمام عن سبب هذا الاغتمام فبينه له، وقال: الحمد لله، الخنزير هو الدهري الخبيث، والشجرة العلم، وفروعها غيرك من العلماء، وأصلها أنت، والأسد أنا، وأنا أقهره بعون الله. فذهب الإمام مع أستاذه إلى الجامع، وصعد الدهري المنبر، وطلب الخصم، فحضر الإمام وهو صبي، فاستحقره الدهري، قال الإمام: دع هذا وهات كلامك، فتعجب الدهري من جرأته، ثم قال: كيف يمكن أن (يوجد) شيء لا أول له ولا آخر له، قال الإمام: هل تعرف العدد، قال: نعم، قال: ما قبل الواحد، قال: هو الأول ليس قبله شيء، فقال: إذاً لم يكن قبل الواحد المجازي اللفظي شيء، فكيف يكون قبل الواحد الحقيقي. قال الدهري: في أي جهة وجهه، وكل شيء لا يخلو عن الجهات، قال الإمام: إذا أوقدت السراج فإلى أي وجه نوره، قال: يستوي لنوره الجهات، قال: إذا كان حال النور المجازي المستعار هذا، فكيف نور السموات والأرض الباقي الدائم. قال الدهري: في أي مكان هو، وكل موجود لا بد له مكان، فأتى الإمام باللبن، وقال: هل فيه سمن، قال: نعم، قال: في أي مكان منه، قال: لا يختص بمكان منه، قال: إذا كان حال الموجود الزائل كذا، فكيف حال الباقي الدائم خالق الأرض والسماء، قال الدهري: بماذا يشتغل (هو)، قال: سألت هذه الأسئلة وأنت على المنبر، وأنا أجبت عنها، والآن أنزل على الأرض وأنا أصعد المنبر، فنزل وصعد الإمام، وقال: إذا كان على المنبر مشبه مثلك أنزله، وإذا كان على الأرض موحد مثلي رفعه، كل يوم هو في شأن، فبهت الدهري وقتلوه. هذا حال الإمام في صغره، فكيف في كبره.

وعن الحسن بن زياد: نسي رجل مكان ماله الذي دفنه، وجاء إلى

الإمام، فقال: صل طول الليل تتذكر، فما صلى ربع الليل حتى تذكر، وقيل له: من أين لك هذا، قال: لأن الشيطان لا يمكنه أن يسهر طول الليل، فيلقيه خاطره، وقال: لكن لم لم تصل بقية الليل شكراً لله تعالى على ذلك. وعنه: دفن رجل ماله في المفازة وقد سرق، وكان الرجل بخيلاً وكاد يموت غماً، فأتى الإمام ذلك الموضع، فوجد فيه قوماً يستخرجون الكمأة، فقال: هل تخلف منكم أحد، فقالوا: فتى يسمى زرزر، فجاء إليه وقال: الذي رآك حين أخذت المال يشهد عليك، فهلم بالبقية، وما أنفقته يهبك صاحب المال، فأعطاه، وعنى بقوله: الذي يشهد عليك، الله تعالى، فإنه شهيد على ما تعملون.

وكان الإمام جالساً، فمر به رجل، فقال: هذا الرجل غريب ومعلم وفي كمه حلاوة، فسئل الرجل، وكان كما قال، فقيل له: من أين علمت، قال: رأيته يلتفت يميناً وشمالاً، فعلمت أنه غريب، ورأيته ينظر إلى الصبيان، فعلمت أنه معلم، ورأيت الذباب يدخل في كمه، فعلمت أن فيه حلاوة.

مرض أبو يوسف، وقيل أنه قضى، قال الإمام: لا، قيل: من أين تقول، قال: أنه خدم العلم، فما لم يجن ثماره لا يموت، وكان كما قال، حتى روي أنه كان له يوم مات سبعمائة ركاب ذهبية.

المطلب السادس

في كرم أخلاقه وشمائله وورعه

سئل يزيد بن هارون: متى يحل للرجل أن يفتي، قال: إذا كان مثل الإمام، قيل له: أو تقول هذا، قال: ما رأيت أفقه منه ولا أورع، رأيته يوماً بفناء دار غريم له، قائماً في الشمس، فأنكرت، فقال لي: على مالكه مال، أخاف إن جلست في ظله أن يكون قرضاً جر نفعاً.

روي أن الإمام إذا أشكلت عليه المسألة، كان يستغفر ويقول: ما هذا إلا لذنب أحدثته، وربما قام وصلى، فيكشف المسألة ويقول: رجوت أنه تيب

علي. فبلغ ذلك فضيل بن عياض الزاهد، فبكى بكاء شديداً، ثم قال: ذلك لقلة ذنبه، وأما غيره فلا ينبه لهذا.

وعن إبراهيم بن عمرو بن حماد بن الإمام أنه قال: كان الإمام حسن الفراسة، وقال لكل واحد من تلامذته كلاماً، فكان كما قال لهم. قال لداود الطائي: انك تتخلى للعبادة، وكان كما قال، وقال لأبي يوسف: إنك تميل إلى الدنيا، وكان كذلك. روي أنه قال: لا يكتني أحد بعدي بكنيتي إلا وفيه جنون، قالوا: فرأينا عدة اكتنوا بها في قلوبهم ضعف.

عن النضر بن محمد أن الإمام نهى عن الإفتاء، وكان ابنه يسأله فلا يجيبه، فقال حماد: أنت بمكان لا يراك أحد، قال: أخاف أن يسألني السلطان: هل أفتيت، وأقول له: لا. روي أنه سئل عن شيء لا يعلمه، فلم يفت عشر سنين حتى ظن أنه احتيج إليه وعلم ما جهله غيره.

قيل: أنكر من بعض شركائه شيئاً من وجوه التجارة، فتصدق من ربحها بثلاثين ألفاً، وقيل تسعين ألفاً. وقعت في الكوفة غارة، فسئل عن عمر الغنم، فقيل: سبع سنين، فلم يأكل اللحم هذه المدة.

روى يوسف بن خالد أنه كان له جار يغني إذا جن الليل وهو سكران:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فأخذه الحرس يوماً وحبسته، فقال الإمام: فقدنا صوت جارنا وقيل حبس، فذهب إلى أمير البلدة، فلما رآه وثب من مكانه، فقال: ما جاء بك، فقص عليه الأمر، فقال: هلا أرسلت لي برسول، فأطلق كل من في الحبس وقال: أطلقتكم لحرمة شيخي، فاشكروا له، فأخذ الإمام بيد الفتى، وقال: هل ضيعناك، قال: لا يا سيدي، فأعطاه كيساً وقال: استعن بها على نقصان أيام الحبس، فتاب الفتى من عمله، ولازم مجلسه، وصار من الفقهاء.

روي أنه صلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة، فلما توفي، قال بنت

جاره أو ابن له: أين الدعامة؟، قال أبوه أو أبوها: كان ذلك دعامة الشرع، أبو حنيفة، رضي الله عنه.

كان له في كل شهر ستون ختمة، ختمة بالليل وختمة بالنهار، وكان يختم في رمضان، مع يوم الفطر، اثنتين وستين ختمةً، وختم في الموضع الذي فارق فيه الدنيا سبعة آلاف ختمة. وكان يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه.

وكان مسعر معاديا له، ولما رأى عبادته وأحياءه الليالي، تاب وقال: اجعلني في حل، فقال له: أما المغتاب من أولى الجهل، فهو في حل، وأما وقيعة العلماء، فشين الأبد، إلا أن يتوب. فكانا متآخيين بعد ذلك.

ولما هرب من بني أمية، أقام بمكة والمدينة إلى ظهور الهاشمية، فحج خمساً وخمسين حجة، والله أعلمَ بكمية عمرته. وكان يبضع الأمتعة، ويشتري بأرباحها حوائج المحدثين، ثم يدفع الباقي إليهم ويقول لهم: احمدوا الله تعالى، فإنه أرباح بضائعكم، يجريه الله تعالى على يدي.

وكان إذا أنفق على عياله تصدق بمثلها، وكذلك إذا اكتسى ثوباً أو أكل طعاماً. وقال: ما ملكت يداي منذ أكثر من أربعين سنة، إلا أربعة آلاف درهم، وإذا زاد عليها أخرجتها، وإنما أبقيتها، لقول علي رضي الله عنه: أربعة آلاف وما دونها نفقة، ولولا أني أخاف أن ألتجىء إلى هؤلاء، ما تركت منها درهما واحداً. وكان يتصدق عن والديه كل جمعة عشرين ديناراً، سوى ما يتصدق به في عامة السنة. وكان يذهب بأمه إلى مجلس عمرو بن ذر لتصلي التراويح، وكان بينهما ثلاثة أميال.

وقال: ما صليت صلاة منذ مات حماد، إلا استغفرت له ولوالدي، ولمن تعلم مني أو تعلمت منهُ، وقال: ما مددت رجلي نحو دار حماد، تعظيماً له. وكان بينهما سبع سكك.

روي أن عبد الله الدباخي، كان يقع في الإمام، فاحترق داره، ولم يجد الباب، واحترق معه. قال حافظ الدين البزازي: سمعت من ثقة عالم، أن

علاء الدين السوخي، بمدينة قيرم، مصنف (شرح المصابيح) و (التفسير اللطيف)، كان يدرس مسألة ابتلاع الصائم ما في أسنانه من الطعام، فلما قرر أن الفاصل مقدار الحمصة عند الإمام، قال: كانت أسنان الإمام كذا، كلاماً لا يرضي، فلم يمر إلا أياماً قلائل، حتى سقطت أسنانه المحكمة.

المطلب السابع

في هربه من القضاء

وذكر المرغيناني، أن المنصور دعا الإمام والثوري وشريكاً ومسعراً، فقال الإمام: أما أنا فأحتال، والثوري يهرب، ومسعر يتجنن، وأما شريك فلا آمن عليه أن يقع فيه. وكان الجندي يذهب بهم، فقال له سفيان: أريد البراز، فتوارى بالحائط، فإذا سفينة مملوءة بالشوك، فقال للملاح: خلف هذا الحائط رجل يريد أن يذبحني، أراد القضاء، فستروه تحت الشوك؛ وأما مسعر فقال للخليفة: كيف دوابك وغلمانك، فتركوه وقالوا أنه مجنون، وفي رواية: قال: مسناة الكوفة خربت، قال: يا شيخ، ما أنت وذكر المسناة، قال: بنو أمية خربوا السور، قال: أخرجوه فإنه مختل العقل؛ وأما الإمام فقال: اني رجل بزاز، وأهل الكوفة لا يرضون بي، وفي رواية: أهل الكوفة قريش والأنصار والعرب، وأنا من الموالي، وأنت ان وليتني يرمونني بالآجر، فتركه الخليفة؛ وأما شريك فقال: غالب حالي النسيان، قال: نطعمك اللبان حتى يذهب عنك النسيان، قال: بي خفة، قال: أطعمك كل يوم فالوذج السكر بدهن اللوز، قال: لا أبالي في الحكم على قريب أو بعيد، قال: أحكم علي وعلى ولدي. فتقلد، وتقدم إليه يوماً مولى الخليفة مع خصم له، فأراد التقدم على خصمه، فزبره القاضي، فقال له المولى: إنك شيخ أحمق، قال شريك: قلت ذلك لمولاك فلم يقبل، فعزلوه. روى أنه قال شريك: اني لا أبصر نقش خاتمي، قال: يعينك على النظر انسان، قال: تغير دماغي، قال: كل العسل بدهن اللوز، قال: أميل إلى النساء، قال: نبسط الجوائز تشتري بها الاماء.

عن عبد الرحمن بن مالك بن معول، قال: أحضر المنصور الإمام إلى بغداد،

وطلب منه أن يتولى القضاء، ويخرج القضاة إلى الكور من تحت يده، فأبى، فحلف المنصور بحبسه، وضرب كل يوم عشرة سياط، حتى ضرب مائة وعشرة سياط، فلما تتابع عليه الضرب، بكى وأكثر البكاء، فلم يلبث إلا يسيراً حتى انتقل الى جوار الله تعالى، محبوساً مبطوناً مجهوداً، فأخرجت جنازته، وكثر البكاء عليه، ودفن بمقابر الخيزران.

قيل: فلما أبى دسوا إليه السم فقتلوه. مات سنة خمسين ومائة، وكان ابن سبعين سنة، وقيل سنة إحدى وخمسين ومائة، في رجب أو شعبان أو نصف شوال، ولم يعقب إلا حماداً، وصلى عليه الحسن بن عمارة وأخرج من باب خراسان، ونودي في الناس، فلم يقدر على دفنه إلا بعد العصر من الزحام، وحزر من صلى عليه مقدار خمسين ألفاً، وجاء المنصور فصلى على قبره، ومكث الناس يصلون على قبره إلى عشرين يوماً.

والصحيح أن الإمام توفي في السجن، وإنما الخلاف في أنه مات بالضرب أو بالسم. والتوفيق بينهما، أنه سقي السم، ثم ضرب مصلوباً حتى يتفرق السم. واختلف في كيفية السم، قال بعضهم: دسوا إليه السم ولم يعرفه، وقيل: أكره على شربه، فامتنع وقال: أعلم ما فيه ولا أعين نفسي، فطرح وصب في فمه. روي أنه لما أحس بالموت، سجد، فمات وهو ساجد. قيل: لما أحس الإمام بالسم قام، قال المنصور: إلى أين، قال: إلى حيث وجهتني، فمضى به إلى السجن فمات فيه، رحمة الله عليه.

واعلم أنه جرى للإمام، مثل ما جرى له مع المنصور، مع ابن هبيرة، مرة أخرى في أيام المروانية، وأراد أن يوليه قضاء الكوفة، فأبى، وحبسه وضرب سياطاً على رأسه، حتى انتفخ رأسه ووجهه، فلم يقبل، فقال: ضربه في الدنيا أهون من مقامع الحديد في الآخرة، ثم قال: أشاور أصحابي، فأخرجه من السجن، فهرب إلى مكة، وأقام هناك إلى الدولة العباسية، فجاء زمن الخليفة المنصور، فأكرمه وأعطاه جائزة فلم يقبل. قيل: رأى ابن هبيرة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول: أما تخاف الله تعالى، تضرب رجلاً من أمتي بلا

جرم وتهدده. يقال قال الامام لأ بن هبيرة حين أمر بالضرب: أذكر مقامك بين يدي الله تعالى، فإنه أذل من مقامي هذا بين يديك، ولا تهددني، فإني أقول لا إله إلا الله، والله تعالى يسألك عني، حيث لا يقبل منك الجواب إلا بالحق.

المطلب الثامن

في اتصافه بعلم الباطن

عن شفيق بن ابراهيم قال: قال الإمام لإبراهيم بن أدم: يا ابراهيم انك رزقت من العبادة شيئاً صالحاً، فليكن العلم من بابك، فإنه رأس العبادة وقوام الأمر. عن حازم قال: كلمت الإمام في الزهد والعبادة واليقين والتوكل، ففسر لي كل باب على حدة، وميز لي كل فن منها. قال شريك النخعي: كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس، وهذا من أوضح الامارات على العلم الباطن، والإشتغال بمهمات الدين، فمن أوتي الصمت والزهد، فقد أوتي العلم كله.

ذكر الإمام أبو الحسين الهمداني في آخر (خزانة المفتين)، أن الإمام لما حج حجة الوداع، أعطى لسدنة الكعبة مالاً عظيماً حتى أخلوا له البيت، فدخل وشرع للصلاة، وافتتح القراءة — كما هو دأبه — على رجله اليمنى، حتى قرأ نصف القرآن، ثم ركع وقام في الثانية على رجله اليسرى، حتى ختم القرآن، ثم قال: إلهي عرفتك حق المعرفة، لكن ما قمت بكمال الطاعة، فهب نقصان الخدمة بكمال المعرفة، فنودي من زوايا البيت: عرفت فأحسنت المعرفة، وخدمت فأخلصت الخدمة، غفرنا لك، ولمن اتبعك، ولمن كان على مذهبك إلى قيام الساعة.

روي أن مسعراً كان يقول في سجوده: اللهم اني أتقرب إليك بدعائي لأبي حنيفة، رحمه الله تعالى.

المطلب التاسع

في المنامات في حقه

عن الشافعي رضي الله عنه، أنه كان يتبرك بقبر الإمام، ويجيء إلى قبره زائراً كل يوم، فإذا عرضت له حاجة، صلى ركعتين عند قبره، وسأل الله حاجته فتقضى.

روي أن الإمام رأى في المنام، كأنه ينبش قبر النبي عليه الصلاة والسلام، ويجمع عظامه إلى صدره، فهاله ذلك وارتحل إلى ابن سيرين، فقص الرؤيا، فقال: لست صاحب هذه الرؤيا، وإنما صاحبها أبو حنيفة. ـرحمه الله ـ، فقال: أنا هو، قال: اكشف عن ظهرك، فإذا بين كتفيه خال، فقال: أنت الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم في حقه: «يخرج في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة، بين كتفيه خال، يحيى الله تعالى دينه على يديه».

روى محمويه، وكان يعد من الأبدال، قال: رأيت محمد بن الحسن في المنام، فقلت: ما فعل الله بك، قال: أني لم أجعل جوفك وعاء للعلم وأنا أريد أن أعذبك، قلت: فما فعل بأبي يوسف، قال: فوقي، قلت: فما فعل بأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ، قال: أعلى عليين، وفي رواية: فوق أبي يوسف.

ذكر أبو النجيب الهمداني عن أبيه، قال: رأيت في النوم، كأن ثلاثة نجوم سقطت على الأرض، فمات الإمام، ثم مسعر، ثم سفيان، فذكرت ذلك لمحمد ابن مقاتل، فقال: ما ننكر أن يكون العلماء نجوم الأرض.

المطلب العاشر

في تلامذته الأعلام

جمع الله لأبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ ما لم يجمع لإمام من الأصحاب، الذين هم لب الألباب. منهم: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وزفر، وحسن ابن زياد، ووكيع، وعبد الله بن المبارك، وبشر بن غياث المريسي، وعافية بن

يزيد، وداود الطائي، و يوسف بن خالد السمتي، ومالك بن معول البجلي، ونوح بن أبي مريم. وفي مثله قال الفرزدق:

أولـئـك آبـائي فـجئني بمـثـلهـم إذا جمـعـتـنـا يـا جـريـر المجامع

وحق للإمام أن يقول:

أولـئـك أبـنـائي فـجئني بمثـلهـم إذا جمـعـتنـا يا عتيـد المنـاقـب

ذكر الإمام أبو المعالي الاسفراييني، عن نجيح بن ابراهيم، عن ابن كرامة: قال رجل: أخطأ أبو حنيفة، قال ابن كرامة: كيف تقول هذا، وعنده مثل أبي يوسف وزفر في قياسها، ومثل يحيى بن أبي زائدة، وحفص بن غياث، وحيان ومنديل في حفظهم الحديث، والقاسم بن معن في معرفته بالفقه والعربية، وداود الطائي وفضيل بن غياض في زهدهم، لم يكن يخطيء، وإن أخطأ ردوه إلى الحق.

قيل: اختلف إليه الطبقة العليا، ثم أبو يوسف، وأسد بن عمرو، والقاسم ابن معن، وزفر بن الهذيل، وأبو بكر الهذلي، والوليد بن أبان، والحسن بن زياد اللؤلؤي، و يوسف بن خالد، وداود الطائي الزاهد، ونوح بن أبي مريم الجامع، ويحيى بن زكريا، وابن المبارك، والمغيرة بن حمزة، ومحمد بن الحسن، وغيرهم.

قيل: اختلف إلى الإمام كثير من الحكام، وهم: أبو بكر، وأبو برزة، وأبو جابر، وأبو حصين، وزيد بن ثابت؛ وتكلم فيه ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والثوري، وشريك؛ ولم يضر الإمام مخالفتهم، ولا لحق منهم الشين، وجعل أمره وشأنه يزداد قوة، و يكثر أصحابه و يزيدون شوكة، فمال إليهم وجوه الناس، ووضح الحق بلا التباس.

ومن الأئمة المجتهدين:

الإمام مالك

رضي الله عنه

هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي، يكنى أبا عبد الله.

(ولد) سنة خمس أو أربع أو ثلاث وتسعين، أو تسعين من الهجرة. (مات) بالمدينة سنة تسع أو ثمان وسبعين ومائة، وله أربع وثمانون سنة، قال الواقدي: مات وله تسعون سنة.

وهو إمام دار الهجرة وعالم المدينة؛ روي عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليأتين على الناس زمان يضربون فيه أكباد الأبل، لا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة»؛ قال سفيان والزهري: المراد بعالم المدينة هو الإمام مالك.

قيل: هو من بني أصبح، قبيلة باليمن، حمل في بطن أمه ثلاث سنين، وهرم ابن حيان سنتين، والضحاك أربع سنين، حتى أنه ولد وأسنانه نابتة، فسمي الضحاك.

ومات مالك بالمدينة في أيام الرشيد، وقبره بالمدينة على شط بقيع الغردق.

وكان شديد البياض إلى الشقرة، طويلاً عظيم الهامة، أصلع يلبس الثياب العدنية الجياد، ويكره حلق الشارب، ويعده من المثلة. قيل: وكان قبيحاً، قالت له أمه: لا تقبلك حرفة إلا العلم، فاشتغل به فبلغ ما بلغ. قيل: كفاه فخراً أن الشافعي من أصحابه.

أخذ العلم عن الزهري، ويحيى بن سعيد، ونافع بن المنكدر، وهشام بن عروة، وزيد بن أسلم، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وخلق كثير. وأخذ عنه العلم جماعة كثيرة، هم أئمة البلاد؛ منهم الامام الشافعي، ومحمد بن ابراهيم بن دينار، وأبو هاشم، وعبد العزيز بن أبي حازم ـــ وهؤلاء نظراؤه من أصحابه ومعن بن عيسى، ويحيى بن يحيى، وعبدالله بن مسلمة القعيني، وعبدالله بن

وهب، وغير هؤلاء ممن لا يحصي عدده، وهؤلاء مشايخ البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهم من أئمة الحديث.

قال بكر بن عبد الله الصنعاني، أتينا مالك بن أنس، فجعل يحدثنا عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وكنا نستزيده من حديثه، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في ذلك الطاق، فأتينا ربيعة، فنبهناه وقلنا له: أنت ربيعة، قال: نعم، قلنا: الذي يحدث عنك مالك بن أنس قال: نعم، قلنا: كيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك، قال: أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حمل من علم.

قال عبد الرحمن بن مهدي: سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة؛ والأوزاعي امام في السنة وليس بإمام في الحديث؛ ومالك بن أنس إمام فيهما جميعاً.

وكان مالك مبالغاً في تعظيم العلم والدين، حتى كان إذا أراد أن يحدث، يتوضأ، و يلبس ثيابه وعمامته، و يسرح لحيته، و يستعمل الطيب، ويجلس على صدر مجلسه، و يتمكن في جلوسه بوقار وهيبة، وكان يطرق، ولا يعبث بشيء من لحيته وثوبه، ولا يتنخم، فقيل له في ذلك، قال: تعظيماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي رواية معن بن عيسى: اغتسل وتبخر وتطيب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه، زجره وقال: قال الله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾[1]، فمن رفع صوته عند حديثه، فكأنما رفع صوته عنده.

ومر يوماً على أبي حازم وهو جالس، فجازه وقال: لم أجد موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ الحديث وأنا قائم، وكان نقش خاتمه: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقيل له في ذلك، فقال: ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾[2].. الآية.

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.

قال يحيى بن سعيد: ما في القوم أصح حديثاً من مالك، وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء، فمالك النجم، وما أحد أمن على من مالك، وقال: إذا جاء الحديث عن مالك، فاشدد يديك به، وقال: كان مالك بن أنس إذا جاء بعض أهل الأهواء، قال: أراني على ثقة من ديني، أما أنت فشاك، اذهب الى شاك مثلك فخاصمه. وقال مالك: إذا لم يكن للإنسان خير في نفسه لم يكن للناس خير فيه، وقال: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يضعه الله في القلب.

قال أبو عبد الله: رأيت كأن النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، قاعد والناس حوله، ومالك قائم بين يديه، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسك، فهو يأخذ منه قبضة قبضة، ويدفعها إلى مالك، ومالك يذرها على الناس، قال مطرف: فأولت ذلك العلم واتباع السنة.

قال الشافعي: قالت لي عمتي ونحن بمكة: رأيت في هذه الليلة عجباً، فقلت لها: وما هو، قالت: رأيت كأن قائلاً يقول: مات الليلة أعلم أهل الأرض، قال الشافعي: فحسبنا ذلك، فإذا هو يوم مات مالك بن أنس.

قيل: بعث هارون إلى مالك يستحضره مجلسه، ليسمع منه ابناه الأمين والمأمون، فقال له: يا أبا عبد الله، ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ، قال: قلت: أعز الله أمير المؤمنين، إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه يعز، وإن أنتم أذللتموه ذل، والعلم يؤتى ولا يأتي، فقال: صدقت: أخرجا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس، قال مالك: بشريطة ألا يتخطيا رقاب الناس، ويجلسا حيث بهما المجلس، فحضراه بهذا الشرط.

قيل: لما حج هارون الرشيد، وصار إلى المدينة، أرسل إلى مالك أن أحمل إلينا كتابك، فقال: العلم يؤتى ولا يأتي، فقال الرشيد: والله لا نسمع إلا في بيتك، فقال مالك: حدثني نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «ان العالم إذا خص العلم دون العامة لا ينتفع به الخاص ولا العام»، فنادى في الناس، وأقبل أصحاب الحديث، ثم قال: حدثني نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «من تواضع للعلم يرفعه

الله»، فنزل وجلس مع أصحاب الحديث، ثم قرأ الكتاب، ولذلك سمي الكتاب (الموطأ)، فإن هارون قد تواطأ له، فحمل إليه هارون بغلاً ودابة وحماراً وخمسمائة دينار، فقبل المال ورد البهائم، ثم قال: ما كنت لأركب في مدينة، نبي الله ملحود في ترابها، ولم ير مالك راكباً بالمدينة قط.

روي عن الشافعي، أنه رأى على باب مالك: كراعاً من افراس خراسان وبغال مصر، ما رأيت أحسن منه، فقلت له: ما أحسنه، فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله، قلت، دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال: أنا أستحي من الله تعالى، أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحافر دابة.

روي أن الرشيد سأل مالكاً: هل لك دار، فقال: لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وقال: اشتر بها داراً، فأخذها ولم ينفقها، فلما أراد الرشيد الشخوص إلى العراق، قال لمالك: ينبغي أن تخرج معي، فأني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ، كما حمل عثمان الناس على القرآن، فقال: أما حمل الناس على الموطأ، فليس إلى ذلك سبيل، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا، فعند كل أهل مصر علم، وقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اختلاف أمتي رحمة»؛ وأما الخروج معك، فلا سبيل إليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيخرجون بعدي من المدينة لأجل الدنيا، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، وقال: «المدينة تنفي خبثها»، وهذه دنانيركم كما هي، ان شئتم فخذوها، وإن شئتم فدعوها ـ يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة، لما اصطنعته إليَّ، فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فرحل الرشيد إلى مكة، فأرسل إلى سفيان بن عيينة أن أحمل إليَّ علمك، فحمل إليه، فلما قدم العراق، كان الرشيد يقول: رحم الله مالكاً، تواطأنا له فانتفعنا بعلمه، ورحم الله سفيان، تواطأ لنا فلم ننتفع بعلمه.

قيل: كان مالك كلما جلس مجلسا، لا ينطق بشيء حتى يقول: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم﴾[1] و يروى أن سعيداً كلما

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣٢.

تسي شيئاً، يقول هذه الكلمات فيذكره.

وأعلم أنه لا يفي بتعداد فضائل هذا الطود الأشم، والبحر الزخار، بطون الكتب ومضامين الأسفار، فضلاً عن هذه السطور والأوراق، فاكتفينا بهذا القدر المسطور.

ومن الأئمة المجتهدين:

الإمام أبو عبد الله، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي.

لقي شافع النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو مترعرع، وأسلم أبو السائب يوم بدر، كان السائب صاحب راية بني هاشم يوم بدر، فأسر وفدى نفسه، ثم أسلم.

(ولد) الشافعي بغزة، أو بعسقلان، أو باليمن، سنة خمسين ومائة، وهي السنة التي توفي فيها أبو حنيفة. وقيل: بل ولد يوم وفاته، وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين قال محمد بن الحكم: إن أم الشافعي لما حملت به، رأت كأن المشتري خرج من بطنها وانقض، ثم وقع في كل بلدة منه شظية، فقال المعبر: أنه يخرج من بطنك عالم عظيم.

وقال الشافعي: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، في النوم، فقال لي: يا غلام، من أنت، فقلت: من رهطك يا رسول الله، فقال: ادن مني، فدنوت منه، فأخذ من ريقه، ففتحت فمي، فأمر من ريقه على لساني وفمي وشفتي، وقال: امش بارك الله فيك.

وقال أيضاً: رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، بمكة في زمان الصبا في المنام، ذا هيبة يؤم الناس في المسجد الحرام، فلما فرغ من صلاته، أقبل على الناس يعلمهم، فدنوت منه فقلت: علمني، فأخرج ميزاناً من كمه، فأعطاني وقال: هذا لك؛ قال الشافعي: فعرضت الرؤيا على المعبر، فقال: إنك تصير

إماماً في العلم، وتكون على السنة، لأن امام المسجد الحرام أفضل الأئمة كلهم، وأما الميزان، فإنك تعلم حقيقة النبي، صلى الله عليه وسلم، في نفسه.

وذكروا أن الشافعي كان في أول الأمر فقيراً، ولما سلموه إلى المعلم، ما كانوا يجدون أجرة المعلم، فكان المعلم يقصر في التعليم، إلا أن المعلم كلما علم صبياً شيئاً، كان الشافعي يتلقف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه، أخذ الشافعي يعلم الصبيان تلك الأشياء، فنظر المعلم، فرأى الشافعي يكفيه أمر الصبيان، أكثر من الأجرة التي كان يطمع بها منه، فترك طلب الأجرة، واستمرت هذه الأحوال، حتى تعلم القرآن لتسع سنين.

قال الشافعي: ولما ختمت القرآن، دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وأحفظ الحديث أو المسألة، وكان منزلنا بمكة في شعب الجيف، وكنت فقيراً بحيث ما كنت أملك ما أشتري به القراطيس، فكنت آخذ العظم وأكتب فيه. وكان في أول الأمر تفقه على مسلم بن خالد، وفي أثناء ذلك الأمر، وصل إليه الخبر بأن مالك بن أنس إمام المسلمين وسيدهم. قال الشافعي: فوقع في قلبي أن أذهب إليه. فاستعرت (الموطأ) من رجل بمكة، وحفظته، ثم دخلت إلى والي مكة، فأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك ابن أنس، وقدمت المدينة وبلغت الكتاب، فقال والي المدينة: يا فتى، ان كلفتني المشي من جوف المدينة إلى جوف مكة راجلاً حافياً، كان أهون علي من المشي إلى باب مالك، فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره، فقال: هيهات، وليتنا إذا ركبنا إليه، ووقفنا على بابه كثيراً، فتح لنا الباب، قال: ثم ركب وذهبنا معه إلى دار مالك، معه رجل، وقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك أني بالباب، فدخلت الجارية وأبطأت، ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقول: إن كان لك مسألة، فادفعها في رقعة، حتى يخرج إليك الجواب، وإن كان المجيء لمهم آخر، فقد عرضت يوم الخميس، فانصرف، فقال: إن معي كتاب والي مكة في مهم، فدخلت، ثم خرجت وفي يدها كرسي، فوضعته، فإذا مالك شيخ طوال، وقد خرج عليه

المهابة وهو متطلس، فرفع الوالي الكتاب إليه، فلما بلغ إلى قوله: إن محمد بن إدريس رجل شريف من أمه، حاله كذا وكذا، فرمى الكتاب من يده، وقال: سبحان الله، صار علم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بحيث يطلب بالرسائل، قال الشافعي: فقلت: أصلحك الله، اني رجل مطلبي من حالتي، وقصتي كذا وكذا، فلما سمع كلامي، نظر إلى ساعة، وكان لمالك فراسة، فقال لي: ما أسمك، قلت: محمد، فقال لي: يا محمد، اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن، فقلت: نعم وكرامة، فقال: ان الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بالمعاصي، ثم قال: إذا كان غداً تجيء بمن يقرأ لك (الموطأ)، فقلت: اني أقرأه من الحفظ. ورجعت إليه من الغد، وابتدأت بالقراءة، فلما أردت قطع القراءة خوفاً من ملاله، أعجبه حسن قراءتي، فيقول: يا فتى زد، حتى قرأته في أيام يسيرة، ثم أقمت بالمدينة إلى أن توفي مالك. وكان الشافعي إذا حكى شيئاً لمالك، يقول: هذا قول أستاذنا مالك. قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فاني سمعتك تكثر الدعاء له، فقال لي: يا بني، كان الشافعي كالشمس للنهار، وكالعافية للناس، فأنظر، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض.

وقال أخوه صالح بن أحمد بن حنبل: جاء الشافعي يوماً إلى أبي يعوده، وكان عليلاً، قال: فوثب أبي إليه، وقبل بين عينيه، ثم أجلسه في مكانه، وجلس بين يديه، ثم أخذ يسأله ساعة، فلما قام الشافعي وركب، أخذ أبي بركابه ومشى معه، فبلغ يحيى بن معين ذلك، فقال: سبحان الله، لم فعلت ذلك، قال أبي: وأنت يا أبا زكريا، لو مشيت من الجانب الآخر، لانتفعت به، ومن أراد الفقه، فليشم ذنب هذه البغلة.

وقال أحمد بن حنبل: ما أعلم أحداً أعظم منه على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي، وأني لأدعو له في آثار صلواتي: اللهم أغفر لي ولوالدي ولمحمد بن ادريس الشافعي.

وقال الحسين بن محمد الزعفراني: ما قرأت على الشافعي من الكتب شيئاً، إلا وأحمد بن حنبل شاهد.

قال الشافعي: ما طلب أحد العلم بالتعمق وعز النفس فأفلح، ولكن من طلبه بضيق اليد وذلة النفس وخدمة العلم أفلح. وقال: ما ناظرت أحداً قط، إلا أحببت أن يوفق و يسدد و يعان عليه، وتكون عليه رعاية من الله وحفظه، وما ناظرت أحداً، إلا ولم أبال، بين الله الحق على لساني أو لسانه.

وقال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: لأن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه — ما عدا الشرك — خير من أن ينظر في الكلام، فاني والله أطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط؛ وقال: ما أرتدى أحد بالكلام فأفلح.

وقال أبو محمد بن أخت الشافعي، عن أمه، قالت: ربما قدمنا في ليلة واحدة، ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر، المصباح إلى بين يدي الشافعي، وكان يستلقي و يتذكر، ثم ينادي: يا جارية، هلمي المصباح، فتقدمه، و يكتب ما يكتب ثم يقول: أرفعيه؛ فقيل لأبي محمد: ما أراد برد المصباح، قال: الظلمة أجلى للقلب.

وقال الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر؛ وقال: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وخانه..

وقال الحميدي: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة، بعشرة آلاف دينار في منديل، فضرب خباءه خارجاً من مكة، وكان الناس يأتونه، فما برحت حتى ذهبت كلها، ثم دخل مكة.

وقال المزني: ما رأيت أكرم من الشافعي، خرجت معه ليلة عيد من المسجد وأنا أذاكره في مسألة، فأتاه غلام بكيس، فقال له: مولاي يقرئك السلام، و يقول لك: خذ هذا الكيس، فأخذه منه؛ وأتاه رجل، فقال: يا أبا عبد الله: ولدت امرأتي الساعة، وليس عندي شيء، فدفع إليه الكيس، وصعد وليس معه شيء.

وفضائله أكثر من أن تحصى، و بالجملة: هو إمام الدنيا وعالم الأرض شرقاً

وغرباً، جمع الله له من العلوم والمفاخر ما لم يجمع لإمام قبله ولا بعده، وانتشر له من الذكر ما لم ينتشر لأحد سواه، سمع مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، ومسلم بن خالد، وخلق كثير؛ حدث عنه أحمد بن حنبل، وأبو ثور ابراهيم بن خالد، وأبو ابراهيم المزني، والربيع بن سليمان المرادي، وخلق كثير غيرهم.

قدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة، وأقام بها سنتين، ثم خرج إلى مكة، ثم قدمها سنة ثمان وتسعين ومائة، فأقام بها أشهراً، ثم خرج إلى مصر، و (مات) بها عند العشاء الآخرة ليلة الجمعة، و (دفن) في يوم الجمعة بعد العصر، وكان آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين، وله أربع وخمسون سنة.

قال الربيع: رأيت في المنام قبل موت الشافعي بأيام، أن آدم صلوات الله عليه مات، ويريدون أن يخرجوا بجنازته، فلما أصبحت، سألت بعض أهل العلم عنه، فقال: هذا موت أعلم أهل الأرض، لأن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها، فما كان يسيراً حتى مات الشافعي وقال المزني دخلت على الشافعي في علته التي مات فيها، فقلت: كيف أصبحت، قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللأخوان مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، ولسوء أعمالي ملاقياً، وعلى الله وارداً، فلا أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أو إلى النار فأعزيها، ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منه وتكرما
فلولاك لم يسلم من ابليس عابد وكيف وقد أغوى صفيك آدما

وقال أحمد بن حنبل: رأيت الشافعي في المنام، فقلت له: يا أخي، ما فعل الله بك، قال: غفر لي وتوجني وزوجني، وقال لي: هذا بما لم تزه بما أرضيتك، ولم تتكبر فيما أعطيتك.

اتفق العلماء قاطبة، من أهل الفقه والأصول والحديث واللغة والنحو وغير

ذلك، على أمانته وعدالته، وزهده وورعه، وتقواه وجوده، وحسن سيرته، وعلو قدره فالمطنب في وصفه مقصر، والمسهب في مدحه مقتصر، سيما وقد كثر عليها المجلدات الكبار، ولم يبلغوا ساحل هذا البحر الزخار، فكيف يستقصى في هذه الوريقات الصغار.

وأعلم أن الأئمة الشافعية، استدلوا على رجحان مذهب الشافعي على سائر المذاهب، بأحاديث مطلقة ومقيدة.

أما الأحاديث المطلقة، فهي الأحاديث الواردة في فضل قريش، منها حديث جبير بن مطعم، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن للقرشي قوة الرجلين من غير قريش»، قيل للزهري: ما عنى بذلك، قال: نبل الرأي؛ ومنها: «هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»؛ ومنها «إذا اجتمعت جماعات في بعضها قريش، فالحق مع قريش، وهي مع الحق»؛ ومنها «أمان أهل الأرض من الخلاف الموالاة لقريش»؛ ومنها قوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش.

ومنها ما في الصحيحين: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس إثنان». وقد أوردوا غير ذلك أحاديث تدل على فضل قريش مطلقاً، لا في حق العلم، بل أعم من ذلك، ولذلك لم أذكرها، والذي يمكن حمله على فضيلة العلم في الجملة في حق قريش مطلقاً هو الذي ذكرناه.

وأما الأحاديث الدالة على فضيلة الشافعي بخصوصه، فهي ما روي أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً». وعن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لا تؤموا قريشاً وائتموا بها، ولا تقدموا على قريش وقدموها، ولا تعلموا قريشاً وتعلموا منها، فإن أمانة الأمين من قريش، تعدل أمانة الأمينين من غيرهم، وإن علم عالم قريش يملأ سبع طباق الأرض».. وهذا الحديث قاله علي، كرم الله وجهه، يوم حروراء، لعبد الله بن عباس، لما أرسله الى الخوارج، وقال: قل لهم: علام تتهموني، وأشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها»، وفي لفظ آخر: «في رأس كل مائة سنة رجلاً من أهلي يبين أمر دينهم»، ذكره الإمام أحمد بن حنبل.

وقال عقيبة: نظرت في سنة مائة، فإذا هو رجل من آل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: عمر بن عبد العزيز؛ ونظرت في رأس المائة الثانية، فإذا هو رجل من آل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: محمد بن ادريس الشافعي، وهذا ثابت عن الإمام أحمد سق الله عهده.

قال العلماء: فعلى هذا عالم المائة الثالثة ابن سريج، وقيل: الأشعري، لكن رجحوا كون عالم المائة الثالثة ابن سريج لوجهين:

الأول: أن أبا الحسن الأشعري، كان قيامه للذب عن أصول العقائد دون فروعها، وابن سريج كان قيامه للذب عن فروع المذهب الواقع عن عالم المائة الثانية، فإن المناسبة بينه وبين عالم المائة الثانية، اقتضت تعيين ابن سريج.

الثاني: أن الأشعري تأخرت وفاته عن رأس القرن إلى رأس العشرين، ووفاة ابن سريج في رأس القرن.

وقد صح أن الحديث ذكر في مجلس أبي العباس ابن سريج، فقام شيخ من أهل العلم، فقال: أبشر أيها القاضي، فإن الله تعالى، بعث على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز، وعلى الثانية الشافعي ــ رحمه الله ــ، وبعثك على الثالثة، ثم أنشأ يقول:

إثنان قد مضيا فبورك فيهما ... عمر الخليفة ثم حلف السؤدد
الشافعي الألمعي محمد ... أرث النبوة وابن عم محمد
أرجو أبا العباس أنك ثالث ... من بعدهم سقيا لتربة أحمد

قال: فصاح ابن سريج، وبكى وقال: لقد نعى إلي نفسي، وروي أنه مات في تلك السنة.

وأما المائة الرابعة، فقد قيل أنه الشيخ أبو حامد الاسفراييني، وقيل: بل الأستاذ سهل بن أبي سهل الصعلوكي.

قال ابن السبكي: والخامس الغزالي، والسادس الإمام فخر الدين الرازي، ويحتمل أن يكون الإمام الرافعي، إلا أن وفاته تأخرت إلى بعد العشرين والستمائة، كما تأخرت وفاة الأشعري. ومن العجيب وقوع الإختلاف في المائة الثالثة بين الأشعري وابن سريج، وفي المائة السادسة بين الإمام الرازي والرافعي، مع وقوع وفاة ابن سريج سنة ثلاث وثلاثمائة وتأخر وفاة الأشعري إلى بعد العشرين، ووقوع وفاة الإمام الرازي سنة ست وستمائة وتأخر وفاة الرافعي إلى بعد العشرين. وفي المائة السابعة ابن دقيق العيد، بلا مدافعة فيه أصلاً.

ثم قالوا: إن العلماء المذكورين كلهم شافعية، ومن هنا تبين أنه الإمام المبعوث، الذي استقر أمر الناس على قوله، وبعث بعده في رأس كل مائة من يقرر مذهبه. وإذا ثبت هذا ثبت أنه مصيب في اجتهاده، فإن الله تعالى يأبى ــ ان شاء الله ــ أن يبعث لتجديد دينه ناقصاً في علمه ومخطئاً في اجتهاده، والمذهب أن المصيب بين المجتهدين واحد فقط. هذا ما ذكروه.

ولكن لا يخفى عليك أن أمر التفضيل يدور على أنواع ثلاثة:

أحدها: فضيلة الأفراد، كقولك: زهاد العلم أفضل من عوام المسلمين؛

وثانيها: كثرة الأفراد الفاضلة، فيراد فضيلة الجنس، كقولك: الرجل خير من المرأة، إذ ليس كل رجل حتى الفساق، خيراً من كل امرأة حتى رابعة العدوية قدس سرها؛

وثالثها: قوة جهة الفضيلة، كقولك: عوام البشر أفضل من عوام الملائكة، فإن الأفراد الفاضلة، وإن لم تكن أكثر في البشر، لكن جهة الفضيلة أقوى فيهم، كما حقق في موضعه، فيراد فضيلة الجنس أيضاً.

وإذا عرفت ذلك، فأعلم أن فضيلة القرشي على غيره، ليس من قبيل النوع

الأول، وذلك ظاهر، إذ ليس كل قرشي أفضل ممن عداه، بل أما من قبيل النوع الثاني أو الثالث، وعلى كل تقدير، لا يدل على فضيلة الشافعي بخصوصه، ولو سلم دلالة بعض الأحاديث السالفة على فضيلته بخصوصه على غيره، وهو أحق بذلك، لكن من حيث أنه قرشي لا مطلقاً، ولو سلم أنه يدل على فضيلته في العلم، وهو كذلك، كما يفهم من بعض الأحاديث السالفة، لكن يدل على فضيلته على معاصريه وعلى من بعده، لا على السلف ولا على من عداه مطلقاً، بحيث يدخل السلف فيهم، لأن العرف شاهد على أن الفضيلة في أمثال هذا الكلام لا تتناول من تقدمه، على أنه يلزم حينئذ فضيلته على الصحابة أيضاً، وأنه باطل جزماً.

وأما حديث: «الأئمة من قريش»، فقد يراد به ـ والله أعلم ـ الإمامة الكبرى دون إمامة العلم، أو ما هو أعم منهما، وإلا لنازعت الأنصار الصديق وقت احتجاجه بهذا الحديث عليهم، وأيضاً لو كان المراد امامة العلم، لأختص الفتوى بقريش في زمن الأصحاب، وليس كذلك، فحاشاهم عن المساهلة في أمر الدين.

وأعلم أن من تدبر قوله، صلى الله عليه وسلم: «اختلاف أمتي رحمة»، وعرف أن مبنى مسائل الفروع على الظن، لا يسوغ له التحكم بين المذاهب؛ ولا العصبية لواحد من المجتهدين على الآخر منهم، وإنما قصارى أمر المقلد أن يعتقد صحة مذهبه، وإلا لما صح تقليده، وأن يعتقد خطأ مخالفة في موضع خلافه، وإلا لم يصح مذهبه، لأنه يعتقد خطأ من يخالفه مطلقاً، إذ كم من مسائل اتفاقية بين الأئمة، وإذا كان مسائل الفروع ظنيات، يلزم أن يكون صحة مذهبه محتمل الخطأ، وخطأ مخالفة محتمل الصحة، فلا يكون الصحة والخطأ هناك أمراً يقينياً، بل راجعاً إلى ظن المجتهد والمقلد، فحينئذ لا يبقى مزيد جدال للعصبية والجدال، إلا أن بعضاً من فقهاء زماننا، أخذتهم الحمية لبعض المذاهب، ويركب الصعب والذلول في العصبية، وهذا من سوء أخلاقهم، ولقد يوجد فيهم من يبالغ في العصبية، حتى يمتنع من الصلاة خلف بعض، إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره، ويا ويح هؤلاء، أين هم من الله، ولو كان

الشافعي وأبو حنيفة حيين، لشددا النكير على هذه الطائفة وتبرآ منهم فيا يفعلون، فلعمر الله لا أحصي عدد من رأيته يشمر عن ساعد الإجتهاد في الإنكار على شافعي يذبح ولا بسمي، أو حنفي يلمس ذكره ولا يتوضأ، أو مالكي يصلي ولا يبسمل، أو حنبلي، يقدم الجمعة على الزوال، وهو يرى من العوام ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى يتركون الصلاة، بل يرى كثيراً من أهل بيته يتركونها وهو ساكت عنهم، مع أن جزاء من تركها عند الشافعية ومالك وأحمد ضرب العنق، فيا لله والمسلمين، أهذا فقيه على الحقيقة، قبح الله مثل هذا الفقيه، ثم وما بالكم تنكرون مثل هذه الفروع ولا تنكرون المكوس والمحرمات المجمع عليها، ولا تأخذكم الغيرة لله تعالى فيها، وإنما تأخذكم الغيرة للشافعي وأبي حنيفة، حتى يؤدي ذلك إلى افتراق كلمتكم، وتسلط الجهال عليكم، وسقوط هيبتكم عند العامة، وقول السفهاء في أعراضكم ما لا ينبغي، فيهلكون لكلامهم فيكم، لأن لحومكم مسمومة على كل حال لأنكم علماء، وإنما تهلكون أنفسكم بما تركبونه من العظائم، تاب الله عليكم، وأرشدكم طريق الصلاح والفلاح، بحرمة العلم الذي منحه الله إياكم، وبحرمة العلماء الذين أخذتموه منهم، عصمنا الله وإياكم عن التعصب في الدين، وثبتنا وإياكم على التقوى واليقين، بحرمة نبيه الأمين، وآله وصحبه الأكرمين.

ومن الأئمة المجتهدين.

الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي

(ولد) ببغداد سنة أربع وستين ومائة، ومات بها سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة. كان إماماً في الفقه والحديث، والزهد والورع والعبادة، وبه عرف الصحيح والسقيم، والمجروح من المعدل.

نشأ ببغداد، وطلب العلم وسمع الحديث من شيوخها، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والجزيرة، وكتب عن علماء ذلك العصر، فسمع

من يزيد بن هارون، ويحيى بن سعيد القطان، وسفيان بن عيينة، ومحمد بن ادريس الشافعي، وعبد الرزاق بن همام، وخلق كثير سواهم.

روى عنه ابناه صالح وعبد الله، وابن عمه حنبل بن إسحق، ومحمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وأبو زرعة، وأبو داود السجستاني، وخلق كثير سواهم، إلا أن البخاري لم يذكر في صحيحه عنه إلا حديثاً واحداً في آخر كتاب الصدقات تعليقاً، وروى أحمد بن الحسن الترمذي عنه حديثاً آخر. وفضائله كثيرة، ومناقبه جمة، وآثاره في الإسلام مشهورة، ومقاماته في الدين مذكورة، انتشر ذكره في الآفاق، وسرى حمده في البلاد، وهو أحد المجتهدين المعمول بقوله ورأيه، ومذهبه في كثير من البلاد.

قال إسحق بن راهويه: أحمد بن حنبل حجة بين الله وبين عبده في أرضه. وقال الشافعي: خرجت من بغداد، وما خلفت بها أحداً أتقى وأورع ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل. وقال أحمد بن سعيد الدارمي: ما رأيت أسود الرأس، أحفظ لحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا أعلم بفقهه ومعانيه، من أبي عبد الله أحمد بن حنبل. وقال أبو زرعة: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: ما يدريك، قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب. وقال ابراهيم الحزبي: رأيت أحمد بن حنبل كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء. وقال أبو داود السجستاني: كانت مجالسة أحمد بن حنبل مجالسة الآخرة، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيته ذكر الدنيا قط.

وقال محمد بن موسى: حمل إلى الحسن بن عبد العزيز ميراثه من مصر، مائة ألف دينار، فحمل إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس، في كل كيس ألف دينار، فقال: يا أبا عبد الله، هذه ميراث حلال، فخذها واستعن بها على عائلتك، فقال: لا حاجة لي فيها، أنا في كفاية، فردها ولم يقبل منها شيئاً.

وقال عبد الله بن أحمد: كنت أسمع أبي كثيراً يقول في دبر صلاته: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصن وجهي عن المسألة لغيرك.

وقال ميمون بن الأصبع: كنت ببغداد، فسمعت ضجة، فقلت: ما هذا، فقالوا: أحمد بن حنبل يمتحن، فدخلت، فلما ضرب سوطاً، قال: بسم الله، فلما ضرب الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضرب الثالث، قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضرب الرابع، قال: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾[1]، فضرب تسعة وعشرين سوطاً، وكانت تكة أحمد حاشية ثوب، فانقطعت، فنزل السراويل إلى عانته، فرمى أحمد طرفه إلى السماء، وحرك شفتيه، فما كان بأسرع من أن ارتقى السراويل ولم ينزل، فدخلت إليه بعد سبعة أيام، فقلت: يا أبا عبد الله: رأيتك تحرك شفتيك، فأي شيء قلت، قال: قلت اللهم اني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش، إن كنت تعلم أني على الصواب، فلا تهتك لي ستراً.

وقال أحمد بن محمد الكندي: رأيت أحمد بن حنبل في المنام، فقلت: ما صنع الله بك، قال: غفر لي، ثم قال: يا أحمد ضربت في، قال: قلت: نعم يا رب، فقال: يا أحمد هذا وجهي فانظر إليه، فقد أبحتك النظر إليه.

وقد تقدم قصة محنة أحمد بن حنبل بخلق القرآن على وجه لا مزيد عليه.

روى أنه لما مات أحمد بن حنبل، صلى عليه من المسلمين ما لا يحصى، فأمر المتوكل أن يمسح موضع الصلاة عليه من الأرض، فوجدوا موقف ألفي ألف وثلاثمائة ألف ونحوها. ولما انتشر خبر موته، أقبل الناس من البلاد يصلون على قبره، فصلى عليه ما لا يحصى. روى أنه أسلم في ذلك اليوم من اليهود والنصارى نحواً من ثلاثين ألفاً، لما رأوا من كثرة الخلق على جنازته، ولما رأوا من العجب ذلك اليوم.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٥١.

ومن الأئمة المجتهدين.

الإمام أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد

ابن حبتة الأنصاري البجلي

وجده سعد أول أب لأبي يوسف في الإسلام، وله نصرة للنبي، وعرض عليه، عليه الصلاة والسلام، يوم أحد، فرده لصغره، وكان لا يأذن للخروج إلى الغزاة إلا البالغ.

نزل الكوفة فمات بها، وصلى عليه زيد بن أرقم، وكبر عليه خمساً، وقد أصاب لسعد من النبي صلى الله عليه وسلم دعوة.

ذكر الإمام الصيمري أن سعد بن حبتة البجلي من الأوس، جاء يوم الخندق، فاستصغره النبي صلى الله عليه وسلم، ومسح رأسه، فتلك المسحة فيهم إلى قيام الساعة. وكان الإمام أبو يوسف إذا نظر إليه كأن رأسه أدهن من تلك المسحة.

(ولد) أبو يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة بالكوفة، ثم سكن بغداد، وسمع من الإمام أبي حنيفة، وأبي إسحق الشيباني، وسليمان التيمي، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وسليمان الأعمش، وهشام بن عروة، وعبد الله بن عمرو العمري، وحنظلة بن أبي سفيان، وعطاء بن السائب، ومحمد بن إسحق بن يسار، وحجاج بن أرطأة، والحسن بن دينار، وليث بن سعد، وأيوب بن عتبة، وجماعة.

وروى عنه محمد بن الحسن، وبشر بن الوليد الكندي، وعلي بن مجعد، وابن حنبل ويحيى بن معين، وعمر بن محمد الناقد، وأحمد بن منيع، وعلي بن موسى الطوسي، وعبدوس بن بشر، والحسن بن شبيب في آخرين.

ولاه موسى أبو هارون الرشيد قضاء بغداد، ثم الرشيد، وهو أول من لقب بقاضي القضاة في الإسلام، لم يختلف يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وعلي ابن المديني في أنه ثقة. وكان استخلف ابنه يوسف على الجانب الغربي، وأقره الرشيد على عمله، وولاه قضاء الرصافة بعد أبيه.

قال بشر بن غياث: صحبت أبا يوسف سبع عشرة سنة، ثم أنصبت عليه الدنيا سبع عشرة سنة؛ قال أبو يوسف: ما أظن أجلي إلا قد اقترب فما لبث شهراً حتى مات. قيل أنه مات لخمس خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة.

روى أن الشيخ معروف الكرخي تأسف حيث فاتته صلاته، فقيل له في ذلك أنه ولي القضاء، وكان من عمال السلاطين، قال: أني رأيت البارحة كأني دخلت الجنة، فرأيت قصراً فرشت مجالسه، وأرخيت ستوره، وقام ولدانه، قلت: لمن هذا، قالوا: لأبي يوسف، قلت: سبحان الله، وبم استحق هذا، قالوا: بتعليم العلم وصبره على أذاهم.

ذكر الإمام عبد الحميد الخوارزمي، والإمام الصيمري، عن يحيى بن حرملة، عن أبي يوسف أنه قال: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل الحال، فجاء إلى أبي وأنا عند الإمام، فقال: يا بني، لا تمد رجلك معه، فإن خبزه مشوي وأنت محتاج إلى المعاش، فاخترت طاعة والدي، وقعدت عن الطلب، فسألني الإمام وتفقدني وقال: ما خلفك عنا، قلت: طلب المعاش، فلما رجع الناس، دفع إلي صرة مائة درهم، فقال: أنفق هذا، فإذا نفد فأعلمني، وألزم الحلقة، وجعل كلما نفد يعطيني مائة أخرى بلا أعلامي، كأنه يخبر بنفادها، حتى بلغت حاجتي من العلم، أحسن الله تعالى مكافأته وغفر له.

وذكر الإمام الحلبي، عن علي بن الجعد، عن أبي يوسف، قال: مات أبي وأنا صغير، وأسلمتني أمي إلى القصار، فكنت أدع القصار وألزم حلقة الإمام، ولما طال ذلك، جاءت أمي إلى الإمام وقالت: ما للصبي أستاذ غيرك، أطعمه غزلي وهو يتيم، قال الإمام: دعيه فإنه يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فولت قائلة: هذا شيخ ذهب عقله، فلزمته حتى نفعني الله بالعلم، وتقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد، وآكل على مائدته، فلما كان في بعض الأيام، قدم إلى الرشيد فالوذجة بدهن الفستق، فقال: كل منها فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها، فضحكت، فسألني عن الضحك، فأخبرته، وقال: لعمري أن العلم ينفع ويرفع ديناً ودنيا، وترحم على الإمام وقال: كان ينظر بعين

قلبه، ويرى ما لا يراه غيره بعين رأسه.

وعن شجاع بن محمد، عن أبي يوسف، قال: مات أبي فلم أحضر جنازته، وتركته على الجيران والأقارب، خشية أن يفوتني مجلس من الإمام ما لا تذهب حسرته عني.

وعن بشر بن الوليد، قال: كان عيالي يدخلون على عيال أبي يوسف، فحكت امرأته القديمة، أن أبا يوسف كان لا يغيب عن مجلس الإمام ليلاً ونهاراً إلا في بعض الليالي، فذهبت إلى الإمام، وشكيت من الإقلال، قالت: فوعظني وقال: إنما هي أيام قلائل وستفتح الدنيا لكم أضعاف ما ترجونه، فلم تمر الأيام حتى فتحت، فسألت أبا يوسف عن مقدار ما يملك، فقال: لا أعرف الجميع، إنما أعرف أن لي سبعمائة بغل ركابهن من ذهب، وثلاثمائة فرس.

عن طلحة بن محمد بن جعفر، أنه كان مشهوراً بالعلم ظاهراً بالفضل من أصحاب الإمام، أفقه أهل عصره، وهو أول من وضع في أصول الفقه على مذهب الإمام، وأملي المسائل، وبث علم الإمام في أقطار الأرض.

عن القاسم بن رزيق، قال: كان أبو يوسف صغير الجثة، يكاد يغرق في فراشه، فأخذ في الكلام، فتحيرت وقلت: لو شاء الله أن يجعل العلم في جوف طير لفعل.

عن بشر بن الوليد: أوى أبو يوسف ليلة إلى فراشه، فإذا رجل يقرع الباب، فإذا هرثمة بن أعين، فقال: أجب الخليفة، قال: ما السبب، قال: لا أدري، خرج مسرور الخادم، فأمرني أن أجيء بك، فاغتسل وتحنط وراح؛ قال: فدخلت، فإذا عيسى بن جعفر عنده، فسلمت، فرد السلام وقال: روعناك، ثم قال: عند هذا جارية لا يبيعني، قلت: وما قدرها حتى تمنعها من الخليفة، قال: ليس من العدل سرعة العزل، لي حلف على ألا أبيعها ولا أهبها، قال الرشيد: هل من مخرج، قلت: نعم، يبيع النصف ويهب النصف، فيكون لم يهب ولم يبع؛ فأتى بالجارية وفعل ذلك، ثم قال الرشيد: يا يعقوب، إن لم أبت معها الليلة، كادت نفسي تخرج، ولا من الإستبراء، قال: اعتقها وتزوجها، فإن الحرة لا تستبرأ؛ فأعتقها وتزوجها على عشرين ألف دينار، ثم

أمر لأبي يوسف عشرين تختاً من ثياب ومائتي ألف درهم، ووهبت له الجارية نصف مهرها، واعتذرت بأن نصفه جعلته لأحتياجي، قال بشر: فأخذ المال وأعطاني ألف دينار، وقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت، قال بشر: قلت: لا.

يروى أن الرشيد، حلف بالطلاق ثلاثاً ان باتت زوجته زبيدة في ملكه، وندم وتحير، فقال: ان هاهنا فتى من أصحاب الإمام، (منه) يرجى المخرج، فدعاه وعرض عليه، فقال: استعمل حق العلم، قال: كيف، أنت على السرير وأنا قائم، فوضع له كرسي وجلس عليه، ثم قال: تبيت الليلة في المسجد ولا يد لأحد عليه، قال الله تعالى: «وأن المساجد لله»؛ فولاه الرشيد قضاء القضاة، وقال له: حاجتك، قال: أن تخرجني من اليمين كما أخرجتك، فإن أمي كانت تنهاني عن التعلم، فحلفت أن أطعمها خبيص سكر تتخذ للخليفة في طبق الخليفة، وكان في جواري يهودي، فبنى كنيفاً وضيق الطريق، فمنعته، وقال: إذا جئت بعمارة الخليفة وضاق الطريق لها تهدمه، فحلفت أن أفعل ذلك؛ فأمر بعمارته وركب عليها، وجعل في طبق خبيصة فبعث إلى أمه، فلما ركب العمارة ضاقت المحلة بسبب الكنيف فهدم، فقال اليهودي: كنت علمت بالهدم حين قلت: إذا ضاقت بالعمارة فأهدمه، وخرج أبو يوسف عن الحلفين.

يروى أنه حج مع الرشيد وكان زميله وكان إذا بزق رفع ذيل العمارة فبصق، فقال له الرشيد: أتدري من أنت، فباهى أنه من آل هاشم، فقال أبو يوسف: فخرك بنسبك وفي العالم ألوف مثلك، وأنا أوحد العصر في العلم، فانقطع الخليفة وقال: ليتني كنت حمالاً وتعلمت العلم.

وقال محمد بن سلمة الفقيه: حج أبو يوسف مع الرشيد، وتقدم يعقوب للإمامة في عرفات، فلما صلى ركعتين سلم وقال: يا أهل مكة، أتموا صلاتكم، فأنا قوم سفر، فقال رجل من أهل مكة: نحن أعلم به منك وممن علمك، فقال: لو كنت كذلك لما تكلمت في صلاتك، فسر هارون وقال: وددت أن هذا الجواب لي بشطر مملكتي. وقيل: قال ذلك الرجل: جبلنا جبل الرحمة، ومنزل الحكم والعلم والبركات من السماء، ونحن مهبط الوحي، فقال: نعم،

ولكن ما استقرت (الرحمة) بجبلكم، بل سالت إلينا في الأودية والشعاب، فاستقرت عندنا. ذكر الإمام الغزنوي عن هلال، أن أبا يوسف كان يحفظ التفسير والحديث وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه.

وعن أحمد بن حنبل (أنه قال): صحبت من لا يخشى العار، عار يوم القيامة؛ وعنه أنه قال: رؤوس النعمة ثلاثة: الإسلام، والغنى، والعافية، ولا يتم العيش إلا بها. وعن علي بن الجعد قال: العلم لا يعطيك بعضه، حتى تعطي أنت له كلك، فإذا أعطيت كلك، كنت في إعطائه البعض لك على غرر. وعن الفضل قال: لا يبلغ في الفقه، إلا من ليس له هم الدنيا والآخرة. وعن محمد بن سماعة، (أنه) كان يصلي بعدما ولى القضاء كل يوم مائة ركعة. وعن بشر بن القاسم قال: قال أبو يوسف: أخذت الفرائض ومسائل الحيض عن الإمام في مجلس، والنحو عن رجل حاذق في مجلس.

وذكر عباس الدوري، أنه كلم الخليفة في أرزاق الأنصار فأجرى عليهم، وكان هو منهم. وكان معظماً لأمور الدين، لم يكن يرفع يديه تحت الثياب إذا دعا ربه، بل كان يبرز، وكان يصوم رجب وشعبان.

وعن محمد بن فضل بن عطية: رأيت رجلين يتساومان جارية، فقال أحدهما: مثلي ومثلك قول الله تعالى: ﴿ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة﴾[1]، فسمع أبو يوسف كلامهما، فتغير لونه وكاد يغشى عليه، فأقبل يعاتب القائل وقال: أما يخشى أحدكم من الله تعالى، يجعل كلامه نزلة لكلامه، أما ينبغي لقارىء القرآن أن يقرأه بخشوع وورع وهيبة، أما أراك إلا وقد زال عقلك. وفي رواية: سمع رجلاً يقول لآخر: ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾[2]، فعاتبه بهذا العتاب.

وقال محمد بن الفضل: كنت لا أحب أبا يوسف لمخالطته الولاة، فلما سمعت هذا الكلام أحببته. وذكر أبو إسحق الرازي، أنه سئل عن ركابه،

---

(١) سورة ص، آية: ٢٣.

(٢) سورة طه، آية: ٤٠.

حيث كان من الذهب، وقد نهى عنه، فقال: أريد أن أرى الناس عز العلم، أن ابن الخياط بلغ به جلالة العلم إلى هذا القدر حتى يزداد الناس حرصاً.

قيل وكان هو أول من خوطب بقاضي القضاة، وأول من غير لباس العلماء بهذا الزي، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وإملاء الناس المسائل ونشرها في أقطار الأرض، حتى قيل: لولا أبو يوسف لما ذكر أبو حنيفة. وكان يقول: ما قلت قولاً خالفت فيه أبا حنيفة، وإنما هو قول قاله ثم رغب عنه. وعن ابراهيم بن مسلمة الطيالسي، أنه كان يدعو للإمام قبل أبويه، وقال: كان الإمام يدعو لحماد قبل أبويه. وكانت له عند الرشيد منزلة رفيعة، بحيث يبلغ دار الخلافة راكباً بغلته، فيرفع له الستر، فيدخل كما هو راكباً، والرشيد يبدأه بالسلام، حتى رد شهادة بعض قواده، فشكاه، فسأله الرشيد، فقال: سمعته يقول: أنا عبد الخليفة، فإن كان صادقاً فلا شهادة له، وإن كان كاذباً فشهادته مردودة. قيل: قال الخليفة له: إن أنا شهدت أمراً، هل تقبلها مني، قال: لا، فسأل عن ذلك، قال: لأنك تنكر على الحق، ولا تحضر الجماعة مع المسلمين؛ فبنى الرشيد مسجداً في داره، وأذن للعامة في الصلاة في مسجده، فحضر بعد ذلك الصلاة معهم.

ويروي أن الرشيد قال له يوماً: إنك تبطيء في زيارتي وأنا راغب مشتاق إلى صحبتك، قال: إنما يحصل لك الشرف بزيارتي إذا زرتك في بعض الأوقات، وأما إذا أكثرت منها، فلا يحصل لك الشرف أصلاً، قال: فقبله الرشيد واستحسن جوابه.

روى أن الرشيد لما جعل الأمين ولي عهده في صباه، قال أبو يوسف: الحمد لله الذي جعل ولي عهد المؤمنين من لم يسود صحيفته بالأوزار، فبلغ ذلك أمه زبيدة، فأنفذت إليه مائة ألف درهم.

عن علي بن عيسى القمي قال: جئت إلى أبي يوسف في وقت ظننت أنه مشتغل بجواريه، فإذا على الطاقات قماطر حول البيت، قال: هذا قضايا قضيت بها على عباد الله تعالى، وأنا محتاج إلى أن أعدلها جواباً يوم القيامة. وعن

القاسم بن حكيم قال سمعته يقول: يا ليتني مت على ما كنت عليه من الفقر ولم أدخل في القضاء، على أني بحمد الله تعالى ما تعمدت جوراً، ولا حابيت خصماً من خصم، من سلطان ولا سوقة.

وعن محمد بن جماعة: سمعته يقول في اليوم الذي مات فيه: اللهم انك تعلم أني لم أظلم في حكم حكمت به بين عبادك متعمداً، واجتهدت على أن يوافق كتابك وسنة نبيك عليه الصلاة والسلام، وما لم أُجده، جعلت بيني وبينك الإمام أبا حنيفة، لعلمي أنه لم يكن أحد أعلم به منه. وعن بشر بن الوليد قال: قال في مرضه الذي مات فيه: اللهم إنك تعلم أني لم أطأ فرجاً حراماً قط، وأنا أعلم وأنك تعلم أني لم آكل درهماً حراماً.

وذكر الإمام أبو الفرج سعيد بن رجاء الأصفهاني، عن أبي عبد الله السيد مولى، عن أبيه، قال: سمعته يقول عند موته: اللهم إن كنت تعلم أنه ما تقدم إليَّ خصمان، فأحببت أن يكون القضاء لأحدهما فأغفر لي. قال أبو حفص: ورأيتهم على مثله، أن يقول في مثل هذه الحالة بخلاف ما كان هو فيه، والله أعلم.

* * *

ومن الأئمة المجتهدين.

الإمام أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني

من قرية تسمى حرستا من أعمال دمشق، قدم أبوه العراق، فولد محمد بواسط، ونشأ بالكوفة؛ وقيل أنه مولى لبني شيبان من قرية فلسطين، ثم انتقل إلى الكوفة.

وذكر الإمام العلامة النسفي، صاحب (المصفى) و (الكافي)، أنه محمد بن الحسن بن عبد الله بن طاوس بن هرمز ملك بني شيبان، وأبو حنيفة نعمان بن ثابت بن طاوس بن هرمز، أسلم على يد عمر، وقد نقل عن بعض الكتب إن

هذه النسبة تبلغ إلى أفريدون. وذكر الخطيب البغدادي أنه من الجزيرة، كان أبوه في جند الشام.

(ولد) بواسط سنة اثنتين وثلاثين ومائة؛ نشأ بالكوفة، وغلب عليه الرأي، أي الإجتهاد؛ قدم بغداد، وسمع منه الناس الحديث والرأي سمع العلم من الإمام أبي حنيفة، ومسعر بن كدام، والثوري، وعمر بن ذر، ومالك بن معول ومالك، وأبي عمر، والأوزاعي، وزمعة بن صالح، وبكير بن عامر، وأبي يوسف.

سكن بغداد وحدث بها. روى عنه الإمام الشافعي، وأبو سليمان الجوزجاني، وهشام بن عبد الله الرازي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وإسماعيل بن توبة، وعلي بن مسلم الطوسي، وغيرهم.

كان الرشيد ولاه القضاء، فخرج معه إلى خراسان، ومات بالري ودفن به.

وكان الإمام من أحسن الناس وجهاً ولباساً، قدم به أبوه إلى الإمام، فقال لوالده: أحلق رأسه وألبسه الخلقان، ففعل، فزاد جمالاً، وفيه يقول أبو نواس:

حلقوا رأسه ليكسوه قبحاً ... غيرة منهم عليه وشحا
كان في وجهه صباح وليل ... نزعوا ليله وأبقوه صبحاً

وعن وكيع: كنا نتجانب أن نمشي معه في طلب الحديث، لأنه كان غلاماً جميلاً. وعن عبد الله بن محمد بن سلام، أنه رأى في المنام كأن قرين وقعاً من السماء إلى الأرض، فما مضى شهران حتى مات محمد والكسائي بعده بيومين.

ذكر أنه مات بالري سنة تسع وثمانين ومائة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة؛ وقيل: إن الإمام محمداً والكسائي ماتا في يوم واحد، فقال الرشيد: دفنت بالري الفقه واللغة؛ روى أن الرشيد قال: انها بلدة مشؤومة، دخلتها ومعي الفقه والأدب وخرجت وليس معي شيء منهما.

دفن الإمام محمد بجبل طبرك، بقرب دار هشام بن عبد الله الرازي؛

والكسائي بقرية أزنبوية، وبينهما أربعة فراسخ، وكان معسكره أربعة فراسخ، نزل الإمام محمد في جانب، والكسائي في جانب.

عن هشام بن عبد الله ــ الذي توفي الإمام في بيته ــ أنه لما حضرته الوفاة، بكى وقال: لو أوقفني الله تعالى، وقال: يا محمد، ما أقدمك على الري، أمجاهداً في سبيلي، أم ابتغاء مرضاتي، ما أقول.

عن الربيع، عن الشافعي: ما رأت عيناي مثل محمد بن الحسن، ولم تلد النساء في زمانه مثله. حكى أنه قيل لمحمد: ألا تصنف في الزهد كتاباً، قال: نعم، وكان قد فرغ من تصنيف الأحكام، وخف دماغه، وأراد أن يصنف في الزهد مائة تصنيف، فلم يتفرغ إلا لهذا الكتاب، وأنه كان في الزهد والورع؛ وقيل أنه طلب من محمد أن يفهرس تصانيفه، فبلغ ألف تصنيف، لو عاش لأتمها وأتعب المقتبسين، وقيل: موته رحمة وحياته رحمة.

وعنه عن الشافعي: ليس لأحد عليّ من المنة في العلم وأسباب الدنيا ما لمحمد علي؛ وكان يترحم عليه في عامة الأوقات، وقال: حبست بالعراق لدين فسعى محمد حتى خلصني، فأنا له شاكر من بين الجميع. قيل: أفلس الشافعي، فأمر محمد أصحابه فجمعوا له مائة ألف درهم، ثم أفلس الثانية، فأمر له سبعين ألف درهم، ثم أفلس في الثالثة، وقال: لو كان فيك خير لكفاك ما جمعت، لك ولعقبك. وقيل كان الشافعي مشتغلاً بكتب محمد، فلما قال ذلك أظهر الخلاف.

وعن الجارود بن معاوية، قال: كان الشافعي بالعراق يصنف الكتب، وأصحاب محمد يكسرون عليه أقاويله بالحجج، وأصحاب الحديث أيضاً لا يلتفتون إلى أقواله، ويرمونه بالاعتزال، فلما لم يقم له بالعراق سوق، خرج إلى مصر، ولم يكن بها فقيه معلوم، فقام بها سوقه.

عن أبي عبيد قال: قدمت على محمد، فرأيت الشافعي عنده، فسأله عن شيء فأجاب، فرضي بالجواب فكتبه، فرآه محمد فوهب له مائة درهم، وقال: ان كنت تشتهي العلم فألزم. سمعت الشافعي يقول: لقد كتبت عنه حمل بعير، ولولاه ما لصق بي من العلم شيء، والناس كلهم عيال على أهل العراق، وهم

على اهل الكوفة، وهم على الإمام أبي حنيفة؛ وقال، لو كان محمد يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا كلامه، لكن كان يكلمنا على قدر عقولنا؛ وقال: ما رأيت سميناً عاقلاً قط غيره، وما رأيت سميناً قط أخف روحاً منه.

وأنشدوا للشيخ سيف الدين الباخرزي البخاري:

يقولون أجسام المحبين نضوة وأنت سمين لست غير أمرىء
فقلت لأن الحب خالف طبعهم فوافق لي طبعي فصار غذائي

وعن ابن سماعة، أنه قال لأهله: لا تسألوني حاجة، فإن فيها شغل قلبي، وخذوا ما بدا لكم من وكيل لي، فإنه أفرغ لقلبي. وحبس محمد في السجن وضيق عليه، لامتناعه عن القضاء. وكان من أورع الناس، وكان أهل بغداد أميل إليه، وآخذ بقوله من قول أبي يوسف.

وعنه أنه قال: مذهبي ومذهب الإمام في تفضيل الصحابة: أبو بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم عثمان، رضي الله عنهم. عن محمد بن سلمة، أنه كان جزءاً من الليلة ينام، وجزءاً يصلي، وجزءاً يدرس؛ وكان يتوسخ لباسه ولا يتفرغ لنزعه؛ وكان في داره ديك يصوت، فقال: اذبحوه فإنه يشغلني وكان لا ينام بالليل، ويضع حوله كراريس ربما يرفع منها واحداً، ثم يضعه، ويرفع آخر؛ وكان بين يديه طشت، وربما ينزع قميصه، وبين يديه عشر جوار روميات عالمات بالكتابة والعربية، يقرأن عليه العلم، فقيل له: لم لا تنام، قال: كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين ثقة بي، ويقولون: إذا وقع بنا أمر رفعناه إليه، فإذا نمت ففيه تخريب الدين؛ وكان يقول: النوم من الحرارة، فأدفعها بنزع الثوب، وبصب الماء من الطشت على جسدي، وأما أن الكراريس، فلأن العلم ثقيل، فإذا ثقل هذا أخذت من هذا.

وعن محمد بن سماعة، أن الرشيد كان قد أعطى ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب كتاب الأمان، ثم أراد إبطاله، فسأل محمداً عن ذلك، فقال: هذا أمان صحيح، ودمه حرام، فدفع الكتاب إلى الحسن بن زياد، فقال بصوت ضعيف؛ أمان فغضب الرشيد، فدخل البختري وهب بن

وهب القاضي، وأخرج من خفه سكيناً، فقطع الكتاب من غير أن يسأل عنه، وقال: هذا أمان مفسوخ وكتاب فاسد، أقتله ودمه في عنقي، فضرب الرشيد بالدواة وجه محمد فشجه، وخرج وهو يبكي، قال ابن سماعة: قلت له: أتبكي من شجة في الله تعالى، قال: إنما أبكي لتقصيري، حيث لم أقل للبختري: بأي حجة قلت ذلك. قال الرشيد لما غضب على محمد: إن الذي يقوم عزم هؤلاء على الخروج علينا أنت وأمثالك، ومنع محمداً عن الفتيا، ثم بعد مدة قربه الرشيد، وولاه قضاء القضاة، وحمل معه إلى الري، حين خرج إلى مقاتلة رافع بن ليث بن نصر بن سيار بسمرقند، وتوفي بها كما ذكرناه.

وعن أبي نصر محمد بن سلام: وصف عند هارون فصاحته وعلمه وفهمه، فأمر بإحضاره، فعلم أبو يوسف أنه لو أحضر، ربما يميل إليه قلب الخليفة ويهجره، فقال يا أمير المؤمنين، أنه لا يصلح لمجلس الخليفة، لما به من سلس البول ــ وليس فيه ذلك ــ فقال الخليفة: إذا أراد القيام فليقم، فجاء إلى محمد وقال أبو يوسف: إن الخليفة يحب أن يراك و يسمع كلامك؛ ولكنك لا تعرف آداب الخلفاء، فإذا أشرت إليك القيام فقم، فحضر مجلس الخليفة، فلما مال قلب الخليفة إليه بالكلية لفصاحته وحلو منطقه ــ وكان في أطيب الكلام ــ أشار إليه أن يقوم فقام، فقال الرشيد: لولا به ما قال، ما قام، فبلغ ذلك محمداً، فقال: اللهم لا تخرجه من الدنيا حتى يبتلى بما نسبني إليه، فحج أبو يوسف مع الرشيد في عمارة واحدة، فأخذه البول، فأستحيى من الرشيد أن يبول فصبر، فانشقت مثانته، ومات من ذلك، فحكي ذلك للرشيد، فقال لو علمت أنه كذلك، لأذنت له أن يبول في ذيلي. ولما مات رحمه الله، لم يخرج محمد لجنازته، قيل أن جواري أبي يوسف كن يبكينه و يقلن:

اليوم يرحمنا من كان يحسدنا ... اليوم نتبع من كانوا لنا تبعاً

قيل: وغيره محمد بمخالطة السلطان، فدعا عليه أبو يوسف، فاستجيب له فيه، فلم يخرج من الدنيا حتى ابتلى بالقضاء ستة أشهر.

قيل: كان الإمام محمد يكتب في تصانيفه: روى محمد عن يعقوب عن أبي حنيفة، وبعد ما وقع كتب روى محمد عن أبي حنيفة، وهجر اسم أبي

يوسف، كما يشاهد في آخر تصانيفه، وبين بعض المتأخرين: لفعل كل منهما محامل بعيدة، ولكن الأمر ظاهر للمتأمل.

ومن الأئمة الحنفية.

عبد الله بن المبارك المروزي

مولى رجل من بني حنظلة، أو بني عبد شمس، أو بني سعد تميم. ولد سنة ثمان عشرة ومائة، أو تسع وعشرين ومائة، وكانت أمه خوارزمية وأبوه تركيا.

وسئل عن بدء أمره، قال: كنت يوماً مع أخواني في بستان لنا، حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلت وشربت إلى الليل، وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور، فقمت في بعض الليل فضربت، وطائر على شجرة فوق رأسي يصيح، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا العود الذي بيدي ينطق كما ينطق الإنسان، ويقول: ﴿ألم يأذن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾[1]، قلت: بلى والله، فتركت العود وكسرته، وصرفت من كان عندي، قال وكان هذا أول زهدي. وكذلك كانت هذه الآية سبب التوبة لفضيل بن عياض كما ذكر في موضعه. وذكر السمعاني والصيمري أن عبد الله ابن المبارك (مات) بهيت سنة ثمانين ومائة.

ذكر صاحب (حلية الأولياء)، أنه ورد على الرشيد من عامل هيت: أنه مات هنا غريب يدعى بعبد الله بن المبارك، فاجتمع الناس على جنازته، قال الرشيد لوزيره يا فضل بن الربيع: أيذن للناس يعزوننا فيه، فتعجب الفضل، وقال الرشيد، كان ينشد:

الله يدفع بالسلطان معضلة — عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبل — وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

عن أشعث بن شعبة، قال: قدم علينا بالرقة ابن المبارك، فانجفل الناس

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٦.

إليه، حتى تقطعت النعال وارتفعت الغبرة، وكان الرشيد فيها، فأشرفت أم ولد للرشيد من برج، وقالت: من هذا؟ قالوا: قدم من خراسان عالم، قالت: هذا هو الملك ولا يجتمع الناس على هارون إلا بشرط وأعوان.

عن ابن إسحق: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم فضلاً عليه، إلا بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت كتبه التي حدث بها من أحاديث النبي، صلى الله عليه وسلم، عشرين ألفاً أو أحد وعشرين ألفاً.

ومن لطيف ما يحكى عنه، أنه عطس رجل فلم يحمد الله، فقال: ما يقول العاطس، قال: الحمد لله، قال: يرحمك الله؛ قال الراوي ــ وهو محمد بن حنبل ــ: فتعجبنا من حسن أدبه.

عن أبي وهب: قال له رجل أعمى: أدع الله تعالى أن يرد عليَّ بصري، فدعا، فرد الله تعالى عليه بصره وأنا أنظر.

وعن المسيب بن واضح: كلمه طائفة أن يقضي عن رجل سبعمائة درهم، فكتب إلى وكيله، فأمر له سبعة آلاف درهم، وأعاد الوكيل إليه الكتاب بأن القلم قد غلط، فكتب إليه: أعطه أربعة عشر ألف درهم، فكتب إليه الوكيل أن العمل إذا كان عى هذا الوجه، فإن الضيعة تباع، فكتب إليه: إن كنت وكيلي فأنفذ ما أمرتك به، وإلا فأقعد وأنا أكون وكيلاً لك أنفذ أمرك، فإني سمعت سفيان قال: سمعت ليثاً قال: سمعت مجاهداً قال: سمعت ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فاجأه من أخيه فرحة غفر الله له»، فأحببت أن أدخله فرحة بعد فرحة.

قال صاحب (حلية الأولياء): أدرك ابن المبارك من التابعين يحيى بن سعيد الأنصاري، وسليمان التيمي، وحميد الطويل، وأمثالهم، وكثيراً من الأئمة، مثل سفيان وابن جريج وشعبة.

حدث عنه من الأئمة مثل معتمر بن سليمان، والوليد بن مسلم. وأمثالها.

وعن ابن المبارك: أن أول العلم النية، ثم الفهم، ثم العمل، ثم الحفظ، ثم

النشر. وكان أكثر أوقاته في الجهاد، وكان يقاتل و يبلى بلاء حسناً، فإذا كان وقت القسمة غاب، فقيل له في ذلك، قال يعرفني الذي أقاتل له. وفضائله كثيرة، وفيما ذكرناه مقنع.

ومن الأئمة الحنفية

أبو الهذيل أو أبو خالد زفر بن هذيل بن صباح الكوفي

وكان من أصبهان، وكان أحد العشرة الذين دونوا الكتب. قال أصحابه: ما كنا نقدر أن نذكر الدنيا بين يديه، إذا ذكرها واحد منا عن المجلس وتركه، وكنا نتحدث فيما بيننا أن الخوف قتله.

عن محمد بن عبد الله الأنصاري، قال: أكره زفر على أن يلي القضاء، فأبى وهدم منزله، واختفى مدة، ثم خرج وأصلح منزله، ولما أكره ثانياً اختفى كذلك حتى عفي عنه.

وعن يحيى بن معين: زفر زاهد ثقة مأمون. عن بشر بن القاسم، سمعته يقول: لا أخلف بعد موتي شيئاً أخاف عليه الحساب، فلما مات، قوم ما في بيته فلم يبلغ ثلاثة دراهم. ولما احتضر، قال أبو يوسف وغيره: أوص، فقال: هذا المتاع لزوجتي، وهذه ثلاثة آلاف درهم لولد أخي ـــ وكان تزوج امرأة أخيه بعد وفاته ـــ وأما أنا، فليس لي أحد ولا لأحد علي شيء.

وعن عبد الله بن أبي رزمة: كنا نختلف إليه وإلى أبي يوسف، وكان أبو يوسف يطول المسألة و يبسط، فتلتبس علينا المسألة؛ وكنا إذا جالسنا زفر، يختصر المسألة، ويجيء بالدليل القاطع من غير حشو.

وعن يحيى بن أكثم، قال: قال زفر: لم أجتر أن أخالف الإمام بعد وفاته، لأنه ألزمني وردني إلى قوله في حياته، وأما بعد وفاته فكيف أخالفه، وهو لو كان حياً وحاج ردني إلى قوله.

عن الحسن بن زياد: كان زفر وداود الطائي متواخيين، فترك داود الفقه وأقبل على العبادة، وأما زفر فقد جمع بينهما.

(مات) زفر بالبصرة في أول خلافة المهدي سنة ثمان وخمسين ومائة. وكان أبوه هذيل والياً على البصرة، ومات وهو وال عليها؛ وكان أخوه صباح ابن الهذيل والياً على صدقات بني تميم؛ وكان أمه أمة. وكان وجهه يشبه وجوه العجم، ولسانه لسان العرب. عن الوليد بن حماد ـ أخي حسن بن زياد: قلت لعمي حسن: كيف كان هو وأبو يوسف عند الإمام، قال: كأنهما عصفوران انقض عليهما البازي.

ومن الأئمة الحنفية.

الإمام داود بن نصير الطائي الكوفي

أصله من خراسان. عن عبد الله بن داود، سأله إسحق عن أصحاب الإمام، فقال: أبو يوسف وزفر، وداود، وعافية الأودي، وأسد بن عمرو، وعلي بن مسهر، ويحيى بن أبي زائدة، والقاسم بن معن؛ ثم قال: لو أن داود وزن بأهل الأرض لوزنهم فضلاً وصلاحاً.

وكان من أجلة أصحاب الإمام فأثر أثر كل أثير الزهد والورع. قيل: قال لنفسه: إن طلبت الدنيا بالحديث أو بالقرآن فأنت عاص؛ أو بالشعر وأيام الناس فأنت غافل؛ أو ليس بعده الموت. وكان له خطة خطها الفاروق، رضي الله عنه، لأجداده حين هزم هرمز، فباع ثلثيها بأربعمائة درهم، فعبد الله تعالى عشرين سنة يأكل منها، ولما مات كان كفنه منه.

عن أبي نعيم قال: جالس داود أهل العربية، ثم علماء القرآن، ثم المحدثين، حتى صار رأساً في كل منهم؛ ثم جالس الإمام وتفقه حتى لم يتقدم عليه أحد، ثم ترك وتخلى للعبادة حتى صار جبلاً. وكان لا يأكل الخبز، بل يشرب السويق، ويقول: ما بين مضغ الخبز وشرب السويق قراءة خمسين آية.

عن ابن السماك قال له: أوصني، قال: أنظر ألا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، واستح من الله تعالى في قربه منك وقدرته عليك؛

وقال: صم الدهر، وليكن افطارك الموت، وفر من الناس فرارك من السبع، غير تارك لجماعتهم ولا مفارق لسنتهم.

روى أنه أراد أن يجرب نفسه أنه هل يقدر على العزلة، فجلس في مجلس الإمام سنة لا يتكلم، ثم تخلى، وسببه أن الإمام قال له يوماً: أما الأداة فقد أحكمناها، قال: وهل بقي شيء، قال الإمام: العمل، وقيل: قال له الإمام: لقد طال يدك ولسانك، و يلك، ثم كان يختلف ولا يتكلم، فلما علم أنه تصبر، قصد إلى كتبه فغرقها في الفرات، وتعبد وتخلى.

وأتاه فضيل بن عياض يوماً يعوده، فقال له: أقلل من زيارتنا، فإني أبغض غلبة الناس، فجاءه يوماً فلم يفتح له الباب، فقعد يبكي في الخارج وداود في الداخل.

وقيل له: دلني على رجل أجلس إليه، قال: تلك ضالة لا توجد. وقال له الحارث بن ادريس: عظني، قال: عسكر الموتى ينتظرونك. وقال له رجل من أهله: عرفت الرحم بيننا فأوص، فدمعت عيناه، ثم قال: إن الليل والنهار مراحل ينزلها الناس حتى يبلغوا إلى آخر أسفارهم، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديك، فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك، وأني أقول لك هذا ولا أعلم أحداً أشد تضييعاً مني لذلك، ثم قام.

وعن عمرو بن صدقة قال: كان داود صديقاً لي، وكنا نجلس معه في مجلس حلقة الإمام، فلما اعتزل زرته وقلت له: خوفتنا، فقال: مجلسكم ليس من أمر الآخرة ثم قال مكرراً: أستغفر الله، وقام وتركني وقال: لا تجلس إلى أحد يحفظ.

وذكر الإمام الحلبي، أن داود سمع عبد الملك بن عمير، وحبيب بن أبي عمرو، والأعمش، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ وروى عنه إسماعيل ابن علبة، والمصعب بن مقدام، وأبو نعيم الفضل بين دكين وغيرهم.

وقيل له: لو طبخنا لك دسماً، قال: وددت، فطبخوه ووضعوه بين يديه،

فقال: ما فعل أيتام بني فلان، قالوا: على حالهم، قال: اذهبوا به إليهم، فإنهم إذا أكلوا كان عند الله مدخراً، ولو أكلت يكون في الكنيف.

قال الحسن بن الربيع لأبن المبارك: ما بال داود ارتفع ذكره، وفي البلد رجال كسفيان وأصحابه، قال: إنما عظم أمره عندهم، لعظم أمر الله تعالى في قلبه، وما ترك داود الناس إلا لمعرفته.

قال محمد بن سويد الطائي: رأيته يغدو ويروح إلى الإمام، فلما تخلى للعبادة، رأيت الإمام جاءه زائراً غير مرة. ودخل حماد ابن الإمام عليه وقد اتصلت به شدة، فأعطاه أربعمائة درهم، وقال: هذا ميراث الإمام، فأخذها، ثم ردها وقال: أريد أن أعيش في عز القناعة، ولو كنت قابلاً من أحد لقبلتها منك؛ وفي رواية: كانت أربعة الآف درهم، ومعه أبو يوسف، فقال له سراً: انثرها بين يديه، فنثرها، فقال: لو نثرت الدنيا بحذافيرها ذهباً وفضة كان أهون عليّ من التراب، فبكى حماد وخرج.

وكان ورث من أخيه أربعمائة درهم، فجعل ينفق منها في ثلاثين عاماً حتى نفذ، فلما تم، جعل ينقض سقوف الدار ويبيع، حتى باع الخشب والبواري، وكان حائط داره قصيراً، لو أن غلاماً وثب منه لسقط على الدار، فقال رجل: لو سويت، لكان يكنك من الحر والبرد والمطر، فقال: اللهم عفواً، كانوا يكرهون فضول الكلام، يا عبد الله: أخرج من عندي، شغلت قلبي، أني أبادر طي الصحيفة.

وكان سبب علته، أنه قرأ آية فيها ذكر النار، فكررها، فلما أصبحوا وجدوه قد مات ورأسه على لبنة. فدخل عليه الناس ومعهم ابن سماك، فقال: يا داود، فضحت القراء. فلما أخرجوا جنازته، خرج خلق كثير. حتى ذوات الخدور، فقال: سجنت نفسك قبل أن تسجن، وحاسبت نفسك قبل أن تحاسب، اليوم ترى ما كنت ترجو.

عن الوليد بن عقبة: سمعته يقول: كم من مسرور بأمر فيه هلاكه، وكم

من كاره أمراً فيه صلاحه دنيا وديناً، وليس لنا إلا الرضاء والتسليم، والإستكانة والخشوع.

عن محارب بن دثار، عن أبيه: لو كان في الأمم الماضية، لقص الله تعالى علينا أمره. وقال الصلت بن حكيم: رأيت ليلة مات داود ملائكة ونوراً، قالوا: زخرفت الجنة لقدوم داود. وعن محمد بن عبد الله بن بحير، أنه مات سنة خمس وستين ومائة، في خلافة المهدي، قدس الله سره العزيز.

ومن الأئمة الحنفية.

وكيع بن الجراح بن مليح بن عدى، أبو سفيان الرواسي الكوفي

من قيس عيلان، أصله من قرية من قرى نيسابور، أو من السغد.

سمع هشام بن عروة، والأعمش، وعبد الله بن عون، وابن جريج، والأوزاعي والثوري، وإسرائيل، وشعبة بن خالد؛ وسمع الرأي قياساً من الإمام، وأبي يوسف، وزفر. وروى عنه ابن المبارك، ويحيى بن آدم، وابن سعيد، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي (ابن) المديني. وأبو خيثمة، وغيرهم من هذه الطبقة.

ولد سنة تسع أو ثمان وعشرين ومائة. أراد الرشيد أن يوليه وعبد الله بن ادريس وحفصا القضاء، فامتنع وكيع وابن ادريس، وأجابه حفص.

عن يحيى بن أكثم: صحبته في السفر والحضر، وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن في كل ليلة. وقيل: (كان) لا ينام حتى يقرأ كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الإستغفار، حتى يطلع يصلي ركعتين.

عن الجاحظ قال: قال كنا نستعين على طلب العلم بالصوم، وعلى حفظه بالعمل.

عن محمد بن جرير قال: مكث وكيع بعبدان أربعين ليلة، وختم القرآن بها أربعين مرة، وتصدق أربعين ألف درهم، وروى أربعة آلاف حديث.

عن أبي السائب قال: جالست وكيعاً سنين، فما رأيته يحلف بالله تعالى؛ وشكا إليه صاحبه سوء الحفظ، فقال استعينوا على الحفظ بترك المعاصي، فأنشأ صاحبه يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي   فأوصاني إلى ترك المعاصي
وحفظ العلم فضل من آله   وفضل الله لا يهدي العاصي

وكان يقول: ما خطوت للدنيا منذ أربعين سنة، ولا سمعت حديثاً فنسيته؛ قيل: كيف ذلك، قال: لأني لم أسمع إلا عملت به مرة.

عن ابن معين: ما رأيت حياً قط أحفظ منه، أنه في زمانه في الحفظ كالأوزاعي في زمانه. وعن أحمد بن حنبل: ما رأيت قط مثله في العلم والحفظ والإسناد والأبواب، مع خشوع وورع. وذكر الإمام الديلمي، عن مليح بن وكيع: أن أباه لما نزل به الموت، أخرج إلى يديه، وقال: يا بني، ترى يدي، ما ضربت (بها) شيئاً قط.

وعن داود بن يحيى بن يمان قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، فقلت: من الإبدال، فقال: الذين لا يضربون بأيديهم شيئاً، وإن وكيعاً منهم.

وذكر الإمام الحلبي، عن ابراهيم الجوني، قال: حج وكيع فأخذه البطن، وكان ينزل في كل منزل مراراً، فما زال به البطن حتى مات، ودفن في الجبل آخر القبور، سنة ثمان أو تسع وتسعين ومائة.

ومن الأئمة الحنفية.

أبو عمرو حفص بن غياث بن طلق النخعي الكوفي

سمع الإمام وأبا يوسف والثوري. روى عنه ابن حنبل، وابن معين، وعلي ابن المدايني، وإسحق بن راهويه، وعامة الكوفيين. وأخذ الفقه عن الإمام.

ولاه الرشيد قضاء بغداد فعدل في حكمه، وحبس المرزبان وكيل زبيدة لدين عليه، وألحت زبيدة على الرشيد حتى عزله، وولى أبا يوسف مكانه، ثم ولاه الكوفة فمكث بها ثلاث عشرة سنة.

عن محمد بن حميد قال: لما أُتِيَ بعبد الله بن ادريس ووكيع وحفص إلى الرشيد ليوليهم القضاء، فلما دخل ابن ادريس قال: السلام عليك، وطرح نفسه كأنه مفلوج، قال الرشيد: لا فضل في هذا؛ وقال وكيع ــ ورفع أصبعه ووضعه على عينيه وقال ــ: ما أبصرت بهذا منذ سنة، وأراد أصبعه، فأعفاه؛ وأما حفص فقال له: لولا دين وعيال ما وليت.

قيل: مرض خمسة عشر يوماً، وأعطى لعامل بيت المال المائة والخمسين درهماً، وقال: هذا رزق خمسة عشر يوماً، وهذا حق المسلمين، لقعودي عن الحكم بمرضي. وقال: ما وليت القضاء حتى حلت لي الميتة.

توفي سنة أربع وتسعين ومائة، وجعل مكانه الحسن بن زياد اللؤلؤي. ومن الأئمة الحنفية.

يحيى بن زكريا بن أبي زائدة بن ميمون بن فيروز

وميمون إسلامي، وفيروز جاهلي؛ مولى عمرو بن عبد الله الوادعي الكوفي. سمع أباه، وهشاماً، والأعمش، وإسماعيل بن خالد، وعبيد الله بن عمر العمري، والحجاج بن أرطأة.

وسمع الفقه من الإمام. وروى عنه يحيى بن آدم، وقتيبة بن سعيد، وابن حنبل، وابن معين، وأبو بكر وعثمان ابنا أبي شيبة، وشريح بن يونس، ومحمد ابن العلاء، وزياد بن أيوب، وهناد بن السري، وأبو داود الخولي، ومحمد بن عيسى بن الطباع. ولاه الرشيد قضاء المدينة، وقدم بغداد وحدث بها.

عن علي بن المديني: انتهى العلم إلى ابن عباس في زمانه، ثم إلى الثوري في زمانه، ثم إلى يحيى بن أبي زائدة في زمانه. كان يحيى أحفظ أهل زمانه للحديث وأفقههم، مع دين وورع، وهو أول من صنف الكتب بالكوفة. وكان

على قضاء المدائن أربعة أشهر، ومات بها سنة ثلاث أو أربع وثمانين ومائة، وهو قاض للرشيد بها، وعمره ثلاث وستون سنة.

ومن الأئمة الحنفية.

الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي

من الأنصار. روى عن الإمام. وروى عنه محمد بن سماعة، ومحمد بن شجاع البلخي، وشعبة بن أيوب. قال الحسن: سمعت من ابن جريج اثني عشر ألف حديث يحتاج إليها الفقهاء.

عن نصير بن يحيى قال: كان قسم النهار: كان يدرس بعد صلاة الصبح مسائل الفروع إلى الزوال، ثم يدخل منزله فيقضي حوائجه إلى وقت الظهيرة، ثم يخرج للظهر، ويجلس للواقعات إلى العصر، ثم يصلي العصر فيناظرون في الأصول إلى الغروب، ثم يصلي المغرب و يدخل المنزل ثم يخرج فيذكرون المسائل المعلقة إلى العشاء، فإذا صلى العشاء جلس لمسائل الدور والوصايا إلى ثلث الليل.

وكان لا يفتر عن النظر في العلم؛ وكانت له جارية، إذا اشتغل بالطعام أو بالوضوء أو بغير ذلك، تقرأ عليه المسائل حتى يفرغ من حاجته.

عن محمد بن أحمد الحسن بن زياد، عن أبيه، أن جده الحسن أخطأ في مسألة، فأرسل منادياً: ألا أن الحسن قد أخطأ في يوم كذا في مسألة كذا، فمن كان أفتاه الحسن فليرجع إليه، فمكث أياماً لا يفتي، حتى عاد إليه السائل، فأعلمه بخطئه، ورده إلى الحق.

قيل: كان الحسن أحسن الناس سؤالاً، ولم يكن جوابه على قدر سؤاله، وكان محمد بن الحسن أحسن الناس جواباً، ولم يكن سؤاله على قدر جوابه، وكان أبو يوسف أحسن الناس سؤالاً وجواباً. قال الحسن: وكنت لا أبيت — أربعين سنة — إلا والسراج بين يدي.

وذكر الطحاوي أن الحسن بن مالك والحسن بن زياد ماتا سنة أربع

ومائتين، وفي هذه السنة مات الإمام الشافعي بمصر.

واعلم أن الأئمة الذين أخذوا العلم عن الإمام لا يحصون عدداً، وقد عرفوا منهم سبعمائة وثلاثين رجلاً، من مشايخ البلدان وأئمة المسلمين، الذين وصل إلينا العلم بسعيهم واجتهادهم، جزاهم الله عنا وعن الإسلام وعن كافة المسلمين خير الجزاء، وحشرنا معهم، وحشرهم مع النبيين والصديقين والشهداء. ولنذكر ها هنا علماء مشهورين من بينهم.

منهم حماد ابن الإمام، وهو أبو إسماعيل. وكان الغالب على حماد الدين والورع والفقه وكتابة الحديث، وكان شديداً على أهل الأهواء، يكسر عليهم أقاويلهم، ويحتج عليهم بحجج، لا يتيسر ذلك لحذاق المسلمين.

ومنهم إسماعيل بن حماد المذكور. تفقه على أبيه والحسن بن زياد، وسمع أباه، ومالك بن معول، وعمرو بن ذر، والقاسم بن معن؛ وحدث عنه عمر بن ابراهيم النسفي، وسهل بن عثمان العسكري، وآخرون.

تولى قضاء البصرة، وكان إماماً عالماً عارفاً بصيراً بالقضاء، محمود السيرة فيه، عارفاً بالأحكام والوقائع، ديناً صالحاً عابداً.

صنّف: ١ ــ الجامع في الفقه، عن جده الإمام أبي حنيفة؛

٢ ــ وكتاب الرد على القدرية؛

٣ ــ وكتاب الأرجاء.

وتفقه عليه أبو سعيد البردعي. توفي سنة اثنتي عشرة ومائتين.

ومنهم يوسف بن خالد. كان قديم الصحبة مع الإمام، ثم خرج إلى البصرة، فلم يحسن سياسة الناس، فأقيم (من الحلقة) وهجر، فلم يزل كذلك، حتى قدم الإمام أبو يوسف البصرة مع هارون قاضياً وزيراً، فركب إليه، فأقبل عليه الناس، وعاد ذكره، ثم ترك الدنيا وتخلى للعبادة حتى مات.

ومنهم عافية بن يزيد الأودي الكوفي. وكان الإمام يجله اجلالاً شديداً، وكان عافية رجلاً فقيهاً فطناً، وكان معجباً به، فاذا تكلم في مسألة وعافية

حاضر، حكم وألحق بالكتاب، وإن كان غائباً قال: لا تعجلوا حتى يحضر عافية، فان وافق رأيه كتب والا ترك.

ومنهم حبان ومندل ابنا علي الغزي الكوفي. قيل: اسم مندل عمرو، ومندل لقبه غلب على اسمه. وكان الإمام يقربهما و يتلطف بهما، وكانا من ألزم الناس لمجلس الامام، وكان مندل أشهر من حبان.

توفي بالكوفة سنة سبع أو ثمان وستين ومائة في خلافة المهدي، وكان المهدي أشخصهما من الكوفة، فلما دخلا عليه، قال: أيكما مندل وكان أصغرهما وأشهرهما، قال: هذا حبان. ولما حضر مندلاً الوفاة، قال لأخيه حبان: يا أخي تتحمل عني ديناً، فقال أخوه: وذنوبك أتحملها.

ومنهم علي بن مسهر الكوفي. لزم الإمام وتفقه عليه وسمع منه الكثير. قال الحسن بن حماد: كان الحفاظ للفقه ـ كحفاظ القرآن ـ أربعة: زفر و يعقوب وأسد بن عمرو وعلي بن مسهر. و يزعمون أن سفيان استعار منه كتابه الذي يسمى (الجامع).

ومنهم القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الكوفي الفقيه. صحب الإمام وتفقه عليه وروى عنه. ولي قضاء الكوفة بعد شريك. كان إماماً في الفقه، بحراً في العربية، مقدماً فيه؛ قيل له: أنت من أولاد ابن مسعود، أفترضى أن يكون من غلمان أبي حنيفة، قال: كل من جالسه انتفع بمجالسته.

ومنهم أسد بن عمرو بن عامر بن أسلم بن مغيث بن يشكر بن زهم، أبو المنذر البجلي الكوفي، صاحب الإمام، يكنى أبا عمرو.

سمع ابراهيم بن جرير بن عبد الله، والإمام، ومطرف بن طريف، و يزيد ابن أبي زياد، وحجاج بن أبي أرطأة.

روى عنه ابن حنبل، ومحمد بن بكار، وأحمد بن منيع، والحسن بن محمد الزعفراني.

ولي القضاء ببغداد وواسط من الرشيد، وحج مع الرشيد معادلاً له، ولما أنكر من بصره شيئاً اعتزل عن القضاء.

قال يحيى بن معين أنه صدوق ثقة. ولما مرض اختلف إليه الإمام غداة وعشيا. وقال محمد بن شجاع: ألقى الإمام على أصحابه مسألة، فلم يخرجها إلا هو، فقال: أحسنت يا فتى بجيلة. توفي سنة ثمان أو تسع وثمانين ومائة.

ومنهم: أحمد بن حفص، أبو حفص الكبير. أخذ عن محمد بن الحسن، وله أصحاب ببخارى كثيرة في زمن محمد بن إسماعيل البخاري صاحب (الصحيح).

ومنهم: أبو عصمة نوح بن أبي مريم يزيد بن جعونة المروزي. لقب. بالجامع لأنه أول من جمع فقه أبي حنيفة؛ وقيل: لأنه كان جامعاً نفائس العلوم. وكان له أربعة مجالس: مجلس للأثر، ومجلس لأقاويل أبي حنيفة، ومجلس للنحو، ومجلس للشعر. روى عن الزهري، ومقاتل بن حيان. مات سنة ثلاث وسبعين ومائة، وكان على قضاء مرو لأبي جعفر المنصور.

ومنهم: خلف بن أيوب. من أصحاب محمد بن الحسن وزفر، وخرج له الترمذي، ومن مسائله: لا أقبل شهادة من تصدق على السائل في المسجد. مات سنة خمس أو خمس عشرة أو عشرين ومائتين.

ومنهم: شداد بن حكم. من أصحاب زفر، وكان يستفيد من محمد بن الحسن المسائل. وكان إذا اشترى أمة تزوجها و يقول: لعلها حرة. مات آخر سنة عشر ومائتين.

ومنهم: موسى بن نصر أبوسهل الرازي. روى عن أصحاب محمد بن الحسن. تفقه على أبي علي الدقاق، وأبي سعيد البردعي؛ وروى الحديث، وله (كتاب المخارج) وهو بديع في بابه.

ومنهم: أبو سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني. صاحب الإمام محمد ابن الحسن. أخذ الفقه عن محمد بن الحسن وروى كتبه. عرض عليه المأمون

القضاء، فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ حقوق الله في القضاء، ولا تول على زمانك مثلي، فاني والله غير مأمون الغضب، ولا أرضى لنفسي أن أحكم في عباده، قال: صدقت، وقد أعفيناك، فدعا له بخير.

وله:

١ ـ كتاب السير الصغير؛
٢ ـ وكتاب الصلاة؛
٣ ـ وكتاب آخر أطول من هذا؛

يرويها عن محمد عن يعقوب عن أبي حنيفة؛

٤ ـ وأصل محمد بن الحسن الموجود بأيدينا رواية عنه.

ومنهم: هلال بن يحيى بن مسلم الرأي النصري. قيل له هلال الرأي لسعة علمه، كما قيل ربيعة الرأي. أخذ عن أبي يوسف وزفر، وروى عن أبي عوانة وابن مهدي؛ وعنه أخذ بكار بن قتيبة، وعبد الله بن قحطبة، والحسن بن أحمد بن بسطام؛ وله مصنف في الشروط، وله (أحكام الوقف). مات سنة خمس وأربعين ومائتين.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن سماعة بن عبيد بن هلال بن وكيع. حدث عن الليث بن سعد، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن؛ وكتب النوادر عن أبي يوسف ومحمد، وروى الكتب والأمالي.

قال الصيمري: هو من الحفاظ الثقات. توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وله مائة وثلاث سنين، وكان مولده سنة ثلاثين ومائة. وروى أنه بلغ ذلك السن وهو يركب الخيل ويفض الأبكار. وكان يصلي في كل يوم مائتي ركعة. ولي القضاء للمأمون ببغداد سنة اثنتين وسبعين ومائة بعد موت يوسف ابن أبي يوسف، فلم يزل على القضاء إلى أن ضعف بصره، فعزل وضم عمله إلى إسماعيل بن حماد بن الإمام أبي حنيفة.

له: ١ ـ كتاب أدب القاضي؛

٢ ــ وكتاب المحاضر والسجلات.

وقال الصيمري: سبب كتابة محمد بن سماعة للنوادر عن محمد بن الحسن، أنه رآه في النوم كأنه يثقب الأبر، فعبره المعبر فقال: هذا رجل ينطق بالحكمة، فاجتهد ألا يفوتك من لفظه شيء، فكتب عنه النوادر.

قال محمد بن عمران: سمعت ابن سماعة يقول: مكثت أربعين سنة، لم تفتني التكبيرة الأولى مع الإمام، إلا يوم ماتت فيه أمي، ففاتتني صلاة واحدة في الجماعة، فقمت صليت خمساً وعشرين صلاة، أريد بذلك التضعيف، فغلبتني عيني، فآتاني آت، فقال: يا محمد، صليت خمساً وعشرين صلاة، ولكن كيف بتأمين الملائكة.

ومنهم: أبو مطيع الحكم بن عبد الله بن سلمة بن عبد الرحمن. القاضي الفقيه، راوي كتاب (الفقه الأكبر) عن أبي حنيفة. روى عن ابن عون، وهشام بن حسان، ومالك بن أنس، وابراهيم بن طهمان؛ وعنه أحمد بن منيع، وغيره. تفقه عليه أهل بلاده، وكان ابن المبارك يجله لعلمه ودينه. مات سنة سبع وسبعين ومائة، عن أربع وثمانين سنة، بعدما ولي قضاء بلخ.

إذا عرفت من الأئمة الحنفية ما سمح به الوقت، فلنذكر الآن من الكتب المعتبرة ما هو المشهور في الزمان، وإلا فتوخى استقصاء كتب الفروع من قبيل المحال، ولا يدخل معرفة مصنفيها تحت الوسع والمجال.

فمن الكتب المعتبرة فيه:

ــ الجامع الكبير؛

ــ والجامع الصغير؛

ــ والمبسوط؛

ــ والزيادات؛

ــ والسير الكبير؛

ــ والنوادر؛

ــ والأمالي؛

٨ ــ والرقيات؛

٩ ــ والكيانيات؛

١٠ ــ والهارونيات؛

١١ ــ والجرجانيات.

وهذه كلها لمحمد بن الحسن، وقد عرفت مناقبه الشريفة عند ذكر المجتهدين.

ومما تطابقت عليه كلمة الفقهاء التعبير من (المبسوط) بالأصل، ومن (المبسوط) و (الزيادات) و (والجامعين) برواية الأصول، ومن (المبسوط) و (الجامع الصغير) و (السير الكبير) بظاهر الرواية ومشهور الرواية، ومن (النوادر) و (الجرجانيات) و (الكيانيات) و (الهارونيات) و (الرقيات) بغير ظاهر الرواية وببعض الرواية.

و (الجرجانيات) مسائل جمعها الإمام محمد بن الحسن بجرجان؛ و (الكيانيات) جمعها لرجل يسمى كيان، وقد يوجد في بعض الهوامش (الكيسانيات)، وقالوا جمعها بكيسان، وهي بلدة، لكن هذا غير صحيح، والصحيح ما ذكرناه أولاً؛ و (الهارونيات) مسائل جمعها لرجل مسمى بهارون؛ و (الرقيات) مسائل جمعها حين كان قاضياً بالرقة، وهي واسطة ديار ربيعة.

ومن الكتب المعتبرة:

١ ــ الأمالي لأبي يوسف؛

٢ ــ والنوادر له أيضاً.

وقد ذكرنا مناقب أبي يوسف في الأئمة المجتهدين.

ومنها: المبسوط للإمام شمس الأئمة أبي بكر محمد بن أبي سهل السرخسي وقد مرت مناقبه.

ومنها:

١ ــ الهداية؛

٢ ــ والتجنيس والمزيد؛

٣ ــ ومناسك الحج، جميعها للإمام أبي الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل بن برهان الدين المرغيناني الرشداني.

وصنَّف:

كتاب البداية في الفقه؛ جمع فيه (مسائل القدوري) و (الجامع الصغير) لمحمد بن الحسن، ثم شرحها شرحاً في نحو ثمانين مجلدة، وسماه: (كفاية المنتهى)، ولما تبين فيه الأطناب، وخشي أن يهجر لأجله الكتاب، شرحه شرحاً مختصراً لطيفاً نافعاً وافياً بالغاً في الحسن والتقرير والتحرير والضبط والإتقان، وسماه: (الهداية)، وبالجملة: هو كما قاله صاحب (الوقاية) كتاب فاخر، لم يكتحل عين الزمان بثانية.

ومن لطائف أحواله، أنه مع اشتماله الدقايق وحسن الإيجاز في التحرير، وقع سهلاً بظاهره على كل طالب، فهو بالحقيقة سهل ممتنع، والأولى ألا يبالغ أحد في وصفه، فإن السكوت عن مدحه مدحه.

ولصاحب الهداية:

٥ ــ كتاب مختار مجموع النوازل؛

٦ ــ وكتاب في الفرائض.

كان متعبداً ناسكاً، لقي المشايخ وتبرك بأنفاسهم، مات سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

حكي أنه بقي في تصنيف كتاب (الهداية) ثلاث عشرة سنة، وكان صائماً في تلك المدة لا يفطر أصلاً، وكان يجتهد ألا يطلع على صومه أحد، فإذا أتى خادم بطعام كان يقول: خله ورح، فإذا راح كان يطعمه أحد الطلبة أو غيرهم، فإذا أتى الخادم ووجد الإناء فارغاً، يظن أنه أكله نفسه، فكان ــ ببركة زهده وورعه ــ كتابه مقبولاً بين العلماء أي قبول.

ومن إنشاد الإمام عماد الدين، ابن شيخ الإسلام صاحب (الهداية) ــ رحمهما الله ــ في حق الهداية:

كـتـاب الهـدايـة يهـدي الهـدى | إلى حـافـظـيـه ويجـلـو الـعـمـى
فـلازمـه واحـفـظه يا ذا الحجى | فـمـن نـالـه نـال أقصى المنى

ولغيره:

إن الهداية كالقرآن قد نسخت | ما صنفوا قبلها في الشرع من كتب
فاحفظ قراءتها والزم تلاوتها | يسلم مقالك من زيغ ومن كذب

ثم أنه أصطلح في كتابه على أمور، لا يخلو التنبيه عليها عن النفع للمبتدي:

منها: أنه يذكر لفظ «قال» في أول كل مسألة، إذا كانت مسألة القدوري أو الجامع الصغير، أو كانت مذكورة في البداية، وإن كانت مذكورة في غيرها لم يذكر «قال».

ومنها: أنه يذكر مسائل القدوري أولاً، ومسائل الجامع الصغير في آخر الأبواب، وإذا كان نوع مخالفة بينهما، يصرح بلفظ: «الجامع الصغير».

ومنها: أنه إذا قال: «الحديث محمول على المعنى الفلاني»، يريد به حمل أئمة الحديث. وإذا قال «نحمله» يريد حمل نفسه عليه دون الأئمة.

ومنها: أنه يقول في الدليل العقلي: «لما بينا»؛ وفي الثابت بالكتاب: «لما تلونا»؛ وفي الثابت بالسنة: «لما روينا»؛ وفي الثابت بقول الصحابة: «للأثر»، وقد لا يفرق بين الأثر والخبر ويقول: «لما روينا»، ويقول: «لما ذكر» فيما هو أعم.

ومنها: أنه لا يذكر الفاء في جوابه، اعتماداً على ظهور المعنى.

ومنها: أنه يشير الى المسألة التي أورد لها النظير بأسماء الإشارة التي للقرب، وإلى نظيرها بأسماء الإشارة التي للبعد.

ومنها: أنه يعبر عن الدليل العقلي بالفقه، حيث يقول: والفقه فيه كذا.

ومنها: أنه إذا قال: «عن فلان»، يريد به الرواية عنه، وإذا قال: «عند فلان»، يريد به أنه مذهبه.

ومنها: أنه يرضي الجواب الآخر كائناً لمن كان.

ومنها: أنه إذا ذكر خاصته وتصرفه، لا يقول: قلت، احترازاً عما فيه من الاقتيات والأنانية، بل يقول: «قال العبد الضعيف عفى عنه»، وما وقع في بعض النسخ من «قال رحمه الله» فمن تصرف تلامذته بعد وفاته.

ومنها: أنه يجيب السؤال المقدر، ولا يصرح السؤال، وذكر: فإن قيل قلنا صريحاً في ثلاثة مواضع في المجلد الأخير.

ولصاحب الهداية خصائص وأسلوب اختص هو بذلك، يعرفها من مارس كتابه وخدم به حق الخدمة.

ثم إن العلماء اعتنوا بشرحه كثير اعتناء، إلا أن من اجترأ على شرحه إنما هو واحد من الأفراد. ولنذكر ها هنا شروحه المشهورة في بلادنا، ليتنبه عليها الطالب، ويجتهد في تحصيلها، وينتفع بمطالعتها.

منها: (كتاب النهاية)، وهو لمولانا حسام الدين الحسين بن علي بن الحجاج بن علي شارح الهداية. قدم حلب وصنف (الكافي في شرح البزدي)، قدم دمشق سنة عشر وسبعمائة، وشرح (المنتخب) للأخسيكثي، وشرح (التمهيد في أصول الدين) تصنيف أبي المعين النسفي.

تفقه على الإمام حافظ الدين محمد بن محمد بن نصر، والإمام فخر الدين محمد بن محمد المايمرغي. مات في رجب سنة احدى أو أربع عشرة وسبعمائة بحلب، وله تصنيف في الصرف أسمه (النجاح). وانتخب كتاب (النهاية) للسغناقي في شرح الهداية الشيخ أحمد بن الحسن شهاب الدين المعروف بابن الزركشي، درس بالحسامية، وكانت له مشاركة في علوم.

مات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وقيل سنة سبع.

ومنها: (كتاب الكفاية) للسيد جلال الدين الكرلاني، ولم أقف له على ترجمة.

ومنها: (نهاية الكفاية) لتاج الشريعة. وهو محمود بن عبيد الله بن محمود

المحبوني، عالم فاضل حبر كامل، له شرح الهداية المسمى (بنهاية الكفاية) ومختصر الهداية المسمى (بالوقاية).

ومنها: (كتاب الغاية) للشيخ قاضي القضاء شمس الدين أبي العباس أحمد بن ابراهيم بن عبد الغني السروجي، تفقه على الصدر سليمان ابن أبي الغرر نجم الدين أبي طاهر إسحق بن علي بن يحيى، ولي القضاء بالديار المصرية، وصنف وأفتى، ووضع شرحاً على (كتاب الهداية) وسماه (الغاية)، انتهى فيه إلى كتاب (الإيمان) في عدة مجلدات ضخمة، توفي بالمدرسة السيوفية بالقاهرة في يوم الخميس ثاني عشر رجب سنة عشر وسبعمائة؛

ودفن بتربة بجوار قبة الإمام الشافعي، ومولده سنة سبع وثلاثين وستمائة.

ومنها: (غاية البيان) للأتقاني، وهو أمير كاتب ابن أمير عمر العميد ابن العميد أمير غازي، أبو حنيفة الفارابي الاتقاني، وقيل: اسمه لطف الله. واتقان قصبة من قصبات فاراب، ولي تدريس مشهد الإمام الأعظم بظاهر بغداد، (ولد) بإتقان ليلة السبت تاسع عشر شوال سنة خمس وثمانين وستمائة، اشتغل ببلاده، ومهر وتقدم إلى أن شرح الأخسيكثي، وقدم دمشق مرتين؛ اجتمع في الأولى بالأمير ملبغاً نائب السلطنة، واختص به وتكلم عنده في مسألة رفع اليدين، وأراد إبطاله، فدفعه الشيخ تقي الدين السبكي، ثم قدم ثانياً في رجب سنة سبع وأربعين وسبعمائة، وولي بها تدريس دار الحديث الظاهرية بعد وفاة الذهبي، ثم ذهب إلى مصر في صفر سنة إحدى وخمسين، فعظمه الأمير صرغتمش الناصري، ودرس بالجامع المارداني، فلما عمر الأمير صرغتمش المدرسة المجاورة لجامع ابن طولون، أجلسه بها مدرساً، وذلك في جمادي الأولى سنة سبع وخمسين، فاختار لحضور الدرس طالعاً، فحضر والقمر في السنبلة والزهرة في الأوج، وأقبل عليه صرغتمش إقبالاً عظيماً، وقدر أنه لم يعش بعد ذلك سوى سنة وشيء، وصار معادياً للشافعية يتمنى تلافهم، واجتهد في ذلك بالشام فما أفاد، وأمر صرغتمش أن يقصر مدرسته على الحنفية، وحدث بالموطأ رواية محمد بن الحسن بإسناد نازل جداً، وذاكره القاضي عز الدين بن

جماعة أن بينه وبين الزمخشري اثنين فأنكر ذلك وقال: أنا أسن منك وبيني وبينه أربعة أو خمسة.

وكان أحد الدهاة، أخذ عنه الشيخ محب الدين بن جماعة. قال ابن حبيب: كان رأساً في مذهب الحنفية، بارعاً في الفقه واللغة العربية، كثير الإعجاب بنفسه، شديد التعصب على المخالف.

صنَّف:

١ ــ شرح الهداية وسماه (غاية البيان ونادرة القرآن في آخر الزمان؛

٢ ــ (شرح الأخسيكي) وسماه (التبيين)؛

٣ ــ وله (رسالة) في مسألة رفع اليدين؛

٤ ــ وأخرى في عدم صحة الجمعة في موضعين من البلد.

قال ابن حجر: ودخل مصر ثم رجع فدخل بغداد وولي قضاءها.

(ولد) بإتقان ليلة السبت التاسع والعشرين من شوال سنة خمس وثمانين وستمائة كما وجد في خطه، و (توفي) يوم السبت حادي عشر شهر شوال سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وفرغ عن تحصيل العلوم وسنه ما بين العشرين والثلاثين، كما صرح به في خطبة التبيين، وصنف (التبيين) في سنة ست عشرة وسبعمائة فيكون عمره وقتئذ إحدى وثلاثين، ولعله فرغ من تصنيف (شرح الهداية) وسنه ست وثلاثون والله أعلم.

ومن شروح الهداية: (معراج الدراية) للشيخ الإمام محمد بن محمد البخاري، المدعو بقوام الدين الكاكي، قيل إنه ــ روح الله روحه ــ بعد ما أخذ الفقه بترمذ من الشيخ الإمام عبد العزيز البخاري، صاحب (كشف أصول الإمام فخر الإسلام البزدوي)، وصاحب (التحقيق في شرح أصول الإمام حسام الدين الأخسيكثي)، قدم إلى القاهرة فأقام بالجامع المارداني، فأم فيه ودرس، إلى أن مات سنة تسع وأربعين وسبعمائة. وكاك: قيل أنه بلغتهم بايع الكعك، ونقل عن السمعاني أنه قال: أظن أنها قرية من قرى بخارى.

ومن شروح الهداية: (حواشي الخبازي). وهو الشيخ الإمام عمر بن محمد بن عمر، الشيخ جلال الدين الخبازي. وله (كتاب المغني) في أصول الفقه، وقد مر ذكره في أصول الفقه.

ومن شروح الهداية: شرح الشيخ أكمل الدين، المسمى (بالعناية). وهو محمد بن محمد بن محمود بن أحمد الرومي البابرتي، أكمل الدين بن شمس الدين بن جمال الدين، (ولد) سنة بضع عشرة وسبعمائة، واشتغل بالعلم، ورحل إلى حلب فأنزله القاضي ناصر الدين ابن العديم بالمدرسة الساذجية فأقام بها مدة. ثم قدم القاهرة بعد سنة أربعين، فأخذ هو ومولانا قطب الدين الرازي التحتاني عن الشيخ شمس الدين الأصبهاني، وأخذ أيضاً عن أبي حيان، وسمع من ابن عبد الهادي والدلاصي وغيرهما، وصحب شيخون واختص به وقرره شيخاً بالخانقاه التي أنشأها وفوض أمرها إليه فباشرها أحسن مباشرة، وكان قوي النفس عظيم الهمة، مهاباً عفيفاً في المباشرة، عمر أوقافها وزاد معاليمها، وعرض عليه القضاء مراراً فامتنع، وكان حسن المعرفة بالفقه والعربية والأصول، وبرع وساد وأفتى ودرس وأفاد وصنف فأجاد.

وصنَّف:

١ ــ شرح مشارق الأنوار؛
٢ ــ وشرح البزدوي والهداية؛
٣ ــ وعمل تفسيراً حسناً؛
٤ ــ وشرح مختصر ابن الحاجب؛
٥ ــ وشرح المنار والتلخيص؛
٦ ــ وشرح التجريد: للنصير الطوسي في الكلام؛
٧ ــ وشرح ألفية ابن المعطي؛
٨ ــ وشرح المقدمة السراجية، في الفرائض؛
٩ ــ وشرح تلخيص الخلاطي للجامع الكبير، قطعتين ولم يكمل.

وصنَّف:

١٠ ــ حاشية على الكشاف إلى تمام الزهراوين، وغير ذلك.

وما علمته حدث بشيء من مسموعاته، وكانت رسائله لا ترد مع حسن البشر والقيام مع من يقصده والإنصاف والتواضع والتلطف في المعاشرة، والتنزه عن الدخول في المناصب الكبار، بل كان أصحاب المناصب على بابه قائمين بأوامره، مسرعين إلى قضاء مآربه، وكان الظاهر بالغ من تعظيمه حتم أنه إذا اجتاز به لا يزال راكباً واقفاً على باب الخانقاه إلى أن يخرج فيركب معه و يتحدث معه في الطريق، ولم يزل على ذلك إلى أن (مات) في ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة ست وثمانين وسبعمائة. وحضر السلطان فمن دونه جنازته، وأراد السلطان حمل نعشه فمنعه الأمراء وحمله أيتمش، وأحمد بن ملبغا، وسودون النائب ونحوهم، وتقدم في الصلاة عليه عز الدين الرازي، ودفن بالخانقاه المذكورة.

ومن شروح الهداية: (فتح القدير) للعاجز الفقير للشيخ الإمام ابن الهمام وهو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسي، ثم السكندري العلامة كمال الدين ابن الهمام الحنفي.

(ولد) سنة تسعين وسبعمائة تقريباً، وتفقه بالسراج قارىء الهداية، ولازمه في الأصول وغيرها، ولازم القاضي محب الدين بن الشحنة لما قدم القاهرة سنة ثلاث عشرة ورجع معه إلى حلب، وأقام عنده إلى أن مات. وأخذ العربية عن الجمال الحميدي، والأصول وغيره عن البساطي، والحديث عن أبي زرعة ابن البساطي، والتصوف عن الخواتي، والقرآن عن الزراتيي وسمع الحديث عن الجمال الحنبلي، والشمس الشامي وأجاز له المراغي وابن ظهيرة ورقية المدينة، وتقدم على أقرانه وبرع في العلوم وتصدى لنشر العلم، وانتفع به خلق، وكان علامة في الفقه والأصول والنحو والتصريف والمعاني والبيان والتصوف، والموسيقى وغيرها، محققاً جدلياً نظاراً، وكان يقول: أنا لا أقلد في المعقولات أحداً، وقال البرهان الأنباسي من أقرانه: لو طلبت حجج الدين ما كان في

بلدنا من يقوم بها غيره، وكان للشيخ نصيب وافر مما لأرباب الأحوال من الكشف والكرامات، وكان تجرد أولاً بالكلية فقال له أهل الطريق: ارجع فإن للناس حاجة بعلمك، وكان يأتيه الوارد كما يأتي الصوفية ولكنه يقلع عنه بسرعة لأجل مخالطته للناس.

قال بعضهم أتاه الوارد يوماً فأخذ بيدي يجرني وهو يعدو في مشيه وأنا أجرى معه إلى أن وقف على المراكب فقال: ما لكم واقفين ها هنا، قالوا: أوقفنا الريح وما هو باختيارنا فقال: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾[1] وهو الذي يوقفكم، قالوا نعم، قال الحاكي: ثم أقلع عنه الوارد فقال لي لعلي شققت عليك قال قلت: أي والله وانقطع قلبي من الجري فقال: لا تأخذ فأني لم أشعر بشيء مما فعلته.

وكان الشيخ يلازم الطيلسان كما هو السنة و يرخيه كثيراً على وجهه وقت حضور الشيخونية، وكان يخفف الحضور جداً ويخفف الصلاة كما هو شأن الأبدال، فقد نقلوا أن صلاة الأبدال خفيفة، وكان الشيخ أفتى برهة من عمره ثم ترك الافتاء جملة ودرس بالمنصورية وبالأشرفية ثم رغب عنها واستقر بعد ذلك في مشيخة الشيخونية، فباشرها مدة أحسن مباشرة غير ملتفت إلى أحد من الأكابر وأرباب الدولة، ثم رغب عنها لما جاور بالحرمين، واستقر بعده شيخنا العلامة محيى الدين الكافيجي وكان حسن اللقاء والسمت واليسر، والبزة طيب النغمة مع الوقار والهيبة والتواضع المفرط والإنصاف والمحاسن الجمة، وكان أحد الأوصياء على كذا.... قال السيوطي:

وله تصانيف منها:

١ ـ شرح الهداية، سماه (فتح القدير للعاجز الفقير) وصل فيه إلى أثناء الوكالة؛

٢ ـ «التحرير في أصول الفقه؛

٣ ـ والمسايرة في أصول الدين؛

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٢.

٤ ــ وكراسة في أعراب (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)؛
٥ ــ وله مختصر في الفقه سماه (زاد الفقير)، وله نظم نازل.

(مات) في يوم الجمعة سابع رمضان سنة إحدى وستين وثمانمائة.

وشروح الهداية لا تنحصر فيما ذكر، لكن الأشهر ما ذكرناه ومع جد الفضلاء وسعيهم على شرحها لم تبرز لطائفة من جلباب التمتع والإحتجاب، ولم تذلل صعاب دلائله للطلاب، بل بقي بعد خبايا في الزوايا، والله در مصنف لا تنتهي لطائفة ودقائقه، ولا تنكشف معانيه وحقائقه، فسبحان من بيده الفضل والبهاء، و يوتيهما بلطفه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وهو العليم الحكيم.

ومن الكتب المعتبرة:

(المحيط) الشيخ رضي الدين برهان الإسلام محمد بن محمد بن محمد السرخسي، وصنف المحيط أربعة مصنفات، كبير في أربعين مجلداً، ومتوسط في اثني عشر مجلداً، وصغير في مجلدات، ومختصر في مجلدين، وقدم حلب ودرس بعد محمود الغزنوي. قيل إن المحيط ليس من مصنفاته بل كان من مصنفات شيخه فادعاه لنفسه ولهذا عزله نور الدين الشهيد عن التدريس، فقدم دمشق ودرس بالخاتونية.

وأعلم أن كتاب (المحيط) اثنان أحدهما ما تقدم و يعرف بالمحيط السرخسي، والآخر (محيط برهان الدين محمود) وهو من بني ماره وأبوه تاج الدين أخو الصدر الشهيد، و (الذخيرة) من مصنفاته أيضاً، وصاحب (الجواهر المضية في طبقات الحنفية) لم يفرق بينهما وقال: صاحب المحيط لقبه رضي الدين وقال: رأيت على بعض نسخ المحيط برهان الدين بخط بعض الفضلاء.

ومنها: **(كتاب المبسوط)** وهو اثنان أحدهما لشمس الأئمة السرخسي وقد مر ذكره في علم الأصول، والآخر لشمس الأئمة عبد العزيز بن أحمد بن صالح الحلوائي نسبة لبيع الحلواء، أمام الحنفية في وقته ببخاري.

(توفي) سنة ثمان أو تسع وأربعين وأربعمائة بكش ودفن ببخاري. تفقه على القاضي أبي الحسن النسفي وأبي الفضل الزرنجري، وتفقه عليه الأزرقي وسمع منه شمس الأئمة السرخسي، وقيل: توفي سنة ست، وقيل: اثنتين وخمسين وأربعمائة، والأصح سنة ست وخمسين وأربعمائة، نقله الذهبي عن خط شيخه.

ومنها: كتاب (البدائع) للكاساني، وهو علاء الدين ملك العلماء أبو بكر ابن مسعود بن أحمد الكاساني صاحب كتاب البدائع.

تفقه على علاء الدين محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي، وتزوج ابنته فاطمة الفقيهة من أجل أنه شرح كتاب (التحفة) للسمرقندي، هذا وسماه البدايع وجعله مهر ابنته، فقال فقهاء عصره: شرح تحفته وزوجه ابنته.

يحكى أن زوجته ووالدها والكاساني كلهم كانوا يفتون في عصره، وكان كل واحد من هؤلاء الثلاثة يفتي في بيت واحد.

وقد جاء رسولاً من صاحب الروم إلى نور الدين الشهيد فولاه تدريس الحلاوية عوضاً عن الرضا السرخسي بعد وفاته، وكان له وجاهه وخدمة وشجاعة.

حكى أنه قدم دمشق فحضر إليه الفقهاء وطلبوا منه الكلام في مسألة خلافية بين الشافعية والحنفية، فعينوا مسائل كثيرة، فجعل يقول: يذهب إليها من أصحابنا فلان وفلان، فلم يزل كذلك حتى أنهم لم يجدوا مسألة إلا وقد ذهب إليها واحد من أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه فانقضى المجلس ولم يتكلموا معه.

قال محمد بن خميس الحنفي: حضرت الكاساني عند موته فشرع في قراءة سورة ابراهيم حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[1] فخرجت روحه عند فراغه من قوله: في الآخرة،

---

(١) سورة ابراهيم، آية: ٢٧.

ودفن داخل مقام إبراهيم الخليل بظاهر حلب.

وأما الإمام علاء الدين السمرقندي الذي تفقه عليه الكاساني وتزوج ابنته فهو محمد بن أحمد بن أبي أحمد الإمام علاء الدين أبو منصور السمرقندي وله (كتاب تحفة الفقهاء) والأصول وغيره.

ومن الفقهاء في عصر الكاساني زوجته فاطمة بنت محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي مؤلف (التحفة) تفقهت على أبيها وحفظت التحفة، وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً، وكانت ربما ترد فتوى زوجها الكاساني وتعرفه وجه الخطأ فيرجع إلى قولها، وكان زوجها يحترمها و يكرمها، وكانت الفتوى أولاً تخرج عليها خطها وخط أبيها السمرقندي ثم تخرج بخطها وخط زوجها الكاساني.

قال داود بن علي أحد فقهاء الحلاوية بحلب: هي التي سنت الفطر في رمضان للفقهاء بالحلاوية، كان في يديها سواران فأخرجتها وباعتها وعملت بالثمن الفطور كل ليلة واستمر على ذلك إلى اليوم.

قال ابن العديم: أخبرني الفقيه أحمد بن يوسف بن محمد الأنصاري الحنفي قال: كان الكاساني عزم العود من حلب إلى بلاده، فإن زوجته حثته على ذلك فاستدعى الملك العادل نور الدين محمود الكاساني وسأله أن يقيم بحلب فعرفه سبب السفر وأنه لا يقدر أن يخالف زوجته ابنة شيخه فأرسل الملك (الى) زوجته خادماً بحيث لا تحتجب منه ويخاطبها عن الملك في ذلك، فلم تأذن الخادم وأرسلت إليّ زوجها يقول له: بعد عهدك بالفقه إلى هذا الحد أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إلى هذا الخادم، وأي فرق بينه وبين الرجال في عدم جواز النظر فعاد الخادم وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك فخاطبتها وأجابته إلى ذلك وأقامت بحلب إلى أن ماتت ثم مات زوجها الكاساني بعدها ودفن عندها، كذا في الجواهر المضية.

ومنها: (الأحكام) للإمام العلامة أبي بكر الرازي المشهور بين الأصوليين بالجصاص وقد مر ذكره.

ومنها (مختصر الإمام الطحاوي) وهو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة (ابن عبد الملك بن سلمة) بن سليم بن سليمان بن حباب الأزدي الحموي المصري الطحاوي أبو جعفر.

(ولد) سنة سبع وعشرين أو تسع وثلاثين ومائتين، و (مات) سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، صحب المزني وتفقه به، ثم ترك مذهبه وصار حنفي المذهب، تفقه على أبي جعفر أحمد بن أبي عمران موسى بن عيسى، وخرج إلى الشام سنة ثمان وستين ومائتين فلقي بها أبا حازم عبد الحميد بن جعفر فتفقه عليه وسمع منه.

قال ابن يونس: كان فقيهاً عارفاً لم يخلق مثله، قال ابن عبد البر: كان من أعلم الناس بسير الكوفيين وأخبارهم مع مشاركته في جميع مذاهب الفقهاء.

وله:

١ ــ كتاب أحكام القرآن، يزيد على عشرين جزء؛
٢ ــ وكتاب معاني الآثار؛
٣ ــ وبيان مشاكل الآثار؛
٤ ــ والمختصر في الفقه؛
٥ ــ وشرح الجامع الكبير؛
٦ ــ وشرح الجامع الصغير؛
٧ ــ وله كتاب الشروط، صغير، وكبير، واوسط؛
٨ ــ وله المحاضر والسجلات؛
٩ ــ والوصايا؛
١٠ ــ والفرائض؛
١١ ــ وله: التاريخ الكبير؛
١٢ ــ ومناقب أبي حنيفة؛
١٣ ــ وله: تفسير القرآن، ألف ورقة؛
١٤ ــ وله: النوادر الفقهية، عشرة أجزاء؛

١٥ ـــ والنوادر والحكايات، تنيف على عشرين جزءاً؛

١٦ ـــ وله كتاب الفقهاء؛

١٧ ـــ والعقيدة المشهورة؛ وله مصنفات كثيرة من الكتب والرسائل.

ومنها: **(شرح مختصر الطحاوي) للجصاص** وقد مر ذكره، وشرح هذا المختصر للاسبيجاني وهو علي بن محمد بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن محمد ابن إسحق الاسبيجاني شيخ الإسلام السمرقندي.

(ولد) سنة أربع وخمسين وأربعمائة، تفقه عليه صاحب الهداية، ولم يكن بما وراء النهر في زمانه من يحفظ المذهب مثله وظهر له الأصحاب.

(توفي) بسمرقند سنة خمس وثلاثين وخمسمائة.

ومنها: **(الذخيرة) لشيخ الإسلام محمد بن الحسن البخاري المعروف بأبي بكر جواهر زاده.** قال السمعاني: كان إماماً فاضلاً حنفياً، وله طريقة حسنة مفيدة جمع فيها من كل فن، وله:

١ ـــ كتاب الذخيرة؛

٢ ـــ والمبسوط،

٣ ـــ والإيضاح و (توفي) سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

ومنها: **(آداب القاضي) و (كتاب الوقف) و (شرح الوقعات) كلها كلها للخصاف** وهو أحمد بن عمرو أو عمر أبو بكر الخصاف الشيباني.

حدث عن أبي عاصم النبيل وأبي داود الطيالسي وجماعة، وكان فاضلاً فارضاً حاسباً عارفاً بالفقه مقدماً عند الخليفة المهتدي بالله، فلما قتل المهتدي بالله نهبت داره فذهبت كتبه.

صنف:

١ ـــ كتاب الحيل؛

٢ ـــ وكتاب الوصايا؛

٣ ـــ وكتاب الشروط؛ كبير، وصغير؛

٤ ــ كتاب الرضاع؛
٥ ــ وكتاب المحاضر والسجلات؛
٦ ــ وكتاب النفقات على الأقارب؛
٧ ــ وكتاب أدب القاضي؛
٨ ــ وكتاب أقرار الورثة بعضهم لبعض؛
٩ ــ وكتاب أحكام الوقف؛
١٠ ــ وكتاب الخراج؛ وغير ذلك، من الكتب النافعة المفيدة، وذكر أنه كان يأكل من كسب يده، (مات) ببغداد سنة إحدى وستين ومائتين.

ومنها: (شرح أدب القاضي) للخصاف، تصنيف برهان الأئمة المشهور بالحسام الشهيد وهو عمر بن عبد العزيز أبو محمد المعروف بالحسام الشهيد، تفقه على أبيه، وصنف (الفتاوى الصغرى)، و (الفتاوى الكبرى) و (الجامع الصغير) وهو أستاذ صاحب المحيط، ولد في صفر سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ومن مصنفاته (المبسوط) في الخلافيات.

ومنها: (عيون المسائل) و (الوقعات والنوازل) و (خزانة الأكمل) كلها للفقيه أبي الليث، وهو نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي أمام الهدى. له:

١ ــ تفسير القرآن؛
٢ ــ وكتاب النوازل، في الفقه؛
٣ ــ وخزانة الأكمل؛
٤ ــ وتنبيه الغافلين؛
٥ ــ و بستان العارفين؛
٦ ــ وتأسيس النظائر؛
٧ ــ ومقدمة الصلاة المشهورة.

(توفي) ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وتفقه على أبي جعفر الهندواني.

ومنها: (كتاب خلاصة الفتاوى) للشيخ الإمام طاهر بن محمد بن أحمد بن عبد الرشيد البخاري، وله (كتاب الواقعات) أيضاً.

ومنها: (كتاب تتمة الفتاوى) وهو تصنيف محمود بن أحمد بن عبد العزيز أبي المعالي، له (كتاب تتمة الفتاوى).

قال قاسم بن قطلو بغا هكذا في النسخ التي بأيدينا وذكره عبد القادر في المحمدين، وله (كتاب نصاب الفقهاء) في الفتاوي.

ومنها: (فتاوى قاضي خان) وهو فخر الدين أبو المفاخر أو أبو المحاسن الحسن بن منصور بن محمود بن عبد العزيز الأوزجندي الفرغاني المشهور بقاضي خان، وأوزجند مدينة بنواحي أصبهان بقرب فرغانة.

تفقه على أبي إسحق إبراهيم بن إسماعيل بن أبي نصر الصفار، وظهير الدين أبي الحسن علي بن عبد العزيز المرغيناني وغيرهما.

وله:

١ ـــ الفتاوى، في أربعة أسفار؛

٢ ـــ وشرح الجامع الصغير؛

٣ ـــ وشرح الزيادات وسماه الملتقط؛

٤ ـــ وشرح أدب القاضي، للخصاف.

(توفي) ليلة النصف من رمضان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ومنها: (الفتاوى الكبرى) للخاصي وهو يوسف بن أحمد أبي بكر الخوارزمي نجم الدين جمال الأئمة الخاصي. تفقه على أبي بكر بن عبد الله، وجمع (الفتاوى الكبرى).

ومنها (فتاوى الإمام ظهير الدين) وهو محمد بن أحمد بن عمر ظهير الدين البخاري، (مات) سنة تسع عشرة وستمائة، وله فوائد على (الجامع الصغير الحسامي) وقيل هو الإمام ظهير الدين علي بن عبد العزيز الميرغيناني وهو أستاذ الإمام قاضيخان، (توفي) يوم الثلاثاء تاسع رجب سنة ست وخمسمائة.

ومنها: (القنية) لنجم الدين مختار بن محمود الزاهدي أبي الرجاء الغزميني، وغزمين بمعجمتين قصبة من قصبات خوارزم.

له:

١ ــ كتاب القنية؛

٢ ــ وشرح القدوري؛

٣ ــ ورسالة الناصرية، صنفها لبركت خان، (توفي) سنة ثمان وخمسين وستمائة، تفقه على سديد الخياطي وبرهان الأئمة وغيرهما، وقرأ الكلام على يوسف السكاكي، وقرأ الحروف والروايات على الشيخ رشيد الدين القندي، وأخذ الأدب عن شرف الأفاضل.

وله من المصنفات غير ما ذكر:

٤ ــ كتاب زاد الأئمة؛

٥ ــ وكتاب المجتبى، في الأصول والفرائض وغير ذلك، ولكن كان على مذهب الاعتزال ولهذا لا يعتمد على فتواه.

ومنها: (خزانة الأكمل) لأبي الليث السمرقندي وقد مر ذكره.

ومنها: (منية المفتي) للسجستاني وهو يوسف بن أبي سعيد بن أحمد السجستاني، له تلخيص الواقعات المسمى (بمنية المفتي).

ومنها: (الروضة للناطفي) وهو أبو العباس أحمد بن عمر الناطفي، وهو نسبة إلى عمل الناطف وبيعه، كان أحد الفقهاء الكبار، له:

١ ــ كتاب الأجناس والفروق.

٢ ــ الروضة.

٣ ــ الواقعات في مجلدات.

(توفي) بالري سنة ست وأربعين وأربعمائة.

ومنها: (مختصر القدوري) وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين بن أبي بكر القدوري البغدادي صاحب المختصر.

(ولد) سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وتفقه على أبي عبد الله محمد بن يحيى الجرجاني، وروى الحديث، وكان صدوقاً، وانتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق، وعظم عندهم قدره وارتفع جاهه، وكان حسن العبارة في النظر جرياً بلسانه، مديماً لتلاوة القرآن.

صنف:

١ ــ المختصر؛

٢ ــ وشرح مختصر الكرخي؛

٣ ــ وصنف التجريد في سبعة أسفار، يشتمل على الخلاف بين الشافعي وأبي حنيفة وأصحابه، شرع في إملائه سنة خمس وأربعمائة؛

٥ ــ وكتاب التقريب في مسائل الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه مجرداً عن الدلائل؛

٦ ــ ثم صنف التقريب الثاني فذكر المسائل بأدلتها.

(مات) ببغداد في يوم الأحد منتصف رجب أو خامس رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، روى عنه الخطيب وقال: كان صدوقاً، وكان يناظر الشيخ أبا حامد الاسفراييني، ولم يعرف سبب نسبته إلى القدور، وقيل: القدوري نسبة إلى بيع القدور التي هي جمع قدر أو إلى عملها، وقيل: القدور اسم قرية، وفيه نظر. كذا في شرح درر البحار للرهاوي.

واعلم أن هذا المختصر مما تبرك به العلماء، حتى جربوا قراءاته أوقات الشدائد وأيام الطاعون. واعتنى الفقهاء بشرحه. مثل (شرح الزاهدي) صاحب القنية وقد مر ذكره، ومثل (شرح الأقطع) وهو أبو نصر أحمد بن محمد ابن محمد. درس الفقه على أبي الحسن القدوري حتى برع فيه، وقرأ الحساب حتى أتقنه، وشرح (مختصر القدوري)، ومال إلى حدث فظهر على الحدث سرقة فاتهم بأنه شاركه فيها فقطعت يده اليسرى.

وحكى الصفدي في الوفيات: أن يده قطعت في حرب كان بين المسلمين

والتتار، وهذا الإحتمال أقرب وأبعد من التهمة للمسلم بمجرد خبر لا يفيد الظن والله أعلم.

(مات) سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

ومنها: (المختار) وهو لعبد الله بن محمود بن مودود بن محمود مجد الدين، أبي الفضل الموصلي ولد بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة وحدث عن أبن طبرزد، وكان فقيهاً عارفاً بالمذهب، ولي القضاء بالكوفة ثم عزل ورجع إلى بغداد، ودرس في مشهد الإمام أبي حنيفة، وأفتى حتى (مات) سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

وله:

١ ــ كتاب المختار للفتوى؛

٢ ــ كتاب الاختيار لتعليل المختار وغير ذلك.

ومنها: (كتاب كنز الدقائق) لصاحب المنار، و(كتاب الوافي) مع شرحه (الكافي) وهما أيضاً له وقد مر ذكره.

وله (شرح للإمام فخر الدين الزيلعي) وهو عثمان بن علي بن محجر بن موسى، فخر الدين أبو عمر الزيلعي الصوفي البارعي.

قدم القاهرة سنة خمس وسبعمائة فدرس وأفتى وكان مشهوراً بمعرفة الفقه والنحو والفرائض، شرح (كتاب كنز الدقائق) في عدة مجلدات فأجاد وأفاد، وحرر وانتقد، وصحح ما اعتمد، و(توفي) في رمضان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

ومنها: (كتاب مجمع البحرين) لأبن الساعاتي وقد مر ذكره وعليه شروح مفيدة.

ومنها: (دور البحار) نظم مجمع البحرين وزاد عليه زيادات كثيرة في المسائل والرموز الدالة على الخلافيات، نظمه على بحر الشاطبية في القراءات، وعلى رويها وقافيتها، وذلك للشيخ العالم العلامة أبي المحاسن حسام الدين الشهير

بالرهاوي، وشرح هذا الكتاب من تلامذة مصنفه محمد بن محمود بن أحمد العنتبي، ولم أقف من أحوال المصنف والشارح غير أسمهما.

ومنها: (الوقاية) لتاج، الشريعة، وشرحه لسبطه صدر الشريعة، و(مختصر الوقاية) لصدر الشريعة وقد مر ذكرهما.

ومن الكتب المعتبرة: (الشروح السبعة للجامع الصغير) لأبي الليث السمرقندي، ولقاضي خان، وللحسامي، وللبرهاني، وللصدر الشهيد، وللعتابي، وللتمرتاشي، وقد ذكر أكثر هؤلاء.

ومنها: (المنتقى) للحاكم الشهيد و(المنتقى) للحاكم الجليل.

ومنها: (فتاوى الرستفغني)، وهو أبو الحسن على بن سعد من رستفغن إحد قرى سمرقند من أصحاب أبي منصور الماتريدي.

له:

١ ــ كتاب ارشاد المبتدي.

٢ ــ وكتاب الزوائد في أنواع العلوم.

ومنها: (فتاوى أبي جعفر البلخي).

ومنها: (فتاوى بهاء الدين الأسبيجاني). وهو علي بن محمد بن إسماعيل الأسبيجاني شيخ الإسلام السمرقندي، (ولد) يوم الإثنين السابع من جمادي الأولى سنة أربع وخمسين وأربعمائة، تفقه عليه صاحب الهداية، ولم يكن بما وراء النهر في زمانه من يحفظ المذهب مثله، فظهر له الأصحاب وعمر في نشر العلم وسماع الحديث.

(توفي) بسمرقند يوم الإثنين الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وله (شرح مختصر الطحاوي).

ومنها: (فتاوى حسام الدين الرازي) وهو علي بن أحمد بن بكر، قدم دمشق وسكنها، وكان يفتي على مذهب أبي حنيفة و يناظر في مسائل الخلاف، وما أظنه حدث وكان فقيهاً فاضلاً.

له تصانيف منها:

١ ـــ خلاصة الدلائل في شرح القدوري.

٢ ـــ وسلوة الهموم.

توفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بدمشق.

ومنها: (فتاوى شمس الأئمة الحلوائي) نسبة إلى بيع الحلواء. وهو عبد العزيز بن أحمد بن صالح، أمام الحنفية في وقته ببخارى وقد مر بقية أوصافه.

ومنها: (فتاوى أبي الفضل الكرماني) وهو عبد الله بن محمد بن أميرو يه ابن محمد بن ابراهيم، أبو الفضل ركن الدين الكرماني.

ولد بكرمان في سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وقدم مرو فتفقه و برع حتى صار أمام الحنفية بخراسان.

وله:

١ ـــ كتاب شرح الجامع الكبير؛

٢ ـــ وكتاب التجريد؛

٣ ـــ وشرحه بكتاب سماه الإيضاح.

و (مات) بمرو سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

ومنها: (النافع) لقاسم بن يوسف المدني. له:

١ ـــ كتاب النافع في الفقه قرأ عليه خلق كثير وشرحوه؛

٢ ـــ وكتاب مصابيح السبل في الفقه؛

٣ ـــ وكتاب في الوعظ؛

٤ ـــ وكتاب في أصول الفقه. ومن شروحه (المستصفى) و (المنافع).

ومنها: (كتاب المنظومة في الخلافيات)، للشيخ الإمام أبي حفص عمر النسفي، وقد مر ذكره في علم اللغة. ومن شروح المنظومة: (المصفى)، وقد

صنفه مصنف المستصفى في شرح النافع، وهو أبو البركات حافظ الدين النسفي صاحب (الوافي) وشرحه (الكافي) في الفقه. وقد مر ذكره في علم الأصول.

ومن شروحه النافعة: (الحقائق)، وله شرح لخطاب بن أبي القاسم القره حصاري، جعله في مجلدين، فرغ منه في صفر سنة سبع عشرة وسبعمائة، وكان ورد دمشق ثم رجع إلى بلاده.

ومنها: (كتاب المقدمة الغزنوية)، للشيخ أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد الغزنوي الحنفي تفقه على أحمد بن يوسف الحسيني، وتفقه به جماعة.

وصنَّف:

١ ــ كتاب روضة اختلاف العلماء؛
٢ ــ ومقدمة في الفقه عرفت بالغزنوية؛
٣ ــ وكتاباً في أصول الفقه؛
٤ ــ وكتاب روضة المتكلمين في أصول الدين؛
٥ ــ وكتاب المنتقى من روضة المتكلمين.

(مات) بحلب سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، وكان معيد درس الكاساني صاحب البدائع.

ومن المشايخ الذين تشرف المذاهب بهم:

جلال الدين القونوي، وهو محمد بن محمد بن حسين بن أحمد بن قاسم ابن مسيب بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بن أبي قحافة التيمي، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين المعروف بمولانا جلال الدين القونوي، كان عالماً بالمذهب واسع الفقه عالماً بالخلاف وأنواع العلوم ــ قصده الشيخ قطب الدين الشيرازي الإمام المشهور صاحب (شرح مقدمة ابن الحاجب) و (المفتاح) للسكاكي، فلما دخل عليه وجلس عنده، سكت زماناً والشيخ لا يكلمه، ثم بعد ذلك ذكر حكاية: قال مولانا جلال الدين كان الصدر جهان عالم بخارى يخرج من مدرسته ويتوجه إلى بستان، فيمر بفقير على الطريق في

مسجد، فيسأله، فلم يتفق أنه يعطيه شيئاً، ثم بعد مدة أحتال الفقير، وألق أصحابه عليه ثوباً، وأظهروا أنه ميت، فدفع له شيئاً من الدراهم، ثم نهض الفقير وألق الثوب عنه، فقال له الصدر جهان: لو لم تمت ما أعطيتك شيئاً، فلما فرغ مولانا جلال الدين من الحكاية خر الشيخ قطب الدين على وجهه، وذلك أن الشيخ جلال الدين فهم عن الشيخ قطب الدين أنه جاء ممتحناً له.

(مات) في خامس جمادي الآخرة سنة اثنتين وسبعين وستمائة، ثم ان الشيخ جلال الدين انقطع وتجرد، وهام وترك التصنيف والاشتغال، وسبب ذلك أنه كان يوماً جالساً في بيته وحوله الكتب والطلبة فدخل عليه الشيخ شمس الدين التبريزي الإمام الصالح المشهور، فسلم وجلس، وقال للشيخ: ما هذا؟ وأشار إلى الكتب والحالة التي هو عليها، فقال له مولانا جلال الدين: هذا لا تعرفه فما فرغ الشيخ جلال الدين من هذا اللفظ إلا والنار عمالة في البيت والكتب، فقال مولانا جلال الدين للتبريزي: ما هذا فقال له التبريزي: هذا لا تعرفه ثم قام وخرج من عنده، فخرج الشيخ جلال الدين على قدم التجريد، وترك أولاده وحشمه ومدرسته، وساح في البلاد، وذكر أشعاراً كثيرة، ولم يتفق له اجتماع بالتبريزي وعدم التبريزي ولم يعرف له موضع، فيقال ان حاشية مولانا جلال الدين قصدوه واغتالوه، والله أعلم. كذا في (الجواهر المضية في الطبقات الحنفية).

وقال غيره في نسبه: جلال الدين محمد بن بهاء الدين محمد بن حسين بن أحمد بن محمود بن مودود بن ثابت بن مسيب بن مطهر بن حماد بن عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق. رضي الله عنهم.

يقال: كان لقبه جلال الدين، وكان يقول له أبوه: خداوندكار، ولقب به أيضاً، وخداوندكار، في لغة العجم معنى السلطان في لغة العرب، ولهذا أشتهر بمولانا خداوندكار، واسم أبيه محمد، ولقبه بهاء الدين، و يلقب أيضاً بسلطان العلماء، ولقبه بهذا اللقب النبي صلى الله عليه وسلم هكذا سمعه كثير من الصلحاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في المنام. وأسم جده الحسين، واسم

أبيه أحمد، وتمكن أبوه سلطان العلماء في مدينة بلخ أولاً، وولد مولانا جلال الدين هناك. ثم توطن أبوه بقونية وهو طفل صغير، ولهذا لقب بجلال الدين الرومي.

وكانت (ولادته) في سادس ربيع الأول سنة أربع وستمائة، و (توفي) في خامس جمادي الآخرة سنة اثنتين وسبعين وستمائة، وفي هذه السنة توفي نصير الدين الطوسي الحكيم، صاحب (التجريد) في الكلام، وكانت مدة عمره ثمان وستين سنة.

روى أن سلطان بلخ، سلطان محمد خوارزم شاه، أعطى أخته لمولانا حسين جد مولانا جلال الدين محمد، وولدت هي سلطان العلماء محمد. وكانت جدة بهاء الدين محمد، أم أحمد الخطيبي، أخت السلطان ابراهيم بن أدهم، رحمهم الله تعالى.

ومن وصايا جلال الدين لأصحابه: أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية، وبقلة الطعام وقلة الكلام، وهجران المعاصي والآثام، ومواظبة الصيام ودوام القيام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام، وترك مجالسة السفهاء والعوام، وملازمة مصاحبة الصالحين والكرام، وإن خير الناس من ينفع الناس، وخير الكلام ما قل ودل.

وأما ولده أحمد بن محمد بن محمد بن حسين بن أحمد بن قاسم بن مسيب ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، فهو مولانا بهاء الدين ابن مولانا جلال الدين و يلقب بهاء الدين هذا بسلطان ولد.

كان إماماً فقيهاً درس بعد أبيه بمدرسة قونية، وتبع والده في التجرد وعمر، و (توفي) سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة، ودفن بقونية بتربة والده، وصلى عليه الشيخ مجد الدين الأقصرايي بوصية منه.

حكى لي بعض أصحابنا عنه قال: كانت له سرية فقال لها: اختاري واحداً من أصحابي أزوجك به، لعل الله يرزقك ولداً يعبد الله، فامتنعت من

ذلك، قال صاحبنا: فقال لي الشيخ: أكشف لي عن سبب المنع فقمت لها عن ذلك، فقالت: الكبار يزورونني و يعظمونني و يكرمونني لنسبتي إلى الشيخ، وإذا تزوجت بغيره يزول عني هذا، قال: فأخبرت الشيخ بما قالت فتبسم وقال: آثرت اللذة الوهمية على اللذة الحسية.

وحكى لي عنه كرامات، كذا في (الجواهر المضية في الطبقات الحنفية).

ومن المتأخرين من له يد طولى في الفقه وهو: الشيخ بدر الدين محمود ابن إسرائيل بن عبد العزيز الشهير بابن قاضي سماونة.

ولد في قلعة سماونة من بلاد الروم حين كان أبوه قاضياً بها، وكان أيضاً أميراً على عسكر المسلمين بها، وكان فتح تلك القلعة على يده أيضاً.

يقال أن أحد أجداده كان وزيراً لآل سلجوق، وكان هو ابن أخي السلطان علاء الدين السلجوقي، وكان فتح القلعة المذكورة وولادة الشيخ بدر الدين في زمن السلطان غازي خداوندكار من سلاطين آل عثمان. ثم أن الشيخ أخذ العلم في صباه عن والده المذكور، وحفظ القرآن العظيم وقرأه على المولى المشتهر بالشاهدي، وتعلم الصرف والنحو من مولانا يوسف، ثم ارتحل إلى الديار المصرية مع ابن عم أبيه، وهو مؤيد بن عبد المؤمن، وقرأ بقونية ــ من بلاد الروم ــ بعضاً من العلوم وعلم النجوم، على مولانا فيض الله من تلامذة فضل الله، ومكث عنده أربعة أشهر، ولما توفي مولانا فيض الله ارتحل إلى الديار المصرية، وقرأ هناك مع الشريف الجرجاني على مولانا مبارك شاه المنطقي، المدرس بالقاهرة، ثم حج مع مبارك شاه، وقرأ بمكة على الشيخ الزيلعي، ثم قدم القاهرة، وقرأ مع الشريف الجرجاني على الشيخ أكمل الدين، وحصل عنده جميع العلوم، ثم قرأ على الشيخ بدر الدين المذكور السلطان فرج ابن السلطان برقوق ملك مصر، ثم أدركته الجذبة الآلهية، والتجأ إلى كنف الشيخ سيد حسين الأخلاطي، الساكن بمصر وقتئذ، وحصل عنده ما حصل، وأرسله الشيخ الأخلاطي إلى بلدة تبريز للارشاد، ولما جاء الأمير تيمور إلى تبريز، وقع عنده منازعة بين العلماء، ولم ينفصل البحث عنده، فذكر الشيخ الجزري الشيخ

بدر الدين المذكور للمحاكمة بين المخاصمين، فدعاه الأمير تيمور، فحكم الشيخ بينهما، ورضي الكل بحكمه، واعترف العلماء بفضله، ونال من الأمير المذكور مالاً جزيلاً وإكراماً بالغاً إلى نهايته، ثم ترك الشيخ الكل ولحق ببدليس، ثم سافر إلى مصر، ووصل إلى الشيخ الأخلاطي المذكور، ثم مات الشيخ الأخلاطي وأجلس الشيخ مكانه، فجلس فيه ستة أشهر ثم جاء إلى حلب، ثم إلى قونية، ثم إلى ثيرة، من بلاد الروم، ثم دعاه رئيس جزيرة فأسلم على يدي الشيخ، ثم جاء الشيخ إلى أدرنة، وصار الرئيس من جملة مريديه، ووجد الشيخ والديه هناك حيين، ثم لما تسلطن موسى جلبي من أولاد عثمان، نصب الشيخ قاضياً بعسكره، ثم أن أخا موسى جلبي قتل موسى جلبي وحبس الشيخ في أزنيق، ثم هرب من الحبس إلى الأمير اسفنديار، وكان قصده الوصول إلى بلاد تاتار، ولم يأذن له اسفنديار خوفاً من ابن عثمان، ثم أرسله إلى زغرة من ولاية روم أيلي، وأجتمع عنده أحباؤه، وأضافوه مراراً متعددة ووشى به بعض المفسدين إلى السلطان أنه يريد السلطنة، فأخذ وقتل مظلوماً رحمه الله.

وله تصانيف كثيرة منها:

١ ــ لطائف الإشارات في الفقه؛

٢ ــ وشرحه التسهيل صنفهما محبوساً في أزنيق؛

٣ ــ ومنها جامع الفصوص؛

٤ ــ ومنها عنقود الجواهر ــ شرح المقصود في الصرف؛

٥ ــ ومنها مسرة القلوب في التصوف؛

٦ ــ والواردات في التصوف أيضاً.

وكان (وفاته) في سنة ثمان عشرة وثمانمائة تقريباً، وروى أن السيد الشريف الجرجاني كان يمدحه بالفضل رحمهما الله تعالى.

وأعلم أن استقصاء أئمة الشرع خيال محال، لأن من جملة اكرام الله تعالى هذا الشرع، أنه تعالى ملأ أقطار الأرض شرقاً وغرباً، بأنوار اجتهاد العلماء الذين هم كأنبياء بني إسرائيل، كلما أردت تعداد طائفة منها، انفتح لك

طوائف يكل الذهن عن تذكار أساميهم، فضلاً عن استيفاء مناقبهم وأحوالهم، فالأولى بنا ألا تطمع في غير مطمع فانه بحر لا ساحل له، **لكن علينا أن نذكر ها هنا نبذاً من مشاهير أئمة الشافعية تبركاً بهم أيضاً، فلنذكر أولاً من تشرف بصحبته والنظر إلى وجهه الكريم.**

منهم: أحمد بن خالد الخلال، أبو جعفر البغدادي، روى عن الشافعي وسفيان بن عيينة وغيرهما، حدث عنه الترمذي والنسائي وغيرهما، وقالا: لا بأس به.

قال أبو حاتم الرازي: كان خيراً فاضلاً عدلاً ثقة، صدوقاً رضي، وقال الحاكم: كان من أجلّة الفقهاء والمحدثين، مات سنة ست أو سبع وأربعين ومائتين.

ومنهم أحمد بن سنان بن أسد بن حيان القطان أبو جعفر الواسطي الحافظ. له مسند (مخرج على الرجال)، روى عن الشافعي وأبي معاوية ووكيع وعبد الرحمن بن مهدي وخلق، وروى عنه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة ويحيى بن صاعد وابن خزيمة وابنه جعفر بن أحمد بن سنان، وغيرهم. (توفي) سنة ست أو تسع وخمسين ومائتين.

ومنهم: أحمد بن صالح المصري، أبو جعفر الطبري، أحد أركان العلم وجهابذة الحفاظ. كان أبوه جندياً من أجناد طبرستان، (فولد) له أحمد بمصر سنة سبعين ومائة، و(توفي) سنة ثمان وأربعين ومائتين. سمع سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وعنبسة بن سعيد، وعبد الله بن نافع، والشافعي، روى عنه البخاري وربما روى عن رجل عنه.

وروى عنه أيضاً أبو داود والترمذي وجماعة، ودخل بغداد وناظر بها أحمد ابن حنبل.

قال البخاري: هو ثقة؛ وقال يعقوب الفسوي: كتبت عن ألف شيخ، وكسر حجتي فيما بيني وبين الله رجلان: أحمد بن حنبل، وأحمد بن صالح؛

وقال النسائي: أحمد بن صالح ليس بثقة ولا مأمون، قال الحافظ أبو بكر الخطيب: كان آفة أحمد بن صالح الكبر وشراسة الخلق، ونال النسائي منه جفاء في مجلسه فحمله على أن تكلم فيه وإلا فقد قال أبو يعلى الحافظ أن ابن صالح ثقة حافظ.

فائدة دينية: وهي أنك ربما ترى في كتب الأصول أن الجرح مقدم على التعديل ثم ترى جرحاً في حق الأئمة، فلعلك تميل إلى جرحه، فإياك إياك، والحذر كل الحذر من هذا الحساب، إذ لو فتح هذا الباب لما سلم لنا أحد من الأئمة، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون، وهلك فيه هالكون، أما لأمر دنيوي، أو تعصب مذهبي، بل الصواب أن من ثبت إمامته وعدالته، وكثر مادحوه ومزكوه، وندر جارحه، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه، من أمر دنيوي أو غيره، فلا عبرة به، وإنما يقدم الجرح فيمن تساوى عنده سبب الجرح على سبب التعديل، سيما وقد روى عن ابن عباس أنه قال: استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده، انهم أشد تغايراً من التيوس في زوربها.

وعن مالك بن دينار: يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض؛ وعن عبد الله بن وهب: أنه لا يجوز شهادة القارىء على القارىء، يعني العلماء، لأنهم أشد الناس تحاسداً وتباغياً، وقاله سفيان الثوري ومالك بن دينار. ألا يرى إلى قول ابن معين في الشافعي، وقول بعض الفقهاء الشافعية في أبي حنيفة، وكلام ابن أبي ذئب وابراهيم بن سعد في مالك، وهم لا يحوم العلم والدين إلا حول حماهم، فينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين، وألا تنظر في كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى ببرهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن فدونك، وإلا فأضرب صفحاً عما جرى بينهم، فإنك لم تخلق لهذا، واشتغل بما يعنيك ودع ما لا يعنيك.

قيل: لا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف

الماضيين، و يقضي لبعض على بعض، فإياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري، أو بين مالك وبن أبي ذئب، أو بين أحمد بن صالح والنسائي، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي، وهلم جراً إلى زمان الشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن الصلاح، وهكذا في كل عصر وزمان، فإنك إذا اشتغلت بذلك خشيت عليك الهلاك، فالقوم أئمة أعلام، ولأقوالهم محامل وبما لم تفهم بعضها، فليس لنا إلا الترضي عنهم، والسكوت عما جرى بينهم، كما يفعل فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم، وما مثل من تكلم فيهم إلا كما قال الأعشى:

كناطح صخرة يوماً ليقتلعها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

أو كما قال الحسن بن حميد:

يا ناطح الجبل العالي ليكلمه ... أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول:

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً ... وللناس قال بالظنون وقيل

وقيل في هذا الباب:

أن يحسدوني فاني غير لائمهم ... قبلي من الناس أهل الفضل قدحسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ... ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

أنشد محمد بن الحسن في حق حساده:

تحسدوني وشر الناس منزلة ... من عاش في الناس غير محسود

وقد قيل:

ان العرانين تلقاها محسدة ... ولا ترى للئام الناس حساداً

وكان إذا ذكر عند أبي حنيفة أحد بسوء أنشد:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... والناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسداً وبغضاً إنه لدميم

قيل لعبد الله بن طاهر أن الناس يقدحون في أبي حنيفة فقال:

ما يضر البحر أمسى زاخراً ... ان رمى فيه غلام بحجر

وفيه قال قائل:

أن يحسدوني فزاد الله في حسدي ... لا عاش من عاش يوماً غير محسود
ما يحسد المرء إلا من فضائله ... بالعلم والبأس أو بالمجد والجود

ولبعضهم في المعنى:

فازداد لي حسداً من لست أحسده ... إن الفضيلة لا تخلو عن الحسد

ولعمارة بن عقيل:

ما ضرني حسد اللئام ولم يزل ... ذو الفضل يحسده ذوو النقصان
يا بؤس قوم ليس جزني بينهم ... إلا تظاهر نعمة الرحمان

ولحاتم الطائي:

يا كعب مالي أرى من بين تكرمة ... إلا له من بيوت الناس حساداً

وقال الرضى الموسوي:

نظروا بعين عداوة لو أنها ... عين الهوى لاستحسنوا ماستقبحوا
تولوني شزر العيون لأنني ... أمسيت في طلب العلو وتصبحوا

والإكثار من هذا الباب، وإيثار الأطناب في الكتاب، ليس إلا من قبيل نفثة المصدور، والعذر عند كرام الناس معذور.

ومنهم: **أحمد بن أبي سريج بن الصباح النهشلي**، أو أحمد بن عمر بن الصباح، أبو جعفر الرازي البغدادي. سمع شعيب بن حرب، وأبا معاوية الضرير، وابن علية، ووكيعا، والشافعي، وجماعة؛ وروى عنه البخاري والنسائي وأبو داود وأبو حاتم وغيرهم؛ قال: النسائي ثقة؛ وقال أبو حاتم: صدوق.

ومنهم: **أحمد بن عبد الرحمن بن وهب بن مسلم القرشي**، أبو عبد الله المصري، روى عن عمه عبد الله بن وهب والشافعي وجماعة.

وحدث عنه مسلم في الصحيح وأبو حاتم الرازي وابن خزيمة وابن جرير، توفي سنة أربع وستين ومائتين.

ومنهم: **أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السرح** القرشي الأموي مولاهم أبو الطاهر المصري الفقيه. روى عن سفيان بن عيينة والشافعي وابن وهب وغيرهم. وروى عنه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم. وكان من جلة العلماء، شرح موطأ مالك، (توفي) لأربع عشرة خلت من ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين.

ومنهم **أحمد بن محمد بن حنبل** الإمام المشهور في الآفاق. وقد ذكرناه فيما مر من الأئمة المجتهدين.

ومنهم **أحمد بن محمد بن الوليد، ويقال عون بن عقبة بن الأزرق بن عمرو بن الحارث بن أبي شمر الأزرقي القواس المكي**، أبو الوليد، أو أبو محمد، أو أبو الحسن، وهو جد صاحب تاريخ مكة. روى عن عمرو بن يحيى ابن سعيد الأموي، ومالك، وعبد الجبار بن الورد وابراهيم بن سعد وفضيل بن عياض ومسلم بن خالد الزنجي، وجماعة. روى عنه البخاري ومحمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو حاتم وحنبل بن إسحق وأبو جعفر الترمذي. (توفي) سنة اثنتين وعشرين ومائتين على ما حرره شيخنا الذهبي.

ومنهم أحمد بن يحيى بن عبد العزيز البغدادي، أبو عبد الرحمن الشافعي المتكلم. حدث عن الشافعي والوليد بن مسلم الثقفي. روى عنه أبو جعفر الحضرمي. كان من كبار أصحاب الشافعي الملازمين له ثم صار من أصحاب ابن أبي داود واتبعه على رأيه حتى أن الشافعي منعه من قراءة كتبه.

ومنهم أحمد بن يحيى بن الوزير بن سليمان المهاجر التجيبي، أبو عبد الله المصري الحافظ النجوي، مولاهم، أحد الأئمة. روى عن عبد الله ابن وهب وشعيب بن الليث وأصبغ بن الفرج، وجماعة. روى عنه النسائي وقال ثقة، والحسين بن يعقوب المصري وأبو بكر بن أبي داود وآخرون. (ولد) سنة إحدى وسبعين ومائة، وكان من أعلم أهل زمانه بالأدب والشعر والغريب وأيام الناس، وصحب الشافعي وتفقه له، وكان يعمل الفلاحة فانكسر عليه بعض الخراج (فمات) في السجن سنة إحدى وخمسين أو خمسين ومائتين.

ومنهم أحمد بن أبي سريج الرازي. تفقه على الشافعي.

ومنهم محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث، الامام عبد الله المصري، أخو عبد الرحمن وسعد. (ولد) سنة اثنتين وثمانين ومائة. روى عن عبد الله بن وهب وابن أبي فديك وأبي ضميرة أنس بن عياض وأشهب بن عبد العزيز والشافعي، وبه تفقه. وروى عنه النسائي وأبو حاتم الرازي وعبد الرحمن بن أبي حاتم وابن خزيمة وأبو العباس الأصم وابن صاعد وأبو بكر بن زياد النيسابوري، وجماعة. ولازم الشافعي مدة. قيل أن الشافعي كان معجباً به لفرط ذكائه وحرصه على الفقه، إلا أنه رجع عن مذهب الشافعي إلى مذهب مالك ثم انتهت حاله إلى أن صنف كتاباً سماه (الرد على الشافعي فيما خالف فيه الكتاب والسنة)، وهو اسم قبيح. قيل ولقد نالته بعد هذا التصنيف محنة عظيمة يطول شرحها. (توفي) سنة ثمان وستين ومائتين. قال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: ثلاثة أشياء ليس لطبيب فيها حيلة: الحماقة، والطاعون، والهرم. وروى عن عبد الأعلى قال:

قال لي الشافعي: لم أر شيئاً أنفع للوباء من دهن البنفسج، يدهن به و يشرب.
قال ابن السبكي: والوباء غير الطاعون، فلا منافاة بين الأمرين.

ومنهم محمد بن الإمام الشافعي، الشيخ أبو عثمان القاضي، وهو أكبر أولاده. ولما توفي والده كان بالغاً مقيماً بمكة. سمع أباه وسفيان بن عيينة وعبد الرزاق وأحمد بن حنبل. ولي القضاء بالجزيرة وأعمالها وبمدينة حلب، وبقي بها سنين كثيرة. (توفي) بالجزيرة بعد سنة أربعين ومائتين، وقيل كان للشافعي ولد آخر أسمه محمد أيضاً، وكنيته أبو الحسن، وهو من جارية اسمها دنانير. قدم مصر مع أبيه ثم توفي بها سنة احدى وثلاثين ومائتين.

ومنهم ابراهيم بن خالد أبي اليمان، أبو ثور الحلبي البغدادي، الإمام الجليل، أحد أصحابنا البغداديين. قيل كنيته أبو عبد الله، وأبو ثور لقبه. روى عن سفيان بن عيينة وابن علية وعبيدة بن حميدة وأبي معاوية ووكيع ومعاذ بن معاذ وعبد الرحمن بن مهدي والشافعي و يزيد بن هارون، وجماعة. روى عنه مسلم خارج الصحيح وأبو داود وابن ماجة وأبو القاسم البغوي والقاسم بن زكريا المطرز ومحمد بن إسحق السراج، وجماعة. كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً وخيراً. وهو ممن صنف الكتب وفرع على السنن وذب عنها وقمع مخالفيها. قيل كان أولاً على مذهب أبي حنيفة حتى قدم الشافعي بغداد فاختلف إليه ورجع إلى مذهبه.

ومنهم ابراهيم بن محمد بن العباس بن عثمان الشافعي، ابن عم الإمام الشافعي. روى عن عمه والفضيل بن عياض وجده لأمه محمد بن علي بن شافع والمنكدر بن محمد وحماد بن زيد وابن عيينة وطائفة. وروى عنه ابن ماجة وأحمد بن سيار المروزي وأبو بكر بن أبي عاصم، وغيرهم. قال أبو حاتم: صدوق، وقال النسائي والدارقطني: ثقة. (مات) سنة سبع أو ثمان وثلاثين ومائتين.

ومنهم ابراهيم بن محمد بن هرم. روى عن الشافعي وكان يلزمه.

ومنهم ابراهيم بن المنذر بن عبد الله بن المنذر الحزامي المدني. امام ثقة جليل. حدث عن سفيان بن عيينة وابن وهب ومعن بن عيسى وابن أبي فديك وأبي ضمرة والوليد بن مسلم، وجماعة. روى عنه البخاري في صحيحه، وابن ماجة وبقي بن مخلد وابن أبي الدنيا ومحمد بن ابراهيم البوشنجي ومطين، وخلق. قال الخطيب ابراهيم: ثقة. وقال أبو الفتح الأزدري: هو في عداد أهل الصدق. وعن الدارقطني أنه قال: هو ثقة. (مات) سنة ست أو خمس وثلاثين ومائتين.

ومنهم إسحق بن ابراهيم بن مخلد، أبو يعقوب، المروزي، ابن راهويه، أحد أئمة الدين وأعلام المسلمين وهداة المؤمنين، الجامع بين الفقه والحديث والورع والتقوى، نزيل نيسابور وعالمها. (ولد) سنة إحدى أو ست وستين ومائة. سمع قبل الرحلة من ابن المبارك ثم روى عن فضيل بن عياض وسفيان ابن عيينة وحفص بن غياث، وخلق سواهم. روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأحمد بن حنبل، وابنه محمد بن اسحق بن راهويه، وخلق. وقال ابنه علي بن إسحق بن راهويه: (ولد) أبي مثقوب الأذنين. قال فضل بن موسى (الجدي): يكون ابنك رأساً، أما في الخير، وأما في الشر. فسئل إسحق: لم قيل لأبيك راهويه. قال: ولد أبي في طريق مكة، فقالت المراوزة راهويه. وقال إسحق: كان أبي يكره هذا وأما أنا فلست أكرهه. وكان إسحق فرداً وفي أمر الدنيا لا رأى له. (توفي) إسحق ليلة نصف شعبان سنة ثمان وثلاثين ومائتين. قال البخاري: وله سبع وسبعون سنة. فعلى هذا يكون ولادته سنة إحدى وستين.

ومنهم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحق، الإمام الجليل، أبو إبراهيم المزني، ناصر المذهب وبدر سمائه. (ولد) سنة خمس وسبعين ومائة، وحدث عن الشافعي ونعيم بن حماد وغيرهما. روى عنه ابن خزيمة والطحاوي، وغيرهما. وكان جبل علم، مناظراً محجاجاً. قال الشافعي في وصفه: لو ناظره الشيطان لغلبه. وقال: المزني ناصر مذهبي. وكان زاهداً ورعاً متقللاً من الدنيا مجاب الدعوة. وكان إذا فاتته صلاة في جماعة صلاها

خمسا وعشرين مرة. وكان يغسل الموتى تعبداً واحتساباً. وكان يقول: أفعله ليرق قلبي.

وصنَّف كتباً كثيرة منها:

١ ــ المختصر المشهور في الآفاق؛
٢ ــ والجامع الكبير؛
٣ ــ والجامع الصغير؛
٤ ــ والمنثور؛
٥ ــ والمسائل المعتبرة؛
٦ ــ والترغيب في العلم؛
٧ ــ وكتاب الوثائق؛
٨ ــ وكتاب العقارب؛
٩ ــ وكتاب نهاية الإختصار؛

وأخذ منه خلائق من علماء خراسان والعراق والشام. (توفي) سنة أربع وستين ومائتين. ذكروا أنه كان إذا فرغ من مسألة في المختصر صلى ركعتين. قال المزني: سألت يوماً الشافعي مسائل بلسان أهل الكلام فجعل يسمع مني وينظر إليّ ثم يجيبني عنها بأحضر جواب، وأحضر أفعل تفضيل من حضر يحضر حضوراً بالضاد المعجمة. كذا نقله ابن السبكي عن والده. قال المزني: فلما اكتفيت، قال لي: يا بني، أدلك على ما هو خير لك من هذا، قلت: نعم، فقال: يا بني، هذا علم ان أنت أصبت فيه لم تؤجر، وإن أخطأت فيه كفرت، فهل لك في علم إن أصبت فيه أجرت وإن أخطأت لم تأثم. قلت: وما هو، قال: الفقه. فلزمته، فتعلمته منه ودرست عليه. قال: وسأله يوماً حفص القرد عن سؤالات كثيرة في الكلام، فجرى بينهما كلام كثير حتى دق ولم أفهمه إذ التفت إلى الشافعي مسرعاً فقال: يا مزني، تدري ما قال حفص، قلت: لا، قال: خير لك ألا تدري. قال المزني: سمعت الشافعي يقول: ما رفعت أحداً فوق منزلته إلا حط مني بمقدار ما رفعت منه. وقال: سمعت

الشافعي يقول: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. وقال: سمعت الشافعي يقول: رأيت بالمدينة أربع عجائب، رأيت جدة بنت إحدى وعشرين سنة، ورأيت رجلاً فلسه القاضي في مدين توى، ورأيت شيخاً قد أتى عليه تسعون سنة يدور نهاره حافياً راجلاً على القينات يعلمهن الغناء، فإذا أتى الصلاة صلى قاعداً. قال المزني، ونسيت الرابعة. قال: وسمعته يقول: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه. وروى المزني عن الشافعي أنه نظر في النجوم وهو حدث. وقد استشكل هذا كثيرون، وقد مر الحق فيه عند ذكر علم النجوم.

ومنهم بحر بن نصر بن سابق الخولاني، أبو عبد الله المصري، مولى بني سعد بن خولان. مولده سنة ثمانين أو إحدى وثمانين ومائة. قال الطحاوي: ولد بحر بن نصر والربيع المرادي والمزني ثلاثتهم في سنة أربع وسبعين ومائة. روى عن ابن وهب وأيوب بن سويد الرملي والشافعي، وبه تفقه، وضمرة بن ربيعة وأشهب وبشر بن بكر وطائفة. روى عنه ابن حوصا وأبو جعفر الطحاوي، وجماعة كثيرة. (توفي) بمصر سنة تسع وستين ومائتين.

ومنهم الحارس بن سريج النقال بالنون ابن عمر الخوارزمي ثم البغدادي، وإنما قيل له النقال لأنه نقل رسالة الشافعي إلى عبد الرحمن بن مهدي. روى عن الشافعي وسفيان بن عيينة وحماد بن سلمة وغيرهم. روى عنه ابن أبي الدنيا وإبراهيم بن هاشم البغوي وأحمد بن الحسن الصوفي، وغيرهم. (مات) سنة ست وثلاثين ومائتين.

ومنهم الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف الأموي، أبو عمر المصري، فقيه محدث صالح إمام. أخذ عن الشافعي وغيره. وروى عنه أبو داود والنسائي وأبو يعلى الموصلي وغيرهم. (توفي) سنة خمسين ومائتين، وكان مولده سنة أربع وخمسين ومائة.

ومنهم الحسن بن محمد بن الصباح البغدادي، الإمام أبو علي الزعفراني كان إماماً جليلاً فقيهاً محدثاً فصيحاً بليغاً ثقة ثبتاً منسوب إلى قرية بالسواد يقال له الزعفرانية ونسب إليه درب الزعفراني ببغداد لأنه سكن فيه. سمع عن سفيان بن عيينة والشافعي وعبدة بن حميد وغيرهم. روى عنه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة فليس في الستة من لم يرو له إلا مسلم، وغيرهم من الأئمة. قيل ولم يكن في عصر الزعفراني أحسن منه صورة ولا أفصح منه لساناً، ولم يتكلم أحد فيه بسوء. قرأ على الشافعي (كتاب الرسالة). (توفي) في رمضان سنة ستين ومائتين.

ومنهم الحسين بن علي بن يزيد، أبو علي الكرابيسي. كان إماماً جليلاً جامعاً بين الفقه والحديث. تفقه أولاً على مذهب أهل الرأي ثم تفقه للشافعي وسمع منه الحديث وعن يزيد بن هارون وإسحق الأزرق ويعقوب بن ابراهيم وغيرهم وروى عنه جماعة. وله مصنفات كثيرة. وقد أجازه الشافعي. كتب الزعفراني: وكان الكرابيسي من متكلمي أهل السنة أستاذاً في علم الكلام كما هو أستاذ في الحديث والفقه. وله كتاب في علم المقالات. (مات) سنة خمس أو ثمان وأربعين ومائتين.

ومنهم الحسين القلاس، بالسين المهملة، الفقيه البغدادي. كان من أجلة أصحاب الحديث وحفاظ مذهب الشافعي.

ومنهم حرملة بن عبد الله التجيبي، وتجيب قبيلة، كان إماماً جليلاً رفيع الشأن. (ولد) سنة ست وستين ومائة. روى عن الشافعي وابن وهب وأيوب ابن سويد، وغيرهم. روى عنه مسلم وابن ماجة وغيرهما. وهو ثقة ثبت إن شاء الله. صنف (المبسوط)، و (المختصر). و (مات) سنة ثلاث وأربعين ومائتين. قال: سمعت الشافعي يقول: إذا رأيت كوسجا فأحذره، وما رأيت من أزرق خيراً. وقال: ما تقرب إلى الله عز وجل بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم. قال: وسمعته يقول في حديث «اشترطي لهم الولاء» أي عليهم، وفي قوله تعالى «أولئك لهم اللعنة»، أي عليهم، وفي قوله صلى الله عليه

وسلم «بيد أنهم» أي من أجل أنهم. وقال: كان الشافعي وهو حدث ينظر في النجوم، ثم كان له صديق وعنده جارية قد حبلت قال إنها تلد ولداً في فخذه الأيسر خال أسود إلى سبعة وعشرين يوماً ويعيش أربعة وعشرين يوماً ثم يموت، فجاء الأمر كما وصف. فحرق تلك الكتب وما عاد إلى النظر في شيء منها أصلاً. وقال: كان الشافعي يخرج لسانه فيبلغ أنفه.

ومنهم الربيع بن سليمان بن داود الجيزي، أبو محمد الأزدي، مولاهم المصري الأعرج. كان رجلاً صالحاً فقيهاً. روى عن الشافعي وعبد الله بن وهب وإسحق بن وهب، وغيرهم. وروى عنه أبو داود والنسائي والطحاوي، وغيرهم. (توفي) سنة ست أو سبع وخمسين ومائتين.

ومنهم الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي، مولاهم الشيخ أبو محمد المؤذن. صاحب الشافعي وراوية كتبه والثقة الثبت فيما يرويه حتى رجحوا روايته عند تعارض المزني مع علو قدر المزني علماً وديناً وجلالة وموافقة ما رواه للقواعد. وحدث عن الشافعي وعن عبد الله بن وهب وأيوب ابن سويد ويحيى بن حسان، وجماعة. روى عنه أبو داود والنسائي وابن ماجة وأبو زرعة الرازي والطحاوي والترمذي، وجماعة غيرهم. ولد سنة أربع وسبعين ومائة. وكان الشافعي يحبه، وقال له يوماً: لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك. وكان بطيء الفهم كرر عليه الشافعي مسألة واحدة أربعين مرة فلم يفهم وقام من المجلس حياء فدعاه الشافعي في خلوة فكررها حتى فهمها. وقيل كانت فيه سلامة صدر وغفلة، إلا أنه باتفاقهم لم ينته به إلى التوقف في قبول روايته بل هو ثقة ثبت. (مات) سنة سبعين ومائتين. قال: سمعت الشافعي يقول: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو لئيم وفي لفظ فهو شيطان، ومن ذكر فلم ينزجر فهو محروم. ومن تعرض لما لا يعنيه فهو الملوم. وقال. سمعته يقول: ما حلفت بالله صادقاً ولا كاذباً جاداً ولا هازلاً. قلت: وأني ما سمعت من المولى الوالد يميناً قط كما قاله الشافعي مع كثرة صحبتي معه في الليل والنهار. رحمه الله تعالى وحشره مع الأبرار. وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: إذا ضاقت الأشياء اتسعت وإذا اتسعت

ضاقت. قال: وسمعته يقول: من صدق في أخوة أخيه قبل علله وسد خلله وعفا عن زلله. قال: وسمعته يقول: الكيس العاقل هو الفطن المتغافل.

ومنهم **سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس القرشي الهاشمي، أبو أيوب البغدادي** روى عن الشافعي وغيره. وروى عنه أحمد بن حنبل وغيره. (توفي) سنة تسع عشرة أو عشرين ومائتين.

ومنهم **عبد الله بن الزبير** بن عيسى القرشي الأسدي المكي، محدث مكة وفقيهها.

ومنهم **أبو بكر الحميدي**، منسوب إلى حميد بن زهير بن الحارث بن أسد. روى عن الشافعي وتفقه به وذهب معه إلى مصر، وسفيان بن عيينة، قال الذهبي: وهو أجل أصحابه، والدر اوردي ووكيع وفضيل بن عياض وغيرهم. روى عنه البخاري و يعقوب بن سفيّان ومحمد بن يحيى الذهلي وأبو زرعة وأبو حاتم الرازيان، وخلق. قال أحمد بن حنبل: الحميدي عندنا إمام. (توفي) بمكة سنة تسع عشرة ومائتين.

ومنهم **عبد العزيز بن عمران بن أيوب بن مقلاص، الإمام أبو علي الخزاعي** مولاهم المصري الفقيه. أخذ عن الشافعي وعن عبد الله بن وهب. وروى عنه أبو زرعة وأبو حاتم وغيرهما. وهو ابن بنت سعيد بن أيوب. كان فقيهاً زاهداً. (توفي) سنة أربع وثلاثين ومائتين.

ومنهم **عبد العزيز يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني المكي** روى عن سفيان بن عيينة ومروان بن معاوية الفزاري وعبد الله بن معاذ الصنعاني ومحمد بن ادريس الشافعي وبه تخرج. روى عنه أبو العيناء، محمد بن القاسم بن خلاد والحسين بن الفضل البجلي وأبو بكر، يعقوب بن إبراهيم التيمي، وغيرهم. وهو قليل الحديث. وكان يلقب بالغول لدمامة منظره. وكان من أهل العلم والفضل. وله مصنفات عدة. وكان ممن تفقه بالشافعي واشتهر بصحبته، وكان أحد أتباع الشافعي والمقتبسين عنه وقد طالت صحبته له وخرج معه إلى اليمن.

ومنهم علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدي، أبو الحسن بن المديني، الحافظ، أحد أئمة الحديث ومن انعقد الإجماع على جلالته وإمامته. وله التصانيف الحسان. مولده سنة إحدى وستين ومائة. سمع أباه وحماد بن زيد وهشيماً وأبا عيينة والدراوردي، وغيرهم. روى عنه البخاري وأبو داود وأحمد ابن حنبل وغيرهم. وروى الترمذي والنسائي عن رجل عنه (مات) سنة أربع وثلاثين ومائتين.

ومنهم الفضل بن ربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة. واسم أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه وكنية الفضل أبو العباس حاجب الرشيد ثم وزيره. كان من رجال الدهر رأيا وحزماً ودهاء ورياسة ومكارم وعظمة في الدنيا. ولوالده (الربيع) الجاه الرفيع عند مخدومه أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور. ولما آل الأمر إلى هارون الرشيد واستوزر البرامكة جعل الفضل حاجبه. وكان الفضل يروم التشبه بالبرامكة ومعارضتهم، ولم يكن له إذ ذاك من القدرة ما يدرك اللحاق بهم فمن ثم كانت بينهم أحن وشحناء إلى أن قدر الله زوال نعمة البرامكة على يد الفضل فإنه تمكن بمجالسة الرشيد وأوغر قلبه فيما يذكر عليهم حتى اتفق لهم ما تناقلته الرواة، واستمر الفضل متمكناً عند هارون إلى أن قضى هارون نحبه، فقام بالخلافة ولده محمد الأمين وساق إليه الخزائن بعد موت أبيه وسلم إليه القضيب والخاتم وأتاه بذلك من طوس ـــ وكان الفضل هو صاحب الحل والعقد لاشتغال الأمين باللهو. ولما تداعت دولة الأمين ولاح عليها الأدبار اختفى الفضل مدة طويلة. فلما بويع ابراهيم بن المهدي ظهر الفضل وساس نفسه ولم يدخل معهم في شيء فلذلك عفا عنه المأمون بشفاعة طاهر بن الحسين واستمر بطالاً في دولة المأمون لا حظ له إلا السلام إلى أن مات. وفي استقصاء أخباره طول، وأبواب وفصول، ولكننا نذكر من عجائبها أمراً فيه عظة عظيمة لمن اعتبر وهو أن الفضل دخل يوماً على يحيى بن خالد البرمكي وقد جلس يحيى لقضاء الحوائج وولده جعفر بين يديه يوقع في القصص، فعرض الفضل عليه عشر رقاع للناس فتعلل يحيى في كل منها (بعلة) ولم يوقع في شيء منها البتة، فجمع

الفضل الرقاع وقال: أرجعن خائبات خاسئات فخرج وهو ينشد:

عسى وعسى يثني الزمان عنانه   بتصريف حال والزمان عثور
فتقضي لبانات وتشفى حسائف   وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه يحيى فقال: عزمت عليك يا أبا العباس إلا رجعت، فرجع، فوقع له في الجميع. ثم لم يمض إلا القليل ونكبت البرامكة على يديه وتولى هو الوزارة بعد أن كان حاجباً. والفضل بن الربيع هو الذي قال فيه أبو النواس:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

من أبيات. (مات) الفضل سنة ثمان ومائتين وهو في عشر السبعين. حدث عن الفضل أبو نصر المخزومي الكوفي أنه قال: دخلت على هارون فإذا بين يديه أنواع من آلات العذاب والقتل، فقال لي: يا فضل، عليّ بهذا الحجازي، يعني الشافعي، فقلت: انا لله وإنا إليه راجعون، ذهب هذا الرجل. فأتيته وقلت له: أجب أمير المؤمنين، فقال: أصلي ركعتين، فقلت: صلِّ، فصلى، ثم ركب بغلته فصرنا معاً إلى دار الرشيد، فلما دخلنا الدهليز الأول حرك الشافعي شفتيه وكذا في الثاني، فلما دخلنا بحضرة الرشيد قام إليه فأجلسه موضعه وقعد بين يديه يعتذر إليه وخاصة أمير المؤمنين قيام ينظرون الحال فتحدثوا طويلاً ثم أذن له بالإنصراف، فقال لي: أحمل يا فضل بين يديه بدرة فحملت وقلت له: سألتك بالذي صير غضبه عليك رضى إلا ما عرفتني ما قلت حتى رضي فقال يا فضل، فقلت لبيك أيها السيد الفقيه، قال خذ مني واحفظ عني، قلت شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. اللهم أني أعوذ بنور قدسك وببركة طهارتك وبعظمة جلالك من كل عاهة وآفة وطارق الجن والأنس إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن. اللهم بك ملاذي قبل أن ألوذ وبك غياثي قبل أن أغوث. يا من ذلت له رقاب الفراعنة وخضعت له مقاليد الجبابرة. اللهم ذكرك شعاري ودثاري ونومي وقراري. أشهد أن لا إله إلا أنت أضرب على سرادقات حفظك وقني رعبي بخير منك يا رحمن. قال الفضل: فكتبتها وجعلتها في بركة قبائي. وكان الرشيد كثير

الغضب علي وكان كلما هم أن يغضب أحركها في وجهه فيرضى فهذا مما أدركت من بركة الشافعي.

وأعلم أن هذه الواقعة وهذا الدعاء روى على وجه آخر، رواه المزني عن الشافعي فلا علينا أن نذكرها هنا اتماماً للمرام، وإن أدى إلى الأطناب في الكلام. قال المزني: سمعت الشافعي يقول: بعث إليّ هارون الرشيد ليلة الربيع، فهجم علي من غير اذن، فقال لي: أجب، فقلت له: في مثل هذا الوقت وبغير اذن، قال: بذلك أمرت، فخرجت معه، فلما صرت إلى باب دار الرشيد قال لي: أجلس فلعله قد نام أو سكن غضبه، فدخل فوجده منتصباً. فقال: ما فعل محمد بن ادريس، قال الربيع: قد أحضرته، قال الشافعي: فلما دخلته تأملني ثم قال لي: يا محمد، أرعبناك، فانصرف راشداً. يا ربيع، أحمل معه بدرة. قال: فقلت: لا حاجة لي فيها قال: أقسمت عليك إلا أخذتها، فحملت بين يدي، فلما خرجت قال لي الربيع: بالذي سخر لك هذا الرجل، ما الذي قلت. قلت: فقلت: سمعت مالك بن أنس يقول: سمعت نافعاً يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب بهذا الدعاء فكفي. وهو: اللهم أني أعوذ بنور قدسك وبركة طهارتك وعظم جلالك من كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير. اللهم أنت غياثي فبك أغوث وأنت عياذي فبك أعوذ وأنت ملاذي فبك ألوذ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة وخضعت له مقاليد الفراعنة، أجرني من خزيك وعقوبتك فآسني في ليلي ونهاري ونومي وقراري. لا إله إلا أنت تعظيماً لوجهك وتكرماً لسبحاتك، فأصرف عني شر عبادك واجعلني في حفظ عنايتك وسرادقات حفظك وعد علي بخير منك يا أرحم الراحمين.

ومنهم القاسم بن سلاَّم بتشديد اللام، الإمام الجليل أبو عبيد الأديب الفقيه المحدث صاحب التصانيف الكثيرة في القراءات والفقه واللغة والشعر. قرأ القرآن على الكسائي واسماعيل بن جعفر وشجاع بن أبي نصر وسمع الحديث عن إسماعيل بن عياش وإسماعيل بن جعفر وهشيم بن بشير وشريك ابن عبد الله وهو أكبر شيوخه وعبد الله بن المبارك، وخلائق آخرين. روى عنه

وكيع والدارمي وابن أبي الدنيا، وآخرون. وتفقه على الشافعي. ولد بهراة وكأن أبوه، فيما يذكر، عبد البعض أهلها وتنقلت به البلاد وولي قضاء طرسوس ثم حج بالآخرة فتوفي بمكة سنة أربع وعشرين ومائتين. وكان ينام ثلث الليل ويصلي ثلثه ويطالع ثلثه. قال إسحق بن راهويه: الحق يحبه الله، أبو عبيد أفقه مني وأعلم مني وهو أوسعنا علماً وأكثرنا أدباً، انا نحتاج إليه وهو لا يحتاج إلينا. قال الحاكم: هو الإمام المقبول عند الكل رحمه الله تعالى.

ومنهم قحذم بن عبد الله بن قحذم، أبو حنيفة الأسواني بفتح القاف وسكون الحاء المهملة ثم المعجمة المفتوحة هو آخر من صحب الشافعي موتاً. روى عنه كثيراً من كتبه وكان مفتياً، وأصله من القبط. (توفي) سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ومنهم: موسى بن أبي الجارود، أبو الوليد المكي، راوي (كتاب الأمالي) عن الشافعي وأحد الثقات من أصحابه. كان فقيهاً جليلاً، أفتى بمكة على مذهب الشافعي. يرجع إليه عند اختلاف الرواية. روى عن يحيى بن معين والبويطي. وروى عنه الزعفراني والربيع وأبو حاتم الرازي.

ومنهم: يوسف بن يحيى، الإمام الجليل، أبو يعقوب البويطي المصري وبويط من صعيد مصر. هو أكبر أصحاب الشافعي المصريين. كان إماماً جليلاً عابداً زاهداً فقيهاً عظيماً جبلاً من جبال العلم والدين، غالب أوقاته الذكر والتشاغل بالعلم، غالب ليله التهجد والتلاوة، سريع الدمعة. تفقه على الشافعي واختص بصحبته، وحدث عنه وعن عبد الله بن وهب وغيرهما. روى عنه الربيع المرادي، وهو رفيقه، وإبراهيم الحربي ومحمد بن إسماعيل الترمذي وأبو حاتم، وآخرون. وله (المختصر) المشهور على نظم أبواب المبسوط، واختصره من كلام الشافعي. وهو في غاية الحسن. وكان الشافعي يعتمد عليه في الفتيا واستخلفه على أصحابه بعد موته فتخرجت على يديه أئمة فتفرقوا في البلاد ونشروا علم الشافعي في الآفاق وكان يختم في كل يوم وليلة. فسعى به من يحسده إلى ابن أبي دؤاد بالعراق فكتب إلى والي مصر أن يمتحنه فامتحنه فلم يجب

وكان الوالي حسن الرأي فيه، فقال له: قل فيما بيني وبينك فقال: أنه يقتدى بي مائة ألف ولا يدرون المعنى. وكان أمر أن يحمل إلى بغداد في أربعين رطل حديد. قيل: إن من سعى به ثلاثة: المزني وحرملة وابن الشافعي. قال البويطي: بريء من دمي إلا ثلاثة: المزني وحرملة وآخر. قيل: وإنما أبهم الثالث رعاية لحق والده رضي الله عنهم. ثم حبسوه، وكان يغتسل كل جمعة ويتطيب ويغسل ثيابه، ثم إذا سمع النداء كان يخرج إلى باب السجن فيرده السجان ويقول: أرجع رحمك الله، فيقول البويطي: اللهم أني أجبت داعيك فمنعوني. قال أبو عمرو المستملي: حضرنا مجلس محمد بن يحيى الذهلي فقرأ علينا كتاب البويطي: والذي أسألك أن تعرض حالي على اخواننا أهل الحديث لعل الله يخلصني بدعائهم، فاني في الحديد وقد عجزت عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة، فضج الناس بالبكاء والدعاء له. قال السبكي: أنظر إلى هذا الخبر لم يكن أسفه إلا على أداء الفرائض ولم يبال بالقيد ولا بالسجن فرضي الله عنه وجزاه عن صبره خيراً، لقد قام مقام الصديقين. مات البويطي سنة إحدى وثلاثين ومائتين في سجن بغداد في القيد والغل.

ومنهم: يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة بن حفص بن حبان، الإمام الكبير أبو موسى الصدفي، الفقيه المقري. (ولد) في ذي الحجة سنة سبعين ومائة. قرأ القرآن على ورش وغيره وأقرأ الناس وسمع الحديث من سفيان بن عيينة وابن وهب والوليد بن مسلم ومعن بن عيسى وأبي ضمرة، أنس بن عياض والشافعي، وأخذ عنه الفقه، وطائفة أخرى. وروى عنه مسلم والنسائي وابن ماجة وأبو عوانة وأبو بكر بن زياد النيسابوري وأبو الطاهر المديني، وخلق. وانتهت إليه رياسة العلم بديار مصر. قال الشافعي: ما رأيت بمصر أحداً أعقل من يونس. وقال يحيى بن حسان: يونسكم هذا ركن من أركان الإسلام. (مات) سنة أربع وستين ومائتين.

وأعلم أنا نختم بذكره رواة الشافعية الذين تفقهوا عليه، ثم نذكر بعد هذا مشاهير الأئمة من المتمذهبين بمذهبه، إذ أحاطة الكل ممتنع في هذا الكتاب إذ قد كثر عليها المجلدات الكبار.

منهم **محمد بن ادريس، أبو حاتم الرازي**، أحد الأئمة الأعلام. (ولد) سنة خمس وتسعين ومائة. خرج من البحرين إلى مصر ماشياً ثم إلى الرملة ماشياً ثم إلى دمشق ثم إلى انطاكية ثم إلى طرسوس. قال أبو حاتم: ثم رجعت إلى حمص ثم إلى الرقة ثم ركبت إلى العراق، كل هذا وأنا ابن عشرين سنة. روى عنه أبو داود والنسائي ولم تثبت رواية البخاري وابن ماجة عنه. وله حكاية طويلة حاصلها أنه ركب البحر ونفد الزاد والراحلة وخرج ثلاثة إلى البر فمشوا حتى سقط واحد، ثم مشيا حتى سقط أبو حاتم، ومشى الآخر حتى رأى سفينة فأخبرهم الحال، فجاءوا فسقوا وأطعموا فحيوا بعدما ماتوا.

ومنهم: **محمد بن إسماعيل البخاري** صاحب (الجامع الصحيح) وقد مر ذكر مناقبه بما فيه كفاية للطالب.

ومنهم: **محمد بن علي بن الحسن بن بشر، المحدث الزاهد، أبو عبد الله الحكيم الترمذي** الصوفي صاحب التصانيف. سمع الكثير من الحديث بخراسان والعراق. وحدث عن أبيه وعن قتيبة ابن سعيد وآخرين. روى عنه يحيى بن منصور القاضي وغيره. لقي الحكيم الترمذي أبا تراب النخشبي وصحب يحيى بن الجلاء. قال أبو عبد الرحمن السلمي: نفوه من ترمذ، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تصنيفه (كتاب ختم الولاية)، و (كتاب علل الشريعة)، وقال إنه يقول إن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً وأنه يفضل الولاية على النبوة واحتج بقوله عليه الصلاة والسلام «يغبطهم النبيون والشهداء»، وقال: لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم، فجاء إلى بلخ فقبلوه بسبب موافقته إياهم على المذاهب. ثم اعتذر السلمي عنه بعذر يبعد عنه فهم الفاهمين. قال ابن السبكي: ولعل الأمر كما زعم السلمي، وإلا فما يظن بمسلم أن يفضل بشراً غير الأنبياء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن تصانيف الترمذي:

١ ــ كتاب الفروق، وليس في بابه مثله، يفرق فيه بين المداراة والمداهنة

والمحاجة والمجادلة والمناظرة والمغالبة والإنتصار والإنتقام وهلم جراً من أمور متقاربة المعنى.

٢ ـــ وله أيضاً كتاب عرس الموحدين؛
٣ ـــ وكتاب غور الأمور؛
٤ ـــ وكتاب المناهي؛
٥ ـــ وكتاب شرح الصلاة.

ومنهم: محمد بن نصر المروزي، الإمام الجليل، أبو عبد الله، أحد أعلام الأمة وعقلائها وعبادها. (ولد) سنة اثنتين ومائتين ببغداد، ونشأ بنيسابور وسكن سمرقند، وكان أبوه مروزياً. تفقه على أصحاب الشافعي وسمع جماعة، وسمع عنه طائفة. قال الحاكم: هو الفقيه العابد العالم امام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة. استوطن نيسابور، ثم خرج إلى سمرقند فأقام بها وأفتى. قال ابن الأخرم: ما رأيت أحسن صلاة منه، وكان الذباب يقع على أذنه فيسيل الدم ولا يذبه عن نفسه، ولقد كنا نتعجب من خشوعه في الصلاة، كان يضع ذقنه على صدره فينتصب كأنه خشبة منصوبة. وكان من أحسن الناس وجهاً كأنما فقيء في وجهه حب الرمان، وعلى خديه كالورد ولحيته بيضاء. (توفي) بسمرقند سنة أربع وتسعين ومائتين.

ومنهم: الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم النهاوندي الأصل، البغدادي القواريري الخرار سيد الطائفة، ومقدم الجماعة وامام أهل الخرقة وشيخ طريقة التصوف وعلم الأولياء في زمانه وبهلوان العارفين. تفقه على أبي ثور، وكان يفتي بحلقته وله من العمر عشرون سنة. واختص بصحبة السري السقطي والحارث بن أسد المحاسبي وأبي حمزة البغدادي. قال جعفر الخلدي: لم نر في شيوخنا من اجتمع له علم وحال غير الجنيد، إذا رأيت علمه رجحته على حاله، وإذا رأيت حاله رجحته على علمه. قال الجنيد ذات يوم ما أخرج الله إلى الأرض علماً وكان ورده كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة. وكان عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ويصلي كل ليلة أربعمائة ركعة. وقال: ما نزعت ثوبي للفراش منذ أربعين سنة.

وكان يقول: الطريق إلى الله تعالى عز وجل مسدودة على خلقه إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان يقول: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات. ومناقب الجنيد وأحواله بحر لا ساحل له فلنقبض عنان القلم عن ذلك، كما قيل:

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

(توفي) الجنيد قدس الله سره العزيز يوم السبت في شوال سنة ثمان أو سبع وتسعين ومائتين. قال الخلدي: رأيته في النوم فقلت: ما فعل الله بك؛ فقال: طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم، إلا ركيعات كنا نركعها في السحر، وفي بعض الرواية في جوف الليل.

ومنهم الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله البغدادي الزاهد، علم العارفين في زمانه وأستاذ السائرين الجامع بين علمي الظاهر والباطن، شيخ الجنيد. وسمي المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه. صاحب التصانيف والرد على المعتزلة والرافضة وغيرهم. وهو إمام المسلمين في الفقه والحديث والكلام والتصوف. وشهرة أمره بين الفقهاء المتصوفة أغنتنا عن الأطناب في ذكره. قدس الله سره العزيز. (توفي) سنة ثلاث وأربعين ومائتين. قيل إن الحارث كان يتكلم في شيء من مسائل الكلام فهجره أحمد بن حنبل لهذا السبب. ولا يخفى أن تكلم الحارث كان عندما دعت الحاجة إليه فحينئذ يجوز التكلم في الكلام، وأما النكير من قبل أحمد بن حنبل فإنما ذلك لئلا يجر ذلك إلى ما لا ينبغي، ولكل مقصد ونية، والله يرحمهما.

ومنهم: داود بن علي بن خلف، أبو سليمان البغدادي الأصبهاني، امام أهل الظاهر. (ولد) سنة مائتين أو اثنتين ومائتين. وكان أحد أئمة المسلمين وهداتهم، وكان من المتعصبين للشافعي. كان إماماً ورعاً زاهداً ناسكاً وكان في مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر. انتهت إليه رئاسة العلم ببغداد. أصله من أصبهان، ومولده بالكوفة ومنشؤه ببغداد وقبره بها. (توفي) في رمضان سنة سبعين ومائتين.

ومنهم: **سليمان بن الأشعث السجستاني**، صاحب السنن، وقد سلف ذكره.

ومنهم: **عثمان: بن سعيد بن خالد بن سعيد السجستاني، الحافظ أبو سعيد الدارمي** محدث هراة وأحد أعلام الثقات. وهو الذي قام على محمد بن كرام رئيس الكرامية وطرده عن هراة. نشأ بسجستان، ثم رحل إلى خراسان، ثم جاور بمكة خمس سنين، ثم ورد نيسابور، وباح بالتجسيم. وكان من إظهار النسك والتأله والتعبد والتقشف على جانب عظيم. فالناس فيه ما بين معتقد ومنتقد. ثم حبسه الأمير محمد بن طاهر، حبسه بنيسابور ثمان سنين، ولم يكن قصد الساعين عليه الا اراقة دمه، وإنما هاب الأمير قتله لما رأى عليه من مخايل العبادة والتقشف، ثم أخرج من السجن. و (توفي) ببيت المقدس سنة خمس وخمسين ومائتين. قيل: كان يغتسل في السجن كل جمعة ويتأهب للخروج إلى الجامع، ثم يقول للسجان: تأذن لي في الخروج، فيقول: لا، فيقول: اللهم اني بذلت مجهودي والمنع من غيري.

ومنهم: **عسكر بن الحصين**، وقيل: عسكر بن محمد الحسين، الشيخ أبو تراب النخشبي. ونخشب بلدة من بلادنا وراء النهر عربت فقيل لها نسف. كان شيخ عصره بلا مدافعة جمعاً بين العلم والدين، زاهداً ورعاً متقشفاً متقللاً متوكلاً متبتلاً، صحب حاتماً الأصم إلى أن مات. وخرج إلى الشام، وكتب الكثير من الحديث، ونظر في كتب الشافعي وتفقه على مذهبه. و (توفي) سنة خمس وأربعين ومائتين بالبادية: وقيل نهشته السباع. ومناقبه ومحاسنه خارجة عن التعداد وله كرامات معروفة عند أهله ومذكورة في كتب التواريخ والتصوف.

ومنهم: **أحمد بن شعيب، أبو عبد الرحمن النسائي**، وقد مر ذكر مناقبه.

ومنهم: **أحمد بن عمر بن سريج** القاضي أبو العباس البغدادي، الباز الأشهب، والأسد الضاري على خصوم المذهب، شيخ المذهب، وحامل لوائه، والبدر المشرق في سمائه والغيث المغدق بروائه. انتهت إليه الرحلة، فضربت

الأ بل نحوه آباطها، وعلقت به العزائم بساطها، وأتته أفواج الطلبة لا تعرف إلا نمارق البيض بساطها. ولي القضاء بشيراز وكان أبرع في الكلام، كما أنه أبرع في الفقه. قيل: هو الصدر الكبير والشافعي الصغير. وكان له أربعمائة مصنف توفي سنة ست وثلاثمائة، وهو عالم ذلك القرن، وله سبع وخمسون سنة وستة أشهر، ومناقبه لا تحصى.

ومنهم: **أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار، الشيخ أبو علي الروذباري**، والأصح في اسمه ما ذكرناه. وكان أحد أئمة الصوفية. كان بغدادي الأصل من أبناء الوزراء والرؤساء، يتصل نسبه بكسرى أنوشروان. صحب في التصوف الشيخ الجنيد، وفي الفقه ابن سريج، وفي النحو ثعلب، وفي الحديث ابراهيم الحربي. وكان فقيهاً محدثاً. قال أبو علي الكاتب:

ما رأيت أحداً أجمع لعلم الشريعة والحقيقة من الروذباري. توفي سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

ومنهم: **محمد بن أحمد بن الأزهري بن طلحة الهروي**، أبو منصور الأزهري اللغوي، صاحب (تهذيب اللغة) عشرة مجلدات، و(كتاب التقريب) في التفسير و(كتاب علل القراءات)، وغير ذلك. (ولد) سنة اثنتين وثمانين ومائتين. وكان إماماً في اللغة، بصيراً بالفقه، عارفاً بالمذهب، عالي الإسناد، كثير العبادة والمراقبة، وأسرته القرامطة، فبقي في البادية دهراً طويلاً، واستفاد منهم ألفاظاً جمة. توفي سنة سبعين وثلاثمائة.

ومنهم: **محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد الفاشاني**، بالفاء والشين، أبو زيد المروزي، أحد الأفراد علماً وورعاً وأحد الآحاد أفراداً وجمعاً. (ولد) سنة إحدى وثلاثمائة. وله فضائل كثيرة وعند العلماء شهيرة توفي بمرو سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

ومنهم: **محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر، أبو بكر الحداد المصري** صاحب الفروع، وصاحب ذيل الفضل الذي هو على الرؤوس محمول وعلى العيون موضوع، ذو الفكرة المستقيمة، والفطرة السليمة، فكرة في محتجبات

المعاني سارية، وفي سماء المعاني سامية، وقريحته عجيبة الحال، ما أدراك ماهية، نار حامية، امام لا يدرك محله، وجواد لا يجاريه إلا ظله، سارت مولداته في المغارب والمشارق، وطرق فكره الأسماع وما أدراك ما الطارق، وناطق قال فكان له من القول بسيطه ووجيزه، ومصري صح على نقد الأذهان ابريزه، ووضح حليته، نعوذ بالله من شر الوسواس الخناس، واصطفت الأئمة معه فقال لسان الحق: مروا أبا بكر فليصلّ بالناس. ولد يوم موت المزني. وكان كثير التعبد يختم كل يوم وليلة، و يصوم يوماً و يفطر يوماً، ويختم يوم الجمعة ختمة أخرى في ركعتين في الجامع قبل الصلاة سوى التي يختمها كل يوم، وكان عارفاً بالحديث والأسماء والكنى والنحو واللغة واختلاف الفقهاء وأيام الناس وسير الجاهلية حافظاً لشيء كثير من الشعر، وكان نسيج وحده في حفظ القرآن، إمام عصره في الفقه، بحراً واسعاً في اللغة، وله كلمة نافذة عند الملوك وجاه رفيع.

١ ــ وله كتاب الباهر في الفقه في مائة جزء؛

٢ ــ وأدب القضاء في أربعين جزءاً؛

٣ ــ والمختصر المشهور الذي شرحه عظماء الأصحاب وغير ذلك.

ولي قضاء مصر نيابة ثم أصالة. و (توفي) في طريق الحج سنة خمس أو أربع وأربعين وثلاثمائة. وعاش ثمانين إلا شهراً.

ومنهم: محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، أحد أئمة الدنيا علماً وديناً. مولده سنة أربع أو خمس وعشرين ومائتين. طوف الأقاليم في طلب العلم.

وتصانيفه كثيرة منها:

١ ــ تفسيره المشهور؛

٢ ــ والتاريخ؛

٣ ــ كتاب أحكام شرائع الإسلام، وغير ذلك.

كان حافظاً لكتاب الله بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن. قيل إن مصنفاته قسمت على مدة عمره بعد سن البلوغ فصار لكل يوم أربع عشرة

ورقة. وحكي أنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة. ولا منافاة بين الروايتين كما لا يخفى على المتأمل. وكان يقول: اضطررت لنفقة والديَّ ففتقت كميَّ قميصي فبعتها. توفي سنة عشر وثلاثمائة ولم يغير شيبة. وكان أسمر إلى الأدمة أعين نحيف الجسم مديد القامة فصيحاً رحمه الله.

ومنهم: محمد بن خفيف الشيرازي، الشيخ أبو عبد الله بن الخفيف، شيخ المشايخ، وذو القدم الراسخ في العلم والدين. كان سيداً جليلاً وإماماً حفيلاً يستمطر الغيث بدعائه و يؤدب المصر بكلامه، من أعلم المشايخ بعلوم الظاهر وممن اتفقوا على عظيم تمسكه بالكتاب والسنة. وكانت له أسفار وهدايات، وأحوال عاليات ورياضات. لقي من النساك شيوخاً ومن السلاك طوائف رسخ قدمهم في الطريق رسوخاً. وصحب من أرباب الأحوال أحباراً، وشرب من منهل الطريف كاسات كباراً، وسافر مشرقاً ومغرباً، وصابر النفس حتى انقادت له فأصبح مبنى الثناء عليه معرباً، صبر على الطاعة وله جنب لا يدري القرار، ونفس لا تعرف المأوى إلا البيداء ولا المسكن إلا القفار، وكان من أولاد الأمراء فتزهد حتى قال: كنت أذهب وأجمع الخرق من المزابل وأغسلها، وأصلح منها ما ألبسه، بلغ ما لم يبلغه أحد من الخلق في العلم والجاه عند الخاص والعام، وصار أوحد زمانه مقصوداً من الآفاق، مباركاً على من يقصده، رفيقاً بمريديه، و يبلغ كلامه مراده. وصنَّف من الكتب ما لم يصنفه أحد، وعمر حتى عم نفعه. بقي أربعين سنة يفطر كل ليلة بكف باقلاء، وربما كان يصلي من الغداة إلى العصر ألف ركعة، وكان ربما يقرأ القرآن كله في ركعة واحدة، وإذا أراد أن يخرج إلى صلاة الجمعة يفرق كل ما عنده من ذهب أو فضة، ويخرج في كل سنة جميع ما عنده، وكان يفطر على عشر حبات زبيب، فأشفق بعض أصحابه وجعلها خمس عشرة، فنظر إليه وقال: من أمرك بهذا، وأكل منها عشراً وترك الباقي. قال افتصدت فخرج من عرق شبيه ماء اللحم وغشي علي فتحير الفصاد وقال: ما رأيت جسداً بلا دم إلا هذا. رضي الله عنه وقدس سره. ولا نهاية لمناقبه. (توفي) ليلة ثالث رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

ومنهم: **محمد بن سليمان بن هارون، أبو سهل الصعلوكي.** إمام وقته في الفقه والتفسير واللغة والنحو والشعر والعروض والكلام والتصوف وغير ذلك من أصناف العلوم. ولد سنة ست وتسعين ومائتين، ولقي الأئمة والمشايخ. درس بالبصرة سنين و بنيسابور اثنتين وثلاثين سنة. صحب من أئمة التصوف المرتعش والشبلي وأبا علي الثقفي وغيرهم. توفي سنة تسع وستين وثلاثمائة. ومناقبه لا تنتهي.

ومنهم **محمد بن عبد الله، أبو بكر الصيرفي،** أعلم خلق الله تعالى بالأصول بعد الشافعي.

وله تصانيف منها:

١ ــ شرح الرسالة؛
٢ ــ وكتاب في الإجماع؛
(توفي) سنة ثلاثين وثلاثمائة.

ومنهم **محمد بن علي القفال الكبير الشاشي.** (كان) إماماً في التفسير والحديث والكلام والأصول والفروع واللغة والشعر. كان إماماً في الورع والزهد. أخذ الكلام عن الأشعري، وأن الأشعري كان يأخذ عليه اللغة. (مات) سنة ست أو خمس وثلاثين وثلاثمائة. و (ولد) سنة إحدى وتسعين ومائتين.

ومنهم: **علي بن إسماعيل، الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري** شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين. وقد مر نبذ من مناقبه في ترجمته فيما سبق. ولا تنتهي مناقبه الشريفة وإن أعدناها ألف مرة، وأطلنا فيها مقدار ألف ورقة. جزاه الله تعالى عنا وعن نصرة الشرع المبين.

ومنهم: **أحمد بن أحمد الأسفرايني، الشيخ أبو حامد.** حافظ المذهب، وإمامه. ولد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة. انتهت إليه رياسة الدين والدنيا ببغداد، وطبق الأرض بالأصحاب، وجمع مجلسه ثلاثمائة متفقهة وقيل سبعمائة

فقيه. وكان الناس يقولون: لو رآه الشافعي لفرح به. كان عظيم الجاه عند الملوك، مع الدين الوافر والورع والزهد واستيعاب الأوقات بالتدريس والمناظرة ومؤاخذة النفس على دقيق الكلام، ومحاسبتها على هفوات اللسان. وكان أبو الحسين القدوري من الحنفية يعظمه ويفضله على كل أحد. (توفي) في شوال سنة ست وأربعمائة. ومناقبه لا تحصى فلا فائدة في الأطناب فيها.

ومنهم: إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي، أبو إسحق الشيرازي صاحب:

١ ــ التنبيه؛
٢ ــ والتهذيب في الفقه؛
٣ ــ والنكت في الخلاف؛
٤ ــ واللمع؛
٥ ــ وشرحه؛
٦ ــ والتبصرة في أصول الفقه؛
٧ ــ والملخص؛
٨ ــ والمعونة، في الجدل؛
٩ ــ وطبقات الفقهاء؛
١٠ ــ ونصح أهل العلم، وغير ذلك.

هو الشيخ الإمام شيخ الإسلام، صاحب التصانيف التي سارت مسير الشمس، ودارت الدنيا فما جحد فضلها إلا الذي يتخبطه الشيطان من المس. وكانت الطلبة ترحل من المشرق والمغرب إليه، والفتاوى تحمل من البر والبحر إلى بين يديه، والفقه تتلاطم أمواجه ولا تستقر إلا لديه، ويتعاظم لابس شعاره إلا عليه، حتى ذكروا أنه كان يجري مجرى ابن سريج في تأصيل الفقه وتفريعه، ويحاكيه في انتشار الطلبة في الرابع العامر جميعه. وأما ورعه فذلك أشهر من أن يذكره الذاكر، ولا يحاط له بأول وآخر، لن ينكر تقلب وجهه في الساجدين ولا قيامه في جوف الدجى وكيف والنجوم من جملة الشاهدين.

وكان يقال أنه مستجاب الدعوة. ويقال: كان يصلي ركعتين عند فراغ كل فصل من (المهذب). يقال: نسي في المسجد ديناراً ثم ذكر فرجع ووجده ففكر، ثم قال لعله وقع من غيره فتركه. هذا هو الزهد هكذا، وإلا فلالا. ولد بفيروز آباد، ثم دخل بغداد وقرأ على شيوخ كثيرة. كان اشتغاله أول طلبه أمراً عجاباً. وكان يعيد كل درس ألف مرة. قال: وكنت أعيد كل قياس ألف مرة، فإذا فرغت منه أخذت قياساً آخر، وعلى هذا. واشتهى ثريداً بماء الباقلاء قال: فما صح لي أكله لاشتغالي بالدرس. وهو أول من درس بمدرسة نظام الملك ببغداد، فقبلها بعد تمنع شديد، وإنما بناها لأجله. وله حكاية عجيبة هي أن نظام الملك ذكر خيراته الواصلة إلى الخلائق واجتنابه عن المعاصي واستفتى من العلماء في ذلك، فكتبوا في الجواب هو من أهل الجنة. فلما طالع ذلك قال لا يطمئن قلبي بهذا إلا أن يكتب عليه الشيخ الإمام أبو إسحق فكتب عليه: الحسن خير الظلمة، وكان اسم نظام الملك الحسن. فلما طالعه قال، صدق الشيخ هذا هو (الجواب) الصواب. فلما قتل السلطان نظام الملك ربطوا صورة فتوى الشيخ على حواشي كفنه بوصية منه، فرآه بعض الصالحين في المنام، فسأل عن حاله فقال: قد وهبني الله تعالى ما فعلته من المعاصي، وقال تعالى قد وهبناك لأجل سبق قلم الشيخ لك بالخير، وهذه منقبة عظيمة للشيخ رضي الله عنه. ومن مناقبه أنه رضي الله عنه كان عند خروجه إلى بلاد العجم يخرج أهلها بنسائهم وأولادهم فيمسحون أركانه ويأخذون تراب نعليه يستشفون به، وكان أصحاب الصنائع ينشرون صنائعهم ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وهو ينهاهم، حتى الأساكفة نثروا المتاعات وهي تقع على رؤوس الناس والشيخ يتعجب. ولما انتهوا جعل الشيخ يداعب أصحابه، ويقول: رأيتم النثار ما أحسنه، وايش وصل إليكم يا أولادي منه. ولما وصل إلى بسطام، قيل للشيخ: قد أتى فلان الصوفي، قيل يعرف هو بالسهلكي، فنهض الشيخ من مكانه، وعدا إليه، وإذا هو شيخ كبير راكب بهيمة وخلفه الصوفية بمرقعات جميلة، فقيل له: قد أتاك الشيخ أبو اسحق، فرمى نفسه عن البهيمة وقبل الشيخ أبو إسحق رجله. وقال له الصوفي: قتلتني يا سيدي فما يمكنني أن أمشي معك، ولكن تقدم إلى مخيمك. ولما وصل، جلس

الشيخ أبو إسحق بين يديه وأظهر كل واحد منهم من تعظيم صاحبه ما جاوز الحد، ثم أخرج الصوفي خرقتين في إحداهما حنطة، وقال: هذه نتوارثها عن أبي يزيد البسطامي، وفي الأخرى ملح فأعجب الشيخ أبو إسحق ذلك وودعه وانصرف. قلت: وإلى الله المشتكي من زمان صار علماؤه أعداء للصوفية ومن تزيى بزي الصوفية، مهيناً لعلمائهم، ولعل هذا من غلبة الهوى في العلماء وعدم الإخلاص في المتصوفة، تجاوز الله عنا وعنهم. توفي سنة ست وسبعين وأربعمائة. ومناقبه خارجة عن حد الاحصاء. وله مناظرات مع إمام الحرمين، مذكورة في طبقات الشافعية.

ومنهم ابراهيم بن محمد بن ابراهيم، الأستاذ أبو إسحق الأسفرايني أحد أئمة الدين كلاماً وأصولاً وفروعاً، جمع أشتات العلوم، اتفقت الأئمة على تبجيله وتعظيمه واستجماع شرائط الإمامة فيه، وبنى له مدرسة نيسابور التي لم يبن قبلها بنيسابور مثلها، ودرس فيها وحدث، وأخذ شيوخ نيسابور الكلام والأصول عنه، وكان يقول بعدما رجع من اسفراين: أشتهي أن يكون موتي بنيسابور حتى يصلي عليَّ جميع أهل نيسابور، فتوفي بعد هذا الكلام بنحو من خمسة أشهر يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة وأربعمائة. ومناقبه مما عجزت عنه الأقلام.

ومنهم: إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، الفقيه المحدث المفسر الخطيب الواعظ المشهور الأسم، الملقب شيخ الإسلام، فلا يراد بهذا اللقب غيره في بلاد خراسان. ورزق العز والجاه في الدين والدنيا، وكان جمالاً للبلد زيناً للمحافل والمجالس، مقبولاً عند الموافق والمخالف، مجمعاً على أنه عديم النظير وسيف السنة ورافع البدعة. وكان مشتغلاً في جميع الأوقات، بكثرة العبادات ووظائف الطاعات، بالغ في العفاف والسداد، وكان لا يدخل بيت كتبه إلا بالطهارة فضلاً عن رواية الحديث والتدريس. (توفي) سنة تسع وأربعين وأربعمائة. ومناقبه لا تفي بها الدفاتر وإنما الغرض ذكر اسمه، لا استيفاء فضائله.

ومنهم: الحسن بن علي بن محمد، الأستاذ أبو علي الدقاق، شيخ الأستاذ أبي القاسم القشيري. صحب في التصوف أبا القاسم النصرآبادي،

وسمع الحديث وهو لسان وقته وإمام عصره، تفقه على الحضرمي وبرع في الفقه. (توفي) سنة خمس وأربعمائة.

ومنهم سهل بن محمد، أبو الطيب الصعلوكي، ولد الأستاذ أبي سهل، هو الفقيه الأديب مفتي نيسابور وابن مفتيها، جمع بين رئاستي الدين والدنيا، واتفق علماء عصره على سيادته وإمامته. جمع بين العلم والعمل وتفقه على أبيه وكان يلقب شمس الإسلام. قال بعض العلماء: من أراد أن يعلم النجيب ابن النجيب فلينظر إلى سهل بن أبي سهل. وتخرج به جماعة من فقهاء نيسابور وسائر مدن خراسان وتصدر للفتوى والقضاء والتدريس. يقال إنه وضع في مجلسه أكثر من خمسمائة محبرة. وكان أبوه يقول: سهل والد وفضائله لا تنتهي (مات) بنيسابور سنة أربع وأربعمائة.

ومنهم طاهر بن عبد الله القاضي، أبو الطيب الطبري. كان إماماً جليلاً بحراً غواصاً متسع الدائرة عظيم العلم جليل القدر كبير المحل. تفرد في زمانه وتوحد والزمان مشحون بأخدانه، واشتهر اسمه في الأقطار، وشاع ذكره فكان أكثر من حديث السمار وطاب ثناؤه فكان أحسن من مسك الليل وكافور النهار، وهو فوق وصف الواصف ومدحه، وقدره ربا عن بسط القائل وشرحه، وعنه أخذ العراقيون. ولد بآمل طبرستان سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة. ولي قضاء ربع الكرخ. والعراقيون إذا أطلقوا لفظ القاضي يعنون إياه، والخراسانيون يعنون القاضي حسين، والأشعرية في الأصول يعنون القاضي أبا بكر الباقلاني، والمعتزلة يعنون عبد الجبار الاسترآبادى. (توفي) القاضي سنة خمس وأربعمائة. وله مناظرات مع أبي الحسن القدوري من الحنفية مذكورة في كتب الطبقات.

ومنهم عبد الله بن أحمد بن عبد الله، الامام الزاهد الجليل البحر، أحد أئمة الدنيا، القفال الصغير المروزي. وهذا أكثر ذكراً في كتب الفقه، والقفال الكبير في كتب الأصول والتفسير وغيرهما. وإذا أطلق القفال يراد الصغير. والأكبر يفيد الشاشي شيخ الخراسانيين. كان إماماً كبيراً وبحراً عميقاً وغواصاً على المعاني الدقيقة نقي القريحة، ثاقب الفهم عظيم المحل كبير الشأن،

دقيق النظر، عديم النظير فارساً لا يشق غباره، ولا تلحق آثاره، بطلاً لا يصطلى له بنار، أسداً ما بين يديه لواقف إلا الفرار. تفقه على أبي زيد المروزي. كان وحيد زمانه فقهاً وحفظاً وورعاً وزهداً. رحل إليه من الآفاق، فظهرت بركته على مختلفيه. قيل أنه كان قفالاً وابتدأ التعلم وهو ابن ثلاثين سنة. يقال أنه صنع قفلاً وزنه أربع حبات من حديد وكان مصاباً بإحدى عينيه، وكان يغلب عليه البكاء في أثناء الدرس لغلبة الحال. (مات) في سنة سبع عشرة وأربعمائة، وهو ابن تسعين سنة.

ومنهم عبد الله بن عبد الكريم بن هوازن، أبو سعد القشيري، أكبر أولاد الأستاذ أبي القاسم. كان إماماً كبيراً جيد القريحة، له النصيب الوافر والحظ الجليل الجزيل من التصوف. كان أصولياً نحوياً. مولده سنة أربع عشرة وأربعمائة، وكان والده يعامله معاملة الأقران ويحترمه لما يرى عليه من الطريقة الصالحة. كان ذا حظ وافر من العربية. كان يذكر دروساً من الأصول والتفسير بعبارة مهذبة، وكانت المسائل على حفظه بأصولها ونكتها، وبرع في علم الأصول بطبع سيال، وخاطر إلى مواقع الأشكال ميال، سباق الى درك المعاني، وقاف على المدارك والمباني. وأما علوم الحقائق فهو فيها يشق الشعر. وصار مجلس وعظه روضة الحقائق والدقائق، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب، ومواجيده مقطرة الدماء من الجفون مكان الدموع. وكانت أوقاته ظاهراً مستغرقة في الطهارة والصلاة، وباطناً في مراقبة الحق ومشاهدة أحكام الغيب، لا يخلو وقته عن تنفس الصعداء وتذكر البرحاء والترنم بكلام منظوم أو منثور. (توفي) سنة سبع وسبعين وأربعمائة.

ومنهم عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه، الشيخ أبو محمد الجويني، والد إمام الحرمين، أوحد زمانه علماً وزهداً وتقشفاً زائداً، وتحرياً في العبادات. كان يلقب ركن الإسلام، له المعرفة التامة بالفقه والأصول والتفسير والنحو والأدب. وكان مهيباً لا يجري بين يديه إلا الجد والكلام أما في علم أو زهد أو تحريض على التحصيل. سمع الحديث من القفال وكان ماهراً في القاء الدروس. درس وأفتى وناظر بنيسابور. وأما زهده

وورعه فإليه المنتهى. روى أنه رأى ابراهيم الخليل في المنام فأومأ لتقبيل رجليه فمنع عن ذلك تكريماً له. قال: فقبلت عقبيه، وأولت ذلك البركة والرفعة تكون في عقبي. قال ابن السبكي: وأي بركة ورفعة مثل إمام الحرمين وولده. توفي الشيخ أبو محمد سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة بنيسابور، ولما لف في الأكفان رأوا أن يده اليمنى إلى الأبط منيرة كلون القمر، وقالوا هذا من بركات فتاويه.

ومن تصانيفه:

١ ـــ الفروق؛
٢ ـــ والسلسلة؛
٣ ـــ والتبصرة؛
٤ ـــ والتذكرة؛
٥ ـــ ومختصر المختصر؛
٦ ـــ وشرح الرسالة، وغير ذلك.

وله تفسير (كبير) يشتمل على عشرة أنواع في كل آية.

ومنهم عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر، أبو نصر بن الصباغ، صاحب (الشامل)، و(الكامل). كان إماماً مقدماً وفارساً لا يدرك البرق وراءه قدماً وحبراً يتعالى قدره على السماء، وبحراً لا ينزف بكثرة الدلاء. تصبب فقهاً فكأنه لم يطعم سواه، ولم يكن له غيره بلغة. وتشخص فقهاً فإذا رآه المحقق قال ابن الصباغ صبغ من الصغر، كذا «ومن أحسن من الله صبغة». وكان ورعاً نزهاً تقياً نقياً صالحاً زاهداً فقيهاً أصولياً محققاً عارفاً بالمتفق والمختلف أي المسائل الإتفاقية والإختلافية، وكان يحاسب نفسه. قال: اعتبرت في نفسي أنها لا تجد مشقة في مجيئها من باب المراتب (وهي مكان ببغداد) إلى المدرسة النظامية، وتجد كلفة في طواف الكعبة سبعاً، وذلك لأن في الأول حظ نفسي، والثاني لسيدي على نفسي. والمدرسة النظامية بناها نظام الملك ببغداد لأجل الشيخ أبي إسحق، إلا أنه لم يلتزم التدريس وامتنع عنه فأذن للشيخ ابن الصباغ فدرس يومات يسيرة ثم رضي

الشيخ أبو إسحق ودرس بها بقية حياته، فلما توفي وليها صاحب التتمة أبو سعد المتولي، ثم عزل وأعيد ابن الصباغ. توفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة. وقد كف بصره قبل وفاته بسنين.

ومنهم عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي، الإمام الكبير، الأستاذ أبو منصور البغدادي. إمام عظيم القدر جليل المحل كثير العلم، حبر لا يساجل في الفقه وأصوله والفرائض والحساب وعلم الكلام. اشتهر اسمه وبعد صيته، وحمل عنه العلم، أكثر أهل خراسان، وكان يدرس في سبعة عشر فناً، وله حشمة وافرة ومال جزيل أنفقه على أهل العلم والحديث حتى افتقر. فارق نيسابور بسبب فتنة وقعت بها من التركمان، وصار إلى إسفراين ومات بها. صنف في العلوم، ولو لم يكن له إلا كتاب (التكملة في الحساب) لكفاه. مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وقيل سنة سبع وعشرين، وهو تصحيف.

ومن شعره:

يا من عدا ثم اعتدى ثم اقترف	ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في تنزيله	ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

قال ابن السبكي: في استعمال أبي منصور مثل هذا الإقتباس في شعره دليل على جواز الإقتباس. ورد (على) من شدد فيه وجنح إلى تحريمه. فالصواب الجواز سيا وقد فعله كثير من الفقهاء. وما نقل من التشديد عن المالكية يناقضه ما نقله القاضي عياض عن ابن العطار: أنه سئل عن سجود السهو فأفتى بالسجود، فقال السائل: إن أصبغ لم ير علي سجوداً فقال ﴿لا تطعه وأسجد واقترب﴾[1]. حتى عد القاضي عياض هذا من ملحه ونوادره إلا أن الأحسن تركه تأدباً مع الكتاب العزيز فهو اللائق بالورع والتقوى.

ومنهم عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، وقد مرت مناقبه.

ومنهم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري، الأستاذ أبو

---

(١) سورة العلق، آية: ١٩.

القاسم القشيري النيسابوري الملقب زين الإسلام. وهو صاحب الرسالة التي سارت مغرباً ومشرقاً، والبسالة التي أصبح بها نجم سعادته مشرقاً، والأصالة التي تجاوز بها فرق الفرقدين ورقي. أحد أئمة المسلمين علماً وعملاً، وأركان الملة فعلاً ومقولاً، امام الأئمة ومجلي الظلمات الضلالة المدلهمة، شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة ومقدّم الطائفة، الجامع بين أشتات العلوم. ولد سنة ست وسبعين وثلاثمائة. كان فقيهاً بارعاً أصولياً محققاً متكلماً سنياً محدثاً حافظاً مفسراً متقناً نحوياً لغوياً أديباً كاتباً شاعراً مليح الخط شجاعاً بطلاً. له في الفروسية واستعمال السلاح الآثار الجميلة. أجمع أهل عصره على أنه سيد زمانه، وقدوة وقته وبركة المسلمين في ذلك العصر. وكان حسن الموعظة، مليح الإشارة جمع بين علمَيْ الشريعة والحقيقة، وشرح أحسن الشرح أصول الطريقة. أصله من ناحية استواء من العرب الذين وردوا خراسان وسكنوا النواحي فهو قشيري الأب سلمي الأم. توفي أبوه وهو طفل فوقع إلى أبي القاسم الأليماني، فقرأ الأدب والعربية بسبب اتصاله بهم، وقرأ على غيره، وحضر البلد، واتفق حضوره مجلس الأستاذ الشهيد أبي علي الحسن بن علي الدقاق، وكان لسان وقته، واستحسن كلامه وسلك طريق الإرادة فقبله الأستاذ وأشار عليه بتعلم العلم. فخرج إلى درس الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن بكر الطوسي وشرع في الفقه حتى فرغ من التعليق ثم اختلف بإشارته إلى الأستاذ الإمام أبي بكر محمد ابن فورك، وكان المقدم في الأصول حتى حصلها وبرع فيها، وقرأ عليه أصول الفقه وفرغ منه. ثم بعد وفاة الأستاذ أبي بكر اختلف إلى الأستاذ أبي إسحق الأسفرايني وقعد يسمع جميع دروسه. ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر ابن الطيب. ثم زوجه الأستاذ أبو علي ابنته. وبعد وفاة الأستاذ عاشر أبا عبد الرحمن السلمي إلى أن صار أستاذ خراسان وأخذ في التصنيف، فصنّف (التفسير الكبير). وكان في الفروسية والوعظ في أعلى مرتبة. قال ابن السبكي: بلغنا أنه مرض للأستاذ أبي القاسم ولد مرضاً شديداً بحيث أيس منه، فشق ذلك على الأستاذ فرأى الحق سبحانه في المنام فشكا إليه فقال له الحق تعالى: اجمع آيات الشفاء واقرأ عليه أو أكتبها في إناء واجعل فيه مشروباً واسقه إياه ففعل ذلك فعوفي الولد.

وآيات الشفاء في القرآن ست:

﴿ و يشف صدور قوم مؤمنين ﴾[1].

﴿شفاء لما في الصدور﴾[2].

ـ ﴿فيه شفاء للناس﴾[3].

ـ ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾[4].

ـ ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾[5].

ـ ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾[6].

ورأيت كثيراً من المشايخ يكتبون هذه الآيات للمريض و يسقاها في الاناء طلباً للعافية. قلت: وأنا جربت ذلك مراراً كثيرة فعوفي المريض.

ومن تصانيفه:

١ ــ التفسير الكبير، وهو من أجود التفاسير وأوضحها؛

٢ ــ والرسالة، المشهورة المباركة التي قيل ما تكون في بيت و ينكب؛

٣ ــ والتحبير في التذكير؛

٤ ــ وآداب الصوفية؛

٥ ــ ولطائف الإشارات؛

٦ ــ وكتاب الجواهر؛

٧ ــ وعيون الأجوبة في فنون الأسئلة؛

٨ ــ وكتاب المناجاة؛

٩ ــ وكتاب نكت أولى النهى؛

١٠ ــ وكتاب نحو القلوب الكبير؛

١١ ــ وكتاب نحو القلوب الصغير؛

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٤.

(٢) سورة يونس، آية: ٥٧.

(٣) سورة النحل، آية: ٦٩.

(٤) سورة الاسراء، آية: ٨٢.

(٥) سورة الشعراء، آية: ٨٠.

(٦) سورة فصلت، آية: ٤٤.

١٢ ـ وكتاب أحكام السماع؛
١٣ ـ وكتاب الأربعين.

وخلف ستة أبناء كلهم عبادلة من السيدة الجليلة بنت الأستاذ أبي علي الدقاق. وقيل: ولما مرض لم تفته صلاة ولا ركعة قائماً إلى أن توفي سنة خمس وستين وأربعمائة. قيل: امتنع فرسه من العلف ولم تمكن أحداً من ركوبها إلى أن ماتت بعده بأيام قلائل.

ومنهم: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله، إمام الحرمين أبو المعالي، ولد الشيخ أبي محمد، هو الإمام شيخ الإسلام البحر الحبر المدقق المحقق النظار الأصولي المتكلم البليغ الفصيح الأديب العلم الفرد، زينة المحققين، إمام الأئمة على الإطلاق عجماً وعرباً وصاحب الشهرة التي سارت السراة والحداة بها شرقاً وغرباً. هو البحر وعلومه درره الفاخرة. هو السماء وفوائده التي أنارت الوجود نجومها الزاهرة. وجماع القول فيه:

وما أرى أحداً في الناس يشبهه   وما أحاش من الأقوام من أحد

(ولد) سنة تسع عشرة وأربعمائة، واعتنى به والده من صغره، لا بل من قبل مولده حيث أطعم والدته من مال اكتسبه ولا شبهة فيه، وكذا أطعمه منه، فلم يمازج باطنه إلا الحلال الخالص، واشتغلت والدته يوماً في طعام تطبخه لأبيه فبكى الإمام وأرضعته جارية لجيرانهم مصة أو مصتين، فدخل والده فأنكر ذلك وقال: هذه الجارية ليست ملكاً لنا، وليس لها أن تتصرف في لبنها، وأصحابها لم يأذنوا في ذلك. قال الإمام: فقلبني وفرغني حتى لم يدع في باطني شيئاً. يحكى أنه تلجلج مرة في مجلس مناظرة، ولم يعهد ذلك منه، فسألوا عنه، فقال: هذه من بقايا تلك الرضعة، فحكى ما ذكرناه. فانظر إلى هذا الأمر العجيب، وإلى هذا الرجل الغريب، كيف يحاسب نفسه على يسير جداً في زمن الصبا الذي لا يكلف فيه. ثم تفقه الإمام على والده، ثم قرأ الخلاف والأصولين وغيرهما حتى صار أعلم أهل الأرض بالعلوم المذكورة وأكثرهم تحقيقاً، وسلك طريق البحث والنظر، وسعى في دين الله سعياً يبقى أثره إلى يوم

الدين، وإن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً. ثم توفي والده وسن الإمام نحو العشرين، فأقعد مكانه في التدريس حتى طار ذكره في الأقطار، وشاع اسمه فملأ الديار، إلى أن ظهر التعصب بين الفريقين، واضطربت الأحوال فخرج مع المشايخ إلى المعسكر وخرج إلى بغداد ووجد فيه القبول العظيم ثم زمزم له الحادي بذكر زمزم، وناداه على بعد الديار البيت الحرام فلبى وأحرم، فتوجه حاجاً فجاور بمكة أربع سنين فدرس بها وأفتى ونشر العلم واجتهد في العبادة ثم عاد إلى نيسابور بعد ولاية السلطان الب أرسلان، وتزين وجه الملك بطلعة نظام الملك، فاستقرت أمور الفريقين وانقطع التعصب، فبنيت له المدرسة النظامية بنيسابور، فأقعد للتدريس بها فدرس قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، فسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة والمناظرة، فظهرت تصانيفه وحضر درسه الأكابر والجمع العظيم، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة والطلبة، وكان يستفيد من كل أحد وينكر الباطل ولا يحابي فيه أحداً. وكان رقة قلبه بحيث يبكي إذا سمع بيتاً أو تفكر في نفسه ساعة، وإذا شرع في حكاية الأحوال وخاض في علوم الصوفية أبكى الحاضرين ببكائه وزعقاته ونعراته وإشاراته لاحتراقه في نفسه وتحققه بما يجري من دقائق الأسرار. ثم أدركه قضاء الله فرض ومات في ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فقام الصياح في البلد من كل جانب، ولم تفتح الأبواب في البلد، ووضعت المناديل عن الرؤوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه من الرؤوس الكبار، وكسر منبره، وقعد الناس للعزاء عزاء عاماً وأكثر الشعراء المراثي فيه، وكانت الطلبة قريباً من أربعمائة نفر يطوفون في البلد نائحين مكسرين المحابر والأقلام مبالغين في الصياح والجزع. وكان مولده ثامن عشر المحرم سنة تسع عشرة وأربعمائة، وتوفي وهو ابن تسع وخمسين سنة. سقى الله روضته بوابل رحمته، ويزيد في ألطافه وكرامته بفضله ومنته، انه ولي كل خير.

ومنهم: علي بن محمد بن حبيب، الإمام أبو الحسن الماوردي، صاحب:

١ ــ الحاوي؛
٢ ــ والإقناع، في الفقه؛
٣ ــ والتفسير؛
٤ ــ وأدب الدنيا والدين؛
٥ ــ ودلائل النبوة؛
٦ ــ والأحكام السلطانية؛
٧ ــ وقانون الوزارة؛
٨ ــ وسياسة الملك، وغير ذلك.

درس بالبصرة وببغداد سنين كثيرة واستقضى ببلدان كثيرة. قيل إنه لم يظهر تصانيفه في حياته فلما دنت وفاته قال لمن يثق به إذا عاينت الموت أجعل يدك في يدي فإن قبضت يدك وعصرتها، فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فالق الكتب في دجلة، وإن بسطت يدي ولم أقبض على يدك، فاعلم أنها قد قبلت، وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية. قال ذلك الرجل: ففعلت كما أمره فلم يقبض يدي فعلمت أنها علامة القبول فأظهرت كتبه بعده. قال ابن السبكي: ولعل هذا غير الحاوي فإنه قد قرىء عليه في حياته. ورأيت بعضاً من نسخ الحاوي عليه خطه. قال ابن الصلاح: هذا الماوردي عفا الله عنه اتهم بالإعتزال. (مات) سنة خمسين وأربعمائة.

ومنهم: علي بن محمد، أبو حيان التوحيدي، وقد مر ذكره في النحاة.

ومنهم: منصور بن محمد بن عبد الجبار، أبو المظفر، ابن الإمام أبي منصور بن السمعاني، الرفيع القدر الشهير الذكر، طبق الأرض ذكره، وعبق الكون نشره. (ولد) في ذي الحجة سنة ست وعشرين وأربعمائة. كان حنفياً ثم انتقل إلى مذهب الشافعي لأمور يطول ذكرها. وجميع تصانيفه على مذهب الشافعي. توفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة بمدينة مرو.

ومنهم: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الإمام الجليل حجة الاسلام، أبو حامد الغزالي، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم. كان ضرغاماً إلا أن الأسود تتضاءل بين يديه وتتوارى، وبدراً تماماً إلا أن هداه يشرق نهاراً، وبشراً من الخلق ولكنه الطود العظيم، وبعض الخلق ولكن مثل ما بعض الحجر الدر النظيم، يناضل عن الدين الحنيفي بجاله ومقاله، ويحمي حوزة الدين لا يلطخ بدم المعتدين حد نصاله، حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات، وما كانت إلا حديثاً يفترى، هذا مع ورع طوى عليه ضميره وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره، ترك الدنيا وراء ظهره وأقبل على الله يعامله في سره وجهره. ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة. وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكان بطوس، فلما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال له: ان لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين، فعلّمهما، ولا عليك أن ينفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما. فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فنى في ذلك النزر اليسير، فقال لهما: أعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما. ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتها، وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله.

يحكى أن أباه كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف، ويطوف على المتفقهة ويجالسهم ويخدمهم ويحسن إليهم في النفقة عليهم ما أمكن، وإذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله أن يرزقه ابناً فقيهاً ويحضر مجالس الوعظ، فإذا طاب وقته بكى وسأل الله ابناً واعظاً. فاستجاب الله دعوته.

أما أبو حامد فكان أفقه أقرانه وإمام أهل زمانه وفارس ميدانه، كلمته شهد بها الموافق والمخالف، وأقر بحقيته المعادي والمؤالف.

وأما أحمد فكان واعظاً تنفلق الصم الصخور عند استماع تحذيره، وترعد

فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره. فلو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب، ولو ربط ابليس في مجلس تذكيره لتاب.

مبدأ طلب حجة الإسلام العلم أن قرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الزادكاذي، ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الاسماعيلي، وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس. قال: قطعت علينا الطريق فأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم، وقلت لمقدمهم: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليَّ تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به، قال: فما هي، قلت: كتباً في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفتها فضحك وقال: كيف تدعّي معرفتها وقد أخذناها فتجردت عنها وبقيت بلا علم. ثم أمر فسلم إليَّ المخلاة. فقلت: قد أنطقه الله ليرشدني، فلما وافيت طوس، أقبلت على الإشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق ما تجردت من علمي. ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين وجدَّ واجتهد حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصلين والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد على مبطليهم وإبطال دعاويهم وصنَّف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها وأجاد وصفها وتراصيفها.

وكان شديد الذكاء، شديد النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك، قوي الحافظة، بعيد الغور، غواصاً على المعاني الدقيقة، جبل علم، مناظراً محجاجاً. وكان إمام الحرمين يقول: الغزالي بحر مغرق، والكيا أسد مخرق، والخوافي نار محرق. قيل: لم يكن قلب إمام الحرمين مثل ظاهره في حق الغزالي، بل يظهر التبجح به والإعتداد بمكانه، ظاهراً خلاف ما يضمره، وذلك ليقتدي الغزالي على التصنيف مع سرعة جوابه وقوة طبعه وإن كان متخرجاً به، منتسباً إليه، كما لا يخفى من طبع البشر أمثال هذا. ثم ناظر الإمام العلماء في مجلس نظام الملك وقهر الخصوم، فاعترفوا بفضله، فولاه النظام تدريس مدرسته ببغداد فدرس ونشر العلم. وكان يرضي الطلبة و يلقي الدرس على نحو ثلاثمائة نفر من أكابرهم أو يزيدون، فأعجب به أهل العراق أجمعون. وأفتى وصنَّف وصار

عظيم الجاه عالي الرتبة مسموع الكلم مشهور الأسم يضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال. ثم ترك الدنيا ورفض الجاه وراء ظهره، وقصد بيت الله الحرام، فخرج إلى الحج سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، واستناب أخاه في التدريس، فدخل دمشق في سنة تسع ثم جاور بيت المقدس مدة ثم عاد إلى دمشق واعتكف بالمغارة الغربية من الجامع عشر سنين ثم جال في البلاد يزور المشاهد ويطوف على الترب والمساجد، ويأوي القفار، ويجاهد نفسه جهاد الأبرار، ويكلفها مشاق العبادات، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات، إلى أن صار قطب الوجود والبركة العامة بكل موجود، والطريق الموصلة إلى رضى الرحمن، والسبيل المنصوب إلى مركز الإيمان. ثم رجع إلى بغداد، وعقد بها مجلس الوعظ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة وحدث بكتاب (الأحياء). ثم عاد إلى خراسان ودرّس بالنظامية بنيسابور مدة يسيرة، ثم رجع إلى طوس واتخذ مدرسة للفقهاء وخانقاها للصوفية ووزع أوقاته على وظائف: من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم، وأدائه الصلاة والصيام وسائر العبادات، إلى أن انتقل إلى رحمة الله ورضوانه طيب الثناء، أعلى منزلة من نجم السماء، لا يكرهه إلا حاسد أو زنديق ولا يسومه بسوء إلا حائد عن سواء الطريق. وكانت وفاته بطوس في يوم الإثنين رابع عشر جمادي الآخرة سنة خمس وخمسمائة. قال هو قدس سره في بعض مؤلفاته: كنت في بدايتي منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين، حتى حظيت بالواردات فرأيت الله تعالى في المنام، فقال لي: يا أبا حامد، قلت: أو الشيطان يكلمني، قال: لا، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست. ثم قال: يا أبا حامد، ذر أساطيرك وعليك بصحبة أقوام جعلتهم في أرضي محل نظري، وهم أقوام باعوا الدارين بحبي، فقلت: بعزتك الا أذقتني برد حسن الظن بهم، فقال: قد فعلت ذلك، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا، فاخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً، فقد أمضيت عليك نوراً من أنوار قدسي، فقم وقل. قال: فاستيقظت فرحاً مسروراً، وجئت إلى شيخي يوسف النساج، فقصصت عليه المنام، فتبسم وقال: يا أبا حامد، هذا ألواحنا في البداية، فمحوناها. بلى إن صحبتني سأكحل بصر

بصيرتك بأثمد التأييد حتى ترى العرش ومن حوله، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار، فتصفو من كدر طبيعتك، وترتقي على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كما كان لموسى عليه السلام أنا الله رب العالمين، انتهى. ثم توجه إلى القدس الشريف، فاجتهد في العبادة، وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة بتلك الأراضي المقدسة، منفرداً عن الناس، مخفياً نفسه عنهم، ما كان يعرفه إلا خادم كان معه، فكان على ذلك مدة، ثم اشتهر أمره فعرفوه واعتقدوه. ثم أنه قصد مصر وأقام بالاسكندرية مدة، ثم عاد إلى الشام وأخذ في تصنيف (إحياء علوم الدين)، والكتب المختصرة، مثل (الأصول الأربعين)، و (جواهر القرآن)، وغير ذلك من الرسائل وهو مكب على مجاهدة النفس والعزلة عن الخلق والتبتل إلى الله تعالى، وترك الإجتماع بالناس إلا في الجمعة والجماعة، ثم عاد إلى وطنه لازماً بيته، مشتغلاً بالتفكر والتأليف، ملازماً للوقت، مثابراً على الذكر والأوراد، إلى أن مضى على ذلك زمان ظهرت فيه تصانيفه وفشت كتبه، حتى انتهت المملكة والوزارة إلى فخر الملك، جمال الشهداء، فزينت خراسان بحشمته ودولته، ونفق سوق الفضل أيام ولايته. وكان قد سمع بفضل الإمام الغزالي ونقاء سيرته، فاستدعاه وجاء به إلى نيسابور، وولاّه تدريس المدرسة النظامية بها، فانتفع به، ثم عاد إلى بغداد ثم إلى نيسابور، وألزم بتدريس النظامية بعد معاودات بأسباب يأتي ذكرها في كلامه. ثم ترك ذلك كله وأقام بوطنه، واتخذ خانقاها للصوفية ومدرساً للمشتغلين بالعلوم الشرعية في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير: من ختم القرآن، ومجالسة أهل القلوب. هذا وقد سئل هو قدس سره عن السبب الذي صرفه عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة، وما الذي دعاه إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة، فقال مجيباً عن ذلك بعد تمهيد مقدمات تقدمت له هناك أنه قد حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفيْ العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي، وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس

عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا، والتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله عز وجل، وأن ذلك لا يتم إلا بالاعراض عن الجاه والمال، وقطع الآمال، والهرب من الشواغل والعلائق، ومن مخالطة الخلائق. قال: ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من كل جانب، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم وإذا أنا مقبل فيها على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل مشوبة بطلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف الهلاك، وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمي على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى ولا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فتنفرها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن إلى الآخرة فمتى تستعد، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع، فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم العزم على الهرب والفرار، ثم يعود الشيطان الغرور الغدار، ويقول: هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإذا أذعنت لها، وتركت هذا الجاه الطويل العريض والشأن المنظوم، الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفت إليك نفسك فلا يتيسر لك المعاودة. فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر آخرها رجب سنة ست وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر تجاوز الأمر حد الاختيار إلى الإضطرار إذ قفل الله تعالى على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة (إليّ) وكانوا نحو ثلاثمائة نفر، فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا يستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه

قوة الهضم ومري الطعام والشراب، وكان لا ينساغ لي شربة ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إليّ ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج، وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم، ثم أني لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل إلى قلبي الأعراض عن المال والجاه ومفارقة الأولاد والأحباء والأوطان والأصحاب، فأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر نفسي سفر الشام، حذاراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على غرضي في المقام بالشام. فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أني لا أعاودها أبداً، فاستهدفوني واستهزأوا بي، كأنه لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الأعراض عما كنت فيه بسبب ديني، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم. ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، فظن من بعد عن العراق أن ذلك لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب منهم من الولاة بمكان، فكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي والانكار عليّ وأعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم، فيقولون: هذا أمر سماوي ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم. ففارقت بغداد وفرّقت ما كان معي من مال ولم أدّخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصاً بأن مال العراق للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين، فلم أر في العالم ما يأخذ العالم لعياله أصلح منه. ثم دخلت الشام وأقمت فيه بمدينة دمشق قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله، كما كنت حصلته من علوم الصوفية، فعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكر الله، وكان العلم أيسر عليّ من العمل إذ ذاك، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب)، لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد

البسطامي، وغير ذلك من المشايخ قدس سرهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، ظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبديل الصفات، انتهى. قال: فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي، ثم تحركت بي داعية فريضة الحج إلى بيت الله تعالى والاستمداد من بركة مكة والمدينة وزيارة الرسول (عليه الصلاة والسلام) بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء. فسرت إلى الحجاز. قلت: ولعل حجه قد تكرر، لأنه ذكر بعض المؤرخين أنه حج من العراق قبل إقامته بالشام. قال: ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه وآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر. وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا تصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة، ولكني مع ذلك لا أقطع طمعي عنها، فتدفعني عنه العوايق وأعود إليها. ودمت على ذلك مقدار عشر سنين. وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، اني علمت يقيناً أن الصوفية (هم) السالكون بطريق الله تعالى خاصة، وان سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلى الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم، و يبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم و باطنهم مقتبسة من مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. و بالجملة، فماذا يقول القائل في طريقة طهارتها تطهر القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، وتحريمتها استغراق القلب بذكر الله تعالى، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى، وهذا آخرها، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكشف من أوائلها، وهو على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهيز للسالك إليه، ومن أول الطريقة تبتدىء

المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم وهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء و يسمعون منهم أصواتاً و يقتبسون منهم فوائد. ثم ترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق العبارة فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه. وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ، وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب (المقصد الأقصى) بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

فكان ما كان مما لست أذكره فظُن خيراً ولا تسأل عن الخبر

و بالجملة، فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الأسم. وكرامات الأولياء على التحقيق هي بدايات الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه. ثم اعلم أنه قدس سره بعدما حصل ما حصل أشار إليه أرباب القلوب والمشاهدات بتركه العزلة والخلوة والخروج من الزاوية ناظرين إلى أن ذلك نفع خاص بالشيخ والعود إلى نشر العلم نفعه أعم وأجره أتم وتواطأت على ذلك من منامات من الصالحين، تشهد كلها بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدره الله عز وجل على رأس هذه المائة الخامسة، وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مائة سنة، فغلب حسن ظنه بسبب هذه الشهادات. قال قدس سره: و يسر الله لي الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين. و بلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة. وهذه حركة قدرها الله تعالى، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب مدة العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال، مما يخطر امكانه أصلاً بالبال، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال، وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، فأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت فإن الرجوع عود على ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي يكتسب به الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وأنا الآن أدعو إلى العلم الذي يترك به الجاه و يعرف به سقوط رتبة الجاه. هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله تعالى ذلك

مني، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أصل إلى مرادي أم أحرم عن غرضي، لكن أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول لي ولا قوة إلا بالله، وأني لم أتحرك ولكنه حركني، وأني لم أعمل ولكنه استعملني، وأسأله أن يصلحني أولاً ثم يصلح بي، وأن يهديني ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً و يرزقني اتّباعه و يريني الباطل باطلاً و يرزقني اجتنابه، آمين. انتهى.

وأما مصنفاته فمنها: (كتاب الأحياء)، هو من أجل الكتب وأحسنها وضعاً، وأتمها افادة وأعمها نفعاً. وأول ما دخل إلى الغرب أنكر فيه بعض المغاربة أشياء، وصنّف عليه (الإملاء في الرد على الأحياء)، ثم رأى رؤيا ظهرت فيه كرامة الشيخ وصدق نيته، فتاب عن ذلك ورجع إلى الإعتقاد في حقه. وأما الأحاديث التي لم تصح، لا ينكر على ايرادها لجوازه في الترغيب والترهيب. وكان الإمام فخر الدين الرازي يقول: كأن الله تعالى جمع العلوم في قبة وأطلع الغزالي عليها، أو كما قال: وقال الشيخ محيى الدين النووي: لو عدمت كتب الإسلام والعياذ بالله تعالى، وبقي الأحياء، لأغنى عما ذهب، أو كما قال.

ومن مصنفاته: (البسيط)، و (الوسيط)، و (الوجيز)، و (الخلاصة)، وهذه الأربعة في الفقه. قيل:

هذب المذهب حبر أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصة

ومع هذا الفضل العزيز لم يسلم من قال وقيل حتى خوطب بأنك ما عملت شيئاً، أخذت الفقه من كلام شيخك، يعني إمام الحرمين، في (نهاية المطلب)، والتسمية لكتبك من الواحدي.

ومنها: (المستصفى) في أصول الفقه، و (المتحول في اللباب)، و (هداية الهداية)، و (كيمياء السعادة)، و (كتاب الفتاوى) له مشتمل على مائة وتسعين مسألة، وهيء غير مرتبة. وله (فتاوى) أخرى غير مشهورة أقل من تلك.

وصنّف في الخلاف (المأخذ) ثم (تحصين المأخذ)، و (الجام العوام عن علم الكلام)، و (الرد على الباطنية) و (مقاصد الفلاسفة)، و (تهافت الفلاسفة)، و (الأصول الأربعين)، و (جواهر القرآن) وهما في الحقيقة كتاب واحد ولكنه أذن في أفرادهما. ومنها: (الغاية القصوى) و (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى).

ومنها: (مشكلة الأنوار)، و (المنقذ من الضلال)، و (المنتحل في علم الجدل)، و (معيار العلم)، و (القسطاس المستقيم)، و (غرر الدرر)، و (حقيقة القولين)، و (المعارف العقلية)، و (الحكم الالهية)، و (المضنون به على غير أهله)، و (معراج السالكين)، و (منهاج العارفين). فعليك بهذين الكتابين، فإنها يعجزان الواصف. يقال: إن كتاب المنهاج لب كتاب الأحياء، وآخر مصنفاته، وهي أكثر من أن تحصى وينسب إليه تصنيفان ليسا له بل وضعا عليه، وهما: (السر المكتوم)، و (المضنون به على غير أهله). قيل إن الإمام الغزالي له نحو خمسمائة مصنف. يروى أنه اجتمع في خزائن كتب الشيخ أبي إسحق الشيرازي نحو أربعمائة مؤلف من مؤلفات الغزالي. وينسب إليه أيضاً شعر، من ذلك ما نسبه إليه ابن السمعاني في (الذيل)، والعماد الأصبهاني في (الخريدة):

حلت عقارب صدغه في خده ... قمراً فجل به عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها ... فمن العجائب كيف حلّت فيه

وأنشد العماد له أيضاً:

هبني صبرت كما ترون بزعمكم ... وحظيت منه بلثم خد أزهر
أني اعتزلت فلا تلوموا أنه ... أضحى يقابلني يوم أشعر

وهذا الشعر كما ترى، من مثل هذا الإمام، في غاية اللطف والانسجام، وما أحسن ما أورد له ابن النجار:

فقهاؤنا كذبالة النبراس ... هي في الحريق وضوءها للناس
حبر ذميم تحت رائق منظر ... كالفضة البيضاء فوق نحاس

وبما أورده هو من نظمه:

فإن كنت في هدى الأئمة راغباً ... فوطن على أن ترتكبك الوقائع
بنفس وقور عند كل كريهة ... وقلب صبور وهو في الصدر قانع
لسانك مخزون ورأسك ملجم ... وسرك مكتوم لدى الرب ذائع
وذكرك معمور وبابك مغلق ... وثغرك بسام وبطنك جائع
وقلبك مجروح وسوقك كاسد ... وفضلك مدفون وطعنك شائع
وفي كل يوم أنت جارع غصة ... من الدهر والإخوان والقلب طائع
نهارك شغل الناس من غير منة ... وليلك شوق غاب عنه الطلائع
فدونك هذا الليل خذه ذريعة ... ليوم عبوس عز فيه الذرائع

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي: قال الإمام الغزالي في بعض مصنفاته: وقد نسبني قوم إلى الغزال، وإنما أن الغزالي بتخفيف الزاي نسبة إلى قرية من قرى طوس يقال لها غزالة. قال الأسنوي في طبقاته: كان والده يغزل الصوف ويبيعه في حانوته، فلما احتضر أوصى بولديه إلى صديق له صوفي فعلمهما الخط وأدبهما، ثم نفذ منه ما خلفه أبوهما وتعذر عليهما القوت فقال لهما: أرى لكما أن تلجآ إلى المدرسة. قال الغزالي: فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت. هذا حاصل كلامه. وعادة أهل خوارزم وجرجان كما قاله الذهبي وابن خلكان: القصاري والخبازي، وغيرهما أي بالياء بمعنى القصار ونحوه، فنسبوا إلى الغزل فقالوا الغزالي أي الغزال. وذكر النووي في دقائق الروضة المسمى (بالإشارات) أن التشديد هو المعروف الذي ذكره ابن الأثير. روى أن بعض الصالحين رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو واضع يده على كتف الإمام أبي حامد الغزالي، وهو يقول لموسى وعيسى صلوات الله على نبينا وعليهما: هل ترون في أمتكم حبراً مثل هذا.

وقد ضمن هذه المنام الإمام اليافعي في أبيات. قال:

أبو حامد غزال غزل مدقق ... من العلم لم يغزل كذاك بمغزل
به المصطفى باهى لعيسى بن مريم ... له قال صدقاً خالياً عن تقول

أحبر كهذا في حواريك قال لا ... وناهيك من هذا الفخار المقول
له في منامي قلت آأنت حجة ... لإسلامنا لي قال ما شئت لي قل
غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد ... لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

وقد ذكر له السبكي في (الطبقات الكبرى) ترجمة طويلة في أربعة كراريس، وأنشد قول القائل:

ماذا يقول القائلون بوصفه ... وصفاته جلت عن الحصر

قال الأسنوي في (طبقاته): ثم أنه لزم الإنقطاع ووظف أوقاته على وظائف الخير، بحيث لا تمضي لحظة منها إلا في طاعة من التلاوة والتدريس والنظر في الأحاديث خصوصاً البخري وإدامة الصيام والتهجد ومجالسة أهل القلوب، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى وهو قطب الوجود، والبركة الشاملة لكل موجود. وكانت وفاته بطوس صبيحة يوم الإثنين رابع عشر جمادي الآخرة سنة خمس وخمسمائة، وعمره خمس وخمسون سنة، ودفن بالطابران، مدينته التي ولد بها بطوس. وذكر الشيخ الكبير أبو العباس، أحمد بن أبي الخير الصياد اليمني كلاماً كثيراً في ترجمته، وذكر أنه رأى في بعض الأ يام وهو قاعد باليمن، أبواب السماء مفتحة، وإذا بعصبة من الملائكة قد نزلوا إلى الأرض ومعهم خلع خضر ودابة من الدواب، فوقفوا على رأس قبر من القبور، فأخرجوا شخصاً من قبره وألبسوه الخلع وأركبوه الدابة، وصعدوا به إلى السماء ثم لم يزالوا يصعدون به من سماء إلى سماء حتى جاوزوا السموات السبع كلها، وخرقوا بعدها سبعين حجاباً.

قال: فتعجبت من ذلك، وأردت معرفة ذلك الراكب، فقيل لي: هو الغزالي، ولا عمم لي أين بلغ. وكأنه كان ذلك يوم توفي رحمه الله تعالى. نقل عن الإمام حجة الإسلام الغزالي أنه قال لبعض أصحابه أئتني بثوب جديد، فإني أريد أن أدخل على الملك، فأتى بثوب وطلع إلى بيته، فأبطأ ولم ينزل إليه، فدخل هو وثلا ثة إليه فوجدوه قد قبض، وعند رأسه كتاب فيه هذه الأ بيات.

قال رحمه الله:

قل لأخوان رأوني ميتاً ... فبكوني ورثوا لي حزنا
لا تظنوني بأني ميت ... ليس ذاك الميت والله أنا
أنا في الصور وهذا جسدي ... كان بيتي وقميصي ها هنا
أنا كنز وحجابي طلسم ... من يراني لي تجلى لتفنا
أنا در وحجابي صدف ... كان سجني فألفت السجنا
أنا عصفور وهذا قفصي ... طرت عنه وهو يبقى رهنا
أحمد الله الذي خلصني ... وبنى لي في المعالي وطنا
كنت قبل اليوم ميتاً بينكم ... فحييت وخلعت الكفنا
وأنا اليوم أناجي ملأ ... وأرى الله جهاراً علنا
عاكف في اللوح أقرأ وأرى ... كل ما كان تناءى ودنا
وطعامي وشرابي واحد ... وهو رمز فافهموا ذا الحسنا
ليس خمراً سائغاً أو عسلاً ... لا ولا ماء ولكن لبنا
فافهموا سري ففيه نبأ ... أي معنى تحت لفظي كمنا
هدموا بيتي ورضوا قفصي ... وذروا الطلسم يأبى وثنا
قد ترحلت وخلقتكم ... لست أرضى داركم لي وطنا
لا تظنوا الموت موتاً أنه ... لحياة هي غايات المنى
لا ترعكم هجمة الموت فما ... هو إلا نقلة من ههنا
وخذوا في الزاد جهداً لا تنوا ... ليس بالعاقل منا من ونا
ما أرى نفسي إلا أنتم ... واعتقادي أنكم أنتم أنا
عنصر الأنفس منا واحد ... وكذا الجسم جميعاً عمنا
فارحموني ترحموا أنفسكم ... واعلموا أنكم في أثرنا
أسأل الله لنفسي رحمة ... رحم الله صديقاً أمنا
وعليكم من سلامي طيب ... سلم الله عليكم وثنى

انتهت الأبيات. ورثاه الأديب أبو المظفر محمد الأبيوردي بأبيات فائقة منها:

مضى وأعظم مفقود فجعت به　　من لا نظير له في الناس يخلفه

قيل: وتمثل الإمام إسماعيل الحاكمي بعد وفاته بقول أبي تمام:

عجبت لصبري بعده وهو ميت　　وكنت امرأ أبكي دماً وهو غائب
على أنها الأيام قد صرن كلها　　عجائب حتى ليس فيها عجائب

قال القاضي أبو بكر بن العربي الفقيه المالكي، تلميذ أبي حامد الغزالي: لقيت الغزالي في البرية وعليه مرقعة وبيده ركوة وعكاز، فقلت له: أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من ذا، فنظر إليّ شزرا وقال: لما بزغ بدر السعادة في سماء الإرادة، وجنحت شمس الأصول، إلى معارف الوصول.

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل　　وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بي الأشواق مهلاً فهذه　　منازل من تهوى رويدك فانزل

وقال الشيخ الإمام الزاهد شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد الجلالي النسائي الشافعي: رأيت في بعض تصانيف الإمام مسعود الطرازي أن الإمام أبا حامد الغزالي كان قد أوصى أن يلحده الشيخ أبو بكر النساج الطوسي تلميذ الشيخ الإمام أبي القاسم الكرساني. قال: فلما ألحده وخرج من اللحد خرج متغيراً منتقع اللون فقيل له في ذلك فلم يخبر بشيء فأقسموا عليه بالله إلا ما أخبرتهم، فقال: إني لما وضعته في اللحد شاهدت يداً يمنى قد خرجت من تجاه القبلة، وسمعت هاتفاً يقول: ضع يد محمد الغزالي في يد سيد المرسلين محمد المصطفى العربي صلى الله عليه وسلم، فوضعتها، ثم خرجت كما ترون، أو كما قال، قدس الله روحه العزيز. ومن كلام حساده في حقه ما يشاهدون في كلامه من الخلل من جهة النحو، لكنهم لا يعرفون أنه لا يعبر به، إذ لم يكن قصده إلا المعاني وتحقيقها، دون الألفاظ وتلفيقها. على أنه أنصف من نفسه واعترف بأنه لم يمارس ذلك الفن واكتفى بما كان يحتاج إليه في كلامه. على أنه كان يؤلف الخطب بالعبارات التي يعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها. وفي كلام المترجمين في شأنه كثرة فلا نطيل به الكلام، ففيما ذكرناه مقنع وبلاغ.

ذكر مصنفاته: له في المذهب: (الوسيط)، و (البسيط)، و (الوجيز)، و (الخلاصة). وفي سائر العلوم: كتاب (احياء علوم الدين)، (كتاب الأربعين)، (كتاب شرح الأسماء الحسنى)، (المستصفى في أصول الفقه)، و (المتحول فيه) أيضاً، ألفه في حياة أستاذه إمام الحرمين، (بداية الهداية)، (المأخذ) في الخلافيات، (تحصين المأخذ)، (كيمياء السعادة) بالفارسية، (المنقذ من الضلال)، (المنتحل في الجدل)، (شفاء العليل في مسالك التعليل)، (الإقتصاد في الإعتقاد)، (معيارالنظر)، (محك النظر)، (تهافت الفلاسفة)، (المقاصد في اعتقاد الأوائل) وهو مقاصد الفلاسفة، (الجام العوام في علم الكلام)، (الغاية القصوى)، (جواهر القرآن)، (كشف علوم الآخرة)، (الرسالة القدسية)، (الفتاوى)، (ميزان العمل)، (حقيقة الروح)، (أسرار معاملات الدين)، (عقيدة المصباح)، (النهج الأعلى)، (أخلاق الأبرار)، (المعراج)، (حجة الحق)، (تنبيه الغافلين)، (المكنون في الأصول)، (رسالة الأقطاب)، (سلم الشياطين)، (القانون الكلي)، (القربة إلى الله)، (معيار العلم)، (مفصل الخلاف) في أصول القياس، (أسرار أتباع السنة)، (تلبيس إبليس)، (المبادي والغايات)، (الأجوبة)، (كتاب عجائب صنع الله)، وكتبه ورسائله خارجة عن حد العد والاحصاء ولم يتيسر لأحد معرفة أسماء مصنفاته كلها، حتى يقال أنه له ألف مصنف إلا واحداً. وهذا وإن كان بعيداً عادة، لكن من عرف شأنه ربما يصدقه. ومما حكى واشتهر عن الشيخ العارف أبي الحسن الشاذلي قدس سره، وكان سيد عصره وبركة زمانه، أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وقد باهى عليه الصلاة والسلام موسى وعيسى عليهما السلام بالإمام الغزالي وقال: أفي أمتيكما حبر كهذا، قالا: لا. وسئل السيد الكبير الجليل العارف بالله أحد الأولياء، أبو العباس المرسي، تلميذ الشيخ أبي الحسن عن الإمام الغزالي، فقال: أنا أشهد له بالصديقية العظمى.

حكاية عن الإمام أبي الحسن المعروف بابن حرازهم أو حرزهم، وكان مطاعاً في بلاد المغرب أنه لما وقف على الأحياء أمر باحراقه، وقال: هذا بدعة

مخالف للسنة، فأمر باحضار ما في تلك البلاد من نسخ الأحياء، فجمعوا وأجمعوا على احراقها (يوم الجمعة)، وكان اجماعهم يوم الخميس، فلما كان ليلة الجمعة، رأى أبو الحسن المذكور في المنام كأنه دخل من باب الجامع، ورأى في ركن المسجد نوراً وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر جلوس والإمام الغزالي قائم وبيده الاحياء، وقال: يا رسول الله، هذا خصمي، ثم جثا على ركبتيه وزحف عليها إلى أن وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فناوله (كتاب الاحياء) وقال: يا رسول الله، أنظر فيه، فإن كان فيه بدعة مخالفة لسنتك، كما زعم، تبت إلى الله تعالى، وإن كان فيه شيء تستحسنه، حصل لي من بركتك، فأنصفني من خصمي. فنظر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورقة ورقة إلى آخره، ثم قال: والله إن هذا شيء حسن، ثم ناوله أبا بكر (رضي الله عنه) فنظر فيه كذلك ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق يا رسول الله أنه لحسن، ثم ناوله عمر (رضي الله عنه) فنظر فيه كذلك ثم قال كما قال أبو بكر (رضي الله عنه)، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجريد أبي الحسن وضربه حد المفتري، فجرد وضرب، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط، وقال: يا رسول الله، إنما فعل ذلك اجتهاداً في سنتك وتعظيماً. فعفا عنه أبو حامد عند ذلك. فلما استيقظ من منامه وأصبح، أعلم أصحابه بما جرى، ومكث قريباً من الشهر متألماً من الضرب، ثم سكن عنه الألم، ومكث إلى أن مات وأثر السياط على ظهره، وصار ينظر (كتاب الاحياء) و يعظمه و ينتحله أصلاً أصيلاً. قال ابن السبكي في طبقاته: وهذه حكاية صحيحة حكاها لنا جماعة من ثقات مشايخنا عن الشيخ العارف ولي الله ياقوت الشاذلي، عن شيخنا السيد الكبير ولي الله أبي العباس المرسي عن شيخه الشيخ الكبير ولي الله أبي الحسن الشاذلي قدس الله تعالى أسرارهم. والمنامات في حق الأحياء، وفي حق الغزالي كثيرة شهيرة جداً.

ومنهم محمد بن الموفق الخبوشاني، الفقيه الصوفي، أحد الأئمة علماً وديناً وورعاً وزهداً، ولد بخبوشان بلدة بناحية نيسابور سنة عشر وخمسمائة، وتفقه بها وقدم مصر ودرس بتربة الشافعي مدة. وكان إماماً جليلاً كبير المحل في الورع،

قل أن ترى العيون مثله زهداً وعلماً وأمراً بالمعروف وتصميماً على الحق.

ومن تصانيفه:

كتاب (تحقيق المحيط) في ستة عشر مجلداً.

ومنهم الحسين بن مسعود الفراء البغوي، محيي السنة. وقد مر ذكره.

ومنهم عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد، أبو المحاسن الرؤياني، صاحب البحر أحد أئمة المذهب. ولد سنة خمس عشرة وأربعمائة. وتفقه ببلده على أبيه وجده، وكان يلقب فخر الإسلام. وله الجاه العريض والعلم الغزير والدين المتين والمصنفات السائرة في الآفاق. وكان يضرب المثل بحفظه حتى يحكى أنه قال: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي. قال ابن السبكي: ولا يعني بكتبه منصوصاته فقط، بل يراد عند إطلاق كتب الشافعي منصوصاته ومنصوصات أصحابه. وكان نظام الملك كثير التعظيم له. ولي قضاء طبرستان ثم انتقل إلى آمل فقتلته الملاحدة سنة اثنتين وخمسمائة بعد فراغه من الاملاء. قيل: وكتابه البحر أكثر من الحاوي فروعاً و (إن) كان هو أحسن ترتيباً، وأوضح تهذيباً.

ومن تصانيفه:

١ ــ الفروق؛

٢ ــ والحلية؛

٣ ــ والتجربة؛

٤ ــ ومناصيص الشافعي؛

٥ ــ والكافي، وغير ذلك.

ومنهم علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم بن عساكر. وليس في أجداده من يسمى عساكر وإنما لقب هو به. هو الشيخ الإمام ناصر السنة وحاويها، وهازم جند الشيطان بعساكر اجتهاده وهادمها، إمام أهل الحديث في زمانه، وختام الجهابذة الحفاظ، ولا ينكر أحد منهم مكين مكانه. له: (تاريخ

الشام) في ثمانين مجلداً. (ولد) سنة تسع وتسعين وأربعمائة. تفقه في حداثته بدمشق، ثم دخل بغداد، لزم بها التفقه وسماع الدرس بالنظامية، وقرأ الخلاف والنحو، ولازم طول عمره لقراءة القرآن وصلاة الجماعة مكثراً من النوافل والأذكار، والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار. وكان يحاسب نفسه على ساعة تذهب في غير طاعة، يصدع بالحق ولا يخالف في الله لومة لائم، ويسطو على أعداء الله المبتدعة، ولا يبالي وإن رغم أنف الراغم. لا تأخذه رأفة في دين الله، ولا يقوم لغضبه أحد إذا خاض الباغي في صفات الله. رأى والده في المنام وقد حملت به أمه أنه يولد لك ولد يحيى الله به السنة، ولعمر الله كان كذلك. وكان يسمى شعلة نار من توقده وذكائه. أعرض عن المناصب الدينية كالخطابة والإمامة بعد أن عرضتا عليه. (توفي) الحافظ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بدمشق.

ومنهم **محمد بن إسحق، الشيخ الزاهد، صدر الدين القونوي**، صاحب التصانيف في التصوف. وله:

١ ــ شرح الحديث الأربعين؛

٢ ــ وكتاب مفتاح الغيب؛

٣ ــ وتفسير سورة الفاتحة؛

٤ ــ وله المراسلات في المسائل الغوامض المتعلقة بالالهيات مع خواجه نصير الدين الطوسي الحكيم، وغير ذلك. توفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

ومنهم **محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، الإمام فخر الدين الرازي**، ابن خطيب الري وقد سبق شرائف مناقبه.

ومنهم **عبد العزيز بن عبد السلام**، سلطان العلماء، الشيخ عز الدين، وشهرته تغني عن الأطناب في مدحه. وبالجملة هو إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها لم ير مثل نفسه ولا رأى من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق وشجاعة وقوة جنان وسلاطة لسان. ولد سنة سبع أو ثمان

وسبعين وخمسمائة. تفقه على الشيخ فخر الدين بن عساكر وقرأ الأصول على سيف الدين الآمدي، وغيرهما. ومن تلامذته شيخ الإسلام ابن دقيق العيد وهو الذي لقب عز الدين بسلطان العلماء. أزال كثيراً من البدع من دق الخطباء السيف على المنبر، وغير ذلك. وأبطل صلاتَيّ الرغائب ونصف شعبان ومنع منها. قيل إنه أفقه من الغزالي. قيل إنه لبس خرقة التصوف من الشيخ شهاب الدين السهروردي وأخذ عنه. وذكر أنه كان يقرأ بين يديه رسالة القشيري فحضره مرة الشيخ أبو العباس المرسي لما قدم من الاسكندرية إلى القاهرة.فقال له الشيخ عز الدين: تكلم على هذا الفصل، فأخذ الشيخ يتكلم والشيخ عز الدين يزحف في الحلقة و يقول اسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث عهد بربه. وكان للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف، وتصانيفه قاضية بذلك. وكان رحمه الله يتكلم بالحق و يصدع به ولا تأخذه في الحق لومة لائم. وكان ينادي سلاطين مصر بأسمائهم في مجالسهم العظام، عند تقبيل العلماء أيديهم بل الأراضي بين أيديهم، جزاه الله تعالى عن العلم والإسلام خيراً. وله واقعة مشهورة عند خروج التتار. توفي الشيخ سنة ستين وستمائة أفتى سلطان العلماء بالمنع عن صلاة الرغائب، والشيخ ابن الصلاح كان أفتى بالمنع ثم صمم على خلافه ودار الكلام بينهما، ولهما في هذا الباب رسائل مشهورة عند الفقهاء الشافعية.

ومنهم عبد الكريم بن محمد عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزويني، الإمام الجليل أبو القاسم الرافعي، صاحب:

١ ــ الشرح الكبير المسمى (بالعزيز في شرح الوجيز)؛

٢ ــ والشرح الصغير؛

٣ ــ والمحرر؛

٤ ــ وشرح مسند الشافعي؛

٥ ــ والتذنيب؛

٦ ــ والأمالي الشارحة على مفردات الفاتحة، وهو ثلاثون مجلساً أملاها أحاديث بأسانيده عن أشياخه على سورة الفاتحة، وتكلم عليها؛

٧ ــ وكتاب الإيجاز في أخطار الحجاز، ذكر فيه فوائد خطرت له في سفره إلى الحج وهو أوراق يسيرة؛

٨ ــ وكتاب المحمود في الفقه؛ وصل فيه إلى أثناء الصلاة في ثمانية مجلدات.

كان متضلعاً من العلوم الشرعية تفسيراً وحديثاً وأصولاً مترفعاً على أبناء جنسه في زمانه نقلاً وبحثاً وارشاداً وتحصيلاً. وأما الفقه فهو فيه عمدة المحققين وأستاذ المصنفين، كأنما الفقه كان ميتاً فأحياه وأنشره، وأقام عماده بعدما أماته الجهل فأقبره. وكان ورعاً زاهداً تقياً نقياً طاهر الذيل مراقباً لله.

قال ابن الصلاح: أظن أني لم أر في بلاد العجم مثله وقال ابن السبكي: لا شك في ذلك. وقال النووي: الرافعي من الصالحين المتمكنين. كانت له كرامات كثيرة، وكان في بعض الليالي قاعداً فانطفأ سراجه وقت التصنيف فأضاءت له شجرة في بيته. توفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

ومنهم: عثمان بن عبد الرحمن بن موسى بن أبي نصر الكردي الشهرزوري، الشيخ العلامة تقي الدين، أحد أئمة المسلمين عمماً وديناً، أبو عمر بن الصلاح. (ولد) سنة سبع وسبعين وخمسمائة. كان إماماً كبيراً فقيهاً محدثاً زاهداً ورعاً مفيداً معلماً. وتوفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وقد مر نبذ من مناقبه.

ومنهم: عمر بن محمد بن عبد الله، من أولاد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وهو أبو عبد الله أو أبو نصر أو أبو القاسم الصوفي، ابن أخي الشيخ النجيب، هو الشيخ شهاب الدين السهروردي، صاحب (عوارف المعارف). ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسهرورد، وقدم بغداد، فصحب عمه أبا النجيب عبد القاهر، وأخذ عنه التصوف والوعظ، وصحب غيره. كان فقيهاً فاضلاً صوفياً إماماً ورعاً زاهداً عارفاً، شيخ وقته في علم الحقيقة، وإليه المنتهى في تربية المريدين ودعاء الخلق الى الخالق، وتسليك طريق العبادة والزهد. وقصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة، فتابوا،

ووصل به خلق إلى الله تعالى، وصار له أصحاب كالنجوم، ورأى من الجاه والحرمة عند الملوك ما لم يره أحد. ثم أضر في آخر عمره وأقعد، ومع هذا فما أخل بشيء من الأوراد والأذكار وحضور الجمع في محفة، والمضي إلى الحج، إلى أن دخل عشر المائة، (توفي) في مستهل المحرم، يوم الأربعاء سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.

ومنهم: **موسى بن أبي الفضل، يونس بن محمد بن منعة**، الشيخ العلامة، كمال الدين بن يونس، أبو الفتح الموصلي، والد شارح (التنبيه)، الشيخ شرف الدين أحمد بن موسى. (ولد) سنة احدى وخمسين وخمسمائة بالموصل. تفقه على والده الشيخ رضى الدين يونس، ثم توجه إلى بغداد، وتفقه بالمدرسة النظامية على معيدها الشريف السليماني، ثم أقام بالموصل.

وأعلم أن هذا الرجل مما أطنب المؤرخون في ترجمته، وأطرى المادحون في فضله. ولنقتصر على ما يقبله العقل منها. قال ابن خلكان: كان هو بحراً في كل العلوم، وتفرد بالرياضيات، وكان الفقهاء يقولون إنه يدرس أربعة وعشرين فناً دراية متقنة من ذلك المذهب، حتى أن الحنفية يقرأون عليه مذهبهم ويحل عليهم مسائل الجامع الكبير أحسن حل، وكان يتقن الأصولين والجدل والخلاف، ولما وصل كتب فخر الدين الرازي الى الموصل، لم يفهم أحد من الفضلاء اصطلاحه سواه، وكان بها إذ ذاك جماعة من الفضلاء، وكذلك (الإرشاد) للعميدي ولقد حله في ليلة واحدة، وكان يدري فن المنطق والحكمة، من الطبيعي والرياضي والالهي والطب، وكان يعرف الرياضي من اقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وأنواع الحساب، المفتوح منه، والجبر، والمقابلة، والأرثماطيقي، والخطأين والمساحة، والموسيقى، معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهرها دون دقائقها، وكان كما قال الشاعر:

وكان من العلوم بحيث يقضي ... له في كل علم بالجميع

واستخرج في علم الأوفاق طرقاً لم يهتد إليها أحد، وكان في العربية بحراً حتى أنه كان يقرىء (كتاب) سيبويه، و(الإيضاح)، و(التكملة) لأبي

علي الفارسي، و (المفصل) للزمخشري. وكان له في التفسير والحديث وأسماء الرجال وما يتعلق به يد جيدة. وكان يحفظ من التواريخ وأيام العرب ووقائعهم والأشعار والمحاضرات شيئاً كثيراً. وكان أهل الذمة يقرأون عليه التوراة والانجيل، وشرح لهما هذين الكتابين شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحها لهم غيره. وكان في كل فن من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوة معرفته. قال ابن الأثير: ما دخل بغداد مثله، وقالوا: كيف ذلك، قال: ما دخل بغداد مثل الغزالي، وليس بينه وبين الشيخ نسبة. وكان ابن الأثير على جلالة قدره في العلوم يأخذ الكتاب، ويجلس بين يديه، و يقرأ عليه، والناس يوم ذلك يشتغلون في تصانيف ابن الأثير. وكان الشيخ، سامحه الله، يتهم في اعتقاده، لغلبة العلوم العقلية عليه، وكان يعتريه غفلة لاستيلاء الفكرة عليه بسبب هذه العلوم.

ومنهم يحيى بن شرف، الإمام النووي، وقد مر ذكره في المحدثين.

ومنهم أحمد بن محمد بن علي بن مرتفع بن حازم بن الرفعة الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، نجم الدين أبو العباس، شافعي الزمان، ومن ألقت الأئمة مقاليد السلم والأمان، قد باشر حسبة مصر ودرس بالمدرسة المعزية، ولم يل شيئاً من مناصب القاهرة.

ومن تصانيفه:

١ ــ المطلب في شرح الوسيط؛
٢ ــ والكفاية في شرح (التنبيه)؛
٣ ــ وكتاب مختصر في هدم الكنائس.

(توفي) بمصر سنة عشر وسبعمائة ولا مطمع في استيعاب مناقبه وغرائبه لأن ذلك بحر زاخر ومهيع لا يعرف له أول من آخر.

ومنهم محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين، أبو عبد الله التركماني الذهبي كان إمام الوجود حفظاً، وذهب العصر معنى ولفظاً، شيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، كأنما جمعت الأمة في صعيد

واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها أخبار من حضرها، منتهى رغبات من يركب المطي إلى جواره، و يضرب البزل المهاري أكبادها ليصل ساحة داره. ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وفي شيوخه كثرة لا تقبل التعداد، وسمع منه الجمع الكثير، ما زال يخدم هذا الفن إلى أن رسخت فيه قدمه، وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلمه، وضربت باسمه الأمثال، وسار اسمه مسير قبة الشمس إلا أنه لا يتقلص إذا نزل المطر ولا يدبر إذا أقبلت الليال. أقام بدمشق يرحل إليه من سائر البلاد، وتناديه السؤالات من كل ناد، وهو بين أكنافها كنف لأهلها، وشرف تفتخر و يزدهى به الدنيا وما فيها، طوراً تراها ضاحكة عن تبسم أزهارها وقهقهة غدرانها، وتارة تلبس ثوب الوقار والفخار بما اشتملت عليه من أبياتها المعدود في سكانها، إلا أنه كان شافعي المذهب حنبلي المعتقد ولهذا كان كثير الازراء للأشاعرة في تصانيفه، سيما في: (تاريخه الكبير) وله:

١ ــ تاريخ أوسط سمي (بالعبر)؛
٢ ــ وصغير مسمى (بدول الإسلام)؛
٣ ــ وكتاب النبلاء؛
٤ ــ ومختصر تهذيب الكمال: للمزي؛
٥ ــ والكاشف، مختصر ذلك؛
٦ ــ والميزان في الضعفاء، وهو من أجل الكتب؛
٧ ــ والمغني، في ذلك؛
٨ ــ وكتاب ثالث في ذلك؛
٩ ــ ومختصر سنن البيهقي، وهو حسن؛
١٠ ــ ومختصر الأطراف للمزي؛
١١ ــ وطبقات الحفاظ؛
١٢ ــ وطبقات القراء؛
١٣ ــ وكتاب في الوفيات؛
١٤ ــ ومختصر آخر فيها يسمى (بالإعلام)؛
١٥ ــ والتجريد في أسماء الصحابة؛

١٦ ــ المجرد في أسماء رجال الكتب الستة؛
١٧ ــ ومختصر المستدرك، للحاكم؛
١٨ ــ ومختصر تاريخ نيسابور، للحاكم؛
١٩ ــ ومختصر ذيل ابن الزيتي؛
٢٠ ــ والمعجم الكبير؛
٢١ ــ والصغير؛
٢٢ ــ والمختصر لمحدثي العصر؛
٢٣ ــ ومختصر المحلي، لأبن حزم، ومختصرات كثيرة. وقرأ القرآن بالروايات وأقرأه. (توفي) سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن عمر قاضي القضاة، جلال الدين القزويني. قدم من دمشق هو وأخوه قاضي القضاة إمام الدين، وناب في القضاء بدمشق عن أخيه، وأعاد بالمدرسة البادرانية، ثم ولي خطابة دمشق ثم قضاء القضاة بها، ثم انتقل إلى قضاء القضاة بالديار المصرية ثم صرف عنها وأعيد إلى قضاء الشام. كان رجلاً فاضلاً متفنناً له مكارم وسؤدد.

صنَّف:

١ ــ كتاب التلخيص، في المعاني والبيان؛
٢ ــ وكتاب الإيضاح فيه.

(توفي) بدمشق سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

ومنهم: محمد بن عبد الرحيم بن محمد، الشيخ صفي الدين الهندي الأرموي المتكلم على مذهب الأشعري. كان من أعلم الناس بمذهب الأشعري وأدراهم بأسراره، متضلعاً بالأصلين. اشتغل على سراج الدين صاحب التلخيص.

صنَّف:

١ ــ الزبدة في علم الكلام؛
٢ ــ والنهاية في أصول الفقه؛

٣ ــ والفائق فيه أيضاً.

وكل مصنفاته حسنة جامعة لا سيا:

٤ ــ النهاية.

ولد ببلاد الهند سنة أربع وأربعين وستمائة، ورحل إلى اليمن ثم حج وقدم إلى مصر، ثم سار إلى الروم واجتمع بسراج الدين ثم قدم دمشق وشغل الناس بالعلم. توفي بدمشق سنة خمس عشرة وسبعمائة. وكان خطه في غاية الرداءة. وكان رجلاً ظريفاً ساذجاً. يحكى أنه قال: وجدت كتاباً بخط ظننته أقبح من خطي فغاليت في ثمنه واشتريته لأحتج به على من يدّعي أن خطي أقبح الخطوط، فلما عدت إلى البيت وجدته بخطي القديم. وحبس ابن تيمية لقوله بالجهة ونودي عليه وعلى أصحابه في البلد وعزلوا من وظائفهم.

ومنهم: محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم، قاضي القضاة، كمال الدين ابن الزملكاني الإمام العلامة المناظر. قرأ الأصول على الشيخ صفي الدين الهندي وقرأ النحو على الشيخ بدر الدين بن مالك. ولد سنة سبع وستين وستمائة. درس بدمشق ثم ولي قضاء حلب.

وصنَّف:

١ ــ الرد على ابن تيمية في عدة مسائل؛

٢ ــ وشرح من منهاج النووي قطعاً متفرقة، ذكره الذهبي، فقال: عالم العصر من بقايا المجتهدين ومن أذكياء أهل زمانه. درس وصنّف وتخرج به الأصحاب. وتوفي في سنة سبع وعشرين وسبعمائة.

ومنهم: محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، أبو الفتح تقي الدين. (ولد) الشيخ الإمام القدوة مجد الدين ابن دقيق العيد، شيخ الإسلام الحافظ الزاهد الورع الناسك المجتهد المطلق الجامع بين العلم والدين، والسالك سبيل السادة الأقدمين، بحر العلم الذي لا تكدره الدلاء، ومعدن الفضل الذي لقاصده منه ما يشاء، إمام كلمة لا يجحدونها، وشهادة على أنفسهم يؤدونها، مع وقار عليه سيماء الجلال، وهيبة لا يقوم الضرغام عندها للنزال. هذا مع ما

أضيف إليه من أدب أزهى من الأزهار، وألعب من المعقول. لا أدري بين يدي هذا الشيخ ما أقول، أستغفر الله من العثار. ومع أنه كان من العلوم بحيث يقضي له بالجميع، فله بالتجريد تخلق، وبكرامات الصالحين تحقق. قال ابن السبكي: ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس المائة السابعة المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي صلى الله عليه وسلم. ولد في البحر المالح، وكان والده متوجهاً إلى الحج في شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة، ثم أخذه والده على يده وطاف به بالكعبة وجعل يدعو الله أن يجعله عالماً عاملاً، ونقل له كرامات كثيرة. منها: أنه أخبر عند دخول التتار البلاد أنهم هلكوا أمس وقت العصر، فكان كما قال. وقال عن بعض الأمراء وقد خرج من القاهرة أنه لا يرجع فلم يرجع. وقال لشخص آذى أخاه أنه يهلك فكان كذلك. وكراماته كثيرة. وأما آدابه في الليل عملاً وعبادة فأمر عجاب، ربما استوعب الليلة فطالع فيها المجلد أو المجلدين وربما تلا آية واحدة فكررها إلى مطلع الفجر. وكان يقول: ما تكلمت كلمة ولا فعلت فعلاً إلا وأعددت له جواباً بين يدي الله عز وجل. وكان يخاطب عامة الناس: السلطان فمن دونه بقوله يا إنسان، وإن كان فقيهاً كبيراً قال: يا فقيه، وتلك كلمة لا يسمح بها إلا لابن الرفعة ونحوه. وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي: يا إمام، ويخصه بها. توفي سنة اثنتين وسبعمائة.

صنَّف:

١ ــ كتاب الإمام، وهو جليل حافل؛

٢ ــ وكتاب الالمام؛

٣ ــ و (شرحه)، ولم يكمل شرحه؛

٤ ــ وأملى (شرحاً) على عمدة عبد الغني المقدسي في الحديث، وعلى العنوان في أصول الفقه؛

٥ ــ وله تصنيف في أصول الدين؛

٦ ــ وشرح مختصر ابن الحاجب، ولم يكمله؛

٧ ـــ وعلق شرحاً على مختصر التبريزي في فقه الشافعية. ولي قضاء القضاة بعد إباء شديد وعزل نفسه غير مرة ثم يعاد.

ومنهم: محمد بن علي البارنباري، الملقب طوير الليل، تاج الدين، أحد أذكياء الزمان. برع فقهاً وعلماً ومنطقاً وأصولاً. قرأ المعقولات على الشيخ شمس الدين الأصفهاني. ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، وتوفي سنة سبع عشرة وسبعمائة.

ومنهم: محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس، الحافظ الأديب، فتح الدين أبو الفتح. كان أحد الأعيان معرفة واتقاناً وحفظاً وضبطاً للحديث وتفهماً في علله وأسانيده، عالماً بصحيحه وسقيمه، مستحضراً للسيرة، له حظ من العربية، له الشعر الرائق والنثر الفائق. ولد سنة احدى وسبعين وستمائة، وكان من بيت رياسة وعلم، وتوفي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة.

ومنهم: عبد الكريم بن علي بن عمر الأنصاري، الشيخ علم الدين العراقي الضرير. له في التفسير اليد الباسطة. صنف (الانصاف) في مسائل الخلاف بين الزمخشري وابن المنير. وهو مصري، وقيل له العراقي، لأن أبا إسحق العراقي (شارح المهذب) كان جده لأمه. ولد سنة ثلاث وعشرين وستمائة و(توفي) سنة أربع وسبعمائة بالقاهرة.

ومنهم علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، الشيخ الامام الفقيه المحدث الحافظ المفسر المقري الأصولي المتكلم النحوي اللغوي الأديب الحكيم المنطقي الجدلي الخلافي النظار، شيخ الإسلام قاضي القضاة، تقي الدين، أبو الحسن، شيخ المسلمين في زمانه، والداعي إلى الله في سره وإعلانه، والمناضل عن الدين الحنيفي بقلمه ولسانه، عباب لا تكدره الدلاء، وسحاب تتقاصر عنه الأنواء، وكان من العلم بحيث يقضي له في كل علم بالجميع، وكان من الورع والدين، وسلوك سبيل الأقدمين على سنن و يقين، إن الله مع المتقين، صادع بالحق لا يخاف لومة لائم، صادق في النية لا يخشى بطشه ظالم،

صابر وإن ازدحمت الضراغم، شيخ الوقت حالاً وعدماً، وإمام التحقيق حقيقة ورسماً، وعلم الأعلام فعلاً واسماً:

إذا تغلغل فكر المرء في طرف ... من مجده غرقت فيه خواطره

لا يرى الدنيا إلا هباء منثوراً، ولا يدري كيف يجبب الدرهم والدينار سروراً، ولا ينفك يتلو القرآن قائماً وقاعداً وراكباً وماشياً، وإن كان مريضاً معذوراً. وكانت دعواته تخترق السبع الطباق، وتفترق بركاتها فتملأ الآفاق، وتسترق خبر السماء، وكيف لا وقد رفعت على يد ولي الله يفتح له أبوابها ذوات الأغلاق. وكانت يداه بالكرم مبسوطتين لا يقاس بحاتم ولا ينشد إلا على قدر أهل العزم تأتي العزائم. وأما الأخلاق فقلّ ان رأيتها في غيره مجموعة، أو وجد في أكياس الناس ديناراً على سكة المطبوعة، فم بسام، ووجه بين الجمال والجلال قسام، وحلق كأنه نقش السحر على الزهر بسام، وكف تخجل الغيوث من ساجمها، ويشهد البرامكة أن نقش حاتم في خاتمها. قال ابن السبكي بعد وصف والده بالأوصاف المذكورة وزيادة عليها: أقسم بالله أنه لفوق ما وصفته، وإني لناطق بهذا وغالب ظني أني ما أنصفته. ثم قال:

وما عليّ إذا ما قلت معتقدي ... دع الحسود يظن السوء عدوانا
هذا الذي تعرف الأملاك سيرته ... إذا أدلهم دجى لم يبق مهرانا
هذا الذي يسمع الرحمن صالحة ... إذا بكى وأفاض الدمع ألوانا
هذا الذي يسمع الرحمن دعوته ... إذا تقارب وقت الفجر أو حانا
هذا الذي تعرف الغبْراء جبهته ... من السجود طوال الليل عرفانا
هذا الذي لم يغادر سيل مدمعه ... أركان شيبته البيضاء أحيانا
والله والله والله العظيم ومن ... أقامه حجة في العصر برهانا
وحافظاً لنظام الشرع تبصرة ... نصرا يلقيه من ذي العرش غفرانا
كل الذي قلت بعض من مناقبه ... ما زدت إلا لعلي زدت نقصانا

(ولد) في صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة. تفقه في صغره على والده وكان من الإشتغال بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره. وحكى لي أنه لم

يأكل لحم الغنم إلا بعد العشرين من عمره لحدة ذهنه وأنه كان إذا شم رائحته حصل له شرأ. وإنما كان يخرج من البيت عند صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قرب الظهر فيجد أهل البيت قد عملوا له فروجاً فيأكله ويعود إلى الإشتغال إلى المغرب فيأكل شيئاً حلواً لطيفاً، ثم يشتغل بالليل، وهكذا إلى أن قدم القاهرة، وسمع عن علمائها حتى استقر أمره ووردت عليه الفتاوى من أقطار الأرض وانتهت إليه رياسة المذهب بمصر وألف غالب مؤلفاته، ثم ألزمه السلطان قضاء الشام بعد وفاة جلال الدين القزويني فقبلها بعد ممانعات يطول شرحها. وتولى مع القضاء خطابة الجامع الأموي ثم تولى تدريس المدارس مع ما ذكر من المناصب. والعجب أنه كان مع صحة ذهنه واتقاده عظيم الحافظة لا يكاد يسمع شيئاً إلا حفظه ولا يحفظ شيئاً فينساه، وإن طال بعده عن تذكره، جمعت له الحافظة البالغة والفهم الغريب.

وليس من الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

كان بالآخرة قد أعرض عن كثرة البحث والمناظرة، وأقبل على التلاوة والتأله والمراقبة. قال ولده تاج الدين السبكي في طبقاته: وكان ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل، وقال: يا بني تعودوا السهر ولو أنك تلعب، والويل كل الويل لمن تراه نائماً وقد انتصف الليل. كان دائم التلاوة والذكر وقيام الليل، جميع نومه بالنهار وأكثر ليله التلاوة، وكانت تلاوته أكثر من صلاته ويتهجد بالليل ويقرأ جهراً في النوافل، ولا تراه في النهار جالساً إلا وهو يتلو ولو كان راكباً، ولا يتلو إلا جهراً ولو كان في الحمام وفي المسلخ. وأما الصوم فكان يعسر عليه، وكان لا يصوم إلا رمضان وستا من شوال. وأما إذا أراد دفع نايبة عن نفسه كان يكشف رأسه وربما يصعد السطح ويجعل المنديل في رقبته، ويقوم على رجليه مطرقاً ساكتاً ويصير عليه من المهابة ما يعجز الواصف عن وصفه، وربما يظن من رآه في تلك الحالة أنه لو لسعه زنبور لما أحس به. وأيضاً إذا كانت له حاجة يكتب قصته بخطه إلى الله ويعلقها على خشبة في السطح، وربما أنزلها بعد أيام، وكان ذلك علامة قضاء الشغل. وأما مصنفاته فالبحار الزواجر، وجملتها من الكتب والرسائل مائة ونيف وعشرون. (توفي) رحمه الله

بالقاهرة سنة ست وخمسين وسبعمائة.

ومنهم: **علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب، الشيخ الإمام علاء الدين الباجي**، إمام الأصوليين، وسيف المناظرين، وكان من الأوابين المتقين ذوي التقوى والورع والدين المتين. وكان الشيخ الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد والشيخ الإمام تقي الدين السبكي كثيري التعظيم للباجي. وقد مر أن إبن دقيق العيد كان يخاطب كل أحد يا انسان، ولو كان هو السلطان إلا اثنين: الباجي وابن الرفعة، فيقول للباجي: يا إمام ولأ بن الرفعة: يا فقيه. وكان الباجي أعلم أهل الأرض بمذهب الأشعري في علم الكلام، وكان هو بالقاهرة والهندي بالشام قائمين بنصرة مذهب الأشعري. قيل: ما من علم إلا وللباجي فيه مختصر. مولده سنة إحدى وثلاثين وستمائة. ولم يجرؤ ابن تيمية بين يديه بلفظة. وكان يقول: وظيفة مثلى الإستفادة منك. توفي سنة أربع عشرة وسبعمائة.

ومنهم **هبة الله بن عبد الرحيم الجهني، قاضي القضاة، شرف الدين البازري، قاضي حماة.** (ولد) سنة خمس وأربعين وستمائة بحماة، وسمع من أبيه وجده. كان إماماً عارفاً بالمذهب وفنون كثيرة.

له التصانيف الكبيرة منها:

١ ــ شرح الحاوي؛

٢ ــ والتمييز؛

٣ ــ وترتيب جامع الأصول؛

٤ ــ والمغني؛

٥ ــ ومختصر التنبيه؛

٦ ــ والوفا في سرائر المصطفى صلى الله عليه وسلم.

(توفي) سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة.

ومنهم: **يوسف ابن الزكي عبد الرحمن بن يوسف الكلبي القضاعي الدمشقي؛ الشيخ جمال الدين أبو الحجاج المزي**، حافظ زمانه، حامل راية

السنة والجماعة، القائمَ بأعباء هذه الصناعة والمتدرع جلباب الطاعة، إمام الحفاظ كلمة لا يجحدونها، وشهادة على أنفسهم يؤدونها. قال ابن السبكي: بلغني عن الذهبي أنه قال: ما رأيت أحفظ من أربعة: ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تيمية والمزي وترتيبهم حسب ما قدمناه، يعني أن الأول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث والثاني بالأنساب والثالث بالمتون والرابع بأسماء الرجال. وقال: وأنا لم أر من هؤلاء الأربعة غير المزي ولكني أقول: ما رأيت أحفظ من ثلاثة: المزي والذهبي والوالد. وغالب ظني أن المزي يفوقهما في أسماء رجال الكتب الستة، والذهبي يفوقهما في أسماء رجال من بعد الستة والتواريخ والوفيات، والوالد يفوقهما في العلل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز به المشاركة البالغة. وقال أيضاً: وعاصرت أربعة لا خامس لهم: هؤلاء الثلاثة والبرزالي وكان البرزالي يفوقهم في معرفة الأجزاء ورواتها الأحياء، وكان الثلاثة يعظم المزي ويذعن له ويقرأون عليه ويعترفون بتقدمه.

وبالجملة، فإن شيخنا المزي أعجوبة زمانه يقرأ عليه القارىء نهاراً كاملاً والطرق تضطرب، والأسانيد تختلف، وضبط الأسماء يشكل، وهو لا يسهو ولا يغفل، يبين وجه الإختلاف ويوضح ضبط المشكل، وتعيين المبهم ينقط لئلا يغفل عند الاحتياج إليه. ولقد شاهدته الطلبة ينعس، فإذا أخطأ القارىء رد عليه كأن شخصاً أيقظه، وقال له: قال هذا القارىء: كيت وكيت هل هو صحيح، وهذا من عجائب الأمور. وكان قد انتهت إليه رياسة المحدثين في الدنيا ومن ذكرناه من الثلاثة قد عرفناك أنهم مع علو رتبتهم يعترفون له. وحدث نحو خمسين سنة. سمع منه ابن تيمية والبرزالي والذهبي وابن سيد الناس والشيخ الإمام السبكي وخلق لا يحصون. وصنف: (تهذيب الكمال) المجمع على أنه لم يصنف مثله، و(كتاب الأطراف). (ولد) سنة أربع وخمسين وستمائة، وتوفي سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة. ولعمري لقد طال هذا الباب من هذا الكتاب، فخرجنا من باب إلى باب وولجنا في أبواب، ولقد جرني إليه شغفي بتتبع أحوال العلماء من ناصري الملة الحنيفية البيضاء، ومع

هذا فقد فاتني ذكر كثير من الأسلاف وليس الري عن التشاف، إلا أن القلم لما هاب الاسهاب لأولى الألباب من الأصحاب، قبض عنانه، وكف لسانه، ودخل فيا خرج عنه من ذكر العلوم متوكلاً على الحي القيوم، وهو المستعان، وعليه التكلان.

الشعبة الثامنة

في فروع العلوم الشرعية وفيها مطالب سبعة

المطلب الأول

في فروع علم القراءة

وهو علم معرفة الشواذ وتفرقتها من المتواتر واعلم أن المتواتر عند الأكثرين سبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي. ولكل منهم راو يان: قالون وورش لنافع، والبزي وقنبل لأ بن كثير، والدوري والسوسي لأبي عمرو، وهشام وابن ذكوان لأ ين عامر، وشعبة وحفص لعاصم، وخلف وخلاد لحمزة، وأبو الحارث والدوري للكسائي. وإياك أن تظن حصر رواتهم في الاثنين، وإذا وجدت خارجاً عن ذلك تحكم بشذوذه وهذا خبط، إذ لكل شيخ رواة كثيرة، إلا أن المتأخرين اختاروا الاثنين من رواتهم، ولا يعرف تفصيله إلا من جهابذة النقل وكتب الثقات. ثم إن في انحصار المتواتر في السبعة أيضاً خلافاً، لما قد سمعت فيا سبق أن بعضاً من العلماء ألحق بهم يعقوب الحضرمي. ثم فيما وراء الثمانية الأكثرون على الشذوذ، وتفصيل هذا في كتب القراءات، فارجع اليها.

علم مخارج الحروف

وهذا علم يبحث فيه عن أحوال الألفاظ العربية خارجة وأنها من أي موضع تخرج، و يبحث عن صفاتها من الجهر والهمس والشدة وأمثالها. وقد مر

هذا العلم على وجه التفصيل في فروع علم الألفاظ لأنه يمكن أن يجعل فرعاً لهذين العلمين لكن من جهتين.

علم مخارج الألفاظ

ولا يخفى أن للألفاظ مخارج تخصها مغائر المخارج الحروف يعرفها أهلها، ولا يعرف هذين العلمين إلا من أخذهما من أفواه المشايخ. وهذا العلم أيضاً ربما يجعل من فروع علم الألفاظ.

علم الوقوف

الوقف عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمناً يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة لأ بنية الأعراض، و يكون في رؤوس الآى وأوساطها ولا يأتي في وسط الكلمة ولا فيما اتصل رسماً. قيل: معرفة وقوف القرآن واجب، حيث قال تعالى ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾[1]. قال علي رضي الله عنه: الترتيل تجويد الحروف ومعرفة الوقوف. قال ابن الأنباري: من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء فيه. قال النكزاوي: لا يتأتى لأحَد معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل. وفي الوقف أقسام، لكن اختلفوا فيها، فقال ابن الأنباري إنها ثلاثة: تام، وحسن، وقبيح. فالتام: ما يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده، ولا يكون بعده ما يتعلق به كقوله تعالى ﴿وأولئك هم المفلحون﴾. والحسن: هو الذي يحسن الوقف عليه، دون الإبتداء بما بعده، كقوله تعاله ﴿الحمد لله﴾، لأن الإبتداء برب العالمين لا يحسن. والقبيح: ما ليس بتام ولا حسن، كالوقف على ﴿بسم﴾ من ﴿بسم الله﴾. وقال بعضهم: الوقف أربعة أقسام: تام مختار، وكاف جائز، وحسن مفهوم، وقبيح متروك. فالتام المختار: ما لا يتعلق بما بعده، فيحسن الوقف عليه، والابتداء بما بعده. والكافي الجائز: منقطع في اللفظ، متعلق في المعنى، فيحسن الوقف عليه، والإبتداء بما بعده أيضاً، نحو: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾[2].

---

(١) سورة المزمل، آية: ٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٢٣.

والحسن: هو الذي يحسن الوقف عيه، دون الابتداء بما بعده كـ « الحمد لله » .

والقبيح: هو الذي لا يفهم منه المراد كالحمد لله، وأقبح منه الوقف على « لقد كفر الذين قالوا »، و يبتدىء بما بعده. وقال السجاوندي: الوقف على خمس مراتب: لازم، ومطلق، وجائز، ومجوز لوجه، ومرخص ضرورة. فاللازم: ما لو وصل طرفاه غير المراد، نحو: ﴿وما هم بمؤمنين﴾[1]، ولا يوصل بقوله تعالى: ﴿يخادعون الله﴾[2]. والمطلق: ما يحسن الإبتداء بما بعده، وقد مر مثاله. والجائز: ما يجوز فيه الفصل والوصل لتجاذب الموجبين من الطرفين، نحو: ﴿وما أنزل من قبلك﴾[3]، فإن واو العطف تقتضي الوصل وتقديم المفعول فيما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾[4]، يقطع النظم. والمجوز لوجه، نحو: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾[5]، لأن الفاء في قوله تعالى، فلا يخفف للسببية والجزاء، وذلك يوجب الوصل. وكون نظم الفعل على الاستئناف يجعل لنفصل وجهاً. والمرخص ضرورة: مما لا يستغني ما بعده غير أنه جملة مفهومة، كقوله تعالى: ﴿والسماء بناء﴾، لأن قوله تعالى: ﴿وأنزل﴾ لا يستغني عن سياق الكلام، فإن فاعله ضمير يعود إلى ما قبله، غير أن الجملة مفهومة لنا.

وأما ما لا يجوز الوقف عليه، كالشرط دون جزائه، والمبتدأ دون خبره، ونحو ذلك. واعلم أن هذا الذي ذكرناه، مقدمة لهذا الفن، وتمام التفصيل فيه إلى كتب الوقف، وشهرتها عند أهلها أغنتنا عن ذكر أساميها.

علم علل القراءات

وهو علم باحث عن لمية القراءات كما أن علم القراءة باحث عن أنيتها. فالأول دراية، والثاني رواية. ولما كانت الرواية أصلاً في العلوم الشرعية،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ٤.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤.

(٥) سورة البقرة، آية: ٨٦.

جعل الأول فرعاً والثاني أصلاً، ولم يعكس الأمر، وإن أمكن ذلك باعتبار آخر. وموضوع هذا العلم وغايته ظاهرة للمتأمل المتيقظ.

علم رسم كتابة القرآن في المصاحف

وهذا وإن كان من فروع علم الخط، لكن البحث هناك لا بخصوصية القرآن، وها هنا يختص البحث بالقرآن، فلذلك جعلناه من فروعه. وموضوعه: رسم خط المصحف، من الحذف والزيادة والهمز والبدل والفصل والوصل، وما فيه قراءتان، فكتب على أحدهما. وغايته: حفظ المصاحف الكريمة عن مخالفة المصحف الإمام. قال أشهب، سئل مالك: هل يكتب على المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء، فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى. قال الإمام أحمد: يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف، أو غير ذلك. قال البيهقي في شعب الإيمان: من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئاً، فإنهم كانوا أكثر الناس علماً، وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم.

وصنّف في هذا الفن أبو عمرو الداني (المقنع)، وأبو العباس المراكشي (عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل)، و (القصيدة الرائية الموسومة بالعقيلة) للشيخ الشاطبي.

فائدة:

روى عن كعب الأحبار أنه قال: أول من صنع الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام، قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في الطين ثم طبخه. فلما أصاب الأرض الغرق، أصاب كل قوم كتابهم فكتبوه، فكان إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام أصاب كتاب العرب.

وعن ابن عباس: أول كتاب أنزله الله تعالى من السماء أبو جاد. وقيل إن هذه الحروف داخلة تحت قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء﴾. قال ابن فارس:

ولذلك نقول إنه توقيفي. قال النبي صلى الله عليه وسلم: تعلموا أبا جاد، فقيل ما أبا جاد، قال: الألف: آلاء الله، والباء: بهاء الله، والجيم: جلال الله، والدال: دينه، والهاء: الهاوية، والواو: الويل لمن هوى، والزاي: زاوية فيها، والحاء: حط الخطايا عن المستغفرين بالأسحار، والطاء: طوبى لهم، والياء: يد الله على خلقه، والكاف: كلام الله لا تبديل له، واللام: تلازم أهل الجنة بالتحية، والميم: ملك الله، والنون: ن والقلم، لوح من نور يكتب ما هو كائن. وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: حروف أبجد ما منها حرف إلا وهو مكتوب في صفحات العرش بالنور، وما منها كلمة إلا في آجال قوم وأعمال قوم ومدة قوم. وعنه: أبو جاد: أبي آدم الطاعة، وجد في أكل الشجرة، هواز: ذل فهوى من السماء إلى الأرض، حطي: حطت عنه خطاياه، كلمن: أكل من الشجرة ومن عليه بالتوبة، سعفص: عصى فأخرج من النعيم إلى النكد، قرشات: أقر بالذنب فأمن العقوبة، وهذا من علم الحروف. قلت لا يخفى عليك أن هذه الكلمات من قبيل الاشارات دون الدلالات، فلا ينافيه ما قيل: إن أول من وضع الكتابة العربية قوم من الأوائل نزلوا في عدنان بن أدد، واستعربوا ووضعوا هذه الكلمات على عددهم، وهم ملوك مدين، وكلمن رئيسهم، هلك يوم الظلة، فرثته أخته بقولها:

كلمن تيم قلبي ... هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه ... الحتف نار وسط ظلة
جعلت نار عليهم ... دارهم كالمضمحلة

وأنشد:

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة ... سبقت بها عمراً وحي بني عمرو
ملوك بني حطي وهواز عنهم ... وسعفص أهل للمكارم والفخر

وقال حفص بن عتاب: أسماء ملوك الجن الذين سكنوا الأرض قبل آدم، فألقيت إلى العرب، وقال الشعبي: أسماء ملوك الجبابرة، فقال: قرشت ملك، فسخه الله ازدهاقاً دابة لها سبعة رؤوس. قال قطرب الأصل أبو جاد ــ هواز

حطى ــ كلمن ــ سعفص ــ قرشات ــ قيل: الثلاثة الأول عربية، والأخر أعجمية لا تنصرف.

علم آداب كتابة المصحف

وهو علم يعرف فيه كيفية كتابة المصحف ليكون موافقاً للآداب المعتبرة في الشرع والمستحسنة عند السلف، وفائدته غير خافية على أرباب البصائر.

واعلم أنه يستحب كتابة المصحف وتحسين كتابته وتبيينها وإيضاحها وتحقيق الخط دون مشقة وتعليقه فيكره، وكذا كتابته في الشيء الصغير. وعن عمر رضي الله عنه أنه رأى مصحفاً قد كتب بقلم دقيق، فضرب كاتبه، وقال: عظموا كتاب الله. وكان عمر إذا رأى مصحفاً عظيماً سر به. وعن علي رضي الله عنه أنه كان يكره أن تتخذ المصاحف صغاراً. وعن علي رضي الله عنه، موقوفاً، قال: تنوق رجل في بسم الله الرحمن الرحيم، فغفر له. وعن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: من كتب بسم الله الرحمن الرحيم فجوده غفر الله له. قال الغزالي: يحسن كتابة المصحف بالذهب. وعن ابن عباس وأبي ذر وأبي الدرداء أنهم كرهوا ذلك. وعن ابن مسعود أنه مر عليه مصحف زين بالذهب فقال: إن أحسن ما زين به المصحف تلاوته بالحق. قالت الشافعية: وتكره كتابته على الحيطان والجدران وعلى السقوف أشد كراهة لأنه يوطأ.

وهل يجوز كتابته بقلم غير العربي. قال الزركشي: لم أر فيه كلاماً لأحد من العلماء. قال: ويحتمل الجواز لأنه قد يحسنه من لا يقرأ بالعربية، والأقرب المنع. كما تحرم قراءته بغير لسان العرب.

قال البيهقي: من آداب القرآن، أن يفخم فيكتب مفرجاً بأحسن خط ولا يصغر ولا تقرمط حروفه ولا يخلط به ما ليس منه كعدد الآيات والسجدات والعشرات والوقوف واختلاف القراءات ومعاني الآيات. وعن الحسن وابن سيرين أنهما قالا: لا بأس بنقط المصاحف. وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه قال: لا بأس بشكلها. قال النووي: نقط المصحف وشكله مستحب لأنه صيانة له من اللحن والتحريف. وقال ابن مجاهد: ينبغي أن لا يشكل إلا ما

يشكل. وأما ما نقل عن النخعي أنه كره النقط، وعن ابن سيرين أنه كره النقط والفواتح والخواتم، وعن إبن مسعود أنها كرها التعشير، فلعلهم قالوا ذلك عند عدم الاحتياج إلى النقط وعند توهم الاشتباه بالمصحف في البواقي لقوله عليه الصلاة والسلام: «جردوا القرآن»، لا أنهم قالوا بكراهة ذلك مطلقاً، وإلا فكيف يمنع عند الحاجة، إذ الغرض إزالة الالتباس على كل حال، فالالتباس تارة يكون في إثبات ما ذكروه، وتارة في عدم اثباته، ولهذا قال مالك رضي الله عنه: لا بأس بالنقط في المصاحف التي يتعلم فيها الغلْمان، أما الأمهات فلا، لأن الإمام مالك رأى الحاجة فيما يتعلم فيه الصبيان دون الكل، وأما اليوم فالحاجة في الكل محققة، فيجوز في الكل ما يحتاج إليه من الأمور على قدر الحاجة سوى كتابة تفسير القرآن بين أسطره، إذ لا عذر فيها بوجه من الوجوه، لأن في كتب التفاسير غنى عن ذلك. وقول ابن مسعود: جردوا القرآن؛ قيل: جردوه في التلاوة، وقيل في الخط، وقيل عن سائر الكتب المنزلة لتحريف اليهود والنصارى إياها.

واعلم أن الشكل في الصدر الأول للفتحة نقطة على أول الحرف، وللضمة نقطة على آخره، وللكسرة تحت أوله، وعليه مشى الداني. والمشهور الآن الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف وهو الذي أخرجه الخليل، وهو أكثر وأوضح وعليه العمل. فالفتح بشكلة مستطيلة فوق الحرف، والكسر كذلك تحته، والضم واو صغرى، والتنوين زيادة مثلها، والسكون دائرة صغيرة جداً.

فائدة:

اختلف السلف في بيع المصحف وشرائه. منهم من كرهها، نقل ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وابن سيرين، ومنهم من جوزها، وقالوا إنما يأخذون أجور أيديهم، وقالوا انما يبيعون الورق، وقالوا إنه بدل من أجرة النسخ، نقل ذلك عن مجاهد وابن المسيب والحسن وعن سعيد بن جبير وابن الحنفية والشعبي، ومنهم من جوز الشراء دون البيع، نقل ذلك عن عطاء عن ابن عباس وعن مجاهد.

فرع آخر: قال عز الدين عبد السلام: القيام للمصحف بدعة لم تعهد في الصدر الأول. وقال النووي: يستحب القيام لما فيه من التعظيم وعدم التهاون به.

فرع آخر: يستحب تقبيل المصحف مثل تقبيل الحجر الأسود قياساً، وكان عكرمة بن أبي جهل يفعله، وقاسه بعضهم على تقبيل الولد الصغير لأنه هدية من الله. وعن أحمد ثلاث روايات: الجواز والاستحباب والتوقف. أما الأولان فظاهر مما تقدم، وأما التوقف فلأنه لا مدخل في أمثاله للقياس، كما قال عمر رضي الله عنه في الحجر: لولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك.

فرع آخر: يستحب تطييب المصحف وجعله على كرسي ويحرم توسده لأن فيه إذلالاً وامتهاناً. قال الزركشي: وكذا مد الرجلين إليه. وعن سفيان أنه كره أن يعلق المصاحف. وعن الضحاك، قال: لا تتخذوا للحديث كراسي ككراسي المصحف.

فرع آخر: يجوز تحليته بالفضة إكراماً له على الصحيح. عن الوليد بن مسلم، قال مالك: حدثني أبي عن جدي أنهم جمعوا القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، وأنهم فضضوا المصاحف على هذا أو نحوه، فأخرج إلينا مصحفاً فأراه لنا. وأما بالذهب فالأصح جوازه للمرأة دون الرجل وخص الجواز بنفس المصحف دون غلافه المنفصل عنه، والأظهر فيه التسوية.

فرع: آخر المصحف إذا بلي لا يوضع في شق لأنه قد يسقط ويوطأ ولا يجوز تمزيقه لما فيه من تقطيع الحروف وأيضاً فيه إزراء به. قال الحليمي: يغسل المصحف البالي بالماء. وقيل: الاحراق أولى، لأن الغسالة قد تقع على الأرض. وأحرق عثمان رضي الله عنه المصاحف. وقيل: الاحراق حرام لمنافاته الاحترام. قال النووي: يكره. وعن الحنفية: لا يحرق بل يدفن في الأرض. وقيل: لا يؤمن من الوطء بالأقدام.

فرع آخر: عن ابن المسيب قال: لا يقولن أحدكم مصيحف ولا مسيجد، ما كان لله فهو عظيم، اللهم إلا أن يقصد به التعظيم، لكنه يكره لإيهامه التحقير.

فرع آخر: يحرم مس المصحف للمحدث سواء كان حدثاً أصغر أم أكبر لقوله تعالى: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾، وحديث الترمذي وغيره: «لا يمس القرآن إلا طاهر».

خاتمة

عن أنس مرفوعاً: «سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته وهو في قبره من علم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ترك ولداً يستغفر له من بعد موته أو ورث مصحفاً» وفي هذا الحديث بشارة عظيمة للمسلمين.

المطلب الثاني

في فروع علم الحديث

علم شرح الحديث

وهو علم باحث عن مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديثه الشريفة بحسب القواعد العربية، والأصول الشرعية بقدر الطاقة. ونفعه وغايته بمكان لا يخفى على انسان.

والكتب المصنفة في هذا الفن لا تحيط به الدفاتر، إلا أن الأشهر شروح البخاري. منها: (شرح الكرماني)، و (شرح البرماوي)، و (شرح ابن الملقن)، و (شرح العيني)، و (شرح ابن حجر)، و (شرح السيوطي)، و (شرح الكوراني)، وغير ذلك. و (شرح مسلم) للنووي والسيوطي.

ومن شروح المصابيح: (شرح المفاتيح للخلخالي)، و (شرح التوربشتي)، و (شرح المظهر)، و (شرح زين العرب)، وغير ذلك. ومن شروح المشارق (المبارق)، و (شرح مجد الدين الشيرازي) صاحب القاموس، و (شرح الشيخ

أكمل الدين)، و(شرح الفاضل ابن الملك)، وغير ذلك. ومصنفو هذه الكتب قد سبقوا كلهم أو جلهم.

علم أسباب ورود الأحاديث وأزمنته وأمكنته

وموضوعه ظاهر من اسمه. ومنفعته عظيمة لا تخفى على أحد. وسمعت كتباً مصنفة في هذا الفن، لكن ما رأيتها.

علم ناسخ الحديث ومنسوخه

وموضوعه ظاهر جداً. وفائدته وغرضه لا يخفى بل (هو) أصل من أصول الشريعة، وعليه تدور أكثر الأحكام. وقد اعتنى بعض العلماء بتدوينه. وسمعت من الثقات كتاباً مدوناً في هذا العلم لكن لم يشتهر في بلادنا.

علم تأويل أقوال النبي صلى الله عليه وسلم

وهذا علم معلوم موضوعه، وبيّن نفعه، وظاهر غايته وغرضه. ورأيت رسالة في هذا العلم لمولانا شمس الدين الفناري، وهو من علماء بلادنا روح الله روحه، وقد استخرج للأحاديث تأويلات موافقة للشرع بحيث يقول: من رآها لله دره، وعلم الله أجره. وكانت الرسالة عندي ثم ضاعت عني. وأيضاً للشيخ صدر الدين (شرح بعض الأحاديث) على التأويلات لكن بعضها مخالف لما عرف من ظاهر الشرع مثل قوله: إن الفلك الأطلس المسمى بلسان الشرع العرش وملك الثوابت المسمى عند أهل الشرع الكرسي، قديمان. وأحال ذلك إلى الكشف الصحيح، والعيان الصريح، وادعى أن هذا غير مخالف للشرع، لأن الوارد فيه حدوث السموات السبع والأرضين وما عليهن، إلا أن هذا الشيخ قدس سره قد أبدع في سائر التأويلات بحيث ينشرح له الصدر والبال، والله أعلم بحقيقة الحال.

علم رموز أقوال النبي وإشارته

صلى الله عليه وسلم

وهذا علم ظاهر الموضوع وباهر النفع. ولا يخفى غايته وغرضه. وفي هذا العلم تصنيف لطيف لكن لم أتذكر اسمه الآن.

علم غرائب لغات الحديث

وهذا العلم شريف موضوعه، ولطيف نفعه وغايته. ولقد صنَّف فيه العلامة الزمخشري كتاب (الفائق)، والإمام ابن الأثير الجزري كتاب (النهاية). وقد ذكرنا هذين الكتابين في علم اللغة لأن هذا العلم قد يعد من فروع علم اللغة أيضاً.

علم دفع مطاعن الحديث

وموضوعه ونفعه ظاهر لأولي الألباب من المسلمين الموحدين. وقد طعن طائفة من الملاحدة الملقبين بالقرامطة في أحاديث حضرة الرسالة صلى الله عليه وسلم بأوهام واهية وأكاذيب ساهية، يدل سياقها على كذبها، وتخبر صورتها عن الفرية في باطنها، إلا أن العلماء جزاهم الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خيراً، قد انتصبوا لدفع هذه الخرافات صوناً لعقائد عوام المسلمين عن التورط في أوهامهم الفاضحة بتقريرات كاملة، وتحريرات واضحة. اللهم انصر الإسلام والمسلمين واخذل الكفرة والملحدين أعداء الدين بحرمة نبيك محمد الأمين (صلى الله عليه وسلم) وآله وصحبه الأكرمين (رضي الله عنهم أجمعين).

علم تلفيق الأحاديث

وهو علم يبحث فيه عن التوفيق بين الأحاديث المتنافية ظاهراً، أما بتخصيص العام تارة، أو بتقييد المطلق أخرى، أو بالحمل على تعدد الحادثة أخرى، إلى غير ذلك من وجوه التأويل. وكثيراً ما يورده شراح الحديث أثناء شروحهم، إلا أن بعضاً من العلماء قد اعتنى بذلك، فدونوه على حدة.

والتصانيف الواقعة فيه قلما توجد عند الطلاب، يجدها من يطلبها.

علم أحوال رواة الأحاديث

من وفياتهم وقبائلهم وأوطانهم وجرحهم وتعديلهم وغير ذلك من الأحوال.

وهذا العلم من فروع التواريخ من وجه، ومن فروع الأحاديث من وجه آخر. وقد صنَّف العلماء فيها تصانيف كثيرة، وقد ذكرنا نبذاً منها فيما سبق، فتذكر تفقه.

علم طب النبي صلى الله عليه وسلم

وهو علم باحث عن الأحاديث النبوية الواردة في طب المرضى. وقد اعتنى جماعة أشهرها ما جمعه ابن طرفان، وأفضلها ما جمعه الامام المستغفري، وهما ظاهران عند الطلاب. ولا يخفى نفع هذا العلم وغايته وغرضه على أولي الألباب.

المطلب الثالث

في فروع علم التفسير

واعلم أن علم القرآن بحر لا تنقضي عجائبه، وطود شامخ لا تتناول غرائبه. وله فروع لا تحصى وفنون لا تستقصى. ولنذكر منها ما يفي به قوة التحرير. ويحيط به نطاق التقرير.

علم معرفة المكي والمدني

صنَّف فيه جماعة، منهم مكي والعز الدريني. وفائدته: معرفة المؤخر ليكون ناسخاً أو مخصصاً، وها هنا أقسام ذكرها أبو القاسم، الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، في (كتاب التنبيه)، ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه تنزول المكي في المدني، وما

يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيعاً، وما نزل مفرداً، والآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكيات في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما اختلفوا فيه، فقال بعضهم مدني، وبعضهم مكي، فهذه ثلاثة وعشرون وجهاً من لم يعرفها ولم يميز بينها، لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى. ثم اختلفوا في المكي والمدني على ثلاثة اصطلاحات؛ أشهرها: أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بالمدينة أم بمكة عام الفتح أم عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار. وقد رووا على ذلك أثراً والثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة. وعلى هذا يكون ما نزل بالأسفار واسطة بينهما، إلا أنه يدخل في مكة ضواحيها كمنى وعرفات والحديبية، وفي المدينة ضواحيها كبدر وأحد وسلع. الثالث: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

علم معرفة الحضري والسفري

وموضوعه ونفعه وغايته في غاية الظهور. وأمثلة الحضري كثيرة، وأما أمثلة السفري فقد ضبطوها، وارتقت إلى نيف وأربعين، استقصاها السيوطي في الإتقان.

علم معرفة النهاري والليلي

وموضوعه وغايته ومنفعته ظاهرة على الناظرين. قالوا: نزل أكثر القرآن نهاراً، وأما الليلي فقد تتبعوه فبلغ إلى خمس عشرة آية ذكر في الإتقان.

علم معرفة الصيفي والشتائي

وأمر موضوعه وغايته ومنفعته لا يخفى. قال الواحدي: أنزل الله تعالى في الكلالة آيتين إحداهما، وهي التي في أول النساء في الشتاء، والأخرى وهي

التي في آخرها في الصيف. ومن الصيفي ما نزل في حجة الوداع كأول المائدة، وقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾[1]، ﴿واتقوا يوماً ترجعون﴾[2]، وآية الدين، وسورة النصر، والآيات التي نزلت في غزوة تبوك ومن الشتائي آية الافك، والآيات التي في غزوة الخندق.

علم معرفة الفراشي والنومي

وأمر الموضوع والنفع كما مر. من أمثلة الفراشي: «والله يعصمك من الناس»، وآية: الثلاثة الذين خلفوا. وأما النومي، فسورة الكوثر، لما روى مسلم عن أنس (رضي الله عنه)، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، إذ أغفى اغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلت: ما أضحكك يا رسول الله، فقال: أنزل علي آنفاً سورة، فقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر. فصلِّ لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر.﴾[3] قال الإمام الرافعي في (أماليه): فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الاغفاءة، وقالوا: من الوحي ما كان يأتيه في النوم، لأن رؤيا الأنبياء وحي، قال: وهذا صحيح، لكن الأشبه أن يقال أن القرآن كله نزل في اليقظة، وكأنه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة في اليقظة، أو عرض عليه الكوثر الذي وردت فيه السورة، فقرأها عليهم وفسرها لهم. قال: وورد في بعض الروايات أنه أغمى عليه، وقد يحمل ذلك على الحالة التي تعتري عند نزول الوحي ويقال لها برحاء الوحي، انتهى. قال السيوطي: الذي قاله الرافعي في (غاية الاتجاه)، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه، والتأويل الأخير أصح من الأول، لأن قوله (صلى الله عليه وسلم): أنزل علي آنفاً يدفع نزولها قبل ذلك. قلت: وكذا يؤيده قول أنس: بين أظهرنا، إذ النوم لا يكون بين جمع كثير عادة سيما رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأيضاً قال: ثم رفع رأسه ولم يقل: ثم استيقظ،

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨١.

(٣) سورة الكوثر، الآيات: ١، ٢، ٣.

أو ثم قام من مضجعه، وما أشبه ذلك. وقوله: أنزل علي سورة فقرأ إلى آخرها، يدل على أنها لم تنزل قبل ذلك، ولو كان كذلك لقال سورة الكوثر، ولم يحتج إلى قراءة السورة بتمامها، فاندفع التوجيه الأول.

علم معرفة الأرضي والسماوي

أما الأرضي فظاهر، وأما السماوي فما نزل ليلة المعراج كالآيتين من آخر سورة البقرة. وأخرج مسلم عن ابن مسعود: «لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم، انتهى إلى سدرة المنتهى».. الحديث. وفيه «فأعطي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها ثلاثاً أعطي الصلوات الخمس وأعطي خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك من أمته بالله شيئاً المقحمات». وفي الكامل للهزلي: أنزلت ﴿آمن الرسول﴾ الى آخرها بقاب قوسين. قال ابن العربي: إن من القرآن سمائياً وأرضياً وما نزل بين السماء والأرض وما نزل تحت الأرض في الغار. أما الأرضي والسمائي فظاهران، وأما ما نزل بين السماء والأرض فلعله أراد في الفضاء بين السماء والأرض، كالتي نزلت ليلة المعراج. قال ابن العربي: وأما ما نزل تحت الأرض في الغار فسورة المرسلات كما في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

علم معرفة أول ما نزل

والأمر في أحواله ظاهر. وفي أول ما نزل أقوال. أحدها، وهو الصحيح: ﴿اقرأ باسم ربك﴾[1]، رواه الشيخان في صحيحهما والحاكم في (المستدرك) والبيهقي في (الدلائل) والطبراني في (الكبير). وثانيها: ﴿يا أيها المدثر﴾[2]، رواه الشيخان. والتوفيق أن أول سورة نزلت المدثر، فلا تنافي في أن يكون صدر سورة القلم أول ما نزل على الإطلاق، والمدثر أول بالنسبة إلى ما بعد فترة الوحي لا مطلقاً. أو يقال: أولية المدثر اجتهاد جابر لا روايته، وأولية اقرأ

(١) سورة العلق، آية: ١.

(٢) سورة المدثر، آية: ١.

رواية عائشة، فيقدم عليه. وثالثها: سورة الفاتحة، وإليه ذهب أكثر المفسرين، وقد رواه عمرو بن شرحبيل مرسلاً. وأجيب بأنه يحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعدما نزلت عليه اقرأ والمدثر، إذ حاصله أن النبي صلى الله عليه وسلم، ناداه جبريل، فقال: قل يا محمد، بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين.. حتى بلغ ولا الضالين، إذ يحتمل أن لا يكون هذا النداء أول نداء له، وأول قراءة قرأ عليه. ورابعها: بسم الله الرحمن الرحيم، روى ذلك عن عكرمة والحسن وعن إبن عباس. وأجيب بأن هذا لا يعد قولاً برأسه، فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها فهي أول آية نزلت على الإطلاق.

أما آخر سورة نزلت براءة. وآخر آية نزلت يستفتونك، وقيل آية الربا، وقيل آية الدين. والتوفيق بين الأخيرين أنها نزلتا دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، ولأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح. والمآل إلى تلقيب الآية بآية الربا تارة وآية الدين أخرى لاشتمالها على كل منها. وما ذكر من أن آخر ما نزلت يستفتونك مقيداً أي آخر ما نزلت في شأن الفرائض هذه. وقيل آخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾[1] إلى آخر السورة. رواه أبي بن كعب. وقيل آخر آية نزلت: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾[2] الآية. وأول هذه بأنه لم ينزل بعدها آية تنسخها بل هي محكمة. وأول البيهقي هذه الأقوال بأن كل واحد أجاب بما عنده. قلت: ولا ينفع هذا التأويل أصلاً. وقال القاضي أبو بكر في الانتصار: هذه الأقوال ليس فيها حديث مرفوع، وكل ما قاله بضرب من اجتهاده، وغلبة ظنه. ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وان لم يسمعه هو، ويحتمل أيضاً أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب.. انتهى من

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(الإتقان). وتنزل آيات فيؤمر برسم آخر ما نزل أولاً وأوله آخراً فيظن الآخر في الترتيب آخر ما نزل، وفي الأقوال كثرة.

علم معرفة سبب النزول

والنزول قسمان: ابتدائي؛ أو عقيب سؤال أو حادثة. صنَّف فيه علي بن المديني شيخ البخاري، وصنَّف فيه الواحدي، واختصره الجعبري، فحذف أسانيده ولم يزد فيه شيئاً. وألف فيه شيخ الإسلام ابن حجر، إلا أنه مات، فبقي في المسودة، وألف فيه السيوطي كتاباً حافلاً سمَّاه: (لباب النقول في أسباب النزول).

وفي هذا العلم فوائد: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم وتخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، وأن اللفظ قد يكون عاماً، ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته، والوقوف على المعنى، إذ ربما لا يمكن معرفة تفسير الآية بدون الوقوف على قصتها، وبيان سبب نزولها. مثلاً: قوله تعالى: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[1]، يقتضي عدم وجوب استقبال القبلة، وهو خلاف الإجماع، ولا يعلم ذلك إلا بأن نزولها في نافلة السفر، وفيمن صلى بالتحري. وكذا قوله تعالى: ﴿أن الصفا والمروة من شعائر الله﴾[2]. الآية، يقتضي عدم وجوب السعي بينهما، ولا يعلم ذلك إلا بما بينت عائشة رضي الله عنها بأن نزولها في أن الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية.

ومن فوائد معرفة سبب النزول دفع توهم الحصر، ومعرفة اسم النازل فيه الآية، وتعيين المبهم فيها. وإذا عرفت هذه الفوائد تعرف بطلان زعم من زعم، أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ.

اعلم أن المحققين من أهل الأصول على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

---

(١) سورة البقرة، آية: ١١٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٨.

السبب، حتى أنه كل من آية نزلت في أسباب، وهم عدوها إلى غير أسبابها، كتزول آية الظهار في مسلمة بن صخر، وآية اللعان في هلال بن أمية، وحد القذف في رماة عائشة رضي الله عنها. ولا عبرة بمن لا يعتبر عموم اللفظ. والتفصيل فيه في علم الأصول.

واعلم أن صورة السبب للنزول: قطعية الدخول في العام، ثم إذا نزلت آيات على أسباب خاصة، توضع معها ما يناسبها من الآى العامة، رعاية لنظم القرآن وحسن السياقة، فيكون ذلك الخاص قريباً من صورة السبب في كونه قطعي الدخول في العام، كما اختار السبكي أنه رتبة متوسطة دون السبب وفوق المجرد. -

فائدة: قال الواحدي: لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها. وقيل: قول الصحابي، نزلت الآية في كذا، يراد به تارة سبب النزول، و يراد به تارة أن ذلك داخل في الآية. و يشترط في سبب النزول، أن يكون نزولها أيام وقوع الحادثة، وإلا كان ذلك من باب الأخبار عن الوقائع الماضية كقصة الفيل، وقصة قوم نوح وأمثالها. ثم اختلفوا في قول الصحابي: نزلت الآية في كذا، هل هو في حكم المسند بناء على أنه لا طريق لمعرفته غير السماع، أم يكون من باب التفسير من الصحابي. وأيضاً إذا وقع من التابعي فهو مرفوع أيضاً، لكنه مرسل، و يقبل إذا صح السند إليه، وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك.

فائدة: كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة، وقد تقدم أن قولهم: نزلت في كذا يراد به التفسير، فلا منافاة بين التفسيرين إذا كان اللفظ يتناولها، وإلا فإن كان اسناد أحدهما صحيحاً فهو المعتمد، وإن قال واحد: نزلت في كذا، وصرح الآخر بأن سببه كذا وهما متحالفان. فالمصرح بالسببية هو المعتمد عليه، وما قيل نزلت فهو الاستنباط.

علم معرفة ما نزل على لسان بعض الصحابة

هو في الحقيقة من أسباب النزول. وقد أفرد بالتصنيف جماعة موافقات عمر. قال عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث؛ قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى، فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾[1]؛ وقلت: يا رسول الله، ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب؛ واجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة، فقلت لهن: عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت كذلك. وأمثال هذه كثيرة، يعرفها من تتبع كتب الأحاديث.

علم معرفة ما تكرر نزوله

قال الزركشي في البرهان: قد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه. والحكمة في هذا أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة يقتضي نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فيوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الآية بعينها تذكيراً لهم بها، وبأنها تتضمن هذه والأحرف السبعة للقرآن من قبيل تكرار النزول. وبهذا عرفت بطلان ما قيل: ليس في القرآن ما هومكرر النزول، إذ لا فائدة فيه لأنه تحصيل الحاصل.

علم معرفة ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه

مثال الأول قوله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾[2] فالسورة مكية.

وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حتى قال صلى الله عليه وسلم: «أحلت لي ساعة من نهار». وكذلك نزل بمكة: ﴿سيهزم الجمع و يولون الدبر﴾. قال

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(٢) سورة البلد، الآيات: ١، ٢.

عمر رضي الله عنه: فأي جمع. فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش، نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم مصلتا بالسيف يقول: «سيهزم الجمع و يولون الدبر»، فكانت ليوم بدر.

ومثال الثاني آية الوضوء، فالآية مدنية اجماعاً، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة. قيل: والحكمة فيه أن فرض أولاً ثم نزلت الآية ليكون فرضه متلواً أو كآية الجمعة فأنها مدنية والجمعة فرضت بمكة.

علم معرفة ما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً

مثال الأول في: ﴿إقرأ﴾، أول ما نزل إلى قوله تعالى: ﴿ما لم يعلم﴾، والضحى أول ما نزل منها إلى قوله تعالى: ﴿فترضى﴾.

مثال الثاني سورة الفاتحة والإخلاص والكوثر وتبت والمعوذتان نزلتا معاً والنصر، ولم يكن هذا كله في السور القصار وفي الطوال المرسلات وسورة الصف وسورة الأنعام.

علم معرفة ما نزل مشيعاً وما نزل مفرداً

وغالب القرآن نزل به جبريل مفرداً بلا تشييع. وأما المشيع فسورة الأنعام، شيعها سبعون ألف ملك. وفاتحة الكتاب نزلت ومعها ثمانون ألف ملك. وآية الكرسي نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك. وسورة يونس نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك وآية ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ نزلت ومعها عشرون ألف ملك، قيل وسورة الكهف أيضاً شيعها سبعون ألف ملك.

علم معرفة ما نزل على بعض الأنبياء

وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم

ومن الثاني فاتحة الكتاب وآية الكرسي وخاتمة البقرة. روى مسلم عن ابن عباس: «أتى النبي صلى الله عليه وسلم ملك، فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم

يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة. وفي بعض الأحاديث ذكر آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة.

ومن الأول ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾[1]. وعن أبي ميسرة أن أول سورة الجمعة مكتوب في التوراة. وعن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: بسم الله الرحمن الرحيم لم ينزل على نبي بعد سليمان غيري. وعن كعب: أول ما أنزل في التوراة عشر آيات من سورة الأنعام: ﴿قل تعالوا أتل عليكم ما حرم ربكم..﴾[2] إلى آخرها وعنه أيضاً: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام وخاتمتها خاتمة هود: ﴿فاعبده وتوكل عليه..﴾[3] إلى آخرها. وعنه: فتحت التوراة بأول الأنعام إلى قوله يعدلون، وختمت بالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً.. إلى قوله وكبره تكبيراً. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال إنه يعني النبي صلى الله عليه وسلم لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونبياً وحرزاً للأميين..» الحديث. وعن أبي إمامة قال: أنزل الله على إبراهيم كما أنزل على محمد: «التائبون العابدون..» إلى قوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾؛ و ﴿قد أفلح المؤمنون..﴾ إلى قوله ﴿فيها خالدون﴾ و ﴿إن المسلمين والمسلمات..﴾ الآية، والتي في «سأل سائل»، و ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون..﴾ إلى قوله تعالى ﴿قائمون﴾، فلم يف بهذه السهام إلا إبراهيم ومحمد صلى الله تعالى عليهما وسلم.

علم معرفة كيفية انزال القرآن

وفيها ثلاثة أقوال: الأول، وهو الأصح الأشهر: نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في ثلاث أو خمس وعشرين أو عشرين على حسب الإختلاف في مدة اقامته بمكة بعد البعثة.

الثاني: أنه نزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدراً أو ثلاث وعشرين أو

---

(١) سورة الأعلى، آية: ٨٧.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٣) سورة هود، آية: ١٢٣.

خمس وعشرين في كل ليلة ما يقدر الله انزاله في كل السنة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة، وهذا القول نقله مقاتل، وقال به الحليمي والماوردي، وذكره فخر الدين الرازي بقوله: ويحتمل، ثم توقف: هل هذا أولى أو الأول.

الثالث: أنه ابتدىء انزاله ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات، وها هنا قول رابع غير مشهور، وهو أنه نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة.

واعلم أن العلماء اختلفوا في معنى الانزال. منهم من قال: اظهار القراءة. ومنهم من قال: ألهم كلامه جبريل وعلمه قراءته ثم جبريل أداه في الأرض. ومنهم من قال: يتلقفه الملك من الله تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه. ومنهم من قال: الذين يقولون القرآن معنى قائم بذاته تعالى يقولون انزاله ايجاد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى وإثباته في اللوح، والذين يقولون إنه اللفظ فإنزاله مجرد اثباته في اللوح. ثم في المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اللفظ والمعنى؛ وثانيها: أن جبريل نزل بالمعاني خاصة وأنه صلى الله عليه وآله وسلم علمها عبر عنها بلغة العرب، وتمسك بظاهر قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾؛ وثالثها: أن جبريل ألقى عليه المعنى، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأن أهل السماء يقرأونه بالعربية، ثم نزل به كذلك بعد ذلك.

ومنهم من قال: كلام الله المنزل قسمان: قسم قال الله تعالى لجبريل عليه السلام: قل له كذا وكذا، فيجوز تعبيره بعبارة نفسه؛ وقسم قال له: اقرأ عليه كذا وكذا، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً، فالقرآن هو القسم الثاني؛ والقسم الأول هو السنة كما ورد أن جبريل نزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ولهذا لم يجز تغيير نظم القرآن وجاز تغيير لفظ السنة.

واعلم أن في التنزيل طريقين؛ أحدهما: انخلاع النبي صلى الله عليه وسلم من صورة البشرية إلى صورة الملكية، ثم أخذه من الملك؛ وثانيهما: تمثل الملك بصورة البشرية حتى يأخذه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم منه. والأول أصعب الحالين ثم كيفية سماعه على وجوه: تارة يسمعه كصلصلة الجرس، وهذه الحالة أشد الحالات عليه.

وعن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما من مرة يوحي اليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض. قيل: إنما ينزل كذا إذا أنزلت آية وعيد أو تهديد؛ وتارة ينفث في روعه الكلام نفثاً، كما قال: أن روح القدس نفث في روعي؛ وتارة يأتيه الرجل فيكلمه، كما قال: وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، وفي رواية: وهو أهونه علي؛ وتارة يأتيه الملك في النوم؛ وتارة يكلمه الله، إما في اليقظة، كما في ليلة الاسراء، أو في النوم، كما في حديث معاذ: «أتاني ربي فقال فيم يختصم الملأ الأعلى...» الحديث، وليس في القرآن من هذا النوع شيء فيما أعلم.

فائدة: عن سفيان الثوري قال: لم ينزل وحي إلا بالعربية ثم ترجم كل نبي لقومه.

علم معرفة أسمائه وأسماء سورة

قال الجاحظ: سمى الله كلامة أسماء مخالفاً كما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل: سمى جملته قرآناً، كما سموا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية.

واعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسماً: كتاباً مبيناً، وقرآناً، وكريماً، وكلاماً، ونوراً، وهدى، ورحمة، وفرقاناً، وشفاء، وموعظة، وذكراً، ومباركاً، وعلياً، وحكمة، وحكيماً، ومهيمناً، وحبلاً، وصراطاً مستقيماً، وقيماً، وقولاً، وفصلاً، ونبأ عظيماً، وأحسن الحديث، ومثاني، ومتشابهاً، وتنزيلاً، وروحاً، ووحياً، وعربياً، وبصائر، وبياناً، وعلماً، وحقاً، وهادياً، وعجباً، وتذكرة، والعروة الوثقى، وصدقاً، وعدلاً، وأمراً، ومنادياً، وبشرى،

ومجيداً، وزبوراً، وبشيراً، ونذيراً، وعزيزاً، وبلاغاً، وقصصاً، وسماه أربعة أسماء في آية واحدة: صحف، مكرمة، مرفوعة، مطهرة.. انتهى.

ثم أن السورة قد يكون لها اسم واحد، وهو كثير، وقد يكون لها اسمان فأكثر، لأن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى. من ذلك الفاتحة، ولها نيف وعشرون اسماً: فاتحة الكتاب، فاتحة القرآن، أم الكتاب، أم القرآن، القرآن العظيم، السبع المثاني، الوافية، الكنز، الكافية، الأساس، النور، سورة الحمد، وسورة الشكر، سورة الحمد الأولى، وسورة الحمد القصرى، الرقية، والشفاء، الشافعية، سورة الصلاة، والصلاة، وسورة الدعاء، وسورة السؤال، وسورة تعليم المسألة، وسورة المناجاة، وسورة التفويض.

علم معرفة جمعه وترتيبه

قال الحاكم في المستدرك: جمع القرآن ثلاث مرات؛

الأولى: بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم. قيل: وكانوا يكتبون في العسب واللخاف والرقاع وقطع الأديم، والأكتاف والأضلاع والأقتاب. وكان ذلك جمع الآيات المفرقة في سورها بإشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته، ألهم الخلفاء الراشدون ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة.

والثانية: بحضرة أبي بكر. روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت، قال: أرسل إليّ أبو بكر غداة مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر بقراءة القرآن، وأني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن وأني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: أنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن، فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان

أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن، أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره: ﴿لقد جاءكم رسول...﴾ حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر.

والثالثة: هو ترتيب السور في زمن عثمان رضي الله عنه. روى البخاري عن أنس عن حذيفة بن اليمان: قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية آذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة، أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارس بن هشام فنسخوها في المصاحف. قيل: وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القراءات في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال: ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها، فوجدنا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾[1] فألحقناها في سورتها بالمصحف. قال ابن حجر: وكان ذلك في سنة خمس وعشرين، فإن قلت: الآية إذا كانت مع واحد، فكيف تكون متواترة، قلت: الآية متواترة وتفصيلها (وقع عن) واحد، وعند ذكر ذلك الواحد تذكر الكل فتواترت. ثم أن المصاحف التي أرسلها عثمان إلى الآفاق خمسة على المشهور. وروى عن أبي حاتم السجستاني أنها سبعة: أرسل إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢٣.

واعلم أن الاجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توفيقي لا شبهة في ذلك. وقد نقل الاجماع الزركشي في البرهان وأبو جعفر بن الزبير في مناسياته. وأما النصوص فكثيرة يعرفها من تتبع كتبَ الأحاديث. وأيضاً ترتيب السور أيضاً توقيفي، وترتيبها على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. ذكره السيوطي في الاتقان.

علم معرفة عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه .

أما سوره فمائة وأربع عشرة بإجماع من يعتد به. وقيل: مائة وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة. وفي مصحف ابن مسعود مائة واثنتا عشرة سورة لأنه لم يكتب المعوذتين، وفي مصحف أبي ست عشرة لأنه كتب في آخره سورتي الحفر والخلع وهما هاتان: بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم أنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك. بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد. وإليك نسعى ونحقد. نرجو رحمتك. ونخشى عذابك. إن عذابك بالكافرين ملحق. وروى أن مصحف أبي مائة وست عشرة سورة، والصواب أنه خمس عشرة، فإن سورة الفيل وسورة لإيلاف قريش فيه سورة واحدة.

قيل: الحكمة في تسوير القرآن سوراً تحقيق كون السورة بمجردها معجزة، وآية من آيات الله، والإشارة إلى أن كلا منها نمط مستقل، وإنما اختلفت بالطوال والقصار تنبيهاً على أن الطول ليس من شرط الاعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وأنها معجزة أعجاز سورة البقرة. وأيضاً فيه سهولة التعليم وتدريج الأطفال من القصار إلى الطوال تيسيراً من الله على عباده لحفظ كتابه. وأيضاً ماله أجناس وأصناف أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً. وأيضاً حفظه شيئاً فشيئاً أنشط للقارىء، وأبعث على التحصيل. وأيضاً الحافظ إذا حذق السورة يعظم عنده ما حفظه.

قيل: ولم تكن الكتب السالفة كذلك لأنها لم تكن معجزات من جهة النظم والترتيب وأنها لم تيسر للحفظ، إلا أن المروي عن قتادة أن الزبور مائة

وخمسون سورة كلها مواعظ، وذكروا أن في الإنجيل سورة تسمى سورة الأشبال.

وأما عدد الآى فعن إبن عباس أنها ستة آلاف آية وستمائة آية وست عشرة آية. وجميع حروفه ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألف حرف وستمائة حرف وواحد وسبعون حرفاً. قال الداني: أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية، واختلفوا فيما زاد على ذلك؛ فمنهم من لم يزد، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات. وقيل: وأربع عشرة، وقيل: وتسع عشرة، وقيل: وخمس وعشرون، وقيل: وست وعشرون.

فائدة:

الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديراً، ذو مبدأ ومقطع مُندرج في سورة. وقيل: طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها. والاتفاق على أنها توقيفية لا مجال للقياس فيه؛ ولهذا عد «الم» و«المص» آية، ولم يعد «المر» و«الر» آية. ثم أن القوم ذكروا عدد آيات كل سورة على حدة، وذلك خارج عن طوقنا.

قال الهذلي في كامله: أعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفراني: العدد ليس بعلم، وإنما اشتغل به بعضهم ليروج به سوقه. قال: وليس كذلك، ففيه من الفوائد: معرفة الوقف، ولأن الاجماع انعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية، وقال جمع من العلماء: تجزي بآية، وآخرون بثلاث آيات، والآخرون: لا بد من سبع، والاعجاز لا يقع بدون آية، فللعدد فائدة عظيمة في ذلك.. انتهى.

وأما كلمات القرآن سبعة وسبعون ألف كلمة وتسعمائة وأربع وثلاثون كلمة وقيل: وأربعمائة وسبع وثلاثون، وقيل: ومائتان وسبع وسبعون، وقيل غير ذلك. وسبب الاختلاف أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم، واعتبار كل منها جائز، وكل من العلماء اعتبر أحد الجوائز.. قال السخاوي: لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة لأن ذلك إن أفاد، فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان، والقرآن لا يمكن فيه ذلك. ثم أن بعضاً من القراء

جعل للقرآن العظيم اتصافاً باعتبارات؛ فنصفه بالحروف «النون» من نكرا في الكهف، «والكاف» من النصف الثاني؛ ونصفه بالكلمات الدال من قوله تعالى: والجلود، في الحج، وقوله ولهم مقامع من النصف الثاني؛ ونصفه بالآيات يأفكون من سورة الشعراء، وقوله: فألقى السحرة، من النصف الثاني؛ ونصفه على عدد السور آخر الحديد والمجادلة من النصف الثاني وهو عشرة بالأحزاب، وقيل: إن النصف بالحروف «الكاف» من نكرا، وقيل «الفاء» من قوله وليتلطف.

علم معرفة حفاظه ورواته

واعلم أنك قد عرفت أئمة القراء فيما سبق بحيث لا تحتاج إلى المزيد عليه فارجع إليه.

علم معرفة العالي والنازل من أسانيده

اعلم أن طلب الاسناد سنة، فإنه قرب إلى الله تعالى؛ وهذا خمسة أقسام.. أفضلها وأعلاها القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلاه في هذا الزمان (ستة) عشر رجلاً من قراءة ابن عامر من رواية ذكوان، ثم سبعة عشر من قراءة عاصم من رواية حفص وقراءة يعقوب من رواية ورش ثم القرب إلى إمام من أئمة القراءة. وأعلاه في هذا الزمان إلى نافع أربعة عشر وإلى ابن عامر أربعة عشر؛ ثم العلو بالنسبة إلى الكتب المشهورة كالتيسير والشاطبية، وهذا بمنزلة علو المحدثين بالنسبة إلى رواية الكتب الستة. ويقع في هذا النوع الموافقات والابدال والمساواة والمصافحات. وهذه الأقسام كما تعتبر في القراءة تعتبر في الحديث أيضاً من غير فرق. فالموافقة: أن يجتمع طريقه مع أحد أصحاب الكتب في شيخه؛ وقد يكون مع علو على ما رواه من طريقه، وقد لا يكون. والبدل: أن يجتمع معه في شيخ شيخه فصاعداً، وقد يكون أيضاً بعلو وقد لا يكون. والمساواة: أن يكون بين الراوي والنبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابي أو من دونه إلى شيخ أحد أصحاب الكتب كما بين أصحاب الكتب والنبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابي أو من دونه على ما ذكر من العدد.

والمصافحة: أن يكون أكثر عدداً منه بواحدة فكأنه لقي صاحب ذلك الكتاب وصافحه. ومن أقسام العلو تقدم وفاة الشيخ عن قرينه الذي أخذ عن شيخ ذلك الشيخ. ومن أقسامه أيضاً، العلو بموت الشيخ، لا مع التفات إلى أمر آخر أو شيخ آخر متى يكون. قال بعضهم: يوصف الاسناد بالعلو، إذا مضى عليه من موت الشيخ خمسون سنة، وقال ابن منده ثلاثون سنة.

واعلم أن هذه الأقسام الخمسة للعلو مما اعتبره المحدثون في السند أولاً، لكن يمكن اعتباره في سند القراء أيضاً من غير فرق. وإذا عرفت العلو بأقسامه عرفت النزول فإنه ضده، وحيث ذم النزول، فهو ما لم ينجبر بكون رجاله أعلم أو أحفظ أو أتقن أو أجل أو أشهر أو أورع، أما إذا كان كذلك فليس بمذموم ولا مفضول.

علم معرفة المتواتر والمشهور والآحاد والشاذ والموضوع والمدرج

قال القاضي جلال الدين البلقيني: القراءة تنقسم إلى متواتر وآحاد وشاذ. فالمتواتر: السبعة المشهورة. والآحاد: الثلاثة التي هي تمام العشرة و يلحق بها قراءات الصحابة. والشاذ: قراءات التابعين كالأعمش ويحيى بن وثاب، وابن جبير، ونحوهم. واعلم أن هذا كلام ظاهري، والتحقيق فيه ما ذكره أبو الخير ابن الجزري في (كتاب النشر): كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت إحدى المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل انكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف. صرح بذلك الداني ومكي والمهدوي وأبو شامة.

قال أبو شامة في (المرشد الوجيز): لا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى أحد السبعة و يطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنزلت هكذا إلا إذا دخلت في ذلك

الضابط، بل أن نقل عن غيرهم، فذلك لا يخرجها عن الصحة، فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم. ثم قال ابن الجزري: فقولنا في الضابط ولو بوجه يزيد به وجهاً من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحاً مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالاسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم. والركن الأقوم، وكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم، ولم يعتبر انكارهم كاسكان: بارئكم و يأمركم، وخفض: والأرحام، ونصب: ليجزي قوماً، والفصل بين المضافين في: قتل أولادهم شركائهم، وغير ذلك. قال الداني: وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الافشاء في اللغة وإلا قيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، وإذا ثبتت الرواية، لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها. ثم قال ابن الجزري: ونعني بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتاً في بعضها دون بعض كقراءة ابن عامر: «قالوا اتخذ الله» في البقرة بغير واو، وبالزبر وبالكتاب باثبات الياء فيهما فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير: «تجري من تحتها الأنهار» في آخر براءة بزيادة من، فإنه ثابت في المصحف المكي، ونحو ذلك. فإن لم يكن في شيء من المصاحف العثمانية فشاذة لمخالفتها الرسم المجمع عليه. وقولنا ولو احتمالاً نعني به ما وافقه ولو تقديراً كملك يوم الدين، فإنه كتب في الجميع بلا ألف، فقراءة الحذف توافقه تحقيقاً، وقراءة الألف توافقه تقديراً لحذفها في الخط اختصاراً. ومن هذا القبيل: الصراط، أصله بالسين فالصاد توافقه تحقيقاً والسين تقديراً، حتى لو كتب بالسين لم يجز قراءة الصاد لعدم توافقه حينئذ أصلاً. ثم قال: وقولنا وصح سندها نعني به أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله، وهكذا حتى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ بها بعضهم. قال: وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن ولم يكتف بصحة السند، وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر. قال: وهذا مما لا يخفى ما فيه، فإن التواتر إذا ثبت

لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من الرسم وغيره إذا ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجب قبوله، وقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أم لا.

إذا عرفت هذا فقد تحرر لك منه أنواع القراءات

الأول؛ المتواتر: وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب من مثلهم إلى منتهاه، وغالب القراءات كذلك.

الثاني؛ المشهور: وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم، واشتهر عند القراء.

الثالث الآحاد: وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، ولا يقرأ به.

الرابع الشاذ: وهو ما لم يصح سنده، من ذلك قراءة ﴿مالك يوم الدين﴾[1] بصيغة الماضي، ونصب يوم.

الخامس الموضوع: كقراءات الخزاعي.

السادس المدرج: وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص: «له أخت» أو أخت من أم، وقراءة ابن عباس ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾[2] في مواسم الحج، وقراءة ابن الزبير: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[3] ويستعينون بالله على ما أصابهم، وجزم ابن الأنباري بأنه تفسير.

قال ابن الجزري في آخر كلامه: وربما كانوا يدخلون التفسير في القراءة أيضاحاً وبياناً لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قرآناً، فهم

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه، وأما من يقول: إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب، انتهى.

علم معرفة بيان الموصول لفظاً المفصول معنى

وهذا العلم أصل كبير عظيم النفع جداً وبه يحصل حل كثير من الإشكالات. من ذلك؛ قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ إلى قوله ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾[1]، فإن الآية في قصة آدم وحواء كما يفهم من السياق، لكن آخر الآية مشكل حيث نسب الاشراك إليهما، مع أن الاجماع منعقد على أن الأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوة وبعدها، فظهر منه أن آخر الآية مفصول عن قصة آدم وحواء. وعن السدي: هذه مفصولة من آية آدم خاصة في آلهة العرب وعن السدي عن أبي مالك، قال: هذه مفصولة؛ أطاعاه في الولد، ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ هذه لقوم محمد، فظهر منه أن الآية من الموصول المفصول، ويوضح ذلك تغيير الضمير بعد التثنية، ولو كانت القصة واحدة لقال «عما يشركان»، وحسن التخلص والاستطراد من أساليب القرآن. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون﴾[2] الآية، فإنه على تقدير الوصل يكون الراسخون يعلمون تأويله، مع أن الآية دلت على ذم متبع المتشابه ووصفهم بالزيغ، فظهر أن ذلك مفصول.

علم معرفة الامالة والفتح وما بينهما وكذا
علم معرفة الأدغام والإظهار والاخفاء والأقلاب

كل هذه مفصلة في علم القراءة فليعلم من كتبها.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٨٩، ١٩٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٧.

علم معرفة المد والقصر

علم معرفة تحقيق الهمزة

وقد أفرد جماعة بالتصنيف في هذه العلوم الثلاثة.

علم معرفة كيفية تحمل القرآن

اعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة لئلا ينقطع عدد التواتر فيه فلا يتطرق إليه التبديل والتحريف. وتعليمه أيضاً فرض كفاية وهو من أفضل القرب؛ ففي الصحيح: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وأوجه التحمل عند أهل الحديث السماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه والسماع عليه بقراءة غيره، والمناولة والاجازة والمكاتبة والوصية والأعلام والوجادة. وأما عند القراءة فلا يتأتى غير الأولين.

أما القراءة على الشيخ، فهي المستعملة سلفاً وخلفاً. وأما السماع من لفظ الشيخ فيحتمل أن يقال به ها هنا، لأن الصحابة انما أخذوا القرآن من فيّ النبي صلى الله عليه وسلم، لكن لم يأخذ به أحد من القراء لأحتياجهم على التمرن في الأداء، وعدم احتياج الصحابة إلى ذلك لنزول القرآن بلغتهم وقدرتهم على الأداء لفصاحتهم.

وأما الحديث، فلما كان المقصود منه المعنى أو اللفظ لا الهيئات اكتفوا فيها بالسماع سلفاً وخلفاً، ومما يدل على فضيلة القراءة على الشيخ عرض النبي صلى الله عليه وسلم القرآن على جبريل في رمضان كل عام.

يحكى أن الشيخ شمس الدين الجزري لما قدم القاهرة وازدحم عليه الخلق، لم يتسع وقته لقراءة الجميع، فكان يقرأ عليهم الآية ثم يعيدونها عليه دفعة واحدة، فلم يكتف بقراءته. ويجوز القراءة على الشيخ عند قراءة غيره عليه، إذا كان بحيث لا يخفى عليه حالهم، كما كان الشيخ علم الدين السخاوي يقرأ عليه اثنان وثلاثة في أماكن مختلفة، وهو يرد على كل منهم. وكذا لو كان الشيخ مشتغلاً بشغل آخر كنسخ ومطالعة. وأما القراءة من

الحفظ، فالظاهر أنها ليست بشرط، بل يكفي ولو من المصحف. ثم أن قدر ما يقرأ حال الأخذ، عشر آيات لكائن من كان، وعليه الصدر الأول، وأما من بعدهم فبقدر قوة الآخذ، وعند ابن الجزري الأخذ في الأفراد بجزء من أجزاء مائة وعشرين، وفي الجمع من أجزاء مائتين وأربعين، ولم يحد له آخرون حداً وهو اختيار السخاوي.

قيل: لا يجوز رواية الحديث بدون الإجازة. وأما القرآن، ففيه وجهان: في وجه لا يجوز لأن الاحتياط فيه أكثر؛ وفي وجه يجوز، وهو الظاهر، إذ القرآن محفوظ متلقى متداول ميسر ولا كذلك الحديث. وأما اقراء العلوم وافادتها، وكذا الافتاء، فلا يشترط الإجازة بل الأهلية لها فقط، وعلى ذلك السلف الصالح والصدر الأول، وإنما اصطلح الناس على الإجازة ليعرف المبتدي أهلية الشيخ، فجعلت الاجازة كالشهادة من الشيخ المجاز بالأهلية. ومما وجب معرفته هاهنا، أن أخذ المال في مقابلة الاجازة لا يجوز، وأما أخذه من المال حرام، بل أن علم أهليته، تجب الاجازة، وأن علم خلافها تحرم، وأما أخذ الأجرة على التعليم فجائز؛ وفي البخاري: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله». وقيل إن تعين عليه لم يجز، وقيل لا يجوز مطلقاً، وهو مذهب أبي حنيفة، إلا أن المتأخرين من أصحابه قالوا: لا بأس في أخذ الأجرة على تعليم القرآن وللتدريس، لظهور التواني والتكاسل في هذا الزمان، ولو منع ذلك لأنسد هذا الباب.

علم معرفة آداب تلاوته وتاليه

أفرده بالتصنيف جماعة، منهم النووي في (التبيان)، وتلك نيف وثلاثون أدباً.

منها: أنه يستحب الاكثار من القراءة والتلاوة والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى.

ومنها: أن نسيان القرآن بعد حفظه كبيرة، وقد ورد في ذلك حديث، وهو:

«عرضت عليَّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها».

ومنها: يستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار فيحرم على الجنب والحائض ويكره على متنجس الفم، وقيل يحرم. نعم يجوز للجنب والحائض النظر في المصحف وامراره على القلب.

ومنها: أنه تسن القراءة في مكان نظيف وأفضله المسجد، وكرهه قوم في الحمام والطريق، وقال النووي لا يكره فيها.

ومنها: أن يستحب أن يجلس مستقبلاً القبلة متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسه.

ومنها: ويسن أن يستاك تعظيماً وتطهيراً.

ومنها: أن يسن التعوذ قبل القراءة؛ قال تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾[1] أي إذا أردت قراءته، وصفتها المختارة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ومنها: أن لا يترك البسملة في أول كل سورة سوى براءة لأن الأكثر على أنها آية.

ومنها: أنه لا يحتاج إلى النية كسائر الأذكار إلا إذا نذرها خارج الصلاة، فلا بد من نية النذر أو الفرض.

ومنها: أنه يسن الترتيل في قراءته؛ قال تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾[2]، وفرق بينه وبين التحقيق، وهو أن التحقيق يكون للرياضة والتعليم والتمرين وهو اعطاء كل حرف حقه من اشباع المد واتمام الحركات، وغير ذلك. والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط وكل تحقيق ترتيل من غير عكس كلي.

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٨.

(٢) سورة المزمل، آية: ٤.

ومنها: أنه تسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب.

ومنها: لا بأس بتكرير الآية وترديدها.

ومنها: أنه يستحب البكاء عند قراءة القرآن والتباكي لمن لا يقدر عليه والحزن والخشوع.

ومنها: أنه يسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها.

ومنها: أنه يستحب قراءته بالتفخيم أي يقرأه على قراءة الرجال ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء.

ومنها: أنه قد يجهر وقد يسر لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيستريح بالأسرار، إذ قد وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصوت وأحاديث تقتضي الأسرار وخفض الصوت. قلت: ولعل التوفيق بينهما أن نهى الجهر لمن أفرط حتى كاد يكل منه، ونهى الأسرار لمن أفرط حتى لم ينشط للقراءة، فالمسنون حينئذ، رعاية النشاط، ودفع الكلال.

ويختلف قدره باختلاف الطبائع، ولهذا لم ينه الجهر أو الاسرار على الاطلاق. وهذا التوفيق لم أسبق إليه ولله الحمد والمنة.

ومنها: أن القراءة في المصحف أفضل من القراءة من حفظه، لأن النظر فيه عبادة مطلوبة.

قيل: لو روعي حال الخشوع سواء كان في القراءة من الحفظ أو من المصحف لكان قولاً حسناً لاختلاف الحال هناك، وهذا مختار النووي. وحكى النووي قولاً آخر؛ وهو ترجيح القراءة من الحفظ مطلقاً، ونسبه إلى ابن عبد السلام، وعلله بأن فيه من التدبر ما لا يحصل في المصحف. قلت: وهذا يختلف باختلاف الطبائع وباختلاف الأحوال لا مطلقاً.

ومنها: إذا ارتج على القارىء، وأراد أن يسأل غيره، ينبغي أن يقرأ ما قبل الآية ويسكت، ولا يقول كيف كذا وكذا، إذ ربما يلبس عليه، وهكذا. ورد

الأثر عن ابن مسعود والنخعي و بشير بن أبي مسعود، قال ابن مجاهد: إذا شك في التذكير والتأنيث، كما في الياء والتاء فليقرأ على التذكير، وإذا شك أن الكلمة مهموزة أم لا فليترك الهمزة، وإن شك أن الحرف موصول أو مفصول فليقرأ بالوصل، وان شك في المد والقصر فليقرأ بالقصر، وان شك في فتح حرف وكسره فليقرأ بالفتح لأن الأول غير لحن في موضع والثاني لحن في بعض المواضع.

ومنها: أنه يكره قطع القراءة لمكالمة أحد، لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره، و يكره أيضاً الضحك والعبث والنظر إلى ما يلهي.

ومنها: أنه لا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقاً، سواء أحسن العربية أم لا، في الصلاة أم خارجها، لأن ذلك يذهب اعجازه. وما روى عن أبي حنيفة من تجويزه فقد حكى عنه الرجوع عن ذلك.

ومنها: أنه لا تجوز القراءة بالشاذ، وقد جوز في غير الصلاة، وقد نقل الاجماع على عدم الجواز.

ومنها: أن الأولى القراءة على ترتيب المصحف لأنه يفوت ما في ترتيبه من الحكمة المرعية. قال ابن مسعود فيمن يقرأ القرآن منكوساً أنه منكوس القلب. وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فتفق على منعه. وأما من ينتقل من آية إلى آية وترك التأليف لآى القرآن؛ قال أبو عبيد: فإنما يفعله من لا علم له، لأن الله لو شاء لأنزله على ذلك. وقد نقل القاضي أبو بكر الاجماع على عدم جواز قراءة آية آية من كل سورة، لأن هذا التأليف مأخوذ من النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذه عن جبريل، فالأولى بالقارىء أن يقرأ على التأليف المنقول.

وقد قال ابن سيرين: تأليف الله خير من تأليفكم. قلت: وقد ظهر لك بهذا كراهة ما شاع بين طلبة زماننا، من أخذ بعض آيات من سورة الانعام و يزعمون أن الخواص الموجودة في السورة في هذه الآيات بخصوصها، وأنت تعرف أن هذا المسكين كيف اجترأ على هذا الافتتات، وخص الخواص ببعض

الآيات، وأخلى بعضها عنها. نعوذ بالله من ترك الأدب سيا مع الرب تعالى.

ومنها: أنه تسن القراءة على حرف واحد، ولا يخلط حرفاً آخر في مجلس واحد، وقيل ما دام الكلام مرتبطاً. وقد يمنع مطلقاً. والصواب أن الجمع ان لم يجز في العربية حرم، كمن يقرأ «فتلق آدم من ربه كلمات» برفع آدم على قراءة غير ابن كثير، ورفع كلمات على روايته. وما لم يكن كذلك، فإن كان رواية حرم أيضاً لأنه خلط الرواية، وأنه كذب وإن كان على سبيل التلاوة جاز.

ومنها: أنه يسن الاستماع وترك اللغط والحديث بحضور القراءة.

ومنها: أنه يسن السجود عند قراءة آية السجدة.

ومنها: أنه يختار الأوقات المحمودة والأيام الشريفة، وأفضل الأوقات ما كان في الصلاة، ثم الليل، ثم نصفه الأخير، وما بين المغرب والعشاء محبوبة. وأفضل أوقات النهار بعد الصبح. ولا تكره في شيء من الأوقات لمعنى فيه، وما يقال من كراهة القراءة بعد العصر لأنها دراسة اليهود فلا أصل له. ويختار من الأيام يوم عرفة، ثم الجمعة، ثم الاثنين والخميس. ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان، والأول من ذي الحجة. ومن الشهور شهر رمضان. ويختار لابتدائه ليلة الجمعة، ويختمه ليلة الخميس.

والأفضل الختم أول النهار أو أول الليل. وعن ابن المبارك: يستحب في الشتاء أول الليل وفي الصيف أول النهار.

ومنها: أنه يسن صوم يوم الختم.

ومنها: أنه يستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن.

ومنها: أنه يسن الدعاء عقيب الختم.

ومنها: أنه يسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقيب الختم.

ومنها: أنه روى عن الإمام أحمد المنع من تكرير سورة الاخلاص عند الختم، لكن عمل الناس على خلافه. والحكمة فيه ما ورد أنها تعدل ثلث القرآن

فيحصل بذلك ختمة. فإن قيل: فكان ينبغي أن يقرأ أربعاً ليصل ختمتين، قلت: المقصود اليقين بوقوع ختمة واحدة، وحاصله جبر ما وقع من الخلل في القراءة، وليحصل ثواب مضاعف.

ومنها: أنه يكره اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها.

ومنها: يكره أن يقول: نسيت آية كذا، بل يقول: أنسيتها.

ومنها: الأئمة الثلاثة على وصول ثواب القراءة للميت، والشافعي يخالفهم، لقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[1].

علم معرفة جواز الاقتباس وما جرى مجراه

إعلم أن الاقتباس: تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن لا على أنه منه، والقيد الأخير لاخراج أن يقال فيه قال الله تعالى أو نحوه، لأنه ليس باقتباس.

وقد اشتهر عن المالكية تحريمه، وتشديد النكير على فاعله. إلا أن استعمال القاضي عياض الإقتباس في مواضع من خطبة الشفاء يدل على جوازه، وقد يخص انكارهم بالنظم دون النثر، صرح بذلك القاضي أبو بكر من المالكية. وأما قدماء الشافعية فلم يتعرضوا له، وكذا أكثر متأخريهم، مع شيوع الاقتباس في أعصارهم، واستعمال الشعراء له قديماً وحديثاً، إلا أن جماعة من متأخريهم تعرضوا له، فسئل عنه الشيخ عز الدين بن عبد السلام فأجازه واستدل بما ورد عنه عليه الصلاة والسلام من قوله في الصلاة وغيرها: «وجهت وجهي..» إلى آخره، وقوله: «اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا اقض عني الدين واغنني من الفقر». وفي سياق كلام لأبي بكر: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[2]. وفي آخر حديث لأ بن عمر: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[3]. انتهى. إلا أن هذا يدل على

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٩.

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

جوازه في النثر دون الشعر، وفي مقام المواعظ والثناء والدعاء دون غيرها. قال شرف الدين بن المقري في: (شرح البديعية): فما كان في الخطب والمواعظ، ومدحه صلى الله عليه وسلم، وبالجملة كلام يرجى له المثوبة عند الله تعالى، فمقبول ولو في النظم وغيره مردود. وفي: (شرح البديعية) لابن حجة: الاقتباس ثلاثة أقسام: مقبول، ومباح، ومردود. فالأول: ما كان في الخطب والمواعظ والعهود؛ والثاني: ما كان في الغزل والرسائل في القصص؛ والثالث على ضربين؛ أحدهما: ما نسبه الله إلى نفسه، وينقله القائل إلى نفسه، فنعوذ بالله منه، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية عماله: إن الينا ايابهم ثم إن علينا حسابهم. والآخر: تضمين آية كلاماً فيه معنى هزل، ونعوذ بالله من ذلك؛ كقول الشاعر:

أوحى إلى عشاقه طرفه ... هيهات هيهات لما توعدون
وردفه ينطق من خلفه ... لمثل هذا فليعمل العاملون

قال جلال الدين السيوطي: وهذا التقسيم حسن جداً، وبه أقول. وذكر الشيخ تاج الدين السبكي في طبقاته، في ترجمة الامام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، من كبار الشافعية وأجلائهم، أن من شعره قوله:

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترف ... ثم انتهى ثم أرعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته ... إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وقال: هذا الأستاذ من أئمة الدين، واستعماله مثل هذا الاقتباس في شعره دليل على جوازه، ولا عبرة بنهي الناس عنه. قال السيوطي: ما ذكره الأستاذ تضمين لا اقتباس لتصريحه بقول الله، وأما أخوه الشيخ بهاء الدين السبكي، فقد قال في: (عروس الأفراح): الورع اجتناب ذلك كله، وان تنزه عن مثله كلام الله ورسوله. قال السيوطي: رأيت استعمال الاقتباس لأئمة أجلاء منهم أبو القاسم الرافعي، فقال، وأنشده في (أماليه)، ورواه عنه أئمة كبار:

الملك لله الذي عنت الوجو ... ه له وذلت عنده الأرباب
متفرد بالملك والسلطان قد ... خسر الذين تجاذبوه وخابوا

دعهم وزعم الملك يوم غرورهم فسيعلمون غداً من الكذاب

وروى البيهقي في: (شعب الإيمان)، عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي، قال:

أنشدنا محمد بن محمد بن يزيد لنفسه:

سل الله من فضله واتقه فإن التقى خير ما يكتسب
ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب

ويقرب من الاقتباس شيئان؛ أحدهما: أن يقرأ القرآن ويراد به الكلام. قال النووي: فيه خلاف. روى عن النخعي الكراهة. ويفهم الجواز مما روى عن حكيم بن سعد، أن رجلاً من المحكمة، أتى علياً وهو في صلاة الصبح، فقال: «لئن أشركت ليحبطن عملك»، فأجابه في الصلاة: «فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون» انتهى. وقال غيره: يكره ضرب الأمثال من القرآن، صرح به من أصحابنا العماد التيمي تلميذ البغوي، كما نقله ابن الصلاح في فوائد رحلته.

وثانيها: التوجيه بالألفاظ القرآنية في الشعر وغيره، وهو جائز بلا شك. وروينا عن الشريف تقي الدين الحسيني أنه لما نظم:

مجاز حقيقتها فاعبروا ولا تعمروا هونوها تهن
وما حسن بيت له زخرف تراه إذا زلزلت لم يكن

خشي أن يكون قد ارتكب حراماً لاستعماله هذه الألفاظ القرآنية في الشعر، فجاء إلى شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد يسأله عن ذلك فأنشده إياهما، فقال له: قل وما حسن كهف، فقال: يا سيدي، أفدتني وأفتيتني.

علم معرفة غريب القرآن

إعلم أن معرفة هذا الفن للمفسر ضروري، ويحتاج الكاشف عن ذلك إلى معرفة علم اللغة أسماء وأفعالاً وحروفاً. فالحروف لقلتها، تكلم النحاة في

معانيها، فيؤخذ ذلك من كتبهم. وأما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب اللغة؛ وأكبرها: (كتاب ابن السيدة)، ومنها: (التهذيب) للأزهري.

و (المحكم) لأ بن سيدة؛

و (الجامع) للفراء؛

و (الصحاح) للجوهري؛

و (البارع) للفارابي؛

و (مجمع البحرين) للصاغاني.

ومن الموضوعات في الأفعال: (كتاب ابن القوفية)، وابن الظريف، وللسرقسطي؛

ومن أجمعها (كتاب ابن القطاع). قال السيوطي: وأولى ما يرجع إليه في ذلك، ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه في تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة، وقد ذكر ما نقل عنه جلال الدين السيوطي في كتاب (الاتقان).

وممن أفرد هذا العلم بالتصنيف: أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد والعزيزي، وهذا أشهرها. قيل: قد أقام العزيزي في تأليف غريب القرآن خمس عشرة سنة يحرره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري. ومن أحسنها: (مفردات الراغب). ولأبي حيان في ذلك (مختصر) مقدار كراستين.

قال ابن الصلاح: وحيث رأيت في كتب التفسير: قال أهل المعاني، فالمراد به مصنفو الكتب في معاني القرآن كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنباري وكتاب (بصائر النظائر) واف في هذا العلم.

علم معرفة ما وقع فيه بغير لغة الحجاز

وقد أفردوه بالتصنيف. ذكره السيوطي في (الاتقان). قال أبو بكر الواسطي في كتابه (الارشاد) في القراءات العشر: في القرآن من اللغات خمسون لغة: لغة قريش، وهذيل، وكنانة، وخثعم، والخزرج، وأشعر، ونمير،

وقيس عيلان، وجرهم، واليمن، وأزد شنوءة، وكندة، وتميم، وحمير، ومدين، ولخم، وسعد العشيرة، وحضرموت، وسدوس، والعمالقة، وأنمار، وغسان، ومذحج، وخزاعة، وغطفان، وسبأ، وعمان، وبني حنيفة، وتغلب، وطيء، وعامر بن صعصعة، وأوس، ومزينة، وثقيف، وجذام، وبلي، وعذرة، وهوازن، والنمر، واليمامة. ومن غير العربية: الفرس، والروم، والقبط، والحبشة، والبربر، والسريانية، والعبرانية.

قيل: ليس في القرآن حرف غريب من لغة قريش إلا ثلاثة، لأن كلام قريش سهل لين واضح والغريب خلافه، وهي فسينغضون؛ وهو تحريك الرأس، مقيتاً مقتدراً، فشردبهم، سمع.

علم معرفة ما وقع فيه من غير لغة العرب

أفرده بالتصنيف السيوطي، وسماه (المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب). واعلم أن الشافعي وابن جرير وأبا عبيدة والقاضي أبا بكر وابن فارس قالوا بعدم وقوعه في القرآن مستدلين بقوله تعالى ﴿قرآنا عربياً﴾، ونظائره. وشدد الشافعي النكير على القائل بذلك. قال أبو عبيدة: من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول.

وقال ابن فارس: لو كان كذلك لربما توهم متوهم أن العرب إنما عجزت عنه لمكان لغات لا يعرفونها. وقال ابن جرير: ما وقع عن إبن عباس من تفسير ألفاظ غير عربية إنما هو من توافق اللغات، بل العرب العاربة قد اختلطت بسائر الألسنة في أسفارهم فعلقت من لغاتهم ألفاظاً حتى جرت مجرى الفصيح، واستعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم، ولهذا نزل بها القرآن.

وقال آخرون: كل هذه عربية صرفة، ولغة العرب متسعة جدالا يبعد أن لا يخفى على الأكابر الجلة، حتى نقل عن الشافعي أنه قال: لا يحيط باللغة إلا نبي، وذهب آخرون إلى وقوعه فيه، وقالوا: الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تنافي كونه قرآناً عربياً، واستدل بمنع صرف ابراهيم للعجمة والعلمية، ورد بأن الكلام في غير الأعلام. والحكمة في وقوعه، أن القرآن حوى علوم الأولين

والآخرين ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن، إلا أنه أختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب. قيل: لما وجب ذكر ثياب الجنة مثلاً، وكان ذكر المفرد أحسن، ذكر الاستبرق، إذ ثياب الحرير ليس في العرب، فليس له اسم مفرد في العرب، وعلى هذا القياس غيره.

وقد نظم القاضي تاج الدين السبكي منها سبعة وعشرين لفظاً في أبيات، وذيل الحافظ ابن حجر عليه، وذيل الحافظ جلال الدين السيوطي عليهما بالباقي، وهو بضع وستون فتمت أكثر من مائة لفظة، فقال السبكي:

السلسبيل وطه كورت بيع … روم وطوبى وسجيل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سرادق مع … استبرق صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغارق … ثم دينار القسطاس مشهور
كذاك قسورة واليم ناشئة … و يؤت كفلين مذكور ومسطور
له مقاليد فردوس يعد كذا … فيما حكى ابن دريد منه تنور

وقال ابن حجر:

وزدت حزم ومهل والسجل كذا … السري والأب ثم الجبت مذكور
وقطنا وأناه ثم متكئاً … وأرست يصهر منه فهو مهصور
وهيت والسكر الأواه مع حصب … وأدبي معه والطاغوت مسطور
صرهن أصرى وغيض الماء مع وزر … ثم الرقيم مناص والسنا النور

وقال السيوطي:

وزدت ياسين والرحمن مع ملكو … ت ثم سينين شطر البيت مشهور
ثم الصراط ودري يحور ومر … جان اليم مع القنطار مذكور
وراعنا طفقاً هدنا ابلعي ووراء … والأرائك والأكواب مأثور
هود وقسط وكفر رمزه سقر … هون يصدون والمنساة مسطور
شهر مجوس وأتقال يهود حوا … ريون كنز وسجين وتبتير
بعير آزر حوب وردة عرم … آل ومن تحتها عبدت والصور

وليـنـة فـومـهـا رهـو وأخـلـد مز	جـاة وسـيـدهـا الـقـيـوم مـوفـور
وقـل ثم أسـفـار عني كـتـبـاً	وسـجـداً ثم ربـيـون تـكـثير
وحطـة وطـوى والرس نون كذا	عـدن ومـنـفـطر الأسباط مذكور
مسك أباريق ياقوت رووا فهنا	ما قات من عدد الألفاظ محصور
وبعضهم عد الأولى مع بطائنها	والآخـرة لمعـاني الـضـد مـقصور

علم معرفة الوجوه والنظائر

صنّف فيه مقاتل بن سليمان من المتقدمين، ومن المتأخرين ابن الجوزي وابن الدامغاني وأبو الحسين، محمد بن عبد الصمد المصري وابن فارس وآخرون.

فالوجوه: اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان؛ كلفظ الأمر، وكتاب (معترك الأقران في مشترك القرآن) للسيوطي كاف في هذا الفن.

والنظائر: كالألفاظ المتواطئة، وقيل: النظائر والوجوه في المعاني، وضعف هو بأنه لو أريد هذا لكان الجمع في الكتب في الألفاظ المشتركة، وهم يذكرون في تلك الكتب اللفظ الذي معناه واحد في مواضع كثيرة، فيجعلون الوجوه نوعاً للأقسام والنظائر نوعاً آخر.

وقد جعل بعضهم ذلك من دلائل الاعجاز حيث ترتقي كلمة واحدة إلى عشرين وجهاً أو أقل أو أكثر، ولا يوجد مثل ذلك في كلام البشر، وقد فسر بأن يحمل اللفظ الواحد على معاني متعددة غير متضادة، ولا تقتصر به على معنى واحد، وقد يفسر باستعمال الاشارات الباطنة وعدم القصر على التفسير الظاهر. وأخرج ابن عساكر عن أبي الدرداء، قال: «انك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً». قال حماد؛ فقلت لأيوب: أهو أن يرى له وجوهاً فيهاب الأقدام عليه، قال: نعم، هو هذا.

مثال الوجوه: «الهدى»؛ يأتي على سبعة عشر وجهاً:

بمعنى الثبات: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[1]؛

والبيان: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾[2]؛

والدين: ﴿إن الهدى هدى الله﴾[3]؛

والإيمان: و﴿يزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[4]؛

والدعاء: : ﴿ولكل قوم هاد﴾[5]؛

وبمعنى الرسل والكتب: ﴿فاما يأتينكم مني هدى﴾[6]؛

والمعرفة: و﴿بالنجم هم يهتدون﴾[7]؛

وبمعنى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾[8]؛

وبمعنى القرآن: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[9]؛

والتوراة: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾[10]؛

والاسترجاع: ﴿وأولئك هم المهتدون﴾[11]؛

والحجة: ﴿لا يهدي القوم الظالمين﴾[12]، بعد قوله:

﴿ألم تر الى الذي حاج ابراهيم﴾[13] أي لا يهديهم حجة؛

والتوحيد: ﴿أن نتبع الهدى معك﴾[14]؛

والسنة: ﴿فبهداهم اقتده﴾[15] و﴿انا على آثارهم مهتدون﴾[16]؛

والاصلاح: ﴿إن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾[17]؛

والالهام: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[18] أي ألهم المعاش؛

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٦.
(٢) سورة البقرة، آية: ٥.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٣.
(٤) سورة مريم، آية: ٧٦.
(٥) سورة الرعد، آية: ٧.
(٦) سورة البقرة، آية: ٣٨.
(٧) سورة النحل، آية: ١٦.
(٨) سورة البقرة، آية: ١٥٩.
(٩) سورة النجم، آية: ٢٣.
(١٠) سورة غافر، آية: ٥٣.
(١١) سورة البقرة، آية: ١٥٧.
(١٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.
(١٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.
(١٤) سورة القصص، آية: ٥٧.
(١٥) سورة الأنعام، آية: ٩٠.
(١٦) سورة الزخرف، آية: ٢٣.
(١٧) سورة يوسف، آية: ٥٢.
(١٨) سورة طه، آية: ٥٠.

والتوبة: ﴿إنا هدنا اليك﴾؛

والارشاد: ﴿أن يهدي سواء السبيل﴾.

ومثال النظائر: كل ما فيه من البروج فهو الكواكب إلا ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾[1]، فهي القصور الطوال الحصينة؛ وكل صلاة فيه عبادة ورحمة إلا «وصلوات ومساجد»، فهي الأماكن؛ وكل قنوت فيه طاعة إلا «كل له قانتون»، فمعناه مقرون؛ وكل كنز فيه مال إلا «في الكهف»، فهو صحيفة علم؛ وكل مصباح فيه كوكب إلا الذي في النور فالسراج؛ وكل نكاح فيه تزوج إلا ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾، فهو الحلم. وليكن هذا الأنموذج عندك والاستقصاء فيه خارج عن طوقنا.

علم معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر

المراد بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف.

اعلم أن معرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها، كما في قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[2]؛ فاستعملت علي في جانب الحق، لأن صاحب الحق كأنه مستعل يصرف نظره كيف يشاء؛ وفي جانبَ الضلال لأن صاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض لا يدري أين يتوجه. وقوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء...﴾[3] الآية، عدل في الأربعة الأخيرة عن اللام إلى في ايذاناً إلى أنهم أكثر استحقاقاً للمتصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام، لأن في للوعاء، فنبه بها على أنهم أحقاء بأن يجعلوا مظنة لوضع الصدقات فيهم، كما يوضع الشيء في وعائه مستقراً فيه. وقال الفارسي: وإنما لم يقل وللرقاب، ليدل على أن العبد لا يملك. وعن ابن عباس، قال: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم ساهون﴾، ولم يقل في صلاتهم، إذ ما من أحد لا يسهو في

(١) سورة النساء، آية: ٧٨.
(٢) سورة سبأ، آية: ٢٤.
(٣) سورة التوبة، آية: ٦٠.

صلاته، والوعيد لمن يسهو عن صلاته، وهو إما بتركه وهو كبيرة، أو بعدم قصد العبادة فهو كفر. وتفصيل هذا الفن خارج عن طوق هذه الرسالة، وقد صنّف فيه جماعة بالإطالة، كالهروي في: (الأزهية، وابن أم قاسم في: (الجنى الداني)، وأدرجه السيوطي في (الإتقان).

علم معرفة أعرابه

أفرده بالتصنيف خلائق، منهم: مكي، وكتابه في المشكل خاصة؛ والحوفي، وهو أوضحها؛ وأبو البقاء العكبري، وهو أشهرها؛ والسمين، وهو أجلها، على ما فيه من حشو وتطويل؛ ولخصه السفاقسي فجوده؛ وتفسير أبي حيان مشحون بذلك. قلت: وكذا تفسير ابن عادل يشتمل على المهمات.

ومن فوائد هذا الفن معرفة المعنى لأن الأعراب يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين.

واعلم أنه يجب على الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسراره، النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها، ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلاً أو مفعولاً أو في مبادىء الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك.

ويجب على المعرب مراعاة أمور:

أحدها؛ وهو أول واجب: عليه أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفرداً أو مركباً قبل الأعراب فأنه فرع المعنى؛ ولهذا لا يجوز اعراب فواتح السور، إذا قلنا بأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

والثاني: أن يراعي ما تقتضيه الصناعة فيخطىء؛ مثل: أن يجعل الباء في قوله تعالى: ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ متعلقة بناظرة، وهو باطل لأن الاستفهام له الصدر بل هو يتعلق بما بعده.

والثالث: أن يكون ملماً بالعربية لئلا يخرج على ما لم يثبت؛ كقول أبي عبيدة: الكاف في «كما أخرجك ربك» قسم، وهذا باطل لأن الكاف بمعنى واو القسم لم يثبت في العربية.

الرابع: أن يتجنب الأمور البعيدة، والأوجه الضعيفة، واللغات الشاذة، ويخرج على القريب والقوي والفصيح، فإن لم يظهر فيه إلا الوجه البعيد فله عذر، وإن ذكر الجميع لقصد الأعراب والتفكير لضعف شديد أو لبيان المحتمل وتدريب الطالب فحسن في غير ألفاظ القرآن. أما التنزيل، فلا يجوز أن يخرج إلا على ما يغلب على الظن ارادته، فإن لم يغلب شيء، فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف؛ ومن ثم خطىء من قال في وقيله بالجر أو النصب أنه عطف على لفظ الساعة ومحلها، لما بينهما من التباعد. والصواب أنه قسم أو مصدر قال مقدراً؛ ومن قال في وأرجلكم أنه مجرور على الجوار، لأن الجر على الجوار في نفسه ضعيف شاذ لم يرو فيه إلا أحرف يسيرة، والصواب أنه معطوف على برؤوسكم، على أن المراد به مسح الخف، ونظائر هذا كثيرة.

الخامس: أن يستوفي جميع ما يحتمله اللفظ من الأوجه الظاهرة؛ فنقول: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾[1] يجوز كون الأعلى صفة للرب وصفة للأسم في نحو «هدى للمتقين الذين» كون الذين تابعاً ومقطوعاً إلى النصب باضمار أعنى أو أمدح وإلى الرفع بإضمار هو.

السادس: أن يراعي الشروط المختلفة بحسب الأبواب، ومتى لم يتأملها اختلطت عليه الأبواب والشرائط؛ ومن ثم خطىء الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ملك الناس اله الناس﴾[2] أنهما عطفا بيان والصواب أنهما نعتان لاشتراط الاشتقاق في النعت والجمود في عطف البيان، وله نظائر. وهذا الأمر السادس عده ابن هشام في (المغنى)، ويحتمل دخوله في الأمر الثاني.

السابع: أن يراعي في كل تركيب ما يشاكله، فربما خرج كلاماً على شيء و يشهد استعمال آخر في نظير ذلك الموضوع بخلافه؛ ومن ثم خطىء من قال: إن الوقف على لا ريب وفيه خبر هدى، و يدل على خلاف ذلك قوله

---

(١) سورة الأعلى، آية: ١.
(٢) سورة الناس، آية: ٢.

تعالى في سورة السجدة: ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾[1] واعتبر نظائره.

الثامن: أن يراعي الرسم ومن ثم خطىء من قال في ذلك سلسبيلا أنها جملة أمرية، أي سل طريقاً موصلة إليها، لأنها لو كانت كذلك كتبت مفصولة. ومن قال في «إن هذان لساحران» معناه أنها ذان وها ضمير القصة، وذان مبتدأ خبره لساحران؛ أي أن القصة ذان لساحران، والجملة خبر أنَّ وهو باطل برسم أن منفصلة وهذان متصلة؛ ومن قال «ولا الذين يموتون» اللام للابتداء وما بعده مبتدأ وخبر وهو باطل، إذ الرسم ولا؛ ومن قال في «أيهم أشد» أي مقطوعة عن الإضافة، وهم أشد مبتدأ وخبره، وهو باطل إذ الرسم أيهم متصلة.

التاسع: أن يتأمل عند ورد المشتبهات؛ ومن ثم خطىء من قال احصني أفعل تفضيل، وأمداً تميز، وهو باطل لأن الأمد ليس محصياً بل يحصى، وشرط التميز بعد أفعل كونه فاعلاً في المعنى، فالصواب أنه فعل وأمداً مفعول؛ مثل وأحصى كل شيء عدداً.

العاشر: أن لا يخرج على خلاف الأصل أو خلاف الظاهر لغير مقتض.

الحادي عشر: أن يبحث عن الأصلي والزائد؛ نحو: ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾، إذ الظاهر أن تكون الواو في يعفون ضمير الجمع، فيشكل اثبات النون، بل هي لام الكلمة والنون ضمير النسوة، والفعل معها مبني ووزنه يفعلن، بخلاف ﴿وان تعفوا أقرب﴾، فإن الواو فيه ضمير الجمع.

الثاني عشر: أن يجتنب اطلاق لفظ الزائد في كتاب الله، فإن معنى الزائد ما لا معنى له، وكتاب الله منزه عن ذلك، ولهذا فر بعضهم إلى التعبير عنه بالتأكيد والصلة والمقحم. ثم اختلف في جواز اطلاقه في القرآن،

---

(٣) سورة السجدة، آية: ٢.

فالأكثرون على جوازه، نظراً إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم، ولأنها بازاء الحذف لأن الحذف للأختصار والتخفيف والزيادة للتوكيد والتوطئة. ومنهم من أبى اطلاقه لأن تلك الألفاظ لها فوائد ومعان تخصها، فلا يقضى عليها بالزيادة. قال ابن الخشاب: والتحقيق أنه ان أريد بالزيادة اثبات معنى لا حاجة إليه فباطل، لآنه عبث، فتعين أن الينا به حاجة، لكن الحاجات إلى الأشياء قد تختلف بحسب المقاصد، فليست الحاجة إلى عد هؤلاء زيادة كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه. انتهى. وقال جلال الدين السيوطي: بل الحاجة إليه كالحاجة إليه، سواء بالنظر إلى مقتضى الفصاحة والبلاغة، وأنه لو ترك كان الكلام دونه مع افادته أصل المعنى المقصود أبتر خالياً عن الرونق البليغي، لا شبهة في ذلك. ومثل هذا يستشهد عليه بالاسناد البياني الذي خالط كلام الفصحاء وعرف مواقع استعمالهم، وذاق حلاوة ألفاظهم. وأما النحوي الجافي فعن ذلك بمنقطع الثرى انتهى. ومما ينبه عليه أنه يتجاذب المعنى والأعراب والمتمسك به صحة المعنى، ويؤول لصحة الأعراب؛ مثلاً يقتضي المعنى تعلق: «يوم تبلى السرائر» بالمصدر، وهو رجع، والاعراب يمنع عنه لعدم جواز الفصل بين المصدر ومعموله، فيجعل العامل في يوم فعلاً مقدراً دل عليه المصدر. وأيضاً يقع في كلامهم الفرق بين تفسير المعنى وتفسير الأعراب بأن الثاني بملاحظة الصناعة النحوية، ولا يضر في الأول مخالفة ذلك.

فائدة مهمة حدثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن لحن القرآن، عن قوله تعالى ﴿ان هذان لساحران﴾(١) وعن قوله تعالى: ﴿والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾(٢)؛ وعن قوله تعالى ﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين﴾(٣)، فقالت: يا ابن أخي، هذا عمل الكتاب (أخطأوا في الكتاب)، هذا إسناد صحيح على

---

(١) سورة طه، آية: ٦٣.

(٢) سورة النساء، آية: ١٦٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٦٢.

شرط الشيخين؛ وقال: حدثنا حجاج عن هارون بن موسى، أخبرني زبير بن الخريت عن عكرمة، قال: لما كتبت المصاحف، عرضت على عثمان رضي الله عنه فوجد فيها حروفاً من اللحن، فقال: لا تغيروها، فإن العرب ستغيرها، أو قال ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف، والمملي من هذيل، لم توجد فيه هذه الحروف. ثم أخرج ابن الأنباري نحوه من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير، أنه كان يقرأ ﴿والمقيمين الصلاة﴾، ويقول: هو لحن من الكاتب.

قال السيوطي: وهذه الآثار مشكلة جداً. وكيف يظن بالصحابة أولاً أنهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن وهم الفصحاء اللد؛ وكيف يظن بهم ذلك ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم كما أنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنوه؛ ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته؛ ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه؛ ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروي بالتواتر خلفاً عن سلف، وهذه الأمور مستحيلة عقلاً وشرعاً وعادة، وقد أجابوا عنه بوجوه ثلاثة؛ أحدها: ادعاء ضعف اسناده عن عثمان ولأن عثمان جعل للناس إماماً يقتدون به فكيف يترك فيه لحناً لتقيمه العرب بألسنتها، فإذا لم يقيموا ذلك، وهم تولوا جمعه وكتابته فكيف يقيمه غيرهم. وأيضاً هو كتب مصاحف متعددة فلم لم يقم في بعض منها، فإن ادَّعى وقوع اللحن في الكل فذلك بعيد، وان ادَّعى أنه أقام البعض فلم لم ينقل ذلك إلينا. وثانيها: أن ما ذكره عثمان محمول على الرمز والإشارة ومواضع الحذف نحو الكتب بلا ألف، والصبرين في الصابرين بلا ألف، وما أشبه ذلك. وثالثها: أنه محمول على مخالفة رسم الخط لأن خط المصحف خالف رسم الخط في كثير من المواضع.

وأجيب عنه بوجه أقوى وهو الأثر المروي عن عثمان بأنه لما عرض المصحف عليه نظر فيه، فقال: أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً ستقيمه بألسنتنا؛ إذ يفهم منه أنه رأى فيه شيئاً كتب على غير لسان قريش كالتابوه والتابوت فوعد أن سيقيمه على لسان قريش، ثم وفى بذلك عند العرض

والتقويم، ولم يترك فيه شيئاً، ولعل راوي الآثار المتقدمة حرَّفها، ولم يتقن الذي صدر منه فلزم ما لزم من الأشكال.

وأما حديث عائشة، فلا يصح عنه هذه الأجوبة، إذ ليس في إسناده ضعف، لأن إسناده صحيح؛ وأيضاً سألها عروة عن الأحرف، فلا يحتمل الحمل على الرمز والإشارة، بل الجواب: أخطأوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه.

وأما قول سعيد بن جبير: لحن من الكاتب؛ أراد باللحن القراءة واللغة، أي أنها لغة الذي كتبها، وقراءته فيها، وفيها قراءة أخرى.

فائدة أخرى

ألف أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني كتاباً سماه (تحفة الأقران فيما قرىء بالتثليث من حروف القرآن): «الحمد لله» قرىء بالرفع على الإبتداء، وبالنصب على المصدر، وبالكسر على اتباع الدال اللام في حركتها؛ «رب العالمين» بالجر على أنه نعت وبالرفع على القطع باضمار مبتدأ، وبالنصب عليه باضمار فعل أو على النداء. ونظائر هذا كثيرة شائعة في القرآن. والغرض التنبيه على هذا الباب لا استقصاء الأمثلة إذ لا سعة في المقام بأكثر من هذا.

علم معرفة قواعد مهمة يحتاج إليها المفسر

منها الضمائر: ألف ابن الأنباري في الضمائر الواقعة في القرآن مجلدين. وأصل وضعها الإختصار؛ ولهذا قام قوله تعالى: ﴿أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[1] مقام خمس وعشرين كلمة لو أظهرها. وكذا قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾[2]. قال مكي: ليس في كتاب الله آية اشتملت على ضمائر أكثر منها، فإن فيها خمسة وعشرين ضميراً، ومن ثم لا

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

يعدل إلى المنفصل إلا بعد تعذر المتصل، نحو ﴿إياك نعبد﴾[1]، أو بعد إلا، نحو ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾[2].

ومنها: مرجع الضمير. لا بد للضمير من مرجع يعود إليه، و يكون ملفوظاً سابقاً مطابقاً، نحو ﴿ونادى نوح ابنه﴾[3]، ﴿وعصى آدم ربه﴾[4]؛ أو متضمناً له، نحو ﴿أعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[5]، فإنه راجع إلى ما تضمنه: اعدلوا من العدل؛ أو دالاً عليه بالالتزام، نحو «إنا أنزلناه»، أي القرآن، أو متأخراً لفظاً لا رتبة، مطابقاً، نحو «فأوجس في نفسه خيفة موسى؛ أو رتبة أيضاً، كباب نعم وبئس وضمير الشأن والقصة؛ أو متأخراً دالاً بالإلتزام، نحو ﴿حتى توارت بالحجاب﴾[6]، أي الشمس لدلالة الحجاب عليها. وقد يدل عليه السياق فيضمر ثقة بفهم السامع، نحو ﴿كل من عليها فان﴾[7]، أي الأرض أو الدنيا، ولأبويه أي الميت، ولم يتقدم له ذكر. وقد يعود على لفظ المذكور دون معناه، ومثله شائع. وقد يعود على المعنى كما يعود الضمير جمعاً على من حملاً على المعنى. وقد يذكر مثلين، و يعاد الضمير إلى أحدهما، والغالب كون المرجع إليه ثانيهما، نحو: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وأنها لكبيرة﴾، أي الصلاة وقد يثنّى الضمير و يعود على أحد المذكورين، نحو: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾[8] وإنما يخرج من أحدهما.

وقد يجيء الضمير متصلاً بشيء وهو لغيره، نحو ﴿لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[9] يعني آدم، ﴿ثم جعلناه نطفة﴾[10]، فهذا لولده لأن آدم لم يخلق من نطفة، قيل هذا هو باب الاستخدام.

وقد يعود الضمير على ملابس ما هو له، نحو ﴿إلا عشية أو ضحاها﴾[11]

---

(1) سورة الفاتحة، آية: ٥.
(2) سورة الاسراء، آية: ٢٣.
(3) سورة نوح، آية: ٤٢.
(4) سورة طه، آية: ١٢١.
(5) سورة المائدة، آية: ٨.
(6) سورة ص، آية: ٣٢.
(7) سورة الرحمن، آية: ٢٦.
(8) سورة الرحمن، آية: ٢٢.
(9) سورة المؤمنون، آية: ١٣.
(10) سورة المؤمنون، آية: ٤٦.
(11) سورة النازعات، آية: ٤٧.

أي ضحى يومها. وقد يعود على غير مشاهد محسوس، والأصل خلافه، نحو ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[1]، فضمير له عائد على الأمر، وهو إذا ذاك غير موجود، لأنه لما كان سابقاً في علم الله كونه، كان بمنزلة الشاهد الموجود.

واعلم أن الأصل عود الضمير على أقرب مذكور، إلا أن يكون مضافاً ومضافاً إليه، فالأصل عوده إلى المضاف لأنه المحدث عنه؛ نحو: ﴿أن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[2]؛ وقد يعود على المضاف إليه، نحو ﴿إلى آله موسى وأني لأظنه﴾؛ وقد يمكن ارجاعه إلى كل منها، نحو «أو لحم خنزير» فأنه رجس.

ثم الأصل توافق الضمائر في المرجع حذراً من التشتت، ولهذا قال الزمخشري: ارجاع «أن أقذفيه في التابوت» إلى موسى، و﴿فاقذفيه في اليم﴾[3] إلى التابوت، هجنة.

واعلم أن ضمير الفصل ضمير لصيغة المرفوع مطابق لما قبله تكلماً وخطاباً وغيبة وافراداً، وإنما يقع بعد مبتدأ أو ما أصله المبتدأ؛ وقيل: خبر كذلك اسماً، نحو: ﴿أولئك هم المفلحون﴾؛ وانا لنحن الصافون﴾[4] ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾[5]؛ ﴿تجدوه عند الله هو خيراً﴾[6]؛ ﴿ان ترني أنا أقل منك مالا﴾[7]؛ ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾[8].

وجوز الأخفش وقوعه بين الحال وصاحبها، وخرج عليه قراءة «هن أطهر» بالنصب. وجوز الجرجاني وقوعه قبل مضارع، وجعل منه «أنه هو يبدىء و يعيد». ولا محل لضمير الفصل من الأعراب.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٤.
(٢) سورة ابراهيم، آية: ٣٩.
(٣) سورة طه، آية: ٣٩.
(٤) سورة الصافات، آية: ١٦٥.
(٥) سورة المائدة، آية: ١١٧.
(٦) سورة المزمل، آية: ٢٠.
(٧) سورة الكهف، آية: ٣٩.
(٨) سورة هود، آية: ٧٨.

وله ثلاث فوائد:

الاعلام بأن ما بعده خبر لا تابع؛ والتأكيد، ولهذا سماه الكوفيون دعامة لأنه يدعم به الكلام أي يتقوى و يؤكد، ولهذا لا يجمع بينه و بين التأكيد، فلا يقال: زيد نفسه هو الفاضل؛ والاختصاص، وقال الزمخشري في ﴿وأولئك هم المفلحون﴾: فائدته الدلالة على أن ما بعده خبر لا صفة، والتوكيد وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره.

واعلم أن ضمير الشأن والقصة و يسمى ضمير المجهول. قال: في المغني خالف القياس من خمسة أوجه:

أحدها: عوده على ما بعده لزوماً، إذ لا يجوز للجملة المفسرة له أن تتقدم عليه ولا شيء منها.

والثاني: أن مفسره لا يكون إلا جملة.

والثالث: أنه لا يتبع بتابع، فلا يؤكد، ولا يعطف عليه، ولا يبدل منه.

والرابع: أنه لا يعمل فيه إلا الابتداء أو ناسخه.

والخامس: أنه ملازم للأفراد؛ ومن أمثلته: ﴿قل هو الله أحد﴾[1]، ﴿فإذا هي شاخصة﴾[2]، ﴿فإنها لا تعمى الأبصار﴾[3].

وفائدته: الدلالة على تعظيم المخبر عنه، وتفخيمه بأن يذكر أولاً مبهماً ثم يفسر.

فائدة:

متى أمكن الحمل على غير ضمير الشأن، لا ينبغي أن يحمل عليه، وخطأ ابن هشام الزمخشري في جعل اسم إن ضمير الشأن في قوله تعالى ﴿إنه

(١) سورة الإخلاص، آية: ١.
(٢) سورة الأنبياء، آية: ٩٧.
(٣) سورة الحج، آية: ٤٦.

يراكم﴾، بل هو ضمير الشيطان، يؤيده قراءة «وقبيله» بالنصب، وضمير الشأن لا يعطف عليه.

ومن القواعد: إذا اجتمع في الضمير مراعاة اللفظ والمعنى، بدىء باللفظ ثم المعنى، ليكون الرجوع من الأضعف إلى الأقوى، ولا يعكس، لئلا يرجع من الأقوى إلى الأضعف، لأن الحمل على المعنى أقوى، وعلى اللفظ أضعف.

ومن القواعد: لا بد للمفسر من معرفة مقام التعريف والتنكير، وقد فصل في علم المعاني.

ومن القواعد: إذا ذكر الأسم مرتين، فله أربعة أحوال؛ لأنه: أما أن يكون معرفتين، أو نكرتين؛ أو الأول معرفة، والثاني نكرة؛ أو بالعكس. فإن كانا معرفتين فالثاني هو الأول غالباً لدلالته على المعهود الذي هو الأصل في اللام أو الإضافة؛ نحو قوله تعالىٰ: ﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾[1]، اللهم إلا أن يراد الجنس وهو قليل. وإن كانا نكرتين، فالثاني غير الأول غالباً، وإلا لكان المناسب هو التعريف. وإن كان الأول نكرة والثاني معرفة، فالثاني هو الأول، حملا على العهد، نحو، ﴿أرسلنا إلى فرعون رسولاً. فعصى فرعون الرسول﴾[2]. وإن كان الأول معرفة، والثاني نكرة، فالأمر على القرائن، فتارة تقوم قرينة التغاير، وتارة تقوم قرينة الاتحاد. ونقض هذه القاعدة بآيات كثيرة:

أما الأول: فبقوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾[3]، والثاني غير الأول، إذ الأول العمل، والثاني الثواب؛ وقوله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس﴾[4] أي القاتلة بالمقتولة.

وأما الثاني: فبقوله تعالى: ﴿وهو الذي في السماء آله وفي الأرض آله﴾[5]، وكلاهما واحد، ونحو ذلك.

---

(١) سورة الشرح، الآيات: ٥، ٦.
(٢) سورة المزمل، الآيات: ١٥، ١٦.
(٣) سورة الرحمن، آية: ٦٠.
(٤) سورة المائدة، آية: ٤٥.
(٥) سورة الزخرف، آية: ٨٤.

وأما الثالث: فبقوله تعالى ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾[1]، فإن الثاني فيها غير الأول. قال السيوطي: لا انتقاض بشيء من ذلك، فإن اللام في الإحسان للجنس، فيكون في المعنى كالنكرة، وكذا آية النفس، كاللام في آية العسر، فإن اللام فيها للعهد أو للاستغراق، وأما قوله تعالى: ﴿في السماء آله وفي الأرض آله﴾ من باب التكرير والأطناب، والله أعلم.

ومن القواعد: الأفراد والجمع؛

منها: السماء والأرض، ولم يذكر في القرآن الأرضون لثقلها، بل ان احتيج إليها، يقال: ومن الأرض مثلهن، وأما السماء فتجمع عند ارادة العدد، وإلا فتفرد، نحو: ﴿سبح لله ما في السموات﴾، أي سكانها جميعاً؛ ونحو «تسبح له السموات»، أي كل واحدة على اختلاف عددها. وعند ارادة الجهة، يؤتى مفرداً، نحو: ﴿وفي السماء رزقكم﴾[2].

ومنها: الريح، يجمع في سياق الرحمة، ويفرد في ضده. وعن أبي بن كعب: كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب. وفي الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً». وحكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والميئات والمنافع، وإذا هاجت ريح، نشر لها من مقابلها ما يكسر سورتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة؛ وأما في العذاب فتأتي من جهة واحدة بلا معارض ولا دافع. وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾[3]، وتوجيهه أنه ورد في مقابلة ريح عاصف، ورب شيء يجوز في المقابلة دون الاستقلال، وأيضاً الرحمة في السفينة بوحدة الريح من وجه واحد، إذ الإختلاف يهلكها، ولهذا أكدها بقوله طيبة.

ومنها: أفراد النور وجمع الظلمات؛ وأفراد سبيل الحق، وجمع سبل

---

(١) سورة هود، آية: ٣.

(٢) سورة الذريات، آية: ٢٢.

(٣) سورة يونس، آية: ٢٢.

الباطل في قوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[1]، لأن طريق الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة متعددة، والظلمات بمنزلة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، بل هاهما. ولهذا وحد ولي المؤمنين، وجمع أولياء الكفار لتعددهم في قوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[2].

ومن ذلك: أفراد النار وجمع الجنة، وأفرادها لأن النار مادة واحدة، والجنان مختلفة الأنواع، فحسن جمعها؛ ولأن الجنة رحمة، والنار عذاب، على حد الرياح والريح.

ومن ذلك: أفراد السمع وجمع البصر، لأن السمع غلب عليه المصدرية فأفرد، والبصر اشتهر في الجارحة؛ ولأن متعلق السمع الأصوات، وهي حقيقة واحدة، ومتعلق البصر الألوان والأكوان، وهي حقائق متخالفة.

ومن ذلك: أفراد الصديق لقلته، وجمع الشافعين لكثرتهم، قال تعالى: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾[3].

ومن ذلك: الألباب لم يقع إلا مجموعاً لثقل مفرده لفظاً.

ومن ذلك: مجيء المشرق والمغرب، لأنها قد أفردا باعتبار الجهة، وثنّياً اعتباراً بمشرق الصيف والشتاء، وجمعا اعتباراً بتعدد المطالع؛ ثم أنها ثنيا في سورة الرحمن، لكون سياقها على المزدوجين من الشمس والقمر والنجم والشجر، وأمثال ذلك؛ وجمعا في قوله تعالى: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾[4]، للدلالة على سعة القدرة والعظمة.

ومن ذلك: البار في صفة الآدميين يجمع على أبرار، وفي صفة الملائكة، قيل بررة. ذكره الراغب، ووجهه بأن الثاني أبلغ. والأخ مجموعاً

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥٣.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.
(٣) سورة الشعراء، آية: ١٠١.
(٤) سورة المعارج، آية: ٤٠.

يرد في النسب أخوة، وفي الصداقة أخوان، قاله ابن فارس، أورد عليه ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾[1] في الصداقة؛ ﴿أو أخوانهن أو بني أخواتهن﴾[2] ﴿أو بيوت أخواتكم﴾[3] في النسب. في النسب.

ومن القواعد: مقابلة الجمع بالجمع، يقتضي مقابلة الأفراد تارة، ويقتضي ثبوت الجمع لكل فرد تارة. مثال الأول: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾[5]، ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾[4]، ﴿واستغشوا ثيابهم﴾[6]؛ ومثال الثاني: ﴿فأجلدوهم ثمانين جلدة﴾[7].

وجعل منه الشيخ عز الدين: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات﴾[8]. ويحتمل الأمرين تارة، فيحتاج إلى دليل يعين أحدهما.

ومن القواعد: في ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه.

ومن ذلك: الخوف والخشية، ولا يكاد اللغوي يفرق بينهما، إلا أن الخشية أعلى من الخوف، ولذلك خصت الخشية بالله تعالى في قوله تعالى: ﴿يخشون ربهم من فوقهم ويخافون سوء الحساب﴾[9]، وقد يفرق بينهما بأن الخشية من عظم المختشّ وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف، وان كان المخوف أمراً يسيراً.

ومن ذلك: الشح والبخل، والشح أشد البخل. قال الراغب: الشح بخل مع حرص، ويفرق بين البخل والضن بأن البخل في الهبات والضن بالعواري؛ يقال ضنين بعلمه، ولا يقال بخيل بعلمه، لأن العلم لا يوهب، وإنما يشبه بالإعارة.

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.
(٢) سورة النور، آية: ٣١.
(٣) سورة النور، آية: ٦١.
(٤) سورة النساء، آية: ٢٣.
(٥) سورة النساء: آية: ١١.
(٦) سورة نوح، آية: ٧.
(٧) سورة النور، آية: ٤.
(٨) سورة البقرة، آية: ٢٥.
(٩) سورة الرعد، آية: ٢١.

ومن ذلك: السبيل والطريق. والأول في الخير غالباً، والثاني أن استعمل في الخير، يوصف بما يخصه به، كقوله تعالى: ﴿يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾[1]. وقد شرط الراغب في الثاني السهولة، فهو أخص.

ومن ذلك: جاء وأتى. والأول في الجواهر والأعيان، والثاني في المعاني والأزمان. قال تعالى: «ولمن جاء به حمل بعير﴾[2]، ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾[3]، ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾[4] ﴿وأتى أمر الله﴾[5] ﴿أتاها أمرنا﴾[6]. وأما «وجاء ربك» أي أمره، أراد به أهوال القيامة المشاهدة، وكذا ﴿إذا جاء أجلهم﴾، لأنه كالمشاهد. قال الراغب: الإتيان مجيء بسهولة فهو أخص.

ومن ذلك: مد وأمد. والإمداد في المحبوب غالباً، نحو: ﴿وأمددناهم بفاكهة﴾[7]، والمد في المكروه، نحو: ﴿ونمد له من العذاب مداً﴾[8].

ومن ذلك: سقى وأسقى. فالأول: لما لا كلفة فيه، ولهذا ذكر في شراب الجنة، نحو: ﴿فسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾[9]. والثاني: لما فيه كلفة، ولهذا ذكر في ماء الدنيا، نحو: ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾[10]. قال الراغب: الإسقاء أبلغ لأنه ماء يستقي منه، والسقي أن يعطيه ماء يشرب.

ومن ذلك: عمل فعل. فالأول: ما كان مع امتداد، نحو: «عملوا الصالحات» اشارة إلى مثابرتهم على الصالحات. والثاني: ما يكون في طرفة عين، نحو: ﴿كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾[11]، أي أهلكهم في ساعة.

ومن ذلك: القعود والجلوس. فالأول لما فيه لبث. والثاني بخلافه.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٠.
(٢) سورة يوسف، آية: ٧٢.
(٣) سورة يوسف، آية: ١٨.
(٤) سورة الفجر، آية: ٢٣.
(٥) سورة النحل، آية: ١.
(٦) سورة يونس، آية: ٢٤.
(٧) سورة الطور، آية: ٢٢.
(٨) سورة مريم، آية: ٧٩.
(٩) سورة الإنسان، آية: ٢١.
(١٠) سورة الجن، آية: ١٦.
(١١) سورة الفيل، آية: ١.

يقال: قواعد البيت، لمن يلزمها، ولا يقال: جوالس البيت؛ ويقال: جليس الملك لا قعيده، إذ يطلب في جلوسه التخفيف.

ومن ذلك: الإتمام والاكمال؛ فإن الأول في الأجزاء، والثاني في الأوصاف والهيئات. مثلاً: إتمام الصلاة، إتيان أركانها. والإكمال: تعديل أركانها، والقافية: تمام البيت وكماله بصنائعه.

ومن ذلك: الاعطاء والايتاء. فإن الأعطاء يستعمل فيما ينتقل منه، نحو: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾[1]، لأنه مورد ينتقل منه إلى منازل العز في الجنة، والإيتاء يستعمل فيما له ثبات، نحو: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾[2] ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾[3]. ويقال: الإيتاء فيما يحتاج إلى القبول، ولهذا يستعمل في الزكاة والصدقات.

ومن ذلك: السنة والعام، فإن السنة فيما فيه شدة وجدب، والعام فيما فيه رخاء وخصب، كما قال تعالى: ﴿ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾[4]، حيث عبر عن المستثنى بالعام والمستثنى منه بالسنة.

ومن القواعد: أمر السؤال والجواب. الأصل التطابق بينهما، وقد يعدل عنه، تنبيهاً على أنه أليق بحال السائل. وسماه السكاكي: الأسلوب الحكيم؛ وذلك يكون تارة بالزيادة في الجواب، وتارة بالنقصان فيه. ومن هذا القبيل: ﴿ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾[5] تنبيهاً على أن الأليق بحالهم السؤال عن حكمه لا عن سببه. كذا قال السكاكي ومتابعوه. واسترسل التفتازاني في الكلام، حتى قال: لأنهم ليسوا ممن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة. قال السيوطي: وما ذكروه وإن كان محتملاً، إلا أن الأصل في الجواب المطابقة، فيتعين سؤالهم عن الحكمة، لأن السؤال محتمل له أيضاً، فلا يتعين ما ذكروه. ويؤيد ما قلناه ما أخرج ابن جرير، عن أبي العالية، قال:

---

(١) سورة الكوثر، آية: ١.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.
(٣) سورة الحجر، آية: ٨٧.
(٤) سورة العنكبوت، آية: ١٤.
(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٩.

بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلة، فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الاهلة﴾، فهذا صريح في أن سؤالهم عن حكمة ذلك، لا عن كيفيته من جهة الهيئة، ولا يظن ذو دين بالصحابة، الذين هم أدق فهماً وأغزر علماً، أنهم ليسوا ممن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة، وانما اطلع عليها آحاد العجم، الذين أطبق الناس على أنهم أقل أذهاناً من العرب بكثير.

قال السيوطي: وقد صنفت كتاباً في نقض أكثر مسائلها بالأدلة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي صعد إلى السماء، ورآها عياناً، وعلم ما حوته من عجائب الملكوت بالمشاهدة، وأتاه الوحي من خالقها، وعلم جميع الملكوتيات. نعم المثال الصحيح لهذا القسم: جواب موسى: «رب السموات والأرض»، عن سؤال فرعون: «وما رب العالمين»، لأن ما سؤال عن الجنس، وحيث لا جنس للباري تعالى، أجاب بالوصف، تنبيهاً على أن اللائق السؤال عن الوصف. ومثال الزيادة في الجواب قول موسى: «هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها»، في جواب: «وما تلك بيمينك»، زاد في الجواب استلذاذاً بخطاب الله تعالى. ومثال النقص منه، قوله تعالى: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله﴾، في جواب: «أئت بقرآن غير هذا أو بدله»، حيث أجاب عن التبديل دون الإختراع، لأن التبديل في امكان البشر دون الإختراع، فطوى ذكره للتنبيه على أنه سؤال محال. وقال غيره التبديل أسهل، وقد نفى امكانه، فالإختراع أولى.

واعلم أنه قد يعدل عن الجواب أصلاً إذا كان قصد السائل التعنت، نحو، ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾[1]. قال صاحب (الافصاح): الروح تقال بالاشتراك على روح الإنسان والقرآن وعيسى وجبريل وملك آخر وصنف من الملائكة. قصد اليهود التعجيز فبأي شيء أجابهم. أرادوا أن يقولوا ليس هو، فجاءهم الجواب مجملاً كيداً ليرد به كيدهم.

---

(١) سورة الاسراء، آية: ٨٥.

ومن القواعد: أصل الجواب أن يعاد فيه نفس السؤال ليكون وفقه، نحو: ﴿أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف﴾[1]، فأنا في جوابه هو أنت في سؤالهم وكذا ﴿أأقررتم وأخذتم على ذلك أصرى قالوا أقررنا﴾[2] ثم أنهم أتوا عوض ذلك بحروف الجواب اختصاراً وتركاً للتكرار.

وقد يحذف السؤال ثقة بفهم السامع بتقديره، نحو: ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾[3]، ولما لم يستقم كون السؤال والجواب من واحد، تعين أن يكون: «قل الله» جواب سؤال، كأنهم سألوا لما سمعوا ذلك: من يبدأ الخلق ثم يعيده.

ومن القواعد: الأصل في الجواب أن يكون مشاكلاً للسؤال في الأسمية والفعلية، وكذا في السؤال المقدر، ألا أن ابن مالك قدر الجواب فعلاً، في جواب من قال: من قرأ آية، ثم قال: وإنما لم نقدره اسماً مع احتماله، جرياً على عادتهم في الأجوبة، إذا قصدوا اتمامها، كما قال تعالى: ﴿قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾[4]، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾[5]، فلما أتى بالفعلية مع فوات مشاكلة السؤال، علم أن تقدير الفعل أولاً أولى.

وقال ابن الزملكاني في البرهان: أطلق النحويون القول بأن زيداً في جواب من قام فاعل على تقدير قام زيد، والذي توجيه صناعة البيان أنه مبتدأ؛ لوجهين:

أحدهما: أنه يطابق الجملة المسؤول بها في الأسمية، كما وقع التطابق في قوله تعالى: ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾[6] في الفعلية، وإنما لم يقع التطابق

---

(١) سورة يوسف، آية: ٩٠.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٨١.
(٣) سورة يونس، آية: ٣٤.
(٤) سورة يونس، آية: ٣٤.
(٥) سورة يس، آية: ٧٨.
(٦) سورة الزخرف، آية: ٩.

في قولهم: ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾[1]، لأنهم لو طابقوا، لكانوا مقرين بالإنزال، وهم من الإذعان به على مفاوز.

الثاني: أن اللبس عند السائل من فعل الفاعل، فوجب أن يقدم الفاعل في المعنى، لأنه متعلق غرض السائل، وأما الفعل فعلوم عنده، ولا حاجة به إلى السؤال عنه، فحري أن يقع في الأواخر التي هي محل التكملات والفضلات، وأشكل على هذا: ﴿بل فعله كبيرهم﴾[2]، في جواب: ﴿أأنت فعلت هذا﴾[3]، فإن السؤال عن الفاعل، وصدر الجواب بالفعل. وأجيب: بأن الجواب مقدر دل عليه السياق، إذ كلمه بل لا يصح أن يصدر بها الكلام، والتقدير ما فعلته بل فعله.

قال الشيخ عبد القاهر: وحيث كان السؤال ملفوظاً به، فالأكثر ترك الفعل في الجواب، والإقتصار على الأسم وحده، وحيث كان مضمراً فالأكثر التصريح به، لضعفه عن الدلالة عليه. ومن غير الأكثر: ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال﴾[4]، في قراءة البناء للمفعول.

ومن القواعد: الخطاب بالأسم والخطاب بالفعل، مختلفان. إذ الأسم يدل على الثبوت والاستمرار، والفعل يدل على التجدد والحدوث، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر، ولهذا قال تعالى: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه﴾[5]، إذ المقام لبيان ثبوت هذه الصفة للكلب، لا مزاولته لها شيئاً فشيئاً. وقال تعالى: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم﴾[6]، إذ المقام بيان أن الرزق يتجدد شيئاً فشيئاً.

وقد يورد الحال في صورة المضارع، مع أن العامل الذي يفيده ماض، نحو: ﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾[7]، إذا المراد أن يفيد صورة ما هم عليه وقت

---

(1) سورة النحل، آية: ٣٠.
(2) سورة النحل، آية: ٢٤.
(3) سورة الأنبياء، آية: ٦٣.
(4) سورة النور، آية: ٣٦.
(5) سورة الكهف، آية: ١٨.
(6) سورة فاطر، آية: ٣.
(7) سورة يوسف، آية: ١٦.

المجيء، وأنهم آخذون في البكاء يجددونه شيئاً بعد شيء، وهو المسمى حكاية الحال الماضية. ولما كان للإيمان حقيقة تقوم بالقلب، يدوم مقتضاها، عبر عنه: بالمؤمنون، وكذا الحال في: المتقون، بخلاف النفقة، فأنها لتجددها وكونها أمراً فعلياً شأنه الإنقطاع عبر: بالذين ينفقون، وكذا الحال في نظائرها. وبهذا يشكل، نحو علم الله وسائر صفاته القديمة، فانها لا تتجدد، مع أنه يستعمل فعلاً. و يدفع هذا بأن معنى نحو علم وقوع علمه في الماضي، أعم من أن يستمر قبل ذلك أم بعده أم لا. ولهذا قال تعالى حكاية عن ابراهيم: ﴿الذي خلقني﴾ بالماضي لأنه أمر مفروغ منه، ثم ذكر: فهو يهدين»، و﴿يسقين﴾، و «يشفين» بالمضارع لأنها متكررة متجددة تقع مرة بعد أخرى.

وأيضاً مضمر الفعل فيما ذكر كمظهره. قال أبو المطرف بن عميرة: دلالة الأسم على الثبوت، والفعل على التجدد والحدوث، أمر مشهور لا مستند له، فإن الأسم إنما يدل على معناه فقط، وأما أنه يثبت المعنى للشيء فلا. قال ابن المنير: طريقة العرب تلوين الكلام، ومجيء الفعلية تارة، والأسمية أخرى، من غير تكلف لما ذكروه.

ومن القواعد: المصدر المنصوب يفيد الوجوب، والمرفوع يفيد التدب، لأن الجملة الأسمية أثبت وآكد. قوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً﴾، يدل على الوجوب، قال سلام على الندب. ونظائر هذا كثيرة في القرآن.

ومن القواعد: العطف: أما على اللفظ وهو الأصل، وشرطه إمكان توجه العامل على المعطوف، وأما على المحل، وله شروط:

أحدها: إمكان ظهور ذلك المحل في الفصيح، فلا يجوز: مررت بزيد وعمرو لأنه لا يجوز: مررت زيداً.

وثانيها: أن يكون الوضع بحق الإصالة، فلا يجوز: هذا الضارب زيداً وأخيه، لأن الوصف المستوفى شروط العمل الأصل أعماله لا اضافته.

وثالثها: وجود المجوز أي الطالب لذلك المحل، فلا يجوز: أن زيداً وعمرو

قاعدان، لأن الطالب رفع عمرو وهو الإبتداء، وقد زال بدخول إن؛ وعطف على التوهم نحو: ليس زيد قائماً ولا قاعد، بالخفض، على توهم دخول الباء في الخبر، وشرط جوازه صحة دخول ذلك العامل المتوهم، وشرط حسنه كثرة دخوله هناك. وقد وقع هذا العطف في المجرور في قول زهير:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ... ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً

وأعلم أن ابن مالك ظن أن المراد بالتوهم الغلط، وليس كذلك، كما نبه عليه أبو حيان وابن هشام، بل هو مقصد صواب. والمراد أنه عطف على المعنى؛ أي جوز المعرب في ذهنه ملاحظة ذلك المعنى في المعطوف عليه، فعطف ملاحظاً له، لا أنه غلط في ذلك. ولهذا كان الأدب أن يقال في مثل ذلك في القرآن أنه عطف على المعنى.

واعلم أن القوم اختلفوا في جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه، فمنعه البيانيون وابن مالك وابن عصفور، ونقله عن الأكثرين، وأجازه الصفار وجماعة مستدلين بقوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ في سورة البقرة، ﴿وبشر المؤمنين﴾ في سورة الصف. وقال الزمخشري في الأولى: أنه عطف جملة: ثواب المؤمنين، على جملة: عقاب الكافرين؛ وفي الثانية: أن العطف على: تؤمنون، لأنه بمعنى آمنوا، ورد بأن الخطاب به للمؤمنين، ويبشر النبي صلى الله عليه وسلم، وبأن الظاهر في: تؤمنون، أنه تفسير للتجارة لا طلب. وقال السكاكي: الأمران معطوفان على: قل، مقدرة قبل بائها. وحذف القول كثير.

وأيضاً اختلفوا في عطف الأسمية على الفعلية وعكسه، فالجمهور على الجواز، وبعضهم على المنع. وقد لهج به الرازي في تفسيره كثيراً، ورد به على الحنفية القائلين بتحريم أكل متروك التسمية، آخذاً من قوله تعالى، ﴿ولا تأكلوا..﴾ الآتية، وقال: حجة للجواز لا للتحريم، وذلك لأن الواو الواقعة في قوله تعالى ﴿وأنه لفسق﴾، ليست للعطف لتخالف الجملتين في الأسمية والفعلية؛ ولا للإستئناف، لأن الواو تقتضي الربط، فهي للحال، فتكون مفيدة للنهي، أي: لا تأكلوا حال كونه فسقاً، والفسق فسره الله تعالى بقوله: ﴿أو

فسقاً أهل بهِ لغير الله به﴾، فالمعنى: لا تأكلوا إذا سمي عليه غير الله، ومفهومه: كلوا منه، إذا لم يسم عليه غير الله. انتهى.

واختلف في جواز العطف على معمولَيْ عاملين. واختلف أيضاً في جواز العطف على الضمير المجرور من غير اعادة الجار. وتفصيل هاتين المسألتين في علم النحو، فارجع إليه.

واعلم أننا قد أطنبنا في هذا الباب من الكتاب، لاشتماله على لطائف قد لا توجد في كتاب، فليعذر في من رآه من الطلاب. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

علم معرفة المحكم والمتشابه

قيل: المحكم ما لا يتوقف على البيان؛ والمتشابه ما لا يرجى بيانه، كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة من أوائل السور. وقيل: المحكم ما وضح معناه؛ والمتشابه نقيضه. وقيل: المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً؛ والمتشابه ما احتمل أوجهاً. وقيل: المحكم ما كان معقول المعنى؛ والمتشابه بخلافه، كأعداد الصلوات، واختصاص القيام برمضان دون شعبان. وقيل: المحكم ما استقل بنفسه؛ والمتشابه ما لم يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره. وقيل: المحكم ما تأويله تنزيله؛ والمتشابه ما لا يدرك إلا بالتأويل. وقيل: المحكم ما لم يتكرر ألفاظه، ومقابلة المتشابه. وقيل، المحكم الفرائض والوعد والوعيد؛ والمتشابه القصص والأمثال.

اختلف: هل المتشابه مما يمكن الإطلاع على علمه، أو مما لا يعلمه إلا الله. وعلى الأول طائفة يسيرة، منهم مجاهد، وهو رواية عن ابن عباس. وروى أنه قال في قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾[1]: أنا ممن يعلم تأويله. قال النووي في شرح مسلم، إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله تعالى عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته. وقال ابن الحاجب إنه

(١) سورة آل عمران، آية: ٧.

الظاهر. وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم، خصوصاً أهل السنة، فذهبوا إلى الثاني، وهو أصح الروايات عن ابن عباس.

قال ابن السمعاني: لم يذهب إلى الأول إلا شرذمة، واختاره القتبي. قال: وكان يعتقد مذهب أهل السنة، لكنه سها في هذه المسألة. قال: ولا غرو، فإن لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة.

وقد ورد على القول الثاني آثار وأحاديث. قال بعضهم: العقل مبتلى باعتقاد حقية المتشابه، كابتلاء البدن بأداء العبادة، كالحكيم إذا صنَّف كتاباً، أجمل فيه أحياناً، ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه، وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره. وقيل: لو لم يبتلِ العقل، الذي هو أشرف البدن، لاستمر العالم في أبهة العلم على التمرد، فبذلك يستأنس إلى التذلل بعجز العبودية. والمتشابه هو موضع خضوع العقول استسلاماً لباريها، واعترافاً بقصورها. وفي ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾، تعريض بالزائغين ومدح للراسخين؛ يعني من لم يتذكر و يتعظ ويخالف هواه، فليس من أولي العقول. ومن ثم قال الراسخون: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ إلى آخر الآية، فخضعوا لباريهم، لاستنزال العلم اللدني، بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفساني.

قال الراغب في (مفردات القرآن): الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الاطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه ومتشابه من وجه.

فالمتشابه بالجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومن جهة المعنى فقط، ومن جهتها. فالأول ضربان: يرجع إلى الألفاظ المفردة، أو إلى الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام، نحو: ﴿وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم﴾[1]؛ وضرب لبسطه،

---

(١) سورة النساء، آية: ٣.

نحو: ﴿ليس كمثله شيء﴾[1]، لأنه لو قيل: ليس مثله، لكان أظهر للسامع؛ وضرب لنظم الكلام، نحو: ﴿أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً﴾[2]، تقديره أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً.

والمتشابه من جهة المعنى: أوصاف الله تعالى، وأوصاف القيامة. والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب: الأول من جهة الكمية، كالعموم والخصوص، نحو: ﴿أقتلوا المشركين﴾[3]؛ والثاني: من جهة الكيفية، كالوجوب والندب، نحو: ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾؛ والثالث: من جهة الزمان، كالناسخ والمنسوخ، نحو: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾[4]؛ الرابع: من جهة المكان، والأمور التي نزلت فيها، نحو: ﴿وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها﴾[5]، و﴿انما النسيء زيادة في الكفر﴾[6]، فإن من لا يعرف عادتهم في الجاهلية، يتعذر عليه تفسير هذه الآية؛ الخامس: من جهة الشروط التي يصح بها الفعل ويفسد، كشرط الصلاة والنكاح.

قال: وهذه الجملة إذا تصورت علم أن ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج من هذه التقاسيم. ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج الدابة، ونحو ذلك؛ وضرب للانسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة، والأحكام المغلقة؛ وضرب متردد بين الأمرين يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لأبن عباس: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. وبقية مباحث المتشابه في علم التفسير.

علم معرفة مقدم القرآن ومؤخره

وهو قسمان؛ الأول: ما أشكل معناه ظاهراً واتضح بالتقديم والتأخير، نحو

---

(١) سورة الشورى، آية: ١١.
(٢) سورة الكهف، آية: ١.
(٣) سورة التوبة، آية: ٥.
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.
(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٩.
(٦) سورة التوبة، آية: ٣٧.

قوله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه﴾[1]، والأصل: هواه الهه، لأن من اتخذ الهه هواه غير مذموم، فقدم المفعول الثاني للعناية به؛ وقوله: ﴿غرابيب سود﴾[2]، والأصل: سود غرابيب، لأن الغربيب الشديد السواد؛ وقوله: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾[3] والأصل: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

والثاني: ما ليس كذلك. وقد ألف فيه العلامة شمس الدين بن الصائغ: (كتاب المقدمة في سر الألفاظ المقدمة)، والحكمة فيه الاهتمام، كما قال سيبويه في كتابه: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم وهم ببيانه أعني، وهذه الحكمة اجمالية.

وأما تفاصيل أسباب التقديم والتأخير وأسراره في الكتاب العزيز عشرة أنواع:

الأول: التبرك؛ نحو تقديم اسم الله في الأمور ذوات النسك.

الثاني: التعظيم؛ كقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾.

الثالث: التشريف؛ نحو: ﴿ان المسلمين والمسلمات﴾، و﴿الحر بالحر والعبد بالعبد﴾[4]؛ و﴿يخرج الحي من الميت...﴾[5] الآية، ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾[6]، و﴿على سمعهم وعلى أبصارهم﴾[7]، وأمثال ذلك.

الرابع: المناسبة، أما لسياق الكلام، نحو: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾[8]، فإن الجمال عند الرواح أكثر، لأنها فيه بطان، وفي السراح خماص؛ وأما اللفظ كقوله: «الأول والآخر».

---

(1) سورة الجاثية، آية: ٢٣.
(2) سورة فاطر، آية: ٢٧.
(3) سورة يوسف، آية: ٢٤.
(4) سورة البقرة، آية: ١٧٨.
(5) سورة الأنعام، آية: ٩٥.
(6) سورة النحل، آية: ٨.
(7) سورة البقرة، آية: ٧.
(8) سورة النحل، آية: ٦.

الخامس: الحث عليه؛ كتقديم الوصية على الدين في قوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾[1]، مع أن الدين مقدم عليها شرعاً.

السادس: السبق؛ أما زماناً كتقديم الليل على النهار والظلمات على النور، أو انزالاً كتقديم التوراة على الإنجيل، أو تكليفاً، نحو: ﴿اركعوا وأسجدوا﴾[2].

السابع: السببية كـ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[3]، لأن العبادة سبب حصول الإعانة.

الثامن: الكثرة ﴿فنكم كافر ومنكم مؤمن﴾[4]، والكافر أكثر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿والسارق والسارقة﴾[5] و﴿والزانية والزاني﴾[6]، لأن السرقة في الذكور أكثر، والزنا في النساء أكثر. ومنه: تقديم الرحمة على العذاب أينما وقع في القرآن غالباً، لما ورد أن: رحمتي غلبت غضبي؛ وقوله تعالى: ﴿أن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم﴾[7]، وذلك لأن العداوة فيهن أكثر منهم.

التاسع: الترقي من الأدنى إلى الأعلى، كقوله: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها...﴾[8] الآية؛ بدأ بالأدنى للترقي من الأدنى وهو الرجل إلى الأشرف وهو اليد ثم العين ثم السمع.

العاشر: التدلي من الأعلى إلى الأدنى، وعليه: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾[9]، و﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة﴾[10]. هذه الوجوه ما ذكر ابن الصائغ، وزيد عليها أسباب أخر؛

منها: كونها أدل على القدرة وأعجب، وكقوله تعالى: ﴿فنهم من يمشي على بطنه﴾ الآية، لأن المشي على البطن أدل على القدرة وأعجب وكقوله تعالى:

---

(١) سورة النساء، آية: ١١.
(٢) سورة الحج، آية: ٧٧.
(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥.
(٤) سورة التغابن، آية: ٢.
(٥) سورة المائدة، آية: ٣٨.
(٦) سورة النور آية: ٢.
(٧) سورة التغابن، آية: ١٤.
(٨) سورة الأعراف، آية: ١٩٥.
(٩) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.
(١٠) سورة الكهف، آية: ٤٩.

﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾[1]، ولا يخفى أن تسخير الجبال وتسبيحها له أعجب، وأدل على القدرة، وأدخل في الأعجاز.

ومنها: رعاية الفواصل. ومثالها كثير.

ومنها: إفادة الحصر للاختصاص وسيأتي تفصيلها.

علم معرفة عام القرآن وخاصه ومجمله ومبنيه

ومباحث هذا العلم في علم الأصول، ومن أتقنها سهل عليه معرفتها في الآيات الفرقانية.

علم معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه

أفرده بالتصنيف خلائق، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو داود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وابن الأنباري، ومكي، وابن العربي، وآخرون.

قالت الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ؛ وقد قال علي لقاص: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، قال: هلكت وأهلكت.

وفيه مسائل:

الأولى: يرد النسخ بمعنى الإزالة، ومنه: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾[2]؛ وبمعنى التبديل، ومنه: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾[3]؛ وبمعنى التحويل كتناسخ المواريث، بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد؛ وبمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه: نسخت الكتاب، إذا نقلت ما فيه

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧٩.

(٢) سورة الحج، آية: ٥٢.

(٣) سورة النحل، آية: ١٠١.

حاكياً للفظه وخطه، وقيل: ومنه نسخ الكتاب من أم الكتاب إلى المصاحف، وأنكر بعضهم ذلك في القرآن بناء على أن المنسوخ يأتي بلفظ آخر.

الثانية: النسخ مما خص الله به هذه الأمة لحكمة، وأجازه المسلمون، وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء، وهو باطل، لأنه بيان مدة الحكم كالطبيب يأمر المريض بمعالجات مختلفة بحسب أوقات مزاجه، وذلك لا يكون بداء.

ثم اختلف العلماء في وقوعه في القرآن، فقيل: لا ينسخ إلا بقرآن، كقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾[1]. قالوا: ولا يكون مثل القرآن أو خيراً منه إلا قرآن. وقيل: بل ينسخ بالسنة، لأنها أيضاً من عند الله. قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[2]. وقيل: ينسخ إذا كانت السنة من طريق الوحي، وأما عن اجتهاد فلا. حكاه ابن حبيب النيسابوري.

الثالثة: لا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي ولو بلفظ الخبر؛ أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب، فلا يدخله النسخ. وكذا الوعد والوعيد، فمن أدخل في كتب النسخ كثيراً من الأخبار والوعد والوعيد فقد خبط.

الرابعة: النسخ أقسام:

أحدها: نسخ المأمور به قبل امتثاله، وهو النسخ على الحقيقة، كآية النجوى.

الثاني: ما نسخ مما كان شرعاً لمن قبلنا، كآية شرع القصاص والديه ــ أو كان أمر به أمراً اجمالياً، كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالكعبة، وصوم عاشوراء برمضان، وإنما يسمى هذا نسخاً تجوزاً.

الثالث: ما أمر به لسبب، ثم يزول السبب، كالصبر على القتال، والصفح، إلى أن يقوى المسلمون. وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم

---

(١) سورة البقرة: آية: ١٠٦.

(٢) سورة النجم، آية: ٣.

المنسأ، كما قال تعالى: ﴿أو ننسأها﴾. وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن آيات ترك القتال منسوخة بآية السيف. وقال مكي: المؤجل بأجل ليس بمنسوخ.

الخامسة: قال بعضهم: سور القرآن باعتبار الناسخ والمنسوخ أقسام: قسم ليس فيه شيء منهما وهو ثلاث وأربعون سورة، وقسم فيه كلاهما وهو خمس وعشرون، وقسم فيه الناسخ فقط وهو ست؛ وقسم فيه المنسوخ فقط وهو الأربعون. وتفاصيل هذه السور في الكتب المصنفة في هذا العلم.

السادسة: النسخ أقسام: فرض نسخ فرضاً، ولا يجوز العمل بالأول، كنسخ الحبس للزاني بالحد، وفرض نسخ فرضاً، ويجوز العمل بالأول، كآية المصابرة؛ وفرض نسخ ندباً، كالقتال كان ندباً ثم صار فرضاً؛ وندب نسخ فرضاً، كقيام الليل، نسخ بالقراءة في قوله تعالى: ﴿... وا ما تيسر من القرآن﴾.

السابعة: النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب: ما نسخ تلاوته وحكمه معاً؛ وما نسخ حكمه دون تلاوته وهذا كثير في القرآن؛ وما نسخ تلاوته دون حكمه، وأمثلته كثيرة. وأمثلة هذه الأقسام، وتفاصيل الآيات في كتب الناسخ والمنسوخ، وإنما غرضنا الإشارة الإجمالية الى مباحثة ليكون باعثاً على الرغبة في طلبه.

علم معرفة مشكل القرآن وموهم الاختلاف والتناقض

وصنف في هذا العلم قطرب.

واعلم أن كلام الله تعالى منزه عن الاختلاف والتناقض، لكن ربما يمكن لبعض الأذهان القاصرة توهم ذلك، ولذا أشار العلماء إلى دفعه، ولهذا قلنا: وموهم الاختلاف منها: قوله تعالى: ﴿أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين... إلى قوله طائعين﴾[1].

(١) سورة فصلت، آية: ٩.

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أم السماء بناها﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[2].

قال ابن عباس: خلق الأرض في يومين، فإن الأرض خلقت قبل السماء، وكانت السماء دخاناً، فسواهن سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض. وأما قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ يقول: جعل فيها جبلاً، وجعل فيها نهراً، وجعل فيها شجراً، وجعل فيها بحوراً. وأمثال هذا في القرآن كثير يعرفها من تتبعها.

علم معرفة مطلق القرآن ومقيده

المطلق: ما دل على الماهية بلا قيد، والمقيد بخلافه، ونسبته إلى المقيد نسبة العام إلى الخاص. قالوا: متى وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه وإلا فلا، بل يبقى كل منهما على حاله، لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب وضابطتهم على ذلك. والتفصيل فيه موكول إلى علم الأصول.

علم معرفة منطوق القرآن ومفهومه

المنطوق: ما دل عليه اللفظ في محل النطق، فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره فالنص، أو مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً فالظاهر، فإن حمل على المرجوح لدليل، فهو تأويل، ويسمى المرجوح المحمول عليه مؤولاً، ثم أن توقفت صحة دلالة اللفظ على اضمار، سميت دلالة اقتضاء، نحو: ﴿وأسأل القرية﴾، أي أهلها. وان لم يتوقف، ودل اللفظ على ما لم يقصد به سميت دلالة اشارة، كدلالة قوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾[3]، على صحة صوم من أصبح جنباً، لأن اباحة الجماع إلى طلوع الفجر، يستلزم كونه

---

(١) سورة النازعات، آية: ٢٧.

(٢) سورة النازعات، آية: ٣٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

جنباً في جزء من النهار.. وقد حكي هذا الاستنباط عن محمد بن كعب القرظي.

ثم المفهوم: ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق، وهو قسمان: **مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة.**

فالأول: ما يوافق حكمه المنطوق، فإن كان أولى، سمي فحوى الخطاب، كدلالة ﴿فلا تقل لهما أف﴾[1]، على تحريم الضرب لأنه أشد؛ وإن كان مساوياً سمي لحن الخطاب أي معنا، كدلالة ﴿الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾[2] على تحريم الاحراق لأنه مساو للأكل.

والثاني: ما يخالف حكمه المنطوق أنواع مفهوم، صفة نعتاً كان أو حالاً، أو ظرفاً، أو عدداً، ومفهوم شرط، ومفهوم حصر. والاختلاف في حجية هذه المفاهيم في علم الأصول.

قال بعضهم: اللفظ أما أن يدل بمنطوقه، ويسمى دلالة المنطوق؛ أو بفحواه ومفهومه، ويسمى دلالة المفهوم؛ أو باقتضائه وضرورته، ويسمى دلالة الاقتضاء؛ أو بمعقوله المستنبط منه، ويسمى دلالة الإشارة.

علم معرفة وجوه مخاطباته

واعلم أن الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهاً، وقيل: أكثر من ثلاثين. والقول الأول لأبن الجوزي:

الأول: خطاب العام أي العموم، كقوله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم﴾.

الثاني: خطاب الخاص أي الخصوص، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ﴾[3].

---

(٢) سورة الاسراء، آية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١٠.

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

الثالث: خطاب العام والمراد الخصوص، نحو: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾، لم يدخل فيه الأطفال والمجانين.

الرابع: عكس الثالث، نحو: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتكم النساء﴾[1].

الخامس: خطاب الجنس، نحو: ﴿يا أيها الناس﴾.

السادس: خطاب النوع، نحو: ﴿يا بني إسرائيل﴾.

السابع: خطاب العين، نحو: ﴿يا آدم اسكن﴾. قيل: ولم يقع في القرآن الخطاب بيا محمد، بل «يا أيها النبي»، و«يا أيها الرسول»، تعظيماً له وتشريفاً وتخصيصاً بذلك عمن سواه، وتعليماً للمؤمنين أن لا ينادوه باسمه.

الثامن: خطاب المدح، نحو: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. ولهذا وقع خطاباً لأهل المدينة الذين آمنوا وهاجروا.

التاسع: خطاب الذم، نحو: ﴿يا أيها الذين كفروا﴾.

العاشر: خطاب الكرامة، نحو: ﴿يا أيها النبي»، «يا أيها الرسول﴾.

الحادي عشر: خطاب الاهانة، نحو: «فإنك رجيم»، ونحو: «اخسئوا فيها».

الثاني عشر: خطاب التهكم، نحو: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾.

الثالث عشر: خطاب الجمع بلفظ الجمع، نحو: ﴿يا أيها الرسل﴾.

الرابع عشر: خطاب الواحد بلفظ الجمع، نحو قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا..﴾[2]، الآية، خطاب له صلى الله عليه وسلم وحده، بدليل قوله تعالى: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله..﴾[3] الآية.

---

(١) سورة الطلاق، آية: ١.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٦.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٧.

الخامس عشر: خطاب الواحد بلفظ الاثنين، نحو: «ألقيا في جهنم»، والخطاب لمالك خازن النار.

السادس عشر: خطاب الاثنين بلفظ الواحد، نحو: نحو: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾[1]، أي ويا هارون.

السابع عشر: خطاب الاثنين بلفظ الجمع، نحو: ﴿أن تبوءآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة﴾[2].

الثامن عشر: خطاب الجمع بلفظ الاثنين، نحو: «ألقيا»، كما تقدم.

التاسع عشر: خطاب الجمع بعد الواحد، نحو: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم﴾[3].

العشرون: عكسه، نحو: ﴿وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾[4].

الحادي والعشرون: خطاب الاثنين بعد الواحد، نحو: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكم الكبرياء..﴾ الآية[5].

الثاني والعشرون: عكسه، نحو: «من ربكما يا موسى».

الثالث والعشرون: خطاب العين، والمراد به الغير، نحو: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين﴾[6]، خاطب به صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمته لأنه صلى الله عليه وسلم كان تقياً ولا يمكن زواله عنه، وحاشاه من طاعة الكفار.

الرابع والعشرون: خطاب الغير، والمراد العين، أ نحو: ﴿لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم﴾[7].

---

(1) سورة طه، آية: ٤٩.
(2) سورة يونس، آية: ٨٧.
(3) سورة الطلاق، آية: ١.
(4) سورة يونس، آية: ٨٧.
(5) سورة يونس، آية: ٧٨.
(6) سورة الأحزاب، آية: ١.
(7) سورة الأنبياء، آية: ١٠.

الخامس والعشرون: الخطاب العام الذي لم يقصد به مخاطب معين، نحو: ﴿ولو ترى اذ وقفوا على النار﴾[1].

السادس والعشرون: خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره، نحو: ﴿إنا أرسلناك شاهداً..﴾[2]، إلى قوله «لتؤمنوا».

السابع والعشرون: خطاب التلوين وهو الالتفات.

الثامن والعشرون: خطاب الجمادات خطاب من يعقل، نحو: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾[3].

التاسع والعشرون: خطاب التهييج، نحو: ﴿وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين﴾[4].

الثلاثون: خطاب التحنن والاستعطاف، نحو ﴿يا عبادي الذين أسرفوا...﴾[5] الآية.

الحادي والثلاثون: خطاب التحبب، نحو: ﴿يا أبت لم تعبد﴾[6]، ﴿يا بني انها ان تك﴾[7]، ﴿يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي﴾[8].

الثاني والثلاثون: خطاب التعجيز، نحو: ﴿فأتوا بسورة﴾[9].

الثالث والثلاثون: خطاب التشريف، وهو خطاب العباد بلا واسطة.

الرابع والثلاثون: خطاب المعدوم، ويصح ذلك تبعاً لموجود، نحو: «يا بني آدم»، خطاب لأهل ذلك الزمان، ولكل ما بعدهم.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٢٧.
(٢) سورة الفتح، آية: ٨.
(٣) سورة فصلت، آية: ٥٣.
(٤) سورة المائدة، آية: ٢٣.
(٥) سورة الزمر، آية: ٥٣.
(٦) سورة مريم، آية: ٤٢.
(٧) سورة لقمان، آية: ١٦.
(٨) سورة طه، آية: ٩٤.
(٩) سورة البقرة، آية: ٢٣.

علم معرفة حقيقة ألفاظ القرآن ومجازها

لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن، وكذا المجاز عند الجمهور. وأنكر وقوع المجاز جماعة: منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية، وبعض من المالكية. وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب، وأن العدول إليه من ضيق الحقيقة.

والأول: القرآن منزه عنه.

والثاني: محال على الله تعالى. وهذه شبهة باطلة نشأت من عدم التفرقة بين المجاز والكذب، ومن عدم الوقوف على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ومن كون ايراد المجاز مع تيسر الحقيقة.

وصنف فيه عز الدين بن عبد السلام، ولخصه جلال الدين السيوطي في: (كتاب مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن)، مع زيادات كثيرة. وأنواع المجاز وتفصيل علاقاتها في علم البيان.

علم معرفة تشبيه القرآن واستعاراته

والتشبيه نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها. قال المبرد في (الكامل): لو قال قائل هو أكثر كلام العرب، لم يبعد. وهو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى. وقيل: هو الحاق شيء بذي وصف في وصفه، وقيل: هو أن يثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به.

والغرض منه: تأنيس النفس باخراجها من خفي إلى جلي، وادناء البعيد من القريب بياناً.

وأدواته: حروف: نحو الكاف وكان؛ وأسماء: نحو مثل وشبه ونحوها؛ وأفعال: نحو حسب وخيل، نحو: ﴿يحسبه الظمآن ماء﴾ [(١)]، و﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ [(٢)]. إلا أن الأصح أن الأفعال ليس من أدواته، بل هي

---

(١) سورة النور، آية: ٣٩.

(٢) سورة طه، آية: ٦٦.

من اماراته، فبقدر الأداة.

ثم أن لفظ المثل لا يستعمل إلا في حال أو صفة لها شأن، وفيها غرابة، نحو: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر...﴾ [1] الآية.

ثم أن الاستعارة مجاز علاقته المشابهة، و يعرف بلفظ مستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي، والأصح أنها مجاز لغوي لا عقلي. وأقسام التشبيهات والاستعارات مذكورة في علم البيان.

واعلم أن التشبيه من أعلى أنواع البلاغة كما تقدم. وأيضاً الاستعارة أبلغ منه لأنها مجاز وهو حقيقة، والمجاز أبلغ، فالاستعارة أبلغ مراتب الفصاحة. وكذا الكناية أبلغ من التصريح، والاستعارة أبلغ من الكناية، لأن الاستعارة مجاز وفي الكناية خلاف.

وأبلغ أنواع الاستعارة التمثيلية، و يليها المكنية؛ والترشيحية أبلغ من المجردة؛ والمطلقة والتخييلية أبلغ من التحقيقية. والمراد بالأبلغية افادة زيادة التأكيد، والمبالغة في كمال التشبيه، لا زيادة في المعنى لا توجد في غير ذلك.

وقد صنف أبو القاسم بن الهنداء البغدادي في تشبيهات القرآن كتاباً سماه: (الجمان). ولما كان أكثر قواعد هذا الفن مبيناً في علم البيان، آثرنا الاختصار.

علم معرفة كنايات القرآن وتعريضاته

وهما عند أهل البيان من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة. وقد تقرر أن الكناية أبلغ من التصريح، وعرفها أهل البيان بأنها: لفظ أريد به لازم معناه.

قال الطيبي: ترك التصريح بالشيء إلى ما يساو يه في اللزوم، فينتقل منه إلى الملزوم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٧.

وأنكر وقوعها في القرآن من أنكر المجاز فيه بناء على أنها مجاز، وقد تقدم الخلاف في ذلك. وللكناية أسباب:

أحدها: عظم القدرة، نحو: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾[1]. كني بها عن آدم.

وثانيها: ترك اللفظ إلى ما هو أجمل، نحو: ﴿له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة﴾[2]، كني بها عن المرأة؛ ترك التصريح بذكر النساء أجمل.

وثالثها: يقبح ذكر الصريح، نحو الملامسة، التي هي كناية عن الجماع.

ورابعها: قصد البلاغة والمبالغة، نحو قوله تعالى: (بل يداه مبسوطتان)[3]، كناية عن سعة جوده وكرمه جداً.

وخامسها: قصد الاختصار كالكناية عن ألفاظ متعددة بلفظ فعل، نحو: ﴿فإن لم تفعلوا﴾[4]، أي: فإن لم تأتوا بسورة من مثله.

وسادسها: التنبيه على مصيره، نحو: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾[5]، أي جهنمي مصيره إلى اللهب.

واعلم أن الأرداف من أنواع البديع؛ وهو أن يترك لفظ المعنى الموضوع هو له إلى ما يرادفه، يشبه الكناية، والفرق بينهما أن الكناية انتقال من لازم الى ملزوم، والأرداف من مذكور إلى متروك؛ مثال الأرداف، قوله تعالى: ﴿واستوت على الجودى﴾[6]، والأصل جلست وعدل إلى استوت، لأنه جلوس متمكن، لا زيغ فيه ولا ميل. وهذا لا يحصل من لفظ الجلوس، وله نظائر كثيرة جداً.

ثم اعلم أن التعريض أن يذكر شيئاً يدل به على شيء لم يذكره. وقيل:

---

(1) سورة الأعراف، آية: ١٨٩.
(2) سورة ص، آية: ٢٣.
(3) سورة المائدة، آية: ٦٤.
(4) سورة البقرة، آية: ٢٤.
(5) سورة المسد، آية: ١.
(6) سورة هود، آية: ٤٤.

الكناية، اللفظ الدال على معنى يجوز حمله على الحقيقة والمجاز بوصف جامع بينهما. والتعريض: اللفظ الدال على معنى، لا من جهة الوضع الحقيقي أو المجازي، كقول من يتوقع صلة: والله اني محتاج، فانه تعريض بالطلب، مع أنه لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، وانما فهم من عرض اللفظ، أي جانبه. هكذا ذكره ابن الأثير.

ومثال التعريض: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾[1]، نسب الفعل إلى كبيرهم، كأنه غضب أن تعبد الصغار معه، تلويحاً لعابديها بأنها لا تصلح أن تكون آلهة، لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل، والاله لا يكون عاجزاً، فهو حقيقة أبداً.

قال السبكي: التعريض قسمان: قسم يراد به معناه الحقيقي، ويشار به الى المعنى الآخر المقصود؛ وقسم لا يراد به، بل يضرب مثلاً للمعنى الذي هو مقصود التعريض كقول ابراهيم: «بل فعله كبيرهم هذا».

علم معرفة الحصر والاختصاص

أما الحصر، ويقال له القصر أيضاً، فهو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص؛ ويقال أيضاً: اثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه. وينقسم إلى قصر الموصوف على الصفة، وقصر الصفة على الموصوف. وكل منهما أما حقيقي أو مجازي.

وقصر الموصوف على الصفة حقيقياً لا يكاد يوجد لتعذر الإحاطة بجميع الأوصاف واثبات بعض منها، ونفي ما عداه بالكلية.

وينقسم الحصر أيضاً إلى أقسام أخر باعتبار آخر؛ وهو: قصر الأفراد، وقصر التعيين، وقصر القلب. وتفصيل هذه القواعد في علم البيان.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٦٣.

ثم أن من اتقنها يسهل عليه معرفتها من القرآن. ثم أن طرق الحصر كثيرة:

أحدها: النفي والاستثناء، سواء كان النفي بلا أوما أو غيرهما، وسواء كان الاستثناء بلا أو غير.

وثانيها: انما المكسورة، قيل بالمنطوق وقيل بالمفهوم.

وثالثها: انما بالفتح عند الزمخشري والبيضاوي في قوله تعالى: ﴿قل انما يوحى إليَّ أنما الهكم اله واحد﴾[1]. وصرح التنوخي في (أقصى القرب في صناعة الأدب)، بأنه فرع انما المكسورة، وما يثبت للأصل يثبت للفرع، ما لم يثبت مانع منه، والأصل عدمه. ورد أبو حيان على الزمخشري بأنه يلزمه انحصار الوحي في الوحدانية. وأجيب بأنه حصر مجازي باعتبار المقام.

الرابع: العطف بلا و بل؛ اتفق عليه أهل البيان، إلا أنه نازع فيه الشيخ بهاء الدين (السبكي) في: (عروس الأفراح)، فقال: أي قصر في العطف بلا إنما فيه نفي وإثبات، فقولك: زيد شاعر ولا كاتب، لا: تعرض فيه لنفي صفة ثالثة، والقصر إنما يكون بنفي الصفات غير المثبت حقيقة أو مجازاً، وليس هو خاصاً بنفي الصفة التي يعتقدها المخاطب. وأما العطف ببل فأبعد منه، لأنه لا يستمر فيها النفي والإثبات.

الخامس: تقديم المعمول، نحو: ﴿اياك نعبد﴾[2]، وخالف فيه قوم وسنذكره.

السادس: ضمير الفصل، نحو: ﴿فالله هو الولي﴾[3].

السابع: تقديم المسند إليه، على ما قال الشيخ عبد القاهر: قد يقدم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي. والحاصل على رأيه أن له أحوالاً:

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٨.

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٢) سورة الشورى، آية: ٩.

أحدها: أن يكون المسند إليه معرفة والمسند مثبتاً فيأتي للتخصيص نحو: أنا قمت، وأنا سعيت في حاجتك.

والثاني: أن يكون المسند منفياً، نحو: أنت لا تكذب.

وثالثها: أن يكون المسند إليه نكرة مثبتاً، نحو: رجل جاءني، أي لا امرأة أو رجلان.

ورابعها: أن يلي المسند إليه حرف النهي، ويقيده، نحو: ما أنا قلت هذا، أي لم أقله، مع أن غيري قاله. هذا حاصل رأي الشيخ عبد القاهر، ووافقه السكاكي، وزاد شروطاً وتفاصيل بسطوا فيها القول في موضعه.

الثامن: تقديم المسند، ذكره ابن الأثير وابن النفيس وغيرهما. ورده صاحب (الفلك الدائر) بأنه لم يقل به أحد، وهو ممنوع، إذ قد صرح به السكاكي وغيره بأن تقديم ما حقه التأخير، يفيد التخصيص، ومثلوه بنحو: تميمي أنا.

التاسع: ذكر المسند إليه، ذكره السكاكي والزمخشري في ﴿الله يبسط الرزق﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿والله يقول الحق﴾.

العاشر: تعريف الخبر. ذكر الإمام فخر الدين الرازي (في نهاية الإيجاز) أنه يفيد الحصر حقيقة أو مبالغة، نحو: المنطلق زيد. ومثله الزملكاني «بالحمد لله»، قال إنه يفيد الحصر، أي الحمد لله لا لغيره.

الحادي عشر: نحو: جاء زيد نفسه، نقل بعض شراح التلخيص عن بعضهم أنه يفيد الحصر.

الثاني عشر: نحو ان زيد القائم نقله المذكور آنفاً.

الثالث عشر: نحو قائم في جواب: زيد أما قائم أو قاعد. ذكره الطيبي في (شرح التبيان).

الرابع عشر: قلب بعض حروف الكلمة، فانه يفيد الحصر على ما نقل في

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٦.

الكشاف، في قوله تعالى: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾[1].

واعلم أن أهل البيان أطبقوا على أن تقديم المعمول يفيد الحصر، سواء كان مفعولاً أو ظرفاً أو مجروراً، ومثلوا بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[2]، وخالفهم ابن الحاجب في خطبة (المفصل) في قوله: الله أحمد، وقال التقديم للاهتمام والاختصاص الذي يتوهمه كثير من الناس وهم. واعترض أيضاً أبو حيان بنحو: ﴿أفغير الله تأمروني﴾[3].

وأجيب: بأنه لما كان من أشرك بالله غيره، كأنه لم يعبد الله، كان أمرهم بالشرك، كأنه أمر بتخصيص غير الله بالعبادة. ورد أيضاً صاحب (الفلك الدائر) بقوله تعالى: ﴿كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل﴾[4]، وهو أقوى ما رد به. وأجيب: بأنه لا يدعى فيه اللزوم بل الغلبة، وقد يخرج الشيء عن الغالب.

قال الشيخ بهاء الدين: وقد اجتمع الاختصاص وعدمه في قوله تعالى: ﴿أغير الله تدعون ان كنتم صادقين﴾[5]، «بل اياه تدعون، فإن التقديم الأول ليس للاختصاص والثاني للاختصاص. هذا وقال والده الشيخ تقي الدين السبكي في كتاب (الاقتناص) ما حاصله وتلخيصه أن البيانيين على افادة تقديم المعمول الاختصاص، ومن الناس من ينكر ذلك، ويقول انما يفيد الاهتمام فقط. إلا أن الاختصاص غير الحصر، والفضلاء لم يقولوا أنه يفيد الحصر، بل قالوا يفيد الاختصاص. والفرق بينهما أن الحصر اثبات المذكور ونفي غير المذكور؛ والاختصاص فصل الخاص من جهة خصوصه، إذ الخصوص مركب من معنى عام مشترك بين الشيئين أو أشياء، ومن معنى ينضم إليه

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٧.
(٢) سورة الفاتحة، آية: ٥.
(٣) سورة الزمر، آية: ٦٤.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٨٤.
(٥) سورة الأنعام، آية: ٤٠.

يفصله عن غيره، فقد يقصد افادة جهة عمومه، كقولك: ضربت زيداً؛ وقد يقصد افادة جهة خصوصه، كقولك: زيداً ضربت. وهذا هو الاختصاص، وأنه هو الأهم عند المتكلم، وهو الذي قصد افادته للسامع من غير تعرض، ولا قصد لغيره، باثبات ولا نفي، وفي الحصر معنى زائد عليه، وهو نفي ما عدا المذكور، وإنما جاء هذا في ﴿إياك نعبد﴾ للعلم بأن قائليه لا يعبدون غير الله، ولذا لم يطرد في بقية الآيات.

فالحصر على ثلاث مراتب:

احداها: ما وإلا، وهو أقوى طرقه لأنه بالمنطوق.

الثانية: الحصر بانما، وهو قريب من الأول، ودونه، لعدم ذكر النفي منطوقاً.

الثالثة: الحصر الذي قد يفيده التقديم، وليس هو على تقدير تسليمه مثل الحصرين الأولين، بل هو في قوة جملتين:

أحداهما: ما صدر به الحكم نفياً كان أو اثباتاً وهو المنطوق.

والأخرى: ما فهم من التقديم، والحصر يقتضي نفي المنطوق فقط دون ما دل عليه المفهوم، لأن المفهوم لا مفهوم له، فإذا قلت: أنا لا أكرم إلا إياك، أفاد التعريض بأن غيرك يكرم غيره، ولا يلزم أنك لا تكرمه. ثم طول السبكي في الكلام وقال آخر:

وهذا كله على تقدير تسليم الحصر، ونحن نمنع ذلك، ونقول إنه اختصاص، وأن بينهما فرقاً. قلت: ما ذكره من الفرق بين الحصر والاختصاص، مما استخرجه، فكري أيضاً، لكن افادة التقديم المذكور، الحصر قد شيد أركانه في بعض تعليقاتنا في علم المعاني.

علم معرفة الإيجاز والأطناب

أعلم أنهما من أعظم أنواع البلاغة، حتى نقل صاحب (سر الفصاحة) عن بعضهم أنه قال: البلاغة هي الإيجاز والأطناب. قال صاحب الكشاف: كما يجب للبليغ في مظان الاجمال أن يجمل و يوجز، فكذلك الواجب في موارد التفصيل، أن يفصل و يشيع. أنشد الجاحظ:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

واختلف: هل بين الايجاز والأطناب مساواة أم لا. فالسكاكي ومتابعوه أثبتوها، لكنهم جعلوها غير محمودة ولا مذمومة. وتفصيل هذا المقام في شروح المفتاح.

وأعلم أن الإيجاز والاختصاص واحد، وما قيل أن الاختصار خاص بحذف الجمل فقط، فقد رده الفضلاء. وأما الإسهاب والحشو والتطويل غير الأطناب، ولهذا قالوا: الأطناب زيادة لفائدة دون غيره.

ثم الإيجاز أما ايجاز قصر أو ايجاز حذف:

فالأول: هو الوجيز بلفظه. قال الشيخ بهاء الدين: الكلام القليل، ان كان بعضاً من كلام أطول منه فهو ايجاز حذف، وان كان كلاماً يعطي معنى أطول منه فهو ايجاز قصر. وقيل: ايجاز القصر هو تكثير المعنى بتقليل اللفظ. وقال آخر: هو أن يكون اللفظ بالنسبة إلى المعنى أقل من القدر المعهود عادة. وقال الطيبي في (التبيان):

الإيجاز الخالي من الحذف ثلاثة أقسام:

أحدها: ايجاز القصر؛ وهو أن يقصر اللفظ على معناه، كقوله تعالى: ﴿إنه من سليمان﴾ إلى قوله ﴿وائتوني مسلمين﴾[1]. جمع في أحرف العنوان والكتاب والحاجة.

---

(١) سورة النمل، آية: ٣١.

الثاني: ايجاز التقدير؛ وهو أن يقدر معنى زائد على المنطوق. ويسمى بالتضييق أيضاً، وبه سماه بدر الدين بن مالك في (المصباح).

الثالث: الإيجاز الجامع؛ وهو أن يحتوي على معان متعددة، نحو: ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان﴾[١] الآية. فان العدل: هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الأفراط والتفريط، أما في الاعتقاد أو الأخلاق أو الأعمال. والاحسان: هو الاخلاص في واجبات العبودية، كما فسره في الحديث بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه»، أي تعبده مخلصاً في نيتك، وواقفاً في الخضوع، آخذاً أهبة الحذر إلى ما لا يحصى. وايتاء ذي القربى: زيادة على الواجب. هذا في الأوامر. وفي النواهي؛ الفحشاء: اشارة إلى القوة الشهوانية، والمنكر: أشارة إلى افراط القوة الغضبية. والبغي: إلى الاستعلاء الفائض عن القوة الوهمية. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما في القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه الآية.

ومن بديع الايجاز: ﴿قل هو الله أحد...﴾[٢] إلى آخر السورة، فانها نهاية التنزيه، وقد تضمنت الرد على نحو أربعين فرقة. وقد أفرد ذلك بالتصنيف بهاء الدين بن شداد.

ومن أنواع الايجاز نوع مسمى بالتضمين؛ وهو حصول معنى في لفظ من غير ذكر له باسم هي عبارة عنه. قال القاضي أبو بكر: وهو نوعان:

أحدهما: ما يفهم من البنية، نحو معلوم، فانه يوجب أنه لا بد له من عالم.

والثاني: من معنى العبارة نحو: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فانه تضمن تعليم الاستفتاح في الأمور باسمه على جهة التعظيم لله والتبرك باسمه.

ومن ايجاز القصر: باب الحصر، سواء كان بالا أو بإنما أو بغيرهما من أدواته لأن الجملة فيها نائب مناب جملتين: وباب العطف، لأن حروفه وضعت

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٢) سورة الإخلاص، آية: ١.

للاغناء عن العامل، وباب النائب عن الفاعل، لأنه دل على الفاعل باعطائه حكمه، وعلى المفعول بوضعه؛ وباب الضمير لأنه وضع للاستغناء به عن الظاهر اختصاراً، ولذا لا يعدل إلى المنفصل مع امكان المتصل؛ وباب علمت أنك قائم، لأنه محتمل لأسم واحد سدمسد المفعولين من غير حذف؛ وباب التنازع إذا لم تقدر على رأي الفراء.

ومنها: طرح المفعول اقتصاراً على جعل المتعدي كاللازم.

ومنها: أدوات الاستفهام والشرط، فإن كم مالك يغني عن قول: أهو عشرون أم ثلاثون وهكذا.

ومنها: الالفاظ الملازمة للعموم كأحد.

ومنها: لفظ التثنية والجمع، فإنه يغني عن تكرير المفرد، وأقيم الحرف فيها مقامه اختصاراً.

ومما يصلح أن يعد من أنواعه: الاتساع، من أنواع البديع، وهو أن يؤتى بكلام يتسع فيه التأويل بحسب ما تحتمله ألفاظه من المعاني، كفواتح السور. ذكره ابن أبي الأصبع.

القسم الثاني من قسمي الايجاز: ايجاز الحذف. وفيه فوائد ذكر أسبابه: منها: مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره.

ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الاتيان (بالمحذوف)، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم. وهذه هي فائدة باب التحذير والاغراء.

ومنها: التفخيم والاعظام لما فيه من الابهام. قال حازم في (منهاج البلغاء): انما يحسن الحذف لقوة الدلالة عليه؛ أو يقصد به تعديد أشياء، فيكون في تعدادها طول وسآمة، فيحذف، ويكتفي بدلالة الحال، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها. قال: وهذا القصد يؤثر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس.

ومنها: التخفيف، لكثرة دورانه في الكلام، كما في حذف حرف النداء، نحو: ﴿يوسف أعرض﴾، [١]، ونون «لم يك»، و ياء ﴿والليل إذا يسر﴾[٢]. وسأل المؤرخ السدوسي الأخفش عن هذه الآية، فقال: عادة العرب أنها إذا عدلت عن بالشيء عن معناه نقصت حروفه، والليل لما كان لا يسرى، وانما يسرى فيه، نقص منه حرف، كما قال تعالى: ﴿ما كانت أمك بغياً﴾[٣]، الأصل بغية، فلما حول عن فاعل، نقص منه حرف.

ومنها: كونه لا يصلح إلا له: نحو: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾[٤].

ومنها: شهرته حتى يستوي ذكره وتركه. قال الزمخشري: وهو نوع من دلالة الحال التي لسانها أنطق من لسان المقال.

ومنها: صيانته عن ذكره تشريفاً.

ومنها: صيانة اللسان عنه تحقيراً له.

ومنها: قصد العموم، نحو: ﴿اياك نستعين﴾[٥]، أي على العبادة وعلى كل أمورنا.

ومنها: رعاية الفاصلة، نحو: «وماقلى»، أي وما قلاك.

ومنها: قصد البيان بعد الابهام، نحو: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[٦]، وقد ذكر أهل البيان أن مفعول المشية والارادة لا يذكر إلا إذا كان غريباً.

وأعلم أنهم فرقوا بين الحذف اقتصاراً واختصاراً. والأول: حذف بغير دليل؛ والثاني: الحذف بدليل. ثم الدليل أما حالي، نحو: ﴿قالوا سلاماً﴾، أي سلمنا سلاماً؛ أو مقالي، نحو: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا

---

(١) سورة يوسف، آية: ٢٩.
(٢) سورة الفجر، آية: ٤.
(٣) سورة مريم، آية: ٢٨.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٧٣.
(٥) سورة الفاتحة، آية: ٥.
(٦) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

خيراً﴾[1]، أي أنزل خيراً؛ أو دليل عقلي حيث يدل على أن الكلام لا يصح إلا بتقدير محذوف، فتارة يدل على أصل الحذف والتعيين من دليل آخر، نحو: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾[2]، والعقل يعلم أن الحرمة من صفات الأفعال، والميتة من الأعيان، فيعرف أن هناك حذفاً، وكون المحذوف تناولها مستفاد من الحديث، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «انما حرم أكلها».

وتارة يدل على تعيين المحذوف، نحو: ﴿وجاء ربك﴾، أي أمره، لأن العقل دل على استحالة مجيء الباري، لأنه من سمات الحادث، وعلى أن الجائي أمره.

وقد تدل عليه العادة تارة، نحو: «فذلكن الذي لمتنني فيه»، ولا يكون يوسف عليه السلام ظرفاً للوم عقلاً، فالعادة تعينه وهو المراودة، إذ الحب المفرط لا يلام عليه عادة، والمحتمل هما لا غير بدليل السياق. وتارة يدل عليه التصريح في موضع آخر، وهو أقوى الدلائل، نحو: «رسول من الله»، أي من عند الله، بدليل: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾[3].

ومن الأدلة على أصل الفعل العادة بأن لا يمنع العقل عن اجرائه على ظاهره من غير حذف، نحو: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾، والعقل وان جوز عدم علمهم بالقتال لكن العادة تمنعه، لأنهم كانوا أخبر الناس به، حتى كانوا يعيرون بعدم علمهم به، فلهذا قدر مجاهد: لو نعلم مكان قتال، و يدل عليه أنهم أشاروا على النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يخرج من المدينة.

قاعدة:

اعتبر الأخفش في الحذف التدريج حيث أمكن. ولهذا قال في: ﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً﴾[4]، أن الأصل لا تجزى فيه، فحذف حرف الجر، فصار تجزيه ثم حذف الضمير فصار تجزى. وهذه ملاطفة في

---

(١) سورة النحل، آية: ٣٠.
(٢) سورة المائدة، آية: ٣.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٠١.
(٤) سورة البقرة، آية: ٤٨.

الصناعة. ومذهب سيبويه أنهما حذفا معاً. قال ابن جني: وقول الأخفش أوفق في النفس، وآنس من أن يحذف الحرفان معاً في وقت واحد.

قاعدة:

ينبغي تقليل المقدر مهما أمكن لتقل مخالفة الأصل، ومن ثمة ضعف قول الفارسي في: ﴿ واللائي لم يحضن ﴾، أن التقدير فعدتهن ثلاثة أشهر، والأولى أن يقدر كذلك.

قال الشيخ عز الدين: ولا يقدر من المحذوفات إلا أشدها موافقة للغرض وأفصحها، لأن العرب لا يقدرون إلا ما لو لفظوا به لكان أحسن وأنسب لذلك الكلام، كما يفعلون ذلك في الملفوظ به، نحو: جعل الله الكعبة البيت الحرام، قدر أبو علي نصب الكعبة، وقدر غيره حرمة الكعبة، والثاني أفصح. ومهما تردد المحذوف بين الأحسن والحسن، وجب تقدير الأحسن، لأنه تعالى وصف كتابه بأحسن الحديث، فليكن محذوفاته أحسن المحذوفات، كما أن ملفوظه أحسن الملفوظ. ومتى تردد بين أن يكون مجملاً، أو مبيناً، فتقدير المبين أحسن.

قاعدة:

إذا دار الأمر بين كون المحذوف فعلاً والباقي فاعلاً، وبين كونه مبتدأ والباقي خبراً، فالثاني أولى، لأن المبتدأ عين الخبر، فالمحذوف عين الثابت فيكون حذفاً كلا حذف.

فأما الفعل فأنه غير الفاعل، اللهم الا أن يعتضد الأول برواية أخرى في ذلك الموضع أو موضع آخر يشبهه.

وأيضاً إذا دار الأمر بين كون المحذوف أولاً أو ثانياً، فكونه ثانياً أولى. ومن ثم رجح أن المحذوف في نحو: «أتحاجوني» نون الوقاية، لا نون الرفع؛ وفي «ناراً تلظى» التاء الثانية لا تاء المضارعة. وقد يجب كونه من الأول، نحو: ﴿ان الله وملائكته يصلون على النبي﴾[1]، في قراءة وملائكته بالرفع،

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٦.

لاختصاص الخبر بالثاني، لوروده بصيغة الجمع. وقد يجب كونه من الثاني، نحو: ﴿ ان الله بريء من المشركين ورسوله﴾[1]، أي بريء أيضاً لتقدم الخبر على الثاني.

واعلم أن الحذف على أنواع:

أحدها: ما يسمى بالاقتطاع. وهو حذف بعض حروف الكلمة، وأنكر ابن الأثير وروده في القرآن، ورد بأن من جعل كل حرف من فواتح السور اسماً من أسمائه تعالى مثله بها. وادعى بعضهم أن الباء في: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾[2] أول كلمة بعض، ثم حذف الباقي. ومنه قراءة بعضهم ونادوا يامال، بالترخيم، ولما سمعها بعض السلف، قال: ما أغنى أهل النار عن الترخيم. وأجاب بعضهم بأنهم لشدة ما بهم فيه عجزوا عن اتمام الكلمة، و يدخل في هذا النوع حذف أنا من قوله: ﴿لكنا هو الله ربي﴾[3]، إذ الأصل لكن أنا، حذفت همزة أنا تخفيفاً، ثم أدغمت النون في النون.

وثانيها: ما يسمى بالاكتفاء. وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفي بأحدهما عن الآخر لنكتة، ويختص غالباً بالارتباط العطفي، كقوله تعالى: ﴿وسرابيل تقيكم الحر﴾[4]، أي والبرد، وخصص الحر بالذكر، لأن الخطاب للعرب، والوقاية من الحر أهم في بلادهم لشدة الحر من البرد عندهم، وقيل: لأن البرد تقدم ذكر الامتنان بوقايته صريحاً في قوله تعالى: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾[5]، وفي قوله تعالى: ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾[6]، وفي قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء﴾[7]. ومن أمثلة هذا النوع: ﴿بيدك الخير﴾[8]، أي والشر، وانما خص الخير بالذكر

---

(1) سورة التوبة، آية: ٩.
(2) سورة المائدة، آية: ٦.
(3) سورة الكهف، آية: ٣٨.
(4) سورة النحل، آية: ٨١.
(5) سورة النحل، آية: ٨٠.
(6) سورة النحل، آية: ٨١.
(7) سورة النحل، آية: ٥.
(8) سورة آل عمران، آية: ٢٦.

لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم، أو لأنه أكثر وجوداً في العالم، أو لأن اضافة الشر إلى الله تعالى، ليس من باب الأدب، كما قال صلى الله عليه وسلم: والشر ليس اليك».

ومنها: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾[1]، أي وما تحرك، وخص السكون بالذكر لأنه أغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد، ولأن كل متحرك يصير إلى السكون.

ومنها: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[2]، أي والشهادة، لأن الإيمان بكل منهما واجب، وآثر الغيب لأنه أمدح ولأنه يستلزم للإيمان بالشهادة من غير عكس.

ومنها: ﴿ورب المشارق﴾، أي والمغارب.

ومنها: ﴿هدى للمتقين﴾، أي وللكافرين. قال ابن الأنباري: و يؤيده: قوله تعالى: ﴿هدى للناس﴾.

ومنها: ﴿ان امرؤ هلك ليس له ولد﴾[3]، أي ولا والد، بدليل أنه أوجب للأخت النصف، وانما يكون ذلك مع فقد الأب لأنه يسقطها.

وثالثها: ما يسمى بالاحتباك. وهو من ألطف الأنواع وأبدعها، وقل من تنبه له أو نبه عليه من أهل فن البلاغة، ولم أره إلا في (شرح بديعية الأعمى) لرفيقه الأندلسي، وذكره الزركشي في (البرهان)، ولم يسمه هذا الأسم، بل سماه الحذف المقابلي.

وأفرده بالتصنيف العلامة برهان الدين البقاعي.

قال الأندلسي في (شرح البديعية):

من أنواع البديع: الاحتباك؛ وهو نوع عزيز؛ وهو أن يحذف من الأول ما

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١٧٦.

أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول، كقوله تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق﴾ الآية. التقدير: ومثل الأنبياء والكفار، كمثل الذي ينعق والذي ينعق به، فحذف من الأول: الأنبياء، لدلالة الذي ينعق عليه، ومن الثاني: الذي ينعق به، لدلالة الذين كفروا عليه. وقوله تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء﴾[1]، فحذف من الأول تدخل غير بيضاء، ومن الثاني وأخرجها.

قال الزركشي: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كل واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه. ومن أمثلته: «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً»، أي عملاً صالحاً بسيء، وآخر سيئاً بصالح. ومن لطيفه قوله تعالى: ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾[2]، أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت. وله في القرآن نظائر. وهو أبلغ ما يكون من الكلام. ومأخذ هذه التسمية من الحبك، الذي معناه الشد والأحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب؛ فحبك الثوب سد ما بين خيوطه من الفرج، وشده وأحكامه، بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق. وبيان أخذه منه أن مواضع الحذف من الكلام، شبهت بالفرج بين الخيوط، فلما أدركها الناقد البصير بصوغه الماهر في نظمه وحوكه، فوضع المحذوف مواضعه، كان حائكاً له، مانعاً من خلل يطرقه، فسد بتقديره ما يحصل به الخلل، مع ما أكسبه من الحسن والرونق.

النوع الرابع: ما يسمى بالاختزال؛ وهو ما ليس واحداً مما سبق. وهو أقسام؛ لأن المحذوف أما كلمة اسم، أو فعل، أو حرف، أو أكثر.

أمثلة حذف الاسم:

حذف المضاف: وهو كثير في القرآن جداً، حتى قال ابن جني: في القرآن منه زهاء ألف موضع.

---

(١) سورة النمل، آية: ١٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٩.

حذف المبتدأ: يكثر في جواب الاستفهام، نحو: ﴿وما أدراك ماهية نار﴾[1]، أي هي نار؛ وبعد فاء الجواب، نحو: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ أي فعمله لنفسه، ﴿ومن أساء فعليها﴾[2]، أي اساءته عليها؛ وبعد القول، نحو: ﴿وقالوا أساطير الأولين﴾[3]؛ وبعدما الخبر صفة له في المعنى، نحو: ﴿صم بكم عمى﴾[4].

وحذف الخبر: نحو: ﴿أكلها دائم وظلها﴾[5]، أي دائم؛ ويحتمل الأمرين، نحو: «فصبر جميل»، أي أجمل، أو فأمري صبر جميل.

حذف الصفة، نحو: ﴿يأخذ كل سفينة﴾[6]، أي صالحة، بدليل أنه قرىء كذلك.

حذف المعطوف عليه، نحو: ﴿أن أضرب بعصاك الحجر فانفلق﴾[7]، أي فضرب فانفلق.

وحذف المعطوف مع العاطف، نحو: ﴿بيدك الخير﴾[8] أي والشر.

حذف المبدل منه، نحو ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب﴾[9]، أي لما تصفه، والكذب بدل من الهاء.

حذف الفاعل: لا يجوز إلا في فاعل المصدر، نحو: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾[10]، أي من دعائه. وجوزه الكسائي مطلقاً لدليل، وخرج عليه: ﴿إذا بلغت التراقي﴾[11]، أي الروح؛ ﴿حتى توارت بالحجاب﴾[12]، أي الشمس.

---

(1) سورة القارعة، آية: ١١.
(2) سورة فصلت، آية: ٤٦.
(3) سورة الفرقان، آية: ٥.
(4) سورة البقرة، آية: ١٨.
(5) سورة الرعد، آية: ٣٥.
(6) سورة الكهف، آية: ٧٩.
(7) سورة الأعراف، آية: ١٦٠.
(8) سورة آل عمران، آية: ٢٦.
(9) سورة النحل، آية: ١١٦.
(10) سورة فصلت، آية: ٤٩.
(11) سورة القيامة، آية: ٢٦.
(12) سورة ص، آية: ٣٢.

حذف المفعول: تقدم أنه كثير في مفعول المشية والإرادة، ويرد في غيرهما، نحو: ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾[1]، أي إلـهاً؛ ﴿كلا سوف تعلمون﴾، أي عاقبة أمركم.

حذف الحال: يكثر اذا كان قولاً، نحو: ﴿الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام﴾[2]، أي قائلين.

حذف المنادى: ألا يا اسجدوا؛ أي يا هؤلاء. يا ليت: أي يا قوم.

حذف العائد: يقع في أربعة أبواب: الصلة، نحو: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾[3]، أي بعثه الله؛ والصفة، نحو: ﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس﴾[4]، أي فيه؛ والخبر، نحو: ﴿وكلا وعد الله﴾[5] أي وعده؛ والحال.

حذف مخصوص نعم: ﴿انا وجدناه صابراً نعم العبد﴾[6]، أي أيوب.

حذف الموصول: ﴿آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم﴾[7]، أي والذي أنزل اليكم، لأن الذي أنزل الينا غير الذي أنزل اليكم، فيقدر.

حذف الفعل:

يطرد إذا كان مفسراً، نحو: ﴿وان أحد من المشركين استجارك﴾[8].

حذف الحرف

قيل: حذف الحرف ليس بقياس، لأن الحروف للأختصار، فلو كنت تحذفها، لكنت تختصرها، واختصار المختصر إجحاف به.

حذف همزة الاستفهام، نحو: ﴿وتلك نعمة تمنها عليّ﴾[9]، أي: أو تلك.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٢.
(٢) سورة الرعد، آية: ٢٣.
(٣) سورة الفرقان، آية: ٤١.
(٤) سورة البقرة، آية: ٤٨، وآية: ١٢٣.
(٥) سورة الحديد، آية: ١٠.
(٦) سورة ص، آية: ٤٤.
(٧) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.
(٨) سورة التوبة، آية: ٦.
(٩) سورة الشعراء، آية: ٢٢.

حذف الموصول الحرفي

قال ابن مالك: لا يجوز إلا في أن، نحو: ﴿ومن آياته يريكم البرق﴾[1].

حذف الجار

يطرد مع أن وإن، نحو: ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾[2]، أي بأن، ونحو: ﴿يعدكم أنكم﴾، أي بأنكم؛ وجاء مع غيرهما، نحو: ﴿قدرناه منازل﴾، أي قدرنا له، ﴿واختار موسى قومه﴾، أي من قومه.

حذف العاطف

نحو: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾[3]، أي ووجوه، عطفاً على: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾[4].

حذف فاء الجواب

نحو: ﴿ان ترك خيراً الوصية للوالدين﴾[5].

حذف حرف النداء

كثير، نحو: ﴿يوسف أعرض﴾[6]. وفي العجائب للكرماني: كثر حذف ياء في القرآن من الرب تنزيهاً وتعظيماً، لأن في النداء طرفاً من الأمر، نحو: ﴿رب إني وهن العظم﴾[7].

حذف قد: في الماضي، إذا وقع حالاً، نحو: ﴿أو جاؤكم حصرت صدورهم﴾[8]؛ أي قد حصرت.

---

(١) سورة الروم، آية: ٢٤.
(٢) سورة الحجرات، آية: ١٧.
(٣) سورة الغاشية، آية: ٨.
(٤) سورة الغاشية، آية: ٢.
(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٠.
(٦) سورة يوسف، آية: ٢٩.
(٧) سورة مريم، آية: ٤.
(٨) سورة النساء، آية: ٩٠.

حذف لا النافية

يطرد في جواب القسم، إذا كان المنفي مضارعاً، نحو: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾[1]، أي لا يطيقونه».

حذف لام المتوطئة

نحو: ﴿وان أطعتموهم إنكم لمشركون﴾[2].

حذف لام الأمر

نحو: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا﴾[3].

حذف لام لقد

يحسن مع طول الكلام، نحو: ﴿قد أفلح من زكاها﴾[4].

حذف نون التوكيد

نحو قراءة ألم نشرح بالنصب.

حذف نون الجمع

عليه قراءة: ﴿وما هم بضارين به من أحد﴾[5].

حذف التنوين

عليه قراءة: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾[6] بالنصب.

حذف حركة الأعراب والبناء

وعليه قراءة: بارئكم، و يأمركم بسكونها.

أمثلة حذف اكثر من كلمة

حذف مضافين

نحو: ﴿من أثر الرسول﴾[7]، أي من أثر حافر فرس الرسول.

حذف ثلاثة مضافات

نحو: ﴿فكان قاب قوسين﴾[8] أي كان مقدار مسافة قربة مثل قاب

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٤.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢١.
(٣) سورة ابراهيم، آية: ٣١.
(٤) سورة الشمس، آية: ٩.
(٥) سورة البقرة، آية: ١٠٢.
(٦) سورة يس، آية: ٤٠.
(٧) سورة طه، آية: ٩٦.
(٨) سورة النجم، آية: ٩.

قوسين، فحذف ثلاثة من اسم كان، وواحد من خبرها.

حذف مفعولي باب ظن

﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾[1]، أي تزعمونهم شركاء.

حذف الجار مع المجرور

﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ أي بسيء، ﴿وآخر سيئاً﴾، أي بصالح[2].

حذف العاطف مع المعطوف

تقدم

حذف الشرط وفعله

يطرد بعد الطلب، نحو: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾[3]، أي أن اتبعتموني.

حذف جواب الشرط

نحو: ﴿ولو جئنا بمثله مدداً﴾[4]، أي لنفد البحر.

حذف جملة القسم

نحو: ﴿لأعذبنه عذاباً﴾[5]، أي والله.

حذف جوابه

﴿والنازعات غرقاً﴾[6] الآيات، أي لتبعثن؛ ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾[7]، أي لمعجز.

حذف جملة مسببة عن المذكور

نحو: ﴿ليحق الحق و يبطل الباطل﴾[8]، أي فعل ما فعل.

حذف جمل كثيرة

نحو: ﴿فأرسلون يوسف أيها الصديق﴾[9] أي فأرسلون إلى يوسف، لأستعبره الرؤيا، ففعلوا، فأتاه، فقال له: يا يوسف.

---

(١) سورة القصص، آية: ٦٢، وآية: ٧٤.
(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٢.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٣١.
(٤) سورة الكهف، آية: ١٠٩.
(٥) سورة النمل، آية: ٢١.
(٦) سورة النازعات، آية: ١.
(٧) سورة ص، آية: ١.
(٨) سورة الأنفال، آية: ٨.
(٩) سورة يوسف، آية: ٤٥، ٤٦.

واعلم أنه تارة لا يقام شيء مقام المحذوف كما تقدم، وتارة يقام ما يدل عليه، نحو: ﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم﴾[1]، فليس الإبلاغ هو الجواب لتقدمه على توليهم، وانما التقدير: فإن تولوا فلا لوم عليَّ، أو فلا عذر لكم، لأني أبلغتكم.

إذا عرفت حال الايجاز، وأنه ينقسم إلى ايجاز قصر وايجاز حذف.

فاعلم أن الأطناب ينقسم إلى بسط وزيادة.

فالأول: يكون بتكثير الجمل، كقوله تعالى: ﴿ان في خلق السموات والأرض..﴾[2] الآية في سورة البقرة، أطنب فيها أبلغ أطناب لكون الخطاب مع الثقلين، وفي كل عصر وحين، للعالم منهم والجاهل، والموافق والمنافق.

الثاني: يكون بالمفردات، وذلك أنواع:

أحدها: دخول حرف فأكثر من حروف التأكيد السابقة في نوع الأدوات وهي: إن، وأن، ولام الابتداء، والقسم، والا الاستفتاحية، وايا، وها للتنبيه، وكأن في تأكيد التشبيه، ولكن في تأكيد الاستدراك، وليت في تأكيد التمني، ولعل في تأكيد الترجي، وضمير الشأن، وضمير الفصل، وأما في تأكيد الشرط، وقد، والسين، وسوف، والنونان في تأكيد الفعلية، ولا التبرئة، ولن، ولما في تأكيد النفي. وانما يحسن تأكيد الكلام بها إذا كان المخاطب به منكراً أو متردداً. و يتفاوت التأكيد بحسب قوة الانكار وضعفه. وقد تقرر تفصيله في علم المعاني.

الثاني: دخول الأحرف الزائدة. قال ابن جني: كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام اعادة الجملة مرة أخرى. وقال الزمخشري في كشافه: تقديم الباء في خبر ما وليس لتأكيد النفي، كما أن اللام لتأكيد الايجاب.

الثالث: التأكيد الصناعي، وهو أربعة أقسام:

---

(١) سورة هود، آية: ٥٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٦٤.

أحدها: التوكيد المعنوي بكل وأجمع وكلا وكلتا، وفائدته رفع توهم المجاز وعدم الشمول.

وثانيها: التأكيد اللفظي، وهو تكرار اللفظ، أما بمرادفه، نحو: «ضيقاً حرجاً»، وأما بلفظه، في الأسم، نحو: ﴿دكا دكا﴾، وفي الفُعل، نحو: ﴿فهل الكافرين أمهلهم﴾، واسم الفعل، نحو: ﴿هيهات هيهات»، والحرف، نحو: ﴿في الجنة خالدين فيها﴾، والجملة، نحو: ﴿فإن مع العسر يسراً. ان مع العسر يسراً﴾[1]. والأحسن اقتران الثانية بثم، نحو: ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾[2].

ومن هذا النوع: تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل، نحو: ﴿أسكن أنت وزوجك﴾[3]، ﴿وأما أن تكون نحن الملقين﴾[4]؛ ومن تأكيد المنفصل بمثله، نحو: ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾.

وثالثها: تأكيد الفعل بمصدره، وهو عوض من تكرار الفعل مرتين، وفائدته رفع توهم المجاز في الفعل بخلاف التوكيد السابق، فإنه لرفع توهم المجاز في المسند إليه. مثاله: ﴿وسلموا تسليماً﴾[5].

والأصل أن ينعت بالوصف المراد، نحو: ﴿أذكروا الله ذكراً كثيراً﴾[6]، ﴿وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾[7]. وقد يضاف وصفه اليه، نحو: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾[8]. وقد يؤكد بمصدر فعل آخر، واسم عين نيابة عن المصدر، نحو: ﴿وتبتل اليه تبتيلاً﴾[9]، والمصدر تبتلاً؛ ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾[10]، أي إنباتاً، والنبات اسم عين.

---

(١) سورة الشرح، الآيتان: ٥، ٦.
(٢) سورة التكاثر، الآيتان ٣، ٤.
(٣) سورة البقرة، آية: ٣٥.
(٤) سورة الأعراف، آية: ١١٥.
(٥) سورة البقرة، آية: ٥٦.
(٦) سورة الأحزاب، آية: ٤١.
(٧) سورة الأحزاب، آية: ٤٩.
(٨) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.
(٩) سورة المزمل، آية: ٨.
(١٠) سورة نوح، آية: ١٧.

ورابعها: الحال بالمؤكدة نحو: ﴿يوم أبعث حياً﴾[1]، و﴿لا أرسلناك للناس رسولاً﴾[2].

الرابع: التكرير، وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة، خلافاً لبعض من غلط. وله فوائد:

منها: التقرير. وقد قيل: الكلام اذا تكرر، تقرر. قال تعالى: ﴿وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون﴾[3]، ﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾. وهذا هو السبب في تكرير الأقاصيص والانذار في القرآن.

ومنها: التأكيد.

ومنها: زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة، ليكمل تلقي الكلام بالقبول. ومنه: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد. يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع﴾[4] فإنه كرر فيه النداء لذلك.

ومنها: إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانياً، تطرئة له وتجديداً لعهده، نحو: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم﴾[5].

ومنها: التعظيم والتهويل، نحو: ﴿الحاقة ما الحاقة﴾[6]، و﴿القارعة ما القارعة﴾[7]، ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾[8].

واعلم أنه قد يورد في صورة التكرار وليس منه، كالقصص المتكررة. مثلاً: ذكر الله موسى في كتابه في مائة وعشرين موضعاً، وقصة نوح في خمس وعشرين آية، وذكر قصة موسى في سبعين آية.

وألف البدر بن جماعة كتاباً سماه: (المقتص في فوائد تكرار القصص). وذكر فوائد:

---

(٩) سورة مريم، آية: ٣٣.

(١٠) سورة النساء، آية: ٧٩.

(١١) سورة طه، آية: ١١٣.

(١) سورة غافر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة يوسف، آية: ٤.

(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة القارعة، الآيتان: ١، ٢.

(٥) سورة الواقعة، آية: ٢٧.

منها: أن في كل منها زيادة ليست في الأخرى، أو ابدال كلمة بالأخرى، وهذه عادة البلغاء.

ومنها: أن الرجال من الطوائف يترددون، فكرر لئلا يفوت عن كل طائفة كل هذه القصص.

ومنها: أن في ابراز الكلام في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة، ما لا يخفى من الفصاحة.

ومنها أن الدواعي تتوفر على نقل الأحكام دون القصص، فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

ومنها: أن فيه اظهار عجز القوم، لأنهم عجزوا عنه بأي نظم جاءوا، وبأي عبارة عبروا.

ومنها: أنه لما تحداهم، وقال: ﴿فائتوا بسورة من مثله﴾[1]، لربما توهم أنكم تعجزون كعجزنا، فكرر دفعاً لهذا الوهم.

ومنها: أن النفوس مجبولة على حب التنقل في الأشياء المتجددة واستلذاذها.

وأيضاً مع هذا التكرير، لم يحصل فيه الجنة، ولا ملل لسامعه، فباين كلام المخلوقين.

وأما الحكمة في عدم تكرير قصة يوسف عليه السلام، فوجوه:

أحدها: الاغضاء عن عشق النسوة وسترها أولى.

وثانيها: أن فيها حصول الفرج بعد الشدة، فتتوفر الدواعي على نقلها من غير تكرير.

وثالثها: لم تكرر اشارة كررها، اشارة الى عجز العرب، كأنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: إن كان القرآن من البشر، فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في سائر القصص. وهذا ما ذكره الأستاذ أبو إسحق الاسفرايني.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣.

ورابعها: أنها نزلت بسبب طلب الصحابة، فنزلت مبسوطة تامة. قلت: وهذا الوجه جواب لبسطها، لا لعدم تكريرها، والكلام في التكرير.

وخامسها: وهو أقوى الوجوه: أن سائر القصص أنزلت لافادة إهلاك من كذبوا الرسل، والتنبيه على المشركين بذلك، والحاجة إلى هذا متكررة بخلاف قصة يوسف. وبهذا يعلم وجه عدم تكرير قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح.

فإن قلت: قد تكررت قصة ولادة يحيى، وولادة عيسى مرتين، وليست من قبيل ما ذكرت. قلت:

الأولى: في سورة كهيعص وهي مكية، أنزلت خطاباً لأهل مكة.

والثانية: في سورة آل عمران وهي مدنية، أنزلت خطاباً لليهود ونصارى نجران حين قدموا، ولهذا اتصل بها ذكر المحاجة والمباهلة.

النوع الخامس: الصفة؛ وترد لأسباب:

أحدها: التخصيص في النكرة، نحو: «فتحرير رقبة مؤمنة»[1].

الثاني: التوضيح في المعرفة؛ أي لزيادة البيان، نحو: ﴿ورسوله النبي الأمي﴾[2].

الثالث: المدح والثناء، نحو صفات الله تعالى.

الرابع: الذم، نحو: «الرجيم».

الخامس: التأكيد لرفع الابهام، نحو: ﴿لا تتخذوا الهين اثنين﴾[3]، فنهي الاتخاذ لكونهما اثنين، لا لمعنى آخر، من كونهما عاجزين أو غير ذلك. فكما أن الوحدة للنوعية، ولنفي العدد، كذلك نفي التثنية قد يكون لنفي الوحدة النوعية، وقد يكون لنفي الاثنينية.

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

(٣) سورة النحل، آية: ٥١.

فائدة:

الصفة العامة لا تأتي بعد الصفات الخاصة، فلا يقال: فصيح متكلم، بل يعكس. ويشكل في اسماعيل: ﴿وكان رسولاً نبياً﴾[1]. ويجاب: بأنه حال، أي مرسلاً لا صفة. واذا وقعت الصفة بين متضائفين أولهما عدد، جاز اجراؤها على المضاف، نحو: ﴿سبع سموات طباقاً﴾[2]؛ وعلى المضاف اليه، نحو: ﴿سبع بقرات سمان﴾[3]. وإذا تكررت النعوت لواحد، فإن تباعد معانيها، فالأحسن العطف، نحو: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[4]، وإلا تركه، نحو: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين. هماز مشاء بنميم...﴾[5] الآية.

فائدة:

قطع النعوت في مقام المدح والذم أبلغ من اجرائها، لأن المقام يقتضي الأطناب، والمعاني عند الاختلاف تتنوع وتتفنن، وعند الاتحاد تكون نوعاً واحداً. مثاله في المدح: ﴿والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة﴾[6] إلى قوله تعالى ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين﴾[7]؛ ومثاله في الذم ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾[8].

النوع السادس: البدل؛ والقصد به الإيضاح بعد الابهام؛ وفائدته البيان والتأكيد. أما البيان فواضح؛ وأما التأكيد فلأنه على نية تكرير العامل، فكأنه من جملتين، ولأنه دل على ما دل عليه الأول: أما بالمطابقة في بدل الكل وأما بالتضمن في بدل البعض، أو بالالتزام في بدل الاشتمال.

النوع السابع: عطف البيان. وهو في الإيضاح كالصفة، لكن يفارقها في أنه وضع ليدل على الايضاح باسم مختص به، بخلاف الصفة، فإنها وضعت

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٤.
(٢) سورة الملك، آية: ٣.
(٣) سورة يوسف، آية: ٤٣.
(٤) سورة الحديد، آية: ٣.
(٥) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.
(٦) سورة النساء، آية: ١٦٢.
(٧) سورة البقرة، آية: ١٧٧.
(٨) سورة المسد، آية: ٤.

لتدل على معنى حاصل في متبوعها، ويفارق البدل بأن البدل هو المقصود، كأنك قررته في موضع المبدل منه، وعطف البيان؛ وما عطف عليه، كل منهما مقصود.

النوع الثامن: عطف أحد المترادفين على الآخر؛ والقصد منه التأكيد أيضاً، نحو: ﴿انما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾[1]. وأنكر المبرد وجود هذا في القرآن، وأول ما وجد منه باختلاف المعنيين. وقال من جوز وجوده، أن في مجموع المترادفين معنى لا يوجد عند انفرادهما، فإن التركيب يحدث معنى زائداً، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد معنى زائداً، ففي كثرة الألفاظ أولى.

النوع التاسع: عطف الخاص على العام، للتنبيه على فضله، حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات.

وحكى أبو حيان عن شيخه، أنه سماه بالتجريد، كأنه جرد من الجملة، وأفرده بالذكر تفضيلاً، نحو: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾[2] ومما ينبغي أن ينبه عليه أن المراد بالعام ما كان شاملاً، وبالخاص ما كان مشمولاً، لا مصطلح الأصوليين.

النوع العاشر: عطف العام على الخاص. وأنكر بعضهم وجوده، فأخطأ، لوضوح فائدته، وهي التعميم. والاهتمام بالأول لأفراده بالذكر، نحو: ﴿ان صلاتي ونسكي﴾[3]؛ ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾[4]. ونظائره كثيرة في القرآن.

النوع الحادي عشر: الإيضاح بعد الابهام. وفائدته: رؤية المعنى في صورتين مختلفتين من الابهام والايضاح، أو لتمكن المعنى تمكناً قوياً، إذ المحصول بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب؛ أو لتكمل لذة العلم به، فإن الشيء إذا

---

(1) سورة يوسف، آية: ٨٦.
(2) سورة البقرة، آية: ٢٣٨.
(3) سورة الأنعام، آية: ١٦٢.
(4) سورة الحجر، آية: ٨٧.

علم من وجه، ما تشوقت النفس للعلم بباقي وجوهه وتأملت، فإذا عرفتها، كانت لذته أشد من لذة ما عرف من جميع الوجوه دفعة واحدة. ومنه: ﴿رب اشرح لي صدري و يسر لي أمري﴾[1].

النوع الثاني عشر: التفسير. قال أهل البيان: وهو أن يكون في الكلام لبس وخفاء، فيؤتى بما يزيله و يفسره، نحو: ﴿ان الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً. وإذا مسه الخير منوعاً﴾[2].

النوع الثالث عشر: وضع الظاهر موضع المضمر. وألف فيه ابن الصائغ تأليفاً مفرداً. وله فوائد:

منها: زيادة التقرير والتمكين، نحو: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد﴾[3]، مكان هو الصمد؛ ونحو: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾[4]، مكان و به نزل. وله نظائر كثيرة في القرآن.

ومنها: قصد التعظيم، نحو ﴿واتقوا الله و يعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾[5].

ومنها: قصد الاهانة والتحقير، نحو: ﴿أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان﴾[6]، مكان ألا أن حزبه.

ومنها: ازالة اللبس، حيث يوهم الضمير أنه عين الأول، نحو: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك﴾[7]، إذ لو قال: تؤتيه، لأوهم أنه الأول: ونحو: ﴿الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء﴾[8]، ولو قال: دائرته، لأوهم أن الضمير عائد إلى الله.

ومنها: قصد تربية المهابة، وادخال الروع على ضمير السامع، بذكر الأهم المقتضى لذلك، كما يقول الخليفة: أمير المؤمنين يأمرك بكذا.

---

(1) سورة طه، آية: ٢٥.
(2) سورة المعارج، آية: ١٩.
(3) سورة الإخلاص، الآيتان: ١، ٢.
(4) سورة الإسراء، آية: ١٠٥.
(5) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.
(6) سورة المجادلة، آية: ١٩.
(7) سورة آل عمران، آية: ٢٦.
(8) سورة الفتح، آية: ٦.

ومنها: قصد تقوية داعي المأمور، نحو: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين﴾[1].

ومنها: تعظيم الأمر، نحو: ﴿أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق﴾[2].

ومنها: الاستلذاذ بذكره، نحو: ﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة﴾[3]، ولم يقل منها..

ومنها: التوصل بالظاهر إلى الوصف، نحو: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾[4].

ومنها: التنبيه على علة الحكم، نحو: ﴿فبدل الذين ظلموا﴾.. إلى قوله تعالى: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾[5]، حيث لم يقل: عدو لهم، إعلاماً بأن من عادى لهم فهو كافر، وأن الله انما عاداه الكفرة.

ومنها: قصد العموم، نحو: ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة﴾[6] لم يقل: إنها، لئلا يفهم تخصيص ذلك بنفسه.

ومنها: قصد الخصوص، نحو: ﴿إن وهبت نفسها للنبي﴾[7]، لم يقل لك تصريحاً بأنه خاص به.

ومنها: الاشارة إلى عدم دخول الجملة الثانية في حكم الأولى، نحو: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل﴾[8]، فإن يمحو الله استئناف لا داخل في حكم الشرط.

ومنها: مراعاة الجناس، نحو: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾[9] إلى آخر السورة.

ومنها: مراعاة الترصيع وتوازن الألفاظ في التركيب، نحو قوله تعالى: ﴿أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى﴾[10].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ١٩.
(٣) سورة الزمر، آية: ٧٤.
(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.
(٥) سورة البقرة، الآيات: ٥٩-٩٨.
(٦) سورة يوسف، آية: ٥٣.
(٧) سورة الأحزاب، آية: ٥٠.
(٨) سورة الشورى، آية: ٢٤.
(٩) سورة الناس، آية: ١.
(١٠) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

النوع الرابع عشر: الايغال. وهو الامعان، وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها. وتوهم أنه خاص بالشعر، مردود بأنه وقع في القرآن، نحو: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾[1]، فقوله: وهم مهتدون، يتم المعنى بدونه، إذ الرسول مهتد لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسول، والترغيب فيه، وله غير هذا نظير في القرآن.

النوع الخامس عشر: التذييل. وهو أن يؤتى بجملة عقيب جملة، والثانية تشتمل على معنى الأولى، لتأكيد منطوقه أو مفهومه، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرر عند من فهمه، نحو: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾[2].

النوع السادس عشر: الطرد والعكس. هو أن يؤتى بكلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس، نحو: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[3]. وهذا نظير الاحتباك في الايجاز.

النوع السابع عشر: التكميل، ويسمى بالاحتراس. وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، نحو: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[4]، فإنه لو اقتصر على: أذلة، لتوهم أنه لضعفهم؛ ومثله: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[5]، ولو اقتصر على: أشداء، لتوهم أنه لغلظهم.

النوع الثامن عشر: التتميم. وهو أن يؤتى في كلام، لا يوهم غير المراد، بفضلة تفيد نكتة، كالمبالغة في قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾[6]، أي مع حب الطعام، أي اشتهائه، فإن الاطعام حينئذ أبلغ وأكثر أجراً؛ ومثله: ﴿وآتى المال على حبه﴾[7].

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٢٠، ٢١.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٨١.
(٣) سورة التحريم، آية: ٦.
(٤) سورة المائدة، آية: ٥٤.
(٥) سورة الفتح، آية: ٢٩.
(٦) سورة الإنسان، آية: ٨.
(٧) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

النوع التاسع عشر: الاستقصاء. وهو أن يتناول المتكلم معنى، فيستقصيه، فيأتي بجميع عوارضه ولوازمه، بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية، بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالاً، كقوله تعالى: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة...﴾ الآية[1]، إذ لو اقتصر على قوله: جنة، لكان كافياً، إلا أنه وصفها بالتخيل والأعناب، فإن مصاب صاحبها بها أعظم؛ ثم تمم هذا الوصف بقوله: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾؛ ثم كمل وصفها بعد التتميمين، فقال: ﴿له فيها من كل الثمرات﴾، فأتى بكل ما يكون، ليكون أسف من أفسدها أشد؛ ثم وصف صاحبها بقوله: ﴿وأصابه الكبر﴾، ثم استقصى المعنى بما يوجب تعظيم المصاب، بقوله تعالى ﴿وله ذرية﴾؛ ثم وصفها بالضعاف؛ ثم ذكر استئصال الجنة بالهلاك في أسرع وقت، فقال: ﴿فأصابها﴾ ثم زاد قوله: ﴿فيه نار﴾؛ ثم رد احتمال ضعف النار، فأخبرنا باحتراقها دفعاً لما يتوهم من احتمال ضعف النار، أو منع الأنهار، ورطوبة الأشجار، تأثيرها، فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله: ﴿فاحترقت﴾. فهذا أحسن استقصاء في كلام وأتمه وأكمله.

قال ابن أبي الأصبغ: والفرق بين الاستقصاء والتتميم والتكميل، أن التتميم يرد على المعنى الناقص، والتكميل على التام، والاستقصاء على التام الكامل.

النوع العشرون: الاعتراض؛ ويسمى التفاتاً. وهو الإتيان بجملة أو أكثر لا محل لها من الأعراب في أثناء كلام أو كلامين، اتصلا معنى، لنكتة غير دفع الأبهام، نحو: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾[2]، فجملة الاستثناء اعتراض للتبرك. وقد يكون الاعتراض بجملتين أو أكثر، حتى أن في قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، إلى قوله ﴿متكئين على فرش﴾[3]، اعتراض بسبع جمل، ومن وقوع اعتراض في اعتراض، قوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٦.

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٧.

(٣) سورة الرحمن، الآيات: ٤٦-٥٤.

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وأنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[1] فإن قوله تعالى: ﴿وأنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ اعتراض، وقوله: ﴿لو تعلمون﴾ اعتراض في ذلك الاعتراض.

قال الطيبي في (التبيان): ووجه حسن الاعتراض حسن الافادة، مع أن مجيئه مجيء ما لا يرقب، فيكون كالحسنة تأتيك من حيث لا تحتسب.

النوع الحادي والعشرون: التعليل. وفائدته: تقرير جواب اقتضته الجملة الأولى والأبلغية، فإن النفوس أبعث على قبول الأحكام المعلَّلة من غيرها. وحروف التعليل واللام وإن وأن وإذ والباء وكي ومن ولعل.

ولعمري لقد آثرنا الأطناب في مباحث الايجاز والأطناب لأنها مما تمس إليه حاجة الطلاب ومن الله التوفيق للصواب.

علم معرفة الخبر والانشاء

واعلم أن أهل البيان قاطبة، والحذاق من النحاة على انحصار الكلام فيها، ولا عبرة بمن قال إنه عشرة أقسام، نداء، ومسألة، وأمر وتشفع، وتعجب، وقسم، وشرط، ووضع، وشك، واستفهام.. وقيل تسعة بإدخال الأستفهام في المسألة، وقيل ثمانية بإدخال الشفع فيها أيضاً، وقيل سبعة بإدخال الشك في الخبر.

.. وقال الأخفش: ستة، خبر، واستخبار، وأمر، ونهي، ونداء، وتمنٍ.

وقيل خمسة: خبر، وأمر، وتصريح، وطلب، ونداء، وقيل أربعة خبر، واستخبار، وطلب، ونداء.

.. وقال كثيرون ثلاثة: خبر، وطلب، وإنشاء، لأن الكلام أما أن يحتمل التصديق والتكذيب أو لا، الأول الخبر، والثاني أن اقترن معناه بلفظه فهو الإنشاء، وان تأخر عنه فهو الطلب.

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥، ٧٦.

.. والمحققون قالوا: طلب الضرب مقترن بلفظ اضرب، وأما الضرب يوجد بعد ذلك فهو متعلق الطلب لا نفسه.

واختلفوا في حد الخبر، قيل لا يحد لعسره، وقيل لأنه ضروري اذ كل أحد يفرق بين الخبر والانشاء ضرورة، ورجحه الامام في (المحصول) والأكثر على حده.

فقال القاضي أبو بكر والمعتزلة: الخبر، الكلام الذي يدخله الصدق والكذب، وقد عرفوه بحدود مزيفة ذكرها السكاكي في (المفتاح)، ثم يظهر منه حد الإنشاء لأنه يقابله.

.. والتعجب، قيل: تعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله.

وقال الرماني: التعجب انما هو المعنى الخفي سببه، والصيغة الدالة عليه تسمى تعجباً مجازاً، وكلما استبهم السبب كان التعجب أحسن، ولهذا لا يوصف تعالى بالتعجب لأنه استعظام يصحبه جهل وهو تعالى منزه عن ذلك، ولهذا لا يقولون إذا صدرت صيغته عنه أنه تعجب من الله تعالى لأنه يصرف إلى المخاطبين.

واعلم أن من أقسام الخبر، النفي، بل هو شطر الكلام كله، والنفي أعم من الجحد إذ الجحد يختص بالكذب، وأدوات النفي؛ لا، ولات، وليس، وما، وان، ولم، ولما.

واعلم أن انتفاء الشيء عن الشيء قد يكون لكونه لا يمكن منه عقلاً، وقد يكون لكونه لا يقع منه مع امكانه، وان نفي الذات الموصوفة قد يكون نفياً للصفة دون الذات، وقد يكون نفياً للذات والصفة معاً، وقد ينفي الشيء رأساً لعدم كمال وصفه، أو انتفاء ثمرته لا لنفيه في نفسه حقيقة نحو «لا يموت فيها ولا يحيى» لأنه ليس بموت صريح ولا حياة طيبة، ونفي الاستطاعة قد يراد به نفي القدرة والإمكان.

وقد يراد به نفي الامتناع، وقد يراد به الوقوع بمشقة وكلفة، ونفي العام يدل

على نفي الخاص، وثبوته لا يدل على ثبوته، وثبوت الخاص يدل على ثبوت العام، ونفيه لا يدل على نفيه.

ولا شك أن زيادة المفهوم من اللفظ يوجب الالتذاذ به، فلذلك كان نفي العام أحسن من نفي الخاص، واثبات الخاص أحسن من اثبات العام، ونفي المبالغة في الفعل لا يستلزم نفي أصل الفعل، وقد أشكل على هذا آيتان وهما ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[1] ﴿وما كان ربك نسياً﴾[2].

وأجيب عن الأولى بأجوبة، أحدها: أن صيغة: ظلام في مقابلة العبيد الذي هو الجمع، فكثرة الظلم المنفي لكثرة العبيد لا لكثرته في نفسه.

وثانيها: أن من ترك النفع الكثير بالظلم الكثير فلأن يترك القليل أولى.

وثالثها: أن معناه النسب أي ذو ظلم.

ورابعها: أنه مجرد عن معنى الكثرة بل بمعنى فاعل.

وخامسها: أن القليل منه تعالى كثير، كما يقال: زلة العالم كبيرة.

وسادسها: أنه أراد ليس بظالم ليس بظالم، تأكيداً للنفي فعبر عن ذلك بليس بظلام.

وسابعها: أنه ورد جواباً لمن قال: ظلام، والتكرار إذا ورد جواباً لكلام خاص لم يكن له مفهوم.

وثامنها: أن صيغة المبالغة وغيرها في صفات الله، سواء في الاثبات فجرى النفي على ذلك.

وتاسعها: أنه قصد التعريض بأن ظلاماً للعبيد من ولاة الجور، ويجاب عن الثانية بهذه الأجوبة، وبعاشر: وهو مناسبة رؤوس الآى.

---

(١) سورة فصلت، آية: ٤٦.

(٢) سورة مريم، آية ٦٤.

ومن أقسام الإنشاء:

الاستفهام

وهو طلب الفهم بمعنى الاستخبار، وقيل الاستخبار ما وقع أولاً. والاستفهام ما وقع ثانياً، وقد يستعمل في غيره مجازاً.

منها **الانكار**، ومعناه النفي، وما بعده منفي ولذلك تصحبه إلا.

ومنها **التوبيخ**، وما تقدم انكار نفي وهذا انكار توبيخ.

ومنها: **التقرير**، وهو حمل المخاطب على الاقرار والاعتراف بأمر استقر عنده.

ومنها **التعجب أو التعجيب**، نحو ﴿مالي لا أرى الهدهد﴾[1].

ومنها **العتاب**، نحو ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾[2].

ومنها: **التذكير**، وفيه نوع اختصار نحو، ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾[3].

ومنها: **الافتخار**، نحو ﴿أليس لي ملك مصر﴾[4].

ومنها: **التفجع**، نحو، ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾[5].

ومنها: **التهويل والتخويف**، نحو ﴿الحاقة ما الحاقة﴾[6].

ومنها: **عكسه، وهو التسهيل والتخفيف**، نحو ﴿وماذا عليهم لو آمنوا﴾[7].

ومنها: **التهديد والوعيد**، نحو ﴿ألم نهلك الأولين﴾[8].

ومنها: **التكثير**، نحو ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾[9].

ومنها: **التسوية**، نحو ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾[10].

---

(١) سورة النمل، آية: ٢٠.
(٢) سورة الحديد، آية: ١٦.
(٣) سورة يس، آية: ٦٠.
(٤) سورة الزخرف، آية: ٥١.
(٥) سورة الكهف، آية: ٤٩.
(٦) سورة الحاقة، الآيتان: ١ و ٢.
(٧) سورة النساء، آية: ٣٩.
(٨) سورة المرسلات، آية: ١٦.
(٩) سورة الأعراف، آية: ٤.
(١٠) سورة يس، آية: ١٠.

ومنها: **الأمر**، نحو ﴿أأسلمتم﴾ أي أسلموا.

ومنها: **التنبيه**، نحو ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾[1].

ومنها: **الترغيب**، نحو ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾[2].

ومنها: **النهي**، نحو ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه﴾[3].

ومنها: **الدعاء**، وهو كالنهي إلا أنه من الأدنى إلى الأعلى، نحو ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء﴾[4] أي لا تهلكنا.

ومنها: **الاسترشاد**، نحو ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾[5].

ومنها: **التمني**، نحو ﴿فهل لنا من شفعاء﴾[6].

ومنها: **الاستبطاء**، نحو ﴿متى نصر الله﴾[7].

ومنها: **العرض**، نحو ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾[8].

ومنها: **التخصيص**، نحو ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا﴾[9].

ومنها: **التجاهل**، نحو ﴿أأنزل عليه الذكر﴾[10].

ومنها: **التعظيم**، نحو ﴿من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه﴾[11].

ومنها: **التحقير**، نحو ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾[12].

ومنها: **الاكتفاء**، نحو ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾[13].

ومنها: **الاستبعاد**، نحو ﴿أنى لهم الذكرى﴾[14].

ومنها: **الايناس**، نحو ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾[15].

ومنها: **التهكم والاستهزاء**، نحو ﴿أصلاتك تأمرك﴾[16].

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٤٥.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٤٥.
(٣) سورة التوبة، آية: ١٣.
(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.
(٥) سورة البقرة، آية: ٣٠.
(٦) سورة الأعراف، آية: ٥٣.
(٧) سورة البقرة، آية: ٢١٤.
(٨) سورة النور، آية: ٢٢.
(٩) سورة التوبة، آية: ١٣.
(١٠) سورة ص، آية: ٨.
(١١) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.
(١٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٦.
(١٣) سورة الزمر، آية: ٧٠.
(١٤) سورة الدخان، آية: ١٣.
(١٥) سورة طه، آية: ١٧.
(١٦) سورة هود، آية: ٨٧.

ومنها: التأكيد لما سبق من معنى أداة الاستفهام قبله، نحو ﴿أفن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾[1].

ومنها: الأخبار، نحو ﴿أفي قلوبهم مرض﴾[2].

هذه اثنان وثلاثون معنى للاستفهام، يعني يوجد فيها معنى الاستفهام مع انضمام معان أخر وهو الأصح، لا ما يقال أنها تجردت عن معنى الاستفهام كما توهم.

ومن أقسام الانشاء:

الأمر

.. وهو طلب فعل غير كف، وصيغته افعل وليفعل، وهو حقيقة في الايجاب، نحو ﴿أقيموا الصلاة﴾، ﴿فليصلوا معك﴾، و يرد مجازاً لمعان أخر: الندب، نحو، ﴿فاستمعوا له وأنصتوا﴾[3]؛

والأباحة، نحو ﴿وكاتبوهم﴾؛

والدعاء، نحو ﴿رب اغفر لي﴾؛

والتهديد، نحو ﴿اعملوا ما شئتم﴾؛

والاهانة، نحو ﴿ذق انك أنت العزيز الكريم﴾؛[3]

والتسخير، نحو ﴿كونوا قردة﴾[4] فهو أخص من الاهانة؛

والتعجيز، نحو، ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾[5]؛

والامتنان، نحو ﴿كلوا من ثمره﴾؛

والعجب، نحو ﴿أنظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾[6]؛

والتسوية، نحو ﴿فاصبروا أو لا تصبروا﴾[7]؛

والارشاد، نحو ﴿واشهدوا إذا تبايعتم﴾[8].

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٩.
(٢) سورة النور، آية: ٥٠.
(٣) سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.
(٤) سورة الدخان، آية: ٤٩.
(٥) سورة البقرة، آية: ٦٥.
(٦) سورة البقرة، آية: ٢٣.
(٧) سورة الاسراء، آية: ٤٨.
(٨) سورة الطور، آية: ١٦.
(٩) سورة البقرة، آية: ٢٨٢.

والاحتقار، نحو ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾[1].

والانذار، نحو ﴿قل تمتعوا﴾[2].

والاكرام، نحو ﴿ادخلوها بسلام﴾[3] وهو أعم من التسخير نحو ﴿كن فيكون﴾[4] اذ التسخير، النقل من حال إلى حال.

والانعام، أي تذكر النعمة نحو ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾[5].

والتكذيب، نحو، ﴿قل فأتوا بالتوراة فأتلوها﴾[6].

والمشورة، نحو ﴿فأنظر ماذا ترى﴾[7].

والاعتبار، نحو ﴿انظروا إلى ثمره اذا أثمر﴾[8].

والتعجب، نحو ﴿أسمع بهم وأبصر﴾[9]، وهذه خمسة عشر معنى للأمر.

ومن أقسامه:

النهي

وهو طلب الكف عن فعل، وصيغته، لا تفعل، وهي حقيقة في التحريم، وترد مجازاً، لمعانٍ.

منها: الكرامة، نحو ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾[10].

والدعاء ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾[11]،

والارشاد، نحو ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾[12]،

والتسوية، نحو ﴿فاصبروا أو لا تصبروا﴾[13]،

والاحتقار والتقليل، نحو ﴿ولا تمدن عينيك﴾ الآية[14] أي فهو حقير قليل.

---

(١) سورة يونس، آية: ٨٠.
(٢) سورة ابراهيم، آية: ٣٠.
(٣) سورة الحجر، آية: ٤٦.
(٤) سورة البقرة، آية: ١١٧.
(٥) سورة الأنعام، آية: ١٤٢.
(٦) سورة آل عمران، آية: ٩٣.
(٧) سورة الصافات، آية: ١٠٢.
(٨) سورة الأنعام، آية: ٩٩.
(٩) سورة مريم، آية: ٣٨.
(١٠) سورة الاسراء، آية: ٣٧.
(١١) سورة آل عمران، آية: ٨.
(١٢) سورة المائدة، آية: ١٠١.
(١٣) سورة الطور، آية: ١٦.
(١٤) سورة طه، آية: ١٣١.

وبيان العاقبة، نحو ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء﴾[1]،

واليأس، نحو ﴿لا تعتذروا﴾،

والاهانة، نحو ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾[2].

ومن أقسامه:

التمني

وهو طلب حصول شيء على سبيل المحبة، ولا يشترط إمكان المتمني بخلاف المترجي.

ومن أقسامه:

الترجي

وفرق بينه وبين التمني، بأنه في الممكن، والتمني فيه وفي المستحيل وبأن الترجي في القريب والتمني في البعيد، وبأن الترجي في المتوقع والتمني في غيره، وبأن التمني في المعشوق للنفس والترجي في غيره، وحروف الترجي، لعل، وعسى، وقد يرد مجازاً لتوقع محذور ويسمى الاشفاق، نحو ﴿لعل الساعة قريب﴾[3].

ومن أقسامه:

النداء

وهو طلب أقبال المدعو على الداعي بحرف نائب مناب أدعو، وتصحب في الأكثر الأمر، والنهي، والغالب تقدمه، نحو ﴿يا أيها الناس اعبدوا﴾، وقد يتأخر، نحو ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون﴾[4] تصحب الجملة الخبرية فتعقبها جملة الأمر، نحو ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له﴾[5]، وقد لا

(1) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

(2) سورة المؤمنون، آية: ١٠٨.

(3) سورة الشورى، آية: ١٧.

(4) سورة النور، آية: ٣١.

(5) سورة الحج، آية: ٧٣.

تعقبها، نحو ﴿يا عباد لا خوف عليكم﴾ [1] وقد تصحب الاستفهامية، نحو ﴿يا أبت لم تعبد﴾ [2].

وقد ترد صورة النداء مجازاً:

كالاغراء والتحذير، وقد اجتمعا في قوله تعالى ﴿ناقة الله وسقياها﴾ [3]؛

والاختصاص، كقوله ﴿رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت﴾ [4].

والتنبيه، كقوله «ألا يا سجدوا»؛

والتعجب، نحو ﴿يا حسرة على العباد﴾ [5]؛

والتحسر، نحو ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ [6].

ومن أقسامه:

القسم

أجمعوا على أنه انشاء نقله القرافي، وفائدته، تأكيد الجملة الخبرية وتحقيقها عند السامع.

علم معرفة بدائع القرآن

أورد فيها أبو الأصبغ، نحو مائة نوع، وصنف فيه مستقلاً فارجع إليه، وذكره أهل البيان في أواخر علم البيان، إلا أن المتأخرين زادوا عليها شيئاً كثيراً سيما (القصائد البديعية) للحلي، ولإبن حجة و (شرح البديعيات) لابن حجة، ومن أراد الاستقصاء في أنواع البديع فليرجع إليه، إلا أن ابن أبي الأصبغ أجرى تلك الأنواع في الآيات القرآنية.

منها أربعة وعشرون نوعاً تقدم فيما سبق، وهي: المجاز والاستعارة، والكناية، والأرداف، والتمثيل، والتشبيه، والايجاز، والاتساع، والاشارة،

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٦٨.
(٢) سورة مريم، آية: ٤٢.
(٣) سورة الشمس، آية: ١٣.
(٤) سورة هود، آية: ٧٣.
(٥) سورة يس، آية: ٣٠.
(٦) سورة النبأ، آية: ٤٠.

والمساواة، والبسط، والايغال، والتشجيع، والتشريع، والتتميم، والتكميل، والإحتراس، والاستقصاء، والتذليل، والترديد، والتكرار، والتفسير، والإيضاح، ونفي الشيء بايجابه.

وأما المذهب الكلامي، والقول بالموجب، والمناقضة، والانتقال، والاسجال، والتسليم، فسيأتي في علم الجدل.

وأما التمكين، والتوشيح، والتسهيم، ورد العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، ولزم ما لا يلزم، والتخيير، والايهام، وهو التورية والاستخدام فسيأتي في نوع الفواصل.

وأما حسن التخلص والاستطراد فسيأتي في نوع المناسبات، وأما حسن الابتداء، وحسن الختام، فسيأتيان في الفواتح والخواتم.

وها أنا أذكر الباقي مع مثال واحد من القرآن لكل منها، إذ المراد يتم بمثال واحد ولا حاجة إلى تكثير الأمثلة، فالمذكورات ثلاثة وأربعون.

.. فالباقي من المائة، سبعة وخمسون:

الايهام، ويسمى، التورية، أن يذكر لفظ له معنيان، أما بالاشتراك، أو التواطيء، أو الحقيقة، والمجاز، أحدهما قريب والآخر بعيد، ويقصد البعيد، ويوري عنه بالقريب، فيتوهمه السامع من أول وهلة.

قال الزمخشري: لا ترى بابا في البيان أدق ولا ألطف من التورية، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله وكلام رسوله.

ومن أمثلته ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[1]، فإن للاستواء معنيين، الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب المورى به الذي هو غير مقصود لتنزهه تعالى عنه.

والآخر، الاستيلاء والملك، وهو المعنى البعيد المقصود الذي وري عنه بالقريب المذكور، انتهى.

---

(١) سورة طه، آية: ٥.

وهذه التورية تسمى مجردة إذ لم يذكر فيها شيء من لوازم المورى به والمورى عنه.

ومنها ما تسمى، مرشحة، وهي التي فيها من لوازم هذا أو هذا كقوله تعالى ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾[1] فأنه يحتمل الجارحة وهو المورى به، ورشح هو بالبنيان، ويحتمل القوة والقدرة وهو البعيد المقصود، وله نظائر في القرآن.

والاستخدام هو والتورية أشرف أنواع البديع، وهما سيان، وفضله بعضهم عليها، ولهم في تفسيره عبارتان، أحدهما، (مختار السكاكي) وأتباعه، أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر، مراداً به أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر، والأخرى، أن يؤتى بلفظ مشترك، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر الآخر، وهذه طريقة بدر الدين بن مالك في (المصباح) ومشى عليها ابن أبي الأصبغ، ومثل له بقوله ﴿لكل أجل كتاب﴾[2] والكتاب يحتمل الأمد المحتوم، والكتاب المكتوب، وأجل يخدم الأول، ويمحو يخدم الثاني.

والالتفات: أن ينتقل في الكلام، من كل من التكلم، والخطاب، والغيبة. إلى الآخر لنكتة يقتضيها مقامها، وأمثلته مشهورة.

ومن الالتفات، نوع غريب في القرآن لم يوجد في الأشعار، وهو أن يؤتى بكلامين مرتين ثم يخبر عن الأول منهما، ثم ينصرف إلى الأخبار عن الثاني، ثم إلى الأخبار عن الأول، مثاله ﴿ان الانسان لربه لكنود﴾[3] ذكر الانسان وربه، فأخبر عن الانسان، ثم انصرف إلى الاخبار عن الرب بقوله ﴿وأنه على ذلك لشهيد﴾[4]، ثم انصرف عنه إلى الأخبار عن الانسان بقوله ﴿وأنه لحب الخير لشديد﴾[5].

قيل، وهذا يحسن أن يسمى التفات الضمائر، و يقرب من الالتفات نقل

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٤٧.
(٢) سورة الرعد، آية: ٣٨.
(٣) سورة العاديات، آية: ٦.
(٤) سورة العاديات، آية: ٧.
(٥) سورة العاديات، آية: ٨.

الكلام من خطاب الواحد إلى الاثنين، وبالعكس، ومنها إلى الجمع وبالعكس.

ويقرب منه أيضاً: الانتقال من خطاب الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخره.

والاطراد، أن يذكر المتكلم أسماء آباء الممدوح مرتبة على ترتيبها في الولادة، ومنه ﴿نعبد الهك واله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق﴾ (١).

والانسجام، أن يكون الكلام لخلوه عن العقادة، متحدراً كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة، والقرآن كله كذلك.

قال أهل البديع: وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت فقراته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه، ومن ذلك ما وقع في القرآن موزوناً فمن بحر الطويل ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (٢)، ومن المديد ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ (٣)، ومن البسيط ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ (٤)، ومن الوافر ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ (٥)، ومن الكامل ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (٦).

ومن الهزج، ﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ (٧) ومن الرجز ﴿دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ (٨).

ومن الرمل ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ (٩) ومن السريع ﴿أو كالذي مر على قرية﴾ (١٠).

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٣٣.
(٢) سورة الكهف، آية: ٢٩.
(٣) سورة هود، آية: ٣٧.
(٤) سورة الأحقاف، آية: ٢٥.
(٥) سورة التوبة، آية: ١٤.
(٦) سورة البقرة، آية: ٢١٣.
(٧) سورة يوسف، آية: ٩٣.
(٨) سورة الإنسان، آية: ١٤.
(٩) سورة سبأ، آية: ١٣.
(١٠) سورة البقرة، آية: ٢٥٩.

ومن المنسرح ﴿أنا خلقنا الانسان من نطفة﴾ [1] ومن الخفيف ﴿لا يكاد يفقهون حديثاً﴾ [2]، ومن المضارع ﴿يوم التناد. يوم تولون مدبرين﴾ [3]. ومن المقتضب ﴿في قلوبهم مرض﴾ [4]، ومن المجتث ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ [5] ومن المتقارب ﴿وأملي لهم أن كيدي متين﴾ [6].

والادماج: أن يدمج المتكلم غرضاً في غرض، أو بديعاً في بديع بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين، أو أحد البديعين نحو ﴿له الحمد في الأولى وفي الآخرة﴾ [7] حيث أدمج البعث والجزاء في وصفه تعالى بالحمد.

والافتنان: الاتيان في كلام بفنين مختلفين، كالجمع بين الفخر والتعزية في قوله تعالى ﴿كل من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾ [8].

الاقتدار: أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور اقتداراً على نظم الكلام وتركيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض، فتارة يأتي به في صورة الاستعارة، وتارة في صورة الأرداف، وحيناً في مخرج الايجاز، ومرة في قالب الحقيقة.

ائتلاف اللفظ وائتلافه مع المعنى

الأول: أن تكون الألفاظ تلازم بعضها بعضاً بأن يقرن الغريب بمثله، والمتداول بمثله، رعاية لحسن الجودة والمناسبة.

والثاني: أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد؛ فإن كان فخماً، كانت ألفاظه مفخمة، أو جزلاً فجزلة، أو غريباً فغريبة، أو متداولاً فتداولة، أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال فكذلك.

مثال الأول: ﴿تا لله تفتوء تذكر يوسف حتى تكون حرضاً﴾ [9]، اختار

---

(1) سورة الإنسان، آية: ٢.
(2) سورة النساء، آية: ٧٨.
(3) سورة غافر، الآيتان: ٣٢، ٣٣.
(4) سورة البقرة، آية: ١٠.
(5) سورة الحجر، آية: ٤٩.
(6) سورة الأعراف، آية: ١٨٣.
(7) سورة القصص، آية: ٧٠.
(8) سورة الرحمن، آية: ٢٧.
(9) سورة يوسف، آية: ٨٥.

من الألفاظ أغربها؛ فإن التاء أغرب حروف القسم لقلة استعمالها؛ وأتى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، وهو تفتؤ، فان: تزال، أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالاً منه؛ وبأغرب ألفاظ الهلاك، وهو الحرض، فاقتضى حسن الائتلاف في اللفظ جمع هذه الألفاظ.

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[1]، لما كان الركون أي الميل إلى الظالم، دون مشاركته في الظلم، أتى بالمس الذي هو دون الاحراق والاصطدام.

والاستدراك والاستثناء، شرط كونهما من البديع، أن يتضمنا ضرباً من المحاسن زائداً على ما يدل عليه المعنى اللغوي. مثال الاستدراك: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾[2]، إذ لو اقتصر على: لم تؤمنوا، لكان منفراً لهم، فذكر الاستدراك اشارة إلى أن الإيمان موافقة اللسان والقلب، واللسان المجرد يسمى اسلاماً.

ومثال الاستثناء: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾[3]، فيه تمهيد عذر نوح في دعائه بهلاك قومه، حيث دعاهم مدة طويلة، ولم يجيبوه، وقال ألف تهويلاً لأسماعهم بحيث لا يلتفت بعده إلى الاستثناء ولو قال تسعمائة وخمسين، لم تحصل هذه الفائدة.

الاقتصاص: أن يكون الكلام في سورة مقتصاً من كلام في سورة أخرى، أو في تلك السورة، نحو: ﴿لولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾[4] مقتص من قوله تعالى: ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾[5].

الإبدال: إقامة بعض الحروف مقام بعض، نحو: «فانفلق»، أي انفرق، بدليل: ﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾[6]. ومنه: ﴿أني أحببت حب الخير﴾[7]، أي الخيل.

---

(1) سورة هود، آية: ١١٣.
(2) سورة الحجرات، آية: ١٤.
(3) سورة العنكبوت، آية: ١٤.
(4) سورة الصافات، آية: ٥٧.
(5) سورة الروم، آية: ١٦.
(6) سورة الشعراء، آية: ٦٣.
(7) سورة ص، الآية: ٣٢.

تأكيد المدح بما يشبه الذم: قال ابن أبي الأصبغ: ولم أدر منه في القرآن إلا واحدة، نحو: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[1].

التفويت: هو إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح والوصف وغيرهما من الفنون، كل فن في جملة منفصلة عن أختها، مع تساوي الجمل في الرقة. ويكون في الجمل الطويلة والقصيرة والمتوسطة.

فن الطويلة: ﴿الذي خلقني فهو يهدين. والذي يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين﴾[2].

ومن المتوسطة: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾[3] و﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾[4]. قيل: ولم يأت المركب من القصيرة في القرآن. قاله ابن أبي الأصبغ.

التقسيم: هو استيفاء أقسام الشيء الموجودة، لا الممكنة عقلاً، نحو: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾[5]، إذ لا ثالث لهما في رؤية البرق. وقوله تعالى: ﴿والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾[6]، استوفى جميع هيئات الذاكر. وله نظائر في القرآن.

التدبيج: أن يذكر المتكلم ألواناً يقصد التورية بها والكناية، نحو: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾[7]، لما كان الطرف الأعلى في الظهور هو البياض ويقابله السواد في الخفاء، وبينهما الأحمر، وكذلك ألوان الجبال، أما جادة بيضاء، وأما خفية سوداء، أو حمراء بينهما، لاجرم قسم كل علم نصب للهداية إليها.

التكنيت: أن يقصد المتكلم إلى ذكر شيء دون غيره مما يسد مسده،

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٧٨-٨١.
(٣) سورة الحج، آية: ٦١.
(٤) سورة الروم، آية: ١٩.
(٥) سورة الرعد، آية: ١٢.
(٦) سورة آل عمران، آية: ١٩١.
(٧) سورة فاطر، آية: ٢٧.

لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه على سواه، كقوله تعالى: ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾[1]، مع أنه رب كل نجم ورب كل شيء، لأنه ظهر في العرب (رجل) يعرف بابن أبي كبشة، عبد الشعرى، ودعا الناس إلى عبادتها.

التجريد: أن ينزع من شيء ذي صفة، آخر مثله، مبالغة في كمالها فيه، نحو: ﴿لهم فيها دار الخلد﴾[2]، جرد من الجنة دار الخلد، والا فالجنة نفسها دار الخلد لا أن دار الخلد فيها، بأن يكون فيها غير دار الخلد.

التعديد: هو ايقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد، وأكثر ما يوجد في الصفات، نحو: ﴿هو الله الذي لا اله إلا هو الملك القدوس..﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿المتكبر﴾.

الترتيب: هو أن يورد أوصاف الموصوف على ترتيبها في الخلقة الطبيعية، ولا يدخل فيها وصفاً زائداً، نحو: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾[4] الآية.

التضمين: يقع على أشياء:

أحدها: ايقاع لفظ موقع غيره، لتضمنه معناه، وهو نوع من المجاز تقدم فيه.

الثاني: حصول معنى فيه من (غير) ذكر له باسم هو عبارة عنه. وهذا نوع من الايجاز.

الثالث: تعلق ما بعد الفاصلة بها. وهذا مذكور في نوع الفواصل.

الرابع: ادراج كلام الغير في أثناء الكلام، لقصد تأكيد المعنى، أو ترتيب النظم. وهذا هو النوع البديعي، نحو: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس...﴾[5] الآية؛ تضمن شيئاً من التوراة والانجيل. ومن هذا القبيل،

---

(١) سورة النجم، آية: ٤٩.
(٢) سورة فصلت، آية: ٢٨.
(٣) سورة الحشر، آية: ٢٣.
(٤) سورة فاطر، آية: ١١.
(٥) سورة المائدة، آية: ٤٥.

ايداع حكايات المخلوقين في القرآن، كقول الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾[1]، وأمثال ذلك.

الجناس: تشابه اللفظين في اللفظ. وفائدته أن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً واصغاء اليها، وهو أنواع:

منها: **التام؛** بأن يتفقا في أنواع الحروف واعدادها وهيئاتها، نحو: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار...﴾[2] إلى قوله: ﴿أن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾.

ومنها: **المصحف؛** ويسمى جناس الخط، بأن يختلف الحروف في النقط، نحو: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين﴾[3].

ومنها: **المحرف؛** بأن يقع الاختلاف في الحركات، نحو: «يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[4]، وفيه التحريف أيضاً.

ومنها: **الناقص؛** بأن يختلفا في عدد الحروف، والزائد أما في الأول أو في الوسط أو في الآخر، نحو: ﴿والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق﴾[5].

ومنها: **المذيل؛** بأن يزيد أحدهما أكثر من حرف في الآخر أو الأوائل، ويسمى الثاني بالمتوج، نحو: «أن ربهم بهم»؛ «ومذبذبين بين ذلك».

ومنها: **المضارع.** وهو أن يختلفا بحرف مع مقارب في المخرج، سواء كان في الأول أو الوسط أو الآخر، نحو ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾[6].

ومنها: **اللاحق.** وهو أن يختلفا بحرف غير مقارب فيه كذلك، نحو: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾[7]؛ ﴿وأنه على ذلك لشهيد..﴾[8] إلى قوله: ﴿لشديد﴾، ونحو أمر من الأمن.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣٠.
(٢) سورة النور، آية: ٤٣.
(٣) سورة الشعراء، آية: ٨٠.
(٤) سورة الكهف، آية: ١٠٤.
(٥) سورة القيامة، آية: ٢٩.
(٦) سورة الأنعام، آية: ٢٦.
(٧) سورة الهمزة، آية: ١.
(٨) سورة العاديات، آية: ٧.

ومنها: **المرفو**. وهو ما تركب من كلمة وبعض أخرى، نحو: ﴿جرف هار فانهار به﴾[1].

ومنها: **اللفظي**؛ بأن يختلفا بحرف مناسب للآخر مناسبة لفظية، نحو: ناصرة، وناظرة.

ومنها: **تجنيس القلب**؛ بأن يختلفا في ترتيب الحروف، نحو: «بين بني اسرائيل».

ومنها: **تجنيس الاشتقاق**؛ (بأن يجتمعا في أصل الاشتقاق)، ويسمى المقتضب، نحو: ﴿فروح وريحان﴾[2]؛ ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾[3].

ومنها: **تجنيس الاطلاق**؛ بأن يجتمعا في المشابهة فقط، نحو: ﴿وجنى الجنتين دان﴾[4]. ولكون الجناس من المحاسن اللفظية، ترك عند قوة المعنى، نحو: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾[5]، حيث لم يقل: وما أنت بمصدق، ليكون من الجناس، اذ في مؤمن وراء التصديق اعطاء الأمن. وقد زل بعض الأدباء، بل ضل، وقال في قوله تعالى: ﴿أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين﴾[6]، لو قال: وتدعون، لكان فيه مراعاة الجناس، كأنه غفل عما ذكره الإمام الرازي بأن فصاحة القرآن ليست لأجل هذه التكلفات، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ.

الجمع: هو أن يجمع بين شيئين أو أشياء متعددة في حكم، نحو: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[7].

الجمع والتفريق: هو أن يدخل شيئين في معنى، ويفرق بين جهتي الادخال، نحو: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾[8] الآية.

---

(1) سورة التوبة، آية: ١٠٩.
(2) سورة الواقعة، آية: ٨٩.
(3) سورة الروم، آية: ٤٣.
(4) سورة الرحمن، آية: ٥٤.
(5) سورة يوسف، آية: ١٧.
(6) سورة الصافات، آية: ١٢٥.
(7) سورة الكهف، آية: ٤٦.
(8) سورة الزمر، آية: ٤٢.

الجمع والتقسيم: وهو جمع متعدد تحت حكم، ثم تقسيمه، نحو: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا﴾[1] الآية.

الجمع مع التفريق والتقسيم: نحو ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾[2] الآية.

جمع المؤتلف والمختلف: أن يريد التسوية بين ممدوحين، فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما، و يروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر، بزيادة فصل لا ينقص الآخر، فيأتي لأجل ذلك بمعان تخالف معنى التسوية، نحو: ﴿وداود وسليمان اذ يحكمان..﴾[3] الآية، سوى في الحكم والعلم وزاد فضل سليمان بالفهم.

جمع المختلف والمؤتلف: أن يأتي المتكلم بكلمات متتاليات معطوفات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً، بحيث إذا أفردت كل جملة منها، قامت بنفسها، واستقل معناها بلفظها، نحو: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾[4] الآية.

عتاب المرء نفسه: نحو: ﴿و يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت...﴾[5] الآيات.

العكس: أن يؤتى بكلام يقدم فيه جزء و يؤخر آخر، ثم يقدم المؤخر و يؤخر المقدم، نحو: ﴿يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل﴾[6]؛ و﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾[7].

ومن العكس: القلب المستوى؛ نحو: ﴿كل في فلك﴾[8]؛ ﴿وربك فكبر﴾[9]، ولا ثالث لهما في القرآن.

العنوان: أن يأخذ المتكلم في غرض، فيأتي لقصد تكميله وتأكيده بأمثلة في ألفاظ تكون عنواناً لأخبار متقدمة وقصص سابقة. ومنه نوع عظيم جداً، وهو

---

(١) سورة فاطر، آية: ٣٢.
(٢) سورة هود، آية: ١٠٥.
(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧٨.
(٤) سورة هود، آية: ٤٤.
(٥) سورة الفرقان، آية: ٢٧.
(٦) سورة فاطر، آية: ١٣.
(٧) سورة الروم، آية: ١٩.
(٨) سورة الأنبياء: آية: ٣٣.
(٩) سورة المدثر، آية: ٣.

عنوان العلوم؛ بأن يذكر في الكلام ألفاظاً تكون مفاتيح لعلوم ومداخل لها.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها..﴾[1] الآية، فانه عنوان قصة بلعام.

ومن الثاني: قوله تعالى، ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب..﴾[2] الآية، فيها عنوان علم الهندسة، فإن الشكل المثلث أول الأشكال، واذا نصب في الشمس على أي ضلع من أضلاعه، لا يكون له ظل لتحديد رؤوس زواياه، فأمر الله تعالى أهل جهنم بالانطلاق إلى ظل هذا الشكل تهكماً بهم؛ وقوله تعالى: ﴿وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض﴾[3]، فيها عنوان علم الكلام، وعلم الجدل، وعلم الهيئة.

الفرائد: مختص بالفصاحة دون البلاغة، وهي الاتيان بلفظة تنزل منزلة الفريدة من العقد، وهي المؤخرة التي لا نظير لها تدل على عظم فصاحة الكلام وقوة عارضته وجزالة منطقه وأصالة عربيته، بحيث لو أسقطت من الكلام عزت على الفصحاء. ومنه لفظ حصحص في قوله تعالى:﴿الآن حصحص الحق﴾[4]؛ و «خائنة» في قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾[5].

القسم: أن يريد المتكلم الحلف على شيء، فيحلف بما فيه فخر له، أو تعظيم لشأنه، أو تنويه بقدره، أو ذم لغيره، أو جارياً مجرى الغزل والتزلف، أو خارجاً مخرج الوعظ والزهد، نحو: ﴿فورب السماء والأرض﴾[6]، أقسم سبحانه بقسم يوجب الفخر، لتضمنه التمدح بأعظم قدرة وأجل عظمة، ونحو: «لعمرك» أقسم سبحانه بحياة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيماً لشأنه وتنويهاً بقدره.

اللف والنشر: أن يذكر شيئان أو أشياء، أما تفصيلاً بالنص على كل واحد، أو اجمالاً بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد، ثم يذكر أشياء على عدد

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٥.
(٢) سورة المرسلات، آية: ٣٠.
(٣) سورة الأنعام، آية: ٧٥.
(٤) سورة يوسف، آية: ٥١.
(٥) سورة غافر، آية: ١٩.
(٦) سورة الذاريات، آية: ٢٣.

ذلك، كل واحد يرجع إلى كل واحد من المتقدم، و يغوص إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به.

فالاجمالي نحو: ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾[(١)]، فقوله: وقالوا، اجمال، واليهود والنصارى يفصله. ثم التفصيل أما على ترتيب. اللف، نحو: ﴿جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾[(٢)]، فالسكون لليل، والابتغاء للنهار، وأما على عكس ترتيبه، نحو: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم..﴾[(٣)] الآية، بدأ في النثر بالسواد وهو الثاني في اللف.

المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً.

فالأول: نحو: ﴿ومكروا ومكر الله﴾[(٤)]، فإن اطلاق المكر في جانب الباريء لمشاكلة ما معه. والثاني: نحو: «صبغة الله»، عبر بها عن الإيمان لتطهيره النفوس، كما أن النصارى يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، و يقولون أنه تطهير لهم، فعبر لهذا عن الايمان بالصبغة.

المزاوجة: أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء، أو ما جرى مجراهما، نحو: ﴿ آتيناه آياتنا فانسلخ منها.. ﴾[(٥)] الآية.

المبالغة: أن يذكر المتكلم وصفاً فيزيد فيه حتى يكون أبلغ في المعنى الذي قصده. وهي أما مبالغة في الوصف، بأن يخرج إلى حد الاستحالة عادة. ومنه: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾[(٦)]؛ و﴿لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾[(٧)]. وأما مبالغة بالصيغة، وصيغ المبالغة معروفة.

المطابقة ويسمى الطباق: الجمع بين متضادين في الجملة. وهو أما

---

(٤) سورة البقرة، آية: ١١١.
(٥) سورة القصص، آية: ٧٣.
(٦) سورة آل عمران، آية: ١٠٦.
(١) سورة آل عمران، آية: ٥٤.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٥.
(٣) سورة النور، آية: ٣٥.
(٤) سورة الأعراف، آية: ٤٠.

حقيقي، نحو: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾[1]؛ وأما مجازي، نحو: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾[2] أي ضالاً فهديناه؛ وأما ايجاب نحو ما مر؛ وأما سلب، نحو: ﴿فلا تخشو الناس واخشون﴾[3]؛ وأما لفظي منها نحو ما مر؛ وأما معنوي كذلك، نحو: ﴿جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء﴾[4].

ومنه: نوع يسمى الطباق الخفي، نحو: ﴿اغرقوا فادخلوا ناراً﴾[5]، وذكر الغرق ذكر الماء معنى.

ومنه: نوع يسمى ترصيع الكلام، وهو اقتران الشيء بما يجتمع معه في قدر مشترك،﴿نحو لا تظمؤا فيها ولا تضحى﴾[6]، وهما اجتمعا في الاحتراق، لأن الظمأ احتراق الباطن من العطش، والضحى احتراق الظاهر من الشمس.

ومنه: نوع يسمى المقابلة، وهي أن يذكر لفظان فأكثر، ثم اضدادها على الترتيب. والفرق بين الطباق والمقابلة، أن الأول بين الضدين فقط، والثاني بما زاد من الأربعة إلى العشرة. وأيضاً الأول في الأضداد خاصة، والثاني فيها وفي غيرها.

المواربة: بالراء المهملة وباء موحدة، أن يقول المتكلم قولاً يتضمن ما ينكر عليه، فإذا حصل الإنكار، استحضر بحذقه وجهاً من الوجوه يتخلص به، أما بتحريف كلمة أو تصحيفها، أو زيادة، أو نقص، نحو. ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا أن ابنك سرق﴾[7] أ فأنه قرىء: ابنك سرق ولم يسرق، فأتى الكلام على الصحة بابدال ضمه من فتحة، وتشديد في الراء وكسرها.

المراجعة: أن يحكى المتكلم مراجعة في القول جرت بينه وبين محاور له، بأوجز عبارة، وأعدل سبك، وأعذب لفظ، نحو: ﴿قال أني جاعلك للناس إماماً..﴾[8] إلى قوله ﴿الظالمين﴾، جمع فيه ثلاث مراجعات، فيها معاني

---

(١) سورة النجم، آية: ٤٣.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.
(٣) سورة المائدة، آية: ٤٤.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢٢.
(٥) سورة نوح، آية: ٢٥.
(٦) سورة طه، آية: ١١٩.
(٧) سورة يوسف، آية: ٨١.
(٨) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

الكلام، من الخبر، والاستخبار، والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد بالمنطوق والمفهوم. قال السيوطي: أحسن من هذا، أن يقال: الخبر والطلب، والاثبات، والنفي، والتأكيد، والحذف، والبشارة، والنذارة، والوعد والوعيد.

النزاهة: خلوص ألفاظ الهجاء من الفحش، حتى يكون كما قال أبوعمرو ابن العلاء، وقد سئل عن أحسن الهجاء: هو الذي إذا أنشدته العذراء في خدرها لا يقبح عليها.

ومنه: قوله تعالى: ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم..﴾ [(١)] الآية. وألفاظ هذا الهجاء أتت منزهة عما يقع في الهجاء من الفحش، وسائر هجاء القرآن كذلك.

الابداع: بالباء الموحدة؛ أن يشتمل الكلام على عدة ضروب من البديع. قال ابن أبي الأصبع: ولم أر في الكلام مثل قوله تعالى: «وقيل يا أرض أبلعي ماءك..﴾ [(٢)] الآية، فان فيها عشرين ضرباً من البديع، وهي سبع عشرة لفظة: وذلك بالمناسبة التامة في: ابلعي وأقلعي، والاستعارة فيهما؛ والطباق بين الأرض والسماء؛ والمجاز في قوله: ﴿يا سماء﴾ اذ الحقيقة: يا مطر السماء؛ والاشارة في: ﴿وغيض الماء﴾، فإنه عبر به عن معان كثيرة من قلع مطر السماء وبلع الأرض العيون، فينقص ما على الأرض من الماء؛ والأرداف في: ﴿استوت﴾؛ والتمثيل في: ﴿وقضى الأمر﴾؛ والتعليل، فإن الغيظ علة الاستواء، وصحة التقسيم، حيث استوعب أقسام نقص الماء: من احتباس ماء السماء، والنابع من الأرض، وغيض ما على ظهرها؛ والاحتراس في الدعاء، لئلا يتوهم أن عموم الماء شمل من لا يستحق الهلاك، فان عدله تعالى، يمنع أن يدعو على غير مستحق؛ وحسن النسق، وائتلاف اللفظ مع المعنى؛ والايجاز، لأنه تعالى قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة؛ والتسهيم، لأن أول الآية يدل على آخرها؛ والتهذيب، لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن: كل لفظة سهلة؛

---

(١) سورة النور، آية: ٤٨.

(٢) سورة هود، آية: ٤٤.

مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة وعقادة التركيب؛ وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه؛ والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في محلها، مطمئنة في مكانها، غير قلقة ولا مستدعاة؛ والانسجام. قال السيوطي: وفيها أيضاً الاعتراض.

علم معرفة فواصل الآى

الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع، وفرق بين الفواصل ورؤوس الآى، اذ الفاصلة هي الكلام المنفصل عما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وقد يكون غيره، ورؤوس الآى قد يكون منفصلاً وقد لا يكون.

قال الرماني في (أعجاز القرآن): ذهبت الأشعرية إلى امتناع أن يقال في القرآن سجع، وفرقوا بأن السجع ما يقصد في نفسه ثم يحال المعنى عليه؛ والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها، ولذلك كانت الفواصل بلاغة، والسجع عيباً. وتبعه على ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني، ونقله عن نص أبي الحسن الأشعري.

وذهب بعض من غير الأشاعرة إلى اثبات السجع في القرآن، وزعموا أنه يبين به فضل القرآن، ويقع به التفاضل في البيان، واستدلوا بأن موسى مع فضله على هارون، لمكان السجع، قدم عليه هارون. ورده القاضي بأنه غير صحيح، لورود قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «اسجع كسجع الكهان»، فجعله مذموماً، وما توهموا أنه سجع من عدم التفرقة بين السجع والفاصلة، وقد عرفت الفرق بينهما. وأما ما ذكروه من تقديم هارون، فليس للسجع، بل لاعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً، وذلك من الأمر الصعب الذي يبين فيه الاعجاز، فيكون تقديم بعض الكلمات على بعض وتأخيرها عنه لاظهار الاعجاز دون السجع، وكيف لا، ولو كان سجعاً لكان المشركون ذموا القرآن من جهة أن السجع عند البلغاء، لا بد أن يكون معتدل الأجزاء والقرآن ليس كذلك. هذا كلام القاضي وتلخيصه.

وذهب القاضي في (الانتصار) إلى جواز تسمية الفواصل سجعاً. وقال الخفاجي في (سر الفصاحة): قول الرماني أن السجع عيب والفواصل بلاغة غلط، لأنه أراد أن السجع ما يتبع اللفظ المعنى، فذلك حسن في السجع أيضاً. وان أراد ما يتبع المعنى اللفظ، فذلك عيب في الفاصلة أيضاً. وانما لم يسموا القرآن سجعاً تنزيهاً عن الوصف اللاحق بكلام الكهنة. فان قيل: إذا كان السجع محموداً، فلم لم يرد القرآن كله مسجوعاً، قلنا: المحمود عند الفصحاء أن لا يكون الكلام سيما إذا كان مع الطول مسجوعاً كله لما يكون حينئذ متكلفاً مستكرهاً، بل الفصيح عندهم الكلام الغير المسجوع غالباً، ولم يخل عن السجع أيضاً في مواضع يحسن هو فيها، ولا يلزم من حسن شيء إذا قل حسنه، مع الكثرة كالخال في الوجه الصبيح، فيقبل منه ما أجتلبه الخاطر عفواً بلا تكلف، ويتنفر منه ما يكون مستمراً على نمط واحد، ويمل منه الطبع، ولأن الافتنان من ضروب الفصاحة.

وأعلم أن الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي ألف كتاباً سماه: (أحكام الرأي في أحكام الآى)، وقال فيه: وأعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب بها أمور من مخالفة الأصول. قال: وتتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآى مراعاة للمناسبة، فعثرت منها على نيف وأربعين حكماً:

أحدها: تقديم المعمول، أما على العامل، نحو: ﴿وإياك نستعين﴾[1]، أو على الفاعل، نحو: ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾[2]، أو تقديم خبر كان على أسمها، نحو: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾[3].

والثاني: تقديم ما هو مؤخر في الزمان، نحو: ﴿فلله الآخرة والأولى﴾[4].

والثالث: تقديم الفاضل على الأفضل، نحو: ﴿برب هارون وموسى﴾[5]

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.
(٢) سورة القمر، آية: ٤١.
(٣) سورة الاخلاص، آية: ٤.
(٤) سورة النجم، آية: ٢٥.
(١) سورة طه، آية: ٧٠.

والرابع: تقديم الضمير على ما يفسره، نحو: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾[1].

والخامس: تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد، نحو: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾[2].

والسادس: حذف ياء المنقوص المعرَّف، نحو: ﴿الكبير المتعال﴾[3].

والسابع: حذف ياء الفعل غير المجزوم، نحو ﴿والليل إذا يسر﴾[4].

الثامن: حذف ياء الاضافة، نحو: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾[5].

التاسع: زيادة حرف المد، نحو: «الظنونا»، و «الرسولا».

العاشر: صرف ما لا ينصرف، نحو: «قواريرا».

الحادي عشر: إيثار تذكير اسم الجنس، نحو: ﴿أعجاز نخل منقعر﴾[6].

الثاني عشر: إيثار تأنيثه نحو ﴿اعجاز نخل خاوية﴾[7].

الثالث عشر: الاقتصار على أحد الوجهين الجائزين اللذين قرىء بهما في السبع في غير ذلك، نحو: ﴿فأولئك تحروا رشداً﴾[8]، ولم يجيء رشداً في السبع.

الرابع عشر: إيراد الجملة التي رد بها ما قبلها على غير وجه المطابقة في الأسمية والفعلية، نحو: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله..﴾ الآية[9]. وقولهم جملة فعلية، وردها بجملة إسمية، أي وما هم بمؤمنين.

الخامس عشر: إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك، نحو: ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[10]، لم يقل الذين كذبوا.

السادس عشر: إيراد أحد جزئي الجملتين على الوجه الذي أورد نظيرها

---

(١) سورة طه، آية: ٦٧.
(٢) سورة الاسراء، آية: ١٣.
(٣) سورة الرعد، آية: ٩.
(٤) سورة الفجر، آية: ٤.
(٥) سورة القمر، آية: ١٦.
(٦) سورة القمر، آية: ٢٠.
(٧) سورة الحاقة، آية: ٧.
(٨) سورة الجن، آية: ١٤.
(٩) سورة البقرة، آية: ٨.
(١٠) سورة العنكبوت، آية: ٣.

من الجملة الأخرى، نحو: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[1].

السابع عشر: إيثار أغرب اللفظين، نحو: ﴿قسمة ضيزى﴾[2] ولم يقل جائرة.

الثامن عشر: اختصاص كل من المشتركين بموضع، نحو: ﴿وليذكر أولو الألباب﴾[3]. وفي سورة طه: ﴿أن في ذلك لآيات لأولى النهي﴾[4].

التاسع عشر: حذف المفعول، نحو: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾[5]

العشرون: الاستغناء بالأفراد عن التثنية، نحو: ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾[6].

الحادي والعشرون: الاستغناء به عن الجمع، نحو ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾[7]، ولم يقل أئمة.

الثاني والعشرون: الاستغناء بالتثنية عن الأفراد، نحو: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[8].

قال الفراء: أراد جنة. وأنكره ابن قتيبة، وأغلظ فيه، وقال: معاذ الله أن يعد جنتين فيجعلها جنة واحدة لرؤوس الآى، وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنين، قال: ﴿ذواتاً أفنان﴾[9]. ونقل ابن الصائغ عن الفراء أنه أراد جنات فأطلق الاثنين في الجمع لأصل الفاصلة. وهذا **هو: الثالث والعشرون.**

الرابع والعشرون: الاستغناء بالجمع عن الأفراد، نحو: ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾[10]، أي ولا خلة، كما في الآية الأخرى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.
(٢) سورة النجم، آية: ٢٢.
(٣) سورة ابراهيم، آية: ٥٢.
(٤) سورة طه، آية: ٥٤.
(٥) سورة الضحى، آية: ٣.
(٦) سورة طه، آية: ١١٧.
(٧) سورة الفرقان، آية: ٧٤.
(٨) سورة الرحمن، آية: ٤٦.
(٩) سورة الرحمن، آية: ٤٨.
(١٠) سورة ابراهيم، آية: ٣١.

الخامس والعشرون: إجراء غير العاقل مجرى العاقل، نحو ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾[1].

السادس والعشرون: امالة ما لا يمال، كما في: «طه»، و «النجم».

السابع والعشرون: الاتيان بصيغة المبالغة، نحو ﴿وما كان ربك نسيا﴾[2].

الثامن والعشرون: إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض، نحو: ﴿أن هذا لشيء عجاب﴾[3] أوثر على عجيب.

التاسع والعشرون: الفصل بين المعطوفين، نحو: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى﴾[4].

الثلاثون: إيقاع الظاهر موقع المضمر، نحو: ﴿إنّا لا نضيع أجر المصلحين﴾[5]، ولم يقل أجرهم.

الحادي والثلاثون: وقوع مفعول موقع فاعل، نحو: ﴿حجاباً مستوراً﴾[6]، أي ساتراً.

الثاني والثلاثون: وقوع فاعل موقع مفعول، نحو: ﴿عيشة راضية﴾[7]، أي مرضية.

الثالث والثلاثون: الفصل بين الموصوف والصفة، نحو: ﴿أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾[8]، ان أعراب أحوي صفة المرعى.

الرابع والثلاثون: إيقاع حرف مكان غيره، نحو: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾[9] مكان اليها.

الخامس والثلاثون: تأخير الوصف غير الأبلغ عن الأبلغ، ومن ذلك:

---

(١) سورة يوسف، آية: ٤.
(٢) سورة مريم، آية: ٦٤.
(٣) سورة ص، آية: ٥.
(٤) سورة طه، آية: ١٢٩.
(٥) سورة الأعراف، آية: ١٧٠.
(٦) سورة الاسراء، آية: ٤٥.
(٧) سورة الحاقة، آية: ٢١.
(٨) سورة الأعلى، آية: ٥.
(٩) سورة الزلزلة، آية: ٥.

﴿الرحمن الرحيم﴾؛ ﴿رؤوف رحيم﴾، لأن الرأفة أبلغ من الرحمة.

السادس والثلاثون: حذف الفاعل ونيابة المفعول، نحو: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾[1].

السابع والثلاثون: إثبات هاء السكت، نحو: «ماليه»؛ سلطانيه؛ «ماهيه».

الثامن والثلاثون: الجمع بين المجرورات، نحو: ﴿ثم لا تجدوا لكم به علينا به تبيعاً﴾[2]، فإن الأحسن الفصل بينها، إلا أن مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير تبيعا.

التاسع والثلاثون: العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة الاستقبال، نحو: ﴿فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾[3]، والأصل قتلتم.

الأربعون: تغير بنية الكلمة، نحو: ﴿وطور سنين﴾[4]، والأصل سيناء.

قال ابن الصائغ: لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم كما جاء في الأثر لا تنقضي عجائبه.

قال ابن أبي الأصبغ: لا تخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء:

أحدها: التمكين. ويسمى ائتلاف القافية؛ أن يمهد الناثر للقرينة أو الشاعر للقافية تمهيداً تأتي به القافية أو القرينة متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقاً معناها بمعنى الكلام تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت، لاختل المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سكت عنها كمله السامع بطبعه. وأكثر فواصل القرآن من هذا القبيل، نحو قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[5]، فإن اللطف

---

(١) سورة الليل، آية: ١٩.
(٢) سورة الاسراء، آية: ٦٩.
(٣) سورة البقرة، آية: ٨٧.
(٤) سورة التين آية: ٢.
(٥) سورة الأنعام، آية: ١٠٣.

يناسب ما لا يدرك بالبصر، والخبير يناسب ما يدرك. وأمثال ذلك كثيرة في القرآن.

حكى أن أعرابياً لم يقرأ القرآن سمع قارئاً يقرأ: «فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فأعلموا أن الله «غفور رحيم» * . فقال: ان كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه اغراء عليه.

وثانيها: التصدير. وهو أن يكون لفظ الفاصلة بعينها، تقدمت في أول الآية، ويسمى أيضاً رد العجز على الصدر. فهذا أما أن يوافق آخر كلمة في الصدر، نحو: ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ [1]. أو يوافق أول كلمة منه، نحو: ﴿وهب لنا من لدنك رحمة أنك أنت الوهاب﴾ [2]. أو يوافق بعض كلماته، نحو: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون﴾ [3].

وثالثها: التوشيح. وهو أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية.

والفرق بينه وبين التصدير، أن هذا دلالة معنوية، وذاك لفظية، نحو: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار..﴾ [4] الآية. فان من نظر إلى سلخ النهار من الليل، يجزم بأن الآية الفاصلة «مظلمون».

ورابعها: الايغال. وقد تقدم تفسيره وتمثيله في الأطناب.

وأعلم أن أرباب البديع قسموا السجع ونظيره الفواصل إلى أقسام:

أحدها: المطوف. وهو أن يختلف الفاصلتان في الوزن ويتفقا في حروف السجع، نحو: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً﴾ [5].

وثانيها: المتوازي. وهو أن يتفقا وزناً وتقفية، نحو: ﴿فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة﴾ [6].

(*) صحة الآية هو: «...فأعلموا أن الله عزيز حكيم» وهي الآية ٢٠٩ من سورة البقرة.

(١) سورة النساء، آية: ١٦٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٨.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٠.

(٤) سورة يس، آية: ٣٧.

(٥) سورة نوح، آية: ١٣.

(٦) سورة الغاشية، آية: ١٣.

وثالثها: المتوازن. وهو أن يتفقا في الوزن دون التقفية، نحو: ﴿ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة﴾[1].

ورابعها: المرصع. وهو أن يتفقا وزناً وتقفية، ويكون ما في الأولى مقابلاً لما في الثانية كذلك، نحو: ﴿ان الينا ايابهم ثم أن علينا حسابهم﴾[2]؛ ونحو: ﴿أن الأبرار لفي نعيم وأن الفجار لفي جحيم﴾[3].

وخامسها: المتماثل. وهو أن يتساويا في الوزن دون التقفية، ويكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية، فهو بالنسبة الى المرصع كالمتوازن بالنسبة إلى المتوازي، نحو: ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم﴾[4]. فالكتاب والصراط متوازنان، وكذا المستبين والمستقيم، واختلفا في الحرف الأخير.

وسادسها: التشريع، ويقال التوأم. وأصله أن يبني الشاعر بيته على وزنين من أوزان العروض، فإذا سقط منها جزء أو جزءان، صار الباقي بيتاً من وزن آخر. وزعم قوم اختصاصه بالشعر، وقال آخرون: بل يكون في النثر بأن يبنى على سجعتين، لو اقتصر الأمر على الأولى منها، كان الكلام تاماً مفيداً، وان ألحقت به السجعة الثانية، كان فيه التمام والافادة على حاله، مع زيادة معنى ما زاد من اللفظ. ومثلوه من القرآن بما في سورة الرحمن، من قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾. لكن قيل أنه غير مطابق.

والمثال المطابق مثل قوله تعالى: ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾[5]، وغير ذلك من الآيات التي في أثنائها ما يصلح أن يكون فاصلة.

وسابعها لزوم ما لا يلزم، ويسمى الالتزام. وهو أن يلتزم في الشعر أو

---

(١) سورة الغاشية، آية: ١٥.
(٢) سورة الغاشية، آية: ٢٥.
(٣) سورة الإنفطار، آية: ١٣.
(٤) سورة الصافات، آية: ١١٧.
(٥) سورة الطلاق، آية: ١٢.

النثر حرف أو حرفان فصاعدا قبل الروي، بشرط عدم الكلفة. مثال التزام حرفين: ﴿والطور وكتاب مسطور﴾[1]؛ ﴿إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق﴾[2]. ومثال التزام ثلاثة أحرف: ﴿فإذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾[3].

تنبيهات

الأول: أحسن السجع ونحوه، ما تساوت قرائنه، نحو: ﴿في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود﴾[4]. ويليه ما طالت قرينته الثانية، نحو: ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى﴾[5]؛ أو الثالثة، نحو: ﴿خذوه فغلوه..﴾[6] الآية.

قال ابن الأثير: الأحسن في الثانية المساواة، وإلا فأطول قليلاً، وفي الثالثة أن يكون أطول. وقال الخفاجي: لا يجوز أن تكون الثانية أقصر من الأولى.

الثاني: أحسن السجع ما كان قصير الدلالة على قوة المنشيء، وأقله كلمتان، نحو: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر...﴾[7] الآيات. والطويل ما زاد على العشر، كغالب الآيات. والمتوسط ما بينهما، كآيات سورة القمر.

الثالث: مبنى الفواصل على الوقف. ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿أنا خلقناهم من طين لازب﴾[8]، مع قوله: عذاب واصب وشهاب ثاقب.

الرابع كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين، والحاق النون. وحكمته وجود التمكن من التطريب، ليسهل مد الصوت. وجاء القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع.

---

(١) سورة الطور، آية: ١.
(٢) سورة القيامة، آية: ٢٨.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠١، ٢٠٢.
(٤) سورة الواقعة، آية: ٢٨.
(٥) سورة النجم، آية: ١.
(٦) سورة الحاقة، آية: ٣٠.
(٧) سورة المدثر، آية: ١.
(٨) سورة الصافات، آية: ١١.

الخامس: حروف الفواصل أما متماثلة، نحو: ﴿والطور وكتاب مسطور..﴾[1] الآيات، أو متقاربة، نحو: ﴿الرحمن الرحيم مالك يوم الدين﴾[2].

السادس: كثر في الفواصل التضمين، وهو أن يكون ما بعد الفاصلة متعلقاً بها، نحو: ﴿وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل﴾[3]؛ والايطاء، وهو تكرر الفاصلة بلفظها؛ كقوله تعالى في سورة الاسراء: ﴿هل كنت الا بشراً رسولاً﴾[4].

واعلم أن التضمين والايطاء وان كانا عيبين في النظم، لكنهما ليسا بعيبين في النثر، يدل على ذلك وروده في القرآن.

علم معرفة فواتح السور

صنف فيه ابن أبي الأصبغ كتاباً سماه: (الخواطر السوانح في أسرار الفواتح».

واعلم أن فواتح السور لا تخرج عن عشرة أنواع:

أحدها: الثناء عليه تعالى، وهو أما اثبات الصفات الكمالية كالتحميد في خمس سور، وتبارك في سورتين؛ أو التنزيه من صفات النقص، وهو التسبيح في سبع سور.

وثانيها: حروف التهجي في سبع وعشرين سورة، وقد تقرر أنها من المتشابهات.

الثالث: النداء في عشر سور: خمس بنداء الرسول، وخمس بنداء الأمة.

الرابع: الجمل الخبرية في ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم في خمس عشرة سورة.

السادس: الشروط في سبع سور.

---

(١) سورة الطور، آية: ١.

(٢) سورة الفاتحة، الآيتان: ٣، ٤.

(٣) سورة الصافات، آية: ١٣٧.

(٤) سورة الاسراء، آية: ٩٣.

السابع: الأمر في ست سور.

الثامن: الاستفهام في ست سور.

التاسع: الدعاء في ثلاث سور.

العاشر: التعليل في: «لايلاف قريش».

قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتأنق في أول الكلام، لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام، وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يكون أعذب وأجزل وأرق وأسلس وأحسن نظماً وسبكاً، وأصح وأوضح معنى، وأجلى من التعقيد والتقديم والتأخير واللبس، وما لا يناسب البلاغة.

قالوا: وقد أتت فواتح السور كلها على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها، كالتحميدات وحروف الهجاء، وغير ذلك، سيما براعة الاستهلال: وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله. والعلم الأسنى في ذلك: سورة الفاتحة، التي هي مطلع القرآن، فانها مشتملة على جميع مقاصده.

قيل: العلوم التي احتوى عليها القرآن، وقامت بها الأديان أربعة:

الأصول: ومداره على معرفة الله وصفاته، وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿رب العالمين الرحمن الرحيم﴾[1]؛ ومعرفة النبوات، واليه الاشارة بقوله: ﴿الذين أنعمت عليهم﴾[2]؛ ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة ﴿بملك يوم الدين﴾[3].

وعلم العبادات: وإليه الإشارة ﴿باياك نعبد﴾[4].

وعلم السلوك: واليه الاشارة ﴿بإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾[5].

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٢.

(٢) سورة الفاتحة، آية: ٧.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٤.

(٤) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٥) سورة الفاتحة، آية: ٦.

وعلم القصص: وإليه الاشارة ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾[1].

فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن مع حسن الألفاظ والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة. ولله در الفاتحة، ما أعجب أسلوبها وما أغزر علومها، بحيث لو جمع كما قاله عليٌّ كرم الله وجهه، لكان أوقاراً من الكتب. هذا قدر ما وصل إليه فهم البشر وإلا فحقيقة لطائفها لا تفي بها قوة البشر، ولا يطلع عليها الا علام الغيوب.

علم معرفة خواتم السور

هي أيضاً مثل الفواتح في الحسن، لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع ايذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشرف إلى ما يذكر بعدها، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ووعد ووعيد إلى غير ذلك. يظهر ذلك لمن تأمل ببصيرة تامة نافذة ناقدة.

علم معرفة مناسبة الآيات والسور

صنف فيه أبو جعفر بن الزبير، شيخ أبي حيان كتاباً سماه: (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن). وصنف فيه أيضاً الشيخ برهان الدين البقاعي كتاباً سماه: (نظم الدرر في تناسب الآى والسور) وصنف فيه أيضاً الشيخ جلال الدين السيوطي كتاباً سماه: (تناسق الدرر في تناسب السور). وذكر مناسبات السور والآيات، مع ما تضمنه من وجوه الأعجاز، وأساليب البلاغة، في كتاب (أسرار التنزيل).

وأعلم أن علم المناسبة علم شريف، قل اعتناء المفسرين به لدقته. قال الامام الرازي: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط. قال ابن

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٧.

العربي في (سراج المريدين): ارتباط أي القرآن بعضها ببعض، حتى يكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، رأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عيه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه.

وقال غيره: أول من أظهر علم المناسبة، الشيخ أبو بكر النيسابوري وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرىء عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة. وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: علم المناسبة علم حسن، لكي يشترط في حسن الارتباط أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فان وقع على أسباب مختلفة، لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عيه إلا بربط ركيك، يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربطه ببعض.

وقال الشيخ ولي الدين الماوي: قد وهم من قال: لا يطلب للآى الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة وفصل الخطاب وأنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً. فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها تكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها. ففي ذلك علم جم.

وهكذا في السور، يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له. انتهى.

وقال الإمام الرازي في سورة البقرة، أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه،، فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته. ولعل الذين قالوا أنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور

المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير متنبهين لهذه الأسرار. وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

انتهى.

قلت: ومن هذا النوع مناسبة فواتح السور وخواتمها. وقد صنف فيه السيوطي جزءاً لطيفاً سماه: (مراصد الطالع في تناسب المقاطع والمطالع).

علم معرفة الآيات المشتبهات

صنف فيه جماعة أولهم الكسائي، ونظمه السخاوي، وألف في توجيهه الكرماني كتاب: (البرهان في توجيه متشابه القرآن). وأحسن منه (درة التنزيل وغرة التأويل) لأبي عبد الله الرازي. وأحسن من هذا (ملاك التأويل) لأبي جعفر بن الزبير. وللقاضي بدر الدين بن جماعة كتاب لطيف سماه: (كشف المعاني عن متشابه المثاني). وفي كتاب (أسرار التنزيل) المسمى (قطف الأزهار في كشف الأسرار) من ذلك الجم الغفير.

والقصد به امرار القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، بأن يأتي في موضع مقدماً، وفي آخر مؤخراً؛ أو في موضع بزيادة، وفي موضع بدونها؛ أو في موضع معرفاً، وفي آخر منكراً؛ أو في موضع مفرداً، وفي آخر جمعاً؛ أو في موضع بحرف، وفي آخر بحرف آخر؛ أو في موضع مدغماً، وفي آخر مفكوكاً، إلى غير ذلك من الاختلافات.

علم معرفة أعجاز القرآن

صنف فيه خلائق، منهم: الخطابي والرماني والزملكاني والامام الرازي وابن سراقة والقاضي أبو بكر الباقلاني، قال ابن العربي: ولم يصنف مثل كتابه.

أعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة.

وهي أما حسية، كأكثر معجزات بني اسرائيل، وذلك لبلادتهم وقلة بصيرتهم؛ أو عقلية، كأكثر معجزات هذه الأمة، وذلك لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خصت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذوو البصائر.

ثم أعلم أن الله تعالى بعث نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة. فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته. فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة، جنحوا إلى الحمية والجهل، حتى خاطر وأمهجهم بالسيوف، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه، فتحداهم أولاً على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طوال السنين. ثم تحداهم بعشر سور منه، فلما عجزوا عنه، تحداهم بسورة، فلما عجزوا عن ذلك أيضاً نادى عليهم باظهار العجز وأعجاز القرآن، فتكشف من نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة، قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، فدل ذلك العاقل على عجز القوم، مع كثرة كلامهم، واستحالة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، مع أن العرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور. ثم تحدى به أقصاهم بعد أن عجز أدناهم. فمحال — أكرمك الله — أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد علمهم، وقد احتاجوا اليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر.

ولما ثبت كون القرآن معجزة، وجب معرفة وجه الأعجاز. فزعم قوم أن التحدي وقع بالقرآن القديم، وهو مردود، لأن من لا يوقف عليه، لا يتصور التحدي به. وزعم النظام بالصرفة: أي صرف الله العرب عن معارضته،

وسلب عقولهم، مع قدرتهم عليه في نفسه، لكن عاقهم عنه أمر خارجي كسائر المعجزات. وهذا فاسد، بدليل قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت...﴾[1] الآية، فلو لم يكن فيهم قدرة، لم يبق لاجتماعهم فائدة. مع أن الاجماع أن القرآن معجز، ولو كان كما ذكروه، لكان المعجز هو الله تعالى، دون القرآن، ولم يكن للكلام فضيلة على غيره.

وزعم آخرون أن وجه أعجازه ما فيه من الأخبار عن الغيوب المستقبلة، وقيل الأخبار عن قصص الأولين، أو الأخبار عن الضمائر. وقال القاضي أبو بكر: ما فيه من النظم والتأليف والترتيب والترصيف. وقال الإمام الرازي: الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب. وقال الزملكاني: وجه الاعجاز راجع الى التأليف الخاص به، لا مطلق التأليف، بأن وقع كل من في المرتبة العليا في اللفظ والمعنى.

وقال ابن عطية: الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق، أنه بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ثم كذلك من أوله إلى آخره، فلم يكن ذلك في قدرة البشر، ولو نزعت منه لفظة، لم يقدر طائفة البشر أن يأتوا لفظة أحسن منها، بل مثلها.

وقال حازم في (منهاج البلغاء): وجه الاعجاز، استمرار الفصاحة والبلاغة في القرآن من جميع أنحائها في جميعه، استمراراً لا توجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر.

وقال المراكشي في شرح (المصباح): وجه أعجازه ليس مفرداته ولا أعرابه ولا مجرد أسلوبه، بل جميع هذه الأمور كلها.

قال الخطابي: وجه الأعجاز البلاغة، لكن صعب عليهم تفصيلها. والأمر فيه إلى الذوق. وقال: والتحقيق أن أجناس الكلام في درجات البيان متفاوتة: البليغ الرصين الجزل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلق

---

(١) سورة الاسراء، آية: ٨٨.

الرسل. فالأول: أعلاها؛ والثاني: أوسطها؛ والثالث: أدناها. فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة يعالجان نوعاً من الوعورة. فكان اجتماع كل من الأمرين في نظمه، مع نبو كل واحد منهما عن الآخر، فضيلة خص بها القرآن، ليكون آية بينة لنبيه صلى الله عليه وسلم. وانما تعذر على البشر الاتيان بمثله، لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، وجميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا جميع وجوه النظوم، التي بها يكون ائتلافها. والقرآن في هذه الأمور في غاية الشرف والفضيلة، وكذا معانيه، متقدم في أبوابه، ومترق إلى أعلى درجاته.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، لكن مجموعة في نوع واحد، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير. فخرج من هذا أن أعجاز القرآن لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، متضمناً أصح المعاني: من توحيد الله وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وارشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله بمن مضى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الآتية، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول له، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه. ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله.

ثم صار المعاندون له يقولون مرة أنه شعر لما رأوه منظوماً، ومرة أنه سحر لما رأوه معجوزاً عنه، غير مقدور عليه. وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب، ونزعاً في النفوس بريبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف،

ولذلك قال الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم: والله ان لقوله الذي يقول حلاوة، وان عليه لطلاوة، وأنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وأنه ليعلو وما يعلى، وأنه ليحطم ما تحته.

وكانوا مرة بجهلهم يقولون: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، مع علمهم بأن صاحبهم أمي، وليس بحضرته من يملي أو يكتب، في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز.

ثم قال: وقد قلت في (أعجاز القرآن) وجهاً ذهب عنه الناس، وهو صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع غيره، وقد خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن المهابة والروعة في حال آخر، ما يخلص منه واليه..

وتلخيص الكلام أن وجه الأعجاز: أما الايجاز مع البلاغة؛ أو البيان والفصاحة؛ أو الرصف والنظم؛ أو كونه خارجاً عن جنس كلامهم، مع كون مفرداته منه؛ أو كون قارئه لا يكل، وسامعه لا يمل، وان تكررت عليه تلاوته؛ أو ما فيه من الأخبار عن الأمور الماضية أو المستقبلة؛ أو جامعاً لعلوم يطول شرحها و يشق حصرها؛ أو جميع ما سبق من الأقوال؛ أو كونه غضاً طرياً في الأسماع والألسنة؛ أو جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة مع تضادهما وعدم جمعهما في كلام البشر؛ أو جعله آخر الكتب، غنياً عن غيره، واحتياج ما تقدم إليه؛ أو ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والتحدي.

ثم أنهم اختلفوا في القدر المعجز منه. ذهب بعض المعتزلة إلى أنه يتعلق بجميعه، وهذا مردود بنظم القرآن، وهو التحدي بأقصر سورة منه، وقال القاضي بسورة طويلة كانت أم قصيرة. وقال (في موضع آخر): يتعلق بسورة أو قدرها من الكلام. وقال قوم: لا يكون الاعجاز إلا بآيات كثيرة. وقال آخرون: يتعلق بقليله وكثيره. وهو الأصح.

ثم اختلفوا، قال القاضي: كل كلمة فيه في الذروة العليا من البلاغة. واختار أبو نصر القشيري وعز الدين بن عبد السلام التفاوت، بل فيه الفصيح والأفصح.

ثم الحكمة في تنزيهه عن الشعر؛ أن القرآن منبع الحق ومجمع الصدق، والشعر مبناه على تخييل الباطل في صورة الحق، حتى قال بعض الحكماء: لم ير متدين صادق اللهجة، مغلقاً في شعره، وما وقع فيه منظوماً فليس على وجه القصد. وشرط الشعر أن يقع قصداً، وقيل: البيت الواحد ليس بشعر، وأقله بيتان. وأما الرجز، فليس بشعر أصلاً. وقيل: أقله أربعة أبيات، وليس ذلك في القرآن بحال.

وقيل: التحدي بالأنس دون الجن، لأنهم ليسوا من أهل اللسان العربي، وقوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الأنس والجن﴾ لتهويل أمر الأعجاز، اذ في اجتماعهم قوة لا تخفى. قال الكرماني: لم يذكر الملائكة معهم، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى الملائكة.

علم معرفة العلوم المستنبطة من القرآن

قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾[2] قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ستكون فتن، قيل: وما المخرج منها، قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم». وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين (والآخرين) قال البيهقي: يعني أصول العلم. وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه، الا وجدت مصداقه في كتاب الله. وقال ابن مسعود: اذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله. وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم، أخبركم عنه من كتاب الله، فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور، فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[3] وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

(٢) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر». وحدثنا سفيان عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل المحرم الزنبور.

وحكى ابن سراقة في كتاب (الأعجاز) عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوماً: ما (من) شيء في العالم إلا في كتاب الله، فقيل له: فأين ذكر الخانات فيه، فقال: في قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾[1] فهي الخانات. وأن بعضاً قد استنبط عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين من قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾[2]، فأنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن، ليظهر التغابن بفقده.

قال ابن مرجان: ما قال النبي صلى الله عليه وسلم من شيء، فهو في القرآن، أو فيه أصله قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم أو قضى به. وانما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده، وبذل وسعه، ومقدار فهمه.

وقال ابن أبي الفضل المرسي: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم، خلا ما استأثر به سبحانه. ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس (رضي الله عنهم)، حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير، لوجدته في كتاب الله. ثم ورث عنهم التابعون بإحسان. ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، حتى قيل:

جمع العلم في القرآن لكن ... تقاصر عنه أفهام الرجال

---

(١) سورة النور، آية: ٢٩.

(٢) سورة المنافقون، آية: ١١.

ثم أن بعضهم نوعوا علومه، وقامت كل طائفة لفن من فنونه.

منهم من اعتنى بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر آيات، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المقابلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا القراء.

ومنهم من اعتنى بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة، وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى أن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة، وهم **النحاة.**

ومنهم من اعتنى بألفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره، وهم **المفسرون.**

ومنهم من اعتنى بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا﴾، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده، وبقائه وقدمه، وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، **وهم الأصوليون العالمون بأصول الدين.**

ومنهم من تأمل في معاني خطابه، فرأى منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك من أحكام اللغات من الحقيقة والمجاز والصريح والكناية، وتكلم في التخصيص والاخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء، **وهم علماء أصول الفقه.**

ومنهم من أحكم صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً، وسموا ذلك بعلم الفروع وبعلم الفقه أيضاً.

ومنهم طائفة تلمحت ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء، وسموا ذلك **بالتاريخ والقصص.**

ومنهم آخرون تنبهوا لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، **فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.**

ومنهم قوم استنبطوا مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا كل رؤيا من الكتاب، فإن عسر عليهم اخراجها منه، فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فإن عسر، فمن الحكم والأمثال. ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم، وعرف عاداتهم، الذي أشار إليه القرآن بقوله: « وأمر بالعرف ».

ومنهم قوم أخذوا مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك، علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض ومسائل العدل، واستخرجوا منه **أحكام الوصايا:**

ومنهم قوم نظروا إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج، وغير ذلك، **فاستخرجوا منه علم المواقيت.**

ومنهم من نظر من الكتاب والشعراء، الى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم، وحسن السياق والمبادىء والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والايجاز والأطناب، وغير ذلك من هذا الباب، **فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.**

ومنهم من نظر فيه من أرباب الاشارات وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلاماً، اصطلحوا عليها، مثل الفناء والبقاء

والحضور والخوف والهيبة والأنس والوحشة والقبض والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه هي الفنون التي أخذتها الملة الاسلامية، أيد الله ذكرهم، وأيد فكرهم.

وقد احتوى القرآن أيضاً على علوم الأوائل: من الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك.

أما الطب، فمداره على حفظ الصحة واستحكام القوة واعتدالها، أورد الصحة بعد اختلالها، وحدوث الشفاء بعد اعتلالها. وأشار إلى الأول بقوله تعالى: ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾(١)، وبقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾(٢)، وإلى الثاني بقوله: ﴿شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾(٣).

وأما الهيئة ففي آيات ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات، وأحوال الشمس والقمر، مثل قوله تعالى: ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾(٤)، وقوله تعالى ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿برب المشارق والمغارب﴾(٦)، إلى غير ذلك، بحيث لو أحصى لوجد جميع أصول الهيئة وزيادة عليها.

وأما الهندسة، ففي قوله تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾(٧)، الآية.

وأما الجدل، فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة، وغير ذلك، شيئاً كثيراً. ومناظرة ابراهيم نمرود، ومحاجة قومه، أصل في ذلك.

وأما الجبر والمقابلة، فقد قيل أن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة وأن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة الدنيا، وما مضى وما

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٧.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٣١.
(٣) سورة النحل، آية: ٦٩.
(٤) سورة الاسراء، آية: ١٢.
(٥) سورة يس، آية: ٤٠.
(٦) سورة المغارب، آية: ٤٠.
(٧) سورة المرسلات، آية: ٣٠.

بق، مضروب بعضها في بعض.

وأما النجامة، في قوله تعالى: ﴿أو اثارة من علم﴾[1]، فقد فسره بذلك ابن عباس. وفيه أيضاً أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورية إليها، كالخياطة في قوله تعالى: ﴿وطفقا يخصفان﴾[2].

والحدادة: ﴿آتوني زبر الحديد﴾[3]، ﴿وألنا له الحديد..﴾ الآية.

والبناء: في عدة آيات.

والنجارة: ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾[4].

والغزل: ﴿نقضت غزلها﴾[5].

والنسيج: ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾[6].

والفلاحة: ﴿أفرأيتم ما تحرثون..﴾[7]. الآية.

والصيد: في عدة آيات.

والغوص: ﴿كل بناء وغواص﴾[8]. ﴿وتستخرجوا منه حلية﴾[9].

والصياغة: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً﴾[10].

والزجاجة: ﴿صرح ممرد من قوارير﴾[11]، ﴿المصباح في زجاجة﴾[12].

والفخارة: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾[13].

والملاحة: ﴿أما السفينة..﴾[14] الآية.

والكتابة: ﴿علم بالقلم﴾[15].

والخبز: ﴿أحمل فوق رأسي خبزا﴾[16].

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٤.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٢.
(٣) سورة الكهف، آية: ٩٦.
(٤) سورة هود، آية: ٧٣.
(٥) سورة النحل، آية: ٩٢.
(٦) سورة العنكبوت، آية: ٤١.
(٧) سورة الواقعة، آية: ٦٣.
(٨) سورة ص، آية: ٣٧.
(٩) سورة النحل، آية: ١٤.
(١٠) سورة الأعراف، آية: ١٤٨.
(١١) سورة النمل، آية: ٤٤.
(١٢) سورة النور، آية: ٣٥.
(١٣) سورة القصص، آية: ٣٨.
(١٤) سورة الكهف، آية: ٧٩.
(١٥) سورة العلق، آية: ٤.
(١٦) سورة يوسف، آية: ٣٦.

والطبخ: ﴿بعجل حنيئذ﴾[1].
والغسل والقصارة: ﴿وثيابك فطهر﴾[2].
قال الحواريون وهم القصارون.
والجزارة: ﴿الا ما ذكيتم﴾[3]
والبيع والشراء: في آيات.
والصبغ: ﴿صبغة الله﴾[4]، ﴿جدد بيض وحمر﴾[5].
والحجارة: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾[6].
والكيالة والوزن في آيات.
والرمي: ﴿وما رميت اذ رميت﴾[7]، ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾[8].

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع أو يقع في الكائنات، ما يحقق معنى قوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[9].

قال القاضي أبو بكر بن العربي في (قانون التأويل): علوم القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، اذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع. وهذا مطلق دون اعتبار تركيبه، وما بينها من الروابط. وهذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلا الله.
قال: وأم علوم القرآن ثلاثة: توحيد، وتذكير، وأحكام.
فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله.
والتذكير منه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن.

---

(١) سورة هود، آية: ٦٩.
(٢) سورة المدثر، آية: ٤.
(٣) سورة المائدة، آية: ٣.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨.
(٥) سورة فاطر، آية: ٢٧.
(٦) سورة الشعراء، آية: ١٤٩.
(٧) سورة الأنفال، آية: ١٧.
(٨) سورة الأنفال، آية: ٦٠.
(٩) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

والأحكام منها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب. ولذلك كانت الفاتحة أم القرآن، لاشتمالها على هذه الأقسام الثلاثة، وسورة الاخلاص ثلثه، لاشتمالها على أحد الأقسام الثلاثة وهو التوحيد.

وقال ابن جرير: القرآن يشتمل على ثلاثة أشياء: التوحيد والأخبار والديانات، ولهذا كانت سورة الاخلاص ثلثه لأنها تشتمل التوحيد كله.

وقال علي بن عيسى: القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً، وعدها. إلا أن الأشياء الثلاثة التي ذكرها ابن جرير تشتمل على ما ذكره كلها، بل أضعافها، فلذلك اكتفينا بما ذكره ابن جرير، ولم نذكر ما ذكره ابن عيسى.

والقرآن لا يستدرك ولا تحصى عجائبه. وقد أفرد الناس كتباً فيما تضمنه القرآن من الأحكام، كالقاضي اسماعيل وبكر بن العلاء وأبي بكر الرازي والكيا الهراسي وأبي بكر بن العربي وعبد المنعم بن الفارسي وابن حويز منداد. وأفرد آخرون كتباً فيما فيه من علوم الباطن. وأفرد ابن برجان كتاباً فيما تضمنه من معاضدة الأحاديث. وألف جلال الدين السيوطي كتاباً سماه: (الاكليل في استنباط التنزيل)، ذكر فيه كل ما استنبطه منه من مسألة فقهية، أو أصية أو اعتقادية، وبعضاً مما سوى ذلك، كثير الفائدة جم العائدة، يجري مجرى الشرح لما أجمل من الأنواع المذكورة، فليراجعه من أراد الوقوف عليه.

علم معرفة أمثال القرآن

صنف فيه الامام أبو الحسن الماوردي من كبار أصحاب الشافعية. قال تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (٢).

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن، علم أمثاله، والناس في غفلة عنه،

---

(١) سورة الزمر، آية: ٧٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.

لاشتغالهم بالأمثال واغفالهم الممثلات والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام. وقيل: ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس. فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثمة كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر وابطاله. قال تعالى: ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾[(١)]، فامتن علينا بذلك، لما تضمنته من الفوائد.

قال الزركشي: في (البرهان): ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، وقال الأصبهاني: لضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثال والنظائر، شأن ليس بالخفي في ابراز خفيات الدقائق، ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد. وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لصولة الجامح الآبق، فأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه. ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه، وفي سائر كتبه الأمثال، ومن سور الانجيل سورة تسمى سورة الأمثال. وفشت في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء.

واعلم أن جعفر بن شمس الخلافة عقد في كتاب (الآداب)، باباً في ألفاظ من القرآن جارية مجرى المثل، ويسميه أرباب البديع ارسال المثل. وأورد من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾[(٢)]، ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾[(٣)]، ﴿الآن حصحص الحق﴾[(٤)]، ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾[(٥)]، ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾[(٦)]، ﴿قضى

---

(١) سورة ابراهيم، آية: ٤٥.
(٢) سورة النجم، آية: ٥٨.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٩٢.
(٤) سورة يوسف، آية: ٥١.
(٥) سورة يس، آية: ٥٨.
(٦) سورة الحج، آية: ١٠.

الأمر الذي فيه تستفتيان﴾[1]، ﴿أليس الصبح بقريب﴾[2]، ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾[3]، ﴿لكل نبأ مستقر﴾[4]، ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله﴾[5]، ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾[6]، ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾[7]، ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[8]، ﴿وما على الرسول الا البلاغ﴾[9]، ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾[10]، ﴿هل جزاء الاحسان إلا الاحسان﴾[11]، ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾[12]، ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾[13]. ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾[14]، ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾[15]، ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[16]، ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾[17]. ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[18]، ﴿لا يكلف الله نفسا الا وسعها﴾[19]، ﴿لا يستوى الخبيث والطيب﴾[20]، ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾[21]. ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾[22]، ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾[23]. ﴿وقليل ما هم﴾[24]، ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾[25]، في ألفاظ أخر.

واعلم أن أمثال القرآن قسمان: ظاهر مصرح به، نحو قوله تعالى: «كمثل الذي استوقد ناراً..﴾[26] الآية، ونظائر ذلك؛ وكامن لا ذكر للمثل

---

(1) سورة يوسف، آية: ٤١.
(2) سورة هود، آية: ٨١.
(3) سورة سبأ، آية: ٥٤.
(4) سورة الأنعام، آية: ٦٧.
(5) سورة فاطر، آية: ٤٣.
(6) سورة الاسراء، آية: ٨٤.
(7) سورة البقرة، آية: ٢١٦.
(8) سورة المدثر، آية: ٣٨.
(9) سورة النور، آية: ٥٤.
(10) سورة التوبة، آية: ٩١.
(11) سورة الرحمن، آية: ٦٠.
(12) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.
(13) سورة يونس، آية: ٩١.
(14) سورة الحشر، آية: ١٤.
(15) سورة فاطر، آية: ١٤.
(16) سورة الروم، آية: ٣٢.
(17) سورة الأنفال، آية: ٢٣.
(18) سورة سبأ، آية: ١٣.
(19) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.
(20) سورة المائدة، آية: ١٠٠.
(21) سورة الروم، آية: ٤١.
(22) سورة الحج، آية: ٧٣.
(23) سورة الصافات، آية: ٦١.
(24) سورة ص، آية: ٢٤.
(25) سورة الحشر، آية: ٢.
(26) سورة البقرة، آية: ١٧.

فيه، وهذا كما سئل الحسين بن المفضل: انك تخرج أمثال العرب والعجم من كتاب الله تعالى، فهل تجد فيه خير الأمور أوساطها، قال: نعم، في أربعة مواضع: قوله تعالى: ﴿لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا..﴾ (٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة..﴾ (٣) الآية، وقوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها..﴾ (٤) الآية. وقيل: فهل تجد في كتاب الله: ليس الخبر كالعيان، قال: في قوله تعالى: ﴿أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ (٥). قيل: فهل تجد: كما تدين تدان، قال: في قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ (٦). قيل: فهل تجد: لا تلد الحية إلا الحية، قال: ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ (٧). وأمثال هذا كثيرة، ويكفيك هذا القدر في الاعتبار.

علم معرفة أقسام القرآن

صنف فيه ابن القيم مجلداً سماه: (التبيان). واعلم أن القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده، حتى جعلوا مثل: «والله يشهد أن المنافقين لكاذبون» قسماً. وقيل: القسم منه تعالى ان كان لتصديق المؤمن، فهو يصدقه بمجرد الأخبار، وان كان لأجل الكافر فلا يفيد. وأجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم اذا أرادوا تأكيد أمر.

وأجاب أبو القاسم القشيري أن الله تعالى ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: اما بالشهادة، وأما بالقسم، فذكر تعالى في كتابه النوعين، حتى لا يبقى لهم حجة. فقال: ﴿شهد الله أنه لا آله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ (٨) وقال تعالى: ﴿قل أي وربي أنه لحق﴾ (٩).

---

(١) سورة البقرة، آية: ٦٨.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٧.
(٣) سورة الاسراء، آية: ٢٩.
(٤) سورة الاسراء، آية: ١١٠.
(٥) سورة البقرة، آية: ٢٦٠.
(٦) سورة النساء، آية: ١٢٣.
(٧) سورة نوح، آية: ٢٧.
(٨) سورة آل عمران، آية: ١٨.
(٩) سورة يونس، آية: ٥٣.

وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض أنه لحق﴾ [1] ، صاح وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين.

واعلم أن القسم لا يكون الا باسم معظم، وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع، والباقي كله قسم بمخلوقاته. فإن قيل: ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى، أجيب عنه بوجوه:

أحدها: أنه على حذف مضاف، أي: ورب التين، ورب الشمس وأمثالها.

وثانيها: نزل القرآن على ما يعرفه العرب من القسم مما يعظمونه من المخلوقات.

وثالثها: أن القسم يكون على ما فوق شخص، والله تعالى ليس فوقه أحد، فتارة يقسم بنفسه، وتارة بمصنوعاته، لأنها تدل على باريء وصانع.

علم معرفة جدل القرآن

صنف فيه نجم الدين الطوفي. قال العلماء: اشتمل القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد ينبيء عن كليات المعلومات العقلية والسمعية، إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادة العرب دقائق طرق المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قل: ﴿وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم﴾ [2].

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة، هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون. لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزاً. فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة، ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم،

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٣.

(٢) سورة ابراهيم، آية: ٤.

وتلزمهم الحجة، ويفهم الخواص من أثنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء.

قال ابن أبي الأصبغ: زعم الجاحظ أن المذهب الكلامي لا يوجد منه شيء في القرآن، وهو مشحون به. وتعريفه أنه احتاج المتكلم على مايريد اثباته بحجة يقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام. ومنه نوع منطقي يستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة، فإن الاسلاميين من أهل هذا العلم، ذكروا أن من أول سورة الحج إلى قوله تعالى: ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ (١) خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات:

منها: قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ (٢)، وبرهانه أن الله تعالى أخبر بزلزلة الساعة، معظماً لها، وذلك مقطوع بصحته، لأنه خبر من ثبت صدقه عمن ثبت قدرته تواتراً، فهو حق، ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق.

ومنها: أنه أخبر أنه يحيي الموتى، لأنه أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر. وفائدته موقوفة على إحياء الموتى، وقد ثبت أنه قادر على كل شيء، ومن الأشياء إحياء الموتى، فهو محيي الموتى.

ومنها: أنه أخبر أنه على كل شيء قدير، برهانه أن يتبع الشياطين، ومن يجادل الله بغير علم، تذقه من عذاب السعير، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير، فهو على كل شيء قدير.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ (٣)، برهانه أنه أخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها، بالخبر الصدق، ولا يأتي بالساعة إلا من يبعث من في القبور، (لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة فهي آتية لا ريب فيها، وأنه يبعث من في القبور) وقيل استدل سبحانه على المعاد الجسماني بضروب:

---

(١) سورة الحج، آية: ٧.

(٢) سورة الحج، آية: ٦.

(٣) سورة الحج، آية: ٧.

أحدها: قياس الاعادة على الابتداء. قال تعالى: ﴿كما بدأكم تعودون﴾[1]، ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾[2]، «أفعيينا بالخلق الأول»[3].

وثانيها: قياس الاعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى، قال: ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر..﴾ الآية[4].

وثالثها: قياس الاعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات.

ورابعها: قياس الاعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر.

وخامسها: في: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت...﴾[5] الآيتين.

وتقريرها أن الحق في نفسه واحد، والاختلاف لا يفيد الا تعدد الطرق. ولما كان ها هنا حقيقة موجودة، ولم يمكن لنا الوقوف عليها في هذه الحياة الدنيا، لارتكاز الاختلاف في نظرنا في هذه الجبلة، وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله الا بارتفاع هذه الجبلة ونقلها إلى صورة غيرها، صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه، يرتفع فيها الخلاف والعناد. وهذه هي التي وعد الله بالمصير إليها، فقد صار الخلاف الموجود أوضح دليل على تحقق البعث الذي يتكره المنكرون. كذا قرره ابن السيد.

ومن ذلك: الاستدلال على وحدة الصانع بدلالة التمانع. وهذه مشهورة في الكتب الكلامية.

ومن أنواع الجدل السبر والتقسيم.

ومن أمثلته في القرآن، قوله تعالى: ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين..﴾[6] الآية.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٩.
(٢) سورة ق، آية: ١٥.
(٣) سورة ق، آية: ١٥.
(٤) سورة يس، آية: ٨١.
(٥) سورة النحل، آية: ٣٨.
(٦) سورة الأنعام، آية: ١٤٣.

فإن الكفار حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى. رد الله تعالى عليهم بالسبر والتقسيم. وطريقه أن علة الحرمة أما الذكورة أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم عليها، أو التعبد عن الله، وذلك أما بوحي وإرسال رسول، أو سماع كلامه بلا واسطة. فهذه وجوه التحريم لا غير.

فالأول يستلزم حرمة جميع الذكور؛ والثاني حرمة جميع الإناث؛ والثالث تحريم الصنفين معاً، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدعوه، وكذلك بواسطة رسول، لأنه لم يأت اليهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم. واذا بطل الجميع ثبت المدعي، وهو أن ما قالوه افتراء وضلال.

ومنها: القول بالموجب. قال ابن أبي الأصبغ: وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه، وقيل هو قسمان:

أحدهما: أن يقع صفة في كلام الغير، كناية عن شيء أثبت له حكم، فيثبتها لغير ذلك الشيء، كقوله تعالى: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾[1] الآية. أرادوا بالأعز أنفسهم وبالأذل المؤمنين، فرد الله تعالى كلامهم بأنه نعم أن الأعز يخرج الأول لكن الأعز الله ورسوله والمؤمنون، وهم المخرجون؛ والأذل: المنافقون، وهم المخرجون.

والثاني: حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقة. مثاله: قوله تعالى: ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي و يقولون هو أذن قل إذن خير لكم﴾[2].

ومنها: التسليم. وهو أن يفرض المحال منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع، ليكون المذكور ممتنع الوقوع، لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، و يدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾[3]. المعنى: ليس مع الله من اله، ولو سلم أن معه سبحانه الهاً، لزم

---

(١) سورة المنافقون، آية: ٨.
(٢) سورة التوبة، آية: ٦١.
(٣) سورة المؤمنون، آية: ٩١.

من ذلك التسليم ذهاب كل اله من الأثنين بما خلق، وعلو بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض الهين فصاعداً محال، لما يلزم منه (من) المحال.

ومنها: الأسجال وهو الاتيان بألفاظ تسجل على المخاطب وقوع ما خوطب به، نحو ﴿ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ [1] فان في ذلك اسجالاً بالايتاء والادخال، حيث وصفا بالوعد من الله الذي لا يخلف وعده.

ومنها: الانتقال. وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذاً فيه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول، كما جاء في مناظرة الخليل نمرود، لما قال له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ [2]، فقال اللعين: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ [3]، ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه، ومن لا يجب عليه فقتله، فعلم الخليل أنه لم يفهم معنى الاحياء والاماتة، أو علم وغالط بهذا الفعل. فانتقل عليه السلام إلى استدلال لا يجد اللعين إليه سبيلاً يتخلص به منه، فقال: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ [4]، فانقطع الظالم وبهت، ولم يمكنه ادعاؤه، لأن من هو أسن منه يكذبه.

ومنها: المناقضة. وهو تعليق أمر على مستحيل، اشارة إلى استحالة وقوعه، كقوله تعالى: «ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ [5].

ومنها: مجاراة الخصم. ليعثر، بأن يسلم بعض مقدماته، حيث يراد تبكيته والزامه (لقوله تعالى): «﴿قالوا أن أنتم الا بشر مثلنا..﴾ [6] الآية. فقولهم أن نحن إلا بشر مثلكم، فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية، فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، وليس مراداً، بل هو من مجاراة الخصم

---

(١) سورة غافر، آية: ٨.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.
(٥) سورة الأعراف، آية: ٤٠.
(٦) سورة ابراهيم، آية: ١٠.

ليعثر، فكأنهم قالوا: ما ادعيتم من كونتا بشرا حق لا ننكره، ولكن هذا لا ينافي أن يمن الله تعالى علينا بالرسالة.

علم معرفة ما وقع في القرآن من الأسماء والكنى والألقاب

أعلم أنه تعالى ذكر من أسماء الأنبياء والمرسلين خمسة وعشرين وهم مشاهيرهم، فلنذكر أسماءهم تبركاً بذكرهم ورجاء بركتهم.

أولهم آدم أبو البشر. سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض. وقيل: (اسم) سرياني، أصله آدام بوزن خاتام، ثم عرب بحذف الألف الثانية. وقال الشعبي: التراب بالعبرانية: آدام، فسمي به. عاش تسعمائة سنة وستين سنة، وقيل ألف سنة.

ومنهم نوح. قال الجواليقي: أعجمي معرب. زاد الكرماني: ومعناه بالسريانية: الساكن. قال الحاكم في (المستدرك): سمي نوحاً لكثرة بكائه على نفسه، واسمه عبد الغفار. قال: وأكثر الصحابة على أنه قبل ادريس. وهو نوح بن لمك، بفتح اللام وسكون الميم والكاف بعدها، ابن متوشلخ، بفتح الميم، وتشديد المثناة المضمومة، بعدها واو، وفتح الشين المعجمة، واللام بعدها معجمة، ابن أخنوخ، بفتح المعجمة، وضم النون الخفيفة، بعدها واو ساكنة، ثم معجمة، وهو ادريس فيما يقال. وقيل بين آدم ونوح عشرة قرون. بعثه الله لأربعين سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم. وعاش بعد الطوفان ستين سنة، حتى كثر الناس وفشوا. وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة وستة وعشرين عاماً. وفي التهذيب للنووي أنه أطول الأنبياء عمراً.

ومنهم ادريس. قيل أنه قبل نوح. وقيل: كان أول نبي أعطى النبوة. وهو أخنوخ بن برد بن مهلائيل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم. قال وهب: ادريس جد نوح الذي يقال له: خنوخ، وهو اسم سرياني، وقيل عربي، مشتق من الدراسة، لكثرة دراسته الصحف.

ومنهم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم. ألقي يوسف في الجب

وهو ابن ثنتي عشرة سنة، ولقي أباه بعد الثمانين، وتوفي وله مائة وعشرون سنة.
وفي الصحيح أنه (أعطى) شطر الحسن. والصواب أنه أعجمي لا اشتقاق له.
وفي يوسف ست لغات، تثليث السين مع الياء.

ومنهم لوط. قال ابن اسحق: هو لوط بن هاران بن آزر. وعن ابن عباس: لوط ابن أخي ابراهيم عليه السلام.

ومنهم هود. اسمه عامر بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقيل: هود بن عبد الله بن رياح بن حادذ بن عاد بن عوص بن آزر بن سام بن نوح (عليه السلام). قال كعب: كان أشبه الناس بآدم (عليه السلام). قال قال ابن مسعود (رضي الله عنه): كان رجلاً جلداً.

ومنهم صالح. وهو ابن عبد الله بن رباح بن ثمود بن جابر بن سام بن نوح (عليه السلام). بعث إلى قومه حين راهق الحلم. وكان رجلاً أحمر إلى البياض، سبط الشعر، فلبث فيهم أربعين عاماً. وكان من العرب، بعث إلى ثمود بعد هلاك عاد، كان غلاماً شاباً. دعاهم إلى الله حتى شمط وكبر، ولم يكن بين نوح وابراهيم نبي إلا هود وصالح، فأقام فيهم عشرين سنة. ومات بمكة وهو ابن ثمان وخمسين عاماً.

ومنهم شعيب. وهو ابن ميكائيل، وقيل ابن ملكاين، وقيل ابن ميكيل ابن يشجن بن لاوى بن يعقوب. وقيل: ميكيل بن يسجن بن مدين بن ابراهيم الخليل عليه السلام. كان يقال له خطيب الأنبياء، وبعث رسولاً إلى أمتين: مدين، وأصحاب الأيكة. وكان كثير الصلاة، وعمي في آخر عمره. واختلف في أن مدين وأصحاب الأيكة واحد، وقيل اثنان. واحتج الأول بأن كلا منهما وعظ بوفاء المكيال والميزان؛ والثاني بما روى عن السدى وعكرمة أنهما قالا: ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً؛ مرة إلى مدين، فأخذهم الله بالصيحة؛ ومرة إلى أصحاب الأيكة، فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة. وقيل: بعث إلى ثلاث أمم، الثالثة أصحاب الرس.

ومنهم موسى. هو ابن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب

عليه السلام، لا خلاف في نسبه، وهو اسم سرياني. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الماء بالقبطية: مو، والشجر: سا، وانما سمي موسى لأنه ألق بين شجر وماء. وفي الصحيح أنه «آدم طوال جعد كأنه من رجال شنوءة». قال الثعلبي: عاش مائة وعشرين سنة.

ومنهم هارون، أخوه شقيقه، وقيل لأمه فقط، وقيل لأ بيه فقط. كان أطول منه فصيحاً جداً. مات قبل موسى، وكان ولد قبله بسنة. وفي وصفه في حديث الاسراء في بعض الروايات: «نصف لحيته بيضاء ونصفها أسود، تكاد لحيته تضرب سرته من طولها، فقلت: يا جبريل، من هذا، قال: المحبب في قومه هارون بن عمران». ذكر ابن مسكويه أن معنى هارون بالعبرانية: المحبب.

ومنهم داود بن ايشا، بكسر الهمزة وسكون التحتية و بالشين المعجمة، هو ابن عوبد بوزن جعفر، بمهملة وموحدة، ابن باعر، بموحدة ومهملة مفتوحة، ابن سلمون بن يحشون بن عمي بن ياب، بتحتية وآخره موحدة ابن رام بن حضروت، بمهملة ثم معجمة، ابن فارص، بفاء واحدة وصاد مهملة، ابن يهوذا ابن يعقوب. في الترمذي أنه كان أعبد البشر. قيل: وكان أحمر الوجه، سبط الرأس، أبيض الجسم، طويل اللحية فيها جعودة، حسن الصوت والخلق، وجمع له النبوة والملك. عاش مائة سنة، مدة ملكه منها أربعون سنة. وكان له اثنا عشر ابناً.

ومنهم سليمان ولده. قال كعب: كان أبيض جسيماً وسيماً وضيئاً جميلاً خاشعاً متواضعاً. وكان أبوه يشاوره في كثير من أموره، مع صغر سنه، لوفور عقله وعلمه.

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ملك الأرض مؤمنان: سليمان وذو القرنين؛ وكافران: نمرود و بختنصر. ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ ببناء بيت المقدس بعد ملكه بأربع سنين. ومات وله ثلاث وخمسون سنة.

ومنهم أيوب. الصحيح أنه من بني اسرائيل، ولم يصح في نسبه شيء، إلا أن اسم أبيه أبيض. قال ابن جرير: هو أيوب بن موص بن روح بن عيص بن اسحق. وحكي ابن عساكر أن أمه بنت لوط، وأن أباه ممن آمن بإبراهيم، وعلى هذا يكون قبل موسى. قال ابن جرير: كان بعد شعيب. وقال ابن أبي خيثمة: كان بعد سليمان. ابتلى وهو ابن سبعين، وكانت مدة بلائه سبع سنين، وقيل ثلاث عشرة، وقيل ثلاث سنين. روى الطبراني أن عمره كان ثلاثاً وتسعين سنة.

ومنهم ذو الكفل. قيل: هو ابن أيوب. قيل: بعث بعد أيوب ابنه بشر نبياً، وسماه الله ذا الكفل، وأمره بالدعاء إلى توحيده. وأقام بالشام عمره، حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة. قيل: هو اليأس. وقيل: يوشع بن نون. وقيل: نبي اسمه ذو الكفل. وقيل: كان رجلاً صالحاً، تكفل بأمور فوفى بها. وقيل: هو زكريا، لقوله تعالى: ﴿وكفلها زكريا﴾. وقال ابن عساكر: نبي تكفل الله له في عمله بضعف عمل غيره من الأنبياء. وقيل: لم يكن نبياً، وأن اليسع استخلفه، فتكفل له أن يصوم النهار و يقوم الليل، وقيل: أن يصلي كل يوم مائة ركعة. وقيل: هو اليسع، وان له اسمين.

ومنهم يونس. هو ابن متى، بفتح الميم وتشديد التاء الفوقية مقصور. وفي تفسير عبد الرزاق أنه اسم أمه. قال ابن حجر: وهو مردود. وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن نسبته إلى أبيه، كانت في زمن ملوك الطوائف من الفرس، ولبث في بطن الحوت أربعين يوماً، وعن جعفر الصادق سبعة أيام، وعن الشعبي قال: التقمه ضحى ولفظه عشية. وفي يونس ست لغات: تثليث النون مع الياء والهمزة، والقراءة المشهورة بضم النون مع الياء. قال أبو حيان: قرأ طلحة بن مصرف بكسر يونس و يوسف، مشتقين من أنس وأسف على جعلهما عربيين وهو شاذ.

ومنهم الياس. هو ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى بن عمران. حكى القتبي أنه من سبط يوشع. قال وهب أنه عمر كما عمر الخضر، وأنه يبقى إلى آخر الدنيا. وقيل: روى عن ابن مسعود أنه هو

ادريس، وهو بهمزة قطع عبراني، وزيد في آخره ياء ونون في قوله تعالى: ﴿سلام على الياسين﴾[1]، كما قالوا في ادريس ادريسين، ومن قرأ آل ياسين فقيل: المراد آل محمد صلى الله عليه وسلم.

منهم اليسع. قال ابن جرير: هو ابن أخطوب بن العجوز. قال: والعامة يقرأونه بلام واحدة مخففة، وقرىء: الليسع بلامين، وبالتشديد، فعلى هذا فهو أعجمي، وكذا على الأول. وقيل: عربي منقول من الفعل من وسع يسع.

ومنهم زكريا. من ذرية سليمان بن داود، وقتل بعد قتل ولده، وكان له يوم بشر بولده اثنتان وتسعون سنة أو تسع وتسعون أو مائة وعشرون. وهو اسم أعجمي، وفيه خمس لغات: أشهرها المد، والثانية القصر، وقرىء بهما في السبع وزكرى بتشديد الياء وتخفيفها، وزكر كقلم.

ومنهم يحيى ولده. أول من سمي بيحيى بنص القرآن. ولد قبل عيسى بستة أشهر، ونبىء صغيراً، وقتل ظلماً، وسلط الله على قاتليه بختنصر وجيوشه. وهو اسم أعجمي، وقيل: عربي، وعلى القولين لا ينصرف. وعلى كونه عربياً أنه سمي به لأنه أحياه الله بالايمان، أو لأنه حيي به رحم أمه، أو لأنه استشهد، والشهداء أحياء. وقيل: معناه يموت، كالمفازة للمهلكة، والسليم للديغ.

ومنهم عيسى بن مريم بنت عمران. خلقه الله بلا أب، وكانت مدة حمله ساعة أو ثلاث ساعات أو ستة أشهر أو ثمانية أو تسعة أشهر، ولها عشر سنين أو خمس عشرة. ورفع وله ثلاث وثلاثون سنة. وفي الحديث: أنه ينزل ويقتل الدجال ويتزوج ويولد له، ويحج ويمكث في الأرض سبع سنين، ويدفن عند النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي الصحيح: أنه ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس، أي حمام. وعيسى اسم عبراني أو سرياني لا عربي. قيل: لم يكن في الأنبياء من له اسمان إلا عيسى ومحمد.

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٣٠.

ومنهم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم، صلى الله تعالى عليه وسلم. سمي في القرآن بأسماء كثيرة، منها: محمد وأحمد. قيل: خمسة سموا قبل أن يكونوا؛ محمد: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1]؛ و﴿يا زكريا أنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾[2]؛ وعيسى مصدقاً بكلمة من الله؛ واسحق و يعقوب: ﴿فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب﴾[3].

وفيه من أسماء الملائكة: جبرائيل وميكائيل، وفيهما لغات: جبريل بفتح الجيم أو كسرها بلا همز، وجبرائيل بالهمزة بعد الألف، وجبرابيل بيائين بلا همز، وجبرئيل بهمز و ياء بلا ألف، وجبرئيل مشددة اللام، وقرىء بها. قال ابن جني: أصله كوريال، فغير بالتعريب وطول الاستعمال الى ما ترى.

وقرىء ميكايل بلا همز وميكييل وميكال. وقيل: ايل بالعبرانية الله وجبرئيل عبد الله، وكذا ميكائيل. وكل اسم فيه ايل فهو معبد الله. وقيل: جبرئيل خادم الله وقيل: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾[4] بتشديد النون. قال ابن مهران أنه اسم جبرئيل. حكاه الكرماني في عجائبه.

ومنهم هاروت وماروت. عن علي كرم الله وجهه: هما ملكان من ملائكة الله. وقد أفرد السيوطي في قصتها جزءاً.

ومنهم الرعد. عن ابن عباس مرفوعاً أنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب. وعن عكرمة: الرعد ملك يسبح. عن محمد بن مسلم، قال: بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه: وجه انسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه فذلك البرق.

ومنهم مالك خازن النار.

ومنهم السجل. عن أبي جعفر الباقر، قال: السجل ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه. وعن السدي أنه ملك موكل بالصحف.

ومنهم قعيد. عن مجاهد أنه اسم كاتب السيئات.

---

(١) سورة الصف، آية: ٦.

(٢) سورة مريم، آية: ٧.

(٣) سورة هود، آية: ٧١.

(٤) سورة مريم، آية: ١٧.

قيل: فهؤلاء تسعة، قيل: عاشرهم ذو القرنين. قيل: الحادي عشر الروح، وهو ملك من أعظم الملائكة خلقاً.

ومنهم السكينة. قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾[١]. قيل أنه ملك يسكن قلب المؤمن و يؤمنه. كما روى أن السكينة تنطق على لسان عمر.

وفيه من أسماء الصحابة: زيد بن حارثة، والسجل في قول من قال أنه كاتب النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيه من أسماء المتقدمين من غير الأنبياء والرسل: عمران أبو مريم، وقيل: فيه أبو موسى أيضاً، وأخوها هارون، وليس بأخي موسى؛ وعزير؛ وتبع، وكان رجلاً صالحاً كما أخرجه الحاكم، وقيل: نبي، كما حكاه الكرماني في (العجائب)؛ ولقمان، وقد قيل أنه نبي، والأكثر على خلافه. عن ابن عباس، قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً؛ و يوسف بن أفراثيم بن يوسف ابن يعقوب. ذكر في سورة غافر، و يعقوب في سورة مريم يعقوب بن ماثان؛ وتقي في سورة مريم: «ان كنت تقياً» أي أن كنت مثله في الصلاح.

وفيه من أسماء النساء. مريم لا غير. ومريم بالعبرية الخادم. وقيل ان بعلاً في قوله: «أتدعون بعلاً» اسم امرأة كانوا يعبدونها.

وفيه من أسماء الكفار: قارون وجالوت وهامان و بشرى، في قوله: «يا بشرى»، أي في سورة يوسف، في قول السدى، وآزر أبو ابراهيم، وقيل: اسمه تارح، وآزر لقب، وقيل: آزر اسم الصنم، ومنه النسيء من بني كنانة، كان يجعل المحرم صفراً يستحل به الغنائم.

وفيه من أسماء الجن. أبوهم ابليس، وكان اسمه أولاً عزازيل، وهو المروي عن ابن عباس. وعن السدى قال: كان اسم ابليس الحارث. وعن ابن عباس: انما سمي ابليس لأن الله أبلسه من الخير كله، آيسه منه. وقيل:

---

(١) سورة الفتح، آية: ٤.

اسمه فتره، حكاه الخطابي، وكنيته أبو كردوس. وقيل: أبو فترة وقيل: أبو مرة، وقيل: أبو لبينى، حكاه السهيلي في (الروض الأنف).

وفيه من أسماء القبائل: يأجوج ومأجوج وعاد وثمود ومدين وقريش والروم.

وفيه من أسماء الأصنام التي كانت أسماء لاناث: ود وسواع و يغوث و يعوق ونسر، وهي أصنام قوم نوح؛ واللات والعزى ومناة، وهي أصنام قريش؛ وكذا الرجز فيمن قرأ بضم الراء أنه أسم صنم؛ والجبت والطاغوت أنهما صنمان؛ والرشاد في سورة غافر، في قوله تعالى: ﴿قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[1]، اسم صنم من أصنام فرعون؛ و بعل هو صنم قوم الياس؛ وآزر اسم صنم كما تقدم.

علم معرفة مبهمات القرآن

صنف فيه السهيلي، ثم ابن عساكر، ثم القاضي بدر الدين بن جماعة وللسيوطي فيه تأليف لطيف، جمع فيه فوائد الكتب، مع زوائد أخر على صغر حجمه جداً. وكان من السلف من يعتني بهذا العلم كثيراً. قال عكرمة: طلبت الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة.

وللأبهام في القرآن أسباب:

أحدها: الاستغناء ببيانه في موضع آخر، كقوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾[2]، فأنه مبلين في قوله تعالى: ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾[3].

وثانيها: أن يتعين لأشتهاره، كقوله: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾[4]، ولم يقل حواء، لأنه ليس له غيرها.

---

(١) سورة غافر، آية: ٢٩.
(٢) سورة الفاتحة، آية: ٧.
(٣) سورة النساء، آية: ٦٩.
(٤) سورة البقرة، آية: ٣٥.

الثالث: قصد الستر عليه، ليكون أبلغ في استعطافه، نحو: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا...﴾(١) الآية، هو الأخنس بن شريق، وقد أسلم بعد وحسن اسلامه.

الرابع: أن لا يكون في تعيينه كثير فائدة، نحو: ﴿أو كالذي مر على قرية﴾(٢)؛ ﴿وأسألهم عن القرية﴾(٣).

الخامس: التنبيه على العموم، وأنه غير خاص، بخلاف مالو عين، نحو: ﴿من يخرج من بيته مهاجراً﴾(٤).

السادس: تعظيمه بالوصف الكامل دون الأسم، نحو: ﴿ولا يأتل أولو الفضل﴾(٥)؛ ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾(٦)؛ ﴿إذ يقول لصاحبه﴾(٧)، والمراد الصديق في الكل.

السابع: تحقيره بالوصف الناقص، نحو: ﴿ان شانئك هو الأبتر﴾(٨).

واعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض، لا مجال للرأي فيه. ولما كانت الكتب المؤلفة فيه وسائر التفاسير يذكر فيها أسماء المبهمات والخلاف فيها، أحلت ذلك إلى كتبها، إذ لا يحيط كتابنا هذا بالاستقصاء فيها، ولما كان التعرض لبعضها غير مفيد، أضربنا عن التعرض لها كلا وبعضا. والله الموفق للصواب.

علم معرفة أسماء من نزل فيهم القرآن

وأفرده بالتأليف بعض القدماء لكنه وقع غير محرر، و(كتاب أسباب النزول والمبهمات) يغنيان عن ذلك. وعن علي رضي الله عنه، قال: ما في قريش أحد، إلا وقد نزلت فيه آية، قيل له: فما نزل فيك. قال: ﴿[illegible]

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠٤.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٩.
(٣) سورة الأعراف، آية: ١٦٣.
(٤) سورة النساء، آية: ١٠٠.
(٥) سورة النور، آية: ٢٢.
(٦) سورة الزمر، آية: ٣٣.
(٧) سورة التوبة، آية: ٤٠.
(٨) سورة الكوثر، آية: ٣.

شاهد منه ﴾[1]. وعن سعد بن أبي وقاص، قال: نزلت فيَّ أربع آيات: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾[2]، ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسناً ﴾[3] وآية تحريم الخمر وآية الميراث. عن رفاعة القرظي، قال: نزلت ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾[4] في عشرة أنا أحدهم. عن أبي جمعة جنيد بن سبع، وقيل حبيب بن سباع، قال: فينا نزلت: ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾[5]، وكنا تسعة نفر رجال وامرأتين.

علم معرفة فضائل القرآن

صنف فيه أبو بكر بن أبي شيبة، والنسائي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وابن الضريس، وآخرون. وقد صح فيه أحاديث باعتبار الجملة، وفي بعض السور على التعيين، ووضع في فضائل السور أحاديث كثيرة.

وصنف فيه جلال الدين السيوطي كتاباً سماه: (خمايل الزهر في فضائل السور). حرر فيه ما ليس بموضوع. والحديث الجامع في فضل القرآن ما أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما من طريق الحارث (بن عبد الله) الأعور، عن علي: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ستكون فتن، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله، قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

---

(١) سورة هود، آية: ١٧.
(٢) سورة الأنفال، آية: ١.
(٣) سورة العنكبوت، آية: ٨.
(٤) سورة القصص، آية: ٥١.
(٥) سورة الفتح، آية: ٤٨.

ثم فضائل كل سورة سورة، مذكورة في كتب التفاسير وكتب الأحاديث فليرجع إليها، فإن هذا الكتاب لا يحتمل بيانه.

علم معرفة أفضل القرآن وفاضله

ذهب الإمام أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وابن حبان، إلى المنع بأن في القرآن شيئاً أفضل من شيء، لأن الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه، وروى هذا عن مالك. وذهب آخرون إلى التفضيل لظواهر الأحاديث منهم اسحق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، والغزالي. وقال القرطبي أنه الحق، ونقله عن جماعة من المتكلمين والعلماء.

وقال الغزالي في (جواهر القرآن): فاعلم أن نور البصيرة ان كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية المداينات، وبين سورة الاخلاص وسورة تبت، وترتاع على اعتقاد الفرق نفسك الخوارة المستغرقة بالتقليد، قلد صاحب الرسالة صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فهو الذي أنزل عليه القرآن. وقال: يس قلب القرآن، وفاتحه الكتاب أفضل سور القرآن، وآية الكرسي سيدة آى القرآن ﴿وقل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن، والآيات والأخبار الواردة في فضائل القرآن، وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل، وكثرة الثواب في تلاوتها لا تحصى. انتهى.

وقال ابن الحصار: العجب ممن يذكر الاختلاف في ذلك، مع النصوص الواردة بالتفضيل. وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره، ﴿فقل هو الله أحد﴾، أفضل من ﴿تبت يدا أبي لهب﴾.

وقال الخولي: كلام الله كله أبلغ من كلام المخلوقين، وهل يجوز أن يقال: بعض كلامه أبلغ من بعض، جوزه قوم لقصور نظرهم، و ينبغي أن يعلم أن معنى قول القائل: هذا الكلام أبلغ من هذا الكلام، أن هذا في موضعه له حسن ولطف، وذاك في موضعه له حسن ولطف، وهذا الحسن في موضعه

أكمل من ذلك في موضعه. فلئن قال: أن ﴿قل هو الله أحد﴾، أبلغ من ﴿تبت يدا أبي لهب﴾، بجعل المقابلة بين ذكر الله وذكر أبي لهب، وبين التوحيد والدعاء على الكافر، وذلك غير صحيح، بل ينبغي أن يقال: «تبت يدا أبي لهب»، دعا عليه بالخسران، فهل توجد عبارة للدعاء بالخسران أحسن من هذه، وكذلك في: ﴿قل هو الله أحد﴾، لا توجد عبارة تدل على الوحدانية أبلغ منها. فالعالم اذا نظر إلى ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ في باب الدعاء بالخسران، ونظر إلى ﴿قل هو الله أحد﴾ في باب التوحيد، لا يمكنه أن يقول أحدهما أبلغ من الآخر. انتهى.

قلت: كلام الخولي لا يدل على نفي التفاوت في البلاغة، وجهة المطابقة لمقتضى الحال، ولا يلزم منه نفي الفضيلة من جهة أخرى، من حيث شرف المدلول وشرف الثواب، وغير ذلك.

وقال الحليمي، ونقله عن البيهقي: معنى التفضيل يرجع إلى أشياء:

أحدها: أن يكون العمل بآية أولى من العمل بأخرى وأعود على الناس. وعلى هذا يقال: آيات الأمر والنهي والوعد والوعيد، خير من آيات القصص، (لأنها انما أريد بها تأكيد الأمر، والنهي والانذار، والتبشير، ولا غنى بالناس عن هذه الأمور، وقد يستغنون عن القصص)، فكان ما هو أعود عليهم، وأنفع لهم مما يجري مجرى الأصول خيراً لهم مما يجعل تبعاً لما لا بد منه.

والثاني: أن يقال: الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله، وبيان صفته، والدلالة على عظمته، أفضل، بمعنى أن مخبراتها أسنى وأجل قدراً.

الثالث: أن يقال: سورة خير من سورة، أو آية خير من آية، بمعنى أن القارىء يتعجل فيها بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل، ويتأدى منه بتلاوتها عبادتها، كقراءة آية الكرسي والاخلاص والمعوذتين، فان قارئها يتعجل بقراءتها الاحتراز مما يخشى، والاعتصام بالله، ويتأدى بتلاوتها عبادة الله، لما فيه من ذكره سبحانه بالصفات العلى على سبيل الاعتقاد لها وسكون النفس إلى فضل

الذكر وبركته، فأما آيات الحكم فلا يقع بنفس تلاوتها اقامة حكم، وانما يقع بها علم.

ثم لو قيل في الجملة أن القرآن خير من التوراة والانجيل والزبور، بمعنى أن التعبد بالتلاوة والعمل واقع به دونها، والثواب بحسب قراءته لا بقراءتها، أو أنه من حيث الاعجاز حجة النبي المبعوث، وتلك الكتب لم تكن معجزة، ولا كانت حجج أولئك الأنبياء، بل كانت دعوتهم، والحجج غيرها، لكان ذلك أيضاً نظير ما مضى. وقد يقال أن سورة أفضل من سورة، لأن الله جعل قراءتها كقراءة أضعافها مما سواها، وأوجب لها من الثواب ما لم يوجب لغيرها، وان كان المعنى الذي لأجله بلغ شأنها هذا المقدار لا يظهر لنا؛ كما يقال أن يوماً أفضل من يوم، أو شهراً أفضل من شهر، بمعنى أن العبادة فيه تفضل على العبادة في غيره، والذنب فيه أعظم منه في غيره. وكما يقال أن الحرم أفضل من الحل لأنه يتأدى فيه من المناسك ما لا يتأدى في غيره، والصلاة فيه تكون كصلاة مضاعفة مما تقام في غيره. انتهى كلام الحليمي.

قال ابن المنير في حديث البخاري: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور»، معناه أن ثوابها أعظم من غيرها. وقال غيره: انما كانت أعظم السور لأنها جمعت جميع مقاصد القرآن، ولذلك سميت أم القرآن.

قال الحسن البصري أن الله أودع علوم الكتب السالفة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة. أخرجه البيهقي.

بيان اشتمالها على علوم القرآن على وجوه

أحدها: ما قرره الزمخشري باشتمالها على الثناء على الله بما هو أهله، وعلى التعبد بالأمر والنهي، وعلى الوعد والوعيد، وآيات القرآن لا تخلو عن أحد هذه الأمور.

وثانيها: ما قال الامام فخر الدين (الرازي): المقصود من القرآن كله

تقرير أمور أربعة: الالهيات والمعاد والنبوات واثبات القضاء والقدر لله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ يدل على الالهيات.

وقوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ يدل على المعاد.

وقوله تعالى: ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾ يدل على نفي الجبر، وعلى اثبات أن الكل بقضاء الله تعالى وقدره.

وقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم...﴾ إلى آخر السورة، يدل على اثبات قضاء الله تعالى وعلى النبوات.

فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة، وهذه السورة مشتملة عليها، سميت أم القرآن. وقال البيضاوي: وهي مشتملة على الحكم النظرية والأحكام العملية، التي هي سلوك الطريق المستقيم، والاطلاع على مراتب السعداء، ومنازل الأشقياء.

وقال الطيبي: هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين:

أحدها: علم الأصول، ومعاقده معرفة الله وصفاته، واليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿رب العالمين الرحمن الرحيم﴾؛ ومعرفة النبوات، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿أنعمت عليهم﴾؛ ومعرفة المعاد، وهو المومى إليه بقوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾.

وثانيها: علم الفروع، وأسه العبادات، وهو المراد بقوله تعالى: «إياك نعبد».

وثالثها: علم ما يحصل به الكمال، وهو علم الأخلاق. وأصله الوصول الى الحضرة الصمدانية، والالتجاء إلى جناب الفردانية والسلوك لطريقه، والاستقامة فيها، وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾.

ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السالفة، والقرون الخالية،

السعداء منهم والأشقياء، وما يتصل بها من وعد محسنهم، ووعيد مسيئهم، وهو المرد بقوله تعالى: ﴿أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

قال الغزالي: مقاصد القرآن ستة: ثلاثة مهمة، وثلاثة متمة.

الأولى: تعريف المدعو إليه، كما أشير إليه بصدرها. وتعريف الصراط المستقيم، وقد صرح به فيها. وتعريف الحال عند الرجوع اليه تعالى، وهو الآخرة، كما أشير إليه بملك يوم الدين.

والأخرى: تعريف المطيعين، كما أشير إليه بقوله: ﴿الذين أنعمت عليهم﴾. وحكاية أحوال الجاحدين، وقد أشير إليها ﴿بالمغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وتعريف منازل الطريق، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾ انتهى.

قال ابن العربي: وانما صارت آية الكرسي أعظم الآيات لعظم مقتضاها، فان الشيء انما يشرف بشرف ذاته ومقتضاه ومتعلقاته، وهي في آى القرآن كسورة الاخلاص في سوره، إلا أن سورة الاخلاص تفضلها بوجهين:

أحدهما: أنها سورة، وهذه آية، والسورة أعظم، لأنه وقع بها التحدي، فهي أفضل من الآية التي لم يتحد بها.

وثانيها: أن سورة الاخلاص اقتضت التوحيد في خمسة عشر حرفاً، وآية الكرسي اقتضت التوحيد في خمسين حرفاً، فظهرت القدرة في الأعجاز، فوضع معنى يعبر عنه بخمسين حرفاً، ثم يعبر عنه بخمسة عشر، وذلك بيان لعظم القدرة والانفراد بالوحدانية. انتهى.

وقال الغزالي: انما كانت آية الكرسي سيدة الآيات، لأنها اشتملت على ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله فقط، ليس فيها غير ذلك، ومعرفة ذلك هي المقصد الأقصى في العلوم وما عداه تابع له، والسيد اسم للمتبوع المقدم، فقوله تعالى: ﴿الله﴾ اشارة إلى الذات؛ و﴿لا اله إلا هو﴾ اشارة إلى توحيد الذات؛ «الحي القيوم» اشارة إلى صفة الذات وجلاله، فإن معنى القيوم: الذي يقوم بنفسه، ويقوم به غيره، وذلك غاية الجلال والعظمة؛ ﴿لا تأخذه سنة ولا

نوم﴾ تنزيه وتقديس له عما يستحيل عليه من أوصاف الحوادث، والتقديس عما يستحيل أحد أقسام المعرفة؛ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ اشارة إلى الأفعال كلها، وأن جميعها منه وإليه»؛ من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه» اشارة إلى انفراده بالملك والحكم والأمر، وأن من يملك الشفاعة، انما يملكها بتشريفه اياه، والاذن فيها، وهذا نفي الشركة عنه في الملك والأمر؛ ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ إلى قوله ﴿إلا بما شاء﴾ اشارة إلى صفة العلم، وتفضيل بعض بعض المعلومات، والانفراد بالعلم، حتى لا علم لغيره إلا ما أعطاه ووهبه على قدر مشيئته وارادته؛ ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ اشارة إلى عظمة ملكه، وكمال قدرته؛ ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ اشارة إلى صفة القدرة وكمالها وتنزيهها عن الضعف والنقصان؛ ﴿وهو العلي العظيم﴾ اشارة إلى أصلين عظيمين في الصفات.

فإذا تأملت هذه المعاني، ثم نحوت جميع آى القرآن، لم تجد جملتها مجموعة في آية واحدة، فإن «شهد الله»، ليس فيها إلا التوحيد؛ وسورة الاخلاص ليس فيها إلا التوحيد والتقديس؛ ﴿وقل اللهم مالك الملك﴾، ليس فيها الا الأفعال؛ والفاتحة فيها الثلاثة لكن غير مشروحة بل مرموزة، والثلاثة مشروحة في آية الكرسي. والذي يقرب منها في جمعها آخر الحشر، وأول الحديد، لكنها آيات لا آية واحدة. فإذا قابلت آية الكرسي باحدى تلك الآيات، وجدتها أجمع للمقاصد، فلذلك استحقت السيادة على الآى، كيف لا، وفيها: الحي القيوم، وهو الأسم الأعظم، كما ورد به الخبر. انتهى كلام الغزالي.

ثم قال: انما قال صلى الله عليه وسلم في الفاتحة أفضل، وفي آية الكرسي السيدة، لسر، وهو أن الجامع بين فنون الفضل وأنواعها الكثيرة يسمى أفضل، فإن الفضل هو الزيادة، والأفضل هو الأزيد. وأما السؤدد، فهو رسوخ معنى الشرف الذي يقتضي الاستتباع، و يأبى التبعية. والفاتحة تتضمن التنبيه على معان كثيرة، ومعارف مختلفة، فكانت أفضل. وآية الكرسي تشتمل على المعرفة العظمى، التي هي المقصودة المتبوعة التي يتبعها سائر المعارف، فكان اسم السيد بها أليق. انتهى.

ثم قال في حديث قلب القرآن «يس»، أن ذلك لأن الايمان صحة بالاعتراف بالحشر والنشر، وهو مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فجعلت قلب القرآن لذلك. واستحسنه الامام فخر الدين الرازي.

وقال النسفي: يمكن أن يقال أن هذه السورة ليس فيها الا تقرير الأصول الثلاثة: الوحدانية، والرسالة، والحشر، وهو القدر الذي يتعلق بالقلب والجنان، وأما الذي باللسان وبالأركان، ففي غير هذه السورة. فلما كان فيها أعمال القلب لا غير، سماها قلباً. ولهذا أمر بقراءتها عند المحتضر، لأنه في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة والأعضاء ساقطة، لكن القلب قد أقبل على الله، ورجع عما سواه، فيقرأ عنده ما يزداد به قوة في قلبه، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة. انتهى.

واختلف الناس في معنى كون سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن. فقيل: لأن القرآن مشتمل على قصص وشرائع وصفات، وسورة الاخلاص كلها صفات، فكانت ثلثا **وقال الغزالي في (الجواهر):** معارف القرآن المهمة ثلاث: معرفة التوحيد، والصراط المستقيم، والآخرة. وهي مشتملة على الأول فكانت ثلثاً. وقال أيضاً: القرآن مشتمل على البراهين القاطعة على وجود الله تعالى ووحدانيته وصفاته، وهي أما صفات حقيقية، وأما صفات الفعل وأما صفات الحكم. وهذه السورة تشتمل على الصفات الحقيقية، فهي ثلث.

وقال الخولي: مطالب القرآن أصول ثلاثة للإيمان، من أنكر شيئاً منها كفر، وهي: معرفة الله، والاعتراف بصدق رسوله، واعتقاد القيام بين يدي الله تعالى، وهذه السورة تفيد الأصل الأول، فهي ثلث.

وقيل: القرآن خبر، وانشاء. والخبر خبر عن الخالق، وخبر عن المخلوق، فهذه ثلاثة أثلاث. وسورة الاخلاص أخلصت الخبر عن الخالق، فهي ثلث. وقيل: تعدل في الثواب، ويشهد له ظاهر الحديث. لكن قال ابن عقيل: لا يجوز ذلك، لقوله: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات». وقال ابن عبد البر: السكوت في هذه المسألة أفضل من الكلام فيها، والله أعلم.

علم معرفة مفردات القرآن

وهو علم يبحث فيه عن أحوال آية آية من جهة أحكامها ومعانيها؛ مثال ذلك: أخرج السلفي في (المختار) من الطيوريات عن الشعبي، قال: لقي عمر ابن الخطاب ركباً في سفر، فيهم ابن مسعود، فأمر رجلاً يناديهم: من أين القوم، قالوا: أقبلنا من الفج العميق، نريد البيت العتيق، فقال عمر رضي الله عنه: ان فيهم لعالماً، فأمر رجلاً يناديهم: أي القرآن أعظم، فأجابه عبد الله: ﴿الله لا اله إلا هو الحي القيوم﴾[1]، قال: نادهم أي القرآن أحكم، فقال ابن مسعود: ﴿أن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[2]، قال: نادهم أي القرآن أجمع، فقال: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[3]، فقال: نادهم أي القرآن أحزن، فقال: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾[4]، فقال: نادهم أي القرآن أرجى، قال: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾. الآية[5]، فقال: أفيكم ابن مسعود، قالوا: نعم.

واختلف في أرجى آية في القرآن على أقوال:

أحدها: آية الزمر.

والثاني: ﴿أو لم تؤمن قال بلى﴾[6]. واختاره ابن عباس.

الثالث: ما روى عن علي رضي الله عنه، قال: انكم يا معشر أهل العراق تقولون: أرجى آية في القرآن: «يا عبادي الذين أسرفوا..» الآية، لكنا أهل البيت نقول أن أرجى آية في كتاب الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[7]، وهي الشفاعة.

الرابع: ما روى عن علي بن الحسين رضي الله عنهما، قال: أشد آية على

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.
(٢) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٣) سورة الزلزال، الآيتان: ٧، ٨.
(٤) سورة النساء، آية: ١٢٣.
(٥) سورة الزمر، آية: ٥٣.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٦٠.
(٧) سورة الضحى، آية: ٥.

أهل النار: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾[1]، وأرجى آية في القرآن لأهل التوحيد: ﴿أن الله لا يغفر أن يشرك به﴾.. الآية[2].

الخامس: قوله تعالى: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة..﴾[3] إلى قوله تعالى ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾. واختاره ابن المبارك.

السادس: قوله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾[4]، واختاره أبو عثمان النهدي.

السابع: قوله تعالى: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾[5]. وهذا عند أبي جعفر النحاس.

الثامن: ما رواه أبو جعفر وكذا مكي، عن ابن عباس، أنه قوله تعالى ﴿وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾[6]، ولم يقل على إحسانهم.

التاسع: ما روى عن الشافعي، وهو قوله تعالى: ﴿يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة﴾[7]. وعنه أيضاً: أرجى حديث للمؤمن: «إذا كان يوم القيامة يدفع إلى كل مسلم رجل من الكفار فداؤه».

العاشر: قوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته لأ﴾[8].

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾[9].

الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿انا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾[10]. حكاه الكرماني في ﴿كتاب العجائب﴾.

الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير﴾[11]. حكى هذه الأربعة النووي في رؤوس المسائل والأخير ثابت عن علي رضي الله عنه.

---

(١) سورة النبأ، آية: ٣٠.
(٢) سورة النساء، آية: ١١٦.
(٣) سورة النور، آية: ٢٢.
(٤) سورة التوبة، آية: ١٠٢.
(٥) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.
(٦) سورة الرعد، آية: ٦.
(٧) سورة البلد، آية: ١٦.
(٨) سورة الاسراء، آية: ٨٤.
(٩) سورة سبأ، آية: ١٧.
(١٠) سورة طه، آية: ٤٨.
(١١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾[1].

قال الشبلي رحمه الله: اذا كان الله قد أذن للكافر بدخول الباب إذا أتى بالتوحيد والشهادة. أفتراه يخرج الداخل فيها والمقيم عليها.

الخامس عشر: آية الدين ووجهه أن عناية الله بعباده اذا انتهى إلى حد الارشاد إلى الأمور الدنيوية، ومنها إلى كتابة ديونهم، فما ظنك بمهماتهم الأخروية، سيما حفظ التوحيد وغفران الكبائر والصغائر.

وعن ابن عباس، قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت:

أولاهن: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم..﴾[2] الآية.

والثانية: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون..﴾[3] الآية.

والثالثة: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم..﴾[4] الآية.

والرابعة: ﴿أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾[5] الآية.

والخامسة: ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية[6].

والسادسة: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه..﴾ الآية[7].

والسابعة: ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به..﴾ الآية[8].

والثامنة: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا..﴾ الآية[9].

واختلف في أشد آية في كتاب الله تعالى قيل: ﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾[10] الآية؛ وقيل: «من يعمل سوءاً يجز به»[11]. وعن أبي

---

(1) سورة الانفال، آية: ٣٨.
(2) سورة النساء، آية: ٢٦.
(3) سورة النساء، آية: ٢٧.
(4) سورة النساء، آية: ٣١.
(5) سورة النساء، آية: ٣١.
(6) سورة النساء، آية: ٤٠.
(7) سورة النساء، آية: ١١٠.
(8) سورة النساء، آية: ٤٨.
(9) سورة النساء: آية: ٥٢.
(10) سورة فصلت، آية: ٣٠٩.
(11) سورة النساء، آية: ١٢٣.

برزة الأسلمي قال: هو ﴿فذوقوا فلن نزيدكم الا عذاباً﴾[1]. وعن سفيان: هو ﴿لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم﴾[2]. وعن ابن عباس: ﴿لولا ينهاهم الربانيون﴾[3] الآية. وعن الحسن: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه..﴾[4] الآية. وعن ابن سيرين: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾[5]. وعن أبي حنيفة رحمه الله: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾[6]. وقيل: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾[7]. وعن مالك: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾[8]، وتأولها بأهل الأهواء. وعن أبي العالية: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾[9]؛ وقوله تعالى: ﴿وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾[10].

قال السعيدي: سورة الحج من أعاجيب القرآن، فيها المكي: وهو من رأس الثلاثين إلى آخرها؛ والمدني: وهو من رأس خمس عشرة إلى رأس الثلاثين؛ والليلي: وهو خمس آيات من أولها؛ والنهاري: وهو من رأس تسع آيات إلى رأس اثنتي عشرة؛ والحضري: وهو إلى رأس العشرين، والسفري: وهو أولها؛ والناسخ، وهو: ﴿أذن للذين يقاتلون..﴾ الآية؛ والمنسوخ، وهو: ﴿الله يحكم بينكم..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك...﴾ الآية، نسخها ﴿سنقرئك...﴾ الآية.

قال الكرماني: ذكر المفسرون أن قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم..﴾[11] الآية، من أشكل آية في القرآن حكماً ومعنى واعراباً. وقيل: قوله تعالى ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم..﴾الآية[12]، جمعت أصول أحكام الشريعة كلها: الأمر، والنهي، والاباحة، والخبر.

---

(١) سورة النبأ، آية: ٣٠.
(٢) سورة المائدة، آية: ٦٨.
(٣) سورة المائدة، آية: ٦٣.
(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣٨.
(٥) سورة البقرة، آية: ٨.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٣١.
(٧) سورة الرحمن، آية: ٣١.
(٨) سورة آل عمران، آية: ١٠٦.
(٩) سورة غافر، آية: ٤.
(١٠) سورة البقرة، آية: ١٧٦.
(١١) سورة المائدة، آية: ١٠٥.
(١٢) سورة الأعراف، آية: ٣١.

قال الكرماني في العجائب: سمى الله قصة يوسف أحسن القصص لاشتمالها على ذكر: حاسد، ومحسود؛ وشاهد، ومشهود؛ ومالك، ومملوك؛ وعاشق، ومعشوق؛ وحبس، واطلاق؛ وسجن، وخلاص؛ وخصب، وجدب، وغير ذلك، مما يعجز عن بيانها طوق الخلق.

وعن رؤبة: ما في القرآن أعرب من قوله تعالى: ﴿فأصدع بما تؤمر﴾[1].

قال بعضهم: أطول السور «البقرة»، وأقصرها «الكوثر»، وأطول الآى «آية الدين»، وأقصرها و «الضحى» و «الفجر»، وأطول الكلمات رسماً فأسقيناكموه.

وفي القرآن آيتان جمعت كل منهما حروف المعجم: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم﴾[2] الآية، ﴿محمد رسول الله..﴾[3] الآية. وليس فيه حاء بعد حاء بلا حاجز إلا في موضعين: ﴿عقدة النكاح حتى﴾[4]، ﴿لا أبرح حتى﴾[5]؛ ولا كافان كذلك إلا: «مناسككم»؛ و «ماسلككم» ولا غينان كذلك إلا: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾[6]؛ ولا آية فيها ثلاثة وعشرون وقفاً إلا آية الدين، ولا آيتان فيهما ثلاثة عشر وقفاً إلا آيتا المواريث؛ ولا ثلاث آيات فيها عشر واوات إلا «والعصر».. إلى آخرها؛ ولا سورة احدى وخمسين آية، فيها اثنان وخمسون وقفاً إلا سورة الرحمن. ذكر أكثرها ابن خالويه.

قال ابن عبد الله الخبازي المقري: أول ما وردت على السلطان محمود ابن ملكشاه، سألني عن آية أولها غين، فقلت ثلاث: «غافر»، وآيتان بخلف: ﴿غلبت الروم﴾، و﴿غير المغضوب عليهم﴾.

قال جلال الدين السيوطي: نقلت من خط شيخ الاسلام ابن حجر في القرآن أربع شدات متوالية: قوله تعالى: «نسيا رب السموات»، «في بحر لجى يغشاه»، «قولاً من رب رحيم»، «ولقد زينا السماء».

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩٤.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٤.
(٣) سورة الفتح، آية: ٢٩.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢٣٥.
(٥) سورة الكهف، آية: ٦٠.
(٦) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

علم معرفة خواص القرآن

صنف فيه جماعة منهم: التميمي، وحجة الاسلام الغزالي، ومن المتأخرين: اليافعي، سماه: (الدر النظيم في خواص القرآن العظيم). وغاية ما يذكر في ذلك كان مستنده تجارب الصالحين. وورد في ذلك بعض من الأحاديث أوردها السيوطي في الاتقان، فارجع إليه.

وها أنا أذكر بعضاً منها، وان أدى إلى التطويل، ليعم النفع على أرباب التحصيل.

عن أبي بن كعب، قال: «كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله أن لي أخاً وبه وجع، قال: وما وجعه، قال: به لمم، قال: فائتني به، فوضعه بين يديه، فعوذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أول سورة البقرة، وهاتين الآيتين: ﴿والهكم آله واحد» [1]، وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران: ﴿شهد الله أنه لا اله الا هو﴾[2]، وآية من الأعراف: ﴿ان ربكم الله﴾، وآخر سورة المؤمنين: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾[3]، وآية من سورة الجن: ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾، وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و﴿قل هو الله﴾، والمعوذتين، فقام الرجل فكأنه لم يشتك قط».

وعن ابن مسعود موقوفاً: «من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة، وآية الكرسي، وآيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر سورة البقرة، لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق».

وعن ابن مسعود، قال: قال رجل: يا رسول الله، علمني شيئاً ينفعني الله به، قال: اقرأ آية الكرسي، فأنه يحفظك وذريتك، ويحفظ دارك حتى الدويرات حول دارك.

وعن الحسن، أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: (إن جبريل أتاني فقال:

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٣.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨.
(٣) سورة طه، آية: ١١٤.

أن عفريتا من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي).

وعن المغيرة بن سبيع وكان من أصحاب عبد الله، قال: من قرأ عشر آيات من البقرة عند منامه، لم ينس القرآن: أربع من أولها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث من آخرها.

وعن معاذ أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ألا أعلمك دعاء تدعو به، لو كان عليك من الدين مثل صبير أداه الله عنك: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء.﴾ [1] إلى قوله «بغير حساب»، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطي من تشاء منهما، وتمنع من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك».

عن ابن عباس رضي الله عنه: إذا استصعبت دابة أحدكم، أو كانت شموساً، فليقرأ هذه الآية في أذنها: ﴿أفغير دين الله تبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً واليه ترجعون﴾[2].

عن علي رضي الله عنه: سورة الأنعام، ما قرئت على عليل الا شفاه الله.

عن فاطمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لما دنا ولادها، أمر أم سلمة وزينب بنت جحش أن تأتياها فتقرأ عندها آية الكرسي، و ﴿ان ربكم الله..﴾ الآية، وتعوذاها بالمعوذتين.

عن الحسين بن علي رضي الله عنها: ﴿أمان لأمتي الغرق اذا ركبوا البحر أن يقولوا: ﴿بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم﴾[3]، و «ما قدروا الله حق قدره..﴾ الآية [4].

عن ليث قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم تصب على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس: ﴿فلما القوا قال موسى ما جئتم به السحر..﴾ [5] إلى قوله تعالى ﴿المجرمون﴾، وقوله تعالى: ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾[6] إلى آخر أربع آيات، وقوله تعالى:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٦.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٨٣.
(٣) سورة هود، آية: ٤١.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٩١.
(٥) سورة يونس، آية: ٨١.
(٦) سورة الأعراف، آية: ١١٨.

﴿ انما صنعوا كيد ساحر.. ﴾[1] الآية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما كربني أمر الا تمثل لي جبريل، فقال يا محمد قل: ﴿توكلت على الحي الذي لا يموت﴾، و﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً..﴾[2] إلى قوله تعالى ﴿وكبره تكبيراً﴾.

عن ابن عباس مرفوعاً: «هذه الآية أمان من السرق: ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن..﴾[3] إلى آخر سورة».

عن أنس: «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد، فيقول: «ما شاء الله لا قوة الا بالله»، فيرى فيه آفة دون الموت».

عن زر بن حبيش: «من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقومها من الليل الا قامها» قل عبدة، وهو راوي الحديث عن زر بن حبيش: فجربناه فوجدناه كذلك.

وعن سعد بن أبي وقاص: «دعوة ذي النون اذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: ﴿لا اله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين﴾[4]، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط الا استجاب الله له، وفي رواية: «اني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب الا فرج الله عنه: كلمة أخي يونس ﴿فنادى في الظلمات أن لا اله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين﴾.

وعن ابن مسعود «أنه قرأ في أذن مبتلى فأفاق، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما قرأت في أذنه، قال: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً..﴾[5] إلى آخر السورة، فقال: لو أن رجلاً مؤمناً قرأ بها على جبل لزال».

عن أبي ذر: «ما من ميت يموت فيقرأ عنده «يس» الا هون الله

---

(١) سورة طه، آية: ٦٩.
(٢) سورة الاسراء، آية: ١١١.
(٣) سورة الاسراء، آية: ١١٠.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٨٧.
(٥) سورة المؤمنون، آية: ١١٥.

عليه». أخرج ابن الضريس عن سعيد بن جبير أنه قرأ على رجل مجنون سورة «يس» فبرئ.

وعن محمد بن علي: «من وجد في قلبه قسوة فليكتب «يس» في جام بزعفران ثم يشربه». وعن عبد الله بن الزبير: من جعل «يس» أمام حاجته قضيت له.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «من قرأ «الدخان» كلها وأول «غافر» إلى: ﴿اليه المصير﴾، وآية الكرسي حين يمسي حفظ بها حتى يصبح، ومن قرأها حين يصبح حفظ بها حتى يمسي.

عن ابن مسعود مرفوعاً: «من قرأ ليلة سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبداً».

عن ابن عباس رضي الله عنه موقوفاً، في المرأة يعسر عليها ولادها، قال: تكتب في قرطاس، ثم تسقى: ﴿بسم الله الذي لا اله إلا هو الحليم الكريم﴾؛ ﴿سبحان الله وتعالى رب العرش العظيم﴾؛ ﴿الحمد لله كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار﴾[1] ﴿بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون﴾[2].

عن ابن عباس قال: اذا وجدت في نفسك شيئاً، يعني الوسوسة، فقل: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[3].

عن علي رضي الله عنه، قال: «لدغت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عقرب، فدعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها و يقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾[4]، و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾[5]، و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾[6].

عن أبي سعيد: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعوذ من الجان وعين الانسان، حتى نزلت المعوذات، فأخذ بها وترك ما سواها».

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ١.
(٢) سورة النازعات، آية: ٤٦.
(٣) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.
(٤) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.
(٥) سورة الحديد، آية: ٣.
(٦) سورة الكافرون، آية: ١.
(٧) سورة الفلق، آية: ١.
(٨) سورة الناس، آية: ١.

قال السيوطي: هذه الأحاديث في باب الخواص مما وقفت عليه، ولم تصل لى حد الوضع، وبعضها موقوفات عن الصحابة والتابعين. وأما ما لم يرد به أثر، فقد ذكر الناس من ذلك كثيراً جداً، والله أعلم بصحته.

ومن لطيفه ما حكاه ابن الجوزي، عن ابن ناصر، عن أشياخه، عن ميمونة بنت شاقول البغدادية، قالت: آذانا جار لنا، فصليت ركعتين، وقرأت آية من فاتحة كل سورة، حتى ختمت القرآن، وقلت: اللهم اكفنا أمره، ثم نمت، وفتحت عيني، وإذا به وقت السحر قد نزل فزلت قدمه، فسقط فمات.

فائدة:

قال ابن التين: الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله هو الطب الروحاني، اذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء باذن الله تعالى، فلما عز هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجسماني. ويشير إلى هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أن رجلاً موقناً قرأ بها على جبل لزال».

أجاز القرطبي الرقية بكلام الله وأسمائه، قال: فإن كان مأثوراً استحب. قال الربيع: سألت الشافعي عن الرقية، فقال: لا بأس أن يرق بكتاب الله، وبما يعرف من ذكر الله.

قال الحسن البصري ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعي: لا بأس بكتب القرآن في اناء، ثم غسله وسقيه المريض. وكرهه النخعي. قال القاضي حسين والبغوي وغيرهما: لو كتب قرآن على حلوى وطعام، فلا بأس بأكله. انتهى.

ونقل الزركشي عن بعضهم أنه لا يجوز ابتلاع ورقة فيها آية، لكن أفتى ابن عبد السلام بالمنع من الشرب أيضاً، لأنه تلاقيه نجاسة الباطن. قال السيوطي: وفيه نظر.

علم معرفة مرسوم الخط وآداب كتابته

وهذا العلم قد يقع من فروع علم القراءة أيضاً، وقد فصلناه هناك، فلا نعيده، اذ التكرار مما يعاب عند أولى الألباب، والله أعلم بالصواب.

علم معرفة تفسيره وتأويله وبيان شرفه والحاجة إليه.

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في التفسير والتأويل

واعلم أن التفسير تفعيل من الفسر، وهو البيان والكشف. ويقال: هو مقلوب من السفر، تقول: أسفر الصبح اذا أضاء. وقيل مأخوذ من التفسرة، وهي اسم لما يعرف به الطبيب المرض.

والتأويل أصله من الأول وهو الرجوع، فكأنه صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني. وقيل: من الايالة، وهي السياسة، كأن المؤول للكلام ساس الكلام، ووضع المعنى فيه موضعه.

واختلف في التفسير والتأويل. فقال أبو عبيد وطائفة: هما بمعنى. وقد أنكر ذلك قوم، حتى بالغ ابن حبيب النيسابوري، فقال: قد نبغ في زماننا مفسرون، لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه. وقال الراغب: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل في الكتب الالهية. والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

وقال غيره: التفسير بيان لفظ لا يحتمل الا وجهاً واحداً، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة.

وقال الماتريدي: التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا، فان قام دليل مقطوع به فصحيح، والا فتفسير بالرأي، وهو المنهى عنه؛ والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله.

وقال أبو طالب التغلبي: التفسير بيان وضع اللفظ، أما حقيقة أو مجازاً،

كتفسير الصراط بالطريق، والغيث بالمطر؛ والتأويل تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل أخبار عن حقيقة المراد، والتفسير اخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى: ﴿ان ربك لبالمرصاد﴾[1]، تفسيره أنه من الرصد، يقال: رصدته رقبته، والمرصاد مفعال منه، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله تعالى والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه، وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد منه، على خلاف وضع اللفظ في اللغة.

قال الأصبهاني في تفسيره: أعلم أن التفسير في عرف العلماء كشف معاني القرآن، وبيان المراد أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل، وغيره، وبحسب المعنى الظاهر، وغيره؛ والتأويل أكثره في الجمل. والتفسير أما أن يستعمل في غريب الألفاظ، نحو: البحيرة، والسائبة، والوصيلة؛ أو في وجيز تبين بشرحه، نحو ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾[2]؛ وأما في كلام متضمن لقصة لا يمكن تصويره الا بمعرفتها، كقوله تعالى: ﴿انما النسيء زيادة في الكفر﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾[4].

وأما التأويل فأنه يستعمل مرة عاماً ومرة خاصاً، نحو؛ الكفر المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة؛ والايمان المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق الحق أخرى. وأما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو: لفظ وجد، المستعمل في الجدة، والوجد، والوجود. وقال غيره: يتعلق التفسير بالرواية، والتأويل بالدراية..

وقال أبو نصر القشيري: والتفسير مقصور على الأتباع والسماع والاستنباط فيما يتعلق بالتأويل. وقال قوم: ما وقع مبيناً في كتاب الله، ومعيناً في صحيح السنة، سمي تفسيراً، لأن معناه قد ظهر ووضح، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره، بل يحمله على المعنى الذي ورد لا يتعداه.

---

(١) سورة الفجر، آية: ١٤.
(٢) سورة البقرة، آية: ٤٣.
(٣) سورة التوبة، آية: ٣٧.
(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٩.

والتأويل ما إستنبطه العلماء العالمون بمعنى الخطاب، الماهرون في آلات العلوم.

وقال قوم منهم البغوي والكواشي: التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها، تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط.

وقال بعضهم: التفسير في الاصطلاح، علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها وناسخها وخاصها ومطلقها ومجملها وحلالها ووعدها وأمرها، ومقابلات هذه وغيرها وأمثالها.

قال أبو حيان: علم التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الأفرادية والتركيبية ومعانيها التي يحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك.

قال: فقولنا علم جنس؛ وقولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، هو علم القراءة؛

وقولنا: ومدلولاتها، أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا متن علم اللغة الذي يحتاج اليه في هذا العلم؛

وقولنا: وأحكامها الأفرادية والتركيبية يشتمل علم التصريف والبيان والبديع؛

وقولنا: ومعانيها التي يحمل عليها حالة التركيب يشتمل ما دلالته بالحقيقة، وما دلالته بالمجاز، فان التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً، ويصد عن الحمل عليه صاد، فيحمل على غيره وهو المجاز؛ وقولنا: وتتمات لذلك هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما أبهم في القرآن، ونحو ذلك.

وقال الزركشي: التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

المطلب الثاني

في وجه الحاجة إلى علم التفسير

أعلم أن كل من وضع من البشر كتاباً، وضعه ليفهم بذاته من غير شرح، وانما احتيج إلى الشرح لأحد أمور ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنف، فانه لقوة علمه ربما يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز، فربما عسر فهم مراده، فيشرح بعبارات واضحة، ومن هاهنا شرح المصنفين كلامهم، لأن شرحهم أدل على مرادهم من غيرهم.

وثانيها أغفاله بعض تتمات المسألة، أو شروط لها أعتماداً على وضوحها أو لأنها من علم آخر، فيحتاج الشارح إلى بيانه.

وثالثها احتمال اللفظ لمعان كالمجاز والاشتراك ودلالة الالتزام، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف وترجيحه، وقد يقع في التصانيف ما لا يخلو عنه بشر من السهو والغلط أو تكرار الشيء أو حذفه، فيحتاج الشارح إلى التنبيه على ذلك.

إذا تقرر هذا، فنقول أن القرآن انما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه دون بواطنه، لأنها لم تظهر لهم أيضاً بعد البحث والنظر، مع سؤالهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأكثر، كسؤالهم لما نزل: ﴿ولم يلبسوا ايمانهم بظلم﴾[1]: أينا لم يظلم نفسه، ففسره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿أن الشرك لظلم عظيم﴾[2]؛ وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير، فقال ذلك العرض، وكقصة عدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود، وغير ذلك، مما سألوا عن آحاد منه، ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة من أحكام

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٣.

الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير.

ومعلوم أن بعضه من قبيل بسط الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها، و بعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض.

قال الخولي: علم التفسير عسير يسير، أما عسره فظاهر من وجوه: أظهرها أنه لا يمكن سماع المراد من متكلمه، أو ممن سمع منه، فتعين طريق العلم في السماع من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك في آيات قلائل، فطريق العلم بالمراد الاستنباط بأمارات ودلائل، وانما لم يأمر الله تعالى نبيه بالتنصيص على المراد في الكل، ليتفكر عباده في كتابه.

المطلب الثالث

في شرف علم التفسير

ولا يخفى شرفه على من نظر في الكتاب والسنة. قال الله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً﴾[1]. عن ابن عباس في قوله تعالى: «يؤتى الحكمة»، قال: المعرفة بالقرآن. وعنه أيضاً موقوفاً: يعني تفسيره، فأنه قد قرأه البر والفاجر. وعن أبي الدرداء، قال: قراءة القرآن والفكرة فيه. وكذا عن مجاهد وأبي العالية وقتادة.

وقال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون﴾[2]. عن عمرو بن مرة، قال: ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني، لأني سمعت الله يقول: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾. ولا حاجة إلى التطويل والاكثار فيما ورد فيه من الكتاب والسنة والآثار، لأن ذلك لا يخفى على أولى الأبصار.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.

ثم أعلم أن العلماء أجمعوا على أن التفسير من فروض الكفايات وأجل العلوم الثلاثة الشرعية. قال بعضهم: أشرف صناعة يتعاطاها الانسان معرفة تفسير القرآن، لأن شرف الصناعة أما بشرف موضوعها، كالصياغة بالنسبة إلى الدباغة، اذ الذهب والفضة أشرف من جلد الميتة؛ وأما بشرف غرضها، كالطب بالنسبة إلى الكناسة لأن غرض الطب افادة صحة الأبدان، وغرض الثاني تنظيف المستراح؛ وأما بشدة الحاجة إليها كالفقه بالنسبة إلى الطب، فإن الفقه يحتاج إليه في الدين وفي الدنيا، في كل الناس وفي كل الأوقات، والطب يحتاج إليه في الدنيا وفي بعض الناس وفي بعض الأوقات.

إذا عرفت ذلك، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث، لأن موضوعه كلام الله، الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه؛ وأيضاً الغرض منه الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول الى السعادة الحقيقية التي لا تفنى؛ وأيضاً كل كمال ديني أو دنيوي، عاجلي أو آجلي مفتقر إلى العلوم الشرعية، والمعارف اللدنية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.

علم معرفة شروط المفسر وآدابه

ومما يجب أن يعلم أن ما أجمل في موضع من القرآن، يطلبه في موضع آخر، اذ ربما يفسره في موضع آخر، وكذا ما اختصر في مكان ربما يبسطه في مكان آخر.

وألف ابن الجوزي كتاباً ذكر فيه ما أجمل في القرآن في موضع، وفسر في موضع آخر، فان أعياه ذلك، طلبه من السنة، فانها شارحة للقرآن وموضحة له.

قال الشافعي: كل ما حكم به رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو مما فهمه من القرآن. وقال صلى الله عليه وسلم: «الا أوتيت القرآن ومثله معه»، يعني السنة، فإن لم يجده في السنة رجع إلى أقوال الصحابة، فأنهم

أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح.

وقد قال الحاكم في المستدرك أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل، له حكم الفروع.

وقال الامام أبو طالب الطنزي في أوائل تفسيره ــ القول في أدوات المفسر ــ: أعلم أن من شرطه صحة الاعتقاد أولاً، ولزوم سنة الدين، فإن كان مغموضاً عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا؛ فكيف على الدين ثم لا يؤتمن من الدنيا على الأخبار عن عالم، فكيف يؤتمن في أخبار عن أسرار الله، ولأنه لا يؤمن ان كان متهماً بالألحاد أن يبغي الفتنة، و يغر الناس بلية وخداعة، كدأب الباطنية وغلاة الرافضة، وان كان متهماً بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه على ما يوافق بدعته، كدأب القدرية، فإن أحدهم يصنف الكتاب في التفسير، ومقصوده منه الإيضاع خلال المساكين، ليصدهم عن اتِّباع السلف ولزوم طريق الهدى، ويجب أن يكون اعتماده على النقل عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعن أصحابه ومن عاصرهم، و يتجنب المحدثات، واذا تعارضت أقوالهم، وأمكن الجمع بينها فعل، فيأخذ منها ما يدخل فيه الجميع، فلا تنافي بين القرآن وطريق الأنبياء وطريق السنة وطريق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وطّريق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فأي هذه الأقوال أن أفرده كان محسناً، وان تعارضت رد الأمور إلى ما ثبت فيه السمع، فإن لم يجد سمعاً، وكان للاستدلال طريق تقوية أحدها، رجح بأقوى الاستدلال فيه، كاختلافهم في معنى حروف الهجاء، يرجح قول من قال أنها قسم، وان تعارضت الأدلة في المراد، علم أنه قد اشتبه عليه، فيؤمن بمراد الله منها، ولا يتهجم على تعيينه و ينزله منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه، ومن شرطه صحة المقصد فيما يقول، ليلقى التسديد، فقد قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[1]، وإنما يخلص له القصد، اذا زهد في الدنيا، لأنه اذا رغب

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

فيه، لم يؤمن أن يتوسل به إلى غرض يصده عن صواب قصده، و يفسد عليه صحة علمه.

وتمام هذه الشرائط أن يكون متمكناً من عدة الأعراب، لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام، فأنه اذا خرج بالبيان عن وضع اللسان أما حقيقة أو مجازاً، فتأويله تعطيله، وقد رأيت بعضهم يفسر قوله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم﴾، في أنه ملازمة قول الله، ولم يدر الغبي أن هذه جملة حذف عنها الخبر، والتقدير: الله انزله. انتهى كلام أبي طالب.

واعلم أن الاختلاف في التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط؛ ومنه ما يعلم بغير ذلك، والمنقول أما عن المعصوم أو غيره؛ ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره؛ ومنه ما لا يمكن ذلك. وهذا القسم الذي لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه، عامته فيما لا فائدة منه، ولا حاجة بنا الى معرفته، كأختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف واسمه، وفي قدر سفينة نوح وخشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك. فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان منه منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قبل، ومالا، بأن نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب، وقف عن تصديقه وتكذيبه، وكذا ما نقل عن بعض التابعين، وان لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب، فتى اختلف التابعون، لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض، وما نقل في ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً، فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو من بعض من سمعه منه، أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب، أقل من نقل التابعين، ومع جزم الصحابي بما يقوله، كيف يقال أنه أخذه عن أهل الكتاب، وقد نهوا عن تصديقهم.

وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه، فهذا موجود كثيراً ولله الحمد. وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم باحسان. فإن التفاسير التي يذكر فيها

كلام هؤلاء صرفاً، لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين؛ مثل تفسير عبد الرزاق، والفريابي ووكيع وحميد واسحق وأمثالهم.

أحدهما: قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

والثاني: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به.

فالأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان. والآخرون راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم وسياق الكلام. ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم. كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون، وان كان نظر الأولين الى المعنى أسبق، ونظر الآخرين الى اللفظ أسبق.

والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن على ما دل عليه وأريد به؛ وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به. وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه واثباته من المعنى باطلاً، فيكون خطأهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقاً، فيكون خطأهم فيه في الدليل لا في المدلول. فالذين أخطأوا فيهما مثل طوائف من أهل البدع، اعتقدوا مذاهب باطلة، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم. وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم؛ مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، والجبائي، وعبد الجبار، والرماني، والزمخشري وأمثالهم. ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى أنه يروج على خلق كثير من أهل السنة كثيراً من تفاسيرهم الباطلة، حتى قال تاج الدين السبكي: أعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه امام في فنه، الا أنه رجل مبتدع، متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة.

والواجب كشط ما في كتابه الكشاف من ذلك كله، إلا أن الأعاجم يدرسونها في هذا الزمان، فيجب منع من لا يرسخ في الشريعة والسنة قدمه عنها، والله أعلم.

وأما تفسير ابن عطية وأمثاله، أتبع للسنة، وأسلم من البدعة، ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه، لكان أحسن، فأنه كثيراً ما ينقل من تفسير ابن جرير الطبري ـــ وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ـــ ثم أنه يدع ما ينقله ابن جرير عن السلف، و يذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وانما يعني بهم طائفة من أهل الكلام، الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وان كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة، لكن ينبغي أن يعطى لكل ذي حق حقه، فإن الصحابة والتابعين والأئمة، اذا كان لهم في الآية تفسير، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر، لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين، صار مشاركاً للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا. وفي الجملة من عدل عن مذهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله.

وأما الذين أخطأوا في الدليل، فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء، يفسرون القرآن بمعاني صحيحة في نفسها، لكن القرآن لا يدل عليها؛ مثل كثير مما ذكره السلمي في الحقائق. فإن كان فيما ذكروه معاني باطلة، دخل في القسم الأول. انتهى كلام ابن تيمية ملخصاً.

قال السيوطي بعد نقل كلامه على النمط المذكور؛ وهو نفيس جداً. قلت: لقد حجر ابن تيمية الواسع، حيث قصر التفسير في النقل، و بدع ما سوى ذلك؛ مثل تفسير الامام فخر الدين الرازي، حيث فسر على قواعد المعقول؛ ومثل تفسير السلمي، حيث فسر على قواعد أرباب القلوب. وقد عرفت أن القرآن لا تنقضي عجائبه، وأن له ظهراً و بطناً ومطلعاً.

قال الزركشي في (البرهان للناظر في القرآن): للتفسير مآخذ كثيرة، أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهذا هو الطراز المعلم. لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع، فأنه كثير. ولهذا قال أحمد: ثلاثة كتب لا أصل لها: المغازي والملاحم والتفسير. قال المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة، والا فقد صح من ذلك كثير؛ كتفسير الظلم بالشرك في آية الأنعام؛ والحساب اليسير بالعرض، والقوة بالرمي، في قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾[1].

الثاني: الأخذ بقول الصحابي، فان تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما في قول التابعي قولان: الأصح قبوله لأن غالبه تلقوه من الصحابة وما ينقل عنهم. فأما اختلاف عبارة: اذ يخبر بعضهم عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده وثمرته، وان لم يمكن الجمع، فإن كانا عن شخص واحد فالمتأخر منها مقدم، ان استويا في الصحة، والا فالصحيح هو المقدم.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة، فان القرآن نزل بلسان عربي، الا أن يخالف الظاهر، بأن يدل عليها القليل من لغة العرب، ويكون المتبادر خلافها.

الرابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشرع. وهذا هو الذي دعا به النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لابن عباس، وقال: اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل، والذي عناه علي رضي الله عنه بقوله: الا فهما يؤتاه إلى الرجل في القرآن. ومن هاهنا اختلف الصحابة في معنى الآية، فأخذ كل برأيه على منتهى نظره.

وأعلم أنه لا يجوز تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد من غير أصل، قال تعالى:

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾[1] ؛ وقال تعالى: ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[2] ؛ وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من فسر القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ»؛ وقال: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».

ثم قالوا: الذي منع الرأي، الذي يغلب من غير دليل قام عليه، وأما الذي يشده برهان فالقول به جائز. وأيضاً المعنى، فقد أخطأ حيث لم يراجع أخبار الصحابة في معرفة سبب نزوله وناسخه ومنسوخه ولم يراجع نقل اللغة (في تفسير) ألفاظه.

وقيل: معناه من قال فيه برأيه، من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه فيكون موافقة للصواب، أن وافقه من حيث لا يعرفه، غير محمودة.

قال الماوردي: قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهره، وامتنع من أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، ولو صحبها الشواهد، ولم يعارض شواهدها نص صريح، وهذا عدول عما تعهدنا بمعرفته من التطور في القرآن، فينسد باب الاستنباط. والحديث ان صح، فمعناه: من تكلم في القرآن بمجرد رأيه، ولم يعرج على ما سوى لفظه وأصاب الحق، فقد أخطأ الطريق، وانما أصابته اتفاق لا عبرة بها؛ مثل تأويل يخالف الشرع، كتأويل الجاهلين؛ مثل تأويل الروافض: ﴿ مرج البحرين يلتقيان﴾[3]، أنهما علي وفاطمة؛ ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾[4]، يعني الحسن والحسين رضي الله عنهما.

ثم اعلم أن القوم اختلفوا. فقال قوم: لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وان كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار، وليس له إلا أن ينتهي إلى ما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في ذلك. ومنهم من قال: يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج المفسر اليها، وهي خمسة عشر علماً:

---

(١) سورة الاسراء، آية: ٣٦.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٦٩.
(٣) سورة الرحمن، آية: ١٩.
(٤) سورة الرحمن، آية: ٢٢.

أحدها: اللغة؛ قال مجاهد؛ لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله اذا لم يكن عالماً بلغات القرآن، ولا يكتفي باليسير منها، اذ اللفظ ربما يكون مشتركاً، فيغفل عن أحد المعنيين، والمراد ذلك.

وثانيها: النحو؛ لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الأعراب. عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق، و يقيم بها قراءته، فقال: حسن، فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية، فيعنى بوجهها، فيهلك فيها.

وثالثها: التصريف؛ لأن به معرفة الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: ومن فاته علمه، فاته المعظم، اذ كم من كلمة مبهمة اتضحت بمصادرها، كما قال الزمخشري، ومن بدع التفاسير، قول من قال: ان الامام في قوله تعالى: ﴿يوم ندعوا كل أناس بأمامهم﴾[1]، جمع أم، وان الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم. قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فان أما لا يجمع على إمام.

ورابعها: الاشتقاق؛ لأن الأسم اذا اشتق من مادتين مختلفتين، اختلف المعنى باختلافهما، كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح.

وخامسها وسادسها وسابعها: المعاني والبيان والبديع؛ لأنه يعرف بالأول توقية (خواص) تراكيب الكلام حقها من المقام؛ وبالثاني من حيث تفاوتها بحسب زيادة وضوح الدلالة ونقصانها؛ وبالثالث وجوه تحسين الكلام.

وهذه الثلاثة هي علوم البلاغة التي هي من أعظم أركان المفسر. قال السكاكي: فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل؛ أراد المعاني والبيان. وأما البديع فمن جهات الحسن. قال الزمخشري: من حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح. وقال غيره: معرفة هذه الصناعة بأوضاعها، هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كتاب الله، وهي قاعدة الفصاحة، وواسطة عقد البلاغة.

---

(١) سورة الاسراء، آية: ٧١.

وثامنها: علم القراءات؛ اذ به يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

وتاسعها: أصول الدين؛ اذ في القرآن ما يجوز ظاهره في حقه تعالى، فالأصولي يؤوله، و يستدل على ما يستحيل، وما يجب، وما يجوز.

وعاشرها: أصول الفقه؛ اذ به يعرف وجه استنباط الأحكام.

والحادي عشر منها: أسباب النزول؛ اذ لا يطلع على حقيقة المعنى الا بها.

والثاني عشر منها: الناسخ والمنسوخ؛ ليعلم المحكم من غيره.

والثالث عشر: الفقه.

والرابع عشر: الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

والخامس عشر: علم الموهبة؛ وهو علم يورثه اللّٰه لمن عمل بما علم، كما أشير إليه في حديث: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم».

فهذه هي العلوم التي لا يمكن تعاطي التفسير بدون واحد منها، ومن فسر كان مفسراً بالرأي المنهى عنه.

قلت: واياك أن تستشكل علم الموهبة، اغتراراً بما سمعت من أقوال المنكرين، فتأمل الحديث المذكور، وحديث: «من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً فجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». إلا أن الزمان لما خلا عن العلم وذويه، وعن العرفان ومنتحليه و بار أهل الفضل، وكسد سوق (القول) الفصل، ترأس الجهال، وأكثروا القيل والقال، ولكن للحروب رجال، وللثريد رجال.

قال ابن النقيب: جملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأي خمسة أقوال:

الأول: التفسير بلا تحصيل آلاته من العلوم.

الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه الا الله.

الثالث: التفسير المقرر للمذهب الباطل، بأن يجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً له، فيرد إليه بأي طريق أمكن وان كان ضعيفاً.

الرابع: التفسير أن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالهوى.

ثم قال: وأعلم أن علوم القرآن ثلاثة أقسام:

الأول: ما استأثر الله به من حقائق ذاته، ودقائق أسمائه وصفاته، وتفاصيل علم غيوبه.

الثاني: ما أطلع عليه نبيه من أسرار الكتاب، واختصه به.

والأول لا يجوز لأحد. والثاني لا يجوز لغير النبي صلى الله عليه وسلم، الا لمن أذن هو له. قيل: وأوائل السور من هذا القسم، وقيل من القسم الأول.

الثالث: علوم علمها الله تعالى نبيه، وأمره بتعليمها؛ وهذا على قسمين:

منه: ما لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع، كأسباب النزول، والناسخ، والمنسوخ، والقراءات، واللغات، وقصص الأمم الماضية، والحوادث الآتية، وأحوال الحشر والمعاد.

ومنه: ما يؤخذ بطريق النظر والاستدلال والاستنباط والاستخراج من الألفاظ، وهو قسمان: قسم اختلفوا في جوازه، وهو تأويل الآيات المتشابهات في الصفات، وقسم اتفقوا عليه، وهو استنباط الأحكام الأصلية، والفرعية، والأعرابية، وكذا فنون البلاغة، وضروب المواعظ والحكم والاشارات.

قال أبو حيان: وأعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل؛ وقسم لم يرد.

والأول أما أن يرد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعليك بالبحث عن صحة سنده؛ أو عن الصحابة، فانظر أن فسره من حيث اللغة، فأعتمده لأنهم أهل اللسان، والعارفون بقرائن القرآن. وإذا تعارضت الأقوال، فإن أمكن الجمع فذاك، والا فقدم ابن عباس، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بشره، وقال: «اللهم علمه التأويل». ورجح الشافعي قول زيد في الفرائض، لحديث: «أفرضكم زيد»؛ أو عن التابعين، فإن صح الاعتماد فكما سبق، وإلا وجب الاجتهاد.

وأما ما لم يرد فيه نقل، فهو قليل. وطريق التوصل إلى فهمه: النظر في مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها، واستعمالاتها بحسب السياق.

قلت: وقد صنف الشيخ جلال الدين السيوطي كتاباً فيه تفاسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيه بضعة عشر ألف حديث، ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم في أربعة مجلدات، وسماه: (ترجمان القرآن). قال: ورأيت أنا في أثناء تصنيفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، في قصة طويلة، تحتوي على بشارة حسنة. جزاه الله خير الجزاء، وأثابه الجنة بمنّه وكرمه.

واعلم أن بعضاً من فوائد هذا الباب، قد تقدم في موضع آخر من هذا الكتاب، لكن سياق الكلام، اقتضى هذا التكرار والأطناب، فالمرجو من المخلصين والطلاب، أن لا يعاملوا باللوم والعتاب، لأن ما دخل تحت الاضطراب، لا يشفع عليه ولا يعاب، ومن الله الوهاب التوفيق للحق والصواب.

علم معرفة غرائب التفسير

ألف فيه محمود بن حمزة الكرماني كتاباً في مجلدين، سماه: (العجائب والغرائب)، ضمنه أقوالاً منكرة ذكرت في معاني الآيات، بحيث لا يحل الاعتماد عليها، وإنما ذكرها للتحذير منها. من ذلك: قول من قال في «حم عسق» أن الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية المروانية، والعين ولاية العباسية، والسين ولاية السفيانية، والقاف قدرة مهدي، حكاه أبو مسلم. قال الكرماني: أوردت ذلك لتعلم أن فيمن يدّعي العلم حمق.

ومن ذلك: قول من قال في «الم» معنى ألف: ألف الله محمداً فبعثه نبياً، ومعنى لام: لامه الجاحدون وأنكروه؛ ومعنى ميم: ميم الجاحدون المنكرون، من الموم، وهو البرسام.

ومن ذلك: قول من قال في: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أنه قصص القرآن.

ومن ذلك: ما ذكره ابن فورك في تفسيره، في قوله تعالى: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾، أن ابراهيم كان له صديق، وصفه بأنه قلبه، أي ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة، اذا رآها عياناً. قال الكرماني: وهذا بعيد جداً.

ومن ذلك: قول من قال في: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾، أنه الحب والعشق. وقد حكاه الكواشي في تفسيره.

ومن ذلك: قول من قال في: ﴿ومن شر غاسق اذا وقب﴾، انه الذكر اذا قام.

ومن ذلك: قول أبي معاذ النحوي في قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾، أراد بالشجر الأخضر ابراهيم عليه السلام، وبالنار النور، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾، تقتبسون الدين.

علم معرفة طبقات المفسرين

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. ومن التابعين: مجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاوس، وغيرهم. وهؤلاء علماء مكة. وفي الكوفة أصحاب ابن مسعود.

وفي المدينة: زيد بن أسلم، الذي أخذ عنه أبنه عبد الرحمن وإمام مالك بن أنس.

ومن المبرزين من التابعين: مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وعطاء بن أبي سلمة الخراساني ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية، والضحاك بن مزاحم، وعطية العوفي، وقتادة، وزيد بن أسلم، ومرة الهمداني، وأبو مالك، ويليهم الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. فهؤلاء كلهم قدماء المفسرين.

ثم بعد هذه الطبقة طبقة أخرى، مجمع أقوال الصحابة والتابعين: كسفيان ابن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، و يزيد بن هارون، وعبد الرزاق، وآدم بن أبي اياس، واسحق بن راهويه، وروح بن عبادة، وعبد بن حميد، وسنيد، وأبي بكر بن أبي شيبة، وآخرين.

و بعد هؤلاء: ابن جرير الطبري، وكتابه من أجلّ التفاسير وأعظمها، ثم ابن أبي حاتم، وابن ماجة، والحاكم، وابن مردو يه، وأبو الشيخ ابن حبان، وابن المنذر في آخرين. وكلها مستدة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، الا ابن جرير، فأنه تعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والاعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك.

ثم ألفوا تفاسير اختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال بترا، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل. واعلم أن هؤلاء الطبقات مع تراجمهم قد مرت على وجه التفصيل.

اذا عرفت هذا، فقد ظهر لك أنه تكمل بذلك فروع علم التفسير، وقد تنيف على ثمانين ولله الحمد. هذا ما يقتضيه حسن الترتيب، حيث أدمج بعض العلوم في بعض، والا فلو فصل ما يمكن فصله، لزادت والله أعلم على الثلاثمائة، ولكن خير الأمور أوساطها.

وأعلم أن هاهنا بعض العلوم. رأيت درجها في علم التفسير أحسن وأولى، لأن لها تعلقاً بالحروف التي هي فواتح السور، لأن لها خواص لا يطلع عليها الا متكلمها وهي هذه.

علم خواص الحروف

واعلم أن للحروف المذكورة في فواتح السور، بل للحروف مطلقاً خواص جليلة، ومنافع جزيلة، يعرفها أهلها. وقد أورد هذا العلم الشيخ عبد الرحمن البسطامي في كتبه المؤلفة في هذا الشأن.

علم الخواص الروحانية

من الأوفاق العددية والحرفية والتكسيرات العددية والحرفية.

(وهو) علم باحث عن كيفية تمزيج الأعداد أو الحروف على التناسب والتعادل، بحيث يتعلق بواسطة هذا التعديل أرواح متصرفة تؤثر في القوابل، حسب ما يراد و يقصد من ترتيب الأعداد والحروف وكيفياتها.

وموضوعه: الأعداد أو الحروف.

وغايته: الوصول إلى المطالب الدينية أو الدنيوية أو الأخروية.

وغرضه وغايته وفائدته لا تخفى. وكتب عبد الرحمن المغربي نافعة في هذا الباب، وكذا كتب الشيخ أحمد البوني، وغير ذلك من المشايخ.

وهذا العلم يمكن جعله من فروع علم الحساب، من حيث ترتيب الأعداد؛ ومن فروع علم الهندسة، من جهة تعديل تلك الأعداد أو الحروف في الجداول الوفقية. لكن لما أمكن جعله من خواص الحروف باعتبار جعل الوفق حرفياً، ذكرناه في علم الحروف التي هي من خواص القرآن.

علم التصرف بالحروف والأسماء

وهذا علم شريف، يتوصل بالمداومة عليه، على شرائط معينة ورياضة خاصة، إلى ما يناسب تلك الحروف أو الأسماء من الخواص.

وموضوعه وغايته ظاهران على العارف. قيل: وتحت هذا العلم مائة وثمانية وأربعون علماً. وكتب الشيخ عبد الرحمن المذكور، والشيخ أحمد البوني مشهورة في هذا العلم.

علم الحروف النورانية والظلمانية

واعلم أنهم جعلوا بعض الحروف نورانياً وبعضها ظلمانياً، وحكموا بأنه ليس في سورة الفاتحة ولا في فواتح السور، شيئاً من الحروف الظلمانية. وتفصيل هذا العلم في كتب الشيخ أحمد البوني، يجدها من يطلبها.

ومنفعته: العمل بالحروف النورانية في أعمال الخير، وبالظلماتية في أعمال الشر. وتلك الحروف النورانية يجمعها قولك: نص حكيم له سر قاطع؛ وقولك: طرق سمعك النصيحة؛ وقولك: من قطعك سحيراً صله؛ وقولك: صن سراً يقطعك حمله؛ وقولك: على صراط حق تمسكه؛ وقولك: سر حصين قطع كلامه. والأخير أليق بهذا المعنى. كذا في (غاية المغنم في الأسم الأعظم).

علم التصريف بالأسم الأعظم

وهذا من العلوم التي قلما وصل اليها أحد من الناس ما خلا الأنبياء والأولياء الكاملين من أرباب الكشف والعيان، ولهذا لم يصنفوا في شأنه تصنيفاً يعين هذا الاسم، لأن كشفه على آحاد الناس لا يحل أصلاً، اذ في كشفه فساد العالم، وارتفاع نظام بني آدم. نعم جمع الشيخ اليافعي وغيره، الروايات الصادرة في هذا الشأن، لكن لا بحيث يطلع اليقين من أفق الحسبان؛ كما أشار اليه في كتابه: (الدر النظيم في فضائل القرآن العظيم).

علم الكسر والبسط

(هو) علم بوضع الحروف المقطعة، بأن يقطع حروف اسم من أسماء الله تعالى، ويمزج مع حروف مطلوبك، و يوضع في سطر، ثم يعمل على طرق يعرفها أهلها، حتى يغير ترتيب الحروف الموجودة في السطر الأول في السطر الثاني، ثم وثم إلى أن ينتظم عين السطر الأول، فيؤخذ منها أسماء ملائكة ودعوات تشتغل بها حتى يتم مطلوبه.

علم معرفة الزايرجة

وهو قسم من الكسر والبسط مع طرق مخصوصة وأحوال معينة، حتى تخرج حروف تخرج منها كلمات دالة على كيفية مرادك في الاستقبال، أما بالحصول أو عدمه، حتى يخرج اسم من يتم مرادك عنده، واسم من هو المانع لحصوله. ورأيت بعض طرق يخرج منها كلمات المطلوب أبياتاً منظومة بالعربية، على بحر واحد، وروي واحد. وهذا علم عجيب موضوع في جداول، قلما رأيت من

يعرفه، وقلما رأيت من يعلمه ولا يبخل به. والله المستعان في كل شأن.

علم الجفر والجامعة

وهو عبارة عن العلم الاجمالي بلوح القضاء والقدر، المحتوى على كل ما كان وما يكون كلياً وجزئياً.

والجفر عبارة عن لوح القضاء الذي هو عقل الكل. والجامعة لوح القدر الذي هو نفس الكل. وقد ادعى طائفة ان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريقة البسط الأعظم في جلد الجفر، يستخرج منها بطرق مخصوصة وشرائط معينة ألفاظ مخصوصة يستخرج منها ما في لوح القضاء والقدر. وهذا علم توارثه أهل البيت، ومن ينتمي اليهم، و يأخذ منهم من المشايخ الكاملين، وكانوا يكتمونه عن غيرهم كل الكتمان.

وقيل: لا يقف على هذا الكتاب حقيقة الا المهدي المنتظر خروجه في آخر الزمان. وورد هذا في كتب الأنبياء السالفة، كما نقل عن عيسى، صلوات الله عليه؛ نحن معاشر الأنبياء نأتيكم بالتنزيل، وأما التأويل فسيأتي به الفارقليط الذي سيأتيكم بعدي.

نقل أن الخليفة المأمون لما عهد الخلافة من بعده إلى علي بن موسى الرضا، وكتب إليه كتاب عهده، كتب هو في آخر ذلك الكتاب: نعم، الا أن الجفر والجامعة يدلان على أن الأمر لا يتم. وكان كما قال لأن المأمون، استشعر لأجل ذلك فتنة من طرف بني هاشم، فسم علي بن موسى الرضا في عنب على ما هو المسطور في كتب التواريخ.

علم دفع مطاعن القرآن

هو علم باحث عن دفع شبهات أرباب الضلال الموردة على القرآن بحسب لفظه أو بحسب معناه. ومبادئه مأخوذة من العلوم العربية وأصول الكلام.

والغرض منه تحصيل الملكة لدفع أمثال تلك المطاعن.

وفائدته دفع الوهن عن عقائد الضعفاء، وتثبيتهم على عقائد حقية القرآن.
وما ذكره السكاكي في تكملة (مفتاح العلوم) كاف في هذا العلم، وأيضاً في (كتاب الأعلام) للماوردي كفاية في هذا العلم، بل فيه دَفع مطاعن النبوة مطلقاً.

واقتضى حسن الترتيب أن تجعل خاتمة فروع علم التفسير دفع المطاعن عن القرآن لأنه نتيجة للعلوم المذكورة.

المطلب الرابع

في فروع علم الحديث

علم المواعظ

وهو علم يعرف به ما هو سبب الانزجار عن المنهيات، والانزعاج إلى المأمورات، من الأمور الخطابية المناسبة لطبائع عامة الناس.

ومن مبادئه حكايات الأمم المرضية الأعمال، والمشكورة الأخلاق، من الصلحاء والعباد، والمشايخ والزهاد، والعلماء العاملين بعلومهم، رضوان الله عليهم؛ وكذا حكايات الأشرار المبتلين، بسوء أعمالهم وأخلاقهم، اذ الأخيار يتأدبون بصنيع الأشرار.

والغرض من هذا كله، الحث على تكميل النفوس بالعلم والعمل؛ وغايته الفوز بالسعادتين الدينية والدنيوية. ولما كان حل مبادي هذا العلم الأحاديث المروية عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، جعلنا هذا العلم من فروع علم الحديث.

ومصنفات الامام الغزالي، سيما (الأحياء)، كاف في هذا العلم.

علم الأدعية والأوراد

وهو علم يبحث فيه عن الأدعية المأثورة، والأوراد المشهورة، بتصحيحها وضبطها، وتصحيح روايتها؛ وبيان خواصها، وعدد تكرارها، وأوقات

قراءتها، وشرائطها ومبادئه مبينة في العلوم الشرعية.

والغرض منه معرفة تلك الأدعية والأوراد على الوجه المذكور، لينال باستعمالها إلى الفوائد الدينية والدنيوية.

ولما كان استمداد هذا العلم من كتب علم الأحاديث، جعلناه من فروعه.

ومن الكتب النافعة فيه:

١ ــ كتاب الأذكار، للامام النواوي رحمه الله؛
٢ ــ وكتاب الحصن الحصين لمحمد بن محمد الجزري؛
٣ــ وكتاب عبد الرحمن البسطامي.

وغير ذلك من الكتب اللطيفة في هذا الشأن.

علم الآثار

وهو علم يبحث فيه عن أقوال العلماء الراسخين، من الأصحاب والتابعين، والسلف الصالحين، وأفعالهم وسيرهم في أمر الدين والدنيا.

ومبادئه أمور مسموعة من الثقات.

والغرض منه معرفة الأمور المذكورة، ليقتدى بهم، وينال ما نالوه. وهذا العلم أشد ما يحتاج إليه علم الموعظة.

ومن الكتب المصنفة في هذا العلم:

١ ــ كتاب: سير الصحابة والتابعين والزهاد.

٢ ــ وكتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين، للامام اليافعي.
وغير ذلك من كتب الأحاديث والآثار.

علم الزهد والورع

هو علم كيفية الاعراض عن الدنيا، والتدقيق في التحرر عن الحرام، بحيث يترك كثيراً من الحلال، خوفاً من أن يقع في الشبهات. وقيل: الزهد ترك الشبهات، خوفاً من الحرام؛ والورع ترك الحلال خوفاً من الوقوع في الشبهات.

واعلم أن صاحب الورع المحفوظ، يرى الطعام الحرام خنزيراً في اليقظة، والشراب الحرام خمراً فيها أيضاً، لا يشك فيما يراه، ويراه جليسه قرصة خبز طيبة، ويرى الشراب ماء عذباً.

وكتب الشيخ الامام الغزالي وافية في هذا العلم، سيما (كتاب الأحياء). ولما كان هذا العلم نتيجة علم الحديث وثمرته جعلناه من فروعه وسنذكر هذا العلم في الطرف الثاني من الرسالة، لأنه من مقدمات العلوم الكشفية، التي جعلنا الطرف الثاني لبيانها ان شاء الله تعالى.

علم صلاة الحاجات الواردة في الأحاديث

وهي كثيرة جداً، أشهرها صلاة الضحى، والتهجد، وصلاة التسبيح وغير ذلك من نوافل الصلوات. وقد دونها الشيخ فخر الدين الرومي في كتاب (دعوات الليل والنهار)، يجدها من يطلبها.

علم المغازي

وهذا وأن أمكن عده من فروع علم التاريخ، لكن لما كان ثبوتها بالأحاديث والآثار، جعلناه من فروع علم الحديث. وفي هذا العلم مصنفات كثيرة، أجلها وأفضلها تصنيف عبد الملك بن هشام، ومغازي ابن اسحق، وغير ذلك.

المطلب الخامس

في فروع علم أصول الدين

واعلم أن المتقدمين من علماء الكلام، لما رأوا أن الغاية القصوى من العلوم معرفة الله تعالى وصفاته، وما يتفرع عليها من أحوال النبوة والمعاد، بحثوا عن هذه الأمور، وجعلوا البحث عما تتوقف هي عليه من أحوال الموجودات بطريق المبدئية، على قدر الحاجة، ولذلك ترى كتب الأقدمين عن السلف الصالحين، مقصورة على المباحث المذكورة.

ثم أن من يليهم من العلماء، لما رأوا أن تلك المبادىء من مسائل العلم الالهي، وتحاشوا عن أن يحتاج علم العقائد إلى علوم الفلاسفة، عمموا موضوعه، فبحثوا عن أحوال الموجودات الخارجية مطلقاً، ليكون لهم علم شرعي بازاء العلم الالهي للفلاسفة، ويمتاز عنها بأن يبحث في الكلام على قواعد الشرع، وفي الالهي على مقتضى العقول، وافق الملل والشرائع أم لا.

ثم أن من يليهم من العلماء، لما رأوا أن علمهم هذا لا يستغني عن القواعد المنطقية التي وضعتها الفلاسفة، ورأوا أن احتياج علم شرعي إلى علم غير شرعي، غير مرضي عند المتشرعين، عمموا موضوع العلم المذكور مرة أخرى، وجعلوا موضوعه المعلوم المتناول للموجود الخارجي والموجود الذهني، الذي هو موضوع المنطق، وذلك لأن موضوعه المعقولات الثانية الموجودة في الذهن فقط، فعلى هذا الذي استقر عليه رأيهم آخرا، صار موضوعه أعم المفهومات كلها، بحيث اندرج فيها موضوعات جميع العلوم. وقد تقرر في موضعه أن الاصالة والفرعية بين العلوم العقلية، أن يكون موضوع الفرع من أنواع موضوع الأصل، فعلى هذا يكون جميع العلوم، من فروع علم الكلام، لأن موضوعه أعم الموضوعات كلها، ولهذا لم نتعرض لفروع علم الكلام أصلاً، لا لعدم فروعه.

المطلب السادس

في فروع علم أصول الفقه

علم النظر

وهو علم المنطق، الباحث عن أحوال الأدلة السمعية، أو حدود الأحكام الشرعية، وهذا من فروع علم الأصول، لأن علم الأصول باحث عن أحوال الأدلة السمعية، من حيث استنباط الأحكام الشرعية منها. والأدلة أما سمعية، وهي الكتاب والسنة والاجماع؛ أو عقلية، وهي القياس.

ثم البحث عن الأدلة السمعية بطرق سمعية، وعن العقلية بطرق عقلية باحثة عن الأدلة السمعية، وهو طرق القياس، فالطرق العقلية ليست الا القواعد المنطقية، فهي من فروعه لا محالة. ولهذا جعلها ابن الحاجب من مبادىء علم الأصول. إلا أن الذي يكون مبادىء لعلم الأصول، ليس جميع قواعد المنطق من جهة المادة، بل قواعد لها اختصاص بالمباحث السمعية. نعم لا تفاوت بين السمعية والعقلية من جهة الصورة، كما لا يخفى على من مارس في ذلك العلم.

علم المناظرة

وهو علم باحث عن أحوال المتخاصمين، ليكون ترتيب البحث بينهما على وجه الصواب، حتى يظهر الحق بينهما. وهذا العلم من أنواع العلوم العقلية أيضاً. وقد مر تفصيله، لكن لا مانع فيه من أن يكون فرعاً لعلم الأصول.

علم الجدل

وهو اثبات أي وضع كان، وهدم أي وضع. وهو أيضاً من أنواع العلوم العقلية، لكنه من فروع علم الأصول أيضاً.

علم الخلاف

وهو الجدل الواقع بين أصحاب المذاهب الفرعية، كأبي حنيفة والشافعي، وأمثالهما. والفرق بينه و بين علم الجدل بالمادة والصورة؛ فإن الجدل بحث عن مواد الأدلة الخلافية، والخلاف بحث عن صورها.

وقد خرج العلماء بعضها مسائل عشر من الخلافيات، وبعضها المسائل العشرين إلى الأربعين والخمسين، ليكون انموذجاً، و يعتبر بها البواقي. وأحوال هذه الفنون والتصانيف الواقعة فيها، لتقدمها سابقاً، تركنا فيها التطويل.

و (كتاب المعالم)، للإمام فخر الدين الرازي جامع لهذه العلوم. وسمعت من بعض مشايخ المغاربة كتباً كثيرة في علمي الجدل والخلاف، بحيث ما سمعنا أسماءها في بلادنا، فضلاً عن رؤيتها.

المطلب السابع

في فروع علم الفقه

علم الفرائض

وهو علم باحث عن أحوال قسمة التركة على مستحقيها على فروض مقدرة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، واجماع أمة رسوله. وشهرة هذا العلم أغنانا عن تفصيله.

وهذا العلم باب من علم الفقه في الأصل، إلا أن لكثرة اعتناء العلماء به لعسره، ولزيادة شرفه، أفردوه بالتدوين، حتى عد علماً مستقلاً، وجعل من فروع علم الفقه.

والمصنفات في هذا العلم كثيرة، لكن أشهرها في بلادنا: (مختصر السجاوندي)، و (شروحه)، سيا (شرح) السيد الشريف قدس سره اللطيف، و (شرح) المولى شمس الدين الفناري، عليه رحمة الباري.

علم الشروط والسجلات

وهو علم يبحث فيه عن كيفية سوق الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات في الرقاع والدفاتر، ليحتج بها عند الحاجة اليها. وهذا باعتبار لفظه من فروع علم الإنشاء، و باعتبار مضمونه وفحواه، من فروع علم الفقه. وقد مر ذكره في فروع علم الانشاء.

علم القضاء

وهو علم باحث عن آداب تختص بالقضاة، وقد اعتنى العلماء بشأن القضاة، فأفردوا آداب القضاء في تصنيف مستقل. وأشهر التصانيف في ذلك (كتاب الخصاف)، وغير ذلك من الكتب المشهورة التي يعرفها أهلها.

علم معرفة حكم الشرائع

واعلم أن الفقهاء اقتصروا على تعليل الأحكام الشرعية، أما بالسمع من الكتاب والسنة والإجماع، أو بالعقل، وهو القياس، أما لكفاية ذلك في مقاصدهم، أو لعجز العباد عن معرفة الحكم، حتى قال قائلهم:

لم يخلق العقل دراكا لحكمته ... لكن ليقبل ما يأتيه من حكم

لكن بعضاً من الفضلاء، شكر الله سعيهم، بذلوا مجهودهم، فيما لم يكن الحكم فيه تعبدياً، في أن يستخرجوا الحكم في الأحكام، لتطمئن قلوب العباد في قبوله، وتنشط أذهانهم بأن يطلعوا على حكمة آمرها، فدونوا حكم الشرائع ومحاسنها حسبما قدروا على ذلك.

وصنف في هذا العلم كتاباً نافعاً جامعاً مسمى (بمحاسن الشرائع والاسلام)، الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري، روح الله روحه.

علم الفتاوى

وهو علم تروي فيه الأحكام الصادرة عن الفقهاء في الوقائع الجزئية،

ليسهل الأمر على القاصرين من بعدهم. والكتب المؤلفة في هذا العلم أكثر من أن تحصى، بعضها على مذهب الشافعية، وبعضها على مذهب الحنفية، وكذا المالكية والحنابلة.

وقد ذكرنا كثيراً منها في علم الفقه: من المتون والشروح والفتاوى، مع ترجمة مؤلفيها، لكن نذكر هاهنا على الاجمال بعضاً من الكتب المعتبرة الواقعة على مذهبنا.

وهي:

١ ـ الهداية.

٢ ـ وشروح الجامع الصغير: للحسامي وللبرهان وللصدر الشهيد وللعتابي ولقاضي خان وللتمرتاش ولأبي الليث. وهذه شروح سبعة للجامع الصغير.

ومنها:

١ ـ الأجناس، للناطفي.
٢ ـ والتجنيس، لصاحب الهداية.
٣ ـ والمنتقى للحاكم الشهيد.
٤ ـ والواقعات، للصدر الشهيد.
٥ ـ والأسرار، للقاضي أبي زيد.
٦ ـ والكافي، للحاكم الشهيد.
٧ ـ وتحفة الفقهاء.
٨ ـ وشرحها: البدائع، للكاشاني.
٩ ـ وخلاصة الفتاوى.
١٠ ـ وقنية المفتي.
١١ ـ ومنية المفتي.
١٢ ـ والمبسوط.
١٣ ـ والزيادات.
١٤ ـ والجامع الكبير.

١٥ ــ والأمالي.

١٦ ــ والمحيط.

١٧ ــ والملتقط في شرح الزيادات، لقاضي خان.

١٨ ــ والنوادر.

١٩ ــ وشرح الطحاوي.

٢٠ ــ وغنية الفقهاء.

٢١ ــ وعمدة المفتي.

٢٢ ــ والتجريد.

٢٣ ــ والذخيرة.

٢٤ ــ وخزانة الفقه.

٢٥ ــ والعيون.

٢٦ ــ والنوازل.

٢٧ ــ والروضة.

٢٨ ــ وشرح الارشاد.

٢٩ ــ وجمع العلوم.

٣٠ ــ وجمع التفاريق.

٣١ ــ والقدوري.

٣٢ ــ والمنظومة.

٣٣ ــ والوقاية.

٣٤ ــ والبداية.

٣٥ ــ وكفاية المنتهى.

٣٦ ــ وفتاوى أبي الليث.

٣٧ ــ وفتاوى قاضي خان.

٣٨ ــ والفتاوى الظهيرية.

٣٩ ــ وفتاوى الرستفغني.

٤٠ ــ وواقعات الصدر الشهيد.

٤١ ــ وواقعات الحلوائي.

٤٢ ــ بغية المنية، لصاحب القنية.

٤٣ ــ والفتاوى الصغرى.

٤٤ ــ وفتاوى المرغيناني.

٤٥ ــ والفتاوى الكبرى.

٤٦ ــ وفتاوى حسام الدين الرازي.

٤٧ ــ والفتاوى الجلالية.

٤٨ ــ وفتاوى شرف الدين المكي.

٤٩ ــ وشرح شيخ الاسلام المعروف بجواهر زادة.

٥٠ ــ وتتمة الفتاوى.

٥١ ــ وفوائد الامام أبي علي النسفي.

٥٢ ــ وفتاوى الفقيه أبي جعفر البلخي.

٥٣ ــ وفتاوى شمس الأئمة الحلوائي.

٥٤ ــ وفتاوى بهاء الدين الأسبيجابي.

٥٥ ــ وفتاوى التمرتاش.

٥٦ ــ وفتاوى أبي الفضل الكرماني.

٥٧ ــ والإيضاح.

٥٨ ــ ومختار الفتاوى.

٥٩ ــ وخيرة الفقهاء.

٦٠ ــ وتحفة الملوك.

٦١ ــ والارشاد.

٦٢ ــ وفتاوى حافظ الدين الرازي.

٦٣ ــ الفتاوى التتارخانية.

وغير ذلك من الفتاوى المبسوطة والموجزة.

ولا يذهب عليك أن كتب الفتاوى أكثر من أن تحصى، لكن ان ظفرت بما ذكرناه كلها أو جلها، فقد فزت بالمرام. والله ولي التوفيق والأعلام، ومنه الهداية والالهام.

فهرس موضوعات الجزء الثاني

و يتضمن

الدوحة السادسة

في العلوم الشرعية

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مفتاح السعادة ومصباح السيادة

في موضوعات العلوم

تأليف

أحمد بن مصطفى

الشهير

بطاش كبري زاده

المجلد الثالث

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

الطرف الثاني من الرسالة

في العلوم المتعلقة بالتصفية التي هي ثمرة العمل بالعلم



بسم الله الرحمن الرحيم
الطرف الثاني من الرسالة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». ولهذا العلم أيضاً ثمرة تسمى علوم المكاشفة، لا يكشف عنها العبارة غير الاشارة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «ان من العلم كهيئة المكنون لا يعرفها الا العلماء بالله، فاذا نطقوا ينكره أهل الغرة». لا جرم رتبنا هذا الطرف من الرسالة على **مقدمة ودوحة لها شعب وثمرة لها طيبة.**

المقدمة

اعلم أن الانسان مركب من عالمين، لأن بدنه الكثيف من عالم الأجسام، وروحه اللطيف من عالم الملكوت؛ لما وجب في التركيب من المناسبة بين الأجزاء خلق الله سبحانه وتعالى في البدن الكثيف جسماً صنوبرياً مسمى بالقلب، وأودع فيها بخاراً لطيفاً، وصاد بذلك الروح اللطيف وحبسه في سجن هذا البدن الكثيف، لأن ذلك البخار ــ للطافته ــ ناسب الروح العلوي؛ ولنوع جسميتها ناسب البدن الكثيف، فصار ذلك البخار طوعاً لنزاهته عنه أيضاً، ربطه الحق به قهراً، ولهذا قدر مفارقته عنه بهذا العسر الشديد، الذي تراه عند مفارقة الروح البدن، جزاء لما عصى ربه في النفرة عما خلقه لأجله. ثم ان الروح بعدما تعلق بالبدن أفاض قوى جزئية من محله الأصلي الذي هو القلب الى أطراف البدن، حيث أفاض الدماغ قوة مدركة، والكبد قوة نفسانية، الى غير ذلك من القوى الجزئية الحالة في البدن.

ثم ان طريق العلم بالروح ــ ويسمى النفس الناطقة ــ أما من طريق القوة المدركة المستمدة من الحواس، ويسمى العلم الحصولي؛ أو بلا واسطة

تلك القوى، و يسمى علماً حضورياً. وأسباب العلم الحضوري الفكر أو النظر في المحسوسات، وأسباب العلم الحضوري تصفية النفس عن الشواغل الدنيوية، إذ النفس كالمرآة وقد كدرها الشواغل الحسية، فاذا صقلها الانسان عن تلك الشواغل ينتقش فيها المعلومات دفعة، بلا حاجة الى التقاطها من طرق الحواس كمرآة مصيقلة حوذى بها شطر النور. وأما النظر فلا يصقل منها الا قدر ما ينتقش فيها النتائج، فلذلك يكون العلم الحضوري أكمل وأتم من العلم الحصولي.

هذا ثم أنه كما أن طريق العلم الحصولي النظر، كذلك طريق العلم الحضوري التصفية، والأول قد مر بما لا مزيد عليه؛ وأما طريق التصفية فأمران: أما بقطع النفس عن المألوفات بالرياضات والمجاهدات، و يسمى هذا علم الباطن؛ وأما بانجذاب النفس الى عالم القدس بعد التصفية بواسطة عشقها الى العالم الروحاني، فيفيض لها العلوم الحاصلة في الروحانيات بالمشاهدة والتحقق، و يسمى علم المكاشفة. والفرق بين العلمين لا يفهم الا بمثال: ومثال العلم الحاصل بالتصفية كمرآة صقلت ووصلت اليها النور من كوة تقابلها؛ ومثال الثاني ــ وهو علم المشاهدة ــ كمرآة مصيقلة، حوذى بها قرص الشمس، ووصل الى ينبوع النور.

ولما كان العلم الثاني ثمرة للعلم الأول ونتيجة له ذكرنا الأول في دوحة لها عدة شعب والثاني في ثمرة لها.

الدوحة السابعة من الرسالة

في علوم الباطن

ولها أربع شعب

العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات



الشعبة الأولى

في العبادات

وتتفرع هذه من عشرة أصول

الأصل الأول

العلم

وفيه مطالب

المطلب الأول

في معرفة فضل العلم والتعلم والتعليم

وقد مر شواهد هذه في صدر الرسالة بما لا مزيد عليه

المطلب الثاني

في معرفة ما يجب على المسلم من العلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»؛ وقال: «اطلبوا العلم ولو بالصين». واختلفوا في العلم الذي هو فرض عين، وادعى كل طائفة أن ما عنده هو ذلك؛ فقال الكلامي: الكلام الذي يعرف به ذات الله وصفاته والنبوة والمعاد؛ وقال الفقيه: الفقه الذي يعرف به الحلال والحرام؛ وقال المفسر والمحدث: علم الكتاب والسنة التي يتوصل بهما الى كل العلوم؛ وقالت المتصوفة: علم الحال ــ من تحصيل الإخلاص وترك الآفات، إذ بها يتقرب العبد الى مولاه؛ وقال بعضهم: هو علم الباطن، وخصوا الوجوب على أقوام مخصوصين، وليس كذلك.

والصحيح أن المراد به علوم المعاملة دون المكاشفة، وهو العلم بالمباني الخمسة الاسلام، كما نطق به الحديث، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «بني الاسلام على خمس». فأول الواجب على العاقل البالغ تعلم كلمتي الشهادة، ثم وثم، وهذا يختلف باختلاف الأزمان والأشخاص، إذ يجب على من لا يقدر على التفصيل العلم الاجمالي بمضمون هاتين الكلمتين، وإذا قدر على التفصيل يجب عليه مقدار فهمه وإلا فلا؛ وأيضاً يجب على البالغ تعلم أركان الصلاة ما يصح و يفسد، دون لصبي؛ وكذا يجب على الغني تعلم أحوال الزكاة والحج دون الفقير. هذا حال الاعتقاد والعمل.

وأما الترك: فلا يجب على الأبكم تعلم حرمة الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم به النظر، وعلى هذا القياس. **وبالجملة: الواجب على العبد من العلم، هو قدر ما يتجدد عليه من الوقائع من عباداته ومعاملاته، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان.**

المطلب الثالث

في المحمود من العلوم والمذموم منها

واعلم أن العلوم: أما شرعية تستفاد من الأنبياء فقط، وأما غير شرعية يستبد بادراكها العقلاء. وغير الشرعية أن توقف عليه قوام أمور الدنيا، كالطب لبقاء الأبدان، وكالحساب لقسمة الوصايا والمعاملات، فهي محمودة بمنزلة الصناعات الجزئية: من الفلاحة والحياكة والحجامة والسياسة، فهذه من فروض الكفايات، فكذا العلوم المذكورة. وإن لم يتوقف عليه قوام الدنيا، لكن يحسن للانسان تعاطيها، فهي فضيلة، كالتعمق في دقائق الحساب والطب. وأما ان لم يتوقف عليه شيء من أمور الدنيا؛ فان أخل ببعض الأمور فهي العلوم المذمومة، كالسحر والطلسمات والشعوذة وأمثال ذلك من التلبيسات؛ وإن لم يخل بذلك فهي العلوم المباحة، كالأشعار والتواريخ وما يجري مجرى ذلك.

وأما العلوم الشرعية فهي محمودة كلها، لكن قد يلتبس بها ما يظن أنها

شرعية وليست كذلك، فتقسم الى المحمودة والمذمومة.

أما المحمودة: فأما أصول، كالكتاب والسنة والاجماع والقياس: وأما فروع: أما دنيوي كأكثر مسائل الفقه؛ أو أخرى كبعض مسائله؛ ومعرفة أحوال القلب من أخلاقها المحمودة والمذمومة؛ وأما مقدمات تجرى مجرى الآلات، كاللغة والنحو والمعاني وعلم كتابة الخط، لأنه صار ضرورياً في الغالب لتوقف حفظ العلوم الشرعية عليها؛ وأما متممات كعلم القراءات والمخارج في اللفظ، وكعلم التفسير في المعنى، وكمعرفة الناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من العلوم القرآنية التي سبق تفصيلها. وكذا الحال في الحديث، كعلم أسامي الرجال وأحوالهم وغير ذلك.

وأما العلوم المذمومة، فاعلم أولاً: أن العلم لا يذم من حيث أنه علم، وانما يذم لأمور: أما أنه لا يقدر الخائض فيه على ادراكه فيكون مذموماً في حقه، كأكثر من اشتغل بالعلوم الفلسفية ولم يقدر على تمييز الحق عن خلافه؛ وأما لاضراره بغيره، كعلم السحر والطلسمات، فانها وسيلة الى أضرار الخلق والوسيلة الى الشرشر؛ واما لاضراره بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فانه من حيث أنه حساب للشمس والقمر غير مذموم، بل قد ورد في القرآن: ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾[1] وقوله: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾[2]، بل ذمه من حيث بيان الأحكام وهو مذموم؛ قال صلى الله عليه وسلم: «إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فامسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا». وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا. وإنما ذم لأحد ثلاثة أمور: أما أنه ربما يوهم الخلق أن الكواكب هي المؤثرة في الحوادث؛ وأما لأنه ظن وتخمين فالحكم به جهل لا علم، وقد كان ذلك معجزة لادريس عليه السلام ثم انمحى وانمحق، وما يتفق من الاصابة على الندور فاتفاقي، كظن الانسان أن المطر ينزل اليوم فيقع؛ وأما لأنه علم لا ينفع وجهل لا يضر، لأنه تضييع العمر بلا فائدة.

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٥.

(٢) سورة يس، آية: ٣٩.

إذا عرفت أن من العلم المحمود والمذموم، فاعلم: أن من العلوم الشرعية ما هو المحمود صورة والمذموم معنى.

منها الفقه وقد كان يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة آفات النفوس ومفاسد الأعمال، والاحاطة بحقارة الدنيا وشرف نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب؛ والآن خص بمعرفة الفروع الغريبة والفتاوى العجيبة، والاطلاع على عللها، وتتبع المقالات المتعلقة بها، والاستكثار من المسائل الفرعية حتى تفريعات الطلاق واللعان والسلم والاجارة، سواء تجرد للأمور الأخروية أو لا. وقد كان في العصر الأول: الأصل معرفة أمور الآخرة وأمور الدنيا بالتبع لها؛ والآن انعكس الحال، فتداخل الذم إلى الفقه من هذه الجهة، وإن كان محموداً في الأصل.

ومنها العلم وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وأفعاله في عباده وخلقه، وخصصوه اليوم بمن يشتغل بالمناظرة في المسائل الفقهية وغيرها. ويقال له هو الفحل في العلم والعالم على الحقيقة، ومن لم يكن كذلك يعدونه من الضعفة، وإن كان عارفاً بالله وصفاته والمبدأ والمعاد والتفسير والأخبار.

ومنها التوحيد وقد كان يطلق على أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر الا منه جل جلاله؛ والآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والاحاطة بالمناقضات، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسولة واثارة الشبهات وتأليف الالزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد، مع أن أبواب الجدل والمماراة كان مما يشتد النكير عليه في العصر الأول.

ومنها الذكر والتذكير وقد كان في العصر الأول يطلق على التكلم في علم الآخرة والتذكير بالموت، والتنبيه على عيوب النفس وآفات النفس، والأعمال، وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكر بآلاء الله سبحانه ونعمائه، وتقصير العبد في شكره، ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها وقلة عهدها، وخطر

الآخرة وأهوالها، فهذا هو التذكير المحمود شرعاً، الذي قد ورد الحث عليه. فنقل ذلك الآن الى ما ترى من حال الوعاظ، وما يواظبون عليه من القصص والأشعار والشطح والطامات. أما القصص فهو بدعة، وقد ورد نهي السلف عن الجلوس الى القصاص، لأنهم ان اقتصروا على القصص الواردة في القرآن لأصابوا، لكنهم غيروا وزادوا ونقصوا، حتى أنهم من سمح نفسه وضع الحكايات المرغبة في الطاعات، و يزعم أن قصده فيه دعوة الخلق الى الحق، وهذه من نزغات الشيطان، فان في الصدق مندوحة عن الكذب.

وأما الأشعار فأكثرها في الوعظ مذموم، والمستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه، ومجالس الوعاظ لا تحوي إلا أجلاف العوام، و بواطنهم مشحونة بالشهوات، فتحرك الأشعار المشتملة على تواصف العشق ومدح الوصال و بث آلام الهجر، ما هي مستكنة في قلوبهم من نيران الشهوات، فيزعقون و يتواجدون على تصور الفساد، اللهم الا إذا كانت الأشعار مشتملة على المواعظ والحكم، أو كانت الحضار الخواص خاصة، فأولئك ينزلون الشعر الوارد في المخلوق على ما استولى على قلوبهم من حب الخالق.

وأما الشطح فأما دعاوى طويلة عريضة في العشق مع الله، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم الى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا؛ وأما كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، فيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، وهذا أما أن لا يفهمه القائل أيضاً، وأما لخبط في عقله وتشويش في خياله؛ أو تكون مفهومة للقائل، ولا يقدر على التعبير، لقلة ممارسته التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ـــ قال صلى الله عليه وسلم: «كلموا الناس بما يعرفونه ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله». وهذا فيما يفهمه صاحبه، فكيف فيما لا يفهمه قائله، فان كان يفهم القائل دون السامع فلا يحل ذكره.

وأما الطامات فمنها ما ذكرناه من الشطح، وأمر آخر، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهر المفهوم الى أمور باطنة، لا يسبق منها الى الافهام حقيقة يعتمد

عليها، كدأب الباطنية في التأويلات؛ وهذا أيضاً حرام فان الألفاظ إذا صرفت عن ظواهرها، بلا نقل من الشرع، أو دليل من العقل، لبطل التعويل على النصوص، وبهذا توصل الباطنية الى هدم الشرائع؛ إذ النفوس مائلة الى المستغرب ومستلذة له.

ومنها **الحكمة** وقد كانت الحكمة تعد خيراً كثيراً؛ كما نطق به التنزيل بقوله: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (١) وقوله صلى الله عليه وسلم: «كلمة من حكمة يتعمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها».

والآن نقل الى الطبيب والشاعر والمنجم، حتى الذين يدحرجون القرعة على أكف السواد في شوارع الطرق، فانظر هذا النقل من أين الى أين.

إذا عرفت مثار الالتباس في العلوم، فعليك أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، ولا تتدل بحبل الغرور حتى تتشبه بالخلف. فاعلم أن من العلم ما هو المذموم قليله وكثيره، ولا فائدة فيه ديناً ودنيا، أو ضرره يغلب نفعه، كعلم السحر والطلسمات والنجوم؛ ومنه ما هو المحمود كله: كالعلم بالله سبحانه وتعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه، فانه بحر لا ساحل له، وما خاض فيه الا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم، فمفتاحه أولاً التعلم والجد ومشاهدة أحوال العلماء، وآخره المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه بأنبياء الله وأوليائه.

وأما العلوم التي لا يحمد منها الا قدر مخصوص فهي العلوم التي هي فروض الكفايات فان لكل علم اقتصاراً واقتصاداً واستقصاء فان كنت أصلحت نفسك فلا عليك الاستقصاء فيها لاصلاح غيرك؛ ويكفيك الاقتصاد، بل هو الخير، إذ لا يفي الأعمار بالاستقصاء في كل العلوم، فاستقصاء البعض دون الآخر ليس بخير، بل الأحسن الاقتصاد في الكل. وإن لم تكن أصلحت نفسك أولاً، فاياك أن تقصد اصلاح غيرك وتترك نفسك، إذ لا أعظم منه خسراناً؛ فعليك أن تشتغل أولاً بتطهير نفسك من ظاهر الاثم وباطنه بحيث تجعله ديدناً

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

وعادة منتشرة فيك؛ ثم اشتغل بفروض الكفايات على التدريج الذي سنذكر لك ذلك، فابتدىء بكتاب الله، ثم بسنة رسوله، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن: من الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السنة؛ ثم اشتغل بالفروع من علم الفقه دون الخلاف، ثم بأصول الفقه، وهكذا الى بقية العلوم، بقدر ما يتسع له وقتك، ولا تستغرق عمرك في واحد منها طالباً للاستقصاء، فان العلم كثير والعمر قصير، وإن طلبت الزيادة عليها واتسع لك الوقت، فاقتصر من شائع علم اللغة قدر ما تفهم به كلام العرب وتنطق به، ومن غريبها على غريب القرآن والحديث وتعد العمق فيه، واقتصر من النحو على قدر ما يتوقف عليه معرفة الكتاب والسنة؛ وتعمق في التفسير قدر ما يعده العلماء وسيطاً، ثم اصرف ذهنك على لطائفه واشاراته؛ وفي الحديث قدر تحصيل ما في الصحيحين، والصحاح الستة قدر ما يحتاج اليه في الأعمال، وحصل نسخة صحيحة منهما أو منها على رجل خبير بمتون الحديث، ودع حفظ أسامي الرجال ومعرفة عللهم، لأن السلف من جامعي الصحاح قد كفينا مؤنتها؛ فأما الفقه فيكفي فيه حفظ البداية والوقاية والمنظومة للنسفي؛ وأما الكلام فيكفي فيه قدر محافظة عقائد واردة في الكتاب والسنة، وان قدرت مع ذلك على دفع المبتدعة فأحسن وأحسن؛ وأما الخلافيات فلا حاجة لك بها على كل حال، إذ الغرض منها اقبال الناس ووفور الحرمة والحشمة عند الولاة، وهذا من أخس الأغراض وأرذلها، سيا إذا أدى الى بذل العلم في باب هؤلاء، سيا مع طلب رضاهم في الأحكام ــ اللهم عفوا عفوا؛ وأما المنطق فهو داخل في علم الكلام؛ وأما الفلسفة: فا كان منها مخالفاً للشرع، فأكثره مباحث علم الالهي وبعض من الطبيعي، فذلك في حكم السحر بل أضر منه، لأنه يؤدي الى الكفر أسرع من السحر؛ وما لم يكن مخالفاً للشرع، كبعض مسائل الالهي وأكثر مسائل الطبيعي وكل مباحث الرياضي، فلا منع عنها فهو في حكم علم الحساب، إلا أن يخاف أن يستدرج مشتغله الى العبور الى البواقي، فيمنع منها البعض دون ذلك.

فالذي يجب عليك: الاقبال بعلوم الآخرة. وهي قسمان: علوم معاملة وعلوم مكاشفة، والأول طريق للثاني.

أما علوم المعاملة فهي معرفة أحوال القلب؛ أما ما يحمد منها: كالصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والرضا والقناعة والتقوى والاحسان والسخاء وحسن الظن والخلق والمعاشرة والصدق والاخلاص؛ وأما ما يذم منها: فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو وحب الثناء وحب البقاء في الدنيا والكبر والرئاء والغضب والفخر والخيلاء والتنافس وطول الأمل والفرح بالدنيا والأنس بأهلها، الى غير ذلك.

وأما علوم المكاشفة: فمعرفة ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله وحكمته، ومعرفة معنى النبوة والنبي، ومعنى الوحي والملائكة والشياطين، ومعرفة الجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعنى لقاء الله والنظر الى وجهه الكريم، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، الى غير ذلك من الأحوال، بأن يرتفع الغطاء ويتضح جلية الحق اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذا ممكن في جوهر الانسان، وانما يشغل عنه كدر قاذورات الدنيا، فاذا صقل القلب عنها يتجلى له تلك العلوم بلا شك، و يتلألأ فيه أنوار تلك الحقائق لا محالة. وهذه العلوم لا تسطر في الكتب، ولا يتحدث بها الا من يعرفها، فلا تحقروا عالماً آتاه الله علماً، فان الله عز وجل آتاه إياه.

قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم ــ يعني علم المكاشفة ــ أخاف عليه سوء الخاتمة؛ وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم، وهما: البدعة والكبر. وقيل: من كان محباً للدنيا ومصراً على هوى لم يتحقق به، وقد يتحقق بسائر العلوم. وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه شيئاً، وهو علم الصديقين والمقربين.

المطلب الرابع

في آداب المعلم والمتعلم ووظائفهما

وقد استوفينا هذا الباب في أول الكتاب، فلا نشتغل باملال الأصحاب بسلوك طريق الاسهاب.

المطلب الخامس

في آفات العلم و بيان علامات علماء الدنيا وعلماء الآخرة

اعلم أنه قد ورد في شأن العلماء نصوص وأخبار، تدل على أنهم أشد عذاباً يوم القيامة إذا لم يعملوا بعلمهم، والذين يقصدون بعلمهم التنعم في الدنيا والتوصل الى الجاه والمنزلة عند أهلها، ولا حاجة الى ذكر تلك الأخبار والآثار عند العلماء.

وحاصل الجميع أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالاً وأشد عذاباً من الجاهل. **ثم إن الفائزين المقربين من العلماء لهم علامات بها تمتاز عن علماء الدنيا، فلنذكر منها ــ مع كثرتها ــ اثنتي عشرة علامة:**

منها: أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فان أقل درجات العالم، أن يدرك حقارة الدنيا وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها، وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، و يعلم أنهما كالضرتين متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وككفتي ميزان في رجحان إحداهما خفة الأخرى، وكالمشرق والمغرب يستلزم قرب أحدهما البعد من الآخر؛ فان من لم يعلم كدورة الدنيا وامتزاج لذتها بألمها، بل يقال أن أمور الدنيا أما عين ألم أو مقدمة للألم، فهو فاسد العقل، غافل عن المشاهدة والتجربة، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؛ وأيضاً من لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها، فهو كافر بالنصوص، ومن لا إيمان له لا يكون عالماً؛ وأيضاً من غفل عن مضادة الدنيا والآخرة، وإن الجمع بينهما نفخ بلا ضرم فهو

جاهل بالشرائع كلها، بل هو كافر بما بين دفتي المصاحف كلها، فكيف يعد من زمرة العلماء ــ ومن علم هذا كله، ثم لم يؤثر الدنيا على الآخرة، فهو أسير الشيطان، وقد أهلكته شهوته، وغلبت عليه شقوته، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه الدرجة. وقيل:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها   فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

ومنها: أن لا يخالف قوله فعله، بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به، ولا ينهي إلا عن شيء ينتهي هو عنه أولاً. قيل:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً   إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها

وقيل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

والآيات والأخبار والآثار في هذا الباب أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تذكر.

ومنها: أن تكون عنايته لتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعة، متجنباً في العلوم التي يقل نفعها و يكثر فيها الجدال والقيل والقال.

ومنها: أن يكون غير مائل الى الترفه في المطعم، والتنعم في الملبس، والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك، و يتشبه فيه بالسلف، ويميل الى الاكتفاء بالأقل. وكلما ازداد الى طرف القلة ميله، ازداد من الله سبحانه قربه، وارتفع في علماء الآخرة حزبه. والتحقيق أن التزين بالمباح ليس بحرام، لكن الخوض فيه يوجب الأنس به، حتى يشق تركه. واستدامة الزينة لا تمكن الا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها المداهنة ومراعاة الخلق ومراياتهم، وأمور أخر محظورة، فالحزم اجتناب ذلك.

ومنها: أن يكون منقبضاً عن السلاطين، لا يدخل اليهم البتة، ما دام يجد عن الفرار عنهم سبيلا، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم إن جاؤا اليه، فان الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لهم لا يتفك عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم، مع أنهم ظلمة، ويجب على كل متدين،

الانكار عليهم وتضييق صدورهم باظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم، فالداخل عليهم: أما أن يلتفت الى تجملهم فيزدري نعمة الله تعالى؛ أو يسكت عن الانكار عليهم فيكون مداهناً؛ أو يتكلف في كلامه بمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح؛ أو يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت. وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح لعدة شرور، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط.

ومنها: أن لا يكون مسارعاً للفتوى، بل يكون متوقفاً متحرزاً ما وجد الى الخلاص سبيلا، فان وجد عما يعلمه تحقيقاً أفتى، وان سئل عما يشك فيه قال: لا أدري، وان سئل عما يظنه باجتهاد أو تخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره، وان كان في غيره غنية. هذا هو الحزم، لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم.

ومنها: أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة، فان المجاهدة تثمر المراقبة في دقائق علم القلوب، والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكر، والانقطاع اليه عما سواه، فذلك مفتاح الالهام ومنبع الكشف. وكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعة بكلمة، وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفرة على العمل ومراقبة القلب، فتح الله له من لطائف الحكم ما يحار فيه عقول ذوي الألباب.

ومنها: أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين الذي هو رأس مال الدين.

واعلم أن اليقين عند المتكلمين، هو رجحان أحد طرفي الحكم رجحاناً لا يقبل التشكيك، وهو الذي لا يتصور الايمان بدون بلوغه هذه الرتبة؛ وعند الفقهاء والصوفية وأكثر العقلاء: أن يستولي ذلك الادراك على النفس، و يغلب على القلب، وهذا انفعال للقلب عن هذا الادراك، ونفوذه في القلب مثل تأثير الحناء في اليد وانفعال اليد منه؛ مثلاً: يقال هذا الرجل لا يوقن بالموت، لما أنه يغفل عنه و يسهو عن العمل بمقتضاه؛ و يقال: هذا الرجل له قوة اليقين بالموت، يعني أنه مستغرق الهم في استعداده، مع أن كليهما متساو يان في القطع بموته؛ وربما يعبر عن هذا المعنى بالاذعان وعن الأول بالادراك.

والتحقيق فيه إنك قد عرفت فيما ذكرناه من التحقيق، أن في الانسان قوة جزئية محلها الدماغ، من شأنها الادراك بالنظر، وفيه قوة كلية محلها القلب الأول فاليقين بالمعنى الثاني حاصل فيه، وهما مشتركان في معنى التصديق الجازم الثابت المطابق للواقع؛ إلا أن الحاصل في القوة الجزئية ــ لتوقفه على التفات النفس الى ذلك ــ ربما يسهى عنه و يغفل فلا يعمل بمقتضاه، بخلاف الثاني فانه الحاصل في النفس لا في الآية، فلا يحتاج الى التفات النفس الى ذلك مثل احتياجه في الأول، لأنه علم حضوري لا يغيب عن النفس، فلا يغفل عنه أصلاً لولا ملابسة الكدورات. فالادراكان المذكوران متحدان، والتغاير بحسب المحل. ومن نظر الى اتحادهما حقيقة يقول: الايمان لا يزيد ولا ينقص؛ وما نظر الى مغايرتهما بحسب المحل يقول بزيادته ونقصه؛ إذ لا يخفى أن الإيمان الحاصل بطريق العلم الحضوري أقوى من الحاصل بطريق العلم الحصولي، فاحفظ هذه الغاية لأنك قلما تجدها فيما عهدت من الكتب. ولذلك ترى أكثر المؤمنين ــ لاقتصارهم بالايمان على الطريق الأول ــ يغفلون عن كثير من أحكامه؛ وأما الذين يكملونه على الطريق الثاني ترى فيهم الحياء والخوف والذل والاستكانة والخضوع، وغير ذلك من الأوصاف المتشعبة من الايمان.

ومنها: أن يكون العالم حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً، يظهر أثر الخشية على أحواله، و يكون نظره مذكراً لله تعالى والآخرة، وتكون صورته دليلا على علمه، فهم الذين سيماهم على وجوههم من أثر السجود.

ومنها: أن يكون أكثر بحثه فيما يفسد من الأعمال، وفيما يشوش القلوب و يشوش الوساوس و يثير الشره، ولا يكون ممن يتبعون غرائب التعريفات في الحكومات والأقضية، و يتعنون في وضع صور ينقضي الدهر ولا تقع أو تقع لغيره، لأنه إذا وقعت وفي العالمين بها كثرة يكفون مؤونته؛ وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر، ايثاراً للقبول أو التقرب من الخلق على القرب من الله تعالى، وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق، وجزاؤه من الله تعالى أن لا ينتفع من الدنيا بقبول

الخلق، بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان، ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العالمين وفوز المقربين، وذلك هو الخسران المبين.

ومنها: أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه، لا على الصحف، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره؛ وانما الذي يقلد عليه هو صاحب الشرع ـــ صلوات الله عليه وسلامه ـــ فيما أمر به وقاله؛ وانما يقلد الصحابة من حيث أن فعلهم يدل على سماع منه صلى الله عليه وسلم. ثم إذا قلد صاحب الشرع ـــ صلوات الله عليه وسلامه فينبغي أن يحرص على فهم أسراره، ولا يكون وعاء للعلم لا عالماً، ومن كشف عن قلبه الغطاء صار متبوعاً لمن يجيء بعده، فلا ينبغي أن يقلد المجتهد الآخر، فاذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضي، فالاعتماد على التصانيف أبعد، لأنها محدثة بعد الصحابة وصدور التابعين، وانما حدثت بعد مائة وعشرين سنة من الهجرة.

وأما السلف فقد امتنعوا عن تصنيف الكتب بل كتب الأحاديث، حتى أن أبا بكر كره كتب المصاحف في مصحف واحد كما عرفت تفصيله، وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيفه الموطأ، وقال: ابتدع ما لم يفعله الصحابة؛ وقيل: أول كتاب صنف في الاسلام كتاب ابن جريج في الآثار؛ وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة؛ ثم كتاب معمر ابن راشد الصنعاني باليمن، جمع فيه سنن شتى منثورة مبوبة؛ ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس؛ ثم جامع سفيان الثوري. ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام، وكثر الخوض في الجدال والخوض في أبطال المقالات. ثم مال الناس اليه وإلى القصص والوعظ، فأخذ علم اليقين في الاندراس ذلك الزمان، حتى صار يستغرب علم القلوب، والتفتيش عن صفات النفس ومكائد الشيطان، وأعرض عن ذلك الا الأقلون، فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً، والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً، وأصبح علم الآخرة مطوياً.

ومنها: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور وان اتفق عليه الجمهور،

ولينظر: هل كان أحوال الصحابة وأعمالهم التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولي الأوقاف وأموال الأيتام ومخالطة السلاطين، أم الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الاثم وجليله، الى غير ذلك.

وأكثر معروفات هذه الأعصار منكرات عصر الصحابة: كتزيين المساجد وتنجيدها، وانفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها، والفرش الرفيعة فيها، وقد كان فرش البواري في المسجد من بدع الحجاج، وكانوا لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً؛ ومن ذلك التلحين في الآذان والقرآن، ومن ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة، مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها الى غير ذلك. فاذا سمعت هذه الأوصاف، فكن من أهل الانصاف، بأن تتصف بها أو تقر بتقصيرك فيها، واياك واياك أن تكون الثالث الشقي، فتصير من البطالين حتى تلحق بزمرة الهالكين. فنعوذ بالله من خدع الشيطان وبها هلك الجمهور، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا يغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور.

المطلب السادس

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

اعلم أن شرف العقل معلوم بالضرورة، ولا سيما قد ذكرنا شرف العلم، والعقل منبعه ومطلعه وأساسه، ويجري منه مجرى الشجر من الثمر، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فما يدل على شرف العلم دليل على شرف العقل بالضرورة، وكيف لا يشرف وهو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، أو كيف يستراب فيه وأعظم البهائم بدنا وأشدهم ضراوة وأقواهم سطوة، إذا رأى الانسان احتشم وهابه، لشعوره بما يختص به من العقل الذي تسهل به الحيل، وكذلك ترى كثيراً من الأتراك وأجلاف العوام من الأتراك — مع قرب رتبتهم من البهائم — يوقرون مشايخهم بالطبع.

ثم اعلم أن العقل يطلق على معان:

أحدها: الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم، وبه استعد لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية. وهذا ما قيل في حده أنه غريزة يتهيأ بها درك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لادراك الأشياء.

وثانيها: أنه بعض العلوم الضرورية لجواز الجائزات واستحالة المستحيلات؛ وهي العلوم التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز وهو أيضاً صحيح، لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلاً ظاهرة؛ إذ يقال: صار الصبي عاقلاً، وهو بهذا المعنى. وأما من أثبت هذا ونفى المعنى الأول ــ أعني الغريزة المذكورة ــ فقد أخطأ.

وثالثها: علوم تستفاد من التجارب لهذه الأحوال، فان من هذبته التجارب، يقال له في العرف: عاقل؛ ويقابله: غبي غمر جاهل.

ورابعها: أن تنتهي قوة تلك الغريزة، الى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها، وهي الغاية القصوى للقوة الغريزية المذكورة. والمعنيان الأولان بالطبع للانسان، والأخيران بالاكتساب.

ثم اعلم أن التفاوت يتطرق الى هذه الأقسام، سوى الثاني منها، لأن الضروري لا تفاوت فيه؛ وأما الرابع فلا يخفى تفاوت الناس فيه: وذلك بالتفاوت في الشهوة، إذ يغلب بعض الشهوة في البعض فلا يقدر على تركه، ويضعف في الآخر فيتركه، وقد يتفاوت في شخص واحد، فان الشاب لا يقدر على ترك الزنا بخلاف الشيخ غالباً؛ وأما بالتفاوت في العلم بغائلة الشهوة، كالعامي والعالم في معرفة ضرر المعصية؛ وأما الثالث فان الناس متفاوتون في علوم التجارب: إذ قد يتفاوت الانسان في الغريزة والتجارب ثمرتها، وقد يتفاوت في الممارسة فيتفاوت التجارب؛ وأما الأول ــ أعني تفاوت الغرائز ــ فلا سبيل الى جحدها، لأن من جوز أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل السوادية واجلاف البوادي، فقد خلع ربقة الانسانية عن

عنقه. ولولا هذا التفاوت لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما اقتسموا: الى بليد لا يفهم الا بعد تعب طويل؛ والى ذكي يفهم بأدنى رمز واشارة؛ والى كامل تنبعث من نفسه حقائق العلوم يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار؛ وذلك مثل الأنبياء عيهم السلام، إذ يتضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع، ويعبر عن ذلك بالالهام، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان روح القدس نفث في روعي».

وأما ما تسمع من المتصوفة من ذم العقل والمعقول، فذلك اطلاق خامس، وهو معنى المجادلة والمناظرة بالمناقضة ولالزامات، كما هو مدار صنعة الكلام، لا انهم يذمون نور البصيرة التي هي أساس العلوم الشرعية، وان ذمت هي فما الذي يحمد. الا أنهم لم يقولوا أنكم أطلقتم العقل على معنى مذموم، لشيوعه عند الناس في هذا المعنى، لا جرم ذموا العقل والمعقول، لكن بهذا المعنى المذموم لا بمعنى كل الاطلاقات والله أعلم.

الأصل الثاني

في قواعد العقائد

وهي أصل الأصول ومبنى الاسلام ومقدمة جميع الأحكام. ومبناها تصحيح كلمتي الشهادة وتفصيلهما، ويرجع الى معرفة المبدأ والمعاد.

ولما كان تفصيلها خارجاً عن طوق هذا الكتاب، وصارت كتب السلف مشحونة بها، ضربنا عن ذلك صفحاً والله الموفق.

واجمال هذا الكلام أن هذا الركن من الاسلام على أربعة أركان، كل ركن عشرة أصول.

الركن الأول: معرفة الله عز وجل. ومداره على عشرة أصول؛ وهي العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه، وإنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وانه ليس مختصاً بجهة.

الركن الثاني: في صفاته. وهي أيضاً عشرة أصول؛ وهي: العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً، متنزهاً عن حلول الحوادث، وانه قديم الكلام والعلم والارادة.

الركن الثالث: في أفعال الله تعالى ومداره أيضاً على عشرة أصول؛ وهي: أن أفعاله مخلوقة له تعالى، وإنها مكتسبة للعباد، وأنها مرادة لله تعالى، وأنه متفضل بالخلق، وأنه له تعالى تكليف ما لا يطاق، وله ايهام البري، ولا يجب عليه رعاية الأصلح، وأنه لا واجب الا بالشرع، وان بعثة الأنبياء جائزة، وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة لا مؤيدة بالمعجزات.

الركن الرابع: في السمعيات: ومداره أيضاً على عشرة أصول؛ وهي: إثبات الحشر وعذاب القبر وسؤال منكر ونكير والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة.

وإذا عرفت هذا الاجمال فاطلب تفاصيلها من كتب القوم. والغرض بيان عقيدة أهل السنة، وانهم بأي عقيدة يمتازون عما عداهم من أهل البدع والاهواء. نسأل كمال اليقين والثبات في الدين، لنا ولكافة المسلمين، والله تعالى يسددنا بتوفيقه، ويهدينا الى الحق وتحقيقه، بمنه وسعة جوده.

الأصل الثالث

علم أسرار الطهارة

قال الله تعالى: ﴿والله يحب المتطهرين﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الطهور نصف الايمان».

واعلم أن الطهارة لها أربع مراتب: الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث والفضلات؛ والثانية: تطهير الجوارح عن الآثام؛ والثالثة: تطهير القلب عن ذمائم الأخلاق؛ والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء والصديقين. والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها، اذ

المقصود في السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته، ولن يحل ذلك فيه الا بأن يرتحل عنه ما سوى الله تعالى، وكذا المقصود في القلب التحلي بالأخلاق المحمودة ولن يتيسر ذلك الا بالتخلي عن الأخلاق الذميمة وكذا المقصود من الجوارح تزيينها بالطاعات ولا يتيسر ذلك الا بتطهيرها عن الآثام؛ وكذا الحال في الظاهر.

فكل من هذه المراتب لا يمكن الا بتطهير ما قبلها؛ فأصل الكل طهارة السر، ولكن تتوقف على طهارة مقدماتها، الى أن ينتهي الى طهارة الظاهر، ولا تظنن أن هذا ينال بالمنى أو ينال بالهوينا.

والذي يهمنا الآن معرفة أحوال طهارة الظاهر. وهي أقسام:

طهارة عن الخبث وقد استقصى الكلام في ذلك في كتب الفروع.

طهارة عن الحدث من الوضوء والغسل والتيمم.

أما الوضوء: فقد استوفى الفقهاء فرائضه وسننه وآدابه، ولنذكر ههنا بعضاً من آدابه: وهو أنه إذا خرج من الغائط، اشتغل بالوضوء، فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجاً من الغائط الا توضأ، و يبتدىء بالسواك و ينوي تطهير فمه لقراءة الفاتحة وذكر الله في الصلاة؛ وكان صلى الله عليه وسلم يستاك في الليلة مراراً، وكان يقول: «عليكم بالسواك فانه مطهرة للفم ومرضاة للرب». وعن علي رضي الله عنه: السواك يزيد في الحفظ و يذهب البلغم.

ثم يجلس للوضوء و يقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ و يقول: أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون؛ ثم يقول عند غسل يديه: اللهم إني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة. ثم ينوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة، و يقول عند المضمضة: اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك. و يقول عند الاستنشاق: اللهم أوجدني رائحة الجنة وأنت عني راض؛ وعند الاستنثار: اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار. و يقول عند غسل الوجه: اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك، ولا تسود وجهي يوم تسود وجوه أعدائك. و يقول عند غسل اليد اليمنى اللهم

اعطني كتابي بيميني وحاسبني حساباً يسيراً. و يقول عند غسل الشمال: اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري. و يقول عند مسح الرأس: اللهم غشني برحمتك، وانزل علي من بركاتك، واظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل الا ظلك. و يقول عند مسح الأذنين: اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم اسمعني منادي الجنة مع الأبرار. و يقول عند مسح الرقبة: اللهم فك رقبتي من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال. و يقول عند غسل الرجل اليمنى: اللهم ثبت قدمي على الصراط يوم تزل الأقدام في النار. و يقول عند غسل اليسرى: إني أعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل أقدام المنافقين.

فإذا فرغ عن الوضوء، رفع رأسه الى السماء، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سبحانك اللهم وبحمدك، لا اله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي، أستغفرك وأتوب اليك، فاغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين، واجعلني صبوراً شكوراً، واجعلني أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلا.

يقال: من قال هذا بعد الوضوء، ختم على وضوئه بخاتم، ورفع له تحت العرش، فلم يزل يسبح الله و يقدسه، و يكتب له ثواب ذلك يوم القيامة.

ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة، ينبغي أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو مطمح نظر الخلق، فينبغي أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موقع نظر الرب سبحانه؛ وليس تطهيره الا بالتوبة والخلو على الأخلاق الذميمة. ألا ترى أن من قصد مناجاة ملك، وزين ثيابه مهما أمكن، وطهره عن الألواث، ومع ذلك نجس وجهه الذي محل نظر الملك، هل يكون جديراً للتعرض بالبوار عند السلطان، ومتصفاً بسخافة العقل عند الأخوان.

فأما كيفية الغسل والتيمم فمذكورة في كتب الفروع. ولنذكر هاهنا آداب التنظيف عن الأوساخ والفضلات بالظاهرة التي أهملها الفقهاء في

كتب الفروع. وهي نوعان: عارضي وطبيعي.

أما الأول فثمانية:

الأول: يستحب غسل الرأس وترجيه وتدهينه ازالة للشعث.

والثاني: يزيل ما في معاطف الأذن والصماخ من الدرن والأوساخ، لكن ينظفه برفق عند الخروج من الحمام، فان كثرة الدلك ربما يضر بالسمع.

والثالث والرابع: وكذا ما في الأنف وما يجتمع على الأسنان وأطراف اللسان، ويزيله بالسواك.

والخامس: ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل، ويزيله بالغسل والتسريح بالمشط، ولكن ينبغي أن يكون قصده أن لا يزدريه العوام ولا تستصغره أعينهم، لا التزين الذي هو المكروه للرجال، وانك ترى رجالاً من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة، ويزعمون أن قصدهم ارغام المبتدعة واذلال المخالفين لا التزين، وهذا أمر باطن سوف ينكشف يوم تبلى السرائر، فنعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر.

والسادس: وسخ البراجم، وهي معاطف ظهور الأنامل.

والسابع: تنظيف الرواجب، وهي رؤوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ؛ كل هذه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيفها، فوقت للناس قلم الأظفار ونتف الابط وحلق العانة أربعين يوماً.

والثامن: الدرن في جميع البدن، ويزيله بالحمام. وقد دخلت الصحابة حمامات الشام، حتى قال بعضهم: نعم البيت بيت الحمام، يطهر البدن ويذكر النار؛ روى ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري. وقال بعضهم: بئس البيت بيت الحمام، يبدي العورة ويذهب بالحياء. فهذا تعرض لآفته ولذلك لخصلته.

فلا بأس بطلب فائدته عند الأمن من آفته، ولكن يجب عليه وظائف من الواجبات والسنن.

أما الواجبات: أن يصون فرجه عن نظر الغير وعن مسه لازالة الوسخ وغيره، خصوصاً ما بين السرة والعانة وما فوق الركبة، إذ العوام لا يتحاشون عن كشفها بناء على أنها ليست بعورة غليظة، بل التحريم لكونه من حماها فلا يتساهل في أمرها.

ومنها أن يغض بصره عن عورة غيره ويمنعهم عن كشفها، لأن النهي عن المنكرات واجب. ولمثل هذه الآفات صار الحزم ترك الحمام في هذه الأوقات، ولهذا يستحب تخلية الحمام لمن قدر عليها، وان لم يقدر وأوجبت الضرورة الدخول، فليستر عورته بازار، وليستر عينيه بازار آخر، ليحفظ عينيه عن عورة غيره.

وأما النساء فالأفضل منعهن عن الحمام إذا وجد في البيت مستحم وكذا إذا لم يوجد ولم تقع ضرورة وإذا وقعت ضرورة ككونهن مريضة أو نفساء فليتزرن بمئزر سابغ وليتحفظن مهما أمكن لهن.

فأما السنن: فتحسين النية؛ بأن لا يدخلها للتزين والهوى، بل للتنظف لأجل الصلاة، ويعطى الحمامي الأجرة قبل الدخول وهو الأفضل، لرفع الجهالة من أحد العوضين وتطبيب لنفسه. وأما العوض الآخر: فيستعمل من الماء قدر الحاجة، ومقدار الحاجة ما يعينها العرف؛ ويقدم رجله اليسرى عند الدخول، ويقول: بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم، ويدخل وقت الخلوة، ويجوز أن يتكلف التخلية للضرورة، وان لم يمكن فليدخل مع الاحتياط التام إذا وقعت ضرورة، والا فالاحتياط في الترك.

ومنها أن لا يسلم عند الدخول ولا يجيب السلام، بل يقول: عافاك الله، وان أجاب غيره يسكت، ولا بأس بأن يصافح في الداخل، ويقول: عافاك الله، لابتداء الكلام، ثم لا يكثر الكلام في الحمام، ولا يقرأ القرآن إلا سراً، ولا بأس بالاستعاذة من الشيطان جهراً. ويكره الدخول بين العشاء وقريباً من الغروب فان ذلك وقت انتشار الشياطين. ولا بأس بأن يدلكه غيره.

ويبنغي أن يتذكر في الحمام حر جهنم وظلمته ويتعظ بذلك. ومهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة ومن منافعه الطيبة، وما قيل أن الحمام بعد النورة أمان من الجذام، وقيل: النورة في كل شهر مرة تطفىء الحرارة وتنقي اللون وتزيد في الجماع؛ وقيل: بولة في الحمام قائماً في الشتاء أنفع من شربة دواء؛ وقيل: نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء، وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس؛ ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذلك شربه.

وأما التنظيف عن الفضلات فثمانية أيضاً:

والأول: حلق الرأس ولا بأس به للتنظف، ولا بأس بتركه لمن يدهن ويرجل؛ وأما القزعة في المفرق فممنوع، لأنها من دأب أهل الشطارة؛ وكذلك يمنع ارسال الذوائب لغير الاشراف لأنه من شعارهم فيكون تلبيساً.

والثاني: قص الشوارب. والأحاديث فيه كثيرة؛ وأما حلقها فلم يرد، وقيل أنه مكروه وبدعة، ولا بأس بترك سبالة لبعده عن الفم.

والثالث: نتف الابط في كل أربعين يوماً. وذلك سهل على من تعود ذلك ابتداء، وأما من لم يتعود وتألم بذلك فيكفيه الحلق، إذ المقصود النظافة وذلك يحصل به.

والرابع: حلق العانة باستعمال النورة ولا يتأخر عن أربعين يوماً.

والخامس: قلم الأظفار. ويستحب ذلك لبشاعة صورتها وازالة ما يجتمع فيها من الأوساخ؛ وقد أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكر ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ.

والسادس والسابع: قطع السرة في أول الولادة. وقته أن يثغر الولد مخالفة لليهود، فانهم يختتنون في اليوم السابع من الولادة، ولأنه أبعد عن الخطر، وقد ورد في الحديث: «ختان النساء مكرمة».

والثامن: ما طال من اللحية. قال الفقهاء يأخذ ما زاد على القبضة لا

بأس به، قد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين، واستحسنه الشعبي وابن سيرين والنخعي. قال بعضهم: تركها واعفاؤها أحب، واختاره الحسن وقتادة، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «اعفوا اللحى». والمختار: التوسط؛ بأن لا ينتهي الى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب، وهذا افراط في القص، وأن لا يطول طولاً مفرطاً يشوه الخلقة، ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذ اليه ولذلك قيل: كلما طالت اللحية تشمر العقل؛ وقال الشاعر:

هلّوفة يحملها مائق   مقلوب هرون بها لائق

والهلوفة ـ بكسر الهاء وتشديد اللام المفتوحة وواو ساكنة ثم فاء مفتوحة ـ اللحية الطويلة؛ وما اشتهر بين الطلاب من القاف بدل الفاء فغلط؛ والمائق: هو الأحمق ومقلوب هرون: نوره.

وأعلم أن اللحية فيها عشر خصال مكروهة، بعضها أشد من بعض:

(إحداها) خضابها بالسواد فهو منهي عنه. وأول من خضب بالسواد فرعون. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «الخضاب بالسواد خضاب الكفار»، وفي رواية: خضاب أهل النار، وغير ذلك من الأحاديث تزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه، وأطلقوا على أنه كان خضب لحيته، فرد عمر نكاحه وأوجعه ضرباً، وقال: غررت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك ـ الا أن يخضب لأجل الغزو، فحينئذ يجوز ان صحت النية ولم يكن فيه هوى ولا شهوة، وقد فعله بعض العلماء للغزو.

(ثانيتها) تبيضها بالكبريت استعجالاً لإظهار علو السن، توصلاً إلى التوفير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ، واظهاراً لكثرة العلم، وترفعاً عن الشباب؛ وكل هذا منهي عنه: للكذب والزور، مع اظهار الحمق في اظهار العلم، لأن كثرة العلم لا تحصل بطول السن ولا تنقص بالشباب، بل العلم غريزة تقوى بالشباب؛ وكان عمر يقدم ابن عباس على مشيخة الصحابة ويسأله دونهم، وكان ابن عباس يقول: ما آتى الله سبحانه عبداً علماً إلا شاباً، والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم

يقال له ابراهيم ﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿انهم فتية آمنوا بربهم﴾[2]وقوله تعالى: ﴿وآتيناه الحكم صبياً ﴾[3] وكان أنس يقول: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء؛ فقيل له: يا أبا حمزة، وقد أسن، فقال: لم يشنه الله عز وجل بالشيب، وقيل أو يشين هو، فقال: كلكم يكرهه. و يقال إن يحيى بن أكثم ولى القضاء وهو ابن احدى وعشرين سنة. فقال له رجل في مجلسه: كم سن القاضي أيده الله — وأراد أن يرميه بصغر السن — فقال: سن عتاب بن أسيد حين ولى امارة مكة وقضاءها، فأفحمه. قال مالك: قرأت في بعض الكتب: لا يغرنكم اللحى فان التيس له لحية. وقال علي بن الحسين: من سبق اليه العلم قبلك فهو أمامك فيه وان كان أصغر سناً منك.

(الثالثة) الخضاب بالحمرة والصفرة جائز للغزو والجهاد، وأيضاً ورد في الحديث: «الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين». وكان السلف يخضبون بالحناء للحمرة، و بالخلوق والكتم للصفرة، فمن لبس نفسه بالتشبه بالصالحين فهو مذموم، كما أنه مذموم للتزين و بعض الشيب.

(الرابعة) نتف بياضها استنكافاً من الشيب وهو نور المؤمن، وهذا منهي عنه كالخضاب بالسواد في العلة.

(الخامسة) نتفها في أول الشباب تشبهاً بالمرد فهو من المنكرات، الكبار، ونتف بعضها بحكم العبث والهوس مكروه ومشوه للخلقة. وكان ... ينتف فكيه فرد عمر شهادته — وكذا رد ابن أبي ليلى قاضي المدينة — سيما واللحية زينة الرجال. يقال أن لله تعالى ملائكة يقسمون، والذي زين بني آدم باللحى، وفيها تعظيم الرجل، والنظر اليه بعين العلم والوقار، والرفع في المجالس، والاحتشام عن التعرض لعرضه. قال أصحاب الأحنف: وددنا أن

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٦٠.

(٢) سورة الكهف، آية: ١٣.

(٣) سورة مريم، آية: ١٢.

نشتري للأحنف لحية بعشرين ألفاً. وقال شريح القاضي: وددنا أن نشتري للأحنف لحية بعشرين ألفاً. وقال شريح القاضي: وددت أن لي لحية بعشرة آلاف درهم. وكان الأحنف وشريح من السادات الطلس، وهو جمع الأطلس: وهو من لا شعر في وجهه؛ وهم أربعة، والباقيان هما: عبدالله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عباده.

(السادسة) تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة، للتزين للنساء والتصنع، وهذا مكروه.

(السابعة) الزيادة في اللحية. وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغ ــ وهو شعر الرأس ــ حتى يجاور عظم اللحى، أو ينتهي الى نصف الخط، وذلك يباين هيئة أهل الصلاح.

(الثامنة) تسريحها لأجل الناس. قال بشر: في اللحية شركان: تسريحها لأجل الناس، وتركها متفتلة لاظهار الزهد.

(التاسعة والعاشرة) النظر الى سوادها وبياضها بعين التعجب، وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن، بل في جميع الأخلاق والأفعال، وسيأتي تفصيل ذلك بعون الله تعالى.

الأصل الرابع

في علم أسرار الصلاة

وفيها مطالب.

المطلب الأول

وأعلم أن للصلاة مراتب وأطواراً، ولا تنكشف تفاصيلها الا بمثال، وهو أن الانسان لا يكون انساناً موجوداً كاملاً الا بمعنى باطن وهو الحياة والروح، وبأعضاء ظاهرة يتوقف عليها الحياة: كالقلب والكبد والدماغ، وبأعضاء لا

يتوقف عليها الحياة، ولا يفوت بدونها مقاصد الحياة: كالعين واليد والرجل واللسان، وبأعضاء لا يتوقف عليها الحياة ولا يفوت بدونها مقاصدها، ولكن يفوت بها الحسن: كالجبين واللحية والأهداب وحسن اللون، وبأعضاء لا يتوقف عليها ما ذكر كلها، ولكن يفوت بها كمال الحسن: كاستقواس الحاجبين، وسواد شعر اللحية والأهداب، وتناسب خلقة الأعضاء، وامتزاج الحمرة بالبياض في اللون. فهذه درجات خمس يمكن اعتبارها في العبادات.

(فروحها وحياتها): الخشوع والنية وحضور القلب والاخلاص. وسنبينها.

(والدرجة الثانية) كالركوع والسجود والقيام والقراءة والقعدة والأخيرة، إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها.

(والدرجة الثالثة) كالسنن: من التكبيرة ورفع اليدين والتشهد الأول وقراءة الفاتحة، وغيرها مما لا تفوت الصلاة بفواتها، لكن تكون خداجاً ناقصاً.

(والدرجة الرابعة) هي الآداب المعتبرة في الصلاة.

(والدرجة الخامسة) هي لطائف تلك الآداب.

واعلم أن الصلاة تحفة وقربة لك تتقرب بها الى حضرة ملك الملوك، كوصيفة يهديها طالب القربة من السلطان اليه، فاذا أحسنت الوصيفة: في خلقتها وجمالها وآدابها الظاهرة وأخلاقها الباطنة، يتقبلها السلطان عند عرض حاجة صاحبها، فيعوضه بما يليق بشأن السلطان من الكرامات السنية والعز والجاه؛ وكذلك الصلاة، إذا تقرب الى الله تعالى تامة في معناها وصورتها وفرائضها وسننها، يتقبلها الحق سبحانه وتعالى يوم العرض الأكبر، فيجازيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والا ترد عليك وتصير هي خصماً عليك، وتقول: ضيعتني ضيعك الله.

فمنتهى نظر الفقيه من الصلاة نظر الطبيب في الانسان؛ فان الطبيب في صدد حفظ صحته وابقاء حياته ـــ وان كان مشوه الخلقة مسموم الخلق؛ كذلك

الفقيه: ينظر في أحوال الصلاة مقدار ما لا تكون الصلاة صلاة إذا لم يراع شرائط الفقه.

وانما الذي ينظر اليه أصحاب القلوب، نظر من يهدي العبيد الى السلطان، حيث ينظر الى درجات يكمل بها رتبة الانسانية صورة ومعنى؛ كذلك العارف: ينظر الى الصلاة مقدار ما يكون مقبولاً عند الملك الديان وسبباً للفوز من الرضوان.

ولما عرفت في الكتب الفقهية مرتبة نظر الفقيه، فلنبين ها هنا الأحوال المعتبرة في الصلاة عند العارف بالله تعالى وصفاته.

المطلب الثاني

الشروط الباطنة من أعمال القلب

منها علم الخشوع وحضور القلب؛ قال الله تعالى: ﴿أقم الصلاة لذكري﴾[1] والغفلة ضد الذكرى؛ وقوله تعالى: ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾[2] وسكر الغفلة يشاركه في هذا المعنى؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: «انما الصلاة تمسكن وتواضع» ويفهم منه الحصر؛ وقوله: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله الا بعداً» وصلاة الغافل لا تمنع منها؛ وقوله: «كم من قائم حظه من الصلاة التعب والنصب»؛ وقوله: «ليس للعبد من صلاته الا ما عقل». وأيضاً: الشرع دل على أن المصلى مناج ربه، ومن المعلوم أن الغفلة تنافي المناجاة.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن طريق دفع الغفلة، هو أن الصلاة ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود.

---

(١) سورة طه، آية: ١٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٤٣.

وأما الذكر والقراءة فالمقصود منها الحمد والثناء والتضرع والدعاء، ولا بد أن تخاطب به الحق تعالى، والا لم يكن ذكر أو قراءة؛ وخطابه تعالى لا يمكن بالمشافهة، فهو بالقلب. فالغفلة تنافي المقصود من الذكر والقراءة. وأيضاً: الصلاة شرعت لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله عز وجل، ورسوخ عقد الايمان فيه، ولا نفع لمجرد حركة اللسان فيا ذكر ــ وذلك ظاهر ــ فلا بد من حضور القلب.

وأما الركوع والسجود فالمقصود بها التعظيم ولو جاز التعظيم بمجرد حركة البدن، لم يبق فرق بين تعظيم الخلق والخالق، ولم تكن الصلاة من الأمور التي يمتحن بها المسلمون، وتجعل عماد الدين، والفاصل بين الكفر والاسلام. ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها، وأن حضور القلب روح الصلاة، فان أقل ما يبقى به رمق الصلاة الحضور عند التكبيرة، فالنقصان منه هلاك، و بقدر الزيادة عليه ينبسط الروح في أجزاء الصلاة.

وأما أمر الفتوى: فلما كان لعامة الناس، بحيث لا يخص البعض دون البعض؛ كما قال صلى الله عليه وسلم في حق الفتوى: «حكمي على الجماعة حكمي على الواحد»، ولما عجز الكل عن حضور القلب في جميع أجزاء الصلاة، واشترطوا الحضور ولو في لحظة، ولما صار الأولى بذلك التكبيرة الافتتاح، لأن أحكام الأساس أحكام للبناء من غير عكس ــ اشترطوا الحضور عندها.

وأما القيام والقعود. فان القيام تنبيه على إقامة القلب على نعت من الحضور، فالغفلة رد القلب عن الاقامة؛ فكما أن الالتفات بالجسد يورث الكراهة، كذلك الالتفات بالقلب، بل ذلك أشد كراهة، بل لا تكون صلاة عند التحقيق، وان لم يعده الفقهاء من المفسدات؛ وذلك لبحثهم عن أفعال البدن دون أفعال القلب، والا فلو سئلوا عن ذلك لأجابوا بما ذكرناه ــ اللهم إلا من لا يعرف من الفقه الا ظاهره ورسمه.

وكذا القعود؛ فكما ينبغي أن يكون البدن على وجه الأدب في قعود الناس

عند السلاطين؛ كذلك يكون قلبك عنده، عن أن تشكر الله تعالى على توفيقه لهذا العمل الصالح واتمام هذه الطاعة؛ وأن يخاف منه تعالى أنه فرغ من فعل: هل وقع له محل في حضرته، أو رد وضرب به وجه صاحبه؛ وأن يتذكر في قلبه أنه مودع لصلاته وربما لا يعيش لمثلها.

إذا عرفت هذا فلنذكر سبب حضور القلب وثمراته.

واعلم أن حضور القلب هو خلو القلب عن غير من يناجيه؛ وسببه الهمة، فان القلب تابع للهم شاء صاحبه أم أبى، ولا حيلة في صرفه عن الدنيا، وحصر همه في الصلاة الا ملاحظة أن الغرض الأصلي من الحياة: الايمان بالمبدأ والمعاد، ومعرفة أن الدنيا أحقر من أن يتلهى بها، وأن الآخرة خير وأبقى. وهذا الغرض لا يحصل الا بالصلاة. فالملاحظة المذكورة وسيلة الى جعل الصلاة أكبر هم المصلي، وهذا الهم يثمر حضور القلب.

وأما ثمرات حضور القلب:

فمنها التفهم: وهو اشتمال القلب على ملاحظة المعنى من اللفظ، فكم من رجل يحضر قلبه مع اللفظ دون المعنى؛ فكم من معنى لطيف يفهمه المصلي في أثناء الصلاة، ولم يكن يفهمه قبل ذلك وهذه هي الصلاة التي تنهي عن الفحشاء والمنكر، لا من يقرأ وهو غافل عن معنى ما قرأه. وسببه بعد حضور القلب: الاقبال على الفكر، والتشمر لدفع الخواطر الشاغلة بالنزوع عن أسباب تجذب الخواطر الى الشواغل الدنيوية، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره، ولذلك من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

ومنها التعظيم وهذا أمر وراء ما ذكرناه، إذ كم من رجل حاضر القلب إذا خاطب عبده لا يكون معظماً له، فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين: أحدهما معرفة جلال الله تعالى وعظمته؛ وثانيهما معرفة حقارة النفس، وكونها مسخراً لربها — فيتولد منها الاستكانة والانكسار والخشوع المعبر عنه بالتعظيم.

ومنها الهيبة وهي أمر زائد على التعظيم، منشؤها خوف يصدر عن الاجلال

لا مطلق الخوف، فان من خاف من السبع لا يجله ولا يهابه وهذه تتولد من معرفة كونه تعالى غنياً عن العالمين، بحيث لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة، مع نفوذ قدرته وغلبة سطوته. ومن طالع ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب والبلاء ــ مع قدرته على معافاتهم ــ يعرف جلال الله تعالى وقهره، فيحصل من هذه المعرفة الهيبة.

ومنها علم الرجاء وهذا زائد على الهيبة، إذ كم من واحد يهاب ملكاً ولا يرجوه. والعبد ينبغي له أن يرجو ثواب الله تعالى بصلاته كما أنه يخاف بتقصيره عقاب الله. فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم أنعامه ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة للمصلي. فمن اليقين بلطفه وصدق وعده يتولد الرجاء، ويحمي إيمانه بين الخوف والرجاء الذي لا مهرب عن التوسط بينهما.

ومنها علم الحياء فهو زائد على الكل؛ إذ يمكن قصور التعظيم والخوف والرجاء لمن لا يتوهم التقصير والذنب وسببه استشعاره التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظم حق الله عز وجل، سيما إذا عرف عيوب نفسه وآفاتها، وقلة اخلاصها، وخبث دخيتها، وميلها الى الحظ العاجل، مع العلم بعظيم جلال الله، وبأنه مطلع على السريرة وخطرات القلب وان دقت وخفيت. وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً، انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء.

وإذا عرفت أن هذه الثمرات أصلها حضور القلب، وأن سببه دفع الخواطر، وكان ذلك من صعاب الأمور للسالكين، فلا علينا أن نذكر ههنا بعضاً من علاج دفع الخواطر.

واعلم أن الخواطر أما حسي أو خيالي. فالأول ما يشغله من طرق الحواس الظاهرة، وأكثرها منعاً السمع والبصر؛ أما السمع: فكأن يشغل المصلي أصوات الطيور إذا صلى في حائط، أو سمع من ينشد شعراً أو يقص شيئاً؛ وأما البصر: فكأن يشغله مَالَهُ وقْعٌ في قلبه وهو بمرأى في صلاته؛ أو يشغله شيء له

بريق ولمعان أو علم، كما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وقال: اذهبوا بها الى أبي جهم فانها الهتني آنفاً عن صلاتي وإئتوني بانبجانية أبي جهم.

ونظائر هذه الأسباب أن يغض بصره الا عن موضع سجدته، أو لا يترك في البيت ما يشغله، أو يصلي في بيت مظلم. وكان بعض العلماء يقرب من حائط عند صلاته حتى لا يتسع مسافة بصره. ولهذا يحترز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصنوعة، وعلى الفرش المصبوغة. والأولى للمبتدىء اختيار البيت المظلم لحفظ بصره، أو الصغير لجمع همه. وأما الأقوياء فيحضرون المساجد، ويقدرون على غض البصر حتى لا يعرفون من على يمينهم وشمالهم.

وأما الأسباب الخيالية فأصعبها علاجاً وأشدها على القلب؛ فان من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد، بل لا يزال يطير من أمر الى آخر، وغض البصر لا يغنيه، فعلاجه صرف النفس الى فهم ما يقرأه في الصلاة، ويشغلها به عن غيره، ويستعين على ذلك بأن يذكر قبل التحريمة أمر الآخرة وموقف المناجاة، وخطر المقام بين يدي الله عز وجل وهول المطلع، وأن يتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «صلوا صلاة مودع» بأن يفرض في نفسه أنه آخر صلاة يصليها، وأنه آخر عمل يختم به على أعماله.

ودفع الخواطر من أصعب الأمور، وشبهوها بالذباب، لأنه كلما ذب آب، ولهذا سمي ذباباً، كذلك الخواطر كلما أردت دفعها تهجم عليك من كل جانب، يعرفها من يزاول علاجها، إلا أن أصل ذلك كله حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، وأساس كل نقصان، ومنبع كل فساد؛ ومن انطوى باطنه على حب الدنيا فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة، ومن فرح بالدنيا فلا يفرح بالله عز وجل وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه، وهذا هو الدواء المر؛ ولهذا استبشعه الطباع، وبقيت العلة مزمنة والداء عضالاً، حتى يئس بعض من القاصرين عن دفعها، حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلي

ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا، وإذا كان حالهم كذلك، فلا مطمع فيه لأمثالنا. وليته سلم من الصلاة شطرها أو ثلثها ليكون ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولكن علو الهمة من الايمان، فعليك أن لا تترك المجاهدة وتدخل نفسك في زمرة الرجال، وللحروب رجال وللشريد رجال.

المطلب الثالث

في بيان كيفية أحضار القلب عند كل ركن ركن وكل شرط شرط

أما الشرائط:

فمنها الآذان فاذا سمعت النداء، فاحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمَّر بظاهرك وباطنك للاجابة والمسارعة، فان المسارعين اليه هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر. فاذا وجدت في قلبك عند النداء الفرح والاستبشار فلك البشرى بالنور يوم الفصل.

ومنها الطهارة فانك إذا أمرت بتطهير ظرفك الأبعد وهو المكان، وظرفك الأقرب وهو الثياب، وقشرك وهو بدنك، فما ظنك بلبك وهو موضع نظر معبودك. فبادر بالتطهير، بالتوبة والندم على ما فرط، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فهذا تطهير باطنك.

ومنها ستر العورة فاذا وجب ستر مقابح بدنك عن الخلق، فكيف ستر مقابح قلبك عن الخالق وهو موضع نظره، فاذا لم يستر ذلك عن الله تعالى ساتر، فعليك بمحوها عن قلبك بالندم والحياة والخوف، فتذل به نفسك، وتستكن تحت الخجلة، فتقوم بين يديه قيام العبد المسيء الآبق عند مولاه.

ومنها الاستقبال فهو في الظاهر صرف وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله، فاذا كان هذا مطلوباً منك فترى أن صرف القلب من سائر الأمور الى أمر الله عز وجل ليس مأموراً؟ هيهات هيهات، فلا مطلوب منك الا مطابقة

وجه قلبك وجه قالبك .. فكما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت الا بصرفه عن سائر الجهات، كذلك لا يتصرف القلب الى الله عز وجل الا بالتفريغ عما سواه.

ومنها الاعتدال وهو مثول بين يدي الله عز وجل بالقلب والبدن، فليكن رأسك مطرقاً مطأطئاً مستكيناً، ذاكراً خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عند العرض والسؤال، بل انك قائم بين يديه في الحال، وان كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، فقدر أن رجلاً صالحاً من أهلك، أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فعند ذلك كيف تخشع جوارحك خيفة أن ينسبك ذلك العبد العاجز الى قلة الخشوع، فاذا أنصفت نفسك بهذا واعترفت، فقل لها إنك تدعي معرفة الله وحبه، أفلا تستحي منه أن تخشى عبداً من عباده والله أحق أن تخشاه.

ومنها النية فاعزم على إجابة الله عز وجل في امتثال أمره، رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقرب منه، متقلداً للمنة بإذنه لك في المناجاة مع إنك في أين من جنابه، وعظم في نفسك قدر مناجاته، وانظر من تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي، بحيث يليق أن يعرق جبينك من الخجل، وترتعد فرائصك من الوجل، و يصفر وجهك من خوف الزلل.

ومنها التكبير فاذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك، كما إذا كنت أطوع لهواك منك لله عز وجل، فيوشك أن يكون التكبير كلاماً مجرداً، وما أعظم هذا الخطر لولا التوبة والاستغفار، وحسن الظن بكبرياء الله عز وجل وعفوه.

ومنها دعاء الاستفتاح فاذا قلت: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾[1] فان أردت وجهك الظاهر فقد أثبت لله جهة، وإن أردت وجه قلبك وأنت عن الله ساه وغافل يكون كذباً؛ فأي شيء تطمع في

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٩.

صلاة أولها كذلك واختلاق، واياك عن ذلك، فاجتهد في أن تصرف وجه القلب فيما سواه اليه، وان كان في حال ذلك كلام.

ومنها القراءة فالناس فيها: أما رجل يتحرك لسانه وقلبه عن لسانه ذاهل؛ وأما رجل يتبع لسانه قلبه و يكون لسانه ترجمان قلبه، فيفهم منه كأنه يسمعه من غيره، وهذه درجة أصحاب اليمين؛ وأما رجل سبق قلبه الى المعاني ويخدم لسانه قلبه و يكون لسانه ترجمان قلبه، وفرق بين أن يكون لسانه ترجمان قلبه و بين أن يكون معلم قلبه، وهذه درجة المقربين.

ومنها الركوع والسجود فينبغي أن تجتهد عند ذلك في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتقصد تواضعاً بهما، سيما عند السجود فانه أعلى درجة الاستكانة، فتمكن أعز أعضائك — وهو الوجه — من اذلال الأشياء — وهو التراب، وان أمكنك أن لا تجعل حائلاً بينه و بين الأرض فافعل، فانه أدل على الذل وأجلب للخضوع، فعند ذلك يظهر لك: خلقت من التراب ورددت الى أصله، فأكره بالتكرار فان المرة الواحدة ضعيفة الأثر، فعند ذلك فليصدق رجاؤك في رحمة ربك فانها تتسارع الى الضعف والذل لا الى التكبر والبطر.

ومنها التشهد فاجلس فيه متأدباً، وتأمل معنى التشهد بتمامها، واجعل مفهوم ذلك حالا لك كأنك تتحقق له؛ ثم ادع بالدعاء المأثور، مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالاجابة؛ وأقصد عند التسليم السلام على الملائكة الحاضرين وعلى من في يمينك أو يسارك من جماعة المؤمنين.

فإذا أتممت الصلاة فاشكر الله تعالى على التوفيق بمثل هذه النعمة الجزيلة، واخطر ببالك إنك مودع لصلاتك هذه وربما لا تعيش لمثلها؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «صل صلوة مودع». ثم كن بين خصلتين: خصلة الوجل والحياء من التقصير في الصلاة، وأن تكون ممقوتاً بذنب ظاهر و باطن، فترد صلاتك في وجهك؛ وخصلة الرجاء في أن يقبلها بفضله وكرمه.

وأما صلاة الغافلين، فانها على خطر إلا أن يتغمد الله برحمته، فالرحمة واسعة والكرم فائض، فنسأل الله تعالى أن يغمرنا برحمته و يتغمدنا بمغفرته، إذ لا

وسيلة لنا الا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته.

ثم إذا أمكن له الصلاة على ما وصفناه، يكون سبباً لحصول أنوار في القلب ينفتح بها علوم المكاشفة، فالمكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية، إنما يكاشفونها في الصلاة، لا سيا في السجود إذ لا قرب من الرب أكثر منه؛ قال عز وجل: «واسجد واقترب».

وتختلف تلك المكاشفة بالقوة والضعف، والقلة والكثرة، والجلاء والخفاء، على قصد صفاء المصلي عن الكدورات البشرية، حتى يتكشف لبعضهم أعيان الأشياء، ولبعضهم مثالها: كصورة الجيفة للدنيا وصورة الكلب الجاثم عليها؛ وأيضاً تختلف باعتبار صرف الهمة، فمن واحد يتكشف له من صفات الله وجلاله، ومن آخر من أفعاله، ومن آخر من دقائق علوم المعاملة، و يكون ليقين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى.

فلما كانت المكاشفة بقدر صقالة القلب ــ ولم يتحقق ذلك في الأكثر ــ حرموا عنها، ومع ذلك لم يكتفوا بنقيصة الحرمان، بل وقعوا في حب الانكار، لما أن الطباع مجبولة على انكار غير الحاضر، لكن إياك إياك أن تنكر أمثال ذلك، فان منح الله تعالى خارجة عن أطوار الطباع والعقول، والله تعالى هو المسؤول لنيل المأمول.

المطلب الرابع

في علم وظائف الامامة

أولاها أن لا يتقدم على قوم يكرهونه، وان اختلفوا فالأمر إلى الأكثر، إلا أن يكون الأقل أهل الخير؛ وأيضاً التقدم على من هو أفقه وأقرأ منه إلا إذا امتنع هو فاذا حصل له شرائط الامامة يكره له المدافعة؛ وقد قيل: أن قوماً تدافعوا الامامة بعد الإقامة فخسف بهم. وما روى عن مدافعة الصحابة: لإيثار من هو أولى منه، أو خوفهم على أنفسهم الشهرة؛ وخطر أن الأئمة ضمناء، وربما

يشتغل قلب من لم يتعود ذلك حياء من المتقدمين ــ سيما في الجهر بالقراءة ــ فيفوته الاخلاص والخضوع.

وثانيتها اختيار الامامة على الآذان إذا خير بينهما؛ وقيل: بل يختار الآذان، ولكن الجمع مكروه. والاختلاف بالنظر الى تعارض الأخبار في فضائل كل منها.

وثالثتها أن يراعي الامام الأوقات فيصلي في أوائلها، ففضل أوائلها على أواخرها كفضل الآخرة على الدنيا، حتى رجحوها على الانتظار لكثرة الجماعة، حتى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخر عن صلاة الفجر في سفر لأجل الطهارة، فقدم الصحابة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، حتى فاتته ركعة فقام يقضيها، حتى قال: «أحسنتم هكذا فافعلوا»؛ وقد تأخر في صلاة الظهر، فقدموا أبا بكر رضي الله عنه، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهم في الصلاة ــ فقام الى جانبه، ولا ينتظر الامام المؤذن ولا غيره وانما ينتظر المؤذن الإمام.

ورابعتها أن يؤم مخلصاً ومؤدياً أمانة الله تعالى في جميع شرائطه وأركانه. ومن الإخلاص أن لا يأخذ عليها أجراً، وكذا المؤذن، لكن هذا إن أخذ الأجر من المقتدين، وإن أخذ رزقاً من المسجد قد وقف على من يقوم في هذا الموضع ــ أما من السلطان أو من غيره ــ فلا يحكم بحرمته، ولكنه يكره؛ ولكن يكون الأجر في مقابلة مداومته على حضور الموضع، ومراقبته مصالح المسجد في إقامة الجماعة، لا على نفس الصلاة. والفتوى اليوم على الجواز والكراهة عند المتورعين والعاملين بالعزيمة.

وخامستها الطهارة باطناً عن الفسوق والكبائر، والاصرار على الصغائر. والقوم كالوفد، وهو شفيعهم، فهو أولى بهذه. فان تذكر حدثاً في أثناء صلاته فلا ينبغي أن يستحي بل يستخلف من يقرب منه، فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنابة، فاستخلف واغتسل، ثم رجع ودخل في الصلاة.

وسادستها أن لا يكبر حتى يسوي الصفوف، فليلتفت يميناً وشمالاً فان رأى خللا أمر بالتسوية. وكان السلف يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب، والمؤذن يؤخر الاقامة عن الآذان ليتفرغ الناس ويستعدوا؛ وفي الخبر: ليتمهل المؤذن بين الأذان والاقامة، بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره، لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين، وأمر بتقديم العشاء على العشاء.

وسابعتها أن يخفف الركوع والسجود، ولا يزيد في التسبيحات على ثلاث. هذا إذا كثر الجمع. وأما إذا لم يحضر الا المتجردون للدين فلا بأس بالتسعة؛ ولا يزيد في دعاء التشهد على المأثور، ولا يخص في الدعاء نفسه بل يأتي بصيغة الجمع، وينوي بالتسليمتين القوم والملائكة، وإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن، وإذا وثب يقبل بوجهه على الناس، ولا يقوم المأموم قبل انفتال الامام.

وأما باقي الآداب والشرائط فذكورة في كتب الفقه، فليطلب منها، فإنا لم نلتزم الا ذكر ما أهمله الفقهاء.

المطلب الخامس

في فضل الجمعة وآدابها وسننها

والأحاديث والآثار في فضلها كثيرة مشهورة، ومال الكل الى أن هذا اليوم عظم الله وتعالى وسبحانه به الاسلام وخصص به المسلمين، حتى حرم الأشغال بعد النداء بكل صارف عن السعي الى الجمعة؛ وفي الحديث: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه» وفي لفظ آخر: فقد نبذ الاسلام على ظهره.

ثم أنها تشارك سائر الصلوات في الشروط، وتتميز عنها بستة شروط:

(أحدها) الوقت: حتى لو وقعت التسليمة خارج وقت الظهر فاتت الجمعة، فعليه أن يتمها ظهراً، وفي المسبوق خلاف.

(وثانيها) المكان: فلا يصح الا في المصر ــ وقد عرفته في علم الفقه ــ ويشترط اذن السلطان.

(وثالثها) يشترط الجماعة إلا في سائر الصلوات، وعند بعضهم أربعون ذكوراً مكلفين أحراراً مقيمين، فان نقص واحد ولو في الخطبة والصلاة تبطل.

(ورابعها) اتحاد الجماعة: فلو صلى أربعون متفرقين ما تصح.

(وخامسها) أن تصح جمعتان، فان فعلوا فالصحيح هو الأقدم تحريمة، إلا أن تقع ضرورة.

(وسادسها) الخطبتان وقيل: تصح بقوله الحمدلله؛ وقيل: لا بد من خطبتين طويتين يجلس بينهما؛ وقيل: هما فريضتان، والقيام فيهما فريضة، وكذا الجلسة بينهما.

وفي الخطبة الأولى أربع فرائض: التحميد وأقله الحمدلله، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والوصية بتقوى الله سبحانه، وقراءة آية من القرآن؛ وكذا فرائض الثانية، إلا أنه يجب الدعاء بدل القراءة. واستماع الخطبة واجب على الأربعين.

وأما السنن: فان زالت الشمس وأذن، وجلس الامام على المنبر، انقطعت الصلاة، سوى التحية، والكلام لا ينقطع الا بافتتاح الخطبة، ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه يردون عليه السلام. فاذا فرغ المؤذن، قام الإمام مقبلاً بوجهه على الناس لا يلتفت، ويشغل يديه بقائمة السيف أو العنزة كي لا يعبث بها، ويضع احداهما على الأخرى، ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة، ولا يستعمل غريب اللغة، ولا يتمطط ولا يتغنى، وتكون قصيرة بليغة جامعة.

وتستحب قراءة الآية في الثانية أيضاً، ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب، فان سلم لم يستحق جواباً، والاشارة بالجواب أحسن، ولا يشمت العاطس أيضاً. هذه شروط الصحة.

وأما شروط الوجوب فقد علم الفقه.

وأما آدابها فهي عشرة.

(الأول) أن يستعد لها يوم الخميس، عزماً عليها واستقبالا لفضلها، فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر، لأنها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة في يوم الجمعة، و يغسل ثيابه ويختار البيض، و يعد الطيب، و يفرغ قلبه من الأشغال المانعة من البكور الى الجمعة، و ينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فان له فضلاً، لا مفرداً فانه مكروه، بل مع ضم الخميس والسبت، وليشتغل باحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن، فلها فضل كثير، و ينسحب عليها فضل يوم الجمعة.

وقيل: ويجامع أهله في هذه الليلة، واستحبوا أخذ من حديث: «من بكر وابتكر وغسل واغتسل».

وقالوا: معناه حمل أهله على الغسل و يروى بالتخفيف: أي غسل ثيابه.

وبهذه الآداب يدخل في زمرة الغانمين، ويخرج من زمرة الغافلين؛ كما قال بعض السلف: أو في الناس نصيباً من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس، وأخسهم نصيباً من أصبح فيقول ايش اليوم. وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في المسجد الجامع لأجلها.

(والثاني) إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر، فإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحب، ليكون أقرب عهداً بالنظافة. وهذا الغسل مستحب استحباباً مؤكداً، وعند البعض سنة، وعند آخرين واجب. ومن اغتسل ثم أحدث لم يبطل غسله والأحب أن يحترز.

(والثالث) الزينة. وهي مستحبة في هذا اليوم؛ وهي بالكسوة والنظافة والطيب.

أما الكسوة: فأحبها البيض من الثياب، ولا يلبس ما فيه شهرة، ولا

السواد، وليس في لبس السواد فضيلة، فضلاً عن كونها سنة، بل قيل انها بدعة محدثة. والعمامة مستحبة في هذا اليوم سيما من وقت السعي إلى الجمعة إلى تمام الصلاة.

وأما النظافة: فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وما يشابه هذه؛ قال ابن مسعود: من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله منه داء وأدخل فيه شفاء. فإن كان قد دخل الحمام في الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود؛ وليتطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده، ليغلب به الروائح الكريهة، ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره، وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه، روى ذلك في الأثر؛ قال الشافعي: من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله.

(الرابع) البكور إلى الجامع. وفضله عظيم. ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاثة، ويكون سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناوياً للاعتكاف فيه، قاصداً للمبادرة الى جواب نداء الله، والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه، والفضل لمن راح إلى الجمعة في الساعة الأولى، ثم الثانية، إلى أن خرج الإمام، وحينئذ طويت الصحف ورفعت الأقلام. والأخبار في هذا الباب كثيرة.

(الخامس) في هيئة الدخول. ينبغي أن لا يتخطى الرقاب، ولا يمر بين أيديهم، والبكور يسهل عليه ذلك اللهم الا أن يجلسوا عند باب الجامع وفي قدام الجامع موضع خال فانه لا حرمة لهم. كذا روى عن الحسن؛ وعنه أيضاً: اذا لم يكن في المسجد إلا من يصلي، فينبغي أن لا يسلم، لأنه تكليف جواب في غير محله.

(السادس) أن لا يمر بين يدي الناس، وليجلس هو إلى قرب من أسطوانة أو حائط حتى لا يمر بين يديه، فإن ذلك لا يقطع الصلاة، ولكنه منهى

عنه؛ وان لم يجد حائطاً أو اسطوانة، فلينصب بين يديه شيئاً طوله قدر الذراع، ليكون ذلك علامة لحده.

(**السابع**) **أن يطلب الصف الأول**، فإن فضله كثير كما رويناه في الخبر: «من غسل واغتسل، وبكر وابتكر، ودنا من الإمام واستمع، كان له كفارة ما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام» وفي لفظ آخر: غفر الله له إلى الجمعة الأخرى.

إلا أن في طلب الصف الأول شرائط ثلاثة:

أحدها: أن لا يرى هناك من الامام وتوابعه منكراً يعجز عن تغييره، والا فالتأخر له أسلم وأجمع للهم. فعل ذلك جماعة من العلماء طلباً للسلامة منهم بشر ابن الحارث، وقيل له في التأخر، قال: انما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد.

وثانيها: أن لا يكون عند المنبر مقصورة منقطع من المسجد للسلاطين، وأما المقصورة فقد كره بعضهم الصلاة فيها، الا أن الأقرب أن الكراهة لأجل التخصيص والمنع والا فلا كراهة.

وثالثها: أن المنبر يقطع بعض الصفوف، وانما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر، لأنه متصل، ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع. ويكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة من المسجد، وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب.

(**الثامن**) **أن يقطع الصلاة والكلام عند خروج الامام بأن يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة.** وان كان بعيداً، قيل: يجوز أن يتكلم في العلم وغيره، لكن الأولى السكوت، اذ الصلاة اذا حرمت في ذلك الوقت فحرمة الكلام فيه أولى.

(**التاسع**) **أن يراعي في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيره.**

فإذا فرغ من صلاة الجمعة، قرأ الحمد لله سبع مرات قبل أن يتكلم، وقل

هو الله أحد والمعوذتين سبعاً سبعاً، فقد روى عن بعض السلف، ان من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزاً له من الشيطان.

ويستحب أن يقول بعد صلاة الجمعة: اللهم يا غني يا حميد مبدىء يا معيد يا رحيم يا ودود اغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك. يقال: من داوم على هذا الدعاء، أغناه الله سبحانه عن خلقه، ورزقه من حيث لا يحتسب.

ثم يصلي بعد الجمعة ست ركعات، وفي رواية أربعا، وفي رواية ركعتين، والكل صحيح في أحوال مختلفة، والأكمل الأفضل.

(العاشر) أن يلازم المسجد حتى يصلي العصر فإن وقف إلى المغرب فهو أفضل، وكان للأول ثواب الحج، وللثاني ثواب العمرة. فإن لم يأمن من التصنع، ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه، أو يخاف الخوض فيما لا يعني، فالأفضل أن يرجع إلى بيته، ذاكراً الله عز وجل، مفكراً في آلائه، شاكراً على توفيقه، خائفاً من تقصيره، مراقباً لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس، حتى لا تفوته الساعة الشريفة. ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا فأنه منهى عنه.

بيان آداب نهار الجمعة

وهي سبعة:

(الأول) حضور مجالس العلم بكرة أو بعد الصلاة وبعد العصر. ولا يخلو المريد في جميع يوم الجمعة عن الخيرات، حتى توافيه الساعة الشريفة وهو في خير. وان وجد عالماً يذكر بأيام الله عز وجل ويفقه في دين الله يجلس إليه، واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من النافلة؛ فقد روى أبو ذر أن حضور مجلس العلم أفضل من ألف ركعة. وكذا يزجر القصاص ويخرجهم من المسجد لأنه لا خير فيهم، وانه بدعة، وقد كثر نكير الصحابة في حق القصاص.

(الثاني) أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة. وفي الخبر المشهور: أن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئاً الا أعطاه؛ وفي خبر آخر: لا يصادفها عبد يصلي. واختلف فيها: فقيل انها عند طلوع الشمس، وقيل: عند الزوال، وقيل: مع الأذان، وقيل: اذا صعد الخطيب المنبر وأخذ في الخطبة، وقيل: اذا قام الناس إلى الصلاة، وقيل: آخر وقت العصر، وقيل: قبل غروب الشمس، و يروي هذا عن فاطمة رضي الله عنها ترويها عن أبيها صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض العلماء: هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر، حتى تتوفر الدواعي على مراقبتها؛ وقيل أنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر. قال الغزالي: وهذا هو الأشبه، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره؛ وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم: «ان لربكم في أيام دهركم نفحات ألا تتعرضوا لها». فينبغي أن يكون العبد في جميع نهاره متعرضاً له، بأحضار القلب وملازمة الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا، فعساه يحظى بشيء من تلك النفحات.

(الثالث) يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم، و يقول: اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي؛ ولو أتى بالمشهور في التشهد لكان مصلياً أيضاً. و ينبغي أن يضيف اليها الاستغفار فإن ذلك مستحب أيضاً في ذلك اليوم.

(الرابع) أن يكثر من قراءة القرآن خاصة سورة الكهف؛ عن ابن عباس وأبي هريرة: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطي نوراً من حيث يقرأها إلى مكة، وغفر له إلى الجمعة الأخرى، وفضل ثلاثة أيام، وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعوفي من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال».

و يستحب أن يختم القرآن في يوم الجمعة ان قدر، وليكن ختمه القرآن في ركعتي الفجر (إذا) قرأ بالليل، وفي ركعتي المغرب و بين الآذان والاقامة

للجمعة، فله فضل عظيم. وكان العباد يستحبون أن يقرأوا يوم الجمعة قل هو الله أحد ألف مرة؛ يقال: ان من قرأها عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمه. وكانوا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة، ويقولون: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ألف مرة. وان قرأ المسبحات الست في يوم الجمعة أو ليلتها فحسناً.

وليس يروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سوراً بأعيانها إلا في يوم الجمعة ولياليها. وكان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، وفي العشاء الآخرة سورة الجمعة وسورة المنافقون، وكان يقرأها في ركعتي الجمعة، وكان يقرأ في صبح الجمعة سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان.

(الخامس) الصلاة. يستحب أن يصلي إذا دخل المسجد قبل أن يجلس أربع ركعات، يقرأ فيهن قل هو الله أحد مائتي مرة، في كل ركعة خمسين مرة. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يرى له.

ولا يدع ركعتي التحية وان كان الامام يخطب، ولكن يخفف ويصليهما بعد تصلية الامام إلى جانبيه، اذ حينئذ يشرع في مدح السلاطين ولا يجب استماعه.

ويستحب في هذا اليوم أن يصلي أربع ركعات بأربع سور: سورة الأنعام والكهف وطه ويس، فإن لم يحسن قرأ يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك، ولا يدع قراءة هذه الأربع سور من ليلة الجمعة ففيه فضل كثير، ومن لا يحسن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة ختمه، ويكثر من سورة الاخلاص.

ويستحب أن يصلي في هذا اليوم صلاة التسبيح ـــ وستعرفها ـــ وكان ابن عباس يصليها بعد الزوال، والأحسن في يوم الجمعة أن يشتغل بالصلاة الى الزوال، وبعد الجمعة باستماع العلم إلى العصر، ثم بالتسبيح والاستغفار إلى المغرب.

(السادس) الصدقة. وهي تضاعف في هذا اليوم، الا أن يتصدق على من شأن والإمام يخطب لأنه مكروه. وكره بعض العلماء التصدق على السائل اذا تخطى رقاب الناس، الا أن يسأل قائماً أو قاعداً في مكان.

قال كعب الأحبار: من شهد الجمعة، ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وخشوعهما، ثم يقول: اللهم اني أسألك باسمك: بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذي لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، لم يسأل الله شيئاً الا أعطاه.

قال بعض السلف: من أطعم مسكيناً يوم الجمعة، ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحداً، ثم قال حين يسلم الامام: بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم، أسألك أن تغفر لي وترحمني وأن تعافيني من النار، ثم دعا بما بدا له استجيب له.

(السابع) أن يجعل هذا اليوم للآخرة، فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا، ويكثر فيه الأوراد، ولا يبتدىء فيه السفر؛ فقد روى أن من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه، والسفر فيه بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت.

وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء لشربه أو ليسبله، حتى لا يكون مبتاعاً في المسجد، فإن لم يكن منه بد، قالوا: يعطى الثمن خارج المسجد.

وبالجملة يزيد في هذا اليوم في أوراده وأنواع خيراته، فإن الله سبحانه اذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال، ليكون أوجع في عقابه وأشد لمقته وحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت. ويستحب في يوم الجمعة دعوات مخصوصة وردت بها الآثار. وستعرف في باب الدعوات ان شاء الله تعالى.

المطلب السادس

في علم النوافل من الصلوات

فأعلم: ان ما عدا الفرائض من الصلوات: أما سنن، أو مستحبات، أو تطوع.

والأول ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وواظب عليه.

والثاني ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه.

والثالث ما لم يرد في عينه أثر، ولكنه تطوع به العبد في مناجاة ربه، مع ورود الشرع بفضل الصلاة مطلقاً.

وتسمى هذه الثلاثة نافلة مقابلة للفرض. وقد يعرض لبعض السنن فضيلة الآخر؛ فإن سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد. وأفضل سنن الجماعة العيد، ثم الكسوف، ثم الاستسقاء. وأفضل سنن الانفراد الوتر، ثم ركعتا الفجر، ثم الرواتب الأخر.

وأعلم أن النوافل أربعة أقسام بما يتعلق بأسباب وما يتعلق بأوقات؛ وهو هذا أما أن يتكرر في اليوم والليلة أو في الأسبوع أو في السنة وهذه أربعة أقسام:

القسم الأول

ثمانية: خمسة منها رواتب الصلوات الخمس، وثلاثة وراءها، وهو صلاة الضحى، وما بين العشاءين، والتهجد. أما رواتب الصلوات الخمس فقد عرفت في علم الفقه.

وأما صلاة الضحى: فأكثر ما نقل فيها ثماني ركعات، هذا رواية أم هانىء؛ وفي رواية عائشة أربعا، ويزيد ما شاء الله لم تحد الزيادة؛ وروى: ست ركعات، وقيل: أقلها ركعتان، وأعلاها اثنتا عشرة ركعة. هكذا ذكر

السهروردي في (العوارف). ووقتها اذا أشرقت الشمس وارتفعت وكانت في ربع السماء من جانب الشرق، وهذا نظير وقت العصر في الربع الغربي.

وأما صلاة ما بين العشاءين: فهي سنة مؤكدة ولها فضل عظيم، و يقال لها: صلاة الأوابين، وعددها ست ركعات.

وأما صلاة التهجد ووقتها الثلث الأخير من الليل الى طلوع الفجر، و ينبغي أن لا ينام بينها و بين طلوع الفجر، وتقليل هذه الصلاة بلا نوم بعدها أفضل من تطويلها مع النوم عقيبها. واختلف في عدد ركعاتها، وأقلها ركعتان إلى اثنتي عشرة ركعة واما فضائلها فخارجة عن حد الاحصاء.

القسم الثاني
هي صلاة أيام الأسبوع ولياليه

(يوم الأحد) يصلي فيه أربع ركعات؛ وفي رواية: خص وقتها بما بعد الظهر ــ يقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ آمن الرسول مرة؛ وفي رواية يقرأ في الأولى تنزيل السجدة، وفي الثانية تبارك، ثم تشهد وسلم؛ ثم يصلي الآخرين و يقرأ في كل منهما سورة الجمعة، وكل هذه السور بعد الفاتحة. وأما فضائلها: أعطاه الله ثواب نبي، وحجة وعمرة، و بكل حرف مدينة في الجنة من مسك اذفر، وكتب له بكل ركعة ألف صلاة، وأعطى له بعدد كل نصراني ونصرانية حسنات، وكان حقاً على الله أن يقضي حاجته.

(يوم الاثنين) يصلي ركعتين عند ارتفاع النهار، يقرأ في كل منها بعد الفاتحة آية الكرسي والاخلاص والمعوذتين مرة مرة، و بعد السلام يستغفر الله عشر مرات، و يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرات، غفر الله له ذنوبه، رواه جابر؛ وفي رواية أنس: اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل منها بعد الفاتحة آية الكرسي مرة، فإذا فرغ، قرأ الاخلاص اثنتي عشرة مرة، واستغفر الله اثنتي عشرة مرة. وفضائلها: دخول الجنة مع كرامات من الحلل والتيجان، وتشييع الملائكة له مع كل منهم هدية له.

(**يوم الثلاثاء**) يصلي فيه عند انتصاف النهار عشر ركعات، وفي رواية: عند ارتفاع النهار، يقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ آية الكرسي مرة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات؛ رواه أنس. وأما فضائلها: لم يكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً، وان مات في هذه المدة مات شهيداً وغفر له ذنوب سبعين سنة.

(**يوم الأربعاء**) اثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار، يقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ آية الكرسي مرة والاخلاص ثلاثا والمعوذتين ثلاثا؛ رواه معاذ. وفضائلها: دفع الله عنه عذاب القبر وضيقه وظلمته وشدائد القيامة، ورفع له من يومه عمل نبي، ونادى به ملك عند العرش: يا عبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك.

(**يوم الخميس**) ركعتين بين الظهر والعصر، يقرأ في الأولى ــ بعد الفاتحة ــ آية الكرسي مائة مرة، وفي الثانية ــ بعد الفاتحة قل هو الله مائة مرة، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة؛ رواه ابن عباس. وفضائلها: أعطاه الله ثواب صوم رجب وشعبان ورمضان، وثواب الحج، وكتب له بعدد كل من آمن بالله وتوكل عليه حسنة.

(**يوم الجمعة**) إذا ارتفعت الشمس قدر رمح أو أكثر، يصلي بعد اسباغ الوضوء سبحة الضحى ركعتين، من صلاها ايماناً واحتساباً كتب الله تعالى له مائتي حسنة، ومحا عنه مائتي سيئة؛ ومن صلى أربع ركعات رفع الله عز وجل له في الجنة أربعمائة درجة؛ ومن صلى ثماني ركعات رفع الله له في الجنة ثمانمائة درجة، وغفر له ذنوبه كلها؛ ومن صلى اثنتي عشرة ركعة كتب الله سبحانه له الفاً ومائتي حسنة، ومحا عنه ألفاً ومائتي سيئة، ورفع له في الجنة ألفاً ومائتي درجة؛ رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً؛ وفي رواية ابن عمر مرفوعاً: من صلى يوم الجمعة قبل صلاة الجمعة قرأ في كل ركعة الحمد لله ــ قل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له.

(**يوم السبت**) يصلي أربع ركعات، يقرأ في كل منها فاتحة الكتاب مرة، وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات، وبعد الفراغ آية الكرسي؛ رواه أبو هريرة

مرفوعاً. وفضائلها كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة، ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله بكل حرف ثواب شهيد، وكان تحت ظل عرش الله تعالى مع النبيين والشهداء.

أما الليالي: فليلة الأحد: يصلي عشرين ركعة، في كل ركعة الفاتحة مرة والاخلاص خمسين مرة، والمعوذتين مرة، ثم استغفر الله مائة مرة، واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة، وتبرأ من حوله وقوته والتجأ الى الله، ثم قال: أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته، وابراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله، ومحمد حبيب الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — كان له من الثواب بعدد من دعا الله ولداً، و بعثه الله يوم القيامة مع الآمنين، وكان حقاً على الله أن يدخله الجنة مع النبيين. رواه أنس.

ليلة الاثنين: يصلي أربع ركعات، يقرأ في الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات، وفي الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة وفي الثالثة ثلاثين، وفي الرابعة أربعين، كلاهما بعد الحمد لله، ثم سلم وقرأ قل هو الله خمسا وسبعين مرة، واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم خمسا وسبعين مرة، ثم سأل الله حاجته، كان حقاً على الله عز وجل أن يعطيه سؤاله فيما سأل. وتسمى هذه صلاة الحاجة، رواه أنس.

ليلة الثلاثاء: يصلي ركعتين، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة، و يقرأ بعد التسليم آية الكرسي خمس عشرة مرة، و يستغفر الله سبحانه خمس عشرة مرة.

ليلة الأربعاء: يصلي ركعتين، يقرأ في الأولى — بعد الفاتحة — قل أعوذ برب الفلق عشر مرات، وفي الثانية — بعد الفاتحة — قل أعوذ برب الناس عشر مرات. ومن صلاها نزل له من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة؛ وفي رواية فاطمة رضي الله تعالى عنها: ست ركعات، يقرأ في كل

ركعة ـ بعد الفاتحة ـ قل اللهم مالك الملك، إلى آخر الآية؛ وبعد صلاته يقول سبعين مرة: جزى الله محمداً عنا ما هو أهله ـ غفر الله له ذنوب سبعين سنة، وكتب له براءة من النار؛ وفي رواية عثمان بن مظعون عشر ركعات، وقرأ في كل منها الحمد لله وآمن الرسول إلى آخر السورة مرة، والاخلاص ثلاث مرات؛ من صلاها فكأنما خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وان كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم والأمواج وزبد البحار والخلق والخلائق، وغفر الله له ذنوب السر والعلانية، وأدخله الجنة في أول زمرة من زمرة المتقين والفائزين والمقربين، دون حساب وعذاب ولا عرض وسؤال، ويباهي الله به الملائكة، وسماه العتيق من النار. فقال عثمان بن مظعون: يا رسول الله أن هذا ثواب عظيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عثمان والذي بعثني بالحق، أن الله ليعطي لمن صلى هذه الصلاة أجر من صدق اثني عشر نبياً، وأجر من جاهد في الله حق جهاده ألف سنة، وبنى الله له في الجنة دار السلام ألف قصر، مع ماله عند الله من المزيد.

ليلة الخميس: يصلي ركعتين ما بين المغرب والعشاء، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وآية الكرسي خمس مرات، وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس مرات؛ فإذا خرج من صلاته استغفر الله خمس عشرة مرة، وجعل ثوابه لوالديه، فقد أدى حقهما وان كان عاقاً لهما، وأعطاه الله تعالى خير ما يعطى الصديقين والشهداء. رواه أبو هريرة.

ليلة الجمعة: يصلي بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة قل هو الله أحد احدى عشرة مرة، فكأنما عبد الله اثنتي عشرة سنة: صيام نهارها وقيام ليلها. رواه جابر؛ وفي رواية أنس يصلي صلاة العشاء الآخرة في جماعة، ويصلي ركعتي السنة، ثم يصلي بعدهما عشر ركعات، قرأ في كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة، ثم أوتر بثلاث ركعات، ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة. فمن فعل هذه فكأنما أحيا ليلة القدر. وقال صلى الله عليه وسلم: «أكثروا من الصلاة عليَّ في الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة».

ليلة السبت: يصلي بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة، من صلاها بني له قصر في الجنة، وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، وتبرأ من اليهود، وكان حقاً على الله تعالى يغفر له. رواه أنس.

القسم الثالث

ما تكرر بتكرر السنين

وهي أربعة:

(الأول) صلاة العيدين. وهي سنة مؤكدة وشعار من شعائر الدين. و ينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور:

الأول: التكبير.

والثاني: يغتسل و يتزين و يتطيب يوم العيد.

والثالث: يخرج من طريق و يرجع من آخر.

الرابع: الخروج إلى الصحراء الا في المطر في الآفاق، والا بمكة و ببيت المقدس. ويجوز للضعفاء أن يتخلفوا بالمساجد وان كان يوم صحو.

الخامس: رعاية الوقت، و يستحب تعجيل صلاة الأضحى للذبح، وتأخير الفطر للصدقة.

السادس: يقرأ في الركعة الأولى سورة ق بعد الفاتحة، وفي الثانية اقتربت بعد الفاتحة أيضاً.

السابع: أن يضحي بكبش؛ ومن أراد أن يضحي فلا يقلم أظفاره في عشر ذي الحجة. قال سفيان الثوري: يستحب أن يصلي بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة، و بعد عيد الأضحى ست ركعات؛ وقال: هو من السنة.

(الثاني) التراويح عشرون ركعة، وكيفيتها مشهورة، وهي سنة مؤكدة وان كانت دون العيدين؛ والسنة أن يصليها مع الجماعة، وتفصيل هذه في كتب الفقه.

(الثالث) صلاة رجب. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من أحد يصوم أول خميس من رجب، ثم يصلي فيما بين العشاء والعتمة اثنتي عشرة ركعة، يفصل بين كل ركعتين بتسليمة، يقرأ في كل ركعة ـــ بعد لفاتحة ـــ سورة القدر ثلاث مرات، والاخلاص اثنتي عشرة مرة؛ فإذا فرغ صلى على محمد سبعين، يقول: اللهم صلّ على محمد النبي الأمي وعلى آله؛ ثم يسجد و يقول في سجوده سبعين مرة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح؛ ثم يرفع رأسه و يقول سبعين مرة: رب أغفر وأرحم، وتجاوز عما تعلم، فانك أنت العلي الأعظم؛ ثم يسجد سجدة أخرى و يقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى؛ ثم يسأل حاجته فانها تقضى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يصلي أحد هذه الصلاة الا غفر الله له جميع ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل وورق الجبال وورق الأشجار، و يشفع يوم القيامة في سبعمائة من أهل بيته ممن قد استوجب النار». هذه الصلاة مستحبة، وطعن فيها بعض المتأخرين، وادعوا أن الحديث الوارد فيها موضوع، وقيل: خبر آحاد. الا أنه لمواظبة أهل القدس، بل سائر المسلمين في الأمصار لا يسمحون بتركها، ولهذا أحببت ايرادها.

(الرابع) صلاة شعبان. في الليلة الخامسة عشرة منه يصلي مائة ركعة بخمسين تسليمة، يقرأ في كل ركعة بعد فاتحة الكتاب ـــ «قل هو الله أحد» ـــ عشر مرات؛ وان شاء صلى عشر ركعات، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة «قل هو الله أحد» مائة مرة. كان السلف يصلونها و يسمونها صلاة الخير، وربما صلاها جماعة. روى عن الحسن رضي الله عنه انه قال: حدثني ثلاثون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة، نظر الله إليه سبعين نظرة، وقضي له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة.

القسم الرابع

ما يتعلق بأسباب عارضة

وهي تسعة:

الأولى: صلاة الخسوف. وهذه مذكورة في كتب الفروع.

الثانية: صلاة الاستسقاء. وهي مثل صلاة العيد بلا فرق، الا أنه يخرج فيها بثياب، بذلة واستكانة متواضعين، بعدما صاموا ثلاثة أيام، وتقديم صدقة وتوبة عن المعاصي، والخروج من المظالم، ثم يخرج اليوم الرابع بالصبيان والعجائز؛ وعند البعض: يخرج الدواب لمشاركتهم في الحاجة؛ وفي الحديث: «لولا صبيان رضع ومشايخ ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً». وعند البعض: لا يمنع أهل الذمة اذا خرجوا متميزين، والمختار عندنا منعهم.

والثالثة: صلاة الجنازة. وتفصيلها وتفصيل صلاة الاستسقاء مذكور في كتب الفقه.

الرابعة: تحية المسجد. وهي ركعتان فصاعداً سنة مؤكدة، حتى أنهم جوزوها في الأوقات المكروهة وعند الخطبة، ولو اشتغل بفرض أو قضاء تأدت به التحية وحصل الفضل. والمقصود عدم خلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياماً بحق المسجد، ولهذا يكره الدخول بلا وضوء، فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يقولها أربع مرات. يقال أنها عدل ركعتين في الفضل.

الخامسة: ركعتان بعد الوضوء مستحبتان، اذ الوضوء معرض الآفات فالمبادرة إلى استيفاء المقصود به أولى.

السادسة: ركعتان عند دخول المنزل والخروج منه يدفعان مدخل السوء ومخرج السوء؛ وكذلك عند ابتداء السفر في المنزل وعند الرجوع منه في المسجد؛ كل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان بعض الصالحين يصلي ركعتين اذا أكل أكلة أو شرب شربة، وفي كل أمر يحدثه، كعقد

النكاح، وابتداء النصيحة والمشورة، وكانوا يقدمون في عقد النكاح والنصيحة والمشورة الحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسم؛ وكذا عند شراء دار جديدة، والخروج من منزل والدخول فأنه نوع سفر خفيف، وكذا عند الأحرام.

السابعة: صلاة الاستخارة. فمن هم بأمر وكان لا يدري عاقبته، ولا يعرف أن الخير في فعله أو تركه، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسم أن يصلي ركعتين، يقرأ في الأولى ــ بعد الفاتحة ــ قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية قل هو الله أحد بعد الفاتحة، فإذا فرغ دعا وقال: «اللهم اني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك، فأنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم ان كنت تعلم ان هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله، فقدره لي ثم يسره لي، وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله، فأصرفني عنه وأصرفه عني وقدر لي الخير أينما كان ثم رضني به، انك على كل شيء قدير». رواه جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن. وقال صلى الله عليه وسم: «اذا هم أحدكم بأمر فليصل ركعتين ثم يسم الأمر و يدعو بما ذكرناه».

الثامنة: صلاة الحاجة فمن ضاق عليه أمره، ومست حاجته في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه، فقد روى عن وهيب بن الورد أنه قال: أن من الدعاء الذي لا يرد أن يصلي العبد اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة بأم القرآن وآية الكرسي وقل هو الله أحد، فإذا فرغ يخر ساجداً، ثم قال: سبحان الذي لبس العز وقال به، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي المن والفضل، سبحان ذي العز والكرم، سبحان ذي الطول، أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك الأعظم وجدك الأعلى، وكلماتك التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، أن تصلي على محمد؛ ثم يسأل حاجته التي لا معصية فيها فيجاب ان شاء

الله تعالى. قال وهيب: بلغنا انه كان يقال: لا تعلموها سفهاءكم فيتعاونوها على معصية الله.

التاسعة: صلاة التسبيح. وهذه إن لم تختص بوقت ولا سبب، إلا أن المستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر، ولهذا أوردتها هاهنا. روى عكرمة عن ابن عباس انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعباس بن عبد المطلب: الا أعطيك الا أمنحك، الا أحبوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله سبحانه ذنبك: أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، سره وعلانيته: تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة، فإذا فرغت من القراءة في أول كل ركعة وانت قائم قلت: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرا، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا، ثم تسجد السجدة الثانية فتقولها عشرا، ثم تقوم فتقولها عشراً، فذلك خمس وسبعون ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات، وان استطعت أن تصليها في كل يوم فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فان لم تفعل ففي السنة مرة؛ وفي رواية أخرى أنه يقول في أول الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، ثم تسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشرا بعدها، والباقي كما سبق عشراً عشراً، ولا تسبيح بعد السجدة الأخيرة قاعداً وهو الأحسن، وهو اختيار ابن المبارك. والمجموع من الروايتين ثلاثمائة تسبيحة، فإن صلاها نهاراً فتسليمة واحدة، وان صلاها ليلاً فتسليمتين أحسن، اذ ورد أن صلاة الليل مثنى مثنى؛ وان زاد بعد التسبيح قوله: ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لكان أحسن، فقد ورد في ذلك بعض الروايات. ولا يستحب شيء من هذه النوافل في الأوقات المكروهة، الا تحية المسجد دون غيرها، وأما في مذهبنا: فلا يجوز الا الفوائت وسجدة التلاوة وصلاة الجنازة وركعتي الطواف والذي أفسده ثم أعاد، والله أعلم بالصواب.

الأصل الخامس

في علم أسرار الزكاة

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في مراعاة شروطه الظاهرة

وهي خمسة:

الأول: النية. وهي أن ينوي بقلبه زكاة الفرض، أو نوى التوكيل بأداء الفرض.

الثاني: البدار عقيب الحول ويجوز تعجيله قبل الحول.

الثالث: أن يخرج المنصوص عليه ولا يبدله بقيمته وهو الأحوط، وان جاز ذلك في الأصح.

الرابع: أن لا ينقل إلى بلد آخر إلا إلى قريبه وإلى أحوج من أهل بلده.

الخامس: أن لا يخص بصنف واحد من الأصناف الأربعة، ولا يتكلف جميع الأصناف. وتفاصيل هذه الشروط خارج عن طوقنا مع استيفائها في الكتب الفقهية.

المطلب الثاني

في بيان الآداب الباطنة للزكاة

وهي ثماني وظائف:

(الأولى) أن يفهم أن الغرض من الزكاة الامتحان بأن لا يكون لها محبوب سوى الواحد الحق؛ ولها مراتب: إحداها: الذين نزلوا عن جميع أموالهم كما فعله الصديق رضي الله عنه؛ وثانيتها: الذين يدخرون على قدر الحاجة

وصرف الحاجة في وجوه البر؛ وثالثتها: الذين يقتصرون على أداء الواجب وهذه أقل الرتب؛ الثانية: التطهير من صفة البخل التي هي من المهلكات، الثالثة: شكر لنعمة المالية.

(الوظيفة الثانية) التعجيل وقت الأداء، اظهاراً للرغبة في الامتثال وايصال المسرة الى قلوب الفقراء، ومبادرة لعوائق الزمان أن يعوق من الخيرات لأن في التأخير آفات.

(الوظيفة الثالثة) الأسرار فإن ذلك أبعد من السمعة والرثاء.

(الوظيفة الرابعة) أن يقصد اقتداء الناس عند الاظهار، لأن تأخير السائل خيفة من الرثاء غير صحيح، بل ينبغي أن يتصدق و يتحفظ عن الرثاء بقدر الإمكان، اللهم الا أن يتأذى الفقير بهتك سره فعند ذلك يستحسن الإخفاء.

(الوظيفة الخامسة) أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى، كما قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾[1]. قيل: المن أن يذكرها، والأذى أن يظهرها؛ وقيل: المن أن يستخدمه بالعطاء، والأذى أن يعيره بالفقر، وقيل: المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذى أن يوبخه و ينتهره بالمسكنة.

وأعلم أن المن والأذى ينشآن من رؤية المعطى نفسه محسناً؛ وأنه ظن باطل، لما عرفت من أن الغرض منه إظهار حب الله، وتطهير نفسه عن رذيلة البخل، وشكراً لنعمة المال طلباً للمزيد. فظهر منه أنه لا معاملة بينه و بين الفقير الا فضل الفقير عليه بقبول أوساخ ماله، وتسببه لأداء فرضه وتحصيله الثواب الجزيل.

ومن علم فضل الفقر على الغنى، وان صلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام، وأنه مسخر لله، يكتسب المال لأجله وهو ينتفع به بلا حساب ولا عذاب في طريق كسبه، كيف يطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٤.

والخدمة والتوقير في المجالس: وهذا معنى المن؛ وكيف يعيره، ويخشن الكلام، و يقطب الوجه، ويهتك السر بالاظهار وفنون الاستخفاف: وهذا معنى الأذى.

وهذا المن والأذى ـــ وان كانا أمرين باطنيين ـــ الا أن لهما علامة ظاهرة، وهو أن الفقير لو جنى عليه بعد التصدق، و يفرض هذه الجناية قبله، ثم ينظر: هل كان استنكاره على ما فعله بعد التصدق زائداً على استنكاره على ما فعله قبل التصدق، فإن كان زائداً ففي باطنه المن، ثم الأذى يلازمه عادة، ولا أقل من الجواز فيمن جاز منه المن.

وأما علاج هاتين الرذيلتين: أما باطناً فملاحظة الأمور المذكورة؛ وأما ظاهراً فالتذلل للفقير والمنة له بأن يقبل صدقته، حتى كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويمثل قائماً و يسأله قبولها؛ وكان بعضهم يبسط يده ليأخذ الفقير منه لتكون يد الفقير هي العليا. وكانوا لا يتوقعون منه الدعاء لأنه شبه المكافأة، وكانوا يقابلون الدعاء بمثله، فالمذكور أولاً هو العلم، وثانياً هو العمل، والقلب ينصبغ بالأعمال الحسنة، ولا يعالج القلب الا بمعجون العلم والعمل.

(**الوظيفة السادسة**) أن يستصغر العطية والا داخل العجب، وهو من المهلكات ويحبط الأعمال. وهو غير المن والأذى، اذ في بناء المساجد والربط العجب دونهما. والدواء للاستعظام والعجب: أما العلم: فأنه يستحي من حيث أنه بذل من الكثير بالقليل، وقنع بأخس درجات البذل؛ وأيضاً المال لله وله المنة اذا أعطاه اياه ووفقه لبذله، وأيضاً أنه يرجو في الآخرة الثواب وهو عوضه اضعاف ما أعطاه، فكيف يستعظم بما ينتظر ثوابه؛ وأما العمل: فهو أن يستحي من أن لم يبذل كله لله ـــ وهو الأحب عنده ـــ والمال كله لله، وهو استعمل البخل وترك ما أحبه صاحب المال.

(**الوظيفة السابعة**) أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه اليه وأطيبه وأحله، و يستحي من أن يؤثر نفسه وأهله وعبيده على الله تعالى والمال له تعالى، وأيضاً أنه يبقى أطيبه لمن يرثه من بعده، ولا يقدم ذلك لنفسه؛ وليس له من ماله إلا ما أكل فأفناه، وما لبس فأبلاه، وما تصدق فأبقاه.

(**الوظيفة الثامنة**) أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة من الأتقياء، وهؤلاء ستة أصناف:

الأول: الأتقياء المتجردون لتجارة الآخرة والمعرضون عن الدنيا، فتكون شريكاً لهم في طاعتهم بإعانتك اياهم.

الثاني: العلماء خاصة، فإن في ذلك إعانة للعلم وهو أشرف العبادات مهما صحت فيه النية.

الثالث: أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد؛ من جملة توحيده: أن يحمد الله تعالى عند أخذه و يشكره، ورأى النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة، لأنها مقهور مسخر بتسخير الله تعالى. ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط ــ الا من حيث أنهم وسائط ــ فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي بسره.

الرابع: من يكون مستتراً ومخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى، أو يكون من أهل المروءة، أو ممن ذهبت نعمته و بقيت عادته فهو يتعيش في جلباب التجمل؛ قال الله تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافاً﴾[1]. و ينبغي أن يفحص هؤلاء في كل محلة عن أهل الدين، فثواب صرف المعروف اليهم اضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال.

الخامس: أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب؛ قال الله تعالى ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾[2]. أي حبسوا في طريق الآخرة؛ أما لعيلة أو ضيق معيشة أو اصلاح قلب، لا يستطيعون ضرباً في الأرض: لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف بهذه الأسباب.

السادس: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فيكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يخفى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

(٢) الآية السابقة.

المطلب الثالث

علم آداب قابض الصدقة

ولا يستحق إلا حر لا عبد، والا مسلم لا كافر، ولا يعطى إلى هاشمي ولا مطلبي، لأن الله تعالى صانها عن أوساخ الناس وأبدل منها خمس الغنائم، فإن المصارف ثمانية: منهم الفقراء: وهم الذين ليس لهم مال ولا قدرة على الكسب؛ ومنهم المساكين: وهم الذين لا يفي دخلهم بخرجهم؛ ومنهم العاملون: وهم الساعون لحفظ أموال المسلمين، كالعريف والكاتب والمستوفي والحافظ، ولا يدخل فيهم السلطان والقاضي؛ ومنهم المؤلفة قلوبهم وهم سقطوا بعزة الإسلام اليوم؛ ومنهم المكاتبون؛ ومنهم الغارمون في طاعة أو مباح؛ ومنهم الغزاة الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة؛ ومنهم ابن السبيل: وهم الفقراء الذين لهم مال في بلادهم.

وأما وظائف القابض خمس:

الأول: أن يفهم أن المال لأجل المعاونة على عبادته تعالى؛ فالأغنياء يتعبون في كسبه وحفظه، وركبوا متن الخطر، وصار المال عليهم محنة وفتنة وبلية؛ والفقراء انتفعوا بالمال ولم يقاسوا شدائدهم، وهذا منتهى النعمة، فليأخذوه رزقاً من الله وعوناً على طاعته، ولينو تقديمه على الطاعة؛ ومن صرفه إلى المعصية كان كافراً للنعمة، مستحقاً للمقت والبعد من الله تعالى.

الثاني: أن يشكر المعطي، فيدعو له و يثني عليه، لكن لكونه واسطة لا يمنع رؤية النعمة من الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يشكر الناس لم يشكره الله تعالى». فوظيفة المعطي الاستصغار، ووظيفة القابض الاستعظام، وعلى كل منها القيام بحقه.

الثالث: أن ينظر فيا يأخذه، فإن لم يكن من حله تورع عنه؛ كأموال الأتراك والجنود وعمال السلطان، إلا إذا ضاق عليه الأمر، وكان ما يسلم إليه يعرف له مالكاً معيناً، فله أن يأخذ بقدر الحاجة.

الرابع: أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه فيما يقدر ما يأخذه، فلا يأخذ الا القدر المباح. مثلا: يأخذ بقدر دينه ان كان مديوناً، وان كان مسافراً بقدر الزاد وكراء الدابة إلى مقصده، وان كان في منزله أثاث يستغنى عنه أو عن نفاسته وجودته فليحترز عن قبوله فإن الورع في ذلك، ومنهم من لم يجوز أخذ ما زاد على قوت يومه وهذه مبالغة، ومنهم من لم يجوز أخذ ما زاد على شهر وهو أقرب للتقوى، ومنهم من لم يجوز ما زاد على قوت سنة وهذا أقصى ما يرخص فيه، مستدلاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخر لعياله قوت سنة، وذلك لأن السنة اذا تكررت تكررت أسباب الدخل، والأقرب إلى الاعتدال الكفاية إلى السنة، وما زاد على ذلك ففيه خطر فيما دونه تضييق.

الخامس: أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه، فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه لأنه لا يستحق مع شركائه الا الثمن، بمقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه، وهذا السؤال واجب والناس فيه متساهلون، الا إذا غلب على ظنه عدم النقص عن قدر الواجب.

المطلب الرابع

في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

ولا حاجة إلى ذكر فضائلها لشهرتها وكثرة الآيات والأخبار في ذلك.

أما إخفاء الصدقة ففيها معان:

الأول: أنه أبقى للستر على الآخذ وأصون لستر مروءته، وصاروا ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

الثاني: أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم، فأنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه، و يظنون أنه مستغن عنه، وأنه آخذ على زيادة قدر الحاجة، ففي الأخفاء صيانتهم عن هذه الجرائم.

الثالث: اعانة المعطي على أسرار العمل، لأن في السر فضلاً على الجهر، والإعانة على إتمام المعروف معروف.

الرابع: ان في اظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً، وليس للمؤمن أن يذل نفسه.

الخامس: الاحتراز عن شبهة الشركة ــ قال صلى الله عليه وسلم: «من أهدى إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها».

وأما الاظهار والتحدث ففيه أربعة معان:

الأول: الاخلاص والصدق والسلامة من تلبيس الحال والمراياة.

الثاني: اسقاط الجاه والمنزلة، واظهار العبودية والمسكنة، والتبرؤ من الكبرياء ودعوى الاستغناء، واسقاط النفس عن أعين الخلق.

الثالث: أن العارف لا نظر له إلا إلى الله تعالى فلا حاجة إلى الاخفاء، والسر والعلانية عنده سواء والا لنقص في توحيده.

الرابع: ان الأظهار لأقامة الشكر.

وإذا عرفت هذا الاختلاف، فاعلم أن الحق لا يجزم بفضيلة الاخفاء أو الاظهار مطلقاً، بل يختلف الحكم بحسب اختلاف الأحوال، وأيسرها الأخذ في الملأ والرد في السر، الا أن يستوى عنده السر والعلانية وهذا هو الكبريت الأحمر.

المطلب الخامس

كان ابراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون الأخذ من الصدقة أفضل، فإن في أخذ الزكاة مزاحمة المساكين، وربما لا يوجد فيه سبب الاستحقاق كما في الكتاب. وأما الآخرون فقالوا: يأخذ الزكاة لكونه اعانة على الواجب، ولو ترك المساكين أخذ الزكاة لأثموا، ولأنه لا منّة فيها وانما هي حق الله تعالى رزقاً لعباده الصالحين، ولأنه أخذ بالحاجة والحاجة معلومة، وأخذ الصدقة أخذ بالدين فان الغالب اعطاء الصدقة لأهل الديانة، ولأن موافقة المساكين أدخل في التواضع، والصدقة قد تعطى في معرض الهدية ولا تتميز عنها.

والقول الحق في هذا أنه مختلف بأحوال الشخص والنية، فإن كان شبهة في

اتصافه بصفة الاستحقاق فليترك الزكاة، وان كان مستحقاً وكان له ضرورة يجوز أخذها، فإذا خير بين الزكاة والصدقة: فإن كان صاحب الصدقة يتركها ــ لو لم يأخذه هوــ يأخذ الصدقة، ففيه تكثير للخير وتوسيع على المساكين، اذا الزكاة تحصل لهم خاصة، وان كان المال معرضاً للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين، فهو مخير. وأخذ الزكاة على كل حال أشد في كسر النفس واذلالها في أغلب أحوالها.

الأصل السادس

في علم أسرار الصوم

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في الواجبات الظاهرة

وهي خمسة:

الأول: مراقبة أول شهر رمضان برؤية الهلال أو بتكميل شعبان.

الثاني: النية. والأفضل أن ينوي كل ليلة.

الثالث: الامساك عن المفطرات الثلاث عهد ذكر الصومة.

الرابع: الامساك عن الاستمناء.

الخامس: الامساك عن اخراج القيء بالاستقاء.

المطلب الثاني

في لوازم الإفطار

وهي أربعة: القضاء، والكفارة، والفدية، والامساك بقية النهار تشبهاً بالصائم. وتفاصيل هذه في علم الفقه.

المطلب الثالث

في السنن

وهي ستة: تأخير السحور، وتعجيل الإفطار على التمر والماء قبل الصلاة، وترك السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضان، ومدارسة القرآن، والاعتكاف في المسجد لا سيما في العشر الأخير، فهي عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان اذا دخل العشر الأواخر، طوى الفراش وشد المئزر ودأب معه أهله: أي أداموا النصب في العبادة اذ فيها ليلة القدر؛ والأغلب أنه في أوتارها وأشبه الأوتار احدى وثلاث وسبع، والتتابع في هذا الاعتكاف أولى.

المطلب الرابع

في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

أعلم أن الصوم أما صوم العموم، وهو: كف الفرج والبطن عن قضاء الشهوة؛ وصوم الخصوص، وهو كف الجوارح عن الآثام؛ وصوم خصوص الخصوص، وهو: كف القلب عما سوى الله تعالى إلا دنيا تراد للدين.

أما صوم العموم: فقد عرفت شرائطه في علم الفقه.

وأما صوم الخصوص: وهو صوم الصالحين لا يتم الا بستة أمور:

الأول: غض البصر عن المحارم والمكاره وما يلهي عن ذكر الله.

الثاني: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء، والزامه السكوت، أو شغله بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فهذا صوم اللسان.

الثالث: كف السمع عن الاصغاء إلى مكروه، لأن كل ما حرم الله قوله حرم الاصغاء إليه.

الرابع: كف بقية الجوارح عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات، ولا معنى للصوم الذي هو الامساك عن الطعام الحلال ثم الافطار على الحرام.

الخامس: أن لا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء، فما من وعاء أبغض إلى الله تعالى من بطن مليء من حلال، فكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة، اذا تدارك الصائم عند افطاره ما فاته صحوة نهاره؛ وربما يزيد من أنواع الطعام، حتى استمرت العادات بأن يدخروا لرمضان جميع الأقوات ما لا يؤكل في سائر الأوقات.

وأعلم: أن مقصود الصوم كسر الشهوة بالخوى ليتقوى بذلك على التقوى، فإذا هاجت شهوة النفس بالجوع طول النهار، ثم أطعمت من اللذات وأشبعت، زادت لذتها وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها، فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان، وذلك لا يحصل الا بأن يأكل أكلة في كل ليلة في غير رمضان، بل من الأدب أن لا ينام في النهار كثيراً، حتى يحس بجوعه وعطشه فيصفو عند ذلك قلبه، ويخف على أوراده وتهجده، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه، فينظر إلى ملكوت السماء، بل المراد بليلة القدر هي الليلة ينكشف فيها عن شيء من الملكوت، ومن جعل بين قلبه وصدره مخلاة من الطعام فهو من ملكوت السماء محجوب، ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته عن غير الله، وذلك هو الأمر كله ومبدأ الكل تقليل الطعام.

السادس: ان يكون قلبه بعد الأفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء، اذ ليس يدري هل يقبل صومه فهو من المقربين، أو يرد فهو من المقوتين.

فإن قلت: الصوم هو ترك المفطرات الثلاث كما ذكره الفقهاء، فمن أين أخذت هذه الشروط؛ قلت: الفقهاء يبحثون عن الأفعال الظاهرة للمكلفين، وأما الأفعال الباطنة فخارجة عن نظرهم. ولو سئل فقيه عن حرمة الغيبة مثلاً يحكم بحرمته، بل هو أشد من الافطار في نهار رمضان عمداً، ومع ذلك يقول أن الغيبة غير مفطرة، وذلك لخروجها عن نظره لا لأنها غير مفطرة حقيقية، ولو كان مجرد الامساك عن المفطرات الظاهرة كافياً، فأي معنى لقوله صلى الله عليه وسلم: «كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش».

واعلم: أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً وقشراً ولباً، ولقشوره درجات، ولكل درجة طبقات، فإليك الخيرة الآن في أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب.

المطلب الخامس

في التطوع بالصيام

وذلك يتجدد أما في كل سنة، أو في كل شهر، أو في كل جمعة.

أما السنة ـــ بعد أيام رمضان: فيوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة، وعشر المحرم. ولا يجوز استقبال رمضان بيوم أو يومين الا أن يوافق ورداً، ويجوز وصل شعبان كله برمضان. والأشهر الفاضلة: ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان؛ والأشهر الحرم: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ثلاثة سرد، وأحدها فرد، وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والأيام المعدودات؛ وذو القعدة من الأشهر الحرم وأشهر الحج؛ وشوال من أشهر الحج ليس من الأشهر الحرم، والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج.

وأما ما يتكرر في الشهر: فأوله وأوسطه وآخره، والأيام البيض: وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

وأما في الأسبوع: فالاثنين والخميس والجمعة.

وأما صوم الدهر: فأنه شامل للكل وزيادة، فمن كرهه نظر إلى الأخبار الواردة في كراهته وسبب كراهته.

وأما صوم العيدين وأيام التشريق: والصوم فيها حرام، أو لتركه العمل بالرخصة التي فعلها النبي صلى الله عليه وسلم؛ الا أن الصحيح أن من رأى صلاح نفسه فيه فليفعل، سوى الأيام المنهية، كما فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين. والأفضل صيام داود، وهو: أن يصوم يوماً فيصبر ويفطر يوماً فيشكر؛ وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها، وقد ورد في فضل ذلك أخبار.

والأفضل أن يراعي السالك أحوال قلبه، و يفطر في وقت الحاجة إلى الأفطار، و يصوم عند الحاجة إلى الصوم، اذ الغرض من الكل اصلاح القلب لا غير.

الأصل السابع
في علم أسرار الحج

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في فضيلتها وفضيلة البيت ومكة

وهذه الفضائل مذكورة في كتب الأحاديث والآثار والأخبار، فلا نطول الكتاب بذكرها.

المطلب الثاني
في فضل الاقامة بمكة وكراهتها

أما فضيلتها فأشهر من أن تذكر.

وأما كراهيتها: فلما كره المحتاطون المقام بها لمعان:

أحدها: خوف التبرم من جهة الغربة، أو حرها، أو معاشها، أو الأنس بها حتى تسقط مهابة البيت من عينه. ولهذا كان عمر رضي الله عنه يصرف الحاج اذا حاجوا، و يقول: يا أهل اليمن يمنكم، و يا أهل الشام شامكم.

وثانيها: تهييج الشوق إلى بلده حتى تنبعث داعية العود والمفارقة.

وثالثها: الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها فإن ذلك محظور، و بالحرى

أن يورث مقت الله لشرف الموضع. وعن ابن عباس: لأن أذنب سبعين ذنباً بركبة أحب إليّ من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة؛ وركبة منزل بين مكة والطائف.

ولا تظنن أن كراهية الاقامة تنافي في شرف الموضع، بل ذلك لعجز الناس عن القيام بحقه؛ وكيف لا وانها أحب بلاد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن النظر إلى البيت عبادة، وأن الحسنات تضاعف فيها.

المطلب الثالث

في فضيلة الاقامة بالمدينة

وهذه أيضاً أشهر من أن تذكر، وما مر في الاقامة بمكة جار ها هنا أيضاً.

وبالجملة: الغرض الأعظم للسالك اصلاح دينه وقلبه، واذا صلح حاله في بلد فليزم الاقامة بها، ولا يسافر الا لعلم أو اصلاح حال، ولا يترك وطنه أيضاً الا لما ذكر، وليختر من البلاد ما هو أقرب للخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة والمعاش. وفي الخبر: من رزق من شيء فليزمه؛ وفيه أيضاً: البلاد بلاد الله، والخلق عباد الله، فأي موضع رأيت فيه رفقاً فأقم وأحمد الله تعالى. وعن سفيان الثوري أنه قال: لا أدري أي البلاد أسكن؛ قيل له: خراسان، قال: مذاهب مختلفة وآراء فاسدة؛ فقيل له: الشام، قال: يشار اليك بالأصابع ــ أراد الشهرة؛ فقيل: فالعراق، قال: بلد الجبابرة؛ قيل له: مكة، قال: يذيب الكيس والبدن.

المطلب الرابع

في وجوب الحج وصحته وأركانه وواجباته ومحظوراته

ولما كانت هذه المسائل مستوفاة في الكتب الفقهية اكتفينا بها.

المطلب الخامس

في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع

وهي عشر جمل:

الجملة الأولى

في السنن من أول الخروج إلى الأحرام

وهي ثماني:

الأولى: في المال. ينبغي أن يبتدىء بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون، واعداد النفقة له ولمن تلزمه نفقته الى وقت الرجوع، فيرد ما عنده من الودائع، و يستصحب مالا من حلال طيب ما يكفيه لذهابه وايابه من غير تقتير، بل قدر ما يواسي به الضعفاء والفقراء، و يتصدق بشيء قبل خروجه، وليشتر لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف أو يكتريها، فإن اكترى فليظهر للمكاري كل ما يريد أن يحمله من كثير وقليل ويحصل رضاه فيه.

الثانية: في الرفيق: فينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً، محباً للخير معيناً عليه، أن نسي ذكره، وان ذكر اعانه، وان جبن شجعه، وان عجز قواه، وان ضاق صدره صبره. واذا فارق اخوانه يودعهم و يلتمس أدعيتهم، فإن الله تعالى جاعل في أدعيتهم البركة. والسنة في الوداع أن يقول: أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر: في حفظ الله وكنفه وزودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير أينما توجهت.

الثالثة: في الخروج من المنزل. ينبغي اذا هم بالخروج أن يصلي ركعتين، يقرأ في الأولى ــ بعد الفاتحة ــ قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية سورة الاخلاص. واذا فرغ من رفع يديه، دعا الله تعالى عن اخلاص صاف ونية صادقة، وقال: اللهم أنت الصاحب في السفر، وانت الخليفة في الأهل والمال

والولد والأصحاب، احفظنا واياهم من كل آفة وعاهة. اللهم انا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم انا نسألك أن تطوي لنا الأرض وتهون علينا السفر، وأن ترزقنا في سفرنا هذا سلامة الدين والبدن والمال، وأن تبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم. اللهم انا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب. اللهم اجعلنا واياهم في جوارك، ولا تسلبنا واياهم نعمتك، ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك.

الرابعة: اذا حصل إلى باب الدار، قال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. رب أعوذ بك أن أضل، أو أُضَل، أو أزل أو أزَل، أو أظلم أو أظلَم، أو أجهل أو يجهل علي. اللهم اني لم أخرج اشرا ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك شوقاً إلى لقائك. فإذا مشيت فقل: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت واليك توجهت. اللهم انت ثقتي وانت رجائي، فاكفني ما أهمني به وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني، عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك. اللهم زودني التقوى واغفر ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت. ويدعو بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه.

الخامسة: في الركوب. واذا ركب الراحلة يقول: بسم الله وبالله والله أكبر، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون﴾[1] اللهم أني وجهت وجهي اليك، وفوضت أمري اليك، وتوكلت في جميع أموري عليك، انت حسبي ونعم الوكيل. فإن استوى على الراحلة واستوت تحته، قال: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر سبع مرات، وقال: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾[2]. اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور..

---

(١) سورة لزخرف، آية: ١٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٤٣.

السادسة: في النزول. والسنة أن لا ينزل حتى يحمى النهار ويكون أكثر مسيره في الليل ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه، اللهم أصرف عني شر شرارهم. فإذا نزل المنزل صلى ركعتين، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق. فإذا جن عليه الليل يقول: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب، ومن ساكن البلد، ووالد وما ولد، ﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾[1].

السابعة: في الحراسة. ينبغي أن لا ينفرد عن القافلة لئلا يغتال أو ينقطع، ويحتاط بالليل، ويفترش ذراعه أن نام في أول الليل وينصبه، ويجعل رأسه في كفه ان نام في آخرها، كذا نام رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره، وذلك لئلا ينام فيفوته الفجر. ويستحب في الليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة فهو السنة. فإن قصده سبع أو عدو فليقرأ آية الكرسي وشهد الله وسورة الاخلاص والمعوذتين، وليقل بسم الله ما شاء الله، لا قوة الا بالله، حسبي الله، توكلت على الله، ما شاء الله، لا يأتي بالخيرات الا الله، ما شاء الله، لا يصرف السوء الا الله، حسبي الله وكفى، يسمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ، ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي أن الله عزيز ذو انتقام﴾[2] تحصنت بالله العلي العظيم، واستعنت بالحي الذي لا يموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا، اللهم أعطف علينا قلوب عبادك

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٣.

(٢) سورة المجادلة، آية: ٢١.

واماثك برحمة ورأفة أنك أنت أرحم الراحمين.

الثامنة: إذا علا شرفاً. يكبر ثلاثاً ثم يقول: اللهم لك الشرف ولك الحمد على كل حال. واذا هبط سبح مهما خاف الوحشة في سفره، قال: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، جللت السموات بالعزة والجبروت.

الجملة الثانية

في آداب الاحرام من الميقات الى دخول مكة

وهي خمسة:

الأول: أن يغتسل عند الاحرام، و ينوي غسل الأحرام، و ينظف بتسريح رأسه ولحيته، و يقلم أظفاره، وسائر ما مر في باب الطهارة من أنواع النظافة.

الثاني: يحرم و يرتدي و يتأزر بثوبين أبيضين، والبياض أحب الثياب الى الله عز وجل، و يتطيب في بدنه وثيابه، وان بقي جرمه بعد الأحرام.

الثالث: أن ينوي الاحرام بالحج والعمرة قرانا أو أفراداً كما أراد، اذا انبعث به راحلته أو اذا ابتدأ السيرلن كان راجلاً، و يكفي مجرد النية لاعتقاد الأحرام، ولكن السنة أن يقترن بالنية التلبية، بأن يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، أن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك؛ وان زاد قال: لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والرغباء اليك والعمل، لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد.

الرابع: إذا انعقد بالتلبية، يستحب له أن يقول: اللهم أني أريد الحج فيسره لي، وأعني على أداء فرضه، وتقبله مني، اللهم أني نويت أداء فريضتك في الحج، فأجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك، واجعلني من وفدك الذين رضيت وارتضيت وقبلت، اللهم فيسر لي أداء ما نويت من الحج، اللهم قد أحرم لك شعري ولحمي ودمي وعصبي ومخي وعظامي، وحرمت على النساء والطيب ولبس المخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة. ومن وقت

الأحرام حرم عليه المحظورات الستة المذكورة في كتب الفروع.

الخامس: يستحب له تجديد التلبية عند ازدحام الرفاق واجتماع الناس، وعند كل صعود وهبوط، وعند كل ركوب ونزول، رافعاً صوته بحيث لا يبح حلقه ولا ينبهر، فانه لا ينادي أصم ولا غائباً، ولا بأس برفع الصوت والتلبية في مسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات، فإن هذه المساجد مظنة المناسك، وأما غيرها فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع الصوت.

الجملة الثالثة

في آداب دخول مكة الى الطواف

هي ستة:

الأول: الاغتسال بذي طوى لدخول مكة، والاغتسال المسنون في الحج تسعة: في الأحرام، من الميقات لدخول مكة، لطواف القدوم، للوقوف بعرفة، للوقوف بمزدلفة، وثلاثة اغتسال للجمرات الثلاث، ولا غسل لرمي جمرة العقبة، ثم لطواف الوداع.

الثاني: أن يقول عند الدخول في أول الحرم وهو خارج مكة: اللهم هذا حرمك وأمنك فحرم لحمي وبشري ودمي على النار، وآمني من عذابك يوم تبعث عبادك، واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك.

الثالث: أن يدخل مكة من الجانب الابطح، وهي ثنية كدا بفتح الكاف، ويخرج من ثنية كدا بالضم وهي الثنية السفلى، والأولى العليا.

الرابع: إذا دخل مكة وانتهى الى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت، فليقل: لا اله الا الله والله أكبر، اللهم انت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والاكرام، اللهم أن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته، اللهم فزده تعظيماً وزده تشريفاً وتكريماً وزده مهابة وزده من حجه برأ وكرامة، اللهم افتح لي أبواب رحمتك وادخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم.

الخامس: فليدخل المسجد الحرام من باب بني شيبة، وليقل: اللهم بسم الله وبالله ومن الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا قرب من البيت قال: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهم صلي على محمد عبدك ورسولك، وعلى ابراهيم خليلك، وعلى جميع أنبيائك ورسلك. وليرفع يديه وليقل: اللهم اني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تقبل توبتي وتتجاوز عن خطيئتي وتضع عني وزري، الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمنا وجعله مباركاً وهدى للعالمين. اللهم أني عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك، جئت أطلب رحمتك، أسألك مسألة المضطر الخائف عقوبتك الراجي رحمتك الطالب مرضاتك.

السادس: أن يقصد الحجر الأسود بعد ذلك ويمسه بيده اليمنى ويقبله ويقول: اللهم أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته أشهد لي بالوفاء؛ فإن لم يستطع التقبيل فليقف في مقابلته وليقل ذلك. ثم لا يعرج على شيء دون الطواف ــ وهو طواف القدوم ــ الا الصلاة المكتوبة اذا حضرت الجماعة.

الجملة الرابعة
في الطواف أما لقدوم أو لغيرة

وآدابه ستة:

الأول: شروط الصلاة من الطهارة وستر العورة لأنه صلاة؛ الا أنه يباح فيه الكلام. وليضطبع أولاً: وهو أن يضع وسط ازاره تحت أبطه الأيمن، ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر، فيرخي طرفاً وراء ظهره وطرفاً على صدره، ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف، ويشتغل بالأدعية التي سنذكرها.

الثاني: بعد الاضطباع يجعل البيت عن يساره. وليقف عند الحجر الأسود، وليتنح عنه ليكون الحجر قدامه، فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه في ابتداء طوافه، وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً منه، ثم يبتدىء الطواف.

الثالث: يقول في ابتداء الطواف قبل مجاوزة الحجر: بسم الله والله أكبر، اللهم ايماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، ويطوف. وأول ما يجاوز الحجر ينتهي إلى باب البيت، فيقول: اللهم ان البيت بيتك والحرم حرمك والأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار. وعند ذكر المقام يشير بعينيه إلى مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ويقول: اللهم بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين، أعذني من الشيطان الرجيم، وحرم لحمي ودمي من النار، وآمني من أهوال يوم القيامة، واكفني مؤونة الدنيا والآخرة. ثم يسبح الله ويحمده حتى يبلغ الركن العراقي، فعنده يقول: اللهم اني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنظر في الأهل والمال والولد. واذا بلغ الميزاب فليقل: اللهم أظلني تحت عرشك يوم لا ظل الا ظل عرشك، اللهم اسقني بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا ظمأ بعدها أبداً. واذا بلغ الركن الشامي فليقل: اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وتجارة لن تبور، يا عزيز يا غفور، رب أغفر وأرحم وتجاوز عما تعلم انك أنت الأعز الأكرم. فإذا بلغ الركن اليماني فليقل: اللهم أني أعوذ بك من الكفر، وأعوذ بك من الفقر، وأعوذ بك من عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من الخزي في الدنيا والآخرة. وليقل بين الركن اليماني والحجر الأسود: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وعذاب القبر. واذا بلغ الحجر الأسود فليقل: اللهم أغفر لي برحمتك، أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر. وعند ذلك قد تم له شوط واحد، فيطوف به كذلك سبعة أشواط، ويدعو بهذه الأدعية في كل شوط.

الرابع: أن يرمل في الثلاثة الأول من الأشواط ويمشي في البواقي، وتفصيله في كتب الفقه.

الخامس: اذا تم الطواف فليأت الملتزم؛ وهو ما بين الحجر والباب وموضع استجابة الدعاء، وليلتصق بالبيت، وليتعلق بالأستار. وليضع خده الأيمن، وليقل: اللهم يا رب البيت العتيق أعتق رقبتي من النار، وأعذني من الشيطان

الرحيم، وأعذني من كل سوء، وقنعني بما رزقتني، و بارك لي فيما آتيتني. اللهم ان هذا البيت بيتك والعبد عبدك، وهذا مقام العائذ بك من النار، اللهم أجعلني من أكرم وفدك عليك. وليحمد الله كثيراً في هذا الموضع، وليصلّ على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء، وليدع بحوائجه الخاصة و يستغفر الله من كل ذنب. وكان بعض السلف يقول لمواليه: تنحّوا عني حتى أقر لربي بذنوبي.

السادس: اذا فرغ مما ذكر فليصلّ خلف المقام ركعتين، يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون، وفي الثانية سورة الأخلاص، وليقل بعدهما: اللهم يسر لي اليسرى وجنبني العسرى وأغفر لي في الآخرة والأولى اللهم أعصمني بألطافك حتى لا أعصيك، وأعني على طاعتك بتوفيقك وجنبني معاصيك، وأجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين. اللهم حببني إلى ملائكتك ورسلك وعبادك الصالحين. اللهم وكما هديتني للإسلام فثبتني بألطافك ودلالتك عليه، واستعملني بطاعتك وطاعة رسولك، وأجرني من مضلات الفتن. ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف.

الجملة الخامسة

في السعي

وهو سبع مرات يبتدىء بالصفا. فليقبل أولا على البيت و يقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الحمد لله على ما هدانا، الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها، لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا اله الا الله مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون. اللهم اني أسألك ايماناً دائماً

و يقيناً صادقاً وعلماً نافعاً وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً، وأسألك العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة. و يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، و يدعو الله تعالى بما شاء من حاجته. ثم ينزل و يبتدىء السعي و يقول: رب أغفر وأرحم واعف وتكرم وتجاوز عما تعلم أنك أنت الأعز الأكرم؛ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. فإذا سعى وانتهى الى المروة صعدها وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء.

الجملة السادسة

في الوقوف

يخرج من مكة إلى منى ملبياً، فإذا انتهى الى منى قال: اللهم أن هذه منى فأمنن علي فيها بما مننت على أوليائك وأهل طاعتك. وليمكث هذه الليلة بمنى وهو مبيت منزل لا نسك فيه. فإذا أصبح سار إلى عرفات و يقول: اللهم آجعلها خير غدوة غدوتها قط، وأقربها من رضوانك وأبعدها من سخطك. اللهم اليك غدوت واليك اعتمدت ووجهك أردت فأجعلني ممن تباهى به اليوم من هو خير مني وأفضل. ثم يأتي عرفات و يفعل هناك ما هو مسطور في الكتب.

لكن أعظم أركان الوقوف الدعاء؛ اذ في مثل تلك البقعة في مثل ذلك اليوم في مثل ذلك الجمع ترجى اجابة الدعاء. والدعاء مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم عرفة أولى ما يدعو به. وهو هذا: لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير. اللهم أجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً. اللهم أشرح لي صدري و يسر لي أمري. وليقل: اللهم رب لك الحمد كما يقول وخير ما نقول، لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي واليك مآبي واليك متابي. اللهم اني أعوذ بك من وساوس الصدور وشتات الأمر وعذاب القبر. اللهم أني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار ومن شر ما هبت به الرياح وشر بوائق الدهر. اللهم أني أعوذ بك من تحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك. اللهم اهدني بالهدى وأغفر لي في الآخرة والأولى، يا

خير مقصود وأشرف منزول عليه وأكرم مسؤول ما لديه، أعطني العشية أفضل ما تعطي أحداً من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين. اللهم يا رفيع الدرجات ومنزل البركات وفاطر الأرضين والسموات، ضجت اليك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات، وحاجتي اليك أن تذكرني في دار البلي اذا نسيني أهل الدنيا. اللهم انك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري واعلاني ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك خده، ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً وكن بي رؤوفاً رحيماً يا خير المسؤولين وأكرم المعطين. الهي: من مدح اليك نفسه فأني لائم لنفسي. الهي: أخرست المعاصي لساني، فما وسيلة من عمل ولا شفيع الا الأمل. الهي: أني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاهاً ولا للاعتذار وجهاً، ولكنك أكرم الأكرمين. الهي: ان لم أكن أهلاً ان أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني، رحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء. الهي: ان ذنوبي وان كانت عظاماً فهي صغار في جنب عفوك فأغفرها يا كريم. الهي: انت انت وأنا أنا، أنا العواد بالذنوب وأنت العواد الى المغفرة. الهي: ان كنت لا ترحم الا أهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون. الهي: تجنبت طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً، فسبحانك. ما أعظم حجتك علي وأكرم عفوك عني، فبوجوب حجتك علي وانقطاع حجتي، وفقري اليك وغناك عني، الا غفرت لي يا أرحم الراحمين، يا خير من دعاه داع وأفضل من رجاه راج، بحرمة الإسلام وبذمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام أتوسل اليك، فأغفر لي جميع ذنوبي، وأصرفني من موقفي هذا مقضى الحوائج، وهب لي ما سألت، وحقق رجائي فيما تمنيت. إلهي: دعوتك بالدعاء الذي علمتنيه، فلا تحرمني الرجاء الذي عرفتنيه. الهي: ما أنت صانع العشية بعبد مقر لك بذنبه، خاشع لك بذله، مستكين بجرمه، متضرع اليك من عمله، تائب اليك من اقترافه، مستغفر لك من ظلمه، مبتهل اليك في العفو عنه، طالب اليك من اقترافه، مستغفر لك

من ظلمه، مبتهل اليك في العفو عنه، طالب اليك في كل حوائجه، راج لك في موقفه مع كثرة ذنوبه، فيا ملجأ كل حي، وولي كل مؤمن، من أحسن فبرحمتك يفوز، ومن أساء فبخطيئته يهلك. اللهم اليك خرجنا، وبفنائك أنخنا، واياك أملنا وعندك طلبنا، ولاحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا، ومن عذابك أشفقنا ولبيتك الحرام حججنا، يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، يا من ليس معه رب يدعى، ويا من ليس فيه خالق يخشى، ويا من ليس له وزير يؤتى ولا حاجب يرشى، يا من لا يزداد على السؤال الا تكرماً وجوداً، وعلى كثرة الحوائج الا تفضلاً واحساناً، انك جعلت لكل ضيف قرى ونحن أضيافك فأجعل قرانا منك الجنة. اللهم لك وفد جائزة، ولكل زائر كرامة، ولكل سائل عطية، ولك راج ثواب، ولكل ملتمس لما عندك جزاء، ولكل مسترحم عندك رحمة، ولكل داع اليك زلفة، ولكل متوسل اليك عفو، وقد وفدنا الى بيتك الحرام، ووقفنا بهذه المشاعر العظام، وشاهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا. الهنا: تتابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك، وأظهرت الصبر حتى نطقت الصوامت بحجتك، وظاهرت المنن حتى اعترف اولياؤك بالتقصير عن حقك، وأظهرت الآيات حتى أفصحت السموات والأرضون بأدلتك، وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك، اذا أساء عبادك حلمت، واذا أحسنوا تفضلت وقبلت، واذا عصوا سترت، واذا أذنبوا غفرت، واذا دعونا أجبت، واذا نادينا سمعت، واذا أقبلنا اليك قربت، واذا ولينا عنك دعوت. الهي: انك قلت في كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين ﴿قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ [1] فأرضاك عنهم الأقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود، وأنا لنشهد لك بالوحدانية مخبتين ولمحمد بالرسالة مخلصين، فأغفر لنا بهذه الشهادة سوالف الأجرام، ولا تجعل حظنا منك أنقص من حظ من دخل في الإسلام. الهنا: انك أحببت التقرب إليك بعتق ما ملكت ايماننا، ونحن عبيدك، وأنت أولى بالتفضل، فأعتقنا، وأنك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا، وأنت أحق بالطول

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٨.

فتصدق علينا؛ ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا، وأنت أحق بالكرم، فأعف عنا. ربنا أغفر لنا وأرحمنا أنت مولانا. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وقنا برحمتك عذاب النار.

وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام، وهو أن يقول: يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات. يا من لا تغلطه المسائل، ولا تختلف عليه اللغات. يا من لا يبرمه الحاح الملحين، ولا يضجره مسألة السائلين: أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك.

وليدع بما بدا له، وليستغفر لنفسه ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات، وليلح في الدعاء، وليعظم المسألة، فإن الله سبحانه لا يتعاظمه شيء.

قال مطرف بن عبد الله وهو بعرفه: اللهم لا ترد الجمع من أجلي؛ وقال بكر المزني: قال رجل: لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم.

الجملة السابعة
في بقية أعمال الحج

فإذا بلغ المزدلفة يغتسل بها لأنها من الحرم. ثم يقول: اللهم هذه مزدلفة، جمعت ألسنة مختلفة تسألك حوائج مؤتلفة، فاجعلني ممن دعاك فأستجبت له، وتوكل عليك فكفيته. ثم يبيت بها تلك الليلة. وأحياؤها سنة لمن قدر عليها.

وإذا انتصف الليل فليتأهب للرحيل. وليتزود منها سبعين حصاة ولا بأس بالزيادة عليها. اذ ربما يسقط بعضه، وليكن الحصى خفافاً تحتوي عليها أطراف البراجم. ثم يسير بعد صلاة الفجر، واذا انتهى الى المشعر الحرام ــ وهو آخر المزدلفة ــ يقف ويدعو بها بهذا الى الأسفار: اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام مع الركن والمقام، بلغ روح محمد صلى الله عيه وسلم منا التحية والسلام، وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والاكرام. ثم يرمي الجمرات في

المواضع الثلاثة و يقول مع كل حصاة منها: الله أكبر على طاعة الرحمن ورغم الشيطان، اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك.

ولا يقف في هذا اليوم للدعاء و يقطع التكبير الا عقيب الصلوات من ظهر يوم النحر الى صبح آخر أيام التشريق. وصفة التكبير: الله أكبر الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا اله الا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده، لا اله الا الله والله أكبر.

ثم يقول عند ذبح الهدى: بسم الله والله أكبر، اللهم منك وبك ولك، تقبل مني ما تقبلت من ابراهيم خليلك. ثم ليحلق وليقل: اللهم أثبت بكل شعرة حسنة وامح عني بكل شعرة سيئة، وأرفع لي عندك بها درجة. ثم يحل له كل شيء الا النساء والصيد.

ثم يفيض الى مكة و يطوف طواف الزيارة، ثم يحل له كل شيء. وهذا الطواف كما سبق. والامام يخطب في هذا اليوم بعد الزوال، وهي خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الحج أربع خطب: خطبة السابع، يوم عرفة، يوم النحر، يوم النفر الأول؛ وكلها بعد الزوال وافراد الا خطبة يوم عرفة فأنها خطبتان بينهما جلسة.

ثم يبيت بمنى ــ وهي ليلة القر ــ لقرار الناس لأنهم لا ينفرون.

وفي صبح الثاني من يوم العيد يغتسل للرمي، فيرمي الجمرة الأولى سبع حصيات، ثم اذا تعداها انحرف عن الجادة قليلاً، ووقف مستقبل القبلة، وحمد الله تعالى وهلل وكبر، ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح، ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة، مقبلاً على الدعاء؛ ثم يرمي الجمرة الثانية و يقف كما في الأولى؛ ثم الثالثة ولا يقف عندها. ثم يبيت تلك الليلة بمنى وهي ليلة النفر الأول.

فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق، رمى احدى وعشرين

حصاة كاليوم الذي قبله، ثم هو مخير بين المقام بمنى والعود الى مكة، لكن ان لم يخرج إلى الليل يلزمه المبيت بمنى حتى يرمي يوم النفر الثاني احدى وعشرين حصاة كما سبق. والتفصيل في كتب الفقه.

الجملة الثامنة

في صفة العمرة

من أراد ذلك فلينو عند الأحرام ويلبي، ويقصد مسجد عائشة ويصلي ركعتين، ويدعو بما شاء، ثم يعود إلى مكة وهو يلبي إلى أن يدخل المسجد الحرام، ثم يطوف ويسعى كما وصفناه في الحج، ثم يحلق رأسه فيتم عمرته. واذا يدخل البيت فليدخله حافياً موقراً، وليصل بين العمودين وهو الأفضل.

قال بعضهم — وقد سئل عن دخول البيت: والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيته، فكيف أراهما أهلاً لأن أطأ بهما بيت ربي وقد علمت حيث مشتا وإلى أين مشتا. وليكثر شرب ماء زمزم، وليستق الماء بيده أن أمكنه، ليرتو منه حتى يتضلع: وليقل: اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم، وارزقنا الاخلاص واليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة. قال صلى الله عليه وسلم: «ماء زمزم لما شرب له أي يشتي ما قصد به».

الجملة التاسعة

في طواف الوداع

وهذا أيضاً كما سبق لكن من غير رمل واضطباع. فإذا فرغ صلى ركعتين خلف المقام، ويشرب من ماء زمزم، ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول: اللهم البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك، حملتني على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك، وبلغتني بنعمتك حتى اعنتني على قضاء مناسكك، فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضا، والا فمن الآن قبل تباعدي عن بيتك، هذا أوان انصرافي أن أردت غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب

عنك ولا عن بيتك. اللهم اصحبني العافية في بدني والعصمة في ديني، وأحسن منقلبي، وارزقني طاعتك ما أبقيتني، وأجمع لي خير الدنيا والآخرة انك على كل شيء قدير. اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي ببيتك الحرام، وان جعلته آخر عهدي فعوضني منه الجنة. والأحب أن لا تصرف بصرك عن البيت حتى تغيب عنه.

الجملة العاشرة

في زيارة المدينة وآدابها

وأما فضلها فأكثر من أن يحصى. فمن قصدها فيكثر في طريقه الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسم؛ فإذا وقع بصره على جدارها فليقل: اللهم هذا حرم رسولك صلى الله عليه وسلم، فاجعله لي وقاية من النار وأمنا من العذاب وسوء الحساب. وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة، وليتطيب وليلبس أفضل ثيابه وأنظفها، وليدخل متواضعاً معظماً، وليقل: بسم الله وعلى ملة رسول الله ﴿رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وأجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾[1]. ثم ليقصد المسجد ويدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين، ويجعل عمود المنبر بحذاء منكبه الأيمن، ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق، وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يغير المسجد.

ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل القبر على نحو أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدر القبر، وليجعل القنديل على رأسه. وليس من السنة مس الجدار وتقبيله بل الوقوف من بعد أقرب إلى الاحترام، فيقول: السلام عيك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا أمين الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا أحمد السلام

---

(١) سورة الاسراء، آية: ٨٠.

عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا ماحي، السلام عليك يا عاقب، السلام عليك يا بشير، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا طهر، السلام عليك يا أكرم ولد آدم، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك يا قائد الخير، السلام عليك يا فاتح السر، السلام عليك يا نبي الرحمة، السلام عليك يا سيد الأمة، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين، السلام عليك وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته، وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون، وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه؛ كما استنقذنا بك من الضلالة، وبصرنا بك من العماية، وهدانا بك من الجهالة، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وكرم وشرف وعظم.

وان كان أحد أوصى بتبليغ السلام فليقل: السلام عليك من فلان وفلانة. ثم ليتأخر قدر ذراع وليسلم على أبي بكر الصديق لأن رأسة عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأس عمر عند منكب أبي بكر رضي الله عنهما. ثم يتأخر قليلاً قدر ذراع، ويسلم على الفاروق عمر، وليقل: السلام عليكما يا وزيري رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً، والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته، فجزاكما الله خير ما جزى وزيري نبي عن دينه.

ثم ليرجع ويقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبر والاسطوانة اليوم، وليستقبل القبلة، وليحمد الله ويمجده، وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يقول اللهم انك قلت وقولك الحق ﴿ولو

أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾[1] اللهم أنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك، وقصدنا نبيك مستشفعين به اليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا، تائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا، وأرفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك. اللهم أغفر للمهاجرين والأنصار، وأغفر لأخواننا الذين سبقونا بالإيمان. اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ولا من حرمك يا أرحم الراحمين.

ثم لبأت الروضة و يصلي فيها، و يكثر من الدعاء ما استطاع، وليدع عند المنبر. و يستحب أن يضع يده على الرمانة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة.

و يستحب أن يزور يوم الخميس قبور الشهداء بأُحد، فيصلي الغداة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يخرج و يعود الى المسجد لصلاة الظهر، فلا يفوته فريضة جماعة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

و يستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، و يزور قبر عثمان وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وفيه أيضاً قبر علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد، و يصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها وعنهم، و يزور قبر ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك كله بالبقيع.

و يستحب أن يأتي في كل سبت مسجد قباء و يصلي فيه، و يأتي بئر أريس التي تفل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ريقه فيتوضأ منها و يشرب من مائها؛ و يأتي مسجد الفتح، وهو على الخندق، وكذا سائر المساجد والمشاهد،

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٤.

وهي ثلاثون موضعاً يعرفها أهل المدينة. وكذا يقصد طلباً للشفاء سبعة آبار التي توضأ واغتسل منها وشرب من مائها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واعلم: أن الاقامة بالمدينة أن أمكن فلها فضل عظيم؛ وفي الحديث «لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد الا كنت له شفيعاً يوم القيامة». وغير ذلك من الأحاديث. وان لم يمكن الاقامة وعزم على الخروج، فالمستحب أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم و يعيد دعاء الزيارة كما سبق، و يودع القبر، و يسأل الله أن يرزق اليه العودة، و يسأل السلامة في سفره، ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة، وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة في المسجد.

فإذا خرج يقدم رجله اليسرى، ثم يقول: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك، وحط أوزاري بزيارته، وأصحبني في سفري و يسر رجوعي إلى أهلي، وأجعلني من السالمين يا أرحم الراحمين؛ وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه، وليتتبع المساجد التي بين المدينة ومكة و يصلي فيها ــ وهي عشرون موضعاً.

فإذا رجع إلى بلده: السنة أن يكبر على كل شرف ثلاثاً و يقول: «لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»؛ وفي رواية: وكل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون.

واذا أشرف على مدينته فليحرك دابته وليقل: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً؛ ثم يرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة فذلك هو السنة، ولا يطرق أهله ليلاً.

فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولاً فيصلي فيه ركعتين، ثم يدخل بيته

و يقول عند دخوله: توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر علينا حوبا. ثم اذا استقر في منزله لا ينسى ما أنعم الله عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا ينبغي أن يكفر هذه النعمة و يعود الى الغفلة واللهو والخوض في المعاصي، لأن علامة الحج المبرور أن يعود زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت.

المطلب السادس
في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

وهي عشرة:

أحدها: أن تكون النفقة حلالاً، بلا تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، بل يكون همه مجرد رضائه تعالى وذكره وتعظيم شعائره ومن جملة الحج لغيره؛ وقد تورع عنه أرباب القلوب ــ الا أن يكون قصده الاقامة بمكة ولم يكن له ما يبلغه، فيتوصل بالدنيا الى الدين لا عكسه، فيكون قصده زيارة البيت واسقاط الغرض عن أخيه المسلم. ولست أقول: الأجرة حرام أو مكروه؛ بل أقول: الأولى أن لا يفعل، لئلا يعطي الدين بالدنيا، ولو أخذه لأجل التوسل بالدنيا الى الدين كما سبق فلا بأس به.

ثانيها: أن لا يعاون أعداء الله بتسليم المكوس الى العمال الظلمة المترصدين في الطرق، بل يتلطف في حيلة الخلاص لأن في ذلك ذلاً وصغاراً على المسلمين ببذل جزية؛ ولا يحل العون عليه ولا الرضا به. وان أوله: بأنا مضطرون في ذلك، فقل له: فأين اضطرار في الخروج عن البيت، وترك زي الفقراء حتى تطالب بها.

ثالثها: التوسع في الزاد، وطيب النفس بالانفاق من غير تقتير، بأن يمنع ما وجب عن نفسه، أو عن قوت ما عليه مؤونته شرعاً أو مروءة ــ ولا اسراف بأن يترفه بأطايب النعم وأنواع الأطعمة على عادة المترفهين.

وأما كثرة الخير فقد قيل: لا سرف في الخير، ولا خير في السرف، والدرهم الواحد في طريق الحج بسبعمائة.

ورابعها: ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن، فيصون لسانه من اللغو والخنا والفحش، ويحفظ الأوامر ويترك النواهي، ويلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله تعالى، ويعاملهم بحسن الخلق، وهو احتمال الأذى لا مجرد كف الأذى، وسمي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وخامسها: المشي أن قدر، وله بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، كذا ورد الأثر عن ابن عباس؛ وسئل: ما حسنات الحرام، قال: الحسنة بمائة الف. وان أضاف اليه الأحرام من دويرة أهله فقد قيل أنه من تمام الحج، كما قال تعالى: ﴿واتموا الحج والعمرة لله﴾[1]. وقيل: الركوب أفضل لما فيه من الانفاق والمؤونة، وأبعد عن الضجر وأذى الغير، وأقرب إلى سلامته وتمام حجه. والتحقيق أن الأول لمن قدر عليه، والثاني لمن ضعف عنه وضجر، فلا مخالفة بين القولين.

وسادسها: أن يتجنب عن المحامل فأنه من زي المترفهين. قيل: وقد أحدثها الحجاج، وكان العلماء في وقته يكرهونها.

وسابعها: أن يكون أشعث أغبر، غير مائل الى التفاخر والتكاثر؛ وفي الحديث: «انما الحاج الشعث الغبر. يقول الله تعالى: ﴿أنظروا الى زوار بيتي قد جاءوني شعثاً غبرا من كل فج عميق﴾. ويروي أن أهل اليمن على هذه الهيئة، ولهذا قيل لهم: زين الحجيج. وينبغي أن يجتنب الحمرة في زيه والشهرة كيفما كانت على العموم.

وثامنها: أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق: كالمحمل؛ ومنها النوم عليها، والوقوف عليها وقوفاً طويلاً. ومن السنة نزوله عن الدابة بكرة وعشية،

---

(١) سورة لبقرة، آية: ١٩٩.

يروحها و يوقع السرور في قلب المكاري. وقد ورد في الخبر: أن في كل كبد حرى أجراً. وكان السلف يشترطون مع المكاري عدم النزول و يوفون الأجر، ثم ينزلون، ليكون ذلك من حسنات أنفسهم.

وتاسعها: أن يتقرب باراقة دم، وان لم يكن واجباً عليه؛ ويختار سمين النعم، و يأكل منه في التطوع دون الواجب، والقليل الجيد خير من كثير الدون.

وعاشرها: طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى، وما أصابه من الخسران والمصيبة في المال والبدن، فأنها من دلائل قبول حجه؛ ومن امارة القبول تبديل أخوانه البطالين أخواناً صالحين، ومجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.

المطلب السابع
في الأعمال الباطنة وطريق الاخلاص فيها

وذلك في عدة أمور:

الأول: الفهم. فأعلم أنه لا وصول الى الله تعالى الا بالتنزه عن الشهوات واللذات، والتجرد إلى الله تعالى في جميع الحالات. ولهذا انفرد الرهبان من الملل السالفة عن الخلق في قلل الجبال، فتركوا اللذات الحاضرة، واستوحشوا عن الخلق للأنس بالله تعالى، فأثنى الله عليهم في كتابه فقال: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون﴾ (١).

فلما اندرس ذلك، وأقبل الناس على الشهوات وفتروا عن العبادة، بعث الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم لهداية طريق الآخرة، فنع الناس الرهبانية في دينه، فقال: «أبدلنا بها الجهاد والتكبير على كل شرف» يعني: الحج. وسئل عن السائحين، فقال: هم الصائمون. وهذا من عناية الله تعالى بهذه الأمة، بحيث أعطى لهم في الناس ما حصلوه في الجبال، وجعل لهم الحج

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨٢.

رهبانية بتشريف بيته العتيق، بأن أضافه إلى نفسه، مع تنزهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد؛ ثم جعل ما حوله حرماً وحرم صيده وقطع شجره، وجعل عرفات كالميدان لفناء حرمه، فقصده عباده من كل أوب سحيق، غبراً متواضعين لرب البيت مستكينين له، خضوعاً لجلاله واستكانة لعزته، حتى تعبدهم بأمور لا يفهمون معناها: كترددات السعي ورمي الجمار، تحقيقاً لمقام العبودية، وابتلاء لعباده، ليمتاز المطيع عمن اتبع نفسه هواها، وعمل بمقتضى الطباع، واعتقدها أموراً فارغة عن الحكمة، وليس كذلك، بل لها حكم وأسرار تغفل عنها العقول، ولهذا صار أبلغ أنواع التعبدات.

الثاني: أنه ينبعث من الفهم المذكور، الشوق بأن الأبصار الفانية قصرت عن النظر إلى وجه الله الكريم، وصار ذلك في دار القرار، جعل النظر إلى بيته في الدنيا سبباً إلى استحقاق لقاء البيت في الآخرة بمقتضى وعده الكريم، فيشتاق المحب إلى أسباب اللقاء.

الثالث: العزم بأن يصحح عزيمته باخلاصه واجتناب كل ما فيه رئاء وسمعة، وليحذر عن أن يقصد قرب البيت و يبعد عن رضا ربه.

الرابع: أن تقطع وليس معناه ترك الوطن والأهل والأولاد والأموال، بل رد المظالم، والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فإن كل عظيمة علاقة تنادي عليه: أين تقصد وأنت مضيع أمره في منزلك.

الخامس: أن تقطع قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك، كما قطعت وجهك عن النظر إلى ما وراءك، فتوجه إليك بقلبك كتوجهك بقالبك، والا فليس لك منه الا النصب والعناء والتعب والشقاء، وليذكر عند قطعه العلائق الظاهرة والباطنة توجهه إلى سفر الآخرة، وليكتب وصية لأهله وأولاده، اذ المسافر لعلى خطر الا ما وقى الله تعالى.

السادس: يطلب الزاد والراحلة من موضع حلال؛ وليذكر أن المسافر يطلب من الزاد ما لا يتغير في أول منزل، بل لا يتغير على طول السفر، فكذلك سفر الآخرة لا يصلح له زاد الا التقوى، وما عداه يتخلف عند موته وكربه؛

وليذكر عند حضور الراحلة: الشكر لله تعالى على أن سخَّرها له، تحمل عنه الأذى، وترفع عنه المشقة، فليتذكر عنده مركب الآخرة، فينبغي أن يصلحه فوق ما يهتم لراحلة السفر.

السابع: شراء ثوبي الأحرام من مال حلال، فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه، اذ ليس في ثوب الاحرام مخيط، فكذا في الأكفان.

الثامن: الخروج من البلد؛ وليتذكر عنده الخروج من القبر والتوجه الى الحشر، ولا يدري كيف حاله: أيغتال في الطريق، أم يصل إلى مقصده سالماً، كذلك في الآخرة لا يعرف مآل أمره.

التاسع: فليتذكر عند دخول البادية الوقوف في المحشر، وان ما في البادية من الحيات والسباع نظير ما في الحشر من الأهوال والمخاوف. وأما الأحرام والتلبية التي هي اجابة نداء الله عز وجل في قوله: ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ [1] نظير نداء الخلق بالنفخ في الصور، وحشرهم من القبور، وازدحامهم في عرصات القيامة.

العاشر: يتذكر عند دخوله مكة الانتهاء الى حرمه وأمنه، مع خوفه من أن لا يكون من أهل القرب. لكن ينبغي أن يغلب رجاؤه، اذ الكرم عميم؛ وليتذكر عند وقوع البصر على البيت، وحضور عظمته في قلبه، مشاهدة رب البيت وعظمته؛ وليرج أن يرزقه النظر إلى وجهه الكريم في العقبى كما رزقه النظر الى بيته العظيم في الدنيا، وليتذكر عند ذلك دخول الجنة آمنين، وليسأل ذلك من الله تعالى.

الحادي عشر: فليتذكر عند الطواف التشبه بالملائكة الحافين حول العرش، الطائفين حوله؛ ولتعرف أن المقصود الأعظم طواف قلبك بذكر رب البيت، فلا تبتدىء الا منه ولا تختم الا به، كما أن الطواف يبتدىء بالبيت ويختم به.

---

(١) سورة الحج، آية: ٢٧.

وأعلم: أن أصل الطواف في عالم الملكوت، وهو: تطواف القلب بحضرة الربوبية، وان مثاله في عالم الملك هو البيت؛ فكما أن القلب يطوف بالبيت كذلك القلب يطوف بربه، اذ الموازنة بين عالم الملك والملكوت معلومة لمن فتح الله له هذا الباب، والى هذه الموازنة وقعت الاشارة بأن البيت المعمور في السماء بازاء الكعبة، وان طواف الملائكة كطواف الأنس بهذا البيت. ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف، أمروا بالتشبه بهم بحسب الامكان، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم، والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال ان الكعبة تزوره وتطوف به، على ما رواه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله عز وجل.

الثاني عشر: فاعتقد عند الاستلام انك مبايع لله تعالى على طاعته، فصمم عند ذلك على قيامك بالوفاء ببيعتك، فمن غدر في المبايعة استحق المقت؛ ألا ترى إلى ما ورد في الحديث: أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه. وليذكر عند التعلق بأستار الكعبة تعلق المذنب بثياب من أذنب إليه، المتضرع اليه، المظهر أنه لا ملجأ له منه الا إليه، ولا مفزع الا عفوه وكرمه، وانه لا يفارق ذيله الا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل، و يرجو التحصن عن النار في كل جزء يلاقي البيت.

الثالث عشر: ليتذكر عند السعي تردد العبد لفناء دار الملك، جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى: اظهاراً للخلاص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة؛ وليذكر أيضاً تردده بين كفتي الميزان، مردداً بين العذاب والغفران.

الرابع عشر: وليتذكر بالوقوف بعرفات اجتماع الناس يوم الحشر في العرصات مع الأنبياء والأولياء، وطمع كل أمة في شفاعة هؤلاء، وترددهم في الرد والقبول بلوغ كل منهم ما هو المأمول؛ الا أن الموقف لما لم ينفك من الأوتاد والابدال وطبقات الصالحين وأرباب القلوب ــ سيما عند اجتماع القلوب بالضراعة والابتهال ــ وارتفعت أيديهم إلى جنابه، وامتدت أعناقهم نحو بابه، وشخصت أبصارهم نحو السماء، فلا تظنن أن مجيب الدعوات يخيب

آمالهم و يضيع سعيهم، و يدخر عنهم رحمة تغمرهم، ولذلك قيل: ان من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات و يظن أن لن يغفر الله له، اذ لا طريق في استدرار رحمة الله عز وجل، مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد.

الخامس عشر: ليقصد برمي الجمار اظهار العبودية، والانتهاض لمجرد الامتثال، من غير حظ للعقل والنفس، بل يقصد التشبه بابراهيم النبي صلوات الله عليه — حين عرض ابليس في ذلك الموضع، ليدخل على حجته بشبهة، أو يفتنه بمعصية، فأمر الله تعالى أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله. وأن خطر لك أن ذلك رمي لأجل الشيطان، وأما أنا فلا فائدة لي في رميها، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، يصدك بهذا عن امتثال أمر الرحمن، و يلقي في قلبك أن هذا أيضاً هي اللعب؛ فأطرد هذا عن نفسك بالجد في الرمي ترغم بذلك أنف الشيطان، فهو في الصورة رمي الجمار، وفي الحقيقة أرغام أنف الشيطان بامتثال أمر الله تعالى وترك حظ النفس.

السادس عشر: أن تعرف أن الهدى تقرب إلى الله تعالى بامتثال أمره، وارج عند ذبحه أن يعتق بكل جزء منه جزء من أجزاء بدنك بذلك من النار بمقتضى وعده الكريم، فكلما كان الهدى أعظم وأكبر كان الفداء من النار أعم وأعظم.

السابع عشر: اذا وقع بصرك على حيطان المدينة، فأذكر فضيلة هذه البلدة، وانها دار هجرة خير البشر صلى الله عليه وسلم، وفيها تربته المطهرة، وتربة وزيريه القائمين بالحق من بعده. وضع قدمك في تلك البلدة على السكينة والوقار، اذ طالما تشرف بقدم النبي صلى الله عليه وسلم في العشي والأبكار؛ وارج من الله تعالى أن يمنحك رؤيته في دار القرار، كما يسر لك رؤية هذه الديار التي فيها قبره الشريف وقبر أصحابه الكبار. وأذكر عند دخول مسجده أنه أول عرصة أقيمت فيها فرائض الله تعالى، وجمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً، وعظم أملك في أن يرحمك الله عز وجل بسبب دخولك اياها؛ فأدخل خاشعاً ومعظماً وما أجدر هذا المكان تعظيماً يقدر عليه انسان.

الثامن عشر: اذا زار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليعلم أن زيارته ميتاً كزيارته حياً، واذا رأيته حياً فكيف تعظمه. فأقدر ذلك القدر وراعه في حق زيارة قبره، ولا تدن منه كل الدنو، ولا تقبله، بل قف من بعيد ماثلاً بين يديه كما كنت تفعل لو زرته في حياته.

واعلم: أنه صلى الله عليه وسلم عالم بحضورك وقيامك وزيارتك، وأنه يبلغه سلامك وصلاتك، فمثل صورته الكريمة في خيالك موضوعاً في اللحد بازائك، واحضر عظم تربته في قلبك. واذا أتيت منبره، توهم صعوده وطلعته البهية قائماً على المنبر، وقد أحدق به المهاجرون والأنصار، وهو يحثهم في خطبته على طاعة الله تعالى، واسأل الله أن لا يفرق بينك وبينه في القيامة.

التاسع عشر: اذا فرغت من هذه الأعمال، فأخطر بالبال أنك بين خطر رد الأعمال وبشارة قبولها، وتحزن وتخاف على عدم معرفتك بأنك من زمرة المحبوبين؛ أورد حجتك وألحقت بالمطرودين.

العشرون: أن تمتحن قلبك بعد قدومك وطنك، انك أن ازددت تجافياً من دار الغرور الى دار أنس بالله تعالى، أو زدت الفرار من دار الذلة والخسار؛ ووازن أعمالك: فان كان من قبيل الشق الأول دل على القبول، والا فيوشك أن يكون حظك من هذه الأعمال التعب والعناء والنصب والشقاء؛ نعوذ بالله من الحرمان من أن نتسلك في حزب الشيطان.

فعليك بمحاسبة نفسك في كل غدوة وعشية، وتتدارك أمرك من قبل أن تدخل في الذين حيل بينهم وبين ما يشتهون، اذ عند ذلك تعظم الحسرة والخسارة، ولا يمكن التدارك بالتوبة والاستغفار. نبهنا الله تعالى واياكم قبل حلول المنية، ولا يحرمنا بحرمة نبيه عن هذه الأمنية، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وذرياته وأحبابه وسلم تسليماً.

الأصل الثامن

في علم فضيلة الأذكار والتلاوة والأوراد

وفيه مقدمة ومطالب:

المقدمة

اعلم: أن من المقدمات المقررة عند الخواص بل العوام، ان السعادة في لقاء الله الملك العلام، ولا سبيل اليه الا بالحب له والمعرفة وهما لا يحصلان الا بدوام الفكر في صفاته وأفعاله، وأن كل جمال وكمال شعبة من جناب جلاله وحضرة جماله. ثم ان النفس لما ابتليت بمصاحبة هذا البدن ليعينها في بلوغ مطاليه، ولما أحتاج البدن إلى حسن تدبير النفس اياه وتربيته، ولن يسخر اللطيف الكثيف بالاختيار حتى يقاسي رعايته وتربيته: أودع الله سبحانه وتعالى بينهما رابطة الحب لتكون تلك الرابطة واسطة تلك الرعاية.

ثم أن النفس الجاهلة ـ بسبب شوقها إلى البدن ـ ربما تميل إلى شهواته ومقتضياته، فتنسى ما خلقت لأجله من معرفة مبدئه وتدبير معاده. فلا بد لازالة هذا الميل عنها من اختيار التدريج: وذلك التدريج بالذكر، ثم الفكر، ثم الشوق، ثم العزم، ثم قطع العوائق، ثم السلوك إلى المطلب.

ولما كان أصل الكل الذكر المنتج للفكر، وذلك لا يحصل بالقدر اليسير منه لما نازعته الشهوات البدنية لاجرم كان الواجب على الانسان الذكر المستغرق للأوقات، حتى ينتهي إلى الفكر و ينزع النفس عن الشهوات.

ولما كان استغراق الكل متعذراً، واستغراق الأكثر متعسراً، لوجوب المصالح

الضرورية للبدن، وجواز الملاذ المباحة ــ لا جرم لا بد من قانون ينتهي الذكر بذلك القدر إلى الفكر. فمن غلب أوقات ذكره فهو ممن يترجح كفة حسناته؛ وأما من ساوى بينهما فأمره إلى الله، مع أن سعة الرحمة تعظم الرجاء في أمره؛ وأما المستغرق جميع أوقاته، فهؤلاء هم المنتهون الفائزون بالجنان من غير حساب؛ وأما المبتدىء فلا يمكنه ذلك اذ تدخله السآمة والملال، والله تعالى لا يمل حتى تملوا. فلا بد في حقهم من التلطف والتدريج من فن إلى فن، لأن التفنن يروح النفس و يرغبها في الزيادة عليه. فلا بد من بيان أوقات التلاوة والأذكار آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾[1]؛ وقال تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾[2]؛ وقال: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم﴾[3] ثم قال في حق الفائزين: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾[4] وقال الله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات.

المطلب الأول
في علم آداب التلاوة وفضيلتها

لا تخفى على أحد سيما من سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله تعالى»؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: «لو كان القرآن في أهاب ما مسته النار». وكذلك لا يخفى ذم تلاوة الغافلين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه». فلا بد من ذكر آداب ينجو بها من نقيصة الغفلة ورذيلة التقصير.

---

(١) سورة الإنسان، آية: ٢٥.
(٢) سورة ق، آية: ٣٨.
(٣) سورة الطور، آية: ٤٨.
(٤) سورة الذاريات، آية: ١٧.
(٥) سورة السجدة، آية: ١٦.

ثم أن الآداب لها ظاهر و باطن:

والآداب الظاهرة عشرة:

الأول: في حال القارىء. وهو أن يكون على وضوء، و يقرأ على السكون والوقار: أما قائماً أو جالساً، مستقبلاً القبلة، مطرقاً رأسه، غير متربع ولا متكىء؛ ويجلس جلوسه عند الأستاذ. وأفضل أحوال القراءة في الصلاة قائماً و يكون في المسجد، ثم غير متوضىء، ثم المضطجع وان لم يخل عن الفضيلة، ولكن أن قرأ مضطجعا ينبغي أن يضم رجليه.

الثاني: في المقدار. وله مراتب: منهم من يختم في اليوم والليلة مرة أو مرتين، وانتهى بعضهم إلى ثلاث؛ ومنهم من يختم في ثلاث وهذا الوسط وهو الأفضل؛ ومنهم من يختم في أسبوع، وقد فعله كثير من الصحابة كعثمان وزيد ابن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم؛ ومنهم من يختم في كل شهر.

والختم في اليوم والليلة مرة أو مرتين أو مرات مكروه، وفي الشهر مرة مبالغة في الاقتصار، والا حب بينهما؛ الا أن الحق ان القارىء ــ أن كان من العباد ــ يختم في الأسبوع مرة أو مرتين، وان كان من أر باب القلوب، أو ممن اشتغل بنشر العلم، ففي الأسبوع مرة، وان كان نافذ الفكر في معاني القرآن، ففي الشهر مرة لكثرة حاجته الى ترديد الآيات وتكريرها.

الثالث: في القسمة. من قسم القرآن على سبعة: يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة الى المائدة؛ وفي الليلة الثانية بالأنعام إلى هود؛ وفي الثالثة بيوسف إلى مريم؛ وفي الرابعة بطه الى طسم؛ وفي الخامسة بالعنكبوت الى ص؛ وفي السادسة بتنزيل الى الرحمن، وفي السابعة وهي ليلة الخميس يختم.

وقيل: في السبعة الأحزاب الأول ثلاث سور، والثاني خمس، والثالث سبع؛ والرابع تسع؛ والخامس احدى عشرة؛ والسادس ثلاث عشرة؛ والسابع المفصل من ق. وهذه تجزئة الصحابة، وما سوى هذه من الأخماس والعواشر محدث.

الرابع: الكتابة. يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها، فإن ذلك تزيين وصد من الخطأ واللحن. وأما ما نقل من الكراهة فيها وفي أمثالها، لخوفهم من أن يؤدي فتح هذا الباب إلى أحداث زيادات يطرق بها التغيير إلى القرآن. أما الذي نحن عليها فلم يبلغ تلك الدرجة، مع فائدة الأعراب والصون عن اللحن والخطأ، فهذه بدعة حسنة.

الخامس: البكاء. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا». وطريق التباكي: أن يلقى في قلبه الحزن ومنه ينشأ البكاء؛ قال صلى الله عليه وسلم: «أن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا». وطريق التحازن: ان يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والوثائق والعهود، ثم يتأمل تقصيره فيحزن و يبكي لا محالة، فإن لم يحزن بهذه فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك من أعظم المصائب.

السادس: الترتيل. وقد عرفت أن الغرض من الذكر الفكر، والترتيل معين عليه، وبذلك نعتت أم سلمة قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيما اذا كان القارىء أعجمياً لا يفهم المعنى، فانه يستحب له الترتيل والتؤدة، لأن ذلك أقرب الى التوقير والاحترام.

السابع: رعاية حق الآيات. مثل: ان يسجد في مواضعها ولو سمع من غيره، و يسجد على طهارة، و يشترط لها شرائط سجدة الصلاة: من الطهارة واستقبال القبلة وستر العورة.

الثامن: أن يتعوذ قبل القراءة و يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون، و يقرأ سورة قل أعوذ برب الناس وسورة الفاتحة. وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله العظيم وبلغ رسوله، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه، والحمد لله رب العالمين، وأستغفر الله الحي القيوم. واذا مر بآية تسبيح سبّح وكبّر، وان مر بآية استغفار استغفر ودعا، وان مر بآية سؤال سأل، وان مر بآية تخويف استعاذ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول: سبحان الله أعوذ بالله، اللهم ارزقنا، اللهم ارحمنا.

واذا فرغ يدعو بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ختم القرآن وهو: «اللهم ارحمني بالقرآن العظيم، واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله حجة لي يا أرحم الراحمين».

التاسع: وأدنى الجهر في حق الصلاة وترتب الثواب اسماع النفس، ومرتبة اسماع الغير مستحب. وقد تعارضت الأخبار في حق الجهر والأسرار، الا أن الجمع بينهما ان الأسرار أفضل لمن يخاف فيه الرئاء والتصنع، وأما فيمن هو بخلافه فالجهر أفضل، الا أن يشوش وقت مصلٍّ آخر، لأن فيه فوائد كثيرة ليس في الاسرار، لأنه خير متعدد يوقظ القلب، ويجمع الهم إلى الفكر، ويجمع اليه سمعه، و يطرد النوم منه ومن غيره، و يزيد في نشاطه و يقلل من كسله. وقد يبعث نوم الكسلان الى القراءة، فمهما حضر شيء من هذه النيات فالجهر أفضل، وان اجتمع اثنان أو أكثر يضاعف الأجر بقدره.

العاشر: تحسين القراءة من غير تمطيط بغير النظم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «زينوا القرآن بأصواتكم» ـــ وقال: «ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت يتغنى بالقرآن» ـــ وقال: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن وغير ذلك».

المطلب الثاني

في الآداب الباطنة

وهي أيضاً عشرة:

الأول: فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله تعالى ولطفه، حيث انزله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه، مع كونه صفة قديمة قائمة بذاته. ولو استتار كنه جمال كلامه في كسوة الحروف والألفاظ لما ثبت لسماعه عرش ولا ثرى، كما لم يطق الجبل مبادي تجليه حتى صار دكاً، لولا تثبيت الله تعالى موسى لما أطلق سماع كلامه؛ ومثلوا لذلك بتأديب الحيوانات بأصوات دالة على

كلمات لا يفهم الحيوان الا بكسوة أصوات تمكنها تمييزها من النفير والصفير. فالكلام عالي المنزلة، رفيع الدرجة، قاهر السلطان، نافذ الحكم في الحق والباطل؛ وهو القاضي العدل والشاهد المرتضى يأمر و ينهي، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام الحكمة، كالظل مع الشمس، فهو ملك محجوب غائب وجهه ظاهر أمره، وشمس ظاهرة الأضواء وعنصرها مكنون.

الثاني: تعظيم المتكلم؛ بأن يتفكر أن ظاهر الجلد ــ كما أنه محروس عن البشر ما لم يتطهر عن الأحداث والأخباث ــ كذلك معناه محجوب بحكم عزه وجلاله عن باطن القلب، ما لم يتطهر عن الحوادث والأكوان، أو يتنور بنور التعظيم والتوقير، فيعظم الجلد بتعظيم الكلام عن يد غير متطهر، والكلام بتعظيم متكلمه عن لسان غير متطهر عن الكذب والغيبة والبهتان؛ والمتكلم بالتفكر في صفاته وأفعاله بتطهير القلب عن تلوث الحدثان وكدورات الملوان.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس. وهذه الصفة تتولد عن التعظيم: فإن المعظم لأحد يستأنس بكلامه، ويحضر اليه قلبه، ويجمع اليه همه. وكان بعض السلف اذا لم يحضر قلبه عند قراءة سورة أعادها.

الرابع: التدبر. وهو وراء احضار القلب: فانه قد لا يتفكر في غير القرآن، وقد يقتصر على سماع القرآن وهو لا يتدبره؛ والمقصود من القرآن: التدبر، ولذلك سن فيه الترتيل. فإذا لم يتمكن من التدبر فليردد.

وعن أبي ذر: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها: ﴿ان تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[1]؛ وقام سعيد بن جبير بهذه الآية يرددها: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾[2]؛ وعن أبي سليمان الداراني: اني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال، ولولا اني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها؛ وعن بعض السلف: انه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها؛ وقال

---

(١) سورة المائدة، آية: ١١٨.

(٢) سورة يس، آية: ٥١.

بعض العارفين: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، ولي في ختمة ثلاثين سنة ما فرغت منها.

الخامس: التفهم. وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، اذ القرآن مشتمل على ذكر صفات الله تعالى وأفعاله، وأحوال أنبيائه، وأوامره وزواجره، والجنة والنار: فتحت هذه معان مدفونة لا يصل اليها الا الموفقون. ولذلك قال علي رضي الله عنه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب. وقد قيل: لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن ما يريد، ويعرف النقصان من المزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد.

فالغرض مما ذكرناه: التنبيه على طريق التفهم، لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه.

السادس: التخلي عن موانع الفهم لأسباب وحجب سدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

منها: تحقيق مخارج الحروف. وأعظم ضحكة الشيطان: القراء الذين أطاعوا تلبيس الشيطان، الذين يخيل اليهم الشيطان ان الحروف لم تخرج من مخارجها فيصرفهم عن تكشف المعاني؛ بل الحزم في ذلك قدر الاقتصار.

ومنها: التقليد لمذهب مسموع له ويتعصب له، فيحرم من غيره ولو كان حقاً. وان لمع برق الحق على بعد وبدا له، حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد أسلافك الذين كانوا على الحق. وقول الصوفية: العلم حجاب أرادوا به هذا النوع من العلم، لا العلم الحقيقي المؤيد بالبرهان والعيان؛ مثلاً من غلب عليه مذهب التجسيم، ولاحظ معنى القدوس انه منزه عن كل ما يجوز لمخلوقاته، يكر عليه الشيطان ويصده عن ذلك بالتقليد قبل أن يستقر في قلبه.

ومنها: أن يتراكم على مرآة قلبه صدأ المعاصي والشهوات، فلا تنكشف له أسرار الكتاب. ولذلك قال تعالى: ﴿انما يتذكر أولوا

الألباب ﴾[١]؛ وقال تعالى: ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾[٢].

ومنها: **أن يقلد تفسيراً ظاهراً** يروي عن قتادة ومجاهد و يعتقد أن ما وراءه تفسير بالرأي. وهذا أيضاً من أعظم الحجب؛ اذ القرآن لا تنقضي عجائبه. وستعرف التفسير بالرأي ان شاء الله تعالى.

السابع: التخصص. وذلك أن يقدر أن المقصود بكل خطاب في القرآن: من الأمر والنهي والوعد والوعيد، وان القصد من القصص والأخبار ليس الا الاعتبار، وكيف لا والقرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الا لأجله ولأجل أمته عامة.

الثامن: التأثر بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه: من الخوف والحزن والرجاء وغير ذلك. ومن لم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان. وهذه قليل الجدوى. وتلاوة القرآن حق تلاوته: انه يشترك فيه اللسان والعقل والقلب.

فحظ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل؛ وحظ العقل: تفسير المعاني؛ وحظ القلب: الإتعاظ والتأثر، والانزجار والائتمار. فاللسان والعقل ترجمان، والقلب يتعظ. فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط ــ كقوله تعالى: ﴿وأني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[٣]. ــ يتضاءل خضوعاً من خيفته حتى كأنه يموت. ومنهم من مات عند سماع آية الوعيد، ومنهم من خر مغشياً عليه؛ وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح؛ وعند ذكر صفات الله تعالى وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته؛ وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله تعالى: كذكرهم لله سبحانه ولداً وصاحبة،

---

(١) سورة الزمر، آية: ٩.

(٢) سورة ق، آية: ٨.

(٣) سورة طه، آية: ٨٢.

يغض صوته وينكسر في باطنه، حياء من قبح مقالتهم؛ وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً اليها؛ وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً.

التاسع: التوقي إلى أن يسمح الكلام من الله عز وجل. فدرجات القراءة ثلاثة: أدناها: ان يقدر العبد نفسه كأنه ماثل بين يدي مولاه، وهو مستمع منه، فيقرأه بالتملق والتضرع والابتهال؛ وأوسطها: أن يشهد بقلبه كأن ربه يخاطبه بألطافه ويناجيه بأنعامه، فقامه عند هذا الحياء والتعظيم والاصغاء والفهم، وهذه درجة أصحاب اليمين؛ وأعلاها: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، ويكون مقصوراً لهم على المتكلم كأنه مستغرق بمشاهدته عن غيره، وهذه درجة المقربين. وفي مثل هذه الحالة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة.

العاشر: التبري من حوله وقوته. وأن يشاهد نفسه بعين الرضا والالتفات اليها بالتزكية؛ فإذا تلا آيات الوعد يشهد بذلك للموقنين، ولا يرى نفسه أهلا لها، بل يتشوق أن يلحقه الله بهم؛ واذا تلا آيات المقت وذم العصاة، شهد نفسه هناك، وقدر نفسه المخاطب خوفاً واشفاقاً؛ ثم رؤيته نفسه بصورة التقصير، يكون سبب قربه إلى أن يجاوز حد الالتفات الى نفسه، ولم يشاهد الا الله تعالى في قراءته، فحينئذ انكشف له الملك والملكوت؛ وحيث يتلو آيات الرجاء، ويغلب على حاله الاستبشار، تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها عياناً، وعلى هذا الحال آيات الخوف اذ حينئذ كوشفت له الناس عياناً.

المطلب الثالث

في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

لعلك بالبال ان ما ذكرت من المعاني يرجع الى التفسير بالرأي، وأنه مما أنكر عليه الشرع، حتى شنع العلماء على أهل التصوف في تأويل كلمات القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين، وذهبوا الى أنه كفر صريح.

فاعلم: أنه لا يجوز التهاون بالتفسير الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول الى الباطن قبل احكام الظاهر، وهذا أمر اتفاقي. وانما الخلاف في أن وراءه معاني أخر يفهمها من أعطى فهمه أم لا؛ والحق جواز ذلك عقلاً ونقلاً.

أما نقلاً: فقوله صلى الله عليه وسلم: «أن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً»؛ وقال علي رضي الله عنه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب؛ وقوله أيضاً: الا أن يؤتى الله عبداً فهماً في القرآن. ومعلوم أن تلك البطون والحد لم تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أيضاً أن وقر سبعين بعيراً في الفاتحة لم يمكن بالنقل، وكذا ما يؤتى الله عبداً فهما خارج عن النقل، فظهر أن في القرآن معاني كثيرة وراء النقل. ومثال هذه الأخبار والآثار كثيرة.

وأما عقلاً: فهو أن النهي عن التفسير بالرأي: أما لحمله على معتقده الباطل وهواه؛ وأما بأن يعتقد على ذلك جهلاً، أو يعتقد على خلافه لكن يلبس على خصمه؛ وأما أن يفسره على ظاهر العربية، من غير نقل وسماع فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير؛ فمن خلص فهمه عن هذه الآفات لا يشغله الوعيد المذكور، ثم من يؤيد فهمه بنور الكشف والشهود فذلك ما أشار اليه ابن عباس: من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن. ولعلك سمعت فيما سبق ما يفتح عليك الاشكال المذكورة، والله ولي التوفيق في كل الأمور.

ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار القرآن وما يرتبط بمقدماتها ولواحقها، لأنقطع العمر قبل استيفائها، وما من كلمة في القرآن الا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك، وانما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم، وتوفير دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة منه، وأما الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مداداً والاشجار أقلاماً لنفد البحر قبل أن تنفد أسرار القرآن.

المطلب الرابع
في علم الأذكار

من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة والاستغفار. وفيه أنواع:

النوع الأول: فضيلة الأذكار. قال تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾ [1]؛ وقال: ﴿أذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ [2]؛ وقال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [3]؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: اذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، واذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه، واذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، واذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، واذا مشى إليَّ هرولت إليه»؛ أي: أسرعت اجابته؛ وقال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله». وذكر من جملتهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

النوع الثاني: فضيلة التسبيح والتحميد. قال صلى الله عليه وسلم: «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبر ثلاثاً وثلاثين، وختم المائة بلا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر».

روى أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي، فقال صلى الله عليه وسلم: فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون، قال: فقلت: وماذا يا رسول الله، قال: قل سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، استغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح، تأتيك الدنيا راغمة صاغرة، ويخلق الله تعالى من كل كلمة ملكاً يسبح الله تعالى الى يوم القيامة لك ثوابه. وقال: «ما على

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ١.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

الأرض رجل يقول: لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله، الا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر». وقال «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان الى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». وقال: «يا عبد الله بن قيس، أو يا أبا موسى: أو لا أدلك على كنز من كنوز الجنة، قال بلى، قال: قل: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

وقال: «من قال حين يصبح: رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، كان حقاً على الله تعالى أن يرضيه يوم القيامة».

قال مجاهد: اذا خرج الرجل من بيته وقال: بسم الله، قال الملك: هديت، فإذا قال: توكلت على الله، قال الملك: كفيت، فإذا قال: لا حول ولا قوة الا بالله، قال الملك: وقيت. فتتفرق الشياطين فيقولون: لا سبيل لكم عليه، قد هدى وكفى ووقي.

النوع الثالث: فضيلة التهليل. قال صلى الله عليه وسلم: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا اله الا الله وحده لا شريك له».

وقال: «من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير — في كل يوم مائة مرة، كان له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكان له حرز من الشيطان يومه حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل ما جاء به الا أحد عمل أكثر من ذلك».

وقال: «ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء، ثم رفع طرفه الى السماء فقال: أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء».

وقال: «من تعار من الليل فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم أغفر لي، أو دعا أستجيب له، وان توضأ وصلى قبلت صلاته.

النوع الرابع: فضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عيه وسلموا تسليماً﴾[1]. وروى أنه صلى الله عيه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه، فقال صلى الله عليه وسلم: «جاءني جبريل فقال: أما ترضى يا محمد أنه لا يصلي عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشراً». وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى علي صلت عليه الملائكة ما صلى علي، فيقلل عبد من ذلك أو ليكثر». وقال صلى الله عليه وسلم: «ان أولى الناس بي أكثرهم علي صلاة». وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى علي من أمتي كتب له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات». وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب». وقال: «من قال حين يسمع الآذان والاقامة: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة، حلت له شفاعتي» وقال صلى الله عليه وسلم: «ليس أحد يسلم علي الا رد الله على روحي حتى أرد عيـه»

وقيل: يا رسول الله، كيف نصلي عليك، فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد».

النوع الخامس: فضيلة الاستغفار. قال الله عز وجل: ﴿والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً﴾[3] وقال صلى الله عليه وسلم: «من أكثر الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وكان صلى الله عليه وسلم يكثر الاستغفار، يقول: «سبحانك اللهم

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٦.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٥
(٣) سورة النصر، آية: ٣.

وبحمدك، اللهم أغفر لي أنك أنت التواب الرحيم». وقال صلى الله عليه وسلم: «من قال حين يأوي الى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو الحي القيوم أستغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو الحي القيوم ـ ثلاث مرات؛ غفر الله ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر، أو رمل عالج، أو عدد ورق الشجر، أو عدد أيام الدنيا». وقال في حديث آخر: «من قال ذلك غفرت ذنوبه وان كان فاراً من الزحف».

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الاستغفار: «اللهم أغفر لي خطيئتي وجهلي واسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم أغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير. وقال: «من قال: سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً، فأغفر لي، انه لا يغفر الذنوب الا أنت ـ غفرت ذنوبه ولو كانت كمدب النمل».

وروى أن أفضل الاستغفار: اللهم أنت ربي وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء اليك بنعمتك علي، وأبوء على نفسي بذنبي، فقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فأغفر لي ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت، انه لا يغفر الذنوب جميعاً الا أنت.

المطلب الخامس

في أدعية مأثورة معزية إلى أربابها يدعى بها صباحاً ومساء

ومنها: دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي الفجر. قال ابن عباس: بعثني العباس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته ممسياً وهو في بيت خالتي ميمونة، فقام يصلي من الليل، فلما صلى ركعتين قبل صلاة الفجر قال: «اللهم أني أسألك رحمة من عندك، تهدى بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي، وترد بها إلفتي، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي،

وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء؛ اللهم أعطني إيماناً صادقاً ويقيناً ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة؛ اللهم أني أسألك الفوز عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، وللنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء؛ اللهم اني أنزل بك حاجتي وان ضعف رأيي وقصر عملي وافتقرت الى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور وفتنة القبور؛ اللهم ما قصر عنه رأيي، وضعف عنه عملي، ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحداً من عبادك وخير أنت معطيه أحداً من خلقك، فإني أرغب اليك فيه وأسألكه يا رب العالمين؛ اللهم أجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين، حرباً لأعدائك وسلماً لأوليائك، نحب بحبك الناس ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك؛ اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة، وهذ الجهد وعليك التكلان، وانا لله وانا اليه راجعون، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ذي الحبل الشديد والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة دار الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، والموفين بالعهود، انك رؤوف ودود، أنت تفعل ما تريد، سبحان الذي تعطف بالعز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح الا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي العزة والكرم، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه؛ اللهم اجعل لي نوراً في قلبي، ونوراً في قبري، ونوراً في سمعي، ونوراً في بصري، ونوراً في لحمي، ونوراً في دمي، ونوراً في عظامي، ونوراً من بين يدي، ونوراً من خلفي، ونوراً عن يميني، ونوراً عن شمالي، ونوراً من فوقي، ونوراً من تحتي؛ اللهم زدني نوراً وأعطني نوراً وأجعل لي نوراً».

ومنها: دعاء عائشة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة: «عليك بالجوامع الكوامل، قولي: اللهم اني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب

اليها من قول وعمل، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم، وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين».

ومنها: دعاء فاطمة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا فاطمة، ما يمنعك أن تسمعي ما أوصي به، ان تقولي: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، لا تكلني الى نفسي طرفة عين وأصلح شأني كله».

ومنها: دعاء أبي بكر الصديق. علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اني أسألك بمحمد نبيك وابراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك وروحك، وبتوراة موسى وانجيل عيسى وزبور داود وقرآن محمد صلى الله عليه وسلم، وبكل وحي أوحيته وقضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غني أقنيته أو فقيراً غنيته أو ضال هديته، وأسألك بآسمك الذي أنزلته على موسى، وأسألك باسمك الذي تثبت به أرزاق العباد، وأسألك بآسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت، وأسألك بآسمك الذي وضعته على السموات فاستقلت، وأسألك بآسمك الذي وضعته على الجبال فرست، وأسألك بآسمك الذي استقل به عرشك، وأسألك بآسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر، الذي وضعته على النهار فآستنار، وعلى الليل فأظلم، وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك، أن ترزقني القرآن والعلم، وتخلطه بلحمي ودمي وسمعي وبصري، وتستعمل به جسدي بحولك وقوتك، فأنه لا حول ولا قوة الا بك يا أرحم الراحمين».

ومنها: دعاء بريدة الأسلمي. روى أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بريدة، ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمه اياها ثم لا ينسيهن اياها أبداً، قال: فقلت: بلى يا رسول الله، قال يقل: اللهم أني ضعيف فقو في رضاك ضعفي، وخذ الى الخير بناصيتي، واجعل الإسلام منتهى رضاي؛ اللهم اني ضعيف فقوني، وأني ذليل فأعزني، وأني فقير فأغنني».

ومنها: دعاء قبيصة بن المخارق، اذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: علمني كلمات ينفعني الله عز وجل بها، فقد كبر سني وعجزت عن أشياء كنت أعملها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما لدنياك فإذا صليت الغداة فقل: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، لا حول ولا قوة الا بالله، فانك اذا قلتهن أمنت من الغم والجذام والبرص والفالج؛ وأما لآخرتك فقل: اللهم أهدني من عندك، وأفض علي من فضلك، وانشر علي من رحمتك، وأنزل علي من بركاتك». ثم قال صلى الله عليه وسلم: «أما أنه اذا وافى بهن يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة».

ومنها: دعاء ابي الدرداء. قيل له: قد احترقت دارك ــ وكانت النار في محلته ــ فقال: ما كان الله ليفعل ذلك، فقيل له ذلك ثلاثاً، فقال ما كان الله ليفعل ذلك؛ ثم أتاه آت فقال: ان النار لما دنت من دارك طفئت، قال: قد علمت، فقيل له: ما تدري أي قوليك أعجب، قال: اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قال هؤلاء الكلمات في ليل أو نهار لم يضره شيء، وقد قلتهن، وهي هذه: اللهم أنت ربي لا اله الا أنت، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، اللهم أني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم.

وروى عن أبي الدرداء أنه قال: من قال كل يوم سبع مرات: ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾[1] كفاه الله ما أهمه من أمر آخرته صادقاً كان بها أو كاذباً.

ومنها: دعاء ابراهيم الخليل عليه السلام. كان يقول اذا أصبح: اللهم هذا خلق جديد فأفتحه لي بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك، وأرزقني حسنة تقبلها وزكها وضاعفها لي، وما عملت فيه من سيئة فأغفرها لي أنك غفور رحيم ودود كريم. قيل: من دعا بهذا الدعاء اذا أصبح فقد أدى شكر يومه.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٩

ومنها: دعاء عيسى عليه السلام. كان يقول: اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجوه، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهناً بعملي، فلا فقير أفقر مني؛ اللهم لا تشمت بي عدوي، ولا تسؤ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلط علي من لا يرحمني.

ومنها: دعاء الخضر عليه السلام. يقال: ان الخضر والياس عليهما السلام اذا التقيا في كل موسم لم يفترقا الا عن هذه الكلمات: بسم الله ما شاء الله لا قوة الا بالله، ما شاء الله كل نعمة فمن الله ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله. من قالها ثلاثاً اذا أصبح أمن من الغرق والحرق والسرق.

ومنها: دعاء معروف الكرخي. قال محمد بن حسان: قال لي معروف الكرخي: ألا أعلمك عشر كلمات ـ خمس للدنيا وخمس للآخرة ـ من دعا الله عز وجل بهن وجد الله تعالى عندهن، قلت: أكتبها لي، قال: لا، ولكن أرددها عليك كما رددها عليَّ بكر بن خنيس: حسبي الله الحليم القوى لمن بغى علي، حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء، حسبي الله الرحيم عند الموت، حسبي الله الرؤوف عند المسألة في القبر، حسبي الله الكريم عند الحساب، حسبي الله اللطيف عند الميزان، حسبي الله القوي عند الصراط، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

ومنها: دعاء عتبة الغلام. وقد رئي في المنام فقال: دخلت الجنة بهذه الكلمات: اللهم يا هادي المضلين، وراحم المذنبين، ومقيل عثرات العاثرين، أرحم عبدك ذا الخطر العظيم، والمسلمين كلهم أجمعين، وأجعلنا من الأحياء المرزوقين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين يا رب العالمين.

ومنها: دعاء آدم عليه السلام. قالت عائشة: لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم عليه السلام، طاف بالبيت سبعاً ـ وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء ـ ثم قام فصلى ركعتين، ثم قال: اللهم انك تعلم سري وعلانيتي فأقبل

معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فأغفر لي ذنوبي، اللهم اني أسألك ايماناً يباشر قلبي، و يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني الا ما كتبته علي، ورضني بما قسمته لي. فأوحى الله عز وجل اليه: اني قد غفرت لك، ولن يأتيني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذي دعوتني به الا غفرت له ذنوبه، وكشفت غمومه وهمومه، ونزعت الفقر من بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وجاءته الدنيا راغمة وان كان لا يريدها.

ومنها: دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ان الله عز وجل يمجد نفسه كل يوم و يقول: اني أنا الله رب العالمين، أني أنا الله لا اله الا أنا الحي القيوم، اني أنا الله لا اله الا أنا العلي العظيم، اني أنا الله لا اله الا أنا لم ألد ولم أولد، اني أنا الله لا اله الا أنا الغفور مبدىء كل شيء والي يعود، اني أنا الله لا اله الا أنا العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، خالق الخير والشر، خالق الجنة والنار، الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد، الفرد الوتر، عالم الغيب والشهادة، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الكبير المتعال المقتدر القهار الحكيم الكريم، أهل الثناء والمجد، أعلم السر وأخفى، القادر الرزاق للخلق والخليقة. وذكر قبل كل كلمة: اني أنا الله لا اله الا أنا كما أوردنا في الأول. فمن دعا بهذه الأسماء فليقل: انك أنت الله لا اله الا أنت كذا وكذا. فمن دعا بها كتب من الساجدين المخبتين، الذين يجاورون محمداً وابراهيم وموسى وعيسى والنبيين في دار الجلال، وله ثواب العابدين في السموات والأرضين.

ومنها: دعاء أبي المعتمر سليمان التيمي وتسبيحاته. روى أن يونس بن عبيد رأى رجلاً في المنام ممن قتل شهيداً ببلاد الروم، فقال: ما أفضل ما رأيت من الأعمال، قال: رأيت تسبيحات أبي المعتمر من الله بمكان، وهي هذه: سبحان الله، والحمد لله، ولا اله الا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، عدد ما خلق، وعدد ما هو خالق، وزنة ما خلق، وزنة ما هو خالق، وملء ما خلق، وملء ما هو خالق، وملء سمواته وأرضه، ومثل ذلك

وأضعاف ذلك، وعدد خلقه، وزنة عرشه، ومنتهى رحمته، ومداد كلماته، ومبلغ رضاه، وحتى يرضى، واذا رضي، وعدد ما ذكره به خلقه في جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروه في ما بقي في كل سنة وشهر وجمعة و يوم وليلة وساعة من الساعات ونسم ونفس، من أبد إلى الأبد، أبد الدنيا وأبد الآخرة، وأكثر من ذلك لا ينقطع أولاه ولا ينفد أخراه.

ومنها: دعاء ابراهيم بن ادهم. روى ابراهيم بن بشار خادمه انه كان يقول هذا الدعاء ــ اذا أصبح واذا أمسى: مرحباً بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب الشهيد، يومنا هذا يوم عيد، اكتبا لنا ما نقول: بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال في خلقه ما يريد، أصبحت بالله مؤمناً، وبلقائه مصدقاً، وبحجته معترفاً، ومن ذنبي مستغفراً، ولربوبية الله عز وجل خاضعاً، ولسوى الله عز وجل في الالهية جاحداً، والى الله سبحانه وتعالى فقيراً، وعلى الله متوكلاً، وإلى الله عز وجل منيباً، أشهد الله وأشهد ملائكته ورسله وحملة عرشه ومن خلقه وما هو خالقه بأنه هو الله لا اله الا هو وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً، وأن الجنة حق، وأن النار حق، والحوض والشفاعة حق، ومنكراً ونكيراً حق، ووعدك حق، ولقاءك حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور، على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث ان شاء الله؛ اللهم أنت ربي لا رب لي الا أنت، خلقتني وأنا عبدك على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك اللهم من شر كل ذي شر؛ اللهم اني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب الا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها الا أنت، وأصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها الا أنت، لبيك وسعديك، الخير كله بيديك، انا لك واليك، أستغفرك وأتوب اليك، آمنت اللهم بما أرسلت من رسول، وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً خاتم كلامي ومفتاحه، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين، آمين يا رب العالمين؛ اللهم أوردنا حوضه، واسقنا بكأسه مشرباً روياً سائغاً هنيئاً لا نظمأ بعده أبداً، واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا ناكثين ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب

علينا ولا ضالين؛ اللهم أعصمني من فتن الدنيا، ووفقني لما تحب وترضى، وأصلح لي شأني كله، وثبتني في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا تضلني وان كنت ظالماً، سبحانك سبحانك يا علي يا عظيم يا رب يا رحيم يا عزيز يا حنان، سبحان من سبحت له السموات بأكنافها، وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها، وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراقها، وسبحان من سبحت له الشجر بأصولها ونضارتها، وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن، سبحانك يا حي يا حليم سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، تحيي وتميت وأنت حي لا تموت، بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير.

المطلب السادس

في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم والآل والأصحاب

محذوفة الأسانيد مما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن المنذر على ما روى الغزالي في الأحياء.

وأعلم: أن من أراد حرث الآخرة لا بد له من الذكر كما بيناه. ومن أفضل الأذكار والدعوات المأثورة عن الأخبار، فقل في مفتتح دعواتك أعقاب صلواتك: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب، لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وقل: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ثلاث مرات.

وقل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد ان لا اله الا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه.

وقل: اللهم اني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي؛ اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، وأقل عثراتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي؛ اللهم لا تؤمني مكرك، ولا تولني غيرك، ولا تنزع عني سترك ولا تنسني ذكرك، ولا تجعلني من الغافلين.

وقل: اللهم أنت ربي لا اله الا أنت، خلقتني وأنا عبدك على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فأغفر لي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت.

وقل: اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا اله الا أنت ـــ ثلاث مرات.

وقل: اللهم أني أسألك الرضا بالقضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر الى وجهك، وشوقاً إلى لقائك، من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أُظلم أو أعتدي أو يعتدى علي أو اكتسب خطيئة أو ذنباً لا تغفره؛ اللهم اني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم فأنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، أغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، فأنك أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد؛ اللهم أني أسألك ايماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد وقرة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد، اللهم أني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقربني إلى حبك، وأن تتوب علي وتغفر لي وترحمني، واذا أردت أن تقوم فتنة فأقبضني اليك غير مفتون؛ اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيراً لي، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، ولذة النظر إلى وجهك

والشوق الى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان وأجعلنا هداة مهديين، اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا؛ اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك خوفاً، وأسكن في نفوسنا من عظمتك، وذلل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحب الينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك ممن سواك؛ اللهم أجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة؛ الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لعزته، وخضع كل شيء لملكه، واستسلم كل شيء لقدرته، الحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته، وأظهر كل شيء بحكمته، وتصاغر كل شيء لكبريائه؛ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، وبارك على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم في العالمين أنك حميد مجيد؛ اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسول الأمين وأعطه المقام المحمود يوم الدين؛ اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين، واستعملنا بما يرضيك عنا، ووفقنا لمحابك منا، وصرفنا بحسن اختيارك لنا، نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه، ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه؛ اللهم بقدرتك على تب على انك أنت التواب الرحيم، وبحلمك عني أعف عني أنك أنت الغفار، وبعلمك بي أغفر لي أنك أنت الرحمن، وبملكك لي ملكني نفسي ولا تسلطها علي أنك أنت الملك الجبار، سبحانك وبحمدك لا اله الا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي فأغفر لي ذنبي أنك أنت ربي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت؛ اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي؛ اللهم أرزقني رزقاً حلالاً لا تعاقبني عليه، وقنعني بما رزقتني واستعملني به صالحاً تقبله مني، أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة، يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينفعك، افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين، وتوفني مسلماً والحقني بالصالحين، انت ولينا فأغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين

كفروا وأغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم، ربنا أغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فأغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد، ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فأنصرنا على القوم الكافرين، رب أغفر لي ولوالدي وأرحمهما كما ربياني صغيراً، واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، رب أغفر وأرحم وتجاوز عما تعلم فأنت الأعز الأكرم. وأنت خير الراحمين وخير الغافرين وانا لله وانا إليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أنواع الاستعاذة
المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

اللهم أني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر؛ اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع وطمع من غير طمع ومن طمع حين لا مطمع؛ اللهم اني أني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع، ومن الجوع فأنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فأنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن، ومن الهرم ومن أن أرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات؛ اللهم انا نسألك قلوباً أواهة مخبتة متيبة في سبيلك؛ اللهم أنا نسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك، والسلامة من كل اثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة والنجاة من النار؛

اللهم اني أعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الهم والغرق والهرم، وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك من أن أموت في طلب دنيا؛ اللهم أني أعوذ بك من شر ما علمت وما لم أعلم؛ اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال وادواء والأهواء؛ اللهم اني أعوذ بك من جهد البلاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء؛ اللهم أني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من فتنة الدجال؛ اللهم أني أعوذ بك من شر سمعي وبصري ومن شر لساني وقلبي وسوء ظني؛ اللهم أني أعوذ بك من جار السوء في دار البقاء فإن جار البادية يتحول؛ اللهم أني أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرئاء، وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام؛ اللهم اني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك، ومن فجاءة نقمتك ومن جميع سخطك؛ اللهم اني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار، ومن عذاب القبر وفتنة القبر، وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر، وشر فتنة المسيخ الدجال، وأعوذ بك من المغرم والمأثم؛ اللهم أني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب؛ اللهم أني أعوذ بك من شر العمر ومن ضيق الصدر؛ اللهم اني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء.

المطلب السابع
في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث

منها: دعاء الخروج الى المسجد. اللهم أجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، وأجعل خلفي نوراً وأمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، اللهم أعطني نوراً.

وقل: اللهم أني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا اليك، لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رئاء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء

مرضاتك، فأسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي فأنه لا يغفر الذنوب الا أنت.

وان خرجت من المنزل لحاجة فقل: بسم الله أعوذ بك أن أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل عليَّ، بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم التكلان على الله.

فإذا انتهيت الى المسجد تريد دخوله فقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم، اللهم أغفر جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك. وقدم رجلك اليمنى في الدخول، فإذا رأيت في المسجد من يبيع أو يبتاع فقل: لا أربح الله تجارتك. واذا رأيت من ينشد ضالة في المسجد فقل: لا رد عليك. أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنها دعاء بعد ركعتي الصبح. اللهم أني أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبي.. الدعاء الى آخر قد مر فيما سبق.

ومنها: دعاء الركوع. اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت، انت ربي خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي، وما استقلت به قدمي لله رب العالمين. وان أحببت فقل: سبحان ربي العظيم ثلاثاً، أو: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد، كلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

فإذا سجدت فقل: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين؛ اللهم سجد لك سوادي وخيالي وبك آمن فؤادي، أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي، وهذا ما جنيت على نفسي فأغفر لي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت. أو تقول: سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات.

فإذا فرغت من الصلاة فقل: انت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والاكرام.

وتدعو بسائر الأدعية التي ذكرناها هذا عند الشافعي. وأما عند أبي حنيفة فلا يزيد في الركوع على أن يقول: سبحان ربي العظيم، ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً أو تسعاً؛ وفي السجود على أن يقول: سبحان ربي الأعلى كذلك.

ومنها: دعاء كفارة المجاس. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا اله الا أنت، أستغفرك وأتوب اليك، عملت سوءاً وظلمت نفسي فأغفر لي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت.

منها: دعاء دخول السوق. لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير؛ بسم الله الرحمن لرحيم، اللهم أني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها؛ اللهم أني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها؛ اللهم اني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة..

ومنها: دعاء الدين. اللهم اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك.

ومنها: دعاء عند لبس الثوب الجديد. اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له.

ومنها: دعاء عند التطير. اللهم لا يأتي بالحسنات الا أنت، ولا يذهب بالسيآت الا أنت، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

ومنها: دعاء عند رؤية الهلال. اللهم أهله علينا بالأمن والسلامة والإسلام ربي وربك الله؛ ويقول: هلال رشد وخير، آمنت بخالقك، اللهم اني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر؛ ويكبر قبل الدعاء أولاً ثلاثاً.

ومنها: دعاء هبوب الريح. اللهم أني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به.

ومنها: دعاء اذا بلغك وفاة أحد. انا لله وانا اليه راجعون وانا إلى ربنا لمنقلبون؛ اللهم اكتبه من المحسنين، واجعل كتابه في عليين، واخلف على عقبه في الغابرين؛ اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده.

ومنها: دعاء اذا تصدقت بصدقة. ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم.

ومنها: دعاء عند الخسران. عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها انا إلى ربنا راغبون.

ومنها: دعاء عند ابتداء الأمور. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهـيء لنا من أمرنا رشداً، رب أشرح لي صدري ويسر لي أمري.

ومنها: دعاء عند النظر إلى السماء. ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار، تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

ومنها: دعاء عند صوت الرعد. سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته.

ومنها: دعاء عند رؤية الصواعق. اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك.

ومنها: دعاء عند المطر. اللهم سيبا هنيئاً وصيبا نافعاً اللهم أجعله سيب رحمة ولا تجعله سيب عذاب.

ومنها: دعاء عند الغضب. اللهم أغفر ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم.

ومنها: دعاء عند الخوف من قوم. اللهم أنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.

ومنها: دعاء عند الغزاة. اللهم أنت عضدي ونصيري و بك أقاتل.

ومنها: دعاء طنين الآذان. صل أولاً على محمد صلى الله عليه وسلم وقل: ذكر الله من ذكرني.

ومنها: دعاء اذا استجيبت دعوتك. الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات، واذا أبطأت استجابة دعوتك فقل: الحمد لله على كل حال.

ومنها: دعاء عند آذان المغرب. اللهم هذا استقبال ليلك وادبار نهارك، وأصوات دعاتك وحضور صلواتك، أسألك أن تغفر لي.

ومنها: دعاء اذا أصابك هم. اللهم اني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك نافذ في قضائك، أسألك بكل أسم سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو أعطيته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء غمي وذهاب حزني وهمي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أصاب أحداً حزن فقال هذا الا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكانه فرحاً» فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها، فقال صلى الله عليه وسلم: «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها».

ومنها: دعاء اذا وجدت وجعاً في جسدك أو جسد غيرك، فارق برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان صلى الله عليه وسلم اذا أشتكى انسان قرحة أو جرحاً وضع سبابته في فيه وجعلها على الأرض، ثم رفعها وقال: «بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا باذن ربنا» واذا وقع في جسدك، فضع يدك على الذي يألم من جسدك، وقل: بسم الله، ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر.

ومنها دعاء اذا أصابك كرب. لا إله الا الله العلي الحكيم، لا اله الا الله رب العرش العظيم، لا اله الا الله رب السموات والأرض والعرش الكريم.

ومنها: دعاء عند النوم. فتوضأ أولاً، ثم توسد يمينك مستقبل القبلة، ثم كبر الله أربعاً وثلاثين، وسبحه ثلاثاً وثلاثين، واحمده ثلاثاً وثلاثين، ثم قل: اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك؛ اللهم لا أستطيع ان أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك؛ اللهم باسمك أحيا وأموت؛ اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء، فألق الحب والنوى، ومنزل التوراة والانجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر، ومن شر كل دابة ربي آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر؛ اللهم انك خلقت نفسي وأنت تتوفاها، لك مماتها ومحياها، اللهم ان أمتها فأغفر لها وان أحييتها فأحفظها؛ اللهم اني أسألك العافية، بأسمك ربي وضعت جنبي فأغفر لي ذنبي؛ اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك؛ اللهم أسلمت نفسي اليك، وفوضت أمري اليك، والجأت ظهري اليك رغبة ورهبة اليك، لا منجا ولا ملجأ منك الا اليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت. و يكون هذا آخر دعائك فقد أمر صلى الله عليه وسلم بذلك. وليقل قبل ذلك: اللهم أيقظني في أحب الساعات اليك، واستعملني بأحب الأعمال لديك، وتقربني اليك زلفى، وتباعدني من سخطك بعداً، أسألك فتعطيني، وأستغفرك فتغفر لي، وأدعوك فتستجيب لي.

ومنها: دعاء يدعى به عند الصباح اذا استيقظت من نومك، الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور، أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله، أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الاخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وملة أبينا ابراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين؛ اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور؛ اللهم انا نسألك أن تبعثنا في هذا اليوم الى كل خير، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً ونجره إلى مسلم، فإنك قلت وقولك الحق: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل و يعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل

مسمى﴾[1]؛ اللهم فالق الاصباح، وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه، بسم الله ما شاء الله لا قوة الا بالله، ما شاء الله كل نعمة فمن الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله، رضيت الله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، ربنا توكلنا واليك أنبنا واليك المصير.

ومنها: دعاء يقوله اذا أمسى. يقول الدعاء المذكور، الا أنه يقول: أمسينا، ويقول مع ذلك: أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ، ومن شر كل ذي شر، ومن شر كل دابة ربي آخذ بناصيتها، ان ربي على صراط مستقيم.

ومنها: اذا نظرت في المرآة: الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله، وكرم صورة وجهي وحسنها، وأجعلني من المسلمين.

ومنها: دعاء اذا اشترى خادماً أو غلاماً أو دابة، فخذ بناصيته وقل: اللهم اني أسألك خيره وخير ما جبل عليه، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه.

ومنها: دعاء اذا هنأت بالنكاح. بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير.

ومنها: دعاء اذا قضيت الدين، فقل للمقضي له: بارك الله لك في أهلك ومالك، انما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انما جزاء السلف الحمد والأداء».

فهذه أدعية لا يستغنى سالك سبيل الآخرة عن حفظها، وما سوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرنا ذلك كله في كتاب الطهارة والصلاة والحج.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٠.

المطلب الثامن
في أدعية مأثورة

رواها الشيخ العلامة تاج الدين عبد الوهاب السبكي، نقلتها من نسخة منقولة من نسخة منقولة من نسخة منقولة ثلاثاً من خط السبكي المذكور، ذكر ذلك في آخر طبقاته الكبرى، روح الله روحه.

عن وهب بن منبه: إن ابن عباس — رضي الله عنهما قال له: تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء مستجاباً تدعو به عند الكرب، قال: نعم، قال: اللهم اني أسألك يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمائر الصامتين، فإن لكل مسألة منك جواباً حاضراً عتيداً، ولكل صامت منك علماً محيطاً باطناً، مواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة، أن تفعل بي كذا وكذا. فقال ابن عباس: هذا دعاء علمته في المنام ما كنت أرى ان أحداً يحسنه.

وعن أبي خالد: ان العذاب لما هبط على قوم يونس، وجعل يحوم على رؤوسهم مثل قطع الليل المظلم، ومشى ذوو العقول منهم الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: انا نزل بنا ما ترى فعلمنا دعاء ندعو به عسى الله عز وجل أن يرفع عنا عقوبته، فقال: قولوا: يا حي حين لا حي، تحيي الموتى يا حي، لا اله الا أنت. فكشف الله عز وجل عنهم.

وعن ابن عباس: ان علياً رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم — يعني شيئاً من الدنيا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، والذي بعثني بالحق نبياً يا علي ما عندي لا قليل ولا كثير، لكني أعلمك شيئاً أتاني به جبريل عليه السلام فقال: يا محمد هذه هدية من الله عز وجل لم يعطها أحداً من الأنبياء قبلك، وهي تسعة عشر حرفاً لا يدعو بها ملهوف ولا مكروب ولا محزون، ولا سرق ولا حرق، ولا عبد خاف سلطاناً الا فرج الله عنه، أربعة منها مكتوبة على جبهة جبريل عليه السلام، وأربعة مكتوبة حول العرش، وأربعة حول الكرسي، قال: فكيف أدعو بها يا نبي الله، قال: قل: يا عماد من لا عماد له، يا سند من لا سند له، يا ذخر من لا ذخر له، يا حرز

من لا حرز له، يا غياث من لا غياث له، يا كريم العفو، يا حسن البلاء، يا عظيم الرجاء، يا عون الضعفاء، يا منقذ الغرقى، يا منجي الهلكى، يا محسن يا مجمل يا منعم يا متفضل، أنت الذي سجد لك سواد الليل ونور النهار وضوء القمر وشعاع الشمس ودوي الماء وحفيف الشجر، يا الله لا شريك لك يا رب يا رب؛ ثم تدعو بحاجتك وبما بك لا تقوم من مقامك حتى يستجاب لك.

عن عبد الله بن أيوب قال ليعقوب بن داود في الطواف: قلت له: أحب أن تخبرني كيف كان سبب خروجك من المضيق، قال: كنت في المضيق فأتى آت في منامي قال لي: يا يعقوب كيف ترى مكانك، فقلت: وما سؤالك، أما ترى ما أنا فيه، قال: قم فأسبغ الوضوء وصل أربع ركعات وقل: يا محسن يا مجمل يا منعم يا متفضل، يا ذا النوافل والنعم، يا عظيم يا ذا العرش العظيم، أجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً؛ فانتبهت فحفظت الدعاء، فقمت وتوضأت وصليت ودعوت به، فلما أسفر الصبح جاءوا فأخرجوني.

وعن قدامة بن عتبة العتكي. وكان من أصحاب عتبة الغلام قال: رأيت عتبة الغلام في النوم، فقلت: يا عبد الله ما صنع الله بك، قال: دخلت الجنة بتلك الدعوات المكتوبة في بيتك؛ فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا بخط عتبة في الحائط: يا هادي المضلين يا راحم المذنبين يا مقبل عثرات العاثرين.

وعن بعضهم قال: أتى الحجاج رجل عزم على قتله، فلما دخل تكلم بشيء فخلى سبيله، فقيل: أي شيء قلت، قال: قلت: يا عزيز يا حميد يا ذا العرش المجيد، أصرف عني كل جبار عنيد.

وعن حصين: كان سعيد بن المسيب يدعو: أعوذ بوجه الله الكريم وأسمه العظيم، وكلماته التامة من شر السامة والعامة، ومن شر ما خلقت يا رب، ومن شر ما أنت آخذ بناصيتها، ومن شر الدنيا وما فيها.

وعن عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال: حدثني بعض أصحابنا بهذا الدعاء، قال: كان الصالحون من التابعين يدعون اذا دخلوا على السلطان، فيقون به البطش من السلطان وظلمه، وهو: بسم الله، أعوذ بالرحمن منك ان

تقيا، اخسئوا فيها ولا تكلمون، أخذت قوتك بقوة الله، بيني و بينك ستر الله الذي كانت الأنبياء يستترون به من سطوات الجبابرة الفراعنة، جبريل عن يمينك، وميكائيل عن شمالك، ومحمد صلى الله عليه وسلم امامك، والله عز وجل مطلع عليك يجيرني ويمنعني منك بحوله وقوته.

وعن محمد بن يحيى قال: بينما علي كرم الله وجهه يطوف بالكعبة، اذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة ينادي: يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا يغلطه السائلون، يا من لا يتبرم بالحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك. قال له علي رضي الله عنه: دعاؤك هذا، قال: نعم، قال: وقد سمعته، قال: نعم، قال: فادع به في دبر كل صلاة الصبح في مصلاه مائة مرة فليقل: بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، يا قديم يا دائم يا حي يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد. وكان مقاتل يقول: من دعا بهذا الدعاء فلم يستجب فليلعن مقاتلاً في قبره.

وعن جعفر بن محمد: ما من نبي الا وخلف في أهل بيته دعوة مجابة، وقد خلف فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوتين مجابتين: أما الواحدة فلشدائدنا، وأما الأخرى فلحوائجنا. أما التي لشدائدنا: يا كائن دائماً لم يزل، يا الهي يا اله آبائي، يا حي يا قيوم اجعلني لك مخلصاً. وأما التي لحوائجنا: يا من يكفي من كل شيء ولا يكفي منه شيء، يا الله يا رب محمد صلى الله عليه وسلم. ثم تسأل حاجتك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم: قال، «من أراد أن يوعيه الله حفظ القرآن فليكتب هذا الدعاء في اناء نظيف بعسل ماذي، ثم ليغسله بماء المطر قبل أن يمس الأرض، وليشربه على الريق ثلاثة أيام فأنه يحفظه باذن الله تعالى، وهو: اللهم اني أسألك مسؤولاً لم يسأل مثلك، أسألك بحق محمد رسولك ونبيك، وابراهيم خليلك وصفيك، وموسى كليمك ونجيك، وعيسى كلمتك وروحك، وأسألك بصحف ابراهيم وتوراة موسى وانجيل عيسى وفرقان محمد، وأسألك بكل وحي أوحيته، و بكل حق قضيته، و بكل

سائل أعطيته، وبكل ضال هديته، وغني أقنيته وفقير أغنيته، وأسألك باسمائك التي دعاك بها أدعياؤك وأنبياؤك فاستجيب لهم، وأسألك بكل اسم أنزلته في كتابك، وأسألك باسمك الذي وضعته على النهار فاستنار، وأسألك بأسمك الذي وضعته على الليل فأظلم، وأسألك بأسمك الذي وضعته على الجبال فأرست، وأسألك باسمك الذي وضعته على الأرضين فأستقلت، وأسألك باسمك الذي استقل به عرشك، وأسألك بأسمك الواحد الأحد الفرد الصمد، العزيز الذي ملأ الأركان كلها، الطاهر المطهر، المبارك المقدس، الحي القيوم، نور السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وأسألك بكتابك المبارك أن ترزقني حفظ كتابك ا لقرآن، وحفظ أصناف العلم، وثبتها في قلبي وسمعي وبصري، وتخلطها بلحمي ودمي، وتستعمل بها جسدي في ليلي ونهاري، فأنه لا حول ولا قوة الا بك».

عن أبي رجاء: أن رسول الله صى الله عليه وسلم اذا اشتد به حلقة البلاء وكانت ضيقة يقول: تضيقي تنفرجي، ثم يرفع يديه فيقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، اياك نعبد واياك نستعين، اللهم اكفنا بأس الذين كفروا انك أشد بأساً وأشد تنكيلاً».

وعن نعيم بن أبي هند قال: كنت جالساً عند يزيد بن أبي مسلم امام الحجاج وهو يعذب الناس، فذكر رجلاً في السجن فبعث اليه بغيظ وغضب، فأتى به، وما أشك أن استنفع به، فلما قام بين يديه رأيت الرجل يحرك شفتيه بشيء لم أسمع، فرفع رأسه فقال: خلوا سبيله أو ردوه، فقمت الى الرجل وذكرت له القصة وقلت له: ما الذي قلت، قال: قلت هذا الدعاء: اني أسألك بقدرتك التي تمسك بها السموات السبع أن يقع بعضهن على بعض أن تكفينيه.

وعن البراء بن عازب قال: دخلت على علي بن أبي طالب ذات يوم فقلت: يا أمير المؤمنين، سألتك بالله الا ما خصصتني بأعظم ما خصك به رسول الله صى الله عليه وسلم، مما خص به جبريل عليه السلام، بما أرسل به

اليه الرحمن عز وجل، فقال: لولا سألت ما نشرت ذكر ما أريد أن أستره حتى أضمن لحدي؛ اذا أردت أن تدعو باسم الله الأعظم، فأقرأ من أول الحديد ست آيات وآخر الحشر، فإذا فرغت فتكلم فقل: يا من هو كذا وكذا افعل بي كذا وكذا، فوالله لو دعوت به على شقي لسعد؛ قال البراء: فوالله لا أدعو بها للدنيا أبداً؛ قال علي رضي الله عنه: أصبت، كذا أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنه أذن لي في الأمر البارح.

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سمع وهو يطوف بالكعبة ومعه ولداه الحسن والحسين رضي الله عنهما قائلاً في جوف الليل.

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم	يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا	وعين جودك يا مولاي لم تنم
هب لي بجودك فضل العفو عن زللي	يا من اليه رجاء الخلق في الحرم
ان كان عفوك لا يرجوه ذو خطأ	فمن يجود على العاصين بالنعم

فقال علي لولديه: اطلبا لي هذا القائل، فأتياه فقالا: أجب أمير المؤمنين، فأقبل يجر شقه حتى وقف بين يديه، فقال: قد سمعت خطابك فما قصتك، قال: اني من أمري في ضيق، فان تبت لم تقبل توبتي وان سألت لم يقلني عثرتي، قال له: ولِمَ ذلك، قال له: لأني كنت رجلاً مشهوراً بالطرب والعصيان، وكان والدي يعظني ويحذرني مصارع الجهال ويقول لي: ان لله سطوات ونقمات وما هي من الظالمين ببعيد، فلما ألحّ في الموعظة فحلف ليدعون علي ويأتي مكة مستغيثاً الى الله عز وجل، ففعل ودعا، فلم يتم دعاءه حتى جف شقي الأيمن، فندمت على ما كان مني اليه، وداريته وراضيته الى أن ضمن لي أن يدعو لي حيث دعا عليّ، فقدمت اليه ناقة فأركبته، فنفرت الناقة ورمت به بين صخرتين فمات هناك. فقال لي أمير المؤمنين: أحقاً ان أباك رضي عنك، فقلت: اللهم كذلك، فقام علي رضي الله عنه وصلى ركعات ودعا بدعوات أسرها إلى الله عز وجل، ثم قال: يا مبارك قم، فقام ومشى ثم دعا الى الصحة كما كان، ثم قال: لولا أنك حلفت ان أباك رضي عليك ما دعوت لك.

وعن جعفر بن محمد الصادق: عجبت لامرىء كيف لا يقول: ما شاء الله لا قوة الا بالله، والله تعالى يقول: ﴿ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله﴾؛[١] وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول: حسبي الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول: ﴿الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾[٢]؛ وعجبت لمن مكر به كيف لا يقول: وأفوض أمري الى الله أن الله بصير بالعباد، والله تعالى يقول: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾[٣]؛ وعجبت لمن أصابه غم كيف لا يقول: ﴿لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين﴾. الى قوله: ﴿فنجيناه من الغم﴾[٤]. قال سفيان بن عيينة: انه تعالى لما قال: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ كان وعداً لكل مؤمن من قال: لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين، ان ينجيه من الغم والله لا يخلف الميعاد.

بخط الشيخ القرطبي: قل وأنت ساجد: اللهم يا لطيف يا لطيف بجميع عباده ألطف بي بلطفك الخفي الذي ما لطفته بأحد الا كفى، ثم يرفع رأسه و يقول: فسيكفيكم الله وهو السميع العليم.

ومن كلام الشيخ ابي الحسن الشاذلي: ان أردت كرامتي فعليك بطاعتي والأعراض عن معصيتي، فإن زللت بغلبة الشهوة وعظيم القدرة، فأعلم قربي منك ونظري اليك واحاطتي بك وقدرتي عليك، واستنقذ نفسك مني ومن عظيم قدرتي، وقل: يا موجود قبل كل موجود وهو الآن على ما هو عليه موجود، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، ضاقت علي الأرض بما رحبت وضاقت عليَّ نفسي ولا ملجأ منك الا اليك، فتب علي يا تواب انك أنت التواب الرحيم.

ذكر الحافظ ضياء الدين في سيرة الشيخ العماد ابراهيم بن عبد الواحد

---

(١) سورة الكهف، آية: ٣٩.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٧٣.
(٣) سورة غافر، آية: ٤٥.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٨٧، ٨٨.

المقدسي انه قال: ما رأيت مثل هذا الدعاء أسرع اجابة: يا الله يا الله أنت الله بلى والله أنت، الله لا اله الا أنت، الله الله الله والله لا اله الا الله.

قال الشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكي: سمعت الشيخ الامام الوالد وهو الشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي رحمه الله ــ اذا اهتم بأمر قرأ قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم﴾.. إلى قوله ﴿ذو فضل عظيم﴾ تسع عشرة مرة، عشرين الا مرة، كان الوالد يذكر أن هذا مجرب لداهم الأمر ومعضله.

وجدت في بعض المجامع مروياً بإسناد مجهول الى أبي الحسن محمد بن جعفر قال: وجدت ببلاد الهند حجراً منقوشاً بالعبرانية ببلد سرنديب:

أنا الموجود فاطلبني تجدني ... فإن تطلب سواي لم تجدني
تجدني أين تطلبني عبيدي ... قريباً منك فاطلبني تجدني
تجدني ماجداً صمداً كريماً ... كثير البر فاطلبني تجدني
تجدني مستغاثاً بي مغيثاً ... أنا الجبار فاطلبني تجدني
اذا اللهفان ناداني كظيماً ... أقل لبيك فاطلبني تجدني
اذا المضطر قال ألا تراني ... نظرت اليه فاطلبني تجدني
أنا بالمرء أرحم من أخيه ... ومن أبويه فاطلبني تجدني
فإن هو تاب تبت عليه اني ... أنا التواب فاطلبني تجدني
أتذكر ليلة ناديت سراً ... ألم أسمعك فاطلبني تجدني
أنا الجبار لا شيء كمثلي ... أنا الغفار فاطلبني تجدني
أنا الرب الذي يخشون مني ... جميع الخلق فاطلبني تجدني
وليس يبيحك الفردوس غيري ... أنا الرزاق فاطلبني تجدني
أتعرف غافراً للذنب غيري ... أنا الغفار فاطلبني تجدني
سأغفر للعباد ولا أبالي ... غداً في الحشر فاطلبني تجدني
وأكرم من أريد بغير بخل ... أنا الوهاب فاطلبني تجدني
وأرحم من يتوب وكان عندي ... له الاكرام فاطلبني تجدني
فمن مثلي ولم تر قط مثلي ... ولست تراه فاطلبني تجدني

ولبعضهم وذكر أنه ما رددها من هو في شدة الا وفرجها الله عنه

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استكملت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

ولبعضهم

كم أعقبت ثوب الزمان جميلاً وكفين خطباً قد أهم جليلا
لا تيأس من الاله فروحه ان لم يغادرك بكرة فأصيلا
وأمن لطائف صنعه فلطالما كشف الهموم وبلغ المأمولا
يا رب مكروه تعذر حله ليلاً فأصبح عقده محلولا
وملمة أعيا نهاراً حلها أمست يسهل خطبها تسهيلا

وعن جعفر الخلدي قال: ودعت المزين، فقلت زودني شيئاً، فقال: ان ضاع منك شيء، أو أردت أن يجمع الله بينك وبين انسان فقل: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا، فما دعوت بها شيئاً الا استجيب.

وروى ابن أبي الدنيا ان طاوساً قال: اني لفي الحجر ذات ليلة اذ دخل علي بن الحسين، فقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعن الليلة الى دعائه، فصلى ثم سجد، فأصغيت بسمعي اليه فسمعته يقول في سجوده: عبيدك بفنائك فقيرك بفنائك سائلك بفنائك قال طاوس: فحفظتهن فما دعوت بهن في كرب الا فرج عني.

وروى أيضاً عن الحارث الكعبي: أن رجلاً جاء الى الحسين بن علي يستعين به على علي في حاجة، فقال له الحسين: أن أمير المؤمنين قد خلا في بيت اذا حز به أمر خلا فيه، قال: فأدنني إلى الباب حتى أسمع كلام أمير المؤمنين، قال: فسمعته يقول: يا كهيعص يا نور يا قدوس يا حي بالله يا رحمن ــ رددها ثلاثاً ــ اغفر لي الذنوب التي تحل النقم، وأغفر لي الذنوب التي تغير النعم، واغفر لي الذنوب التي تورث الندم، واغفر لي الذنوب التي تحبس

السقم، واغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء، واغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، واغفر لي الذنوب التي تعجل الفناء، واغفر لي الذنوب التي تدبل الأعداء، واغفر لي الذنوب التي ترد الدعاء، واغفر لي الذنوب التي تمسك غيث السماء، واغفر لي الذنوب التي تظلم الهواء، وأغفر لي الذنوب التي تكشف الغطاء.

سمعت بعضهم يذكر أنه رأى بخط من يعتمد اذا غلب المرء في مواقعه، فليقل في دبر كل صلاة: رب اني مغلوب فانتصر ــ مائة مرة.

ومن شعر الشيخ أبي اسحاق الشيرازي صاحب التنبيه، و يقال أنها أبيات مباركة:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وقمت أشكو الى مولاي ما أجد
وقلت يا عدتي في كل نائبة ... ومن عليه لكشف الضر اعتمد
وقد مددت يدي والضر مشتمل ... اليك يا خير من مدت اليه يد
فلا تردنها يا رب خائبة ... فبحر جودك يروي كل من يرد

ولأبي القاسم السهيلي وقيل ما رددها ذو حاجة ثلاث مرات و يدعو الا استجيب له:

يا من يرى ما في الضمير و يسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من اليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن فضله في قول كن ... امنن فإن الخير عندك اجمع
ما لي سوى فقري اليك وسيلة ... فبالافتقار اليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... ان كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لفضلك ان تقنط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

وله أبيات أُخر:

قال تاج الدين السبكي: كنت أسمع الشيخ الامام ــ أراد والده تقي الدين السبكي رحمهما الله ــ يرددها و يدعو عقيبها و يقول: ان الإجابة عقيبها

مجربة، وانه كان يقول: ما سألت الله بها في شيء الا اعطانيه وهي:

صرفت الى رب الانام مطالبي ووجهت وجهي نحوه ومآربي
الى الملك الأعلى الذي ليس فوقه مليك يرجى سيبه في المتاعب
الى الصمد البر الذي فاض جوده وعم الورى طراً بجزل المواهب
مجيري من الخطب ونـاصر مغيثي اذا ضاقت على مذاهبي
مقيل اذا زلت بي النعل عاثراً واسمح غفار وأكرم واهب
فما زال يوليني الجميل تلطفاً و يدفع عني في صدور النوائب
و يرزقني طفلاً وكهلاً وقبلها جنينا ويحميني وبي المكاسب
اذا سدد الأملاك دوني غلقت ونهنه عن غشيانهم زجر حاجب
فزعت الى باب المهيمن طارقاً مدلاً أنادي باسمه غير هائب
فلم الف حجاباً ولم أخش منعة ولو كان سؤلي فوق هام الكواكب
كريم يلبي عبده كلما دعا نهاراً وليلاً في الدجى والغياهب
يقول له لبيك عبدي داعياً وان كنت خطاء كَثير المعايب
فما ضاق عفوي عن جريمة خاطىء وما أحد يرجو نداي بخائب
فلا تخش املالاً وان كنت مكثراً فعفوي مبذول الى كل طالب
سأسأله ما شئت أن يمينه تسح دفاقاً باللهى والرغائب
فحسبي ربي في الهزاهز ملجأ وحرزاً اذا خيفت سهام النوائب

ولأبي الفضل يوسف بن محمد التوزري قصيدة تسمى: الفرج بعد الشدة تشتمل على الأسم الأعظم، لأنها جربت لاستجابة الدعاء وهي:

أشتدى أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج
وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السرج
وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الابان تجي
وفوائد مولانا جمل لسروح الأنفس والمهج
ولها أرج محيى أبداً فأقصد محيى ذاك الأرج
فلربتما فاض المحيى ببحور الموج من اللجج

والخلق جميعاً في يده فذوو سعة وذوو حرج
ونزولهم وطلوعهم فإلى درك وعلى درج
ومعايشهم وعواقبهم ليست في المشي على عوج
حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج
فإذا اقتصدت ثم انعرجت فبمقتصد وبمنعرج
شهدت بعجائبها حجج قامت بالأمر على حجج
ورضا بقضاء الله حجي فعلى مركوزته فعج
واذا انفتحت أبواب هدى فأعجل لخزائنها ولج
فإذا حاولت نهايتها فأحذر اذ ذاك من العرج
لتكون من السباق اذا ما جئت الى تلك الفرج
فهناك العيش وبهجته فلمبتهج ولمنتهج
فهج الأعمال اذا ركدت فإذا ما هجت اذن تهج
ومعاصي الله سماجتها تزدان لذي الخلق السمج
ولطاعته وصباحتها أنوار صباح منبلج
من يخطب حور الخلد بها يظفر بالحور وبالغنج
فكن المرضى لها بتقي ترضاه غداً وتكون نجي
واتل القرآن بقلب ذي حزن وبصوت فيه شج
وقيام الليل مسافتها فأذهب فيها بالفهم وجى
وتأملها ومعانيها تأت الفردوس وتفترج
واشرب تسنيم مفجرها لا ممتزجاً وبممتزج
مدح العقل الآتيه هدى وهوى متول عنه هجي
وكتاب الله رياضته لعقول الخلق بمندرج
وخيار الخلق هداتهم وسواهم من همج الهمج
فإذا كنت المقدام فلا تجزع في الحرب من الرهج
وإذا أبصرت منار هدى فأظهر فرداً فوق الثبج
وإذا اشتاقت نفس وجدت ألما بالشوق المعتلج

وثنايا الحسنا ضاحكة وتمام الضحك على الفلج
وعياب الأسرار اجتمعت بأمانتها تحت الشرج
فالرفق يدوم لصاحبه والخرج يصير الى الهرج
صلوات الله على المهدي الهادي الناس الى النهج
وأبي بكر في سيرته ولسان مقالته اللهج
وأبي حفص وكرامته في قصة سارية الخلج
وأبي عمرو ذي النورين المستهدي المستحيى البهج
وأبي حسن في العلم اذا وافى بسحائبه الخلج

قال تاج الدين السبكي: سمعت غير مرة الشيخ الامام ــيعني والده ــ ينشد لنفسه هذين البيتين:

الهي فوضت الأمور جميعها اليك فدبرني بما شئت والطف
وسلمني اللهم يا رب واحمني وخذ بيدي وامنن وجد وتلطف

هذا ما أورده السبكي من الدعوات فيما يوجد في آخر كتاب الدعوات، حامداً لله تعالى خالق الأرض والسموات، ومصلياً على نبيه محمد شفيع الأمة في العرصات، وعلى آله وصحبه المتدرجين الى أعلى الدرجات، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

يقول الفقير المعترف بالتقصير: كما كتبت هذه الأدعية المنظومة تذكرت حرزاً منظوماً وضعه الشيخ الزاهد أبو عمران موسى الفاسي رحمه الله، وقد رأيت أن أثبت ذلك ههنا لما رأيت أن جمع كل شيء الى شكله ونظيره أحسن وأولى، وسماه صاحب النظم المبارك: حرز الأقسام لجميع العلل والاسقام، يكتب بالزعفران، ويبخر باللبان، ويلوي عليه بخيط حرير أبيض، وتشده على عضدك وأنت طاهر نقي، وتعتصم، تقضي الحاجات ان شاء الله سبحانه وتعالى: تبدأ بالبسملة وفاتحة الكتاب والمعوذتين وما يختار من آى القرآن، ثم تكتب الحمد وهو هذا المنظوم المبارك الشافي:

بدأت باسم الله في أول السطر فاسماؤه حصن منيع من الضر

وصليت في الثاني على خير خلقه ... محمد المبعوث بالفتح والنصر
تعوذت بالرحمن في السر والجهر ... من الشرك والشيطان ما دمت في دهري
اذا استفتح القراء في محكم الذكر ... فباسمك يا مولاي استفتح المقري
ونسألك اللهم من فضلك الرضا ... تحل عقود العسر في أيسر اليسر
توسلت بالأقسام أسأل راغباً ... ونرغب للرحمن في السر والجهر
ونرغب فيا يرغب الخلق ساجداً ... الى مالك الأملاك في النفع والضر
بأسمائك اللهم أنت الهنا ... بديع السموات المدبر للأمر
بجملة ما أثنى عليك أولو النهى ... من المجد والتعظيم والحمد والشكر
بمالك ربك في سمواتك العلى ... من الملك والسلطان والعز والنصر
بما سبحتك الخلق بالألسن التي ... تخيرت للتسبيح والحمد والشكر
بذكرك عند العارفين بقدره ... بما قلت في القرآن بالشفع والوتر
باحصائك الأشياء عدا وخبرة ... بتكسير أمواج البحار وبالقطر
بما في السموات العلى من مقرب ... بمن في تخوم الأرض من ملك نذر
بأنك أنت الله خالق ما يرى ... وما لا يرى حتى من الذر في القفر
سميع بصير عالم متفضل ... يجازي باحسان ويعفو عن الوزر
بجملة ما أنزلت في الكتب كلها ... على الرسل تبياناً لمن كان ذا حجر
بكتبك بالأقلام بالرسل بالبها ... بتقديرك الأشياء بالنهي والأمر
بفضل صلاة الصبح رب وبالضحى ... بذكر غروب الشمس بالظهر والعصر
برضوان خزان النعيم بمالك ... معذب أصحاب الجحيم على الجمر
بجملة من لباك من ظهر آدم ... من المؤمنين الصالحين أولى الطهر
بما نال وفد الله من نصر ربهم ... بزوار قبر الهاشمي الى الحشر
بجاه النبيين الذي اصطفيتهم ... أولو الأيدي والأبصار والعز والفخر
بآدم اذ كرمته واصطفيته ... وعلمته العلم الذي كان لا يدري
بشيث بادريس بنوح بصالح ... بهود بلوط بالخليل الذي يقري
بحرمة اسماعيل صادق وعده ... باسحاق لما جاء في كبر العمر
بيعقوب بالاسباط باليسع الرضا ... بيوسف أعلى الناس في أرفع الذكر
بيونس الأصفى بصاحب مدين ... شعيب بالياس بذي الكفل بالخضر

بأيوب ذي البلوى بداود بابنه — سليمان من غل الشياطين للحشر
بمن قد قرأ التوراة عن ظهر قلبه — وهل كانت التوراة تقرأ عن الظهر
بأي نبي كان في أي أمة — الى أي ما قوم في أي ما عصر
واذ نحن لم نسمع به وبذكره — واذ نحن لم نعلم سواه ولم ندر
كذا زكريا أنه كان مخلصاً — بيحيى الحصور السيد الطيب النشر
بموسى بهارون بعيسى بن مريم — بكل نبي لست منه على خبر
بآخرهم بعثاً بأولهم مدى — محمد المبعوث بالفتح والنصر
بجاه خليل المصطفى وأنيسه — فنعم أنيس الغار كان أبو بكر
بجاه ابن خطاب أبي حفص الرضا — بجاه الشهيد المستجاب أبي عمرو
بجاه علي أرفع القوم في الهدى — ومن كعلي في الهداية والنصر
هما السيدان السابقان الى الهدى — شهيدان صهراه فيا أشرف الصهر
بحمزة بالعباس عمي نبينا — بفخرهما المنسوب في أرفع الفخر
بفاطمة الزهراء سيدة النسا — بسبطي رسول الله فخراً على فخر
بآل رسول الله كلهم معاً — بمجدهم فوق الفراقد والنسر
بأصحابه بالطاهرات نساؤه — بعائشة الموصوفة الذكر بالذكر
بطلحة منهم بالزبير بصحبه — سعيد وسعد ذي الفضائل والبر
وتاسعهم ذاك ابن عوف رفيعهم — بجاه ابن جراح هو الطيب النشر
بما كان فيهم من خصال رضية — كزهد أبي الدردا وصدق أبي ذر
بأشياعهم بالتابعين باقتدائهم — كلهم الأخيار كالأنجم الزهر
بما كان يدعو المصطفى في جهاده — بما كان في المحراب يتلوه من ذكر
بما كان يدعو أول الليل ربه — بما كان يدعو عند منصدع الفجر
بشعبان بالشهر الأصم بقدره — بحرمة شهر الصوم بالعيد بالفطر
بحق ظنون الواقفين على منى — بحق يقين الناس في ساعة النفر
بميقات موسى بالثلاثين ليلة — باتمامها من بعد ذلك بالعشر
بقدر ليالي العشر وهي فضيلة — بأيام حج الناس بالعيد بالنحر
بما يهب الداعين في يوم حجهم — بما تهب الداعين في ليلة القدر

بعرشك بالكرسي ندعوك ربنا ... بلوحك بالأقلام تجري بما تجري
بالانجيل بالتوراة أنزلتها على ... كليمك موسى بالصحائف بالزبر
بحق كتاب انت بينت فضله ... على ما سواه من كتاب ومن سر
بأوله أم الكتاب وختمه ... أعوذ برب الناس من نفثة السحر
بما في آلم ذلك قبلته ... وبآل عمران المعظمة الذكر
بيا أيها الناس اتقوا ربكم ... بسورة أوفوا بالعقود وبالنذر
بالأنعام بالأعراف بالتوبة التي ... تلي سورة الأنفال كالسطر بالسطر
بالأنفال والأنفال كانت لأحمد ... ولله ربي عالم السر والجهر
بيونس اذ تتلى بهود بيوسف ... بسورة ابراهيم بالرعد بالحجر
بمقدار ما في النحل من ذكره نعمة ... مننت بها حقاً يقيناً لمن يدري
بسبحان من أسرى بليل بعبده ... من المسجد الأقصى الى البيت والحجر
بسورة ذكر الكهف ثم بمريم ... بطه بذكر الأنبياء على الأثر
وبالحج ثم المؤمنون بأثرها ... وبالنور والفرقان يا جابر الكسر
بحق طواسين الثلاث فلم يقف ... سواد على ما في الفواتح من سر
وبالروم ثم العنكبوت وبعدها ... بلقمان ذي الوعد الصدوق مع الذخر
سألتك بالأحزاب من بعد سجدة ... بأسمائك الحسنى بآلائك الزهر
وفي سبأ والحمد لله فاطر ... ضياء يضيء القلب كالقمر البدر
بسورة يس المعظم قدره ... فما هي الا كالعرائس في الخدر
وبالتاليات ثم ص وبعدها ... بسورة تنزيل الكتاب من الذكر
بسبع الحواميم الكريم محلها ... فما هي الا كالعرائس في الخدر
وبالسورة المذكور فيها محمد ... وانا فتحنا سورة الفتح والنصر
وبالحجرات ثم ق وطورها ... وبالذاريات الذر حاملة الوقر
وبالنجم والرحمن تسأل راغباً ... وباقتربت أدعوك يا كاشف الضر
اذا وقعت يشفي بها كل مؤمن ... ويشفي بآيات الحديد وبالحشر
بسورة ذات الامتحان وفضلها ... بقد سمع اللهم فأعظم بها أجري
بسورة ذكر الصف والحرب واللقا ... ببنيانك المرصوص في السر والجهر
بسورة يوم الجمعة الأزهر التي ... يحرم فيها الشغل بالبيع والتجر

بسورة أصحاب النفاق وفضلها أعوذ نفسي من نفاق ومن غدر
بسورة يوم الجمع يوم تغابن به يعلم الخير الخصيص من الشر
بفاتحة التحريم يا أيها النبي فيا رب اطلق بالطلاق أخا الأسر
سألتك يا ذا الملك بالملك سائلاً بنون بما يتلوه من نفخة الحشر
بنوح بقل أوحى الى سأل سائل بمزمل ثم القيامة والدهر
بيا أيها المدثر أنهض مبلغاً فأنك مبعوث نذير من النذر
وفي نبأ والمرسلات قوارع وسورة ذكر النازعات من الذكر
وفي عبس الوعظ البليغ لو أنه يصادف قلب المرء أقسى من الحجر
وبانفطرت أدعوك بالشمس كورت وبالسماء انشقت وأدعوك بالفجر
بسورة قوم بالمكاييل طففوا فكالوا عبا الله بالبخس والخسر
سألتك ربي بالبروج وطارق يحط بها وزري ويشدد بها أزري
قصدتك بأعلى وبالبلد الذي بها أقسم الرحمن في محكم الذكر
بغاشية بالشمس بالليل بالضحى بما في ألم نشرح من الشرح للصدر
وبالتين والزيتون نسأل راغباً (اليك) وباقرأ باسم ربك والقدر
بلم يكن القصوى بسورة زلزلت بالهاكم والعاديات وبالعصر
بسورة أهل الفيل والهمز قبلها بقارعة والناس سكرى من الذعر
بسورة ايلاف بسورة كوثر وتبت وبالماعون بالفتح والنصر
بسورة ذكر الكافرين بفضل قل هو الله ربي خالق الخلق والأمر
وبالفلق العظمي وبالناس بعدها فحفظهما أمن من البأس والضر
له الحمد في الأولى له الحمد في الأخرى له الحمد اعلاناً له الحمد في السر
له الملكوت الله جل جلاله يقرون بالتوحيد للواحد الوتر
بمن لم يزل فوق الخلائق واحداً بمن أتقن الأشياء في حكمة تجري
بمن يكشف الشكوى بمن يصرف البلو ى بمن يعلم النجوى ويعفو عن الوزر
بمن قال يا موسى أنا الله فاستمع مطيعاً لما يوحى ولا تعص في أمري
وخذ هذه الألواح اخذاً بقوة ولا تسه يا موسى بن عمران عن ذكرى
برحمتك اللهم وهي محيطة بمالك يا ربي من العفو والغفر
بأسمائك اللهم وهي كريمة تنجي بها داعيك في البر والبحر

تفضل على المرضى من أمة أحمد بكشفك عنهم ما شكوه من الضر
أناثاً وذكراناً كهولاً وشباناً فطيماً رضيعاً في الذراع وفي الحجر
وفرج به من كل داء وعلة ومن كل ما يشكوه يا كاشف الضر
من العلل التي خلقت لجسومهم كمثل اتجاع العين والسن والظهر
ومن حمة أو حمرة أو شقيقة ومن وجع في الرأس والجنب والصدر
ومن شر عين الحاسدين و بأسهم ومن شر ابليس اللعين أخي الشر
ومن شر ما يؤذي ومن شر حاسد ومن شر وسواس يوسوس في الصدر
ومن نظرة المعيان في المال كله من الكسب والأنعام من كل ما يجري
فيا نظرة المعيان بالله فاذهبي بحق الذي نتلوه من طيب الذكر
ولا تقربي من علق الحرز حوله بأسماء ربي في الحديد وفي الحشر
وقد جاء أن العين حق عن النبي وكم صار من انسان بالعين في القبر
فيا رب نج العين عمن شكا بها بحق الذي يتلى من السور الغر
ومن يشتكي في جسمه بتوجع فأنت الذي تبلى وأنت الذي تبري
وأنت الذي أجبت أيوب اذ دعا فقال الهي مسني ألم الضر
ففرجت عنه الضر منك تفضلاً فأصبح أيوب النبي بلا ضر
فإن كان بالطفل الصغير قرينة تخالطه في الثدي والمهد والحجر
فاني بما أقسمت من قسم الرضا نعوذ بربي من قرين ومن غدر
وان عسرت عن الولادة حامل فيا رب يسر بعد عسر إلى يسر
وخفف بهذا الحرز عن كل مثقل من الحاملات الوالدات على طهر
وان كان مصروعاً الجن يشتكى عليه وقوع الصرع في منتهى الشهر
فأنقذه يا ذا الطول من شر صرعهم بحق النبي المصطفى خاتم النذر
وان كان سلطان يخاف وعيده له صولة في النهي منه وفي الأمر
فأني باسم الله حصنت حاملاً كتابي هذا من عدو ومن قهر
وان كان هذا الحرز عند مسافر له سفر في البر أو لجة البحر
فلا يخل من حرز الصيانة رحله من السارق الغازي وفي ليله يسري
وان كان هذا الحرز في رحل تاجر فبارك له فيا يحاول من تجر

بفضل ورزق منك لا بمشقة ... فإنك ذو الفضل العظيم لمن يدري
بكرسيه بالعرش بالنور بالبها ... وباللوح والأقلام تجري بما تجري
بآياته الحسنى بمكنون سره ... بطه بيس المعظمة الذكر
بما جاء في القرآن من كل آية ... الى المصطفى المبعوث بالفتح والنصر
تنجى بها داعيك من كل آفة ... ومن كل ما يعدو على العبد والحر
ومن ألم الحمى والبرد بعدها ... يغطي بما يغطي فيؤلم بالضر
فيا حامل الحرز المبارك والدعا ... نجوت بحمد الله من جملة الشر
فصنه بما صان النبي محمداً ... وأيده بالنصر في منتهى بدر
أجبنا بما ندعوك ما قد وعدتنا ... بكشفك بلوائي لهيف ومضطر
وصل على جبريل في كل مرة ... وصل على كل الملائكة الطهر
وصلّ على المختار ما ذر شارق ... وما لاح نجم في السماء لمن يدري

وها هنا انتهت قصيدة: حرز الأقسام لجميع العلل والاسقام، وعدد أبياتها مائة وخمسة وأربعون بيتاً.

وأعلم: أن الدعوات المنقولة بين الناس أكثر من أن تحصى لكن لم يعرف لنا صحة اسنادها وصدق روايتها، ولنذكر نبذاً مما غلب على ظني صدقه تتميماً للفائدة واتماماً للمرام، وان أدى ذلك إلى التطويل في الكلام، والله الموفق.

ومن ذلك: دعاء الخضر عليه السلام. ذكره العلامي في تفسيره قال: روى عن ابن المهاجر قال: قدم الخليفة المنصور مكة، فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف في آخر الليل يطوف و يصلي ولا يعلم به، فإذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة، وجاء المؤذنون فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس. فخرج ذات ليلة حتى أسحر، فبينا هو يطوف اذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول: اللهم اني أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع. فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد، فأرسل اليه فدعاه، فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين، فصلى ركعتين واستلم الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه، فقال له المنصور: ما هذا الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما

يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني. فنصح للمنصور ووعظ وذكر بما يطول شرحها، حتى بكى المنصور بكاء شديداً، ونحب وارتفع صوته، ثم قال: يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً. وجاء المؤذنون فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة فخرج وصلى بهم، ثم قال للحرسي: عليك بالرجل ان لم تأتني به لأضربن عنقك، وأغتاظ عليه غيظاً شديداً ان لم يوجد. فخرج الحرسي فطلب الرجل، فبينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب، فقعد حتى صلى، ثم قال: يا ذا الرجل ما تتقي الله، قال: بلى، قال: أما تعرفه، قال: بلى، قال فانطلق معي إلى الخليفة فقد آلى ان يقتلني ان لم آته بك، قال: ليس الى ذلك من سبيل، قال: يقتلني، قال: لا يقتلك، قال: فكيف؟ قال: تحسن تقرأ، قال: لا. فأخرج من مزود كان معه رقا مكتوب فيه شيئاً، قال: خذه فاجعله في جيبك فان فيه دعاء الفرج، قال: فما دعاء الفرج، قال: لا يرزقه الا الشهداء، قلت: رحمك الله قد أحسنت الي، فإن رأيت ان تخبرني ما في هذا الدعاء وما فضله، قال: من دعا به صباحاً ومساء عدمت ذنوبه، ودام سروره، ومحيت خطاياه، واستجيب دعاؤه، وبسط في رزقه، وأعطى أمله، وأُعين على عدوه، وكتب عند الله صديقاً، ولا يموت الا شهيداً.

يقول: اللهم لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك ما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك: واجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً؛ اللهم ان عفوك عن ذنوبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وسترك عن قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستحقه بما قصرت فيه، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً، وانك لمحسن إليَّ واني لمسيء الى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد الي واتبغض اليك، ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك، فجد بفضلك واحسانك عليَّ أنك أنت التواب الرحيم.

قال: فأخذته فصيرته في جيبي، ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين، فسلمت عليه، فرفع رأسه وتبسم ثم قال: و يلك تحسن السحر، قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ. ثم أخذ الرق وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف درهم وقال: نجوت، ثم قال: أتعرفه؟ قلت: لا، قال: ذلك الخضر عليه السلام.

ومن الأدعية الصحيحة الاسناد الى جعفر الصادق دعاء مسمى بدعاء الجيب

روى ابن فخر الدين الرومي جمعه في عمل الليل والنهار عن العلائي، ذكره في كتاب (العدة عند الكرب والشدة) عن ابن أبي الدنيا في كتاب (الفرج بعد الشدة) عن الفضل بن الربيع قال: حج الخليفة المنصور سنة سبع وأربعين ومائة، فلما قدم المدينة قال لي: ابعث إلى جعفر بن محمد ــ يعني الصادق رضي الله عنهما ــ وقال: قتلني الله ان لم أقتله، فأمسكت عنه رجاء أن ينساه، فأغلظ في الثانية، فقلت: هو بالباب فقال: ائذن له، فخرجت اليه فلما دنونا من الباب قام فحرك شفتيه، فدخل فسلم، فقال: لاسلم الله عليك يا عدو الله، تلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل في ملكي، قتلني الله ان لم أقتلك، فقال له: يا أمير المؤمنين، ان سليمان أعطى فشكر، وان داود ابتلى فصبر، و يوسف ظلم فغفر، فنكس طو يلاً ثم رفع رأسه باللطف وقال: اليّ وعندي يا أبا عبد الله البري الساحة السليم الناحية القليل الغائلة، جزاك الله من رحم خيراً. فتناول يده فأجلسه على مفرشه، فدعا بالغالية فطيبه بيده بحيث يقطر، ثم قال له: في حفظ وكلائه، يا ربيع الحق أبا عبد الله جائزته وكسوته. فأنصرف، فلحقته بالجوائز السنية فقلت له: أني رأيت قبلك ما لم تره، ورأيت بعدك ما قد رأيت، ورأيتك تحرك شفتيك فما الذي قلت، قال: انك رجل من أهل البيت ولك محبة وود، وهو دعاء أحفظه من آبائي عليهم السلام واسمه دعاء الجيب، و ينبغي لمن يتوقع بلية أو خوفاً أن لا يخلو جيبه عنه.

وهو: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام،

وارحمني بقدرتك علي، أنت ثقتي ورجائي، رب كم نعمة أنعمت بها عليَّ قل لك عندها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل لك عندها صبري، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمني، و يا من قل عند بلائه صبري فلم يخذلني، و يا من رآني على الخطايا فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، و يا ذا النعم التي لا تحصى عدداً، أسألك أن تصلي على محمد وآله كما صليت على ابراهيم انك حميد مجيد، اللهم انه عبد من عبادك ألقيت عليه سلطاناً من سلطانك، فخذ سمعه و بصره وقلبه إلى ما فيه صلاح أمري، و بك أدرأ في نحره وأعوذ بك من شره؛ اللهم أعني بديني على دنياي، وعلى آخرتي بالتقوى، واحفظني فيا غبت عنه، ولا تكلني الى نفسي فيا حضرته، يا من لا يضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة اغفر لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك انك أنت الوهاب؛ يا الهي: أسألك فرجاً قريباً ورزقاً واسعاً، وأسألك العافية من كل بلية، وأسألك الشكر على العافية ودوام العافية، وأسألك الغنى عن الناس، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم برحمتك يا أرحم الراحمين.

قال الربيع: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال موسى: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال ابن يحيى: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال محمد بن هارون: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال القطان: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال أبو الحسين العاقولي: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال الشاشي: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال جعفر الهمذاني: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال أبو الحسين العراقي: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال شيخ والدي وأستاذه الشيخ محمد الفيروز اباذي: فكتبته عنه فها هو في جيبي، وقال شيخي وأستاذي ووالدي أبو البركات الشيخ فخر الدين الرومي: فكتبته عنه فها هو في جيبي. قلت: وأنا الفقير الحقير تراب قدم الفقراء فكتبته عنه رضوان الله عليهم أجمعين، وقد رأيت له أثراً ظاهراً وانتفعت به عدة، فعليك أن تنخرط في هذا السلك بشرط الاعتقاد الصحيح الجازم انتهى.

واعلم يا أخي: لولا خوف الأطناب لملأت الكتاب من هذا الباب، لكنه يكفيك هذا القدر الآن، والله المستعان في كل حين وأوان.

المطلب التاسع
في فضيلة الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿واذا سألك عبادي عني فأني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي﴾[1]؛ وقال تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾[2]؛ وقال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾[3]؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «ان الدعاء هو العبادة»؛ ثم قرأ: «أدعوني أستجب لكم» وقال: «الدعاء مخ العبادة»؛ وقال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»، وقال: «أن العبد لا يخطئه من الدعاء احدى ثلاث: أما ذنب يغفر له، وأما خير يعجل له، وأما خير يدخر له»: وقال: «سلوا الله تعالى من فضله فأنه يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج».

أما آداب الدعاء فهي عشرة

الأول: ان يترصد لدعائه الأوقات الشريفة: كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل.

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة: كزحف الصفوف في سبيل الله اذ عنده تفتح أبواب السماء، وعند نزول الغيث، وعند اقامة الصلاة المكتوبة، وأعقاب الصلوات المفروضة، وبين الاذان والاقامة، وحالة الصوم، وحالة السجود.

وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات الى شرف الحالات، اذ وقت السحر وقت صفاء القلب، ويوم الجمعة ويوم عرفة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٥.
(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة، ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه ويمسح بها وجهه في آخر الدعاء. وينبغي أن يضم كفيه ويجعل بطونهما مما يلي وجهه، وينبغي أن لا يرفع بصره إلى السماء؛ قال صلى الله عليه وسلم: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم الى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم».

الرابع: خفض الصوت بين المخافة والجهر. كذا ورد الأثر عن عائشة رضي الله عنها قالت في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾[1] أي بدعائك.

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء، فإن السجع تكلف ولا يناسب ذلك في محل التضرع. وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿أنه لا يحب المعتدين﴾[2] التكلف للاسجاع. والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة، لأنه اذا جاوزها ربما اعتدى في دعائه، فيسأل الله بما لا يقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء.

ويقال: ان العلماء والابدال لا يزيد أحدهم في الدعاء على سبع كلمات فما دونها؛ ويشهد بذلك آخر سورة البقرة: فإن الله عز وجل لم يخبر في موضع من أدعية عباده بأكثر من ذلك. وقال صلى الله عليه وسلم: «اياكم والسجع في الدعاء، بحسب أحدكم أن يقول: اللهم أني أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل».

واعلم: أن المنهي عنه هو التكلف للسجع، وأما اذا كان غير متكلف وصدر عن طبع فلا نهي عن ذلك. ووقع عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، والموفين بالعهود، انك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد».

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١١٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٠.

وبالجملة: أصل الدعاء الضراعة والابتهال، فينبغي أن يحتفظ عما يتافيه من الكلفة من السجع وغيره، وان لم يخل بها فلا بأس.

السادس: التضرع والخشوع والرغبة والرهبة كما هو شأن الدعاء.

السابع: أن يجزم الدعاء ويوقن بالاجابة ويصدق رجاءه فيه. قال صلى الله عليه وسلم: «لا يقل أحدكم اذا دعا: اللهم أغفر لي ان شئت، اللهم ارحمني ان شئت فإنه لا مكره له». وقال: «اذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء». وقال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة، واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل».

الثامن: ان يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعا دعا ثلاثاً. وينبغي أن لا يستبطىء الاجابة فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، بل يقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ــ اذا تعرف الاجابة ــ ومن أبطأ عنه الاجابة يقول: الحمد لله على كل حال.

التاسع: يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى ولا يبدأ بالسؤال. وكان النبي صلى الله عيه وسلم يستفتح بقوله: «سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب». وقال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يختم بالصلاة عليه، فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما. كذا ورد في الخبر أيضاً.

العاشر: وهو الأدب الباطن. والأصل في الاجابة: أن يتوب عن الذنوب، ويرد المظالم، ويقبل على الله عز وجل بكنه الهمة، فذلك هو السبب القريب في الاجابة.

المطلب العاشر

في فائدة الدعاء مع أنه لا مرد للقضاء

واعلم: ان من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج

النبات من الأرض؛ وكما ان الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله عز وجل أن لا يحمل السلاح، وأن لا تسق الأرض بعد القاء البذر، فيقال: ان سبق القضاء بالنبات نبت، بل الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، ويقال له: القضاء الأول الذي هو كلمح البصر.

وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسبب، والذي قدر الشر قدره بسبب وقدر لدفعه سبباً أيضاً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته على أن في الدعاء في نفسه فائدة العبادة وثواب الذكر والخير العاجل، ولا يخلو أصلاً عن طائل، والله المجيب وانا السائل، أسأل منه الاقتفاء بأعظم الوسائل: محمد عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وعلى آله وأصحابه وذريته وأحبابه.

الأصل العاشر

في تقسيم الأوراد وفضيلتها وأحكامها

واعلم: أن السالك لطريق الآخرة: أما عابد، أو عالم، أو متعلم، أو دال، أو محترف، أو موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره.

ففيه مطالب.

المطلب الأول

في ترتيب أوراد العابد المتجرد لعبادة الله عز وجل

فلنذكر أولاً فضيلة الأوراد:

قال الله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾؛ ﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾[1]؛ وقال تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾[2] وقال تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم: أن في النهار سبعة أوراد: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ورد، ومنه إلى الزوال وردان، ومنه الى العصر وردان، ومنه الى المغرب وردان؛

---

(١) سورة الانسان، آية: ٢٥، ٢٦.

(٢) سورة ق، آية: ٣٩.

(٣) سورة هود، آية: ١١٤.

وفي الليل أربعة أوراد: من المغرب الى نوم الناس وردان، وفي النصف الأخير إلى الفجر وردان، ثم ورد خامس وهو ورد النوم.

والأول: ورد الصبح. وفضله كثير في الآيات منه قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾؛ وقوله: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾[1]. فإذا انتبه من النوم يدعو بدعاء الاستيقاظ وقد مر، ويلبس ثوبه وهو في الدعاء، وينوي به ستر عورته امتثالاً لأمر الله تعالى واستعانة على عباده من غير قصد رئاء ورعونة. ثم يباشر الطهارة على ما مر، ثم يستاك ويتوضأ على ما مر، ثم يصلي ركعتي الفجر في منزله، ثم يدعو بدعاء ابن عباس: اللهم اني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، إلى آخر الدعاء وقد مر ذكره، ثم يخرج ويدعو بدعاء الخروج، ويمشي بالسكينة والوقار، ويدخل المسجد ويذكر دعاء الدخول، ثم يطلب الصف الأول ان وجد فرجة، ولا يتخطى الرقاب ولا يزاحم. ثم يصلي ركعتي الفجر ان لم يصلها في البيت، ويدعو بما يدعى بعدهما وقد سبق. وان كان صلاهما صلى ركعتي التحية، وجلس منتظراً للجماعة فانه بمنزلة غزوة في سبيل الله. كذا ورد في الآثار. والأحب التغليس عند الشافعية وعند الحنفية الأسفار. وينبغي ان لا يترك الجماعة لأنها فرض كفاية عند الشافعية وسنة مؤكدة عندنا.

ثم يشتغل بعد ركعتي الفجر بالدعاء بالاستغفار والتسبيح الى أن تقام الصلاة، فيقول: أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأتوب اليه سبعين مرة، وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ـــ مائة مرة. ثم يصلي الفريضة مع آدابها الظاهرة والباطنة، ثم يقعد في مصلاه الى طلوع الشمس.

ويشتغل عند ذلك بأربعة أنواع:

أحدها: الدعاء. ويقول أولاً: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم أنت السلام واليك يعود السلام، حيناً ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والاكرام. ثم يقول: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب،

---

(١) سورة الانسان، آية: ٢٥.

لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت ــ وهو حي لا يموت ــ بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا اله الا الله اهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا اله الا الله لا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ثم يبتدىء و يدعو بالأدعية المذكورة كلا أو بعضاً بقدر طاقته وما يراه أوفق لحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه.

ثانيها: الأذكار المكررة ثلاثاً أو سبعاً، وأكثرها مائة أو سبعين، وأوسطها عشر، و يكرر بقدر فراغه وسعة وقته، وفضل الأكثر أكثر، الا أن القليل مع المداومة أفضل وأشد تأثيراً في القلب من غير مداومة.

وتلك الأذكار عشرة:

الأولى: لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت ــ بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

الثانية: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

الثالثة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

الرابعة: سبحان الله العظيم وبحمده.

الخامسة: أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأسأله التوبة.

السادسة: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

السابعة: لا اله الا الله الملك الحق المبين.

الثامنة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

التاسعة: اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد.

العاشرة: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ اللهم اني أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون.

فهذه عشر كلمات اذا كرر كل واحدة منها عشر مرات حصل له مائة مرة، فهو أفضل من أن يكرر ذكر واحدة مائة، لأن لكل واحدة منها فضلاً على حيالها، وللقلب لكل منها نوع تلذذ واستراحة وأمن من الملال.

ثالثها: القراءة. فالأفضل أن يقرأ سورة الحمد وآية الكرسي وخاتمة البقرة، من قوله: آمن الرسول، وشهد الله، وقل اللهم مالك الملك الآيتين؛ ولقد جاءكم رسول من أنفسكم... إلى آخرها؛ ولقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق — الى آخرها؛ والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، وخمس آيات من أول الحديد؛ وثلاث آيات من آخر سورة الحشر.

وان أراد أن يستكمل الفضل فليقرأ المسبعات العشر، وهي: سورة الحمد، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي — كل واحدة سبع مرات. و يقول سبعاً: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر؛ و يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم سبعاً؛ و يستغفر للمؤمنين والمؤمنات سبعاً، وتستغفر لنفسك ولوالديك سبعاً، وتقول: اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل، انك غفور رحيم — سبع مرات.

رواها كرز بن وبرة عن ابراهيم التيمي انه أهداها اليه الخضر عليه السلام، وقال: أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم، وقال: اذا لقيته فسل عن ثوابه. فذكر ابراهيم التيمي أنه رأى ذات ليلة في منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلته الجنة فرأى في الجنة أموراً عظيمة، فقال للملائكة: لمن هذا، فقالوا: للذي يعمل مثل عملك. وذكر أنه أكل من ثمارها وسقوه من شرابها. قال: وأتاني النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبياً وسبعون صفاً من الملائكة، كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب، فسلم علي وأخذ بيدي، فقلت: يا رسول الله، ان الخضر أخبرني أنه سمع هذا الحديث منك، فقال

صلى الله عليه وسلم: صدق الخضر وكل ما يحكيه فهو حق، وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الابدال، وهو من جنود الله تعالى في الأرض، فقلت: يا رسول الله من فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامي، فقال: والذي بعثني بالحق أنه ليعطيي بهذا ــ وان لم يرني ولم ير الجنة ــ انه ليغفر له جميع الكبائر، و يرفع الله سبحانه عنه غضبه ومقته، و يؤمر صاحب الشمال ان لا يكتب عليه شيئاً من السيئات الى سنة؛ والذي بعثني بالحق ما يعمل بهذا الا من خلقه الله سعيداً، ولا يتركه الا من خلقه الله شقياً.

وكان ابراهيم مكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب، ولعله كان بعد هذه الرؤيا.

واعلم: أنه ان أضاف الى ذلك ما انتهى اليه ورده من القرآن كان أحسن وأفضل.

ورابعاً: الأفكار: وذلك أما في المعاملات: بأن يحاسب نفسه بأن يتفكر في تقصيره وفي دفع الصوارف والعوائق عن الخير وطريق الاخلاص في النيات، واما في المكاشفات: بأن يتفكر في جلال الله تعالى ونقمته فيزداد خوفاً، أو في جماله ونعمته و يزداد شكراً. والفكر أشرف العبادات لأن فيه الذكر ومادة المعرفة، اذ الفكر مفتاح المعارف، ويحصل من المعرفة التعظيم، ومنه المحبة. وأيضاً الذكر وان أورث الأنس الذي هو نوع من المحبة، فالمحبة الخالصة من الفكر أقوى وأثبت وأعظم، أو لا يرى أن العشق لمن يشاهد جماله بالعين أقوى من العشق لمن كرر على السمع وصفه، اذ ليس الخبر كالعيان.

قال الشاعر

ولكن للعيان لطيف معنى ... به سأل المعاينة الكليم

ولهذا صار يقين العارفين الذين شاهدوا ذلك الجمال والجلال بعين البصيرة الباطنة ــ التي هي أقوى من البصر الظاهر ــ أجل وأعظم من يقين العباد المواظبين على ذكر الله بالقلب واللسان، اذ ليس معهم من محاسن الصفات الا

أمور جميلة لا تشفي العليل ولا تسقي الغليل الا الأقل من القليل، الذين قنعوا من اليقين بالدليل.

الورد الثاني: وهو الذي من طلوع الشمس الى ضحوة النهار، وهي منتصف ما بين الطلوع الى الزوال، وذلك لمضي ثلاث ساعات من نهار يكون اثنتي عشرة ساعة، اذ هي ربع النهار. وفي هذا الربع وظيفتان:

أحداهما: صلاة الضحى.

وهي نوعان:

أحدهما: وقت أشراق الشمس. وهو وقت ظهور نورها بارتفاعها عن موازاة البخارات الأرضية المانعة عن اشراق نورها. وهذا ركعتان، وقد مر ذكرهما، ويسميان صلاة الاشراق.

وثانيها: وقت اشتداد حر الشمس. اذا رمضت الفصال ــ وهو الضحى الأعلى ــ فيصلي عند ذلك أربعاً أو ستاً أو ثمانياً، ويسمى ذلك صلاة الأوابين.

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الاشراق، فنادى بأعلى صوته: ألا أن صلاة الأوابين اذا رمضت الفصال. ولذلك يقال اذا اقتصر على واحد من النوعين فهذا الوقت أفضل.

وثانيتها: الخيرات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادة بكرة: من عيادة مريض، أو تشييع جنازة، ومعاونة على بر وتقوى، وحضور مجلس علم، وقضاء حاجة لمسلم، ونحو ذلك. فإن لم يوجد شيء من أمثال هذه عاد الى الوظائف الأربع التي قدمناها: من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلاة تطوعاً اذ حينئذ تحل الصلاة.

الورد الثالث: من ضحوة النهار إلى الزوال. فالصلاة في كل ساعة مستحبة أو مفروضة. من الصبح الى الضحوة ثلاثاً، ومنها إلى الزوال ثلاثاً، وكذا منه إلى العصر، ومن العصر الى المغرب. فالضحى نظير العصر، الا أنه لم

يفترض لأنه وقت أشغال الناس ومعاشهم، فخفف عنهم. فوظيفة الوقت المذكور الأقسام الأربعة ويزيد أمرين.

أحدهما: الاشتغال بالكسب وتدبير المعاش. فإن كان تاجراً يحضر السوق، ــ وسنذكر شرائطه ــ ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه.

وثانيهما: القيلولة. وهي سنة ليستعين بها على قيام الليل، كما أن التسحر سنة ليستعين به على صيام النهار. فإن كان لا يقوم بالليل، لكن كان بحيث لو لم ينم لأشتغل بالتحدث مع الناس، فالنوم أحب إليه؛ وكذا لو كان بحيث لا ينشط بدون النوم للأذكار والوظائف المذكورة، فنومه على النيتين المذكورتين يصير قربة. ولكن ينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة وحضور المسجد قبل وقت الصلاة، وان لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار، لأنه وقت غفلة الناس واشتغالهم بهموم الدنيا، فالخدمة عند اعراض العبيد عن باب مولاهم جدير بأن يزكيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته، ولهذا المعنى صار احياء الليل قربة وفضلاً.

الورد الرابع: ما بين الزوال الى الفراغ من صلاة الظهر وراتبته، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها. فإذا حضر المسجد قبل الزوال فليصبر إلى فراغ المؤذن عن جواب أذانه، ثم ليقم إلى أحياء ما بين الآذان والاقامة وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وحين تظهرون﴾(١). وليصل أربع ركعات لا يفصل بينها بتسليم وليطولها، اذ فيها تفتح أبواب السماء، وليقرأ فيها سورة البقرة، أو سورتين من المثين، أو أربعاً من المثاني، فهذه ساعة يستجاب فيها الدعاء. وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع له فيها عمل. ثم يصلي الظهر بجماعة، ثم يصلي بعده ركعتين، ثم أربعاً يقرأ فيها آية الكرسي وآخر البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول.

---

(١) سورة الروم، آية: ١٨.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر. فيعتكف ما بينهما في المسجد مشتغلاً بالذكر والصلاة وفنون الخير، وكان ذلك سنة السلف لأنه وقت غفلة الناس، لكن ان كان البيت أسلم لدينه وأجمع لهمه فهو أفضل. وفي هذا الوقت يكره النوم اذ يكره نومتان بالنهار وهذا الوقت هو المراد بالآصال في قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾[1].

واعلم: أن اعتدال النوم ثماني ساعات بالليل والنهار اللذين هما جميعاً أربع وعشرون ساعة، وان نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار ولا يزيد عليه، فحسب ابن آدم ان عاش ستين ان ينقص من عمره عشرين سنة وهو ثلث عمره، ولكن لا ينقص منه لئلا يختل البدن فيضيع طاعته وكماله، الا أن يتعود السهر بالتدريج ويتمرن عليه من غير اضطراب. وقد شاهدنا ذلك في بعض العباد مع قوة أبدانهم في العبادات.

الورد السادس: بعد دخول وقت العصر وليس في ذلك صلاة غير أربع ركعات بين الآذان والاقامة، ثم يصلي العصر، ثم يشتغل بالوظائف الأربع المذكورة، وان اشتغل بالتلاوة وبتدبر كان أفضل.

الورد السابع: وقت اصفرار الشمس. وهو المراد بقوله: ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾[2]. فيستحب فيه الدعاء والتسبيح والاستغفار خاصة، وسائر ما ذكر في الورد الأول؛ مثل أن يقول: أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأسأله التوبة، وسبحان الله العظيم وبحمده، ويستغفر ويقول: ﴿واستغفروا ربكم انه كان غفاراً﴾[3]، ﴿واستغفره انه كان تواباً﴾[4]؛ رب أغفر وأرحم وأنت خير الراحمين، فأغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الغافرين الراحمين.

ويستحب أن يقرأ قبل الغروب: والشمس وضحاها والليل اذا يغشى

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٥.
(٢) سورة الروم، آية: ١٧.
(٣) سورة نوح، آية: ١٠.
(٤) سورة النصر، آية: ٣.

والمعوذتين، ولتغرب الشمس وهو في الاستغفار كما قال تعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾؛ و﴿سبح بحمد ربك بالعشي والابكار﴾.

فإذا سمع الأذان قال: اللهم هذا اقبال ليلك وادبار نهارك ــ الدعاء كما سبق. ثم يجيب المؤذن، ثم يشتغل بصلاة المغرب، وبذلك انقضت مرحلة من عمره. فحينئذ يحاسب نفسه هل كان شراً من أمسه فكان من الملعونين، فعند ذلك فليعزم على تلافي ما سبق من تفريطه، فإن الحسنات يذهبن السيئات والليل خلفه النهار، فيداوي تفريطه بالليل؛ أو ساواه فكان من المغبونين، لأن من استوى يوماه فهو مغبون. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً». فإن رأى زيادة في خيره فليحمد الله عز وجل وليشكره على توفيقه وتسديده اياه لطريقه، وليحضر في قلبه ان نهار العمر له غروب ولا طلوع بعده فيغلق باب التدارك، فيبادر الى الخيرات قبل فواتها.

بيان أوراد الليل وهي خمسة

الأول: الاشتغال بأحياء ما بين العشاءين الى غيبوبة الشفق، وهي المراد في قوله تعالى: ﴿ان ناشئة الليل﴾[1]. وليحذر عن النوم في ذلك الوقت. ويصلي بعد المغرب ركعتين يقرأ فيهما: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، و﴿قل هو الله أحد﴾ ــ من غير تخلل كلام وشغل عقيب صلاة المغرب. ثم يصلي أربعا يطليلهن، ثم يصلي ما تيسر له إلى غيبوبة الشفق. فإن كان منزله قريباً من المسجد فلا بأس أن يصلي هاتين الصلاتين في بيته، اذا لم يكن قصده العكوف في انتظار العتمة، وان قصد ذلك فهو أفضل ان لم يدخله التصنع والرئاء والسمعة.

الورد الثاني: من وقت العشاء الى حد نوم الناس. وهو بمراعاة أمور ثلاثة:

---

(١) سورة المزمل، آية: ٦.

الأول: أن يصلي بين الأذان والاقامة أربع ركعات، و يصلي بعد الفرض ركعتين، ثم أربعاً، و يقرأ فيها آخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وغيرها.

الثاني: أن يصلي ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر. والحزم تقديمه على النوم، اذ ربما لا يستيقظ و يثقل عليه القيام. الا أن يعتاد ذلك فالتأخير أفضل. وليقرأ في هذه الصلاة قدر ثلاثمائة من السور التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها؛ مثل: سورة يس، وسجدة لقمان، وسورة الدخان، وتبارك الملك، والزمر والواقعة. فإن لم يصل فلا يدع قراءة هذه السورة بعضها قبل النوم.

وروى: ان ما كان يقرأ النبي صلى الله عليه وسلم في كل ليلة: السجدة وتبارك الملك؛ وفي رواية: الزمر وبني اسرائيل؛ وفي رواية: كان يقرأ المسبحات كل ليلة، و يقول: «فيها آية أفضل من الف آية». وبعض العلماء يزيدون: سبح اسم ربك الأعلى، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يحب هذه السورة. وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر: سبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وسورة الأخلاص. فإذا فرغ قال: سبحان الملك القدوس ثلاث مرات.

الثالث: الوتر قبل النوم. والتأخير أفضل لمن وثق بالانتباه. و يقول بعد السلام من الوتر: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، جللت السموات والأرضين بالعظمة والجبروت، وتعززت بالقدرة، وقهرت العباد بالموت.

الورد الثالث: النوم. وانه من العبادة ان روعيت آدابه. وورد في الحديث: «اذا نام العبد على طهارة وذكر الله عز وجل يكتب مصلياً حتى يستيقظ، و يدخل في شعاره ملك فإن تحرك في نومه فذكر الله عز وجل دعا الملك واستغفر له». وفي الخبر: اذا نام العبد على طهارة رفعت روحه الى العرش. هذا في العوام فكيف في العلماء وأرباب القلوب المكاشفين بالأسرار في النوم؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح».

وآدابه عشرة:

الأول: الطهارة والسواك. اذ بذلك عرج بروحه الى السماء فتصدق رؤياه والا فتصير أضغاث أحلام، كذا ورد في الخبر. الا أن المراد طهارة الظاهر والباطن جميعاً، لأنها هي المؤثرة في انكشاف حجب الغيوب.

الثاني: أن يعد عند رأسه سواكه وطهوره، و ينوي القيام للعبادة، وكلما انتبه استاك، كذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وان لم يتيسر له الطهارة يتيمم، فإن لم يجد فليقعد مستقبل القبلة و يشتغل بالذكر والدعاء والفكر، فذلك يقوم مقام قيام الليل.

الثالث: ان لا يبيت الا ووصيته مكتوبة عنده فأنه لا يأمن القبض في النوم. يقال: من مات من غير وصية لم يؤذن له في الكلام في البرزخ الى يوم القيامة، يتزاورون الأموات و يتحدثون فهو لا يتكلم، فيقول بعضهم لبعض: هذا المسكين مات من غير وصية. وذلك مستحب خوفاً من الفجاءة.

وموت الفجاءة تخفيف الا لمن ليس مستعداً للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم.

الرابع: أن ينام تائباً من كل ذنب، سليم القلب لجميع المسلمين، لا يحدث نفسه بظلم أحد، ولا يعزم على معصية ان استيقظ.

الخامس: ان لا يتنعم بالفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه. وكان بعضهم يكرهون الفراش المهيأ للنوم. وكان أهل الصفة لا يتركون بينهم وبين التراب حاجزاً، و يقولون: منها خلقنا واليها نرد، وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر لتواضع نفوسهم، الا أن ذلك في البلاد الباردة يضر بالمزاج. فالاقتصاد فيها: أن لا يعين للنوم فراشاً، بل ينام على ما يقعد عليه في النهار أي شيء كان.

السادس: أن لا ينام ما لم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه. وقد كان السلف نومهم غلبة، وأكلهم فاقة، وكلامهم ضرورة، الا أن يقصد به

الاستعانة على قيام الليل. وان غلبه النوم عن الصلاة أو الذكر وصار لا يدري ما يقول فلينم حتى يدري ما يقول. قال صلى الله عليه وسلم: «لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده يغلبه». فلا تبغض اليك عبادة الله عز وجل.

السابع: أن ينام مستقبل القبلة: أما كهيئة المحتضر بأن يستلقي على قفاه ورجلاه الى القبلة، أو كهيئة المقبور بأن ينام على جنب ووجهه اليها، مع قبالة بدنه اذا نام على الأيمن.

الثامن: الدعاء عند النوم، وقد مر ذلك. و يستحب أن يقرأ آية الكرسي وآخر البقرة، وغيرها: ﴿ والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ﴾.. الى قوله: ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾[1]؛ يقال ان من قرأ هذا عند النوم حفظ عليه القرآن فلم ينسه؛ و يقرأ من سورة الاعراف: ﴿ ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾[2]، وآخر — بني اسرائيل: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾[3]. الآيتين، فانه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه و يستغفر له. و يقرأ المعوذتين و ينفث بهما في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده، وذلك مروي من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليقرأ عشراً من أول الكهف وعشراً من آخرها، وهذه الآى لاستيقاظ قيام الليل، وكان على كرم الله وجهه يقول: ما أرى رجلاً مستكملاً عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة. وليقل خمساً وعشرين: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر، ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة.

التاسع: أن يتذكر عند النوم أخو الموت والتيقظ نوع بعث، ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة، فلا بد للنائم وأن يفتش عن قلبه عند النوم: انه على ماذا ينام، وما الغالب عليه: حب الله تعالى وحب لقائه، أو حب الدنيا، وليتحقق انه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه، فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٤.

العاشر: الدعاء عند التنبه بما سبق. ويقول مهما تنبه من النوم: لا اله الا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار. وليجتهد أن يكون آخر ما يجري على قلبه عند النوم وأول ما يجري على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فإن علامة الحب ذلك، وليجرب قلبه بذلك فانها علامة تكشف عن باطن القلب.

الورد الرابع: يقوم في السدس الأخير من الليل الى التهجد، وهو اسم لما بعد الهجود والهجوع وهو النوم، اذ حينئذ يهتز العرش، وتنتشر رياح الجنة العدن، وينزل الجبار سبحانه الى سماء الدنيا كما ورد في الخبر. فبعد ما فرغ من دعاء الانتباه يتوضأ، ثم يستقبل القبلة ويقول: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً. ثم يسبح عشراً ويحمد عشراً ويهلل عشراً، ويقول: الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة. ثم يقول هذه الكلمات، فأنها مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قيامه لتهجد: اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق، ومنك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق؛ اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت واليك حاكمت، فأغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت؛ اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها الا أنت، وأصرف عني سيئها لا يصرف سيئها عني الا أنت، أسألك مسألة البائس المسكين، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل، فلا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين وأكرم المعطين.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل افتتح صلاته وقال: اللهم رب جبرئيل وميكائيل واسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا

فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. ثم يفتتح الصلاة و يصلي خفيفتين. ثم يصلي مثنى ما يسر له ويختم بالوتر ان لم يكن صلاة.

و يستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح و يزيد في نشاطه للصلاة، وقد صحح في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالليل، انه صلى أولاً ركعتين خفيفتين، ثم ركعتين طويلتين، ثم ركعتين دون اللاتي قبلها، هكذا إلى ثلاث عشرة ركعة بالتدريج.

وسئلت عائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر في قيام الليل أم يسر، فقالت: ربما أسر وربما جهر. وقال صلى الله عليه وسلم: «صلاة المغرب أوترت صلاة النهار، فأوتر صلاة الليل».

الورد الخامس: السدس الأخير من الليل ــ وهو وقت السحر. فيصلي ركعتي الفجر ثم يقول: ﴿شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم﴾[1]. الآية. ثم يقول: وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت ملائكته وأولو العلم من خلقه. وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي وديعة عنده، وأسأله حفظها حتى يتوفاني عليها، اللهم احطط عني بها وزراً، واجعل لي بها عندك ذخراً، واحفظها علي وتوفني عليها حتى ألقاك بها غير مبدل تبديلاً.

فهذا ترتيب الأوراد للعباد.

ومع ذلك فقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور: صوم، وصدقة وان قلت ــ حتى العنبة والبصلة وكسرة خبز وعيادة مريض وشهادة جنازة، اذ قد ورد في فضل كل منها الأحاديث والأخبار والآثار.

واعلم: أن الأولى من بين الأوراد قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبر لأنه يجمع جميع أنواع الأذكار، لكن ربما تعسر المواظبة عليها فيجوز للعابد

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨.

الانتقال من نوع إلى نوع لا يلحقه فيه الملل، اذ الغرض تحصيل صفاء الباطن.

والتحقيق: أن أحوال الأشخاص متفاوتة: فمن واحد يرى الصفاء في نوع، ومن آخر في غيره، فعليه أن يلازم. أوجد عنده في قلبه فتحاً وصفاء. وتوزيع الأوراد انما هو لأجل دفع الملل وتجربة لما له فيه الصفاء، فإذا أصابه فليواظب عليه، وذلك يختلف باختلاف الطبائع وبتفاوت الأحوال. وكان في الصحابة من ورده في اليوم والليلة إثنا عشر ألف تسبيحة، وفيهم من ورده ثلاثون ألفاً، وفيهم من يصلي ثلاثمائة ركعة الى ستمائة ركعة والى ألف ركعة، ولم يكن أقل من مائة ركعة، وكان فيهم من يختم في اليوم مرة ومرتين، ومنهم من ورده آية واحدة يرددها بالتفكر الى غير ذلك.

المطلب الثاني

العالم الذي ينتفع بعلمه بفتوى أو تدريس أو تصنيف

فترتيب أوراده يخالف ترتيب أوراد العابد، لأن العلم أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات وفيه منفعة الخلق وهدايتهم الى طريق الآخرة، ورب مسألة واحدة يصلح بها المتعلم عبادة عمره. وانما المراد بالعلم: العلم المذكر للآخرة لا العلم الذي يتوسل به الى المال والجاه وقبول الخلق. فينبغي للعالم أن يوزع أوقاته والا يلحقه الكلال، فيخصص ما بين الفجر الى طلوع الشمس، ومنه الى الضحوة في الافادة والتعليم ان كان عنده من يستفيد علماً لأجل الآخرة، وان لم يكن فيصرفه إلى الفكر وحل مشكلات العلوم الدينية، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا أكثر وأوفر؛ ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة، لا يتركها الا في وقت أو طهارة أو مكتوبة أو قيلولة خفيفة ان طال النهار؛ ومن العصر الى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع؛ ومن الاصفرار الى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح. فيكون ورده الأول عمل اللسان، والثاني عمل القلب، والثالث عمل العين واليد، والرابع عمل السمع لتتروح به العين واليد؛ اذ المطالعة

والكتابة بعد العصر ربما أضر الى البصر. وعند الاصفرار يعود الى عمل اللسان. هذا تقسيم النهار.

وأما تقسيم الليل: فالأولى فيه تقسيم الشافعي؛ حيث جعل الثلث الأول للمطالعة وتربية العلم، والثاني للصلاة، والثالث للنوم. الا أن ذلك ربما لا يتيسر في ليالي الصيف الا اذا كثر النوم بالنهار، والا فليجعل المطالعة والصلاة أقل من الثلث، وليضم ما فضل منهما الى النوم، اذ البدن اذا ضعف يفوت الكمال الكثير. اللهم الا أن يعتاد ذلك بالتدريج. وقد شاهدنا من يفعل ذلك.

المطلب الثالث

في المتعلم

والتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد، لكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالافادة، والتعليق أو النسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف.

المطلب الرابع

في المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله

فليس له أن يستغرق الأوقات في العبادات لئلا يضيع له العيال، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب. لكن ينبغي أن لا ينسى الله عز وجل في صناعته، فيواظب على ما أمكن جمعه مع العمل، فإذا فرغ من كفايته يعود الى أوراده.

المطلب الخامس

في الوالي

مثل الامام والقاضي والمتولي لأمر من أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين على وفق الشرع وقصد الاخلاص أفضل من الأوراد المذكورة. فحقه

أن يشتغل بأمور الناس نهاراً و يقتصر على المكتوبة، و يقيم الأوراد المذكورة بالليل، كما كان عمر رضي الله عنه اذ قال: مالي والنوم لو نمت بالنهار لضيعت أمر المسلمين، ولو نمت بالليل لضيعت نفسي. فظهر مما ذكر، أن العلم والرفق بالمسلمين مقدمان على كثير من العبادات لتعدي نفعهما الى العامة.

المطلب السادس

الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح وهمه هم واحد، فلا يحب الا الله عز وجل، ولا يخاف ولا يرجو الا منه. فمن ترقت رتبته الى هذا الحد لا يحتاج الى ترتيب الأوراد وتوزيعها، لأن قلبه مع الله في كل وقت، فلا محرك له ولا مسكن الا الله تعالى، ولا تتميز عنده عبادة عن عبادة، وهو الذي يستغني عن تعليم المعلمين. فذلك خارج عن خطابنا في هذا الباب. الا أنه ينبغي للمريد أن لا يدعي لنفسه تلك المرتبة و يتكاسل عن وظائف العبادات، وان أحاط به حسن الظن بنفسه وألقاه في العجب فعليه أن يتدارك حاله بما سنذكره ان شاء الله تعالى.

خاتمة

في قيام الليل

وهو صنفان أما قبل النوم أو بعده.

الصنف الأول: يسمى صلاة الأوابين. وهي ركعتان، من واظب عليها بني الله له قصرين في الجنة. قيل فيقرأ في الأولى ــ بعد الفاتحة ــ عشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها من قوله تعالى: ﴿والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ــ ان في خلق السموات والأرض﴾. الآية؛ ﴿وقل هو الله أحد﴾ خمس عشرة مرة؛ و يقرأ في الثانية ــ بعد الفاتحة ــ آية الكرسي وآيتين بعدها الى قوله: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾؛ وثلاث آيات من آخر البقرة من قوله تعالى: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ الى آخرها؛ ﴿وقل هو الله أحد﴾ خمس عشرة مرة ــ ووصف في الحديث: ثوابها

يخرج عن الحصر؛ وفي رواية: أربع ركعات من واظبها عدلت له عبادة سنة، أو كأنها صليت ليلة القدر؛ وفي رواية: عشر ركعات من واظبها بني له قصر في الجنة.

ونقل عن كرز بن وبرة ــ وهو من الابدال: قلت للخضر عليه السلام: علمني شيئاً أعمله في ليلتي، قال: اذا صليت المغرب فقم الى صلاة العشاء مصلياً من غير أن تكلم أحداً، وأقبل على صلاتك التي أنت فيها، وسلم من كل ركعتين، واقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ «قل هو الله أحد» ثلاثاً. فإذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحداً، وصل ركعتين، واقرأ في كل ركعة ــ بعد الفاتحة ــ الاخلاص سبعاً، ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر الله سبعاً وقل: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم سبعاً، ثم أرفع رأسك من السجود، واستو جالساً وأرفع يديك وقل: يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والاكرام، يا اله الأولين والآخرين، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا رب يا رب، يا الله يا الله يا الله، ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك، وصل على النبي صلى الله عليه وسلم وادم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم؛ فقلت له: أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا، فقال: اني حضرت محمداً صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى به اليه وكنت عنده، وكان ذلك بمحضر مني فتعلمته ممن علمه اياه.

ويقال: ان هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليها بحسن يقين وصدق نية رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه قبل أن يخرج من الدنيا. وقد فعل ذلك بعض الناس، فرأى أنه دخل الجنة ورأى فيها الأنبياء، ورأى محمداً صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء، وكلمه وعلمه.

الصنف الثاني: القيام بعد النوم والآيات والأخبار والآثار في فضله أكثر من أن تحصى.

ومن الآيات قوله عز وجل: ﴿ان ربك يعلم أنك تقوم ادنى من ثلثي الليل

ونصفه ﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾[2]. الآية؛ وقوله جل ذكره: ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾[3].

ومن الأخبار قوله صلى الله عليه وسلم: «ان من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً الا أعطاه اياه». وقال: «عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم، فإن قيام الليل قربة الى الله تعالى وتكفير للذنوب ومطردة للداء عن الجسد ومنهاة عن الاثم». وقال لأبي ذر: «لو أردت سفراً أعددت عدة، فكيف سفر طريق الآخرة، ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم، قال: بلى، فداك أبي وأمي، قال: صم يوماً شديد الحر ليوم النشور، وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور، وحج حجة لعظائم الأمور، وتصدق بصدقة على مسكين، أو كلمة حق تقولها، أو كلمة شر تسكت عنها».

ومن الآثار: قيل للحسن: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً، قال: انهم خلوا بالرحمن تعالى فألبسهم نوراً من نوره. وقال: ان الرجل ليذنب الذنب فيحرم قيام الليل. وقال الفضيل: اذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم انك محروم وقد كثرت خطيئتك.

واعلم: انك اذا عرفت فضيلتها فعليك أن تعرف الأسباب المسهلة لقيام الليل.

وهي أما ظاهرة أو باطنة:

الأول: أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم و يثقل عليه القيام.

الثاني: أن لا يتعب بدنه بالنهار في الأعمال فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة.

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار فأنه يحول بينه و بين أسباب السعادة.

---

(١) سورة المزمل، آية: ٢٠.
(٢) سورة الزمر، آية: ٩.
(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٤.

الثاني أربعة أيضاً:

الأول: سلامة القلب من الحقد على أحد من المسلمين، ومن البدع، ومن فضول هموم الدنيا، لأن من كثر همه فنائم ولو استيقظ.

الثاني: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل، لأن ذكر جهنم يطير نوم العابدين.

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل فيهجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في الجنان.

الرابع: وهو أشرف البواعث، الحب لله عز وجل وقوة الايمان، لأن من أحب مولاه أحب الخلوة به والتذ المناجاة معه.

وأعلم: أن محبة الله تعالى لا ينكرها الا من ران قلبه بالبدع أو غلب عليه حب الدنيا، والا فهي من أعظم اللذائذ ولا لذة فوقها بل لا لذة غيرها، وقد شهد العقل والنقل بوجودها.

أما العقل: فإن من أحب شخصاً بسبب جماله، أو عالماً بسبب كماله كيف يريد رؤيته وسماع كلامه والخلوة به ومناجاته، وليس التلذذ بالنظر الى المحبوب فقط، بل يلتذ من وراء ستر أو في بيت مظلم؛ ولا بسماع كلامه فقط، اذ ربما يلتذ مع عرض حاله الى المحبوب وان لم ير ولم يتكلم.

وأما النقل: فيشهد له أحوال المحبين في قيام الليل وتلذذهم بالمناجاة، ومن لم ينتبه بهذا المقدار لا يعترف بالتطويل والاكثار.

فاعلم: أن قيام الليل سبع مراتب:

الأولى: أحياؤه كلا وهذا شأن الأقوياء.

الثانية: قيام نصفه، والأحسن أن ينام الثلث الأول والسدس الأخير ويصير قيامه في الوسط.

الثالثة: قيام ثلثه، بأن ينام النصف الأول والسدس الأخير. وبالجملة:

نوم آخر الليل محمود، لأنه يذهب النعاس بالغداة، و يقلل صفرة الوجه التي هي سبب الشهرة؛ وأيضاً سبب لكشف حجب الغيوب كما يشاهده أرباب القلوب. وقيام ثلث الليل من النصف الأخير ونوم السدس الأخير قيام داود عليه السلام.

الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه. وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير.

الخامسة: أن لا يراعي التقدير، فإن ذلك انما يتيسر لنبي يوحى اليه، أو لمن يعرف منازل القمر. فإذا كان غيم يقوم أول الليل ثم ينام، وهذا أشد الأعمال وأفضلها، فتكون له قومتان ونومتان. وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو طريقة ابن عمر وأولى العزم من الصحابة والتابعين.

السادسة: وهي الأقل ــ أن يقوم قدر أربع ركعات أو ركعتين، أو يتعذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة مشتغلاً بالذكر والدعاء، فيكتب في جملة قيام الليل برحمة الله وفضله. وقد جاء في الأثر: صل من الليل ولو قدر حلب الشاة.

السابعة: أن يقوم بين العشاءين، ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر، وهي أدنى المراتب و يقوم طرفي الليل فقط.

ثم اعلم: أن الليالي التي يحسن احياؤها خمس عشرة ليلة في السنة: ستة منها في رمضان هي أوتار العشر الأخير ــ اذ فيها تطلب ليلة القدر، وليلة سبعة عشر من رمضان ــ وهي التي صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر. وقيل: هي ليلة القدر. وأما الثماني الأخر: فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه. وهي ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة. قال صلى الله عليه وسلم: «للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة»؛ فن صلى فيها اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل منها ــ بعد الفاتحة ــ سورة من القرآن، و يتشهد في كل ركعتين،

ويسلم في آخرهن، ثم يقول: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر — مائة مرة، ويستغفر الله مائة مرة، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة، ويدعو لنفسه ما شاء من أمر دنياه وآخرته، ويصبح صائماً، فإن الله يستجيب دعاءه كله الا أن يدعو في معصية.

فأما ليلة النصف من شعبان: فيصلي فيها مائة ركعة، ويقرأ — بعد الفاتحة — سورة الاخلاص عشر مرات كانوا لا يتركونها.

وليلة عرفة وليلة العيدين: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحيا ليلة العيد لم يمت قلبه يوم تموت القلوب».

وأما الأيام الفاضلة: فهي تسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها؛ يوم عرفة؛ ويوم عاشوراء؛ ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم — وفي الحديث: «من صام فيه كتب الله له صيام ستين شهراً». وهو يوم هبط فيه جبريل بالرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم؛ ويوم سبعة عشر من رمضان: وفيه كانت وقعة بدر؛ ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوم العيدين، والأيام المعلومات وهي عشر ذي الحجة، والأيام المعدودات وهي أيام التشريق.

ومن فواضل الأيام في الأسبوع الأثنين والخميس، ترفع فيها الأعمال الى الله عز وجل. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

الشعبة الثانية
في العادات

و يتفرع ذلك عن عشرة أصول:

الأصل الأول
في آداب الأكل

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في أحوال المنفرد

وهي ثلاثة أقسام:

القسم الأول
في آدابه قبل الأكل

وهي سبعة:

الأول: أن يكون الطعام حلالاً في الشرع في نفسه ومن جهة كسبه، وطيباً في الورع. وستعرف معنى الحلال الطيب، وهو من الفرائض وأصول الدين.

الثاني:-غسل اليد قبل الطعام و بعده، قال صلى الله عليه وسلم: «الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر و بعده ينفي اللمم».

الثالث: أن يوضع الطعام على السفرة دون الخوان والموائد، لأنه أقرب الى التواضع وأوفق للسنة، وان جاز الأكل على غيرها أيضاً.

الرابع: أن يحسن الجلسة: بأن يجثو على ركبتيه، ويجلس على ظهر قدميه، أو ينصب رجله اليمنى على اليسرى. كذا فعل صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: «أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد». و يكره قائماً ومتكئاً، الا ما يتنقل به من الحبوب والشرب متكئاً مكروه و يضر المعدة.

الخامس: أن ينوي بأكله أن يتقوى على الطاعة ليكون أكله عبادة، ولا يقصد التلذذ والتنعم، و يعزم على التقليل، اذ الشبع يمنع العبادة و به يعرف كون نيته قصد العبادة بأن لا يمد يده الا وهو جائع و يرفعه قبل الشبع. ومن فعل كذلك استغنى عن الطبيب وأقوى على العبادة. وأدنى درجات الأكل وأوسطه ما ورد في الحديث: «ما ملأ آدمي وعاء شر من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس».

السادس: أن يرضى بالموجود و يقنع بالحاضر ولا ينتظر الزيادة؛ مثلاً اذا حضر الخبز لا ينتظر الادام.

السابع: أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده لأن فيه البركة. وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده.

القسم الثاني

في آداب حالة الأكل

وهو: أن يبتدىء ببسم الله ويختم بالحمد لله، بل يقول مع اللقمة: بسم الله، ومع الثانية: بسم الله الرحمن الرحيم، ولو قال مع كل لقمة: بسم الله لكان أحسن لئلا يصده الشره عن ذكر الله؛ ويجهر ليذكر غيره، و يأكل باليمين. و يبدأ بالملح ويختم به، و يصغر اللقمة ويجود مضغها، وما لم يبتلعها لم يمد يده الى الأخرى، فإن ذلك عجلة مذمومة. وأن لا يذم مأكولاً وأن يأكل مما يليه الا الفاكهة لأنه ليس نوعاً واحداً، وأن لا يأكل من ذروة القصعة ولا من

وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف، الا اذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطعه ولا اللحم بالسكين. ولا يضع على الخبز قصعة ولا غيرها الا ما يؤكل به، ولا يمسح يده بالخبز اذ ورد الأمر في الحديث بأكرام الخبز وأنه من بركات السماء. واذا كان باللقمة أذى فليمط ذلك وليأكل ولا يدعها للشيطان، والا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فأنه لا يدري في أي طعامه البركة. وورد النهي عن النفخ في الطعام الحار بل يصبر الى أن يسهل أكله. و يأكل من التمر وتراً: سبعاً أو تسعاً أو احدى عشرة أو احدى وعشرين أو ما اتفق، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق ولا في كفه بل يجمعه على ظهر كفه ثم يلقيها، وكذا ماله عجم أو ثقل، وأن لا يكثر الشرب أثناء الطعام الا اذا غص بلقمة أو صدق عطشه. و يقال: ان ذلك مستحب طباً لأنه دباغ المعدة.

وأما الشراب: فأدابه أخذ الكوز بيمينه، و يقول: بسم الله، و يشربه مصاً لا عباً ولا قائماً ومضطجعاً. و يراعي أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه، و ينظر في الكوز قبل الشرب، ولا يتجشأ في الكوز بل ينحيه عن فيه بالحمد و يرده بالتسمية. و يشرب في ثلاثة أنفاس، ويحمد كل مرة في أواخرها و يسمى في أوائلها، و يقول في آخر النفس الأول: الحمد لله، وفي الثاني: يزيد رب العالمين، وفي الثالث: يزيد الرحمن الرحيم. والكوز كل ما يدار على القوم يدار يمنة. كذا أورده السنة. وقال صلى الله عليه وسلم بعد الشرب: «الحمد لله الذي جعله عذباً فراتا برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا».

القسم الثالث
في الآداب بعد الطعام

وهو: أن يغسل يده بعد لعق أصابعه و يلتقط فتات الطعام؛ قال صلى الله عليه وسلم: «من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده».

وقيل: أنه مهور الحور العين. ويخلل أسنانه و يرمي ما خرج الا ما يجتمع

بين أصول أسنانه فخرج بلسانه، وليتمضمض بعد الخلال، وأن يلعق القصعة، وأن يشكر على الطعام بقلبه.

وان أكل حلالاً قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات، اللهم اطعمنا طيباً واستعملنا صالحاً. وان أكل شبهة فيقول: الحمد لله على كل حال، اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك. ويقرأ بعد الطعام «قل هو الله أحد» و «لايلاف قريش» ولا يقوم قبل رفع المائدة.

وان أكل طعام غيره فليقل: اللهم بارك له فيما رزقته، ويسر له أن يفعل منه خيراً، وقنعه بما أعطيته، واجعلنا واياه من الشاكرين.

وان أكل طعام غيره فليقل: اللهم بارك له فيما رزقته، ويسر له أن الابرار، وصلت عليكم الملائكة.

وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبهة ليطفىء بدموعه وحزنه حر النار التي تعرض لها بقوله صلى الله عليه وسلم: «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به». وليس من يأكل ويبكي كمن يأكل ويلهو. وليقل اذا أكل لبناً خاصاً به «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه». وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء باللبن لعموم نفعه.

وان أكل غير اللبن قال: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وأرزقنا خيراً منه. ويستحب عقيب الطعام أن يقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، سيدنا ومولانا يا كافي من كل شيء ولا يكفي منه شيء، أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد، آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت من عيلة، فلك الحمد حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه. اللهم كما أطعمتنا طيباً فاستعملنا صالحاً، اللهم اجعله عوناً لنا على طاعتك ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك.

وأما كيفية غسل اليد بالاشنان: أن يجعله على كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليد اليمنى أولاً، ويضرب أصابعه على الاشنان اليابس

فيمسح به شفتيه، ثم ينعم غسل الفم بأصبعيه، و يدلك ظاهر أسنانه و باطنها والحنك واللسان، ثم يغسل أصابعه ظهراً وبطناً، و يستغنى بذلك عن اعادة الاشنان الى الفم واعادة غسله.

المطلب الثاني
في آداب الجماعة في الأكل

وهي سبعة:

الأول: أن لا يبتدىء قبل من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل، الا أن يكون المقتدى فيعجل لئلا ينتظر فيعجل.

الثاني: أن لا يسكتوا بل يتكلمون بالمعروف وحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها وانما السكوت من فعل الأعاجم.

الثالث: أن لا يأكل زيادة على رفيقه فإن ذلك حرام ان لم يرض رفيقه به والطعام مشترك، بل يقصد الايثار، ولا يأكل تمرتين في دفعة الا اذا استأذنهم وفعل الكل، و ينشط رفيقه و يرغبه في الأكل ان قلل، و يقول ولا يزيد على ثلاث لئلا يكون الحاحاً، ولا يحلف عليه بالأكل لما قال الحسن بن علي: الطعام أهون من أن يحلف عليه.

الرابع: أن لا يحوج رفيقه الى أن يقول له: كل ويحمل عنه مؤونة القول، ولا يدع ما يشتهيه فانه تصنع ورئاء بل يجري على المعتاد، ولا ينقص عن عادته في الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع، الا أن يقلل ايثاراً لأخوانه ونظراً لهم عند الحاجة لأنه حسن. وان زاد في الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم فلا بأس به بل هو حسن.

الخامس: غسل يده في الطشت، واذا قدمه اليه غيره اكراماً له فلقبله، كما قدم أنس إلى ثابت فأمتنع، فقال أنس: اذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها اليه فإنما يكرم الله عز وجل.

ويروي: أن الرشيد صب على يد أبي معاوية الضرير، ثم قال: يا أبا معاوية، تدري من صب على يدك، قال: لا، صبه أمير المؤمنين فقال يا أمير المؤمنين انما أكرمت العلم وأجللته، فأجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله.

وينبغي أن يجمعوا الماء في الطشت، لأنه أقرب إلى التواضع وأبعد عن التشبه بالعجم. وأما الخادم: فقد ذكره بعضهم أن يصب الماء قائماً، وكره بعضهم جلوسه، وأما وضع الخادم لذلك ليس بتكبر اذا كانت له نية صالحة، اذ الحاجة قائمة والعادة جارية.

وفي الطشت سبعة آداب: ان لا يبزق فيه، وأن يقدم المتبوع، وأن يقبل الاكرام بالتقديم، وأن يدار يمنة، وأن يجتمع فيه جماعة، وأن يجمع الماء فيه، وأن يكون الخادم قائماً، وأن يمج الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه. ويصب صاحب المنزل الماء على يد ضيفه، هكذا فعل مالك على الشافعي في أول نزوله عليه، وقال: لا يروعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض.

السادس: أن لا يراقب أكل صاحبه بل يغض بصره عنهم، ويشتغل بنفسه لئلا يستحيوا، ولا يمسك قبل أخوانه الا اذا كانوا لا يحتشمون الأكل بعده بل يتوقف أولاً ثم يأكل.

السابع: أن لا يفعل ما يستقذره غيره: بأن ينفذ يده في القصعة، أو يخرج شيئاً من فيه. وان احتاج اليه يصرف وجهه عن الطعام وأخذه، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة، ولا يغمس ما قطعه بسنه في المرقة والخل ولا يتكلم بالمتقذرات.

المطلب الثالث

في آداب تقديم الطعام إلى اخوانه الزائرين

وله فضل كثير. وفي الخبر: لا يحاسب العبد على ما يأكله مع أخوانه، وكذا على السحور وما أفطر عليه.

وكان الصحابة يقولون: الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق. وكانوا يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون الا عن ذواق.

وأما آدابه: أن لا يدخل وقت الأكل بلا اذن؛ وفي الخبر: من مشى الى الطعام لم يدع اليه مشى فاسقاً وأكل حراماً. وأما اذا كان جائعاً فقصد بعض أخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به، اذ فيه اعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الاطعام. وكان ذلك عادة السلف، قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعاً، وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلاثمائة وستون صديقاً يدور عليهم في السنة، ولآخر ثلاثون يدور عليهم في الشهر، ولآخر سبعة، فكان أخوانهم يعولونهم بدلاً من كسبهم، وهم كانوا يتبركون باطعامهم.

فإن دخل ولم يجد صاحب الدار ـ وكان واثقاً بصداقته عالماً بفرحه ـ فله أن يأكل بغير اذنه، اذ المراد من الأذن الرضا لا سيما في الأطعمة؛ وأمرها على السعة: فرب رجل يصرح بالأذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه، ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب. وقال تعالى ﴿أو صديقكم﴾ وقد فعله السلف.

وأما آداب التقديم: فترك التكلف أولاً وتقديم ما حضر، ولا يستقرض لأجله. وان لم تسمح نفسه فلا يقدم وان رأى المحتاج.

والتكلف هو: ان تزيد ما تأكله في الجودة والقيمة، وانما يكره لأدائه الى كراهة الزائر وملله وانقطاعه عن المجيء اليه.

ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيؤذي عياله، وكان السلف يقولون: لا ندري أيها أعظم وزراً: الذي يحتقر ما يقدم عليه، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه.

ومن الآداب: أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء فربما يشق على المزور احضاره، فإن خيره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما عليه، كذلك ألسنة الا اذا علم أنه يتيسر له أولاً يكره له الاقتراح.

ومن الآداب: أن يشهي المزور أخاه الزائر و يلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح، فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل. وكذا لا يقول له: هل أقدم لك طعاماً بل يقدم ان كان، فإن أكل والا فارفع.

المطلب الرابع
في آداب الضيافة

وكانت الضيافة سنة ابراهيم الخليل، وكان يكنى: أبا الضيفان. وكان اذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغذى معه، ولصدق نيته فيها دامت ضيافته في مشهده. ونقل عن قوام الموضع أنه لم يخل الى الآن ليلة عن ضيف. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الايمان، فقال: اطعام الطعام و بذل السلام.

وفيها ستة آداب:

أحدها: الدعوة. فيدعو الأتقياء دون الفساق، وقد ورد في الحديث: «أكل طعامكم الأبرار»، في الدعاء لمن دعاه. و يقصد الفقراء ولا يخص الأغنياء؛ وفي الحديث: «شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليه الأغنياء و يذاد عنه الفقراء».

و ينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته فإن اهمالهم ايحاش وقطع رحم. وكذا يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه لأن تخصيص البعض ايحاش الباقين.

وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الأخوان، والتسنن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اطعام الطعام وادخال السرور على قلوب المؤمنين. ولا يدعو من يعلم أنه يشق الاجابة عليه، واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب ولا يدعو الا من يحب اجابته.

وثانيها: الاجابة. فهي سنة مؤكدة وقيل بوجوبها في بعض المواضع؛ وفي الحديث: «لو دعيت الى كراع لأجبت ولو أهدى إليَّ ذراع لقبلت».

ولها آداب خمسة:

الأول: أن لا يميز الغني بالاجابة عن الفقير لأن ذلك تكبر، الا اذا دعي فخراً أو تكلفاً فليعلل ولا يجيب. ولذلك قال بعض الصوفية: لا تجب الا دعوة من يرى انك أكلت رزقك، وانه سلمه اليك وديعة كانت لك عنده، ويرى لك الفضل عليه في قبول الوديعة منه.

الثاني: لا يمتنع عن الاجابة لبعد المسافة، ومقدار مسافة الاجابة معلوم من العرف والعادة. وقيل: يجيب اذا كان قدر ثلاثة أميال.

الثالث: أن يحضر ولو صائماً تطوعاً، ولينو ادخال السرور على قلب أخيه فانه أفضل منه، الا اذا علم من الداعي تكلفاً فيتعلل، واذا لم يفطر فضيافته الطيب والحديث الطيب.

الرابع: أن يمتنع من الاجابة ان كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش، أو كان في مكان منكر: من فرش ديباج، أو اناء فضة، أو تصوير حيوان، أو سماع الملاهي، أو الهزل أو اللعب، فإن الاجابة عند هذه محرمة أو مكروهة، وكذا اذا كان الداعي ظالماً أو مبتدعاً أو فاسقاً أو شريراً أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر.

الخامس: أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن بل الاقتداء بالسنة.

وفي الحديث: «لو دعيت الى كراع لأجبت»؛ وينوي التحرز عن المعصية، وفي الحديث: «من لم يجب الداعي فقد عصى الله»؛ وينوي اكرام

أخيه المؤمن لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله»؛ و ينوي ادخال السرور في قلبه لقوله صلى الله عليه وسلم: «من سر مؤمناً فقد سر الله»؛ و ينوي أيضاً سنة الزيارة.

ثالثها: آداب الحضور. فيدخل بلا تصدر، بل يتواضع، ولا يطول عليهم الانتظار، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل استعدادهم، ولا يزاحم الحاضرين في المكان بل يجلس حيث يأمر صاحب الدعوة، ولا يجلس مقابلة حجرة النساء، ولا يكثر النظر الى موضع خروج الطعام فأنه من الشره، ويخص من يقرب منه بالتحية اذا جلس.

واذا بات الضيف في منزله فليعرفه القبلة وموضع الطهارة والوضوء، و يغسل رب البيت يده أولاً قبل الطعام و بعده يتأخر، واذا رأى في البيت منكراً غيره ان قدر، والا أنكر بلسانه وانصرف ـــ كفرش الديباج وأواني الفضة والذهب والتصوير والملاهي وحضور النساء المكتشفات الوجوه؛ ومنها: ستر الحيطان بالديباج ـــ وعند البعض لا يحرم اذ الحرمة للرجال والجدار ليس منهم، وأما النظر فلا يحرم كما اذا لبس الحرير الجواري.

ورابعها: احضار الطعام. وله آداب خمسة:

الأول: تعجيل الطعام فإن ذلك سنة.

الثاني: ترتيب الأطعمة. فتقديم الفاكهة أولى شرعاً وطبعاً، ثم اللحم والثريد لأن له فضلاً على سائر الأطعمة؛ وفي الحديث: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». فإن جمع اليه حلاوة فقد جمع الطيبات، وتمامها بشرب الماء البارد والماء الفاتر في غسل اليد. قال المأمون: الماء المثلوج يخلص الشكر لله وزينة المائدة بالبقول لخضرتها.

و يستحب أيضاً أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستكفي منها من يريد و يكثر الأكل بعده. وعادة المترفهين تقديم الغليظ ليكثر من اللطيف بعده، وهو خلاف السنة، فإنه حيلة في إستكثار الأكل. ومن سنة المتقدمين أن يقدموا

الألوان جملة دفعة ليأكل كل واحد مما يشتهي، وأن لم يكن عنده الا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيب منه.

الرابع: أن لا يبادر الى رفع الألوان بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأ يدي. وأيضاً لا يرفع يده قبل الضيوف بل يكون آخرهم رفعاً.

الخامس: أن يقدم قدر الكفاية اذ النقص منه نقص في المروءة، والزيادة عليه تصنع الا ان يطيب نفسهم بأكلهم الجميع؛ وفي الحديث أنه لا يحاسب عليه. وعن ابراهيم بن أدهم: ليس في الطعام سرف.

و ينبغي أن يعزل نصيب أهل بيته لئلا تطمع أعينهم الى رجوع شيء منه، فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتنطلق في الضيوف ألسنتهم. وأيضاً رفع الزلة حرام، الا اذا صرح بالاذن صاحب الطعام، أو علم أنه لا يكره ذلك، ومع ذلك أيضاً فلا يخص نفسه بما لا يرضي به رفيقه.

خامسها: الانصراف وله آداب ثلاثة:

الأول: من سنة الضيف أن يشيع الى باب الدار ــ كذا ورد في الحديث، وذلك من اكرام الضيف، وقد أمرنا به. وتمام الأكرام: طلاقة الوجه، وطيب الكلام عند الدخول والخروج، وعلى المائدة.

والثاني: أن من التواضع أن ينصرف الضيف طيب النفس وان جرى في حقه تقصير. يحكى أن أستاذ الجنيد دعاه صبي الى دعوة أبيه، فرده الأب في أربع مرات، وهو يرجع في كل مرة تطيباً لقلب الصبي في الحضور ولقلب الأب في الانصراف. فهذه النفوس اطمأنت بالتوحيد وترى الكل من الله الواحد القهار فيتذلل له بالتواضع.

والثالث: أن لا يخرج الا برضا صاحب المنزل وأذنه، و يراعي قلبه في قدر الاقامة. واذا نزل ضيفاً فلا يقيم فوق ثلاثة أيام لئلا يتبرم به ويحتاج الى اخراجه، الا اذا ألح رب المنزل عن خلوص قلب فله المقام اذ ذاك.

الأكل في السوق دناءة، وجوزه البعض، والحق أنه يختلف باختلاف البلاد والعادات وتفاوت أحوال الأشخاص.

قال علي كرم الله وجهه: من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء، ومن أكل كل يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، ومن أكل كل يوم احدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسمه شيئاً يكرهه، واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والشفارجات تعظم البطن وترخي الانثيين، ولحم البقر داء ولبنها وسمنها شفاء، والشحم يخرج مثله من الداء، ولن تستشفى النفساء بشيء أفضل من الرطب، والسمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن والسواك يذهب البلغم. ومن أراد البقاء ــ ولا بقاء ــ فليباكر الغداء وليقلل غشيان النساء وليخفف الرداء وهو الدين.

وعن بعض الحكماء: لا تنكح الا فتاة، ولا تأكل الا فتياً، ولا تأكل ما لم ينضج طبخه، ولا تشرب دواء الا من علة، ولا تأكل من الفاكهة الا نضيجها، ولا تأكل طعاماً الا أجدت مضغه، وكل ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه، فإذا شربت فلا تأكل منه شيئاً، ولا تحبس الغائط والبول. فإذا أكلت بالنهار فنم، واذا أكلت بالليل فأمش قبل أن تنام ولو مائة خطوة، وفيه تقول العرب: تغد تمد تعش تمش؛ كما قال تعالى: ﴿ذهب الى أهله يتمطى﴾[1] أي يتمدد. وقيل: حبس البول يفسد الجسد افساد النهر ما حوله اذا سد مجراه. وفي الخبر: قطع العروق مسقمة، وترك العشاء مهرمة.

ومن الفوائد الجليلة: الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمريض؛ وقيل: الحمية مستحسنة. والحق أن الحمية من المضرات نافعة للبدن بلا شك، وانما التي تمنع هي الحمية التي يعتادها البدن، فإذا تغير عنها ولو بشيء قليل يتضرر بها البدن.

---

(١) سورة القيامة، آية: ٣٣.

ويستحب أن يحمل الطعام الى أهل الميت وهو سنة الا ما يهيأ للنوائح والمغنيات فلا يأكل معهن وكذا طعام الظلمة.

وقيل: اذا صح التوكل لا يضر حمل الطعام معه، واذا صحت النية لا يضر التوسع في الطعام، وقد أمر أبو علي الروذباري فصنعوا له الحلاوى من أحمال السكر على هيئة أبنية ومحاريب وأعمدة، ثم أمر وانتهبها الصوفية.

قال الشافعي: الأكل على أربع أنحاء: الأكل بأصبع من المقت، وبأصبعين من الكبر، وبثلاث من السنة، وبما زاد من الشره. وقال: أربع تقوى البدن: أكل اللحم والطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتان؛ وأربع تقوى البصر: الجلوس في حيال القبلة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف الملبس؛ وأربع توهن البصر: النظر الى القذر، والنظر الى المصلوب، والنظر إلى فرج المرأة، والقعود في استدبار القبلة؛ وأربع تزيد الجماع: أكل العصافير، وأكل الاطريفل الأكبر، وأكل الفستق، وأكل الجرجير. والنوم على أربع أنحاء: نوم الأنبياء وهو النوم على القفا يتفكرون في خلق السموات والأرض، ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك لهضم طعامهم، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين. وأربع تزيد في العقل: ترك فضول الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين والعلماء. وأربع من العبادة: لا يخطو خطوة الا على وضوء، وكثرة السجود، ولزوم المساجد، وكثرة قراءة القرآن. وقال أيضاً: عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت، وعجبت لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموت. وقال: لم أر شيئاً أنفع في الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب.

الأصل الثاني
في آداب النكاح

وفيها مطالب:

المطلب الأول
في الترغيب فيه وعنه

واختلف فيه. قال بعضهم: انه أفضل من التخلي لعبادة الله تعالى، وبعضهم عكس، لكن لمن ليس له توقان يشوش حاله. وقيل: الأفضل الترك في هذا الزمان. وبيان الحق فيه يتوقف على تفصيل أمر التفضيل.

أما الترغيب فيه فبقوله تعالى: ﴿وانكحوا الأيامى منكم﴾[1] وهذا أمر؛ وبقوله صلى الله عليه وسلم: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»؛ وقال: «من ترك التزويج مخافة العيلة فليس مني».

وكان ابن مسعود يقول: لو لم يبق من عمري الا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزباً. قال سفيان بن عيينة: كثرة النساء ليس من الدنيا، لأن علياً رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية، فالنكاح سنة ماضية وخلق من أخلاق الأنبياء.

---

(١) سورة النور، آية: ٣٢.

وقيل: فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد، وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب.

وأما الترغيب عنه فبقوله صلى الله عليه وسلم «خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد». وفي الخبر: قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين. وقال الحسن: اذا أراد الله بعبد خيراً لم يشغله بأهل ولا مال.

وقد ظهر من مساق ما قدمناه أن ما نقل في الترغيب عنه مشروط بشرائط بخلاف الترغيب فيه.

المطلب الثاني
في فوائد النكاح

وهي خمس:

الأولى: الولد. وهو الأصل الذي وضع لأجله النكاح لئلا يخلو العالم من جنس الأنس، وانما الشهوة للتلطف في السياقة الى اقتناص الولد. ولما اقتضت الحكمة الأزلية ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها، لعدم قصور القدرة الأزلية عن ايجاد الأشخاص ببعد الوقاع، قدر الولد بالأزدواج اتماماً لعجائب الصنعة، وتحقيقاً لما سبقت به المشيئة، وحققت به الكلمة، وجرى به القلم.

في تحصيل الولد قربة من أربعة أوجه:

أحدها: فضل النكاح والأمن من غوائل الشهوة، وموافقة محبة الله في السعي لبقاء جنس الانسان.

وثانيها: طلب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم من يباهي به.

وثالثها: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح له بعده.

ورابعها: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير اذا مات قبله.

أما الوجه الأول فهو أدق الوجوه وأبعدها عن افهام الجماهير، وهو أقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنع الله ومجاري حكمته. وذلك لأن الله تعالى خلق أعضاء الحراثة وأعضاء مهيأة لها، وخلق البذر، وسلط متقاضي الشهوة على كل واحد من الزوجين. فمن له بصيرة نافذة يفهم من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط الهي ـــ ليس برقم حروف وأصوات ـــ ان الصانع الحكيم أراد من عباده الأولاد والنسل. ولذلك عظم الشرع الرأد، سيما وقد صرح بالأمر وباح بالسر بأن قال: تناكحوا تكثروا.

واياك أن تتوهم التنافي بين محبة الله تعالى وارادة فنائهم، لأن ارادة الفناء يمكن جمعها مع كراهته، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه عز وجل: «ما ترددت في شيء وأنا أكره مساءته ولا بد منه». وفي قوله: ولا بد من الموت أشارة الى سبق الارادة والتقدير المذكور في قوله تعالى: ﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾ [١]، وقوله عز وجل هو: ﴿خلق الموت والحياة﴾ [٢].

وتحقيق هذا المقام خارج عن طوق هذا المختصر، لأنها داخلة في علوم المكاشفة، ووراءها سر القدر الذي منع الشرع عن افشائه. فظهر من هذا ان من رغب عن النكاح فقد ضيع نسلاً أدام الله وجوده من آدم عليه السلام، عقب بعد عقب إلى أن انتهى اليه، حتى ختم الوجود المستدام من وجود آدم على نفسه، فمات أبتر لا عقب له.

الوجه الثاني: من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلمباهاته بكثرة أمته حتى قال: «خير نسائكم الودود الولود»؛ وقال: «سوداء ولود خير من حسناء لا تلد». هذا يدل على أن الأصل من التزوج الولد دون الشهوة، لأنها أكمل في الحسناء وأنها أملح للتحصين وغض البصر.

---

(١) سورة الواقعة، آية: ٦٠.

(٢) سورة الملك، آية: ٢.

الوجه الثالث: أن يبقى له ولد يدعو له كما ورد في الخبر: ان «جميع عمل ابن آدم ينقطع الا ثلاثاً: ولد صالح يدعو له» الحديث.

الوجه الرابع: أن يموت الولد قبله فيكون شفيعاً، والأخبار في ذلك كثيرة.

الفائدة الثانية: التحصن عن الشيطان، وكسر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج. واليه وقعت الاشارة في الحديث بقوله صلى الله عليه وسلم: «من نكح فقد أحرز نصف دينه فليتق الله في الشطر الآخر.

وأعلم أن هذه الفائدة دون الفائدة الأولى، لأن الغاية الأخيرة أشرف من الغاية المتقدمة، الغاية الأخيرة هي الولد والمتقدمة هي اللذة.

ومع ذلك ففي اللذة مصلحة أخرى باطنة سوى المصلحة الظاهرة التي هي الولد، وذلك: أن تستدل المناكح بهذه اللذة العظيمة السريعة الانقطاع الى اللذة الدائمة التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لتكون باعثة على عبادة الله تعالى.

فأنظر الى هذه الحكمة ثم الرحمة ثم النعمة الالهية كيف غيبت تحت شهوة واحدة حياتين: حياة ظاهرة وهي بقاء النسل، وحياة باطنة وهي التوسل الى لذة الآخرة. سبحان من لم يجعل ذرة من ذرات ملكوت السموات والأرض الا جعل تحتها من لطائف الحكم وعجائبها ما تحار فيها العقول، وانما ينكشف للقلوب الطاهرة الصافية الراغبة عن زهرة الدنيا وغرورها وأغوالها.

الفائدة الثالثة: النظر الى وجهها والملاعبة معها، لأن في ذلك اراحة للقلب وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول في الأمور، وهي عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة جمحت وتأبت، واذا روحت باللذات المباحة في بعض الأوقات قويت ونشطت. وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروح القلب. وفي الخبر: على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه فإن هذه الساعات عون على تلك الساعات.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، اذ التكفل بجميع أشغال المنزل يضيع أكثر الأوقات ولم يفرغ للعلم والعمل. ولذلك قيل: المرأة الصالحة ليست من الدنيا. قال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿ربنا آتنا في الدنيا﴾[1] قال: المرأة الصالحة.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في اصلاحهن وارشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، اذ ليس من اشتغل باصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل باصلاح نفسه فقط، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة، وان الرجل ليؤجر في رفع اللقمة الى في «امرأته»»؛ وفي حديث آخر: «أن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال».

وأعلم: أن هذه الفائدة للعابدين، وأما أرباب القلوب فربما يشغلهم العيال عن الكمال.

المطلب الثالث
في آفات النكاح

وهي ثلاثة:

الأولى: أقواها العجز عن طلب الحلال، فإن المتأهل ربما يتبع هوى زوجته، والحلال ربما يعز عليه، فيبيع آخرته بدنياه. و يقال: ان أهله وعياله يكونون خصماء له في القيامة، بأنه أطعمنا الحرام ونحن لا نعلمه، ولذا قال ابن سالم: ترك التزوج أفضل في زماننا هذا الا لمن له شبق كشبق الحمار ولا يملك نفسه أصلاً.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠١.

الآفة الثانية: القصور عن القيام بحقوقهن والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن، وفي هذا أيضاً خطر لأن كل أحد راع ومسؤول عن رعيته. الا أن هذه أيسر من الآفة الاولى، ومع ذلك فهي آفة عظيمة لا يسلم منها الا حكيم عاقل يتغافل عن زللهن و يداري أخلاقهن، اذ الأغلب عليهن السفه والفظاظة والحدة والطيش وسوء الخلق وعدم الانصاف مع طلب تمام الانصاف.

الآفة الثالثة: وهي دون الأولين. أن يكون الولد والأهل شاغلين له عن الله تعالى، وجاذباً الى طلب الدنيا وتدبير حسن المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم، وطلب التفاخر والتكاثر. ولست أعني المال الحرام فإن ذلك مما اندرج تحت الأولين، بل التنعم بالمباح والامعان في ملاعبة النساء والأولاد ولا يتفرغ للفكر في الآخرة والاستعداد لها.

اذا عرفت مجامع الفوائد والآفات في النكاح فأعتبر هذه الفوائد والآفات، واعرض نفسك عليها، فإن اتفقت في حقه الآفات: بأن يكون شاباً محباً محتاجاً الى التحصين، ومنفرداً محتاجاً الى تدبير المنزل، فأنظر ان اجتمعت في حقه الفوائد: من المال والخلق الحسن، وعدم صد النكاح اياه عن الشغل بالله فعليه النكاح. فإن اتفقت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له. وان بعض الفوائد مع بعض الآفة فعليه أن يوزن بالميزان القسط، فأيهما أرجح فالحكم له. مثلاً: من ليس له حاجة الى كسر الشهوة وكان حظه الولد فقط ولم يتيسر له الكسب الحلال فالعزوبة أفضل، لأن عدم الولد خير من الطعام الحرام. وأما ان خاف الزنا مع الكسب الحرام فالنكاح أولى. وأما اذا خاف النظر الحرام مع الكسب الحرام فالعزوبة أولى، لأن النظر يقع أحياناً فهو أهون الشرين. وان أمن النظر أيضاً ولكن لم يقدر على دفع وسواس الجماع فالعزوبة أولى، لأن عمل القلب أقرب الى العفو من القوت الحرام.

فإن قلت: فمن أمن الآفات كلها فالأفضل له التخلي للعبادة أو النكاح، قلت: يجمع بينهما ان كان من العباد، لأن الكسب الحلال لأجل العيال عبادة. وان كان من أهل القلوب يشوشه طلب المعاش فالتخلي أفضل له.

فإن قلت: فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله، ولم استكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج مع أن التخلي للعبادة أفضل، قلت: الكلام في مثل هذه المواضع لا يليق بأمثالنا، الا أن بعضاً من العلماء قال: الجمع أفضل لمن قويت منته وعلت همته وتشمر لذلك، كما فعله نبينا صلى الله عليه وسلم حتى كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته. أما عيسى عليه السلام ــ وان كان الظن به القدرة على الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة ــ لكن لعله عمل بالحزم ولم يتشمر لذلك، أوعز في زمانه طلب الحلال. والله أعلم بأسرار أحوالهم.

المطلب الرابع
في شروط العقد

وهي أربعة:

الأول: اذن الولي فإن لم يكن فالسلطان.

الثاني: رضا المرأة.

الثالث: الشاهدان.

الرابع: ايجاب وقبول.

وتفاصيل هذه الشروط في كتب الفقه.

وأما آدابه: فتقديم الخطبة مع الولي بعد العدة بلا خطبة من الغير، والخطبة قبل النكاح، ومزج التحميد والصلاة بالايجاب والقبول أيضاً، وأن يلقي أمر الزوج الى سمع الزوجة، كما يستحب نظر الزوج اليها قبل النكاح ليكون أحرى أن يؤدم بينهما، واحضار جمع أهل الصلاح سوى الشاهدين.

ومنها: أن ينوي بالنكاح اقامة السنة وغض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد لا مجرد الهوى لئلا يصير من عمل الدنيا.

المطلب الخامس
في أحكام المنكوحة

وهي نوعان:

الأول: ما يعتبر فيها الحل وموانعه تسعة عشر:

الأول: أن تكون منكوحة للغير.

الثاني: أن تكون معتدة للغير.

الثالث: أن تكون مرتدة.

الرابع: أن تكون مجوسية.

الخامس: أن تكون وثنية أو زندقية أو أهل اباحة.

السادس: أن تكون كتابية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فليست من نسب بني اسرائيل، فإذا عدمت كلتا الفضيلتين لم يحل نكاحها، وان عدمت النسب فقط ففيه خلاف.

السابع: أن تكون رقيقة والناكح حر قادر على طول الحرة.

الثامن: أن يكون كلها أو بعضها مملوكة للناكح ملك يمين.

التاسع: أن تكون ذات رحم محرمة للزوج.

العاشر: أن تكون محرمة بالرضاع.

الحادي عشر: أن تكون محرمة بالمصاهرة.

الثاني عشر: أن تكون خامسة في النكاح أو في العدة.

الثالث عشر: أن تجتمع في النكاح مع امرأة لو كانت ذكراً حرمت الأخرى عليه.

الرابع عشر: أن تكون مطلقة ثلاثاً للزوج.

الخامس عشر: أن لا تكون ملاعنة للزوج.

السادس عشر: أن لا يكون أحد الزوجين محرماً.

السابع عشر: أن تكون ثيباً صغيرة وفيه خلاف أبي حنيفة.

الثامن عشر: أن تكون دون البلوغ وفيه أيضاً خلاف أبي حنيفة.

التاسع عشر: أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهن من أمهات المؤمنين، وذلك مما لا يوجد في زماننا هذا.

النوع الثاني: الخصال المطيبة للعيش.

وهي ثماني:

الأولى: أن تكون صالحة ذات دين، لأنها ان كانت ضعيفة الدين في نفسها وفرجها ازرت بزوجها، وسودت بين الناس وجهه، وتشوش بالغيرة قلبه، وتنغص بذلك عيشه؛ وكذا ان كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله.

الثانية: حسن الخلق. وذلك أصل معهم في طلب الفراغ والاستعانة على الدين، فأنها اذا كانت سليطة بذيئة اللسان سيئة الخلق كان ضررها أكثر من نفعها.

الثالثة: حسن الوجه؛ اذ الطبع لا يكتفي بالدميمة فيفوت غض البصر. والنهي عن التزوج للجمال كون الغرض الأصلي الجمال دون الدين لا أنه لا يطلب أصلاً.

الرابعة: أن تكون خفيفة المهر لأن ثقلها يفسد مقاصد النكاح وأيضاً يخالف السنة.

الخامسة: أن تكون ولوداً وقد مر.

السادسة: أن تكون بكراً، ففيها ثلاث فوائد: احداها: ان الأبكار تحب أزواجهن اذ الحب للحبيب الأول؛ ثانيتها: انهن مرغوبات عند الأزواج فإن بعض الطباع تنفر عن التي مستها يد غير يده؛ ثالثتها: أن البكر لا تحن الى الزوج الأول لما مر.

السابعة: أن تكون نسيبة من أهل الدين والصلاح، اذ للتربية مدخل عظيم في حسن الأخلاق.

الثامنة: أن لا تكون من قرابته القريبة فإن ذلك يقلل الشهوة، ومن ذلك يخلق الولد ضاو ياً أي نحيفاً.

المطلب السادس
في آداب المعاشرة

وهي صنفان:

الأول: ما على الزوج. وهو اثنا عشر امراً:

احدها: الوليمة. وهي مستحبة. و يستحب التهنئة فيقول الداخل: بارك الله لك و بارك عليك وجمع بينكما بخير. و يستحب اظهار النكاح. وفي الخبر: فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت.

وثانيها: حسن الخلق. وليس هو كف الأذى عنهن، بل احتمال الأذى منهن كما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم، ترحماً عليهن لقصور عقلهن، وكان آخر ما وصي به رسول الله صلى الله عليه وسلم: الاحسان اليهن ــ كذا ورد في الحديث.

وثالثها: أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة فهي التي تطيب قلوب النساء. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن و ينزل الى درجة عقولهن في الأعمال والأخلاق، وذلك مشهور مذكور في كتب الأحاديث.

ورابعها: أن لا يتبسط في الدعابة الى درجة تسقط هيبته لأن ذلك يفسد خلقها، بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، وفي الحديث: «تعس عبد الزوجة».

قال الشافعي: ثلاثة ان أكرمتهم أهانوك وان أهنتهم أكرموك: المرأة

والخادم والنبطي؛ أراد ان محضت الاكرام ولم تمزجه بالغلظة. وبالجملة: قامت السموات والأرض بالعدل، كل ما جاوز حده انعكس على ضده، والغالب عليهن ركاكة العقل ولا يعتدل ذلك منهن الا بنوع لطف ممزوج بسياسة.

خامسها: الاعتدال في الغيرة: بأن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتتبع عورات النساء. الا أنه لا يدخل عليها الرجال ولا هي تخرج الى الأسواق ولا يخرجن الى المساجد الآن، وقد كن يخرجن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ الزمان قد تغير. وقد أذن لهن أن يخرجن في الأعياد خاصة ولكن لا يخرجن الا برضا أزواجهن، لكن يمنعن من الخروج الى النظارات ومجامع الناس لغلبة الفساد في زماننا.

واذا خرجن ينبغي أن يغضضن أبصارهن من وجوه الرجال ووجوههن في حقهن، كوجه الأمرد في حق الرجال، حيث يحل النظر اذا لم يحتمل الفتنة والا يكره.

سادسها: الاعتدال في النفقة والاقتصار، فلا يقتر ولا يسرف. وينبغي أن لا يستأثر عن أهله بمأكول طيب لأن ذلك خارج عن المعاشرة بالمعروف. واذا أكل يقعد كل العيال على مائدته، ولا يصف عندهم طعاماً لا يطعمهم. ويجب عليه أطعام عياله الحلال. ويجوز للمرأة التصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك وان لم يأذن لها بذلك صريحاً اذ الحال شاهد بالأذن.

وسابعها: أن يعلم زوجته أحكام الحيض وأحكام الصلاة، ويلقنها اعتقاد أهل السنة. وان لم يعلم الزوج ذلك فعليه أن ينوب عنها في السؤال، فإن لم يفعل فعليها الخروج للسؤال ويعصى الرجل بمنعها. وبعد تعلم الفرائض ليس لها طلب الفضل وحضور مجلس الذكر الا برضا زوجها.

وثامنها: أن يعدل بين نسوته ولا يميل إلى بعضهن، وان أراد السفر يقرع بينهن، وان لم يعدل بينهن جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل. كذا في الحديث. فيعدل في العطاء والمبيت، وأما الحب والوقاع فلا يدخل تحت الاختيار.

وتاسعها: في النشوز. وهذا ان كان من جانبها معاً، أو من الرجل، فلا بد من حكمين: أحدهما من أهله والآخر من أهلها، لينظرا بينها و يصلحا أمرهما و ﴿أن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما﴾[1]. وان كان من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً. ولكن ينبغي له التدريج في التأديب: يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع، أو انفرد عنها في الفراش وهجرها وهو في البيت من ليلة الى ثلاث، وان لم ينجع ضربها ضرباً غير مبرح، ولا يضرب وجهها، وله أن يهجرها في أمر الدين الى شهر أو عشر.

عاشرها: في آداب الجماع. و يستحب أن يبدأ باسم الله، و يقرأ: قل هو الله أحد، ولا يكبر ويهلل، و يقول: بسم الله العظيم العلي، اللهم أجعله ذرية طيبة ان كنت قدرت أن يخرج من صلبي. وفي الحديث: «لو أن أحدكم اذا أتى أهله قال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان». واذا قربت من الانزال فقل في نفسك ولا تحرك شفتيك: الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً.. الآية.

وكان بعض أهل الحديث يكبر حتى يسمع صوته أهل الدار، و ينحرف عن القبلة اكراماً للقبلة. وليغط نفسه وأهله بثوب، و يغض صوته، و يأمر المرأة بالسكينة. وفي الخبر: لا يتجردان تجرد العيرين. وليقدم التلطف بالكلام والتقبيل، ولا يجامع في ثلاث ليال من الشهر: الأول والنصف والآخر، يقال ان الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي ولا يقوم عنها حتى تقضي وطرها من الرجل.

والعدل في الجماع ان يأتيها في كل أربع ليال، ولا حق لها دون الأربع اذ عدد النساء أربعة، ثم يزيد و ينقص بحسب الحاجة والقدرة. ولا يأتيها في الحيض لأنه حرام و يورث الجذام في الولد. و يستمتع بجميع بدن الحائض سوى الموضع المكروه في القبل والدبر، وله أن يستمنى ببدنها. وان أراد العود بعد

(١) سورة النساء، آية: ٣٥.

الجماع يغسل فرجه ثم يعود، وكذا اذا احتلم وأراد أن يجامع. وان أراد النوم جنباً فليتوضأ وضوءه للصلاة فانه سنة. و يكره العزل عنها واذا قدر الله ولداً لا يمنعه شيء، ويحل العزل في زوجته برضاها وفي أمته مطلقاً.

الحادي عشر منها: آداب الولادة. وهي خمسة.

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى فإنه لا يدري الخير في أيها، وفي تربية البنات فضائل تذكر في الأحاديث.

الثاني: أن يؤذن في أذنه اليمنى و يقيم في أذنه اليسرى؛ وفي الحديث: من فعل كذلك دفعت عنه أم الصبيان. و يستحب أن يلقنوا له أول انطلاق لسانه: لا اله الا الله، ليكون ذلك أول حديثه. والختان في اليوم السابع ورد به الخبر.

الثالث: أن يسميه باسم حسن فذلك حق الولد؛ وفي الحديث: «أحب الأسماء الى الله عبد الله وعبد الرحمن»؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي». قال بعض العلماء ذلك في عصره اذ كان ينادي يا أبا القاسم. وكره من يكنى أبا عيسى فقال: ان عيسى لا أب له. و ينبغي أن يسمى السقط، و يقال انه يطالب أباه و يقول: أنت ضيعتني وما سميتني. وان لم يدر أنه غلام أو جارية يسمى باسم يجمعها: كحمزة وطلحة وعمارة وعتبة وعنبسة. و يستحب تبديل الأسماء القبيحة، بدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاصي بعبد الله. وورد النهي في مثل أفلح وبركة اذ يقال: ثم بركة؟ فيقال: لا.

الرابع: العقيقة في اليوم السابع عن الذكر بشاتين وتجوز شاة واحدة وعن الأنثى شاة واحدة، ولا بأس أن تكون الشاة ذكراً أو أنثى. ومن السنة أن يحلق رأسه اليوم السابع، و يتصدق بزنة شعره فضة أو ذهباً.

الخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة.

الثاني عشر: في آداب الطلاق وانه مباح لكنه أبغض المباحات. وليراع

فيه أربعة أمور: الأول أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه؛ الثاني: ان يقتصر على طلاق واحد ولا يجمع بين الثلاث؛ والثالث: أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف، ويطيب قلبها بهدية على سبيل الامتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق؛ الرابع: أن لا يفشي سرها لا عند النكاح ولا عند الطلاق فقد ورد في ذلك وعيد عظيم.

الصنف الثاني: في حقوق الزوج عليها؛ اذ النكاح نوع رق، فعليها طاعة الزوج في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه. وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة: فلا تعطي شيئاً من بيته الا باذنه، ولا تصوم تطوعاً الا باذنه والا لا يقبل منها، ولا تخرج من بيته الا باذنه فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع الى بيتها أو تتوب.

وأهم الحقوق أمران: أحدهما الستر والصيانة، والآخر ترك المطالبة بما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه اذا كان حراماً. وكانت امرأة السلف أو ابنته تقول لزوجها: اياك وكسب الحرام فانا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار.

ولا تفرط في بذل ماله الا الذي يفسد، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وان أطعمت بلا رضاه كان له الأجر وعليها الوزر.

روى: ان أسماء بن خارجة الفزاري قال لأبنته عند التزويج: انك خرجت من العش الذي منه درجت، وصرت الى فراش لا تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضاً يكون لك سماء، وكوني له مهاداً يكون لك عماداً، وكوني له أمة يكون لك عبداً، لا تلحي به فيقلاك، ولا تباعدي عنه فينساك، ان دنا فأقربي منه، وان نأى فأبعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، ولا يشم منك الا طيباً، ولا يسمع الا حسناً، ولا ينظر الا جميلاً.

ومن آدابها: أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه وتلازم الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع الى اللعب وأسباب اللذة

في حضور زوجها، ولا تؤذي زوجها بحال، وتقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها.

والقول الجامع في ذلك: ان تكون قاعدة في بيتها لازمة لمغزلها، لا تكثر اطلاعها قليلة الكلام لجيرانها، لا تدخل عليهم الا وقت يجب الدخول عليهم عادة، ولا تخرج بلا اذن زوجها، وان أذن لها فتذهب في المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها، مقبلة على صلاتها وصيامها، وتكون قانعة من زوجها بما رزقه الله، ومقدمة حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها، متنظفة في جميع أحوالها ليستمتع بها ان شاء، مشفقة على أولادها ولا تسبهم. واذا مات زوجها تحد عليه أربعة أشهر وعشراً، وتلزم مسكن النكاح، ولا تنتقل عن ذلك إلى أهلها الى آخر العدة، ولا تخرج الا لضرورة.

الأصل الثالث
في آداب الكسب والمعاش

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في فضل الكسب والحث عليه

«يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء». وقال: «من طلب الدنيا حلالاً تعففاً عن المسألة وسعياً على عياله وتعطفاً على جاره، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر».

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾[1]، وقوله: «وابتغوا من فضل الله». وقال صلى الله عليه وسلم: «التاجر الصدوق».

الا أن فضل التجارة اذا كان لقوت العيال وتعففاً عن السؤال، وأما اذا كانت للثروة والادخار فمذمومة لأنه اقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة، فإن كان مع ذلك خائناً فهو ظلم وفسق. وأيضاً: التجارة أفضل، وان حصلت له النفقة بلا سؤال لأنه يصير كلا على الناس، فالتجارة تكون أفضل. الا أن الحق ان قبول صدقتهم والتخلي للعبادة أفضل اذ فيه اعانة للناس على الخيرات والصدقات.

---

(١) سورة النبأ: آية ١١.

المطلب الثاني

في بيان أحوال العقود الأربعة

العقد الأول: البيع، وقد أحله الله. وله ثلاثة أركان:

أحدها: العاقد. فلا يعامل الصبي والمجنون لأنهما غير مكلفين، والعبد العاقل بلا اذن سيده، والأعمى لعدم رؤية المبيع فيوكل غيره. أما الكافر فتجوز معاملته غير بيع المصحف منه، والعبد المسلم، والسلاح للحربي منهم، فإن فعل فهو عارض به. وأما الجندية من الأتراك والأكراد والخونة والظلمة وأكلة الربا وكل من أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يتملك منهم شيئاً الا ما يعرف انه حلال بعينه.

ثانيها: المعقود عليه؛ ففيه ستة شروط:

الأول: أن لا يكون نجساً في عينه كالكلب والخنزير والفيل والخمر.

الثاني: ان يكون منتفعاً، فلا يجوز بيع الفأر والحية، ويجوز بيع الطيور المليحة الصورة كالطوطي والطاووس، أو مليحة الصوت كالبلابل والقمارى، ولا يجوز بيع الملاهي والمزامير لحرمتها.

الثالث: أن يكون المتصرف فيه مملوكاً للعاقد أو مأذوناً فيه من جهة المالك، فلا يصح بيع مال الوالد من الولد وعكسه اعتماداً على أن يرضى اذا عرف، وكذا الزوج والزوجة، بل ينبغي تقدم الرضا.

الرابع: أن يكون المعقود عليه مقدور التسليم شرعاً وحساً، فلا يصح بيع السمك في الماء والجنين وعسب الفحل واللبن في الضرع والآبق، ولا يجوز تفريق الولد من أمه.

الخامس: أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف وتفصيله في كتب الفقه.

السادس: أن يكون المبيع مقبوضاً عقاراً أو منقولاً.

وثالثها: لفظ العقد. فلا بد من جريان ايجاب في قبول متصل بلفظ دال على المقصود منهم أما صريح أو كناية، ويجوز بالتعاطي عند أبي حنيفة في النفيس والخسيس، وعند الشافعي لا يجوز. و ينبغي أن يحكم فيه الحال بأن يعلم أنه يرضى بالبيع، وان علم الكراهة يصرح.

وأيضاً: الاحتياط التصريح في النفيس: كالعبد والفرس والدار، والتعاطي في الخسيس: كالخبز واللحم البقل، وان صح التعاطي في كليهما. وأما تميز النفيس عن الخسيس فبالعرف، وان كان مشتبهاً فعليه الاحتياط بأن يصرح الايجاب والقبول، هذا من حيث الورع فيه أن تستفتي قلبك، الا أن في الشرع يجوز في الكل التعاطي هو الصحيح من مذهب أبي حنيفة.

العقد الثاني: عقد الربا. وقد حرمه الله، ويجب الاحتراز منه على الصيارفة وباعة الأطعمة اذ لا ربا الا فيهما. فالصيرفي يحترز من النسيئة بل يبيع يداً بيد، وعن الفضل وهو التفاوت في الوزن والكيل عند اتحاد الجنس، ولا يفيد الجودة والرداءة.

العقد الثالث: التسلم. وله شروط عشرة:

الأول: أن يكون رأس المال معلوماً علم مثله.

الثاني: أن يسلم رأس المال في مجلس العقد قبل التفرق.

الثالث: أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه.

الرابع: أن يستقصي الأوصاف بأن لا يبقى وصف تغابن فيه.

الخامس: معلومية الأجل بالأشهر والأيام.

السادس: أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه.

السابع: أن يذكر مكان التسليم.

الثامن: أن لا يعقله بعين كثمرة هذا البستان ونحوه.

التاسع: أن لا يكون المسلم فيه شيئاً نفيساً يعز وجوده كدرة موصوفة بما يعز وجودها.

العاشر: أن لا يسلم في طعام اذا كان رأس المال طعاماً، أو في نقد اذا كان هو نقداً لأنه عين الربا.

العقد الرابع: الاجارة: ولها ركنان: الاجرة والمنفعة. أما العاقد واللفظ: فكما في البيع بعينه. أما الأجرة: فينبغي أن يكون معلوماً وموصوفاً كالثمن في البيع، ولا يجوز بكل ما يتوقف حصوله على عمل الأجير: ككراء الدار بعمارتها وسلخ الشاة بجلدها. وأما المنفعة: فهي العمل، وحده: ان كل عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير فيجوز الاستئجار عليه.

وتندرج تحته أمور خمسة:

الأول: أن يكون متقوماً فيه كلفة وتعباً، فلا يصح أجرة الطعام وأجرة الكلام.

الثاني: أن لا تتضمن استيفاء عين مقصودة كلبن المواشي وأجيز في المرضعة استحساناً.

الثالث: أن يكون مقدور التسليم حساً وشرعاً، فلا يجوز استئجار الأخرس على التعليم والمعلم على تعليم السحر، أو الصائغ على صيغة أواني الذهب، وغير ذلك من المحرمات.

الرابع: أن لا يجب العمل على الأجير، فلا يجوز أجرة الجهاد وسائر العبادات التي لا نيابة فيها. ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ونحو ذلك، وفي أجرة الامامة والأذان والتدريس واقراء القرآن خلاف، وأما أجرة تعليم مسألة أو سورة بعينها لشخص معين فصحيح.

والخامس: أن يكون المنفعة والعمل معلوماً، فالخياط يعرف عمله بالثوب، والحمال يعرف قدر المحمول، الى غير ذلك.

العقد الخامس: القراض.

وفيه ثلاثة أركان:

الأول: أن يكون رأس المال معلوماً مسلماً الى العامل.

الثاني: الربح بأن يشرط له الثلث أو النصف أو ما شاء من مقدار شائع، فلا يجوز تقديره بمقدار معين كالمائة مثلاً.

الثالث: العمل الذي على العامل، وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقة عليه بتعيين أو بتأقيت.

العقد السادس: الشركة.

وهي أربعة وثلاثة منها باطلة.

الأولى: شركة المفاوضة: وهو أن يقول تفاوضنا في كل ما لنا وعلينا وما لا هما ممتازان.

الثانية: شركة الأبدان: وهي أن يتشارطا الاشتراك في أجرة العمل وهي باطلة.

الثالثة: شركة الوجوه: وهي أن لا تكون لأحدهما حشمة وقول مقبول، فيكون من جهته التنفيذ ومن جهة الآخر العمل، وهذا أيضاً باطل.

الرابعة: شركة العنان: وهو أن يختلط مالاهما بحيث يتعذر التميز الا بقسمة، ويأذن كل منهما لصاحبه في التصرف، وحكمها توزيع الربح والخسران على قدر المالين، وهذا صحيح.

المطلب الثالث
في العدل في المعاملة

وهذا قسمان:

الأول: ما يعم ضرره. وهو أنواع:

أحدها: الاحتكار والذي يدخر الطعام الى غلاء الأسعار، وهذا حرام في الشرع. الا أنه في أجناس الأقوات، وأما في غيرها: كالأدوية والعقاقير

والزعفران فلا، وان مأكولاً ثم هو زمان احتياج الناس الى القوت، وأما زمان غنى الناس عنه فلا. ولهذا قيل: أوصى بعض التابعين رجلاً: لا تسلم ولدك في صنعتين ولا في بيعتين، أما البيعتان: فبيع الطعام وبيع الأكفان، فانه يتمنى الغلاء وموت الناس. والصنعتان: أن يكون جزاراً فأنها تقسي القلب، أو صواغاً فأنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة.

وثانيها: ترويج الزائف من الدراهم أثناء النقد فهو ظلم، فيعم فيه الضرر، فيكون وزراً له ولغيره لأنه فتح هذا الباب. والويل الطويل لمن مات وذنبه باق الى مائة سنة أو مائتين يعذب بها في قبره.

وأعلم: أن في الزائف أموراً خمسة.

الأول: اذا وجده ينبغي أن يطرحه في موضع لا تناله الأيدي.

الثاني: أن يتعلم طريق النقد ليحفظ دينه لا ليحفظ دنياه.

الثالث: أنه لا يبرأ عن الاثم بأعلام المعامل فقط اذ ربما يروجه على غيره.

الرابع: أن أخذ الزيف وطرحه في بئر فهو عامل بخير.

الخامس: الزائف ما لا نقرة فيه أصلاً، وأما المغشوش فإن كان نقد البلد ففيه رخصة، والا فان علم مقدار النقرة فيجوز والا فلا يجوز أصلاً.

القسم الثاني: ما يخص ضرره المعامل. والضابط فيه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وذلك أربعة:

الأول: أن لا يثني على سلعة، فإن كان بما ليس فيها فهو كذب، وان قبل ذلك فهو ظلم وكذب، والا فهو كذب واسقاط مروءة وان أثنى على السلعة بما هو فيها: فإن عرفه المشتري فهو هذيان وكلام لا يعنيه فا يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد، وان لم يعرفه فلا بأس به. وان كان نيته ان يعرف أخوه المسلم فيقضي به حاجته، ولا يحلف عليه البتة، فانه ان كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس التي تدع الديار بلاقع مع كونها من الكبائر، وان كان كاذباً فقد جعل

الله عرضة لإيمانه والدنيا أخس من أن يذكر اسم الله لترجها. وفي الخبر: ويل للتاجر من بلى والله لا والله، وويل للصانع من غدٍ أو بعد غد.

الثاني: أن يظهر جميع عيوب السلعة خفيها وجليها فذلك واجب، والا كان غاشاً والغش حرام، وفي حكمه عرض الثياب في المواضع المظلمة. وهذا وان نقص من الثمن لكن لذلك جهتي التسلية، إحداهما: ان الدنيا أمر حقير والربح ربح الآخرة؛ وثانيتها: ان صورة الزيادة لا اعتبار لها اذ ربما تهلك جمنة، والحلال القليل ينتفع به أكثر من الحرام الكثير، ولقد جرب ذلك فوجد كذلك.

المطلب الرابع
في الإحسان في المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والاحسان، وذلك بواحد من ستة أمور.

الأول: أن لا يغابن صاحبه بما لا يغابن به العادة. أما أصل المغابنة فمأذون فيه، فان البيع للربح ولا يمكن ذلك الا بغبن ما. ولكن يراعي فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد أما لشدة رغبته أو لشدة حاجة في الحال، فينبغي أن لا يأخذ فذلك من الاحسان، وان جاز ذلك شرعاً اذ ليس فيه ظلم مهما لم يكن فيه تلبيس.

وقيل لعبد الرحمن بن عوف: ما سبب يسارك، قال: ثلاث: ما رددت ربحاً قط، ولا طلب مني حيوان فأخرت فيه، ولا بعت بنسيئة.

الثاني: في احتمال المشتري العيب. ان اشترى من ضعيف أو فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن، ويتساهل ويكون به محسناً؛ وان اشترى من الغني التاجر فالغبن ليس بمحمود بل هو تضييع للمال من غير أجر وحمد. وقيل في وصف عمر بن الخطاب: كان أكرم من أن يخدع وأعقل من أن يغبن.

الثالث: في استيفاء الثمن وسائر الديون، والاحسان فيه: مرة بالمسامحة وحط البعض، ومرة في طلب جودة النقد، وكل ذلك مندوب اليه.

الرابع: في توفية الدين: ولا يكلفه أن يمشي اليه يتقاضاه، ومهما كلمه مستحق الحق بكلام خشن فليحتمله، وليقابله باللطف لأن لصاحب الحق مقالاً. ومن يصلح بينهما ينبغي أن يكون ميله الى من عليه الدين لأنه المحتاج، وكذا يميل في المبايعة الى جانب المشتري لأنه محتاج إلى السلعة والبائع راغب عنها، اللهم الا أن يتجاوز من عليه الدين حده فعند ذلك نصرته في منعه من تعديه.

الخامس: أن يقيل من يستقيله ولا يضر اخاه؛ وفي الحديث: «من أقال نادماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة» أو كما قال.

السادس: ان يقصد في معاملته جماعة من الفقهاء بالنسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة، فهذه طريق تجارات السلف وقد اندرست، والقائم بها محي لهذه السنة، والتجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه.

المطلب الخامس

في شفقة التاجر في دينه

وذلك بمراعاة سبعة أمور:

الأول: حسن النية: بأن ينوي بها الاستعفاف عن السؤال وكف الطمع عن الناس، واستعانة بكسبه على دينه، وقياماً بكفاية عياله ليكون من جملة المجاهدين. ولينو النصح للمسلمين واتباع طريق العدل والاحسان، ولينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السوق.

الثاني: أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فانها لعمارة الدنيا ونظام المعاش الا ما لا حاجة فيه؛ كصناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص وغير ذلك مما تتزخرف به الدنيا. وأما اجتناب صنعة الملاهي فذلك من باب دفع الظلم، ومنها خياطة القباء من الابريسم للرجال، وصياغة مراكب الذهب وخواتيم الذهب للرجال، وكل ذلك من

المعاصي والأجرة عليها حرام. وقد مر بيع الطعام والأكفان وحكم الجزارة، ويكره الدباغة والكناسة لمخامرة النجاسة. وكره ابن سيرين الدلالة، وكره قتادة أجرتها لتضمنها الكذب والمبالغة غالباً. وأجرتها بقدر عملها لا بقدر قيمة الثوب وهو العادة. ويكره بيع الحيوان لأنه يكره قضاء الله وهو الموت. والصيارفة أيضاً لا يسلمون من الحيلة والا لم يكن الربح.

وقد كان غالب أعمال السلف عشر صنائع: الخرز والتجارة والحمل والخياطة والقصارة وعمل الجفاف وعمل الحديد وعمل المغازل ومعالجة صيد البر والبحر والوراقة. وأربعة من الصناع موسومون عند الناس بضعف الرأي؛ الحاكة والقطانون والمغازليون والمعلمون، وذلك لكثرة مخالطتهم مع النساء والصبيان، والمخالطة سبب السراية وكل قرين بالمقارن يقتدي.

وعن مجاهد: أن مريم طلبت عيسى عليه السلام، فمرت بحاكة فأرشدوها الى غير الطريق، فقالت: اللهم انزع البركة من كسبهم وأمتهم فقراء وحقرهم في أعين الناس، فأستجيب دعاؤها. وكره السلف أجرة العبادات: كغسل الأموات وتعليم القرآن وصلاة التراويح والاذان، فإن ذلك استبدال بالدنيا عن الآخرة.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن الآخرة وهي المساجد.

الرابع: أن يلازم ذكر الله تعالى في السوق وذكر الله بين الغافلين. وفي الحديث: «من قال في سوق من الأسواق: لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ــ كتب له ألفا ألف حسنة، ومحى عنه ألفا ألف سيئة، وبني له قصر في الجنة.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، بأن يكون أول داخل وآخر خارج، وبأن يركب البحر في التجارة فهما مكروهان. وكان عمرو بن العاص يقول: لا تكن أول داخل في السوق ولا آخر خارج منها فإن

بها باض ا لشيطان وفرخ. و يقال: من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق؛ وفي الخبر: لا يركب البحر الا لحج أو لعمرة أو لغزو.

و بالجملة: لا يحرص على السوق فيراقب وقت كفايته، فإذا حصلت ينصرف و يشتغل بتجارة الآخرة.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام بل يتقي مواضع الشبهة ومظان الريب، ولا ينظر الى الفتاوى بل يستفتي قلبه، فما وجد فيه حزازة اجتنبه، وأمر الفتوى على التيسير للعامة لا على الشدة.

السابع: أن يراعي و يراقب جميع مجاري معامليه، فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة، ويحاسب على كل أحد محاسبة على عدد من عامله.

الأصل الرابع
في الحلال والحرام

وفيه مطالب ثمانية

المطلب الأول
في فضيلة الحلال

وذلك في الآيات كثير ــ وكذلك مذمة الحرام ــ وكذا الحال في الأخبار والآثار.

وأما أصناف الحلال والحرام ففي كتب الفقه على التفصيل: ولنبين ههنا على سبيل الاجمال. فأعلم: ان الحرمة في المال أما في عينه أو في كسبه.

القسم الأول: أن الأعيان المأكولة: إما معادن أو نبات أو حيوان، والحرمة فيها. إما لأجل ازالة العقل أو ازالة الصحة أو الاستقذار.

القسم الثاني: ستة أقسام.

الأول: مالا يؤخذ من مالك: كالمعادن والأصطياد والاحتطاب والاستسقاء، فذلك حلال الا أن يسبقها يد قبله.

الثاني: المأخوذ قهراً ولا عصمة له كأموال الكفار، وذلك أيضاً حلال بشروط ذكرت في الفقه.

الثالث: ما يؤخذ قهراً لكن بالاستحقاق، وذلك حلال اذا تم سبب الاستحقاق، وأسباب ذلك في كتب الفقه.

الرابع: ما يؤخذ تراضياً بمعارضة، وذلك حلال اذا تضمنت شرائطه المذكورة في موضعها.

الخامس: ما يؤخذ بالرضا بلا عوض: كالهبة والوصية والصدقة وذلك حلال بشرائطه.

السادس: ما يؤخذ بغير اختيار كالأرث، وذلك حلال اذا كان المال مكتسباً من وجهة الحلال وأخرجت منه سائر الحقوق المذكورة في علم الفرائض، وان لم تعلم فأسأل أهله.

المطلب الثاني
في درجات الحلال والحرام

أعلم: الحرام كله خبيث: ولكن بعضه أخبث من بعض؛ والحلال كله طيب لكن بعضه أطيب من بعض؛ ومثال ذلك في المحسوسات: ان الحرارة والبرودة نوعان ومع ذلك لهما درجات أربع عند الأطباء، فلذلك لهما درجات أربع.

الأولى: ورع العدول. وهو الذي يجب الفسق بتركه و يدخل في العصيان والتعرض للنار، وهو الورع مما تحرمه فتاوى الفقهاء.

الثانية: ورع الصالحين. وهو الامتناع عما يتطرق اليه احتمال التحريم، وان رخص المفتي بذلك بناء على الظاهر.

الثالثة: ورع المتقين. وهو ما لا حرمة فيه بحسب الفتوى ولا شبهة في حله، لكن يخاف منه اداؤه الى محرم، وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

الرابعة: ورع الصديقين. وهو ما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن يؤدي ما به بأس، ولكنه يتناول لغير الله ولا على نية التقوى به على عبادة الله تعالى، أو يتطرق الى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية، وتعرف هذه الدرجات بتشديدات الشرع ووعيده وزجره البليغ وتأكيده.

المطلب الثالث

في مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحلال بين والحرام بين و بينها أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه». فهذا الحديث مدار أمر الشرع وقطب أحكام الدين، وفيه نص في اثبات الأقسام الثلاثة.

والمشكل منها هو القسم المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس، فلا بد من كشف الغطاء عنه. فنقول: الحلال المطلق وهو الذي لا تتطرق اليه أسباب التحريم أو الكراهية: كماء المطر قبل أن ينزل على ملك أحد؛ و يقابله الحرام المحض: وهو اما حرام لعينه بصفة مجربة: كالشدة في الخمر والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهى عنه كالمحصل بالظلم والربا ونظائره، فهذان طرفان ظاهران. و يلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكن احتمل بغيره، ولكن لم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه؛ مثل: صيد البر والبحر حلال، فيحتمل أن تفلت الظبية من صياد، والسمك قد تزلق من خريطة صياد، فالورع في أمثاله وسواس، اللهم الا أن يدل عليه دليل: كالجرح في الظبي والحلقة في أذن السمكة. وبالجملة: ما لم يترجح أحد طرفي الشك لا يعتبر به أصلاً، ولا يعد ذلك شبهة، وانما الشبهة: احتمال حرمة يستند الى دليل و يعارض أصل الحل.

ومثارات الشبهة خمسة:

المثار الأول

الشك في السبب المحلل والمحرم

فذلك أقسام أربعة:

الأول: أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الأقدام عليها، فهذا حرام لأن الأصل التحريم.

الثاني: أن يعلم الحل و يشك في المحرم، فالأصل الحل وله الحكم، كما اذا طار طائر فقال: أن كان هذا غراباً فأمرأته طالق، وقال آخر: ان لم يكن غراباً فامرأته طالق، والتبس أمر الطائر، فلا يقضي بالتحريم في واحدة منها، الا أن الورع اجتنابها.

الثالث: أن يكون الأصل التحريم وطرأ عليه سبب التحليل بظن غالب، فهو مشكوك فيه والغالب حله، فإن استند الظن الى سبب معتبر شرعاً فالمختار الحل اذ الأصل عدم طريان غيره، فطريانه مشكوك فيه. ولا يرفع اليقين بالشك ولكن اجتنابه من الورع، كمن رمى الى صيد فجرحه، ثم غاب فوجده ميتاً وليس عليه أثر جراحة أخرى، التحق بالقسم الأول، اذ حصل غلبة الظن بأنه مات من جرحه؛ وأما احتمال موته من غير جراحته شك فيه لا يعتبر إذ ذاك جار في كل مجروح لاحتمال أنه مات بغلبة مرض، وإن وجد جراحة أخرى فقد تعارض السبب فتعارض الظن والاحتمال فيحرم.

الرابع: أن يكون الحل معلوماً ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً، كما اذا غلب على ظنه نجاسة أحد الإناءين بعلامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه، والذي هو المختار: ان الأصل هو المعتبر، وان العلامة اذا لم تتعلق بعين المتناول لم يوجب رفع الأصل.

المثار الثاني

الشبهة بشك منشؤه

الاختلاط بين الحلال والحرام

و يشتبه الأمر فلا يتميز ففيه أقسام ثلاثة:

الأول: أن نسبتهم المعين بعدد محصور كمن تزوج أحد الأختين ــ ولم تعلم بعينها ــ يجب اجتنابها بالأجماع اذ لا مجال للأجتهاد؛ واذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد، وتقابل فيه جهة التحليل والتحريم فيجتنب؛ وان اختلط حلال محصور بحرام غير محصور فوجوب الاجتناب أولى.

الثاني: حرام محصور بحلال غير محصور، كما اذا اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن الا اذا علمها بعينها. الا ان علة الحل ليست كثرة الحلال، اذ يلزم منه جواز النكاح اذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال، بل العلة الغلبة والحاجة جميعاً؛ مثلاً: من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل، فإن ذلك حرج وما في الدين حرج. واذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد وما في الدين حرج. واذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد اذا وقع بين جماعة محصورين، فاجتناب هذا من ورع الموسوسين اذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة، ولا يتصور الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار.

واعلم: ان تميز المحصور من غير المحصور مشكل، وبالتقريب: كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عددهم بمجرد النظر كالألف والألفين فهو غير محصور، وما كالعشرة والعشرين فهو محصور، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن. وربما يفتي المفتي، لكن ان وقع عندك الشك فعليك أن تستفتي قلبك، فإن حاك في صدرك شيء فهو الاثم بينك وبين الله فإن الأثم حزاز القلوب، ولا ينجيك في الآخرة فتوى المفتي فأنه يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة: «استفت قلبك وان أفتوك وأفتوك وأفتوك».

وكذا الحال في الأوساط المتشابهة التي تقع في الاقسام الأربعة في المثار الأول.

الثالث: أن يختلط حرام غير محصور بحلال غير محصور، كحكم الأموال في زماننا هذا. وقد يظن ان هذا مثل اختلاط المحصور بالمحصور في الحرمة لكنه ليس كذلك، بل هذا غير حرام، كمن يتناول شيئاً بعينه احتمال أنه حرام وأنه حلال، الا أن يقترن بتلك العين علامة الحرمة فحينئذ يحرم.

ويدل على ما ذكرنا ان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقع الغلول واختلط بالأموال، وكذا اختلط أثمان الخمور في أيدي أهل الذمة، بل الربا أيضاً، وكذا في زمن الصحابة والتابعين.

وقد نهب يزيد المدينة شرفها الله ثلاثة أيام، ولم يمتنع أحد من الصحابة عن الشراء في السوق الا القليل يعلمون من أهل الورع.

ومن زعم أنه تفطن من الشرع ما لم يتفطنه السلف الصالحون فهو موسوس مختل العقل؛ وأيضاً: لو فتح هذا الباب لأنسد باب جميع التصرفات وخرب العالم، اذ الفسق غالب على الناس ويتساهلون في شروط الشرع.

فإن قلت: ما ذكرته فيما اذا كان الحرام قليلاً وقد صار الحرام في زماننا أكثر، قلت ليس هو أكثر بل هو كثير؛ وقولك: الحرام أكثراً ما لكثرة الظلمة أو كثرة المعاملات الفاسدة أو كثرة الأيدي.

الأول باطل: اذ الظلمة وهم الجندية وذو الغلبة والشوكة اذا أضيفوا الى جملة العالم لم يبلغوا عشر عشرهم.

وكذا الثاني: اذا أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع، وأهل الربا بينهم قليل فضلاً عن كونهم كثيراً أو أكثر.

وأما الثالث: فلأنّ الأموال انما تحصل من المعادن والنبات والحيوان، ولم يبق درهم واحد ولا دينار خرجت من معدن أو دار ضرب الا تناوله يد الظلمة؛ وكذا الحال في الحيوان، فلم يبق الا الصيد والحشيش والحطب في الموات، فالجواب عنه: ان هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال، فالتحق بما عددناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب.

فالحكم فيه: ان الغالب الذي لا يستند الى علاقة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح، فلا يقال: أصول الحرام أكثر، بل أصول الحلال لم تزل أكثر في كل عصر وزمان، وذلك ظاهر لمن تدبر باذعان وامعان، وانما الكلام فيما اذا قدر غلبة الحرام واختلط غير محصور ولم يكن في العين المتناولة علامة خاصة.

والذي نراه أن تركه ورع وأخذه ليس بحرام، لأن الأصل الحل. ولا يرفع ذلك الا بعلامة معينة كما في طين الشوارع ونظائرها، بل نقول: لو طبق الحرام الدنيا على الفرض والتقدير ــ والعياذ بالله من ذلك ــ لكنا نقول: يعفى عما سلف و يستأنف بتمهيد الشروط، بل نقول: ما جاوز حده انعكس على ضده، فمهما حرم الكل حل الكل؛ وذلك لأن الاحتمالات خمسة: لأن الناس إما أن يدعوا الأكل حتى يموتوا، أو يقتصروا على سد الرمق، أو يتناولوا كيف شاءوا سرقة أو غصباً من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة، أو يتبعوا شروط الشرع و يستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة، أو يقتصروا على قدر الحاجة مع شروط الشرع.

أما الأول: فلا يخفى بطلانه.

وأما الثاني: فباطل أيضاً، لأنهم إذا اقتصروا على سد الرمق وزجوا أوقاتهم على الضعف فشافيهم الموت، وبطلت الأعمال والصناعات وخربت الدنيا، وفي خرابها خراب الدين لأنها مزرعة الآخرة، بل أكثر أحكام الفقه لحفظ مصالح الدنيا ليتم بها مصالح الدين.

وأما الثالث: فهو دفع لسد الشرع بين المفسدين، فتمتد الأيدي بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم عنه، فيؤدي الى بطلان سياسة الشرع. فلا يبقى الا الاحتمال الرابع: بأن يبقى لكل ذي يد على ما في يده. فيصير الاحتمال الخامس هو: الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي لائقاً بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة.

المثار الثالث للشبهة

أن يتصل بالسبب المحلل معصية

وهذا أنواع أربعة:

النوع الأول: المعصية في القرائن: كالبيع وقت النداء يوم الجمعة،

وكالذبح بالسكين المغصوب وهذا مكروه وليس بحرام والورع اجتنابه. وهذه الكراهة لها ثلاث درجات:

الأولى منها: ما يقرب من الحرام، والورع عنه مهم كالصيد بكلب مغصوب.

والثانية: الاحتطاب بالقدوم المغصوب، وهذه دون الأولى في الكراهة وهي أيضاً من الورع.

والثالثة: البيع وقت النداء، وهذه دون الثانية فانه ضعيف التعلق بمقصود البيع. لا بأس بالذر منه، ولكن لو أدى ما هو دون هذا من عدم صحة نكاح الظلمة ــ لتعلق الحقوق الواجبة عليه ــ لأدى الى التحرج عن نكاح بناتهم، وأنه الوسواس، والورع حسن، والمبالغة فيه أحسن، ولكن الى حد معلوم.

النوع الثاني: المعصية في اللواحق. ولها درجات:

أعلاها: بيع العنب من الخمار، وبيع الغلام ممن يعرف بالفجور بالغلمان. والقياس: ان العقد صحيح والمأخوذ حلال وليس بحرام، والرجل عاص، الا أن المأخوذ مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم.

ويليها في الرتبة: بيع العنب ممن يشرب الخمر ولم يكن خماراً، لأن الاحتمال قد تعارض والكراهة فيه أخف والورع فيه فوق الأول.

ويليها في الرتبة: ما هو مبالغة ويكاد يلحق بالوسواس، كمن لا يجوز معاملة الفلاحين بآلات الحرث، لأنهم يستعينون بها على الحراثة ويبيعون الطعام من الظلمة، وهذا ورع الوسوسة.

النوع الثالث: المعصية في المقدمات. ولها أيضاً ثلاث درجات:

العليا: ما بقي أثره في المتناول: كالأكل من شاة رعت من مرعى حرام، وهذا الورع وان لم يكن واجباً.

الوسطى: ما نقل عن بشر من امتناعه عما يساق في نهر الظلمة، لأن النهي

موصل اليه، وقد عصى الله بحفره؛ وامتناع آخر عن كرم سقي بنهر مذكور وهو أبلغ في الورع منه؛ وأعلى من ذلك امتناع ذي النون من طعام حلال أوصل اليه بيد سجان، وقوله: انه جاءني على يد ظالم.

ودرجات هذه الرتب لا تنحصر؛ والأدنى منها ــ وهي قريبة من الوسواس: ان يمتنع من حلال وصل اليه على يد رجل زنى أو قذف، وليس هذا كما وصل على يدي من أكل الحرام، فإن الموصل قوته الحاصلة من الحرام، والزنا والقذف لا يزيدان في القوة، ولو امتنع الشرب من كوز لأن صانعه قد عصى الله يوماً بضرب انسان أو شتمه لكان وسواساً.

وأعلم: ان كل هذا خارج عن فتوى العلماء من الفقهاء، لأن فتواهم تختص بالدرجة الأولى التي يمكن بها تكليف العامة، ولو اجتمعوا عليها لم يخرب العالم دون ما عداه من ورع المتقين والصالحين الذين لا يفتيهم الا قلوبهم، لكن يخرج عن هذا قلب الموسوس لأنهم قوم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم كما شدد على أصحاب موسى عليه السلام.

النوع الرابع: المعصية في العوض. ولها درجات:

العليا: أن يشتري شيئاً في الذمة و يقضي ثمنه من غصب أو مال حرام، فإن سلم البائع اليه الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلب فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال، وتركه ليس بواجب بالاجماع ولا هو من الورع الكامل، وانما الاثم بقضاء الثمن من الحرام لكن لا يتقلب الطعام حراماً، فإن أبرأه البائع مع العلم بأن الثمن حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه الا مظلمة تصرفه في الحرام، فان أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا يحصل له البراءة من الثمن، لأنه أبرأه بشرط الاستيفاء ولا يصلح الحرام للايفاء. وان لم يسلم اليه بطيبة قلب ولكن أخذه فأكله حرام، سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده، اذ للمالك حق الحبس حتى يقبض الثمن، وانما يبطل حق حبسه بالأبراء والاستيفاء ولم يجر شيء منها، ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الراهن للطعام اذا أكله بغير اذن المرتهن و بينه و بين أكل طعام الغير فرق، ولكن أصل التحريم شامل.

أما اذا أوفى الثمن الحرام أولاً ثم قبض، فإن كان عالماً بحرمته ومع هذا قبض المبيع بطل حق حبسه وبقي له الثمن في ذمته، اذ ما أخذه ليس بثمن ولا يصير أكل المبيع حراماً بسبب بقاء الثمن. فأما اذا لم يعلم أنه حرام، وكان بحيث لو علم لما رضي به ولا أقبض المبيع، فحق حبسه لا يبطل بهذا التلبيس، فأكله حرام تحريم أكل المرهون الى أن يبرئه، أو يوفي بحلال، أو يرضى هو بالحرام و يبرىء فيصح ابراؤه، ولا يصح رضاه بالحرام فهذا مقتضى الفقه.

وبيان الحكم في الدرجة الأولى من الحل والحرمة، فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم، لأن المعصية اذا تمكنت من السبب الموصل تشتد الكراهة كما سبق. وأقوى الأسباب الموصلة الثمن، ولولا الثمن الحرام لما رضي البائع بتسليمه اليه، فرضاه لا يخرجه عن كونه مكروهاً كراهة شديدة، ولكن العدالة لا تنخرم به وانما تزول به درجة التقوى والورع.

والدرجة الوسطى: أن لا يكون العوض غصباً ولا حراماً ولكن يتهيأ لمعصية، كما لو سلم عن الثمن عنباً والآخذ شارب خمر، أو سيفاً وهو قاطع طريق، فهذا لا يوجب تحريماً في المبيع، ولكن يقتضي فيه كراهية دون الكراهة التي في الغصب.

والدرجة السفلى: وهي درجة الوسواس، كما اذا حلف على أن لا يلبس من غزل أمته فباع غزلها واشترى به ثوباً فهذا لا كراهة فيه، والورع عنه وسوسة.

وأعلم: أن الدرجات المذكورة لا تنحصر في عدد ولكن المقصود من التعديد التفهيم.

وأعلم: أن الانسان لا ينبغي أن يشتغل بدقائق الورع الا بحضرة عالم متق، فانه اذا جاوز ما رسم له وتصرف بذهنه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

المثار الرابع
الاختلاف في الأدلة

وهذا كالاختلاف في السبب، لأن السبب سبب للحل والحرمة، والدليل سبب لمعرفتها. وهي ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتعارض أدلة الشرع: كالعمومين من القرآن أو السنة، أو قياسين، أو قياس وعموم. وكل ذلك يورث الشك ويرجع في مثله الى الترجيح. فان ظهر الترجيح في جانب الحرمة وجب الأخذ به، وان ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به، ولكن الورع تركه.

ثم أن المقلد ينبغي له أن يبحث عن أفضل المذاهب بين علماء بلده فيتبعه، وليس له أن يتبع أوسعها. نعم: ان أمامه افتاه بشيء وله مخالف، فعليه أن يترك الخلاف الى مذهب أجمعوا عليه. وكذا المجتهد اذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحدس وتخمين وظن فالورع له الاجتناب.

وهذا على ثلاث مراتب:

أولاها: ما يقوى فيه الدليل المخالف ويدق ترجيح المذهب الآخر عليه، فالمستحب التورع عنه وان أفتى المفتي أنه حلال، لأن الترجيح فيه غامض.

وثانيتها: تزاحم درجة الوسواس، كالتورع عن أكل جنين ذكى أمه وفي الصحاح ما يدل على حله.

وثالثتها: أن لا يشتهر في المسألة خلاف أصلاً، ولكن يكون الحل معلوماً بخبر الواحد فيتورع عنه لاختلاف الناس في الخبر الواحد، فهذا ورع لم ينقل عن الصحابة الا اذا تطرق شبهة في حق الراوي خاصة. ومن هذا القبيل خلاف النظام في أصل الاجماع بأنهم غير معصومين، فإذا لا طرف لا طرف من أطراف الشبهات الا وفيها علو واسراف.

والأصل: أن تستفتي قلبك، وتدع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وتترك

حزازة القلوب وحكاكة الصدور. وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والداعي، ولكن تحفظ قلبك عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم الا بالحق، ولا ينطوي على حزازة في مظان الوسواس، ولا يخلو عن الحزازة في مظان الكراهة، وما أعز مثل هذا القلب.

القسم الثاني: أن يتعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة؛ مثلاً: يخبر عدل بأن هذا المتاع حلال، وعدل آخر بأنه حرام، فان ظهر ترجيح حكم به فالورع الاجتناب، وان لم يظهر وجب التوقف.

القسم الثالث: تعارض الأشباه في الصفات التي بها تناط الأحكام، كمن أوصى ماله للفقراء، فالفاضل في الفقه داخل بلا شبهة، والمتعلم منذ يوم أو شهر غير داخل لا شبهة، وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها، فالمفتي يفتي بحسب الظن، والورع الاجتناب. وهذه أغمض مثارات الشبهة، فإن فيها صوى يتحير فيها المفتي تحيراً لازماً لا حيلة له فيه، اذ يكون المتصف بصفة في درجة متوسطة لا يظهر له ميل الى أحدهما.

وكذلك الصدقات: فإن المحتاج ما ليس له شيء، والغني من له مال كثير، وأما من له دار وأثاث وثياب وكتاب فإن قدر الحاجة منه والزائد عليه لا يمكن تحديدهما، وانما يدرك بالتقريب، وينظر في مقدار سعة الدار وأبنيتها ومقدار قيمتها لكونها في وسط البلد أو في طرفه ووقوع الاكتفاء بدار دونها؛ وكذا الأثاث أما من صفر أو من خزف، وكذا في عددها وقيمتها، وكذلك ما يحتاج اليه كل يوم أو سنة. وشيء من هذه الأمور لا حد له، فإن توقف المفتي فيها فلا وجه الا التوقف، وان أفتى المفتي بظن وتخمين فالورع التوقف وهو أعم مواضع الورع. الوجه في مثل هذا ما قال صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك الى ما لا يريبك».

فهذه مثارات الشبهات وبعضها أشد من بعض، ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ؛ مثل: أن يأخذ طعاماً مختلفاً فيه عوضاً عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة، والبائع قد خالط ماله حرام، ليس

هو أكثر ماله ولكنه صار مشتبهاً به، فقد يؤدي ترادف الشبهات الى أن يشتد الأمر في اقتحامه. وليس في قوة الامر حصرها، فما اتضح من هذا الشرح أخذ به، وما التبس فليجتنب فإن الأثم حزاز القلوب، وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتي. أما حيث حرمه فيجب الامتناع، ثم إنّ في الاستفتاء لا يعول على كل قلب، اذ رب موسوس ينفر عن كل شيء، ورب شره متساهل يطمئن الى كل شيء، وانما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال، فهو المحل الذي يمتحن به خفايا الأمور، وما أعز هذا القلب في القلوب، فمن لم يثق بقلبه فليلتمس النور ممن قلبه بهذه الصفة وليعرض عليه واقعته.

المطلب الرابع

في البحث والسؤال، والهجوم والإهمال ومظانهما

واعلم: أن لا وجه للتفتيش عن كل ما أهدى اليك أو وهب أو بيع منك، وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما تجده، بل للتفتيش أحوال: فإنه واجب مرة وحرام أخرى، ومندوب اليه مرة مكروه أخرى، فمثار الشبهة فيها في أمرين: أما في المال أو في صاحبه.

النوع الأول: أحوال المالك. وهي ثلاث:

الحالة الأولى: أن يكون مجهول الحال، بأن لا يكون في زي الظلمة ولا في زي العلماء والصلحاء، فإن كنت غريباً تريد ان تشتري خبزاً ولا تدري صاحبه، فلا يلزمك السؤال، بل يده واسلامه كافيتان في الهجوم على أخذه. وقولك: الفساد غالب في الناس وسوسة وسوء ظن بالمسلم، و يدل عليه: أن الصحابة كانوا ينزلون القرى، ولا يتركون القرى و يدخلون البلاد، ولا يتحرزون من العباد، وكان الحرام موجوداً في زمانهم أيضاً. فليس له السؤال: من أين اكتسبه، ومن أين حصل له، بل إن حصل له فيه ريبة فليتلطف في الترك، وان كان لا بد له من أكله فليأكل بغير سؤال ايذاء وهتك سر وايحاش وهو حرام بلا شك، وليس الآثم في ايذاء مسلم بأقل من الآثم في أكل شبهة.

ولا يجوز أن يسأل من حيث لا يدري، لأن في ذلك إساءة ظن وهتك سر، وفيه تجسس وفيه تشبيه بالغيبة وان لم يكن صريحاً، وكل ذلك منهى عنه في آية واحدة قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن أثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾[1]. فكم من زاهد جاهل تجسس الجاهل عنده ذلك طلباً للشهرة بأكل الحلال، ولو كان باعثه الدين لكان خوفه من ايذاء مسلم أشد من خوفه على أن يدخل بطنه ما لا يدري وهو غير مؤاخذ بما لا يدري. فطريق الورع في أمثاله الترك دون التجسس، وان لم يكن بد فالورع الأكل واحسان الظن.

الحالة الثانية: أن يكون مشكوكاً فيه بسبب دلالة أورثت ريبة: أما في خلقته بأن يكون على خلقة الأتراك والبوادي والمعروفين بالظلم وقطع الطريق وأن يكون طويل الشارب، وأما في زيه: بأن يكون لباسه على زي اهل الفساد من الظلمة والأجناد، وأما من فعله وقوله: بأن يشاهد منه الأقدام على أخذ الحرام. والحكم فيه جواز الاقدام نظراً الى ضعف الأدلة وقوة اليد والاسلام ورجحان الترك، لأن اليد دلالة ضعيفة، وقد قابلها مثل هذه فأورثت ريبة.

وأما الورع هو الثاني، وهو الذي يختار و يفتي به لقوله صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك الى ما لا يريبك». ثم أن بين هذه الدلالات تفاوتاً، فإن طول الشارب وهيئة الاجناد، وكذا القول والفعل المتعلقان بظلم المال، وكذا الأمر بالغصب والظلم، أو العقد بالربا أقوى في الدلالة ممن شتم غيره في غضبه واتبع نظره امرأة، اذ كم من انسان يتحرج في طلب المال ولا يكسب الا الحلال، ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة. فلا يمكن أن يضبط هذه الدلالات بحد، فالمرجع هو الاستفتاء بالقلب.

ثم أن ما ذكر في مجهول المال: وأما أن رأيته ممن عرفته بالورع في العبادات يصير في حكم المال كالمجهول لتعارض الأدلة في حق المال، اذ لا يلزم من

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

الورع في العادات الورع في المال، فالمرجع هو حكم القلب، وأيضاً: ان هذه الدلالة انما تعتبر اذا دلت على حرمة أكثر ماله، وان على حرمة أقله لا يجب السؤال، بل يكون السؤال من الورع.

الحالة الثالثة: أن يكون الحال معلوماً بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب الظن في الحل والحرمة؛ مثل: أن يعرف ديانته وعدالته في الظاهر، واحتمل عنده أن يكون الباطن بخلافه، فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما في المجهول بل أولى، والأقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الشبهة من الأقدام على طعام المجهول، فإن ذلك بعيد من الورع وأن لم يكن حراماً.

النوع الثاني: أحوال المال. بأن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا أشترى أهل السوق أحمالاً من طعام غصب، فلا يجب السؤال عما يشتريه في تلك السوق، وانما التفتيش هو الورع، الا أن يظهر أكثر ما في أيديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال. والدليل على عدم وجوب السؤال اذا لم يكن الحرام أغلب عدم امتناع الصحابة عن الشراء من الأسواق مع أن فيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرهما، وانما السؤال ينقل عن آحادهم نادراً في بعض الأحوال، وفي محل الريبة في الشخص المعين.

المطلب الخامس
في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

وعليه في ذلك وظيفتان:

الوظيفة الأولى: في كيفية تميز الحرام واخراجه. فالمال الحرام أن كان معلوم العين فالأمر سهل، فإن كان مختلطاً: فاما أن يكون من ذوات الأمثال كالنقود والأدهان، أو من أعيان متمايزة كالعبيد والثياب.

فإن كان الأول أو كان شائعاً في المال كله كمن خلط دهناً مغضوباً بدهن نفسه، فإن كان معلوم القدر كالنصف فعليه تميز ذلك القدر، وأن

أشكل فله طريقان: أحدهما الأخذ باليقين، والآخر الأخذ بغالب الظن. فيجوز الأخذ بغالب الظن اجتهاداً، ولكن الورع الأخذ باليقين.

طريق الأخذ بالورع: أن لا يستبقي الا القدر الذي يتيقن انه حلال، وطريق الأخذ بالجواز: مثلاً يتيقن ان النصف حلال والثلث حرام و يشك في السدس، فيخرج الثلث ويحكم في السدس بغالب الظن، والورع اخراجه أيضاً. وان شك فيه جاز الامساك، والورع الاخراج أيضاً وهذا آكد.

فإن قلت: الذي يخرج لا يدري أنه عين الحرام فلعل الحرام ما بقي، قلت: أنه غير مضر. ولنفرض في درهم اشتبه بدرهم آخر أيها رد إلى المالك ورضي به فقد برىء، أما المردود وان كان عين درهمة فذاك، وان كان غيره فقد حصل لكل منها درهم في يد صاحبه، فالاحتياط أن يتبايعا باللفظ، فإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاطاة، اذ المغصوب منه — وان فات له درهم في يد الغاصب وعسر الوصول الى عينه واستحق ضمانة لكن ما أخذه يقع عن الضمان، وهذا في جانبه واضح، فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ. والاشكال في الجانب الآخر انه لم يدخل في ملكه فنقول: لأنه أيضاً قد سلم درهم نفسه فقد فات له أيضاً درهم هو في يد الآخر، وليس يمكن الوصول اليه فهو كالغائب، فيقع بدلاً عنه في علم الله تعالى ان كان الأمر كذلك، و يقع هذا التبادل في علم الله سبحانه. هذا في ذوات الأمثال فأنها تصح عوضاً بلا عقد.

وأما اذا اشتبه دار بدار أو عبد بعبد فلا سبيل الا المصالحة والتراضي، فإن أبى أن يأخذ الا عين حقه وأراد أن يعوق عليه جميع ملكه، فإن كانت متماثلة القيمة يبيع القاضي جميع الدور و يوزع الثمن بقدر النسبة، وان كانت متفاوتة أخذ من طالب الدفع قيمة أنفس الدور، وصرف الى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل، وتوقف في قدر التفاوت الى البيان أو الاصطلاح لأنه مشكل، وان لم يوجد القاضي فللذي يريد الخلاص وفي يده الكل أن يتولى ذلك نفسه.

الوظيفة الثانية: في الصرف. وله أحوال ثلاثة: أما أن يكون له مالك

معين ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك، كغلول الغنيمة فأنها بعد تفرق الغزاة لا يقدر على جمعهم؛ وان قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً على ألوف من المسلمين. فحكم هذا المال أن يتصدق به، وان كان من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين يصرفها الى المساجد والقناطر والرباطات ومصانع طريق مكة وأمثال ذلك. فإن وجد قاضياً عدلاً يسلم اليه المال وهو يصرفه الى ما ذكر، والا يحكم عالماً متديناً من أهل البلد فان التحكيم أولى من الانفراد، وان عجز عن ذلك يتولاه بنفسه اذ المقصود الصرف.

فإن أخطرت بالبال أن التصدق بالحرام غير جائز ولا أقل من عدم ثوابه، قلت: ثبت ذلك بالخبر والأثر والقياس.

أما الخبر: فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت اليه فكلمته بأنها حرام، أو قال: اطعموها فتصدق بالثمن.

وأما الأثر: فإن ابن مسعود اشترى جارية ولم يظفر بمالكها لينقده الثمن، فطلبه كثيراً فلم يجده، فتصدق بالثمن وقال: اللهم هذا عنه ان رضي والا فالأجر لي.

وسئل الحسن عن توبة الغال بعد تفرق الجيش، قال: يتصدق به.

وأما القياس فهو: أن هذا المال مردد بين أن يضيع وبين أن يصرف الى خير اذ يقع اليأس عن مالكه، ولا يخفى أن صرفه الى خير ينتفع به مالكه في الآخرة خير له من أن ينتفع به في الدنيا، فضلاً عن أن لا ينتفع أصلاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، مع أن فيه انتفاع فقير وسد حاجته. وحصول الأجر للمالك بغير اختياره لا ينكر، اذ قد ورد في الخبر الصحيح: ان للزارع والغارس أجراً في كل ما يصيبه الناس والطيور من ثماره وما يقال: لا يتصدق الا الطيب فذلك اذا طلبنا الأجر لأنفسنا، ونحن نطلب الخلاص عن المظلمة لا الأجر، وترددنا بين التضييع والتصدق.

وقول القائل: لا نرضى لغيرنا ما لا نرضاه لأنفسنا فهو كذلك، لكنه حرام علينا وحلال للفقير فرضينا له الحلال.

وأعلم: أن المال اذا كان مختلطاً من الحرام والحلال يخص الحلال بنفسه اذ لا يعذر نفسه في الحرام، و يعطي الحرام العيال لأنهم ربما يعذرون بعدم العلم، ثم أنه يخص بالحلال قوته ولباسه، وأما اذا أريد تخصيص واحد منها فيخص الحلال بالقوت اذ ينبت لحمه ودمه منه، واللباس انما هو ساتر من الحر والبرد فالاهتمام بالأول أولى. وقال الحارث المحاسبي: يقدم اللباس لبقائه مدة بخلاف الطعام، الا أن المختار تقدم القوت. ولهذا تقيأ الصديق رضي الله عنه لبناً شربه مع الجهل بحاله لئلا ينبت منه لحم.

فإن قيل: بعدما صرف الكل إلى أغراضه لا يبقى الفرق بين نفسه وغيره، قلنا: عرف ذلك التفاوت مما روى أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحاً وعبداً حجاماً، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنع من كسب الحجام، فروجع مرات فمنع، فقيل له: ان له أيتاماً، فقال: اعلفوه الناضح. فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو ودابته.

ثم اذا تصدق على الفقراء الحرام يوسعه عليهم، واذا أنفق على نفسه فلينفق ما قدر وان أنفق على عياله فليقتصد. وأما الضيف: فإن كان فقيراً يوسعه عليه منه، وان كان غنياً فلا يطعمه منه الا في برية أو قدم ليلاً لم يجد شيئاً. وان كان الضيف الفقير تقياً ورعاً فليعرض الطعام، وليخبره جمعاً بين حق الضيافة وترك الخداع، ولا يقول أنه لا يدري فلا يضيره لأن الحرام يؤثر في قساوة القلب.

وان كان الحرام في والديه فليمتنع من أكل طعامها وان سخطا، اذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وان كان شبهة فالامتناع للورع فليتلطف في الامتناع لأن رضاهما أيضاً ورع بل واجب. فإن لم يقدر فليوافق، وليقلل الأكل بأن يصغر اللقمة و يطيل المضغ، ولا يتوسع فإن ذلك غرور. والأخ والأخت قريب منها لأن حقها أيضاً مؤكد، وكذا اذا ألبسته أمه ثوباً من شبهة وكانت

تسخط برده، فليقبله بين يديها ولينزعه في غيبتها، ولا يصل فيه الا عند حضورها، فلا يصل فيه الا صلاة المضطر.

المطلب السادس

في ادارات السلاطين

فالنظر فيها في أمرين:

النظر الأول: في جهات الدخل. وهي قسمان:

أحدهما: مال الفيء والجزية ومال المصالحة، وهذا من الكفار.

وثانيها من المسلمين، وهو المواريث التي لا وارث لها والأموال ضائعة.

وأما الصدقات فلا تؤخذ في هذا الزمان، وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام.

ثم مصارف ما ذكر ثمانية:

الأول: الجزية. وأربعة أخماسها للمصالح وخمسها لجهات معينة، وذلك حلال أنْ اجتمع شرائطها المذكورة في الفقه.

الثاني: المواريث والأموال الضائعة فهي للمصالح. والنظر في حال المال بأنه حرام أو حلال كله أو بعضه فقد مر حاله.

الثالث: الأوقاف. والنظر فيها كشرائط المواريث مع شرائط الوقف خاصة.

الرابع: ما أحياه السلاطين ولا يعتبر له فيه شرط، اذ له التصرف العام في الأراضي، فيعتبر فيه ما مر من أحوال الأعواض.

الخامس: ما أشتراه السلطان من الذمة من أرض أو ثياب ونحو ذلك، هو حلال لو كان ثمنه حلالاً والا فحرام.

السادس: ما عينه للعمال بأن يجمعوا من أموال القسمة والمصادرات وهو الحرام السحت.

السابع: ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال فماله كله حرام، والا فمختلط: أما غالب أو مساو أو قليل.

الثامن: ما يكتب على بياع يعامل السلطان، فان كان لا يعامل غيره والحرام، فإن لم يعرف للسلطان دخل حلال فهو سحت محض، وان لم يعلم ففيه خلاف، منهم من قال: الحرام فيه غالب فلا يجوز، ومنهم من قال: كل ما لا أتيقن بحرمته فلي ان آخذه. والمختار: ان الغالب ان كان حرام حرم، وان كان الأغلب حلالاً وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا كما سبق.

واحتج المجوزون بأخذ بعض من الصحابة من مروان و يزيد ومن عبد الملك، وبعض من التابعين كالشعبي وابراهيم والحسن وابن أبي ليلى، وأخذ الشافعي من الرشيد ألف دينار دفعة واحدة، وأخذ مالك من الخلفاء أموالاً جمة، وكان الحسن والحسين يقبلان جوائز معاوية.

وأما امتناع آخرين فيدل على الورع دون الحرمة؛ وأجيب: بأن الآخذين أكثر من الممتنعين، فإن وجه الرد بالورع فكذا الأخذ يوجه بأحد أمور ثلاثة اذ الاحتمالات أربعة:

الأول: ان لا يأخذ من مالهم شيئاً وهو أشد الورع.

الثاني: أن يأخذ مما يعلم أنه من جهة حلال، وعلى هذا يحمل ما نقل عن الصحابة والتابعين.

الثالث: أن يأخذ ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين، فإنه مال لا يتعين مالكه والسلطان لا يصرفه في محله، فالأخذ منه وتفريقه في محله أولى من تركه في يده، وعلى هذا يحمل أخذ كثير من السلف.

الرابع: أن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال و يستنفق، وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر مالهم حراماً، ولهذا قال علي رضي الله عنه: خذ ما أعطاك السلطان فإن ما يأخذه من الحلال أكثر. وأما مال السلاطين في زماننا هذا اما حرام كلها أو أكثرها، اذ الظلم تداخل جميع أموالهم أو أكثرها. وأيضاً: كان السلاطين في العصر الأول

يتقلدون المنة بأخذ الصحابة والتابعين أموالهم، وهم يأخذون من غير اذلال وسؤال، ولا هم يسكتون عن الحق لأجل عطائهم؛ وفي زماننا هذا انعكس الأمر كله فيؤدي القبول الى المعصية.

النظر الثاني: في قدر المأخوذ وصفة الأخذ.

واعلم: أن تصرف السلطان في أموال المصالح كأربعة أخماس الفيء والمواريث صحيحة، فله أن يعطي ما شاء لمن شاء، وأما مصارفها فالغنى ليس منهم اذ لم يكن فيه مصسحة لنناس، بل المصرف من فيه مصلحة عامة أو محتاج إلى الكسب، فكل من يتولى أمراً بقوم يتعدى مصلحته الى المسلمين، فلو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه، فله في بيت المال حق الكفاية، ومنهم العلماء النافعون كالفقهاء والمحدثين والمفسرين والقراء، بل المعلمون والمؤدبون وكذا طلبة هذه العلوم، وكذا زراري العلماء المذكورين، فأنهم ان لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب.

وأيضاً: الدين والملك توأمان، فيدخل فيهما الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم؛ ومنهم: عمال بيت المال، والاجناد الحارسون للمملكة، و يدخل فيها الحساب والكتاب والوكلاء لأعمال المال الحرام، بن عمال بيت المال على حسب الشرع، و يدخل فيها الأطباء أيضاً لأن لهم مدخلاً في صحة الجسد الذي لا يتم أمر الدين الا به، لكن من يعالج المسلمين بغير أجرة وهؤلاء المصارف يجوز أن يعطوا مع الغنى.

وكذا للسلطان أن يخص واحداً بقدر ما شاء، لكن ينبغي أن يراعي فيه المصلحة، اذ مهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث الناس وتحريضهم على الاشتغال والتشبه به. هذا في السلطان العامل على وجه الحق.

وأما الظلمة ففيهم أمران:

أحدهما: أنه بظلمه أما معزول أو واجب العزل، فكيف يجوز أن يؤخذ من يده.

ثانيها: أنه يمنع بعض المستحقين فلا يجوز الأخذ للبواقي أصلاً، وان جاز فبقدر حصتهم.

والجواب عنه:

أما عن الأول: فلان السلطان مهما عسر استبداله وكان في خلعه فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه والطاعة؛ وأيضاً: أنا نراعي الصفات والشروط في السلاطين تشوفاً الى مزايا المصالح، ولو قضينا ببطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأساً، فكيف نفوت رأس المال في طلب الربح، بل الولاية الآن لا تسع الا الشوكة أو من بايعه صاحب الشوكة وهو الخليفة، فمن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الحكم، والقضاة في أقطار الأرض ولاة نافذو الأحكام.

وأما عن الثاني ففيه أربع مراتب:

فغلا بعضهم وقال: المسلمون كلهم فيه شركاء، ولا يدري ان حصته منه دانق أو حبة فليترك الكل.

وقال قوم: له أن يأخذ قوت يومه اذ الضرورة تندفع بهذا.

وقال قوم: له قوت سنة، فإن أخذ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حق فلا يتركه.

وقال قوم: يأخذ ما يعطي، والمظلوم هم الباقون. وهذا هو القياس لأن اشتراك هذا المال بين المسلمين ليس بطريق التعيين، والا للزم الأرث فيمن مات قبل القبض، وانما يتعين بالقبض فلا يسقط الباقي بظلم السلطان للبعض منهم.

المطلب السابع
في حكم مخالطة السلاطين

وذلك لا يخلو عن أحوال ثلاثة:

الحالة الأولى: أن تدخل عليهم فهي مذمومة شرعاً، وفيه تشديدات وتغليظات تواردت بها الأخبار والآثار. ثم أن في الدخول ما يحرم وما يكره وما يباح بسبب أمور ثلاثة: أما بفعله واما بسكوته وأما بقوله.

أما الأول: فلان الأكثرين دارهم مغصوبة فيحرم الدخول فيها بغير اذن المالك، وان لم تكن داره حراماً فلا يعصى بالدخول والسلام، ولكن سجد أو ركع أو مثل قائماً في سلامه وخدمته كان مكرماً للظالم فيكون عاصياً، والتواضع لغنى غير ظالم معصية، وفي الخبر: نقص ثلثا دينه، فكيف بالظالم.

وأما تقبيل اليد والانحناء في الخدمة فهو معصية، الا عند خوف، أو لامام عادل، أو لعالم، أو لمن يستحق ذلك بأمر ديني. قبل أبو عبيدة الجراح يد عمر رضي الله عنه فلم ينكر عليه.

فإن ترك جميع ذلك واقتصر بالسلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم، واذا كان أغلب أموالهم حراماً فلا يجوز الجلوس على بساطهم.

وأما الثاني وهو السكوت: فأنه سيرى في مجلسهم من الفرش الحرام والأواني الحرام والملبوسات المحرمة عليهم وعلى غلمانهم، بل يسمع منهم الفحش والكذب وأمثالها، فالسكوت على جميع ذلك حرام، فإن ترخص بأنه يخاف فهلا عمل بالعزيمة في عدم الدخول اللهم الا اذا أكره على الدخول أيضاً.

وأما الثالث وهو القول: فهو أن يدعو له و يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بتصريح أو بتحريك رأس أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والاشتياق والحرص على طول عمره وبقائه، وكل ذلك حرام وقعت فيه الأخبار والآثار.

فلا يجوز الدخول عليهم الا لعذرين:

أحدهما: الاكراه، وعلم أنه لو امتنع أوذي أو نزع العوام نفسهم عن طاعة الأمراء لاقتدائهم بامتناعه.

وثانيها: أن يدخل لدفع ظلم عن نفسه أو عن غيره، بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع النصيحة بتوقع قبولها.

الحالة الثانية: أن يدخل عليك السلطان الظالم زائراً فيجب السلام، وأما القيام: فإن كان بجمع كثير يقوم لرعاية حشمة الولاة بين الرعايا فإن ذلك مهم، وان كان في خلوة فيجوز القيام مكافأة لما وقع من الاكرام، ولكن الأولى أن لا يقوم ليظهر به عز الدين وحقارة الظلم، ويظهر به غضبه للدين والأعراض عمن أعرض الله عنه، ثم يخوف فيما يرتكبه من المعاصي، ويرشده الى طريق المصلحة، والارشاد الى ما هو غافل عنه بما يغنيه عن الظلم.

الحالة الثالثة: أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه وهو الواجب، اذ لا سلامة الا فيه، ولا يستخبر عن احوالهم ولا يتقرب الى المتصلين بهم. فإذا خطر بباله تنعمهم فليذكر ما قال أبو حاتم الأصم: انما بيني وبين الملوك يوم واحد، أما أمس فلا يجدون لذته، وانا واياهم من غد على وجل، وانما هو اليوم، فما عسى أن يكون في اليوم.

ولا بد أن تكون الجناية على الله فوق الجناية على نفسك، فيجب أن لا تحب، وما يقال: المحبة غير اختياري فليس كذلك، لأن المحبة فرع معرفة الكمال، فمن أحب الله تعالى أحب ما أحبه وكره ما أبغضه.

وان احتججت بدخول السلف عليهم فنقول لك: أدخل كما دخلوا، لكنه قريب من المحال في حقنا، أين نحن من أحوالهم: لأنهم كانوا يعاتبونهم ويعظونهم ولا يخافون في الحق لومة لائم، ونحن نتقرب الى قلوبهم فندلهم على الرخص فيما يوافق أغراضهم. وان لنا في ذلك غرورين يغتر بهما الحمقاء.

أحدهما: أن يظهر أن قصدي أصلاحهم بالوعظ وانما الباعث لهم الشهرة،

وربما تلبس أنفسهم بذلك عليهم، وليمتحن بأنه لو تولاه غيره لفرح به و يشكره على كفايته هذا المهم.

وثانيها: أن يزعم أنه يقصد الشفاعة لمسلم لدفع ظلامة، وهذا أيضاً مظنة الغرور ومعياره ما تقدم.

المطلب الثامن

اذا بعث اليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء

فان كان له مالك معين فلا يحل أخذه، والا فيجوز أن تتولى بها، لكن اشترط بعضهم الأمان عن ثلاث غوائل:

الأولى: أن يظن السلطان حل ماله بأخذك.

الثانية: أن يقتدي بك غيرك و يستدل بذلك على جوازه ثم لا يفرقون، فهذا أعظم من الأول، كما يستدلون بأخذ الشافعي على جواز الأخذ و يغفلون عن تفرقته وأخذه على هذه النية.

الثالثة: أن يتحرك قلبك الى نفسه لتخصيصه اياك وايثاره لك، وهذا هو السم القاتل، فانك ان أحببته تحرص عليه وتداهن فيه. ومما ينبغي أن يعلم أنه يجب الاحتراز عن معاملتهم لأن أكثر مالهم حرام، وكذا عن معاملة قضاتهم وعمالهم وخدمتهم اذ أكثر أموالهم الغصب، فمن أين يقع في أيديهم مال مصلحة وجزية وميراث ووجه حلال حتى تضعف شبهة الحرام باختلاط الحلال بمالهم.

وأيضاً: الأسواق التي بنى السلاطين بالمال الحرام تحرم سكناها وان لم يحرم كسبه، فإن وجدوا سوقاً آخر فلا يشتري منهم فإن ذلك اعانة لسكناهم وتكثيراً لكراء حوانيتهم. ومنهم من بالغ وجعل كسبهم حراماً وليس كذلك.

وأما القناطر من مالهم فلا يجوز العبور عليها الا للحاجة، والورع الاحتراز ما أمكن.

وأما المساجد: فإن كان بناؤها وآلاتها مغصوبة أو من مال لا يعرف مالكه

فلا يجوز الصلاة فيها ولا الجمعة، وان أمكن اقتداء الامام من خارج فليفعل. فالورع العدول الى مسجد آخر ان وجد والا فلا يترك للجمعة والجماعة، ولينظر الى احتمال أن يكون من مال بانيه، أو أن لا يكون له مالك معين.

وكذا السقاية من مال حرام، والورع الاحتراز عنها الا اذا خاف فوت الصلاة فيتوضأ.

وأما الرباطات والمدارس فإن كانت في الأرض المغصوبة لا يرخص للدخول فيها، وان التبس فقد أرصد لجهة من الخير فالورع اجتنابه، لكن لا يفسق مرتكبه.

وهذه الأبنية ان صدرت عن خدم السلطان فالأمر فيها أشد، اذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة الى المصالح مع غلبة الحرام على أموالهم، اذ ليس لهم أخذ مال المصالح، وانما يجوز ذلك للولاة وأرباب الأمر. والكلام في هذا يطول والله أعلم.

الأصل الخامس
في آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وفيه مطالب

المطلب الأول
في فضيلة الأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الأخوة والألفة:

أعلم: أن حسن الخلق يوجب التوافق والتحاب و يثمرهما، ومحمودية المثمر توجب محمودية الثمرة، كما ان سوء الخلق يثمر التباغض والتدابر.

أما فضيلة حسن الخلق فقوله تعالى: ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾[1]. وقال صلى الله عليه وسلم: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى وحسن الخلق»؛ وقال «أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن»؛ وقال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ثم ان الأخوة في الدنيا والأخوة في الآخرة. وأعلم: أن الصحبة: أما اتفاقي: كالصحبة بسبب الجوار أو الاجتماع في المكتب والمدرسة أو السوق أو باب السلطان أو الأسفار، وأما اختياري: وهي فرع المحبة: وهي أربعة أقسام:

---

(١) سورة القلم، آية: ٤.

القسم الأول: حبك الانسان لذاته، وذلك بأن تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له، فإن كل جميل لذيذ وكل لذيذ محبوب، فاللذة تتبع الاستحسان، ويتبع هو المناسبة والموافقة من الطباع.

ثم ذلك المستحسن: أما أن يكون صورته الظاهرة أو الباطنة ـــ أعني: كمال العقل المثمر غزارة العلم، وحسن الخلق المثمر حسن الأفعال.

وقد تكون الألفة بمناسبة باطنة توجب الإلفة، فإن شبه الشيء منجذب اليه، وتلك المناسبة لها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، واليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف».

وكان مالك بن دينار يقول: كل انسان يأنس بشكله كما أن كل طير مع جنسه. فرأى يوماً غراباً مع حمامة فعجب من ذلك، فلما طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من ها هنا اتفقا. فقد ظهر منه أن الحب قد يكون لا لنفع صوري. ويدخل فيه الحب للجمال بدون ملاحظة الشهوة، فإن الصورة الجميلة مستلذة في عينها ــ وان فرض عدم الشهوة ــ كما يستلذ الماء والخضرة والأزهار فهو محمود في نفسه. وان اتصل به غرض مذموم من الشهوة الحرام صار مذموماً، وان اتصل به غرض مباح لا يذم ولا يحمد.

وفي هذا القسم لا يدخل حب الله لأنه طبيعي، وحب الله ليس كذلك.

القسم الثاني: لينال من ذاته غير ذاته، فيكون المحبوب الغير وهو وسيلة اليه. والطريق الى المحبوب محبوب ومنه محبة لذهب والفضة. ثم القصد بالوسيلة: اما إلى المال والجاه كحب الملوك والسلاطين، أو العلم كحب التلميذ الاستاذ. وليس في شيء منها محبة الله تعالى اذ يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى. الا أنه قد يكون مذموماً اذا قصد التوصل إلى قهر الأقران بالمال، وحيازة أموال اليتامى بالجاه، وظلم الرعايا بالعلم بولاية القضاء أو غيره. وقد يكون مباحاً اذا توسل الى مباح، اذ الوسيلة بكسب الحكم والصفة من المتوسل اليه.

القسم الثالث: أن يحبه لا لذاته بل لغيره، وذلك الغير ليس راجعاً الى حظوظه في الآخرة، كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوسل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة، فهذا من جهة المحبين في الله تعالى؛ وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم، بل الذي يتصدق بأمواله تقرباً الى الله تعالى، بل من أحب من يواسيه في المطعم والملبس ليتفرغ للعلم والعمل، بل من أحب امرأته الصالحة ليتحصن بها من وسواس الشيطان ويصون بها دينه ويولد له ولد صالح يدعو له، فكل هذه المقاصد دينية فهو محب لله تعالى.

القسم الرابع: أن يحب لله وفي الله لا لينال منه علماً أو عملاً وليتوصل به الى أمر وراء ذاته، وهذا أعلى الدرجات وهو ادقها وأعظمها. وهذا القسم أيضاً ممكن.

ومن آثار هذا الحب أن يتعدى من المحبوب الى من يتعلقه ويناسبه ولو من بعد: من محبوب محبوبه ومن يثني عليه حتى منزله ومحله وجيرانه، حتى قيل: ان المؤمن اذا أحب المؤمن أحب كلبه. ويشهده التجربة في أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء. فكذلك حب الله تعالى اذا غلب واستولى يتعدى الى كل موجود سواه لأنه أثر من آثار قدرته، كمن أحب خط حبيبه وصنعته. وكذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حمل اليه باكورة مسح عينها وأكرمها، وقال: أنه قريب العهد بربه.

ولو كان الحب مقصوراً على حظ ينال من المحبوب في الحال أو المال لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين، بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين، وكل ذلك حب الله لأنهم خواص عباده.

واذا عرفت درجات الحب فقد اتضح عندك درجات البغض بالمقايسة، لأن من أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده، فكل عاص لله يبغضه كما يحب

المطيع، وهذان متلازمان. وكل من الحب والبغض دفين في القلب، وانما يترشح عند ظهور أفعال المحبين والمبغضين.

ولكن يشكل حال من اختلط فيه الطاعة والمعصية، اذ يلزم فيه الجمع بين الحب والبغض وهما متضادان، الا أن الأمر ظاهر عند الله تعالى. وأما أنت فتبغض من جهة عصيانه وتحب من جهة طاعته وذلك ممكن، كما اذا كان لك ولد ذكي خدوم لكنه فاسق، فإنك تحبه من الجهة الأولى وتبغضه من الجهة الثانية.

وكذلك الحال في المسلم العاصي، فلا تبالغ في اهانته كاهانتك الكافر، ولا تبالغ في اكرامه كاكرامك المسلم المطيع. ثم ينبغي أن يكون ميلك الى طرف الاهانة عند غلبة المعصية، والى طرف المجاملة والاكرام عند غلبة الطاعة. وهكذا حال من يطلب رضا الله ويتجنب سخطه.

ثم طريق اظهار البغض: أما القول أو الفعل.

أما القول: فبترك مكالمته ومحادثته مرة، أو الاستخفاف والتغليظ أخرى.

وأما الفعل: فبعدم اعانته أو بالسعي في اساءته أخرى. وهذه مراتب بعضها أشد من بعض، ويترشح بحسب درجات الفسق والمعصية.

أما درجات المعصية: فأما أن يصدر بطريق الهفوة فالأولى فيه الاغماض والستر، أو بطريق الاصرار على الصغيرة أو الكبيرة. فإن كانت متعدية الى الغير فلا يسامح فيه بل ينكر بقدر ما يرتدع عنه وبقدر ما أمكن لك، وان لم تكن متعدية الى الغير بل متعدية اليك فقط فطريقة العفو والصفح وان عظمت جريمته، كما قطع أبو بكر نفقته على مسطح حين تكلم في الأفك، ثم أمره الله تعالى باعادة النفقة اليه وهو قوله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾[1]. الآية. وأية جريمة أعظم من أن يتعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم واطالة اللسان في مثل عائشة رضي الله عنها.

---

(١) سورة النور، آية: ٢٢.

وأما ان كانت معصية لنفسه: فإن كانت بينك وبينه مودة فله حكم مخصوص سنذكره، والا فلا بد من اظهار أثر البغض بالقول أو الفعل وما يندرج تحتها من الأنواع بحسب مرتبة انزجاره. وأقل الدرجات قطع الرفق والنصرة عنه، وأقواها افساد أغراضه عليه وهذا لا بد منه فيما يفسد عليه طريق المعصية لا في كل أمر. هذا مذهب البعض.

وأختار بعضهم في المعصية الغير المتعدية النظر بعين الرحمة، لأنهم مقهورون لما قدر لهم والقدر لا ينفع منه الحذر، ولكن قد يلتبس المداهنة ومراعاة القلوب بالرحمة. ومحك ذلك أن ينظر عليه بعين الرحمة ان جنى على خاص حقه، ويقول: كيف لا يفعله وقد كتب عليه، وان كان يغتاظ عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهو مداهن مغرور بمكيدة من مكائد الشيطان.

فإن قلت: هل يجب الأعراض وقطع النفقة والاعانة عن العاصي بحيث يأثم من يتركه؟ قلت: لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والايجاب، لأن الصحابة كانوا منقسمين في حق أهل المعاصي: فنهم من يغلظ القول، ومنهم من يكتفي بالأعراض، ومنهم من ينظر بعين الرحمة، فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرائق السالكين.

المطلب الثاني
في أقسام المعاصي وأحكام كل منها

القسم الأول: الفساد في الاعتقاد. وهو نوعان:

الأول: الكفر. فالكافر الحربي يجازى بالقتل والاسترقاق وهذا أقصى الاهانة؛ والذمي هو الذي ماله وعرضه معصوم، لكن يعرض عنه ويحقر بالاضطرار الى أضيق الطرق، ويترك المفاتحة بالسلام، ويقول في جواب سلامه: وعليك، والأولى الكف عن معاملته ومخالطته ومؤاكلته. وأما الانبساط معه والاسترسال اليه فكروه كراهة شديدة تكاد تنتهي ما يقوى منها الى حد التحريم.

والثاني: المبتدع. وهو أما أن يدعو إلى بدعته: فإن كانت بدعته بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمي، والا فأمره أخف من الذمي عند الله ولكن أشد عند الناس، لأن شره يخاف أن يتعدى الى المسلم بخلاف شر الكافر.

وأما المبتدع الذي يدعو الى بدعته و يزعم أن ما يدعو اليه حق فشره متعد، فالاستحباب في اظهار بغضه والانقطاع عنه وتحقيره، والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد. وأما رد سلامه: فإن كان عند الناس فلا يجوز تنفيراً للناس عنه وتقبيحاً لبدعته في أعينهم، وان كان في الخلوة: فإن ظن أن ترك الجواب يردعه عن بدعته فالترك أولى، والا فلا بأس بجوابه.

وأما المبتدع العامي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون، فالأولى أن يتلطف به في النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الأعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الأعراض.

القسم الأول: العاصي بفعله وعمله لا باعتقاده. وهذا على أقسام:

أحدها وهو أشدها: ما يتضرر به الناس: كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة، فالأعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم أشد. ثم أن فساد هؤلاء: أما في الدماء أو في الأموال أو في الأعراض، و بعضها أشد من بعض، فالاستحباب في اهانتهم والأعراض عنهم يتأكد بحسب شدة الفساد وغلظته.

القسم الثاني: المأخور الذي يهيء أسباب الفساد و يسهل طريقه على الفساق، فهذا لا يؤذي الخلق في دنياهم، لكن ينقص بفعله من دينهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه. فإن المعصية بين العبد والرب الى العفو والمغفرة أقرب، ولكنه من حيث تعديه الى غيره شديد يقتضي الاهانة والأعراض والمقاطعة وترك جواب السلام، اذا ظن فيه أو في غيره نوعاً من الزجر.

القسم الثالث: الفاسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة

محظور يخصه. فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته ــ ان صودف ــ يجب منعه بما يمتنع منه ولو بالضرب والاستخفاف، فإن النهي عن المنكر واجب. واذا فرغ منه وعلم أنه مصر عليه، فإن علم النصح يمنعه من العود وجب النصح، وان لم يتحقق ولكنه كان يرجوه فالأفضل النصح والزجر لطفاً، أو تغليظاً ان كان هو الأنفع. وان علم اصراره وان النصح لا ينفعه فسير العلماء فيه مختلفة، فبعضهم يقول: الرفق والنظر بعين الرحمة أولى، كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم من لعن من شرب خمراً وقال: «لا تكن عوناً للشيطان على أخيك». أو كما قال. والحق ان ذلك يختلف باختلاف نيات الرجال والتفاوت في الأحوال، والمفتي فيه القلب والبال، اذ لكل من الطرفين خطر، اذ العنف قد يكون عن كبر وعجب والتذاذ باظهار العلو والادلال بالصلاح، والرفق قد يكون عن مداهنة واستمالة قلب.

المطلب الثالث

في الصفات المشروطة فيمن تصاحبه

اذ ليس كل انسان يصلح للصحبة، فالصحبة اما للدنيا: كالانتفاع بالمال والجاه أو الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة، ولا يتعلق بذلك غرضنا؛ واما للدين: وذلك لأغراض منها استفادة العلم والعمل، ومنها استفادة الجاه تحصنا به عن أذى من يشوش القلب ويصده عن العبادة، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب الأقوات، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأهوال، ومنها التبرك بمجرد الدعاء، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة. قال بعض السلف: استكثر من الأخوان فإن لكل مؤمن شفاعة.

وأيضاً: ينبغي فيمن تريد صحبته خمس خصال: العقل، وحسن الخلق، وترك الفسق والابتداع، والحرص على الدنيا.

أما العقل: فهو رأس المال، اذ الأحمق يضرك وهو يريد نفعك واعانتك من حيث لا يدري.

وأما حسن الخلق: اذ ربّ عاقل يغلبه هواه أو غضبه أو شهوته، ويخالف ما هو المعلوم عنده، لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه.

وأما الفاسق المصر على الفسق لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض. وقال الله تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾[1].

وأما المبتدع: ففي صحبته خطر سراية البدعة، وهو مستحق للقطيعة فكيف الصحبة.

وقد جمع شرائط الصحبة علقمة العطاردي لأبنه لما حضرته الوفاة فقال: يا بني ان عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من اذا صحبته صانك، وان صحبته زانك، وان قعدت بك مؤونة مالك؛ أصحب من اذا قلت صدق قولك، وان حاولت أمراً أمرك، وان تنازعتما في شيء آثرك. كأنه جمع في هذا جميع حقوق الصحبة. الا أن مثل هذا الرجل عزيز أو مفقود، ولذلك قيل: أوصاه بذلك لأنه أراد أن لا يصحب ابنه أحداً.

قال بعض الأدباء: لا تصحب من الناس الا من يكتم سرك و يستر عيبك، و يكون معك في النوائب و يؤثرك في الرغائب، و ينشر حسنتك و يطوي سيئتك، فإن لم تجده فلا تصحب الا نفسك. وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه.

(١) سورة الكهف، آية: ٢٨.

المطلب الرابع

في حقوق الصحبة

وهي ثمانية:

الأول: في المال. اذ الأخوة اتحاد معنوي يقتضي الاشتراك في المال والجاه والمساهمة في السراء والضراء. وقال الله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾[1] أي: كانوا خلطاء في المال. ومراتبها ثلاث، أولاها أدناها: ان تنزله منزلة خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك؛ ثانيتها: أن تنزله منزلة نفسك وتشاركه في مالك؛ وثالثتها وهي العليا: أن تؤثره على نفسك، وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين، ومن تمام هذه الرتبة ايثار بالنفس أيضاً.

روى: أنه سعى بجماعة من الصوفية الى بعض الملوك، فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسن الثوري، فبادر هو الى السياف ليكون هو أول مقتول، فقيل له في ذلك، فقال: أحببت ان أؤثر اخواني بالحياة في هذه اللحظة. فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة.

الثاني: في الاعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجات الخاصة. ولها أيضاً درجات: أدناها القيام بالحاجة عند السؤال، والقدرة لكن مع البشاشة والاستبشار، واظهار الفرح، وقبول المنة.

وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة: يقوم بحاجاتهم، و يتردد كل يوم اليهم، ويمونهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم الا عينه، بل كانوا يرون منه ما لا يرون من أبيهم في حياته.

وكان الواحد يتردد الى باب دار أخيه و يقول: هل لكم زيت، هل لكم ملح، هل لكم حاجة، وكان يقوم بها من حيث لا يعرف أخوه.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٨.

وبالجملة ينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم، وتتقلد منة بسبب قبوله فضلاً عن أن ترى لنفسك حقاً عليه. ولا ينبغي أن يقتصر على قضاء الحاجة بل يجتهد في البداية بالاكرام في الزيادة، والايثار والتقديم على الأقارب والولد.

الثالث: وهو السكوت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته، بل يتجاهل عنه، ويسكت عن الرد عليه فيا يتكلم، ولا يماريه ولا يناقشه، ويسكت عن أسراره فلا يبثها إلى غيره ولو أخص أصدقائه ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن، ويسكت عن القدح في أحبائه وأهله وولده وعن حكاية قدح غيره فيه، فإن الذي سبك من بلغك، ولا يخفى ثناء أحد عنه فإن ذلك سرور للمبلغ والقائل واخفاؤه عنه من الحسد؛ وأيضاً: لا يفاتح بسؤال غرضه ومورده ومصدره، ذ ربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج الى أن يكذب فيه.

وبالجملة: يسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً، الا في الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر ولم يجد رخصة في السكوت، فإن ذلك احسان اليه وان كرهه.

أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوىء أهله فهو من الغيبة، وذلك حرام في حق كل مسلم، ويزجرك عنه أمران:

أحدهما: أن تطالع نفسك فإن وجدت فيه أمراً مذموماً أنت عاجز عن تركه فقس على نفسك حاله.

وثانيها: أنك إن طلبت أحداً لا عيب فيه لم تجد من تصاحبه فأي الرجاء المهذب، وانما الكريم من غلبت فيه المحاسن المساوىء، فالكريم يلاحظ محاسنه واللئيم مساوئه، ولا يوجد أحد ليس له مساوىء أو محاسن، وانما الاعتبار للنظر فالمحب يعمى حسه عن عيوب المحبوب والمبغض عينه تبرز كل عيب.

الرابع: على اللسان بالنطق، فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحاب، اذ الأخوان انما يراد ليستفاد منهم لا ليتخلص عن

أذاهم. فعليه أن يتودد اليه بلسانه و يتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها: كالسؤال عن عارض أن عرض له، واظهار لشغل للقلب بسببه، واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ان يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها.

و ينبغي أن يظهر السرور بلسانه مشاركة في السرور، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء؛ وفي الحديث: «اذا أحب أحدكم أخاه فليخبره»؛ وأنما أمره بالأخبار ليزداد حباً.

ومن ذلك: أن تدعوه بأحب أسمائه اليه في غيبته وحضوره.

ومن ذلك: ان يثني عليه وعلى أولاده وفعله، حتى عقله وخلقه وهمته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به، وذلك من غير كذب وافراط، وآكد من ذلك أن يبلغه ثناء من أثنى عليه مع اظهار الفرح به.

ومن ذلك: أن يشكره على صنيعه في حقه، بل على نيته وان لم تتم، وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه، فالسكوت عنه موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة. فلك معنيان:

أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضراً ما الذي تحب أن يقوله فيك؟ فينبغي أن تقابل المتعرض لعرضه به.

وثانيها: أن تقدر أنه حاضر أو وراء جدار يسمع قولك و يظن انك ما تعرف حضوره، فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بمسمع منه ومرأى ينبغي أن تكون في غيبته كذلك. ومن لم يكن مخلصاً في اخائه فهو منافق، والاخلاص استواء الغيب والشهادة، واللسان والقلب، والسر والعلانية، والخلوة والجماعة، والاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك مما ذم في المودة، وهو دخل في الدين ووليجة في طريق المسلمين. ومن لم يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة، فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه الا محقق، ولا جرم أجره جزيل لا تناله الا بتوفيق.

ومن ذلك: التعليم والنصيحة، اذ الحاجة الى العلم فوق الحاجة الى المال، فإذا وجب مواساته وجب مواساة العلم بالطريق الأولى. وان لم يعمل بعد تحصيل العلم بعلمه فعليك نصحه لكن في الخلوة لما ذكرناه، ولا تظنن أن في ذكر العيوب ايحاش القلب فلا يكون من حقوق الأخوة، لأن الايحاش في عيب يعلمه صاحبه، وان لم يعلم فهو عين الشفقة. وأما ما يعلمه ولا يقدر على دفعه فلا يكشف سره فيه ان كان يخفيه، وان كان يظهره فلا بد فيه من النصح، بالتعريض تارة وبالتصريح أخرى الى حد لا يؤدي الى ايحاش، وان علمت ان النصح غير مؤثر وانه مجبور عليه فالسكوت عنه أولى.

وأما ما يتعلق بتقصيره في حقك: فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، فالتعريض ليس من النصح في شيء. نعم ان كان بحيث يؤدي استمراره عليه الى القطيعة فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والكناية خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكل.

الخامس: العفو عن الزلات والهفوات. والهفوة اما في دينه أو في حقك.

أما الأول: فعليك التلطف في نصحه بما تقيم أوده وتجمع شمله وتعيد الى الورع والصلاح حاله، فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلف فيه الصحابة والتابعون؛ فذهب أبو ذر الى الانقطاع ورأى ذلك من البغض في الله؛ وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا الى خلافه، وقال أبو الدرداء: اذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى؛ وقال ابراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه، فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً، وكم من أخ زل ولم يتغير عليه أخوه حتى صار باعثاً على هدايته، ولعله لو ترك لكان باقياً على ذنبه.

وأيضاً: هذا وقت حاجته وعقد الأخوة مرصدة لوقت الحاجة، وأي حاجة أشد من فقر الدين. فهذه طريقة قوم، وهي ألطف وأفقه من طريق أبي ذر، وطريقته أحسن وأسلم، والأكثرون على خلاف أبي ذر حتى قال الشاعر:

وأغفر عوراء الكريم ادخاره   واعرض عن شتم اللئيم تكرماً

وقال

ولســت بمـسـتبق أخاً لا تـلـمـه   على شـعــث أي الـرجـال المهذب

السادس: الدعاء للأخ في حياته ومماته، فتدعو له كما تدعو لنفسك فانه دعاء لك على التحقيق. وفي الخبر: «اذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال له الملك: ولك مثل ذلك»؛ وفي الحديث: «دعوة الأخ لأخيه لا ترد»؛ وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل الميت في القبر مثل الغريق يعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب».

السابع: الوفاء والاخلاص. ومعنى الوفاء: الثبات على الحب وادامته الى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب أمر أخروى، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي. ومن ثمرات المودة: ان لا تكون مع حسد في دين ودنيا، فكيف يحسده وكل ما لأخيه فاليه ترجع فائدته؛ ومن الوفاء: أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وان ارتفع شأنه وعظم جاهه، والارتفاع على الأخوان مما يتجدد من الأحوال لؤم.

قال الشاعر

ان الـكـرام اذا مـا أسـهـلوا ذكـروا   مـن كـان يـألـفـهـم بـالمنزل الخشن

ومن آثار الأخلاص وتمام الوفاء أن يشتد جزعه من المفارقة نفور الطبع من أسبابها، وأن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه، سيما من يظهر أولاً أنه صديقه و ينقل عنه ما يوغر الصدر فذلك من دقائق الجهل في التعريف، ومن الوفاء: أن لا يصادق عدو صديقه.

الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف، بأن لا يكلف على أخيه ما يشق عليه بل يروح سره عن مهماته وحاجاته، و يرفهه عن تحمله شيئاً من أعبائه، ولا يستمد منه من جاه ومال، ولا يكلفه التواضع له والتفقد والقيام بحقوقه، بل لا يقصد بمحبته الا الله تعالى: تبركاً بدعائه، واستئناساً بلقائه، واستعانة به على دينه، وتقرباً به الى الله بالقيام بحقوقه، وبحمل مؤنه.

وتمام التخفيف على بساط التكليف أن لا يستحي منه فيما لا يستحي عن نفسه، ولا يعترض في نوافل العبادات، و يشاور في كل ما يقصده و يقبل اشارته، ولا يخفى عنه شيئاً من أسراره، و يرى نفسه دون أخيه، ويحسن الظن به و يسيء بنفسه، فإذا رآه خيراً من نفسه فعند ذلك يكون هو خيراً منه.

وتنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتخدمهم بجميع جوارحك؛ أما البصر: فتنظر اليهم نظر المودة يعرفونها منك، وتنظر الى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم، ولا تصرف بصرك عنهم في وقت اقبالهم اليك وكلامهم معك؛ وأما السمع: فإن تسمع كلامهم متلذذاً بسماعه ومصدقاً به ومظهراً للاستبشار فيه، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ومنازعة ومداخلة واعراض، فإن راهقك عارض اعتذرت اليهم، وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهونه؛ وأما اللسان: أن لا ترفع صوتك عليهم ولا تخاطبهم الا بما يفهمون وقد مر باقي حقوقه؛ وأما اليدان: أن لا تقبضهما عن معونتهم في كل ما يتعاطى باليد؛ وأما الرجلان فأن تمشي وراءهم مشي الاتباع لا مشي المتبوعين، ولا تتقدمهم الا بقدر ما يقدمونه ولا تقرب منهم الا بقدر ما يقربونه، وتقوم لهم اذا أقبلوا ولا تقعد الا بقعودهم، وتقعد حيث تقعد متواضعاً. ومهما تم الاخاء خفت جملة من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء، فأنها من حقوق الصحبة، وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف. فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك فيه الا مسلك نفسه، ومهما صفت القلوب استغني عن تكلف اظهار ما فيها.

المطلب الخامس

في جمل من آداب المجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء

ان أردت حسن المعيشة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا، من غير ذلة له ولا هيبة منهم، وتوقر في غير كبر، وتواضع في غير مذلة، وكن من جميع أمورك

في أوسطها: كلاطر في قصد الأمور في ذميم. ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، واذا جلست فلا تستوفز، وتحفظ من تشبيك أصابعك، والعبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وادخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك، وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلوات وغيرها.

وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مترتباً، وأصغ الى الكلام الحسن ممن حدثك من غير اظهار تعجب مفرط، ولا تسأله اعادته، واسكت عن المضاحك من الحكايات. ولا تحدث عن اعجابك بولدك وجاريتك وشعرك وتصنيفك وسائر ما يخصك. ولا تفرط الزينة كالمرأة، ولا تتبذل كالعبيد، توق كثرة الكحل والاسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع احداً على الظلم، ولا تعلم ولدك وأهلك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك، فأنهم أن رأوا قليلاً هنت اليهم وان كان كثيراً لا تبلغ قط رضاهم، واجفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف، ولا تهازل امتك ولا عبدك فيسقط وقارك.

واذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الاشارة بيدك، ولا تكثر الالتفات الى من وراءك، ولا تجث ركبتك، واذا هدأ غضبك فتكلم.

وان قربك سلطان فكن منه على حد السنان، وان استرسل اليك فلا تأمن من انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهيه، ولا يحملنك لطفه بك إلى أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه، فإن سقطة من هذا دأبة لا ينعس وزلة لا تقال. وأترك الغيبة والكذب، واحفظ السر، وأقلل الحوائج، وهذب الألفاظ، والأعراب في الخطاب أحسن، وذاكر بأخلاق الملوك، وأقلل المداعبة، وأكثر الحذر منهم وان ظهرت المودة، ولا تتجشأ بحضرته، ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يتحمل كل شيء الا افشاء السر والقدح للملك والتعرض للحرم.

واياك وصديق العافية فأنه أعدى الأعداء. ولا تجعل مالك أكرم من

عرضك، واذا دخلت مجلساً فابدأ بالتسليم، ولا تتخط لمن سبق، والجلوس حيث اتسع، وحيث تكون أقرب الى التواضع أولى.

والأدب أن تحيي بالسلام من قربت منه عند الجلوس، ولا تجلس على الطريق فان وقع فغض البصر، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف، وأعن الضعيف، وارشد الضال، ورد السلام، واعط السائل وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك أو تحت قدمك اليسرى.

ولا تجالس العامة فإن فعلت فأدبهم ترك الخوض في حديثهم وقلة الاصغاء الى أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة اليهم.

واياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب، اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترىء عليك، لأن المزاح يخرق الهيبة، و يذهب ماء الوجه، و يعقب الحقد، و يذهب بحلاوة الود، و يشين فقه الفقيه، ويجرىء السفيه، و يسقط المنزلة عند الحكيم، ويمقته المتقون، ويميت القلب، و يباعد عن الرب، و يكسب الغفلة، و يورث الزلة، و به تظلم السرائر وتموت الخواطر وتتبين العيوب. و يقال: لا يكثر المزاح الا من سخف أو بطر. ومن بلي في مجلس بمزاح فليقل قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قاله قبل أن يقوم من مجلسه غفر له ما كان في مجلسه ذلك».

المطلب السادس
في حق المسلم والرحم والجوار والملل

وأخص المخالطة القرابة، وذو الرحم المحرم آكد، ومنهم حق الوالدين آكد. وحق الصحبة لها درجات: الصحبة في الدرس والمكتب آكد، ثم صحبة السفر

والصداقة اذا قويت صارت أخوة، فإذا زادت صارت محبة، فإذا زادت صارت خلة. والمحبة ما يتمكن من حبة القلب، والخلة ما يتخلل القلب.

حقوق المسلم: ان تسلم عليه اذا لقيته، وتجيب اذا دعاك، وتشمته اذا عطس، وتعوده اذا مرض، وتشهد جنازته اذا مات، وتبر قسمه اذا أقسم عليه، وتنصح له اذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب اذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك. ورد في جميع ذلك أخبار وآثار.

ولا تؤذي أحداً بفعل وقول، وتتواضع لكل مسلم، ولا تتكبر عليهم، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض، ولا تزيد في الهجر على ثلاثة أيام، ويحسن على كل من قدر على الاحسان عليه ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل، ولا يدخل على أحد منهم الا بأذنه، بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف، ويخالق الجميع بخلق حسن، و يعاملهم بحسن طريقه، فإنه اذا أراد لقاء الجاهل بالعلم والعامي بالفقه والغني باليسار آذى وتأذى، و يوقر المشايخ و يرحم الصبيان.

ومن تمام توقير المشايخ: أن لا يتكلم بين أيديهم الا باذن، وفي الخبر: «ما وقر شاب شيخاً الا قيض الله له في سنه من يوقره». وفي هذا اشارة الى دوام الحياة فليتنبه له، فلا يوفق لتوقير الشيوخ الا من قضى له بطول العمر.

و يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً، ولا يعد مسلماً بوعد الا و يفي به، وأن ينصف الناس من نفسه، ولا يأتي اليهم الا ما يحب أن يؤتى اليه، وأن يزيد توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم، وان يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد اليه سبيلاً، وأن يستر عورات المسلمين كلهم حتى الحدود، كما قال صلى الله عليه وسلم لماعز لما أخبره: لو سترته بثوبك كان خيراً لك؛ وقال أبو بكر الصديق: لو رأيت أحداً على حد من حدود الله ما أخذته ولا دعوت له أحداً حتى يكون معي غيري.

و ينبغي أن يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن وألسنتهم عن الغيبة، فأنهم اذا عصوا الله بذكره وكان هو السب فيه كان شريكاً؛ وأن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين عند من له منزلة عنده، فيسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه، وان يبدأ كل مسلم بالسلام قبل الكلام، و يصافحه عند السلام، وأن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر، و يرد عنه و يناضل دونه و ينصره، وأن يشمت العاطس ثلاثاً، واذا زاد فهو زكام: يقول العاطس: الحمد لله على كل حال، و يقول الذي يشمته: يرحمكم الله، و يرد العاطس فيقول: يهديكم الله و يصلح بالكم.

وأيضاً: اذا بلي بذي شر ينبغي أن يجامله و يتقيه، وأن يتجنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين ويحسن الى الأيتام، و يفعل النصيحة لكل مسلم، والجهد في ادخال السرور على قلبه. قال معروف الكرخي، من قال كل يوم ثلاث مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم أرحم أمة محمد، اللهم أفرج عن أمة محمد، كتبه الله من الأبدال.

و ينبغي أن يعود مرضاهم، والمعرفة والاسلام كاف في اثبات هذا الحق ونيل فضله. وآدابه: خفة الجلسة، وقلة السؤال، واظهار الرقة، والدعاء بالعافية، وغض البصر عن عورات الموضع. وأدبه عند الاستئذان: أن لا يقابل الباب و يدق برفق، ولا يقول: أنا إذا قيل: من، ولا يقل: يا غلام، لكن يحمد و يسبح. وفي الحديث: «تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده و يسأله كيف هو».

قال عثمان رضي الله عنه: مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، أعيذك بالله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شر ما تجد» قاله مراراً.

ودخل صلى الله عيه وسلم على علي رضي الله عنه وهو مريض، فقال له: «قل: اللهم أني أسألك تعجيل عافيتك، أو صبراً على بليتك، أو خروجاً من الدنيا» فأنك ستعطى أحداهن.

ويستحب للعليل أيضاً أن يقول: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: اذا اشتكى أحدكم بطنه فليسأل امرأته شيئاً من صداقها فيشتري به عسلاً فيشربه بماء السماء، فيجمع له الهنيء المريء والشفاء المبارك.

وآداب المريض: حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر، والفزع الى الدعاء والتوكل بعد الدعاء على خالق الدواء، قال صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هريرة، ألا أخبرك بأمر هو حق، من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار، قلت: بلى يا رسول الله، قال: تقول: لا اله الا الله يحيي ويميت وهو حي لا يموت، سبحان رب العباد والبلاد، والحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه على كل حال، الله أكبر كبرياء ربنا وجلاله وقدرته بكل مكان، اللهم أن أنت أمرضتني لتقبض روحي في مرضي هذا فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنى، وباعدني من النار كما باعدت أولياءك الذين سبقت لهم منك الحسنى».

ومن الآداب: أن يشيع جنائزهم وأن يزور قبورهم. والمقصود الدعاء والاعتبار وترقيق القلب.

وأدب المعزي: خفض الجناح، واظهار الحزن، وقلة الحديث، وترك التبسم.

وأدب تشييع الجنازة: دوام الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتذكر في الموت، والاستعداد له، وأن يمشي أمام الجنازة بقربها، والاسراع بها.

وجملة الكلام: ان لا تستصغر أحداً منهم حياً كان أو ميتاً فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك، وان كان فاسقاً فلعله يختم بالصلاح وتختم أنت بمثل حاله، ولا تنظر اليهم بعين التعظيم في دنياهم فإن الدنيا صغيرة الى الله، واذا عظمت يستحق المقت، ولا تبذل دينك لدنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم، فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا

تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض، ولا تطمع أن يكون لك في الغيب والسر كما في العلانية، فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به، ولا تتكبر عليهم لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك اليهم عقوبة على فعلك، واذا قضى أحد حاجتك فهو أخ مستفاد فإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدواً، ثم انك لا تقدر مقاساته.

ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك و يعاديك، ولا تعظ الا ارسالاً من غير تنصيص على أحد، واذا رأيت منهم خيراً فأشكر الله الذي سخرهم لك واستعذ بالله أن يكلك اليهم، واذا رأيت شراً أو بلغك منهم غيبة أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم الى الله واستعذ بالله من شرهم، ولا تشغل بالمكافأة فيزيد الضرر و يضيع العمر، ولا تقل لهم: لم لا تعرفون قدري وموضعي، واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موضعاً في قلوبهم فالله المحبب والمبغض للقلوب، وكن سميعاً لحقهم أصم من باطلهم نطوقاً بحقهم صموتاً عن باطلهم.

وأحذر صحبة أكثر الناس: فأنهم أن صحبوك لا يقيلون العثرة، ولا يغفرون الزلة، ولا يسترون العورة، ويحاسبون على النقير والقطمير، ويحسدون على القليل والكثير، ينتصفون ولا ينصفون، و يؤاخذون ولا يعفون، يعيرون الاخوان بالنميمة والبهتان، فصحبة أكثرهم خسران، وقطيعتهم رجحان، ان رضوا فظاهرهم الملق، وان سخطوا فباطنهم الحنق، ظاهرهم ثياب و باطنهم ذئاب، يقطعون بالظنون و يتغامزون وراءك بالعيون، و يتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليجبهوك بها في غضبهم ووحشتهم.

ولا تعول على مودة من لم تخبره في حق الخبرة، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد، فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره، وتسافر معه أو يعاملك في الدينار الدرهم، أو تقع في شدة فتحتاج اليه. فإن رضيته في هذه الأحوال فاتخذه أباً لك ان كان كبيراً أو ابناً ان كان صغيراً، أو أخاً ان كان مثلك.

المطلب السابع
حقوق الجوار

اعلم: أن للجوار حقاً وراء ما يقتضيه أخوة الإسلام؛ وفي الحديث: «الجار المسلم ذو الرحم له ثلاثة حقوق: حق الجوار وحق الاسلام وحق الرحم، والجار المسلم له حقان: الجوار والإسلام؛ والجار الكافر له حق واحد للجوار».

وليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى، بل لابد من الرفق واسداء الخير والمعروف. يقال: ان الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة و يقول: يا رب سل هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني.

وجملة حق الجار: أن يبدأ بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، و يكثر عن حاله السؤال، و يعوده في المرض، و يعزيه في المصيبة، و يقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، و يظهر الشركة في السرور معه، و يصفح عن زلاته ولا يطلع من السطح الى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء من ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طريقه الى داره، ولا يتبعه بالنظر فيما يحمله الى داره، و يستر ما ينكشف له من عوراته، و يعينه اذا نابته نائبة، ولا يغفل عن تعهد داره عند غيبته، ولا يتسمع عليه كلاماً، و يغض بصره عن حرمه، ولا يديم النظر الى خادمه، و يتلطف لولده في كلامه، و يرشده الى ما جهله من أمر دينه ودنياه. هذا الى جملة الحقوق التي ذكرناها للمسلمين عامة.

قال صلى الله عليه وسلم: «أتدرون ما حق الجار، ان استعان بك أعنته، وان استقرضك أقرضته، وان افتقر جدت عليه، وان مرض عدته، وان مات اتبعت جنازته، وان أصابه خير هنأته، وان أصابه مصيبة عزيته، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا بأذنه، واذا أشتريت فاكهة فأهد له فان لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك الا أن تغرف له منها؛ أتدرون ما حق الجار، والذي نفسي بيده لا يبلغ حق

الجار الا من رحمه الله». هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه صلى الله عليه وسلم.

المطلب العاشر
حقوق الأقارب

قال صلى الله عليه وسلم: «يقول الله: أنا الرحمن، وهذه الرحم، شققت لها اسم من أسمى فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته»؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «من سره أن ينسأ له في أثره و يوسع له في رزقه فليتق وليصل رحمه». روى أن عمر رضي الله عنه كتب الى عماله: مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ـــ انما قال ذلك لأن التجاور ربما يورث القطيعة.

حقوق الوالدين والولد

أعلم: أن آكد الحقوق القرابة وآكدها قرابة الولاد. قال صلى الله عليه وسلم: «بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله»؛ وقال: «بر الوالدة على الوالد ضعفان»؛ وقال «الوالدة أسرع اجابة؛ قيل: يا رسول الله ولم ذلك؟ قال: هي أرحم من الأب ودعوة الرحيم لا تسقط».

وطاعة الأبوين واجبة في الشبهات وان لم تجب في الحرام المحض، وليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة الا بأذنهما، والمبادرة الى الحج ـــ الذي هو فرض الإسلام ـــ كالنفل، لأنه على التأخير، والخروج لطلب العلم نفل، الا اذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك. قال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الغلام يعق عنه اليوم السابع و يسمى ويماط عنه الأذى، فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة ضرب على الصلاة، فإذا بلغ ست عشرة زوجه، ثم أخذ بيده وقال: أدبتك وعلمتك وأنكحتك، أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة».

وقيل: ولدك ريحانك سبعاً وخادمك تسعاً، ثم هو عدوك أو صديقك. قال صلى الله عليه وسلم: «حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده»، وقال صلى الله عليه وسلم: «اذا استصعبت على أحدكم دابته، وساء سوء خلق زوجته لواحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه».

المطلب الحادي عشر

حقوق الملك

وهو أما ملك النكاح وقد مر، وأما ملك اليمين، وهو آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «أتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبدلوا، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم اياهم ولو شاء ملكهم اياكم»؛ قال صلى الله عليه وسلم: «اذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلوى فأنه أطيب لتفسه»، رواه معاذ؛ وقال صلى الله عليه وسلم «: اذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليمسكه فليؤكله معه وان لم يفعل فليناوله»، رواه أبو هريرة.

فجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته، ولا يكلفه فوق طاقته، ولا ينظر اليه بعين الكبر والازدراء، وأن يعفو عن زلته، و يتفكر عند غضبه عليه بهفواته أو جنايته في معاصيه، وجنايته على حق الله وتقصيره في طاعته، مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته عليه.

الأصل السادس
في آداب العزلة

المطلب الأول
في فضلها وكراهتها

وأختار الأول: سفيان الثوري وابراهيم بن أدهم وداود الطائي والفضيل بن عياض وسليمان الخواص ويوسف بن اسباط وحذيفة المرعشي وبشر الحافي؛ واختار الثاني سعيد بن المسيب والشعبي وابن أبي ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وشريح وشريك بن عبد الله وابن عيينة وابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل وجماعة كثيرة.

المطلب الثاني
في فوائد العزلة

وهي ست:

الأولى: الفراغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاستكشاف بأسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة اليه. ولذلك تبتل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره في جبل حراء، وانعزل اليه حتى قوي فيه نور النبوة، فكان الخلق بحيث لا يحجبونه عن الله تعالى، فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً على الله تعالى.

ولن يتسع للجمع بين المخالطة ظاهراً والاقبال على الله سراً الا قوة النبوة فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء اليه. وقد نقل عن الجنيد أنه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم. وهذا انما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبقى لغيره فيه متسع، وهذا غير منكر اذا لأنسان ربما يلقى همه في أمر من أمور دنياه ويخالط ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم، وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء من ذلك.

واذا عرفت ذلك: فمن تيسر بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر تحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل، فإن المطلب الأعلى ان يموت الانسان محباً لله عارفاً بالله، وأصل ذلك الخلوة والعزلة.

الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الانسان لها غالباً بالمخالطة و يسلم منها في الخلوة، وهي أربعة:

أحدها: الغيبة. وهي التي يتفكه بها الانسان و يتنقلون، فهي طعمتهم ولذتهم، فأما وافقتهم أثمت، أو سكت فكنت شريكاً لهم، والمستمع أحد المغتابين، أو أنكرتهم فأبغضوك واغتابوك فأزدادوا غيبة الى الغيبة، وربما انتهوا الى الاستخفاف والشتم.

وثانيها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهو أصل من أصول الدين، فإن سكت عصيت الله تعالى، وان أنكرت تعرضت لأنواع من الضرر، وربما يجره طلب الخلاص منها الى معاصي هي أكثر مما نهى عنه ابتداء.

وثالثها: الرئاء. فهو الداء العضال الذي يعسر التحفظ على الأوتاد والأبدال، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا. وأقل ما يلزم فيه النفاق، فأنك ان خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه توافقه صرت بغيضاً اليهما جميعاً، وان جاملتهما كنت شرار الناس. وأقل ما يجب في مخالطة الناس اظهار الشوق والمبالغة فيه، ولا يخلو ذلك عن كذب أما في الأصل أو في الزيادة، واظهار

الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك: كيف أنت وكيف أولادك وأنت فارغ القلب من همومهم، وذلك نفاق محض.

ورابعها: مسارقة الطبع لما يشاهد من أخلاق الناس وأعمالهم. فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين. ومن جالس فاسقاً مدة يرى في نفسه أنه لا يستثقل الفساد مثل استثقاله قبل ذلك، اذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع و يسقط استعظامه، فإذا طالت صحبته أوشك أن يتخلل القوة الرادعة و يذعن لطبع للميل اليه أو دونه، ومن طال مشاهدته للكبائر استحقر الصغائر من نفسه ثم أثم بالغا ما بلغ.

الثالثة: الخلاص عن الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها، وقلما تخلو البلاد عنها.

الرابعة: الخلاص من شر الناس من الغيبة وسوء الظن بك والتهمة عليك، والاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وربما يسيئون الظن بسبب توهمهم، قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

الخامسة: ان ينقطع طمع الناس عنك و ينقطع طمعك عنهم.

أما انقطاع طمعهم عنك ففيه كل الجدوى، لأن رضا الناس غاية لا تدرك، فأشتغال المرء بصلاح نفسه أولى، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا.

وأما انقطاع طمعك عنهم: فان من نظر الى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى الخيبة في أكثر الأطماع فيتأذى به، ومهما اعتزل لم يشاهد ولم يشته ولم يطمع. ومن شاهد زينة الحياة الدنيا فأما أن يقوى دينه و يقينه فيصبر، والصبر أمر من الصبر، ويحتال في طلبها فيهلك في الدنيا بالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات، وفي الآخرة بايثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى.

السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء ومقاساة أخلاقهم فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر. وأيضاً: في رؤية الثقيل خوف ارتكاب غيبته واستنكار ما هو صنع الله تعالى.

وفي العزلة أمان من جميع هذه الآفات.

المطلب الثالث

آفات العزلة

وهي سبع:

الأولى: التعليم والتعلم. وهما أعظم العبادات ولا يتصورا الا بالمخالطة، والعزلة قبل تعلم المفروض من العلم عصيان، فمن يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل غاية الخسران، ولذلك قال النخعي وغيره: تفقه ثم اعتزل. الا أن المراد ينبغي أن لا تكون اقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع، والتقدم على الأقران، والتقرب عند السلطان، وتولى الأعمال، واجتلاب الأموال، لأن هذه الأمور هلاك الدين.

وأيضاً: أن يتعلم علماً هو سبب لأثاره الخوف من الله، لا ما يتوصل به الى أفحام الأقران والمنافسة والمباهاة: كطلب الكلام الجدلي، والفقه الخلافي، والمواعظ المزخرفة، اذ العزلة خير من تعلم هذه. فإن صودف طالب لله ومتقرب الى الله، فالاعتزال عنه وكتمان العلم عنه أكبر الكبائر. الا أن مثل ذلك في بلد كبير في زماننا هذا واحد أو اثنين.

ولقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال: دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك، فليس لك منهم مال ولا جمال، اخوان العلانية أعداء السر، اذا لقوك تملقوك واذا غبت عنهم سلقوك، ومن أتاك منهم كان عليك رقيباً وإذا خرج كان عليك خطيباً، أهل نفاق وغيبة وغل وخديعة، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال، وان يتخذوك سلماً الى أوطارهم وحماراً

في حاجاتهم، ان قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك، ثم يعدون ترددهم عليك دالة عيك، و يرونه حقاً واجباً لديك، و يعرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك، فتعادي عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم، وتنتهض لهم سفيهاً وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعاً خسيساً بعد أن كنت متبوعاً رئيساً.

وهذا كلام حق وصدق رحم الله من قاله، فأنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد اليهم، فكأنه يهدي تحفة اليه فيرى حقه واجباً عليه، وربما لا يختلف اليه ما لم يتكفل له على مساعدة أغراضه الفاسدة الذميمة. ثم المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك و يبذل دينه وعرضه في أبواب الظلمة لأجل أغراضهم الذميمة، ومع ذلك نسبوه الى الحمق وقلة التميز والقصور عن درك مقادير الفضل، وسلقه السفهاء بألسنة حداد، وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد، ومع هذا كله تمنيه نفسه بالأباطيل وتدليه بحبل الغرور، و يقول: انما أفعله مريداً وجه الله واذاعة شرع رسوله وناشراً دين الله، و يصير المسكين ضحكة الشيطان و يؤول سعيه وجده الى الخسران، وكيف لا وليس فساد الزمان الا بكثرة هؤلاء الفقهاء أولى الضلال الخذلان.

الثانية: النفع والانتفاع، لأن كلاً منها بالمخالطة، فالمحتاج الى الكسب في جهاد المخالطة، وما كان معه ما يقنع به فالعزلة أفضل وأولى الا أن يريد التكسب ليتصدق، فهو أفضل من العزلة لأجل النوافل لا لأجل التحقق في معرفة الله تعالى ومعرفة علوم الشرع، ولا من العزلة للأقبال بكنه الهمة على الله والتجرد به للذكر. وأما النفع فأما بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجات المسلمين حسبة لله على حدود الشرع، فهو أفضل من العزلة بنوافل الصلوات والأعمال البدنية. وأما الأعمال القلبية من المعارف فلا معادل لها أصلاً وقطعاً.

الثالثة: التأديب والتأدب. بكسر النفس، وقهر الشهوات بتحمل أذى الناس. وهو أفضل من العزلة لمن لم تتهذب بعد أخلاقه، كخدام المتصوفة في الزمان الأول، اذ هم اليوم توسلوا بالخدمة الى انتفاع المال والتكبر بالاستتباع. وأما التأديب فهو حال شيخ المتصوفة معهم فلا بد له من المخالطة، وحاله معهم

حال المعلم مع المتعلم وحكمه حكمه، و يتطرق اليه دقائق الآفات ما يتطرق الى نشر العلم كالرئاء، الا أنه أقل فيهم من غيرهم ولذلك قل أهله.

الرابعة: الاستئناس والايناس. وذلك قد يكون حراماً كمجالس الغيبة واللهو، وقد يكون مباحاً في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى. و يستحب اذا كان الغرض ترو يح القلب، فإن القلوب اذا أكرهت عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة، وفي المجالسة ترو يح القلب فهي أولى اذا كان في بعض أوقات النهار. وربما يكون أفضل في حق البعض دون البعض، فليتفقد فيه أحوال القلب وتأمل أحوال الجليس ثم أجلس معه.

الخامسة: في نيل الثواب وانالته. أما النيل: فبحضور الجنائز وعيادة المرضى وحضور العيدين والجمعة والجماعات. وهؤلاء سيما حضور الجمعة والجماعات ــ واجب وليس في العزلة ما يعادله، اللهم الا نادراً. وأما الانالة فهي فتح بابه للتعزية والتهنئة أو العيادة وكذا الزيارة ان كان عالماً. ففي هذه الصور ينبغي أن يوزن ثواب هذه بآفاتها و يرجح ما ترجح.

السادسة: التواضع. فأنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه من الوحدة، وقد يكون الكبر أيضاً سبباً في اختيار العزلة، ومانعه عن المخالطة أن لا يوقر في المحافل ولا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحه وأبقى لطراوة ذكره بين الناس. وقد يعتزل خوفاً من أن تظهر مقابحه فيتخذ من البيت ستراً عليها، وعلامة ذلك أن يحب أن يزار دون أن يزور، و يفرح بتقرب العوام والسلطان واجتماعهم على بابه وتقبيلهم يده على سبيل التبرك، فلا تكون عزلته للاشتغال بنفسه. وفي ذلك جهل من وجهين:

أحدهما: أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو كبير بعلمه أو دينه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتواضعون غاية التواضع.

وثانيها: أن الخلق لا يغنون من الله سيفاً وان ضرره ونفعه بيد الله، وان من طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضا الناس غاية لا تدرك.

السابعة: التجارب. اذ العقل الغريزي كاف بها في مصالح الدين والدنيا، فينبغي أن يتعلم أولا ويحصل ما يكفيه من التجارب ثم يعتزل. ومن جملة ذلك: الأخلاق الذميمة في النفس من الحقد والحسد والغضب ونحو ذلك، فأنها دفينة في النفس بما يسلم المعتزل عنها و يظن نفسه خالية عنها، وعند المخالطة تتحرك و يظهر خبثها فلها في أظهار الخبائث فائدة جليلة.

اذا عرفت فوائد العزلة وآفاتها، فينبغي أن ينظر الى الشخص وحاله، و يقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق و يتضح الأفضل. وما وقع في مدح العزلة أو مدح المخالطة من كلام الصوفية والحكماء فليس ذلك على اطلاقه، بل ذلك حكاية غالب أحواله، فلا تغتر بذلك، اذ لكل شخص حال ولكل حال حكم.

وأما آداب العزلة فهي: أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس أولاً، ثم طلب السلامة من الاشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفات الاختلاط ثالثاً، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعاً، ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر، ليجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش عليه وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم والأصغاء الى أراجيف البلد، فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب.

وبالجملة: يقطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله، وليقنع باليسير من المعيشة والا اضطره التوسع الى الناس، وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه اليه عن كد المواظبة في اليوم ساعة ففيه عون على بقية الساعات. ولا يتم له الصبر في العزلة الا بقطع الطمع عن الدنيا وما في أيدي أهلها، وطريق ذلك أن لا يقدر لنفسه عمراً طويلاً بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم واحد، والا فلا يسهل عليه الصبر عشرين سنة أو قدر تراخي الأجل.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة،

وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، ومن أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه، اذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله تعالى عليه ورحمته، كما قال تعالى في الشهداء: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾[1]. وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت اذ الجهاد الأكبر جهاد النفس.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

الأصل السابع
في آداب السفر

اعلم: أن السفر أما ظاهر بالبدن أو باطن بالقلب عن أسفل السافلين الى ملكوت السموات. وهذا أشرف من الأول، لكن لما كان فيه خطب خطير وغموض السبيل لم يستغن فيه عن مرشد ودليل، و يتوقف أيضاً على القناعة بالعيش القليل عن الحظ الجليل ـ اندرست مسالكه وانقطعت فيه الرفاق، وخلت عن الطائفين متنزهات الأنفس والآفاق، فنحن نذكر شروطه وآدابه في مطالب.

المطلب الأول
الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

وأعلم: أن للسفر فوائد وأقساماً:

القسم الأول: طلب العلم. وهو اما واجب أو نفل بحسب كون العلم واجباً أو نفلاً؛ وذلك أما بأمور دينية، وفي الخبر: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة»؛ وأما علم بأخلاقه في نفسه وذلك أيضاً مهم في سلوك طريق الآخرة. ولا يمكن الاطلاع على أسرار باطنه وخبائث صفاته مثل ما يطلع عليه بالسفر، حتى أنه يسمى بالسفر بأنه يسفر عن الأخلاق، وذلك لأن النفس فيما بين مألوفاتها لا تظهر خبائث أخلاقها فإذا فارقها انكشفت؛ وأما علم بآيات الله في أرضه اذ في مشاهدتها فوائد للمستبصر، وذلك لأنه ما من شيء الا وهو شاهد لله تعالى بالوحدانية ومسبح

له بلسان ذلق لا يدركه الا من ألقى السمع وهو شهيد، أما الجاحدون المغترون بظاهر زهرة الدنيا فهم عن السمع معزولون، وعن آيات ربهم محجوبون، يعلمون ظاهراً من الحياة وهم عن الآخرة غافلون؛ وما أريد بالسمع: السمع الظاهر، بل السمع الذي يسمع كلام الجدار من الوتد اذ قال الجدار: لم تشقني؟ قال الوتد: سل من يدقني فإن الحجر الذي ورائي لم يتركني ورائي. وما من ذرة في الأرض والسموات الا ولوحدانيتها شاهدات ولكن لا يفقهون تسبيحهم.

ومثل هذا السمع واستقراء الأسطر المكتوبة بالخطوط الالهية على صفحات الكائنات لا يحتاج الى السفر، بل يمكن وهو في بيته قعيد لمن ألقى السمع وهو به شهيد. فأعتبر هذا الملك بملك الدنيا فأنه يقل بالاضافة الى كثرة الخلق طلابه، ومهما عظم المطلوب قل المساعد، ثم الذي يهلك أكثر من الذي يملك.

قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ولا يتصدى لطلب الملك العاجز الجبان لعظم الخطر وطول التعب. قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك في الدين والدنيا الا في متن الخطر، قد يسمى الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر. قال الشاعر:

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

القسم الثاني: السفر لأجل العبادة: أما لجهاد أو حج، وقد ذكرنا آدابه. وقد يدخل فيه زيارة قبور الأنبياء والصحابة والتابعين والعلماء والأولياء، اذ كل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارة قبره بعد وجوه العلماء والصلحاء عبادة؛ وفيه أيضاً: تحريك الرغبة في الاقتداء بهم وفاته. ولزيارة الأحياء فوائد بركة الدعاء والنظر اليهم فإن النظر اليهم والتخلق بأخلاقهم

وآدابهم، مع ما يستفاد منهم من أنفاسهم وأفعالهم. وأما البقاع فالمساجد الثلاثة لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» وأيضاً الثغور للرباط بها لا غير.

القسم الثالث: أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين اذ الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين. ومما يجب الهرب منه: الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب، اذ الدين لا يتم الا بقلب فارغ من غير الله، ولا يتصور الفراغ من المهمات والحاجات الضرورية ولكن يتصور تخفيفها، وقد نجا المخففون وهلك المثقلون، وهذه نعمة عظيمة من الله تعالى لعباده، وله الحمد حيث لم يجعل النجاة في الفراغ المطلق من جميع الأوزار والأعباء، بل قبل المخفف بفضله ورحمته، والمخفف الذي ليست الدنيا أكبر همته وكان لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علائقه، فلا بد له من العزلة والخمول وقطع العلائق التي له عنها بد حتى يروض نفسه مدة، الى أن يمن الله تعالى عليه حتى يستوي عنده الحضر والسفر والعلائق وعدمها، لكن ذلك مما يعز وجوده جداً.

ومنهم من هرب حذراً من الشهرة اذا قام في بلد، ومن المتوكلين من يختار السفر لأنه يرى في الاقامة اعتماداً على الأسباب و يراه قادحاً في التوكل.

القسم الرابع: الهرب مما يقدح في البدن كالطاعون أو في المال كغلاء السعر وما يجري مجراه، ولا حرج في ذلك اذ الفرار قد يجب وقد يستحب بحسب ما يترتب عليه من الفوائد، ولكن يستثنى عنه الطاعون لورود النهي في الهرب عنه، وستعرف حاله مفصلاً في قسم التوكل.

واذا عرفت أقسام الأسفار، فقد ظهر لك منه أن السفر: أما مذموم وهو قد يكون حراماً كالاباق وسفر العاق، وقد يكون مكروهاً كالخروج من بلد الطاعون، وأما محمود وهو قد يكون واجباً كالحج وطلب العلم، وقد يكون مندوباً كزيارة العلماء والمشاهد المتبركة، وأما مباح كطلب المال للتعفف عن السؤال واقامة المروءة في العيال.

فاعلم: فضيلة السفر وفضيلة الاقامة مثل حال العزلة والخلطة فتعرف أحوالها من حالها، والأفضل منها ما هو الا عون في الدين، والسفر لأجل التعلم محمود والاقامة لأجل العمل محمود، وأما السياحة على الأرض فمن المشوشات للقلب الا في حق الأقوياء، اذ الشغل بالحط والترحال مشوش الأحوال.

وأيضاً: يشغل قلبه بالخوف على النفس والمال، اللهم الا أن يطلب العلم، أو شيخاً يقتدى في سيرته، وان أمكن هذا بدون السفر فالسكون أولى، خصوصاً طلب شيخ التصوف فأنه في زماننا هذا يعز وجوده على بسيطة الأرض، اذ أكثرهم تلبسوا بالمرقعات، واتخذوا من الخانقاهات منزهات، وليسوا على الناس بما تنفقوا ألفاظاً مزخرفة من الطامات، فيظنون بأنفسهم خيراً و يتوهمون أن المشاركة في الظواهر توجب المساهمة في الحقائق، فهيهات ما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم.

وأما السائحون من غير مهم في الدين والدنيا لمحض التفرج في البلاد كالبهائم المترددة في الصحاري فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم، اذ لا بأس بأتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به و يعود اليه، فالفتوى تقتضي تسبيب العوام في المباحات.

المطلب الثاني

في آداب السفر من أول النهوض الى آخر الرجوع

وهي أحد عشر أدباً:

الأول: أن يبدأ برد المظالم والودائع وقضاء الديون واعداد النفقة له ولعياله من الحلال، وليأخذ قدراً يوسع به لرفقائه.

الثاني: أن يختار رفيقاً لما قيل: الرفيق ثم الطريق. وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين، فيذكره اذا نسي، و يعينه اذا ذكر، والمسافر وحده منهى عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الثلاثة نفر»؛ وقال: «خير الأصحاب

أربعة »؛ وقال: « اذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم ». وليؤمر أحسنهم أخلاقاً وأرفقهم للأصحاب وأسرعهم إلى الايثار وطلب الموافقة، وانما يحتاج الى الأمين لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر، ومهما كان المدبر واحداً انتظمت الأمور، وانما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد. و ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ﴾[1].

وخير الرفقاء الأربعة، لأن الرجل يحفظه آخر ويحتاج الى آخر عند التردد في الحاجة، ولا بد للتردد أيضاً من رفيق. وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة فلا ينعقد بينهم التوافق في الرفاقة الخاصة. وأما الرفاقة العامة فتحتاج الى الجماعة الكثيرة للأمن من المخاوف.

الثالث: أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء وليدع لهم، وليقل أني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك؛ وأهله يقولون له: زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث توجهت.

الرابع: أن يصلي قبل السفر صلاة الاستخارة وقد عرفتها، ثم يصلي في بيته أربع ركعات ـــ اذا شد عليه ثياب سفره ـــ يقرأ فيهن بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد. ثم يقول: اللهم اني اقتربت اليك فأخلفني بهن في أهلي ومالي. فهي خليفة في أهله وماله وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله.

الخامس: اذا حصل على باب الدار فليقل: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، أعوذ بك من أن أضل أو أُضَل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يجهل علي.

فإذا مشى قال: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت واليك توجهت؛ اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي، فأكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني، عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك؛ اللهم زودني التقوى وأغفر لي ذنبي ووجهني الى الخير أينما توجهت. وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٢٢.

فإذا ركب فليقل: بسم الله وبالله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون.

فإذا استوت الدابة تحته فليقل: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان في الأمور.

السادس: أن يرحل من المنزل بكرة، ويستحب أن يبتدىء بالخروج يوم الخميس. روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وبكر وقال: اللهم بارك لأمتي في بكورها. وروى ابن كعب بن مالك عن أبيه قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج الى سفر الا يوم الخميس. روى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم السبت».

قال عبد الله بن العباس: اذا كان لك الى رجل حاجة فأطلبها اليه نهاراً ولا تطلبها ليلاً، وأطلبها بكرة فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بارك لأمتي في بكورها».

ولا ينبغي أن يسافر في بكرة يوم الجمعة فيكون عاصياً بترك الجمعة واليوم المنسوب اليها فكان أوله من أسباب وجوبها. والتشييع للوداع مستحب وهو سنة.

السابع: أن لا ينزل حتى يحمي النهار وهو السنة، ويكون أكثر سيره بالليل ــ قال صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوي بالليل ما لا تطوي بالنهار» ــ ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه، أصرف عني شر شرارهم.

فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين، ثم ليقل: أعوذ بكلمات الله التامات

التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق.

فإذا جن عليه الليل فيقول: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن ساكن البلد ووالد وما ولد، له ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم.

ومهما علا شرفاً من الأرض في وقت السير يقول: اللهم ان لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال.

ومهما هبط سبح، ومهما خاف الوحشة في سفره قال: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت.

الثامن: أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفرداً عن القافلة لأنه ربما يغتال وينقطع عن القافلة، وأن يتحفظ بالليل عند النوم بأن يتناوب الرفقاء في الحراسة وهو السنة، فإذا نام آخر الليل نصب ذراعه وجعل رأسه في كفه لئلا يشتغل بالنوم فيفوته الصلاة.

واذا قصده عدو أو سبع فليقرأ آية الكرسي وشهد الله الآية والأخلاص والمعوذتين، وليقل: بسم الله ما شاء الله لا قوة الا بالله، حسبي الله توكلت على الله، ما شاء الله لا يأتي بالخير الا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز، تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحي الذي لا يموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا، اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وامائك برأفة ورحمة انك أنت أرحم الراحمين.

التاسع: أن يرفق بالدابة راكباً ولا يحملها ما لا تطيق، ولا يضرب في وجهها فأنه منهي عنه، ولا ينام عليها فإنه تتأذى به الدابة اذ يثقل بالنوم. ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية، وفيه فوائد: ترويح الدابة،

وادخال السرور على قلب المكاري، ورياضة البدن والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب. و ينبغي أن يعرض كل ما يحمله على المكاري لئلا يثور بينهما نزاع فليتحرز عن اللجاج وكثرة الكلام مع المكاري.

العاشر: يستصحب ستة أشياء ــ بذلك وردت السنة: المرآة والسواك والمكحلة والمشط والقارورة والمقراض. وزاد الصوفية: الركوة لحمل الماء الطاهر، والحبل لنزع الماء وتجفيف الثوب المغسول، وزاد بعضهم الابرة بخيوطها؛ و بعضهم استغنوا عن الركوة بالتيمم و بالطهارة من الغدران ما لم يتيقنوا بنجاستها، وعن الحبل بالجبال والأرض فيفرشون الثياب المغسولة عليها.

الحادي عشر: في آداب الرجوع من السفر. كان صلى الله عليه وسلم اذا قفل من غزو أو حج أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، و يقول: «لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

واذا أشرف على مدينته يقول: اللهم أجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً. ثم ليرسل الى أهله من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة فيرى ما يكره. ولا ينبغي أن يطرقهم ليلاً فقد ورد النهي عنه، وكان صلى الله عليه وسلم اذا قدم دخل المسجد وصلى ركعتين، ثم دخل البيت وقال: توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر علينا حوبا.

والسنة: أن يحمل لأهل بيته ولأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر امكانه، لأن الأعين تمتد إلى القادم من السفر، والقلوب تفرح به، و بذلك يتأكد فرحهم.

المطلب الثالث

في الآداب الباطنة

وقد ذكر نبذ منها، وجملة ذلك: أن لا يسافر الا لزيارة أمر ديني، و ينوي

في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها، ويجتهد أن يستفيد منهم أدباً أو كلمة ينتفع بها لا ليحكي ذلك عنهم، و يظهر أنه لقي المشايخ، ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام، الا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك، ولا يجالس في مدة الاقامة الا الفقراء والصادقين. وان زار أخاً له فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حد الضيافة الا اذا شق على أخيه مفارقته.

واذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة، ولا يشتغل بالعشرة فإن ذلك يقطع بركة سفره. وان كان الشيخ في بيته فلا يدق عليه بابه ولا يستأذن عليه الى أن يخرج، فإذا خرج تقدم اليه بأدب. ولا يتكلم بين يديه الا أن يسأله، فإن سأله، أجاب بقدر السؤال، ولا يسأله عن مسألة ما لم يستأذن أولاً.

وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسخياءهم ولا أصدقاءه فيها، وليذكر مشايخها وفقراءها، ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين، و يلازم في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره. واذا كلمه انسان فليسكت عند الذكر وليجبه ما دام يحدثه ثم ليرجع الى ما كان عليه. فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها فالبركة في مخالفة النفس. فإذا تيسرت خدمة قوم صالحين فلا ينبغي أن يسافر تبرماً لخدمة فذلك كفران نعمة، وان لم يحصل له في السفر زيادة في الدين فليرجع، اذ لو كان بحق لظهر أثره.

المطلب الرابع

في رخص المسافر وأدلة القبلة والأدوات

والرخص ست: رخصتان في الطهارة: المسح على الخف ثلاثة أيام ولياليها والتيمم؛ ورخصتان في التفل: أداؤه على الراحلة، وأداؤه ماشياً؛ ورخصة في الصلاة: وهو القصر؛ ورخصة في الصوم: وهو الفطر بنية القضاء في الفرض. وتفصيل ذلك في علم الفقه.

وأما أدلة القبلة فثلاثة: أرضية: كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار؛

أو هوائية: كالاستدلال بالرياح، وهما يختلفان فيصعب الاستدلال بهما؛ وأما السماوية: فالشمس في النهار، فلا بد أن يراعي قبل السفر أن الشمس عند الزوال أين تقع منه اذا توجه الى القبلة: أهي على العين اليمنى أو اليسرى، أو على الجبين، وكذا بموقع الغروب وبالمشرق، ويعرف اختلاف هذه صيفاً وشتاء.

فإذا بعدت البلاد تتفاوت هذه الأمور، فينبغي أن يسأل من أهلها أو يجرب ذلك من مساجدها، فإن بان أنه أخطأ، فإن وافق الجهة فيها والا يعيد الصلاة. وأما مقابلة الجهة فبأن تقع الكعبة بين الخطين الخارجين من جهة المصلي على هيئة ساقي المثلث الى الأفق، فإن كانت الكعبة ههنا تصح الصلاة والا فلا. وأما أمر الأوقات ففي كتب الفقه مفصلاً فارجع اليها لعلك ترشد بها.

الأصل الأول
في آداب السماع والوجد

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في حله وحرمته

فقد نقل عن أبي حنيفة ومالك والشافعي وجماعة من العلماء. وأما الآثار فمختلفة في الحرمة والاباحة، ومهما تعارضت يبقى التقليد الى أحد الجانبين قصوراً، فينبغي أن يبحث عن مدارك الحظر والاباحة.

اعلم: أن أمر الحرمة لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع، أما بالنص وهو ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله، أو بالقياس. فإن لم يوجد فيه نص فلم يوجد فيه قياس بطل القول بتحريمه وبقي كسائر المباحات.

ثم نقول: وقد دل النص والقياس جميعاً على اباحته. أما القياس فهو: أن السماع سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك القلب، فالوصف الأعم انه صوت طيب. ثم هو اما موزون أو غيره، ثم الموزون اما مفهوم أو غيره.

فهذه درجات:

الدرجة الأولى: الصوت الطيب من حيث هو طيب، فلا يحرم بل حلال بالنص والقياس. أما القياس فهو: أنه يرجع الى تلذذ حاسة السمع بادراك ما

هو مخصوص به، وهي أما مستلذة كصوت البلابل، أو مستكرهة كنهيق الحمار، فكما لا حرمة في مستلذات سائر الحواس فكذا فيه، كالألوان الخضر في البصر والأطعمة الحلوة في الذائقة. وأما النص فقوله تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾[1]؛ قيل: هو حسن الصوت، وقدامتن بذلك. وفي الحديث: «ما بعث الله نبياً الا حسن الصوت».

الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيب الموزون، والوزن وراء الحسن، فهي أما أن تخرج من جماد كصوت القصب والأوتار، أو من حيوان كصوت العنادل والقمارى، أو من انسان كصوت النغمات من حنجرة الانسان، فسماع هذه يستحيل أن تحرم لكونها طيبة أو موزونة والا لحرم صوت العنادل، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان، فينبغي أن يقاس عليه أصوات الحلوق من الانسان وأصوات القصب والدف الا الملاهي والأوتار.

ولا شك أن حرمتها ليس للذتها والا لحرم كل ما يستلذه الانسان، بل لما حرمت الخمور اقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها، حتى انتهى الأمر في الابتداء الى كسر الدنان، فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب من الأوتار والمزامير فقط. وكان تحريمها من قبيل الاتباع: كتحريم الخلوة لكونها مقدمة للزنا، وكتحريم النظر الى الفخذ لئلا يتساهل في ذلك و يؤدي الى التساهل في السوأتين.

وحرم قليل الخمر وان لم يسكر لأنه يدعو الى الكثير، وما من حرام الا وله حريم يطيف به، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حمى للحرام أو وقاية حظاراً بما حوله.

فظهر أن الأوتار والمزامير حرمت لأجل تحريم الخمر لثلاث علل:

أحداها: أنه يدعو الى شرب الخمر، فإن اللذة الحاصلة بها انما تتم بالخمر، وبمثل هذه العلة حرم قليل الخمر.

---

(١) سورة فاطر، آية: ١.

وثانيتها: انها في قريب العهد يشرب الخمور تذكر بمجالس الانس، بالشرب فهو سبب الذكر، والذكر سبب انبعاث الشوق، وهو اذا قوى سبب الأقدام، فمن تذكر بها شرب الخمر فهو في حقه حرام وفي حق غيره مكروه.

وثالثها: الاجتماع لما أن صارت عادة أهل الفسق فيمنع التشبه بهم لأن من تشبه بقوم فهو منهم.

ولهذا حرمت الكوبة، وهي: طبل مستطيل رقيق الوسط واسع الطرفين، وضربها عادة المخنثين، ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحج والغزو.

ولهذا حرم المزمار العراقي والأوتار كلها: كالعود والرباب والبربط وغيرها؛ وما عداها فليس في معناها: كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبالين وكالطبل والقصب، وكل آلة يستخرج منه صوت طيب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب.

بهذا تبين أنه ليس العلة في تحريمه مجرد الأصوات الطيبة بل القياس تحليل الطيبات كلها الا ما في تحليله فساد.

الدرجة الثالثة: الموزون المفهوم وهو الشعر. وذلك خارج من حنجرة الانسان فيقطع باباحته، وما زاد الا لكونه موزوناً. والكلام المفهوم غير حرام وكذا الصوت الطيب الموزون، فإذا لم يحرم الآحاد فلم يحرم المجموع الا أن يفهم منه أمر محظور، وذلك حرم نظمه ونثره، وحرم التصويت به سواء كان بألحان أولاً. والحق فيه قول الشافعي: الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح.

ومهما كان انشاد الشعر بغير صوت حسن حسناً فمع الالحان لا يحرم، اذ المباح لم يحرم فكيف ينكر انشاد الشعر، وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشد هو أيضاً، وكذا نقل عن الصحابة سيما علي بن أبي طالب، وعن التابعين والمجتهدين سيما الامام الشافعي.

الدرجة الرابعة: النظر فيه من حيث أنه محرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه، فأقول لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح، حتى أنها لتؤثر

فيها تأثير الفرح والحزن والضحك والطرب، حتى النوم، حتى قيل: من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج لا يقبل العلاج. وكيف لا والصبي في مهده يسكته الصوت الطيب، والجمل مع بلاده طبعه يتأثر بالحداء حتى تستخف معه الاحمال الثقيلة وتمد أعناقها الى جانب الصوت، و يترك الماء والعلف بين يديه مع شدة جوعه وعطشه، وربما تتلف نفسها في شدة السير. وقد نقل أن الطيور كانت تقف على رأس داود لاستماع صوته.

ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلوب، لم يجز أن يحكم مطلقاً باباحته وحرمته بل يختلف ذلك باختلاف أحوال القلب. قال أبو سليمان السماع: لا يجعل في القلب ما ليس فيه لكن يحرك ما هو فيه.

واذا عرفت هذا، فأعلم ان مواضع الغناء لا تخلو عن سبعة.

الأول: غناء الحجيج بالطبل والشاهين في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية، وهو يهيج الشوق الى حج البيت الحرام، واشتعاله ان كان ثمة شوق حاصل. والحج محمود، والشوق وما يبعثه من الطريق المباح محمود لا محالة. ومن هذا القبيل الأشعار التي ينشدها الواعظ للترغيب والترهيب.

الثاني: ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو. وذلك أيضاً مباح، لكن يخالف ألحان الحاج، لأن ذلك للترغيب والتشويق وهذا للتشجيع واستحقار النفس والمال. والأشعار المشجعة مثل قول المتنبي:

فإن لا تمت تحت السيوف مكرما   تمت وتقاسى الذل غير مكرم

وقوله

يرى الجبناء أن الجبن حزم   وتلك خديعة النفس اللئيم

وأمثال ذلك. فهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو، ومندوب اليه في وقت استحبابه.

الثالث: الرجزيات في اللقاء بالعدو. والغرض منه تشجيع النفس والأنصار، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة. وذلك اذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس. وذلك أما مباح أو مندوب اليه بحسب اباحة

القتال أو ندبه، ومحظور اذا كان في قتال المسلمين وأهل الذمة، وكل قتال محظور لأن الداعي الى المحظور محظور، وذلك منقول عن شجعان الصحابة كعلي وخالد رضي الله عنها وغيرهما. ولذلك يمنع من الضرب بالشاهين في معترك الغزاة، لأنه يحلل عقدة الشجاعة لكون صوته مرفقاً محزناً، فمن فعله ليفتر القوى عن القتال المندوب فهو عاص، وعن القتال الحرام فهو مطيع.

الرابع: أصوات النياحة ونغماتها المهيجة للحزن والبكاء، فذلك مذموم ان كان على الأموات للنهي عن التأسف على ما فات؛ وأما الحزن على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه والتباكي والتحازن عليه ــ كما فعله داود عليه السلام ــ فحمود، حتى كانت الجنائز تحمل من مجلس نياحته عليه السلام. ولهذا لم يحرم البكاء والتباكي على الذنوب من الوعاظ وأرباب التذكير.

الخامس: السماع في أوقات السرور تأكيداً له وتهييجاً له، وهو مباح ان كان السرور مباحاً: كالغناء في أيام العيد والعرس وقدوم الغائب وولادة الولد والوليمة والعقيقة وعند الختان وحفظ القرآن، اذ كان ما جاز السرور به جاز اثارة السرور فيه. ويدل على جوازه انشادهم بالدف والالحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

طلع البدر علينا، من ثنيات الوداع   وجب الشكر علينا، ما دعا لله داع

وقوله صلى الله عليه وسلم ــ عند منع أبي بكر جاريتين تدففان وتضربان عند النبي صلى الله عليه وسلم: دعهما أبا بكر فأنها أيام عيد. وكذا نظر عائشة الى الحبشة يلعبون في المسجد، والنبي صلى الله عليه وسلم عندها يسترها بردائه وغير ذلك. فهذه المقاييس والنصوص تدل على اباحة الغناء والرقص والضرب بالدف واللعب في أوقات السرور كلها قياساً على يوم العيد مما يجوز الفرح به شرعاً. ومنه: الفرح بزيارة الاخوان ولقائهم واجتماعهم على طعام أو كلام، فهو أيضاً مظنة السماع.

السادس: سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهييجاً للعشق وتسلية للنفس، فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة، وان كان مع المفارقة

فالغرض تهييج الشوق. والشوق وان كان المأ ففيه نوع لذة اذا انضاف اليه رجاء الوصول، وهذا حلال ان كان ممن يباح له الوصال، كمن يعشق زوجته أو سريته فيصغي الى غنائها لتتضاعف لذته في لقائها، وما الحياة الدنيا لا لعب ولهو وهذا منه.

وأما من يتمثل في نفسه صورة امرد أو امرأة لا يحل له النظر اليها، فهذا حرام لأنه محرك للفكر في الأفعال المحظورة، ومهيج للداعية الى ما لا يحل الوصول اليه، وهذا حال الفساق والسفهاء وكثير من الشبان، فالسماع ممنوع في حقهم لما فيه من تحريك الداء لا لأمر يرجع الى نفس السماع.

السماع: سماع من أحب الله سبحانه وعشقه واشتاق الى لقائه، فلا ينظر إلى شيء الا رآه فيه، ولا يقرع سمعه قارع الا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه، ومور زناد قلبه ومستخرج منه كمين حبه، ويحصل منه أحوال من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها و ينكرها من كل حسه عن ذواقها. وتسمى تلك الأحوال عندهم وجداً أخذاً من الوجود، لأنه صادف من نفسه أموراً لم يكن يصادفها قبل السماع، ثم تكون تلك الأمور والأحوال سبباً لروادف وتوابع تحرق القلب بنيرانها، وتنقّيه من الكدورات كما ينقى الابريز من الخبث، فيحصل للقلب الصفاء والنقاء، ثم يتبع الصفاء مكاشفات ومشاهدات هي غاية المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها، فالمفضي اليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي والمباحات. وحصول هذه الأحوال بسبب السماع يسر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح، و يثمر لها شوقاً وفرحاً وانبساطاً وانقباضاً، ومعرفة السبب في ذلك من دقائق علوم المكاشفات.

وأما البليد الجامد الطبع، القاسي القلب، المحروم عن لذة السماع ربما ينكر ذلك و يتعجب من الالتذاذ والوجد، واضطراب الحال والشوق، وتعجب العنين من لذة المباشرة، وتعجب الصبي من لذة الجاه والرياسة، وتعجب الجاهل من معرفة الله وجلاله وعظمته وعجائب صنعته. وسبب ذلك أن اللذة نوع ادراك، فمن لم يكمل قوة ادراكه في حق الملتذ به لا يدرك اللذة.

ثم أعلم: ان بعضاً من الجهال، بل بعضاً ممن تظنه عالماً وهو عالم في بعض الأمور وجاهل في باب معرفة الله ولم يقدر الله حق قدره ــ ربما ينكر محبة الله تعالى، وانت تقلده في ذلك، فوجب علينا كشف اللثام عن وجه المحبة والعشق والشوق الى الله عز وجل.

واعلم: أن المحبة ميل ينشأ من اعتقاد جمال المحبوب، فإذا قويت المحبة يسمى عشقاً. ثم ان الجمال: أمّا صوري: وقوة تناسب الخلقة وصفاء اللون المدرك بحاسة البصر؛ وأما معنوي: وهو كمال العظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات، وارادة الخيرات لكافة الخلق المدرك بحاسة القلب. وقد يحب الانسان لهذه الصفات الباطنة ــ وان لم ير صاحبها ــ كما يحب الانسان أبا حنيفة والشافعي لاعتقاد الكمال في العلم والدين والأخلاق فيهما، ومع ذلك لم يدرك بجمالها الصوري أصلاً، فظهر أنه يمكن معرفة الجمال المعنوي بدون رؤية الجمال الصوري.

ثم أن الجمال الحقيقي فهو الله، ولا جمال ولا محبوب في العالم الا وهو حسنة من حسناته، وآثار من آثار كرمه، وغرفة من بحر جوده، بل كل حسن وجمال في العالم من مبتدأ العالم الى منقرضه، ومن ذروة العلى الى منتهى الثرى، فهو ذرة من خزائن قدرته، ولمعة من أنوار حضرته، فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه، وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حداً لا يمكن اطلاق اسم العشق أيضاً لقصوره عن الأنباء عن فرط محبته، فسبحان من احتجب عن الظهور للأبصار لشدة ظهوره، واستتر عن العيون بأشراق نوره، ولولا احتجابه سبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار اللاحظين لجمال حضرته، ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول وذهبت القلوب، وتجاذبت القوى وتناثرت الأعضاء، ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادي أنوار تجليه دكاً، فأنى يطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش، بل محبة غير الله جهل وقصور لظنه أن فيهم شيئاً من الجمال، بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله، اذ ليس في الوجود تحقيقاً الا

الله وأفعاله، فكانت محبته مقصورة على الله غير مجاوزة الى سواه، فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة له.

نعم ان الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك لفظة العشق الا طلب الوصال، الذي هو عبارة عندهم عن تماس ظواهر الاجسام وقضاء شهوة الوقاع، فمثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لفظ العشق والوصال والأنس، اذ الافهام الفاسدة السقيمة لا تدرك من الألفاظ الا ما يلائم طباعها، فأستعمل معه ما يوافق طبعه من لفظ الكمال والتلذذ بمعرفته وأمثال ذلك.

المطلب الثاني

في مواضع حرمة السماع وأنها خمس عوارض

الأولى: السماع من المحرم النظر اليها والأمرد، فيحرم السماع لا لنسبها بل لمجاورها.

والثانية: في الآلة، بأن تكون من شعائر الشرب أو المخنثين: كالمزامير والأوتاز وطبل الكوبة، وما عدا ذلك يبقى على الاباحة: كالدف وان كان معه الجلاجل، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات.

الثالثة: في نظم الصوت وهو الشعر؛ فإن كان من الخنا والفحش واللذب والهجو فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك القائل، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها. وأما هجاء الكفار وأهل البدعة فذلك جائز، وقد فعله حسان في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما التشبيب وهو: النشيد بوصف الخدود والقدود والأصداع وسائر أوصاف النساء ففيه نظر، والصحيح جوازه ان لم ينزله على معينة وتنزله على من تحل له من زوجته وجاريته، ومن نزله على أجنبية فهو عاص بهذا التنزيل، ومن هذا حاله ينبغي أن لا يحضر مجلس السماع.

وأما الذي يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلاً ظلمة الكفر، وبنضارة الخد نور الايمان، وبذكر الوصال لقاء الله، وبذكر الفراق الحجاب عن الله في زمرة المردين، وبذكر الرقيب المشوش قروح الوصال عوائق الدنيا وآفاقها المشوشة لدوام الأنس بالله، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه الى استنباط وتفكر ومهلة، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب الى فهمه مع اللفظ، حتى ان ما فهمه ربما لا يوافق مراد الشاعر.

الرابعة: المستمع، أن يكون شاباً تكون الشهوة غالبة عليه، فالسماع حرام عليه، وان لم يكن فيه حب شخص معين.

الخامسة: أن يكون المستمع من العوام، ولم يغلب عليه حب الله فيكون السماع له محبوباً، ولا غلبت عليه الشهوة فيكون محظوراً، ولكنه أبيح كسائر اللذات المباحة، الا أنه بالمداومة يصير لهواً ترد شهادته، وبالأصرار يصير كبيرة. ونظير ذلك اللعب بالشطرنج عند الشافعية، لأن مداومته مكروهة كراهة شديدة وان كان أصله مباحاً، اذ كم من مباح يصير اكثاره حراماً، كالخبز المباح اكثاره حرام بأن يجاوز حد الشبع.

فأما ما ورد من الأخبار والآثار الدالة على حرمة الغناء: فأما لعوارض محرمة كما ذكرناه، أو يحمل على الهرب عن تمتع الدنيا، أو يحمل على حرمة الأوتار، أو على سماعه عند اشتغاله بما هو أولى منه من ذكر الله تعالى وذكر صفاته وأفعاله وأمثال ذلك.

وأكثر استعمال السلف الغناء في أصوات القيان من الجواري الحسان، ولذلك قال الجنيد: الغناء رقية الزنا. ومن أتقن ما ذكرناه من القواعد سهل عليه تأويل أمثال ذلك.

المطلب الثالث

في آداب السماع وثمراته

وفيها مقامات ثلاثة

المقام الأول في الفهم

وهو مختلف باختلاف أحوال المستمع، وهي أربعة:

أحدها: أن يكون سماعه لمجرد الطبع، لاحظ له الا استلذاذه الالحان والنغمات، هذا مباح لكنه أخس مراتب السماع اذ تشاركه فيه الأ بل.

ثانيها: تنزيله على صورة مخلوق أما معين أو غير معين، وهذه الحالة أخس من أن يتكلم فيها الا ببيان خسيتها والنهي عنها.

وثالثها: أن ينزل على معاملته مع الله، وهذه سماع المريد، وربما يمكن حمل كلام واحد على معنيين متخالفين بحسب اختلاف حال المستمع.

الرابعة: سماع من جاوز الأحوال والمقامات، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود، كاللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام، و يعبرون عنه بالفناء عن نفسه. ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى، فكأنه فنى عن كل شيء الا عن الواحد المشهود، ولا خبر له عن فنائه أيضاً؛ مثلاً: قد يعلم الشيء وقد يعلم العلم به، في الثاني يكون معرضاً عن الشيء. ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوقين، وقد تطرأ في حق الخالق، الا أنه يكون كالبرق الخاطف، اذ لو دام لم تطقه القوة البشرية وربما تهلك فيه نفسه، فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد وهى أعلى الدرجات. الا أن فيه نوع قصوره.

وانما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وعن أحواله، فيسمع بالله ولله وفي الله ومن الله، وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق، وعبر ساحل الأحوال والأعمال، واتحد بصفاء التوحيد، وتحقق بمحض الأخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلاً، بل خمدت بالكلية بشريته، وفني التفاته الى صفات البشرية رأساً.

ولست أعني بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه، لا اللحم الصنوبري بل سر لطيف له الى القلب الظاهر نسبة خفية، ووراءها الروح الذي هو من أمر الله سبحانه، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها.

ولذلك السر وجود، وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه، فإذا فيه غيره فكأنه لا وجود الا للحاضر؛ ومثاله: المرآة الجلية، اذ ليس لها لون في نفسها بل لونها الحاضر فيها، وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان.

وهذا من مقامات علوم المكاشفة، منها نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد وقال: أنا الحق، وحولها يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت، أو تذرعها بها، أو حلولها فيها، على ما اختلف فيه عباراتهم، وهو خطأ محض يضاهي غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة، اذا ظهر فيها لون الحمرة من مقابلتها، واذا كان هذا غير لائق بعلم المعاملة رجعنا الى الغرض.

المقام الثاني الوجد

وهو عبارة عن حالة يثمرها السماع، وهو وارد جديد عقيبه يجده المستمع من نفسه. وتلك حالة لا تخلو من قسمين: فأنها أما أن ترجع الى مشاهدات ومكاشفات من قبيل العلوم والتنبيهات، أو أحوال أو تغييرات ليست من العلوم، بل كالخوف والشوق والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض.

فإن ضعف ولم يظهر في الظاهر لم يسم وجداً، وان ظهر على الظاهر سمي وجداً أما قوياً أو ضعيفاً. وقد لا يتغير الظاهر لقوة صاحبه، وقد يكون السماع سبباً لكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله، فإن الكشف يحصل بأسباب منها التنبيه، والسماع منبه.

ومنها: تغير الأحوال ومشاهدتها وادراكها، فإن ادراكها نوع علم يفيد ايضاح امور لم تكن معلومة قبل الورود.

ومنها: صفاء القلب، والسماع مؤثر في تصفية القلب، والصفاء سبب الكشف.

ومنها: انبعاث نشاط القلب بقوة السماع، فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته، بل القلب اذا صفا ربما تمثل له الحق في صورة مشاهدة، أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف اذا كان في اليقظة، و بالرؤيا اذا كان في المنام، وذلك جزء من النبوة. وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة.

وربما يشاهد بالبصيرة صورة الخضر عليه السلام، فأنه يتمثل لأرباب القلوب بصورة مختلفة، وتتمثل أيضاً الملائكة للأنبياء: أما على حقيقة صورها، وأما على مثال يحاكي صورتها بعض المحاكاة. وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبرئيل مرتين في صورته، وأخبر عنه بأنه سد الأفق. وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب، و يسمى التفرس. وفي الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله».

واعلم: ان في نفس الانسان مناسبة للعالم الأعلى، واللذات التي وعد بها في سدرة المنتهى والفراديس العلى. الا أنه لم يتخيل من هذه الأمور الا الصفات والأسماء، فالسماع يحركِ منه الشوق، والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه ومستقره الذي اليه حنينه، فيتقاضاه قلبه أمراً ليس يدري ما هو، فيدهش و يتحير و يضطرب، و يصير كالمختنق الذي لا يعرف طريق الخلاص.

ثم أن الوجد قد لا يكون بلا كلفة و يسمى الهاجم، وقد يكون بالكلفة و يسمى تواجداً. فمنه المذموم: وهو الذي يقصد به الرئاء،ومنه محمود: وهو التوصل الى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالجبلة؛ فإن للكسب مدخلاً في اجتلاب الأحوال، وهو المراد بقول بعضهم: العادة طبيعة خامسة. ولقد شوهد في العادات من تكلف حب شخص، وعشقه بدوام النظر اليه واكثار ذكره، حتى خرج آخراً عن حد اختياره، ثم طلب الخلاص ولم يكن له ذلك.

فإن قلت: اذا كان الوجد أمراً محموداً، فما بالهم يتواجدون بالأشعار، مع أن القرآن أحق بذلك؛ قلت: الوجد بالقرآن كان غالباً في النبي صلى الله عليه وسلم: منها قوله: «شيبتني سورة هود»، لأن الشيب من الخوف والحزن وهو وجد.

ومنها: ان ابن مسعود لما قرأ عليه وانتهى الى قوله تعالى: ﴿فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾[1] قال: «حسبك» وعيناه تذرفان بالدمع، والبكاء وجد؛ وأنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل وهو من الوجد، وأمثال ذلك كثيرة.

ولذلك وقع الوجد بالقرآن من الصحابة والتابعين، يعرف ذلك من تتبع الأخبار؛ وكذا السلف كثيراً تواجدوا بالقرآن، حتى ان منهم من خر مغشياً عليه ومات.

وأما أهل زماننا هذا انما اختاروا الغناء والأشعار لأحد أمور سبعة:

الأول: أن جميع آيات القرآن لا تصلح لحال المستمع، فلا يمكن قراءة البعض وترك الباقي، ويمكن ذلك في الشعر. وأما الكاملون فيأخذون الوجد من كل آية بقوة الفهم، الا أن أهل زماننا قاصرون في العلم والحال، فناسب الأشعار حالهم.

الثاني: أن القرآن متكرر على القلوب والأسماع فيضعف أثره، ولما رأى الصديق اعراباً يسمعون القرآن و يبكون قال: كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا. ولا تظنن أن قلبه كان أقسى من قلوب اجلاف الأعراب، ولكن التكرر على قلبه أورث قلة التأثر به، ولذلك هم عمر أن يمنع الناس من كثرة الطواف.

الثالث: ان لوزن الكلام تأثيراً في القلب وذلك في الشعر.

الرابع: أن الشعر الموزون يؤثر في النفس بالألحان، وذلك بمد المقصور تارة

---

(١) سورة النساء، آية: ٤١.

وقصر الممدود أخرى، والقطع في أثناء الكلمات، ومثل هذا التصرف لا يحل في القرآن، وانما المأمور فيه الترتيل.

الخامس: ان الالحان الموزونة تؤكد بأصوات أُخر: كالدف والقضيب، والقرآن يصان عن هذا الشأن.

السادس: أن الكلام اذا لم يوافق حال المستمع يطلب تبديله الى كلام يوافق حاله ليحصل له الوجد، ولا يمكن ذلك في القرآن.

السابع: أن القرآن كلام الله ولا تطيقه القلوب لو سمعت حق السماع، فضلاً عن أن يحصل به الوجد للسامع. والأشعار توافق حال البشر وشأنه الأدنى لمشاكله المخلوق المخلوق، وأما القرآن فهو خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه، وهو لذلك معجز لا يدخل في قوة البشرية لعدم مشاكلته لطبعه، والله أعلم.

المقام الثالث

في آداب السماع ظاهراً وباطناً

وهو خمسة:

الأول: مراعاة أحد أمور ثلاثة:

الزمان: ومعناه خلو الوقت عما يشتغل به القلب من الصلاة والطعام ونحوهما؛

والمكان: بأن لا يكون كريه الصورة يشوش القلب؛

والأخوان: بأن لا يحضر متزهد منكر لأحوال القلوب، أو متواجد مراء يمزق الثوب باختياره، لأن مثل هذا مشوش للقلب، فترك السماع عند نقد شروطه أولى.

الثاني: وهو نظر للحاضرين، أن يحضر مريد يضره السماع، وذلك احد ثلاثة:

أقلهم درجة في الضرر: من رتبته الأعمال الظاهرة ولم يحصل له ذوق

السماع، فليس هو من أهل اللهو فيلهو ومن أهل الذوق فيتنعم، فهو تضييع لزمانه.

وأوسطهم ضرراً: من له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الحظوظ البشرية، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيصير ضرره أكثر من نفعه.

وأعلاهم درجة في حق الضرر: من انكسرت شهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته لكنه لم يحكم ظاهر العلم: فربما سمع لفظاً ونزل المسموع على ما لا يجوز في حقه تعالى فيكون ضرره ضرر الكفر، نعوذ بالله من ذلك ولذلك قال سهل: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

الثالث: أن يكون مصغياً الى القوّال حاضر القلب، قليل الالتفات الى ما يظهر عليهم من أحوال الوجد، مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله له من رحمته في سره، متحفظاً عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم، ويحترز عن التنحنح والتثاؤب، ويجلس مطرقاً مكانه مفكراً مستغرق القلب، متماسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات الى أن يغلبه الوجد ويحركه بلا اختيار. ومهما رجع الى الاختيار فليعد الى هدوئه وسكونه.

واعلم: أن الوجد تارة يؤثر في الظاهر وتارة لا يؤثر. وعدم التأثير أما لضعف الوارد من السماع فهو نقصان، وتارة لكمال القوة على ضبط الجوارح وهو كمال؛ وتارة يكون حال الوجد مصاحباً له في غالب الأحوال فلا تعيره طوارق الأحوال. ولعل مراد الصديق بقوله: قست قلوبنا، أن يكون معناه: قويت واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال، فرب ساكن أتم وجداً من المضطرب.

الرابع: أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن ان رقص وتباكى لاستجلاب الحزن لا للرثاء فهو مباح. وأما تخريق الثوب فلا رخصة فيه عند الاختيار، وقد يكون بالارادة لكن يكون كالمكره، كاضطرار المريض الى الأنين باختياره، اذ لو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه اختياري. فليس كل فعل حصوله بالارادة يقدر الانسان على تركه:

كالتنفس والزعقة وتمزيق الثوب اذا كان على هذه الطريقة لا يوصف بالتحريم.

وأما تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد الفراغ من السماع وسكون الوجد، فأنهم يقطعونها قطعاً صغاراً و يفرقونها على القوم و يسمونها الخرقة، فذلك مباح اذا قطع خرقاً مربعة لترقيع الثياب والسجادات، اذ لا حرمة في قطع الكرباس الجديد اذا كانت فيه مصلحة، فإن الكرباس يقطع ثم يخاط منه القميص، وانما الذي يكره التمزيق المفسد للثوب.

الخامس: موافقة القوم في القيام اذا قام واحد منهم في وجد صادق، أو قام اختياراً بلا اظهار وجد، فذلك من أدب الصحبة. و بالجملة: يوافق أصحابه في كل بدعة لا تزاحم سنة مأمورة أو لم ينقل النهي عنه؛ مثلاً: القيام للداخل بدعة لم يفعله الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، لكن لا بأس في بلاد جرت العادة فيها باكرام الداخل، وكذلك سائر أنواع المساعدة اذا قصد بها طيبة القلب واصطلح عليها جماعة.

فإن قلت: فما بال الطباع تنفر عن الرقص، و يسبق الى الأوهام أنه لهو باطل، فلا يراه ذو جد في الدين الا و ينكره؛ قلت: ان الجد لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكر رقص الحبشة لكونه في وقت لائق به وهو العيد، ومن شخص لا يبعد منهم اللهو وهم الحبشة. فالمنكر أما منكر الاصرار وهو كذلك، أو ينكر من صدوره عن شخص لا يليق به اللهو وهذا أيضاً حق.

أما انكاره عن العوام أحياناً فذلك تقشف، اذ جوزه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات، فما باله ينكره مطلقاً.

وأما انكار صدوره عن شخص ذي علم ودين، وأهل شيبة ووقار لكن وقع منه بدون الاختيار فذلك من الجهل، اذ سقوط الاختيار لا يدخل تحت الأحكام التكليفية، يدل على جوازه من العلماء أيضاً في بعض الأحوال، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: «أنت مني وأنا منك» فحجل علي رضي

الله عنه؛ وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» فحجل جعفر؛ وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فحجل زيد. والحجل: بفتح المهملة ثم الجيم بمعنى الرقص، وقيل: ان يثب على احدى رجليه، وهو أيضاً نوع من الرقص.

فقد خرج من هذا التفصيل ان السماع قد يكون حراماً محضاً، وقد يكون مكروهاً.

أما الحرام: فهو لأكثر الناس من الشبان ممن غلبت عليهم شهوة النساء والغلمان.

والمكروه: هو الذي يجعله ديدنا ويتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو.

وأما المباح: فهو من لا تلذذ له الا بالصوت الحسن.

وأما المستحب: فهو لمن غلب عليه حب الله ولا يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة.

الأصل التاسع

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المطلب الأول

في فضائله

و يدل على ذلك بعد اجماع الأمة عليه: الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فنها قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر﴾[1] وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[2].

ومن الأخبار: قوله صلى الله عليه وسلم: «كلام ابن آدم كله عليه لا له الا أمراً بمعروف ونهياً عن منكر أو ذكر الله». وفي الأخبار كثرة الا أن العبرة بقوة الدليل لا بكثرتها، ولهذا آثرنا الاختصار.

ومن الآثار: ما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، و يدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، و ينتصرون فلا ينصرون، و يستغفرون فلا يغفر لهم. وعن حذيفة رضي الله عنه: يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب اليهم من مؤمن يأمرهم و ينهاهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

المطلب الثاني

في أركانه وشرائطه

والأركان أربعة، ولكل منها شروط:

الركن الأول: المحتسب. وله شروط:

أولها: أن يكون مكلفاً اذ غير المكلف لا يلزمه أمر، هذا شرط الوجوب، وإلا فالصبي ان أراق الخمر وكسر الملاهي فلا يمنع عنه وله ثواب.

ثانيها: وهو الايمان. وذلك لأنه نوع نصرة للدين، ولا يكون من عدو له.

ثالثها: العدالة. وقد اعتبرها قوم للنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله، والحق ان للفاسق أن يحتسب، اذ لا عصمة لجميع الآمرين بالمعروف في السلف، ولم يخصوا منهم أحداً دون أحد.

وتحقيق ذلك: أن الحسبة اما وعظية و يشترط فيها العدالة، وأما قهرية ولا يشترط فيها ذلك، الا الذمي اذ ليس للكافرين على المؤمنين سبيل.

ورابعها: الأذن من جهة الامام والوالي. وقد شرطه قوم ولم يجوز الحسبة لآحاد الرعية، الا أنه شرط فاسد، اذ الآيات والأخبار تدل على وجوب ذلك على الكل، فالتخصيص تحكم لا أصل له. ومنع الكافرين على التسلط على المسلم ليس لأجل ذلته حتى يلزم منع الرعايا عنه أيضاً، بل ذلك لكفره.

وتفصيل ذلك ان الحسبة لها خمس مراتب:

الأولى: التعريف.

الثانية: الوعظ بالكلام اللطيف. وهما لا يحتاجان الى اذن الإمام.

والثالثة: السبب والتعنيف، لا السب بالفحش، بل بقوله: يا جاهل يا أحمق ألا تخاف من الله. وهذه وأمثال ذلك الكلام صدق قد يحتسب عند الامام فكيف يتوقف على أذنه.

الرابعة: المنع بالقهر بالمباشرة، ككسر الملاهي واراقة الخمر، ولا حاجة فيها الى الأذن اذ المسلمون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً.

الخامس: التهديد والتخويف بالضرب أو مباشرته، وهو الذي يحتاج فيها الى أذن الامام، والا ينجر الى القتال من الجانبين.

ثم أن في تفاصيل هذه الحسبة كلاماً؛ مثلاً: للولد الحسبة لوالده بالمرتبتين الأوليين فقط، وليس الحسبة بالآخريين؛ وفي الثالثة ينظر الى قبح المنكر والى مقدار الأذى والسخط؛ فإن كان المنكر فاحشاً وسخطه قريباً كأراقة خمر من لا يشتد غضبه فالأمر ظاهر؛ وان كان المنكر قريباً والسخط شديداً، ككسر آنية بلور عليها صورة حيوان وفي كسرها عظيم خسران فيكتفي فيه بالمرتبتين الأوليين.

وأما الرعية مع السلطان فيتعين فيه الرتبتان الأوليان، وأما الرتبة الثالثة فإلى اجتهاد المحتسب، اذ قد ورد النهي عنه، وورد النهي عن التعرض للسلطان، فينظر فيه الى تفاحش المنكر ومقدار ما يسقط من حشمة الامام بسبب الهجوم عليه، وذلك مما لا يمكن ضبطه.

وأما الأستاذ فأمره أظهر لأنه اذا لم يعمل بعلمه لا يجب على التلميذ احترامه.

وخامسها: كونه قادر، اذ العاجز حسبته بقلبه، والعجز انما بحسب لحوق المكروه لا العجز الحسي، وها هنا أربع أحوال:

أحداها: أن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب ان تكلم، فلا يجب عليه الحسبة، بل ربما تحرم في بعض المواضع. نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر حتى لا يشاهده.

ثانيتها: ان ينتفي عدم النفع والضرب معاً فيجب عليه الانكار.

وثالثتها: أن يعلم أنه لا يفيد ولا يخاف مكروهاً، فلا يجب بل يستحب اظهار شعائر الاسلام وتذكير الناس بأمر الدين.

ورابعتها: عكس هذا، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب،

وانما الحرام تعريض النفس للهلاك من غير أثر، وانما يستحب اذا علم أن له أثراً، لكن ان علم أنه يضرب معه أصحابه وأقاربه ورفقاؤه فلا يجوز له الحسبة بل تحرم، لأنه دفع منكر يفضي الى منكر آخر أقوى منه، وليس ذلك قدرة في الحقيقة.

ولما كان كون بعض المنكر أقوى من آخر أمراً لا يهتدي له العوام، اشترط بعضهم اذن الوالي لينصب من هو أهل للحسبة.

ثم الظن كاف في اصابة المكروه، ثم التعويل في هذا الظن على اعتدال الطبع لأن ذلك الظن يقوى بالجبن و يضعف بالتهور، ثم المكروه المتوقع لا بد له من حد.

وتحقيقه: ان المطالب منحصرة في أربعة: في النفس بالعلم، وفي البدن بالصحة، وفي المال بالثروة، وفي القلوب بالجاه، ففوت كل من هذه مكروه. فالفوت أما متوقع أو بالفعل، وترك المتوقع في هذه الأربع لا يمنع الحسبة، وانما الضرب الحقيقي المانع مع الحسبة فوات الحاصل؛ مثل أن يكون جاهلاً بمهمات دينه بالحسبة ولم يجد الا معلماً واحداً و يقدر المحتسب عليه منع المعلم عن تعليمه، أو بفوت ازالة المرض الحاصل عنه، أو بقطع رزقه ولا توكل ويحتاج الى حرام أو مات جوعاً، أو يزول جاهه و يبتدىء أهل الشر بأذاه. فهذه أمور مستثناة عن الحسبة إذا ظهرت وقويت، لكن لا بد أن يزن ظن زوالم بميزان الدين لا بموجب الطبع والهوى، فإن سكت بموجب الدين تسمى مداراة وهي جائزة، وان سكت بموجب الهوى تسمى مداهنة. فعليك بالنقد في سبب السكوت فإن الناقد بصير، وستجد كل نفس ما عملت من خير محضراً عند الله ولو في فلتة خاطر ولفتة ناظر، وما ربك بظالم للعبيد.

الركن الثاني: ما فيه الحسبة، وهو كل منكر موجود في الحال، ظاهر بلا تجسس، معلوم كونه، منكراً بلا اجتهاد، فله شروط أربعة:

الأول: كونه منكراً محظور الوقوع في الشرع، سواء كان معصية أو لا، كاراقة خمر يشربها الصبيان.

الثاني: أن يكون موجوداً في الحال، والا كمن يعزم على الشرب في ليلته فعليه الوعظ ان علم النفع، والا فلا وعظ أيضاً.

الثالث: أن يظهر بغير تجسس لأنه منهي عنه، ولا يجب عليه الاطلاع على ما في البيوت الا اذا ظهر، بأن سمع أصوات الملاهي من خارج فحينئذ يدخل ويغير. وقد أمرنا بأن نستر ما ستره الله، وننكر على من أبدى لنا صفحته، والابداء باحدى طرق الحواس، اذ المقصود العلم، ولا يجب عليه استعلام ما تحت الذيل لأنه تجسس، الا اذا كان خمراً رائحته فائحة، أو عوداً تحت شيء دقيق وعرف شكله ونحو ذلك.

الرابع: أن يعلم كونه منكراً بلا اجتهاد، فليس على الحنفي أن ينكر على الشافعي أكلاً متروك التسمية والضب والضبع، وبالعكس في شرب النبيذ الغير المسكر، وتوريث ذوي الأرحام، الى غير ذلك. وأما انكار المذاهب المبتدعة، كقول المعتزلي: ان الخير من الله دون الشر، وقوله: كلام الله مخلوق ــ فواجب، وذلك مهم بالنسبة الى انكار الاجتهادات، الا أن يكون في الأعراض تحريك فتنة بالمقاتلة، فإن الحسبة في أمثال هذا الى السلطان، اذ هو قادر على دفع الفتنة في أمثاله.

الركن الثالث: المحتسب عليه. وشرطه أن يكون الفعل في حقه منكراً بجهة كونه انساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً، لما عرفت أن الصبي يمنع عن الشرب، والمجنون عن الزنا. ولا يجب رد الحيوان عن افساد الزرع بحسب الحسبة اذا الحسبة للانسان لا للحيوان. نعم يجب عليه منع الحيوان أيضاً مهماً قدر عليه، من غير تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان في جاهه، الا أنه ليس بطريق الحسبة بل لكونه من حقوق المسلمين وهي كثيرة، وهذه أدناها.

الركن الرابع: نفس الاحتساب. وله درجات وآداب:

الدرجة الأولى: التعرف. وهو منهي عنه لأنه تجسس، وقد ذكرناه؛ مثل: أن يسترق السمع لصوت الملاهي، أو يستنشق لرائحة الخمر، أو يمس ما

في ثوبه ليعرف شكل المزمار، اللهم الا أن يخبر عدلان ابتداء من غير استخبار، فحينئذ له أن يدخل داره.

الدرجة الثانية: التعريف؛ مثل: أن يرى أن يصلي بلا تعديل لجهله، فعليه التعريف باللطف، والا فربما يترك أصل الصلاة، اذ الجهل أقبح من كل عيب لكونه عيب النفس، فلا يرضى الانسان بظهور جهله، فيتلطف و يقول: ان الانسان لم يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين بأمور الصلاة فعلمنا العلماء، ولعل قريتك كانت خالية من أهل العلم أو عالماً مقصراً في شرح الصلاة وايضاحها انما شرط الصلاة هكذا، و يعلم له ما أراد.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، كمن هو عالم بكونه منكراً وأصر على ذلك بعد أن عرف كونه منكراً، فيوعظ له ويخوف بأخبار الوعيد، ويحكى له سيرة السلف، كل ذلك بلطف وشفقة من غير غضب، و يرحم عليه، و يرى ذلك مصيبة على نفسه، اذ المسلمون كنفس واحدة.

لكن يتحرز عند التعريف عن نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل، فإن هذه مصيبة في الوعظ والتذكير، وهذه غائلة هائلة، وغرور الشيطان يتدلى بحبله كل انسان، الا من عصمه الله وعرف عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته، وأما غير هؤلاء يغتالهم لذتان: دالة العلم، ودالة الأحكام والسلطنة، وهي الشهوة الخفية المتداعية الى الشرك الخفي، وله محك وعيار، وهو أن كفى غيره مؤونة الوعظ والنصح كان أحب عنده، اذ حصل الغرض ولم يتحمل نقل الوعظ على الغير، والا فليتعظ نفسه أولاً ليعظ الناس.

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، ككسر الملاهي واراقة الخمر، وأن يجر برجله من الدار المغصوبة. و ينبغي أن لا يباشر باليد اذا امكن بدونه ولا يجر بلحيته اذا أمكن جره برجله، وأن لا يمزق ثوبه الحرير اذا أمكن حل أزراره ونحو ذلك.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف، كقوله: دع هذا والا لاضربن

رقبتك؛ أو: لأكسرن رأسك، وما أشبه ذلك. وينبغي أن لا يقدم التهديد على تحقيقه أن أمكن وأن يهدد بما يقدر على تحقيقه، فلا يقول: لأنهبن دارك، ولاسبين زوجتك، لأنه ان قال ذلك عن عزم فهو حرام، وان قاله على غير عزم فهو كذب؛ اللهم الا اذا عرف انه يردعه بالمبالغة فأنه حينئذ ليس من الكذب المحظور، وهذا بمنزلة اصلاح ذات البين وهو غير قبيح.

ومن هذا قال بعضهم: يجوز من الله تعالى أن يتوعد بما لا يفعل لأن الخلف في الوعيد كرم، وانما يقبح أن يعد بما لا يفعل. وهذا القول غير مرضي في حق الله عز وجل، فإن الكلام لا يتطرق اليه الخلف وعدا كان أو وعيداً، وانما ذكره يتصور في حق العباد، اذ الخلف في الوعيد ليس بحرام.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل بدون شهر سلاح، وان احتاج الى شهر سلاح فيجوز ذلك على المحتسب، كتخليص امرأة من فاسق اذا كان بينهما نهر حائل، فإن لم يخل فله الرمي لكن يقصد الساق والفخذ دون المقتل. وبالجملة: يرعى التدريج في الكل، وأما العامي فليس عليه شهر السلاح بحال أصلاً.

الدرجة الثامنة: الا يقدر بنفسه ويحتاج الى الأعوان، وربما يكون للفاسق أيضاً أعوان فيؤدي الى أن يتقاتل الصفان، ومثل هذا لا يجوز الا بإذن السلطان اذ ربما يؤدي إلى هيجان وخراب البلاد، والا فإن القياس جوازه للكل.

المطلب الثالث

آداب المحتسب

وهي ثلاثة:

أحدها: أن يعلم موانع الحسبة ومواقعها.

وثانيها: الورع، اذ ليس كل من علم عمل بعلمه.

وثالثها: حسن الخلق، اذ العلم والورع لا يكفيان في اللطف والرفق ما لم يكن لصاحبها حسن الخلق.

ومن الآداب: تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه، ويقطع الطمع حتى تزول عنه المداهنة. ولنذكر ههنا شيئاً من الآداب المخصوصة.

منها: منكرات المساجد، يمنع من قصر في أمر الصلاة على مذهبه، ينبه على لحن قراءته سيما الفاتحة، وان كان قادراً فليتعلم والا فقدار ما قدر.

ومنها: تراسل المؤذنين وتغييرهم كلمات الأذان لرعاية الالحان، وكذا عدم رعايتهم الأوقات.

ومنها: لبس الخطيب ثوباً أسود فيه ابريسم، أو ممسكاً لسيف مذهب، والحرير حرام، وأحب الثياب البيض، والأسود ليس بحرام.

منها: الواعظ المبتدع، أو الذي يكثر الرجاء، اذ الخلق أحوج الى الخوف منهم الى الرجاء، وكذا حضور النساء مجلسه وهو شاب متزين كثير الأشعار والاشارات والحركات. ويمنع النساء من حضور المساجد للصلاة ولمجالس الذكر اذا خيف الفتنة.

ومنها: دخول المجانين والسكارى الا أن يعلم سكونهم وسكوتهم، ولا بأس بدخول الصبي اذا لم يلعب.

ومنها: منكرات الأسواق؛ كالكذب واخفاء العيب وبيع الملاهي والأواني المحرمة.

ومنها: منكرات الشوارع؛ نحو تضييق الطريق بالأبنية، ووضع الأحمال، وتنجيس الطريق، وترك مياه المطر والأوحال والثلوج.

ومنها: منكرات الحمامات، من صور الحيوانات، وكشف العورات، والانبطاح لتغميز الأفخاذ، وتنجيس الأواني والمياه، وترك الأحجار المزلقة أو جعلها مزلقة بغسل الثياب بالصابون، ونحوه.

ومنها: منكرات الضيافة؛ كالفرش المحرمة، والمبخرة المحرمة، والأشربة المحرمة، وستور عليها صور، وسماع الأوتار والقينات، ونظر النساء على الرجال الشبان، وحرمة الأطعمة، والاجتماع مع من يلبس الحرام ومع أهل البدع،

وان كان فيه مضحك بالفحش والكذب يجب منعه وان لم يقدر فلا يحضر، وأما المزح بلا فحش ولا كذب فهو مباح الا أن يتخذه صنعة وذلك مكروه، والكذب الذي لا يقصد به التلبيس ليس من المنكرات؛ كقولك: كلمتك اليوم مائة مرة، أو: أتيتك الف مرة، اذ ليس يقصد به التحقيق بل المبالغة، وذلك لا يقدح في العدالة، ولا ترد به الشهادة؛ وكالسرف في الطعام والبناء.

ومنها: صرف المال الى القينات والمغنيات واسراف جميع المال حرام، بحيث يبقى عياله بلا شيء سيما في المحرمات، الا اذا أنفق في وجوه البر وله قدم صدق في وجوه البر وله قدم صدق في التوكل.

ومنها: منكرات العامة؛ مثل أن يقعد في بيته ولا يصرف ما فضل عن فرض العين الى فروض الكفاية؛ كأن يخرج الى القرى المجاورة لبلده و يعلم أهلها أركان الصلاة وشرائط الطهارة وسائر الفرائض الا أن يفعله البعض، وانما يجب التبليغ على أهل العلم، وان علم مسألة واحدة فهو من أعلم العلم بها يجب تبليغها. والأثم في ذلك على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر، لأن العلم يجب العلم به أولاً لنفسه، ثم لأهل بيته، ثم لأقاربه وجيرانه، ثم وثم حتى ينتهي الى أن يخرج الى السوق و يغير منكراتهم. وان قدر على تغيير البعض فلا يكون عدم تغيير الباقي عذراً في عدم الخروج، و يتعدى منهم الى أهل القرى، ثم أهل البادية، وهكذا الى أقصى العالم. فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، والا يأثم كل عالم على وجه الأرض.

المطلب الرابع
في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

والجائز معهم الرتبتان الأوليان من درجات الحسبة، وهما: التعريف والوعظ. وأما تخشين القول والمنع بالقهر فيهيج الفتنة في حقهم فلا يجوز، الا اذا اختص الضرر بنفسه فقط، فعند ذلك يندب. قال صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»؛ وقال: «خير الشهداء حمزة بن

عبد المطلب، ثم رجل قام الى امام فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك».

ولذلك كانت الصحابة والتابعون اجترأوا على الملوك والسلاطين، ولم يبالوا ببلية وعذاب، وأخلصوا النية، فلهذا أثر كلامهم في الظلمة ولين قلوبهم القاسية كما هو مسطور في كتب التواريخ والأخبار. وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وان تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا الله قصدوا حق العلم لأفلحوا، ففساد الرعية بفساد الملوك، وفسادهم بفساد العلماء، وفسادهم باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل والصعاليك فكيف على الأكابر والملوك. اللهم أعصمنا من العلم بلا عمل، والميل الى الدنيا، ولا تخلط أعمالنا بالسمعة والرياء، انك أنت المستعان يا كريم يا منان، وتفضل علينا بالاحسان والانعام يا ذا الجلال والاكرام.

الأصل العاشر
في أخلاق النبوة

ليكون أنموذجاً لمن طلب تزكية الأخلاق، ونتيجة لما ذكر في هذه الأوراق. وكان صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله عز وجل أن يزينه بمكارم الأخلاق والآداب. وكان دائماً يقول: « اللهم حسن خلقي وخلقي » حتى استجاب الله دعوته وأنزل عليه القرآن، وعمل بما فيه حتى كان خلقه القرآن كما هو المأثور عن عائشة رضي الله عنها.

ثم رغب الناس في حسن الخلق، قال: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وبين للناس ان الله تعالى يحب مكارم الأخلاق و يبغض سفسافها.

كان صلى الله عليه وسلم حسن العشرة وكريم الصنيعة لين الجانب، وكان يحب بذل المعروف، واطعام الطعام، وافشاء السلام، وعيادة المريض المسلم براً كان أو فاجراً، وتشييع جنازة المسلم، وحسن الجوار لمن جاوره مسلماً كان أو كافراً، وتوقير ذي الشيبة المسلم، واجابة الدعوة للطعام، والدعاء عليه، والعفو والاصلاح بين الناس، والجود والكرم والسماحة، والابتداء بالسلام، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، واذهب بدين الاسلام اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها، وكل ذي وتر وكل دخل، والكذب والغيبة والبخل والشح والجفاء، والمكر والخديعة والنميمة وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والمدح، والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة، والبغي والعدوان والظلم.

وكانت وصيته: تقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحم اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الايمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح.

ونهى أن تسب حكيماً، أو تصدق كاذباً أو تكذب صادقاً، أو تطيع آثماً أو تعصى اماماً عادلاً أو تفسد أرضاً، وأوصاك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وان تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية.

ومن اخلاقه صلى الله عليه وسلم: أنه كان أحلم وأشجع وأعدل واعف، ولم تمس يده يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات رحم محرم، وكان أسخى لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وان فضل ولم يجد من يعطيه لم يأو الى منزله حتى يبرأ منه الى من يحتاج اليه، لا يأخذ مما آتاه الله الا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير، وينفق غيره في سبيل الله، لا يسأل شيئاً الا أعطاه وربما يؤثر من قوته.

وكان يخصف النعل ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله ويقطع اللحم معهن، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد، يجيب دعوة الحر والعبد، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب، ويكافىء عليها ويأكلها، ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر عن اجابة الأمة والمسكين، يغضب لربه لا لنفسه، وينفذ الحق وان أضر على نفسه.

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، ويأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد براً أو شعيراً أو حلوى أو عسلاً أو لبناً، لا يأكل متكئاً ولا على خوان، منديله باطن قدمه، لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله، ايثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس.

وكان أحسن الناس بشراً وتواضعاً، وأبلغهم في غير تطويل، لا يهوله شيء من أمور الدنيا، ويلبس ما وجد شملة وبرد حبرة يمانياً وجبة صوف، وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر، يردف خلفه عبده أو غيره، ويركب ما

أمكنه فرساً وبغلة وحماراً وبعيراً، أو يمشي راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، يحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، لا يجفو على أحد، يقبل المعذرة، ويمزح ولا يقول الا حقاً، يضحك من غير قهقهة، يرى اللعب المباح ولا ينكره ويسابق أهله، وترفع الأصوات عليه فيصبر.

وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها، وكان له عبيد واماء لا يرتفع عليهم في مأكل وملبس، يمضي أوقاته في عمل الله تعالى أو فيما لا بد له، يخرج الى بساتين أصحابه، لا يحقر مسكيناً ولا يهاب ملكاً يدعو كليهما الى الله دعاء واحداً.

قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في رعاية الغنم، يتيماً لا أب له ولا أم، فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة، وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا، ولزوم الواجب وترك الفضول. وفقنا الله لطاعته والتأسي به في فعله آمين يا رب العالمين.

ومن آدابه صلى الله عليه وسلم: ما شتم أحداً الا جعل له كفارة ورحمة، وما لعن أحداً، وكان يقول: «انما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً». وما يدعو على أحد كافراً أو مسلماً، وما ضرب بيده أحداً الا في سبيل الله، وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله، وما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما الا أن تكون ثمة اثم أو قطيعة رحم، وما كان يأتيه حر أو عبد أو أمة الا قام معه في حاجته، وما قال لمن يخدمه: لم فعله، ولا لام أحداً الا قال: دعوه انما كان هذا بكتاب وقدر.

وربما يضطجع على الفراش وعلى الأرض ولا يأخذ أحد يده ولا يكلمه أحد الا يكون هو الذي يرسلها أو هو الذي ينصرف أولاً، وكان أكثر جلوسه الحبوة،

وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويجلس مستقبل القبلة، وكان يؤثر الداخل بالوسادة التي تحته فإن أبى عزم عليه حتى يفعل، وكان يدعو أصحابه بل النساء والصبيان بكناهم، وكان أبعد الناس غضباً فأسرعهم رضا، وكان لا ترفع في مجلسه الأصوات، وكان إذا قام من مجلسه قال «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك» ثم يقول: «علمنيهن جبرئيل عليه السلام».

وأما كلامه وضحكه: كان أفصح الناس نطقاً وأحلاهم كلاماً، وكان لا يسرد الكلام، وكان أوجز كلاماً و يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير، وكان بين كلامه توقف يحفظه سامعه و يعيه، وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ولا يقول في الرضا والغضب الا الحق، وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وربما ضحك حتى تبدو نواجذه، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له، وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة.

وكان اذا سر ورضي فهو أحسن الناس، وان وعظ وعظ بجد، وان غضب —ولم يكن يغضب الا لله— لم يقم لغضبه شيء، وكان اذا نزل به الأمر فوض الأمر وتبرأ من الحول والقوة.

أما آدابه في الأكل: فكان يأكل ما وجد، وكان يحب كثرة الأيدي على الطعام، وكان يجلس عند الأكل كما يجلس المصلي، الا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم، وكان لا يأكل الحار و يأكل مما يليه بأصابعه الثلاث، وربما استعان بالرابعة، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول؛ و يأكل القثاء بالرطب، يحب البطيخ والعنب، و يأكل البطيخ بالخبز و بالسكر وربما أكله بالرطب، و يستعين باليدين جميعاً.

وكان يحفظ نوى الرطب في يساره فعرض النوى بالشاة فجعلت تأكل في

يده اليسرى وهو صلى الله عليه وسلم يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة. وربما أكل العنب خرطاً يرى رؤاله على لحيته كحدر اللؤلؤ وهو الماء الذي يقطر منه. وكان أكثر طعامه التمر والماء، وكان يجمع التمر باللبن و يسميها الأطيبين، وكان أحب الطعام إليه اللحم و يقول هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، وكان يأكل الثريد باللحم والقرع، و يأكل الخبز والسمن، ويحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة، وقال: العجوة من الجنة وشفاء من السم والسحر.

كان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء، ولا يأكل الثوم والبصل والكراث، وكان يكره أكل الكليتين لمكانهما من البول، وكان يعاف القلب والطحال، وان عاف طعاماً تركه ولم يبغضه الى غيره، وكان يلعق الصفحة و يقول آخر الطعام أكثر بركة، وكان يلعق أصابعه حتى تحمر ثم يمسح بالمنديل و يغسل يديه من الخبز واللحم خاصة ثم يمسح بالماء على وجهه، وكان يمص الماء مصاً ولا يعب عباً، و يشرب في ثلاث دفعات فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات، وربما يشرب بنفس واحد، واذا تنفس يتحرف عن الاناء و يدفع فضل سؤره الى من على يمينه، فإن كان من عن يساره أجل رتبة قال للذي عن يمينه: السنة أن تعطي فإن أحببت آثرتهم.

وأتى باناء فيه عسل ولبن وقال: «شربتان في شربة وادامان في اناء واحد»؛ ثم قال: «لا أحرمه ولكني أكره الفخر، والحساب بفضول الدنيا غداً، وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه».

وكان في بيته أشد حياء من العاتق، لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم، وان أطعموه أكل، وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب، وربما قام فأخذه بنفسه.

وأما لباسه: فما وجده من أزار أو رداء أو قيص أو جبة، و يعجبه الخضر، و يكثر لباس البياض، وكان يلبس القباء المحشو للحرب، وكانت ثيابه فوق الكعبين وازار فوق ذلك الى نصف الساق، وكان قيصه مشدود الازرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها.

وكان له ملحفة مصبوغة بالزعفران، وربما صلى بالناس فيها وحدها، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره، وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول: «أنا عبد ألبس كما يلبس العبد».

وكان له ثوبان لجمعته خاصة، وربما لبس الأزرار الواحد ليس عليه غيره، وكان يتختم وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء، وكان يختم على الكتب، وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة، وربما نزع قلنسوة من رأسه فجعلها سترة في صلاته، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته، وكانت له عمامة تسمى السحاب وهبها من علي رضي الله عنه. وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً.

وكان له فراش من أدم، حشوه ليف، طوله ذراعان أو نحوه، وعرضه ذراع وشبراً ونحوه، وكانت له عباءة تفترش له حيث ينتقل تثنى طاقتين تحته، وكان ينام على حصير ليس تحته شيء غيره.

وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه؛ فكان اسم رايته العقاب؛ واسم سيفه ذو الفقار، وآخر المخذم، وآخر الرسوب، وآخر القضيب. وكانت قبيعة سيفه من الفضة، وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة؛ وكان اسم قوسه الكتوم؛ وجعبته الكافور؛ واسم فرسه المرتجز، وناقته القصوى، ويقال لها: العضباء؛ وبغلته الدلال؛ وحماره يعفور، وشاته التي يشرب لبنها عنبة.

وكان له مطهرة من فخار يتوضأ ويشرب منها، ويرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد ميزوا فيدخلون ويشربون منه، ويمسحون على وجوههم وأجسادهم يبتغون بذلك البركة.

وكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة، وكان رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه ورضاه واذا أشتد وجده أكثر من مس لحيته. وكان أجود الناس وأسخاهم سيما في رمضان وما سئل شيئاً قط على الاسلام الا أعطاه، وكان أنجد الناس وأشجعهم، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب، وكان أشد الناس تواضعاً في علو

منصبه، قال ابن عمر: رأيته صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة على ناقته صهباء لا ضرب ولا طرد ولا اليك اليك. وكان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة ومع ذلك كان يستردف.

وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك، وكان يسلم على الصبيان، وكان لا يأكل على خوان ولا على سكرجة حتى لحق بالله عز وجل، وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم الا قال: لبيك وأتى برجل فأرعد من هيبته، فقال له: «هون عليك فلست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». وربما تكلم مع الناس في أمر الآخرة. وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه و يذكرون من أمر الجاهلية فيضحكون، وهو يبتسم رفقاً بهم وتواضعاً، ولا يزجرهم الا عن حرام.

وكان صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، وكان ينسب الى الربعة، وربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسبا الى الطول ونسب هو الى الربعة. كان أزهر اللون لم يكن بالآدم ولا الشديد البياض. وكان رجل الشعر حسنه ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان شعره يضرب منكبيه، وأكثر الرواية انه الى شحمة أذنيه، وربما جعله غدائر أربعاً يخرج كل اذن من بين غديرتين، وربما جعل شعره على أذنه فتبدو سوالفه تتلألأ، وكان شيبه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة فقط.

وكان واسع الجبهة ازج الحاجبين وأبلج ما بينهما، وعيناه نجلاوان ادعجهما مع مزج حمرة فيهما، وكان أهدب الأشفار تلتبس من كثرتها، وأقنى العرنين مفلج الأسنان، اذا ضحك افترعن سنا البرق اذا تلألأ، وكان من أحسن عباد الله شفتين والطفهم ختم فم، وكان سهل الخدين صلبهما لا بالطويل الوجه ولا المكلثم، كث اللحية، وكان يعفي لحيته و يأخذ من شاربه، وكان من أحسن الناس عنقاً لا ينسب الى الطول ولا الى القصر، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه ابريق فضة مشرب ذهباً يتلألأ في بياض الفضة وحمرة الذهب.

وكان عريض الصدر موصول ما بين لبته وسرته منقاداً كالقضيب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره، كانت له عكن ثلاث يغطي الأزار واحدة منها

وتظهر اثنتان. وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخم الكراديس، أي: رؤوس العظام من المرفقين والوركين. وكان واسع الظهر بين كتفيه خاتم النبوة، وهو مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب الى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها عرف فرس. وكان عبل العضدين والذراعين طويل الزندين رحب الراحتين سائل الأطراف.

وكانت أصابعه قضبان الفضة وكفه ألين من الحرير، وكأن كفه كف عطار طيباً مسها أو لم يمسها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه.

وكان عبل ما تحت الأزار من الفخذ والساق، وكان معتدل الخلق في سمن بدن في آخر زمانه، وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السن، وكان يمشي كأنما ينقلع من صخر ويتحدر من صبب، يخطو تكيفاً ويمشي الهوينا بغير تبختر؛ والهوينا: تقارب الخطى.

وأما معجزاته وآياته فخارجة عن حد العد والاحصاء، سيما المعجزة الكبرى الباقية الى آخر الدهر تحدى بها بلغاء عدنان وفصحاء قحطان، وجزيرة العرب مملوءة بالآلاف منها، ونادى بين أظهرهم بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله أن شكوا فعجزوا عن ذلك عن آخرهم، حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسبي، فما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في حسنه وجزالته.

ثم انتشر ذلك بعده صلى الله عليه وسلم في أقطار العالم شرقاً وغرباً، قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر، فلم يقدر أحد على معارضته. فأعظم بحمق من رأى معجزاته وأخلاقه وآدابه، ثم في استمرار شرعه الى قريب من خمسين وتسعمائة، ثم في انتشاره في أقطار العالم واذعان ملوك الأرض في عصره وبعد عصره والمدة ما ذكر، ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه وخلود شرعه الى انقراض الدنيا. فنسأل الله أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأقوال والأفعال والأحوال، أنه الكريم ذو الجلال وهو العليم بكل الحال بمنه وجوده.

الشعبة الثالثة

في ربع المهلكات

الأصل الأول

شرح عجائب القلب

ولنذكر أولاً عدة ألفاظ نافعة في الباب:

أحدها القلب: وله معنيان؛ أحدهما: اللحم الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه دم أسود، وهو منبع الروح الحيواني، وهو من عالم الملك والشهادة؛ وثانيها: لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وهي حقيقة الانسان، وهي المدرك العالم العارف المخاطب والمعاتب والمعاقب والمطالب، وهذا من عالم الغيب وقد نهينا عن شرح حالها.

الثاني: لفظ الروح. وله أيضاً معنيان؛ أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف الجسم الصنوبري، وتنتشر بواسطة العروق الضوارب الى البدن، ويفيض بسببه قوة الحياة والحس والبصر والسمع والشم؛ وثانيها ثاني معنى القلب.

الثالث: لفظ النفس. وله أيضاً معنيان؛ أحدهما: الأمر الجامع لقوة الغضب والشهوة في الانسان وعلى أكثر اصطلاح المتصوفة، وثانيها: ثاني معنى القلب والروح.

الرابع: العقل. وله أيضاً معنيان؛ أحدهما: العلم بحقائق الأمور؛ وثانيهما: المدرك لحقائق الأمور، أعني: اللطيفة المذكورة.

بيان جنود القلب.

وهي ثلاثة أصناف: باعث اما الى جلب الموافق النافع كالشهوة، أو الى دفع الضار المنافي كالغضب. و يسمى هذا الباعث ارادة، ومحرك للأعضاء الى تحصيل هذه المقاصد مسمى بالقدرة، وهي أمور مبثوثة في سائر الأعضاء سيما العضلات منها والأوتار، ومدرك متعرف للأشياء كالجواسيس، وهي مبثوثة في مواضع معينة، كالحواس الظاهرة المستخدمة للأعضاء الظاهرة المركبة من اللحم والشحم والدم والعظم، وهذه من عالم الملك والشهادة، ولها حواس باطنة: من الحس المشترك والنخيل والتفكر والتذكر والحفظ، والذي يبحث عنه هي الحواس الباطنة.

ويمثل القلب مع جنوده الباطنة كالملك والوالي أعني الروح مع مملكته ومدنيته أعني البدن، وقوته العقلية وزيره العاقل، وشهوته كعبده السوء الجالب للميرة. فمتى انقاد للوزير خلص من مضرة العبد المكار والا هلك؛ وكذا الغضب صاحب شرطته، فإذا تبع رأى الوزير يأمن ضرره والا فات قانون العدل في المملكة.

ثم أن الإنسان في تركيبه أربع قوى، وهي: السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية. فهو من حيث سلط عليها احدى هذه الصفات تتولد أخلاق رديئة.

أما الأول: فكالعداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم؛

وأما الثاني: فكالشره والحرص والشبق؛

وأما الرابع: فكحب الاستيلاء والاستعلاء والتفرد بالرياسة، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع، وادعاء الاحاطة بجميع الحقائق، والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق: من أوصاف الربوبية؛ ومن حيث يختص عن البهائم بالتميز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية.

وبالجملة: اذا أتبعت قوة العلم على الشهوة والغضب صار شيطاناً في صورة انسان، والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ببصيرته، ويكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه وهو الخنزير، ويدفع ضرارة الكلب بتسليط الخنزير عليه، ويجعل الكل مقهوراً تحت سياسته فيحصل صفة العدل؛ والا فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير، ومع ذلك يتكر على عبدة الاصنام عبادتهم للحجارة ونفسه يعبد الكلب والخنزير، كما يراه المكاشفون تارة في النوم وتارة في اليقظة على عكوفه في عباده هذين.

فحصل له من طاعة خنزير الشهوة: الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرئاء والهتك والمجانة والعنت والحرص والجشع والملق والحسد والشماتة ونحوها؛ ومن طاعة كلب الغضب: صفة التهور والنذالة والبذخ والصلف والاستشاط والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم ونحوها؛ ومن طاعة شيطان الشهوة والغضب والمكر والحيلة والخداع والدهاء والجربزة والتلبيس والتضريب والغش والخبث وأمثالها؛ ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت رياسة الصفة الربانية، استقر في القلب صفات ربانية: من العلم والحكمة والاحاطة بحقائق الأشياء كما هي، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة، ويحصل له من رد خنزير الشهوة الى الاعتدال صفات شريفة: من العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها، ومن كسر قوة الغضب وقهرها وردها الى حد الواجب: صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والشهامة والوقار وغيرها.

المطلب الثاني

واعلم: أن كل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف، وتلك الخاصية قد عبر الله عز وجل عنها بالأمانة التي حملها الانسان وأبت عن حملها السموات والأرض والجبال: لكن هناك أسباب مانعة من معرفة حقائق العلوم، وهي خمسة:

أحدها: نقصان في ذاته كقلب الصبي، ومثال ذلك في الحس: الحديد قبل أن يدور ويتشكل ويصقل.

وثانيها: كدورة المعاصي وخبث الشهوات، مثاله: صدأ الحديد وكدورته بعد تمام شكله.

وثالثها: كونه معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن القلب وان كان صافياً الا أن هم الطاعات البدنية أو تهيئة أسباب المعيشة ربما يصرف فكره عن التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية، فلا ينكشف له الا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وحقائق عيوب النفس أو مصالح المعيشة، مثاله: كون المرآة المصقولة معدولاً بها عن جانب الصورة.

ورابعها: أن يكون المطيع القاهر لشهواته المتجرد للتفكر في حقيقة من الحقائق لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد يسبق اليه من الصبا على سبيل التقليد والقبول لحسن الظن، وذلك يحول بينه وبين الحق، مثاله: الحجاب المرسل بين الصورة وبين المرآة الصقيلة المحاذية نحوها.

وخامسها: الجهل بالجهة التي منها يقع العثور على المطلوب، اذ لا بد لكل علم من علمين سابقين يأتلفان فيحصل من ازدواجهما علم ثالث؛ ومثاله: الجهل بالجهة التي فيها الصورة فلا يحاذي المرآة بها؛ مثلاً: أن أراد أن يبصر قفاه في المرآة فلا بد أولاً أن يعرف طريقه والا لا يحصل من جده طائل، فانه أن رفع المرآة حذاء وجهه لا يبصر قفاه وان رفعها وراء القفا لا يرى المرآة أصلاً، فينبغي أن يرفع مرآة وراء القفا وأخرى حذاء وجهه مقابلة للمرآة الأخرى، فتنتقش صورة القفا في مرآة تقابلها، ثم تنتقش منها الى المرآة المحاذية للمرآة الأولى ولوجه الرائي، فترتسم صورة القفا في المرآة الثانية فيرى قفاه، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها أزورارات وتحريفات أعجب مما ذكرنا في المرآة، ويعز على بسيطة الأرض من يهتدي الى كيفية الحيلة في تلك الأزورارات.

المطلب الثالث

العلوم أما عقلية: وهي التي تقضي بها غريزة العقل بلا أخذ من تقليد وسماع؛ وهي أما ضرورية: لا يدري من أين حصل وكيف حصل، وأما مكتسبة: وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال، وكلاهما قد تسمى عقلاً، والقلب جار مجرى العين، وغريزة العقل جارية مجرى قوة الأبصار يتوقف على النور، كذلك قلب الصبي الى التميز والبلوغ، وفقد قوة العقل عمى. قال تعالى: ﴿فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

ثم العلوم: أما دينية مأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء، أما بتعلم كتاب الله عز وجل، أو بتعلم سنة نبيه صلى الله عيه وسلم. فالعلوم العقلية ــ وان كانت غير كافية في سلامة القلب ــ لكنها محتاج اليها في فهم العلوم الدينية، فلا غنى بالعقل عن السمع ولا بالسمع عن العقل، والداعي الى محض السمع مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور.

فاياك أن تكون من الفريقين وكن جامعاً بينهما، فالعلوم العقلية كالأغذية والشرعية كالدواء؛ من ظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن فهو ظن عن عمى عين بصيرته، نعوذ بالله من الجهل. وهذا القائل كيف يفعل فيما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض، فأما أن يعترف بنفع العلوم العقلية، أو يعتقد نقصاً في الدين و ينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين.

ثم العلوم العقلية؛ أما دنيوية: كالطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات؛ وأما أخروية: كعلم أحوال القلوب وآفات الأعمال والعلم بالله وصفاته وأفعاله، وهما ككفتي الميزان، وربما يقال: كالمشرق والمغرب، وربما يقال: كالضرتين أن أرضيت احداهما أسخطت الأخرى،

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

ولذلك ترى علماء الدين جهالاً في علوم الدنيا وبالعكس. والجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدين والدنيا لا يتيسر الا للمؤيدين بروح القدس، وهم الانبياء، بخلاف سائر الخلق، فأنها اذا شغلت بأحدهما انصرفت عن الآخر.

المطلب الرابع

وأعلم: أن للقلب بابين: مفتوح الى عالم الملكوت، وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة؛ وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسك بعالم الشهادة والملك. وطريق اكتسابه من الباب الثاني معلوم لكل أحد، وأما طريق اكتسابه من الملكوت: فهو أن القلب مستعد لأن يتجلى فيه جلية الحق في الأشياء كلها، وانما حيل بينه وبينها بالحجب الخمسة ــ التي ذكرناها ــ المسدلة بين القلب وبين اللوح المحفوظ، الذي يسطر فيه حقائق الأشياء وجميع ما قضى الله سبحانه الى يوم القيامة، كما يسطر المهندس صورة أبنية الدار في بياض ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة.

ثم أن الحجاب بينهما تارة يزول باليد وأخرى بهبوب رياح الألطاف، ويكون ذلك تارة في المنام فيظهر له ما سيكون في المستقبل، وتارة في اليقظة فيلمع غرائب العلوم، وتارة كالبرق الخاطف، وأخرى كالتوالي الى حد ما. ودوامه في غاية الندور، فالحجاب اذا انكشف باختيار العبد فهو الاكتساب، وإلا فالهام ونفث في الروع، وان شاهد معه الملك فهو الوحي.

وهذا الانكشاف ــ وان لم يكن بالأختيار ــ الا أن أسبابه البعيدة داخلة تحته، لأن ذلك بالزهد في الدنيا والتبرؤ من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها حتى يستوي عنده وجود كل شيء وعدمه، والأقبال بكنه الهمة، فمن كان لله كان الله له.

وينبغي أن لا يفرق فكره في مطالعة تفسير وحديث، بل يداوم أن يقول بلسانه: الله الله الى أن ينتهي الى درجة تكون الكلمة جارية على اللسان بلا قصد منه، ثم ينتهي الى أن يمحى أثره عن اللسان فيصادف قلبه مواظبا على الذكر، ثم يواظبه الى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة،

و يبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه، ثم يسلب عنه الاختيار في استجلاب رحمة الله فيبقى منتظرا لما يفتحه الله عليه من نفحاته، فتلمع لوامع الحق في قلبه كالبرق الخاطف، ثم يعود يدوم زماناً.

المطلب الخامس

أعلم: أن أهل النظر لم ينكروا وجود هذا الطريق وامكانه وافضاءه الى المقصود، لكن استوعروه واستبطأوا ثمرته واستبعدوا اجتماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق الى هذا الحد كالمتعذر، وان حصل فثباته أبعد منه اذا دنا وسواس وخاطر يشوش القلب، وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، فالاشتغال بطرق التعلم أوثق وأقرب الى الغرض.

الا أن المفهوم من الآيات والأحاديث كون علم التصفية أفضل من العلم المكتسب؛ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾(١)، ما هذا الشرح، قال: «هو التوسعة، ان النور اذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح»؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «ولو وزن ايمان أبي بكر بإيمان العالم سوى النبيين والمرسلين لرجح»؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «ان من أمتي محدثين ومكلمين وان عمر منهم؛ والمحدث: هو الملهم، والملهم: هو انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة، والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعليم.

وقال علي رضي الله عنه: ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم الينا، الا أن يؤتى الله سبحانه عبداً فهماً في كتابه، وليس هذا بالتعلم.

ثم ان الصواب لمن يريد طريق الآخرة: ان يقدم تعلم العلوم الدينية، ثم يبتدىء طريق التصفية، اذ ربما تتشبث بالقلب خيالات فاسدة، وربما يبقى

---

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

الصوفي في خيال واحد عشرين سنة و ينقضي عمره دون النجاح فيه، فلو كان قد أتقن العلم من قبل لأنفتح له وجه الصواب من ذلك الخيال في الحال. ومن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم الفقه وصار فقيهاً بالوحي والالهام فربما ينتهي بالرياضة اليه فقد ظلم نفسه وضيع عمره، فإن ذلك وان أمكن لغير النبي بعيد جداً فلا يغتر به.

المطلب السادس

أعلم: ان القلب ترد عليه الصورتان من الحواس الظاهرة وتارة من الحواس الباطنة، لأنه اذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منها أثر في القلب، ثم ينتقل بسبب الآثار الواردة عليه من حال الى حال دائماً، أعني: الأفكار والأذكار، وهذه تسمى الخواطر لخطورها عند غفلة القلب عنها. والخواطر محركة للرغبة، وهي تحرك العزم والنية، والنية تحرك الأعضاء.

فالخواطر مبدأ للأفعال وتنقسم الى: ما يدعو الى الشر، أي: يضر في العاقبة، والى ما يدعو الى الخير، أي: ينفع في الدار الآخرة. فالخاطر المحمود يسمى الهاماً، والخاطر المذموم يسمى وسوسة. ومن سنة الله تعالى ترتيب المسببات على أسبابها: فسبب الخاطر المحمود يسمى ملكاً، وسبب الخاطر المذموم يسمى شيطاناً؛ واللطف الذي به يتهيأ القلب لقبول الهام الملك يسمى توفيقاً، والذي يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى أغواء وخذلانا، والقلب متجاذب بين الملك والشيطان، وانما يترجح أحد الجانبين بالمجاهدة أو باتباع الهوى والشهوات التي هي سلاح الشيطان، فلا بد من معرفة سلاحه وكيفية دفعه.

وأما معرفة صفته وذاته وحقيقته وكذا صفة الملك وحقيقته فذلك من علوم المكاشفة. ومما ينبغي أن يعلم أن بعض الأمور مكايد الشيطان، و بعضها الهام الملك، و بعضها متردد بينهما، اذ الشيطان يعرض الشر في معرض الخير، والتميز بينهما غامض، و به يهلك أكثر العباد اذ لا يقدر على دعائهم الى صريح الشر فيصوره بصورة الخير. فحق على العبد أن يمعن فيه النظر بعين البصيرة لا بهوى

من الطبع، ولا يطلع عليه الا بنور التقوى وغزارة العلم، والا يتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر.

ولا ينجي من ذلك الا سد أبواب الخواطر والعزلة، وقطع العلائق، ودوام الذكر. ولا تنقطع هذه المجاهدة الى الموت، فأنه ما دام حياً فأبواب الشيطان مفتوحة الى قلبه لا تنغلق.

وباب الملك باب واحد، ومع ذلك قد التبس هذا الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة؛ مثلاً للعالم الواعظ: الناس موتى من الجهل هلكى من الغفلة، أمالك رحمة على عباد الله وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة، فكيف تفكر بنعمة الله وتتعرض لسخطه وتسكت عن اشاعة العلم ودعوة خلق الله الى الصراط المستقيم، الى أن يستجره بلطائف الحيل الى وعظ الناس، ثم يدعوه الى أن يتزين لهم في اللفظ واظهار الخير، حتى يحصل له لذة الجاه وقبول الخلق والتعزز بكثرة العلم والنظر الى الخلق بعين الاحتقار، فيهلك المسكين، وهو يرى أنه عند الله بمكان.

وأمثال هذا التلبيس انتشر الآن في البلاد والعباد حتى لم يبق من الخيرات الا رسمها.

ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص، اذ القلب أعماه حرصه وصمه، اذ يحسن له الشيطان كلما يوصله الى شهوته وان كان منكراً وفاحشاً.

ومنها: الغضب والشهوة، اذ الانسان اذا غضب لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة.

ومنها: حب التزين بالثياب والأثاث والدار، فان الشيطان اذا رأى ذلك غالباً على قلب انسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يصرفه من عمارة الباطن الى عمارة الظاهر، ثم أن بعض ذلك يجره الى بعض، حتى يموت وهو في تصرف الشيطان، فيخشى عليه من سوء الخاتمة نعوذ بالله منه.

ومنها: الشبع بالطعام وان كان حلالاً صافياً، فان الشبع يقوي الشهوات وهي أسلحة الشيطان.

ومنها: الطمع في الناس، فإذا غلب هو على القلب لم يزل الشيطان يحسن التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرثاء والتلبيس، حتى يصير المطموع فيه كأنه معبود، و يدخل كل مدخل للوصول الى ذلك؛ وأقل أحواله: الثناء عليه بما ليس فيه، والمداهنة معه بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومنها: العجلة وترك التثبت في الأمور، اذ الواقع بعد التأمل يصير على وجه الصواب، وبالعجلة يمنع الشيطان ذلك و يروج شره من حيث لا يدري.

ومنها: الدنانير والدراهم وسائر الأموال، وذلك لأن من معه قوته فقط فهو فارغ القلب، فإذا وجد مائة دينار على الطريق انبعث من قلبه عشر تحتاج كل واحدة الى مائة دينار، مثلاً: يشتري بها داراً يعمرها وجارية وأثاثاً وثياباً فاخرة، وكل ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به، وذلك لا آخر له، فيقع في هاوية آخرها الموت، وكان عندما حصل قوته فارغ القلب، ثم اذا وجد ديناراً يظن أنه صار غنياً بعد ما كان فقيراً وليس كذلك بل هو على عكس ذلك.

ومنها: البخل وخوف الفقر لأنهما يمنعان من التصدق.

ومنها: التعصب للمذاهب والأهواء، وهو به فرح مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشيطان، حتى أن منهم من يطعن في مذهب الشافعي، ومنهم من يطعن في مذهب أبي حنيفة، وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان أهلك الله به كثيراً من العلماء.

ومنها: تحريض العوام على التفكر في ذات الله وصفاته، حتى يشككهم به في أصل الدين، أو يخيل اليهم في الله خيالات فاسدة يتعالى الله عز وجل منه، فيصير به كافراً أو مبتدعاً وهو به فرح ومسرور ومبتهج بما وقع في قلبه، و يظن أن ذلك هو المعرفة والبصيرة، وانكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله، وانما حق العوام أن يشتغلوا بعبادتهم ومعاشهم و يتركوا العلم الى العلماء.

ومنها: سوء الظن بالمسلمين، اذ عند ذلك بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك، أو يقصر عن القيام بحقوقه، أو يتوانى في اكرامه، أو ينظر اليه بعين الاحتقار و يرى نفسه خيراً منه، وكل ذلك من المهلكات. فهذا

بعض مداخل الشيطان الى القلب ولو أردنا استقصاء جميعه لم نقدر عليه، وفي هذا القدر ما ينبه على غيره.

ثم أن علاج ذلك سد هذه المداخل وذلك يطول ذكره، وسنذكره ان شاء الله تعالى.

ثم أن القلب اذا غلبت عليه الشهوات يستقر الشيطان فيه، ولا يتمكن الذكر من سويدائه بل يرجع الى حواشيه، وأما اذا صفا وخلا عن الشهوات ربما يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها عن الذكر، فإذا ذكر خنس الشيطان.

المطلب السابع
في أحوال الشيطان

صح بنور الاستبصار وشواهد الأخبار أن الشياطين جنود مجندة ولكل من المعاصي شيطان يخصه و يدعو اليه، ولا يمكن تفصيل ذلك. والدليل الأجمالي: أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب.

وأما الملائكة فكذا، ويختص كل واحد منهم بعمل، وسيجيء ذلك.

ثم أن الملك والشيطان لهما صورتان حقيقيتان لا يدرك ذلك الا بنور النبوة، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبرئيل عليه السلام في صورته الحقيقية مرتين، وكان يراه في صورة دحية الكلبي غالباً وكان رجلاً حسن الوجه.

وأما الأولياء فانما يكاشف لهم في اليقظة مثل ما يراه النائم في نومه، وهم الذين انتهوا الى رتبة لا يمنعهم اشتغال الحواس بالدنيا عن مشاهدة قلبه عالم الملكوت، وهذا مثاله لا حقيقته.

وتحقيقه: ان عالم الشهادة كلها خيال، الا أن الخيال تارة يحصل من النظر

الى ظاهر عالم الشهادة بالحس فحينئذ يرى الصورة دون المعنى، ولهذا قد تخالف الصورة المعنى؛ كما اذا رأيت شخصاً جميل الصورة قبيح الباطن. ويحصل تارة من اشراق عالم الملكوت على باطن سر القلب فلا تكون الا محاكية للصفة وموافقة لها لأن الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفة، فلا جرم يرى المعنى القبيح في صورة قبيحة، كرؤية الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيره؛ و يرى الملك في صورة جميلة، فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق، وبهذا الطريق يمكن تعبير الرؤيا.

المطلب الثامن

في القدر المعفو عنه من الوسوسة

وأعلم: أن لها مراتب أربع قبل العمل بالجوارح:

أولاها: الخاطر، وهو حديث النفس.

وثانيتها: الميل وحركة الشهوة التي في الطبع

وثالثتها: الاعتقاد والحكم بأن هذا ينبغي أن يفعل.

ورابعتها: الهم، وهو: العزم وجزم النية، فأما أن يندم فيترك، أو يغفل لعارض فلا يعمل، أو يعوقه عنه عائق.

والأولان من هذه الأربع لا يؤاخذ بهما العبد لعدم دخولهما تحت الاختيار، و يسميان: حديث النفس؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «عفى عن امتي ما حدثت به نفوسها».

وأما الثالث: فهو الاعتقاد ان كان اختيارنا يؤاخذ به والا فلا.

وأما الرابع: وهو الهم بالفعل، فأنه يؤاخذ به، الا أنه ان لم يفعل خوفاً من الله تعالى وندماً على همه كتبت له حسنة لأن ترك السيئة حسنة، لأن الهم على وفق الطبع لا يدل على تمام الغفلة عن الله، فجده في الامتناع عنه يدل على طاعته لله تعالى فكتبت له حسنة. وأما أن عاق عنه عائق أو تركه عذراً لا

خوفاً من الله عز وجل كتبت عليه سيئة، فإن همه فعل اختياري الا أن يكفره بحسنة.

المطلب التاسع
في بيان الوسواس هل ينقطع عند الذكر بالكلية أم لا

منهم من قال بانقطاعه؛ ومنهم من قال: لا ينقطع ولكن لا يؤثر؛ ومنهم من قال: لا ينقطع و يؤثر لكن على ضعف، ومنهم من قال: ينقطع بلحظة والذكر والوسوسة يتعاقبان؛ ومنهم من قال: لا ينقطعان في لحظة أصلاً بل القلب يكون مجرى لهما في كل حال.

والمذهب الصحيح: ان كل واحد من هذه الأقوال بالنظر الى صنف من أصناف الوسوسة وهي ثلاثة:

الصنف الأول: تلبيس الحق، مثلاً يقول: لا تترك اللذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات ألمه عظيم، فعند ذلك اذا قال العبد الصبر عن الشهوات شديد والصبر على النار أشد منه خنس الشيطان، اذ لا يستطيع أن يقول: ليس النار أشد منه، فأن ذلك أمر وجداني، ولا أن يقول: المعصية لا تفضي الى النار، فأن ايمانه بكتاب الله يدفعه؛

ومثلاً يقول للعجب: أي عبد يعرف الله كما تعرفه و يعبده كما تعبده، فما أعظم مكانك عند الله، فإذا تذكر العبد أن معرفته وقدرته وقلبه كلها من خلق الله فمن أين يعجب به خنس الشيطان، اذ لا يستطيع انكاره.

الصنف الثاني: أن يوسوس بتحريك الشهوة وتهييجها، فإن علم العبد أن ذلك معصية يجب تركها خنس عن تهييج يؤثر في التحريك دون أصل التهييج، وان ظن أنه معصية ربما يبقى مؤثراً أو يحتاج في دفعه الى مجاهدة.

الصنف الثالث: أن يوسوس بمجرد الخواطر، وتذكر الأحوال الغائبة، والتفكر في غير الصلاة مثلاً، فإذا ذكر الله تصور أن يندفع ساعة و يعود و يندفع

ويعود فيتعاقبان، وبعيد أن يندقع هذا الصنف بالكلية، وليس محالاً في القلب الذي استولى عليه حب الله عز وجل ولا يخطر بباله غير حديث محبوبه.

المطلب العاشر

بيان سرعة تقلب القلب

اعلم: أن القلب تكتنفه الصفات المهلكة، وتنصب اليه الآثار والأحوال من الأبواب التي ذكرناها، فإذا أثر فيه أحدهما أصابه من جانب آخر ما يضاده فيغير وصفه؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾[1]. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؛ قيل: وتخاف يا رسول الله، قال: «ما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»؛ وكان يحلف ويقول: «لا ومقلب القلوب».

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

أحدها: قلب عمر بالتقوى وزكي بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق، تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت وتمده بجنود لا ترى، ويهدي به الى خيرات أخر حتى ينجز الخير الى الخير، وكذلك على الدوام لا يتناهى امداده بالترغيب في الخير وتيسير الأمر عليه.

وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية، حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء.

وثانيها: قلب المخذول المشحون بالهوى المدنس بالخبائث الملوث بالأخلاق الذميمة، ويكون عقله قد ألف خدمة الهوى واستمر على استنباط الحيل له فينشرح بالهوى، ويوحي القلب زخرفاً من القول غروراً فلا ينكشف بعقله

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٠.

أيضاً وجه الصواب، فيبقى في ظلمات بعضها فوق بعض. واليه يشير قوله تعالى: «أرأيت من اتخذ الهه هواه».. الى قوله تعالى: ﴿سبيلاً﴾[1].

وربما يكون قلبه الى بعض الأمور على التقوى والى بعضها على الهوى؛ كالذي يتورع عن بعض الأشياء ولكنه اذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه، واذهب عقله ولبه، وانفتحت له أبواب الجاه والرياسة والكبر؛ أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب.

وثالثها: قلب يبتدىء فيه خاطر الهوى فيدعوه الى الشر فيلحقه خاطر الايمان فيدعوه الى الخير، واذا نصحه العقل يرده الشيطان، فلا يزال القلب يتردد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين الى أن يغلب أحدهما: أما محاكم العقل ان غلب على القلب جند الصفات الملائكية، أو حاكم الشهوة أن غلب جند الصفات الشيطانية. وكل ذلك تابع لسابق القضاء: فمن خلق للجنة يسرت له الطاعات وأسبابها، ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعصية. ومع ذلك يقول له الشيطان: أن الله غفور رحيم فلا تبال، وان العمر طويل فأصبر حتى تتوب غداً ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غروراً﴾[2]. فكل ذلك بقضاء الله وقدره: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[3]. فتعالى الله الملك الحق ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، آية: ١٢٠.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٥.

الأصل الثاني

رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

وفيه مطالب.

المطلب الأول

اعلم: أن الخلق عبارة عن هيئة راسخة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير حاجة ولا رو ية، فان صدرت عنها الأفعال المحمودة عقلاً وشرعاً يسمى خلقاً حسناً، وان صدرت عنها الأفعال الذميمة عقلاً وشرعاً كذلك يسمى خلقاً سيئاً.

وأمهات الأخلاق السيئة أربع: اختلال قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل.

وأعتدال هذه القوى هي الأخلاق الحسنة.

أما اختلال قوة العلم: أما بافراطها أو استعمالها في الأغراض الفاسدة و يسمى خبا وجربزة، أو بتفريطها و يسمى بلهاً. واعتدالها: هو الوسط الذي يسمى حكمة، وذلك بأن تصير النفس بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، و بين الحق والباطل في الاعتقادات و بين الجميل والقبيح في الأفعال، وهي المراد بقوله تعالى: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً».

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٩.

واختلال القوة الغضبية: أما الى طرف الزيادة ويسمى تهوراً، أو الى طرف الضعف ويسمى جبناً وخوراً. واعتدالها: بأن يقتصر انقباضها وانبساطها على حد ما يقتضيه الحكمة والعقل ويسمى شجاعة.

واختلال القوة الشهوية: اما الى طرف الزيادة ويسمى شرها، أو الى طرف النقصان ويسمى خموداً. واعتدالها: ان تكون تحت اشارة الدين ويسمى عفة.

واختلال قوة العدل: وهو الجور وليس له الا ضد واحد، واعتدالها: ضبط قوة الغضب والشهوة تحت اشارة العقل والشرع.

والطرفان من كل من القوى المذكورة رذيلتان، وخير الأمور أوساطها. ومن اعتدال هذه الأمور الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها، ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها الا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللناس بعده درجات متفاوتة، فمن ازداد اعتدالاً يكون ملكاً مطاعاً بين الناس، ومن اتصف باضدادها يكون شيطاناً ذا وسواس نعوذ بالله منه.

المطلب الثاني

في قبول الأخلاق التغيير بطريقة الرياضة

وقد أنكر التغيير بعض من غلبت الشقوة والبطالة عليه، ولم تسمح نفسه بأن تجرب ذلك لقصوره ونقصه، واستدل عليه بوجهين:

أحدهما: أن الخلق الباطن بمنزلة الخلق الظاهر واذ لا يتغير هذا فلا يتغير ذاك.

وثانيها: أن الغضب مثلاً من مقتضى المزاج والطبع وكذا الشهوة، فكيف يتبدلان.

فنقول: لو لم تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولم يكن لقوله صلى الله عليه وسلم: «حسنوا أخلاقكم» معنى، واذا أمكن تغيير أخلاق البهائم فالانسان بذلك أولى.

وكشف الغطاء فيه: أن قمع الغضب والشهوة بالكلية غير ممكن أصلاً، وانما الذي يمكن لنا بالرياضة تعديلها وصرفهما الى ما خلقا لأجله. نعم: الجبلات مختلفة بالسرعة والبطء في التغيير لأمرين:

أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود.

وثانيها: تأكده بكثرة العمل بمقتضاه ورؤيته مرضياً.

والناس فيه على أربع مراتب:

الأول: أن يخلو عن العلم بالقبيح والحسن وبقي على أصل فطرته، فهذا سريع القبول للعلاج، فان صادف مرشداً يحسن خلقه في أقرب زمان.

الثاني: أن يعرف القبيح وزين له سوء عمله ومع ذلك علم تقصيره، وهذا أصعب من الأول اذ تضاعفت فيه الوظيفة: بقلع ما رسخ فيه أولاً، وبغرس مواد الصلاح ثانياً.

الثالث: أن يعتقد الأخلاق القبيحة حقاً وجميلاً وتربى على ذلك، فهذا اعتقاد تمتنع معالجته، ولن يرجى صلاحه الا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

الرابع: أن يكون نشؤه على الرأي الفاسد ومع ذلك يرى الفضل فيه ويتباهى به. وهذا أصعب المراتب، وهو المراد بما قيل من التعذيب تهذيب الذيب. فالأول جاهل، والثاني جاهل وضال، والثالث جاهل وضال وفاسق، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير.

واذا عرفت هذا، فاعلم: أن ما قيل: ان الآدمي ما دام حياً لا تنقطع منه الشهوة والغضب فلا مطمع في استئصالها، فغلط طائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمعها بالكلية، وليس كذلك، بل المقصود تعديلها، وكيف يقمعان ولو انقطع عن الانسان شهوة الطعام لهلك جوعاً، أو شهوة الوقاع لأنقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يقدر على دفع المهلكات البدنية والدينية.

المطلب الثالث

ان الاعتدالات المذكورة؛ قد تكون فطرية: بأن يخلق انسان كامل الفطرة، وسلطان الشهوة والغضب فيه يصير منقاداً للعقل والشرع، كالأنبياء عليهم السلام؛ وقد تكون بالرياضة: بأن يؤمر بالبذل لمن في طبعه حب المال، وبالتواضع لمن فيه الكبر وحب الجاه، وغير ذلك؛ وهذه الرياضة الى أن يصير الخلق المحمود عنده سهلاً لا متكلفاً.

ولما كان بين القلب والجوارح علاقة عجيبة يظهر أثر كل منهما في الآخر، بأن يتصور القلب الخلق المحمود ويكلفها للبدن، ثم بمواظبة البدن على ذلك الخلق يتأدى أثره الى القلب، الى أن ينقلع عنه حب الدنيا ويترسخ فيه حب الله الذي هو أصل كل سعادة. ولكن تأثر القلب من الأفعال انما يكون اذا داوم البدن عليها، ولهذا قيل: أفضل الأعمال أدومها وان قل.

ثم أن الشيخ الذي يطيب نفوس المريدين لا بد أن يكون مثل طبيب الأبدان، فأنه ان عالج الكل بعلاج واحد أهلكهم، فكذا الشيخ ينبغي أن ينظر في مرض المريد وحاله وسنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة. فان كان المريد جاهلاً يعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وان كان له مال حرام يأمره بتركه، وان رأى فيه الرعونة وعز النفس يأمره بأن يخرج الى السوق للكدية والسؤال اذ لا ذل فوقهما، الى غير ذلك.

ومن لطائف الرياضة أن الخلق المذموم ــ اذا قوي ــ ينتقل الى خلق آخر مذموم، ثم يتركه تدريجاً؛ كمن يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء اذا كان الماء لا يزيل الدم؛ مثلاً: يرغب الصبي أولا بالكرة والصوجان، ثم ينتقل من اللعب الى الزينة وفاخر الثياب، ثم منها الى الرياسة الدنيوية وطلب الجاه، ثم منها الى رياسة العلم، ثم منها الى رياسة الآخرة. وكل هذه الوسائل مذمومة لكن يختار للتدرج وسهولة تحصيل الكمال.

المطلب الرابع

أعلم: أن كل عضو له فائدة، وفائدة القلب الحكم والمعرفة، واصل المعارف معرفة الله سبحانه وتعالى لأنه موجدها ومخترعها، وعلامة المعرفة المحبة، وعلامة المحبة أن لا يؤثر الدنيا عليها ولا غيرها من المحبوبات، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، فمن كان في قلبه حبها فليعرف أن قلبه مريض فليشتغل بعلاجه.

ثم معرفة كل مرض على الخصوص لا يمكن الا بأربع طرق:

الأول: أن يحكم شيخاً بصيراً بعيوب النفس مطلعاً على خفايا الآفات، وهذا قد عز وجوده في هذا الزمان.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، لو ينصبه رقيباً على نفسه لينبه على عيوبه الباطنة.

الثالث: أن يستفيد عيوب نفسه من لسان أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوي، والانتفاع بعد ومشاحن ربما يكون أكثر من الانتفاع بصديق مداهن.

الرابع: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم ينسبه الى نفسه فان المؤمن مرآة المؤمن فيتركه. قيل لعيسى عليه السلام: من أدبك، قال: ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل فجانبته.

ومجمل القول في باب الرياضة: أن يترك الانسان من أمور الدنيا ما لا يوجد في القدر الا بقدر الضرورة، لئلا تألفها النفس وتتمنى العود الى الدنيا، ومن يتمنى ذلك لا حظ له في الآخرة.

فالقلوب في الآخرة اربعة أنواع:

الأول: رجل استغرق قلبه ذكر الله فهو من الصديقين.

والثاني: من استغرق حب الدنيا قلبه فهو من الهالكين.

والثالث: اشتغل بالدنيا والدين والغالب عليه الدين فلا بد له من ورود

النار، الا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله عليه.

والرابع: اشتغل بهما جميعاً والغالب عليه الدنيا، فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها آخر.

فإن أخطرت بالبال: أن الدنيا مباح فليس فيها مباح، قلت: الكلام في حبها، والفاضل على قدر الحاجة لما لم يكن خالياً عن الحب ـــ والا لما اقتناها ـــ تمكنت فيه شهوة الحب أيضاً فنعوه.

المطلب الخامس

في رياضة الصبيان

وأعلم: أن نفوسهم ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، فان عود الخير يصير سعيداً و يثاب والداه، وأن عود الشر يصير شريراً و يصير الوزر لوالديه.

فعلى الأب أن يحفظه من القرناء السوء، ولا يحبب اليه الزينة والرفاهية فيهلك هلاك الأبد اذا كبر، وترضعه امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال والا انعجنت طينته من الخبث.

واذا بلغ سن التميز: فان رأيت فيه الحياء عن القبائح، فذلك دليل قوة عقله و يدل على حسن أخلاقه. و يقبح عنده شره الطعام، وأن لا يأخذ الا بيمينه، و يسمى الله عند أكله، و يأكل مما يليه، ولا يبادر على الطعام قبل غيره، ولا يحد النظر الى الطعام والى من يأكل، ولا يسرع في الأكل، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ولا يوالي بين اللقم، و يعود الخبز حتى يصير بحيث لا يرى الادام حتماً، و يقبح عنده كثرة الأكل وأنه فعل البهائم، و يذم عنده الصبي الكثير الأكل، ويحبب عنده ايثار الطعام غيره وقلة المبالاة به.

ويحبب من الثياب البيض. و يذم من لبس الملون والابريسم، و يقرر عنده ان ذلك شأن النساء والمخنثين ويحفظه عن الصبيان المترفهين.

ثم يرسل الى المكتب و يعلم القرآن والحديث وأخبار الصالحين لينغرس في

قلبه حبهم، ويمنعه عن أشعار فيها عشق وأهله الذين يزعمون أن العشق من الظرف ورقة القلب، فان ذلك يغرس في قلوبهم بذر الفساد.

ثم اذا ظهر من الصبي خلق حسن ينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدحه بين أظهر الناس. فإذا غفل عنه في وقت لا يهتك ستره بل يتغافل، فان عاد يعاتب عليه سراً و ينفره عن العودة والا يفتضح عند الناس، ولا يكثر عليه العتاب لئلا يعتاد الملامة ويمنع عن نوم النهار لأنه يؤديه الى الكسل، ولا يمنعه ليلاً، ولا يعوده الفرش الوطيئة حتى يتصلب أعضاؤه، و يعوده المشي والحركة حتى لا يغلب عليه الكسل.

و ينبغي أن يعوده أن لا يفتخر على أقرانه بمال والده أو ملابسه أو لوحه ودواته، و يعوده التواضع والاكرام والتلطف في الكلام، ويمنعه عن أن يأخذ شيئاً من أحد وأنه ذل ولؤم، وان الكرم والرفعة في العطاء، و يقبح له حب الذهب والفضة فان ذلك مهلك، و يعلمه أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضرب كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده فأنه علامة الكسل، ولا يستدبر غيره، ولا يكثر الكلام فأنه وقاحة وانه عادة أبناء اللئام، ويمنع اليمين ولو صدقا حتى لا يتعوده في الصغر، ولا يتكلم الا جواباً أو بقدر السؤال، و يستمع لمن يتكلم ممن هو أكبر سناً منه، وأن يقوم لمن فوقه و يوسع له في المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب، ويمنعه من القرناء السوء.

و ينبغي أن لا يكثر الصراخ والاستشفاع اذا ضربه المعلم بل يصبر عليه، وان الصبر من دأب الشجعان والرجال وكثرة الصراخ من دأب المماليك والنسوان. و يترك بعد الفراغ من المكتب يلعب لعباً جميلاً ليستريح من تعب المكتب، ولا يدعه يتعب في اللعب، و يعلمه طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً، و ينظر اليهم بعين التعظيم ولا يلعب بين أيديهم.

ومهما بلغ سن التميز لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، و يأمر بالصوم في بعض الأيام في رمضان، و يعلم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع، ويخوف

من السرقة وأكل الحرام والكذب والخيانة والفحش.

فإذا قارب البلوغ يذكر أن الأطعمة أدوية في أن يتقوى الانسان بها عبادة الله تعالى، والنعيم كله ينقطع بالموت، وان الدنيا دار ممر لا دار مقر، وان العاقل من عمل للآخرة حتى يعظم عند الله درجته و يتسع في الجنان نعمته.

قال سهل التستري: كنت أشاهد قيام خالي محمد بن سوار في الليالي وأنا ابن ثلاث سنين، فقال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك، قلت: كيف أذكره، فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك من غير أن تحرك به لسانك ثلاث مرات: الله معي، الله ناظر الى، الله شاهدي، فقلت ذلك ليال، فقال: قل سبع مرات، فقلتها ليال، قال: قل احدى عشرة مرة، فقلتها، فوقع في قلبي حلاوة الذكر. وبعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر، فأنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنتين، فوجدت حلاوته في سري؛ ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وشاهده وناظراً اليه أيعصيه، اياك والمعصية. فكنت أخلو بنفسي حتى شرطت المعلم أن أذهب اليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، حتى حفظت القرآن وأنا ابن ست أو سبع سنين. وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة حتى أتيت البصرة وسألت علماءها فلم يشق أحد عني شيئاً، فخرجت الى أبي حبيب حمزة بن عبد الله العباداني بعبادان فأجابني عنها، فأقمت عنده مدة انتفعت بكلامه وأدبه، ثم رجعت الى تستر، فجعلت أشتري فرقاً من الشعير بدرهم واكتفيت به سنة، ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم خمساً ثم سبعاً ثم سبعاً ثم خمساً وعشرين، ومرت عليَّ ذلك عشرون سنة، ثم خرجت أسيح في الأرضين سنين، ثم رجعت الى تستر فكنت أقوم الليل كله.

المطلب السادس
في شرائط السلوك

اعلم: أن المانع من الوصول عدم السلوك عدم الارادة. والمانع من الارادة عدم الايمان، والمانع من الايمان عدم الهداة المذكرين المنبهين على حقارة الدنيا وعظم الآخرة.

والسد بين الحق والمريد أربعة:

أولها: حجاب المال: و يرتفع ذلك بتفريقه الا قدر الضرورة، ومن له درهم واحد يلتفت اليه قلبه فهو محجوب عن الله تعالى.

وثانيها: حجاب الجاه. ورفعه بالبعد عن موضع الجاه، و بإيثار الخمول وأعمال تنفر الخلق.

وثالثها: حجاب التقليد. بأن يترك التعصب للمذاهب و يدفع كل معبود سوى الله سيما الهوى.

وبعد رفع هذه الحجب يتحصن بأمور أربعة:

أحدها: الجوع. فأنه ينقص دم القلب و يبيضه، وفي بياضه نوره، و يذهب شحم الفؤاد وفيه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة. ومتى نقص دم القلب ضاق مسلك العدو.

وثانيها: السهر. فأنه يجلي القلب و يصفيه و ينوره، واذا انضاف اليه صفاء الجوع يصير القلب كالكوكب الدري والمرآة المجلوة، فيلوح فيه جمال الحق و يشاهد فيه رفيع الدرجات. والسهر نتيجة الجوع فأنه مع الشبع غير ممكن، والنوم يقسي القلب ويميته، الا اذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب.

وثالثها: الصمت. و يسهله العزلة، ولا يتكلم الا بقدر الضرورة فان

الكلام يشغل القلب، وشر الكلام للقلب عظيم، وانه يستروح اليه و يستثقل التجرد للذكر والفكر.

ورابعها: الخلوة. وفائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر الا قدر الضرورة. واذا سدت الحواس تتفجّر ينابيع الغيب من حياض الملكوت و ينصب الى القلب، فلا بد في الجلوس في مكان مظلم، والا فليلف رأسه في الجيب فعند ذلك يسمع نداء الحق و يشاهد جلال حضرة الربوبية.

و بعد التحصن بهذه الأمور يشتغل بعده بسلوك الطريق، وذلك بقطع عقبات القلب التي سببها الالتفات الى الدنيا. واذا حصل قلبه مع الله وتجلى له الحق، وظهر له من لطائف رحمة الله ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط الوصف به أصلاً، فعند ذلك أعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصحاً، فليحذر منه فأنه من أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق، الا أن يكون محركه على ذلك هو الحق، فحينئذ ينبغي أن يعظم فرحه الا أنه عزيز الوجود جداً، فينبغي أن يكون المريد على حذر منه.

هذا الذي ذكرناه في هذين الأصلين معالجة كلية الى طريق تهذيب الأخلاق، وأما تفصيلها فيأتي في الأصول الباقية ان شاء الله تعالى.

الأصل الثالث

في كسر الشهوتين شهوة البطن والفرج

وفيه مطالب:

المطلب الأول

فضيلة الجوع

لا تخفى على أولي الأبصار وقد كثر ذكرها في الأخبار. قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه»؛ وقال: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت اذا كثر الماء»؛ وقال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، وحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فان كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس».

ثم أن في الجوع عشر فوائد:

الأولى: صفاء القلب ونفاذ البصيرة، فان الشبع يورث البلادة بالأبخرة المتصاعدة الى الدماغ و يعمى القلب.

الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لأدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر.

الثالثة: الانكسار والذل وزوال الفرح والبطر والأشر الذي هو مبتدأ الطغيان والغفلة عن الله، ولا تنكسر النفس ولا تذل كما تذل بالجوع، فأن عنده يتمسكن لربه ويخشع له، و يقف على عجزه وذله لما ضاقت حيلته بلقمة طعام فاتته وأظلمت عليه الدنيا بشربة ماء تأخرت عنه.

الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه فيتذكر عذاب الآخرة و بلاءها.

الخامسة: وهي أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصي، فان منشأ المعاصي كلها الشهوات، وتندفع به شهوة الكلام وآفاته: من الكذب والغيبة والفحش والنميمة، وشهوة الفرج والجوع يكفي شرها، وغير ذلك من الشهوات للأعضاء الخمسة الباقية من الأعضاء السبعة.

السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فان من شبع شرب كثيراً ومن كثر شربه كثر نومه، ومن كثر نومه ضاع عمره وتبلدت طبيعته وقسا قلبه.

السابعة: تيسر المواظبة على العبادة فان الأكل والمرض يمنع منها.

الثامنة: صحة البدن فان سبب الأمراض كثرة الأكل، والمرض ينغص العيش ويمنع من الذكر والفكر.

التاسعة: خفة المؤونة، لأن من تعود الشبع يتقاضاه بطنه فيقول: ماذا تأكل اليوم، فتدخل المداخل من الشبهات والحرام، أو يتعب في الحلال ويمد يد الطمع الى الخلق.

العاشرة: أن يتمكن به من الايثار والتصدق بما فضل من الأطعمة الى اليتامى والمساكين.

المطلب الثاني
طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

وللمريد فيه أربع وظائف:

الوظيفة الأولى: أن لا يأكل إلا حلالاً، اذ العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحر.

الوظيفة الثانية: أن يقلل الطعام على التدريج، اذ النقص دفعة ربما يؤدي الى اختلال المزاج، مثلاً: أن كان يأكل رغيفين، كل يوم ربع رغيف، وهو:

اما جزء من ثمانية وعشرين جزءاً أو من ثلاثين جزءاً، فيرجع الى رغيف في شهر ولا يتضرر به. **ثم في نقص القوت أربع درجات.**

الدرجة الأولى: أن يرد نفسه الى القدر الذي لا يبقى دونه، وهو عادة الصديقين. وهو اختيار سهل التستري، وقال: أستعبد الله الخلق بثلاث: بالحياة والعقل والقوة، فإن خاف العبد على الأولين أكل وأفطر ان كان صائماً، و يكلف الطلب أن كان فقيراً، وان خاف على القوة فقط فينبغي أن لا يبالي، ولو ضعف حتى صلى قاعداً ورأى صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع قوة الأكل.

الدرجة الثانية: أن يرد الى نصف مد في اليوم والليلة، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه منا، و يشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثر كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم، وهو فوق اللقيمات لأنها جمع قلة لما دون العشرة. وكان ذلك عادة عمر رضي الله عنه اذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم.

الدرجة الثالثة: أن يرد نفسه الى مقدار مد وهو رغيفان ونصف، وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين و يكاد ينتهي الى ثلثيه، و يبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر؛ وفي بعض الرواية: ثلث للذكر بدل النفس.

الدرجة الرابعة: أن يزيد على المد الى المن، و يشبه أن يكون ما وراء المن اسرافاً في حق الأكثرين.

وههنا طريق خامس: وهو أن يأكل اذا صدق جوعه، و يقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد، لكنه غلط اذ قد يشبه الشهوة الكاذبة بالصادقة لأن التميز بينهما مشكل.

وقد ذكر للجوع الصادق علاملات:

احداها: أن لا تطلب النفس اداما بل تأكل الخبز وحده بشهوة أي خبز كان، ومهما طلب خبزاً بعينه أو اداما فهو ليس بجوع صادق. وقيل: ان يبصق

فلا يقع عليه الذباب اذ لا يبقى فيه دهنية ودسومة، الا أن معرفة هذه العلامات مشكلة فالصواب للمريد أن يعمل بما ذكرناه من التقدير.

الوظيفة الثانية: في وقت الأكل ومقدار تأخيره، فيه أيضاً درجات:

الأولى: أن يطوي ثلاثة أيام فا فوقها، ومن المريدين من رد الرياضة الى الطي لا الى المقدار حتى انتهى بعضهم الى ثلاثين وأربعين يوماً، وقع ذلك عن كثير من السلف. وكان أبو بكر رضي الله عنه يطوي ستة أيام، وعبد الله بن الزبير سبعة أيام.

قال بعض العلماء: من طوى أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت، أي: كوشف ببعض الأسرار الالهية.

الدرجة الثالثة: أن يطوي يومين أو ثلاثة وهذا قريب الوصول وممكن الحصول.

الدرجة الرابعة: وهي أدناها، ان يقتصر على أكلة واحدة في اليوم والليلة وما جاوز ذلك اسراف مذموم. روى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغدى.

قيل: ومن اقتصر على أكلة واحدة في اليوم فيستحب أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر، فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام، وخلو القلب لفراغ المعدة، ورقة الفكر واجتماع الهم وسكون النفس الى المعلوم فلا تنازعه قبل وقته. فان كانت نفسه تنازعه بالطعام فيأكل نصفه بعد المغرب ونصفه بعد التهجد. ومن كان يصوم يوماً و يفطر يوماً فلا بأس أن يأكل يوم فطره وقت الظهر و يوم صومه وقت السحر.

الوظيفة الثالثة: في نوع الطعام ترك الادام. وأعلى الطعام: مخ البر، وان نخل فهو غاية الترفه، وأوسطه: شعير منخول، وأدناه: شعير لم ينخل. وأعلى الأدام: اللحم والحلاوة، وأدناه: الملح والخل، وأوسطه: المزورات بالأدهان من غير لحم.

وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الأدام على الدوام لئلا تأنس أنفسهم باللذات فيكرهوا الموت ولقاء الله.

و ينبغي أن يعلم ههنا أن ما ورد من مدح الجوع تارة والأمر بالاعتدال أخرى لا يتضادان، بل الطبع المعتدل الاليق به الجوع المفرط ليتعود الاعتدال، والا فالجوع المفرط في نفسه مذموم، وانما يمدح لترضي النفس بالاعتدال، وما وقع في الشرع من الاختلاف فبالنظر الى اختلاف الطبائع. ولهذا يأمر الشيخ المريد بالافراط في الجوع والاحتماء عن اللذائذ وهو الجوع و يتلذذ بالفواكه، ومما ينبغي أن يحترز عنه أن يشتهي شيئاً ويخفيه عن الناس، بل الأحب أن يظهرها، اذ الكذب مع الاخفاء كذبان فيكون مستحقاً لمقتين، ولا يرضى منه الا بتوبتين، ولذلك شدد أمر المنافقين لأن سره لكفره كفر آخر: استخف بنظر الله إلى قلبه، وعظم نظر المخلوقين. وأن يحترز أن يفرح بترك الشهوة و يشتهر بذلك، لأنه قد خالف شهوة الأكل وأطاع شهوة هي أشد منها وهي شهوة الجاه، وذلك كمن هرب عن عقرب الى حية، وشهوة الرياء بكثير من شهوة الطعام.

المطلب الثالث
في شهوة الفرج

ولها فائدتان:

احداهما: أن يقيس للذتها لذة الآخرة فيرغب فيها.

وثانيتها: بقاء النسل ودوام الوجود.

وفيها آفات ان لم تعتدل: أما افراطها بأن يجر الى اقتحام الفواحش، أو بأن يصرف همته التمتع بالنساء والجواري فيحرم عن سلوك طريق الآخرة. وقد ينتهي بطائفة الى تناول المقويات فيؤدي الى التنعم، و بطائفة أخرى الى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع، و يستسخر عقله لخدمة الشهوة وهو مخدوم لها لا خادم، والعشق مرض قلب فارغ لا همة له.

وإذا عرفت ذلك: فينبغي للمريد في ابتداء أمره أن لا يشتغل نفسه بالتزويج ليأمن الآفات المذكورة، ولا يترخص بكثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، اذ لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى، وكيف لا وقد كان يخشى أحياناً أن يسري احتراق قلبه من حب الله تعالى الى قالبه، ويقول: «كلميني يا عائشة» لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه، كما أنه لا يطيق الصبر عن الله اذا جالس الخلق، وكان يقول اذا ضاق صدره لذلك: «ارحنا يا بلال».

وهذا الذي ذكرناه اذا لم تغلبه الشهوة، وان غلبته فليكسرها بالجوع الطويل، وان كان مع ذلك لا يقدر على حفظ العين ــ وان قدر على حفظ الفرج ــ فالنكاح له أولى، وكذا ان لم يقدر على حفظ النظر عن الصبيان، بل ذلك أكثر في الشر من النساء اذ يمكن استباحتهن دونهم، والنظر الى الأمرد حرام ما لم يحصل عدم الفرق بين نظر الأمرد ونظر الخضرة والأزهار في اللذة، اذ لو مال اليهم أكثر منها صار النظر للشهوة لا للحسن.

الأصل الرابع
في آفات اللسان

وفيه مطلب:

المطلب الأول
في آفات الكلام فيما لا يعنيك

وهو أن تتكلم بكل مالو سكت عنه لم تأثم ولم تتضرر في حال أو مآل، كما اذا حكيت قوماً اسفارك وما رأيت فيها من جبال وانهار ومشائخ البلاد وأحوالهم، فأنك في ذلك مضيع أوقاتك وأوقات المستمعين ومحاسب على عمل لسانك، وان مزحت بحكاياتك زيادة أو نقصان وتزكية نفس فأنت آثم وكذا صاحبك؛ مثلاً: اذا سألت رجلاً: أنت صائم، فان سكت تأذيت، وان قال: لا، كذب، وان قال: نعم، استبدل سراً عمله جهراً فدخل عليه الرياء.

ومن آفات فضول الكلام وهو أن يزيد على قدر الحاجة وهو أيضاً مذموم وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر.

ومن الآفات: الخوض في الباطل ــ وهو الكلام في المعاصي، كحكايات أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك وأحوالهم المذمومة، وكل ذلك حرام لا يحل الخوض فيه.

وأما الكلام فيما لا يعني، أو أكثر فيما يعني، فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه، الا أنه يكره اذ لا يؤمن عليه الخوض في الباطل؛ مثل حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ومحاربات الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم.

ومن الآفات: المراء والمجادلة. وذلك منهى عنه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تواعده موعداً فتخلفه». ونظائر ذلك كثيرة في الأخبار. والمراء: اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه؛ وتركه: الانكار والاعتراض؛ والخلل: أما في اللفظ أو في المعنى أو قصد المتكلم. فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدقه، وان كان باطلاً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فأسكت عنه. ثم الخلل في اللفظ تارة يكون من قصور المعرفة، وتارة بطغيان اللسان وكيفما كان فلا وجه لاظهار خلله؛ وأما في المعنى بأن يقول: أخطأت فيه؛ وأما في قصده بأن يقول: الكلام حق ولكن قصدك منه ليس بحق.

وهذا الجنس ان جرى في مسألة علمية خص باسم الجدال، وهو أيضاً مذموم يجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا المجادلة والعناد والعنف. وآية ذلك: أن يكون تنبهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عنه، فالجواب: أن يسكت عن كل ما لا يأثم بتركه، والباعث على ذلك: اظهار الفضل، وهي من دعوى الغلو والكبرياء وتنقيص الغير، وهو مقتضى طبع السبعية. وأشد ذلك ما وقع في المذاهب والعقائد، اذ يظن عليه ثواباً فيتأكد الطبع بالشرع، وذلك خطأ محض. بل ينبغي للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، بل اللائق أن يتلطف في نصحه على خلوة، بل ربما تستمر البدعة في قلبه بالجدل اللهم الا أن يعرف ان النصح لا ينفعه أشتغل بنفسه وتركه.

ومن الآفات: الخصومة. وهي أيضاً مذمومة، وهو وراء المراء والجدال. فالمراء: طعن في كلام الغير لأظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة؛ والجدال: عبارة عن مراء يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها؛ والخصومة: لجاج في الكلام يستوفي به مالا أو حقاً مقصوداً، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً.

والمراء لا يكون الا باعتراض على كلام سبق، اللهم الا أن يخاصم لاظهار الحق بالشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاجة على قدر الحاجة ففعله ليس

بحرام، لكن الأولى تركه ما وجد اليه سبيلاً، اذ الخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب وبقي الحقد بينهما. وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى في صلاته، وكذا الحال في المراء والجدال. ومن اقتصر على الواجب في خصومته سلم عن الأثم، الا أنه عسير جداً فلهذا تكون تارة كاللآلي.

ومن الآفات: التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه، وهو التكلف الممقوت، ومنه: التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة والاسجاع المتكلفة؛ وانما مقصود الكلام تفهيم الغرض ووراء ذلك تصنع مذموم، الا أن يقصد الوعظ وتأثير القلوب فيأتي بالألفاظ الرشيقة.

ومن الآفات: الفحش والسب وبذاءة اللسان، وهو منهى عنه ومذموم. ومصدره الخبث واللؤم، مثل الكناية فيما يقبح ذكره: كالوقاع واللمس، وكذا قضاء الحاجة في الكناية عن التغوط والبول، ونحو أن يذكر زوجته بأن يقول: قالت أم الأولاد كذا، أو قال من بالحجرة، أو من وراء الستر كذا، وكذا يقول: الداء الذي يشكوه، في الجذام والبرص ونحوهما.

ومن الآفات: اللعن أما لانسان أو لحيوان أو لجماد وكل ذلك مذموم. واللعن طرد وأبعاد عن رحمة الله، وذلك غير جائز الا على من يتصف بصفة تبعد من الله وهو الكفر والظلم، بأن يقول: ألا لعنة الله على الظالمين أو على الكافرين. وأمر اللعنة خطر، ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف الأعم: كاللعن على الكافرين والمبتدعة والفسقة.

والثانية: اللعن بأوصاف أخص منه: كاللعن على اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والخوارج والروافض والزناة وآكلي الربا والظلمة ونحو ذلك، وكل ذلك جائز، الا أن في المبتدعة نظر لأن معرفة البدعة غامضة.

والثالثة: اللعن على الشخص. وذلك لا يجوز الا من ثبتت لعنته شرعاً كفرعون وأبي جهل. وأما اللعن على يهودي معين بأن يقال لعنه الله أن مات على الكفر فجائز. وأما اللعن مطلقاً فذلك مردد بين التقييد المذكور وعدمه ففيه

خطر، لأنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله تعالى فلا يكون ملعوناً، ولا يقاس هذا بقولك: رحمه الله لمسلم، لأن معناه: ثبته الله على الاسلام الذي هو سبب الرحمة، ولا يمكن أن يقال: ثبت الله الكافر على الكفر الذي هو سبب اللعنة. واذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق وعمرو المبتدع أولى، الا أن يقع اللعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي جهل واضرابه. وعلى الجملة: ففي لعنة الأشخاص خطر فليجتنب. ولا خطر في السكوت عن لعنة ابليس فضلاً عن غيره.

وأما لعن يزيد فالأسلم عدمه، اذ لم يثبت أنه قتله أو أمر به أو رضي به أو فرح به، وان ثبت ذلك فلم يثبت انه مات بلا توبة، نعم: ان قال: قاتل حسين رضي الله عنه ان مات بلا توبة لعنه الله.

ومن الآفات: الشعر، لأنه كلام: حسنه حسن وقبيحه قبيح، الا أن التجرد له مذموم. نعم: انشاده ونظمه ليس بحرام ما لم يكن فيه كلام مكروه أو كذب. وأما المبالغة فمن صنعة الشعر، وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيه مبالغة.

ومن الآفات: المزاح. وأصله مذموم منهى عنه الا قدراً يسيراً يستثنى منه وهو المداومة، لأنها اشتغال باللعب والهزل، واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة. وأما الافراط فيه فأنه يوجب كثرة الضحك المميت للقلب، و يورث الضغينة أحياناً، و يسقط المهابة والوقار، فما يخلو عن هذه الأمور لا يذم، وهو الذي يقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال: «اني لأمزح ولا أقول الا حقاً». الا أن غيره ان فتح عليه الباب كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان فيذم.

ومن الآفات: السخرية والاستهزاء. وهذا محرم مهما كان مؤذياً، ومعناها: الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون بالمحاكاة في الفعل وفي القول، وقد يكون بالاشارة والايماء. واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة، ومنها

الضحك على خطه وعلى كلامه وصنعته وصورته وخلقته، أما اذا كان المستهزأ به ممن جعل نفسه مسخرة لا يتأذى به بل يفرح يكون من قبيل المزاح وفي حكمه.

ومن الآفات: افشاء السر. وهو منهي عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء، وهو حرام اذا كان فيه أضرار، ولؤم اذا لم يكن فيه أضرار.

ومن الآفات: الوعد الكاذب. فإن اللسان سباق الى الوعد، والنفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً، وذلك من أمارات النفاق.

ومن الآفات: الكذب في القول واليمين. وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب الا فيما لا يمكن التوصل الى أمر محمود الا به، فان الكلام وسيلة الى المقاصد، فكل مقصود محمود أمكن التوصل اليه بالصدق والكذب معاً فالكذب فيه حرام، وان كان التوصل اليه بالكذب فقط فالكذب مباح ان كان المقصود مباحاً، وواجب ان كان واجباً؛ مثلاً: اذا كان في الصدق سفك دم مسلم مظلوم فالكذب واجب، وان لم يكن اصلاح ذات البين الا بالكذب فهو مباح. الا أنه لا يفتح هذا الباب الا بقدر الضرورة لئلا تتعود النفس بذلك، وأيضاً فيه غرور كثير، اذ قد يكون الباعث حظه وغرضه. فليعلم أن المقصود: هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا، وذلك غامض جداً، فالحزم في تركه الا أن لا يجد رخصة في تركه أصلاً.

ومن ذلك القبيل: خطأ من ظن جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب، وهذا خطأ عظيم، اذ هذا الغرض لا يقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن ذلك من أكبر الكبائر لا يقاومها شيء.

ثم أن السلف قالوا: ان في المعاريض مندوحة عن الكذب، روى ذلك عن ابن عباس وغيره، وكذا عن عمر رضي الله عنه ــ اذا دعاه حاجة، والا فلا يجوز التصريح والتعرض معاً. ولكن التعريض أهون كقولك: الله يعلم، ما قلت من ذلك من شيء، فكلمة ما عندك للابهام و يتوهمه المستمع حرف النفي.

وكان ابراهيم اذا طلبه في الدار من يكره قال للجارية: قولي له أطلبه في المسجد، وكان لا يقول: ليس هو ههنا كيلا يكون كاذباً.

وكان الشعبي يخط خطاً ويقول للجارية: ضعي اصبعك فيها وقولي: ليس هو ههنا. وهذا كله في موضع الحاجة والا فهو مكروه لأنه تفهيم الكذب.

الا أن الحاجة في المعارض خفيفة؛ كتطييب قلب الغير بالمزاح، كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الجنة عجوز وفي عين زوجك بياض»؛ «ونحملك على ابن البعير» وما أشبهه.

وأما صريح الكذب مطايبة فليس بفسق ولكنه يترك، كما يلاعب الناس الحمقاء بتغريرهم بأن امرأة رغبت في تزوجك فان كان فيه ضرر وايذاء قلب فهو حرام. ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق قولهم: طلبتك مائة مرة، اذ لا يريد تفهيم المرات بل الكثرة، فأن طلبه كثيراً لم يأثم. ومن ذلك القبيل قولهم: لا أشتهيه، اذا قيل له: كل الطعام، وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح.

ومن الآفات: الغيبة. وقد نص الله تعالى على ذمها وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، وقد ذمها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه؛ سواء ذكرت نقصاناً في بدنه أو في نسبه أو في خلقه أو في فعله وقوله، أو في دينه ودنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته. ثم إنها لا تقتصر على اللسان بل التعريض فيه كالتصريح، والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والرمز والغمز والحركة والكناية، وكل ما يفهم المقصود وكل ذلك حرام. ومن ذلك: ذكر المصنفين شخصاً معيناً وتهجين كلامه اللهم الا لعذر محوج الى ذلك.

ومن أخبث أنواعها قول القراء المرائين: الحمد لله الذي لم يبلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام عند ذكر شخص حاله كذلك؛ أو يقول نعوذ بالله من قلة الحياء فإن ذلك ذم الغير مع الرئاء؛ وكذلك ربما يقول: ما أحسن فلاناً لولا تقصيره في العبادات، ولكنه ابتلى بما ابتلينا، فيذم غيره ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين في ذم أنفسهم، فيغتاب ويرائي ويزكي نفسه؛

وكذلك يقول: ذلك المسكين قد ابتلي بكذا تاب الله عليه وعلينا، فيظهر الدعاء و يدعي الاغتمام.

وأسباب الغيبة أحد عشر:

أحدها: تشفي الغيظ بذكر مساوئه.

وثانيها: موافقة الأقران ومساعدتهم و يرى ذلك من حسن المعاشرة،

وثالثها: أن يستشعر من انسان أنه سيقصده و يطول لسانه فيه أو يقبح حاله عند محتشم فيبادره و يطعن فيه ليسقط أثر شهادته.

ورابعها: أن ينسب الى شيء فيذكر أن الذي فعله فلان وتبرأ منه، مع أن التبرؤ يحصل بأن لا يذكر الغير بشخصه.

وخامسها: أن ينسب النقص الى غيره و يقصد بذلك اثبات فضل نفسه.

وسادسها: أن يقدح عند من يحب ذلك الشخص حسداً لأكرامهم ومحبتهم.

وسابعها: أن يقصد اللعب والهزل والمطايبة و يضحك الناس عليه.

وثامنها: السخرية والاستهزاء استحقاراً له في الغيبة.

وتاسعها: أن يتعجب من فعله المنكر، وهذا من الدين لكن أدى الى الغيبة بذكر أسمه فصار مغتاباً من حيث لا يدري.

وعاشرها: أن يغتم لسبب ما يبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به، وغمه ورحمته خير لكن ساقه الى شر وهو الغيبة من حيث لا يدري.

والحادي عشر منها: الغضب لله على منكر قارفه انسان فيظهر غضبه و يذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضبه على فاعله ولا يظهر على غيره بل يستر اسمه.

وهذه الأسباب الثلاثة الأخيرة مما يغمض على العلماء فضلاً عن العوام.

اذا عرفت أسباب الغيبة، فأعلم أن علاجه على الجملة أن يتذكر مضرة الغيبة، وأنها تحط حسناته وتثقل حسنات غيره، وتنقل اليه من سيئاته فيدخل النار، وهذا بعد المطالبة والسؤال والحساب.

وعلاجه على التفصيل: أن ينظر في أسبابها و يعالجه بما مر من معالجات الأخلاق الذميمة: من الغضب والحسد والرثاء وغير ذلك.

وأعلم: أن من أنواع الغيبة الغيبة بالقلب، وهي سوء الظن، أي: عقد القلب والحكم بالسوء وذلك حرام. وأما الخواطر وحديث النفس بل الشك فعفو عنه أيضاً. وامارة سوء الظن وتمييزها عن حديث النفس: ان يتغير القلب معه عما كان، فينفر عنه نفوراً و يستقله، و يفتر عن مراعاته واكرامه. ومن ثمرات سوء الظن: التجسس، فيطلب التحقيق وهو منهى عنه.

واعلم: أن للغيبة اعذاراً مرخصة وهي ستة:

الأول: التظلم. وذلك لا يمكن بدون ذكر مساوىء من ظلمه.

الثاني: الاستغاثة لتغيير المنكر ورد العاصي الى منهج الحق.

الثالث: الاستفتاء حيث يقول: ظلمني فلان وما حكمه، الا أن الأولى أن يقول: ما تقول فيمن ظلم أحداً بكذا وكذا.

الرابع: تحذير المسلمين من شر أحد فلا بد من ذكره باسمه.

الخامس: أن يكون اسمه يعرب عن أبيه، كالأعرج والأعمش، فلا أثم على من يقول. نعم: لو أمكنه التعريف بغير ذلك فهو أولى، وربما يقولون للأعمى البصير عدولاً به عن اسم النقص.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق ولا يستنكف عن ذكره ولا يكره ذلك فلا اثم في ذكره بذلك.

وأما كفارة الغيبة: أن يندم و يتوب و يتأسف على ما فعله، ثم يستحل

المغتاب ليحله فيخرج عن مظلمته، و ينبغي أن يتحلله وهو حزين متأسف نادم على فعله. وأما الذي يستحل بلا ندم فهو مراء وذلك معصية أخرى، وما قيل: العرض لا عوض له كالمال، فلا يجب الاستحلال كلام ضعيف، اذا وجب في العرض حد القذف. ثم المراد بتحليل الغيبة: العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحلال حراماً كما ظن وقيل: ان التحليل غير ممكن.

ومن آفات اللسان: النميمة. وهي: أن ينم قول الغير الى المقول فيه؛ وقيل: كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه، أو كرهه ثالث؛ وسواء كان الكشف بالقول أو بالكنية أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأفعال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاناً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة: افشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه بل كل ما يراه الانسان من أحوال الناس فينبغي أن يسكت عنه الا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، فإن كان ما ينم نقصاناً وعيباً في المحكى عنه فهو غيبة ونميمة معاً.

والباعث على النميمة: أما ارادة السوء بالمحكى عنه، أو اظهار الحب للمحكى له، أو التفرج بالحديث، أو الخوض في الفضول، ونحو ذلك.

وأما الذي نم اليه فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه لأنه فاسق وهو مردود الشهادة.
الثاني: أن ينهاه عن ذلك و ينصحه.
الثالث: أن يبغضه في الله لأنه بغيض عند الله فلا يحب من أبغضه الله.
الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب سوءاً.
الخامس: أن لا يحملك كلامه على التجسس والبحث.
السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت عنه النمام فلا تحكي نميمته.

ومن آفات الكلام: كلام ذي اللسانين: الذي يتكلم لكل من المتعادين بكلام يوافقه، وذلك عين النفاق، وان نقل كلام واحد الى الآخر

فهو نمام، وان نقل كلام كل منهما الى الآخر فهو ذو اللسانين، وكذلك اذ وعد كل واحد منهما بأن ينصره أو اثنى على كل واحد في معاداته، وكذلك اذا أثنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين، بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحمود و يثني في حضوره وغيبته و بين يدي عدوه.

ومن الآفات: المدح. وله ست آفات: أربع في المادح واثنتان في الممدوح.

الأولى: قد يفرط فينتهي به الى الكذب.

الثانية: أنه قد يدخله الرثاء اذ لا يكون قلبه كذلك.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه.

الرابعة: أنه قد يمدح الظالم والفاسق.

الخامسة: أن يحدث في الممدوح كبراً واعجاباً وهما مهلكان.

السادسة: إن أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، فيقل تشمره للعمل لأنه يظن أنه قد أدرك النهاية.

ومن آفات الكلام: الغفلة عن دقائق الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته، كقولك: ما شاء الله وشئت، والصواب: ما شاء الله ثم شئت، لأن الواو تفيد التسوية بين الله تعالى وعبده؛ وكقولك: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، والصواب: ومن يعص الله ورسوله، ضمير التثنية تسوية وجمع، ونحو ذلك.

ومن الآفات: سؤال العوام عن الله تعالى وصفاته لأنه يؤدي الى الكفر، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادة والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسول، من غير بحث، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب يستحقون به المقت و يتعرضون لخطر الكفر.

الأصل الخامس
في ذم الغضب والحقد والحسد

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في الغضب

وقد ذمه الله تعالى ورسوله والصحابة والتابعون. وحقيقته: أن الله تعالى لما خلق الحروان معرضاً (للفساد ــ ١) والموتان، أنعم عليه بما يحميه من الفساد و يدفع عنه الهلاك الى أجل مسمى. ثم الفساد: أما من الداخل، وهو: أن في داخله حرارة ورطوبة؛ والحرارة تفني الرطوبة، فأمد الله تعالى الرطوبة بالأطعمة فخلق لأجلها شهوة الطعام؛ وأما من خارج: كالسيف والسنان وسائر المهلكات، فخلق الله لدفعها الغضب من النار وعجنه بطينته، واذا اشتعلت نار الغضب وثار ثورانا يغلي بها دم القلب و ينشر في العروق و يرفع الى أعالي البدن، ثم ينصب الى الوجه فيحمر الوجه والعين، والبشرة بصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم. هذا اذا غضب على من دونه وقدر عليه.

أما إذا غضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى باطن القلب وصار حزناً، و بذلك يصفر اللون.

وان كان على نظير يشك فيه تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمر و يصفر و يضطرب، و يسمى فوت مقتضى هذه القوة الانتقام.

ثم الناس في هذه القوة على درجات ثلاث، لأنه: أما مفرط وذلك مذموم و يقال فيه أنه لا حمية له، وقد وصف الله تعالى الصحابة بالشدة والرحمة وقال

سبحانه: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[1]، وقال الشافعي من استغضب فلم يغضب فهو حمار؛ وأما مفرط: وهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعتها، وذلك قد يكون طبيعية وقد تكون مكتسبة، بأن يخالط قوماً يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، وانما الاعتدال ـــ وهو أحسن الدرجات: أن ينتظر اشارة العقل والدين، فينبعث حيث يجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم، وهو الوسط الذي كلف الله عباده به، وهو الصراط المستقيم، وهو أدق من الشعر وأحد من السيف. فان عجز فليطلب القرب منه اذ بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض.

واثر هذا الغضب في البصيرة: أنه يعمى صاحبه ويصم عن كل موعظة بل زاد بالموعظة، ويتصاعد دخان مظلم الى دماغه بل الى معادن الحس فتظلم عينه وتسود عليه الدنيا بأسرها، وربما تقوى نار الغضب فتنفى الرطوبة التي بها الحياة فيموت صاحبه غيظاً.

وأما أثره في الصورة: تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف واضطراب الحركة، والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنفتح المناخر، ولو رأى الغضبان قبح صورته لسكن غضبه حياء منه.

وأما اثره في اللسان: فالشتم والفحش وقبائح الكلام الذي يستحي منه ذوو العقول بل قائله أيضاً عند فتور غضبه.

وأما أثره على الأعضاء: فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، وان عجز عن التشفي ربما يمزق ثوب نفسه ويلطم وجهه ويعتريه مثل الجنة، وربما يضرب الجمادات والحيوانات.

وأما أثره في القلب: فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساءة وغير ذلك. هذه آثار الغضب.

وأما آثار عدم الحمية: قلة الأنفة من التعرض للحرم، واحتمال الذل من الاختباء، وصغر النفس، ونحو ذلك.

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.

المطلب الثاني
في علاج الغضب

واعلم: ما هو ضروري للكافة، وهو القوت والمسكن والملبس الانسان ثلاثة:

الأول: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق؛ كالجاه والمال الكثير والغلمان وصحة البدن، كما قال صلى الله عليه وسلم: «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها». والغضب على من يتعرض هذا جائز لأنها ضرورته.

الثاني: أن الغضب لأخذ محبوبه أو لقصد مكروه له. ومحبوب والدواب، فان هذه صارت محبوبة بالعادة أو الجهل بمقاصد الأمور فالغضب على هذا ليس بضروري لأن حبه ليس بضروري، الا أن الجهال يحبون هذه و يتألمون لفوتها فإذا استكثارهم من الغم والحزن، اذ الدنيا معرض الآفات.

الثالث: ما يكون ضرورياً للبعض دون الآخرين؛ كالكتاب للعالم اذ هو مضطر اليه فيحبه و يغضب على من يحرقه و يغرقه، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب، فإن ما هو وسيلة الى القوت الضروري فلا يمنع من الغيظ استغناء غيره عنه.

وإنما الكلام في القسم الثاني، اذ يجب اخراج حبه عن قلبه بأن الدنيا معبر يعبر عليها و يتزود منها قدر الضرورة، وما وراء ذلك و بال عليه في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا و ينمحي حبها عن قلبه.

فإن قلت: لا يلزم من كون القسم الأول ضرورياً جواز الغضب عليه، بل يكتفي بالتألم ولا يغضب، والتألم غيره، كالفصد يتألم به ولا يغضب على الفصاد، وأيضاً: من غلب عليه التوحيد ورأى الأشياء كلها من الله لا يغضب على أحد من خلقه؛ مثلاً اذا وقع الملك بضرب رقبة أحد وهو لا يغضب على القلم الذي وقع الملك به، وكذا يندفع بأن الله لا يقدر له الا ما فيه الخيرة.

قلت: ما ذكره من الاكتفاء بالتألم حسن جداً، لكن الكلام في أن الغضب هناك معفو عنه وصاحبه معذور. وأما غلبة التوحيد فذلك كالبرق الخاطف ثم يرجع القلب الى الوسائط، وكذا الكلام في أن الخير ما قدر له.

المطلب الثالث

في معرفة أسباب الغضب ليعالج بأزالتها

وأسبابه: الزهو والعجب والفخر والمزح والهزل والتعبير والمماراة والمضارة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة يجب ازالة كل منها بما ذكرناه في مواضعها.

وأما معالجة الغضب بعد وقوعه بستة أمور:

الأول: ملاحظة الأخبار الواردة في فضيلة كظم الغيظ.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله سبحانه و يقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الانسان.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمر العدو لمقاتلته، والسعي في هدم أغراضه، والسماح لمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب. وبالجملة: يسلط قوة الشهوة على قوة الغضب.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند غضبه ومشابهته للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادىء بالأنبياء والحكماء والعلماء.

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الأمور على وفق مراد الله تعالى، فكيف يقول: مرادي أولى من مراد الله.

ثم معالجة الغضب بطريق العمل أن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتقول: اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأرحمني، وأذهب غيظ قلبي وأرني من مضلات الفتن. هكذا علم النبي صلى الله عليه وسلم عائشة عند غضبها. وان لم يزل بذلك فليجلس ان كان قائماً، أو يضطجع ان كان جالساً،

ويقرب من الأرض التي منها خلق ليعرف بذلك ذل نفسه. وأطلب بالاضطجاع والجلوس السكون، فان سبب الغضب الحرارة، وسبب الحرارة الحركة، وان لم يزل فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فان النار لا يطفئها الا الماء ــ كذا ورد في الحديث.

ثم **الناس في الغضب أربعة:** بعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود، وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو أجودهم ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهو شرهم.

المطلب الرابع
في الحقد والعفو والرفق

اعلم: أن الغضب اذا عجز صاحبه عن التشفي في الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً، ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة والنفار منه، وأن يدوم ذلك ويبقى. **والحقد يثمر ثمانية أمور:**

الأول: الحسد. وهو أن يحملك الحقد أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة ان أصابها وتسر بمصيبة ان نزلت به، وهذا من فعل المنافقين، وستعرف ذمه.

الثاني: أن تزيد في اضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تقطعه وتصارمه وان أقبل عليك.

الرابع: وهو دونه: ان تعرض عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر أو هتك ستر وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع: ايذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقه من صلة رحم أو قضاء دين أو رد مظلمة، وكل ذلك حرام.

ثم للحقود ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدها: أن يستوفي حقه ألذي يستحقه من غير زيادة ونقصان، وهو العدل، وهو اختيار الصالحين.

ثانيها: أن يحسن اليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل واختيار الصديقين.

وثالثها: أن يظلمه بما لا يستحقه، وهو اختيار الاراذل.

ثم **إن العفو:** هو أن تستحق حقاً فتسقطه وتتبرأ عنه، من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم. وكظم الغيظ فضيلته لا تخفى على أحد، سيما وقد ورد في مدحه الآثار والأخبار حتى مدحه الشعراء والحكماء بل المتقيدون بحكم الطبيعة، وبالجملة: لم ينكر فضيلته أحد من الطوائف.

وأما الرفق: فهو نتيجة حسن الخلق والسلاسة، كما أن ضده هو العنف، والحدة نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق نتيجة اعتدال قوة الشهوة والغضب. ولذلك ورد في الحديث: «يا عائشة من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة». ثم أن الرفق هو التوسط بين العنف واللين، ثم إن المشكل تمييز موضع العنف عن موضع الرفق، واذا لم يقدر أحد على التمييز فليكن ميله الى الرفق فإن النجح معه في الأكثر.

المطلب الخامس

في الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم: أن الحسد فرع الحقد، وهو فرع الغضب. وليس الحسد الا على نعمة: فأما أن تريد زوالها عن المنعم عليه وهو حرام، الا نعمة لفاسق أو ظالم

جعلها آلة للشر، لكن لا تريد زوالها من حيث أنها نعمة بل من حيث أنها آلة الفساد؛ أو لا تريد زوالها ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذا يسمى غبطة وهذه ليست بحرام، بل ربما تكون واجبة كما في نعمة العلم، أو مندوبة كما في نعمة التصدق، أو مباحة كما في النعم المباحة.

ومذمة الحسد في الآثار والإخبار بل في الطباع شهيرة لا تحتاج على تفصيلها. **وأما مراتبه فأربع:**

أحداها: أن يحب زوال النعمة عنه وان كانت لا تنتقل اليه، وهو غاية الخبث، وأنه مذموم محض.

وثانيتها: أن يحب زوال النعمة اليه فرغبته في تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو ولاية نافذة، وهذا أيضاً مذموم.

وثالثها: أن لا يشتهي عينها بل يشتهي لنفسه مثلها، فان عجز عن مثلها أحب زوالها، وهذا أيضاً مذموم الا أنه أخف من الثاني.

ورابعتها: أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم يحصل فلا يحب زوالها منه وهذا هو المعفو عنه ان كان في الدنيا، والمندوب اليه ان كان في الدين.

ثم أن للحسد أسباباً:

الأول: العداوة والبغضاء، وهذه أشد أسبابه.

الثاني: التعزز؛ وهو أن يثقل عليه أن يرتفع عليه غيره، ولا يريد التكبر بل غرضه أن يدفع كبره، وهذا اذا نال بعض أقرانه ولاية أو علماً أو مالاً وهو لا تحتمل نفسه صلفه وتفاخره فيتعزز عليه.

الثالث: أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه و يستصغره و يستخدمه و يتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف ألا يحتمل تكبره

و يترفع عن متابعته، أو ربما يتشرف على مساواته، أو الى أن يترفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه.

الرابع: التعجب؛ كما أخبر الله تعالى عن الأمم الماضية اذ: ﴿قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا﴾[1]، فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله بشر مثلهم، فسحدوهم وأحبوا زوال النعمة عنهم، جزعاً عن أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة وأسباب أُخر.

الخامس: الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود؛ واحد، وذلك مثل الضرات عند زوجهن والتلامذة عند الأستاذ.

السادس: حب الرياسة وطلب الجاه نفسه من غير توصل به الى مقصود؛ وذلك كتحاسد العلماء، فإن واحداً منهم لو سمع نظيره في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته وزوال نعمته من غير عداوة ولا تعزز ولا تكبر بينهما ولا خوف ما فوات مقصود.

السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله. واذا وصف له اضطراب أمور الناس وادبارهم وفوات مقاصدهم فرح به، فهو أبداً يحب الأدبار لغيره و يبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذونها من ملكه وخزانته، ويختص مثله باسم الشحيح.

وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد لذلك، والأكثر اجتماع الأسباب وقلما ينفرد واحد منها.

ولما كان الحسد اقتضى سابقة الارتباط بين الشخصين كثر بين الأمثال والأقران والأخوة و بني العم والأقارب دون شخصين في بلدتين متباعدتين. ثم لما اشترط في الحسد التزاحم حسد العالم العالم دون التاجر، والشجاع الشجاع دون الاسكاف، ونحو ذلك. نعم: من أحب الصيت ربما يزاحمه من في أقصى

---

(١) سورة يس، آية: ١٥.

العالم في هذا دون الغرض فيحسده، وأما أبناء الآخرة فلا يقع بينهم التحاسد اذ لا مزاحمة بينهم ولا ضيق فيها، وكذا العلم اذا المعلوم الواحد يعرفه ألف انسان.

المطلب السادس

دواء الحسد

وهو: أن تعرف أولاً أنه ضرر عليك في الدين والدنيا، ولا ضرر به على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما جميعاً. **أما ضرره في الدين:** لأنه سخط لقضاء الله وكراهة لنعمه، وهذا قذى في عين الايمان، وانضم اليه غش المسلم وترك نصحه ومشاركة ابليس، وهذه خبائث في القلب تأكل الحسنات وتمحوها.

وأما في الدنيا: فهو أنه الألم الحاضر والعذاب الدائم، وأنت تريد الألم لعدوك فتنجزت في الحال.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح، لأن النعمة لا تزول بحسدك.

وأما منفعته في الدنيا: فهو أن أهم مقاصد أبناء الدنيا ايصال الهم الى أعدائهم وهو حاصل بالحسد، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، فأنت عدو لنفسك وصديق لعدوك، ومع هذا كله قد أدخلت السرور في ابليس وهو أعدى عدوك.

وإذا عرفت: فعليك أن تكلف نفسك نقيض الحسد، اذ كل مرض يعالج بضده؛ مثلاً يكلف لسانه بمدحه وثنائه، ويتكلف التواضع له والاعتذار اليه، ويلزم نفسه الانعام عليه ان قدر، وهذه الأفعال تطيب قلب المحسود ويحب الحاسد، ومهما ظهر حبه أحبه الحاسد ويتولد منه الموافقة، ويصير ما يتكلفه أولاً طبعاً آخر. ولا يصدنك عن ذلك قول الشيطان: ان هذا عجز ونفاق وخوف، لأن ذلك من خدع الشيطان ومكايده، وهنا دواء الحسد الا أنه مر،

فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء.

ثم أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال:

أحدها: أن تحب مساءتهم بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك اليه بعقلك، وتمقت نفسك عليه وتود لو كان لك حيلة في ازالة ذلك الميل منك، وهذا معفو عنه لأنه لا يدخل تحت الأختيار أكثر منه.

الثاني: أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو الحسد المحظور.

الثالث: وهو بين الطرفين: ان تحسد بالقلب من غير مقتك لنفسك على حسدك، ومن غير انكار منك على قلبك، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد، وهذا محل الخلاف: والظاهر أنه لا يخلو عن اثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه، والله المستعان.

الأصل السادس
في ذم الدنيا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
على أن مذمة الدنيا لا تخفى على أولى الألباب

وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف النفس عنها، وكذا ما في الأحاديث والآثار كثير لا يخفى على أولى الألباب، وحقيقة الدنيا وقسمتها الى المذمة وغير المذمة.

واعلم: أن لقلبك حالتين؛ فالقريب الداني منها وهي ما قبل الموت وتسمى دنيا، والمتأخر المتراخي وهو ما بعد الموت و يسمى آخرة.

ثم أن الدنيا ثلاثة أقسام:

الأول: يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت؛ كالعلم الذي هو لذة دنيو ية عاجلة، وكذا العبادة لمن يلتذ بها، وهما مع ذلك ليسا من الدنيا اذ ينفعان في الآخرة.

الثاني: كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة؛ كالتلذذ بالمعاصي والمباحات.

الثالث؛ وهو متوسط بينهما: كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة؛

كالقوت من الطعام وما يستر العورة و يقي من الحر والبرد من اللباس ونحوهما، وهذا متردد بين القسمين، لأنه ان جعله وسيلة الى الثاني صار من أعمال الدنيا. ولا يبقى مع العبد بعد الموت الا صفاء القلب وطهارته، وذلك بالكف عن الشهوات والانس بالله، وذلك لكثرة ذكر الله والمحبة لله، وذلك لا يحصل الا بالمعرفة وهي تتولد من الفكر.

واعلم: ان الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للانسان فيها حظ، وله في اصلاحها شغل **فهذه ثلاثة أمور:**

أما الأعيان: فهي الأرض وما عليها من المعادن والنبات والحيوان؛ أما المعادن: فللآلات والأواني كالنحاس والرصاص، أو للنقد كالذهب والفضة وغير ذلك؛ وأما النبات: فللباس وللتداوي والغذاء؛ وأما الحيوان: فللأكل والركوب والزينة، وأما الإنسان: فللخدمة كالغلمان، وللاستمتاع كالجواري والنسوان، وأيضاً: لطلب قلوب الآدميين للعز والجاه. ومجموع هذه هي الدنيا.

ثم ان للعبد معها علاقتين:

علاقته بالقلب: وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد، و يتفرع عن هذه العلاقة: الأخلاق الذميمة؛ كالكبر والحسد والرئاء والسمعة وحب الثناء والتكاثر والتفاخر.

وعلاقته بالبدن: وهو اشتغال باصلاح هذه الأعيان، وهي جملة الصناعات والحرف التي شغل بها الخلق.

وتفصيله: أن الانسان مضطر الى ثلاث: القوت والمسكن والملبس. فالقوت للغذاء ولبقاء النوع، والملبس لستر العورة ولدفع الحر والبرد والمسكن لدفع الحر والبرد ودفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال.

فحدثت الحاجة الى خمس صناعات هي الأصول: الفلاحة لتحصيل النبات، والرعاية لحفظ الحيوانات واستنتاجها، والاقتناص لتحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب، والحياكة وما يحصلها من الغزل، والخياطة فللملبس.

ثم هذه الصناعات تفتقر الى أدوات وآلات، وهي: أما أن تؤخذ من النبات وهي الأخشاب، أو من المعادن كالرصاص والحديد، أو من جلود الحيوانات.

فأحتيج الى ثلاثة أنواع من الصناعات: النجارة وهي العمل في الخشب، والحدادة وهي العمل في المعدن، والخرز وهي العمل في جلود الحيوانات. فهذه هي أمهات الصناعات.

ثم لما كان الانسان مدنياً بالطبع آحتاج الى معاشرة الزوجية لبقاء النسل، والى المعاونة في الصناعات اذ لا يتولاها واحد من الناس، والا لبطلت المصالح، اذ الطعام يحتاج الى حراث وطحان وخباز، واللباس الى حراثة القطن والغزل والنسج وهكذا.

وحدثت من هذا الاجتماع صناعات أخر، منها: صناعة الحكم وفصل الخصومة بالعدل، ومنها: صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم، ومنها: الحاجة الى الفقه وهو معرفة حدود الله تعالى.

ثم أن أهل الحرب لو اشتغلوا بطلب القوت فاتهم حراسة الملك، فست الحاجة الى امدادهم بالأموال كمال الجزية والخراج، فاحتيج الى من يدبر تلك الأموال الى الجباة والخزان والكتاب والعمال والحساب، ثم هؤلاء أيضاً يحتاجون الى معيشة فأحتيج الى صرفهم من مال الخراج شيئاً يكفيهم فصاروا فرعاً لأهل الحرب.

فانحصر الناس في صنائعهم في ثلاث:

الأولى: الفلاحون والرعاة والمتحرفون.

الثانية: الجندية الحماة لهم بالسيوف.

والثالثة: المترددون بين الطائفتين في الأخذ والأعطاء، وهم العمال والجباة وأمثالهم.

فأنظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والمسكن والملبس والى ماذا انتهى، وهكذا أمور الدنيا لا ينفتح منها باب الا و ينفتح بسببه أبواب الى ما لا يتناهى، كأنها هاو ية لا قعر لها، من وقع في مهواة منها سقط منها الى أخرى، وهكذا على التوالي.

هذه هي الأصول، ولا يتم كل منها الا بفروع لا تحصى كثرة؛ كالبقر آلة للحرث، والفرس آلة الحرب، الى غير ذلك من الآلات. ولما كان بين الناس مظالم بحكم النفس الامارة احتاجوا الى حاكم عدل يصلح بينهم لئلا يختل النظام بسبب المنازعات الواقعة بينهم.

المطلب الثاني

في الحرف الجارية بين الناس باحتيالهم

منها: اللصوص والطرار والسلال وأنواع ذلك كثيرة.

ومنها: المكدي، وهم لحبهم البطالة يتكلفون العمى والعرج ونحوهما و يتكففون الناس.

ومنها: أرباب السخرية والمحاكاة، وأصحاب الشعوذة والأفعال المضحكة، وصاحب الأشعار، وأصحاب القرعة والفال، ونحو ذلك. وكلهم استنبطوا الحيل بدقيق الفكر لأجل معاشهم ولكن ضيعوا أنفسهم.

ثم أن فهم الناس في تصور الكمال على طبقات:

فطائفة: غلبهم الجهل والغفلة فيأكلون ليكسبون و يكسبون ليأكلون؛ كما هو حال الفلاحين والمتحرفين. وليس لهم التنعم لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يتعبون نهاراً ليأكلوا ليلاً، و يأكل ليلاً ليتعب نهاراً. ومثاله سير السواني، فهو سفر لا ينقطع الا بالموت.

وطائفة أخرى: زعموا أن الكمال قضاء الوطر من الشهوات، كشهوة البطن والفرج، فيصرفون هممهم الى اتباع النسوان وجمع لذائذ الأطعمة، يأكلون كما يأكل الأنعام، و بذلك شغلوا عن الله واليوم الآخر.

وطائفة: ظنوا أن الكمال في جمع المال، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في جمعه، و يتعبون في الأسفار و يترددون في الأخطار طول الليل والنهار، ولا يأكلون الا قدر الضرورة شحاً وبخلاً عليها أن تنقص، الى أن يدركه الموت وهو كذلك، وكنوزه تحت الأرض أو في يد من يصرفه و يسرفه في الشهوات، وعليه تعبها ووبالها وللآكل لذتها.

وطائفة: ظنوا أن السعادة في حسن الأسم وكثرة الثناء عليه والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون في الكسب، و يضيقون على أنفسهم في المطعم والملبس، و يصرفون مالهم الى الثياب الفاخرة والدواب النفيسة، و يزخرفون أبواب دورهم وما يقع عليه أبصار الناس حتى يقال: أنه غني وذو ثروة، فهمتهم في تعهد موقع نظر الناس.

وطائفة: ظنوا أن السعادة في الجاه وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير لهم، فيطلبون الولايات وتقلد الأعمال السلطانية، و يرون أنهم بذلك سعدوا سعادة عظيمة، وان ذلك غاية المطلب.

وهذه الطوائف ووراءها طوائف لا يمكن حصرها ــ تزيد على نيف وسبعين طائفة، كلهم ضلوا وأضلوا، لكثرة الاشغال وتداعي البعض الى البعض فيهلك في أودية الدنيا، ولو اكتفى بالقدر الضروري اندفعت أشغاله وفرغ قلبه وغلب عليه ذكر الآخرة.

ثم أن طائفة تنبهت لهذه الآفات، فظن بعضهم أن الدنيا دار البلاء وأن الآخرة دار السعادة سواء تعبد فيها أولاً، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا، واليه ذهب طائفة من أهل الهند، حتى أنهم يتهجمون على النار و يقتلون أنفسهم بالاحراق، و يظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا.

وبعضهم ظن أن القتل لا يخلص، بل لا بد أولاً من أمانة الصفات البشرية وقلعها عن النفس بالكلية، فأقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة، وبعضهم فسد عقله، وبعضهم مرض

وانسدت عليه طرق العبادة، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية، وأنه محال، فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له، فوقع في الألحاد.

وبعضهم ظن أن هذا التعب كله لله، وأنه مستغن عن عبادتنا لا ينقصه العصيان ولا يزيده العبادة، فسلكوا مسلك الاباحة وطووا بساط الشرع.

وبعضهم ظن أن المقصود معرفة الله والعبادة وسيلة اليها، وبعد الوصول يستغنى عنه، فتركوا السعي والعبادة وانما التكليف على العوام، ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول احصاؤها الى أن تبلغ نيفاً وسبعين فرقة، والناجي منها ما عليه الصحابة وهم أهل السنة والجماعة، وهم على المنهج القصد والصراط المستقيم.

الفصل السابع
في ذم المال وكراهية حبه وذم البخل

وفيه مطالب:

المطلب الأول

أعلم: أن الله تعالى ذم المال في مواضع كثيرة، ومدحه في بعض المواضع وسماه خيراً وقال: ﴿أن ترك خيراً﴾[1]؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم المال الصالح». فلا بد من التوفيق بينهما، ولا يمكن ذلك الا ببيان آفات المال وفوائده.

اعلم: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فمن عرف فوائدها وغوائلها أمكنه أن يحترز من شرها و يستدر منها خيرها.

أما الفوائد: فأما دنيوية يعرفها كل أحد ولهذا يتهالكون عليها، وأما الدينية فثلاثة أنواع.

الأول: ما ينفقه على نفسه؛ أما في العبادة: كالحج والجهاد وهما من أمهات القربات؛ أو في الاستعانة على العبادة: كالمطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة، وما لا يتوصل الى العبادة الا به فهو عبادة؛ وأما حظوظ الدنيا: ما يزيد عليها من التنعم والتلذذ.

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٠.

الثاني: ما يصرفه الى الناس، وهي أربعة:

أحدها: الصدقة وقد عرفت ثوابها.

وثانيها: المروءة؛ كالضيافة والهدية والاعانة، وهذا أيضاً من الفوائد الدينية اذ به يكتسب الاخوان والأصدقاء وصفة السخاء والجود والمروءة والفتوة، ففيها مثوبات أيضاً.

وثالثها: وقاية العرض؛ كدفع هجو الشاعر وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم، وفائدتها دينية وأخروية، لأن وقاية العرض صدقة، لأن فيها منع المغتاب ودفع آفة الانتقام بينهما.

ورابعها: الاستخدام؛ اذ الانسان اذا تولى جميع مصالحه لضاعت أوقاته؛ كشراء الطعام وطبخه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج اليه، فلا بد له من مال يدفع أمثال هذه الحوائج.

النوع الثالث: الخير للعامة؛ كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودار المرضى ونصب الجباب في الطرق وأمثال ذلك، وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين وناهيك به خيراً.

وهذه هي الفوائد الدينية، مع ما في المال من الحظوظ العاجلة: من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر، والوصول الى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الأخوان والأعوان، والكرامة والوقار ونحو ذلك.

وأما الآفات؛ فأما دينية، وهي ثلاث:

الأولى: أن الانسان اذا استشعر من نفسه القدرة على المعصية انبعث داعية المعاصي، فان اقتحم ذلك هلك وان صبر وقع في شدة.

الثانية: أن يجر الى التنعم في المباحات ثم يألفه، ثم يجر البعض الى البعض، حتى لا يفيه المال الحلال فيقتحم الشبهات، ويتبعه ان يصانع الناس بالرئاء والمداهنة والكذب والنفاق، لأن حاجة الناس تؤدي الى هذه الأخلاق.

الثالثة: وهو الذي لا ينفك عنه أحد، وهو أنه يلهيه عن ذكر الله تعالى، وأنه خسران عظيم وهو الداء العضال.

وأما آفاته الدنيوية: فالخوف والحزن والهم والغم، والتعب في دفع الحساد، وتجشم المصاعب في حفظ الأموال وكسبها.

فإذا ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقي في الخيرات، وما عداه سموم وآفات.

المطلب الثاني
في الحرص والطمع ومدح القناعة

واعلم: أن الانسان اذا تشوف الى ما فوق القوت فاته عز القناعة، وتدنس بذل الحرص، وجره ذلك الى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات، فلا بد من علاج الحرص والطمع وملكة القناعة، وذلك مركب من خمسة أمور:

الأول؛ وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق في الأنفاق، و يرد نفسه الى ما لا بد له منه، و يطلب الاقتصاد في نفسه وفي عياله.

الثاني: أن لا يضطرب للاستقبال و يثق بوعد الله سبحانه، و يعرف أن شدة الحرص ليست سبب الرزق، ولا يبالي بما يعده الشيطان من الفقر: بأنك ربما تمرض وتعجز وتحتاج الى ذل السؤال، وتقاسي ذل التعب في الحال لتوهم الذل في الاستقبال مع الغفلة عن الله تعالى.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل، وليس في القناعة الا ألم الصبر عن الفضول والشهوات، وهذا الألم لا يطلع عليه أحد وفيه ثواب الآخرة؛ وأما الطمع فألم لا نهاية له مع الوبال والمأثم، وربما تلزمه المداهنة ويهلك دينه.

الرابع: أن يتأمل في عيش أعداء الله من اليهود والنصارى وارذال الناس،

والى أحوال الأنبياء والأولياء وعامة الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الآفات، مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة خمسمائة عام.

المطلب الثالث

في السخاء

أعلم: أن المال ان كان مفقوداً فينبغي أن يقنع ولا يحرص، وان كان موجوداً فينبغي أن يختار الايثار والسخاء والتباعد مع الشح والبخل، فان السخاء من أخلاق الأنبياء، سيما الايثار فأنه أرفع درجات السخاء، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه؛ كما أن أعلى البخل أن يبخل على نفسه مع احتياجه اليه، وليس بعد الايثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى على الصحابة قال: ﴿و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1].

وأما البخل، فقيل: هو منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل، وهذا غير كاف، فان من رد الخبز الى الخباز لنقصان حبة أو نصفها فأنه يعد بخيلاً بالاتفاق؛ وقيل: هو الذي يستصعب العطية، وهذا أيضاً قاصر اذ كم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها، وان أراد بعض العطية فما من جواد الا و يستصعب بعضها.

وأما الجود، فقيل: عطاء بلا من، واسعاف بلا رؤية؛ وقيل: على رؤية أن المال لله والعبد لله، فيعطي عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر؛ وقيل: من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه الأقل فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب ايثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل.

فاعلم: أن هذه التفاسير لا تفي بالمقصود، بل نقول: المال خلق لحكمة

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

ومقصود، فأمساكه في محل البذل بخل، وبذله في محل الامساك تبذير، والوسط المحمود فالسخاء، والجود عبارة عنه، ولكن يشترط أن يكون ذلك بطيب القلب.

ثم تمييز قدر الواجب عسير جداً. وجملة الكلام فيه أنه قسمان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة والعادة. فمن منع واجباً منها فهو بخيل، ومانع واجب الشرع أبخل، كمانع أداء الزكاة أو نفقة العيال أو يؤديها بمشقة وكلفة؛ وواجب المروءة: كتقتير نفقة أولاده وأهله، وله مراتب: اذ لا يقبح من الفقير ما يقبح من الغني، ويستقبح مع الأقارب ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح مع الجار ما لا يستقبح مع الأباعد، ونحو ذلك.

فمن أدى واجب الشرع والمروءة فقد تبرأ من البخل، ولكن لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك، ولكن بشرط أن يكون عن طيبة نفس ولا عن مطمع ورجاء، مكافأة أو شكر أو ثناء أو خوف من الهجاء أو ملامة الخلق، لأن من أعطى لما ذكر من الأحوال معتاض لا جواد، وانما الجود: البذل من غير عوض، ولهذا لا يوجد الجود الا في حق الله تعالى، وفي الآدمي مجاز، نعم: من فعله لغرض الثواب وتطهير النفس عن رذالة البخل يسمى جواداً في بني آدم.

المطلب الرابع
في علاج البخل

اعلم: أن البخل سببه حب المال، وحب المال له سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا يتوصل اليها الا بالمال مع طول الأمل، وان كان قصير الأمل قام الأولاد مقام طول الأمل، فإذا انضاف الى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

وثانيها: أن يحب عين المال حتى لا يخرج زكاته ولا يداوي نفسه عند

المرض، بل يحب المال و يلتذ بوجوده، وهو مرض مزمن لا يرجي علاجه سيا في كبر السن.

وإذا عرفت هذا، فاعلم: أن علاجه بضادة سببه، فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، و يعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران، و يعالج الالتفات الى الولد بأن الذي خلقه خلق رزقه، وكم من ولد حسن حاله ولم يرث شيئاً، وكم من ولد ورث مالاً عظيماً وهو في شدة، و يعلم أنه يترك ولده بخير وهو ينقلب الى ربه بشر، وأن ولده ان كان تقياً فيكفيه الله وان كان فاسقاً يعين بماله على فسقه و يرجع مظلمته اليه.

و يعالج أيضاً بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل وفي قبائح البخلاء.

ومن علاجه: أن يخدع نفسه بحسن الأسم والشهرة بالسخاء، فيبذل رئاء حتى يكون البذل طبعاً، وبعد ذلك يبدله الى الأخلاص والاعتدال. والصفات الذميمة قد يسلط بعضها على بعض و يكسر سورة بعض ببعض.

المطلب الخامس
في وظائف العبد في ماله

وهي خمس:

الأولى: أن يعرف مقصود المال حتى لا يحفظ إلا قدر الحاجة.

الثانية: أن يراعي جهة الدخل فيجتنب الحرام وما يقدح في المروءة.

الثالثة: أن لا يستكثر على القدر الواجب، وقد عرفته، و يراعي القصد في الواجب أيضاً.

الرابعة: أن يراعي جهة الخروج و يقتصد في الانفاق و يضعه في محله.

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ والترك والانفاق والامساك، ولذلك قال

علي رضي الله عنه: لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد، ولو ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد.

قال بعضهم: ان أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة فإذا كان قصدك بهما التهيؤ للعبادة صار ذلك عبادة.

المطلب السادس
مدح الفقر وذم الغنى

اختلفوا في ذلك و قال بعضهم: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، وعكس البعض. الا أن المختار عند المحققين: الفقير الصابر أفضل، سيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يدخل صعاليك المهاجرين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام».

واعلم: ان الكلام في هذا المقام طويل لا يمكن حصره في هذا النزر الحقير، فليطلب في مواضع أخر، وانما جعل غرضنا في هذا الكتاب التجافي عن دار الغرور، وذلك في جانب الفقر أولى، قال الشاعر:

ولست بنظار الى جانب الغنى   اذا كانت العليا في جانب الفقر

وأيضاً: من راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم، وما ورد من آثارهم وأخبارهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وان صرف الى الخيرات، والله المستعان وعليه التكلان.

الأصل الثامن
في ذم الجاه والرئاء

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في أن حب الجاه أشد من حب المال

وذلك لأن كلا منهما للتوصل الى المطالب، الا أن المال لما أن لم يأمن عن الآفات من السرقة والغصب وطمع الظلمة، وكان الجاه الذي هو تسخير القلوب وتعظيمها له وطاعتها له مأموناً عن الآفات المذكورة، صار الجاه أحب عند الناس؛ وأيضاً: لما كان التوصل بالمال أصعب من التوصل بالجاه الى المال صار الجاه أحب عنده؛ وأيضاً: أن ملك القلوب يسري و ينمو و يتزايد من غير حاجة الى تعب ومقاساة بخلاف المال.

فإن قلت: النفوس مجبولة على حب الجاه اذ لا يتوصل الى المحبوب الا به، كاتساع الجاه وانتشار الصيت؛ قلت: هذا الحب له سببان:

أحدهما: وهو الجلي: ان الانسان وان كان مكفياً في الحال فأنه طويل الأمل، والمال في معرض الآفات، وفي الجاه أمن عن هذا الخوف.

وثانيها، وهو الخفي الأقوى: أن الروح أمر رباني به وصفه الله تعالى وقال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[1]، ولذلك كان محباً بطبعه التفرد بالكمال، ولما فيه

(١) سورة الاسراء، آية: ٨٥.

من الأمر الرباني صار طبعه على حب صفات الربوبية: من الكبر والعز والتجبر والاستعلاء، الا أنه لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبة ومشتهية له. ثم أن الكمال الحقيقي للموجود أن يكون وجود غيره منه، وان لم يكن كذلك فلا أقل من أن يكون مستولياً عليه لأنه نوع كمال. ولما كان الموجود منقسماً الى ما لا يدخل تحت اختيار الانسان: كالأفلاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين، وكالجبال والبحار وما تحتها، والى ما يدخل تحتها كالأرض وما عليها من المعادن والنبات والحيوان وقلوب نوع الانسان، وكان طبع الانسان الاستيلاء على الكل، أحب أن يستولي على القسم الأول بالعلم والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء، اذ المعلوم محاط والعالم محيط به، فكذلك أحب أن يعرف الله والملائكة والأفلاك والكواكب، وجميع عجائب السموات وعجائب البحار والجبال وغيرها.

وأما القسم الثاني: فأحب أن يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد. وهي قسمان:

أجساد: كالدراهم والدنانير وما في حكمها، فيحب أن يتصرف فيها كيف يشاء، لأن محبوب النفس صفات الربوبية وما ذكر من التصرف منها، فكذلك أحب الدراهم والدنانير، ولذلك أيضاً أحب استرقاق العبيد واستعباد الأحرار.

والقسم الآخر: أرواح؛ كنفوس الآدميين وقلوبهم، وهي أنفس ما على الأرض، فيحب الاستيلاء عليها تحقيقاً لما في طبعه من محبة صفات الربوبية لما فيه من الأمر الرباني.

ثم أعلم: ان الكمال الحقيقي لله تعالى وما عدا هذا الكمال وهمي لا حقيقة له، وذلك من وجوه ثلاثة:

أحدها: من حيث كثرة المعلومات اذ لا نهاية لها.

وثانيها: من حيث كون معلوماته مكشوفة له تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه.

ثالثها: من حيث بقاء العلم أبد الآباد مصوناً عن التغير، والعبد متى كان علمه بمعلومات كثيرة أو منكشفة أو باقية كان أقرب الى الله تعالى.

ثم المعلومات: أما متغيرات وهي التي يمكن انقلابها، وأما أزلية وهي جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أبدية أزلية ثابتة. ومن هذا القبيل: معرفة الله، وما يجب له، وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله، وحكمته، في ملكوت السماء والأرض، وترتيب الدنيا والآخرة. وهذا القسم هو الكمال الحقيقي، يقرب من يتصف به من الله تعالى، و يبقى كمالاً للنفس بعد الموت، و يكون نوراً يسعى بين أيديهم و بايمانهم يقولون ربنا اتمم لنا نورنا، و ينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات لأنها من أفعاله تعالى. وهذه الكمالات وان كانت كمالات في رتبة الانسانية ليست كمالات حقيقية بالنسبة الى علمه تعالى لما عرفت، وكذا القدرة، فليس فيها كمال حقيقي وليس له قدرة حقيقية، وانما القدرة الحقيقية لله تعالى، وما يحدث من الأشياء عقيب قدرته وارادته وحركته فهي حادثة بأحداث الله تعالى.

وكمال العلم يبقى للعبد بعد الموت و يوصله الى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا. نعم: له كمال من جهة قدرته على أسباب العلم: كسلامة أطرافه وحواسه، لكن في الحال، و بالاضافة الى الجهال؛ وانما الكمال الحقيقي للعبد القرب من الله تعالى ومن ملائكته، وهو: اما بالعلم وقد ذكرناه، أو بالحرية وهي: الخلاص عن أسر الشهوات وغموم الدنيا، والاستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالملائكة، فإذا الكمالات ثلاثة: العلم والقدرة والحرية، وان كمال القدرة بالمال والجاه ظني لا أصل له الا قدر ما يصل الى الكمال.

المطلب الثاني

ما يحمد من حب الجاه وما يذم منه

اعلم: أنه كما يلزم للانسان من أدنى مال يتوصل به الى الآخرة كذلك لا بد له من أدنى جاه يتوصل به اليها؛ كخادم يعينه، وأستاذ يرشده و يعلمه،

وسلطان يدفع عنه الشر، وحبه قدراً من الجاه الذي يتوسل به الى هذه الأمور الثلاثة ضروري لا يذم عليه. وأما الذي يذم: أن يجعل القصد الأصلي هذا الجاه، ويجعل ما يتوسل بالجاه اليه وسيلة اليه؛ كحب نفس المال وجعل العلم والدين وسيلة اليه، وهو حرام واليه يؤول حرمة الرئاء.

ثم الجاه في الأمور المذكورة: اما باعتقادهم صفة هي موجودة فيه، كقول يوسف عليه السلام: ﴿أجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم﴾[1]؛ أو باخفاء عيب من عيوبه أو معصية من معاصيه، وذلك جائز لأنه ليس بتلبيس، بل سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كمن يخفي أنه يشرب الخمر ولكن لا يظهر أنه ورع، لأن الأخفاء جائز وأما اظهار الورع رئاء، أو بأن يدعي صفة ليست هي فيه: بأن يظهر أنه عالم أو ورع أو علوى، وذلك حرام قطعاً لأنه رئاء محض.

المطلب الثالث

في أسباب حب المدح والثناء وبغض الذم والنفرة منه

وهي أربعة: الأول، وهو الأقوى: شعور النفس بكمالها، فان كان ذلك الكمال جلياً ظاهراً كانت اللذة أضعف، كطول القامة وبياض اللون؛ وان كان خفياً مشكوكاً فيه كانت اللذة أعظم، كالعلم والورع، سيما اذا صدر الثناء بهذا الكمال ممن هو خبير بذلك لا يجازف في القول، كثناء الأستاذ على تلميذه. ويعرف من لذة المدح بغض الذم عند الانسان.

الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح ومسخر تحت مشيئته، ولهذا يتألم القلب من ذم الأكابر.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

الثالث: أن المدح سبب لأصطياد القلوب سيا اذا كان ممن يعتد بشأنه، ولهذا يعظم اللذة في مدح الأكابر في الجمع الكثير ويعظم التألم من الذم في الملأ.

الرابع: المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء عليه أما عن طوع أو عن قهر، وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن يتلذذ به القلب لما فيه من الاستيلاء والقهر.

ثم أن هذه الأسباب كلاً أو بعضاً ربما تجتمع في مدح مادح واحد فلا لذة فوقه.

وأما علاج هذه الأسباب؛ أما الأول: فبأن يعلم أنه غير صادق في مدحه فتزول لذته وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه؛ ثم إن علم أن المادح لا يعتقد ما يقوله بطلب اللذة الثانية، وتبقى لذة الاستيلاء بالحشمة على الاضطرار، فان اعتقد أن ذلك عن خوفه وأنه يلعب به بطلت اللذات كلها.

المطلب الرابع
في علاج حب الجاه

أعلم: أن من غلب على طبعه حب الجاه، وكان مقصور الهم على مراعاة الخلق والمراياة لأجلهم، ولا يزال ملتفتاً الى ما يعظم جاهه عنده، ويجر ذلك الى التساهل في العبادات ومراعاة القلوب.

وعلاج الجاه من حيث العلم: أن الجاه وان صفا وسلم لك لكن آخره الموت، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق الى المغرب فإلى خمسين سنة أو ستين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، فلا ينبغي أن يترك له الدين الذي هو الحياة الأبدية.

وأما من حيث العمل: فبمباشرة فعل يسقط جاهه به عند الناس، حتى أن بعضاً من الملامتية اقتحموا صور الفواحش كذلك، لكنه لا يجوز لمن يقتدى

به. والأسلم: أن يسقط في صورة المباح كالأكل الكثير ان عرف بقلة الأكل، وكالدوران في الأسواق ان عرف بالعزلة، الى غير ذلك. وهذا وأمثاله وان كان ممنوعاً في الفقه، لكن أرباب القلوب يعالجون قلوبهم تارة بالمكروهات وتارة بالمحرمات ليسلموا مما هو أشد منه، لأن بعض الشر أهون من بعض، ثم يتداركون ذلك بعلاج آخر.

ثم أن ههنا موضع غرور: وهو أن الانسان ربما يعتزل و يزعم أنه يترك الجاه، ولكن غرضه تحصيل الجاه بذلك وهو لا يعرفه. فعليه أن يمتحن نفسه بذلك أولاً، فان جزع فليتدارك ذلك بالعلاج، ولا يمكن أن لا يطلب المنزلة عند الناس ما طمع في الناس، فعليه أن يدفع الطمع أولاً بما بيناه في موضعه.

المطلب الخامس

في وجه العلاج في حب المدح و بغض الذم

أعلم: أن أكثر الخلق هلكوا لرجائهم من الناس المدح وتوقيهم عن ذمهم، فلا بد من معالجة ذلك المرض.

ولنقدم أولاً أسبابه، ثم لنبين علاجه:

والسبب الأول: استشعار الكمال بسبب قول المادح. وعلاجه: ان صفة المدح ان لم تكن في الممدوح فالفرح بها من غاية الجهل، وان كانت فيه: فأما أن يكون من قبيل الجاه والأغراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض. قال القائل:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالاً

وان جاز الفرح بها لا ينبغي الفرح بالمدح بهابل بوجودها، والمدح ليس هو سبب وجودها؛ وان كانت مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع، فينبغي أن لا يفرح بها أيضاً لأن الخاتمة غير معلومة.

السبب الثاني: دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير

قلب آخر، وذلك راجع الى حب الجاه وقد عرفت علاجه.

السبب الثالث: الحشمة التي اضطرت المادح الى المدح، فهو أيضاً راجع الى قدرة عارضة لا ثبات لها، سيا وآفة المدح على الممدوح عظيمة.

وأما علاج كراهية الذم، قد سبق أن العلة فيها ضد العلة في حب المدح، فعلاجه يفهم منه.

وحاصله؛ ان من ذم: أما أن يكون صادقاً وقصد به النصح فينبغي أن تتقلد منته؛ وأما أن يكون صادقاً وقصد الأذى والتعنت فأنت قد انتفعت بقوله، اذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلاً أو ذكرك عيبك ان كنت غافلاً، وقصده التعنت جناية على دينه ولا عليك من ذلك؛ وأما أن يفترى عليك بما أنت بريء منه عند الله، فعليك أن تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: إن خلوت من ذلك فلا تخلو عن أمثاله وما يستر الله من عيوبك أكثر.

وثانيها: أن ذلك كفارة لبقية مساويك وذنوبك، فكأنه رماك بذنب وطهرك عن ذنوب.

وثالثها: اذ المسكين جنى على نفسه ودينه وتعرض لعقاب الله، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عز وجل، فتشمت الشيطان به وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم أرحمه.

ومن جملة ما يهون عليه المذمة قطع الطمع فان من استغنى عنه لا يعظم عنده الذم والمدح.

المطلب السادس

في أحوال الناس في المدح والذم

وهي أربع:

الأولى: أن يفرح بالمدح و يشكر المادح، و يغضب من الذم ويحقد على الذام، وهي غاية درجات المعصية.

الثانية: أن يمتعض ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته، وهذا ناقص في نفسه كامل بالاضافة الى ما قبله.

الثالثة؛ وهو أول درجات الكمال: أن يستوى عنده ذامه ومادحه، الا أن ههنا موضع غرور وهو أن بعضهم يظنه من نفسه، فعليه أن يمتحن: هل يستثقل جلوس الذام عنده أكثر مما يجده في المادح، وهل يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حوائج الذام، وهل يكون موت المادح المطرى له أشد نكاية في قلبه من موت الذام، وهل يكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام، فمن استويا عنده في هذه الأمور فقد نال تلك الرتبة والا فقد أبعد عنها غاية البعد.

الرابعة؛ وهو الصدق في العبادة: أن يكره المدح ويمقت المادح اذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر، والذام مهد اليه عيبه ومرشد الى مهمه.

ثم أن درجات المدح: هو أن من الناس من يتمنى المدحة فيتوصل الى نيلها بكل ممكن حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات، وهذا من الهالكين؛ ومنهم من يريد ذلك لكن يطلبه بالمباحات، وهذا على شفا جرف هار اذ يوشك أن يقع فيما لا يحل؛ ومنهم من لا يريد المدحة ولا يطلبها أصلاً ولكن اذا مدح سبق السرور الى قلبه، وان جاهد ازالته فهو في خطر المجاهدة، فتارة يكون له وأخرى عليه؛ ومنهم من لا يسر به ولا يغتم، وهذا على خير ان قارنه الاخلاص؛ ومنهم من يكره المدح اذا سمعه لكن لا ينتهي به الى الغضب على المادح، وينكر عليه، لكن بشرط الصدق في غضبه والا صار نفاقاً، وهذه أفضل الدرجات.

المطلب السابع
في الرئاء

اعلم: ان الرئاء حرام والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والآثار والأخبار.

وأما حقيقته: فهي أن الرئاء مشتق من الرؤية والسمعة من السماع، وانما

الرئاء أصله: طلب المنزلة في قلوب الناس برؤيتهم خصال الخير، ويخص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات واظهارها.

وحاصله: ارادة العبادة بطاعة الله. وذلك خمسة أقسام:

الأول: الرئاء في الدين من جهة البدن؛ كاظهار النحول والصفار ليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على السهر ودوام الحزن؛ وكشعث الرأس ليدل على استغراق الهم بالدين؛ وكخفض الصوت وغؤور العينين وذبول الشفتين ليدل على الصوم.

الثاني: الرئاء بالزي والهيئة: كشعث الرأس وحلق الشارب وغلظ الثياب وقصر الأكمام، ليظهر من نفسه اتباع السنة واقتداء بعباد الله الصالحين. ثم منهم من يرى لبس الخشن والمرقعات ليظهر الزهد عند الصلحاء، ومنهم من يريد الجمع بين قبول الصلحاء وقبول الملوك، ولا يلبسون الثياب الفاخرة لئلا يراهم الصلحاء، ولا الخرقة لئلا يراهم الملوك، بل يلبسون الأكسية الرفيعة من الأصواف والمرقعات المصبوغة، وقيمة ثوبهم ثوب الأغنياء.

الثالث: الرئاء بالقول؛ كالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لاظهار غزارة العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، واظهار الغضب للمنكرات، وترقيق الصوت بقراءة القرآن، واظهار الحزن والخوف، واظهار أنه محدث حتى ينكر على من يبدل لفظاً بمرادفه، وهذا باب لا تنحصر جزئياته.

الرابع: الرئاء بالعمل؛ كطول وتطويل الركوع والسجود واطراق الرأس، وكذلك سائر العبادات، حتى أنه يرائي في مشيه أيضاً من اطراق الرأس والخشوع في حركته.

والخامس: المراياه بالأصحاب والزائرين والمخالطين؛ كاستزارة العلماء والزهاد والملوك وعمال السلاطين ليقال انهم يعظمونه و يتبركون به لعظم رتبته في الدين.

ثم أن من أرباب الرئاء من لا يطلب من الناس المال بل يقنع منهم بحسن الاعتقاد، كالرهبان الساكنين في الجبال، فان الجاه أمر لذيذ في نفسه كما عرفت؛ ومنهم من يريد مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد؛ ومنهم من يريد الصيت في العالم ليكثر الرحلة إليه؛ ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته ليقوم له به جاه عند العامة، ومنهم من يتوسل به الى جمع حطام الدنيا ولو من الأوقاف، وهؤلاء أشر طبقات المرائين.

ثم **أعلم:** ان الرئاء، منها ما هو مباح؛ كطلب قليل من الجاه ليسلم به من الآفات، بشرط أن لا يرتكب المحظور في تحصيله، وأما الجاه الكثير الواسع من غير حرص مذل على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله ان زال فلا ضرر فيه اذ لا أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين؛ ومنها ما هو مكروه: كطلب الجاه بالمباحات، اذا احتمل ان يباشر به مباشرة ما لا يجوز؛ ومنها ما هو حرام: كطلب الجاه بالعبادات وجعلها وسائل الى الدنيا، وسيجيء تفصيله آنفاً.

ثم **أن الرئاء بالعبادات:** أما بأن يقصد الرئاء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات، بل يعصى بذلك و يأثم، بل هذا من كبائر المهلكات، وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر.

ووجه ذلك: أن الغرض من الركوع والسجود تعظيم الله تعالى، حتى لو فعلها لغيره تعالى صار مشركاً شركاً جلياً، واذا فعلها لله صورة ـــ وأراد بها تعظيم الخلق لقصده التقرب اليهم ـــ كان معظماً لغير الله تعالى صورة، فيصير شركاً خفياً، أي: شركاً لم يطلع عليه أحد ولم تجر عليه أحكام الكفر، وكيف والغرض من العبادة طاعة القلب، والبدن وسيلة اليه. وكون عبادة البدن لغير الله تعالى كفراً، انما هو لكونه عنواناً ودليلاً على حال القلب لا أن حاله بانفراده معتبر في نفسه، فهذا حال الرئاء وهو أصعب المعاصي، ولا يخلو قلب عنها الا الأقلين من عباد الله المخلصين. ومع كثرته فعلاجه أصعب من علاج سائر المعاصي.

ربنا لا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، انك أنت التواب الرحيم. والآيات والأخبار في شأن الرئاء أشهر من أن تذكر.

المطلب الثامن

في درجات الرئاء

وهي أربع:

الأولى؛ وهي أغلظها: ان لا يكون مراده الثواب أصلاً فهو الممقوت عند الله عز وجل.

الثانية: أن يقصد الثواب قصداً ضعيفاً بحيث لو كان في الخلوة لا يفعله، فهذا قريب مما قبله، وشائبة قصد الثواب لا ينفي عنه الأثم والمقت.

الثالثة: أن يكون قصد الثواب والرئاء متساويين، بحيث لو خلا كل منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل، ولما اجتمعا انبعثت الرغبة فيرجى أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه، وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه، ولو لم يكن لكان لم يترك العبادة، ولو كان قصد الرئاء وحده لما أقدم على العمل، فالذي يظن والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكن ينقص منه، أو يعاقب على مقدار قصد الرئاء و يثاب على مقدار قصد الثواب.

المطلب التاسع

في الرئاء بأصول العبادات وأوصافها

وفيه درجات:

الأولى؛ وهو أغلظ: الرئاء بأصل الايمان، نعوذ بالله من ذلك. وصاحبه مخلد في النار، والمراد بالمنافقين المذكورين في القرآن هو هذا.

الثانية: أصول العبادات بعد الايمان. وهذا أيضاً عظيم عند الله ولكنه

دون الأول؛ كمن يترك العبادة كسلاً و ينشط عند اطلاع الخلق، وما أجدر صاحبه بالمقت وان كان غير منسل عن أصل الايمان.

الثالثة: أن يرائي بالنوافل والسنن، بأن يكسل عنها في الخلوة و يبعثه الرئاء على فعلها، خوفاً من المذمة أو طلباً للمحمدة، وهذا أيضاً عظيم لكنه دون ما قبله. وهذا هو الرئاء بأصول العبادات.

وأما الرئاء بأوصافها فعلى ثلاث درجات أيضاً:

الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة؛ كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن هذا، فهذا أيضاً محظور لأن فيه أيضاً تقديم الخلق على الخالق.

الثانية: أن يراعي بما لا نقصان أن تركه بل فعله للتكملة أو التتمية؛ كمد القيام، وتحسين الهيئة في رفع اليدين، والمبادرة الى التكبيرة الأولى.

الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً؛ كحضور الجماعة قبل القوم، وقصده الصف الأول، وتوجهه الى يمين الامام، ونحو ذلك. وهذا دون ما قبله الا أنه مذموم أيضاً.

المطلب العاشر
في المرايا الاجلة

وله أيضاً درجات ثلاث:

الأولى: وهي أشدها وأعظمها: أن يكون مقصوده بالتقوى والورع والامتناع عن الشهوات التمكن من المعصية؛ كالقضاء وتولية الأوقاف. ومنهم من يظهر زي التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة وقصده التحبب الى امرأة أو غلام، وهؤلاء أبغض المرائين الى الله عز وجل اذ جعلوا طاعة ربهم سلماً الى فسقهم وشهواتهم.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا، من مال مباح أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة أو بنت عالم أو عابد، فهذا محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا، ولكن دون الأول فان المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة: أن يظهر عبادته خيفة ان لا يعد من الخاصة والزهاد، كمن يظهر الصوم واذا غلب عليه العطش يقول: أفطرت تطييباً لقلب فلان، أو يقول: ان أمي ضعيفة القلب مشفقة علي تظن اني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أن أصوم. وأما المخلص فلا يبالي كيف نظر الخلق اليه.

المطلب الحادي عشر

في بيان الرئاء الذي هو أخفى من دبيب النمل

وأعلم: أن الرئاء أما جلي كما عرفت، وأما خفي: وهو لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل والتخفيف، ولكنه يسر باطلاع الناس عليه و يرتاح له و يروح عن قلبه شدة العبادة. وهذا السرور يدل على رئاء خفي في القلب مستكن استكنان النار في الحجر، فإن لم يقابل ذلك السرور بكراهية يصير ذلك قوة وغذاء للعرق الخفي من الرئاء، حتى يتحرك حركة خفية، حتى يتكلف أن يطلع عليه الناس بالتعريض دون التصريح. وقد يخفي فلا يدعو إلى التعريض بل الى الاظهار بالشمائل؛ كاظهار النحول والصفار، وخفض الصوت، وجفاف الريق، وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك: أن لا يريد اطلاع أحد عليه ولا يسر بذلك، لكن يحب أن يبدأ بالسلام والبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه و ينشطوا لقضاء حوائجه، وأن يوسعوا له في المكان، كأنه نفسه يتقاضى منه الاحترام على الطاعة التى أخفاها حتى لو لم تسبق منه طاعة لما استبعد نفسه تقصير الناس في حقه.

فلم يزل المخلصون على خطر عظيم من الرئاء الخفي، حتى كان بعضهم يحرص على اخفاء أعماله الصالحة اخفاء الناس فواحشهم خوفاً من الرئاء

الخفي، اذ لا يجازي الله تعالى بالأعمال الا اذا خلص له تعالى.

وأعلم: أن السرور الحاصل من ظهور العبادة ربما يكون محموداً. وهو أربعة:

الأول: أن يعرف ان الله تعالى أظهر طاعاته وأخفى معاصيه، وهذا لطف عظيم من الله عز وجل على عباده، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس.

الثاني: أن يستدل باظهار الله الجميل و بستره القبيح عليه في الدنيا أنه يفعل كذلك في الآخرة.

الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره: أجر العلانية بما ظهر آخراً وأجر السر بما قصده أولاً.

الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته، فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم ومحبتهم للمطيع، وبميل قلوبهم الى الطاعة، فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله. وعلامة اخلاصه في هذا النوع أن يكون فرحه بمدحهم غيره مثل فرحه بحمدهم اياه.

المطلب الثاني عشر

بيان ما يحبط العمل من الرئاء الخفي أو الجلي وما لا يحبط.

واعلم: أن العمل أما أن ينعقد على الأخلاص ثم ورد وارد الرئاء أو ينعقد على الرئاء. والأول أما أن يرد الرئاء بعد الفراغ أو قبله، والأول سرور مجرد بالظهور دون الاظهار فهذا لا يحبط الأعمال، اذ العمل قد تم على نعت الأخلاص، فما يطرأ بعده نرجو أن لا ينعطف عليه أثره، لاسيما إذا لم يتكلف اظهاره ولم يتمن ذلك.

نعم: لو ظهرت له رغبة في الاظهار بعد تمام العمل على الاخلاص فهذا مخوف، وفي الأخبار والآثار ما يدل على أنه محبط، لكن القياس أن يثاب على عمله و يعاقب على مراياته بعد ذلك.

وأما اذا ورد الرئاء قبل الفراغ؛ فأما أن يكون مسروراً لا يؤثر في العمل، أو يكون باعثاً على العمل. والأول لا يفسد العمل اذا لم ينعدم أصل نيته، فان تم عليه فلا خلاف أنه يعصى، وان ندم عليه في أثناء صلاته واستغفر ورجع قبل التمام، ففيا يلزمه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن صلاته لم تنعقد فليستأنف.

وثانيها: أن التحرية عقد والرئاء خاطر في القلب لا يفسد العقد، فليستأنف الركوع والسجود وسائر الأفعال.

وثالثها: لا يلزمه الاعادة أصلاً بل يستغفر الله بقلبه و يتم العبادة على الاخلاص، والختم على الأخلاص كالابتداء عليه.

واعلم: أن مذهب الفريقين الأخيرين خارج عن قياس الفقه. وانما القياس أن يقال: ان كان الباعث في ابتداء العقد مجرد الرئاء لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده، اذ النية اجابة باعث الدين وههنا لا باعث ولا اجابة، وأما اذا كان باعث الدين ثم تجدد له الرغبة لأجل الناس فهاهنا باعثان، فهذا اما أن يكون في صدقة أو قراءة، وما ليس فيه تحريم وتحليل يثاب بباعث الدين و يعاقب بقصده الفاسد، ولا يحبط أحدهما الآخر.

وان كان في صلاة أو حج يقبل الفساد بتطرق وخلل الى النية، فإن كان نفلاً فحكمه حكم الصدقة، وأما أن كان فرضاً وانبعث بمجموع الباعثين فهذا لا يسقط عنه الواجب، لأن الايجاب لم ينتهض بمجرده باعثاً، ويحتمل أنه صلى لوجه الله تعالى وقد اقترن غيره به، فلما وجد الأول سقط عنه الفرض، واقتران غيره به لا يمنعه كالصلاة في الأرضّ المغصوبة.

وأما إن كان الرئاء في المبادرة دون أصل الغرض بأنه ان خلا كان يصلي ولكن في آخر الوقت أو وسطه، فهذا مما يقطع بصحة صلاته، لأن أصل الصلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت. هذا كله في رئاء يكون باعثاً على العمل، فأما مجرد السرور بظهور العمل فبعيد بأن يفسد الصلاة،

والمسألة غامضة: اذ الفقهاء لم يتعرضوا لها أصلاً، والذين تعرضوا لها حكموا ببطلان الصلاة بأدنى خاطر، ولعل القصد ما ذكر.

المطلب الثالث عشر
في بيان دواء الرئاء

لأنه من كبائر المهلكات، وأنه قد انغرس في قلبه وهو في الصبا، لأنه يرى في الناس التصنع فيغلب عليه حب ذلك. **وفي علاجه طريقان:**

الأول: قلع عروقه واستئصال أصوله، وأصله حب المنزلة والجاه، وأصله ثلاثة: حب لذة المحمدة، والفرار من ألم المذمة، والطمع فيما في أيدي الناس. واصلاح كل هذه قد مر، ولكنا نذكر الآن ما يخص الرئاء: وهو أن رغبة العاقل في شيء لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ حالاً ومآلاً، فان علم أنه لذيذ حالاً وضار الأسهل عليه قطع الرغبة عنه؛ كما اذا علم أن في العسل سما.

ولا يخفى أن في الرئاء آفة عظيمة مآلاً، لأنه يحرم في الدنيا من التوفيق وفي الأخرى من المنزلة عند الله، بل يستحق البغض والمقت عند الله، ولو لم يكن فيه الا احباط طاعة واحدة كان كافياً في معرفة ضرره عند العاقل، مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب رضا الناس، مع أنه غاية لا تدرك، اذ كل ما يرضى به فريق يسخط به فريق، مع أن الله تعالى مسخر لقلوبهم بالمنع والاعطاء، اذ لا رازق الا الله، على أن في الطمع ذلاً لا يتناهى لا يفي حاصله بذله. على أنه أي خير لك في مدحهم وأنت عند الله مذموم، وأي شر لك في ذمهم وأنت عند الله محمود. هذه هي الأدوية العلمية.

وأما الأدوية العملية: فهو أن يعود نفسه اخفاء العبادات واغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله

واطلاعه على عبادته ولا تنازعه النفس الى طلب علم غير الله به.

ثم أن الرئاء اذا عرض في أثناء العبادة فطريق دفعه مجموع ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة، والأباء. مثلاً: يجب أن تعرف أن الله تعالى اذا كان عالماً بحالك فأي فائدة في علم غيره، فتثمر هذه المعرفة اذا رسخت في قلبه كراهة الرئاء بسبب تفكره في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم، فتنازع هذه الكراهة الشهوة الكامنة في القلب من حب المدح وبغض الذم، ثم تثمر هذه الكراهة اذا رسخت في القلب الآباء عن الرئاء. وأصل ذلك كله حب الدنيا وهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب.

فان نازع طبعه بعد تحقق الكراهة والآباء في قلبه الى حب الرئاء ومال طبعه اليه، فذلك لا يكون من المرائين لأن الطبع لا يدخل تحت الاختيار، ولم يكلف الله عبداً الا ما في وسعه، وهذا كله حال المتوسطين.

وأما المخلصون عن الرئاء فلهم في دفع خواطر الرئاء أربعة طرق:

أحدها: أن يطيل الجدال مع الشيطان، وذلك في الحقيقة نقصان: في السلوك.

وثانيها: أن يقتصر على تكذيبه ودفعه وهذا وقفة في الطريق.

ثالثها: أن يقرر في قلبه كراهة الرئاء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه.

ورابعها: أن يعزم أنه مهما نزع الشيطان الى أسباب الرئاء زاد فيما هو فيه من الأخلاص والأشغال بالله تعالى واخفائه الصدقة والعبادة، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان.

ثم اعلم: أن أرباب القلوب اختلفوا في طريق دفع مكايد الشيطان فلا حاجة بهم الى الحذر. ومنهم من قال ـــ وهم أهل الشام: ان التصرف بالنفع والضر انما هو لله تعالى لا شريك له في تدبيره، وان الشيطان ليس اليه أمر فاليقين بالواحدانية يغنيه عن الحذر.

ومنهم من قال ـــ من أهل العلم: لا بد من الحذر من الشيطان وقد أمرنا

الله تعالى به، ولا يسلم أحد من الشيطان وما ذكره البصريون من استغنائهم عن الحذر فهو غرور، اذ الانبياء لم تسلم من نزعات الشيطان فكيف غيرهم؛ قال تعالى: ﴿ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾[1].

ثم **المشتغلون بالحذر فرقتان:** فرقة تقول: لا أهم علينا منه فلا نشتغل الا به؛ وفرقة تقول: اشتغال الهم كله بالحذر منه هو مراد الشيطان ليصدنا بذلك عن ذكر الله، بل لا بد من الجمع بين الأمرين.

وقال المحققون: كلا الفريقين غلطا؛ أما الأولى: فلأنه نسي ذكر الله تعالى وانما أمرنا بالحذر لئلا يصدنا عن ذكر الله، ثم يؤدي ذلك الى خلو القلب عن النور ومن خلا عن النور لا يمكنه الحذر عن الشيطان أصلاً.

وأما الفرقة الثانية: فقد جمع بين ذكر الله وذكر الشيطان، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله تعالى، وقد أمر الله تعالى الخلق بذكره ونسيان ما عداه: ابليس أو غيره.

والتحقيق: أن يقرر الانسان أولاً عداوة الشيطان ووجوب الحذر منه، ثم يشتغل بذكر الله عز وجل و يكب عليه بكل الهمة، ولا يخطر بباله أمر الشيطان بعد ذلك، لأن هذا يستكن في قلبه فيتنبه في أثناء الذكر فيشغل به عن ذكر الله، لأن الانسان اذا استكن في قلبه أن يتيقظ في وقت الصبح لأجل مهم له ربما يتنبه أثناء نومه مرات وهو غافل عنه بالنوم، ولا يخفى أن ذكر الله يحيي قلبه بنور العلم والعقل ويميت الهوى والشهوات، فكفاه ذلك أمر الحذر من الشيطان.

---

(١) سورة الحج، آية: ٥٢.

المطلب الرابع عشر
في الرخصة في أظهار الطاعات

كما أن في الأسرار فائدة الأخلاص كذلك في الأظهار فائدة الاقتداء. **وآفة الرثاء والأظهار قسمان:**

أحدهما: اظهار نفس العمل؛ كالتصدق في الملأ لترغيب الناس في الصدقة، وكذا سائر الأعمال كالصلاة والحج، لكن بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرثاء، وبشرط أن لا يؤذي اظهاره الخلق كما هو الأكثر في التصدق.

ثم الناس اختلفوا ــ بعد اتفاقهم على جواز الاظهار للقدوة وعدم جواز الاظهار بدون قدوة ــ أن السر أفضل أم الاظهار للقدوة. والحق ان الاظهار ليقتدي به أفضل ما لم يشبه الرثاء، واذا خاف من شوب الرئاء فالأسرار أفضل.

ثم من يظهر العمل له وظيفتان:

احداهما: أن الأظهار بنية انما يصح فيمن يقتدى به الناس كالعلماء دون غيرهم.

ثانيتها: أن يراقب قلبه حتى لا تظهر نية أن يقتدى به، انما شهوته التجمل بالعمل وبكونه مقتدى به، وهذه حال كل من تظهر أعماله، الا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. والتفطن لذلك غامض، ومحك ذلك: ان تعرض على نفسك أن تخفي العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك، ويكون لك في ذلك مثل أجر الأعلان، فإن مال قلبه الى أن يكون المظهر نفسه فباعثه الرثاء.

وثانيها: الأخبار عن العمل. والخطر فيه أشد، لأن النطق يخف على اللسان، وربما يزيد اظهاراً للدعوى لأن لذة النفس فيه عظيمة.

وأما من جهة أن الرثاء الثاني لا يفسد العمل السابق فهو أهون، الا أن من قوي قلبه واستوى عنده مدح الناس وقدحهم وصفت النية وسلمت من جميع

الآفات يجوز حكاية أعماله، لأنه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير. قال بعض العارفين: ينبغي أن لا يسد باب اظهار الأعمال لأن ذلك سبب لأتباع الناس واقتدائهم بمن يظهرها اذ لم يعرفوا رئاه، ففي ذلك خير كثير للناس وان كان شراً للمرائي، وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

المطلب الخامس عشر
في الرخصة في كتمان الذنوب

اعلم: أن كتم الذنوب ليس برئاء، بل اظهار الورع والتقوى حتى يجوز الاغتمام باطلاع الناس عليه من ثمانية وجوه:

الأول: أن يفرح بستر الله عليه، واذا افتضح اغتم وخاف أن يهتك ستره في القيامة، وهذا غم ينشأ من قوة الايمان.

الثاني: أنه قد علم ان الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها، كما قال صلى الله عليه وسلم: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله». وهذا أيضاً من قوة الايمان.

الثالث: أن يكره ذم الناس له لأنه يشغل القلب عن الطاعة، كما أن الحمد يكره أيضاً لأنه أيضاً يشغله عن الله، وهذا أيضاً من حب الطاعة لله تعالى.

الرابع: أن يكره ذم الناس لتألم قلبه، وتألم القلب بالذم ليس بحرام ولا انسان به عاص، وانما يعصى اذا جزعت نفسه ودعته الى ما لا يجوز حذراً من ذمهم. نعم: كمال الصدق في أن يستوي ذامه ومادحه لعلمه أن العباد كلهم عاجزون، وذلك قليل جداً، الا أن بعضاً من الذم يجب التألم به؛ كما اذا صدر من أهل البصيرة، فأنهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله فكيف لا نغتم به. وانما المذموم: الغم بالذم بفوات الورع، كأنه يحب أن يحمد بالورع فيرجع الى الرئاء. وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم، فله الستر حذراً من ذلك.

الخامس: أن يكره الذم من حيث أن الذم قد عصى الله به، وهذا من الايمان.

السادس: أن يستر ذلك كي لا يقصد بشر اذا عرف ذنبه، وهذا وراء ألم الذم.

السابع: مجرد الحياء فأنه نوع ألم وراء ألم الذم، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل، فيستحي من القبائح وهو وصف محمود؛ وفي الحديث: «الحياء خير كله»؛ وفيه: «الحياء شعبة من الايمان». ثم ان الحياء قد يعقبه الرئاء؛ كمن لا يريد اقراض أخيه ولكن يستحيي من رده، فحينئذ إن أعطاه لينتشر اسمه بالسخاء أو لا ينسبوه الى البخل فقد أعقب الحياء الرئاء، وان أعطاه للثواب في الأقراض أو لأدخال السرور على قلب أخيه فقد أعقبه الاخلاص، وان أعطاه لا لأجل المحمدة ولا خوف المذمة ولا رجاء للثواب فقد أعطاه لمجرد الحياء، و يعلم بأنه لو طلبه بالمراسلة لمنعه.

الثامن: أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره و يقتدى به، وبهذه العلة ينبغي أن يخفى العاصي معصيته عن أهله وولده لئلا ـ يتعلمونه منه.

واعلم: أن حبك محبة الناس لك قد يحمد اذا أردت حبهم على حجك وغزوك وصلاتك، فأنه طلب عوض على طاعة الله عاجلاً، وقد يباح اذا أردت أن يحبوك بصفات محمودة سوى الطاعات.

المطلب السادس عشر
ترك الطاعات خوفاً من الآفات

وهذه أقسام:

الأول: الطاعات اللازمة للبدن الذي لا يتعلق بالغير ولا لذة في عينها؛ كالصلاة والحج والغزو، فخطرات الرئاء فيها ثلاث:

أحدها: الرئاء الباعث على العمل، فينبغي أن يترك العمل عند ذلك أو يدفع الرئاء.

وثانيها: أن يعقد العبادة على الاخلاص ثم يعرض الرئاء، فينبغي أن يدوم على العمل، ويجاهد في دفع الرئاء ولا يترك العمل.

ثالثها: أن يعقد على الاخلاص في أولها و يعرض الرئاء في أثنائها، فيدوم على العمل أيضاً، ولكن يجاهد في أن يرجع الى الاخلاص. وربما قال الشيطان: لا فائدة لك في هذا العمل واتركه. وهذا غرور منه لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله، وترك العمل لأجل ذلك يجر الى البطالة، وما نقل عن السلف من ترك العمل للرئاء فذلك محمول على النوافل أو العلاج لأنفسهم بخلاف الأفضل، لشدة الخوف.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق. وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم انفاق المال.

أما الخلافة والأمارة: فهي من أفضل العبادات اذا كانت مع العدل والأخلاص، مع ما فيها من عظيم الخطر، اذ يغلب فيه على النفس حب الجاه ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا. ولهذا ورد في الأخبار والآثار الترغيب فيها والتنفير عنها. فيجب أن لا يمنع منها الخواص والأقوياء، وهم الذين لا تميلهم الدنيا ولا يستفزهم الطمع ولا يأخذهم في الله لومة لائم وسقط الخلق من أعينهم.

ولكن لا يدور حولها الضعفاء فيهلكون لأنهم وان صبروا عن الحق كافة أنفسهم عن الشهوات في غير الولاية، لكن لا أمن لهم من أن يتغير اذا ذاقوا لذة الولاية، وأن يستحلوا لذة الولاية ونفاذ الأمر، وأن يكرهوا العزل فيداهنوا خيفة من العزل. ولهذا تمنع الضعفاء من تقلد الولاية عند الأكثرين. قال بعضهم: يجوز التقلد اذا أمن في الحال عن اتباع الهوى. ولا يمنعه عنه الخوف عن أمر في المستقبل.

والصحيح: القول الأول وهو عدم التقلد، لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلا يعتمد عليها. ثم ان الامتناع عن قبول الولاية أهون عند النفس من العزل، لأنه كما قيل: طلاق الرجل، والنفس لا تسمح به، فيميل الى المداهنة واهمال الحق فهوى به في قعر جهنم، الا أن يعزل قهراً ففيه عذاب عاجل.

وأما القضاء: ففيه ثواب عظيم مع اتباع الحق وعقاب أليم مع العدول عنه، فهو كالأمارة والولاية وفي معناهما وان كان في الحكم دونهما. فينبغي أن يتركه من يخاف عن العزل ولا يفرح بدونه، اذ يلتزم خوفاً من العزل اتباع الهوى فهوى مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار.

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر: فآفته أيضاً عظيمة مثل آفة الولايات. فان قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلوم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق؛ قلت: أما النهي فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، مع ما في عدم السلطنة والامارة من الفتن والفساد ما لا يخفى، ومع ذلك النهي لم تتعطل تلك الولايات لكون النفوس مجبولة على حب الرياسة، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس، فعلى هذا تعدد الواعظ في البلد، فليس في النهي الا امتناع البعض، اذ ترك الكل لذة الرياسة في حد الامتناع، ولو انحصر في واحد وكان وعظه نافعاً للناس فلا نمنعه وان قال: لا أملك نفسي، لأنه لو ترك أهلك الناس بل يقال له: أشتغل وجاهد أيضاً لو كان غرضه الجاه، وفي الاشتغال يهلك هو وحده، وفي الترك يهلك الناس كلهم فنجعله فداء للقوم، فيدخل فيمن قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم».

ثم أن الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته، وأما ما أحدثه الوعاظ من الكلمات المزخرفة والمسجعة المقرونة بالأشعار، فأنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان يجب اخلاء البلاد منهم.

وبالجملة: فضل العلم عظيم الا أن خطره كثير، وذلك ليس لنفس العلم بل لأظهاره والتوسل به الى الرئاء، فالأحب أن لا يترك لآفته بل يحصله و يدفع الآفات بالمجاهدة.

ثم في الواعظ علامات يعرف بها صدقه واخلاصه:

أحدها: أنه لو ظهر عالم هو أغزر منه علماً والناس أشد له قبولاً يفرح به ولم يحسده، وان فعل فالغبطة.

وثانيها: أن لا يتغير كلامه اذا حضروا مجلسه.

وثالثها: أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق.

ومما ينبغي أن يعلم: أن العبد ربما يقع بين أظهر قوم يقومون للتهجد فيوافقهم، ففيه أمران:

أحدهما: أن موافقته لهم إن كان بسبب رفع الثقلة بمشاهدة عبادتهم ودفع الأشغال الواقعة في بيته، أو لمفارقته النوم لأستنكاره الموضع أو لسبب آخر فيغتنم زوال النوم، فهذا وأمثاله من الأسباب ليس من الرئاء بل هو تجدد النشاط. وأما اذا فعل ذلك لأجل رؤيتهم وخوفاً من مذمتهم، لا سيما اذا اعتقد أنهم يظنونه يقوم بالليل، فليتركه فأنه من الرئاء. وربما يكون فعله لباعث الدين مقروناً بحب الحمد فلا يترك أيضاً، ويمتحن نفسه بأنه لو لم يروه هل يترك العمل أو يستثقله أم لا، فان كان الأول فهو من الرئاء، والا فلا.

وأصل العلاج في هذا الباب: القناعة بعلم الله تعالى في جميع طاعاته، واذا خطر جانب العباد: يتذكر عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامها أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته. إلا أنه لا ينبغي أن ييأس بأن يقول: لا ينجو من الرئاء الا الأقوياء، فيترك المجاهدة في الأخلاص، اذ اليأس عن صفاء الماء بعد كدره من الجهل بحقيقة الماء وخلو جوهره عن المكدرات وصفائها عن الملوثات؛ ومثال النفس مثال الماء.

واعلم: أن الله تعالى كريم رحيم، لو شاء لأغنى عباده عن التعب

والنصب، ولكن أراد أن يبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم أنه لا يضيع سعي الراجي ولا يخيب أمل المحب، وقد قال: «من تقرب الي شبرا تقربت اليه ذراعاً، ومن تقرب الي ذراعاً تقريب اليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»؛ وقال: «لقد طال شوق الأبرار الى لقائي وأنا الى لقائهم أشد شوقاً». فليظهر العبد جده وصدقه وأخلاصه فلا يعوزه ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

الأصل التاسع
في ذم الكبر والعجب

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في ذم الكبر والاختيال وفضيلة التواضع

واعلم: أن الله تعالى ذم الكبر والاختيال، ومدح التواضع في مواضع كثيرة من كتابه بحيث لا يخفى على أحد ذلك. وكذلك وقع في الأحاديث ما يوافق القرآن أخبار كثيرة لا يمكن حصرها مع شيوعها عند الناس.

واعلم: أن الكبر صفة في النفس وما في الظاهر من أماراتها، وهو أن يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال فيحصل في قلبه اعزاز وهزة وفرح وركون الى رؤية نفسه؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بك من نفخة الكبر».

وأما العجب: فلا يشترط فيه رؤية الغير، بل لو خلق وحده يحصل العجب.

وأما الكبر: فيشترط فيه ذلك. وأما الآثار الظاهرة منه ــ و يسمى تكبراً ــ أن يحقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، وربما يشتد الكبر فيستنكف عن خدمته أيضاً بل عن خدمة عتبته، وأدنى مراتبه أن يأنف عن مساواته؛ فيأنف أن يرد عليه أن ناظره. ثم أنه ربما ينظر الى العامة كأنهم الحمير و يستحقرهم، الى غير ذلك من الأحوال القبيحة، قلما أن ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن العوام.

المطلب الثاني

في أقسام الكبر باعتبار المتكبر عليه

وهي ثلاثة:

الأول: التكبر على الله؛ كما فعله نمرود وفرعون، وهو من أفحش أنواع الكبر وأقبحها والعياذ بالله.

الثاني: التكبر على الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه من حيث ترفعه عن الانقياد لبشر، وذلك تارة مع الجهل بحقيقته حيث يصرف الكبر عن الفكر فيه، وتارة يعرف حقيقته ولكن لا تطاوعه نفسه بالأنقياد.

الثالث: التكبر على العباد بأن يترفع عليهم و يستصغرهم و يزدريهم. وهذا وان كان دون الأول لكنه عظيم أيضاً من وجهين:

أحدهما: أن العز والكبر لا يليق الا بالملك القادر والعبد بمعزل عن ذلك.

ثانيهما: أنه يدعو الى مخالفة الله عز وجل، لأنه ربما يسمع الحق من عبد فيأنف عن قبوله و يتشمر لجحده، كما تشاهده في المناظرين في مسائل الدين، كما فعله ابليس حيث جره كبره الى مخالفة أمر الله تعالى.

المطلب الثالث

في أقسام ما به الكبر

وهي سبعة:

الأول: العلم. وما أسرع الكبر الى العلماء، لأنهم يرون أنفسهم كمال العلم وجماله، فيستعظمون أنفسهم و يستحقرون من عداهم، و يتوقعون منهم الخدمة و يسخرونهم في حوائجهم بمنزلة عبيدهم. هذا أمر الدنيا. وأما في الآخرة: فيرون أنفسهم عند الله خيراً منهم، فيرجون لأنفسهم أكثر مما يرجون لهم، ويخافون عليهم أكثر مما يخافون على أنفسهم، مع العلم الحقيقي أن يعرف

الانسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة، وان حجة الله على العلماء أعظم من حجته على الجاهل، وذلك يقتضي أن يرى كل أحد خيراً منه.

والكبر في العالم: أما باشتغاله بما ليس هو يعلم؛ كالطب والحساب واللغة والشعر والنحو وطريق فصل الخصومات والمجادلات، وهذه صناعات، وانما العلم الحقيقي ما يورث الخشية والتواضع؛ وأما بأن يشتغل بالعلم لكن هو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الأخلاق، لأنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه، فإذا خاض في العلم ــ أي علم ــ كان صادف من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم تطب ثمرته، ولم يظهر في الخير أثره، وانما العلم كالغيث تشربه الأشجار فيزيد المر مرارة والحلو حلاوة، وكذا العلم يزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً.

وما أعز على بسيط الأرض عالماً لم يحركه عز العلم، ولو عرفنا ذلك بأقصى الصين لسعينا اليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري الينا سيرته وسجيته، ولكنه هيهات أنى يسمح آخر الزمان بمثلهم.

الثاني: العمل والعبادة؛ بأن يروا غيرهم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بحوائجهم، وتوقيرهم والتوسيع لهم في المحافل، وذكرهم بالورع والتقوى، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق؛ وكذا في الدين: يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً الا أنه هو الهالك تحقيقاً.

وان منهم من يظن أنه أكرم على الله من الأنبياء حيث انتقم له من أعدائه اذا أصابهم مكروه، ويزعم ان ذلك من كراماته، وكثير من أعداء الأنبياء أمهلهم الله في الدنيا وربما أسلم فسلم في الآخرة أيضاً.

ثم الكبر في العلماء: أما أن يستكن في قلبه ويتواضع ظاهراً، أو يظهر على أفعاله أيضاً، وأشد منهما من يظهر في أقواله، بأن يدعي بالمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأعمال والمقدمات، والتبشر بغلبة في العلم والعمل.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب. وذلك عرق دفين في النفس قلما ينفك عنه نسيب وان كان عاقلاً وصالحاً الا أنه يطفىء ذلك بنور بصيرته.

الرابع: التفاخر بالجمال. وأكثر ما يجري ذلك بين النساء، و يدعو ذلك الى الغيبة وذكر عيوب الناس.

الخامس: الكبر بالمال. وذلك يجري بين الملوك في الخزائن، والتجار في بضائعهم، بين الدهاقين في أراضيهم، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، وكل ذلك جهل منه بآفة الغنى وفضل الفقر.

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان والعشيرة والأقارب والبنين. ومن ذلك: المكاثرة بالمستفيدين بين العلماء والجنود بين الملوك.

المطلب الرابع
في أسباب الكبر

وهي أربعة:

أحدها: العجب. وأنه يورث الكبر الباطن، وهو يثمر التكبر.

ثانيها: الحقد. لأنه اذا رسخ في القلب تأنف النفس أن تطاوع ذلك وأن تتواضع له، فكم من رذيل لا تطاوع نفسه أن يتواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه.

وثالثها: الحسد. وهو أيضاً يبعثه على أن يعامله بأخلاق الكبر وان لم ير نفسه فوقه في باطنه.

ورابعها: الرئاء. فان كثيراً من الناس يتكبر على آخر ولا يستفيد منه العلم لئلا يقول الناس انه أفضل منه.

وأما آثار المتكبر في الشمائل: صفر الوجه، والنظر شزراً، واطراق الرأس، والجلوس متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله تغير في صوته ونغمته وصيغته في الايراد. وربما يظهر في مشيه وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، الى غير ذلك.

وربما يجتمع الكل في شخص، وربما يتكبر شخص في بعضها و يتواضع في غير ذلك.

المطلب الخامس
في طريق معالجة الكبر

وهي اما باستئصاله أو دفع العارض منه.

أما الأول: فأما علمي: وهو أن يعرف نفسه وربه، اذ عند ذلك يعرف أن له الذل ولربه الكبرياء، و يعرف أن بدنه من أي شيء خلق والى أي شيء سيؤول في القبر وعند الحشر وأهواله، ثم هو إمّا الى الجنة وإمّا الى النار.

وإمّا عملي: وهو التواضع لله ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، و يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد».

وأما الثاني: فبدفع الأسباب السبعة المذكورة.

وأما الكبر بالنسب: فيدفعه بأنه الاعتزاز بكمال غيره، وان النسب الحقيقي نطفة قذرة، وجده البعيد تراب ذليل، فمن أين جاءت الرفعة لولده وأصله توطأ بالأقدام وفضله يغسل عنه الأ بدان.

فأما الكبر بالجمال: فبأن ينظر الى ما في بطنه من الأقذار والنجاسات، وجريانه أولاً من الذكر، ثم قراره في الرحم، ثم خروجه من مجرى القذر.

وأما علاج الكبر بالقوة: فبأن ينظر الى ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق من بدنه لصار أعجز من كل عاجز، وان دخلت بقة في أنفه أو نملة في أذنه قتلته، وان شوكة لو دخلت في رجله لأعرجته، وان الحمار والثور والجمل يفوقك في هذا فأي فضل لك فيها.

وأما علاج الكبر بالغنى والمال والأتباع والأنصار: فعلاجه ان هذه الأمور في معرض الآفات ولو زالت عنك لبقيت وحدك، فأي فخر لك في ذلك.

وأما علاج الكبر بالعلم: فن أصعب الأمور وأشدها لأن قدره عظيم عند الله وعند الناس، **ففيه طريقان:**

أحدهما: أن يعرف أن حجة الله تعالى على العالم أوكد، لأن عصيانه أفحش من عصيان الجاهل.

وثانيها: أن يعلم أن الكبر لا يليق الا بالله عز وجل، وانه اذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً. قال تعالى للعالم: «ان لك عندنا قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندنا».

وأيضاً: أن العالم اذا تكبر فهو جاهل، فكيف يتكبر بالعلم وهو جاهل، فلا بد أن يصغر نفسه حتى يعظم عند الله. فإذا أنه نظر الى جاهل يقول: أنه قد عصى الله بجهل وقد عصيته بعلم فهو خير مني؛ وان نظر الى عالم يقول: أنه يعلم ما لا أعلم؛ وان نظر الى كبير يقول: هو أكبر مني سناً وأطاع الله قبلي؛ وان نظر الى صغير يقول: انه عصى الله بعدي؛ وان نظر الى مبتدع أو كافر يقول: ما يدريني لعل الله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن.

ولكن ينبغي أن لا يؤدي هذا التواضع الى مداهنة الفساق واطفاء نور الغضب لله، اذ عليك عند غضبك لله ملاحظة ما سبق من ذنوبك، وتميزك عنه بالعلم والعمل انما هو نعمة من الله تعالى، وملاحظة ابهام عاقبتك، فبملاحظة هذه الأمور لا يؤدي الغضب لله الى الكبر، فيجتمع عند ذلك مع التواضع، فيكون باعث الغضب رضا مولاك لا نفسك بأن ترى نفسك ناجياً وذلك هالكاً.

وأما علاج التكبر بالورع والعبادة: فطريقه طريق معالجة الكبر بالعلم. ولا ينافي ذلك فضل العابد على الفاسق عند الله، لأنه وان كان كذلك عند الله لكن لا شعور له بالختم على العبادة والورع، فلا يتكبر على الفاسق فضلاً عن المستور.

ثم أن معرفة الكبر من النفس قد يصعب، اذ قد يستكن في القلب فلا يشعر به صاحبه، فله امتحانات:

أولها: أن يذعن للحق ان ظهر في واحد من أقرانه، و يشكر له على تنبيهه للحق، والا ففيه الكبر. وعلاجه أن يذكر خسة نفسه وان الكبر لا يليق الا بالله عز وجل، وأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق و يشكره على الاستفادة منه، و يقول: جزاك الله خيراً قد كنت غافلاً عنه. وان لم يثقل ذلك في الخلوة بن في الملأ ففيه رئاء فليعالجه، وان ثقل فيهما معاً ففيه الكبر والرئاء جميعاً.

وثانيها: أن يقدم الأقران على نفسه في المحافل، فليواظب عليه أن ثقل ذلك عيه حتى يسقط ثقله و يذهب كبره، الا أن هاهنا مكيدة الشيطان وهو أن يقدم أقرانه ويجلس هو في صف النعال، أو يجعل بينه وبين أقرانه بعض الأرذال، وليس هذا تواضعاً بل هو عين الكبر، اذ يوهم بذلك أنه ترك مكانه تفضيلاً فيكون تكبراً في صورة التواضع بل التواضع حقيقة أن يجلس تحت أقرانه ولا ينحط عنهم الى طلْق النعال أيضاً.

وثالثها: أن يجيب دعوة الفقير ويمر في حاجات الرفقاء والأقارب الى السوق، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر. وعلاجه ما مر من المواظبة على دفعه مع المعارف التي تزيل داء الكبر.

ورابعها: أن يحمل حاجة نفسه وأهله وأقاربه ورفقائه من السوق الى البيت، فان أبت نفسه فهو كبر ان خلا الطريق ورئاء عند مشاهدة الناس يجب علاج كل منهما بما مر. وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد، مع أن الأجساد تفنى البتة والقلوب لا تدرك السعادة الا بالسلامة عن الآفات.

وخامسها: أن يلبس ثياباً بذلة، فان نفر عنها في الملأ فرئاء، وفي الخلاء فكبر، وقد يجتمعان. فأعرف الأمراض أولا حتى تمكن مداواتها.

ثم اعلم: التواضع واسطة بين الكبر والمذلة، وهما مذمومان، وخير الأمور أوساطها. فمن يتقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن يتأخر عن اسكاف مثلاً وأجلسه مجلسه، ثم سوى نعله وعدا الى باب الدار خلفه فهو تذلل وتخسيس، بل

يكيفه البشر في الكلام والتعظيم بالقيام والرفق في السؤال واجابة دعوته وغير ذلك. وليحذر عن الطرفين وليطلب الوسط مهما أمكن.

المطلب السادس

في العجب

وذمه مثل ذم الكبر، وقد كثر ذمه في الآيات والأحاديث. وقد ذكرنا حقيقته والفرق بينه وبين الكبر، ولنذكر آفاته وهي كثيرة، لأنه يدعو الى الكبر، وآفاته قد مرت.

ومن آفاتها: أنه ينسى ذنوبه و يظن أنه يستغني عن تفقدها، و يستصغرها ولا يتداركها، وربما يظن أنها تغفر له. وأيضاً: يستعظم عباداته ويمن بها على الله تعالى، و ينسى نعمة الله تعالى بالتوفيق والتمكين منها، و يعمى عن آفاتها، و يغتر بنفسه وربه و يأمن مكر الله وعذابه، و يظن أنه عند الله بمكان، ويخرجه العجب الى أن يثني على نفسه ويحمدها و يزكيها، فيستبد برأيه وان كان خطأ، و يستنكف عن سؤال من هو أعلم منه، ولا يستمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر غيره بعين الاستجهال. وان كان خطأه في أصول العقائد يهلك أبداً.

واعلم: أن الانسان ان كان خائفاً على زوال نعمه من علم ومال فهذا ليس بمعجب؛ وان كان خائفاً من زواله، لكن يكون فرحاً به من حيث أنه نعمة من الله سبحانه عليه لا من حيث اضافته لنفسه، وهذا أيضاً ليس بمعجب؛ وان كان غير خائف عليه، بل يكون فرحاً به مطمئناً اليه، و يكون فرحه من حيث أنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة، وبالجملة: يكون فرحه من حيث نسبته الى نفسه لا الى الله تعالى فهو عجب لا محالة، وان انضاف الى ذلك أنه مستحق لهذه الكرامة في الدنيا لأن له على الله تعالى حقاً، حتى استبعد أن يجري عليه مكروه، وسمي هذا ادلالاً بالعمل فكأنه يرى نفسه على الله دالة؛ وأيضاً أن أعطى غيره شيئاً فاستعظمه ومن عليه يكون معجباً؛ وان استخدمه واقترح عليه الاقتراحات

واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاًعليه، فالادلال وراء العجب، فلا يدل الا وهو معجب، ورب معجب لا يدل، فان توقع اجابة الله دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلاً بعمله، وهو من مقدمات الكبر.

المطلب السابع
في علاج العجب

والعجب جهل وعلاجه المعرفة؛ مثلاً: الورع انما يعجب به من حيث أنه محله ومجراه، أو من حيث أنه منه ولقدرته وقوته. والعجب بالأول جهل محض اذ لا فخر بما ليس أمره اليه، وبالثاني أيضاً كذلك. فيتأمل في قدرته وارادته وسائر الأسباب التي بها يتم علمه أنه من أين كان له ذلك، فان كان جميع ذلك من نعمة من الله، من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون أعجابه بجود الله وكرمه وفضله، فكل كمال وعلم وجمال من فضل الله، وانما هو محل لفيضان فضله وجوده، والمحل أيضاً من جوده وفضله.

فان ادعيت ان كل ذلك اعمالي حتى أرجو لها ثواباً، فأعلم: أنك وقدرتك وارادتك وحركتك كل ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت اذ عملت؛ كما قال تعالى: ﴿ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾[1]. هذا هو الحق الصريح الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من أبصار العين.

وأما كيفية الثواب فسيجيء في كتاب الشكر.

وأيضاً مفاتيح الأعمال: القدرة والارادة والعلم، وهذه بيد الله تعالى لا محالة، فتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب ليس شيء اليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن اليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في ايثاره اياك على الفساق من عباده. وسيأتي ما يستبين به أنه لا فاعل الا هو ولا خالق سواه، ومن غفل عن ذلك ربما يقول: يا رب لم

(١) سورة الأنفال، آية ـ ٧.

أفقرتني وأنا العاقل؛ لكنه كلام جاهل غافل، اذ لو جمع بينهما لقال الفقير الجاهل: يا رب لم جمعته بينهما وحرمتني عنهما. فإذا اقتضت الحكمة أن العلم متى ازداد نقص من المال اللهم الا نادراً، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثم أن أقسام العجب أقسام الكبر بعينها، وعلاجها علاجها، فاعتبر كل ذلك هاهنا، والأمر ظاهر لمن له بصيرة تامة، والله أعلم بالصواب.

الأصل العاشر
في ذم الغرور

وفيه مطالب:

المطلب الأول

قد ذم الله تعالى ورسوله الغرور بحيث لا حاجة الى ذكرها.

وأما حقيقته: فهو من أنواع الجهل، وهو: سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل الى الطبع من شبهة وخدعة من الشيطان، ومن اعتقد أنه على خير عاجلاً أو آجلاً من شبهة أو مخيلة فاسدة فهو مغرور. فأكثر الناس اذا مغرورون وان اختلفت أصنافهم ودرجاتهم؛ مثل أن يقال: الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد خير من النسيئة؛ وأن يقال: لذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا يترك اليقين بالشك. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس في قوله أنا خير منه، ولا يخفى فساد هذه الأقيسة اذ النقد خير من نسيئة هي مثله، واليقين خير من شك هو مثله لا مطلقاً. وأيضاً: الآخرة ليست شكاً بل هي يقين عند المؤمنين. هذا غرور الكفار.

وأما غرور العصاة من المؤمنين، فقولهم: أن الله كريم نرجو عفوه، و يسمون تمنيهم هذا رجاء، وأنه محمود في الدين، وان رحمة الله واسعة للمؤمنين، وانا مؤمنون موحدون. الا أنه قياس مموه، اذ الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله، وما ذكروه هو التمني غير الشيطان اسمه الى الرجاء وخدع به الجهال.

وأيضاً: ربما يتمنون بصلاح الآباء كاغترار العلوية، الا أن آباءهم مع غاية

الورع والتقوى خائفين، فما بالهم يأمنون مع فجورهم وفسقهم، فكأنهم أكرم على الله من آبائهم فيغرهم الشيطان، و يقولون: من أحب انساناً أحب أولاده، مع أن نبينا صلى الله عليه وسلم أذن له في زيارة قبر أمه ولم يؤذن له في الاستغفار، فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها. والتقوى فرض عين على كل أحد فلا يجزى والد فيه عن ولده شيئاً، وكل ذلك غرور باطل.

وانما موضع الرجاء: من تاب من المعاصي ورجا قبول التوبه، و يتذكر ان الله كريم يقبل التوبة عن عباده؛ ومن اقتصر بالفرائض من الأعمال ورجا نعيم الآخرة وما وعد الله به الصالحين، فالواجب ملاحظة ان الله غافر الذنب شديد العقاب وأنه الغفور والمنتقم. وأيضاً: هو المبتلي عباده في الدنيا بأنواع المحن والآلام مع أنه قادر على ازالتها. فإذا كانت سنة الله تعالى على هذا المنوال فكيف يغتر به عباده، فالرجاء والخوف قائدان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور وتمن باطل.

المطلب الثاني
في أصناف المغترين

منهم: العلماء. وهم ستة أصناف:

الأول: من أحكم العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها، وأهملوا محافظة الجوارح عن المعاصي والزامها الأعمال الصالحة، وظنوا أنهم بعلمهم عند الله بمكان. وهم مغرورون، لأن العلم: أما علم مكاشفة و يسمونه علم المعرفة وعلم التصفية، وهم بمعزل عنها؛ وأما علم المعاملة الذي سموه علم الشرائع، فذلك لأجل العمل، فلو لم يعمل به لم يكن له قيمة لا عند الله ولا عند الخواص، اذ العلم بالدواء لا يزيل المرض ما لم يستعمله.

الثاني: الذين أحكموا العلم والعمل وتركوا المعاصي الا أنهم لم يفتقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة: من الكبر والحسد والرئاء وطلب الجاه ونحوها. وهؤلاء أيضاً مغرورون، اذ لا ينجو في الآخرة الا من أتى الله بقلب سليم.

الثالث: الذين علموا مذمومية هذه الأخلاق، الا أنهم لعجبهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وانما يبتلي به العوام، وربما يعتذر من كبره و يقول: ان هذا طلب عز الدين واظهار شرف العلم. وهؤلاء أيضاً مغرورون، اذ العجب من أشد الصفات المهلكات، وأيضاً يداخل السلاطين و يقول: غرضي نفع المسلمين، واذا أخذ من أموالهم يقول: مال لا مالك له وأنا امام المسلمين وعالمهم ويحل لي الأخذ بقدر الحاجة. **وفي ذلك غروران:**

أحدهما: انه لا مالك له وكيف لا أنهم يأخذون اموال المسلمين وهم، أو ورثتهم أحياء وخلطها بالحلال لا يجعله حلالاً.

وثانيها: قوله: أنا امام وكيف لا، ومن انتهى جرأته في أخذ الحرام الى هذه الرتبة فهو دجال الدين وقوام مذهب الشياطين.

الرابع: الذين أظهروا العلوم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات، وجاهدوا أنفسهم في التبري من ذمائم الأخلاق، الا أنهم مغرورون، اذ بقيت في زوايا القلب خفايا من مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس، فتراه يسهر ليله و يتعب نهاره في التصانيف حرصاً على اظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف وكثرة الرحلة اليه من الأكناف، وهذا المسكين لو تغيرت عليه للقلوب فعساه يتشوّش عليه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه.

الخامس: الذين اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وخصصوا علم الفقه بها، وضيعوا الأعمال الظاهرة والباطنة، ولم يمنعوا ألسنتهم عن الغيبة، و بطونهم عن الحرام، ورجليهم عن المشي الى السلاطين، ولم يزكوا قلوبهم عن الكبر والرئاء والحسد وأمثال ذلك. فهؤلاء مغرورون؛ أما من حيث العمل: فأنه اشتغل بفرض الكفاية ان صحت نيته قبل الفراغ من فرض العين، لأنه اشتغل بالفتاوى ــ وهي فرض كفاية ــ وترك فرض العين وهو اصلاح نفسه؛ واما من حيث العلم: فأنه ظن علم الفتاوى علم الدين وترك

علم كتاب الله وسنة رسوله، وربما طعن على المحدثين بأنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون.

السادس: الذين اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، واعتقدوا ان العمل لا يصح الا بالايمان، والايمان لا يصح الا بمناظراتهم ومجادلاتهم. ثم أنهم اما ضالة وهم الذين يدعون الى غير السنة، وأما محقة وهم أهل السنة والجماعة. وكلهم مغرورون.

أما الأولى: فلضلالهم ورؤيتهم الشبهة دليلاً.

وأما الثانية: فلظنهم الجدال من أفضل القربات في الدين.

وأما من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير فليس بمؤمن ولا بكامل الايمان ولا بمقرب عند الله.

إلا أنهم لا لتذاذهم بالغلبة والأفحام والانتماء الى الذب عن الدين عميت بصيرتهم، فلم يلتفتوا الى القرن الأول، حيث أرشدوا الضال وهجروا المصرين على الضلال ورأوا من الدين ترك الجدال. ثم الأكياس قالوا: انا نهينا عن الجدال ولم ننته عنه فلا ينفعنا يوم القيامة، مع أن المبتدع لا يترك بدعته بالجدال بل يزيده التعصب والخصومة.

فالأولى بنا أن نتفقد أنفسنا ونتنزه عما يبغضه الله من الصفات ونتمسك بما يحبه.

ومنهم: الوعاظ. وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب: من الخوف والرجاء والصبر والشكر والاخلاص والصدق ونظائر ذلك. وهم مغرورون بأن من تكلم بهذه الصفات يصير موصوفاً بها، وأنهم ما تبحروا في علم المحبة الا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص الا وهم مخلصون.

والمسكين يرى أنه خائف من الله وهو آمن، و يرى أنه من الراجين وهو من المفترين، و يرى أنه من المخلصين وهو من المرائين، وهم يحسنون بأنفسهم

الظنون، فإذا كشف عنهم الغطاء يفتضحون، بل تندلق أقتابهم في النار فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى — كما ورد به الخبر.

وانما سبب غرورهم مصادفتهم في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني؛ من حب الله والخوف منه والرضا بفعله، فظنوا أنهم اتصفوا بها، فهيهات هيهات، ولا يخلو عن القدر أحد من المؤمنين الصالحين وانما الكمال أمر آخر يعرفه أهله.

وصنف منهم عدلوا عن المنهاج الواجب الى الشطح والطامات وتلفيق كلمات مخالفة للشرع للأغراب. وصنف آخر منهم شغفوا بتسجيع الألفاظ وذكر الفراق والوصال، ليكثر في مجلسهم التواجد والزعقات، فهؤلاء شياطين الأنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فيزيد كلامهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا، لا سيما اذا تزين بالثياب والخيول. وصنف منهم حفظوا كلام الزهاد في ذم الدنيا، و يؤدونها في المساجد والمنابر، و يظنون أنهم قد أفلحوا بهذا وصاروا آمنين من عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره و باطنه عن الآثام.

وصنف منهم استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث وطلب الأسانيد الغريبة العالية، ولهم غرور من وجوه:

أحدها: أنهم حملة الأسفار يظنون ان ذلك يكفيهم.

وثانيها: اذا لم يفهموها لم يعملوا بها.

وثالثها: أنهم يتركون ما هو فرض عين وهو معالجة القلب.

ورابعها: انهم لا يراعون شروط السماع أيضاً: وهي السماع، ثم التفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر والبيان. وهم يقتصرون على السماع، و يقصرون في السماع أيضاً، اذ ربما يحضر الصبي والشيخ، والصبي يلعب والشيخ ينام، والبالغ الحاضر ربما يغفل ولا يصغي، ثم يكتب الشيخ اسم الكل في الأجازة، و يتصدى كل منهم لرواية كل ما قاله الشيخ ولم يسمع بعضه، الا أن للمحدثين في ذلك جاهاً فخاف المساكين ان اشترطوا ذلك أن يقل جمعهم.

ومنهم: المشتغلون باللغة وغريبها والشعر والنحو، وأغتروا به وزعموا انهم علماء الأمة، اذ قوام الكتاب والسنة بما ذكر، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وغرائب اللغة. وفي حكمهم من ضيع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه، لأنهم اتخذوا القشر مقصوداً فأغتروا به.

ومنهم: المغرورون بوضع الحيل في الأحكام الشرعية في دفع الحقوق وتأويل الألفاظ المبهمة، واغتروا بالظواهر واخطأوا فيها، وهذا غرور لا يجدي في الآخرة يوم الفصل والقضاء.

ومنهم: من أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى غلبت عليهم الوسوسة في الطهارة وفي نية الصلاة، ويظنون انهم على خير عند ربهم. وربما يغلب عليه الوسوسة في اخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها؛ كالفرق بين الضاد والظاء، والاحتياط في التشديدات حتى لا يفكر في الصلاة الا فيما ذكر. وربما يوسوس أحدهم في ختم القرآن في اليوم والليلة مرة، فألسنتهم تجري وقلوبهم في أودية الأماني. وهو مغرور به، اذ يظن أن المقصود من التلاوة الهمهمة بالقرآن، مع الغفلة عن الانزجار بزواجره والاتعاظ بمواعظه والاعتبار بمواضع الأعتبار فيه الى غير ذلك. وربما يكون له صوت طيب ويلتذ به وهو يظن بغروره أنه يلتذ بمناجاة الله تعالى وسماع كلامه.

ومنهم: المغترون بصوم الدهر، أو صوم الأيام الشريفة، وربما يصلي في اليوم والليلة مائة ركعة أو ألف ركعة، ويفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل ونحو ذلك، مع أن ألسنتهم في الغيبة، وخواطرهم في الرئاء، وأفطارهم من الحرام، وذلك غاية الغرور ومكيدة الشيطان.

ومنهم: المغترون بالحج: مع مال حرام، ومع الرفث والخصام وترك الصلاة والصيام، ومع عدم دفع المظالم واسترضاء الوالدين، وأمثال ذلك. وربما يغترون بمجاورة مكة مع تلوث ظاهرهم وباطنهم بالقبائح، وقلبه معلق ببلاده ولكنه يختاره ليقال انه قد جاور بمكة سنين كثيرة.

ومنهم: المغترون بالحسبة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يأمر الناس بالبر و ينسى نفسه، و يطلب الرياسة و يغلظ في القول و ينكر من خالفه للرياسة والعز. وربما يغتر بعضهم بأن يقال له: مؤذن المسجد الفلاني، أو امام الجامع الفلاني.

ومنهم: من زهد في المال ويسكن في المساجد ليظن أنه أدرك رتبة الزهاد، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه: أما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، وترك المال وهو أهون وأخذ أطم الأمرين، أعني: الجاه، حتى أنه ربما يتطاول على الأغنياء و ينظر اليهم بعين الاستحقار، و يرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، و يعجب بعمله. وربما لا يقبل المال خوفاً من أن يقال بطل زهده. وكل ذلك غرور وخدعة من الشيطان.

ومنهم: متصوفة أهل الزمان، اغتروا بالزي والهيئة والمنطق من الألفاظ والاصطلاحات، وفي أحوالهم: من الطهارة والصلاة والرقص والسماع، وادخال الرأس في الجيب، وخفض الصوت وتنفس الصعداء، الى غير ذلك، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة ومراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، بل تراهم يتكالبون على الحرام والشبهات، و يتحاسدون على النقير والقطمير. وغرور هؤلاء أظهر من أن يخفى.

و بعض منهم من يغير الزي: لا الى الخشن ولا الى الخز والابريسم، بل الى المرقعات النفسية والسجادات المصبوغة، ولباس هو أرفع قيمة من الخز والابريسم. وهؤلاء أشد شراً من الأولين، اذ يظهرون أن التصوف يجتمع مع شهوات النفس، وربما يقتدى بهم العوام فيعتدي شرهم اليهم.

ومنهم: من يدعي علم المعرفة ومشاهد الحق والوصول الى القرب والملازمة في عين الشهود ولا يدري هذه الأمور الا بالأسامي، وهو ينظر الى العباد بعين الأزراء، و يقول للعباد: انهم أجراء متعوبون، وللعلماء: أنهم بالعلم لمحجوبون، حتى أن منهم من وقع في الاباحة وطوى بساط الشرع، و يقولون: أعمال الجوارح وسيلة الى محبة الله تعالى، ونحن والهون في حبه

عاكفون في حضرة الربوبية فلا حاجة بنا اليها. وهؤلاء مغرورون حرموا الاغتنام بخدمة شيخ صالح عالم فوقعوا في حزب الشيطان، وأمثال هؤلاء كثيرة.

ثم أن بعضاً من هؤلاء تجاوزوا حدهم، وأحسنوا الأعمال وطلبوا الحلال واشتغلوا بتفقد القلب، وصارت تدعى المقامات: من الزهد والتوكل والرضا والحب، من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. وان منهم من يخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر، فيدعي حب الله قبل معرفته.

ومنهم: من يخوض في البراري من غير زاد لتصحيح التوكل وذلك بدعة، اذ السلف كانوا يأخذون الزاد و يتوكلون. و بعض هؤلاء ضيقوا على أنفسهم في أمر القوت وأهملوا تفقد القلب والجوارح.

وفرقة أخرى ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة، فتصدوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قوماً وتكفلوا بخدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال حتى من السلاطين.

وأخرى منهم اشتغلوا بتهذيب الأخلاق والفحص عن عيوب النفس وآفاتها، و يقولون: هذه عيب، والغفلة عن كونه عيباً عيب، والالتفات الى كونه عيباً عيب، و يشتغلون بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها. ومثاله: من فاته الحج لأشتغاله بعوائقه وآفاته.

وفرقة تجاوزوا عن حد هؤلاء، انفتح لهم باب المعرفة فتعجبوا منها وفرحوا بها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر في كيفية انفتاح بابها عليهم، فيحرم بذلك عن المقصد.

وفرقة أخرى جاوزوا حد هؤلاء حتى قاربوا أو وصلوا الى حد القربة، فظنوا أنهم وصلوا الى الله عز وجل، فوقفوا وغلطوا، فان لله سبعين حجاباً من نور لا يصل السالك الى واحد منها الا و يظن أنه وصل الى المقصد وهذا غرور عظيم.

ومنهم المغترون من أرباب الأموال؛ كأن بعضاً منهم يبنون المساجد والرباطات ليتخلد ذكرهم. **الا أن لهم غرورين:**

أحدهما: بناؤهم من المال الحرام أو الشبهات.

وثانيها: أنهم يظنون الأخلاص وليس كذلك، اذ لا يرضى بانفاق دينار اذا لم يذكر اسمه، وربما ينفق الحلال لكن يطلب الثناء والرئاء، ولذلك يصرف الى المساجد لأن بانيها مذكور عند الناس. وأيضاً يزخرفها و يزينها بالنقوش الشاغلة لقلوب المصلين، وهو مع ذلك يغتر به و يرى أنه من الخيرات، و يرى المنكر معروفاً.

وان بعضاً منهم ينفقون الأموال على الفقير لكن في المحافل ليذكر وليشكر به الناس، وبعض من الأغنياء يمسكون الأموال عن مصارفها، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، ولو قلعوا صفة البخل عنهم وهم اليه أحوج لكان خيراً لهم. ومن قبائحهم: الحيل في الزكاة والتوسل بها الى الأغراض الفاسدة.

ومنهم: غرور العوام من الأغنياء والفقراء بحضورهم مجالس الذكر وأنه يغنيهم و يكفيهم من غير عمل واتعاظ، مريض يحضر مجالس الأطباء ولا يتداوى، وهذا أيضاً من الغرور.

المطلب الثالث

اعلم أن مداخل الغرور اذا عرفتها فلعلك تستحيل الخلاص عنها وتحكم باستحاله، لكن لا يخفى عليك أن الانسان اذا فترت همته في شيء أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وأما اذا صح منه الجد وقوي العزم اهتدى بالحيل الى مطلوبه، حتى أنه يقتنص الوحوش المنطلقة في البراري، و يستخرج الحيتان من البحار والذهب والفضة من تحت الجبال، و يستسخر الفيلة، و يعبث بالأفاعي و يستخرج منها الترياق، و يعرف مقادير الكواكب

وعرضها وطولها وهو على الأرض، الى غير ذلك، فلا يصعب عليه اصلاح قلبه ان كان همه هذا الهم فقط.

واذا عرفت هذا، فأعلم: أن اسباب الخلاص من الغرور ثلاثة:

أحدها: العقل. وهو الفطرة الغريزية وصفاؤه، وهذا نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة، فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها. والعقل أصل كل خير ولا يرجى بدونه الخير أصلاً، شهدت بذلك الأخبار والآثار.

الثاني: المعرفة؛ أعني: معرفة أربعة أمور: يعرف نفسه بالعبودية والذل، واجنبيا عن هذه الشهوات، وانما يوافق طبعه معرفة الله والنظر الى وجهه الكريم، و يعرف ربه ولا يمكن ذلك الا بمعرفة نفسه. ولقد أسلفنا ما يبعثك الى هذه. و يعرف الدنيا والآخرة بما في كتاب ذم الدنيا وفي كتاب ذكر الموت.

ثم أن العبد ـــ بعد ما وقع عن نفسه شوائب الغرور، بأن يهذب أخلاقه، وراقب القلب حتى صفا عن جميع الكدورات، واستوى على الصراط المستقيم، وضوت الدنيا في عينه، ولم يبق الا هم واحد وهو الله تعالى ـــ ربما يخاف عليه أن يأتيه الشيطان من جهة الدين، و يدعوه الى الرحمة الى خلق الله، فيراهم في دينهم سكارى وفي أمورهم حيارى، صما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون، فقدوا مع ذلك الطبيب وأشرفوا على العطب ـــ انبعث من ذاته الاشتغال بنصحهم، ثم يدعوه الى الرياسة دعاء خفياً أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد.

فلم يزل ذلك دأبه حتى دعاه الى التصنع والتزين بتحسين الألفاظ والنغمات، والتصنع في الزي والهيئة، حتى أقبل الناس يعظمونه و يبجلونه و يوقرونه مثل الملوك بل أزيد، اذا رأوا شافياً لدائهم من غير طمع، فصار أحب اليهم من آبائهم وأمهاتهم، وصاروا له حولا كالخدم والعبيد، وحكموه على السلاطين، فعند ذلك ارتاحت نفسه وذاقت لذة يا لها من لذة، حتى يغضب على من يرد عليه خطأه، ثم يخيل اليه الشيطان ان ذلك غضب لله تعالى وربما

يقع في الوقيعة فيمن رد عليه، وهكذا يسوقه الشيطان و يوقعه فيما هرب عنه قليلاً قليلاً وهو لا يشعر.

وأما علامة صدقه في النصح للناس: أن يود أن يوجد أحد يهتدون به، ولا يطمع في ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده مدحهم وذمهم اذ لا ينفعه مدحهم اذا لم يحمد الله ولا يضره ذمهم اذا اقترن به حمد الله، و ينظر الى الناس كما ينظر الى السادات من حيث يرى كلهم خيراً من نفسه، وكما ينظر الى البهائم من حيث قطع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم.

فإن قلت: من بلغ هذه الرتبة في الخلق أعز من الكبريت الأحمر، فإذا منع الناس عن الوعظ لأنسد باب النصح؛ قلت: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذم باب الدنيا ولم يمتنع الناس عنها لشدة الدنيا في قلوبهم محبة وميلاً، وكذا رياسة الوعظ ليست أمراً يتركها الناس بهذا القدر من التقبيح، فان الله عز وجل يصلح خلقاً كثيراً بافساد شخص واحد وأشخاص، وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر و بأقوام لا خلاق لهم.

فان قلت: اذا فعل ما ذكرت من الأمور، وترك النصح أو فعله، وراعى طريق الصدق والأخلاص يبقى بين يديه أخطار الاغترار، قلت: نعم، قول الشيطان: قد أعجزتني وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء، وما أعظم عند الله محلك اذ قواك على قهري؛ فعند ذلك يعجب بنفسه من فراره من الغرور كله، والعجب أعظم من كل ذنب.

فإن قلت: فإذا خلص من العجب المذكور فأي شيء يخاف عليه؟ قلت: يخاف عليه من الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل و يأمن مكر الله، والأمن من مكره تعالى خسران عظيم، بل اللائق أن يرى الكل من فضل الله، ولا يأمن من مكر الله، ولا يغفل عن خطر الخاتمة، وهذا خطر لا محيص عنه، وخوف لا نجاة منه الا بعد مجاوزة الصراط، فنسأل الله حسن الخاتمة فأن الأمور بخواتمها والسلام.

الشعبة الرابعة

في ربع المنجيات

وفيها عشرة أصول أيضاً

الأصل الأول

في التوبة

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في التوبة ووجوبها

أعلم: أن التوبة: مجموع أمور ثلاثة:

أحدها: معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب.

وثانيها: الحال؛ وذلك معرفة فوات المحبوب تورث ألماً للقلب، والألم على الماضي يسمى ندماً، ثم ينبعث منه حالة أخرى تسمى ارادة وقصداً.

وثالثها: الفعل؛ وذلك لأن الندم المثمر للإرادة على الفعل: أما في الحال فبترك الذنب، أو بالأستقبال فبالعزم على الترك، أو بالماضي فبتلافي ما فات.

ثم هذه الأمور الثلاثة؛ أعني المعرفة والندم والعزم تسمى توبة. ثم ما ذكر في حد التوبة أكثرها قاصر عن الاشارة الى هذه الأمور، فالحد الجامع ما يجمع هذه الأمور.

ثم فضيلة التوبة لا تخفى على أحد، وما ذكر في فضلها من الأخبار والآثار فأكثر من أن يحصى وأشهر من أن يخفى.

وأما كيفية وجوبها: فهي أنه لا مبعد عن الله الا اتباع الشهوات، ولا مقرب اليه تعالى الا انقطاع عن الذنوب، ولا يمكن الانقطاع عنه الا بالمعرفة والندم والعزم المعبر عن مجموعها بالتوبة.

فإن قلت: مرجع التوبة الى الألم وهو لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؛ قلت: سبب الألم الحاصل من الندم، وهو المعرفة التي لها أسباب اختيارية.

فان قلت: أليس للعبد اختيار في الفعل والترك؛ قلت: نعم للعبد اختيار، مع أن الكل مخلوق له تعالى، وذلك لأن الله تعالى لا يخلق حركة اليد بكتابة ما لم يخلق فيها صفة القدرة والحياة والارادة، والارادة المجزومة متفرعة على الداعية، وهي على العلم، وله أيضاً أسباب أخر مترتبة، وكل هذا من اختراع الله تعالى. ولكن بعض هذه شرط لبعض، والعبد يجري تحت هذه الحوادث المترتبة في قضاء الله الذي هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير، إنما ظهورها على التفصيل مقدرة بقدر.

فإذا ظهرت من باطن الملكوت الأمور المذكورة على جسم عبد مسخر تحت قهر لتدبير سبق، أهل عالم الملك والشهادة الى أن العبد قد تحرك، فحينئذ ينادي من وراء سرادقات الملكوت أيها العبد: «ما رميت اذ رميت ولكن الله رمى» . وعند هذا تحير عقولهم. فمن واحد قال بالجبر، ومن آخر قال بالأختراع، ومن متوسط بينهما مائل الى الكسب. الا أنهم لو نظروا الى عالم الغيب والملكوت، لظهر لهم أن كل واحد من الطرائق المذكورة صادق في مذهبه الا أنه لم يحط علمه بجوانبه، الا أن القاصرين يفهمون من هذا الكلام صدق الأقوال المتضادة و يقولون أنه باطل جزماً. الا أن تحقيق هذا المقام يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ولسنا نتكلم فيها ههنا.

المطلب الثاني

في وجوب التوبة على الفور

واعلم: أن الإيمان أما بعلوم المكاشفة؛ كمعرفة الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله، أو بعلوم المعاملة؛ كمعرفة الطاعات والمعاصي، فمن فقد هذا الايمان ربما ينفي عنه اسم الايمان، كقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني مؤمن»؛ أي: ينفي عنه الايمان بكون الزنا مبعداً عن الله تعالى، والا لما فعله العاقل، لا أن الايمان بعلوم المكاشفة منفي عنه. فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان، بمعنى عدم التصديق بعلوم المعاملة، والا لما فعل ذلك الفعل، ومع ذلك فهو قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه عند مقدمة قدوم ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة.

واذا كانت المعاصي بمنزلة السموم المهلكة وكان العاقل يتجنبها في الحال، كذلك يجب على العاقل أن يتجنب عن المعاصي على الفور، بل ذلك أولى لأنها هلاك الأبد. ولا يخفى ان وجود الأصل وان لم يتوقف على وجود الفرع لكن ربما يتوقف بقاؤه عليه، فلا ينبغي الأهمال شأن الأعمال أيضاً.

ثم أن عموم الناس محتاجون الى التوبة، اذ الشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، وبينهما قتال دائماً، الا أن قوة جنود العقل بعد الأربعين، والى زمان قوته تقوى جنود الشياطين.

واذا قوي جنود العقل يكون أول عملهم قمع الجنود الشيطانية، وليس ذلك الا بالتوبة الواجبة لكل آدمي نبياً كان أو غبياً، بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الأنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التي لا مطمع في تبديلها. ولما لم يخل كل انسان عن الخطأ والنسيان في كل وقت وآن وجبت عليه المواظبة على التوبة في كل زمان، اذ لا يتم حاله بعدم الذنب في الاستقبال بل عليه أن يزيل آثار المعاصي في الزمان الماضي، فليس ذلك الا بالمواظبة على التوبة.

وأما وجوبها: فليس بمعنى الوجوب الشرعي ـ أي: الواجب في فتوى الشرع، بل الوصول الى المقام المحمود في جوار رب العالمين واجب لكل عاقل بحكم التقوى والتوبة، فما لا يتم ذلك الا به فيكون واجباً؛ نظير ذلك وجوب الطهارة لمن يريد صلاة التطوع فأنه لا يوصل اليها الا بها وأما من رضي بالنقصان والحرمان فلا يجب عليه لأجلها.

فمن يريد التوبة فعليه بأمرين: أحدهما أن يعجل حتى لا تصير المعاصي رينا وطبعاً لا يقبل المحو؛ والثاني: يعاجله قبل مبادرة الموت أو المرض.

المطلب الثالث

في أن التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة لا محالة

لا يشك فيه أرباب البصائر، لأنهم علموا بنور البصيرة ان كل قلب خلق سليماً ثم أغبر بالذنوب، وعلموا أيضاً ان ماء الدموع وحرقة الندم يزيل وسخ القلب، وان كل قلب طاهر زكي مقبول لا محالة. فمن توهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن توهم ان الشمس تطلع والظلام لا يزول، وهذا كلام مقبول عند ذوي البصائر مع ما يعضده من الآيات والأخبار والآثار ما بلغت كلها حد الشهرة، ولكن ليس هذا الوجوب ما يقوله المعتزلة من الوجوب على الله، بل ما ذكرناه وجوب بموجب ما يقوله المعتزلة من الوجوب على الله، بل ما ذكرناه وجوب بموجب ارادته ومقتضى تقديره. وأما الشك في قبول التوبة فلا ينافي وجوب القبول لأن ذلك شك في استجماعه الشرائط.

المطلب الرابع

في أقسام الذنوب

وتنحصر أصولها في أربع صفات: ربوبية وشيطانية وبهيمية وسبعية، وقد مر تفصيلها. وأيضاً: الذنوب أما بين العبد وبين الله، أو بين العباد.

والأول: أما شرك أو غيره. والشرك لا يغفر، وكذا ما بين العباد. وأما غيره فيرجى أن يغفر. وأيضاً: الذنوب أما كبائر أو صغائر، واختلف في

حدودها وعدد الكبائر اختلافاً شديداً. والحق ان ذلك مما لا يعلم الا من جهة الشرع ولم يرد فيه حد الكبيرة وعددها فلا مطمع في معرفتها. وربما قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها، سيما اذا لم يتعلق به حكم الدنيا بل يعلم حكمها في الأخرى، فيجوز أن يتطرق اليه الابهام ــ الا حدوداً عينها بأساميها: من الزنا والسرقة وشرب الخمر ونحو ذلك من الحدود.

المطلب الخامس

في كيفية توزع الدركات والدرجات في الآخرة الى السيئات والحسنات في الدنيا

واعلم: أن الدنيا من عالم الملك والشهادة، والآخرة من عالم الملكوت والغيب. وعالم الملك نوم بالاضافة الى عالم الملكوت، ولذلك لم يتكلم الأنبياء مع الخلق الا بضرب الأمثال اذ النائم لا ينكشف له أمر الا بمثل. ومن التكلم بطريق المثل: أصابع الرحمن وصورته وأمثال ذلك، فيوصلون المعاني الى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفاً لعباده وتيسيراً لأدراكه.

واذا عرفت هذا. فاعلم: أن تعريف توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن الا بضرب مثال، وذلك ان الملك اذا استولى على اقليم يقتل من يجحد في أصل ملكه ويخلي من لا يجحده، ولا يخدم ويخلع من ينصره ويخدمه. والنعم أيضاً متفاوتة بتفاوت درجات خدمتهم. فكذلك الناس في الآخرة: أما هالكون أو معذبون، أما سنة أو ألف سنة الى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار، أو ناجون منها أو فائزون، أما الى جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس، **وهذه أربع رتب:**

أولها: الهالكون، وهم الآيسون من رحمة الله؛ كالجاحدين والمكذبين بالله ورسوله وكتبه والمتجردين للدنيا. وأعظم العذاب عند أهل البصائر نار الحجاب من الله تعالى، وهي أحر مِن نار الجحيم. ولا بعد في ذلك، اذ الصبي ربما يعد البعد عن السلطان أهون من البعد عن الكرة والصولجان.

وثانيتها: رتبة المعذبين، وهم الموحدون القاصرون. فلهم ناران: نار الفراق عن الكمال الذي قصروا عنه، ونار جهنم. و يتفاوت لهم العذاب شدة وخفة وطولاً وقصراً، بحسب قوة الايمان وضعفه، وكثرة اتباع الهوى وقلته. وأضعف درجات العذاب: المناقشة في الحساب، وفوقه الورود على النار كبرق خاطف، ثم اللحظة، الى أن يبلغ سبعة آلاف سنة، وههنا درجات لا تتناهى. ولا يخرج من النار الا موحد؛ وهو من لا يرى الأمور كلها الا من الله. وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق، اذ لا يرى الوسائط وانما يرى مسبب الأسباب. وهذا التوحيد له مراتب أمثال الجبال والمثقال والخردلة والذرة.

وثالثتها: رتبة الناجين من العذاب فقط؛ كالصبيان والمجانين والبله، ومن ليس لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية، فهم ينزلون في منزلة بين المنزلتين وهي الأعراف. الا أن كون الصبيان من أهلها شك، ولا يعلم يقيناً الا من مشكاة النبوة، والأخبار فيهم متعارضة.

ورابعتها: الفائزون، وهم المقربون السابقون. ولا يمكن التعبير عن حالهم ومقامهم؛ قال تعالى: «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين»؛ وقوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وهم لا يقنعون بالحور والقصور واللبن والعسل ونحو ذلك، ولا يطلبون الا لذة النظر الى وجهه الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات.

المطلب السادس
فيما تعظم من الصغائر

منها: الاصرار والمواظبة؛ كالقطرة تؤثر في الحجر ان دام ولا يؤثر السيل، كما أن خير الأعمال أدومها وان قل. وأيضاً: الكبائر قلما تقع من غير سوابق ومقدمات من الصغائر؛ مثلاً: الزاني يقدم الزنا على المراودة والقبلة والمس ونحوها، ولو وقعت الكبيرة بغتة لربما يرجى عفوه اذ هو حينئذ بالخطأ أشبه.

ومنها: أن يستصغر الذنب، اذ الذنب كلما استعظم أصغر عند الله وكلما

استصغر عظم عند الله، لأن استعظامه لنفور القلب واستصغاره لألف القلب به.

ومنها: السرور بالصغيرة، وذلك كثير؛ كقول بعضهم: أما رأيتني كيف مزقت عرضه وكيف فضحته، ونحو ذلك.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله له، ولا يدري أنه يمهل مقتاً ليزداد اثماً، فيأمن مكر الله ويجهل مكامن الغرور بالله.

ومنها: أن يظهره بأن يذكره بعد اتيانه، أو يأتيه بمشهد غيره، فان ذلك جناية على ستر الله الذي أسبله عليه، وتحريك للشر فيمن أسمعه أو أشهده، سيما اذا رغب الغير فيه.

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به؛ كلبس العالم الابريسم ودخوله على السلاطين، واشتغاله بعلوم يقصد بها الجاه؛ كالجدل والمناظرة، فإذا ذنب العالم ضعف، كما أن عبادتهم ضعف بسبب اقتداء الغير بهم.

المطلب السابع
في تمام التوبة وشروطها وآدابها

أما العلم: فن أسباب التوبة وستعرفه.

وأما الندم: فعلامته طول الحسرة والحزن والدمع الدائم، وان تتمكن مرارة الذنب من قلبه بدلاً عن حلاوتها؛ كمن علم ان عسلاً فيه سم كيف يكرهه بعد أن كان مشتهي عنده بل يكره كل عسل بعد ذلك، فكذا التائب يدوم ندمه على كل ذنب.

وأما القصد الذي ينبعث منه فيوجب ترك كل محظور وهو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال، و يتدارك ما فرط بالمستقبل، وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت.

وشرط صحته في الماضي: ان يتأمل في كل طاعة تركها أو قصر فيها

فيقضيها في الحال، وان شك في قدره فيأخذ بغالب ظنه، وكذا يتأمل في كل معصية فعلها في ساعات عمره فيتوب عنها بالندم والتحسر عليها، ويحسب عددها و يعمل مكان كل سيئة حسنة لتمحوها، لكن حسنة من جنسها وتضادها. وكذا في مظالم العباد يفعل في مكان ظلم منها حسنة لصاحبها؛ كالاعتاق مكان القتل، والغيبة بالثناء له ونحو ذلك.

وأما القصاص: وحد القذف فيعمل فيها بحكومة عدل، وان كان مظلمة مال يرده على صاحبه، وان لم يمكن وجدانه يستكثر من الحسنات حتى يقتص منه، أو يتصدق مقدار ذلك المال. و يستحل من مظالم العرض صاحبه، وان لم يجد فيكثر من الحسنات لتكون عوضاً، ومن وجده فليذكر خصوص جنايته ولا يبهم لأن الأبهام لا يكفي، وان لم يقدر على بيانه؛ كزناه بجاريته أو أهله، فليستحله مبهماً ثم يجبر بالحسنات.

وأما العزم بأن لا يعود أصلاً الى الذنوب ولا الى أمثالها، ولا يتم ذلك الا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم واحراز قوت حلال.

وأما الندم والتوبة على بعض الذنوب ــ وان أفاد علة الذنوب ــ لكن لا يبلغه رتبة التائبين ما لم يتب عن جميع الذنوب.

أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فمكن ذلك، اذ الصغائر أقرب الى العفو، وكذا يمكن التوبة عن بعض الكبار لغلظتها بالنسبة الى آخر وقد يندم على صغيرة أو صغائر دون الكبائر لغلبة شهوته هناك على خوف من الله تعالى.

فان قلت: نسيان التائب ذنبه أفضل أم المجاهدة فيه، أو سكون نفسه عن النزوع اليه أفضل أم المجاهدة فيه؟ قلت: اختلف فيه، فنهم من رجح الأولين ومنهم من رجح الآخرين. الا أن الحق أن السكون والنسيان ان كانا من التأدب بأدب الشرع فهما أفضل، وان كانا من الطبع فالمجاهدة أفضل.

المطلب الثامن
في طبقات التائبين

وهي أربع:

الأولى: الذين يستقيمون على التوبة الى آخر العمر، ولا تحدث نفسه بالعود الى ذنوبه، الا الزلات التي لا ينفك عنها البشر عادة سوى الأنبياء ومن يقرب من رتبتهم. وهذه هي التوبة النصوح، وهذه النفس هي النفس المطمئنة. ولهؤلاء أيضاً رتب: من حيث النزوع الى الشهوات كثرة وقلة، وطول زمان وقصره.

الثانية: الذين سلكوا طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش كلها الا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وصمد وتجديد قصد، بل كلما أقدم عليها لام نفسه وجدد عزمه على أسباب الاحتراز. وهذه النفس اللوامة. وهذه أيضاً رتبة عالية وان كانت دون الأولى وهي أغلب أحوال التائبين.

الثالثة: أن يستمر على الاستقامة مدة ثم تختطفه الشهوة المعينة لعجزه عن قهرها، إلا أنه مواظب على الطاعات ومجتنب عن الشهوات الباقية، وهو مع ذلك يندم على فعلها ويجاهد في قهر نفسها، لكنه تسوف نفسه توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم. وهذه تسمى النفس المسولة وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليه. وعاقبته مخطرة لأحتمال أن يختطف بالتسويف قبل التوبة. ويقع أمره في المشيئة: فإن تداركه الله بفضله وجبره بكسره التحق بالسابقين، وان غلبت شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل. على أن كل نفس فهو خاتمة اذ يمكن اتصال الموت، فليراقب ذلك وليداركه بالتوبة والا دامت الحسرات.

الرابعة: أن يستقيم مدة ثم يعود الى مقارفة الذنوب، من غير أن يحدث

نفسه بالتوبة، ومن غير ان يتأسف على فعله. وهذه هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير، ويخاف عليها سوء الخاتمة. وأمره في مشيئة الله: فان ختم له بالسوء يشق شقاء الأبد، وان ختم له بالحسنى وهو التوحيد يرجى له الخلاص ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه.

إلا أن العجب كل العجب من يقول: الله كريم، و يتقاعد عن كسب فضائل الأعمال؛ ثم اذا قيل: الله كريم فأقعد عن كسب المال، يحمق من يقوله و يقول: سنة الله تعالى أن يرزق بالكسب، ولا يدري هذا الأحمق الغافل أن رب الدنيا والآخرة واحد وسنته فيها واحدة، فما باله يغتر بكرمه في الآخرة دون الدنيا، فما هذا الا انتكاس على أم الرأس، وفي ظلمات الجهل انغماس، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والارتياب الى سوء المنقلب وعسر المآب.

المطلب التاسع

في تدارك التائب إذا جرى عليه ذنب أما عن قصد أو باتفاق

واعلم: أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنه تضادها، فان لم تساعده نفسه على العزم على الترك فقد فاته أحد الواجبين، فلا ينبغي أن يفوته الواجب الآخر وهو محوها بالحسنة، ليكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وتلك الحسنات أما بالقلب: فالتضرع الى الله تعالى وطلب العفو والمغفرة، و يتذلل تذلل العبد الآبق بحيث تظهر ذلته لسائر العباد؛ وأما باللسان: وهو الاعتراف بالظلم والاستغفار، لكن لا باللسان فقط فأنه توبة الكذابين بل بالقلب، وقد مر في كتاب الدعوات كيفية الاستغفار؛ وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات.

وذكر في الآثار ثمانية أعمال يرجى بها العفو؛ أربعة للقلب: وهي التوبة والعزم على الترك، وحب الاقلاع عنه، وخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له؛ وأربعة من أعمال الجوارح: وهي أن يصلي عقب الذنب ركعتين، يستغفر الله بعده سبعين مرة و يقول: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم يتصدق

بصدقة، ثم يصوم يوماً. وفي بعض الآثار يسبغ الوضوء و يدخل المسجد و يصلي ركعتين. وفي بعض الأخبار أربع ركعات.

المطلب العاشر

في طريق حل الاصرار على الذنوب من القلب

وله علاجان:

أحدهما: العلم بأن الذنوب مضر يجب تركها. وذلك أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر انذارات القرآن والأخبار للعصاة.

الثاني: حكايات الأنبياء والسلف وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم.

الثالث: خوف تعجيل العقوبة في الدنيا ــ ونفوس العوام أكثر انزجاراً بعقوبة الدنيا ــ حتى أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وكذلك الفقر والمرض.

الرابع: أن ينهي كل صنف من الذنب بنوع من العقوبة، من العلماء أطباء الأرواح، فعليهم أن يخوفوا كل ذنب بنوع عقوبة، و يوصيهم بنوع وصية تكون سبباً لزوالها.

ثانيها: الصبر. وذلك لأن الذنب أما بسبب الغفلة وطريق علاجه العلم وقد ذكرناه، أو بسبب غلبة الشهوة وطريق علاجه الصبر وقد ذكرناه في رياضة النفس. فترك الذنب بالصبر، وهو بمعرفة الخوف، والخوف لا يحصل إلا بالعلم بضرر الذنب، فأصل الكل العلم. **واعلم أن سبب وقوع الذنب أمور:**

أحداها: إن العقاب الموعود غيب وليس بحاضر. والنفس تأثرها بالحاضر قوي والموعود ضعيف.

الثاني: إن الشهوات لذاتها ناجزة، والنزوع عن لذة العاجل لخوف الآجل شديد على النفس.

الثالث: أنه ما من مسلم مذنب إلا وهو عازم على التوبة غالباً، إلا أن النفس تسوف بما يغلب على طبعه من طول الأمل.

الرابع: أنه ما من مؤمن إلا وهو معتقد أن الذنب لا يوجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب و ينتظر العفو اتكالا على فضل الله تعالى.

وهناك قسم خاص لكنه كفر وهو الشك في صدق الرسل.

إذا عرفت هذه الأسباب، فاعلم: أن علاج السبب الأول بأن يلاحظ ان كل ما هو آت آت، وأن الموت أقرب من شراك نعله.

وعلاج التسويف التذكر بأن أكثر صياح أهل النار من التسويف، ولعله لا يبقى الى الغد وان بقي لعله لا يقدر اذ عجزه في الحال لغلبة الشهوة، والشهوة لا تفارقه غداً بل تتأكد بالاعتياد، وان الأيام متشابهة في مشقة ترك الشهوات.

وأما علاج الانتظار الى رحمة الله تعالى ان كان بعد العمل فحسن، وان كان بلا عمل فحمق، وهو كمن لا يلقي البذر ينتظر الزرع، وهذا وان كان ممكناً لكنه لكونه خرقا للعادة يعد حمقاً وخرقاً، اذ الاعتماد على أمر ممكن خارق للعادة في مثل هذا الأمر الخطير العظيم الذي لا يمكن تداركه ثانياً مما لا يقبله العقلاء.

وأما علاج الخامس وهو الكفر فما عرفته من أسباب صدق الرسل، ولكن هذا أمر الزامي يكفي في دفعه، وهو أن رجلاً قد جربت كذبه مراراً اذا أخبرك بأن هذا الطعام قد ولغ فيه الحية وألقى فيه سمها، فلعلك تقول: هذا الرجل وان كان كاذباً أكثرياً لكن الكذوب قد يصدق، وعلى الجملة: فالشك حاصل في خبره هذا، واني ان تركت هذا الطعام ليس لي الا الصبر عن شهوة الطعام، وان أكلت ذلك فالهلاك محتمل، فالفرار عن الشهوة الحقيرة لأجل الهلاك الموهوم أحسن. ثم انك كيف لا تذهب هذا التعليل في أخبار الأنبياء لم تجرب كذبهم بل جربت صدقهم مراراً، لكن لا تدعك عصبيتك الى الأذعان بالحق والله يهدي من يشاء و يضل من يشاءو أنه هو القادر على كل شيء. قال علي بن أبي طالب في بعض من كان شاكاً: أن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً، والا فقد تخلصنا وهلكت.

وقال أبو العلاء المعري

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الموتى فقلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

ثم اعلم: ان ما ذكر من الأمور وان كانت جلية لكن النفس لا تتفكر فيها لأمرين:

أحدهما: ان فكرها يؤلم القلب وفكر الدنيا لها فتميل اليه.

وثانيهما: ان هذا الفكر يمنعه عن لذائذ الدنيا اذ الانسان لا يخلو عن شهوات الدنيا ساعة أصلاً.

فعلاج الأمر الأول فأنت تتألم من ملاحظته، فكيف الألم اذا وقع وأنت عاجز عن تداركه.

والأمر الثاني: أن يتذكر عظم ثواب الآخرة، وحقارة لذات الدنيا وسرعة زوالها، وترك العظيم والباقي لأجل الحقير والزائل لا يصدر عن عاقل.

الأصل الثاني
في الصبر والشكر

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في فضيلة الصبر وحقيقته

أما فضيلته: فقد وردت في الآيات والأخبار والآثار بحيث لا يحتاج الى ذكرها.

وأما حقيقته ومعناه: فهو مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين. وذلك معرفة تتبعها حالة ثم تثمر كلاهما المسمى بالصبر عملاً.

وتفصيل ذلك: أن للبهائم شهوة بلا عقل، وللملائكة عقل بلا شهوة، وللانسان كلاهما معاً، والصبر مقاومة العقل الشهوة فهو مخصوص بالانسان دون البهائم لنقصانها، ودون الملائكة لكمالهم، فالصبر ثبات القوة المضادة للشهوة في مقاومتها. ثم ان الصبر نصف الايمان، لأن التصديق بالمعارف والأعمال هو الايمان، وحاصل التصديق بالمعارف اليقين، وحاصل التصديق بالأعمال الصبر، اذ لا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر، فهو نصف الايمان بهذا الاعتبار.

أيضاً: ربما يطلق الايمان على الأحوال المثمرة للأعمال لا المعارف؛ والأعمال أما ضار في الدنيا والآخرة أو نافع فيها، وله الصبر في الأول والشكر

في الثاني. ولهذا قال ابن مسعود: الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر، وقد يرفع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً: لما كان الصبر مقاومة بواعث الهوى، وكان الهوى قسمين: الشهوة والغضب، وصار الصوم دافعاً للشهوة دون الغضب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصوم نصف الصبر»، فيكون الصوم ربع الايمان. فهكذا ينبغي أن يفهم تقديرات الشرع لحدود الأعمال، والحدود ليس تلك التقديرات مما يرمي به جزافاً كما توهمه الجهلة أرباب الضلال.

ثم أن الصبر يسمى بأسماء مختلفة، فيظن الجهال أشياء متغايرة؛ مثلاً: الصبر عن شهوة الفرج يسمى عفة؛ وعن مصيبة يخص باسم الصبر ويضاده الجزع والهلع؛ وعن الغنى يسمى ضبط النفس ويضاده البطر؛ وعن القتال والحرب يسمى شجاعة ويضاده الجبن؛ وعن الغضب حلماً ويضاده التكبر؛ وعن افشاء الكلام يسمى كتمان السر؛ وعن فضول العيش يسمى زهداً ويضاده الحرص؛ وعن العيش اليسير يسمى قناعة ويضاده الشره.

فأكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الايمان: «هو الصبر»، وذلك لأنه أكثر أعماله وأعزها، وقد جمع الله تعالى هذه الأقسام وسماها صبراً فقال: ﴿والصابرين في البأساء﴾ أي: المصيبة «والضراء» أي: الفقر «وحين البأس»؛ أي: المحاربة ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[1].

المطلب الثاني
في أقسام الصبر بحسب القوة والضعف

وهي ثلاثة:

أحدها: أن يقهر داعي الهوى ويسقط بالكلية منازعة باعث الدين فتسلم نفسه الى جند الشيطان، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الذين غلبت عليهم شقوتهم

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٧.

واسترقتهم شهواتهم. وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني وهو غاية الحمق.

وثالثها: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين، فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين لا من الفائزين، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وأقسامه باعتبار عدد ما يصبر عنه ثلاثة أيضاً: لأنه اما أن يغلب جميع الشهوات، أو بعضها دون بعض، أو لا يغلب شيئاً منها وهذا كالأنعام بل هم أضل.

وأقسامه باعتبار اليسر والعسر: الى ما يشق على النفس ولا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب شديد و يسمى تصبراً، والى خلاف ما ذكر يسمى صبراً. قال بعض العارفين: أهل الصبر ثلاث مقامات؛ أولها: ترك الشكوى وهذه درجة التائبين، والثانية؛ الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين، والثالثة: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين.

وأيضاً: الصبر أما فرض كالصبر عن المحرم، ونفل كالصبر عن المكاره، ومكروه وهو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع، ومحرم كالصبر على الأذى المحظور.

المطلب الثالث

في أن العبد لا يستغنى عن الصبر في كل حال

وذلك لأن الصبر: أما على ما يوافق الهوى، وهو الصحة والمال والجاه واتساع الأسباب وكثرة الاتباع والأنصار، وما أحوج العبد الى الصبر على هذه الأمور، اذ لو أرسل نفسه الى الملاذ المباحة أخرجه ذلك الى البطر والطغيان؛ وأما على ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك: أما مختار للعبد كالمعاصي والطاعات، أو ليس مختاراً له كالمصائب والنوائب، أو لا يكون أوله مختاراً ولكن يقدر على ازالته كالتشفي بالانتقام.

والضرب الأول: ان كان طاعة يحتاج العبد الى الصبر عليها، لأن النفس تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، حتى قيل: ما من نفس الا وهي مضمرة ما أظهره فرعون الا أنه لا يجد مجالاً وقبولاً.

ثم الصبر على الطاعة: أما قبلها، وذلك في تصحيح النية وتحصيل الأخلاص، وذلك من أشد الصبر؛ وأما حالة العمل؛ فيلازم الصبر عن دواعي الفتور وعن كونها لغير الله؛ وأما بعد الفراغ عن العمل؛ بأن يصبر عن افشائه والعجب.

ثم الطاعات أما فرض أو نفل ويحتاج الى الصبر عليها.

والضرب الثاني: المعاصي، وما أحوج العبد الى الصبر عنها سيما التي صارت مألوفة بالعادة.

والضرب الثالث: ما لا يكون هجومه باختياره ولكن له اختيار دفعه؛ كما لو أوذي فصبر عليه، وهذا الصبر يكون واجباً تارة وفضيلة أخرى.

والضرب الرابع: ما لا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره؛ مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض والعمى، فالصبر على هذه الأمور من أعلى المقامات. الا أن الصبر على المصائب بترك الجزع وشق الجيوب وضرب الخدود واظهار الكآبة والمبالغة في الشكوى، وهذه داخلة تحت اختياره. ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وفيضان العين بالدمع فان ذلك مقتضى البشرية. فظهر مما ذكر أن الانسان لا يخلو عن الصبر في حال من أحواله.

المطلب الرابع
في معالجات مؤدية الى الصبر

ولنورد مثالين، ثم قس بواقيها عليها؛ مثلاً باعث الجماع يعالج بأمور ثلاثة: قطع مادتها كالأغذية المهيجة لشهوة الوقاع فيتركها سيما اللحم؛ وثانيها: قلع أسبابه المهيجة له في الحال كالنظر الى الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية؛ وثالثها: تسلية النفس بالمباح الذي تشتهيه كالنكاح وملك اليمين.

وأيضاً: من أشد أنواع الشهوات حديث النفس ووسواس الشيطان، وانما يشتد ذلك على من تفرغ لقطعه، ولا علاج له البتة الا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً بالاعتزال الى زاوية بعد احراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة، ثم لا يمكن له ذلك الا بأن يجعل همومه هماً واحداً وهو الله. ومع ذلك اذا غلب على القلب لا يكفي ما ذكر ملكه الفكر والسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله وسائر أبواب معرفة الله. وان لم يكن له سير في الباطن فلا ينجيه الا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة، والاذكار والصلوات. ويحتاج الى تكلف القلب الحضور، واذا انتظم كل ذلك لا يسلم له من الأوقات الا بعضها.

المطلب الخامس

في الشكر

وفضيلته في الآيات والأخبار والآثار لا تخفى على أولى الأ بصار.

وأما حقيقته: فتعلم من علم يورث حالاً وحال يورث عملاً.

أما العلم: فبمعرفة النعمة والمنعم عليه، هذا في غير الله تعالى. وأما في حقه تعالى فلا يتم الا بأن يعرف أن النعم كلها من الله والوسائط مسخرون من جهته، وهذه المعرفة تتبع التوحيد اذ لا موجود الا منه تعالى، فتنحصر النعمة فيه أيضاً، كما ان التوحيد يتبع التقديس اذ لا مقدس الا واحد ولا مقدس غيره. وعن هذه الأمور عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «من قال: سبحان الله فله عشر حسنات، ومن قال: لا اله الا الله فله عشرين حسنة، ومن قال: الحمد لله فله ثلاثون حسنة». الا أن المراد تأثير هذه الكلمات بالقلب لا مجرد تحريك اللسان بها.

ثم أن المعرفة المذكورة تستثمر حالاً وهو الفرح بالمنعم، مع هيئة الخضوع والتواضع وهو شكر. كما أن المعرفة شكر، لكن كونه شكراً مشروط بأن يكون

الفرح بالمنعم لا بالنعمة والاحسان والانعام. وبالجملة: الفرح بالنعمة من حيث أنها مال ليس من الشكر أصلاً، والفرح بها من حيث يستدل به على عناية المنعم ونيل المحل والقبول عنده، وهذا شكر الصالحين الذين يعبدون الله تعالى و يشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.

وأما الفرح بالنعمة من حيث ان له محلاً عند الملك، لكن لا يقنع بهذا القدر بل يفرح من حيث يتدرج به الى القرب منه، و يكون محل نظر المنعم، و يتوسل بذلك الى النظر الى وجه المنعم والنزول في جواره، فهي الرتبة العليا للشكر. وامارته: أن يفرح من الدنيا لكونها مزرعة للآخرة، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله.

ثم الفرح المذكور له عمل بموجبه، وذلك العمل: اما بالقلب وهو قصد الخير واضماره لكافة الخلق، واما باللسان فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه، واما بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته. حتى أن شكر العينين أن يستر كل عيب يراه لمسلم، وشكر الأذنين ان يستر كل عيب يسمعه، والشكر باللسان اظهار الرضا عن الله وهو مأمور به، وهكذا في كل عضو. فهذه هي حقيقة الشكر.

وأما الحدود الواقعة فيه فأكثرها قاصر عن أداء مجموعه؛ مثلاً: قول من قال: الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه ــ نظر الى فعل اللسان ــ وبعض أحوال القلب؛ وقول حمدون القصار: شكر النعمة ان ترى نفسك فيها طفيلياً اشارة الى أن المعرفة معنى من معاني الشكر فقط؛ وقول الجنيد: أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة، اشارة الى حال من أحوال القلب على الخصوص.

والحد الأقرب الى جمع أكثر المعاني قول القائل: الشكر الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة، وانما يشذ من ذلك عمل اللسان فقط.

المطلب السادس
في الشكر في حق الله

قال بعضهم: الشكر محال في حقه تعالى لوجهين:

أحدهما: أنه منزه عن الحظوظ والأغراض، مقدس عن الحاجة الى الخدمة والثناء وتكثير سواد الخدم من الراكعين والساجدين.

وثانيها: أن جميع ما نتعاطاه باختيارنا من جوارحنا وقدرتنا وارادتنا وداعيتنا وسائر أسباب حركاتنا من خلق الله ونعمته، فكيف نشكر نعمة بنعمة. واذا كان طريق الشكر نعمة أخرى تحتاج الى شكر آخر، واذا احتاج الشكر الى شكر في كل مرتبة تؤدي الى أن يكون الشكر محالاً في حق الله من هذين الوجهين.

وقد خطر هذا الخاطر لداود وموسى عليهما السلام، فقال كل منهما: يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك؛ وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك. فأوحى الله عز وجل إليه: «إذا عرفت هذا فقد شكرتني»؛ وفي خبر آخر: «إذا عرفت أن النعم مني رضيت منك بذلك شكراً».

إذا عرفت ذلك: لعلك تفهم استحالة الشكر لله عز وجل، وتعجز عن درك كون العلم باستحالة الشكر شكراً. ان من نظر بعين التوحيد المحض يعرف أنه الشاكر والمشكور والمحب والمحبوب، ونظر من لم يبلغ هذه الرتبة، وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا الا وجود أنفسهم فأنكروا أن يكون لهم رب يعبد، وهؤلاء العميان المنكوسون وهؤلاء جاحدون؛ وقسم ليس بهم عمى ولكن بهم عور، يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق، ولا يرى بأخراها فناء ما سواه. وبالحقيقة: هذا مشرك اذ أثبت موجوداً يماثل وجود الحق. لكن لما الأول بأنه رب والآخر بأنه عبد دخل بهذا التفاوت في حد التوحيد لكن لا تخلو عينه عن عمش، لكن ان كحل بصره بأنوار الحق يظهر له نقصان ما

عداه، وهكذا تتفاوت الدرجات الى أن يرى ما سواه فانياً ولا يرى في الوجود الا الله تعالى.

ثم هذا قد يلوح لبعضهم كالبرق الخاطف، ومنهم من يثبت له ذلك، ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز.

وكـل الى شـأو العلى حـركـاتـه ولـكـن عـزيـز في الرجـال ثـبـاتـه

ولما أمر صلى الله عليه وسلم بطلب القرب، فقيل له: «واسجد واقترب» قال في سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك» حيث لم ير الا الله وأفعاله، واستعاذ بفعله من فعله؛ ثم اقترب وقال: «أعوذ برضاك من سخطك» حيث ترقى من مشاهدة الافعال الى مشاهدة الصفات؛ ثم اقترب وقال: «أعوذ بك منك» حيث ترقى من مشاهدة الصفات الى الفرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة، لكنه رأى نفسه، ثم اقترب حتى فنى عن مشاهدة نفسه، اذ رأى ذلك نقصاناً؛ واقترب فقال: لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

فقوله: لا أحصى ثناء عليك، تعبير عن فناء نفسه؛ وقوله: أنت كما أثنيت على نفسك، بيان أنه المثنى والمثنى عليه، وان الكل منه بدأ واليه يعود، وان كل شيء هالك الا وجهه، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين، ومع ذلك كان يرى كل مرتبة بعداً بالقياس الى ما بعده، ولذلك قال أنه ليغان على قلبه، وكان أول أمر الله آخر مقامات الموحدين. هذا نظر التوحيد.

وأما نظر غيره: ففيه الشاكر والمشكور والشكر. ثم ان نعم الله تعالى آلات ان استعملها في الطاعة شكر لموافقته محبة مولاه، وان لم يستعملها في الطاعة واستعملها في المعصية كفر للنعمة للتضييع، وكل ما في الدنيا خلق آلة للعبد يتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله، فالمعصية والطاعة تشتملها المشيئة ولكن لا تشتملها المحبة والكراهة، بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه.

واذا عرفت هذه المقامات: فقد ظهر لك توجيه الاشكالين المذكورين،

وذلك لأن المراد بالشكر ليس الا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله، فإذا انصرفت في جهة المحبة بفعل العبد لفعل الله فقد حصل المراد، وفعلك عطاء من الله.

ومن حيث انه فعله فقد اثنى عليك، وثناؤه نعمة أخرى منه اليك، فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى، وصار أحد فعليه سبباً لأنصراف فعله الثاني الى جهة محبة الله، فله الشكر على كل حال.

وأنت موصوف بأنك عالم وعارف ولا بمعنى انك خالق علم وموجد بل بمعنى أنك محل له، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك، فوصفك بأنك شاكر اثبات مشيئة. فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعملوا وكل ميسر لما خلق له» يريد به: أن الخلق مجاري قدر الله ومحل أفعاله وان كانوا هم أيضاً من أفعاله، ولكن بعض أفعاله محل لبعض؛ وقوله: اعملوا، وان كان جارياً على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو فعل من أفعال الله عز وجل، وهو سبب لعلم الخلق بأن العمل نافع وان علمهم فعل من أفعال الله.

والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة الى الحركة بالطاعة، وانبعاث الداعية أيضاً من فعل الله، وهو سبب لحركة الأعضاء، وهي أيضاً من أفعال الله، ولكن بعض أفعاله كان سبباً لبعض أفعاله، أي الأول شرط للثاني، أي أنه لا يستعد لقبول العلم الا ذو حياة ولا لقبول الارادة الا ذو علم، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى ان بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره. وهذا اذا حقق يرتقي الى درجة التوحيد الذي ذكرناه.

واعلم: ان هذا التمهيد مما لا تجده في كتب أحد فلا تغفل عن تحصيله واذعانه. ثم انك اذا عرفت ذلك لعلك تتبع شيطان الوهم، وتقول: واذا لم يكن الينا شيء بل رجع الكل الى الله فلا نذم أصلاً فلا حاجة الى الطاعة.

فنقول: اعلم ان قول الله تعالى: «اعملوا» سبب لحصول اعتقاد فينا بوجوب العمل، وذلك سبب لهيجان الخوف، وهو سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول الى جوار الله، والله مسبب

الأسباب ومرتبها. فمن سبق له في الأزل السعادة يسرت له هذه الأسباب حتى تقوده بسلسلتها الى الجنة. ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له، ومن لم يسبق من الله له الحسنى بعد سماع كلام الله وكلام رسوله وكلام العلماء، فإذا لم يسمع لم يعلم، واذا لم يعلم، لم يخف، واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا، واذا لم يترك الركون الى الدنيا بقي في حزب الشيطان وان جهنم لموعدهم أجمعين.

واذا عرفت هذا: تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل، فما من أحد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه، وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والامن والغرور عليه. فالمتقون يساقون الى الجنة قهراً، والمجرمون يقادون الى النار قهراً، ولا قاهر الا الواحد القهار، ولا قادر الا الملك الجبار. وعند معاينة هذا يسمع نداء: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، وذلك كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص، ولكن الغافلين لا يسمعونه الا ذلك اليوم على الخصوص. نعوذ بالله من الجهل والعمى فأنه أصل أسباب الهلاك والعياذ بالله.

المطلب السابع

واعلم: أنه لا بد في تحصيل الشكر من معرفة ما خلق كل شيء له، وطريقة الآيات والأخبار، وذلك ظاهر؛ وأما النظر بعين الاعتبار وهذا عسير جداً، ولهذا احتيج الى ارسال الرسل.

مثلاً: كل شيء في العالم له حكمة؛ أما جلية كالضياء من الشمس والمطر من الغيم؛ أو دقيقة كالحكمة من الكواكب السيارة وغيرها. ثم كل ذرة لا تخلو عن حكم كثيرة من واحد الى عشر بل الى ألف.

فمن استعمل شيئاً فيما خلق له من الحكمة صار شكراً والا صار كفراً؛ مثلاً: اليد خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد، وكذا لو استنجى باليمين فقد كفر ما خلقت له اليمين من استعمالها في أشرف الأمور، وكذا البصر مثلاً انها خلقت

العينان لينظر بها ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بها ما يضره فيها، فمن نظر الى وجه غير المحرم فقد استعملها في غير ما أريدتا له فكفر نعمة الأبصار، وهكذا في سائر الأعضاء.

فان قلت: اذا كان الكل راجعاً الى فعل الله فكيف يكون العبد موصوفاً بالشكر والكفران. فاعلم: ان تمام تحقيق هذا المقام لا يعرفه الا من علم منطق الطير، ولا يجهله الا من عجز عن الإيضاع في السير.

واجمال هذا هو: أن صفات الله تعالى أجل وأعلى من أن يلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم، فاستعاروا من حضيض البشرية أموراً لها مناسبة معها تناسباً ضعيفاً جداً فاستعاروا لها اسم القدرة مثلاً، وكذا المشيئة، مع قصور اللفظين عن كنه جلال ذينك الوصفين.

ثم الأفعال الصادرة عن القدرة: اما أن ينساق إلى غاية حكمتها أو يقف دونها. ثم ان هذين من حيث نسبة المشيئة الى الأول يسمى محبوباً، والى الثاني مكروهاً. ثم تعلق صفة المشيئة في الأزل الى بلوغ شخص نهاية حكمته بتسليط دواعيه عليه قهراً يسمى رضى، وتعلقها في الأزل الى وقوفه دون نهايتها باستيقاف دواعيه عن ذلك قهراً يسمى غضباً.

ثم اذا ظهر هذا التقدير الأزلي في الشخص اما في الأول فيسمى الشكر ويردفه بالثناء، واما في الثاني فيسمى بالكفران ويتبعه نقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال. فحاصله: أن أعطى الجمال فأثنى عليه، وأعطى النكال فقبحه؛ كملك أعطى لمملوكه الثياب النفيسة وكسى هواياه، ثم وصفه الملك بالجمال، وكذا في ضده، فهو المثني والمثنى عليه بكل حال، فكأنه أثنى على نفسه من حيث المعنى وليس العبد الا حرف الثناء من حيث الظاهر. والصورة هكذا تسلسلت الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب.

ولما لم يكن ذلك عن اتفاق وبحث، بل عن ارادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء فهو كلمح البصر، ثم استعير لترتيب آحاد

المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر؛ فالقضاء اجمال وأمر واحد كلي والقدر تفصيل ذلك.

وأما اذا خطر ببالك ان القسمة لماذا يكون على هذا فتلجم عنه ذلك لسانك بلجام المنع، و يقال لكم: اسكتوا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. و يقال: اذا ذكر القدر فأمسكوا وتأدبوا بأدب الله عز وجل فان للحيطان آذاناً.

وغاية خطاك انك تقول: فعلى، وأضفت ذلك الى نفسك، بل هو الذي صرف داعيتك، ثم جعله على وجه العدل حيث خص الفعلة المحبوبة بالشخص المحبوب والمكروه بالمكروه، انما مثلك مثل صبي يرى المشعوذ، فيرى حركة الصور في الليل المظلم من الصور لا من المشعوذ.

وظهر بما مر ان أشكر العباد أحبهم، وذلك كالملائكة في السماء والأنبياء في الأرض. وأعلى الملائكة اسرافيل، وأعلى الأنبياء محمد صلوات الله عليهم أجمعين، اذ أعطى له الدين والملك والسلطنة ولم يعط هذه كلها الا له صلى الله عليه وسلم. وأيضاً أكمل الله الدين به وختم به التبيين. و يليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فأنهم صلحوا وصلح بهم الناس. ثم يليهم السلاطين بالعدل لأن صلاح الدنيا بهم، كما أن صلاح الآخرة بالعلماء. ثم يليهم الذين أصلحوا أنفسهم فقط من الصلحاء غير العلماء. ومن عدا هؤلاء الطوائف فهمج رعاع.

واعلم: ان السلطان لكونه قوام الدين والدنيا لا ينبغي أن يستحقر وان كان ظالماً فاسقاً؛ وفي الحديث: «سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر، فان أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وان أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر». قال سهل: من أنكر امامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل.

المطلب الثامن
في حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم: ان كل لذة وخير وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر نعمة وسعادة. وان

كانت نافعة في الدارين فهي النعمة حقيقة؛ كالعلم وحسن الخلق، وان كان ضاراً فيها فهو البلاء تحقيقاً؛ كالجهل وسوء الخلق. وان كان نافعاً في الحال ضاراً في المآل فهو البلاء عند ذوي الأبصار والنعمة عند ذوي الجهل؛ كالشهوات. وان كان بالعكس فبالعكس؛ كمخالفة الشهوات.

ثم أن الأمور الدنيوية: أما نفعه أكثر من ضره؛ كقدر الكفاية من المال، أو بالعكس؛ كالمال الكثير والجاه الواسع؛ وأما ضرره يكافىء نفعه، وهذا يختلف بالأشخاص، اذ رب انسان لا يتضرر بالأموال العظيمة وبعض منهم يتضرر بأقل منها.

واعلم: أن الخيرات أما أن تؤثر لذاتها أو لغيرها أولها معاً. والأول: النظر الى وجه الله تعالى؛ والثاني: كالدراهم والدنانير فأنها وسائل فقط، والا فهي والحصى سواء؛ الثالث: كالصحة والسلامة.

واعلم أيضاً: ان الخيرات اما نافعة أو جميلة أو لذيذة، فاللذائذ تستحسن في سائر الأحوال. وكذا الشرور: اما ضار أو قبيح أو مؤلم.

ثم أنه قد تجتمع هذه الأوصاف اما في الخير؛ فكالعلم والحكمة فأنها نافعة ولذيذة وجميلة عند أهلها؛ وكذا ضده وهو الجهل في جميع الأوصاف الثلاثة للشر فأنه ضار ومؤلم وقبيح.

وقد يجتمع بعض هذه مع بعض كقطع الأصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن، فان هذا نافع، مؤلم.

وقد يكون شيء نافعاً من وجه وضاراً من وجه آخر؛ كالقاء المال في البحر لنجاة صاحبه. وأيضاً: النافع أما ضروري؛ كالايمان وحسن الخلق، أو غير ضروري؛ كالسكنجبين في تسكين الصفراء، اذ ربما يقوم غيره مقامه.

ثم أن اللذة: أما عقلية؛ كلذة العلم والحكمة وهي أشرف اللذات عند من يعرفها — كما عرفت عند ذكرنا فضيلة العلم والحكمة، وأظهر شرفها أنه الباقي في أبد الآباد، ولا يمتد اليها أيدي الغاصبين ولا ينالها السن السلاطين بالعزل؛

وأما بدنية: وهي أما مشتركة مع بعض الحيوانات؛ كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر وغيرهما، أو مع جميعها، كلذة البطن والفرج، وهذا أكثرها وأخسها ولذلك شارك الكل فيها.

ثم شره البطن والفرج مما يقوى عليه الصالحون، وشهوة الرياسة لا يقوى على قهرها الصديقون، حتى قيل: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين الرياسة. فقمع شهوة الرياسة بالكلية لا يقع، وان وقع في بعض الأحوال عند غلبة لذة معرفة الله تعالى.

ثم اعلم: أن القلوب أربعة:

قلب لا يحب الا الله تعالى وهذا في غاية الندرة؛

وقلب لا يلتذ الا بالرياسة والشهوات ولا يدري غيرها وهذا كثير؛

وقلب يغلب عليه التلذذ بالصفات البشرية؛

وقلب يغلب عليه التلذذ بمعرفة الله تعالى.

وهذان في غاية الندور، ومع ندرتها تتفاوت قلة وكثرة، لأن ذلك يقل اذا بعدت الأعصار عن عصر النبوة، و يزداد قلة الى أن تقرب الساعة و يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وسبب قلة هذا القلب أن عالم الشهادة مرآة لعالم الغيب وتابع له، كما ان الصورة في المرآة تابعة للشخص وثانية له في رتبة الوجود، الا أنها متقدمة عليه في المعرفة. كذلك عالم الشهادة متقدم على عالم الغيب في المعرفة وان كان تابعاً له في الوجود. فلذلك كان أكثر الناس مقصور النظر على ما هو مقدم في المعرفة وقريباً منه، أعني: عالم الشهادة، وقليل منهم يعبر منه الى عالم الغيب و يستدل بالصورة على الأصل، وهذا الذي يسمى عبرة عند العلماء.

واعلم: أن النعمة تنقسم أيضاً الى: نعمة هي غاية الغايات، وذلك سعادة الآخرة، وهي أربع: بقاء لا فناء له، وسرور بلا غم، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر معه، وهي الحقيقية؛ **والى وسائل هي أربعة أنواع:**

أحدها: الأقرب والأخص؛ كالفضائل النفسانية وهي: الايمان وحسن

الخلق. والآول علوم المكاشفة والثاني علوم المعاملة. وهي: أما ترك مقتضى الشهوة والغضب واسمه الفقه، واما مراعاة العدل في الكف عن الشهوات حتى لا يخسر الميزان ولا تطغى فيه واسمه العفة. فهذه أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة.

وثانيها: الفضائل البدنية، وهي متممة للنوع الأول. وهي أيضاً أربع: الصحة والقوة والجمال وطول العمر.

وثالثها: وهي النعم الخارجة عن البدن. وهي أيضاً أربع ومتممة للنوع الثاني: المال والأهل والجاه وكرم العشيرة.

ورابعها: الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة. وهي أربعة أيضاً: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده.

ثم أنك قد عرفت فوائد المال والأهل فيما مر، وكذا العز والجاه يمكن أن تستعان به النفس الى طريق الآخرة، اذ يدفع عن الانسان الظلم والضيم الشاغلين عن المعرفة. ولذلك كان علماء الدين طلبوا الجاه قدر ما يستعان به في أمره ومطلبه.

وأما ذم المال والجاه في الأحاديث والأخبار فلا ينافي ما ذكر، اذ الحية فيها ترياق وسم، فكذا المال والجاه. ولعلك قد نبهت على التمييز بين القدر النافع والقدر الضار فيما سبق. وكذا كرم العشيرة، ولذلك جعلت الأئمة من قريش، لكن المراد عشيرة الأنبياء والعلماء والصلحاء لا عشيرة الملوك والظلمة. وكذلك لا خفاء في الحاجة الى الصحة والقوة وطول العمر.

وأما الجمال: فانه أقرب الى الاجابة وجاهه في الصدور أوسع، فصار بمنزلة الجاه والمال، وأيضاً الجمال في الأكثر دال على فضيلة النفس لأن نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن، فالمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان، وعلى هذا يبتنى علم الفراسة.

وأما التوفيق: فلا يستغني عنه أحد، لأنه عبارة عن التأليف بين ارادة

العبد و بين قضاء الله وقدره من حيث وصوله الى السعادة له:

اذا لم يــكــن عــون مـن الله للـفتى　　　فــأكثر مــا يجنى عــلـيــه اجتهــاده

وأما الهداية: فلا سبيل لأحد الى طلب السعادة الا بها، اذ الانسان لا يقدر على تميز الصلاح من الفساد الا بالهداية.

وهي ثلاث مراتب:

الأولى: معرفة طريق الخير والشر، قال تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾[١].

وقد أنعم الله تعالى بهذه الهداية على كافة عباده بالعقل تارة وبالسمع أخرى.

الثانية: التي يمد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال وهي ثمرة المجاهدة، قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[٢].

الثالثة التي وراء الثانية: وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدي به الى ما يهتدى اليه بالعقل وهو الهدي المطلق.

وأما الرشد: فنعني به العناية الألهية التي تتعين للإنسان عند توجهه إلى مقاصده، فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، و يكون ذلك من الباطن. فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة لكن بشرط أن تحرك داعيته إليها، ولو اهتدى إلى تلك الجهة ولم يتحرك إليها يسمى مهدياً لا رشيداً، فالرشد أكمل من مجرد الهداية، وذلك نعمة عظيمة.

وأما التسديد: فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب، وتيسيرها عليه ليتسدد في صوب الصواب في أسرع وقت، فان الرشد أيضاً لا يكفي، بل لا بد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد. فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية ليتحرك، والتسديد عناية ونصرة تتحرك الأعضاء في صوب السداد.

---

(١) سورة البلد، آية: ١٠.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

وأما التأييد: فكأنه جامع للكل. وهو عبارة عن تقوية أمره بالتبصرة من داخل، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله عز وجل: ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾[1].

ويقرب منه العصمة: وهي عبارة عن وجود الهي يسنح في الباطن يقوى به الانسان على تحري الخير ويجتنب الشر، حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس. وهي المراد بالبرهان في قوله عز وجل: ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾[2].

فهذه هي مجامع النعم، ولن يستبد بها الا من خوله الله من الفهم الصافي الثاقب، والسمع الواعي، والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلم الناصح، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته، والعز الذي يصونه عن سفلة السفهاء وظلم الأعداء. وتستدعي كل واحدة من هذه الأسباب الى ستة عشر سبباً، وتستدعي تلك الأسباب أسباباً، الى أن ينتهي بالآخرة الى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين، وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب.

ولو أردت أن تستقصي أسباب نعمة واحدة من النعم: كنعمة الأكل مثلاً، وكسرت عليها المجلدات، لبقي ذهنك في حيز الحيرة حسيراً، لأنها تتوقف على معرفة قوة الشهوة والغضب المتوقفتين على الآلات البدنية، لا يفي بذكر شمة منها ومقدار ما يمكن أن يحيط العقول بها كثير من المجلدات.

وكذا كيفية تولد البدن عن المني في رحم الأم، وأطوار خلقه الجنين هناك لا تفي لذكرها المجلدات. وكذا كيفية تكون الأغذية النباتية والحيوانية، وترتيبها بالآباء العلوية والأمهات السفلية لا تتم في عدة مجلدات. وكذا كيفية طبعها واصلاحها واحتياجها الى آلات من الحديد والحطب والنار، واحتياج هذه

(١) سورة البقرة، آية: ٨٧.
(٢) سورة يوسف، آية: ٢٤

الآلات الى الصناع المحتاجين الى آلات أخر لا تتناهى، لا يمكن ذكر شمة منها الا في كثير من المجلدات. وكذا مضغ الأطعمة، وكيفية تولد الريق المعين لازلاق اللقمة المتولد من تحت اللسان، وكيفية جذب المعدة ذلك، ثم طبخها في المعدة ثم في الكبد، ثم وصولها الى البدن وانقسام فضلاتها الى طريق آخر، لا يمكن تفصيلها في مجلدات.

ولو ارتقيت الى معرفة الحواس المعينة، الى معرفة مضار الأطعمة ومنافعها وكيفية تحصيلها. ومن جملتها البصر، وان جرمها الذي هو مقدار جوزة عشر طبقات مركبة، بعضها رطوبات وبعضها أغشية، وبعض تلك الأغشية كالمشيمة، وبعضها كأنها نسج العنكبوت، وبعض تلك الرطوبات كأنها بياض البيض، وبعضها كأنه الجمد. وكذا أحوال سائر الحواس، بحيث لا يمكن للعقل احاطة جملها، ولا للسان بيان قدر ما أحاط منها كما هو حقها، ولا للبنان كتابة ما جرى منها على اللسان.

وهكذا يتوقف على أسباب وأسباب، الى حيث يعجز العقل عن ضبط أنواع أسباب فعل واحد؛ عن الأكل، فضلاً عن ضبط أفرادها وأسباب سائر الأفعال، وعند ذلك تفهم معنى قوله عز وجل: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [1].

ألا انك أيها المسكين لا تعرف من النعم الا نفس الأكل وهو أخسها، ثم لا تعرف منها الا أنك تجوع فتأكل، وتتعب وتنام، ثم تشتهي وتجامع وتستريح. وهذا أيضاً حال الحمار وأنت في رتبتها. فلا تغفل أيها المسكين عن النظر في ملكوت الله سبحانه وعجائب صنعه وحكمة تصنيفه، لأن العالم كله من تصنيفه، بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، الا أنك تغفل غفلة البهائم مع أنك من زمرة الملائكة، لكن ألق الى هذه الرتبة جهلك وحمقك وعجزك. فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان جل جلاله وعم نواله. ولنترك استقصاء هذا الباب فأنه طمع في غير طمع.

---

(١) سورة ابراهيم، آية: ٣٤.

المطلب التاسع
في السبب الصارف عن الشكر وعلاجه

واعلم: أن سببه الجهل والغفلة عن معرفة النعم، وأن عرفها فيظن أن شكرها أن تقول بلسانك: الحمد لله الشكر لله. وأيضاً: سببه ــ بعد معرفتها ــ غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب:

أحدها: عموم النعمة للخلق كافة كأنهم لا يعدونها نعمة، ألا تراهم لا يشكرون الهواء مثلاً وهو من أعظم النعم اذ لا يمكن التعيش بدونها ولو ساعة، وهذا جهل عظيم، حيث لا يعدون النعمة الدائمة نعمة و يعدون ما ينقطع ساعة ثم يعود نعمة، مع أن الدائم أحق بالشكر من المنقطع أحياناً.

وطريق معرفة النعمة فرض انقطاعها، فحينئذ يظهر لأهل الغفلة حالها. روى أن ابن السماك قال لبعض الخلفاء ــ وفي يده ماء يشربه وقال عظني ــ لو لم تعط هذه الشربة الا بنصف ملكك فهل تبذله، قال: نعم، قال: وان لم تخرج من بدنك بعد شربها هل تترك نصفه الآخر، قال: نعم، قال: فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء ولا دفعها عن بدنك. وبهذا تبين أن شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كله.

على أن كل أحد يظن أنه يخص من بين الناس بعقل لا يشاركه فيه الناس، و يظن أنه على خلق كريم لا يشوبه العيب بخلاف سائر الناس، وأيضاً يعتقد فيه علماً امتاز به عن الناس. ثم ان كان هذا الظن واقعاً في نفسه يلزمه الشكر لا محالة، وان لم يكن واقعاً الا ان الله تعالى ستر قبيحه عن الناس وأظهر لهم الجميل من العقل والخلق والعلم فكذلك يلزمه الشكر.

ثم نقول: ان كل أحد رزقه الله تعالى أموراً لو أعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به: من صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته، أو أهله أو ولده، أو مسكنه، أو بلده، أو رفيقه أو أقاربه، أو عزه أو جاهه أو سائر محابه،

فإذا لله عليه نعمة ليست على أحد من عباده سواه، فينبغي أن يشكرها.

وأيضاً: من النعم ما فيه عموم ولكن لو تبدلت بأضدادها لم يرض بها؛ مثل: أن جعله مؤمناً لا كافراً، وحيا لا جماداً، وانساناً لا بهيمة، وذكراً لا أنثى، وصحيحاً لا مريضاً، وسليماً لا معيباً.

وأيضاً: عدد المغبوطين عنده أقل من غيره بكثير، فكيف لا ينظر من هو دونه حتى لا يزدري نعم الله، كما أنه ينظر الى من دونه في الدين و يتعذر بكثرة الفساق مع أن دنياه لا تساوي دينه.

فعليك أن تتأمل كلام أفصح من نطق بالضاد حيث قال صلى الله عليه وسلم: «من أصبح معافى في بدنه آمناً في سربه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»؛ سيما زمرة العلماء، فان نعمة العلم أعظم النعم، حتى أن بعضاً منهم لو بدل نصف علمه بل عشر أعشار علمه بملك الأرض من الشرق الى الغرب لأنف من ذلك وأنكر على قائلها.

ولا تظنن أن المعرض عن الدنيا في ألم الصبر عنها فان ذلك ليس بأكثر من ألم الصبر عليها، فان آلام الأغنياء أضعاف ألم الفقراء ولكن لا يشعرون بسبب خدر حاصل في طبيعتهم، فإذا زال ذلك بالموت يشعرون ذلك لكن حين لا ينفعهم العلم.

ثم أن علاج القلوب الفاقدة للشكر؛ فان كان بصيراً فعلاجه التأمل فيما ذكرناه من أصناف النعم، وان كان غير ذلك فبالنظر الى من دونه. وكان بعضهم يحضر كل يوم دار المرضى ليعرف نعمة الصحة، ويحضر المقابر ليعرف قدر الحياة، ويحضر موضع العقوبات ليعرف قدر العصمة من الجنايات.

ومما ينبغي أن يعالج به القلوب غير الشاكرة أن تعرف أن النعمة اذا لم تشكر زالت ولم تعد. قال عز وجل: ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]. وفي الخبر: «ما عظمت نعمة الله على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال». قال الفضيل: عليكم

---

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

بمداومة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم.وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر.

المطلب العاشر

فيما يشترك فيه الصبر والشكر

اعلم: أن الله تعالى في كل شيء نعمة يجب عليها الشكر، وكذا في كل شيء بلاء اذ البلاء فقد النعمة.

ثم أن النعمة: أما مطلقة، وهي في الآخرة سعادة العبد بالنزول في جوار الله، وفي الدنيا الايمان وحسن الخلق وما يعين عليهما؛ وأما مقيدة وهي نعمة من وجه دون وجه؛ كالفقر والخوف والمرض، فإنها نعمة ديناً و بلاء في الدنيا.

وكذا البلاء: إما مطلق؛ كالكفر والمعاصي، واما مقيد، كالفقر والمرض كما ذكر. فالشكر للنعم واجب.

وأما الصبر فعلى البلاء المقيد، وأما البلاء المطلق فلا يجوز الصبر عليه بل يجب ازالته مهما أمكن، وانما الصبر على ألم ليس للعبد ازالته؛ مثلاً: لو تألم بطول العطش حتى عظم ألمه لا يصبر عليه بل يزيله ان قدر.

ثم ان النعمة يجوز أن تصير بلاء و بالعكس، ولهذا يمكن أن يجتمع الصبر والشكر في مادة واحدة؛ مثلاً: الفقر نعمة في حق من اذا استغنى وكثّر ماله بطر وطغى، مع أنه بلاء أيضاً في نفسه، فيشكر من حيث كونه نعمة و يصبر من حيث كونه بلاء.

ثم أن المعرفة التي هي نعمة مطلقة يمكن أن تكون بلاء في حق بعض الناس، فتكون النعمة في ضدها؛ مثلاً: معرفة الانسان أجله بلاء ينغص عيشه و يطيل غمه، فيكون جهله به نعمة؛ وكذلك معرفة أحوال قلوب الناس بلاء، اذ لو رفع الستر لطال أمله وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام بسبب اطلاعه على ما يضمره الخلق، فيكون الجهل بها نعمة؛ وكذلك جهله بالخصال المحمودة في غير نعمة، اذ ربما يضطر الى ايذائه واهانته، وفعل ذلك بعد المعرفة اثم عظيم؛

ومنها الجهل بالقيامة وليلة القدر وساعة الجمعة وبعض الكبائر، لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد. وهذه وجوه نعم الله في الجهل فكيف في العلم.

وان أخطرت ببالك ان جمع الصبر والشكر جمع بين الضدين، اذ الأول يستلزم الفرح والثاني الشكر وهما ضدان، يجوز جمع الفرح والغم من وجهين؛ اذ في كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا أمور خمسة يجب الفرح بها عند العاقل: عدم كونها زائداً على ما وقع، وعدم كونها في الدين، وتعجيل عقوبتك في الدنيا فلا تعاقب في الآخرة ثانياً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان العبد اذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً». وأيضاً: هذه العقوبة كانت مكتوبة في أم الكتاب فقد وقعت وانقضت وهذه أيضاً نعمة. وأيضاً: ان ثوابها في الآخرة أكثر من هذه العقوبة في الدنيا.

ثم انك بعد ما سمعت فضل البلاء فاياك أن تجوز طلب البلاء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وقال: «سلوا الله العافية فما أعطى عبد أفضل من العافية الا اليقين»؛ وأشار باليقين الى عافية القلب من مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلى من عافية البدن. ونظير ذلك في الأحاديث والآثار أكثر من أن يحصى.

أما ما صدر من أهل المحبة، لأن من شرب من كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة لها، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولكن لا يعول عليه. ويحكى ان فاختة قالت لزوجها: ما الذي يمنعك عني ولو أردت أن أقلب قصر سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك، فسمعه سليمان وعاتبه، فقال: يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى، وهو كما قال.

المطلب الحادي عشر

قال بعضهم: الصبر أفضل من الشكر، وقال بعضهم بالعكس، وقال آخرون: هماسيان، وقال آخرون: يختلف باختلاف الأحوال.

واعلم: أن المفهوم من الأحاديث والأخبار والآثار فضيلة الصبر على الشكر، لأن الصبر حال الفقر والشكر حال الغنى، وفي ذلك مقنع للناس كافة. **الا أن أهل التحقيق منهم ربما يكشفون حقيقة الحال بتفصيل ذلك.**

وهو: أن العلوم الظاهرة تراد للأحوال، والأحوال للأعمال. وأما العلوم الباطنة فانما تراد الأحوال لأجلها، والأعمال لأجل الأحوال. فأفضل الكل معرفة الله تعالى وانما يتوسل اليها بأحوال القلب في تصفيته عن المكدرات.

ثم الأعمال اما أن تجلب ظلمة القلب وهي المعاصي، أو صفاءها وهي الطاعات. ثم أن المعاصي والطاعات متفاوتة ومختلفة بحسب اختلاف الأحوال؛ مثلاً: من غلبه الشح فليس له صوم النافلة بل اخراج درهم واحد له أفضل من صوم النافلة، وكذا من غلبته شهوة البطن فله الصوم دون اخراج المال. وأما ما ورد في الشرع من فضل الصدقة على الأطلاق وفضل الصوم على الاطلاق، فذلك لأنه لو قيل: الصدقة لمن ابتلي بمرض الشح، والصوم لمن ابتلي بمرض الشهوة البطنية أو الفرجية لربما قالت النفس: ليس في هذا المرض؛ لأن شأن النفس انكار أمراضها فيترك معالجتها فتهلك. أنظر الى رحمة الشارع على العباد، وحذاقتها في معالجة أمراض قلوبهم.

ثم أن الصبر والشكر قد يجتمعان في محل واحد كما بيناه، فهناك لا يتصور فضيلة أحدهما على الآخر. وأما اذا تغاير محلها: فان كانت النعمة ضرورية؛ كالعينين مثلاً، فن فقدهما فصبره بأن لا يظهر الشكوى و يضمر الرضا بقضاء الله تعالى. والبصير أما أن يستعملها في طاعة الله تعالى فقد شكر وصبر أيضاً على الطاعة، وكذا ان كفهما عن الحرام فقد شكر وصبر أيضاً عن الحرام. ولا يخفى أن الأعمى فيه فضيلة الصبر فقط، وفي البصير المتقي عن الحرام أو المستعمل في الطاعة فضيلة الصبر والشكر معاً. فالبصير المذكور أفضل من الأعمى المذكور، والأعمى المذكور أفضل من البصير الغير الغاض بصره عز الحرام.

وان كانت النعمة غير ضرورية ولم تكن فاضلة على الحاجة، ففي الصبر عن

الزيادة مجاهدة، وهذا الصبر أتم وأقوى من صبر الغنى على الاقتصار على المباح ويمسك ماله على الفقراء. وأما الغني الذي يصرف ماله الى الخيرات ولا يستعملها في المعصية ففيه الشكر والصبر، ولا يخفى ان مجموع الأمرين افضل من أحدهما، وان كان صبر الفقر أفضل من جهة صبر هذا الغني أيضاً. وبالجملة: الفقير الصابر أفضل من الغني الصابر فقط ومن الغني الشاكر فقط، وان كان الغني الصابر الشاكر أفضل من الفقير الصابر فقط. وما قيل: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فذلك لعدم انفكاك الشكر عن الصبر.

وما ورد في الأخبار من فضيلة الصبر على الشكر فانما فضيلته على الشكر بحسب متفاهم عرف العامة، وهو أن النعمة عندهم المال فقط، والمتبادر من الشكر عندهم قولهم: الحمد لله الشكر لله، الا أن التفصيل الكاشف للشبهة هو ما ذكرناه والله أعلم.

الأصل الثالث

في الرجاء والخوف

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في حقيقة الرجاء

واعلم: ان كل ما يلاقيك من مكروه أو محبوب أما موجود في الحال أو في الماضي أو في الاستقبال. فاذا خطر ببالك الأول سمي ذكراً، واذا خطر الثاني يسمى وجداً أو ذوقاً أو ادراكاً، وانما سمي وجداً لوجودها في نفسه، واذا خطر الثالث وغلب على قلبك يسمى انتظاراً أو توقعاً. ثم ان كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم يسمى خوفاً واشفاقاً، وان كان محبوباً حصل منه شوق يسمى رجاء ان كان انتظاره لأجل حصول اكثر أسبابه، وغروراً ان كان مع انخرام أسبابه، وغروراً ان كان مع انخرام أسبابه واضطرابها وان لم يعلم وجود أسبابها وانتفائها يسمى تمنياً.

فاسم الرجاء والخوف لا يطلق الا على ما يتردد فيه، اذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، بل: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

واذا عرفت هذا، فاعلم: ان انتظار المغفرة انما سمي رجاء اذا تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد: من بث بذر الايمان، وسقيه بماء الطاعات، وتطهير القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى الثبات

عبيه الى الموت، وحسن الخاتمة عند الموت ان كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه. وان خالف ما ذكر من الشرائط ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور.

المطلب الثاني
في فضيلة الرجاء

قال الله تعالى: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾[1]؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فيظن ما شاء»؛ وقال: «لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله». وغير ذلك من الآيات والأخبار والآثار.

واعلم: أن الرجل أما أن يغلب عليه اليأس فترك العبادة، أو غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر نفسه، فهما مائلان الى طرفي الافراط والتفريط فيحتاجان الى دواء. وأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الأعراض عن العبادة فأدوية الرجاء في حقه سموم مهلكة، بل لا يبرئه من مرضه الا أدوية الخوف.

فمن كان واعظاً ينبغي أن يراعي الأمراض المذكورة، ويدبر علاجها بحسب الأمراض، وألا يؤدي الى الاهلاك. وعليه أن يقتدى كتاب الله وسنة رسوله حيث اشتملا على الرجاء والخوف جميعاً.

وبالجملة: الجمع بينهما هو الوسط وهو الجادة، فمن مال عنها يرد الى الجادة لا الى الطرف الآخر.

ثم ان طريق العلاج: إما استقراء الآيات والأخبار: وذلك معلوم عند المسلمين، كما قال صلى الله عليه وسلم: «ان الله كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق أن رحمتي تغلب غضبي»؛ وفي الحديث: «لو لم تذنبوا لخلق الله

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

تعالى خلقاً يذنبون فيغفر لهم»؛ وفي الخبر: «ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ما خطر قط على قلب أحد حتى أن ابليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه». ونحو ذلك من الأخبار والآثار.

واما اعتبار العقل: وذلك ان من أعد للانسان كل ما هو ضروري له في دوام وجوده؛ كآلات الغذاء، وما هو محتاج اليه؛ كالأظفار والأصابع، وما هو زينة له؛ كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين، ونحو ذلك مما لا ينثلم بفقده غرض مقصود وانما يفوت به مزيد جمال، فما ظنك باعداد ما هو أهم الأمور عنده وغاية الغايات وأصل كل السعادات، أعني: سعادة الآخرة. فالعناية الالهية اذا لم ترض لعباده بفوات أمثال هذه فكيف ترضى بسياقتهم الى الهلاك المؤبد.

واذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليها الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلاً، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم.

وأيضاً: من نظر في حكمة الشريعة ووجه الرحمة بها على العباد، حتى أنزل آية طويلة لبيان المداينة ليهتدي بها الى حفظ دينه، فمن هداهم طريق حفظ دينهم فكيف لا يحفظ لهم طرق دينهم الذي لا عوض لهم منه.

المطلب الثالث

في الخوف

وقد عرفت حقيقته: وهي تألم القلب بسبب توقع مكروه في الاستقبال. فالخوف من الله تارة يكون بمعرفة الله ومعرفة صفاته، وانه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع؛ وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد؛ وتارة يكون بهما جميعاً. فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أنا أخوفكم لله»؛ وقال الله تعالى: ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾[1].

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٨.

ثم اذا كملت المعرفة أورثت حال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثره على البدن والجوارح والصفات.

أما في البدن: فالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنفتق به المرارة فيفضي الى الموت، أو يصعد الى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس.

وأما في الجوارح: فيكفها عن المعاصي و يقيدها بالطاعات.

وأما في الصفات: فيقمع الشهوات و يكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذل والخشوع، و يفارقه الكبر والحسد والحقد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة، والضنة بالأنفاس والخطوات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات. وهذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع. من المحظورات و يسمى ورعاً، فان زادت قوته حتى كف عما لا يتيقن حرمته يسمى تقوى؛ وهو أن يترك ما يريبه الى ما لا يريبه، وقد يزاد عليه فيترك ما لابأس به مخافة ما به بأس فهو الصدق في التقوى، فإذا انضم اليه التجرد في الخدمة بأن لا يصرف الى غير الله أصلاً فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً، والصديق يتضمن التقوى والورع والعفة.

ثم أن الخوف ليس كلما كان أقوى كان أحمد قدر ما يسوق العبد الى العلم والعمل. وأما ما خرج الى حد اليأس فيسمى القنوط لا الخوف، وقد يخرج الى المرض والضعف والوله والدهشة وزوال العقل بل الموت، وكل ذلك مذموم.

وأيضاً: الخوف القاصر الذي يعقبه الغفلة قليل الجدوى ضعيف النفع؛ كمن يسمع آية ويخاف منها و يرق رقة النساء ثم يعود الى الغفلة، ومثل ذلك يسمى حديث النفس دون الخوف.

فان قلت: من مات من الخوف يكون شهيداً فكيف يذم، قلت: محمودية الشهادة بالاضافة الى أن لو مات بلا شهادة، واما بالاضافة الى مالو عمر وصل بواسطة الخوف المحمود درجات الولاية فكلا، بل له في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء.

ثم الخوف اما من المكروه لذاته؛ كنفس النار، أو لغيره؛ كالموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة وزوال الرقة من القلب، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف الخاتمة وإن كان حال العارفين خوف السابقة لأن الخاتمة تبع لها. وهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد منها طريق الحذر.

وأيضاً: الخوف أما من المعصية وهذا خوف الصالحين، أو من الله تعالى وهذا خوف الموحدين والصديقين، لأن هذا الخوف لا يزول عند الطاعة أيضاً، لأن من عرف أن الطاعة والمعصية كلاهما بقضاء الله وقدره، وأنه تعالى خلق هؤلاء للجنة ولا يبالي وخلق هؤلاء للنار ولا يبالي، وهو الذي خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة للمطيع وللعاصي، ولم يعرف ما الذي أوجب تخصيص هذا بأرادة الطاعات، وتخصيص ذاك بتسليط دواعي المعصية عليه، ولم يعرف كيفية احالة ذلك على العبد، فإذا كانت الحوالة ترجع الى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة، فالخوف ممن يقضي بما شاء ويحكم ما يريد جزم على كل حال، هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز افشاؤه.

ثم أن الخوائف من نفس المكروه: من أحوال الموت والقبر، وأهوال المطلع والحشر، والوقوف بين يدي الله، والخوف من السؤال والصراط والميزان، والخوف من الحرمان عن الجنان، ونحو ذلك. وهذا خوف العابدين والزاهدين. وأعلى ما ذكر من المخاوف هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين.

المطلب الرابع

اعلم: أن فضيلة الخوف ثابتة بالنقل والعقل. أما النقل، فمن حيث أنه تعالى جمع للخائفين مجامع مقامات أهل الجنان: الهدى والرحمة والعلم

والرضوان. قال عز وجل: ﴿هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾[1]؛ وقال تعالى: ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فوصفهم بالعلم لخشيتهم؛ وقال عز وجل: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾[2].

وروى أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الفضيل، وقيل: هو موقوف على الفضيل: «من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء».

وأما العقل: فلأن فضيلة الشيء بقدر اعانته في الافضاء الى سعادة لقاء الله عز وجل، ولا شيء أنفع في الوصول الى هذه السعادة الا بمحبته تعالى والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة الا بالمعرفة، ولا تحصل هي الا بدوام الفكر. وأيضاً: حصول الأنس بالمحبة ودوام الذكر، ولا يمكن المواظبة على الذكر والفكر الا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك الا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف، فإذا هو أصل لأسباب السعادة. وأيضاً كل ما ورد في مذمة الأمن فهو فضيلة الخوف.

واعلم: أن الناس اختلفوا في أن الأفضل غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو مساواتها؟ والجواب الحق فيه: أن الخوف والرجاء دواء، وفضل الدواء بحسب الداء الموجود، فان كان الغالب داء الأمن فالخوف أفضل في حقه، وان كان الغالب هو اليأس فالرجاء أفضل، وكذلك ان كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل؛ وأما العبد التقي الذي ترك ظاهر الأثم وباطنه خفيه وجليه، فالأصلح له أن يعتدل خوفه ورجاؤه.

ويمكن أن يقال: الخوف أفضل مطلقاً لكن بتأويل ان مرض المعصية والاغترار في... غلب في الناس الرجاء وأما ان نظر الى أن مطلع الخوف بحر الغضب ومطلع الرجاء بحر الرحمة، يقال: الرجاء أفضل، لأن من نظر الى

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٤.

(٢) سورة البينة، آية: ٨.

صفات الرحمة واللطف يعقبه المحبة التي هي منتهى المقامات، ولا كذلك النظر الى صفات القهر والغضب.

ولكن لا تتوهم من ذلك أن الأفضل غلبة الرجاء للعبد، اذ لا يلزم من فضل الرجاء في نفسه فضيلته للعباد المبتلين بالأمراض، بل اللائق بهم الخوف لئلا يقعوا في الغرور فيهلكوا، إذ الرجاء للعصاة غرور. وأما الصالحون وإن كان ظاهر حالهم الرجاء، لكن دقائق الصفات الذميمة الدفينة في القلب وجهالة حال العاقبة يعارض ظاهر أحوالهم، فيتساوى لهم الخوف والرجاء. فالخوف غالب للعصاة، والخوف والرجاء متساو يان للصالحين، ولا يمكن غلبة الرجاء بحال أصلاً إلا عند الموت، إذ لا حاجة له إلى سوط يبعثه على العمل لانقطاع احتمال العمل عنه، وأيضاً: لا يطيق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه و يعين على تعجيل موته، فإذا يضره دواء الخوف، بل الدواء له الرجاء، فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، لأن غاية السعادة أن يموت العبد وهو محب لله تعالى.

المطلب الخامس

في دواء يستجلب الخوف

واعلم: أن أول مقامات الدين اليقين، وهذا يهيج خوف النار ورجاء الجنة، وهما يقو يان على الصبر، فان الجنة حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء، والنار حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها الا بقوة الخوف. ثم يؤدي الصبر المستفاد من الخوف والرجاء الى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله والفكر فيه على الدوام، و يؤدي دوام الذكر الى الأنس، ودوام الفكر الى كمال المعرفة، و يؤدي كمال المعرفة والأنس الى المحبة، و يتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات.

ثم أن الخوف يحصل بطريقين؛ أضعفها: الخوف من النار ورجاء الجنة بالايمان التقليدي، ولا يدري وجه الخوف والرجاء؛ **واعلاهما:** أن يخاف البعد والحجاب عن الله عز وجل و يرجو القرب منه. وهذا الخوف هو خوف العلماء وأر باب القلوب.

وقد تقدم كيفية الخوف من الله تعالى بأن الله سبحانه خلق للعذاب أسباباً وللثواب أسباباً، وخلق لك أهلا يسوقهم القدر والمفرع عن القضاء: الجزم الالهي، الى ما خلقوا له وسخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا. فهذه مخاوف العارفين بسر القدر. وكان خوف نبينا صلى الله عليه وسلم أكثر من غيره، وهو سيد الأولين والآخرين.

وأيضاً: حكايات الصحابة في باب الخوف مذكورة في كتب المناقب، حتى أن بعضاً منهم صاح صيحة ومرض مدة، وبعضاً منهم شهق شهقة حتى مات.

ثم أن أكثر خوف العارفين من سوء الخاتمة، وأن سببه أمور مقدمة: منها البدع، ومنها المعاصي، ومنها النفاق، ومتى يخلو العبد عن جملة ذلك. وان ظن أنه قد خلا عن ذلك فهو نفاق اذ قيل: من أمن النفاق فهو منافق.

أما سوء الخاتمة فلها رتبتان:

أحداهما؛ وهي الأصل، وهو أعظمها: ان يغلب على القلب عند سكرات الموت أما الشك واما الجحود، فتقبض الروح في تلك الحال، فيكون حجاباً بينه وبين الله أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

وثانيتها: أن يغلب عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، ويستغرق قلبه ولا يبقى متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحالة، فيكون قلبه به منكساً رأسه الى الدنيا وصارفاً وجهه اليها، فيحصل له الحجاب، فينزل عليه العذاب، اذ لا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه، اذ لا تصرف في القلوب الا بأعمال الجوارح، وقد بطلت الجوارح بالموت، فلا مطمع في عمل ولا في رجوع الى الدنيا ليتدارك، وعند ذلك تعظم الحسرة.

الا أن أصل الايمان وحب الله اذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة؛ وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة، فأنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت. فان كان ايمانه قوياً يخرجه من النار في زمان أقرب، وان كان أقل

من ذلك طال مكثه، وان كان مثقال حبة فلا بد أن يخرجه ولو بعد آلاف سنين..

ثم ان هذا العذاب لا يؤخر الى الحشر بل يعذب في القبر، بما هو مذكور في الأخبار، ثم في الحشر وعند السؤال وعند الصراط، الى غير ذلك. وأما محل الايمان فهو الروح، لا يفنى فيعاد اليه الأجزاء الأصلية للبدن، ثم يحشر و يعذب الى أن يغلب عنده الايمان.

ثم أنهم حصروا أسباب سوء الخاتمة في نوعين:

أحدهما: الختم على الشك والجحود وان كانت أعماله صالحة، وذلك نوعان:

أحدهما: أما بأن يعتقد بدعة أما بعقله القاصر وأما بتقليد مبتدع، فاذا وقع سكرات الموت بدا له بطلان اعتقاده، وربما ظن أن جميع عقائده باطلة أو مشكوك فيها، فان ختم قبل أن يتثبت و يعود الى أصل الايمان ختم بالسوء والعياذ بالله.

ولهذا منع السلف من البحث والنظر في علم الكلام. والبله بمعزل عن هذا الخطر، ولهذا قيل: ان أكثر أهل الجنة البله، لأن البحث عن الصفات عظيم وعقباتها كؤودة ومسالكها وعرة، والعقول عن درك جلال الله متحيرة. وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطربة ومتعارضة، سيما في هذا الزمان قد استرخى العنان وفشا الهذيان، واكتفى كل أحد بظن وحسبان، و يعتقد أن ذلك علم واستيقان، وانه صفو الايمان، و يظن أن ما قنع به من حدس وتخمين هو علم اليقين، ولتعلمن نبأه بعد حين. و ينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء قول الشاعر:

أحسنت ظنك بالأيام اذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي واغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وثانيها: ضعف الايمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب، اذ يورث ذلك الانهماك في الشهوات حتى يظلم القلب و يسود و يقسو، ولا يزال

يطفو نور الايمان حتى يصير طبعاً وريناً، فاذا جاء الموت واستشعر فراق الدنيا وهي المحبوب الأغلب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا و يرى ذلك من الله، فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهته من حيث أنه من الله، فيخشى أن يثور من باطنه بغض الله بدل الحب، فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً، فالسبب في ذلك حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال الذي عم أصناف الخلق من الجهال.

النوع الثاني
من أنواع سوء الخاتمة

الذي هو دون الأول وليست مقتضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان: أحدهما كثرة المعاصي وان قوي الايمان، والآخر: ضعف الايمان وان قلت المعاصي. وذلك لأن القلب الى مألوفه أميل، فان كان مألوفه المعاصي يتقيد بذلك و يصير محجوباً عن الله تعالى: وهذا الميل يتفاوت بقلة المعاصي وكثرتها، وبتواتر المعاصي ساعة فساعة، و يفصلها بزمان كثير.

وقد ظهر لك بهذا ان الأمن من سوء الخاتمة: بأن يرى الأشياء كما هي عليه من غير جهل، و يزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية. ومع ذلك فأعمال العمر كلها ضائعة ان لم تسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، فان سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكل جداً. فاشتغل بالاستعداد لذلك، وواظب على ذكر الله، وأخرج من قلبك حب الدنيا، وأحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك، واحترز من مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك.

وإياك أن تسوف وتقول: سأستعد له اذا جاءت الخاتمة، فان كل نفس خاتمتك يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كل تطريفة، واذا نمت فاياك أن تنام الا على طهارة الظاهر والباطن، وان يغلبك النوم الا بعد غلبة

ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك، فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر.

واعلم: أنه لا يغلب على قلبك عند النوم الا ما كان غالباً قبله، ولا يغلب في النوم الا ما كان غالباً عنده، فالموت والبعث شبه النوم واليقظة، ولا يموت المرء الا على ما عاش عليه، ولا يحشر الا على ما مات عليه، فإياك أن تغفل عن الله طرفة عين، وانت اذا غفلت عنه ساعة في خطر عظيم، فكيف اذا غفلت عنه يوماً أو أياماً. ولا يمكن ذلك الا بأن تكتفي من الدنيا بقدر الضرورة، وتترك الفضول من المآكل والملابس والمساكن. نسأل الله أن يتوب علينا ويختم لنا بالخير و يقينا سوء الخاتمة انه كريم رحيم.

الأصل الرابع
في الفقر والزهد

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في حقيقة الفقر

اعلم: أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه، وأما فقد ما لا حاجة اليه فلا يسمى فقراً. وان كان المحتاج اليه مقدوراً عليه موجوداً لم يكن المحتاج فقيراً. واذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج اليه في دوام الوجود في ثاني الحال: ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾[1] الا أن المبحوث عنه في هذا الباب هو الفقر في المال.

واعلم: ان فاقة المال له خمسة أحوال.

أحدها: الزهد. وهو أن يتأذى بوجود المال ويهرب من أخذه، يبغضه ويتحرز من شغله.

وثانيها: الرضاء. لا يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى به، ولكن يزيد فيه لو آتاه.

وثالثها: القناعة. وهي أن لا ينهض لطلبه، وان أتاه عفواً صفواً أخذه ولو بالتعب.

(١) سورة محمد، آية: ٣٨.

ورابعها: الحرص. وهو أن يرغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً الى طلبه لطلبه ولو بالتعب.

خامسها: الاضطرار. وهو أن يكون مضطراً الى ما فقده من المال؛ كالجائع الفاقد للخبز، وقلما ينفك هذا عن الرغبة أما الضعيفة أو القوية.

وأعلى هذه الدرجات الزهد، سيما اذا انضم اليه الاضطرار فهو أقصى الدرجات. ووراء هذه الدرجات مرتبة أعلى من جميعها ويخص باسم المستغني، وهو الغني عن دخول المال في يده، وعن بقائه في يده، وعن خروجه من يده، فانه ليس يتأذى به ليحتاج الى اخراجه، وليس فاقداً له ليحتاج الى الدخول في يده، فهو الى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب.

ولا نسميه غنياً بل مستغنياً، اذ الغنى المطلق هو الغنى عن كل شيء وهو يختص بالله سبحانه وتعالى، وأما هذا العبد فانما يستغني عن المال وجوداً وعدماً، لا عن أشياء أُخر سيما توفيق الله الذي زين هذا في قلبه. وهكذا كانت حال عائشة رضي الله عنها، اذ أتاها مائة الف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها في يومها، فقالت لها خادمتها: لو أشتريت لنا لحماً بدرهم، فقالت: لو ذكرتني لفعلت. فمن هذا حاله لو كانت الدنيا في يده وخزانته لم تضره، اذ هو يرى الأموال في خزائن الله لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن يكون في يد نفسه أو في يد غيره.

الا أنه ينبغي أن لا ينظر الى الدنيا أصلاً لا بنظر المحبة، وذلك ظاهر اذ لا يجتمع في القلب محبتان، ولا بنظر البغض لأن ذلك أيضاً التفات عن المحبوب الى غيره، بل الكمال أن لا يلتفت الى غيره بغضاً وحباً، فانه كما لا يجتمع حبان في قلب واحد كذلك لا يجتمع حب وبغض، اذ المشغول ببغض الدنيا غافل عن الله تعالى كالمشغول بحبها، وانما الفرق أن الغافل بحبها سالك طريق البعد والغافل ببغضها سالك طريق القرب، اذ يمكن أن يتوسل بذلك الى أن تتبدل هذه الغفلة بالشهود.

وانما الكمال في أمر المال: أن يستوي عندك الماء والمال، اذ لا يؤذيك

كثرة الماء في جوارك بأن تكون على شاطيء البحر، ولا قلته الا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج اليه كالماء. فلا يكن قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء وتبغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر حاجتي، واسقي منه عباد الله بقدر حاجتهم ولا أبخل به على أحد.

واذا عرفت الله عز وجل ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حياً، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء وأنت لا تضطرب للماء، فلأي شيء تضطرب للقوت مع أن المدبر في كليهما واحد.

ثم **أنك لعلك تقول:** أن مذمة الدنيا في الآيات والأخبار توجب البغض والفرار لمن يخاف عليه أن يخدعه المال و يدعوه الى الشهوات، كما هو حال الضعفاء وهم الأكثرون، والا فالأقو ياء لا يلزمهم الفرار ولا يجب عليهم البغض، فن يكون أقوى من النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هر بوا، ولم يكن عندهم حبها ولا الأشتغال ببغضها، وانما استوى عندهم الماء والمال والذهب والحجر.

وما ينقل من الفرار عن الأقو ياء فانما ذلك لئلا يقتدى في الأخذ الضعفاء فيهلكوا.

فظهر مما سبق أن المراتب ست، وان أعلاها المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص. وأما المضطر فيتصور في حقه أيضاً الزهد والرضا والقناعة، ودرجته مختلفة باختلاف هذه الأحوال.

المطلب الثاني
في فضيلة الفقر

أما بالآيات والأخبار فأكثر من أن يحصى.

وأما فضيلته على الغنى مطلقاً فقد لا يستريب في ذلك أحد ممن قرأ الأخبار والآثار، لكن لا بد فيه من تفصيل:

وهو: ان الشك ههنا في مقامين:

أحدها: فقير صابر قانع، وغني منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على امساك ماله. واما الغني المتمتع بالمباحات فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع أصلاً.

ثم الناس اختلفوا وقال بعضهم: ان الغني أفضل لأنهما متساويان في ضعف الحرص، ويفضل الغني بالخيرات. وقال آخرون: الفقير أفضل لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، والعبد بقدر استئناسه بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، مهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافي القلب عن الدنيا وزهرتها الى محبة الله تعالى، اذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود الا الله عز وجل وغيره، فيكون اقبال القلب الى أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بحسب بعده عن الآخر، فإذا المانع عن محبة الله تعالى هو محبة الدنيا.

والمحبة قد تكون مع وجودها كما في محبة الغني الدنيا، وقد تكون مع فقدها كما في محبة الفقير الدنيا. فإذا الفقر قد يكون من الشواغل اذ قد يطلبها ويشتغل بطلبها، كما أن الغنى من الشواغل لأجل طلبها.

فاذا ان فرضت فارغين عن حب المال أحدهما فاقد والآخر واجد فهما متساويان، اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر الحاجة. الا أن هذا المفروض نادر في الوجود، وانما الأكثر افتتان الفقر بالضراء والغنى بالسراء.

فقد ذكر المحققون: أن الفقر ابعد عن الخطر، اذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، وقالوا: ان من العصمة أن لا يقدر. ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك الفاذ النادر زجر عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه.

فإذا عرفت ان الفضل بينهما بحسب تعلق القلب بالمال وعدمه، حتى ان تساويا فيه تساوت درجتهما، فاعلم: ان ههنا مزلة قدم وموضع غرور، وهو أن

الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن حب المال و يكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، فليجرب نفسه بتفريقه أو اذا سرق منه، فان وجد لقلبه اليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً، وهذا حال كل الأغنياء سوى الأنبياء والأولياء. فظهر منه أن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل، ولهذا ورد فضل الفقر في الأخبار والآثار وكلمات المشايخ.

المقام الثاني: في نسبة الفقير الحريص إلى الغني الحريص؛ فإن كان مطلوبها قدر الحاجة في أن يستعين بذلك على طريق الدين فحال الواجد أفضل، لأن الفقد يشغله بالطلب؛ وإن كان مطلوبها فوق الحاجة، أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على طريق الدين، فحالة الفقر أفضل وأصلح، لأنهما وإن استويا في الحرص وحب المال، وفي عدم الاستعانة على الدين، وفي عدم التعرض للمعاصي بسبب الفقر والغنى، ولكن افترقا في أن الواجد يأنس بما وجه فيتأكد حبه في قلبه و يطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا، وتكون الدنيا عنده مثل السجن الذي ينبغي الخلاص منه. وأنس الواجد أكثر من أنس الفاقدين وإن حريصاً، فإذا الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق، إلا بمثل عائشة رضي الله عنها حيث استوى عندها الغني والعدم، وإلا للفقير عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً.

المطلب الثالث

في آداب الفقير في فقره

أما باطناً: فأن لا يكره الفقر من حيث أنه فعل الله، وان كان يكره الفقر كمن يكره الحجامة و يتقلد على الحجام منة على فعله. وأرفع من هذا أن لا يكره الفقر أيضاً. وأرفع منه أن يطلبه و يفرح به لعلمه بغوائل الغنى، و يتوكل في باطنه على الله واثقاً في قدر ضرورته، وأنه يأتيه لا محالة و يكره الزيادة على الكفاف.

وأما ظاهراً: فأن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر بل

يستر فقره و يستر أنه يستره؛ قال تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾[1]. وأن لا يتواضع لغني لغناه بل يتكبر عليه، ولا يخالط الأغنياء، ولا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء، وأن لا يفتر بسبب فقره عن عبادته، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فان ذلك جهد المقل وهو أفضل من صدقة عن ظهر غنى، وأن لا يدخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي.

وفي الادخار ثلاث درجات: درجة الصديقين؛ ان لا يدخر الا ليومه وليلته؛ ودرجة المتقين: وهي أن يدخر لأربعين يوماً وما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهموا ذلك من ميعاد موسى عليه السلام حيث فهموا الرخصة في أمل أصل الحياة أربعين يوماً؛ ودرجة الصالحين: وهو أن يدخر لسنة، ومن زاد في الادخار على السنة فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية.

وأما آدابه في قبول المال بغير سؤال: فأما في نفس المال؛ فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات، وأما في المعطي، فان كان غرضه تطييب قلبه وهي الهدية، أو طلب الثواب وهي الصدقة أو الزكاة أو الذكر والرئاء والسمعة، أما مجرداً أو ممزوجاً ببقية الأغراض. أما الهدية فلا بأس بقبولها فان ذلك سنة، الا أن يكون فيها أو في بعضها منة فيترك ذلك أو قدر ما فيه منة.

وأما الثواب: فان كان زكاة فلينظر أنه مستحق لذلك أم لا، وفية شبهة، وقد مر أحكامه في كتاب الزكاة؛ وان كان صدقة و يعطيها المتصدق لدينه فلينظر أن فيه أمراً خفي لو علمه المتصدق لنفر عنه فهذا حرام أخذه، وأما الرئاء والسمعة فينبغي أن يرده عليه.

وأما آدابه في الأخذ: فبأن ينظر أنه محتاج اليه، فالأفضل له الأخذ ان سلم من الآفات المذكورة في المعطي أو زائد على قدر حاجته. فان كان الآخذ مشتغلاً بنفسه فلا وجه لأخذه وامساكه ان كان طالباً لطريق الآخرة فان ذلك

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٣.

محض اتباع الهوى. ثم هو أما أن يأخذ علانية و يرد سراً وهذا مقام الصديقين، وهو شاق على النفس لا يطبق الا من اطمأنت نفسه بالرياضة؛ واما أن يترك ولا يأخذ لصرفه صاحبه الى من هو أحق منه، و يأخذ و يوصله الى من هو أحوج منه. ثم هو اما أن يفعل كلاهما في السر وفي العلانية، وقد ذكرنا الأفضل من هذه الأقسام في كتاب أسرار الزكاة. فالامتناع عن القبول هو الزهد. وأخذه وصرفه الى محتاج هو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون.

وأما ان تعهدت جماعة من الفقراء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء، و بادر الى الصرف اليهم ولا تمسكه ولو ليلة واحدة، اذ ربما تستحليه فتمسكه أزماناً كثيرة الى أن تؤدي الى فتنة عظيمة. وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة وتوسلوا بها الى التنعم في المطاعم والمشارب، وذلك هو الهلاك. ويجوز لهم الاستقراض للفقراء طلباً للثواب، لكن لا على اعتماد أموال السلاطين الظلمة بل على حسن الظن بالله تعالى، فان مات قبل القضاء قضى عنه وأرضي غرماءه، ولكن بشرط أن يكشف حاله عند المقرض لئلا يغره ويخدعه بالمواعيد، ودين مثل هذا الرجل يجب أن يقضي من بيت المال أو من الزكوات.

المطلب الرابع
في تحريم السؤال من غير ضرورة

وقد وردت الأخبار في تحريمه وجوازه. والتوفيق بينهما أنه حرام في الأصل مباح للضرورة أو لأمر قريب منها.

أما حرمته فلأمور: اظهار الشكوى من الله تعالى بالسؤال لأنه اظهار القصور نعمة الله تعالى عنه، وأيضاً: هو اذلال النفس لغير الله وليس للمؤمن أن يذل نفسه وذلك في الذلة لغير مولاه، وأما هي فعزة حقيقة، وأيضاً: فيه ايذاء المسؤول غالباً وهو حرام، اذ ربما لا تسمح نفسه بما يبذله عن طيبة قلب، وان بذله رئاء أو حياء فأخذه حرام عليه.

وأما وجه اباحته أما اضطرار؛ كسؤال الجائع الخائف عن الموت أو المرض، وسؤال العاري وليس معه ما يواري بدنه، وأما احتياجه حاجة مهمة لا تبلغ حد الاضطرار؛ كمن له جبة لكنه يتأذى بالبرد، وكمن يريد الكراء وهو قادر على المشي لكن بتعب، وهذا المحتاج يحل له السؤال أيضاً ولا يكره.

وأما الحاجة الخفيفة؛ كمن يريد ثوباً على ثيابه يريد ستر خروقها عن أعين الناس، وكمن يسأل الرجل الادم وله خبز، وكمن يكتري الفرس وهو واحد كراء حمار. وهذه ان أظهر حاجة غير هذه فهو حرام، والا فالسؤال مباح مع الكراهة، بشرط أن لايصحبه المحذورات الثلاث من الشكوى او الذل أو الايذاء، وان صحبته هذه الأمور فيحرم لأن المصلحة المذكورة لا يباح بها هذه المحذورات.

فان قلت: هل يمكن الخلو عن هذه المحذورات؟ قلت: يمكن؛ اما عن الشكوى: بأن يظهر الشكر لله ويقول: أنا مستغن حقيقة لكن رعونة النفس تطالبني بثوب فوق ثيابي هذه، وهو فضلة عن الحاجة؛ أما الذل: فبأن يسأل قريبه أو صديقه أو كريما يفرح بمثل هذا ويتقلد منة لقبوله؛ وأما الايذاء: فبأن يلقي الكلام عرضاً أو يسأل من لا يستحيي فان الحياء مما يؤذي، حتى ان علم أنه أعطاه لأجل الحياء فذلك المال حرام بل بمنزلة الأخذ بالضرب، لأن سوء الباطن الحياء وخوف الملام، وهذا أشد نكاية من ضرب الظاهر بالسياط ورضا الظاهر، وان كان عذراً في القضاء لعدم امكان الاطلاع على البواطن، وأما الذي يكون القلوب عنده كالألسنة وهو أحكم الحاكمين فلا يفيد الظاهر عنده شيئاً ــ ويجب رده على صاحبه عنده. فلا تنظر في مثل هذا الا الى قلبك وان أفتوك وأفتوك، ولكن حال القلب خفياً تورع عن السؤال المتقون إلا إذا بلغ حداً يحل فيه الخنزير والميتة.

ومنهم من يثق ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال، فيأخذون من بعض دون بعض. ومنهم من لا يأخذ الا من أصدقائه، أو عند بلوغ الحال حد الاضطرار.

وبالجملة: الأخذ بالرضا بأن يعلم أن المسؤول لو علم لابتدأ بالعطاء، فلا يكون منك الا أعلام حاجتك فهو حلال، والأخذ بالحياء حرام، وبينهما أمور مشتبهات، فاستفت فيها قلبك.

واعلم: ان مقدار الغنى المحرم للسؤال يتوقف على تفصيل وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لاحق لابن آدم الا في ثلاث: طعام يقيم به صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يسكنه فما زاد فهو حساب». **هذه أجناسها.**

وأما أقدارها: فالثوب مثلاً يراعي فيه ما يليق بذوي الدين، وهو ثوب واحد: قيص ومنديل وسراويل ومداس. وكذا أثاث البيت لا يطلب كون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي في الخزف، فيقتصر العدد على واحد، ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة. وأما الطعام فقدره في اليوم مد وهو ما قدره الشرع، ونوعه ما يقتات ولو الشعير، والأدم على الدوام فضلة، وقطعه بالكلية اضرار، وفي طلبه في بعض الأحوال رخصة. وأما المسكن فأقله ما يجزي من حيث المقدار وذلك من غير زينة.

ثم هذه الأمور مما يحتاج اليه حقيقة. ثم الحاجة اليها: أما في الحال، من طعام يوم وليلة، أو ثوب يلبسه، أو مأوى يسكنه، فلا شك في حل السؤال له؛ وأما في المستقبل فثلاث درجات: أما ما يحتاج اليه في غد أو بعد أربعين يوماً أو خمسين أو بعد سنة، فالسائل الذي له ولعياله قوت سنةو فسؤاله حرام لأن ذلك غاية الغنى. وأما ما دون السنة فلا يحل له السؤال أن كان غنياً في الحال، الا أن يخاف فوت الفرصة في الاستقبال بأن لا يجد من يعطيه اذا أخر، لأن البقاء سنة ممكن عادة. وان كان خوف العجز في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهة.

وبالحقيقة: جانب ترك السؤال أعلى، لأن السؤال من ضعف اليقين، والاصغاء الى تخويف الشيطان. وحال من يسأل الحاجة وراء يومه، وحال من ملك مالاً موروثاً وادخره لحاجة وراء السنة سيان في كونهما حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وان كانا مباحين في الفتوى الظاهرة والله أعلم.

المطلب الخامس
في حقيقة الزاهد وفضيلته

وهو انصراف الرغبة عن الشيء الى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهداً، وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحباً، فلا بد في الزهد من مرغوب عنه ومرغوب فيه. ويشترط أن يكون المرغوب عنه مرغوباً فيه بوجه من الوجوه؛ فتارك التراب والحجر مثلاً لا يسمى زاهداً، وبشرط أن يكون المرغوب فيه خيراً من المرغوب عنه عنده فالمشترى خير من المبيع عنده.

فكل من باع الدنيا بالآخرة وبالعكس فهو زاهد في وضع اللسان، الا أن العرف جرى بتخصيصه بالأول. والذي يرغب عن كل ما سوى الله فهو زاهد مطلق، والذي يرغب عن الدنيا بل طمع في الحور والقصور فهو زاهد أيضاً ولكنه دون الأول، والذي يترك بعضاً من حظوظ الدنيا ــ كأن يترك المال دون الجاه ــ فلا يستحق اسم الزهد مطلقاً وان جاز اطلاقه عليه، كما أن اطلاق التوبة على من يتوب عن بعض المعاصي وان كانت توبة، لكن التائب مطلقاً من يتركها كلها. ثم ان المقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً بل العرف خصه بترك المباحات.

فظهر من هذا كله: أن الزهد رغبة عن الدنيا الى الآخرة، وعن غير الله الى الله عز وجل، وهي الدرجة العليا.

ثم أنه يشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، كما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده. ولذلك قيل لأبن المبارك: يا زاهد، فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففيما ذا زهدت؟

هذا الذي ذكرناه هو الحال المسمى بالزهد. وان هناك علماً مثمراً لهذه الحال، وعملاً يثمره الحال.

أما العلم: فهو معرفة كون المتروك حقيراً بالاضافة الى المأخوذ، ولا شك

ان ما عند الله باق، وان الآخرة هي خير وأبقى. وهذه المعرفة وان كانت كافية في نفسها في كونها مثمرة للزهد، لكن قد لا تثمره، أما الضعف عمله وبقيته أو لاستيلاء الدنيا والشهوة عليه في الحال بكونه مقهوراً في يد الشيطان، وأما لأغتراره بالتسويف يوماً فيوماً.

وأما العمل الصادر عن الزهد: فهو ترك وأخذ واستبدال الذي خير بالذي هو أدنى. وأما اذا لم تقدر على الدنيا لم يتصور منك الزهد، لأن الترك بعد القدرة. الا أن الشيطان ربما يخيل اليك أنك زاهد وتارك للدنيا اذا أتاك، وهذا غرور باطل فلا تثق بالقدرة قبل التجربة. ثم أن الزاهد تركها لحقارتها لا لأجل السخاء واستمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، لأن هذه من محاسن العادات ولا مدخل لها في العبادات.

بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة عفواً صفواً وهو قادر على التنعم بها ـــ من غير نقصان جاه وقبح اسم وفوات حظ آخر للنفس ـــ فتركها خوفاً من أن يأنس بها فيكون مشركاً في حب الله، أو تركها طمعاً في ثواب الآخرة، فترك التمتع بملاذ الدنيا طمعاً في طيبات الجنة، لئلا يقال له: ﴿اذهبتكم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾[1]... الآية.

وأما فضيلة الزهد: فمذكورة في الآيات والأخبار والآثار لا يحتاج الى تفصيلها، بل كل فطرة سليمة تحكم بفضيلتها اذا خليت ونفسها.

المطلب السادس
في درجات الزاهد وأقسامه

أما درجاته فثلاث:

السفلى منها للمتزهدين: وهو أن يزهد في الدنيا وقلبه مشته لها، ولكنه يجاهدها ويكفها. وهذا على خطر، اذ ربما تغلبه نفسه فيستريح اليها في قليل أو كثير.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٠.

والعليا منها: أن يزهد طوعاً و يزهد في زهده فلا يرى زهده، اذ لا يرى أنه ترك شيئاً، والدنيا بالاضافة الى الآخرة أخس من الخنفساء بالاضافة الى الجوهرة؛ ومثل ذلك بأن ألقى لقمة الى كلب منعه عن الدخول الى باب الملك وشغله بها، ودخل ونال القرب عنده، والدنيا أقل من لقمة عند الله فكيف لا تلقيها الى شيطان يمنعك عن القرب الى الله تعالى.

وأما الدرجة الوسطى: فهي أن يرى الدنيا شيئاً ولكن يحتقرها بالاضافة الى الآخرة و يتركها لأجلها، كالذي يترك الدرهم لدرهمين وان كان منتظراً انتظاراً قليلاً. وهذا الزاهد يرى زهده و يلتفت اليه، و يظن نفسه أنه ترك ماله قدراً لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان.

ثم أن للزهد درجات ثلاث بالاضافة الى المرغوب فيه أيضاً:

الأولى، وهي السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الأهوال، وهذا زهد الخائفين.

والثانية: أن يرغب في الثواب والنعيم، وهذا زهد الراجين.

والثالثة؛ وهي العليا: أن يرغب في الله تعالى وفي لقائه، ولا يلتفت الى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا الى اللذات ليقصد نيلها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى، وهو الذي أصبح وهمه هم واحد، وهو الموحد الذي لا يطلب غير الله. وهذا زهد المحبين والعارفين.

وأما أقسامه باعتبار المرغوب عنه فأربعة:

أحدها: أن يزهد عن كل ما سوى الله حتى عن نفسه.

وثانيها: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة: من الشهوة والغضب والكبر والجاه ونحوها.

وثالثها: أن يزهد في المال والجاه وأسبابها لأنها مرجع جميع الحظوظ.

ورابعها: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم، لأن الدينار والدرهم يجمعان جميع الأموال.

وهذا اجمال. **وتفصيله مما يفوقه الحصر.** وقد ذكر الله تعالى سبعة منها في آية واحدة فقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا.﴾(١)؛ ثم ردها الى خمسة في آية أخرى فقال: ﴿أعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾(٢)؛ ثم ردها الى اثنين في آية أخرى فقال: ﴿وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو﴾(٣)؛ ثم رد ذلك كله الى واحد في موضع آخر فقال: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾(٤) لأن الهوى يجمع الكل.

ولا يذهب عليك ان لا مخالفة بين هذه التفاصيل بل البعض داخل في البعض، ولذلك اختلفت فيه عبارات السلف، اذ كل منهم ذكر ما عنده في الحال. ولا أجمع مما ذكره أبو سليمان الداراني اذ قال: الزهد ترك كل شغل يشغلك عن الله تعالى.

وأما أقسام الزهد بالاضافة الى أحكامه: أما فرض وهو الزهد في الحرام، أو نفل وهو الزهد في الحلال، أو سلامة وهو الزهد في الشبهات.

وأما درجات الزهد ظاهراً وباطناً فلا حصر لها؛ وأعلاها: زهد عيسى عليه السلام حيث ترك حجراً تحت رأسه، وزهد يحيى عليه السلام حيث لبس مسوحاً تنقب منها جلده، وجلس أويس رضي الله عنه في قوصرة للعرى.

وقال قوم: الزهد لا يكون الا في الحلال ولم يبق حلال في أموال فلا يتصور الزهد في الحال. فان قلت: كيف يتصور الزهد مع انك تأكل وتشرب وتلبس وتخالط الناس؟ قلت: الغرض من الزهد الانصراف الى الله بكل القلب، فالاستعانة بالأمور المذكورة للعبادة ليس اشتغالاً بغير الله؛ فان قلت: تتلذذ بها؟ قلت: التلذذ لا يضر ان كان قصدك الاستعانة للعبادة دون التلذذ بالأمور المذكورة.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤.
(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.
(٣) سورة الأنعام، آية: ٣٢.
(٤) سورة النازعات، آية: ٤٠.

المطلب السابع
في تمييز قدر الحاجة عن الفضول ليزهد فيها

أعلم: ان قدر الحاجة ستة أمور:

الأول: المطعم. وله طول وعرض، فلا بد من قصرهما حتى يتم به الزهد.

أما طوله: فجملة العمر. وقصره: دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ولا يدخر أصلاً وهي الدرجة العليا؛ وان يدخر لشهر أو لأربعين يوماً وهذه أوسطها؛ أو يدخر لسنة فقط وهذه أضعفها. وليس وراء السنة شيء من مراتب الزهد.

وأما عرضه: فبالمقدار. وأقل درجاته: في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطها: رطل، وأعلاها: مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في اطعام المسكين، وما وراء ذلك اشباع البطن.

وأما بالجنس: فأقله: كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة، وأوسطها: خبز الشعير والذرة، وأعلاها: خبز البر غير منخول، والمنخول والحوارى من التنعم.

وأما الادم: فأقله: الملح والبقل والخل، وأوسطه: الزيت ويسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاها: اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فاذا صار دائماً وأكثر من مرتين دخل في التنعم.

وأما بالاضافة الى الوقت: في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائماً وأوسطه: أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، أو يأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه: أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه.

الثاني من الأمور الستة: الملبس. وأقل درجاته: ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطى به؛ قميص وقلنسوة ونعلان؛ وأعلاه: يكون معه منديل وسراويل، وما زاد عليه فهو خارج عن الزهد. ويشترط أن لا يجد آخر غسل واحداً منها فلا يكون صاحب قميصين ومنديلين.

أما الجنس: فأقله: المنسوج الخشنة، وأوسطه: الصوف الخشن، وأعلاه: القطن الغليظ.

وأما من حيث الوقت: فأقصاه: ما يستر سنة، وأقله: ما يبقى يوماً كرقع الثوب بورق الشجر، وأوسطه: ما يتماسك عليه شهراً أو ما يقاربه.

الثالث منها: المسكن. أعلاها: أن لا يطلب لنفسه موضعاً خاصاً و يقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة؛ وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً مثل كوخ مبني من سعف أو خوص ونحو ذلك؛ وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية اما بشراء أو اجارة.

وأما التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد.

واختلاف جنسه بالجص أو الطين أو القصب، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالاضافة الى الأوقات: بأن يكون مملوكاً أو مستأجراً أو مستعاراً.

الرابع منها: أثاث البيت.

وأقل درجاته: الخزف ولا يبالي أن يكون مكسور الطرف اذا حصل به المقصود، وكان عيسى عليه السلام يصحبه مشط وكوز، فرأى انساناً يمشط لحيته بأصابعه فرمى المشط، ورأى آخر يشرب بكفيه فرمى الكوز؛

وأوسطها: أن يكون له أثاث بقدر الحاجة: بأن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد؛ مثل: أن يشرب من قصعة، و يأكل الثريد منها، ويحفظ المتاع فيها؛

وأعلاها: أن يكون له آلة بعدد كل حاجة من الجنس الخسيس النازل.

الخامس: المنكح. وذلك يختلف باختلاف الأحوال. والأصل: الاشتغال عن الله تعالى، فنهم من تشغله المرأة عن الله تعالى فيتركها، ومنهم من يشغله العزوبة فيتزوج، ومنهم من لا يشغله أكثر من واحدة فيجوز له كما فعله خير الزاهدين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وكان علي كرم الله وجهه أزهد

الأصحاب وكان له أربع نسوة بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها وبضع عشرة سرية.

السادس: ما يكون وسيلة الى هذه الخمسة وهو الكمال والجاه وقيل: لا بد من قدر جاه لينتفع به في عبادته؛ كالجاه عند خادمة وأقاربه وغير ذلك، وليتمكن به من دفع مضاره.

الا ان الحق: ان طلب الجاه هاوية لا قعر لها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، بل الاشتغال بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين. وأما التوهمات والتقديرات المحوجة الى زيادة في الجاه فهي أوهام كاذبة.

الأصل الخامس

في التوكل

وفيه مطالب:

المطلب الأول

ولا يخفى عليك فضيلة التوكل، سيما من تتبع الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿ وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[2]؛ وقوله عز وجل: ﴿ ان الله يحب المتوكلين ﴾[3]. وأعظم بمقام موسوم بمحبته تعالى صاحبه ومضمون بكفايته.

وجاء في الحديث: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وفي الأحاديث كثرة يعرفها أهلها، وكذا الآثار في حق التوكل.

وأما حقيقته فلا يذهب عليك ان التوكل حال ينبعث من علم ثم يثمر عملاً.

أما العلم: فهو التوحيد الذي هو أصل الايمان، الذي ترجمته قولك: لا اله الا الله وحده لا شريك له، والايمان بالقدر، أعني قولك: له الملك، وبالجود والحكمة، وهو قولك: وله الحمد.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٢٣.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٥٩.

ثم ان أصل التوحيد من علم المكاشفة، ولما كان بعضها يتعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة الا بها، وجب التعرض له قدر ما يتوقف عليه علم المعاملة، والا فهو البحر الخضم الذي لا ساحل له.

فنقول: مراتب التوحيد أربع: لب، ولب اللب، وقشر، وقشر القشر.

فالمرتبة الأولى: قول الانسان: لا اله الا الله بلسانه وقلبه عنه غافل أو جاحد. وحكمه أنه موحد بمجرد اللسان، ويعصمه في الدنيا عن السيف والسنان.

والثانية: أن يصدق بقلبه معنى اللفظ وهو الاعتقاد، وهذا حال عموم المسلمين، ليس فيه انشراح وانفساح. وحكمه انه يحفظه في الآخرة عن عقاب أن توفى عليه ولم يضعف بالمعاصي عقدتها. وتحليلها بالقصد يسمى بدعة وصاحبه مبتدعاً. وقصد أحكامها وشدتها يسمى كلاماً وصاحبه متكلماً.

والثالثة: موحد بمعنى لم يشاهد الا فاعلاً واحداً اذا انكشف الحق على ما هو عليه، اذ لا فاعل بالحقيقة الا واحد.

الرابعة: موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل الا من حيث أنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد.

فالأول كالقشرة العليا من الجوز، والثاني كالسفلى منه، والثالث كاللب منه، والرابع كلب اللب منه، وهو الدهن من الجوز.

فان قلت: كيف يمكن مشاهدة هذه الكثرة واحداً وهي كثيرة في نفسها، فاعلم: ان هذا غاية علوم المكاشفة، التي قال العارفون لعسرها وغموضها وبعدها عن مدارك الخلق: افشاء سر الربوبية كفر. فلا يجوز أن تسطر في كتاب الأقدر سورة استبعادك، بأن تلاحظ الانسان مع كثرتها: من حيث بونها **وروحها وقواها الظاهرة والباطنة،** له جهة واحدة هي الانسانية، فلا تنافي بين هاتين الجهتين. وهذا المثال لأجل التنبيه على مجرد عدم التنافي بين الجهتين لا أنه يطابق الممثل من كل وجه.

فعليك أن تصدق بهذه الحالة وان لم تكن تشاهدها. والمشاهدة أيضاً لا

تدوم لأهلها بل تظهر كالبرق الخاطف، والدوام نادر عزيز الوجود.

ولما كانت الرتبة الرابعة بعيدة عن الافهام، لا جرم بينا التوكل على الرتبة الثالثة. ولنذكر منها قدر ما يرتبط التوكل به: وهو أنه اذا انفتحت لك أبواب المشاهدة، يتضح عندك ان لا فاعل الا الله، وان كان فعل: من التخليق والترزيق والمنع والاعطاء والاحياء والاماتة، وغير ذلك، كلها من ابداع فاعل واحد واختراعه، وهو الله تعالى لا شريك له فيها، وما سواه مسخرون تحت قدرته، لا استقلال لهم أصلاً في ملكوت السموات والأرض ولو بتحريك ذرة، فعند معرفة هذا الأمر لم تنظر غيره، بل يصير اليه خوفك ورجاؤك وثقتك واتكالك.

وانما يصدك الشيطان عن هذا في مقامين:

أحدهما: الالتفات الى الجمادات؛ كاشتراط الغيم في المطر، أي: بأن يؤثر فيه، وهذا شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور، بل المؤثر واحد لا غير.

وثانيها: الالتفات الى اختيار الحيوانات، بأن هذا الشخص يقدر أن يعطي رزقك ويمنعه أيضاً، وعند هذا زل أقدام الاكثرين، الا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان. ومن لم ينشرح بنور الله صدره قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض، ومشاهدة كونه قهاراً وراء الكل، والذين يسمعون من كل ذرة في السموات والأرض تقديسها وتسبيحها لله، وشهادتها على أنفسها بالعجز بلسان ذلق يتكلم بلا حرف ولا صوت، ولا بالسمع الظاهر الذي يشاركك فيها الحمار، بل سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت، ولا هو عربي ولا عجمي يشهدون، و يشاهدون من كل شيء بالعجز، وان لا قدرة الا من مبدع الكل وخالقها وان لم يسمعه ولم يشاهده الذين هم عن السمع معزولون.

وكيفية المناجاة مع الجمادات في السر أمر لا يمكن كشفها؛ أما لأن افشاء السر غير جائز اذ صدور الاحرار قبور الأسرار، أو لعدم تناهي تلك الكلمات

عن حد الحصر والنهاية، و﴿ لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾[1].

ومثال ذلك؛ ان سائلاً سأل عن الكاغد: ما بال وجهك أسود وقد كان أبيض، قال: ما فعلته عن نفسي سل عن ذلك الحبر ذلك، فأنه سود وجهي قهراً وعدواناً، قال: صدقت. فسأل الحبر عن ذلك، فقال: كنت ساكناً في المحبرة ـــ وهو وطني ـــ عازماً الا أفارقها، فاعتدى علي القلم وفرق شملي وبددني على صفحات الأوراق، فالسؤال عليه لا علي، قال: صدقت. ثم سأل القلم عن ذلك، فقال: كنت نابتاً على شاطيء الانهار ذلك وطني منبتي ومسقط رأسي، فجاءتني اليد ونحتني عن وطني، ثم برتني وشقت رأسي، وغمستني في بحر الحبر، وأمشتني على قنة رأسي، فحصل منه هذا الأمر، فسل عمن قهرني، فقال: صدقت. ثم سأل اليدِ عن تعديها على القلم، فقالت: أنا مركب مسخر ركبني فارس القدرة واستخدمني كيف شاء، فسل القدرة عن شأني فان بيدها عناني، فقال: صدقت. ثم سأل القدرة عن استخدامها اليد، قالت دع عنك لومي، وقد كنت في نومي حتى جاءني موكل الارادة وازعجني وأرهقني الى ما تراه مني، فقال: صدقت: ثم سأل الارادة فقالت: لا تعجل عليَّ فلعل لي عذراً وأنت تلوم، فاني ما انبعثت ـــ ولا كنت عليه بعازمة ـــ الا بحكم قاهر وأمر جازم، فاني مسخرة تحت قهر العلم الوارد من حضرة القلب على لسان العقل، فانزعجت بقهر منه، فقال: صدقت.

وأقبل على العقل والعلم والقلب مطالباً لهم ومعاتباً اياهم، فقال العقل: أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكني أشعلت، وقال القلب: أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت، وقال العلم: انما أنا نقش في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل، فسل قلما ينقشني.

فلما سمع السائل حديث اللوح والسراج والخط والقلم تحير، اذ كان لم يعرف هذه الأمور الا في الأجسام، فعند ذلك رحمه العلم وقال: قد تعبت

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٩.

نفسك في السؤال فلا تنقلب خاسراً، فألق سمعك الي وأنت شهيد.

واعلم: ان العوالم:

أما عالم الملك والشهادة: وقد قطعتها بسهولة، وأما عالم الملكوت وفيها البحار المغرقة ولا يسلم منها الا الأقلون، وهو ورائي.

وأما عالم الجبروت: وهو واسطة بين هذين العالمين، وذلك مثل سفينة هي بين المشي على الأرض والمشي على الماء.

فعالم الملك من الحبر الى القدرة، ومنها الى القلم الذي يكتب به العلم عالم الجبروت، ومنه مبدأ عالم الملكوت. ومن جاوز عالم الجبروت وقرع أول باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم، ولذلك صار أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة القلم.

ثم انك السائل جمعت ضوء عينيك وحدقته نحو عالم الملكوت يرجى لك أيضاً كشف ذلك، واعلم: ان الله تعالى كما لا يشبه ذاته سائر الذوات، كذلك لا تشبه يده سائر الأيدي، ولا قلمه سائر الأقلام، ولا كلامه سائر الكلام، ولا خطه سائر الخطوط، وانما هذه أمور الهية من عالم الملكوت.

فعند ذلك اشتعل زيت السائل بنور العلم، وفتح بصره فانكشف له القلم الالهي، فاذا هو لا من خشب ولا من قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وله في كل قلب رأس يكتب ولا رأس له وانه العجب. وقال السائل: نعم المعلم أنت أيها العلم جزاك الله عني خيراً.

فعند هذا ودع العلم وشكره.

ثم سافر الى حضرة القلم وسأله عن نقشه في القلوب، فقال: ان عالم الملكوت موازن لعالم الملك، وان في الثاني صوراً دون الأول، فكما ان قلم عالم الشهادة مسخر في يمين الكاتب، فكذا أنا مسخر ومقهور تحت يمين الملك، قال: وما هي، قال: أما سمعت قوله تعالى: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾[1]؛

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٧.

فقال: هي التي يردوني.

فسافر الى حضرة اليمين ورأى فيها العجب العجاب، بحيث لا تحوي عشر عشر عجائبه مجلدات، ورأى انها يمين لا كالأيمان، و يد لا كالأ يدي، وأصبع لا كالأصابع والقلم في قبضته. ثم سأل عن اليمين فأحاله على القدرة.

فسافر الى عالم القدرة فرأى فيها من العجائب استحقر فيها ما رأى قبلها، فسأل عنها ما أشكل عليه، فقالت: أنا صفة فاسأل القادر الموصوف.

وعند هذا كاد أن يزيغ و يطلق بالحيرة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت، ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة: «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون». فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب في غشيته مدة.

فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك، تبت اليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك، ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك و برضاك من سخطك، ومالي الا أن أسألك وأتضرع اليك وأبتهل بين يديك، فأقول: أشرح لي صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لأثني عليك. فنودي من وراء حجاب العزة: «اياك أن تطمع في الثناء وقد قال سيد الأنبياء: سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فارجع وما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه، وما قاله فقله.

ثم قال السالك: الهي ان لم يكن للساني جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك، فنودي: اياك أن تتخطى رقاب الصديقين، وقد قال الصديق الأكبر: العجز عن درك الادراك ادراك، فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف انك محروم عن حضرتنا، عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا.

فعند ذلك رجع السالك واعتذر عن أسولته ومعاتباته للقلم والقدرة والعلم: بأني كنت غريباً ولكل غريب دهشة، وما كان انكاري الا عن قصور وجهل، والآن قد اتضح عندي عذركم، وان المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، أي: أول في الوجود، وآخر في المشاهدة، و باطن للساكنين تحت حجب عالم الشهادة، وظاهر لمن

تنور بصيرته بأنوار عالم الملكوت.

اذا عرفت هذا فلملك التوكل مخصوص فمن يفهم حقيقة التوحيد ولا يوجد في غيره المتوكل.

واعلم: ان من لا يفهم التوحيد:

أما جاحد: فلا يقبل العلاج، وهؤلاء في انكار عالم الملكوت بمنزلة الحشوية المنكرين لعالم الجبروت أيضاً، حيث حصروا العلم في الحواس الخمس وأنكروا العلم والقدرة والارادة كما أنكر السوفسطائية الحواس أيضاً.

وأما جاهل غير جاحد: فينظر ان كان عين بصيرته صحيحة يعالجون مرضها، والا فيتكلمون معهم بقدر عقولهم، لأنهم يعرفون ان المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد باميرين. فيقال لهم على حد عقلهم: اله العالم ومدبره واحد، لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا. فيكون ذلك على وفق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس في قلبه اعتقاد التوحيد بهذا الطريق اللائق بقدر قلبه.

ثم أن هذا الاعتقاد اذا قوى عمل عمل الكشف في اثارة التوكل وسائر الأحوال، الا أنه في الغالب يضعف و يسارع اليه الاضطراب والتزلزل. ولهذا احتيج الى علم الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقفها من أبوابه أو أستاذه أو أهل بلده.

فان قلت: كون الأسباب مسخرات ظاهر الا في حركات الانسان، فانه يتحرك أو يترك ان شاء، قلت: نعم، الحركة لازمة للقدرة، والقدرة للمشيئة، لكن المشيئة تحدث ضرورة في القلب: ﴿وما تشاءون الا أن يشاء الله﴾[1]. فالمشيئة ان كانت ضرورية فما بعدها من القدرة والحركة مترتبة عليها ضرورة، فهو مضطر في الجميع. و يسمى هذا جبراً، لا جبراً محضاً كالجمادات، بل جبراً في غير اختيار.

---

(١) سورة الانسان، آية: ٣.

وتفصيل ذلك: ان للانسان فعلاً طبيعياً؛ كخرق الماء اذا وقف عليه فأنه ينزل بثقله الى قعره فيخرقه، وفعلاً ارادياً؛ كنفسه، وفعلاً اختيارياً؛ ككتابته. ثم ان الاختياري ربما يكون اضطرارياً لبعض الأسباب؛ مثلاً طبق الأجفان ارادي، ولو قصد عين الانسان بابرة يكون اضطرارياً اذ لا يقدر على فتحه في تلك الحال، فيلتحق بالطبيعي في تلك الحال.

وانما موضع الالتباس: الفعل الاختياري كالكتابة والنطق، اذ يظن انه ان شاء فعل وان شاء ترك، وتارة يشاء وتارة لا يشاء. لكن هذا الظن من الجهل بمعنى الاختيار.

وبيانه: أن القدرة تبع للارادة، وهي تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك.

ثم أن الخيرية قد تعلم بتردد وتوقف؛ كمن أراد سفراً مثلاً، وقد تعلم بلا تردد؛ كما في حركة الأجفان عند القصد بالابرة، وحركة اليد بدفع السيف، اذ تظهر خيرية الحركتين دفعة، وهو عين الاختيار المشتق من الخير، الا أنه ظهر على البديهة لثبوت خيريته بتجارب كثيرة ومشاهدات دائمة. ولذلك قيل: العقل يحتاج الى التميز بين خير الخيرين وشر الشرين. والأول كان يتردد بين كتابة كتابين كلاهما خير له، والثاني كمن يرمي نفسه من السطح هرباً من السيف.

وأما بين الخير والشر فلا يتردد أصلاً؛ كمن غمض عينيه للابرة، فالحركة في الانسان مسخرة لقدرته، وقدرته لارادته، وارادته لداعيته، وهي الأمر الحاصل من العلم بكون شيء خيراً، فإذا معنى كونه مجبوراً أن جميع هذه الأمور حاصلة فيه من غيره لا منه، اذ الخالق للكل هو الله عز وجل.

ومعنى كونه مختاراً: انه محل لارادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً، وحدث الحكم جبراً فإذا هو مجبور على الاختيار. ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض، وفعل الله تعالى اختيار محض بشرط أن لا يفهم

منه ارادة بعد تحير وتردد، وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فأنه جبر على الاختيار.

فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة فسموه كسباً، وهو جامع بين الجبر والاختيار عند من فهمه.

ثم أن ترتب الأمور المذكورة بعضها على بعض ليس بأن المتأخر حدث عن المتقدم بالتوليد، لأن ذلك جهل محض، بل حوالة جميع ذلك على القدرة الأزلية التي لم يقف على حقيقة معناها الا الراسخون، وانما يقف من يقف على مجرد لفظها، مع قياسها على قدرتنا القاصرة وهو بعيد عن الحق.

ولا يمكن تفهيم ذلك على وجه الصواب. والقدر الممكن من ذلك هو: ترتب بعض المقدورات على البعض في الحدوث انما هو ترتب المشروط على الشرط، ودرجات ترتيب الشروط كثيرة لا تظهر للعوام، وبعضها لا تظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق.

وبالجملة: فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر عبثاً واتفاقاً بل ذلك بطريق الحق واللزوم، وكذل جميع أفعاله تعالى كما قال عز وجل: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق﴾[1]. فكل ما بين السماء والأرض حادث عن ترتيب واجب وحق لازم، لا يتصور ان يكون الا كما حدث وعلى الترتيب الذي وجد، فما تأخر متأخر الا لانتظار شرطه، والمشروط قبل الشرط محال، والمحال لا يوصف بكونه مقدوراً، فاذا لا بد من بيان كونه موقوفاً على الشرط مع كونه مقدوراً وأن القدرة موجودة.

ولا يمكن تفهيم ذلك لذوي الافهام الضعيفة الا بمثال؛ وهو: أن تقدر انساناً محدثاً منغمساً في الماء الى رقبته، فان الحدث لا يرتفع عنه الا عند غسل الوجه، فقبل غسله نقول: لم يرتفع الحدث عن يده ورجله مثلاً لتوقفه على غسل الوجه على ملاقاة الماء، الذي هو السبب الحقيقي في رفع الحدث، فاذا الماء

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٦.

بمنزلة القدرة الأزلية المتعلقة للاشياء، ولكن تأثيره في المقدور متوقف على شرط وهو غسل الوجه، فعند حصول الشرط يكون رفع الحدث عن اليد بالماء لا بغسل الوجه.

الا أن الجاهل لترتب رفع الحدث عن اليد على غسل الوجه ربما يتوهم أن المؤثر فيه غسل الوجه لا الماء، كذلك يتوهم القاصرون من ترتب الأفعال الالهية بالشروط تأثير الشروط فيها دون القدرة، وليس كذلك، كما لا يخفى على ذي خبرة تامة وأولى بصيرة نافذة ناقدة. فهكذا ينبغي أن يفهم صدور المقدورات عن القدرة الأزلية، مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة. وهذا قرع لباب عالم الملكوت. وهذا من علوم المكاشفات لا يمكن التعبير عنها، فلنتركها، اذ لا يفي باستيفاء قدر ما أمكن منها عمر نوح عليه السلام.

ولنقتصر على ما هو المقصود وهو التنبيه على طريق التوحيد في الفعل، وهو المقام الثالث من مقامات التوحيد، وان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو، عليه التوكل والاعتماد. وهذه المعاني كلها منطوية تحت قولك: لا اله الا الله، وهو خفيف على اللسان سهل اعتقاد مفهومه في الجنان.

وأما حقيقته: فأعز على العلماء الراسخين أولى الكشف والعيان.

فان قلت: اذا كانت الأفعال مخلوقة لله عز وجل، فأما أن يقال: انها ليس فعلاً للعبد أصلاً فيبطل الشرع، أو يقال: أنه فعل للعبد أيضاً، فيلزم مفعول بين فاعلين، وأنه محال. فأقول: المفعول بين فاعلين جائز اذا كان للفاعل معنيان؛ كما يقال: قتل فلاناً الأمير والجلاد، اذ الجلاد فاعل صورة والأمير معنى. وكذا الخالق تعالى فاعل لأفعال العباد بمعنى أنه مخترع وموجد، والعبد فاعل لها بمعنى أنه محل لخلق الله تعالى فيه القدرة بعد أن خلق فيه الارادة بعد أن خلق فيه العلم. فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتباط المعلول بالعلة، أو ارتباط المخترع بالمخترع. وكل ما له ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلاً له كيفما كان الارتباط.

ولأجل تطابق ذلك وتوافقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن الى الملائكة

مرة ومرة الى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى الى نفسه، كما قال تعالى في الموت: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾[١]؛ وقال ﴿الله يتوفى الأنفس﴾[٢].

وأما واضع اللغة فقد وضع اسم الفاعل للمخترع، فمن أن المخترع هو العبد يجعله حقيقة في العبد، و يلزمه أن يكون مجازاً في من له الأقدار والتمكين؛ مثل نسبة القتل الى الأمير فأنه حقيقة في الجلاد عندهم.

وأما الذين انكشف الحق لهم عرفوا أن الأمر بالعكس، وان الصيغة حقيقة في حقه تعالى، لأنه المخترع حقيقة، فلا فاعل الا هو، فيكون مجازاً في العبد بمعنى أنه كاسب ومحل للفعل، كما أن من عرف أن حقيقة القتل من الأمير يجعل نسبته الى الجلاد مجازاً لكونه مظهراً له، كما تقرر تحقيق هذا المقام في علم المعاني. ولهذا عرفوا المجاز الحكمي بغير ما هو له عند المتكلم لا مطلقاً.

فان قلت: فإذا ظهر أن الكل فعل نفسه، فكيف يغضب عليه و يرضى له، فاعلم: ان سر ذلك قد مر في كتاب الشكر، فارجع اليه، فهذا الذي ذكرناه من بحر التوحيد هو الذي يورث حال التوكل، لكنه لا يتم الا بالايمان بالرحمة والحكمة، فان التوحيد يورث النظر الى مسبب الأسباب، والايمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ولا يتم حال التوكل كما سيأتي الا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب الى حسن نظر الكفيل **وهذا الايمان أيضاً باب عظيم من أبواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه طويل.**

وحاصله: ان الله تعالى لو خلق آحاداً مشتملين على جميع أنواع الكمال وأصناف القدرة التامة، ومع ذلك لو تظاهروا على زيادة ذرة واحدة أو نقصها في العالم لما قدروا على ذلك، ولما وجدوا في خلقه تعالى من قصور وان أمعنوا في ذلك أنظارهم، ورجعوا فيها أبصارهم. وأيضاً: كل ما قسم الله بين عباده من كمال وفتور، وعجز وسرور، ورزق وأجل، واقدام ووجل، وطاعة وعصيان، وكفر وايمان، كله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو

---

(١) سورة السجدة، آية: ١١.

(٢) سورة الزمر، آية: ٤٢.

على الترتيب الواجب والأسلوب الحق والقدر اللائق، وليس في الامكان أصلاً أحسن منه ولا أتم وأكمل. ولو كان ادخره مع القدرة لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يضاد الالوهية، بل كل ضرر وفقر هو نقصان في الدنيا وزيادة في الآخرة. وكل نقص في الآخرة بالاضافة الى الشخص فهو نعيم بالاضافة الى غيره، اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا النار لم يعرف أهل الجنة قدر النعمة. وأيضاً: فداء أرواح الأنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران فداء لأهل الايمان بأهل الكفران عين العدل، وما لم يخلق الناقص كالبهائم لم يعرف الكامل كالانسان. وكذلك الأمر في التفاوت في القسمة بين الخلق في الدنيا والآخرة، وكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه.

وهذا الآن بحر آخر عظيم غرق فيه الأكثرون، قريب في السعة من بحر التوحيد، ولا يعقلها الا العالمون. ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون، ومنع من افشاء سره المكاشفون.

والحاصل: أن الخير والشر مقضى به، وما قضى الله واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. وانما أطنبنا في هذا المطلب لأن هذا الباب غاية كل العلوم واليه ينتهي أصل كل سعادة، فلا تغفل.

المطلب الثاني
في بيان حال التوكل

وما ذكرناه أصل التوكل وهو العلم، وهذا حاله وحقيقته، ثم نذكر ثمرته وهو العمل.

فنقول: التوكل مشتق من الوكالة، وهي تفويض الأمر الى الغير والاعتماد عليه فيه. ويسمى الموكل اليه وكيلاً، والمفوض متكلاً ومتوكلاً. فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده.

ثم ان التوكل لا يتم في الانسان الا بأن يعتقد في وكيله أربعة أمور: منتهى الهداية الى المصالح والمفاسد، ومنتهى القدرة بأن لا يخاف ولا يجبن ولا يستحي، ومنتهى الفصاحة بأن لا يكل من الكلام، ومنتهى الشفقة اذ الأمور المذكورة لا تفيد الا اذا قارنت الشفقة.

ثم الموكل ان كان شاكاً في هذه الأربعة أو في واحد منها، أو جوز أن يكون خصمه أكمل في هذه الأربعة منه لم تطمئن نفسه الى وكيله. وعلى هذا القياس لا بد لمن يتوكل على الله أن يعتقد اعتقاداً جازماً انه لا فاعل غيره، واعتقد معه تمام العلم والقدرة، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد. فان لم يعتقد بأحد هذه الأمور لم يتم توكله، وذلك اما لضعف يقينه، أو ضعف القلب واستيلاء الجبن عليه بسبب الأوهام الغالبة عليه، لأن للوهم تأثيراً قوياً؛ كما يخاف الانسان عن أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش، مع أنه لا يشك أنه جماد ولا يحشر الآن على ما جرت عادة الله عليه. وانما يتم التوكل بقوة اليقين وقوة القلب معاً.

ثم أن المتوكل بحسب القوة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون حاله مع الله كحال الطفل في حق أمه، اذ لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها ولا يعتمد الا اياها، وان نابه أمر في غيبتها لا يسبق الى لسانه الا: يا أماه، وان غضبت عليه أمه لا يفزع الا اليها.

الثانية: أن يكون حاله كصبي مميز وثق بكفالة أمه وشفقتها، ولا يطلب منها شيئاً، ولا يخطر في قلبه الا أمه دون ضمانها وكفالتها عليه.

الثالثة؛ وهي اعلاها: أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل؛ مثاله صبي علم أن أمه يتكفلها ولم يطالب منها. وهذا المقام يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته، و ينفي التدبير رأساً، بل يبقى صاحبه كالمبهوت. كما أن المقام الثاني يثمر ترك السؤال دون الدعاء، و ينفي كل تدبير الا من حيث الفزع الى الله بالدعاء؛ والأول يثمر ترك السؤال من غيره فقط، ولا ينفي أصل التدبير بل بعض التدبيرات.

والمقام الأول يمكن وجوده، والثاني والثالث نادرا الوجود، وان وجدا فلا يدوما.

فظهر من ذلك: ان ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل، بل يظهر أن ملابسته كل تدبير وعمل ينافي التوكل من حيث أنه حول المتوكل وقوته. وأما مباشرة التدبير بحول الوكيل وقوته وأمره بالتدبير فلا يخل بالتوكل أصلاً.

المطلب الثالث
في بيان أعمال المتوكلين

وقد عرفت العلم المثمر لحال التوكل، ثم عرفت حال التوكل. والآن نذكر عملاً يثمره حال التوكل؛ وهو أن عمل العبد: أما جلب نافع مفقود، أو حفظ نافع موجود، أو دفع ضار نزل أو دفع ضار لم ينزل.

فلنذكر شرط التوكل ودرجاته في كل من هذه الأمور الأربعة:

الأول: جلب النافع. وأسبابه ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: المقطوع؛ كمد اليد الى الطعام الموضوع بين يديك، فأنه من الأسباب المقطوع بها بتقدير الله ومشيئته. فترك مثل هذه الأسباب منتظر حصول المطلوب جهل وحمق وليس من التوكل في شيء، لكن عند مباشرة الأسباب تعلم أن الحول والقوة من الله تعالى لا من يدك وأسنانك.

الدرجة الثانية: الأسباب المظنون بها؛ كمن سافر في البراري فان الغالب فيها عدم وجود الطعام، وان احتمل احتمالاً بعيداً فليس ترك حمل الزاد فيها من التوكل المقبول عند المتوسطين، وان كان جائزاً عند الخواص. وحمل الزاد ينبغي أن يعتمد على فضل الله تعالى لا على الزاد.

فان قلت: فكيف يجوزه الخواص وهو القاء النفس في التهلكة، قلت: ذلك ليس بالقاء النفس في التهلكة لأحد شخصين؛

أحدهما: أن يعتاد ترك الطعام مقدار أسبوع، من غير ضيق قلب وتشويش

خاطر، وجاهد نفسه عليه، وأن تطيب نفسه بالموت ان لم يأته رزقه، علماً بأن رزقه الموت والجوع، وهو وان كان نقصاناً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة.

وثانيها: أن يقدر على التقوت بالحشائش والأشياء الخسيسة، اذ لا تخلو البوادي من أن يلقاه آدمي أو حشيش يتقوت به، أو ينتهي الى قرية في كل أسبوع، حتى أنهم قالوا: الحبل والركوة والأبرة والمقراض لا يمنع التوكل اذ يندر وجود هذه في البراري، ولا يقوم شيء مقامها مع أنها من الضروريات.

الدرجة الثالثة: الأسباب الموهومة؛ كالتدبيرات الدقيقة في الاكتساب وان كان بطريق مباح، اذ الطريق التي فيها شبهة فذلك داخل في حد الحرص. ولا يخفى أن مباشرة مثل هذه الأسباب يخل بالتوكل؛ كالرقية والطيرة والكي وأمثال ذلك.

ثم المتوكلون:

أما خواص: فهم يتركون أكثر الأسباب المقطوعة؛ كما يدورون في البوادي، مع ان عدم الزاد مقطوع فيها، الأمثل مد الأيدي الى طعام عنده ليس من التوكل كما عرفت؛

وأما المتوسطون: وهم القاعدون في الأمصار، المتقاعدون عن الكسب والأسباب الظاهرة ثقة بكفالة الله عز وجل؛

وأما عوام يكتسبون ولكن لا يعتمدون على الكسب بل على الله، فيكون مكتسباً ببدنه ومنقطعاً الى الله بقلبه، حتى قالوا: ان المعيل يترجح له هذا القسم من التوكل على القسم الذي فوقه؛ كما اكتسب الصديق رضي الله عنه بعد ما بويع الخلافة.

وأيضاً: المتجرد عن العيال ان استشرف نفسه على ما في ايدي الناس فالكسب أفضل.

ثم أن النفس له موضع غرور، اذ يظن انه من المتوكلين ولا اتكال له على بضاعته. وامتحان ذلك أنه اذا سرق متاعه أو ضاع هل يتأسف أم لا، فان

تأسف فليس له توكل أصلاً، اذ الرازق كثيراً ما يرزق عباده بغير بضاعة. وان ابتلى أحد باتكال على متاعه، فعلاجه: أن يعرف ان سوء الظن تلقين الشيطان، وحسن الظن تلقين الرحمن.

واعلم: ان توكل المعيل يخالف توكل المنفرد، اذ دخول البوادي وترك العيال والقعود عن الاهتمام بأمرهم توكلاً في حقهم فحرام، وقد يفضي الى هلاكهم فيؤاخذ بهم. الا أن التحقيق ان عياله ان ساعدوه على الصبر على الجوع وعلى الموت بالجوع فعليه التوكل، وكذا نفسه وعياله، فاذا نازعته نفسه ولم تساعده على الأمور المذكورة فهو حكم المعيل الذي لا يصبر عياله فيجب له الكسب، فلا فرق بين المنفرد والمعيل في وجوب التوكل.

المطلب الرابع

في مراتب الأدخار

فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو غير ذلك فله أحوال ثلاثة:

أما أن يأخذ قدر الحاجة من المأكل والمليس والمسكن، ويفرق الباقي في الحال، ولا يدخره الا المحتاج؛ وأما أن يدخر لسنة فما فوقها وهذا خارج عن حد التوكل، واما أن يدخر لأربعين يوماً فما دونها، قيل: أنه خارج عن التوكل، وقيل: لا.

والحق: أن أصل الأدخار مناف للتوكل، وأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له. والتقدير بأربعين لميعاد موسى عليه السلام لم يكن لطول الأمل أو قصره بل لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور.

فالتوكل ترك الادخار؛ وذلك لا يتم الا بقصر الأمل. وأقل درجاته يوم وليلة فما دونه، وأكثره ما يتصور أن يكون عمر الانسان، وبينهما درجات لا حصر لها. وكل أمر له مراتب له بداية ونهاية، وأصحاب النهايات تسمى السابقين، وأصحاب البدايات تسمى أصحاب اليمين. وأصحاب اليمين أيضاً

على درجات فلا يتصور التقدير فوق هذا في أمثال هذه المراتب، فالأفضل أن لا يدخر أصلاً.

ثم كل ما قل ادخاره كان فضله أكثر، ولكن هذا في حق من لا ينزع قلبه بترك الادخار، بل لا يلتفت قلبه الا الى الوكيل الحق والا فالادخار له أولى، لأن المقصود تجرد القلوب بذكر الله، ورب شخص شغله وجود الدنيا، ورب شخص شغله عدمها. ولذلك لم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم التجار عن تجارتهم بل دعا الكل الى الله فقط. **هذا حكم المنفرد.**

وأما المعيل: فله ادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وما فوق ذلك مبطل للتوكل، لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين، فادخار ما يزيد عليه سببه ضعف القلب، والمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب، مطمئن النفس الى فضل الله، واثق بتدبيره، دون وجود الأسباب الظاهرة. وقد أدخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ليبين ذلك لضعفاء أمته. وكيف لا وقد نهى بلالاً عن الأدخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها، فقال: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش اقلالاً». وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن الله تعالى يحب أن يؤتى رخصه كما يحب أن يؤتى عزائمه، تطيباً لقلوب الضعفاء لئلا يتركوا الميسور عليهم لعجزهم عن منتهى الدرجات.

ثم أن الناس يختلف حالهم: فمن واحد يليق بحاله الرخصة، ومن آخر يتضرر بالرخصة.

وبالجملة: الغرض فراغ القلب عما سوى الله تعالى سواء أمكن ذلك بالعزيمة أو بالرخصة.

واعلم: ان الأسباب الدافعة للضرر تجب المباشرة بها ان كانت مقطوعاً بها، والاحتراز عنها ان كانت موهوبة، والمظنونة ربما تكون في حكم المقطوع بها بالتجارب، وان لم تكن كذلك فالاحتراز عنها أيضاً أفضل؛ مثلاً: الصبر على أذى السباع والحيات ليس من التوكل اذ لا فائدة فيه.

فعليك الاحتراز عن أمثالها، ولا تغتر بمن وضع يده على الأسد ولم يضربه

لأن ذلك خرق العادة، ولكل مقام رجال، وان ظن ذلك المقام أحد فليجرب بأن الكلب الذي في بدنه، أعني: القوة الغضبية، هل تطاوعه أم لا، فان سخر ذلك ترتقي منه الى أن يسخر لك كلب دارك، ثم ترتقي الى تسخير كلب البوادي.

وأيضاً: لا تظن أن أخذ السلاح وغلق الباب ينافي التوكل، اذا أخذ السلاح وعرف الدفع من الله تعالى، وأغلق الباب وعرف الحفظ من الله عز وجل، اذ كم من صاحب سلاح يقتل، وكم من باب مغلق يفتح و ينهب ما في داخله. ثم بعد ذلك يكون راضياً بما يقضي الله في نفسه من القتل والجرح، وفي بيته من السرقة والغصب، فلا يكون تحصنه وتحفظه الا للجري على سنة الله تعالى في ترتيب الأسباب مع الثقة بمسبب الأسباب.

ولا تتوهم ان ليس للمتوكل مال، اذ هو لا يستغنى عن ضروريات الانسان من القصعة والكوز والعصا، وقد يجد مالاً ويحفظه ليدفع الى المحتاج.

ولا تتوهم ان الضروريات يجب أن يتألم بفقدها فكيف يمكن عدم التألم، لأن الأسباب لتيسير خدمة الحق تعالى وانما يمسكه طلباً لرضاه. واذا فقد ينبغي أن يقول: الخير لو لم يكن في فقده لما سلط الله عليه اللص، فلي عوض ثواب من ذلك. فينبغي أن يفرح بفقدها فضلاً عن التألم، اذ الخير ما اختاره الله، ولا يدري الانسان الخير لنفسه في أي شيء حاصل، اذ كم من غنى يبتلى بماله بلاء يكون سبباً لهلاكه حتى يقول: يا ليتني كنت فقيراً. وذلك يقع كثيراً.

المطلب الخامس
في آداب المتوكلين

أما في متاع بيته فأنه يغلق الباب ولا يستقصى؛ مثل: أن يوصي جاره بالحفظ، وان يجمع اغلاقاً كثيرة. وكان مالك بن دينار يشد بابه بشريط ويقول: لولا الكلاب ما شددته. وأن لا يترك في بيته متاعاً يحرص عليه السراق فيكون سبب معصيتهم، كذا قال مالك بن دينار. وقال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية، هو قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها.

وأيضاً: انما يضطر الى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق، ويقول: ما يأخذه سارق فهو في حل منه أو هو في سبيل الله؛ وان كان فقيراً فهو عليه صدقة. وان لم يشترط الفقر فهو أولى، اذ ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده، وقد زال عصيانه بجعله في حل، وأيضاً: يفدى بماله مال مسلم آخر. فنيته دفع المعصية عن مسلم أو فداء مال مسلم بمال نفسه نصح للمسلمين.

ثم أنه اذا وجد المال مسروقاً ينبغي أن لا يحزن، بل يفرح أن أمكنه، ويقول: لعل الخير في تلفه. ثم انه اذا وجد ماله الذي جعله في سبيل الله يترك طلبه، فأنه قدمه ذخيرة لنفسه الى الآخرة، وان قبله جاز في ظاهر العلم لكنه غير مستحب عند المتوكلين.

وأيضاً: ينبغي أن لا يدعو على السارق والا بطل توكله وزهده، وأيضاً: يبطل أجره بالدعاء عليه، وأيضاً: ينبغي أن يغتم لعصيان السارق لا لماله، وأن يشكر الله عز وجل اذ جعله مظلوماً لا ظالماً، وجعل النقصان في دنياه لا في دينه.

المطلب السادس
في الأسباب المزيلة

وهي أما مقطوع بها؛ كالماء في دفع العطش، والخبز في دفع الجوع، وترك هذه الأسباب حرام فضلاً عن كونه توكلاً؛ أو مظنون بها؛ كالفصد والحجامة وسائر أسباب الطب، وهذا لا يناقض التوكل؛ أو موهومة؛ كالكي والرقية والطيرة. فشرط التوكل تركه لأن ذلك من غاية التعمق في ملاحظة الأسباب. وقد وصف صلى الله عليه وسلم المتوكلين بها.

وأما التداوي بالأدوية الطبية: فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن سائر الأنبياء عليهم السلام، إلا أن بعضاً من الأدوية الطبية قد يلتحق بالمقطوع بها؛ كالسكنجبين في دفع الصفراء، فحكمها حكمها في التجربة الا أنه

لا يحرم تركها: اما لأن معرفته تختص ببعض الناس وليس مما تدركه الكافة؛ كالخبز في دفع الجوع، والماء في ازالة العطش؛ أو لأن لذلك أسباباً باطنة يمكن تخلفها ولا كذلك الخبز والماء.

فان قلت: الكي أيضاً من الأسباب الظاهرة النفع، قلت: ليس كذلك، والا لعرفه في كل بلدة، وذلك لا يعهد الا في الاتراك والأعراب، مع أن الكي جرح مخرب للبنية محذور السراية، مع الاستغناء عنه، اذ ما من وجع يعالج بالكي الا وله دواء يغني عنه بخلاف الفصد والحجامة. روى أن عمران بن الحصين كان يرى نوراً ويسمع صوتاً يسلم عليه الملائكة، ولما اكتوى زال عنه ما رآه وسمعه، ثم تاب منه واناب الى الله عز وجل، وقال بعد ذلك: فرد تعالى على ما كنت أجده من أمر الملائكة.

واعلم: ان التداوي نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن سائر الأنبياء أيضاً عليهم السلام، وأمروا أيضاً بالتداوي. وكذا نقل ترك التداوي عن الصحابة والسلف.

والتوفيق بين هذه الأمور: هو أن لترك التداوي أسباباً، ولعل من تركه انما تركه لأجلها، ولا يلزم من ذلك أفضلية الترك، بل الأفضل الفعل لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم. **وتلك الأسباب ستة:**

أحدها: أن المريض قد كوشف له دنو أجله وان الدواء لا ينفعه. ولعل ما قال أبو بكر رضي الله عنه ـــ حين قيل له: لو دعونا لك طبيباً ـــ: الطبيب قد نظر الى وقال: «اني فعال لما أريد...» من هذا القبيل. وكذا قول أبي الدرداء، اذ قيل في مرضه: ما تشتكي، قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي، قال: مغفرة ربي، قالوا: ألا ندعو لك طبيباً، قال: الطبيب أمرضني.

وثانيها: أن يشتغل المريض بحال عاقبته فلا يتفرغ قلبه للتداوي. وعليه يدل كلام أبي ذر، وقد رمدت عيناه وقيل له: لو داويتها، فقال: اني عنهما مشغول، فقيل: لو سألت الله أن يعافيك، فقال: أسأله فيما هو أهم علي منهما.

ثالثها: أن تكون العلة مزمنة، والدواء موهوم النفع جارياً مجرى الكي

والرقية، فيتركه المتوكل. واليه يشير قول الربيع بن خثيم اذ قال: ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوى؛ أي: أن الدواء غير موثوق به.

ورابعها: أن يترك لبيان ثواب المرض بحسن الصبر. وقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره.

وخامسها: أن تكون له ذنوب فيرجو تكفيرها بالمرض. وفي الحديث: «حمى يوم كفارة سنة»؛ قيل: لأنها تهدم قوة سنة.

وسادسها: أن يستشعر من نفسه مبادي البطر والطغيان بطول الصحة، فيترك التداوي لئلا يزول المرض قبل استئصال البطر والغفلة وطول الأمل من نفسه.

واذا ظهر لك أن ترك التداوي لهذه الأسباب، فلا يخفى عليه أنه لا يلزم منه عدم فضيلة التداوي عند انتفاء هذه الأسباب، كما في تداوي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأيضاً: لو كان ترك التداوي من شرط التوكل لما فعله صلى الله عليه وسلم وهو سيد المتوكلين.

وأيضاً: ان فضل ترك التداوي ان كان فيمن كثرت ذنوبه ليكفرها، أو خاف على نفسه الطغيان من العافية واحتاج الى نيل ثواب الصبر، وأمثال ذلك. وهذه الأمور وان كانت كمالاً بالإضافة الى بعض الخلق فهي نقصان بالاضافة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كان أعلى من هذه المقامات كلها، فلهذا لم تضره مباشرة أسباب التداوي، ولهذا أفعله.

وأيضاً: رجوع عمر رضي الله عنه من الطاعون وعدم دخوله الى الشام، واتفاق الصحابة عليه، وقوله: نفر من قدر الله إلى قدر الله، في جواب من قال: أتفر من قدر الله — دليل قوي على أن التداوي لا يخل بالتوكل، وكيف لا والصحابة لا يسامحون في أمر التوكل أصلاً، سيا عمر، وهو في باب التوكل آية، سيا وقد روى عبد الرحمن بن عوف في هذا الأمر حديثاً وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سمعتم الوباء في أرض فلا تقدموا عليه

وإن وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

ثم أن نهي الدخول في بلد الطاعون فسببه ظاهر وهو القاء النفس في التهلكة، مع أسباب مظنون بها. وأما نهي الخروج للخلاص فلعله لكونه سبباً وهمياً، اذ ربما يستحكم ضرر استنشاق الهواء المتعفن في بدنه قبل ذلك، يكون الخروج الى الهواء الصحيح علاجاً وهمياً يسبق تأثير الهواء العفن في البدن، سيما وقد انضم الى ذلك أمور يكره معها الخروج وهي: خروج الأصحاء، وفقد المتعهدين للمرضى ممن يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام.

ويظهر من ذلك انه لو دخل موضع الطاعون لتعهد المسلمين لا يأثم لأن الضرر في حق نفسه موهوم، ورجاء دفع الضرر عن بقية المسلمين أمر محقق. وتسمية الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف لما فيه كسر لقلوب بقية المسلمين وسعي في اهلاكهم.

وغلط الزهاد والعباد في ظواهر الأخبار والآثار كثير. وانما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك، حيث يحملها على محامل لطيفة دقيقة، ويستخرج في كل منها سبب النهي وعلة الأمر ومراتب كل منهما في الحرمة والوجوب، فيرتفع التناقض المتوهم في ظواهر الأخبار والله أعلم بحقيقة الحال.

واعلم: ان كتمان المرض والفقر وانواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات، ومع ذلك فالاظهار لا بأس به اذا صحت فيه النية والمقصد، وذلك في ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يصف للطبيب حكاية لا شكاية.

وثانيها: أن يذكره لمن يتعلم منه حسن الصبر، بل الشكر بأن يراه نعمة.

وثالثها: أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله تعالى، وذلك ممن يرجو منه القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز، فيذكره دفعاً لاحتمال التجلد واظهاراً لعجزه وافتقاره.

الأصل السادس

في المحبة والشوق والأنس والرضا

وفيه مطالب:

المطلب الأول

في المحبة لله عز وجل

وهي من أعلى المقامات. وكل مقام يتقدمها فهو مقدمة من مقدماتها؛ كالتوبة والصبر والزهد وغيرها. وكل مقام بعدها من ثمراتها؛ كالشوق والأنس والرضا. وأخواتها وسائر المقامات وان عز وجودها فلم تخل القلوب من الايمان بامكانها.

وأما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها، حتى أنكر بعضهم امكانها وقال: لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله.

وأما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثل، فلزمهم انكار لوازم الحب: من الأنس والشوق ولذة المناجاة. الا أن الأمة مجمعون على أن الحب لله ولرسوله فرض، فيكون وجودها مجمعاً عليه. وجعلها مجازاً عن الطاعة لا حاجة اليه، وكيف لا والطاعة ثمرة المحبة، والقول بالطاعة يستلزم وجود المحبة.

وأيضاً: محبة الله تعالى في الكتاب والسنة كثير الذكر، وكذا في الآثار وكلمات المشايخ بحيث لا يمكن الانكار عليها، وحمل كلها على المجاز يؤدي الى اللجاج والعناد.

واعلم: ان الحب فرع المعرفة والأدراك، ولهذا لا يتصف الجماد بالحب. ثم المدرك ان كان ملذاً فهو محبوب، وان كان مؤلماً فهو مبغوض، وما لا يكون مؤلماً ولا ملذاً فهو لا يكون محبوباً ولا مكروهاً. فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشيء الملذ، فان تأكد ذلك الميل وقوى يسمى عشقاً. والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فإذا قوى سمي مقتاً.

ثم لما كان الحب تابعاً للأدراك، وكان ذلك منقسماً الى الحواس، صارت لكل منها لذة مخصوصة؛ فلذة العين في الصور الجميلة، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة. وهكذا لا يخفي ان البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر. والقلب أشد ادراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فإذا لذة القلوب في ادراك الأمور الالهية أتم وأبلغ، و يكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه أقوى، ولا معنى للحب الا الميل الى ما في ادراكه لذة كما عرفت، فإذا لا ينكر حب الله الا من لم يتجاوز ادراكه رتبة البهائم وقعد في رتبة الحواس.

المطلب الثاني

في أقسام المحبة وأسبابها

واعلم: أن كل حي يحب دوام وجوده و يكره الموت والقتل، ويحب أيضاً كمال وجوده و يكره نقصه. ولما توقف كمال الوجود ودوامه على سلامة الأعضاء يحبها أيضاً، ولما كان المال آلة في دوام وجوده يحبه أيضاً، وكذلك لما كان الولد يخلفه في الوجود يحبه أيضاً، وذلك لفرط حبه لبقاء نفسه، لما عجز أن يطمع في بقاء نفسه طمع في أن يبقى جزء منه، وكذلك الأقارب والعشائر لما كانوا وسائل الى كماله يحبهم.

فاذا المحبوب عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضد ذلك كله. فهذا هو أول الأسباب.

والسبب الثاني: الاحسان. فان الانسان عبد الاحسان، وقد جبلت

القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها. وهذا بالحقيقة يتدرج في حب دوام الوجود أو كماله بالمال، الا أنه سبب بعيد والمال قريب.

الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه، بل يكون ذاته عين حظه؛ كحب الجمال والحسن من حيث أنه كذلك، لا لأن ينتفع بصاحبه بقضاء الشهوات.

السبب الرابع: أن الحسن والجمال غير منحصر في المحسوسات بل هو في المحسوسات أعظم وأقوى؛ كما يقال: هذا خلق حسن وعلم حسن، وهذه سيرة حسنة وأخلاق جميلة. ألا ترى أن الأنبياء صلوات الله عليهم محبوبون بالطبع عند المؤمنين، وكذا الناس يحبون أبا حنيفة والشافعي ومالكاً مع أنهم لم يروهم، وانما حبهم لصفاتهم الباطنة من العلم والدين والتقوى.

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب. اذ رب شخص يتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ بل بمجرد تناسب الأرواح، كما قال صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجنده فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

ثم أن هذه الأسباب اذا اجتمعت في شخص كان حبه أشد وأقوى وأكمل. وأيضاً: يتفاوت بحسب قوة هذه الخصال وضعفها فيه.

ثم ان هذه الأسباب كلها مجتمعة في حق الله تعالى على وجه القوة والكمال، فلا محبة فوق محبته عز وجل.

وتفصيل ذلك: ان الحب لأجل دوام الوجود وكماله وبقائه موجود في حق الله وبالله والى الله، فهو المخترع والمبقي والمكمل، اذ العبد عدم صرف لولا ايجاده تعالى، وهالك محض لولا ابقاؤه تعالى، وناقص لولا تكميله تعالى. وكذا الحب للاحسان فليس الا الله تعالى، فأنه الذي أنعم بخلقك وخلق مالك وخلق قدرتك وارادتك وداعيتك، وكذا كل مال يصل اليك فانما هو من الله تعالى بالذات. واليد الظاهرة وسيلة مضطرة اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه، فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان.

وكذا حب الشخص لذاته واحسانه؛ مثل: ان تسمع في الشرق ملكاً عالماً عابداً عادلاً متلطفاً بالناس، فانك تميل اليه ـــ وهو الحب ـــ مع انك آيس من خيره؛ وكذا اذا سمعت ملكاً بضد ذلك فانك تنفر عنه ـــ وهو البغض ـــ مع أنك آمن شره.

ولا يخفى أن المستحق لمثل هذه المحبة ليس الا الله تعالى، اذ هو المحسن الى الكافة، المتفضل على أصناف الخلائق: أولاً بايجادهم، ثم بتكميلهم بالأعضاء والأسباب الضرورية، ثم بتنعيمهم بخلق الأسباب المحتاج اليها وان لم تكن ضرورية، ثم بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي مظنة زينتهم؛ كالثياب الجميلة والمراكب الحسنة.

أما محبة شخص لجماله المعنوي من العلم والقدرة فليس أحق بتلك المحبة من الله.

أما العلم: فأين علم الأولين والآخرين من الله الذي يحيط بالكل، حتى لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، بل نسبة علم الله تعالى الى أعلم أهل الأرض أكثر من نسبة أعلم أهل الأرض الى أجهل أهل الأرض لأن زيادته بقدر متناه وزيادة علم الله غير متناهية.

وأما القدرة: فلا قدرة ولا قادر الا وهو أثر من آثار قدرته، فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء. فان كان يتصور أن يحب قادراً لكمال قدرته فلا يستحق ذلك أحد سواه.

وأما التنزه عن العيوب: الذي هو أحد موجبات الحب، فلا يتصور على وجه الكمال الا للواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والاكرام، اذ كل مخلوق وان كان منزهاً عن النقائص والعيوب فلا يخلو عن نقص من وجه آخر بل عن نقائص، ولا أقل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخراً مضطراً ولا كمال الا لله وحده.

وأما المحبة لأجل المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء منجذب اليه، والشكل الى الشكل أميل. والمناسبة أما في معنى ظاهر، وذلك لا يخفى؛ وقد يكون لأمر

باطن. وذلك في حق الله تعالى: أما ممكن التغيير بأن يقرب من الله تعالى في الصفات التي أمرنا بأن نتخلق بها، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله، وذلك مثل العلم والاحسان والبر والرحمة على الخلق وافاضة الخير وارشادهم الى الحق ونحو ذلك؛

وأما غير ممكن التعبير بل يشار اليه بالرمز فقط، مثل قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[1]؛ وقوله: ﴿انا جعلناك خليفة في الأرض﴾[2]؛ اذ لم يستحق آدم خلافة الله الا بتلك المناسبة. واليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم: «ان الله خلق آدم على صورته».

ومن تلك المناسبة ما سموه قرب النوافل بعد كمال الفرائض، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ــ حكاية عن ربه عز وجل: «لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به».

وهذا موضع يجب كف عنان القلم فيه اذ الناس تحزبوا حزبين، قاصرون مائلون الى التشبيه الظاهر، وغالون مسرفون متجاوزون حد المناسبة الى الاتحاد والحلول، حتى ضل النصارى وقالوا: عيسى عليه السلام هو الاله، وقال بعضهم: تدرع الناسوت باللاهوت، وقال آخرون: اتحد به، وقال بعض الناس: أنا الحق.

وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح مع ذلك حقيقة السر فهم الاقلون، وهذه المناسبة هي أقوى أسباب الحب وأعظمها وأبعدها وأعزها وأقلها وجوداً.

---

(١) سورة الاسراء، آية: ٨٥.

(٢) سورة ص، آية: ٢٦.

المطلب الثالث

واعلم: ان كل قوة في الانسان لم تخلق عبثاً بل لأجل ادراك ما يلائمها، وانما لذتها في الوصول الى مدركها.

ثم ان في الانسان قوة ربانية هي العقل، ولذتها ادراك العلوم. ولا يخفى أن اللذة العلمية أقوى من اللذة الحسية، اذ الانسان لا يصبر عن العلم والتمدح به ولو في الشيء الحقير؛ كالشطرنج مثلاً. ولو ذكر أحداً في مقابلته لذة الأكل لربما نسب أهله الى البهيمية وعابوه.

ثم لا يخفى أن لذة العلم بحسب شرف المعلوم، فمعرفة الله تعالى ألذ من جميع المعارف، اذ لا معلوم أشرف من ذلك.

وأيضاً: هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، اذ محلها الأمر الرباني الذي هو باق لا يفنى. ولعمري طلاب العلوم يجدون عند انكشاف المشكلات لذة عظيمة يعرفها أهلها، فكيف حالها اذا كان الانكشاف في جمال الله وجلاله، اذ يعرض له حينئذ من الفرح ما يكاد يطير به، حتى يتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره. وهذا مما لا يدركه الا من ذاقها، ولعل من لم يذقها ينكر ذلك كما ينكر الصبي لذة السلطنة.

وليت شعري من لا يفهم الا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله تعالى وليس له صورة ولا شكل، مع أن الرؤية أكمل الانكشافات، وذلك لأن المدركات المتخيلة ادراكها حال الرؤية أتم من ادراكها حال التخيل، والدنيا بالنسبة الى الآخرة بمنزلة الخيال. فإذا ارتفع حجاب البدن فان لم يبق في النفس كدورات الدنيا يشاهد ربه في الحال، وان بقي فيه كدورات لا ينفك عنها أصلاً فهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد، نعوذ بالله منهم. ومنهم من يبقى فيه أثر ضعيف فيعرض على النار لتزكيتها بقدر الحاجة الى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة.

فإذا تطهرت النفس عن الكدورات يتجلى له الحق تجلياً، يكون تجليه بالاضافة الى علمه كانكشاف المرئيات بالاضافة الى المتخيلات، وهذه

المتخيلات، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤية، لكن لا بصورة مخصوصة ولا بجهة ومكان فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب. ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا فرق الا من حيث زيادة الكشف والوضوح. فيظهر منه أن من لم يعرف الله في الدنيا كيف يراه في الآخرة.

ولما كانت المعرفة على درجات كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة، اذ تختلف بقلتها وكثرتها وقوتها وضعفها وجنسها، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان الله تعالى يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة». وذلك لأنه لما فضل الناس في الدنيا بسر وقر في صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به.

فإن قلت: كيف يقاس لذة النظر الى وجه الله تعالى بلذة المعرفة في الدنيا وهي ضعيفة فاعلم: ان استحقار لذة المعرفة للخلو عن المعرفة، والا فلذتها فوق سائر اللذائذ، بل للعارفين لذائذ لم يستبدلوا بها في الدنيا الجنة، مع ان هذه اللذة لا نسبة لها أصلاً الى لذة اللقاء والمشاهدة.

فإن قلت: فهل محل الرؤية في الآخرة القلب أو العين، فاعلم: ان أرباب البصائر مطمح نظرهم الرؤية بأي آلة وقعت، وأما أهل النظر فقد اختلفوا، والحق انها بالعين كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ليكون لفظ الرؤية والنظر وأمثال ذلك مما ورد في الشرع مجرى على ظاهره، اذ لا يجوز صرف الألفاظ عن الظواهر الا لضرورة.

المطلب الرابع

في أسباب محبة العبد لله تعالى

اعلم: أن أسعد الناس حالاً وأكملهم لذة في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى. وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن اذ لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب المنتهى رتبة العشق فذلك ينفك عنه الأكثرون. وانما طريق تحصيله: قطع علائق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب، وكمال الحب في أن يحبه بكل قلبه فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه. ومنه: حب المال والأهل والولد

والأقارب والعقار والدواب ونحو ذلك.

ومن جملة طرقه: قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب، وذلك بعد تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها، وهي الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. ولا يوصل هذه المعرفة الا الفكر الصافي والذكر الدائم. والواصلون الى هذه المعرفة: أما أقوياء يعرفون الله أولاً ثم يعرفون غيره به، وأما ضعفاء يعرفون الأفعال أولاً ثم يترقون منها الى الفاعل. وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثر والأوسع على السالك، وذلك يحصل بالتفكر في عجائب الآفاق والأنفس وملكوت السموات والأرض، اذ لا يبلغ فهمنا الى استقصائها، وما بلغ اليه فهمنا بالنسبة الى ما في علم الأنبياء والأولياء كقطرة من بحر، وكذا لا نسبة لعلومهم الى ما استأثر الله تعالى بعلمه. فإذا استغرقت في هذا الفكر ازداد محبتك جداً.

ثم إن تفاوت الناس في المحبة لتفاوتهم في المعرفة، وأكثر الناس ما يعرفون الله تعالى الا بالصفات والأسماء. ثم إن بعضاً منهم آمنوا بها ايمان تسليم وتركوا البحث وهم أقل السلامة. ومنهم من يتخيل لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وهم الضالون. والعارفون بحقائقها هم المقربون وحبهم حب لذاته تعالى فلا يتغير في السراء والضراء. وأما من أحبه تعالى لأنعامه واحسانه فربما يتغير حبه عند البلاء أو ينقص، وأما من أحبه لعجائب صنعه واستدل به على عظمته وجلاله فذلك لا يتغير، بل يزداد متى ازداد مطالعته صنع الله تعالى وعجائب قدرته.

وأما قصور الناس في معرفة الله تعالى فأمران:

أحدهما: الانهماك في الشهوات والاشتغال بأحوال نفوسنا، اذ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه. فهما اشتغل بذلك غفل عن معرفة الله تعالى.

وثانيها: شدة ظهوره تعالى وتناهيه في وضوحه، فيصير ظهوره سبب خفائه.

وتفصيل ذلك هو: أن الأدراك وصول المدرك بالمدرك واحاطته به،، فلا بد في الوصول من غير المدرك عن غيره عنده، فمن كان وجوده أخفى يكون تمييزه

عسيراً فيتعسر ادراكه؛ كأحوال الزمان مثلاً، فان حقيقة الزمان لكون وجوده أخفى بسبب كونه عرضاً وغير قار يعسر ادراكه، وكذا من كان وجوده أظهر وأشد وأقوى لا يمكن تمييزه عن غيره ولا احاطة المدرك به، فيتعذر ادراكه؛ كالنور مثلاً، فانه لظهوره عند الحس يعسر ادراكه، حتى لو لم يعقب ضده أعني الظلمة لم يمكن تمييزه أصلاً.

فحينئذ حقيقة الواجب تعالى لما كان في العقل بمنزلة النور بالقياس الى البصر، ولم يمكن له ضد يتبين بسببه، لم يمكن للعقل تمييزه عن غيره. وأيضاً: لقوته واحاطته بالكل تعذر للعقل احاطته ومعرفته، فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، وقيل:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد　　الا على اكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت فما أظهرت محتجباً　　فكيف يعرف من بالعزة استترا

فهذا هو السبب في قصور الافهام عن معرفة ذي الجلال والأكرام.

الا أن من قويت بصيرته ولم تضعف منته في حال اعتدال أمره لا يرى الا الله ولا يعرف غير الله، ويعرف انه ليس في الوجود الا الله، وأفعاله أثر من آثار قدرته، فهي تابعة له ولا وجود لها بالحقيقة وانما الوجود للواحد الحق فقط. فعند ذلك لا تحتاج معرفته الى تمييزه عن غيره اذ لا غير له، فلا يكون ناظراً الا في الله ولا عارفاً الا بالله ولا محباً الا لله، ولا ينظر الى نفسه أيضاً بل من حيث أنه عبد الله، فهذا هو الذي فنى في التوحيد عن نفسه. واليه الأشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن.

واذا عرفت محبة الله تعالى، فاعلم: ان المحبة مستتبعة للشوق، فلعل من أنكرها ينكره أيضاً.

واعلم: أن المدرك من كل وجه لا يشتاق اليه، وكذا ما لم يدرك أصلاً، وانما الشوق لمن أدرك من وجه ولم يدرك من وجه آخر. **فالله تعالى وان كان مدركاً للعارفين لكنه غير مدرك لهم من وجهين:**

أحدهما: ان الخيال في هذا العالم لا يفتر عن التمثيل والمحاكاة لجميع

المعلومات، وهي مكدرات للمعارف فلا تتضح المعلومات لأجلها غاية الاتضاح.

ثانيها: ان ما انكشف لكل عبد بعض من الأمور والا فالأمور الالهية لا نهاية لها فعند ذلك تشتاق كل نفس الى معرفة الله تعالى من جهة الاتضاح ومن جهة الزيادة والشوق. الأول يندفع في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ومشاهدة ولقاء؛ وأما الشوق الثاني فيشبه أن لا ينتهي في الآخرة أيضاً، اذ الأمور الالهية لا تتناهى، الا أن هذا الشوق لما كان في عين الوصال لا يظهر فيه ألم. والآيات والأخبار في اثبات الشوق أكثر وأشهر.

المطلب الخامس

في محبة الله تعالى للعبد

وقد ورد ذلك في الشرع. الا أن المحبة في حق الله تعالى معنى مجازي لها، لأن المحبة ميل للنفس الى ما يوافقها فلا بد فيها من عدم ما يوافقها، وذلك محال في حق الله تعالى، اذ كل جمال وكمال له تعالى بالفعل، بل محبته الا الى ذاته تعالى وأفعاله وليس في الوجود شيء غير ذاته وأفعاله، فهو لا يحب الا ذاته، وما ورد من حبه لعباده فؤول أو يرجع معناه الى كشفه الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، والى تمكينه اياه من القرب منه، والى ارادته ذلك به في الأزل. فحبه لمن أحبه أزلي ان نسب الى قدرته الأزلية، وحادث بحدوث السبب المقتضى له اذا أضيف الى فعله، كما قال: «ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه» الا أنه قرب بالصفة لا بالمكان، الا أن هذا التغير على العبد لا على الرب، والعبد يتقرب بقدر قربه وكماله، واذ لا نهاية للكمال فلا نهاية في درجات القرب.

ثم أن لمحبة الله للعبد علامات، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اذا أحب الله عبداً ابتلاه، فان أحبه الحب البالغ اقتناه، قيل: وما اقتناؤه، قال: لم يترك مالاً ولا أهلاً». فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه

وبين غيره. وقال صلى الله عليه وسلم: «اذا أحب الله عبدا جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره و ينهاه».

فأخص علاماته حبه لله، فان ذلك يدل على حب الله. وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو: أن يتولى الله أمره ظاهره وباطنه سره وجهره، فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره، والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه، والمسدد لظاهره وباطنه، والجاعل همومه هماً واحداً، والمبغض الدنيا في قلبه، والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته.

وأما علامات محبة العبد لله تعالى فهي كثيرة، الا أن وجودها أعز من الكبريت الأحمر وأن كثر مدعوها.

منها: حب لقائه في دار السلام، واذا علم أنه لا يمكن بدون الموت فيحب الموت لأجله.

ومنها: حب القتل في سبيل الله. وأما من لا يحب الموت ــ كما هو حال أكثر الناس: فأما لمحبة الأهل والأولاد والمال فذلك القلب خال لا محالة عن محبة الله؛ وأما لأنه يحب هؤلاء حباً مال بكل قلبه فمحبة الله فيه ضعيفة؛ وأما لأنه لا يحبه لعدم استعداده الآن للقاء الله فذلك من امارات المحبة.

ومنها: أن يؤثر ما أحبه الله على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيتجنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرباً اليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدرجات. وأما العصيان: فانه لا يضر أصل المحبة؛ اذ قد يأكل المريض ما يضره وان علم ضرره، لكن تضعف معرفته فيعجز عن القيام بحق المحبة.

ومنها: حب ذكره لأن من أحب شيئاً أكثر ذكره، وحب كلامه وهو القرآن، وحب رسوله وكل ما ينسب اليه بل عباد الله الصالحين لأتم حبيبه، بل حب كل الخلق لأنهم خلقه، ومن أحب أحداً يحب كل ما في محلته.

وحب الأشياء المذكورة من حيث نسبتهم الى الله تعالى ليس محبة لغير الله تعالى بل محبة له تعالى.

ومنها: أن يتلذذ بالخلوة معه ومناجاته في الليالي، وبتلاوة كتابه، و يغتنم بالتهجد وهدوء الليل وصفاء الوقت.

ومنها: أن لا يأسف على ما يفوته مما سوى الله، و يعظم تأسفه على فوت ساعة عن ذكر الله وطاعته.

ومنها: أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ولا يسقط عند تعبها.

ومنها: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، شديداً على جميع أعداء الله، وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكره الله، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف.

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وادراك العظمة يوجب الهيبة كما أن الجمال يوجب المحبة.

وللمحبين مخاوف في مقام المحبة؛ فأولها: خوف الأعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه الأبعاد، الا أنه انما تعظم في قلب ألف القرب وذاقه وتنعم به. ثم أهل الخصوص ربما يحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب، والركون الى ما ظهر من مبادىء اللطف، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز عنه الا ذوو الأقدام الراسخة.

ومنها: كتمان الحب واجتناب الدعوى، والتوقي من اظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب واجلالاً له وهيبة منه وغيرة على سره، فان الحب سر من أسرار الحبيب، ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى و يزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبى، و يتعجل عليه البلوى في الدنيا، الا أن يغلب عليه سكر اضطره الى اظهاره فيعذر. وانما يقبح التظاهر بالحب لا اظهاره لما في التظاهر من الدعاوى والاستكبار. وحق الحب أن تنم على حبه الخفي أعماله وأحواله دون أقواله وأفعاله، بل ينبغي أن يظهر حبه عن غير قصد الى الاظهار، و ينبغي أن يكون قصده اطلاع الحبيب فقط. أما ارادة اطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه، الا اذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه.

المطلب السادس

في الأنس والرضا والشوق

واعلم: أن هذه الأمور كلها من ثمرات المحبة، الا أن المحب اذا تطلع الى منتهى الجمال من وراء حجاب الغيب، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال، انزعج قلبه للطلب وهاج اليه، فسمي هذه الحالة في الانزعاج شوقاً، وهو بالاضافة الى أمر غائب.

واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وغير ملتفت الى ما لم يدركه بعد، استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره انساً. وان كان نظره الى صفات العجز والاستغناء وعدم المبالاة، وخطر امكان الزوال والبعد تألم قلبه بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفاً.

وأما علامة الأنس: فضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم، واستهتاره بعذوبة الذكر، حتى أنه ان خالط الخلق يكون كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة وغائب في حضور، مخالط بالبدن منفرد بالقلب.

وبعض المتكلمين أنكروا الأنس والحب والشوق وظنوا أن هذه تشبيه، وذلك لجهلهم ان جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، وانكار ذلك من القصور. وأنكر بعضهم مقام الرضا وقال: ليس الا الصبر، وهذا أيضاً كلام قاصر يقتصر من المقامات على القشور، وهؤلاء معذورون الا أن عذرهم غير مقبول.

واعلم: ان الأنس اذا دام غلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف التغير والحجاب، فانه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال مع الله تعالى. وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس.

ومن لم يقم فيه وتشبه به في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر.

يحكى أن موسى عليه السلام خرج يستسق في سبعين الفاً من بني اسرائيل، فأوحى الله اليه: كيف أستجيب لهم وهم يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري، ارجع الى عبدي برخ وهو عبد أسود حتى أستجيب لهم، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف. وقد استقبله عبد اسود وبين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور النبوة، فسلم عليه وطلب منه الدعاء. فقال في كلامه: ما هذا من فعالك ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك: أنقصت عليك عيونك، أم عاندتك الرياح عن طاعتك، أم نفد ما عندك، أم أشتد غضبك على المذنبين، ألست كنت غفاراً قبل خلق الخطائين، وأمثال ذلك. فما برح حتى اخضلت بنو اسرائيل بالمطر، وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب. قال برخ: كيف رأيت يا موسى حين خاصمت ربي كيف أنصفني، فهم به موسى عليه السلام، فأوحى الله اليه أن برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات، وأمثال ذلك من المحبين كثيرة.

المطلب السابع
في الرضا

وهي من أعلى المقامات. وقد أنكرها طائفة لغموضها، وقالوا: ان أمكن الرضا بكل شيء من أفعال الله عز وجل فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي. وانخدع قوم فرأوا التسليم بالفجور والفسق وترك الانكار من باب الرضا، وليس كذلك.

وبيان الحق فيه: ان فضيلة الرضا ثابتة بالآيات نحو قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[١]؛ وقوله: ﴿هل جزاء الاحسان الا الاحسان﴾[٢]. ومنتهى الاحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عنه. ونحو ذلك في الآيات والأخبار الكثيرة.

---

(١) سورة المائدة، آية: ١١٩.
(٢) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

وأما حقيقته: فان الرضا مما يثمر المحبة، وذلك لوجهين: اما أن لا يحس الألم ولا يدركه لاستغراقه بمشاهدة محبوبه، واما أن يحس به و يدرك الألم ولكن يرضى به بل يرغب فيه، مريداً بعقله وان كان كارهاً بطبعه؛ كمن يجد ألم الفصد و يرضى به بل يشكر الفصاد. وقد يكون ذلك لطلب الأجر والثواب، وقد يكون لكونه رضا حبيبه مطلوباً ومراداً عنده.

وأما الفسق والفجور والمعاصي، فلها وجهان: وجه الى الله تعالى من حيث أن فعله واختياره وارادته، فيرضى به من هذا الوجه تسليماً للملك الى ملكه ورضا بما يفعله؛ ووجه الى العبد من حيث انه كسبه ووصفه، وعلامة كونه ممقوتاً عند الله تعالى فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. فالسكوت عنه وتسميته حسن خلق جهل محض.

ولا يخفى أن الرضا والكراهة ضدان لا يجتمعان من جهة واحدة ولكن من جهتين فجائز، وبهذا يتقرر كيفية الجمع بين الرضا بالقضاء وبين البغض في الله والحب في الله والتشديد والتغليظ على الكفار والمبالغة في مقتهم.

وبالجملة: الخير والشر كلاهما من الله، ومن قال: الشر ليس منه فهو جاهل، وكذا ما قال: ان كلاهما منه بوجه واحد؛ بل الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي. ووراء هذا سر القدر الذي منع عن افشائه.

وأما الدعاء للبلاء مع وجوب الرضا بالقضاء، فلأن الدعاء يستخرج منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، و يكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف، فيكون الدعاء من قبيل مباشرة الأسباب. ولا يخفى أن الرضا من باب التوكل، وقد عرفت أن لا منافاة بين مباشرة الأسباب والتوكل.

وأما الفرار من بلاد تكثر فيها المعاصي فلا يخالف الرضا، وليس ذلك فراراً من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه. وأما نهى الفرار عن بلد الطاعون، فذلك ليس لحرمة الخروج بل لئلا يهمل أمر المرضى فيهلكون هزلاً وضراً. وقد عرفت تفصيل ذلك.

الأصل السابع
في النية والأخلاص والصدق

وفيه مطالب:

المطلب الأول
في النية

أما فضيلتها: فبقوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[1]؛ والمراد بالأرادة: النية. وقال صلى الله عليه وسلم: «انما الأعمال بالنيات»، ونحو ذلك.

وأما حقيقتها: فاعلم أن النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو صفة للقلب.

واعلم: أن الانسان يوافقه بعض الأمور ويخالفه بعضها فافتقر أولاً الى معرفة الملائم أي النافع، والضار أي المنافر. فخلق الله فيه الهداية والمعرفة لأجل ذلك، وجعل لها أسباباً: وهي الحواس الظاهرة والباطنة، ثم هذه المعرفة لا تكفي في حصول أمر ان لم يشته ذلك الأمر، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة، أعني: نزوعاً في نفسه اليه وتوجهاً في قلبه اليه. ثم ذلك لا يكفيه ان عجز عن تحصيله، فخلق الله له القدرة والاعضاء للحركة، فالعضو لا يتحرك

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

الا بالقدرة، وهي تنتظر الداعية الباعثة، وهي تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة، وهي ارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ما هو موافق للغرض أما في الحال أو في المآل.

ثم أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد، وقد يكون بباعثين: اما بالاجتماع في التأثير أو تأكيد التأثير فهاهنا أقسام أربعة:

الأول: أن ينفرد الباعث الواحد؛ كهجوم السبع في الهرب، فلا نية له غيره. وهذه تسمى خالصة، والعمل بموجبها اخلاصاً. ـ

الثاني: أن يجتمع باعثان كل منهما كاف بالانتهاض لو انفرد؛ كأن يتصدق لقريبه الفقير لفقره وقرابته، و يسمى هذا مرافقة البواعث.

الثالث: أن يقوى مجموعهما على الانتهاض دون كل واحد منهما؛ كالتصدق عند الناس لغرض الثواب والثناء معاً، حتى لو كان الطالب فاسقاً لكان لا يعطيه، أو كان صالحاً وطلبه في الخلوة لا يعطيه أيضاً. و يسمى هذا الجنس مشاركة.

الرابع: أن يستقل أحدهما لو انفرد والآخر لا يستقل، ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل؛ مثل: أن يتصدق عند الناس، ولكن علم أنه لو كان خالياً لم يفتر عن عمله، ولكن صار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم. و يسمى هذا الجنس المعاونة.

واعلم: أن قوله صلى الله عليه وسلم: «نية المرء خير من عمله» قيل: معناه أن النية سر ولعمل السر فضل. وهذا صحيح، الا أنه ليس بمراد، اذ يقتضي عموم الحديث أن يكون نية ذكر الله خيراً من ذكره بقلبه. قيل: أن النية تدوم الى آخر العمر دون العمل، وهو ضعيف: اذ معناه أن العمل الكثير خير من القليل، مع أن النية لم تكن الا في لحظات فلا يكون خيراً، وقد دل عموم الحديث على خيريته. وقد يقال: ان جهة النية فقط خير من جهة العمل فقط، وهو كذلك، لكنه بعيد أن يكون مراداً، اذ العمل بلا نية لا خير فيه أصلاً، مع أن المفهوم من الحديث اشتراكهما في أصل الخيرية. والحق: أن

المراد أن لكل من النية والعمل أثراً في الخيرية، لكن أثر النية أكثر من أثر العمل.

المطلب الثاني

في تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

والأعمال ثلاثة:

أحدها: المعاصي. وهي لا تتغير عن موضوعها بالنية بل النية بها شر آخر، فالقائل به اما معاند الشرع واما جاهل عاص بجهله، اذ طلب العلم فريضة على كل مسلم؛ مثال ذلك من بنى مسجداً أو مدرسة بمال حرام وقصده الخير، أو علم علماً لمن يجعله آلة شر وفساد وقصد بذلك نشر العلم، فان استعمله هو في الفساد فهو المعاتب لا أنا، الا أنه تلبيس ابليس.

وثانيها: الطاعات. وهي بالنيات في أصل صحتها وفضل طاعتها، فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة؛ مثل: أن يعقد في المسجد للاعتكاف، ولانتظار الصلاة، ولكف الحواس عن المعاصي، وللزوم السر للفكر ودفع الشواغل الدنيوية، وللتجرد لذكر الله أو استماعه، ولافادة علم، ولأن يستفيد أخاً لله، ولأن يترك الذنوب حياء من الله تعالى في أن يفعل المعاصي في بيته.

وثالثها: المباحات. وتصير بالنية من القربات فما أعظم خسران من يغفل عنها؛ مثلاً: أن يطيب يوم الجمعة للتلذذ فهو حلال، الا أنه يحاسب عليه وينقص من نعيم الآخرة بقدره، واما اذ تطيب لدفع النتن عن عباد الله فتكون عبادة، وأن تطيب للتفاخر أو للتمكين في قلوبهم أو تودد الى النساء الأجنبيات يكون معصية.

فاياك واياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحترز من شرورها

وغرورها، وتعد الجواب يوم الحساب فان الله مطلع عليك وشهيد: ﴿ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد﴾[1].

ثم أن النية غير داخلة تحت الاختيار، فلا تظن أن قولك: نويت ادرس الله أو اتجر لله نية، بل ذلك حديث نفس أو لسان أو فكر، أو انتقال من خاطر الى خاطر. وانما النية: انبعاث النفس وتوجيهها وميلها الى ما ظهر لها أن فيه غرضها اما عاجلاً أو آجلاً. والميل اذا لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقولك: نويت أن أشتهي الطعام وأميل اليه، بل لا طريق الى اكتسابه الا باكتساب أسبابه، وذلك مما يقدر عليه وقد لا يقدر، وذلك يجري مجرى الفتوح من الله تعالى. نعم: من كان الغالب على قلبه أمر الدين يتيسر عليه احضار النية في أكثر الأحوال، وذلك أما للخوف أو للرجاء، أو لذاته تعالى وجلاله لا لأمر سواه.

المطلب الثالث

في الاخلاص

وفضيلته: كثيرة مذكورة في الآيات والأخبار. قال الله تعالى: ﴿مخلصين له الدين﴾[2]؛ وقال: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾[3]؛ وقال: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[4]. والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة.

وأما حقيقة الأخلاص: فكل من خلص عن شوب غيره سمي خالصاً، والفعل اخلاصاً. ويضاده الاشراك، فكما أن الشرك جلي وخفي كذا الاخلاص. ثم أن الاخلاص هو النية بشرط كون الباعث واحداً فقط، فمن تصدق وغرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص، وكذا من تصدق وغرضه محض الرئاء فهو مخلص أيضاً لغة، الا أن العرف يخصص الاخلاص بالأول؛ كما أن الالحاد هو الميل مطلقاً والعرف خصصه بالميل عن الحق.

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٩.
(٣) سورة الزمر، آية: ٣.
(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

ثم أن من انبعث لقصد القربة ولكن امتزج بخاطر آخر من حظوظ النفس؛ كمن صام للقربة وقصد معه الحمية، أو حج للقربة مع قصد صحة المزاج بحركة السفر، أو تعلم العلم لله مع قصد العز بين العشيرة، أو كتب مصحفاً للقربة وقصد أن يجود خطه بالمواظبة، ونحو ذلك من أمثال هذه الخطرات التي يخف معها العمل فقد خرج بهذه عن الأخلاص وتطرق اليه الشرك. ولما كان الانسان قلما ينفك عن أمثال هذه الحظوظ قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا.

ثم أن هذه البواعث: أما أن تكون مثل القربة أو أقوى منه أو أضعف. والاخلاص تجرد النية عن هذه البواعث كلها حتى يتجرد فيه قصد القربة عن باعث غيره، وهذا لا يتصور الا من محب لله تعالى، فلا يكون له هم الا الله. ومن لم يكن كذلك فباب الاخلاص كالمسدود عليه الا على الندور. فعلاج ذلك: كسر حظوظ النفس والتجرد للآخرة وغلب ذلك على القلب.

ثم ان الانسان ربما يتعب في الأعمال و يظنها خالصة وليس كذلك. فهاهنا موضع غرور قلما يسلم منه أحد وقلما يتنبه له سيا العلماء، اذ الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والاستبشار بالحمد والثناء، وهو يظن أنه غرضه نشر دين الله والنضال عن شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا الحال في الوعظ.

وربما يظن العالم أن نشره للعلم لوجه الله، حتى يظن من نفسه أنه لو قام أحد مقامه فيه لفرح به ولم يغتم. الا أنه غرور باطل اذ لا عبرة بوعد النفس قبل نزول الأمر. فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الأكثرون الا الشاذ النادر والفرد الفذ.

والكلام في تفسير الاخلاص كثير. الا أن البيان الشافي ما وقع عن سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم، اذ سئل عن الأخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت». أي: لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد الا ربك، وتستقيم في عبادتك كما أمرت. وهذه اشارة الى قطع كل ما سوى الله

عن النظر وهو الاخلاص حقاً.

ثم بيان درجات الشوائب المكدرة للاخلاص على مراتب: جلي، وخفي ضعيف مع الجلاء، وقوي مع الخفاء. واظهر مشوشاتها الرئاء، مثل أن يدخل داخل وهو يصلي فحسن صلاته لأجل أن يقول له أنه صالح، أو لا يتبع الشيطان في ذلك الا أنه يحسن ليقتدى به و يتأسى غيره به فيكون له مثل ثواب أعمالهم، أو لا يتبع الشيطان في ذلك أيضاً فيحسن في الخلوة والملأ معاً، وهذا أيضاً مكر لأن هذه التسوية من النظر الى الخلق، أو لا يتبع الشيطان في ذلك أيضاً الا أنه اذا حضر أحد وهو في صلاته يقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله وجلاله، وأستحي من أن ينظر الله الى قلبك وأنت غافل عنه، فيظنه المسكين اخلاصاً فيتبعه وهو عين المكر والخداع، فأنه لو كان اخلاصاً لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة. والفرق بين الخلوة والملأ من شوب الرئاء الخفي.

واعلم: أن العمل اذا كان محض رئاء يستحق صاحبه المقت والعقاب، واذا كان خالصاً لوجه الله يستحق الثواب. وانما الخلاف في العمل المشوب المفهوم من ظواهر الأخبار ان لا ثواب له أصلاً، وقد يعارض فيه بعض الأخبار بعضاً.

فالذي ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله: أن ننظر الى قدر الباعث الديني والباعث النفسي، فان تساويا تساقطا فالعمل لا له ولا عليه، وان قوي الباعث النفسي فالعمل غير نافع بل مقتض للعقاب وان كان أخف من عقاب رئاء لم يمتزج فيه جهة قرب أصلاً، وان قوي الباعث الديني فله ثواب بقدر زيادته، لقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾[1]؛ ولقوله تعالى: ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة﴾[2].

فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل ان كان غالباً على الرئاء حبط منه القدر الذي يساويه و يبقى له الفضل ثواباً، وان كان مغلوباً محى من الوزر ما

(١) سورة الزلزلة، آية: ٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٤٠.

كان يساويه ويبقى له الباقي وزراً، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والدواء عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر عن تأثير في انارة القلب وتسويده وفي تقريبه من الله تعالى وتبعيده.

وأما ما ورد في الأخبار من أن الرئاء محبط للعمل مطلقاً فالمراد به الرئاء المحض أو الغالب على الخير فلا تناقض أصلاً.

المطلب الرابع
في الصدق

وفضيلته مذكورة في كل طبع ولا حاجة الى التنبيه عليها.

وأما حقيقته ومراتبه؛ فاعلم: أن الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وفي النية، وفي الأرادة، وفي العزم وفي الوفاء بالعزم، وفي العمل، وفي تحقيق مقامات الدين كلها. والمتصف بالصدق في جميع ذلك يسمى صديقاً لأنه مبالغة في الصدق.

الأول؛ أعني صدق اللسان: لا يكون الا في الأخبار أو فيما يتضمنها، فالخبر أما ماض أو مستقبل، و يدخل فيه الوفاء بالوعد والخلف فيه.

وهذا الصدق الواقع في اللسان واجب على كل أحد وله كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض لأنه في حكم الكذب من حيث أنه تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه، وان صلح لغيره أيضاً الا أنه قد يترجع على الصدق في بعض المواضع: في تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجرى هؤلاء، وفي الحذر من الظلمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الغزاة. والصدق هاهنا يتحول الى النية.

والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه؛ كما في قولك: اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، فينبغي أن يكون قلبه متوجهاً اليه عند كلامه، وكذا اذا قلت: اياك نعبد، ينبغي أن لا

تشرك أحداً في عبادته.

الصدق الثاني: في النية والارادة. ويرجع ذلك الى الاخلاص، فكل صادق لا بد أن يكون مخلصاً.

الصدق الثالث: صدق العزم؛ مثل أن تقول: ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه أو شطره، أو: إن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم أظلم أحداً. فصدقها بأنه لا يكون تردد عند هذا القول في عزمه، بل يكون عزمه جزماً صادقاً، وان كان مع ميل وتردد وضعف لا يكون عزمه صادقاً قطعاً.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، اذ النفس قد تسخو في العزم والوعد اذ لا مؤونة فيه، لكن اذا آن أوان تحقيقه قد ينحل عزمه فيكذب، أو يحقق فيصدق.

الصدق الخامس: في الأعمال. وهو أن لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن الى تصديق الظاهر، مثلاً: يتخشع في الأعمال وقلبه في السوق وان لم يقصد الرئاء، فهذا هو الفرق بينه وبين الرئاء. وبالجملة: مساواة السر والعلانية من أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها: الصدق في مقامات الدين والخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والحب والتوكل ونحو ذلك، فان لهذه الأمور مبادىء هي ظهورها وغايات هي حقائقها. واذا غلب الشيء وتمت يسمى صاحبه صادقاً فيه؛ كما يقال: الخوف الصادق، والشهوة الصادقة؛ مثلاً: كل مؤمن يخاف من النار لكن صدق ذلك أن يصفر لونه ويتنغص عليه عيشه، ويستبدل بالأنس وحشة وبالراحة تعباً. فالصادق في جميع المقامات عزيز جداً.

ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض الأمور دون آخر. فان كان صادقاً في الجميع فصاحبه يسمى صديقاً، وذلك نادر عزيز الوجود جداً.

الأصل الثامن

في المحاسبة والمراقبة

واعلم، ان التاجر يستعين بشريكه فيشارطه أولاً، ثم يراقبه، ثم يحاسبه ثالثاً، ثم يعاتبه رابعاً. كذلك العقل هو التاجر في متاع الآخرة، وشريكه النفس، فعليه أن يحاسبها لأن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنوز لا تتناهى أبد الآباد. فيقول للنفس في صبيحة كل يوم: مالي بضاعة الا العمر، فهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة، وهذا اليوم الجديد قد مهلني الله تعالى فيه، وأنساني أجلي وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوماً واحداً أعمل فيه صالحاً، واحسبي أني توفيت ثم رددت، فاياك أن يضيع هذا اليوم، فان كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها. فهذه وصيته لنفسه في أوقاته.

ثم يستأنف لها وصيته في أعضائه السبعة و يسلمها اليها، فانها رعاية خادمة لها هذه التجارة، وبها تتم أعمال هذه التجارة، وان لم يحفظ هذه الأعضاء صارت أبواباً سبعة لجهنم.

أما العين: فيحفظها عن المحرمات بل عن الفضول، فأنها مسؤولة عن الفضول كالكلام، ثم يأمر بصرفها الى ما خلقت هي له.

وكذلك اللسان يحفظ من الغيبة والنميمة والكذب والبهتان وعن فضول الكلام، و يأمر له العلم والأذكار وسائر الخيرات. وكذا الأذن والبطن واليد والرجل والفرج.

ثم أن العقل بعد ما شرط للنفس هذه الأمور، ينبغي أن يراقبها عند العمل. ولا يخفى أن المراقبة من مبادىء مرتبة الاحسان ففضلها ظاهر.

وأما حقيقتها: فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته اليه، ولا يتم هذا الا بمعرفة، وهي أن الله تعالى مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد: ﴿أن ربك لبالمرصاد﴾(١).

واذا استولت على القلب هذه المعرفة لا جرم امالت القلب الى جانب ملاحضة الرقيب، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون المنقسمون الى الصديقين والى صاحب اليمين.

وأما مراقبة الصديقين: فهو مراقبة التعظيم والاجلال، بأن يستغرق قلبه في ملاحظة ذي الجلال، و يصير منكسراً تحت الهيبة فلا يبقى معه متسع للغير أصلاً، وتبقى جوارحه متطلعة عن التلفت الى المناجاة فضلاً عن الحظورات، فلا يحتاج الى مدبر في حفظها على سنن السداد. وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً، فكفاه الله سائر الهموم. ومثل هذا يغفل من الخلق كلهم، حتى لا يبصر من عنده وعينه ناظرة اليه، ولا يسمع الكلام وليس به صمم، وقد يمر على ابنه فلا يكلمه. وقال بعضهم لمن عاتبه على عدم الالتفات: اذا مررت فحركني. ومثل هذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه اذ لا يتحرك الا بما هو فيه.

وأما مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب مطالعة جمال الله على قلوبهم و بواطنهم وظواهرهم، ولكن لم يدهشهم ذلك بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال، متسعة للتلفت الى الأحوال والأعمال، وهم يجمعون بين ممارسة الأعمال والمراقبة بغلبة الحياء من الله تعالى، فيتثبت فيه، و يفر من الفضاحة في القيامة، فينظر قبل العمل انه لله تعالى فيمضيه، أو لغير الله فيستحي من الله فكيف عنه، ثم يلوم نفسه على رغبتها فيه وهمها به وميلها اليه، وعرفها سوء

---

(١) سورة الفجر، آية: ١٤.

فعلها، وانها عدوة نفسها ان لم يتداركها الله بعصمة، وعند الشروع في العمل في كيفية العمل، ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في اتمامه، و يكمل صورته، و يتعاطاه على أكمل ما يمكنه. وهذا ملازم له في جميع أحواله من حركة وسكون.

فإذا راقب الله في جميع ذلك، قدر على عبادة الله فيها بالنية ومراعاة الأدب وحسن الفعل. فراقبته في الطاعة: بالاخلاص والاكمال ومراعاة الآداب وحراستها عن الآفات. وان كان في معصية: فراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير. وان في مباح: فراقبته بمراعاة الأدب ثم شهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

ثم الناس في حق المطاعم والمشارب على أربع مراتب:

قسم ينظرون اليها بعين الاعتبار: فينظرون في عجائب صنعتها، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات بها، وكيفية تقدير الله لأسبابها، وخلق الشهوة الباعثة عليها، وخلق الآلات المسخرة للشهوة، وهذا مقام ذوي الألباب.

وقسم ينظرون بعين المقت والكراهة، و يودون لو اشتغلوا عنها الا أنهم مضطرون اليها، وهذا مقام الزاهدين.

وقسم يرون في الصنعة الصانع وصفاته، فتنفتح له أبواب الفكر، وهو أعلى المقامات، وهو من مقام العارفين والمحبين، وذلك عزيز جداً.

وقسم ينظرون اليها بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم منها، و يفرحون بما حضرهم من جملتها، و يذمون ما لا يوافق طبعهم، و يعيبون الطبيخ والطباخ مع أن من ذم شيئاً من خلق الله بغير اذنه فقد ذم الله تعالى، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر».

واذا عرفت محاسبة النفس ومراقبتها عند العمل، فاعلم: ان مراقبتها محاسبتها بعد العمل، وهي النظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان، فان فضل حاصله شكره، والا طالبه بضمانه وكلفه

تداركه في المستقبل. ثم أن رأس مالك السالك في دينه الفرائض، وربحه النوافل، وخسرانه المعاصي، وموسم التجارة جملة النهار. فليطالب نفسه الامارة بالسوء، فليحاسبها على الفرائض: ان أداها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها، وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وان ارتكب معصية اشتغل بعقابها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط.

ثم انه يحاسبها عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته لم سكت، وعن سكونه لم سكن. ثم أنه بعد محاسبتها ينبغي أن لا يهمل تقصيرها والا عسر فطامها بعد ذلك، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها على ذلك، مثلاً: اذا أكل لقمة بشبهة يعاقبها بالجوع، واذا نظر الى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر، وهكذا. واذا كنت عاقبت أهلك وعبدك وأمتك وولدك على تقصيرهم في أمر يؤدي الى ضرر في الدنيا، فلأي شيء لا تعاقب جوارحك وهي أخص بك مما ذكر مع أن ضررها في الآخرة.

ثم اذا أتممت أمر المحاسبة فعليك بالمجاهدة، بأن تعاقبها بالعقوبات، مثلاً: ان رآها تتنادى في ورد من أورادها يعاقبها بتثقيل الأوراد عليها، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات، وتداركاً لما فرط. ولعمري ما أعظم حسرة من لا يمنع نفسه أياماً قلائل عن شهوات مكدرة، ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين ما يشتهيه أبد الآباد. نعوذ بالله من ذلك.

ثم **اعلم**: أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، وأمرت بمنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذاتها، فان أهملتها شردت وجمحت، وان عاتبتها كانت نفسك هي النفس اللوامة ورجوت أن تصير مطمئنة. فلا تغفل عن وعظها ساعة، وقل لها: أنت تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أحمق وأجهل، أما تعرفين الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما، فمالك تشتغلين باللهو. أما تعلم ان كل آت قريب؛ وأيضاً: انه يأتي بغتة، ولا أقل من أن المرض يأتي بغتة، فعند ذلك لا ينفعك الندم؛ وأيضاً: ما أجرأك على

المعاصي، ان قلت: ان الله لا يراك فما أعظم كفرك، وان قلت أنه يراك فما أشد وقاحتك، وان اغتررت بمكره وفضله فالك لا تغترين بهما في أمر الدنيا وان رب الدنيا والآخرة واحد، وان ليس للانسان الا ما سعى، ولا تظنين انك اذا مت انفلت وتخلصت، هيهات هيهات، كيف تكذبين أنبياء الله، فان صدقتهم فما بالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد، فبماذا أمنت استعجال الأجل، وما الباعث لك على التسويف فتنتظرين يوماً لا يعسر فيه مخالفة الشهوات، فهذا من أقبح الجهالات اذ الجنة حفت بالمكاره، والنار بالشهوات، مع أن شجرة الشهوة تقوى وترسخ مهما طال الزمان، سيما والقوة مهما تأخرت تكون في النقصان، اذ رياضة الهرم من العناء، والقضيب اذا غلظ لا يقبل الانحناء، وان لم تصبري عن مفارقة الشهوات فتأملي أن ألم الصبر عنها أعظم أم ألم الصبر على النار.

فإذا عرفت هذا، أفلعلك لا تتوانين عن النظر لنفسك الا لضعف يقينك بيوم الحساب، وهو الكفر الخفي، واعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفاتك الى استدراجه ومكره واستغنائه عن عبادتك، وهذا هو الحمق الجلي، وانما كرم الله تعالى في تعريف أسباب الخلاص لا في أن يدفع عنك العقاب بدون التحصن بحصنه أعني التوحيد والطاعات.

ويحك! فأحسبي انك غافلة عن عذاب الله وثوابه، أما تعلمين انك تفارقين الدنيا بالموت فلا يبقى لك الا حسرة مفارقتها، تعمرها وأنت ترتحلين عنها، وتخربين آخرتك وأنت تصيرين اليها، ولعلك أسكرك حب الجاه وحاصله ميل قلوب الناس اليك، فأحسبي ان كل من على وجه الأرض سجدوا لك وأطاعوك، فما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود، فأفٍ لدنيا ربما يفضلك فيها المجوس واليهود، فيا حسرة عليك، ان الموتى يتمنون الرجعة الى الدنيا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم، وأنت في أمنيتهم غافل عنها ذاهل.

أفتظنين أنهم دعوا الى الآخرة وانت من الخالدين، هيهات هيهات، ساء ما تظنين، ما أنت الا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، أما تخافين اذا بلغت النفس منك على التراق، وتبشري بالعذاب، فهل ينفعك حينئذ الندم،

أو يقبل منك الحزن، أو يرحم منك البكاء.

فأنظري بأي قلب تقفين بين يدي الله وبأي لسان تجيبين، وأعدى للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، فلا مذهب ولا مطلب، ولا مستغاث ولا مهرب، ولا ملجأ ولا منجى الا اليه، لا معول الا عليه، قد ضاقت بك السبل وانقطعت منك الحيل، ولا يجيب دعوة المضطر الا هو، ولا يغيث الطالب الملتهف الا هو، فقولي: يا رحمن يا عظيم يا كريم، أنا البائس الفقير والضعيف الحقير، هنا مقام المتضرع المسكين والذليل المهين، فعجل أغاثتي وفرجي، وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك وشراب مغفرتك، وأرزقني قوة عصمتك ولذة النظر الى وجهك الكريم، يا أرحم الراحمين.

الأصل التاسع
في التفكير

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
في فضيلة التفكر

وذلك شائع في كتاب الله تعالى والأخبار بحيث لا حاجة الى تفصيل ذلك.

وأما حقيقته: فهي احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، وهذا أما بالتقليد أو بالفكر من عند نفسه، أما بالعلم والممارسة وهو الأكثر، أو بنور الهي في الفطرة كما كان للأنبياء عليهم السلام وذلك عزيز جداً. وقد يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً، وقد يخص اسم الاعتبار للعبور عن المعرفتين الى معرفة ثالثة، واسم التذكر بالعثور على معرفتين فقط، وكل متفكر متذكر بدون عكس كلي.

ثم أن ثمرة الفكر العلم، ويحصل منه في القلب تغير يسمى حالاً، ويلزم هذا الحال تغير في الجوارح يسمى عملاً. فالفكر هو مفتاح الخيرات كلها، ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

فهاهنا خمس درجات:

أولها: التذكر. وهو احضار المعرفتين في القلب، مثل: أن تعرف أن

الأبقى بالايثار، وان الآخرة أبقى.

وثانيها: التفكر. وهو طلب المعرفة الثالثة منها.

الثالث: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها، وهي قولك: الآخرة أولى بالايثار.

الرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول المعرفة؛ مثل: تغير القلب الى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب ما تجدد له من الحال؛ وذلك مثل: تغير أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والاقبال على الآخرة.

المطلب الثاني
في مجاري الفكر

اعلم: أن الفكر اما في أمر الدين أو في غيره، وانما غرضنا هو الأول. والمراد منه المعاملة بين العبد والرب، فجميع أفكار العبد أما أن يتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، أو بالمعبود وصفاته وأفعاله سبحانه.

وما يتعلق بالعبد: أما أن يكون نظراً فيما هو محبوب عند الرب، أو فيما هو مكروه، ولا حاجة الى الفكر في غيرهما.

وما يتعلق بالمعبود: وأما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وأما أن يكون نظراً في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما.

وانما انحصر الفكر فيما ذكر، لأن المحب اذا استغرق في حبه لم يتسع فكره الا ملاحظة محبوبه، وملاحظة أحوال من نفسه يرضى محبوبه أو يسخطه عليه، ولا متسع لغيرهما، **فصار محل التفكر أربعة أقسام.**

القسم الأول: التفكر في صفات نفسه وأفعاله ليميز المحبوب منها عن المكروه. **وطريق الفكر في أمور ثلاثة:**

الأول: أنه هل هو مكروه عند الله أم لا اذ ربما يشتبه جهة الكراهة.

الثاني: جهة الاحتراز عن المكروه.

الثالث: أن المكروه أما في الحال فيتركه، أو في الاستقبال فيحترز عنه، أو فارقه فيما مضى من الأحوال فيتداركه. وقسم المحبوب أيضاً يتقسم الى هذه الأمور.

ثم هذه الأمور: أما طاعات أو معاص ظاهرة أما في الأعضاء السبعة، أو غيرها أو صفات منجيات ومهلكات باطنة.

النوع الأول: المعاصي. فيحاسبها صبيحة كل يوم أعضاءه السبعة بل جميع بدنه، فان كان ملابساً في الحال يتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم، أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد لها بالاحتراز والتباعد، فيفتش كل عضو عضو على الانفراد.

النوع الثاني: الطاعات. فينظر أولا في الفرائض كيف أكملها أو جبر نقصانها بالنوافل، ثم يفتش كل عضو فيتفكر في صرفه فيما يحبه الله.

النوع الثالث: في الصفات المهلكة التي محلها القلب؛ من الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب، فيتأمل في كل ما ذكرنا في المهلكات، فيمتحن قلبه و يستشهد بالعلامات ولا يلتفت الى ادعاء النفس التنزه عنها، ثم يباشر علاجه، وقد ذكرناه في موضعه.

النوع الرابع: في الصفات المنجيات؛ من التوبة والندم والصبر والشكر ونحو ذلك، وليتفكر كل يوم في قلبه وما الذي يعوذه من هذه الصفات المقربة الى الله، فإذا افتقر الى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها الا علوم، وان العلوم لا يثمرها الا الأفكار.

وأنفع الأمور في هذا قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، و يردد الآية التي هو محتاج الى التفكر فيها من بعد أخرى ولو مائة مرة، و يتوقف في التأمل ولو ليلة واحدة، فان تحت كل كلمة من القرآن أسراراً لا تحصى؛ وكذلك مطالعة الأحاديث، لأنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم، وكل كلمة من

كلماته بحر من بحار الحكمة، ولو تأمله العالم حق تأمله لم ينقطع فيه نظره طول عمره. فهذا هو طريق التفكر.

و ينبغي أن يكون المبتدىء مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يصل الى المقامات الشريفة. وهذا التفكر مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب، بل هو محجوب عن مطلب الصديقين: وهو التفكر في جلال الله وجماله، واستغراقه فيه بحيث يفنى عن نفسه، والفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين. والذي ذكرناه هو عمارة الباطن وهو وسيلة الى الفناء. و يروى أن الحسين بن منصور لقي الخواص وهو يدور في البودي، فقال: فيما أنت فقال: أصحح حالي في التوكل، فقال: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد.

وبالجملة: تعمير الظاهر بالعبادات لا يثمر الا الجنة دون المجالسة، وتعمير الباطن بالصفات المنجيات يثمر الاستعداد للقاء. وأصل السعادة هو الفناء لأنه يثمر اللقاء.

واعلم: أن كل مريد ينبغي أن يكتب الصفات المهلكات والمنجيات في جريدة، فمها كفى واحدة من المهلكات خط عليها و يدع التفكر فيها، و يشكر الله تعالى على كفايته اياها وتنزيه قلبه منها، وهكذا حتى يفعل على الجميع. وكذا يفعل بالمنجيات والمهلكات والمنجيات وان كانت لا تقبل الاحصاء الا أنه يكفي من كل منها عشرة، وهي الأصول وهي التي ذكرناها في هذا الكتاب فتدبر فيها. وهكذا حال المعاصي والطاعات الظاهرة، الا أن كل صنف من الناس مبتلون بنوع من المعاصي فيكفي في حقهم التفكر في ذلك النوع.

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه.

وفيه مقامان:

الأول: الفكر في ذاته وصفاته، فان أكثر العقول لا تحتمله، بل القدر الممكن من معرفته أنه تعالى مقدس عن الزمان والمكان، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه، قد حير عقول أقوام حتى

أنكروه، وذلك لأن العقول تتحير فيه، فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون، ثم أنهم لا يطيقون نور الشمس أصلاً. وعقول الصديقين كأبصار الانسان حتى يطيقون النظر ولا يطيقون دوامه، ولذلك قيل: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته.

المقام الثاني: وهو النظر الى أفعاله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه، انها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه، وعلى كمال علمه وحكمته، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فننظر الى صفاته من آثار صفاته، فالنظر اليها في مصنوعاته كالنظر الى الشمس في الطست، فالأفعال واسطة في مشاهدة الفاعل، فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله».

فالتفكر في خلق الله: أما فيما لا نعرف أصلها فلا يمكن أصلاً، قال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[1].

وأما فيما نعرف أصلها وجملتها ولا نعرف تفصيلها: فيمكننا أن نفكر في تفصيلها.

ثم هو أما غير مدرك بالبصر؛ كالملائكة والجن والشياطين، فمجال الفكر فيه مما يغمض، فلنعدل الى الأقرب الى الافهام؛ وهي المدركات بالبصر: كالسموات السبع والأرضين وما بينها، وكذا الموجودات في السموات والموجودات على الأرض.

ولكل هذه الأجناس أنواع، ولكل نوع منها أقسام، وللأقسام أصناف، ولكل منها صفات وهيآت ومعان ظاهرة وباطنة. وجميع ذلك مجال للفكر، فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض الا وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية دال على جلاله وكبريائه.

---

(١) سورة يس، آية: ٣٦.

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لألي الألباب﴾[1]. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كثير من المواضع في القرآن قوله: «ومن آياته» كل ذلك مشتمل على العبر الكثيرة للمتفكرين.

ولنضرب لك مثالاً أمكنك أن تحذو البواقي حذوه؛ وهو: أن أقرب الأشياء اليك نفسك، وهي مخلوقة من نطفة هي قطرة من الماء، أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب، ولأخراجها من صلب الرجل الى رحم المرأة ألق الألفة والمحبة بينهما، وقادهما بسلسلة الشهوة الى الاجتماع.

ثم خلق من النطفة مولوداً بأن جعلها علقة وهي بيضاء مشرة، ثم جعلها مضغة، ثم مع تشابه أجزائها قسمها الى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم، ثم ركب من هذه الأعضاء الظاهرة والباطنة، فقدر الرأس ومشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع، وقسمها بالأنامل، ووضع فيها الأظفار. ثم ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة، والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص بعمل مخصوص.

ثم لو ذهبنا نفصل أحوال كل منها لفنيت القوى وتحيرت النهى؛ مثلاً: أبصار العين وطبقاتها، وكذلك كيفية السمع والذوق، لدهشت من عجائبها العقول. فانظر الى الحدقة وهي مقدار عدسة كيف تحيط بنصف السماء دفعة مع عظمها، وانظر الى السمع: كيف يدرك الأصوات، ويميز بين الحروف، ويفرق بين جهات الصوت مع أن المدخل واحد، الى غير ذلك من العجائب.

مثلاً: مجموع عظام البدن مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً سوى العظام الصغار، ولو تكلمنا في كل واحد منها لم نقض من حكمة واحد منها عشر أعشارها فضلاً عن سائر حكمها.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩.

الا أن الذي ذكرناه من النظر في الحكم لسنا نريد به نظر الطبيب في حكم خواص هذه الأجزاء لينكشف وجه العلاج فيها ان زال عن مزاجها الطبيعي، بل نريد به نظر أهل البصائر الذين يستدلون بحكمها على جلالة خلقها ومصورها، فشتان بين النظرين. فسبحانه سبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه.

فهذه نبذ من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، وأنت غافل عنها مشغول ببطنك وفرجك، لا تعرف من نفسك الا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل، ويشاركك في ذلك البهائم والسباع كلهم. وانما خاصية الانسان معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس، اذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين، ويحشر في زمرة النبيين والصديقين، مقرباً من حضرة رب العالمين، نسأل الله أن يجنبنا مزلة اقدام الجهال.

الأصل العاشر
في ذكر الموت والبعث والنشور
المطلب الأول
في ذكر الموت والترغيب فيه

اعلم: أن المنهمك في الدنيا والمحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، وأن ذكر به كرهه ونفر منه.

ثم الناس: أما منهمك فلا يذكر الموت وان ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، وأما تائب فأنه يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف، فيفي بتمام التوبة، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل تمام توبته وقبل اصلاح الزاد. ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»: ان هذا لا يكره لقاء الله بل يكره فوت لقائه؛ وأما عارف يذكر الموت دائماً لأنه موعد لقائه لحبيبه، وهذا في الأكثر يستبطيء الموت ليتخلص من دار العاصين و ينتقل الى جوار رب العالمين.

وههنا درجة هي مقام التسليم والرضا وهي أعلى من الكل، وصاحبها يفوض أمره الى مولاه، فلا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل يكون الأحب اليه ما هو الأحب لمولاه.

وعلى كل حال في ذكر الموت ثواب، حتى آن المنهمك ربما يستفيد به التجافي عن الدنيا لأنه يكدر عليه اللذات والشهوات، فيكون من أسباب

النجاة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أكثروا من ذكر هادم اللذات»؛ أي: نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلون على الله.

وما ورد في فضيلة الموت من الأخبار والآثار كثيرة جداً فلا نطول بذكرها الكلام.

الا أن ذكر الموت انما يؤثر في القلوب لذكرهم اياه بظاهر قلوبهم وعذبة ألسنتهم، والا فلو ذكروه بقلب فارغ عن الشهوات، واذعان لحال الأموات، والى ما صار حاله بعد طول فرحهم وسرورهم بالدنيا وغرورهم بالجاه والمال والأعوان والأنصار، حتى أيتموا أولادهم وأرملوا نساءهم، وتصرف بأموالهم أيدي الناس بل أيدي أعدائهم، وكيف خلت منهم مجالسهم وبيوتهم، وانقطعت آثارهم، ونسيت أسماؤهم، لأثر ذكر الموت في قلوبهم وجعلوه نصب أعينهم.

ثم إن قصر الأمل ديدن العلماء وأرباب القلوب، وفضيلته مذكورة في الأخبار والآثار، وأنه أصل كل سعادة، **الا أن القلوب مبتلون بطول الأمل، وعمت هذه البلية الكافة.**

وله سببان:

أحدهما: الجهل حيث يستبعد الموت مع الصحة والشباب، ولا يدري أن مشايخ البلد أقل من شبانه، وليس ذلك الا لكثرة الموت في الشبان، والصبيان أكثر، فالى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وخمسمائة شاب.

وأيضاً: لا يدري أن الموت وان لم يكن فجأة لكن المرض فجأة غير بعيد، ذلك لأن الوهم لا يعرف ما لم يألفه، فالانسان ألف موت غيره ولم ير موت نفسه أصلاً فلذلك يستبعده. الا أن من له عقل يعرف أن الأجل قدر، والانسان كل يوم وساعة في القرب اليه، وكل آت قريب.

وثانيها: حب الدنيا، فانه أنس بشهواتها فيشق عليه مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، ويتمنى ما يوافق هواه، فلا يزال يتوهم البقاء في

الدنيا وأسبابه الى أن يتقرر عنده ذلك ولا يخطر بباله الموت، واذا خطر بباله الموت يسوفه الى الكهولة، ثم الى الشيخوخة، ثم الى الرجوع من سفره، أو الى الفراغ من تدبير ولده، أو جهاز ابنته، أو قهر عدوه، الى غير ذلك من الأماني الباطلة.

وهكذا يفضي به شغل الى شغل آخر أو الى أشغال، الى أن تختطفه المنية في وقت لا يحبه، فعند ذلك تعظم حسرته وندمه حين لا ينفعه الندم، والمسكين يقدر أنه سيفرغ من أمور الدنيا، وهيهات ما فرغ منها الا من أطرحها، ولا يزيد التسويف الا قوة ورسوخاً، وأكثر حزن أهل النار وصياحهم من سوف، يقولون: واحزناه من سوف. ونعم ما قيل:

ولست بمدرك ما فات مني   بلهف ولا بليت ولا لو أني

اذا عرفت أن طول الأمل التسويف وسببه الجهل المحض أو حب الدنيا، فاعلم: ان علاجه ان كان من الجهل يندفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر، وسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة؛ وان كان من حب الدنيا فعلاجه شد يد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه، ولا علاج له الا الايمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب. ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فان حب الخطير يمحو عن القلب حب الحقير، فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت الى الدنيا كلها وان أعطى ملك الأرض من المشرق الى المغرب. فمن كان مستعداً الى الآخرة فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً.

هذا ثم أن الناس متفاوتون في طول الأمل:

منهم: من يأمل البقاء و يشتهي ذلك أبداً، قال الله تعالى: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٦.

ومنهم: من يأمل الى سنة، وانما يستعد في الشتاء للصيف وفي الصيف للشتاء، واذا جمع ما يكفي لسنة أشتغل بالعبادة.

ومنهم: من يأمل الصيف فقط أو الشتاء فقط فلا يستعد في أحدهما للآخر.

ومنهم: من يرجع أمله الى يوم وليلة فلا يستعد لغد. قال عيسى عليه السلام: لا تهموا برفق غد فان يكن غد من آجالكم فيأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم، وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم.

ومنهم: من لا يجاوز أمله ساعته، كما قال صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الله اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح».

ومنهم: من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة. كان صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة و يقول لعلي لا أبلغه».

ومنهم: من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به وهو ينتظره، و يصلى صلاته صلاة مودع، كما روى أنه صلى الله عليه وسلم سأل معاذاً عن حقيقة ايمانه، قال: ما خطوت خطوة الا ظننت أني لا أتبعها أخرى.

وهذه مراتب الناس في الأمل، وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر و يوم، ودرجاتها عند الله تعالى أيضاً متفاوتة، فان الله لا يظلم مثقال ذرة: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾[1].

ثم ان علامة قصر الأمل المبادرة في العمل قبل حلول الأجل، ومن ادعى قصر الأمل وهو يعتني بالدنيا فهو كاذب في دعواه. فالتوفيق عامة أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فيستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فان عاش الى المساء شكر الله على طاعته، وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل

---

(١) سورة الزلزلة، آية: ٨.

استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله الى الصباح، وهكذا اذا أصبح.

ولا يتيسر هذا الا لمن قلبه فرغ عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا اذا مات سعد وغنم، وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة، فالموت له سعادة والحياة له مزيد.

المطلب الثاني
دواهي الموت

وهي أربع:
الأولى في شدة النزاع:

واعلم: أن الألم المصيب للبدن انما يدرك بواسطة الروح، واذا وصل الألم الى نفس الروح فلا تسل عن كربه وألمه، حتى قالوا: أنه أشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض، وانما لا يقدر على الصياح مع شدة ألمه لزيادة الكرب، حيث قهر كل قوة وضعف كل جارحة فلم يبق له قوة الاستغاثة، أما العقل فقد غشيه وشوشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها، حتى ان بقيت فيه قوة سمعت له خواراً وغرغرة من صدره وحلقه، حتى يبلغ بها الى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، وتغلق دونه أبواب التوبة، وتحيط به الحسرة والندامة، قال صلى الله عليه وسلم: «تقبل توبة العبد ما لم يغرغر». فلا تسل عن عظم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم هون على محمد سكرات الموت». والناس انما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به حتى أن الأنبياء لمعرفتهم به يخافون من ذلك خوفاً شديداً.

الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع منه على القلب، فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته، الا أن المطيع يراه في أحسن صورة وأجملها.

الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت باحدى البشريين: اما أبشر يا عدو الله بالنار، أو أبشر يا ولي الله بالجنة.

الرابعة: خوف سوء الخاتمة وقد مر ذكره في الخوف والرجاء فلا نعيده.

ثم المستحب للمحتضر عند الموت هو صوت الهدوء والسكون، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادتين، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أرقبوا الميت عند ثلاث: اذا رشح جبينه وذرفت عيناه ويبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به، واذا غط غطيط المجنون واحمر لونه وأزبدت شفتاه فهي من عذاب الله قد نطق به، وأما انطلاق لسانه بالشهادة فهي من علامة الخير». الا أن الملقن لا يلح عليه اذ ربما يستثقله لشدة حاله ويخشى أن يفضي الى سوء الخاتمة.

وأما معنى هذه الكلمة: أن يموت الرجل وليس في قلبه غير الله، فان لم يبق غير الله تعالى فهو في النعيم الدائم، وان كان مشغوفاً بالدنيا ومتأسفاً على لذاتها كان أمره الى خطر المشيئة، فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى الا أن يتفضل الله بالقبول، وانما الواجب على العبد حسن الظن في ذلك الوقت.

المطلب الثالث

في حقيقة الموت وأحوال الميت

اعلم: ان للناس في أحوال الموت ظنوناً فاسدة؛ ظن بعضهم أنه هو العدم ولا حشر ولا نشر بل الموتى كالنبات وجفافها، هذا رأي الملاحدة وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر. وظن بعضهم أنه ينعدم بالموت ولا يتنعم ولا يتألم الى أن يعاد في وقت الحشر. وقال آخرون: الأرواح باقية وهي المثاب والمعاقب دون الأجساد وأنها لا تبعث ولا تحشر أصلاً. وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق.

والحق الذي نطقت به الآيات والأخبار أن الموت تغير حال لا عدم وان الروح باقية بعد مفارقة الجسد اما معذبة أو منعمة، ومعنى مفارقتها للجسد: انقطاع تصرفها في الجسد، ولا يبعد أن تعاد الى الجسد في القبر قدر ما يدرك اللذة والألم، ولا يبعد أن يؤخر الى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على عباده.

وأما نفسه وروحه فهي باقية، نعم تغير حالها من وجهين:

أحدهما: أنه بالموت سلب عن أمواله وأهله وسائر أحواله الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، أما سعيد الحال أو شقي البال.

وثانيها: أنه ينكشف له ما يضره أو ما ينفعه حسناته وسيئاته والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا؛ فاما يتنعم أو يتألم، وهذه أحوال تهجم عليه قبل الدفن.

وأما بعد الدفن فقد ترد روحه أما لنوع آخر من العذاب أو لنوع آخر من الثواب، ولو لم يكن له الا الخزي والافتضاح وهتك السر عند الموت لكفاه، ولكن وراءه أمور أخر لا يكاد يعبر عنه الألسنة.

وأما أن كان من أهل التنعيم ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالاضافة اليه كالسجن والمضيق، و يكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم، فتح له باب الى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرف أقصاه، فيه أنواع الأشجار والأزهار والطيور والثمار فلا يشتهي العودة الى السجن المظلم.

وفي أحوال القبر ثلاثة مقامات:

أحدها؛ وهو الأسلم: أن يصدق بوجودها ولا يفتش عن كيفيتها.

وثانيها: أن يفتش عن أحواله، و يقيس ذلك الى نائم يرى في نومه ما يخافه أو يتنعم منه، ولا يقف عليه من يجاوره ولو في فراش واحد، ولا يخفى أن النوم أخو الموت.

وثالثها: أن الحية لا تعذب بل السم، وكذا السم لا يعذب بل المؤلم أثره،

وخلق الأمور بدون أسبابها العادية جائزة في قدرة الله تعالى، وكذا الحال في اللذة.

ثم أهل البصائر قد حكموا بامكان هذه الطرق الثلاث فصدق بهم تقليد، وأما من يعرف ذلك تحقيقاً فيعز على بسيطة الأرض. وعليك أن لا تشتغل بمعرفة تفاصيل العذاب، بل اللائق بك الاشتغال بالتدبير في دفع العذاب.

وان أردت معرفة كيفيات العذاب فعليك بمطالعة الأخبار والآثار، اذ معرفة ذلك في هذا العالم لا يمكن الا بمشاهدة بعين أخرى غير عين تشاهد بها عالم الملك والشهادة، ولكن الانسان جعل غشاوة على عينه التي يشاهد بها عالم الغيب من شهواته وأشغاله الدنيوية، فصار لا يبصر بها. ولما كانت أعين الأنبياء منقشعة عن الغشاوة شاهدوا تلك الأحوال وأخبروا بها، فتتبع ذلك من أخبارهم ومن هذه المشاهدة حال الرؤيا التي نراها في المنام اذ كثير منها توجد صحيحة.

والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علم المكاشفة وهي أمر عظيم، لكن الناس غافلون عنها.

واجمال القول فيها: ان النفس كالمرآة، ولوح الله تعالى مكتوب فيها جميع ما كان وما سيكون، لا على لوح من خشب أو حديد بل على شيء مجرد، لا بكتابة معهودة بل بنقش معنوي. ثم الحواس اذا تعطلت بالنوم ارتفع حجاب النفس، اذ لا حجاب لها غير الالتفات الى المحسوسات، فحينئذ يتقابل اللوح ومرآة النفس فتنتقش فيها صور اللوح. الا أن النوم لا يمنع الخيال عن عمله فيحاكي المعاني بمثال يقارب ذلك المعنى، فالمعبر انما يعبر عن الصورة الخيالية الى المعنى المأخوذ من اللوح فيحكم بجلية الحال.

ولنذكر مثالاً من التعبير: وهو أن رجلاً ذكر لابن سيرين: رأيت كان بيدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء، فقال: أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان، فقال: صدقت.

فانظر ان روح الختم المنع والنفس لما انتقش حاله من اللوح بأنه يمنع

الناس من الأكل والشرب والجماع، ولكن الخيال الف لمنع عند الختم بالخاتم مثله به في الصورة الخيالية، ثم لا يبقى في الحفظ الا هذه الصورة، فالمعبر اذا سمعها يعرف المناسبة بين هذه الصورة ومعناها فيعبر عن الصورة الى المعنى. فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا التي لا تنحصر عجائبه.

ثم أن الانسان عند موته ينكشف له الحجاب، فيرى نفسه اما محفوفة بالمخازي والانكال والفضائح، نعوذ بالله من ذلك، أو مكنوفاً بنعيم مقيم أو بملك كبير لا آخر له. فاعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر بباله قط ولا اختلج به ضميره، ولو لم يكن للعاقل هم ولا غم الا التفكر في خطر تلك الحالة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر.

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وأسبابنا ودابنا بل بأعضائنا واسماعنا وأبصارنا مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك، ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول له ما قال لسيد البشر صلى الله عليه وسلم: «أحبب ما أحببت فانك مفارقه، وعش ما شئت فانك ميت، واعمل ما شئت فانك مجزى به». فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له صلى الله عليه وسلم بعين اليقين، كان في الدنيا كعابر سبيل: لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً، ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً، نعم قال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً؛ ولكن صاحبكم خليل الرحمن». فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه، وان حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعاً لخليل ولا حبيب. وقد قال صلى الله عليه وسلم لأمته: «ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله». وانما أمته من اتبعه، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة، فانه ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله، وبقدر ما سلكت سبيله اتبعته، وبقدر ما اتبعته صرت من أمته؛ وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله فيهم: ﴿ فأما

من طغى وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى﴾[1].

ولو أنصفت من نفسك وانت من حين تصبح الى حين تمسى لا تسعى الا في الحظوظ العاجلة لم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه، فان ظننت هذا فأنت مصر على ما فعلت فما أبعد ظنك وما أبرد طمعك: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾[2]. فنرجو الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه، و يتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده، انه جواد كريم رؤوف رحيم.

---

(١) سورة النازعات، آية: ٣٧.

(٢) سورة القلم، آية: ٣٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس موضوعات الجزء الثالث

و يتضمن

الطرف الثاني من الرسالة

في العلوم المتعلقة بالتصفية التي هي ثمرة العمل بالعلم

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفهارس العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

فهرس العلوم

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
علم تلفيق الأحاديث	٣٤٣:٢
علم التواريخ	٢٤٦-٢٣١:١
علم الجبر والمقابلة	٣٧٠-٣٦٩:١
علم الجدل	٣٧٠-٣٦٩:١ ٥٥٥:٢
علم الجراحة	٣٢٥:١
علم جر الأثقال	٣٥٣:١
علم جغرافيا	٣٦١:١
علم الجناس	٢٥٩-٢٥٦:١
علم الجواهر	٣٠٩:١
علم الحجامة	٣٢٦:١
علم الحروف النورانية والظلمانية	٥٤٨:٢
علم الحساب	٣٥٠-٣٤٩:١
علم حساب التحت والميل	٣٦٨:١
علم حساب الخطأين	٣٧٠:١
علم حساب الدرهم والدينار	٣٧١:١
علم حساب العقود	٣٧٣-٣٧٢:١
علم حساب الفرائض	٣٧١:١
علم حساب النجوم	٣٥٨:١
علم حساب الهواء	٣٧٢-٣٧١:١
علم حكايات الصالحين	٢٥٩:١
علم الحيل الساسانية	٣٤٥:١
علم الحيوان	٣٠٨:١
علم خط العروض	٩٣:١
علم خط المصحف	٩٣:١
علم الخلاف	٣٨٤-٣٨٣:١ ٥٥٦:٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
علم عقود الأبنية	١:٣٥٢
علم علل القراءات	٢:٣٣٥
علم عمل الاسطرلاب	١:٣٦٦
علم العيافة	١:٣٢٨
علم غرائب لغات الحديث	٢:٣٤٣
علم الغنج	١:٣٧٧
علم الفال	١:٣٣٧
علم الفتاوى	٢:٥٥٧
علم الفراسة	١:٣٠٩
علم الفرائض	٢:٥٥٦
علم الفصد	١:٣٢٥
علم فضيلة الأذكار والتلاوة والأوراد	٣:١٠٥
علم الفقه	٢:١٧٣
علم الفلاحة	١:٣٠٨
علم الفلقطيرات	١:٣٤٤
علم القراءة	٢:٦
علم القرانات	١:٣٦٣
علم قرض الشعر	١:٢٠٤
علم القرعة	١:٣٣٨
علم القضاء	٢:٥٥٧
علم قلع الآثار من الثياب	١:٣٢٤
علم القوافي	١:٢٠٢
علم قوانين الكتابة	١:٨٨
علم قود العساكر والجيوش	١:٣٩٤
علم قوس قزح	١:٣٠٩
علم قيافة الأثر	١:٣٢٨
علم قيافة البشر	١:٣٢٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
علم الوضع	١:١٢٥
علم وضع الاسطرلاب	١:٣٦٦
علم وضع ربع الدائرة المجيب والمقنطرات	١:٣٦٦
علم وظائف الأمامة	٣:٤٣
علم وقائع الأمم ورسومهم	١:٢٤٧

فهرس أسماء الكتب

«أ»

«ب»

«ت»

«ث»

«ج»

«ح»

«خ»

«د»

« ذ »

« ر »

«ز»

«س»

«ش»

«ص»

«ض»

«ط»

«ظ»

«ع»

«غ»

«ف»

«ق»

«ك»

«ل»

«ن»

«هـ»

«و»

«ي»

فهارس الأعلام والمؤلفين

«آ»

«أ»

«ب»

«ت»

(ث)

«ج»

«ح»

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

«ف»

«ق»

(ك)

«ل»

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهارس الأماكن والبقاع

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)